طبعةٌ جَديدةٌ مُصحَّحةٌ ومنقَّحةٌ ومُخرجةُ الأحَاديثِ
ومُزودةٌ بخرَائطَ ومُصوَّراتٍ مُلونةٍ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

عَرْضُ وَقَائِعٍ وَتَحْلِيلُ أَحْدَاثٍ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

تأليف
د. علي محمد محمد الصلابي

دار الأصالة

السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث - دروس وعبر

دار الأصالة

رقم الإصدار	144
الترقيم الدولي	978-625-8336-03-0
اسم الكتاب	السيرة النبوية
اسم المؤلف	د. علي محمد محمد الصلابي
رئيس التحرير	رجب صونگول
الإخراج الفني	Artsan Ajans info@artsanajans.com
الطبعة	الحادية عشرة – 2021 م / 1441 هـ (دار ابن كثير). الثانية عشرة – حزيران 2022م / ذو القعدة 1443 (دار الأصالة).
دار النشر	**Asalet Eğitim Danışmanlık** Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret Sertifika No: 40687 Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd. Yümni İş Merkezi, No: 16B/16 Vezneciler Fatih, İSTANBUL-TÜRKİYE Tel: +90 212 511 85 47 www.asaletyayinlari.com.tr asalet@asaletyayinlari.com.tr
	Step Ajans Matbaa Ltd. Şti. Sertifika No: 45522 Göztepe Mh. Bosna Cd. No: 11 Bağcılar/İSTANBUL

Copyright © 2022

دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2022

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

تصميم الغلاف والإخراج الفني

ARTSAN
advertising agency

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

عَرْضُ وَقَائِعٍ وَتَحْلِيلُ أَحْدَاثٍ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

طبعةٌ جديدةٌ مُصحَّحةٌ ومنقَّحةٌ ومُخرجةُ الأحَاديثِ
ومُزودةٌ بخرَائط ومُصوَّراتٍ مُلونةٍ

تأليف

د. عليّ محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

الجزءُ الأَوَّلُ

دار الأصالة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

يا ربِّ ! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك . لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرِّضا .

أمَّا بعد :

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهمِّيَّتها لكلِّ مسلمٍ ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ ؛ من أهمِّها : الاقتداء برسول الله ﷺ من خلال معرفة شخصيَّته ﷺ ، وأعماله ، وأقواله ، وتقريراته ، وتكسب المسلم محبَّة الرَّسول ﷺ ، وتُنمِّيها ، وتُباركها ، وتعرفه بحياة الصَّحابة الكرام ، الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ ، فتدعوه تلك الدِّراسة لمحبَّتهم ، والسَّير على نهجهم ، واتباع سبيلهم ، كما أنَّ السِّيرة النَّبويَّة توضح للمسلم حياة الرسول ﷺ بدقائقها ، وتفاصيلها منذ ولادته ؛ وحتى موته ، مروراً بطفولته ، وشبابه ، ودعوته ، وجهاده ، وصبره ، وانتصاره على عدوِّه ، وتُظهِر بوضوحٍ : أنَّه كان زَوْجاً ، وأباً ، وقائداً ، ومحارباً ، وحاكماً ، وسياسيّاً ،

ومُرَبِّياً ، وداعيةً ، وزاهداً ، وقاضياً ، وعلى هذا فكلُّ مسلم يجد بُغيته فيها[(١)] .

فالدَّاعية يجد له في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدَّعوة ، ومراحلها المتسلسلة ، ويتعرَّف على الوسائل المناسبة لكلِّ مرحلةٍ من مراحلها ، فيستفيد منها في اتصاله بالنَّاس ، ودعوتهم للإسلام ، ويستشعر الجهد العظيم الَّذي بذله رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله ، وكيفية التَّصرُّف أمام العوائق ، والعقبات ، والصعوبات ، وما هو الموقف الصَّحيح أمام الشَّدائد ، والفتن .

ويجد المربِّي في سيرته ﷺ دروساً نبويَّـةً في التَّربية ، والتأثير على النَّاس بشكلٍ عامٍّ ، وعلى أصحابه الَّذين ربَّاهم على يده ، وكلأهم بعنايته ، فأخرج منهم جيلاً قرآنياً فريداً ، وكوَّن منهم أمَّةً هي خير أمةٍ أخرجت للنَّاس ؛ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وأقام بهم دولةً نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها .

ويجد القائد المحارب في سيرته ﷺ نظاماً محكماً ، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش ، والقبائل ، والشعوب ، والأمَّة ، فيجد نماذج في التخطيط واضحةً ، ودقَّة في التنفيذ بيِّنةً ، وحرصاً على تجسيد مبادىء العدل ، وإقامة قواعد الشُّورى بين الجند والأمراء ، والرَّاعي والرَّعيَّة .

ويتعلَّم منها السِّياسيُّ كيف كان ﷺ يتعامل مع أشدِّ خصومه السياسيين المنحرفين ، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، الذي أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ، والبغض لرسول الله ﷺ ، وكيف كان يحيك المؤامرات ، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله ﷺ ؛ لإضعافه ، وتنفير النَّاس منه ، وكيف عامله رسول الله ﷺ ، وصبر عليه ، وعلى حقده ، حتَّى ظهرت حقيقته للناس ؛ فنبذوه جميعاً ، حتى أقرب الناس إليه ، وكرهوه ، والتفُّوا حول قيادة النبيِّ ﷺ .

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى ؛ لأنَّها هي المفسِّرة للقرآن الكريم في الجانب العملي ، ففيها أسباب النزول ، وتفسيرٌ لكثير من الآيات ، فتعينهم على فهمها ، والاستنباط منها ، ومعايشة أحداثها ، فيستخرجون أحكامها الشَّرعيَّة ، وأصول السِّياسة الشَّرعيَّة ، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة ، وبها يدركون الناسخ ، والمنسوخ ، وغير ذلك من العلوم ، وبذلك يتذوَّقون روح الإسلام ، ومقاصده السامية . ويجد فيها الزُّهاد معاني الزُّهد ، وحقيقته ، ومقصده ، ويستقي منها التُّجار مقاصد التجارة ، وأنظمتها ، وطرقها ، ويتعلَّم منها المبتلوْن أسمى درجات الصَّبر والثَّبات ، فتقوى

---

(١) انظر : السِّيرة النبويَّة دراسة وتحليل ، د . محمد أبو فارس ، ص (٥٠) .

عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام ، وتعظم ثقتهم بالله ـ عزَّ وجل ـ ويوقنون بأنَّ العاقبة لِلمتَّقين[(١)] .

وتتعلَّم منها الأمَّة الآداب الرَّفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السَّليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسموَّ الرُّوح ، وطهارة القلب ، وحبَّ الجهاد في سبيل الله ، وطلب الشهاد في سبيله ، ولهذا قال عليُّ بن الحسن : «كنا نُعَلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعَلَّم السُّورة من القرآن» ، وقال الواقديُّ : سمعت محمَّد بن عبد الله يقول : سمعت عمِّي الزُّهريَّ يقول : «في علم المغازي علم الآخرة والدُّنيا» .

وقال إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص : «كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله ﷺ ، يعدُّها علينا ، ويقول : هذه مآثر آبائكم ، فلا تضيِّعوا ذكرها»[(٢)] .

إنَّ دراسة الهدي النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزِّ الإسلام والمسلمين ، من خلال معرفة عوامل النهوض ، وأسباب السُّقوط ، ويتعرَّفون على فقه النَّبيِّ ﷺ في تربية الأفراد ، وبناء الجماعة المسلمة ، وإحياء المجتمع ، وإقامة الدَّولة ، فيرى المسلم حركة النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة ، والمراحل الَّتي مرَّ بها ، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة ، وتخطيطه الدَّقيق في الهجرة إلى الحبشة ، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدَّعوة ، وعرضه لها على القبائل في المواسم ، وتدرجه في دعوة الأنصار ، ثمَّ هجرته المباركة إلى المدينة .

إنَّ من تأمَّل حادثة الهجرة ، ورأى دقَّة التَّخطيط ، ودقَّة التنفيذ ، من ابتدائها إلى انتهائها ، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها ، يدرك أنَّ التخطيط المسدَّد بالوحي في حياة الرَّسول ﷺ قائمٌ ، وأن التخطيط جزء من السُّنَّة ، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كلِّ ما طولب به المُسْلمُ .

إنَّ المسلم يتعلَّم من المنهاج النبويِّ كلَّ فنون إدارة الصِّراع ، والبراعة في إدارة كل مرحلة ، وفي الانتقال من مستوى إلى آخر ، وكيف واجه القوى المضادَّة من اليهود ، والمنافقين ، والكفار ، والنَّصارى ، وكيف تغلَّب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى ، والالتزام بشروط النَّصر ، وأسبابه ، الَّتي أرشد إليها المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم .

إنَّ قناعتي راسخةٌ في أن التمكين لهذه الأمَّة ، وإعادة مجدها ، وعزَّتها ، وتحكيم شرع ربِّها منوطٌ بمتابعة الهدي النَّبويِّ . قال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور : ٥٤] .

(١) انظر : مدخل لدراسة السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، ص (١٤) .
(٢) انظر : البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢) .

فقد بيّنت الآية الكريمة: أنَّ طريق التَّمكين في متابعة النبيِّ ﷺ، فقد جاءت الآيات الَّتي بعدها تتحدَّث عن التمكين، وتوضِّح شروطه قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

وقد قام رسول الله ﷺ، وأصحابه بتحقيق شروط التمكين، فحقَّقوا الإيمان بكلِّ معانيه، وجميع أركانه، ومارسوا العمل الصَّالح بكلِّ أنواعه، وحرصوا على كلِّ أنواع الخير، وصنوف البرِّ، وعبدوا الله عبوديةً شاملةً في كلِّ شؤون حياتهم، وحاربوا الشِّرك بكلِّ أشكاله، وأنواعه، وخفاياه، وأخذوا بأسباب التمكين المادِّيَّة والمعنوية على مستوى الأفراد والجماعة، حتى أقاموا دولتهم في المدينة، ومن ثَمَّ نشروا دين الله بين الشُّعوب والأمم.

إنَّ تأخُّر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض نتيجةٌ منطقيَّةٌ لقومٍ نَسوا رسالتهم، وحطُّوا من مكانتها، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأوهام في مجال العلم، والعمل على حدٍّ سواءٍ، وأهملوا السُّنن الرَّبَّانيَّة، وظنُّوا أنَّ التَّمكين قد يكون بالأماني، والأحلام.

إنَّ هذا الضعف الإيماني، والجفاف الروحي، والتخبُّط الفكري، والقلق النَّفسي، والشَّتات الذِّهني، والانحطاط الخلقي؛ الَّذي أصاب المسلمين سببه تلك الفجوة الكبيرة الَّتي حدثت بين الأمَّة، والقرآن الكريم، والهدي النبويِّ الشريف، وعصر الخلفاء الراشدين، والنقاط المشرقة المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدِّثين باسم الإسلام، وهم بعيدون كلَّ البعد عن القرآن الكريم، والهدي النبويِّ، وسيرة الخلفاء الرَّاشدين، وأدخلوا في خطابهم مصطلحات جديدة، ومفاهيم مائعة؛ نتيجة الهزيمة النفسيَّة أمام الحضارة الغربيَّة، وأصبحوا يتلاعبون بالألفاظ، ويَلوونها، ويتحدَّثون السَّاعات الطوال، ويدبِّجون المقالات، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة، والكون، والإنسان، ومناهج التغيير، ولا نكاد نلمس في حديثهم، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التَّمكين، وسنن الله في تغيير الشعوب، وبناء الدول، من خلال القرآن الكريم، والمنهاج النبويِّ الشَّريف، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم، أو تقصِّياً لتاريخنا المجيد، فيخرجون لنا عوامل النُّهوض عند نور الدِّين محمود، أو صلاح الدِّين، أو يوسف بن تاشفين، أو محمود الغزنوي، أو محمَّد الفاتح، ممن ساروا على الهدي النبويِّ في تربية الأمة، وإقامة الدَّولة، بل يستدلُّون ببعض الساسة، أو المفكرين، والمثقفين من الشرق أو الغرب ممَّن هم أبعد الناس عن الوحي السَّماوي، والمنهج الرَّبانيِّ.

وأنا لست ممَّن يعارض الاستفادة من تجارب الشُّعوب والأمم؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن ، فهو أحق بها أنَّى وجدها ، ولكنِّي ضدُّ الَّذين يجهلون ، أو يتجاهلون المنهاج الرَّبانيَّ ، وينسون ذاكرة الأمَّة التَّاريخيَّة المليئة بالدُّروس ، والعبر ، والعظات ، ثمَّ بعد ذلك يحرصون على أن يتصدَّروا قيادة المسلمين بأهوائهم ، وآرائهم البعيدة عن نور القرآن الكريم ، والهدي النَّبويِّ الشَّريف.

وما أجمل ما قاله ابنُ القيِّم رحمه الله :

والله ما خوفي الذُّنوب فإنَّها ... لعلى طريق العَفْو والغُفْرانِ
لكنَّما أخشى انسلاخ القَلْبِ عَنْ ... تحكيم هذا الوَحْي والقُرْآنِ
ورضاً بآراء الرِّجال وَخَرْصِهَا ... لا كان ذاك بمنَّةِ الرَّحمٰنِ

إنَّنا في أشدِّ الحاجة لمعرفة المنهاج النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، ومعرفة سنن الله في الشُّعوب ، والأمم ، والدُّول ، وكيف تعامل معها النَّبيُّ ﷺ عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس ، حتَّى نتلمَّس من هديه ﷺ الطريق الصَّحيح في دعوتنا ، والتمكين لديننا ، ونقيم بنياننا على منهجيَّةٍ سليمةٍ ، مستمدَّةٍ أصولها وفروعها من كتاب ربنا وسنَّة نبيِّنا ﷺ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

لقد كان فقه النَّبيِّ ﷺ في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة شاملاً ، ومتكاملاً ، ومتوازناً ، وخاضعاً لسنن الله في المجتمعات ، وإحياء الشعوب ، وبناء الدُّول ، فتعامل ﷺ مع هذه السُّنن في غاية الحكمة ، وقمَّة الذَّكاء ، كسنَّة التَّدرُّج ، والتَّدافع ، والابتلاء ، والأخذ بالأسباب ، وتغيير النفوس.

وغرسَ ﷺ في نفوس أصحابه المنهج الرَّبَّانيَّ ، وما يحمله من مفاهيم ، وقيم ، وعقائد وتصوُّراتٍ صحيحةٍ عن الله ، والإنسان ، والكون ، والحياة ، والجنَّة ، والنَّار ، والقضاء ، والقدر ، وكان الصَّحابة رضي الله عنهم يتأثَّرون بمنهجه في التربية غاية التأثُّر ، ويحرصون كلَّ الحرص على الالتزام بتوجيهاته ، فكان الغائب إذا حضر من غيبته؛ يسأل أصحابه عمَّا رأوا من أحوال النَّبيِّ ﷺ ، وعن تعليمه ، وإرشاده ، وعمَّا نزل من الوحي حال غيبته ، وكانوا يتَّبعون خُطَى الرَّسول ﷺ ، في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم ، بل كانوا يلقِّنونه أبناءهم ، ومن حولهم.

ففي هذا الكتاب تقصٍّ لأحداث السِّيرة ، فيتحدَّث الباحث عن أحوال العالم قبل البعثة ، والحضارات السَّائدة ، والأحوال السِّياسيَّة ، والاقتصاديّة ، والاجتماعيَّة ، والخلقيَّة في زمن البعثة ، وعن الأحداث المهمَّة قبل المولد النَّبويِّ ، وعن نزول الوحي ، ومراحل الدَّعوة ، والبناء التَّصوُّريِّ ، والأخلاقيِّ ، والتَّعبُّديِّ في العهد المكِّيِّ ، وعن أساليب المشركين في

محاربة الدَّعوة ، وعن الهجرة إلى الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء والمعراج ، والطَّواف على القبائل ، ومواكب الخير ، وطلائع النُّور من أهل يثرب ، والهجرة النبوية ، ويقف الكتاب بالقارئ على الأحداث ، مستخرجاً منها الدُّروس ، والعبر ، والفوائد؛ لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر . وتحدَّث الباحث عن حياة النَّبيِّ ﷺ ، منذ دخوله المدينة إلى وفاته ، وبيَّن فقه النَّبيِّ ﷺ في إرساء دعائم المجتمع ، وتربيته ، ووسائله في بناء الدَّولة ، ومحاربة أعدائها في الدَّاخل ، والخارج ، فيقف الباحث على فقه النَّبيِّ ﷺ في سياسة المجتمع ، ومعاهدته مع أهل الكتاب التي سُجِّلت في الوثيقة ، وحركته الجهادية ، ومعالجته الاقتصادية ، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدِّين؛ الَّذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظَّلام ، وعبادة الأوثان ، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال .

وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السِّيرة النَّبويَّة في أذهان الكثير من أبناء الأمَّة ، ففي العقود الماضية ظهرت دراساتٌ رائعةٌ في مجال السيرة النَّبوية ، وكتب الله لها قبولاً ، وانتشاراً ، كالرَّحيق المختوم ، لصفي الدِّين المباركفوري ، وفقه السِّيرة للغزالي ، وفقه السيرة النبوية للبوطي ، والسِّيرة النبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، وكانت هذه الدراسات مختصرةً ، ولم تكن شاملةً لأحداث السِّيرة ، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب ، وظنَّ بعض طلاَّبها : أنَّ من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسِّيرة النَّبويَّة ، وهذا خطأٌ فادحٌ ، وخطيرٌ في حقِّ السِّيرة النَّبويَّة المشرَّفة ، وقد تسرَّب هذا الأمر إلى بعض أئمَّة المساجد ، وبعض قيادات الحركات الإسلاميَّة ، وانعكس ذلك على الأتباع ، فحدث تصوُّرٌ ناقصٌ للسِّيرة عند كثيرٍ من الناس ، وقد حذَّر الشَّيخ محمَّدُ الغزاليُّ من خطورة هذا التصوُّر في نهاية كتابه (فقه السِّيرة) ، فقال : قد تظنُّ : أنَّك درست حياة محمَّد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأٌ بالغٌ . إنَّك لن تفقه السِّيرة حقّاً إلا إذا درست القرآنَ الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيِّ الإسلام ﷺ(١) .

ففي هذه الدِّراسة يجد القارئ تسليط الأضواء على البعد القرآنيِّ ، الَّذي له علاقةٌ بالسِّيرة النبويَّة ، كغزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني النَّضير ، وصلح الحديبية ، وغزوة تبوك ، فبيَّن الباحث الدُّروس ، والعبر ، وسنن الله في النَّصر ، والهزيمة ، وكيف عالج القرآن الكريم أمراض النُّفوس من خلال الأحداث والوقائع .

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة تُعطي كلَّ جيلٍ ما يفيده في مسيرة الحياة ، وهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ومُصلحةٌ كذلك .

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القرآن الكريم ، والسِّيرة النَّبويَّة ، فكانت من

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص (٤٧٦) .

أفضل أيَّام حياتي ، فنسيت أثناء البحث غربتي ، وهجرتي ، وتفاعلت مع الدُّرر ، والكنوز ، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر ، فعملت على جمعها ، وترتيبها ، وتنسيقها وتنظيمها ، حتى تكون في متناول أبناء أُمَّتي العظيمة ، وقد لاحظت التَّفاوت في ذكر الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، والأحداث بين كُتَّاب السِّيرة قديماً ، وحديثاً ، فأحياناً يذكر ابن هشام ما لم يذكره الذَّهبيُّ ، ويذكر ابن كثيرٍ ما لم يذكره أصحاب السُّنن ، هذا قديماً .

أمَّا حديثاً ، فقد ذكر السِّباعي ما لم يذكره الغزاليُّ ، وذكر البوطيُّ ما لم يذكره الغضبان ، وهكذا وجدت في التَّفسير ، وشروح الحديث ، كفتح الباري ، وشرح النَّوويِّ ، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كُتَّابُ السِّيرة قديماً ، ولا حديثاً ، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، ونَظَمْتُها في عِقْدٍ جميلٍ يسهل الاطِّلاع عليه ، ويساعد القارئ على تناول تلك الثِّمار اليانعة بكلِّ سهولةٍ .

إنَّ في هذا الكتاب حصيلةً علميَّةً ، وأفكاراً عمليَّة جُمِعت من مئات المراجع ، والمصادر ، وقد أسهم في إخراج هذا الجهد إخوةٌ كثيرون من ليبيا ، واليمن ، والعراق ، ومصر ، والسُّودان ، والسُّعودية ، والإمارات ، وقطر ، وبلاد الشام بالحوار ، والنقاش ، والنَّدوات ، فأفاد بعضهم بالإشارة إلى بعض المراجع ، والمصادر النَّادرة ، وعمل على توفيرها ، والبعض الآخر أرشد إلى ضرورة التَّركيز على السُّنن ، والقوانين الَّتي تعامل معها النَّبيُّ ﷺ في حركته المباركة كقانون الفرصة في فتح خيبر ، وفتح مكَّة ، وأشار البعض إلى أهمِّيَّة ربط السِّيرة التَّاريخية بالسِّيرة السُّلوكيَّة، والسِّيرة المعبَّر عنها بحديثٍ شريفٍ ، أو فعلٍ نبويٍّ ، والسِّيرة كما يقرِّرها القرآن الكريم ببعضها، ومزجها في منهجيَّةٍ متناسقةٍ تمدُّ أبناء الجيل بعلمٍ غزيرٍ، وفقهٍ عميقٍ ، وعاطفةٍ جيَّاشةٍ ، فهي غذاءٌ للرُّوح ، وتثقيفٌ للعقول ، وحياةٌ للقلوب ، وصفاء للنُّفوس .

إنَّ السِّيرة النَّبويّة غنيَّةٌ في كلِّ جانبٍ من الجوانب التي تحتاج إليها مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فالنَّبيُّ ﷺ لم يلتحق بالرَّفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرةً لمن يريد أن يقتدي به في الدَّعوة ، والتَّربية ، والثَّقافة ، والتَّعليم ، والجهاد ، وكلِّ شؤون الحياة ، كما أنَّ التعمُّق في سيرة الرَّسول ﷺ يساعد القارئ على التَّعرُّف على الرَّصيد الخلقيِّ الكبير ؛ الذي تميَّزَ به رسول الله ﷺ عن كلِّ البشر ، والتَّعرُّف على صفاته الحميدة ﷺ الَّتي عاش بها في دنيا النَّاس ، فيرى من خلال سيرته مصداق قول الشَّاعر :

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وَأَفْضَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

هذا ولا أدَّعي أنِّي أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، فشأن رسول الله ﷺ كبيرٌ ، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفسٍ أرقَّ ، وفقهٍ أدقَّ ، وذكاءٍ أكبر ، وإيمانٍ أعمق ، كما أنَّني لا أدَّعي

لعملي هذا العصمة ، أو الكمال ، فهذا شأن الرُّسل ، والأنبياء ، ومن ظنَّ أنَّه قد أحاط بالعلم ؛ فقد جهل نفسه ، وصدق الله العظيم ؛ إذ يقول : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

فالعلم بحرٌ لا شاطئ له ، وما أصدقَ الشَّاعرَ ؛ إذ يقول :

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

يقول الثَّعالبيُّ : لا يكتب أحد كتاباً فيبيت عنده ليلةً إلا أحبَّ في غيرها أن يزيد فيه ، أو ينقص منه ، هذا في ليلةٍ ، فكيف في سنين معدودةٍ؟!

وقال العماد الأصبهانيُّ : إنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا ؛ لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا ؛ لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا ؛ لكان أفضل ، ولو ترك هذا ؛ لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جملة البشر .

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني ؛ الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب . قال الشاعر :

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ القَوْمِ ذَا عَرَجِ مؤمِّلاً جَبْرَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لربِّ السَّمَا في النَّاسِ مِنْ فَرَجِ
وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأرضِ مُنْقَطِعاً فَمَا عَلَى عَرِجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

(سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك)

الفقير إلى عفو ربِّه ، ومغفرته ، ورضوانه

عليّ محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

الفصل الأوَّل
أهمُّ الأحداث التَّاريخيَّة من قبل البعثة
حتَّى نزول الوحي

المبحث الأوَّل
الحضارات السَّائدة قبل البعثة ودياناتها

أوَّلًا : الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة[1] :

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ، وكانت تحكم هذه البلاد : اليونان ، والبلقان ، وآسية ، وسورية ، وفلسطين ، وحوض البحر المتوسط بأسره ، ومصر ، وكلَّ إفريقية الشَّمالية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية ، وكانت دولةً ظالمةً ، مارست الظُّلم ، والجور ، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها ، وضاعفت عليها الضَّرائب ، وكثرت الاضطرابات ، والثَّورات ، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو ، واللَّعب ، والطَّرب ، والتَّرف .

أمَّا مصر ؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ ، والاستبداد السِّياسيِّ ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً ، يحسنون حلبها ، ويسيئون علفها .

وأمَّا سورية ؛ فقد كثرت فيهم المظالم ، والرَّقيق ، ولا يعتمدون في قيادة الشَّعب إلا على القوَّة ، والقهر الشَّديد ، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة ، وكان الحكم حكم الغرباء ، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة ، ولا يشعر بأيِّ عطفٍ على الشَّعب المحكوم ، وكثيراً ما كان السُّوريون يبيعون أبناءهم ؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[2] .

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض ، والاضطراب ، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالآتي :

---

(١) ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٣٧) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣١ .

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم ، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشاغل بها ، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ ، ولكن نرى هؤلاء ـ في جانب آخر ـ حريصين أشدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع اللَّهو ، واللعب ، والطَّرب ، والتَّرف ، فقد كانت هناك ميادينُ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتَّسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ ، يتفرَّجون فيها على مصارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً ، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين : لون أزرق، ولون أخضر ، لقد كانوا يحبُّون الجمال ، ويعشقون العنف ، والهمجيَّة ، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان ، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون ، والتَّرف ، والمؤامرات ، والمجاملات الزَّائدة ، والقبائح ، والعادات السَّيئة»(١) .

ثانياً : الإمبراطوريَّة الفارسيَّة :

كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسيَّة ، أو الكِسرويَّة ، وهي أكبر ، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّرقيَّة ، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة ؛ كالزرادشتية ، والمانِيَّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي ، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شيءٍ ، ممَّا أدَّى إلى انتشار ثورات الفلاحين ، وتزايد النَّهابين للقصور ، فكانوا يقبضون ، أو يأسرون النِّساء ، ويستولون على الأملاك ، والعقارات ، فأصبحت الأرض ، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل .

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضعون أنفسهم فوق بني آدم ؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة ، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك ، يتصرَّفون فيها ببذخٍ لا يُتصوَّر ، ويعيشون عيش البهائم ، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة ، والمعابد فراراً من الضَّرائب ، والخدمة العسكريَّة ، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت سنين طوالاً بين الفرس والرُّوم ، لا مصلحة للشُّعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ، ورغبات الملوك(٢) .

ثالثاً : الهند :

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً ، وخُلقاً ، واجتماعاً ، وسياسةً ذلك

---

(١) المصدر السَّابق ، ص ٣١ .

(٢) انظر : السِّيرة النبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

العهد الَّذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السَّادس الميلادي ، فانتشرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصبحت مقدسةً!! وكانت المرأة لا قيمة لها ، ولا عصمة ، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها ، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّعب ، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ ، وأصبح هو القانون العامَّ في المجتمع ، ودستور حياتهم ، وكانت الهند في حالة فوضى ، وتمزُّقٍ ، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطَّاحنة ، وكانت بعيدةً عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضحةٍ ، يسيطر عليها التزمُّت ، والتَّطرُّف في العادات ، والتقاليد ، والتفاوت الطَّبقيُّ ، والتَّعصب الدَّمويُّ ، والسُّلاليُّ.

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ ـ أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند ـ عن عصرٍ سابق لدخول الإسلام في الهند ، فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط ، والتَّدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح ، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ ، والتَّصوير ، والفنون الجميلة الأخرى»(١).

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً ، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات ، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ ، وأسرةٍ ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى ، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام ، والشراب ، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ، ومدينتهم»(٢).

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الكهنة ، ورجال الدِّين ، وهم «البراهمة».

٢ ـ رجال الحرب ، والجنديَّة ، وهم «شترى».

٣ ـ رجال الفلاحة ، والتجارة ، وهم «ويش».

٤ ـ رجال الخدمة ، وهم «شودر»وهم أحطُّ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون ـ كما يعتقدون ـ من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث ، وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ، ومكانةً لا يشاركهم فيها أحدٌ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه ، وأعماله ، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه ، ولا يعاقب بالقتل

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩.

في حالٍ من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدَّخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمياً، أو يمسُّوه بيدهم، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[(١)].

رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم، تعيش مرحلةً من أحطِّ مراحل التَّاريخ البشريِّ في شؤونها الدِّينيَّة، والاقتصاديَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، وتعاني فوضى عامَّةً في جميع شؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهليُّ على العقائد، والأفكار، والتصوُّرات، والنُّفوس، وأصبح الجهل، والهوى، والانحلال، والفجور، والتجبُّر، والتعسُّف من أبرز ملامح المنهج الجاهليِّ المهيمن على دنيا النَّاس[(٢)].

وضاع تأثير الدِّيانات السَّماوية على الحياة ـ أو كاد ـ بسبب ما أصابها من التَّبديل، والتَّحريف، والتَّغيير، الَّذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصِّراعات العقديَّة النَّظريَّة التي كان سببها دخول الأفكار البشريَّة، والتَّصوُّرات الفاسدة على هذه الأديان، حتَّى أدَّى إلى الحروب الطَّاحنة بينهم، ومَنْ بقي منهم لم يحرِّف، ولم يبدِّل قليلٌ نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس، ودخل في حياة الخلوة، والعزلة طمعاً في النَّجاة بنفسه يأساً من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف، والأجناس البشريَّة، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء، ففي الجانب الدِّينيِّ تجد النَّاس إمَّا أنَّهم ارتدُّوا عن الدِّين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الدِّيانات السَّماوية، وتبديلها. وأمَّا في الجانب التَّشريعي، فإنَّ النَّاس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريّاً، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل، وتخالف الفطرة.

وتزعَّم هذا الفساد زعماءُ الشُّعوب، والأمم من القادة، والرُّهبان، والقساوسة والدَّهاقين، والملوك، وأصبح العالم في ظلامٍ دامسٍ، وليلٍ بهيمٍ، وانحرافٍ عظيمٍ عن منهج الله سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعةً من الطُّقوس، والتَّقاليد لا روح فيها، ولا حياة، وتأثَّرت بعقائد الأمم الَّتي جاورتها، واحتكَّت بها، والَّتي وقعت تحت سيطرتها، فأخذت كثيراً من عاداتها، وتقاليدها الوثنيَّة الجاهليَّة، وقد اعترف بذلك مؤرِّخو اليهود[(٣)]؛ فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إنَّ سخط الأنبياء، وغضبهم على عبادة الأوثان تدلُّ على أنَّ عبادة

---

(١) راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠)، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص ٣٨.

(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون، لسلمان العودة، ص ٥٧.

(٣) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي الحسن النَّدويِّ، ص ٢٠.

الأوثان ، والآلهة كانت قد تسرَّبت إلى نفوس الإسرائيليين ، ولم تستأصل شأفتها إلى أيَّام رجوعهم من الجلاء ، والنَّفي في بابلٍ ، وقد اعتقدوا معتقداتٍ خرافيَّة ، وشركيَّة . إنَّ التُّلمود أيضاً يشهد بأنَّ الوثنيَّة كانت فيها جاذبيةٌ خاصَّةٌ لليهود»(١) .

إنَّ المجتمع اليهوديَّ قبل البعثة المحمَّدية ، قد وصل إلى الانحطاط العقليِّ ، وفساد الذَّوق الدِّينيِّ ، فإذا طالعت تلمود بابل ؛ الذي يبالغ اليهود في تقديسه ، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السَّادس المسيحيِّ ؛ فستجد فيه نماذج غريبةً من خفَّة العقل ، وسخف القول ، والاجتراء على الله ، والعبث بالحقائق ، والتَّلاعب بالدِّين ، والعقل(٢) .

أمَّا المسيحيَّة : فقد امتُحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، واختفى نور التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء السُّحب الكثيفة(٣) ، واندلعت الحروب بين النَّصارى في الشَّام ، والعراق ، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح ، وطبيعته ، وتحوَّلت البيوت ، والمدارس ، والكنائس إلى معسكراتٍ متنافسةٍ ، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحيِّ في مظاهر مختلفةٍ ، وألوانٍ شتَّى ، فقد جاء في تاريخ المسيحيَّة في ضوء العلم المعاصر :

«لقد انتهت الوثنيَّة ، ولكنَّها لم تلق إبادةً كاملةً ، بل إنَّها تغلغلت في النُّفوس ، واستمرَّ كلُّ شيءٍ فيها باسم المسيحيَّة ، وفي ستارها ؛ فالَّذين تجرَّدوا عن آلهتهم ، وأبطالهم ، وتخلَّوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ، ولقَّبوه بأوصاف الآلهة ، ثمَّ صنعوا له تمثالاً ، وهكذا انتقل هذا الشِّرك ، وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشُّهداء المحلِّيِّين ، ولم ينته هذا القرن حتَّى عمَّت فيه عبادة الشُّهداء ، والأولياء ، وتكوَّنت عقيدةٌ جديدةٌ ، وهي : أنَّ الأولياء يحملون صفات الألوهيَّة ، وصار هؤلاء الأولياء والقدِّيسون خلقاً وسيطاً بين الله ، والإنسان ، يحمل صفة الألوهيَّة على أساس عقائد الأريسيين ، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى ، وورعها وطُهرها ، وغُيِّرت أسماء الأعياد الوثنيَّة بأسماء جديدةٍ ، حتَّى تحوَّل في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشَّمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»(٤) .

وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكيَّة الجديدة : «تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركَّبٌ من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحيِّ ، وفكره منذ ربع القرن الرَّابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميَّةٍ مُسَلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيِّ ، ولم يُرفع السِّتار عن

---

(١) انظر : السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٠ .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢١ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٣ .

تطوُّر عقيدة التَّثليث ، وسرِّها إلا في المنتصف الثَّاني للقرن التَّاسع عشر الميلادي»[١] .

لقد اندلعت الحروب بين النَّصارى ، وكفَّر بعضُهم بعضاً ، وقتل بعضُهم بعضاً ، وانشغل النَّصارى ببعضهم عن محاربة الفساد ، وإصلاح الحال ، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشريَّة[٢] .

وأمَّا المجوس: فقد عُرفوا من قديم الزَّمان بعبادة العناصر الطَّبيعيَّة ، وأعظمها النَّار ، وانتشرت بيوت النَّار في طول البلاد وعرضها ، وعكفوا على عبادتها ، وبنوا لها معابد، وهياكل، وكانت لها آدابٌ، وشرائع دقيقةٌ داخل المعابد ، أمَّا خارجها؛ فكان أتباعها أحراراً يسيرون على هواهم ، لا فرق بينهم وبين من لا دين له .

ويصف المؤرِّخ الدَّنماركيُّ طبقة رؤساء الدِّين ، ووظائفهم عند المجوس في كتابه : «إيران في عهد السَّاسانيِّين» فيقول : «كان واجباً على هؤلاء الموظَّفين أن يعبدوا الشَّمس أربع مرَّات في اليوم ، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر ، والنَّار ، والماء ، وكانوا مكلَّفين بأدعيةٍ خاصَّةٍ ، عند النَّوم ، والانتباه ، والاغتسال ، ولبس الزنَّار ، والأكل ، والعطس ، وحلق الشَّعر ، وتقليم الأظفار ، وقضاء الحاجة ، وإيقاد السُّرج ، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النَّار تنطفئ ، وألا تمسَّ النَّار ، والماء بعضها بعضاً ، وألا يَدَعوا المعدن يصدأ؛ لأنَّ المعادن عندهم مقدَّسةٌ»[٣] .

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النَّار ، وقد حلف «يزدجرد» ـ آخر ملوك السّاسانيين ـ بالشَّمس مرَّةً ، وقال : «أحلف بالشَّمس التي هي الإِلٰه الأكبر» . وقد دان المجوس بالثَّنويَّة في كلِّ عصرٍ ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، فآمنوا بإلٰهين اثنين : أحدهما : النُّور ، أو إلٰه الخير ، والثاني : الظَّلام ، أو إلٰه الشَّرِّ[٤] .

أمَّا البوذيَّة: في الهند وآسية الوسطى : فقد تحوَّلت إلى وثنيةٍ تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت ، ونزلت[٥] .

أمَّا البرهميَّة: دين الهند الأصليُّ ، فقد امتازت بكثرة المعبودات ، والآلهة ، وقد بلغت أوْجها في القرن السَّادس الميلاديِّ ، ولاشكَّ : أنَّ الديانة الهندوكيَّة ، والبوذيَّة وثنيتان سواءٌ بسواءٍ .

---

(١) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، مقال التثليث (١٤/ ٣٩٥) .
(٢) انظر : فتح العرب لمصر ، تعريب محمَّد أبو حديد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨ .
(٣) إيران في عهد السَّاسانيِّين ، ص ١٥٥ ، نقلاً عن السِّيرة النبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٧ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٧ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨ .

لقد كانت الدُّنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقةً في الوثنيَّة ، وكأنما كانت المسيحيَّة ، واليهوديَّة ، والبوذيَّة ، والبرهميَّة ، تتسابق في تعظيم الأوثان ، وتقديسها ، وكانت كخيل رهانٍ تجري في حلبةٍ واحدةٍ .

وقد أشار النَّبيُّ ﷺ إلى عموم هذا الفساد ، لجميع الأجناس ، وجميع المجالات بلا استثناء ، فقد قال ﷺ ذات يوم في خطبته : «ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علَّمني يومي هذا؛ كلُّ مالٍ نَحَلْتُه(١) عبداً حلالٌ ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء(٢) كلَّهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم(٣) ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لمْ أُنْزِلْ به سلطاناً ، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم : عربهم ، وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»(٤) .

والحديث يشير إلى انحراف البشريَّة في جوانب متعددةٍ ، كالشِّرك بالله ، ونبذ شريعته ، وفساد المصلحين من حملة الأديان السَّماويَّة ، وممالأتهم للقوم على ضلالهم(٥) .

* * *

---

(١) نحلته : أعطيته . (النِّهاية في غريب الحديث : ٥/ ٢٩) .
(٢) حنفاء : مائلين عن الشِّرك إلى التَّوحيد . (النِّهاية : ١/ ٤٥١) .
(٣) اجتالتهم : ذهبت بهم . (النِّهاية : ١/ ٣١٦) .
(٤) مسلمٌ ، كتاب الجنَّة ، باب الصِّفات الَّتي يعرف بها في الدُّنيا أهل الجنَّة وأهل النَّار ، رقم (٢٨٦٥) .
(٥) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ٥٩ .

المبحث الثَّاني
أصول العرب وحضارتهم

أولاً : أصول العرب :

قسَّم المؤرِّخون أصول العرب ثلاثة أقسامٍ ، بحسب السُّلالات الَّتي انحدروا[١] منها :

١ ـ العرب البائدة :

وهي قبائل عاد ، وثمود ، والعمالقة ، وطسم ، وجديس ، وأُمَيْم ، وجُرهم وحضرموت ، ومن يتَّصل بهم ، وهذه دَرَسَتْ معالمها ، واضمحلَّت من الوجود قبل الإسلام ، وكان لهم ملوكٌ امتدَّ ملكهم إلى الشَّام ، ومصر[٢] .

٢ ـ العرب العاربة :

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان ، وتسمَّى بالعرب القحطانيَّة[٣] ، ويعرفون بعرب الجنوب[٤] ، ومنهم ملوك اليمن ، ومملكة معين ، وسبأ ، وحِمْيَر[٥] .

٣ ـ العرب العدنانيَّة :

نسبة إلى عدنان ، الَّذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ وهم المعروفون بالعرب المستعربة ، أي الَّذين دخل عليهم دمٌ ليس عربياً ، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدَّم وبين العرب ، وأصبحت اللُّغة العربيَّة لسان المزيج الجديد .

وهؤلاء هم عرب الشمال ، موطنهم الأصلي مكَّة ، وهم : إسماعيل عليه السلام وأبناؤه ، والجراهمة هم الذين تعلَّم منهم إسماعيل عليه السلام العربيَّة ، وصاهرهم ، ونشأ أولاده عرباً

---

(١) انظر : فقه السِّيرة النبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٥ . وينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٣٨) .
(٢) انظر : السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٦) .
(٣) فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٤٥ .
(٤) مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩٨ .
(٥) السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٧) .

مثلهم ، ومن أهم ذرِّيَّة إسماعيل (عدنان) جدُّ النَّبيِّ ﷺ الأعلى ، ومن عدنان كانت قبائل العرب ، وبطونها ، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدٌّ ، ثمَّ نزار ، ثمَّ جاء بعده ولداه مُضَر ، وربيعة .

أمَّا ربيعة بن نزار؛ فقد نزل مَنِ انحدر مِنْ صلبه شرقاً ، فقامت عبد القيس في البحرين ، وحنيفة في اليمامة ، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة ، وعبرت تَغْلب الفرات ، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكنت تميم في بادية البصرة(١) .

أمَّا فرع مضر : فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة ، وأقامت ثقيف في الطائف ، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكَّة ، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة ، وسكنت ذُبيان ، وعبس من تيماء إلى حوران(٢) . وتقسيم العرب إلى عدنانية ، وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب ، وغيرهم من العلماء ، ومن العلماء مَنْ يرى : أنَّ العرب : عدنانيَّة ، وقحطانيَّة ، ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام(٣) .

وقد ترجم البخاريُّ في صحيحه لذلك ، فقال : باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام ، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة ، قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم يتناضلون بالسِّهام ، فقال : «ارموا ، بني إسماعيل ، وأنا مع بني فلان» ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم ، فقال : «ما لكم»؟ قالوا : كيف نرمي؛ وأنت مع بني فلان؟ فقال : «ارموا ، وأنا معكم كلِّكم» [البخاري (٣٥٠٧)]. وفي بعض الرِّوايات : «ارموا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان رامياً» [البخاري (٢٨٩٩) وأحمد (٤/ ٥٠) وابن حبان (٤٦٩٣)] .

قال البخاريُّ : وأسلمُ بن أَفْصَى بن حارثةَ بن عمرو بن عامر من خُزَاعَةَ ، يعني : أنَّ خزاعة فرقةٌ ممَّن كان تمزَّقَ من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم(٤) .

وَوُلِدَ الرَّسول ﷺ من مُضَرَ ، وقد أخرج البخاريُّ عن كليب بن وائل قال : حدَّثتني ربيبة النَّبيِّ ﷺ زينب بنت أبي سلمة ، قال : «قلت لها : أرأيت النَّبيَّ ﷺ أكان من مضر؟ فقالت : فممَّن كان إلا مِنْ مُضَرَ؟ من بني النَّضر بن كنانة» [البخاري (٣٤٩١)] .

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة ، وانقسمت قريش إلى قبائل شتَّى ، من أشهرها : جمح ، وسهم ، وعديٌّ ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وبطون قصيِّ بن كلابٍ ، وهي عبد الدَّار بن قصيٍّ ، وأسد بن عبد العزَّىٰ بن

---

(١) مدخل لفهم السيرة ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) انظر : الطريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، ص ٤٠ .
(٣) انظر : السيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/ ٤٨) .
(٤) انظر : السيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/ ٤٨) .

قصيٍّ ، وعبد مناف بن قصيٍّ ، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ، ونوفل ، والمطَّلب ، وهاشم. وبيت هاشم هو الَّذي اصطفى الله منه سيِّدنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ (١) .

قال ﷺ : «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦) والترمذي (٣٦٠٥ و٣٦٠٦) وأحمد (٤/ ١٠٧)] .

ثانياً: حضارات الجزيرة العربية :

نشأت من قديم الزَّمان ببلاد العرب حضاراتٌ أصيلةٌ ، ومدنيَّاتٌ عريقةٌ ، من أشهرها :

١ ـ حضارة سبأ باليمن :

وقد أشار القرآن الكريم إليها ، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار ، والسُّيول التي كانت تضيع في الرِّمال ، وتنحدر إلى البحار ، فأقاموا الخزَّانات ، والسُّدود بطرقٍ هندسيَّة متطوِّرةٍ ، وأشهر هذه السُّدود (سد مأرب) ، واستفادوا بمياهها في الزُّروع المتنوعة ، والحدائق ذات الأشجار الزَّكيَّة ، والثِّمار الشَّهيَّة ، قال عزَّ شأنه :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧] .

ودلَّ القرآن الكريم على وجود قرىً متصلةٍ في الزَّمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز ، إلى بلاد الشام ، وأنَّ قوافل التِّجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشَّام ، فلا يعدمون ظلاً ، ولا ماءً ، ولا طعاماً. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝١٨ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨ ـ ١٩] .

٢ ـ حضارة عاد بالأحقاف :

وكانت في شمال حضرموت ، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيَّه هوداً عليه السلام ، وكانوا أصحاب بيوت مشيَّدةٍ ، ومصانع متعدِّدةٍ ، وجناتٍ ، وزروع ، وعيون (٢) قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٧ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٥٠) .

عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٤].

٣ ـ حضارة ثمود بالحجاز:

دلَّ القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر، وأشار إلى ما كانوا يتمتَّعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيونٍ وبساتين، وزروع[1] قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٠].

وقال فيهم أيضاً: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

لقد زال كلُّ ذلك من زمنٍ طويلٍ، ولم يبقَ إلا آثارٌ ورسومٌ وأطلالٌ، فقد اضمحلَّت القرى، والمدن، وخربت الدُّور، والقصور، ونضبت العيون، وجفَّت الأشجار، وأصبحت البساتين والزُّروع أرضاً جُرُزاً[2].

* * *

(١) انظر السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٥٠).
(٢) المصدر السابق نفسه، (١/ ٥١).

المبحث الثَّالث
الأحوال الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة عند العرب

أوَّلاً : الحالة الدِّينيَّـة[١] :

ابتليت الأمَّة العربيَّة بتخلُّفٍ دينـيٍّ شديـدٍ ، ووثنيَّـةٍ سخيفـةٍ لا مثيل لهـا ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ ، واجتماعيَّةٍ ، وفوضى سياسيةٍ ، وتشريعيَّـةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ قلَّ شأنهم ، وصاروا يعيشون على هامش التَّـاريخ ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدَّولة الفارسيَّة أو الرُّومانيَّـة ، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء ، والأجداد ، واتِّباع ما كانوا عليه ، مهما يكن فيه من الزَّيغ ، والانحراف ، والضَّلال ، ومن ثَمَّ عبدوا الأصنام ، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ ، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع ، ولكلب: وَدٌّ ، ولمذحج: يَغوث ، ولخيوان: يَعوق ، ولحمير: نَسْر ، وكانت خزاعة ، وقريش تعبدان إسافاً ، ونائلة ، وكانت مناةُ على ساحل البحر ، تعظِّمها العرب كافَّـةً ، والأوس ، والخزرج خاصَّـةً ، وكانت اللَّات في ثقيف ، وكانت العُزَّى فوق ذات عِرْقٍ ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[٢] .

وإلى جانب هذه الأصنام الرَّئيسة ، يوجد عددٌ لا يحصى كثرةً من الأصنام الصَّغيرة ، والَّتي يسهل نقلها في أسفارهم ، ووضعها في بيوتهم .

روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: «كُنَّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه ، وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً؛ جمعنا جُثْوَةً من ترابٍ ، ثمَّ جئنا بالشَّاة ، فحلبناه عليه ، ثم طفنا به!!!» [البخاري (٤٣٧٦)] .

وقد حالت هذه الوثنية السَّخيفة بين العرب ومعرفة الله تعالى ، وتعظيمه ، وتوقيره ، والإيمان به ، وباليوم الآخر ، وإن زعموا أنَّها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله . وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم ، وأعمالهم ، وتصرُّفاتهم ، وجميع جوانب

(١) ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٣٩) .
(٢) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ٦٠ .

حياتهم ، وضَعُف توقيرُ الله في نفوسهم ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] .

أمَّا البقيَّة الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التَّحريف ، والتَّغيير ، والتَّبديل ، فصار الحجُّ موسماً للمفاخرة والمنافرة ، والمباهاة ، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفيَّة عن حقيقتها ، وألصق بها من الخرافات ، والأساطير الشَّيء الكثير .

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء ، الَّذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلَّق بها من الأحكام ، والنَّحائر ، وغيرها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة ، والدَّم ، وكان يقول:

أربَّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ؟ أدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ؟
عَزَلْتُ الَّلاتَ والْعزَّى جميعاً كذلكَ يفعلُ الجلْدُ الصَّبورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ولا صَنَمي بني عَمْرٍو أزُورُ
ولا غنماً أدينُ وكان رباً لنا في الدَّهر ، إذْ حُلْمي يسيرُ
ولكنْ أعبدُ الرَّحْمنَ ربِّي ليَغْفِرَ ذَنْبي الرَّبُّ الغَفُورُ[١]

وممَّن كان يدين بشريعة إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ قَسُّ بن ساعدة الإياديُّ: فقد كان خطيباً ، حكيماً ، عاقلاً ، له نباهةٌ ، وفضلٌ ، وكان يدعو إلى توحيد الله ، وعبادته ، وترك عبادة الأوثان ، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت ، وقد بَشَّر بالنَّبيِّ ﷺ ، فقد روى أبو نُعَيْمٍ في دلائل النُّبوَّة [(١/ ١٠٤ ـ ١٠٥ برقم ٥٥)] عن ابن عباسٍ قال: «إنَّ قسَّ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عُكَاظ) فقال في خطبته: سَيُعلَمُ حَقٌّ من هذا الوجه ـ وأشار بيده إلى مكَّة ـ قالوا: وما هذا الحقُّ؟ قال: رجلٌ من ولد لؤيِّ بن غالبٍ يدعوكم إلى كلمة الإخلاص ، وعيش الأبد ، ونعيمٍ لا ينفد ، فإن دعاكم؛ فأجيبوه ، ولو علمتُ أنِّي أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أوَّلَ من يسعى إليه» ، وقد أدرك النَّبيَّ ﷺ ، ومات قبل البعثة[٢] .

وممَّا كان ينشده من شعره:

في الذَّاهبينَ الأوَّليـ ـنَ مِنَ الْقُرونِ لنا بصائرْ
لمَّا رأيتُ موارداً لِلْمَوْتِ ليس لها مَصَادِرْ
ورأيتُ قومي نحوَها يمضي الأصَاغرُ والأكابِرْ
لا يَرْجِعُ الماضي إلـ ـيَّ وَلا مِنَ الباقينَ غابِرْ

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/ ١٦٣) .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة؛ لأبي شهبة (١/ ٨٠) .

أيقنـــــــتُ أنِّــــــــي لا محـــــــا لــــةَ حيــثُ صــارَ القــومُ صــائــرْ[١]

كان بعضُ العرب قد تنصَّر ، وبعضهم دخل في اليهوديَّة ، أمَّا الأغلبيَّة؛ فكانت تعبد الأوثان ، والأصنام .

ثانياً : الحالة السِّياسيَّة[٢] :

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدوٍ، وحضر، وكان النِّظام السَّائد بينهم هو النظامَ القبليَّ ، حتَّى في الممالك المتحضِّرة الَّتي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشَّمال الشَّرقيِّ، ومملكة الغساسنة في الشَّمال الغربيِّ ، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ ، وإنَّما ظلَّت القبائل وحداتٍ متماسكةً .

والقبيلة العربيَّة مجموعةٌ من الناس ، تربط بينها وحدة الدَّم (النَّسب) ، ووحدة الجماعة ، وفي ظلِّ هذه الرابطة نشأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّم العلاقات بين الفرد والجماعة ، على أساسٍ من التَّضامن بينهما في الحقوق والواجبات ، وهذا القانون العرفيُّ كانت تتمسَّك به القبيلة في نظامها السِّياسيِّ ، والاجتماعي[٣] .

وزعيم القبيلة ترشِّحه للقيادة منزلته القبلية ، وصفاته ، وخصائصه من شجاعةٍ ومروءةٍ ، وكرمٍ ، ونحو ذلك ، ولرئيس القبيلة حقوقٌ أدبيَّةٌ ، وماديَّةٌ ، فالأدبيَّة أهمُّها احترامه ، وتبجيله ، والاستجابة لأمره ، والنُّزول على حكمه ، وقضائه ، وأمَّا الماديَّة؛ فقد كان له في كل غنيمةٍ تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة ، و(الصَّفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، (والنَّشيطة) وهي ما أصيب من مال العدوِّ قبل اللِّقاء ، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة ، وقد أجمل الشاعر العربيُّ ذلك بقوله :

لــك المــربــاعُ فينــا ، والصَّفــايــا وحكمُــك ، والنَّشيطــةُ ، والفُضــولُ[٤]

ومقابل هذه الحقوق واجباتٌ ومسؤوليَّاتٌ ، فهو في السِّلم جوادٌ كريمٌ ، وفي الحرب يتقدَّم الصُّفوف ، ويعقد الصُّلح ، والمعاهدات .

والنِّظام القبليُّ تسود فيه الحرِّيَّة ، فقد نشأ العربيُّ في جوٍّ طليقٍ ، وفي بيئةٍ طليقةٍ، ومن ثَمَّ كانت الحرية من أخصِّ خصائص العرب ، يعشقونها ، ويأبون الضَّيم والذُّلَّ، وكلُّ فردٍ في القبيلة ينتصر لها ، ويشيد بمفاخرها ، وأيَّامها ، وينتصر لكلِّ أفرادها مُحقاً ، أو مُبطلاً ، حتَّى

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٨١) .

(٢) ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٠) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٦٠) .

(٤) انظر : مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول ﷺ ، ص ٣١ .

صار من مبادئهم: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» [البخاري (٢٤٤٣ و٢٤٤٤ و٦٩٥٢) وأحمد (٣/ ٩٩ و٢٠١)].

وكان شاعرهم يقول:

لا يسْأَلُونَ أخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ في النَّائباتِ عَلَىٰ ما قَالَ بُرْهَانا

والفرد في القبيلة تبعٌ للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة:

وَهَلْ أَنَا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ[١]

وكانت كلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيَّة لها شخصيتها السِّياسيَّة، وهي بهذه الشَّخصيَّة كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشَّخصيَّة أيضاً كانت تشنُّ الحرب عليها، ولعلَّ من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربيَّة، حلف الفضول (حلف المطيِّبين)[٢].

وكانت الحروب بين القبائل على قدمٍ وساقٍ، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[٣]، وكانت ـ عدا هذه الحروب الكبرى ـ تقع إغاراتٌ فرديَّةٌ بين القبائل، تكون أسبابها شخصيَّةً أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى؛ إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعةٍ من ليلٍ، أو نهارٍ؛ لتسلب أنعامها، ومؤنها، وتدع ديارها خاويةً كأن لم تُسكنْ بالأمس[٤].

ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة:

يغلب على الجزيرة العربيَّة الصَّحاري الواسعة الممتدَّة، وهذا ما جعلها تخلو من الزِّراعة، إلا في أطرافها، وخاصَّةً اليمن، والشَّام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وكان يغلب على البادية رعي الإبل، والغنم، وكانت تنتقل القبائل بحثاً عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلاّ في مضارب خيامهم.

وأمَّا الصِّناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم، والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ استعانوا برجلٍ قبطيٍّ نجا من السَّفينة التي غرقت بجُدَّة، ثمَّ أصبح مقيماً في مكَّة[٥].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٦١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ. د. محمد قلعجي، ص ٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣، ٣٤، ٣٥.

(٤) المصدر السَّابق نفسه، ص ٣٥.

(٥) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، لمنير الغضبان، ص ٦٠.

وإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حُرمت من نِعْمَتَي الزِّراعة، والصِّناعة؛ فإنَّ موقعها الاستراتيجيَّ بين إفريقية وشرق آسية جعلها مؤهَّلةً لأن تحتلَّ مركزاً متقدِّماً في التِّجارة الدَّوليَّة آنذاك.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيَّما أهل مكَّة، فقد كان لهم مركزٌ متميِّزٌ في التِّجارة، وكان لهم ـ بحكم كونهم أهل الحرم ـ منزلةٌ في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوءٍ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وكان لقريشٍ رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشَّام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يُتَخطَّفون من حولهم، هذا عدا الرِّحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام. قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

وكانت القوافل تحمل الطِّيب، والبَخُور، والصَّمغ، واللُّبان، والتَّوابل والتُّمور، والرَّوائح العطريَّة، والأخشاب، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنيَّة، والأنسجة الحريريَّة، والأسلحة وغيرها ممَّا يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشَّام وغيرها، ثُمَّ تعود محمَّلةً بالقمح، والحبوب، والزَّبيب، والزَّيتون، والمنسوجات الشَّاميَّة، وغيرها.

واشتهر اليمنيُّون بالتِّجارة، وكان نشاطهم في البرِّ، وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقية، وإلى الهند، وإندونيسية، وسومطرة، وغيرها من بلاد آسية، وجزر المحيط الهندي، أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضلٌ كبيرٌ بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة، ولعلَّ هذا الدَّاء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود(١)، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم، وكانت نسبة الرِّبا في بعض الأحيان إلى أكثر من مئةٍ في المئة(٢).

وكان للعرب أسواقٌ مشهورةٌ: هي عُكَاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلِّفين في أخبار مكَّة: أنَّ العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثمَّ يذهبون منه إلى مجنَّة بعد

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٩٨ إلى ١٠١).
(٢) انظر: دراسةٌ تحليليةٌ لشخصيَّة الرسول ﷺ، ص ١٩.

مضي عشرين يوماً من ذي القعدة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ؛ ذهبوا إلى ذي المجاز ، فلبثوا فيها ثمانيَ ليالٍ ، ثمَّ يذهبون إلى عرفة ، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ، ولا أيَّام منى ، حتى جاء الإسلام ، فأباح لهم ذلك ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

وقد استمرَّت هذه الأسواق في الإسلام إلى حينٍ من الدَّهر ثمَّ دَرَست ، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب ، بل كانت أسواقاً للأدب ، والشِّعر ، والخَطَابة ، يجتمع فيها فحول الشُّعراء ، ومصاقع[١] الخطباء ، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم ، ومفاخرهم ، ومآثرهم ، وبذلك كانت ثروةً كبرى لِلُّغة والأدب ، إلى جانب كونها ثروةً تجاريَّةً[٢] .

رابعاً : الحالة الاجتماعيَّة :

هيمنت التَّقاليد ، والأعراف على حياة العرب ، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب ، والأنساب ، وعلاقة القبائل ببعضها ، والأفراد كذلك ، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي :

١ ـ الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب ، والأحساب ، والتفاخر بهما :

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم ، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى ، ولمَّا جاء الإسلام قضى على ذلك ، وبيَّن لهم : أنَّ التفاضل إنَّما هو بالتَّقوى ، والعمل الصالح .

٢ ـ الاعتزاز بالكلمة ، وسلطانها ، لا سيَّما الشِّعر :

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة ، والأسلوب البليغ ، وكان شعرهم سِجلَّ مفاخرهم ، وأحسابهم ، وأنسابهم ، وديوان معارفهم ، وعواطفهم ، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع ، والشُّعراء الفطاحل ، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة ، والبيت يخفضها ، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيءٍ فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة .

٣ ـ المرأة في المجتمع العربيِّ :

كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَقَط المتاع ، فقد كانت تورث ، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه ، أو يَعْضُلها عن النِّكاح ، حتى حَرَّم الإسلام

(١) المصقَعُ : البليغ يتفنَّن في مذاهب القول .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ١٠٢) .

ذلك ، وكان الابن يتزوَّج امرأة أبيه[(١)] ، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] .

وكانت العرب تُحرِّم نكاح الأصول كالأمَّهات ، والفروع كالبنات ، وفروع الأب كالأخوات ، والطَّبقة الأولى من فروع الجد كالخالات ، والعمَّات[(٢)] .

وكانوا لا يورِّثون البنات ، ولا النساء ، ولا الصِّبيان ، ولا يورِّثون إلا من حاز الغنيمة ، وقاتل على ظهور الخيل ، وبقي حرمان النِّساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم ، إلى أن تُوفي أوس بن ثابت ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ وترك بنتين كانت بهما دمامةٌ ، وابناً صغيراً ، فجاء ابنا عمِّه : ـ وهما عصبته ـ فأخذا ميراثه كلَّه ، فقالت امرأته لهما : تزوجا البنتين ، فأبيا ذلك لدمامتهما فأتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! تُوفِّي أوس ، وترك ابناً صغيراً ، وابنتين ، فجاء ابنا عمِّه : سويد ، وعرفطة فأخذا ميراثه ، فقلت لهما : تزوجا ابنتيه ، فأبيا . فقال ﷺ : «لا تُحرِّكا من الميراث شيئاً» [الدر المنثور؛ للسيوطي (٢/٤٣٩)] ونزل قوله تعالى : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧][(٣)] .

وكان العرب يعيِّرون بالبنات؛ لأنَّ البنت لا تخرج في الغزو ، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها ، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرِّجال ، وإذا ما سُبيت اتُّخذت للوطء ، تتداولها الأيدي لذلك ، بل ربما أُكْرِهَتْ على احتراف البغاء؛ ليضمَّ سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ، وقد كانت العرب تبيح ذلك ، وقد كان هذا يورث الهمَّ ، والحزن ، والخجل للأب عندما تولد له بنتٌ ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] .

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التُّراب ، ووأدها حيَّةً ، ولا ذنب لها إلا أنَّها أنثى[(٤)] ، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشَّنيعة . قال تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩] .

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر ، أو خشية الفقر ، فجاء الإسلام ، وحرَّم ذلك ،

---

(١) انظر : السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/ ٨٧) .
(٢) دراسة تحليلية لشخصيَّة الرسول ﷺ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٤٥) .
(٤) انظر : دراسة تحليليَّة لشخصية الرَّسول ﷺ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشَّنعاء، كزيد بن عمرو بن نفيل(١).

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة، وتأخذ رأيها في الزَّواج، وكانت المرأة العربيَّة الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها، وحليلها، وكانت تتَّسم بالشَّجاعة، وتتبع المحاربين وتشجِّعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضَّرورة، وكانت المرأة البدويَّة العربيَّة تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصوُّن والتعفُّف(٢).

٤ ـ النكاح:

تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السَّيدة عائشة رضي الله عنها ذلك، فقالت: «إنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّتَه، أو ابنته، فيُصْدِقها، ثم يَنْكِحُها.

ونكاحٌ آخرُ: كان الرَّجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها(٣): أرسلي إلى فلانٍ فاستبضعي(٤) منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسُّها أبداً، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي تستبضعُ منه، فإذا تبيَّن حملُها؛ أصابها زوجها إذا أحبَّ، وإنَّما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ آخر: يجتمع الرَّهط(٥) ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصيبها(٦)، فإذا حملت، ووضعت، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن

(١) انظر: السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٩٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٨٨).
(٣) الطَّمث: الحيض.
(٤) استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.
(٥) الرَّهط: الجماعة دون العشرة.
(٦) يصيبها: يجامعها.

يمتنع حتَّى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان! تسمِّي من أحبَّت باسمه ، فيُلحق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرَّجل .

والنِّكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمنعُ من جاءها[١] ، وهنَّ البغايا كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهنَّ ؛ دخل عليهنَّ ، فإذا حملت إحداهنَّ ، ووضعت حملها جُمِعوا لها ، وَدَعوا لهم القافـةَ[٢] ، ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته[٣] به ، ودُعي ابنَه ، لا يمتنع من ذلك .

فلما بُعث محمَّد ﷺ بالحقِّ ؛ هدم نكاح الجاهليَّة كلَّه ، إلا نكاحَ الناس اليوم» [البخاري (٥١٢٧) وأبو داود (٢٢٧٢)] .

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرىٰ لم تذكرها عائشة رضي الله عنها ؛ كنكاح الخِدْن ، وهو في قوله تعالى : ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ [النساء: ٢٥] كانوا يقولون : ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لوم ، وهو إلى الزِّنى أقرب منه إلى النِّـكاح ، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت ، ونكاح البدل : كان الرجل في الجاهلية يقول للرَّجل : انزل لي على امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي ، وأزيدك[٤] .

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار ، وهو أن يزوِّج الرَّجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ، ليس بينهما صداقٌ[٥] .

وكانوا يُحلُّون الجمع بين الأختين في النِّكاح ، وكانوا يبيحون للرَّجل أن يجمع في عصمته من الزَّوجات ما شاء دون التقيُّد بعددٍ ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدُّ[٦] ، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النِّساء ، والأكثر ، والأقلُّ ، فقصر ذلك على أربع ؛ إنْ علم أنَّه يستطيع الإنفاق عليهنَّ ، والعدل بينهنَّ ، فإن خاف عدم العدل ؛ فليكتفِ بواحدةٍ ، وما كانوا في الجاهليَّة يلتزمون العدل بين الزَّوجات ، وكانوا يسيئون عشرتهن ، ويهضمون حقوقهنَّ حتى جاء الإسلام ، فأنصفهن ، وأوصىٰ بالإحسان إليهنَّ في العشرة ، وقرَّر لهنَّ حقوقاً كنَّ يَحْلُمْنَ بها[٧] .

---

(١) جاءها : دخل عليها .
(٢) القافة : جمع القائف ، وهو الذي يعرف شَبه الولد بالوالد .
(٣) فالتاطته : استلحقته به ، وأصل اللوط بفتح اللام : اللصوق .
(٤) فتح الباري (٩/ ١٥٠) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٠) .
(٦) انظر : دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٧) انظر : السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٨٨) .

٥ ـ الطَّـلاق :

كانوا يمارسون الطَّلاق ، ولم يكن للطَّلقات عندهم عددٌ محدَّد ، فكان الرَّجل يطلق امرأته ، ثمَّ يراجعها ، ثُمَّ يطلِّقها ، ثم يراجعها هكذا أبداً ، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام(١) ، إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

فقيَّد الإسلام عدد الطَّلقات، وأعطى للزَّوج فرصةً ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرَّتين ، فإن طلق الثَّالثة ؛ فقد انقطعت عروة النِّكاح ، ولا تحلُّ لـه إلا بعد نكاح زوج آخر ، ففي الكتاب الكريم : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٠] .

وممَّا كان يُلْحَق بالطَّلاق في التَّحريم الظِّهارُ ، وهو أن يقول الزوج لزوجته : أنتِ عليَّ كظهر أمِّي ، وكان تحريماً مؤبداً حتَّى جاء الإسلام ، فوسمه بأنَّه منكرٌ من القول وزورٌ ، وجعل للزَّوج مخرجاً منه ، وذلك بالكفارة(٢) قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٢ ـ ٤] .

٦ ـ الحروب ، والسَّطو ، والإغارة :

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، فهم لا يبالون بشنِّ الحروب ، وإزهاق الأرواح في سبيل الدِّفاع عن المثل الاجتماعيَّة ، التي تعارفوا عليها ، وإن كانت لا تستحقُّ التَّقدير .

وقد روى لنا التَّاريخ سلسلةً من أيَّام العرب في الجاهليَّة ، ممَّا يدلُّ على تمكُّن الروح الحربيَّة من نفوس العرب ، وغلبتها على التعقُّل والتفكير ؛ فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُوس ، وقد قامت الحروب فيه بين بكرٍ ، وتغلب بسبب ناقةٍ للجَرْميِّ ، وهو جارٌ للبَسُوس بنت منقذ خالة

---

(١) دراسةٌ تحليليَّة لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ٢٥ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩١) .

جَسَّاس بن مُرَّة ، وقد كان كُلَيْبٌ سيِّد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصّاً به ، فرأى فيه هذه النَّاقة ، فرماها ، فجزع الجَرْميُّ ، وجزعت البَسُوس ، فلما رأى ذلك جسَّاسٌ تحيَّن الفرصة لقتل كليب ، فقتله ، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدَّة أربعين سنةً(١) .

وكذلك يوم داحس والغبراء ، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس ، وهو فرسٌ لقيس بن زهير ، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر ، فأوعز هذا إلى رجلٍ ليقف في الوادي ، فإن رأىٰ داحساً قد سبق يردُّه ، وقد فعل ذلك ، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء ، فسبقت الغبراء ، وحصل بعد ذلك القتل ، والأخذ بالثأر ، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس ، وذُبيان(٢) .

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس ، والخزرج في الجاهليَّة ، وهم أبناء عمٍّ؛ حيث إنَّ الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزديِّ ، واستمرَّت الحروب بينهم ، وكان آخر أيَّامهم (بُعاث) وذلك : أنَّ حلفاء الأوس من اليهود ، جدَّدوا عهودهم معهم على النُّصرة ، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يُذْكِيهَا اليهود ، حتى يُضعفوا القبيلتين ، فتكون لهم السِّيادة الدَّائمة ، واستعان كلُّ فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس(٣) .

وكانت بعض القبائل تسطو ، وتغير بغية نهب الأموال ، وسبي الأحرار ، وبيعهم ، كزيد بن حارثة فقد كان عربيّاً حرّاً ، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيّاً حرّاً ، وقد قضى الإسلام على ذلك ، حتَّى كانت تسير المرأة ، والرَّجل من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخافان إلا الله ، والذئب على أغنامهما(٤) .

٧ ـ العلم والقراءة والكتـابة :

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ ، وعلمٍ كاليهود ، والنَّصارى ، بل كان يغلب عليهم الجهل ، والأميَّة ، والتَّقليد ، والجمود على القديم وإن كان باطلاً ، وكانت أمَّة العرب لا تكتب ، ولا تحسب ، وهذه هي الصِّفة التي كانت غالبةً عليها ، وكان فيهم قليل ممَّن يكتب ، ويقرأ ، ومع أمِّيَّتهم ، وعدم اتِّساع معارفهم ؛ فقد كانوا يشتهرون بالذَّكاء ، والفطنة ، والألمعية ، ولطف المشاعر ، وإرهاف الحسِّ ، وحسن الاستعداد ، والتهيُّؤ لقبول العلم والمعرفة ، والتَّوجيه الرَّشيد ؛ ولذلك لمَّا جاء الإسلام؛ صاروا علماء ، حكماء ، فقهاء ، وزالت عنهم

---

(١) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير (١/ ٣١٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٣) .
(٣) التَّاريخ الإسلاميُّ ، د. عبد العزيز الحميديُّ (١/ ٥٥) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٣) .

الأمِّيَّة ، وأصبح العلم ، والمعرفة من أخصِّ خصائصهم ، وكان فيهم مَنْ مهر في علم قصِّ الأثر ، وهو القِيَافَةُ ، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة ، وكان طبُّهم مَبْنِيّاً على التَّجارِب ؛ التي اكتسبوها من الحياة ، والبيئة[١] .

خامساً : الحالة الأخلاقيَّة :

كانت أخلاق العرب قد ساءت ، وأولعوا بالخمر ، والقمار ، وشاعت فيهم الغارات ، وقطع الطريق على القوافل ، والعصبيَّة ، والظُّلم ، وسفك الدِّماء ، والأخذ بالثأر ، واغتصاب الأموال ، وأكل مال اليتامى ، والتعامل بالرِّبا ، والسَّرقة ، والزِّنى ، وممَّا ينبغي أن يُعلم : أنَّ الزِّنى إنما كان في الإماء ، وأصحاب الرَّايات من البغايا ، ويندر أن يكون في الحرائر ، وليس أدلّ على هذا من أنَّ النَّبيَّ ﷺ لما أخذ البيعة على النِّساء بعد الفتح : «على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين» قالت السيِّدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان : «أوَ تَزني الحرَّة؟!!»[٢] [البخاري (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩)] .

وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا ، لا ، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون ، ولا يشربون الخمر ، ولا يسفكون الدِّماء ، ولا يظلمون ، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى ، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا[٣] وكانت فيهم سماتٌ ، وخصالٌ من الخير كثيرةٌ ، أهَّلتْهُم لحمل راية الإسلام ، ومن تلك الخصال ، والسِّمات :

١ ـ الذَّكاء ، والفطنة :

فقد كانت قلوبُهم صافيةً لم تدخلها تلك الفلسفات ، والأساطير ، والخرافات ، التي يصعب إزالتها ، كما في الشُّعوب الهنديَّة ، والرومانيَّة ، واليونانيَّة ، والفارسيَّة ، فكأنَّ قلوبهم كانت تعدُّ لحمل أعظم رسالة في الوجود ، وهي دعوة الإسلام الخالدة ، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن ، وقد وجَّه الإسلام قريحة الحفظ والذَّكاء ، إلى حفظ الدِّين ، وحمايته ، فكانت قواهم الفكرية ، ومواهبهم الفطريَّة مذخورةً فيهم ، لم تستهلك في فلسفاتٍ خياليَّةٍ ، وجدالٍ بيزنطيٍّ عقيمٍ ، ومذاهب كلاميَّةٍ معقَّدةٍ[٤] .

واتِّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم ، وذاكرتهم ، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً ، وللثَّعلب مئتان ، وللأسد خمسُمِئَةٍ ، فإنَّ للجمل ألفاً ، وكذا السَّيف ، وللدَّاهية نحو أربعة آلاف اسمٍ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٤) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٩٤) .
(٤) انظر : السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ١٢ .

ولا شكَّ : أنَّ استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرةٍ قويَّةٍ ، حاضرةٍ ، وقَّادةٍ(١) .

وقد بلغ بهم الذَّكاء ، والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ(٢) .

٢ ـ الكرم والسَّخاء :

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب ، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقته ، فيأتيه الضَّيف ، فيسارع إلى ذبحها ، أو نحرها له ، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان ، بل كان يُطعم الوحش ، والطَّير ، وكرم حاتمٍ الطَّائيِّ سارت به الرُّكبان ، وضُرِبت به الأمثال(٣) .

٣ ـ الشَّجاعة ، والمروءة ، والنَّجدة :

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش . قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه : إن يُقْتَلْ ؛ فقد قُتِل أبوه ، وأخوه ، وعمُّه ، إنا ـ والله ـ لا نموت حتفاً ، ولكن قطعاً بأطراف الرِّماح ، وموتاً تحت ظلال السُّيوف :

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلاَ طُلَّ مِنَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَىٰ حَدِّ الظُّباةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّباةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئاً على العزَّة ، وصيانة العِرْض ، وحماية الحريم ، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم ، قال عنترة :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتوفَ كأنَّني ... أَصْبَحْتُ عَنْ غرضِ الحتوف بمعزِلِ
فَأَجَبْتُهَا إنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ ... لا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بكأسِ المَنْهَلِ
فَأقْنِي حَيَاءَكِ لا أبا لكِ وَاعْلَمِي ... أنِّي امْرُؤٌ سَأَموتُ إنْ لَمْ أُقتلِ(٤)

وقال أيضاً :

لا تَسْقِنِي مَاءَ الحياةِ بذلَّةٍ ... بَلْ فاسْقِنِي بالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ
مَاءُ الْحياةِ بذلَّةٍ كجهنَّمٍ ... وَجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ مَنْزِلِ(٥)

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامةٍ ، ومروءةٍ ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضَّعيف ،

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ٣٩ ، ٤٠) .
(٢) انظر : مدخل لفقه السيرة ، ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٥) .
(٤) ديوان عنترة ، ص ٢٥٢ .
(٥) ديوان عنترة ، د. فاروق الطباع ، ص ٨٢ .

أو العاجز ، أو المرأة ، أو الشَّيخ ، وكانوا إذا استنجد بهم أحدٌ؛ أنجدوه ، ويرون من النَّذالة التَّخلِّي عمَّن لجأ إليهم .

٤ ـ عشقهم للحُرِّيَّة ، وإباؤهم للضَّيْم والذُّلِّ :

كان العربيُّ بفطرته يعشق الحرِّيَّة يحيا لها ، ويموت من أجلها ، فقد نشأ طليقاً ، لا سلطان لأحدٍ عليه ، ويأبى أن يعيش ذليلاً ، أو يُمَسَّ في شرفه ، وعرضه؛ ولو كلَّفه ذلك حياته[1] ، فقد كانوا يأنفون من الذُّلِّ ، ويأبون الضَّيْمَ ، والاستصغار ، والاحتقار ، وإليك مثالاً على ذلك :

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه ، وسألهم : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه خدمة أمِّي؟ قالوا : نعم ، أمَّ عمرو بن كلثوم الشَّاعر الصُّعلوك .

فدعا الملك عَمْرَو بن كلثوم لزيارته ، ودعا أمَّه لتزور أمَّه ، وقد اتَّفق الملك مع أمِّه أن تقول لأمِّ عَمْرِو بن كلثوم بعد الطَّعام : ناوليني الطَّبق الذي بجانبك ، فلمَّا جاءت؛ قالت لها ذلك ، فقالت : لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها الكرَّة وألحَّت ، فصاحت ليلى أم عَمْرِو بن كلثوم : واذُلاَّه! يا لَتَغْلب! فسمعها ابنُها فاشتدَّ به الغضب ، فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرُّواق ، فتناوله ، وضرب به رأس الملك عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب ، وانتهبوا ما في الرُّواق ، ونظم قصيدةً يخاطب بها الملك قائلاً :

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ... نكُونُ لِقَيْلِكُمْ[2] فيها قَطِينا[3]
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنِ هِنْدٍ ... تُطِيْعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدَرِيْنَا[4]
تُهَدِّدُنَا وتُوعِدُنَا رُوَيْداً ... مَتَى كُنَّا لأُمِّك مقْتَوِينَا[5]
إذا ما الْمَلْكُ سَامَ النَاسَ خَسْفاً ... أبينا أن نُقِرَّ الذُّلَّ فِينا[6]

٥ ـ الوفاءُ بالعهد وحبُّهم للصَّراحة ، والوضوح ، والصِّدق :

كانوا يأنفون من الكذب ، ويعيبونه ، وكانوا أهل وفاءٍ ، ولهذا كانت الشَّهادة باللِّسان كافيةً للدُّخول في الإسلام . ويدلُّ على أنفتهم من الكذب ، قصَّة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ ، وكانت الحروبُ بينهم قائمةً ، قال : «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً ؛ لكذبت عنه» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٥) .
(٢) القَيل هو : الملك دون الملك الأعظم .
(٣) القطين هم : الخدم والمماليك .
(٤) تزدرينا : تحتقرنا .
(٥) مقتوينا : خدمة الملوك .
(٦) انظر : شرح المعلَّقات ، للحسين الزّوزني ، ص١٩٦ ، ٢٠٤ .

أمَّا وفاؤهم؛ فقد قال النُّعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإنَّ أحدهم يلحظ اللَّحظة، ويومئ الإيماء، فهي وَلْثٌ، وعقدةٌ لا يحلُّها إلا خروج نفسه. وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض، فيكون رهناً بدينه، فلا يُغْلَق رهنه، ولا تخفر ذمَّته. وإنَّ أحدهم ليبلغه أنَّ رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتَّى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِثُ من غير معرفةٍ ولا قرابةٍ، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله»(١).

والوفاء خلقٌ متأصِّلٌ بالعرب، فجاء الإسلام، ووجَّهه الوجهة السَّليمة، فغلَّظَ على من آوى مُحْدِثاً، مهما كانت منزلته، وقرابته. قال ﷺ: «لعن اللهُ من آوى محدِثاً» [مسلم (١٩٧٨) والنسائي (٧/ ٢٣٢)]، ومن القصص الدَّالة على وفائهم(٢): «أنَّ الحارث بن عباد قاد قبائل بكرٍ لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب»(٣) في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال: دلَّني على مهلهل بن ربيعة، وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجزَّ ناصيته، وتركه». وهذا وفاءٌ نادرٌ، ورجولةٌ تستحقُّ الإكبار(٤).

ومن وفائهم: أنَّ النُّعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته، فأودع أسلحته، وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشَّيبانيِّ، ورحل إلى كسرى، فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النُّعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله، فجمع هانئ قومه آل بكرٍ، وخطب فيهم، فقال: «يا معشرَ بكر! هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرور، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر، المنيَّة ولا الدَّنيَّة، استقبال الموت خير من استدباره، الطَّعن في ثغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز، والظُّهور، يا آل بكر! قاتلوا فما من المنايا بُدٌّ»(٥)، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرَّجل الذي احتقر حياة الصَّغار، والمهانة، ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦ ـ الصَّبر على المكاره، وقوَّة الاحتمال، والرِّضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل، ويقولون: البِطْنَة تُذْهِبُ الفِطْنَة، ويعيبون الرَّجل الأكول الجشع. قال شاعرهم:

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ١٥٠).

(٢) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، ص ٩٠.

(٣) معناه: كن كفأ لشسع نعليه، وباء الرجل بصاحبه: إذا قتل. انظر: لسان العرب لابن منظور.

(٤) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، ص ٩١.

(٥) تاريخ الطَّبريِّ عن يوم ذي قار (٢/ ٢٠٧).

إذا مُـدَّتِ الأيـدِي إِلـى الـزَّادِ لَـمْ أَكُـنْ بِـأَعْجَلِهِـمْ إِذْ أَجْشَـعُ الْقَـومِ أعْجَـلُ[١]

وكانت لهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل المكاره ، والصَّبر في الشَّدائد ، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصَّحراويَّة الجافَّة ، قليلة الزَّرع ، والماء ، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة ، والسَّير في حرِّ الظَّهيرة ، ولم يتأثَّروا بالحرِّ ، ولا بالبرد ، ولا وعورة الطَّريق، ولا بُعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظَّمأ، ولمَّا دخلوا الإسلام؛ ضربوا أمثلةً رائعة في الصَّبر ، والتَّحمُّل ، وكانوا يرضون باليسير ، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمراتٍ يقيم بها صلبه ، وقطراتٍ من ماء يرطِّب بها كبده[٢] .

٧ ـ قوَّة البدن ، وعظمة النَّفس :

واشتهروا بقوَّة أجسادهم مع عظمة النَّفس ، وقوَّة الرُّوح ، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيَّة صنعتا العجائب ، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام .

٨ ـ العفو عند المقدرة ، وحماية الجار :

وكانوا ينازلون أقرانهم ، وخصومهم ، حتَّى إذا تمكَّنوا منهم عفوا عنهم ، وتركوهم ، ويأبون أن يُجهِزُوا على الجرحى ، وكانوا يرعون حقوق الجيرة ، ولا سيَّما رعاية النِّساء ، والمحافظة على العرض . قال شاعرهم :

وَأَغُـضُّ طَـرْفِـي إنْ بَـدَتْ لـي جَـارَتـي حَتَّـى يُـوَاري جَـارتـي مَـأْواهَـا

وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه ، وربما ضحَّوا بالنَّفس ، والولد ، والمال في سبيل ذلك .

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب ، فجاء الإسلام ، فنمَّاها ، وقوَّاها ، ووجَّهها وجهةَ الخير ، والحقِّ ، فلا عجب إذا كانوا قد انطلقوا من الصَّحارى ، كما تنطلق الملائكة الأطهار ، ففتحوا الأرض ، وملؤوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً ، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وفضائل بعد أن عمَّتها الرَّذائل ، وخيراً بعد أن طفحت شراً[٣] .

هذه بعض أخلاق المجتمع الَّذي نشأ فيه الإنسان العربيُّ، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله ﷺ ، واختير له هذا المجتمع العربيُّ ، وهذه البيئة النَّادرة وهذا الوسط الرَّفيع ، مقارنةً بالفرس ، والرُّوم ، والهنود ، واليونان ، فلم يُخْتَرْ من الفرس على سعة علومهم ،

---

(١) بلوغ الأرب (١/ ٣٧٧) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٦ ، ٩٧) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٩٧) .

ومعارفهم ، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم ، ولا من الرُّومان على تفنُّنهم ، ولا من اليونان على عبقرية شاعريَّتهم ، وخيالهم ، وإنَّما اختير من هذه البيئة البكر ؛ لأنَّ هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه ، وما هم فيه من علوم ، ومعارف ، إلا أنَّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة ، وحرِّيَّة الضَّمير ، وسموِّ الرُّوح[1] .

* * *

(١) انظر : نظرات في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، ص ١٤ .

المبحث الرَّابع
أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى ﷺ

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشريَّة ويكرم الإنسانيَّة ، فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب ﷺ . وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم ، ونشأته العزيزة ، ورعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له قبل نزول الوحي عليه ، وسيرته العطرة قبل البعثة ، نريد أن نتحدَّث عن الآيات العظيمة ، والأحداث الجليلة؛ الَّتي سبقت ميلاده ﷺ ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح .

إنَّ من سنن الله في الكون : أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة ، والضِّياء يكون بعد الظَّلام ، واليُسر بعد العُسر(١) .

ومن أهمِّ هذه الأحداث :

أولاً : قصَّة حفر عبد المطَّلب جدِّ النَّبيِّ ﷺ لزمزم :

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيِّم (صحيح السيرة النَّبويَّة) ، روايةً صحيحةً في قصَّة حفر عبد المطَّلب لزمزم من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال : «قال عبد المطَّلب : إنِّي لنائمٌ في الحِجْر ، إذْ أتاني آتٍ ، فقال لي : احفر طَيْبة(٢) . قلت : وما طَيْبة؟ قال : ثمَّ ذهب عني .

قال : فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مَضْجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر بَـرَّة(٣) ، قال : قلت : وما بَـرَّة؟ قال : ثمَّ ذهب عنِّي .

فلمَّا كان الغدُ؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر المضنونة(٤) . قال : قلت : وما المضنونة؟ قال : ثمَّ ذهب .

---

(١) انظر : هذا الحبيب محمَّد ﷺ يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٥١ .
(٢) طيبة : مشتقة من الطِّيب ، وبه سمِّيت المدينة .
(٣) برَّة : مشتقة من البرِّ ، والبرُّ : هو الخير والطَّهارة .
(٤) المضنونة : الغالية النَّفيسة التي يضنُّ بمثلها؛ أي : يُبخل .

فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِفُ أبداً ، ولا تُذَمُّ[١] ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفَرْث والدَّم، عند نقرة الغراب الأعصم[٢] ، عند قرية النَّمل[٣].

قال ابن إسحاق: فلمَّا بُيِّن له شأنُها ، ودُلَّ على موضعها ، وعَرَف أنَّه قد صُدِق؛ غدا بمِعْوَلِه[٤] ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، وليس معه يومئذٍ ولدٌ غيره ، فحفر فيها ، فلمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[٥]؛ كبَّر ، فعرفت قريش: أنَّه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا: يا عبد المطلب! إنَّها بئر أبينا إسماعيل ، وإنَّ لنا فيها حقًّا ، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعلٍ ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم ، وأُعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا ، فإنَّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعدٍ بن هُذَيم. قال: نعم ، وكانت بأطراف الشَّام.

فركب عبد المطَّلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف ، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريش نفرٌ ، فخرجوا؛ والأرض إذ ذاك مفاوز؛ حتَّى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب ، وأصحابه ، فعطشوا حتَّى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا مَنْ كانوا معهم ، فأبوا عليهم ، وقالوا: إنَّا بمفازة[٦] وإنَّا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطَّلب: إنِّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوَّة، فكلَّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته، ثم وَارَوْه؛ حتَّى يكون آخرُهم رجلاً واحداً، فَضَيْعةُ رجلٍ واحدٍ أيسر من ضيعة ركبٍ جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كلُّ رجلٍ لنفسه حفرةً ، ثمَّ قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه: والله إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ، ولا نبتغي لأنفسنا لَعَجْزٌ ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتَحلوا. فارتحلوا؛ حتَّى إذا بعث[٧] عبد المطَّلب راحلته انفجرت من تحت خفِّها عين ماءٍ عذبٍ ، فكبَّر عبد المطلب ، وكبَّر أصحابه ، ثمَّ نزل ، فشرب ، وشرب أصحابه ، واستسقوا حتَّى ملؤوا أسقيتهم ، ثمَّ دعا قبائل قريش

---

(١) لا تنزف: أي: لا يفرغ ماؤها ، ولا يُلحق قعرُها.
(٢) الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.
(٣) قرية النَّمل: المكان الذي يجتمع فيه النَّمل.
(٤) المِعْوَل: الفأس.
(٥) الطيُّ: حافة البئر.
(٦) المفازة: الصَّحراء ، والجمع: مفاوز.
(٧) بعث راحلته: أقامها من بروكها.

ـ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال ـ فقال: هَلُمُّوا إلى الماء؛ فقد سقانا الله، فجاؤوا، فشربوا، واستقوا كلُّهم، ثمَّ قالوا: قد ـ والله ـ قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إنَّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الَّذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع، ورجعوا معه، ولم يصِلوا إلى الكاهنة، وخَلُّوا بينه وبين زمزم».

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن عليِّ بن أبي طالبٍ في زمزم [البيهقي في الدلائل (١/ ٩٣ ـ ٩٤) وابن هشام (١/ ١٥١ ـ ١٥٣)] وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرةٌ، فمنها: ما رواه مسلمٌ في صحيحه في قصَّة إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّها مباركةٌ، إنَّها طعامُ طُعْمٍ» [مسلم[1] (٢٤٧٣)].

وروى الدَّارقطنيُّ [(٢٧١٣)] والحاكم [(١/ ٤٧٣)] وصحَّحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ: «ماء زمزم لما شُرِبَ له: إنْ شربته لتستشفي، شفاك الله! وإن شربته لشبعك، أشبعك الله! وإن شربته لقطع ظمئك، قطعه الله! وهي هزمة[2] جبريل، وسقيا الله إسماعيل» قال الشَّيخ محمَّد أبو شهبة ـ رحمه الله! ـ[3]: ومهما يكن من شيءٍ فقد صحَّح الحافظ الدِّمياطيُّ ـ وهو من الحفَّاظ المتأخِّرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شُرِبَ له» وأقرَّه الحافظ العراقيُّ[4].

ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل[5]:

هذه الحادثة ثابتةٌ بالقرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة، وأتت تفاصيلها في كتب السِّير والتَّاريخ، وذكرها المفسِّرون في كتبهم: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

أمَّا إشارات الرَّسول ﷺ إلى الحادث؛ فمنها:

أنَّ الرسول ﷺ لمَّا خرج زمن الحديبية، سار حتى إذا كان بالثَّنيَّة الَّتي يهبط عليهم منها، بركت بها راحلته؛ فقال الناس: حَلْ حَلْ[6]. فَأَلَحَّتْ[7]، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النَّبيُّ

---

(١) طعام طعم: أي: تشبع شاربها.

(٢) هزمة، أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه، أو جناحه.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٥٨).

(٤) مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقيِّ، ص ١٣.

(٥) ينظر الشكل (٥) في الصفحة (٧٤١).

(٦) كلمةٌ تقال للنَّاقة إذا تركت السَّير. (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٧) ألحّت: أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح. فتح الباري (٥/ ٣٣٥).

ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل» [البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٤/ ٣٢٣)] .

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم ما يلي : «كان من شأن الفيل : أنَّ ملكاً كان باليمن غلب عليها ، وكان أصله من الحبشة ، يقال له : أبرهة ، بنى كنيسة بصنعاء ، فسمَّاها القُلَّيْس ، وزعم : أنَّه يصرف إليها حَجَّ العرب ، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها ، فخرج ملكٌ من ملوك حِمير فيمن أطاعه من قومه يُقال له ذو نفر ، فقاتله ؛ فهزمه أبرهة ، وأخذه ، فلمَّا أتى به ؛ قال له ذو نفر : أيها الملك! لا تقتلني ؛ فإن استبقائي خيرٌ لك من قتلي ، فاستبقاه ، وأوثقه ، ثمَّ خرج سائراً يريد الكعبة ، حتَّى إذا دنا من بلاد خَثْعَم ؛ خرج إليه النُّـفَيْل بن حبيب الخثعميُّ ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه ، فهزمهم ، وأخذ النُّـفَيْل ، فقال النُّفيل : أيها الملك! إنِّي عالم بأرض العرب، فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع ، والطَّاعة ، فاستبقاه ، وخرج معه يَدلُّه ، حتَّى إذا بلغ الطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال ثقيف ، فقال : أيُّها الملك! نحن عبيدٌ لك ، ليس لك عندنا خلافٌ ، وليس بيننا وبينك الَّذي تريد ـ يعنون اللَّات ـ إنَّما تريد البيت الذي بمكَّة ، نحن نبعث معك من يدلُّك عليه .

فبعثوا معه مولى لهم، يُقال له: أبو رِغال، فخرج معهم حتَّى إذا كان بالمُغَمَّسِ[١] مات أبو رِغال، وهو الذي رُجِمَ قبره، وبعث أبرهة من المُغَمَّسِ رجلاً، يقال له: الأسود بن مقصود على مقدِّمة خيله ، فجمع إليه أهل الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير بالأرك ، ثمَّ بعث أبرهة حُنَاطة الحميريَّ إلى أهل مكَّة ، فقال: سل عن شريفها ، ثمَّ أبلغه: أنِّي لم آتِ لقتال ، إنَّما جئت لأهدم هذا البيت .

فانطلق حُناطة حتَّى دخل مكَّة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال : إنَّ الملك أرسلني إليك ؛ ليخبرك : أنَّه لم يأتِ لقتالٍ ، إلا أن تقاتلوه ، إنَّما جاء لهدم هذا البيت ، ثمَّ الانصراف عنكم . فقال عبد المطَّلب : ما عندنا له قتالٌ ، سنخلِّي بينه وبين البيت ، فإن خلَّى اللهُ بينه وبينه ؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ. قال: فانطلق معي إليه. قال: فخرج معه؛ حتَّى قدم المعسكر ، وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب ، فأتاه فقال: يا ذا نفر! هل عندكم من غناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن من أن يقتل بُكرةً ، أو عشيَّةً ، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خيرٍ ، ويُعظم خطرك ، ومنزلتك عنده. قال: فأرسل إلى أنيس ، فأتاه ، فقال: إنَّ هذا سيِّد قريش ، صاحب عير مكَّة ؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، وقد أصاب له الملك مئتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه ؛ فانفعه ؛ فإنَّه صديقٌ لي .

---

(١) المُغمَّس: مكانٌ قرب مكَّة في طريق الطَّائف مات فيه أبو رِغال .

فدخل أنيس على أبرهة ، فقال: أيُّها الملك! هذا سيِّد قريشٍ ، وصاحب عِيْرِ مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، يستأذن عليك ، وإنَّه أحبَّ أن تأذن له ، فقد جاءك غير ناصبٍ لك ، ولا مخالفٍ عليك. فأذن له ، وكان عبد المطَّلب رجلاً عظيماً ، جسيماً ، وسيماً ، فلمَّا رآه أبرهة ، عظَّمه ، وأكرمه ، وكره أن يجلس معه على سريره ، وأن يجلس تحته ، فهبط إلى البساط ، فجلس عليه معه ، فقال له عبد المطلب: أيها الملك! إنَّك قد أصبت لي مالاً عظيماً ، فاردده عليَّ. فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتُك ، ولقد زهدت فيك. قال: ولِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو دينُك ودينُ آبائك ، وعصمتُكم ، ومنعتُكم؛ لأهدمَه ، فلم تُكلِّمْني فيه ، وتكلِّمُني في مئتي بعيرٍ لك! قال: أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه. قال: ما كان ليمنعه منِّي. قال: فأنت وذاك! قال: فأمر بإبله ، فرُدَّت عليه، ثمَّ خرج عبد المطَّلب ، وأخبر قريشاً الخبر ، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب.

وأصبح أبرهة بالمُغمَّس قد تهيَّأ للدُّخول ، وعبَّأ جيشه ، وقرَّب فيله ، وتحمَّل عليه ما أراد أن يحمل ، وهو قائم ، فلمَّا حرَّكه: وقف ، وكاد أن يرزم إلى الأرض ، فيبرك ، فضربوه بالمعول في رأسه ، فأبى ، فأدخلوا محاجنه تحت أقرانه ، ومرافقه ، فأبى ، فوجَّهوه إلى اليمن ، فهرول ، فصرفوه إلى الحرم ، فوقف ، ولحق الفيل بجبلٍ من تلك الجبال ، فأرسل الله الطَّير من البحر كالبلسان[(١)] ، مع كلِّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، وتحمل أمثال الحِمَّصِ والعدس من الحجارة ، فإذا غشيت القوم أرسلتها عليهم ، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك ، وليس كل القوم أصيب ، فذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده ، ورجعوا سراعاً يتساقطون في كلِّ بلد ، وجعل أبرهة تتساقط أنامله ، كلَّما سقطت أُنملة؛ أتبعتها مِدَّة من قيحٍ ، ودمٍ ، فانتهى إلى اليمن ، وهو مثل فرخ الطَّير فيمن بقي من أصحابه ، ثمَّ مات»[(٢)].

وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله! ـ في سيرته ، كما نقله ابن هشامٍ عنه في السِّير: أنَّ عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش ، يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ[(٣)] إنَّ العَبْدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حَلالَكْ

(١) البَلَسَانُ: نوعٌ من الطَّير (الزرازير).
(٢) السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستيّ ، ص ٣٤ ـ ٣٩ ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/ ٣٠ ـ ٣٧).
(٣) لا هُمَّ: أصلها اللَّهُمَّ ، والعرب تحذف الألف واللام منها ، وتكتفي بما بقي.

لا يَغْلِبَــــــنَّ صَلِيبُهُـــــــمْ وَمِحَـــالُهُـــمْ غَـــدْواً مِحَـــالَـــكْ
إنْ كُنْـــــتَ تَـــارِكُهـــــمْ وقِبْـــلتَنــا فَـــأَمْـــرٌ مَـــا بَـــدَا لَـــكْ

ثمَّ أرسل عبد المطَّلب حَلْقَة باب الكعبة ، وانطلق هو ، ومن معه من قريشٍ إلى شَعَفِ الجبال[١] ، فتحرَّزوا فيها ، ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكَّة إذا دخلها ، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاكٍ لأبرهة ، وجيشه[٢] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائدُ من حادثة الفيل :

١ ـ بيان شرف الكعبة أوَّل بيتٍ وُضع للنَّاس ، وكيف أنَّ مشركي العرب كانوا يعظِّمونه ، ويقدِّسونه ، ولا يقدِّمون عليه شيئاً. وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما الصَّلاة والسَّلام .

٢ ـ حسد النَّصارى ، وحقدهم على مكَّة ، وعلى العرب الَّذين يعظِّمون هذا البيت ، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيْس ، وعلى الرَّغم من استعماله أساليب التَّرغيب ، والتَّرهيب إلا أنَّ العرب امتنعوا ، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيْسِ أحدُ الأعراب ، قال الرَّازي ـ رحمه الله تعالى! ـ في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ : اعلم أنَّ الكيد هو إرادة مضرَّةٍ بالغير على الخفية . (إن قيل) : لِمَ سمَّاه كيداً ، وأمره كان ظاهراً؟ فإنَّه كان يُصرِّح أن يهدم البيت . (قلنا) : نعم ؛ لكن الذي كان في قلبه شرّاً ممَّا أظهر ؛ لأنَّه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشَّرف الحاصل لهم بسبب الكعبة عنهم ، وعن بلدهم إلى نفسه ، وإلى بلدته[٣] .

٣ ـ التَّضحية في سبيل المقدَّسات :

قام ملكٌ من ملوك حِميرَ في وجه جيش أبرهة ، ووقع الملك أسيراً ، وقام النُّفَيْلُ ابن حبيبٍ الخثعميُّ ومن اجتمع معه من قبائل اليمن ، فقاتلوا أبرهة ، إلا أنَّهم انهزموا أمام الجيش الْعَرَمْرَم ، وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدَّساتهم .

إنَّ الدِّفاع عن المقدَّسات والتَّضحية في سبيلها ، شيءٌ غريزيٌّ في فطرة الإنسان .

٤ ـ خَوَنة الأمَّة مخذولون :

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة ، وصاروا عيوناً له ، وجواسيس ، وأرشدوه إلى

---

(١) شَعَف الجبال : أعالي الجبال ، أو رؤوس الجبال .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام مع شرح أبي ذرٍّ الخُشني (١/ ٨٤ ـ ٩١) .
(٣) انظر : تفسير الرَّازي (٣٢/ ٩٤) .

بيت الله العتيق؛ ليهدمه لعنوا في الدُّنيا والآخرة ، لعنهم النَّاس ، ولعنهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأصبح قبر أبي رِغال رمزاً للخيانة والعمالة ، وصار ذاك الرَّجل مبغوضاً في قلوب النَّاس ، وكلَّما مرَّ أحد على قبره؛ رجمه.

٥ ـ حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مكَّة: «سنخلِّي بينه وبين البيت؛ فإن خلَّى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ» وهذا تقريرٌ دقيقٌ لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه ، فمهما كانت قوَّة العدوِّ وحشوده؛ فإنَّها لا تستطيع الوقوف لحظةً واحدةً أمام قدرة الله وبطشه ، ونِقْمته؛ فهو سبحانه واهب الحياة ، وسالبُها في أيِّ وقتٍ شاء[١].

قال القاسميُّ ـ رحمه الله! ـ: قال القاشانيُّ ـ رحمه الله ! ـ قصَّة أصحاب الفيل مشهورةٌ ، وواقعتهم قريبة من عهد الرَّسول ﷺ ، وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثرٌ من سخطه على مَنِ اجترأ عليه بهتك حُرَمِهِ[٢].

٦ ـ تعظيم النَّاس للبيت ، وأهله:

ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام ، الَّذي تكفَّل بحفظه ، وحمايته من عبث المفسدين ، وكيد الكائدين[٣] ، وأعظمت العرب قريشاً ، وقالوا: هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدوَّ ، وكان ذلك آيةً من الله تعالى ، ومقدِّمةً لبعثة نبيٍّ يبعث من مكَّة ، ويطهِّر الكعبة من الأوثان ، ويعيد لها ما كان لها من رفعةٍ ، وشأن[٤].

٧ ـ قصَّة الفيل من دلائل النُّبوَّة:

قال بعض العلماء: إنَّ حادثة الفيل من شواهد النُّبوَّة ، ودلالاتها ، ومن هؤلاء: الماورديُّ ـ رحمه الله! ـ حيث يقول: آيات الملك باهرةٌ ، وشواهد النُّبوَّة ظاهرةٌ ، تشهد مباديها بالعواقب ، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدقٍ ، ولا منتحلٌ بحقٍّ ، وبحسب قوَّتها ، وانتشارها تكون بشائرها ، وإنذارها ، ولمَّا دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوَّته ، وظهرت آيات بركته ، فكان من أعظمها شأناً ، وأشهرها عياناً ، وبياناً أصحاب الفيل . . . إلى أن قال: وآية الرَّسول ﷺ في قصَّة الفيل: أنَّه كان في زمانه حَمْلاً في بطن أمِّه بمكَّة؛ لأنَّه ولد بعد خمسين يوماً من

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٢.
(٢) انظر: محاسن التَّفسير ، للقاسمي (١٧/ ٢٦٢).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٢.

الفيل ، وبعد موت أبيه ، في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوَّل ، فكانت آيةً في ذلك من وَجْهَيْن :

أحدهما: أنَّهم لو ظفروا؛ لسبوا ، واسترقوا ، فأهلكهم الله ـ تعالى ـ لصيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السَّبيُ حَمْلاً ، ووليداً.

والثَّاني: أنَّه لم يكن لقريش من التألُّه ما يستحقُّون به رفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب؛ لأنَّهم كانوا بين عابد صنمٍ ، أو متديِّن وثنٍ ، أو قائلٍ بالزَّندقة ، أو مانعٍ من الرَّجعة ، ولكن لمَّا أراد الله تعالى من ظهور الإسلام ، تأسيساً للنُّبوَّة ، وتعظيماً للكعبة. ولمَّا انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل ، تهيَّبوا الحرم ، وأعظموه ، وزادت حرمته في النُّفوس ، ودانت لقريش بالطَّاعة ، وقالوا: أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم كيدَ عدوِّهم ، فزادوهم تشريفاً ، وتعظيماً ، وقامت قريش لهم بالوفادة ، والسِّدانة ، والسِّقاية (والوفادة مالٌ تخرجه قريش في كلِّ عامٍ من أموالهم ، يصنعون به طعاماً للنَّاس أيام منى) ، فصاروا أئمَّةً ديَّانين ، وقادةً متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[(١)].

وقال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «وكان ذلك عام مولد النَّبيِّ ﷺ ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودين النَّصارى خيرٌ منهم ، فعُلِمَ بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ ، بل كانت لأجل البيت ، أو لأجل النَّبيِّ ﷺ ؛ الَّذي ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأيُّ ذلك كان؛ فهو من دلائل نبوَّته»[(٢)].

وقال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ عندما تحدَّث عن حادثة الفيل: «كان هذا من باب الإرهاص ، والتَّوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنَّه في ذلك العام ولد ـ على أشهر الأقوال ـ ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش! على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانةً للبيت العتيق؛ الَّذي سنشرِّفه ، ونوقِّره ببعثة النَّبيِّ الأميِّ محمَّدٍ ـ صلوات الله ، وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء»[(٣)].

٨ ـ حفظ الله للبيت العتيق:

وهي: أنَّ الله لم يقدِّر لأهل الكتاب(أبرهة وجنوده) ، أن يدمِّروا البيت الحرام ، أو يسيطروا على الأرض المقدَّسة ، حتَّى والشِّرك يُدنِّسه ، والمشركون هم سدنته؛ ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلِّطين ، مصوناً من كيد الكائدين ، وليحفظ لهذه الأرض حرِّيتها ، حتَّى تنبت

---

(١) انظر: أعلام النُّبوَّة ، للماورديِّ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٩.

(٢) انظر: الجواب الصَّحيح (٤/ ١٢٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨ ، ٥٤٩).

فيها العقيدة الجديدة حُرَّةً طليقـةً ، لا يهيمن عليها سلطانٌ ، ولا يطغى فيها طاغيةٌ ، ولا يهيمن على هذا الدِّين الذي جاء ليهيمن على الأديان ، وعلى العباد ، ويقود البشريَّة ، ولا يقاد ، وكان هذا من تدبير الله لبيته ، ولدينه ، قبل أن يعلم أحدٌ : أنَّ نبيَّ هذا الدِّين قد ولد في هذا العام[١] .

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدَّلالة اليوم ، ونطمئنَّ إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرةٍ ماكرةٍ ، ترف حول الأماكن المقدَّسة من قبل الصَّليبيَّة العالميَّة ، والصهيونيَّة العالمية ، ولا تني ، أو تهدأ في التمهيد الخفيِّ اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة ، فالله الَّذي حمى بيته من أهل الكتاب ، وسدنتُه مشركون ، سيحفظه ـ إن شاء الله ـ ويحفظ مدينة رسوله ﷺ من كيد الكائدين ، ومكر الماكرين[٢] .

٩ ـ جَعْلُ الحادثة تاريخاً للعرب :

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل ، فأَرَّخُوا به ، وقالوا : وقع هذا عامَ الفيل ، ووُلد فلانٌ عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السِّنين ، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م[٣] .

* * *

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٣ .
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٠) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٣ .

المبحث الخامس
من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النَّبيِّ ﷺ:

إنَّ النَّبيَّ ﷺ أشرف الناس نسباً، وأكملهم خَلْقاً، وخُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه ﷺ أحاديث صحاح؛ منها: ما رواه مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [سبق تخريجه].

وقد ذكر الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله! ـ نسب النَّبيِّ ﷺ، فقال: «هو أبو القاسم، محمَّد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصَيٍّ، بن كلاب، بن مُرَّةَ، بن كعب، بن لُؤَيٍّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النَّضر، بن كِنانة، بن خُزيمة، بن مُدْرِكة، بن إلياس، بن مضر، بن نِزارِ، بن مَعَدٍّ، بن عدنان» [البخاري تعليقاً (٧/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦)].

وقال البغويُّ في شرح السُّنَّة [(١٣/ ١٩٣)] بعد ذكر النَّسب إلى عدنان: «ولا يصحُّ حفظ النَّسب فوق عدنان».

وقال ابن القيِّم بعد ذكر النَّسب إلى عدنان أيضاً: «إلى هنا معلوم الصحَّة، متَّفقٌ عليه بين النَّسَّابين، ولا خلاف ألبتةَ، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، ولا خلاف بينهم: أنَّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»(١).

وقد جاء عن ابن سعدٍ في طبقاته: «الأمر عندنا الإمساك عمَّا وراء عدنان إلى إسماعيل»(٢).

وعن عروةَ بن الزُّبير: أنَّه قال: «ما وجدنا مَنْ يعرف وراء عدنان، ولا قحطان إلا تخرُّصاً»(٣).

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧١).
(٢) ابن سعد (١/ ٥٨).
(٣) المصدر السابق نفسه.

قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ بإجماع النَّاس ، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء»(١) .

لقد كان ـ وما زال ـ شرف النَّسب له المكانة في النُّفوس ؛ لأنَّ ذا النَّسب الرَّفيع لا تُنْكَرُ عليه الصَّدارة ، نبوَّةً كانت ، أو مُلكاً ، وينكر ذلك على وضيع النَّسب ، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه ، ولمَّا كان محمَّد ﷺ يُعَدُّ للنُّبوَّة ، هيَّأ الله تعالى له شرف النَّسب ؛ ليكون مساعداً له على التفاف النَّاس حوله(٢) .

إنَّ معدن النَّبيِّ ﷺ طيِّبٌ ، ونفيسٌ ، فهو من نسْل إسماعيل الذَّبيح ، وإبراهيم خليل الله ، واستجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وبشارةُ أخيه عيسى عليه السلام ، كما حَدَّث هو عن نفسه ، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة أخي عيسى» [أحمد (٤/ ١٢٧) والحاكم (٢/ ٦٠٠) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢)] .

وطيب المعدن ، والنَّسب الرَّفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ، ويجعله يهتمُّ بعاليها ، وفضائلها . والرُّسل ، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم ، وطهر أصلابهم ، ويعرفون عند النَّاس بذلك ، فيحمدونهم ، ويثقون بهم(٣) .

وممَّا تبيَّن يتَّضح لنا من نسبه الشَّريف ، دلالة واضحةً على أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ميَّز العرب على سائر النَّاس ، وفضَّل قريشاً على سائر القبائل الأخرى ، ومقتضى محبَّة رسول الله ﷺ محبَّة القوم الذين ظهر فيهم ، والقبيلة التي ولد فيها ، لا مِنْ حيث الأفراد والجنس ؛ بل من حيث الحقيقة المجرَّدة ، ذلك ؛ لأنَّ الحقيقة العربيَّة القرشيَّة قد شرف كلٌّ منها ـ ولا ريب ـ بانتساب رسول الله ﷺ إليها ، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوءٍ ، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب ، أو القرشيِّين عن صراط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وانحطَّ عن مستوى الكرامة الإسلاميَّة التي اختارها الله لعباده ؛ لأنَّ هذا الانحراف ، أو الانحطاط من شأنه أن يُودِيَ بما كان من نسبةٍ بينه وبين الرَّسول ﷺ ، ويلغيها من الاعتبار(٤) .

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهبٍ ، ورؤيا آمنة أمِّ النَّبيِّ ﷺ:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه ، ولمَّا نجا من الذَّبح ، وفداه

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، للذَّهبي ، ص ١ .
(٢) انظر: دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، ص ٩٦ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٢ .
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٤٥ .

عبد المطلب بمئةٍ من الإبل ، زوَّجه من أشرف نساء مكَّة نسباً ، وهي آمنة بنت وهبٍ ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب[1] .

ولم يلبث أبوه أن توفِّي بعد أن حملت به ﷺ آمنة ، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عديِّ بن النَّجار» ، فإنَّه كان قد ذهب بتجارةٍ إلى الشَّام ، فأدركته منيَّته بالمدينة وهو راجعٌ ، وترك هذه النَّسَمَةَ المباركة ، وكأنَّ القدر يقول له : قد انتهت مهمَّتك في الحياة ، وهذا الجنين الطَّاهر يتولَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحكمته ورحمته تربيته ، وتأديبه ، وإعداده ؛ لإخراج البشريَّة من الظُّلمات إلى النُّور .

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النَّبيِّ ﷺ . قيل للنَّبيِّ ﷺ : ما أوَّل بدء أمرك؟[2] فقال رسول الله ﷺ : «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» [أحمد (٥/ ٢٦٢) والمعجم الكبير (٧٧٢٩) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢١)] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله : ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وبشرى عيسى عليه السلام كما أشار إليه قوله ـ عزَّ وجل ـ حاكياً عن المسيح عليه السلام : ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الصف : ٦] .

وقوله ﷺ : «ورأت أمِّي كأنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» . قال ابن رجب : «وخروجُ هذا النُّور عند وضعه إشارةٌ إلى ما يجيء به من النُّور ؛ الَّذي اهتدى به أهل الأرض ، وزالت به ظلمة الشِّرك منها ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة : ١٥ ـ ١٦] .

وقال ابن كثير : «وتخصيص الشَّام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ، وثبوته ببلاد الشَّام ، ولهذا تكون الشَّام في آخر الزَّمان معقلاً للإسلام ، وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشَّرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصَّحيحين : «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ ، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم ، ولا مَنْ خالفهم ، حتَّى يأتي أمر الله وهم

(١) انظر : وقفات تربوية مع السِّيرة ، لأحمد فريد ، ص ٤٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه .

كذلك» . وفي صحيح البخاريِّ : «وهم بالشَّام» [البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٩٢٣/ م)] .

ثالثاً : ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ :

ولد الحبيب المصطفى ﷺ يوم الإثنين بلا خلافٍ ، والأكثرون على أنَّه لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول(١) .

والمجمع عليه : أنَّه ﷺ ولد عام الفيل(٢) ، وكانت ولادته في دار أبي طالبٍ ، بشعب بني هاشم(٣) .

قال أحمد شوقي ـ رحمه الله ! ـ في مولد الحبيب المصطفى ﷺ :

وُلِـدَ الهُـدَى فَـالْكَـائِنَـاتُ ضِيـاءُ ... وَفَـمُ الـزَّمَـان تبسُّـمٌ وَثنَـاءُ
الـرُّوحُ ، والمـلأُ الملائـكُ حَـوْلَـهُ ... للـدِّيـنِ وَالـدُّنْيَـا بِـه بُشَـرَاءُ(٤)
وَالْعَـرْشُ يَـزْهُـو ، والحَظِيـرةُ تَـزْدَهي ... والمُنْتَهَـى والسِّـدْرَةُ الْعَصْمَـاءُ
بِـكَ بَشَّـرَ اللهُ السَّمَـاءَ فَـزُيِّنَـتْ ... وتَضَـوَّعَـتْ مِسْكـاً بِـكَ الْغَبْـرَاءُ
يَـوْمٌ يَتِيـهُ عَلـى الـزَّمَـانِ صَبَـاحُـهُ ... ومَسَـاؤُهُ بمحمَّـدٍ وَضَّـاءُ
ذُعِـرَتْ عـروشُ الظَّـالميـنَ فَـزُلْـزِلَـتْ ... وعَلَـتْ عَلـىٰ تِيجَـانِهِـمْ أَصْـدَاءُ
والنَّـارُ خَـاوِيَـةُ الجَـوَانِـبِ حَـوْلَهُـمْ ... خمَـدَتْ ذَوَائِبُهـا وَغَـاضَ المـاءُ
والآيُ تَتْـرَى ، والخَـوارِقُ جَمَّـةٌ ... جبْـرِيـلُ رَوَّاحٌ بِهـا غَـدَّاءُ(٥)

وقد قال الشَّاعر الأديب اللِّيبي ، الأستاذ محمد بشير المغيربي ، في ذكرى مولد الرَّسول ﷺ عام ١٩٤٧ م ، في جريدة الوطن الصَّادرة في بنغازي :

بَلَـغَ الـزَّمَـانُ مِـنَ الحيـاةِ عتيَّـا ... لكِـنَّ يـومـاً لا يَـزَالُ فَتِيَّـا
يمشـي علـى الأحقـابِ مشيَـةَ فَـاتِـحٍ ... فـي مـوكـبٍ جَعَـلَ السِّنيـنَ مَطِيَّـا
تَخِـذَتْ لَـهُ الأعْـوَامُ فـي أيَّـامِهَـا ... عـرْشـاً فـأصْبَـحَ تَـاجَهَـا الأَبْـدِيَّـا
ومَضَـتْ بِـهِ الأجْيَـالُ خُطُـوَاتٍ مَـنْ ... بلَـغَ الـرَّشَـادَ وَكَـانَ قَبْـلُ صَبِيَّـا
أَعْظِـمْ بِيَـوْمٍ جَـاءَ يَحْمِـلُ «رَحْمَـةً ... للْعَـالَمِيْـنَ» وعِـزَّةً ورُقِيَّـا
وُلِـدَتْ بِـهِ للكَـائِنَـاتِ حَقيقَـةٌ ... أَضْحَـى بِهَـا سِـرُّ الحيـاة جَلِيَّـا

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي ، ص٤٧. وينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٧٤٢ و٧٤٣).
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/ ٢٠٣) .
(٣) انظر : وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٧ .
(٤) بُشراء : جمع بشير .
(٥) انظر : ديوان شوقي (١/ ٣٤ ، ٣٥) .

وَأَنَارَ فِي الأُولَى الطَّرِيقَ إِلى الْوَرَى ليَسِيرَ لِلأُخْرى الأَنَامُ تَقِيَّا
كَادَتْ بِهِ الدُّنْيَا تَقولُ لِشَمْسِهَا عنِّي فَقَدْ رَجَعَ الضِّيَاءُ إِلَيَّا(١)

وقال أيضاً في نادي طرابلس الغرب الثَّقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩ م:

مَالِي وَمَا بِي مِنْ شُمُولْ أَشْدُو عَلَى رَغْمِ العَذُولْ
إنِي أُطَالِعُ في السَّما ءِ كَأَنَّها سِفْرٌ جليلْ
وأرَى النُّجُومَ تَمَثَّلَتْ لي كالملائك في مُثُولْ
وَالْبَدْرُ خِلْتُ شُعَاعَه وَحْيَ الرِّسَالَةِ في نُزولْ
وَإِذَا بِصَوْتٍ مِنْ ضَمِيـ ـرِ الْكَوْن مُبْتَهِجاً يَقُولْ
في مثل هَذي اللَّيلَةِ الْـ ـغَرَّاء قَدْ وَلِدَ الرَّسُولْ
وَأَشَعَّ نُورُ مُحَمَّدٍ فَوْقَ الرَّوابي والسُّهُولْ
مَلأَ الزَّمَانَ وَكَانَ قَبْـ ـلُ يَهِيمُ في لَيْل طَوِيلْ(٢)

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام:

كانت حاضنته ﷺ أمُّ أيمن بركة الحبشيَّة أَمَةَ أبيه، وأول من أرضعته ثُوَيْبَةُ أَمَةُ عمِّه أبي لهب(٣). فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة، أنَّ أمَّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنَّها قالت: يا رسول الله! أنْكِحْ أختي بنت أبي سفيان، فقال: «أوَتحبِّين ذلك؟» فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحَبُّ من شاركني في خيرٍ أختي. فقال النبي ﷺ: «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلت: فإنَّا نُحَدَّثُ أنَّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سلمة. قال: «بنت أمِّ سلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنَّها لم تكن ربيبتي في حجري، ما حَلَّت لي، إنَّها لابنة أخي من الرَّضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبةُ، فلا تعرضنَ عليَّ بناتكنَّ، ولا أخَواتِكنَّ» [البخاري (٥١٠١) ومسلم (١٤٤٩)].

وكان من شأن أمِّ أيمن، أمِّ أسامة بن زيد: أنَّها كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلمَّا ولدت آمنةُ رسولَ الله ﷺ، بعدما تُوفي أبوه، فكانت أمُّ أيمن تحضنه، حتَّى كَبِرَ رسولُ الله ﷺ، فأعتقها، ثمَّ أنْكَحَهَا زيدَ ابن حارثة، ثم تُوفيت بعدما تُوفي رسولُ الله ﷺ بخمسة أشهرٍ. [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)].

---

(١) جريدة (الوطن) بنغازي ١٩٤٧ م.
(٢) سمعتُها مشافهةً من الشَّاعر.
(٣) انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبوية، ص ٤٨.

١ ـ حليمة السَّعديَّة مرضعته في بني سعد[١]:

وهذه حليمة السَّعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصطفى ﷺ؛ التي لمستها في نفسها، وولدها، ورعيها، وبيتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: لمَّا وُلد رسولُ الله ﷺ؛ قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوةٍ من بني سعد بن بكر يلتمسن الرُّضعاء بمكَّة. قالت حليمة: فخرجت في أوائل النِّسوة على أتانٍ لي، قمراء[٢]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزَّى، أحد بني سعد بن بكر، ثمَّ أحد بني ناضرة، قد أدمت[٣] أتاننا، ومعي بالرَّكب شارفٌ[٤] والله ما تَبِضُّ[٥] بقطرة لبنٍ! في سنةٍ شهباء[٦]، قد جاع النَّاس حتَّى خلص إليهم الجَهْد، ومعي ابنٌ لي، والله ما ينام ليلنا! وما أجد في يدي شيئاً أعلِّله به، إلا أنا نرجو الغيث، وكانت لنا غنمٌ، فنحن نرجوها.

فلمَّا قدمنا مكَّة، فما بقي منَّا أحدٌ إلا عُرض عليها رسولُ الله ﷺ، فكرهته، فقلنا: إنَّه يتيم، وإنَّما يُكرِم الظِّئر، ويُحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أُمُّه، أو عمُّه، أو جدُّه، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعاً، فلمَّا لم أجد غيره؛ رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لآخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت!.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فو الله! ما هو إلا أن أتيتُ به الرَّحْلَ، فأمسيتُ؛ أقبل ثدِيايَ باللَّبن، حتَّى أرويتُه، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافلٌ[٧]، فحلبها، فأرواني، وروي، فقال: يا حليمة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَةً[٨] مباركةً، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً، وكنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا.

ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء، فحملته معي، فو الذي

---

(١) ينظر الشكل (٨) في الصفحة (٧٤٤).
(٢) قمراء: القُمرة: بالضمِّ لونٌ يميل للخضرة، أو بياضٌ فيه سمرةٌ، أو كدرة.
(٣) أدمت: حدثت في ركبها جروحٌ داميةٌ؛ لاصطكاكها، وذلك لطول مسافة السَّير.
(٤) الشَّارف: الناقة المسنَّة.
(٥) لا تبضُّ بقطرة لبن: لا ترشح قطرة لبن.
(٦) شهباء: سنةٌ مجدبةٌ لا خضرة فيها، ولا مطر.
(٧) حافل: كثير اللبن.
(٨) نسمة: نفس.

نفس حليمة بيده؛ لقطعت الرَّكْبَ[١]! حتَّى إنَّ النِّسوة ليقلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كلِّ يومٍ خيراً، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سِنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثمَّ يريحون، فتروح أغنام بني سعدٍ جياعاً، وتروح غنمي بطاناً[٢]، حُفَّلاً[٣]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى، وغنم حليمة تروح شباعاً حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً، كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب السنة، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّة، أنا وأبوه، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه، قلنا: والله! ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء[٤] مكَّة، وأسقامها، فدعيه نرجع به حتَّى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهراً ثلاثةً، أو أربعةً، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا[٥]؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره)، فقال: إنَّ أخي القرشيَّ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأخذاه، وأضجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا، وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه[٦]، فلمَّا رآنا؛ أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضمَمْناه إلينا: ما لك بأبي وأمِّي؟ فقال: أتاني رجلان، وأضجعاني، فشقَّا بطني، ووضعا به شيئاً، ثمَّ ردَّاه كما هو، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوَّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمِّه، فلمَّا رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنْ قضى الله الرَّضاعة، وسَرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبُّون أحبُّ إلينا.

قال: فقالت: إنَّ لكما شأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتَّى أخبرناها، فقالت: كلا والله! لا يصنع الله ذلك به، إنَّ لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره، إنِّي حملت به، فو الله! ما حملت

---

(١) قطعت الرَّكْبَ: سبقت الركب.

(٢) بطاناً: الممتلئة البطون.

(٣) حفَّلاً: كثيرات اللَّبن.

(٤) الوباء: المرض.

(٥) البهم: صغار الضَّأن والماعز.

(٦) انتقع لونه: تغير.

حملاً قطُّ ، كان أخفَّ عليَّ منه ، ولا أيسر منه ، ثُمَّ أُريت حين حملته خرج منِّي نورٌ أضاء منه أعناق الإبل بِبُصْرى ـ أو قالت : قصور بُصرى ـ ثمَّ وضعتُه حين وضعته ، فو الله ! ما وقع كما يقع الصِّبيان ، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض ، رافعاً رأسه إلى السَّماء ، فدعاه عنكما ! فقَبَضَتْهُ ، وانطلقنا» [أبو يعلى (٧١٦٣) وابن حبان (٦٣٣٥) والمعجم الكبير (٢٤/ ٢١٢ ـ ٢١٥) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) ودلائل البيهقي (١/ ١٣٣ ـ ١٣٦)] .

١ ـ دروسٌ وعبرٌ :

أ ـ بركة النَّبيِّ ﷺ على السَّيدة حليمة :

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السَّعدية في كلِّ شيءٍ ، ظهرت في إدرار ثدييها ، وغزارة حليبها ، وقد كان لا يكفي ولدها ، وظهرت بركته في سكون الطِّفل ولدها ، وقد كان كثير البكاء ، مزعجاً لأمِّه ، يؤرِّقها ، ويمنعها من النَّوم ، وإذا هو شبعان ساكنٌ جعل أمَّه تنام ، وتستريح . وظهرت بركته في شياههم العجفاوات ، الَّتي لا تدرُّ شيئاً ، وإذا بها تفيض من اللَّبن الكثير الَّذي لم يُعهد .

ب ـ كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له :

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السَّعدية التي تشرَّفت بإرضاعه ، وليس من ذلك غرابةٌ ، ولا عجبٌ[(١)] ، فخَلْفَ ذلك حكمةٌ أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطِّفل ، ويحنوا عليه ، ويحسنوا في معاملته ، ورعايته ، وحضانته ، وهكذا كان ، فقد كانوا أحرص عليه ، وأرحم به من أولادهم[(٢)] .

ج ـ خيار الله للعبد أبرك وأفضل :

اختار الله لحليمة هذا الطِّفل اليتيم ، وأخذته على مضضٍ ؛ لأنَّها لم تجد غيره ، فكان الخير كلَّ الخير فيما اختاره الله ، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه ، وهذا درسٌ لكلِّ مسلمٍ بأن يطمئنَّ قلبه إلى قدر الله ، واختياره ، والرِّضا به ، ولا يندم على ما مضى ، وما لم يقدِّره الله تعالى .

د ـ أثر البادية في صحَّة الأبدان ، وصفاء النُّفوس ، وذكاء العقول :

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ : وتنشئة الأولاد في البادية ؛ ليمرحوا في كنف الطَّبيعة ، ويستمتعوا بجوِّها الطَّلق ، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء

---

(١) فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٤٤ .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٥ .

الأعضاء ، والمشاعر ، وإطلاق الأفكار ، والعواطف .

إنَّها لتعاسةٌ أن يعيش أولادنا في شقق ضيِّقةٍ ، من بيوتٍ متلاصقةٍ ، كأنَّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها ، وحرَمتْهم لذَّة التَّنفُّس العميق ، والهواء المنعش .

ولا شكَّ : أنَّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة ، يعود ـ فيما يعود ـ إلى البعد عن الطَّبيعة ، والإغراق في التصنُّع . ونحن نقدِّر لأهل مكَّة اتِّجاههم إلى البادية ؛ لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم . وكثيرٌ من علماء التَّربية يودُّ لو تكون الطَّبيعة هي المعهد الأوَّل للطِّفل ، حتَّى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الَّذي وجد فيه ، ويبدو أنَّ هذا حلمٌ عسير التَّحقيق[(١)] .

وتعلَّم رسول الله ﷺ في بادية بني سعدٍ اللِّسان العربيَّ الفصيح ، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق ، فعندما قال له أبو بكرٍ رضي الله عنه : يا رسول الله ! ما رأيت أفصح منك ؛ فقال ﷺ : «وما يمنعني وأنا من قريش ، وأُرضعت في بني سعد[(٢)] ؟ ! » .

٢ ـ ما يستفاد من حادثة شقِّ الصَّدر :

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصَّدر الَّتي حصلت له ﷺ أثناء وجوده في مضارب بني سعدٍ ، من إرهاصات النُّبوَّة ، ودلائل اختيار الله إيَّاه لأمرٍ جليل[(٣)] .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصَّدر في صغره ، فعن أنس بن مالكٍ : «أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل ؛ وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه ، فشقَّ عن قلبه ؛ فاستخرج القلب ، فاستخرج منه عَلَقَةً ، فقال : هذا حظُّ الشَّيطان منك ، ثمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأَمَهُ[(٤)] ، ثمَّ أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه ـ يعني : ظِئْرَهُ ـ فقالوا : إنَّ محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه ؛ وهو مُنْتَقِعُ اللون . قال أنسٌ رضي الله عنه : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره» [مسلم (١٦٢/ ٢٦١) وأحمد (٣/ ١٤٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥)] .

ولا شكَّ : أنَّ التَّطهير من حظِّ الشيطان هو إرهاصٌ مبكِّرٌ للنُّبوَّة ، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ ، وعبادة غير الله ، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوحيد الخالص ، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك ،

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/ ١٨٨) .
(٣) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٤٧ .
(٤) أي : جمعه ، وضمَّ بعضه إلى بعضٍ . (شرح النَّوويِّ على مسلمٍ ٢/ ٢١٦) .

فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنمٍ(١) برغم انتشار ذلك في قريش(٢).

وتحدَّث الدُّكتور البوطي عن الحكمة في ذلك، فقال: يبدو: أنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرَّسول ﷺ، وتهيؤه للعصمة، والوحي منذ صغره بوسائل مادِّيَّةٍ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاس به، وتصديقهم برسالته. إنَّها ـ إذاً ـ عملية تطهيرٍ معنويٍّ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلٰهي بين أسماع النَّاس، وأبصارهم(٣). إنَّ إخراج العلقة منه تطهيرٌ للرَّسول ﷺ من حالات الصِّبَا اللاهية العابثة المستهترة، واتِّصافه بصفات الجدِّ، والحزم، والاتزان، وغيرها من صفات الرُّجولة الصَّادقة، كما تدلُّنا على عناية الله به، وحفظه له، وأنَّه ليس للشَّيطان عليه سبيل(٤).

خامساً: وفاة أمِّه، وكفالة جدِّه، ثمَّ عمِّه:

توفِّيت أمُّ النَّبيِّ ﷺ وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديِّ بن النَّجار تُريه إيَّاهم، فماتت، وهي راجعةٌ به إلى مكَّة(٥)، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطَّلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه، أي: أعمام النَّبيِّ ﷺ، فقد كان جدُّه مهيباً، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له، وكان أعمامه يتهيَّبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان ﷺ يجلس على الفراش، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجدُّ بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ(٦)، وكان جدُّه يحبُّه حباً عظيماً، وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبلٍ، فاحتبس عليه(٧)، فطاف بالبيت، وهو يرتجل، يقول:

رَبِّ ردَّ راكبي محمَّدا ... رُدَّه لي وَاصْنَعْ عِنْدي يَدا

فلمَّا رجع النَّبيُّ ﷺ، وجاء بالإبل، قال له: يا بني! لقد حزنتُ عليك كالمرأة، حزناً

---

(١) زعم المستشرق نيكلسون: أنَّ حديث شقِّ الصَّدر أسطورةٌ نشأت عن تفسير الآية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وأنَّه لو كان لها أصل؛ فعلينا أن نخمِّن أنَّها تشير إلى نوع من الصَّرع، وهذا الذي زعمه نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتَّهموا رسول الله ﷺ بالجنون، فنفى الله عنه ذلك، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٠٤).

(٣) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٤٧.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٥) ابن هشام في السِّيرة (١/ ١٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠١.

(٧) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص ٥٦.

لا يفارقني أبداً. [البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠ ـ ٢١) والحاكم (٢/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤)].

ثُمَّ توفِّي عبد المطلب والنَّبيُّ ﷺ في الثَّامنة من عمره[١]، فأوصى جدُّه به عمَّه أبا طالبٍ، فكفله عمُّه، وحنَّ عليه، ورعاه[٢].

أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسولُه ﷺ يتيماً، تتولاَّه عناية الله وحدها، بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتَّى لا تميل به نفسه إلى مجد المال، والجاه، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من معنى الصَّدارة، والزَّعامة، فيلتبس على النَّاس قداسة النُّبوَّة بجاه الدُّنيا، وحتَّى لا يحسبوه يصطنع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثَّاني[٣]، وكانت المصائب الَّتي أصابت النَّبيَّ ﷺ منذ طفولته؛ كموت أمِّه، ثمَّ جدِّه بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرَّةً بعد مرَّةٍ، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النُّفوس وتخلِّصها من أدران القسوة، والكِبْر، والغرور، وتجعلها أكثر رقَّةً، وتواضعاً.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزَالهما، وضعف بُنيتهما، فلم يكن محمَّد ﷺ سليل أبوين سقيمين، وإنَّما توفَّاهما الله بعد أن قاما بالمهمَّة الَّتي وُجدا من أجلها؛ ليتأسَّى بمحمَّد ﷺ كلُّ مَنْ فقد والديه، أو أحدَهما وهو صغير، وليكون أدبه، وخلقه مع يُتمه دليلاً على أنَّ الله تعالى تولَّى رعايته، وتأديبه؛ وحتَّى ينشأ قويَّ الإرادة، ماضي العزيمة، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه، وحتَّى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته[٤]؛ وحتَّى لا تتدخَّل يدٌ بشريةٌ في تربيته، وتوجيهه، فيكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الَّذي يتولَّى تربيته، ولا يتلقَّى، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية، وأعرافها شيئاً، إنَّما يتلقَّى من لدن الحكيم الخبير، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ آواه، وسخَّر له جدَّه، وعمَّه لتهيئة الجانب الماديِّ، بينما كانت التَّربية النَّفسية، والخُلقيَّة، والفكريَّة تعهُّداً ربَّانياً، ورعايةً إلٰهيَّةً[٥].

سادساً: عمله ﷺ في الرَّعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ، وأخذ حقَّه عن رعيه، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠١.
(٢) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص ١١٩.
(٣) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٤٦.
(٤) انظر: رسائل الأنبياء، لعمر أحمد عمر (٣/ ٢٠).
(٥) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ٨٤، ٨٥.

رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة» [البخاري (٢٢٦٢) وابن ماجه (٢١٤٩)][(١)].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ ﷺ الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر، والحلم، والأناة، والرَّأفة، والرَّحمة[(٢)].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان للحيوانات[(٣)]، فكان رعي الغنم للنَّبيِّ ﷺ دربةً، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

١ ـ الصَّبر: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبر، والتَّحمُّل، وكذا تربية البشر[(٤)].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ، ولا في ترفٍ، وسرفٍ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام، وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية، ويألفها، ويصبر عليها[(٥)].

٢ ـ التَّواضع: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم، والإشرافُ على ولادتها، والقيام بحراستها، والنَّوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيءٌ من روثها، فلا يتضجَّر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع[(٦)].

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ

---

(١) القيراط: جزءٌ من الدِّينار، أو الدِّرهم.
(٢) انظر: محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ١٧٧).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٠٦).
(٤) انظر: مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص ١٢٤.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١١٤، ١١٥.
(٦) المصدر السابق نفسه.

يحب الجمال ، الكبر : بطرُ الحقِّ ، وغَمْطُ النَّاس» [مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) والحاكم (١/٢٦)] .

٣ ـ الشَّجاعة : فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة ، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة ، تؤهِّله للقضاء على الوحوش ، ومنعها من افتراس أغنامه(١) .

٤ ـ الرَّحمة ، والعطف : إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم ؛ إن هي مرضت ، أم كُسرت ، أو أصيبت ، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها ، وعلاجها والتَّخفيف من آلامها ، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان ، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان ، وإرشاده ، وإنقاذه من النَّار ، وإسعاده في الدَّارين(٢) .

٥ ـ حبُّ الكسب من عرق الجبين :

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً ﷺ عن رعي الغنم ، ولكن هذه تربيةٌ له ، ولأمَّته للأكل من كسب اليد ، وعرق الجبين ، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد ، إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني عمَّا في أيدي الناس ، ولا يعتمد عليهم ، فبذلك تبقى قيمته ، وترتفع منزلته ، ويبتعد عن الشُّبه ، والتَّشكيك فيه ، ويتجرَّد عمله لله تعالى ، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة ، الَّذين يصوِّرون للنَّاس : أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم(٣) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس : ٧٨] .

هكذا يقول فرعون لموسى ، ونظراً لسيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون : أنَّ أيَّ تفكيرٍ ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا ، ولهذا قال الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لأقوامهم ، مبينين استغناءهم عنهم : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [هود : ٢٩] .

روى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [البخاري (٢٠٧٢)] .

ولا شكَّ : أنَّ الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرِّيَّة التَّامَّة ، والقدرة على قول كلمة الحقِّ ، والصَّدْع بها(٤) ، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطُّغاة ، ويسكتون على

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : مدخل لفهم السِّيرة ، ص ١٢٧ .
(٣) انظر : مدخل لفهم السِّيرة ، ص (١٣٧) .
(٤) المرجع السابق نفسه ، ص (١٢٨) .

باطلهم ، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم ![١] .

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس ، إذا ما كان كسبه ، ورزقه من وراء دعوته ، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس ، وصدقاتهم ، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيِّ ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه ؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ ، أو فضلٌ في دنياه ، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه ، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه .

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول ﷺ في هذه الفترة ؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة ، والرِّسالة الإلٰهيَّة ، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ، ويوضح : أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسول ﷺ قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته ، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيٍّ ، فيما بعد البعثة[٢] .

إنَّ إقبال النَّبيِّ ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة ؛ منها : الذوق الرَّفيع ، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّه ﷺ . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة ، وكان له في الحنوِّ ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق ، ولكنَّه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب ، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق ، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع ، وبرٍّ في المعاملة ، وبذلٍ للوسع[٣] .

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا ، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيئ للنَّبيِّ ﷺ ـ وهو في صدر حياته ـ من أسباب الرَّفاهية ، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق ، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم : أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه ، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله ، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[٤] .

سابعاً : حفظ الله تعالى لنبيِّه ﷺ قبل البعثة :

إنَّ الله تعالى صان نبيَّه ﷺ عن شرك الجاهليَّة ، وعبادة الأصنام . روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : حدَّثني جارٌ لخديجة : أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ وهو يقول

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص (٩٣) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٥٠ .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً» [أحمد (٤/ ٢٢٢) و(٥/ ٣٦٢)] . قال: وهي أصنامهم الَّتي كانوا يعبدون، ثمَّ يضطجعون[(١)] . وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[(٢)] .

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشَّباب، ودواعيه البريئة، الَّتي تنزع إليها الشُّبوبيَّة بطبعها، ولكنَّها لا تلائم وقار الهداة، وجلال المرشدين[(٣)] . فعن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيحٍ ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به، إلا مرَّتين من الدَّهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكَّة، سمعت غناءً، وضرب دفوفٍ، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة ـ لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ ـ فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس، ثمَّ رجعت إلى صاحبي، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة، حتَّى أكرمني الله بنبوَّته» [أبو نعيم في الدلائل (١٢٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٣ ـ ٣٤) والبزار (٢٤٠٣) ومجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦)] .

وهذا الحديثُ يوضِّح لنا حقيقتين كلًّا منهما على جانبٍ كبيرٍ من الأهميَّة:

١ ـ إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشريَّة كلِّها، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية، الَّتي اقتضت حكمة الله أن يجبل النَّاس عليها، فكان يُحِسُّ بمعنى السَّمر واللَّهو، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ، وتحدِّثه نفسه: لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك، كما يتمتَّع الآخرون.

٢ ـ إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كلِّ ما لا يتَّفق مع مقتضيات الدَّعوة الَّتي هيَّأه الله لها[(٤)] .

---

(١) انظر: وقفات تربويَّة، لأحمد فريد، ص ٥١.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٥١).
(٤) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص ٥٠، ٥١.

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول ﷺ وهو غلامٌ:

خرج أبو طالبٍ إلى الشَّام، وخرج معه النَّبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قريشٍ، فلمَّا أشرفوا[١] على الرَّاهب[٢]، هبطوا، فحَلُّوا رحالهم[٣]، فخرج إليهم الرَّاهبُ، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلُّون رحالهم؛ جعل الرَّاهب يتخلَّلهم[٤]، حتَّى جاء، فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجرٌ، ولا حجرٌ إلا خرَّ[٥] ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ، وإنِّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف[٦] كتفه مثل التُّفاحة.

ثمَّ رجع، فصنع لهم طعاماً، فلمَّا أتاهم به، وكان رسول الله ﷺ في رعية الإبل[٧]، قال: أرسلوا إليه، فأقبل، وعليه غمامةٌ[٨] تظلُّه، فلمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة، فلمَّا جلس مال فيءُ الشَّجرة[٩] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائمٌ عليهم، وهو يناشدهم[١٠] ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإن الرُّوم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر، فلم يبقَ طريقٌ إلا بُعث إليه بأناسٍ، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟

قالوا: إنَّما اخترنا خيره لك لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه، وأقاموا معه.

---

(١) أشرفوا: اطلعوا من فوق.
(٢) الرَّاهب: زاهد النَّصارى.
(٣) حَلُّوا رحالهم: أي: أنزلوها، وفتحوها.
(٤) يتخلَّلهم: يمشي بينهم.
(٥) خرَّ: سقط.
(٦) الغضروف: رأس لوح الكتف.
(٧) رعية الإبل: رعايتها.
(٨) غمامة: السَّحابة.
(٩) مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.
(١٠) يناشدهم: يقسم عليهم.

قال: أنشدكم الله أيُّكم وليُّه[1]؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتَّى ردَّه أبو طالب. [البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٤ ـ ٢٥) والترمذي (٣٦٢٠) والحاكم (٢/ ٦١٥) وأبو نعيم في دلائله (١٠٩)].

وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب، يعلمون: أنَّ محمَّداً ﷺ هو الرَّسول للبشريَّة، وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

٢ ـ إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبيِّ ﷺ، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشَّجرة عليه.

٣ ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ استفاد من سفره، وتجواله مع عمِّه، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلع على تجارِب الآخرين، وخبرتهم، واستفاد من آرائهم، فهم أصحاب خبرةٍ، ودرايةٍ، وتجربةٍ لم يمرَّ بها النَّبيُّ ﷺ في سِنِّه تلك.

٤ ـ حذَّر بَحِيرا من النَّصارى، وبيَّن أنَّهم إذا علموا بالنَّبيِّ ﷺ فإنَّهم سيقتلونه، وناشد عمَّه، وأشياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإنَّ الروم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه. لقد كان الرُّومان على علمٍ بأنَّ مجيء هذا الرَّسول سيقضي على نفوذهم الاستعماريِّ في المنطقة، ومن ثَمَّ فهو العدوُّ الَّذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرُّومان.

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومَنْ معهم من كنانة، وبين هوازن، وسببها: أن عُروةَ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن هوازن أجار لطيمةً[2] للنُّعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق كلِّه. فخرج بها عروة، وخرج البرَّاض يطلب غفلته حتَّى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا؛ وهوازن لا تشعر بهم، ثمَّ بلغهم الخبر، فاتَّبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتَّى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، وعاونت قريش كنانة[3] وشهد الرَّسول ﷺ بعض أيَّامهم، أخرجه أعمامه معهم. وسُمِّيت يوم الفِجَارِ بسبب ما استُحلَّ فيه من حرمات مكَّة؛ التي كانت مقدَّسةً عند العرب[4].

وقد قال ﷺ عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي»، أي أردُّ عليهم نبل عدوِّهم إذا

---

(١) أيكم وليُّه: قريبه.
(٢) اللَّطيمة: الجمال التي تحمل الطِّيب والثِّياب والتِّجارة، وما أشبه ذلك.
(٣) قريش فرع من كنانة.
(٤) وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥٣.

رموهم بها [ابن هشام (١/ ١٩٨) والسيرة الحلبية (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩)] .

وكان ﷺ حينئذٍ ابن أربع عشرة ، أو خمس عشرة سنة ، وقيل: ابن عشرين ، ويُرَجَّحُ الأوَّل : أنَّه كان يجمع النِّبال ، ويناولها لأعمامه ؛ ممَّا يدلُّ على حداثة سِنِّه .

وبذلك اكتسب الجرأة ، والشَّجاعة ، والإقدام ، وتمرَّن على القتال منذ ريعان شبابه ، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب التي تبدؤها ، حتَّى ألَّف الله بين قلوبهم ، وأزاح عنهم هذه الضَّلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[١] .

عاشراً: حلْفُ الفُضُول:

كان حِلْفُ الفُضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار ، وسببه : أنَّ رجلاً من زبيد[٢] قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، ومنعه حقَّه ، فاستعدى عليه الزَّبيديُّ أشراف قريش ، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم ، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهرٍ وأهل المروءة ، ونادى بأعلى صوته :

يا آل فهرٍ لِمَظْلومٍ بضاعَتُه ... ببَطْنِ مَكَّةَ نائِي الدَّارِ والنَّفَرِ
وَمُحْرِمٍ أشعثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يا للرِّجالِ وبَيْنَ الحِجْرِ والحَجَرِ
إنَّ الحرام لِمَنْ تمَّتْ كَرَامَتُهُ ... ولا حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ[٣]

فقام الزُّبير بن عبد المطلب ، فقال: ما لهذا مترك . فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهرة ، وبنو تَيْم بن مرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في شهرٍ حرامٍ ، وهو ذو القعدة ، فتعاقدوا ، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظَّالم ، حتَّى يُرَدَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً ، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[٤] .

ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيديِّ ، فدفعوها إليه .

وسَمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر .

وفي هذا الحلف قال الزُّبير بن عبد المطلب :

إنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ... ألاَّ يُقيمَ ببطْنِ مكَّةَ ظَالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وتَوَاثَقُوا ... فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ[٥] فِيهِمْ سَالِمُ

---

(١) انظر : وقفات تربويَّة ، ص ٥٣ .
(٢) زبيد : بلد باليمن .
(٣) انظر : الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/ ١٥٥ ، ١٥٦) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٢١٣) .
(٥) المعتر : الزَّائر من غير البلاد .

وقد حضر النَّبيُّ ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم ، ورفعوا به منار الحقِّ ، وهو يعتبر من مفاخر العرب ، وعرفانهم لحقوق الإنسان(١) ، وقد قال ﷺ : «شهدت حلف المطيِّبين مع عمومتي ؛ وأنا غلام، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه» [أحمد (١/ ١٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٥٦٧) وأبو يعلى (٨٤٤ و٨٤٥ و٨٤٦)] .

وقال أيضاً : «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم ، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» [البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٧) وابن هشام (١/ ١٤١ ـ ١٤٢)] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائد :

١ ـ إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ ، وليست نسبيَّة ، وإنَّ الرَّسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين ، فالقيم الإيجابيَّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليَّة(٢) .

٢ ـ كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليَّة ، وفيه دلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان ، والمظالم ، والأخلاق الذَّميمة ، كالظُّلم ، والزِّنى ، والرِّبا ، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ ، ومروءة ، يكرهون الظُّلم ، ولا يقرُّونه ، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم ؛ التي لا تُحكِّمُ الإسلامَ ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام(٣) .

٣ ـ إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله ، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ الناس(٤) . إنَّ الإسلام يحارب الظُّلم ، ويقف بجانب المظلوم ، دون النَّظر إلى لونه ، ودينه ، ووطنه ، وجنسه(٥) .

٤ ـ جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير ؛ فهو من قبيل التَّعاون المأمور به في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١/ ٢١٤).
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١١٢).
(٣) انظر : فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ١١٠ .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢١ .

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنَّه تأكيدٌ لشيءٍ مطلوبٍ شرعاً ، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضِّرار ، بحيث يتحوَّل التعاقد إلى نوعٍ من الحزبيَّة الموجَّهة ضد مسلمين آخرين ظلماً ، وبغياً ، وأمَّا تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلمٍ ، أو في مواجهة ظالمٍ؛ فذلك جائزٌ لهم ، على أن تُلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل ، وفي هذا الحديث دليلٌ ، والدَّليل فيه قوله ﷺ : «ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْر النَّعَم» [سبق تخريجه]؛ لما يحقِّق من عدلٍ ، ويمنع من ظلمٍ ، أو النكث به مقابل حمر النَّعم ، وقوله ﷺ : «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» [سبق تخريجه] ، ما دام أنَّه يردع الظَّالم عن ظلمه ، وقد بيَّن ﷺ استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[(١)].

٥ ـ على المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً ، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه ، فقد كان النَّبيُّ ﷺ محطَّ أنظار مجتمعه ، وصار مضرب المثل فيهم ، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين ، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه ﷺ ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه ، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع ، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[(٢)].

* * *

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة (٤/ ١٧٢).

(٢) انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ١١٠ ، ١١١.

المبحث السَّادس
تجارته لخديجة وزواجه منها وأهمُّ الأحداث إلى البعثة

أولاً : تجارته لخديجة ، وزواجه منها :

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملةً[(١)] ذات شرفٍ ، ومالٍ ، تستأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها ، فلمَّا بلغها عن محمَّد ﷺ صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكَرَم أخلاقه ، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التُّجار ، فقبل ، وسافر معه غلامها ميسرةُ ، وقدما الشَّام ، وباع محمَّد ﷺ سلعته الَّتي خرج بها ، واشترى ما أراد من السِّلع ، فلمَّا رجع إلى مكَّة ، وباعت خديجة ما أحضره لها ؛ تضاعف مالها .

وقد حصل الرَّسول ﷺ في هذه الرِّحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الَّذي ناله ؛ إذ مرَّ بالمدينة الَّتي هاجر إليها من بعد ، وجعلها مركزاً لدعوته ، وبالبلاد التي فتحها ، ونشر فيها دينه ، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة ، بعد أن حدَّثها ميسرة عن سماحته ، وصدقه ، وكريم أخلاقه[(٢)] ، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالَّتها المنشودة ، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبِّه ، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[(٣)] ، فرضي بذلك ، وعرض ذلك على أعمامه ، فوافقوا كذلك ، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب ، فخطبها إليه ، وتزوَّجها رسول الله ﷺ وأصدقها عشرين بَكرةً ، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوَّج غيرها ؛ حتَّى ماتت رضي الله عنها[(٤)] ، وقد وَلَدَتْ لرسول الله ﷺ غلامين ، وأربع بنات. وابناه هما : القاسم ، وبه كان ﷺ يُكنى ، وعبد الله ، ويلقَّب بالطَّاهر ، والطَّيِّب .

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سناً تمكنه من ركوب الدَّابة ، ومات عبد الله وهو طفل ، وذلك

---

(١) تزوجها عتيق بن عائذ ، ثمَّ مات عنها ، فتزوَّجها أبو هالة ، ومات عنها أيضاً .
(٢) انظر : رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/ ٢٧) .
(٣) انظر : مواقف تربويَّة ، ص ٥٦ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ١٢٢ .

قبل البعثة. أمَّا بناته فهنَّ: زينب، ورقيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة. وقد أسلمن، وهاجرن إلى المدينة، وتزوجن رضي الله عنهن[١]. هذا وقد كان عُمرُ الرَّسول ﷺ حين تزوَّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً، وكان عمرها أربعين سنةً[٢].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

١ ـ إنَّ الأمانة، والصِّدق أهمُّ مواصفات التَّاجر النَّاجح، وصفة الأمانة، والصِّدق في التِّجارة في شخصية النَّبيِّ ﷺ، هي الَّتي رغَّبت السَّيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسافر به إلى الشَّام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢ ـ إنَّ التِّجارة موردٌ من موارد الرِّزق الَّتي سخَّرها الله لرسوله ﷺ قبل البعثة، وقد تدرَّب النَّبيُّ ﷺ على فنونها، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ: أنَّ التَّاجر الصَّدوق الأمين في هـذا الدِّيـن يُحشر مع النَّبيِّين، والصدِّيقين، والشُّهـداء، وهـذه المهنة مهمَّـة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم؛ فهو ليس بحاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه، وبحاجةٍ إلى خبرته، وأمانته، وعفَّته.

٣ ـ كان زواج الحبيب المصطفى ﷺ للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيِّه زوجةً تناسبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه[٣].

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله! ـ: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصحاب الرِّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبْناً بالغاً من الواقع الَّذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الَّذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّة بالإيناس، والتَّرفيه، وكانت خديجة سبَّاقةً إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمَّدٍ ﷺ أثرٌ كريم[٤].

٤ ـ إنَّ النَّبيّ ﷺ ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ ألا يعيش له ﷺ أحدٌ من الذُّكور، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم، وادِّعائهم لهم النُّبوَّة، فأعطاه الذُّكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاءً لحاجات النَّفس

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٢٨).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٢٢.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ١٢٢، ١٢٣).
(٤) انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص ٧٥.

الإنسانيَّة ، ولئلا يتنقَّص النَّبيَّ في كمال رجولته شانئٌ ، أو يتقوَّل عليه متقوِّلٌ ، ثمَّ أخذهم في الصِّغر ، وأيضاً ليكون ذلك عزاءً ، وسلوى لِلَّذين لا يُرزقون البنين ، أو يُرزقون ثمَّ يموتون ، كما أنَّه لونٌ من ألوان الابتلاء ، وأشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء [الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)] ، وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ ﷺ أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسوسون الشُّعوب لا يجنحون إلى الجبروت ، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة ، والأثرة ، وعاشت في أفراحٍ لا يخامرها كدر ، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الآلام؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين ، ومداواة المجروحين(١) .

٥ ـ يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة ، عدم اهتمام النَّبيِّ ﷺ بأسباب المتعة الجسديَّة ، ومكمِّلاتها ، فلو كان مهتماً بذلك ـ كبقيَّة الشَّباب ـ لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً ، أو فيمن لا تفوقه في العمر ، وإنَّما رغب النَّبيُّ ﷺ لشرفها ، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة .

٦ ـ في زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام ، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين ، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ، وصوَّروا النَّبيَّ ﷺ في صورة الرَّجل الشَّهوانيِّ الغارق في لذَّاته ، وشهواته ، فنجد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئةٍ جاهليَّةٍ عفيف النَّفس ، دون أن ينساق في شيءٍ من التَّيَّارات الفاسدة؛ الَّتي تموج حوله ، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضعف عمره ، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شيءٍ ممَّا حوله ، وإنَّ ما حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشَّباب ، ثمَّ الكهولة ، ويدخل في سن الشُّيوخ ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفِّيت خديجة رضي الله عنها عن خمسةٍ وستين عاماً ، وقد ناهز النَّبيُّ ﷺ الخمسين من العمر ، دون أن يفكِّر خلالها بالزَّواج بأيِّ امرأةٍ أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزَّمن الَّذي تتحرَّك فيه رغبة الاستزادة من النِّساء ، والميل إلى تعدُّد الزَّوجات للدَّوافع الشَّهوانية؛ ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الفترة في أن يضمَّ إلى خديجة مثلها من النِّساء ، زوجةً ، أو أَمَةً ، ولو أراد؛ لكان الكثير من النِّساء ، والإماء طوعَ بنانه .

أمَّا زواجه ﷺ بعد ذلك من السَّيدة عائشة ، وغيرها من أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، فإنَّ لكلٍّ منهن قصَّةً ، ولكلِّ زواج حكمةً وسبباً ، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمَّد ﷺ ، ورفعة شأنه ، وكمال أخلاقه(٢) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٨ .

(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

ثانياً: اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة الشَّريفة:

لمَّا بلغ محمَّد ﷺ خمساً وثلاثين سنةً، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصابها من حريق، وسيلٍ جارفٍ؛ صدَّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رَضماً[١] فوق القامة، فأرادوا هدمها؛ ليرفعوها، ويسقفوها، ولكنَّهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثمَّ قام عليها، وهو يقول: اللَّهمَّ لم نزغ! ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الرُّكنين؛ فتربَّص النَّاس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب؛ لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيءٌ؛ فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارةٍ خُضْر كالأَسْنمة[٢] آخذٌ بعضها ببعضٍ.

وكانوا قد جزَّؤوا العمل وخصُّوا كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ، واشترك سادة قريش، وشيوخها في نقل الحجارة، ورفعها، وقد شارك النَّبيُّ ﷺ، وعمُّه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة، فقال العباس للنَّبيِّ ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض[٣]، وطمحت عيناه إلى السَّماء، ثمَّ أفاق، فقال: «إزاري! إزاري!»، فشدَّ عليه إزاره [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)].

فلمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أنَّ أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل مَنْ يدخل من باب المسجد. فلمَّا توافقوا على ذلك؛ دخل محمَّد ﷺ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا. فلمَّا أخبروه الخبر، قال: «هلمُّوا ثوباً»، فأتوه به، فوضع الرُّكن فيه بيديه، ثمَّ قال: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب، ثمَّ ارفعوا جميعاً» فرفعوه، حتَّى إذا بلغوا موضعه، وضعه بيده، ثمَّ بنى عليه. [الحاكم (١/٤٥٨ ـ ٤٥٩) وعبد الرزاق (٥/١٠٠ ـ ١٠١) والبيهقي في الدلائل (٢/٥٦ ـ ٥٧)].

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخلَ إليها كلُّ أحد، فيُدخلوا من شاؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها، لأنَّهم

---

(١) الرَّضم: حجارةٌ منضودةٌ بعضها على بعضٍ من غير طين.
(٢) الأسنمة: جمع سنام، وهو أعلى ظهر البعير.
(٣) ففعل ذلك، فوقع.

شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةٌ طيِّبةٌ ، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمةُ أحدٍ من النَّاس[١].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ أهمِّيَّة الكعبة ، وقداستها عند قريش ، ويكفي أن باشر تأسيسها ، ورفع قواعدها إبراهيم ، وابنه إسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ بأمرٍ من الله تعالى ؛ لتكون أوَّل بيتٍ لعبادة الله وحدَه.

٢ ـ بُنِيت الكعبة خلال الدَّهر كلِّه أربع مرَّات على يقينٍ ؛ فأمَّا المرَّة الأولى منها ، فهي الَّتي قام بأمر البناء فيها إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ يعينه ابنه إسماعيل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة ، واشترك في بنائها النَّبيُّ ﷺ ، والثالثة: عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية ، بفعل الحصار الَّذي ضربه الحُصين السُّكوني على ابن الزُّبير حتَّى يستسلم ، فأعاد ابن الزُّبير بناءها ، وأمَّا المرَّة الرَّابعة ففي زمن عبد الملك بن مروان بعدما قُتِل ابن الزُّبير ، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النَّبيِّ ﷺ[٢] ؛ لأنَّ ابن الزُّبير باشر في رفع بناء البيت ، وزاد فيه الأذرع السِّتَّة التي أخرجت منه ، وزاد في طوله إلى السَّماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين: أحدهما يُدخل منه ، والآخر يُخرج منه ، وإنَّما جرَّأه على إدخال هذه الزِّيادة حديث عائشة عن رسول الله ﷺ: «يا عائشة! لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ ؛ لأمرت بالبيت ، فهُدم ؛ فأدخلت فيه ما أُخرجَ منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً ، فبلغتُ به أساس إبراهيم» [البخاري (١٥٨٦) ومسلم (١٣٣٣/٤٠١)].

٣ ـ طريقة فضِّ التنازع كانت موفَّقةً ، وعادلةً ، ورضي بها الجميع ، وحقنت دماءً كثيرةً ، وأوقفت حروباً طاحنةً ، وكان مِنْ عدل حكمه ﷺ أن رضيت به جميع القبائل ، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى ، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله ﷺ ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله ﷺ من باب الصَّفا كان قَدَراً من الله لحلِّ هذه الأزمة المستعصية ، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع ، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمَّد ﷺ ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي ، ولا يفسد ، وهو الأمين على البيت ، والأرواح ، والدِّماء[٣].

٤ ـ إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ ﷺ الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ[٤] ،

---

(١) انظر: وقفات تربويَّة ، ص ٥٧ ، وانظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/ ٢٩ ، ٣٠).

(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٧ ، ٥٨.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١١٦).

وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة ، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه ﷺ ، ألا وهو وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين ، وأخذه من البساط بعد رفعه ، ووضعُه في مكانه من البيت(١) .

٥ ـ إنَّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلٰهيِّ ، وكمال التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في سيرة رسول الله ﷺ ، كما يلاحظ كيف أنَّ الله أكرم رسوله ﷺ بهذه القدرة الهائلة على حلِّ المشكلات بأقرب طريقٍ ، وأسهله ، وذلك ما تراه في حياته كلِّها ﷺ ، وذلك معلَمٌ من معالم رسالته ، فرسالتُه إيصالٌ للحقائق بأقرب طريقٍ ، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوبٍ ، وأكمله(٢) .

٦ ـ من حفظ الله لنبيِّه ﷺ في شبيبته ، عن أقذار الجاهليَّة ، وأدرانها، ومعائبها ، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر ، أثناء بناء الكعبة ، ورفع إزاره على رقبته ، فخرَّ إلى الأرض ، وطَمَحَتْ عينُه إلى السَّماء ، ثمَّ أفاق يقول: إزاري! إزاري! فشد عليه إزاره ، فما رُئِيَ بعد ذلك عُرْياناً ﷺ [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)] .

ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ ﷺ:

شاءت حكمة الله تعالى ، أن يُعدَّ الناس لاستقبال نبوَّة محمَّد ﷺ بأمورٍ؛ منها:

١ ـ بشارات الأنبياء بمحمَّد ﷺ:

دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث في العرب رسولاً منهم ، فأرسل محمَّداً إجابةً لدعوته. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، وذكر القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد ﷺ ، في الكتب السَّماوية المنزلة على الأنبياء السَّابقين ، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وبشَّر به عيسى عليه السلام ، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة (١/ ١٧٥).

وأعلمَ اللهُ تعالى جميع الأنبياء ببعثته ، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به ، واتِّباعه؛ إن هم أدركوه[١] ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١] .

وقد وقع التَّحريف في نسخ التَّوراة ، والإنجيل ، وحُذِف منهما التَّصريح باسم محمَّد ﷺ ، إلا توراة (السَّامرة) ، وإنجيل (برنابا) الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي ، وقد أيَّدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً ، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرِّحة باسم النَّبيِّ محمَّد ﷺ ، مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه ، ونصُّ العبارة :

«**٢٩** ـ فاحتجب الله ، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس . **٣٠** ـ فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب : لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»[٢] .

قال ابن تيميَّـة : «والأخبار بمعرفـة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترةٌ عنهم» ثمَّ قال : «ثمَّ العلم بأنَّ الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه :

أحدها : ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب .

الثاني : إخبار من وقف على تلك الكتب ، ممَّن أسلم ، وممَّن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها؛ وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار : أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنَّه رسولُ الله ، وأنَّه موجودٌ عندهم ، وكانوا ينتظرونه ، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لمَّا دعاهم إلى الإسلام ، حتَّى آمن الأنصار به ، وبايعوه»[٣] .

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه ، وكان من أصحاب بدرٍ ، قال : «كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ بيسيرٍ ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، قال سلمة : وأنا يومئذٍ أَحْدَثُ مَنْ فيه سناً ، عليَّ بردةٌ مضطجعاً فيها بفناء أهلي ، فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب، والميزان ، والجنَّة ، والنَّار ، فقال ذلك لقومٍ؛ وكانوا أهل شركٍ ، وأصحاب أوثـان ، لا يـرون : أنَّ بعثاً كائنٌ بعد الموت . فقالوا له : ويحكَ يا فلان! ترى هذا كائناً : أنَّ النَّاس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنَّةٌ ، ونارٌ ، ويُجزون

(١) انظر : دراسة تحليلية لشخصية الرَّسول ﷺ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) انظر : السِّيرة النبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١١٨) .
(٣) انظر : الجواب الصَّحيح ، لابن تيميَّة (١/ ٣٤٠) .

فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُحلف به! ولودَّ: أنَّ له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ[١] في الدُّنيا يحمونه، ثمَّ يدخلونه إيَّاه، فيطبق به عليه[٢] وأن ينجو من تلك النَّار غداً.

قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكَّة، واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمرَه؛ يدركه.

قال سلمة: «فو الله! ما ذهب الليل والنَّهار، حتَّى بعث الله تعالى رسوله ﷺ، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنَّا به، وكفر به بغياً وحسداً؛ فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالَّذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به» [أحمد (٣/ ٤٦٧) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٧٨ ـ ٧٩) وابن هشام (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦)].

وقد قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «قد رأيت أنا من نُسَخ الزَّبور ما فيه تصريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ باسمه، ورأيت نسخةً أخرى بالزَّبور فلم أرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسخ من صفات النَّبيِّ ﷺ ما ليس في أخرى»[٣].

وقد ذكر عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما صفة رسول الله ﷺ في التَّوراة، فقال: «والله! إنه لموصوف في التَّوراة بصفته في القرآن: يا أيها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرزاً للأمِّيِّين[٤]، أنت عبدي، ورسولي، سمَّيتك المتوكِّل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواق[٥]، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة، ولكن يعفو، ويصفح، ولن يقبضه الله حتَّى يقيم به الملَّة العوجاء[٦]؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً» [البخاري (٢١٢٥ و٤٨٣٨) وأحمد (٢/ ١٧٤) والبيهقي في الدلائل (/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥)].

ومن حديث كعب الأحبار، قال: «إنِّي أجد في التَّوراة مكتوباً: محمَّدٌ رسول الله، لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سَخَّابٌ في الأسواق، ولا يجزي السَّيِّئة بالسَّيئة، ولكن يعفو، ويصفح، أمَّته الحمَّادون، يحمدون الله في كلِّ منزلةٍ، ويكبِّرونه على كل نجدٍ، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضِّئون أطرافهم، صَفُّهم في الصَّلاة وصَفُّهم في القتال سواءٌ، مناديهم ينادي في جوِّ

---

(١) التنُّور: الفرن.
(٢) يطبق عليه، يغلق عليه.
(٣) الجواب الصَّحيح (١/ ٣٤٠).
(٤) حرزاً للأمِّيِّين: حفاظاً لهم.
(٥) السَّخب: رفع الصَّوت بالخصام.
(٦) الملَّة العوجاء: ملَّة إبراهيم التي غيَّرتها العرب عن استقامتها.

السَّماء ، لهم في جوف اللَّيل دويٌّ كدويِّ النَّحل ، مولده بمكَّة ، ومهجره بطابة ، وملكه بالشَّام» [البيهقي في الدلائل (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)] .

٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوَّته ﷺ :

أخبر سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه في قصَّة إسلامه المشهورة ، عن راهب عَمُّورية حين حضرته المنيَّة ، قال لسلمان : «إنَّه قد أظلَّ زمان نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين ، بينهما نخلٌ ، به علاماتٌ لا تخفى ، يأكل الهديَّة ، ولا يأكل الصَّدقة ، بين كتفيه خاتم النُّبوَّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ؛ فافعل» .

ثمَّ قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة ، واسترقاقه ، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة ، وإهدائه له طعاماً على أنَّه صدقة ، فلم يأكل منه الرَّسول ﷺ ، ثمَّ إهدائه له طعاماً على أنَّه هدية ، وأكله منه ، ثمَّ رؤيته خاتم النُّبوَّة بين كتفيه ، وإسلامه على إثر ذلك» [أحمد (٥/ ٤٤١ ـ ٤٤٤) والحاكم (٣/ ٥٩٩ ـ ٦٠٢) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٨٣ ـ ٩٧) وأبو نعيم في دلائله (١٩٩) وابن هشام (١/ ٢٢٨ ـ ٢٣٤)] .

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ومن ذلك قصَّة أبي التَّـيِّهان ، الَّذي خرج من بلاد الشَّام ، ونزل في بني قريظة ، ثمَّ توفي قبل البعثة النَّبويَّة بسنتين ، فإنَّه لما حضرته الوفاة ؛ قال لبني قريظة : يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخَمر ، والخمير ـ الشَّام ـ إلى أرض البؤس والجوع ـ يعني : الحجاز ـ؟ قالوا : أنت أعلم. قال : إنِّي قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ ـ أنتظر ـ خروج نبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، وكنت أرجو أن يبعث ، فأتَّبعه .

وقد شاع حديث ذلك ، وانتشر بين اليهود ، وغيرهم ، حتَّى بلغ درجة القطع عندهم، وبناءً عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنوَّرة : إنَّه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[١] ، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجالٍ من الأنصار ، وقد قالوا : «إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى ، وهداه ؛ لما كنَّا نسمع من رجال اليهود ، وكُنَّا أهلَ شركٍ ، أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتابٍ ، عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ؛ قالوا لنا : إنَّه تقارب زمان نبيٍّ يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ ، وإرم»[٢] .

وقد قال هرقل ملك الرُّوم عندما تسلَّم رسالة النَّبيِّ ﷺ : «وقد كنت أعلم : أنَّه خارجٌ ، ولم

(١) انظر : دراسة تحليليَّة ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٠٧ .
(٢) ابن هشام بإسنادٍ حسن (١/ ٢٣١) .

أكن أظنُّ : أنَّه منكم» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

٣ ـ الحالة العامَّة الَّتي وصل إليها النَّاس :

لخَّص الأستاذ النَّدوي الحال الَّتي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله : كانت الأوضاع الفاسدة ، والدَّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السَّادس المسيحيِّ أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ، ومعلِّمون من أفراد النَّاس ، فلم تكن القضيَّة قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد ، أو إزالة عادةٍ من العادات ، أو قبول عبادةٍ من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون ، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصرٌ ، ولا مصرٌ .

ولكنَّ القضيَّة كانت قضية إزالة أنقاض الجاهليَّة ، ووثنيَّةٍ تخريبيَّةٍ ، تراكمت عبر القرون ، والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء ، والمرسلين ، وجهود المصلحين ، والمعلمين ، وإقامة بناءٍ شامخٍ مشيد البنيان ، واسع الأرجاء ، يسع العالم كلَّه ، ويؤوي الأمم كلَّها ، قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ ، كأنَّه ولد من جديد أو عاش من جديد. قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

قضية اقتلاع جرثومة الفساد ، واستئصال شأفة الوثنيَّة ، واجتثاثها من جذورها؛ بحيث لا يبقى لها عينٌ ، ولا أثرٌ ، وترسيخ عقيدة التَّوحيد في أعماق النَّفس الإنسانيَّة ترسيخاً لا يتصوَّر فوقه ، وغرس ميلٍ إلى إرضاء الله ، وعبادته ، وخدمة الإنسانيَّة ، والانتصار للحقِّ يتغلَّب على كلِّ رغبةٍ ، ويقهر كلَّ شهوةٍ ، ويجرف كلَّ مقاومة وبالجملة الأخذ بِحُجَزِ الإنسانيَّة المنتحرة؛ الَّتي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدُّنيا والآخرة، والسُّلوك بها على طريقٍ أوَّلها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون ، وآخرها جنَّة الخلد؛ الَّتي وُعِد المتَّقون ، ولا تصوير أبلغ ، وأصدق من قوله تعالى في معرض المنِّ ببعثة محمَّد ﷺ(١) : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

٤ ـ إرهاصات نبوَّته ﷺ :

ومن إرهاصات نبوَّته ﷺ تسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة ، فعن جابر بن سَمُرَةَ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنِّي لأعرف حجراً بمكَّة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث ، إنِّي لأعرفه الآن» [أحمد (٥/٨٩) ومسلم (٢٢٧٧) والترمذي (٣٦٢٤)] ومنها : الرُّؤيا الصَّادقة ، وهي أول ما بدئ له من

(١) انظر : الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/ ١٨٠ ، ١٨١) .

الوحي ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] وحُبِّب إليه ﷺ العزلة ، والتَّحنُّث «التعبد» ، فكان يخلو في غار حراء ـ وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّماليِّ الغربيِّ من مكَّة ـ ويتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارةً عشرة ، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر ، ثمَّ يعود إلى بيته ، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أخرى ، ويعود إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[١] .

* * *

(١) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٠ .

الفصل الثَّاني
نزول الوحي والدَّعوة السِّرِّيَّة

المبحث الأوَّل
نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين ﷺ

كان النَّبيُّ ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره ، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون ، وخالقه ، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته ، فتزوَّد لليالٍ أخرى[1] ، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار حراء[2] ، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها ، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح ، وكتب السُّنن ، والمسانيد ، وكتب التاريخ» ، فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: «أوَّلُ ما بُدىءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ ، فكان يخلو بغار حراء ، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ اللَّيالي ذواتِ العددِ ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها ، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ ، فجاءه المَلَكُ ، فقال: اقرأ ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني ، فغَطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطَّني الثالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]» .

فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: زَمِّلُوني ، زَمِّلُوني ، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي ، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ[3] ،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة ، للعلي ، ص ٦٧ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٢٥) .

(٣) تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف ، واليتيم ، والعيال ، والكلُّ أصله: الثِّقل ، والإعياء .

وتُكسبُ المعدومَ[١]، وتقري الضَّيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ[٢]. فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّىٰ ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس[٣] الَّذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[٤]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[٥]، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ، وفَـتَـرَ الوحي[٦]» [سبق تخريجه].

عندما نتأمل في حديث السَّيدة عائشة؛ يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمَّة تتعلَّق بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ، ومن أهمِّها:

أولاً: الرُّؤيا الصَّالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ أوَّل ما بُدئ به محمَّد ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة، وتسمَّى أحياناً بالرُّؤيا الصَّادقة، والمراد بها هنا رؤى طيبةٌ ينشرح لها الصَّدر، وتزكو بها الرُّوح[٧]. ولعلَّ الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله ﷺ بالوحي بالمنام: أنَّه لو لم يبتدئه بالرُّؤيا، وأتاه الملك فجأةً، ولم يسبق له أن رأى مَلَكاً من قبل، فقد يصيبه شيءٌ من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقَّى منه شيئاً؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أوَّلاً في المنام ليتدرب عليه، ويعتاده[٨]. والرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة ـ كما ورد في الحديث الشَّريف ـ [البخاري (٦٩٨٣) وأحمد (٣/١٢٦) وابن ماجه (٣٨٩٣)] وقد قال العلماء: «وكانت مدَّة الرُّؤيا الصَّالحة ستَّة أشهرٍ» ذكره البيهقيُّ، ولم ينزل عليه شيءٌ من القرآن في النَّوم؛ بل نزل كلُّه يقظةً.

والرُّؤيا الصَّالحة من البشرى في الحياة الدُّنيا، فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «أيها النَّاسُ! إنَّه

---

(١) وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.
(٢) نوائب الحقِّ: الكوارث، والحوادث.
(٣) النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.
(٤) جَذَعاً: شاباً قوياً.
(٥) مؤزَّراً: قوياً بالغاً.
(٦) فتر الوحي: تأخَّر نزوله.
(٧) انظر: طريق النُّبوَّة والرِّسالة، لحسين مؤنس، ص ٢١.
(٨) انظر: منامات الرَّسول ﷺ، لعبد القادر الشيخ إبراهيم، ص ٥٧.

لم يبقَ من مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا الصَّالحة ، يراها المسلم ، أو تُرَى له» [أحمد (١/ ٢١٩) ومسلم (٤٧٩) وأبو داود (٨٧٦) والنسائي (٢/ ١٨٩) وابن ماجه (٣٨٩٩)] .

فكان ﷺ قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة ، فيصحو منشرحَ الصَّدر ، متفتِّح النَّفس لكلِّ ما في الحياة من جمال[١] . لقد أجمعت الرِّوايات من حديث (بدء الوحي) أنَّ أول ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة ، يراها في النَّوم فتجيء في اليقظة كاملةً ، واضحةً كما رآها في النَّوم ، لا يغيب عليه منها شيءٌ ، كأنَّما نقشت في قلبه ، وعقله ، وقد شَبَّهت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ـ وهي من أفصح العرب ـ ظهور رؤيا رسول الله ﷺ إذا استيقظ بها من كمال وضوحها ، بظهور ضوء الصُّبح ينفلق عنه غبش الظَّلام ، وهو تصويرٌ بيانيٌّ لا تنفلق دنيا العرب في ذُرَا فصاحتهم عن أبلغ منه[٢] .

ثانياً: ثمَّ حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه :

وقبيل النُّبوَّة حُبِّب إلى نفس النَّبيِّ ﷺ الخلوة ؛ ليتفرغ قلبه ، وعقله ، وروحه إلى ما سَيُلقى إليه من أعلام النُّبوَّة ، فاتَّخذ من غار حراء مُتَعَبَّداً ؛ لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق ، استجماعاً لقواه الفكريَّة ، ومشاعره الرُّوحية ، وإحساساته النَّفسيَّة ، ومداركه العقليَّة ، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون ، وخالق الوجود[٣] . والغار الذي كان يتردَّد عليه الحبيب المصطفى ﷺ يبعث على التأمُّل ، والتفكُّر ، تنظر إلى منتهى الطَّرْف فلا ترى إلا جبالاً كأنَّها ساجدةً متطامنةً لعظمة الله ، وإلا سماءً صافيةَ الأديم ، وقد يرى مَنْ يكون فيه مكَّة إذا كان حادَّ البصر[٤] .

كانت هذه الخلوة الَّتي حُببت إلى نفس النَّبيِّ ﷺ لوناً من الإعداد الخاصِّ ، وتصفية النَّفس من علائق المادِّيَّة البشريَّة ، إلى جانب تعهُّده الخاص بالتَّربية الإلٰهيَّة ، والتَّأديب الرَّبَّانيِّ في جميع أحواله ، وكان تعبُّده ﷺ قبل النُّبوَّة بالتفكُّر في بديع ملكوت السَّموات ، والنَّظر في آياته الكونيَّة الدَّالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ، ومحكم تدبيره ، وعظيم إبداعه[٥] .

وقد أخذ بعض أهل السُّلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذِّكر والعبادة في مرحلة من مراحل السُّلوك ؛ لتنوير قلبه ، وإزالة ظلمته ، وإخراجه من غفلته ، وشهوته ، وهفوته ، ومن سنن النَّبيِّ ﷺ سنَّة الاعتكاف في رمضان[٦] ، وهي مهمَّةٌ لكلِّ مسلمٍ سواءً كان حاكماً ، أو

---

(١) انظر : طريق النَّبوة والرِّسالة ، ص ٢٢ .
(٢) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٢٥٤) .
(٣) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٢٥٤) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٢٥٦) .
(٥) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٤٦٩) .
(٦) انظر : الأساس في السنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/ ١٩٥) .

عالماً ، أو قائداً ، أو تاجراً؛ لتنقية الشَّوائب الَّتي تعلق بالنُّفوس والقلوب ، ونصحِّح واقعنا على ضوء الكتاب والسُّنَّة ، ونُحاسِب أنفسنا قبل أن نُحاسَب[١] .

ويمكن لأهل فقه الدَّعوة أن يعطوا لأنفسهم فترةً من الوقت للمراجعة الشَّاملة ، والتَّوبة ، والتأمُّل في واقع الدَّعوة وما هي عليه من قوَّةٍ ، أو ضعفٍ ، واكتشاف عوامل الخلل ، ومعرفة الواقع بتفاصيله ، خيره وشرِّه . ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشا الفساد ، وأصبحت الدُّنيا مؤثرةً ، ومتابعة الهوى مطلباً ، ولابدَّ أن تكون إيجابيةً وليست سلبية ، وليتابع الطَّريق بعدها بما يحمله من الحقِّ[٢] .

وفي قول السَّيدة عائشة رضي الله عنها : «فيتحنَّث الليالِيَ ذوات العدد» ، يقول الشيخ محمَّد عبد الله دراز : «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلَّة ، ولا إلى نهاية الكثرة ، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النَّبيُّ ﷺ قبل البعثة من التوسُّط ، والاقتصاد في الأعمال ، شعاراً للملَّة الإسلامية ، ورمزاً للهدي النَّبويِّ الكريم ، بعد أن أرسله الله رحمةً للعالمين»[٣] .

ثالثاً: حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء: جاء الملك ، فقال: اقرأ ، قال: «قلت: ما أنا بقارئ . . . فأخذني فغطَّني الثَّالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ١ ـ ٤]» .

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أوَّل شيءٍ نزل من القرآن الكريم ، وفيها التَّنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقةٍ ، وإنَّ من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة . والعلم تارةً يكون في الأذهان ، وتارةً يكون في اللِّسان ، وتارةً يكون بالكتابة بالبنان[٤] ، وبهذه الآيات كانت بداية نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ، لقد كان هذا الحادث ضخماً ، ولقد عبَّر عنه سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله ، فقال: «إنَّه حادثٌ ضخمٌ جداً ، ضخمٌ إلى غير حدٍّ ، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا! إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته ، وضخمٌ بدلالته ، وضخمٌ بآثاره في حياة البشريَّة جميعاً ، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ ـ بغير مبالغةٍ ـ أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل .

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟

---

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان .
(٢) انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمَّد العبده .
(٣) المختار من كنوز السُّنَّة ، (ص ١٩) ، ط٢ ١٩٧٨ دار الأنصار ، القاهرة .
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨) .

حقيقته: أنَّ الله ـ جلَّ جلاله، العظيم، الجبَّار، القهَّار، المتكبِّر، مالك الملك كلِّه ـ قد تكرَّم ـ في عليائه ـ فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسمَّاة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون، لا يكاد يُرى، هذا الرُّكن الَّذي يُسمَّى الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها ليكون ملتقى نوره الإلٰهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثّل قدره الَّذي يريده ـ سبحانه ـ لهذه الخليقة»[١].

كانت بداية الوحي الإلٰهي فيها إشادة بالقلم، وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشُّعوب، والأمم، وفيها إشارةٌ واضحةٌ بأنَّ من أخصِّ خصائص الإنسان العلمَ والمعرفة[٢].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة، ومنزلة العلم في الإسلام، فأوَّل كلمةٍ في النُّبوَّة تصل إلى رسول الله ﷺ هي الأمر بالقراءة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وما زال الإسلام يحثُّ على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميِّزهم على غيرهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

إنَّ مصدر العلم النافع من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو الَّذي علَّم بالقلم، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشريَّة عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيُّد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها، وسبباً في إبادتها[٣].

رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ ﷺ، ووصفُ ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النَّبيِّ ﷺ مراراً حتَّى أجهده، وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقى من الوحي شدَّةً، وتعباً، وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] كان في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ؛ لعلَّ منها: بيان أهمية هذا الدِّين، وعظمته، وشدَّة الاهتمام به، وبيانٌ للأمَّة أنَّ دينها الَّذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدَّةٍ، وكرب[٤].

إنَّ ظاهرة الوحي معجزةٌ خارقةٌ للسُّنن، والقوانين الطَّبيعيَّة، حيث تلقَّى النَّبيُّ ﷺ كلام الله «القرآن» بواسطة الملك جبريل عليه السلام، وبالتَّالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام، أو

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٢٦٠).
(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، ص ٣٤.
(٤) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص ٣٠، ٣١).

التأمُّل الباطنيّ ، أو الاستشعار الدَّاخلي ، بل إنَّ الوحي يتمُّ من خارج ذات النَّبيِّ ﷺ ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى ، وتبليغه ، وأمَّا بيانه ، وتفسيره فيتمُّ بأسلوب النَّبيِّ ﷺ كما يظهر في أحاديثه ، وأقواله ﷺ[١] .

إنَّ حقيقة الوحي هي الأساس الَّذي تترتَّب عليه جميع حقائق الدِّين ، بعقائده ، وتشريعاته ، وأخلاقه؛ ولذلك اهتمَّ المستشرقون ـ والملاحدة من قبلهم ـ بالطَّعن والتَّشكيك في حقيقة الوحي ، وحاولوا أن يُؤوِّلوا ظاهرة الوحي ، ويحرِّفوها عن حقيقتها ، عمَّا جاءنا في صحاح السُّنَّة الشَّريفة ، وحدَّثنا به المؤرِّخون الثِّقات ، فقائل يقول : إنَّ محمَّداً ﷺ تعلَّم القرآن ، ومبادئ الإسلام من بحيرا الرَّاهب ، وبعضهم قال : بأنَّ محمَّداً كان رجلاً عصبياً ، أو مصاباً بداء الصَّرع[٢] .

والحقيقة تقول : إنَّ محمَّداً ﷺ وهو في غار حراء فوجئ بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له : اقرأ ، حتَّى يتبيَّن : أنَّ ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مَرَدُّهُ إلى حديث النَّفس المجرَّد؛ وإنَّما هو استقبالٌ وتلقٍّ لحقيقةٍ خارجيَّةٍ لا علاقة لها بالنَّفس ، وداخل الذات . وضمُّ الملك إيَّاه ، ثمَّ إرساله ثلاث مرَّات قائلاً في كلِّ مرَّة : اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقِّي الخارجيِّ ، ومبالغةً في نفي ما قد يتصوَّر ، من أنَّ الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط .

ولقد أصيب النَّبيُّ ﷺ بالرُّعب ، والخوف ممَّا سمع ، ورأى ، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده ، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن متشوِّقاً للرِّسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للنَّاس[٣] ، وقد قال الله تعالى تأكيداً لهـذا المعنى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] وقال : ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس : ١٥ ـ ١٦] .

لقد تساقطت آراء المشكِّكين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصَّحيح الَّذي حدَّثتنا به السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، وقد استمرَّ الوحي بعد ذلك يحمل الدَّلالة نفسها على حقيقة الوحي؛ وأنَّه ليس كما أراد المشكِّكون . وقد أجمل الدُّكتور البوطي هذه الدَّلالة فيما يلي :

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٢٩) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤ .
(٣) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤ .

١ ـ التمييز الواضح بين القرآن ، والحديث؛ إذ كان يأمر بتسجيل الأوّل فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثَّاني ذاكرة أصحابه؛ لا لأنَّ الحديث كلام من عنده لا علاقة للنُّبوَّة به؛ بل لأنَّ القرآن موحى به إليه بألفاظه ، وحروفه بواسطة جبريل عليه السلام ، أما الحديث؛ فمعناه وحي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن لفظه ، وتركيبه من عنده ﷺ ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّذي يتلقَّاه من جبريل بكلامه هو ﷺ .

٢ ـ كان النَّبيُّ ﷺ يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يُجيب عنها ، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويلٌ ، حتَّى تنزل آية من القرآن في شأن سؤاله . وربما تصرَّف الرَّسول ﷺ في بعض الأمور على وجهٍ معين ، فتتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عَتْبٍ ، أو لومٍ له .

٣ ـ كان رسول الله ﷺ أمياً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النَّفسيَّة حقائق تاريخيَّةً ، كقصَّة يوسف عليه السلام ، وأمِّ موسى حينما ألقت وليدها في اليمِّ ، وقصَّة فرعون ، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أمياً . يقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] .

٤ ـ إنَّ صدق النَّبيِّ ﷺ أربعين سنةً مع قومه ، واشتهاره فيهم بذلك يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقاً مع نفسه ، ولذا فلابدَّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أيِّ شكٍّ يخايل لعينيه ، أو فكره ، وكأنَّ هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤] .

ولهذا روي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشكُّ ، ولا أسأل» [عبد الرزاق (١٠٢١١) والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨٩)] .

خامساً: أنواع الوحي:

تحدَّث العلماء عن أنواع الوحي ، فذكروا منها :

١ ـ الرُّؤيا الصَّادقة:

وكانت مبدأ وحيه ﷺ ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ» ، وقال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

٢ ـ الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في رُوْعِه ـ أي: قلبه ـ من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : «إنَّ روح القدس

نَفَثَ في رُوْعِي» أي: إنَّ جبريل عليه السلام نفخ في قلبي، «أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها، وأجلها؛ فاتَّقوا الله، وأَجْمِلُوا في الطَّلب» [البغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٠٤) برقم (٤١١٢) وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٨٤)].

٣ ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس:

أي مثل صوته في القوَّة، وهو أَشَدُّهُ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً، فيكلِّمني، فأعي ما يقول» [البخاري (٢) ومسلم (٢٣٣٣/ ٨٧)].

٤ ـ ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة مَلَكٍ:

كما كلَّم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتةٌ لموسى قطعاً بنصِّ القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ في حديث الإسراء[(١)].

٥ ـ أنَّه يرى المَلَك في صورته الَّتي خلق عليها:

فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ ـ أنَّه ﷺ كان يتمثَّل له المَلَكُ رجلاً:

فيخاطبه حتَّى يَعِيَ عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصَّحابة أحياناً[(٢)].

هذا ما قاله ابن القيِّم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ بداية عهدٍ جديدٍ في حياة الإنسانيَّة، بعدما انقطع، وتاهت البشرية في دياجير الظَّلام.

وكان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله ﷺ ـ كما هو واضحٌ من النَّصِّ ـ بالرَّغم من أنَّه كان أشجع النَّاس، وأقواهم قلباً، كما دلَّت على ذلك الأحداث خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً؛ وذلك؛ لأنَّ الأمر ليس مخاطبة بشرٍ لبشر، ولكنَّه كان مخاطبة عظيم الملائكة، وهو يحمل كلام الله تعالى؛ ليستقبله من اصطفاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لحمل هذا الكلام وإبلاغه لجميع البشر.

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤوليَّةً عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرِّسالة، وتبليغها[(٣)].

---

(١) انظر: الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعية، لأسامة عبد القادر، ص ١٠٨.
(٢) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٣ ـ ٣٤).
(٣) انظر: التاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر، للحميدي (١/ ٦٠).

وممَّا يُصَوِّر رهبة هذا الموقف ، ما جاء في هذه الرِّواية ، من قول رسول الله ﷺ : «لقد خشيت على نفسي» ، وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث : «فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، قال : زمِّلوني ! زملوني ! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع» .

وممَّا يبيِّن شدَّة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، ما أخرجه الإمام البخاريُّ ، ومسلمٌ ـ رحمهما الله ! ـ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «ولقد رأيته ـ تعني : رسول الله ﷺ ـ ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد ، فيَفصم عنه ، وإنَّ جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً» [البخاري (٢) ومسلم (٨٦/٢٣٣٣)] وحديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال : «كان نبيُّ الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي ؛ كُرِبَ لذلك ، وتَربَّد وجهُه» [مسلم (٢٣٣٤) وأحمد (٥/ ٣١٧)] .

سادساً : أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة :

«فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُهُ ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زمِّلوني ! زملوني ! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحقِّ» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدلُّ على قوَّة قلبها ؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر ، واستقبلت الأمر بهدوءٍ ، وسكينةٍ ، ولا أدلَّ على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل ، وعرضها الأمر عليه(١) .

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدلُّ على سعة إدراكها ؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النَّبيِّ ﷺ ، فأدركت : أنَّ من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً ، فقد وصفته بأنَّه يصل الرَّحم ، وكون الإنسان يصل أقاربه دليلٌ على استعداده النَّفسيِّ لبذل الخير ، والإحسان إلى النَّاس ؛ فإنَّ أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه ، فإن نجح في احتواء أقاربه ، وكسبهم بما له عليهم من معروفٍ ؛ كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من النَّاس(٢) .

كانت أمُّ المؤمنين السَّيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطريِّ ، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه ، وإلى يقينها بما يملك محمَّدٌ ﷺ من رصيد الأخلاق ، وفضائل الشَّمائل ، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثله في حياته الطَّبيعيَّة الَّتي يعيش بها مع النَّاس ،

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميدي (١/ ٦١) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٦٤) .

وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربَّانيَّة الَّتي شهدت آياتها؛ من حفاوة الله تعالى بمحمَّدٍ ﷺ ، في مواقف لم تكن من مواقف النُّبوَّة والرِّسالة ، ولا من إرهاصاتها المعجزة ، وأعاجيبها الخارقة ، ولكنَّها كانت من مواقف الفضائل الإنسانيَّة السَّارية في حياة ذوي المكارم ، من أصحاب المروءات في خاصَّة البشر(١) .

كانت موقنةً بأنَّ زوجها فيه من خصال الجبلَّة الكماليَّة ، ومحاسن الأخلاق الرَّصينة ، وفضائل الشِّيم المرضيَّة ، وأشرف الشَّمائل العليَّة ، وأكمل النَّحائز(٢) الإنسانيَّة ، ما يضمن له الفوز ويحقِّق له النَّجاح ، والفلاح ، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة على الكمال المحمَّديِّ(٣) ، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتِّصاف محمَّدٍ ﷺ بتلك الصِّفات : أنَّه لن يتعرَّض في حياته للخزي أبداً؛ لأنَّ الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق ، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها .

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعيَّة : أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة ، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته ، ومحمَّدٌ ﷺ بلغ من المكارم ذروتها ، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل ، ولا تُسامَى(٤) .

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النَّبيِّ ﷺ على نبوَّته؛ بل ذهبت إلى ابن عمِّها العالم الجليل ورقة بن نوفل ـ رحمه الله! ـ الَّذي كان ينتظر ظهور نبيٍّ آخر الزَّمان ، لما عرفه من علماء أهل الكتاب من دنوِّ زمانه ، واقتراب مبعثه ، وكان لحديث ورقة أثرٌ طيِّبٌ في تثبيت النَّبيِّ ﷺ وتقوية قلبه ، وقد أخبرَ النَّبيَّ ﷺ بأنَّ الذي خاطبه هو صاحب السِّرِّ الأعظم ، الَّذي يكون سفيراً بين الله تعالى ، وأنبيائه ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النَّبيِّ ﷺ قوله :

لَجَجْتُ وكنتُ في الذِّكْرى لَجُوجَا ... لِهَمٍّ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا
وَوَصْفٍ مِن خَدِيجةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يا خَدِيجَا
بِبَطْنِ المكَّتَيْنِ(٥) عَلَى رَجَائي ... حَدِيثَكِ أن أرَى مِنْهُ خُرُوجا
بما خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّ ... مِنَ الرُّهْبَانِ أَكْرهُ أن يَعُوجا

---

(١) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧) .
(٢) النحائز : جمع النَّحيزة ، وهي الطبيعة ، يقال : هو كريم النَّحيزة .
(٣) انظر : محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧ ، ٣٠٨) .
(٤) انظر : محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/ ٢٣٢) .
(٥) بطن المكَّتين : جانبي مكَّة ، أو بطاحها ، وظواهرها .

بـــــأَنَّ مُحمَّـــــــداً سَيَسُـــــود فِينَـــــا   ويَخْصِـمُ مَـنْ يكُـونُ لَـه حَجِيجـا[(١)]

لقد صدَّق ورقـة بن نوفل برسالـة النَّبيِّ ﷺ ، وشهد له النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة ، فقد جاء في روايةٍ أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «لا تسبُّوا ورقة ، فإنِّي رأيت له جنَّةً ، أو جنَّتين» [الحاكم (٢/ ٦٠٩) والبزار (٢٧٥٠ و٢٧٥١) ومجمع الزوائد (٩/ ٤١٦)] .

وعن عائشة رضي الله عنها : أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة ، فقال : «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً ، فأحسبه لو كان من أهل النَّار لم يكن عليه ثياب بيض» . قال الهيثميُّ : وروى أبو يعلى بسندٍ حسنٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل ، فقال : «أبصرته في بُطْنان[(٢)] الجنَّة وعليه السُّندس» [أبو يعلى (٢٠٤٧) ومجمع الزوائد (٩/ ٤١٦)] .

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدورٍ مهمٍّ في حياة النَّبيِّ ﷺ ؛ لما لها من شخصيةٍ في مجتمع قومها ، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النَّفسيَّة ، الَّتي تقوم على الأخلاق العالية ؛ من الرَّحمة ، والحلم ، والحكمة ، والحزم ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق . والرَّسول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزَّوجة المثاليَّة ؛ لأنَّه قدوةٌ للعالمين ، وخاصَّةً الدُّعاة إلى الله ، فقيام خديجة بذلك الدَّور الكبير إعلامٌ من الله تعالى لجميع حملة الدَّعوة الإسلاميَّة بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال ، من التأسِّي برسول الله ﷺ ، حتَّى يتحقَّق لهم بلوغ المقاصد العالية الَّتي يسعون لتحقيقها[(٣)] .

إنَّ السيدة خديجة رضي الله عنها مثالٌ حسنٌ ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدُّعاة ، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرِّجال الَّذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة ، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيءٍ ؛ إنَّه صاحب هَمٍّ ، ورسالةٍ ، هَمٍّ على ضياع أمَّته ، وانتشار الفساد ، وزيادة شوكة أهله ، وهَمٍّ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، من مؤامراتٍ ، وظلمٍ ، وجوعٍ ، وإذلالٍ ، وما يصيب الدُّعاة منهم من تشريدٍ ، وتضييقٍ ، وتنكيلٍ ، وبعد ذلك هو صاحب رسالة ؛ واجب عليه تبليغها للآخريـن ، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه ، وراحته ، وأوقات زوجته ، وأبنائه ، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت ، والدُّنيا بأسرها ، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته ، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق ، والتَّقوى ، والجمال ، والحسب ما أوتيت ، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة ، وأهمِّيتها ، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤) .
(٢) بُطنان : البُطنان من الشَّيء : وسطُه .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ٦٩) .

وما يتحمَّله من أعباء ، وما يعانيه من مشاقّ ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها ، لا أن تقف عائقاً ، وشوكةً في طريقه[١] .

إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة ، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها ، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيِّ ﷺ وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ ، ولا شكَّ : أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة ، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة ، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس ، وإنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمَّله البشر ، فإذا وُفِّق الدَّاعية لزوجةٍ صالحةٍ ذات كفاءةٍ ، فإنَّ ذلك من أهمِّ أسباب نجاحه مع الآخرين[٢] ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «الدُّنيا متاعٌ ، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ» [أحمد (٢/١٦٨) ومسلم (١٤٦٧) والنسائي في السنن الكبرى (٥٣٢٥) وابن ماجه (١٨٥٥)] .

سابعاً : وفاء النَّبيِّ ﷺ للسَّيدة خديجة رضي الله عنها :

كان رسول الله ﷺ مثالاً عالياً للوفاء ، وردِّ الجميل لأهله ، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها ، وبعد مماتها ، وقد بشَّرها ﷺ ببيتٍ في الجنَّة في حياتها ، وأبلغها سلام الله ـ جلَّ وعلا ـ وسلام جبريل عليه السلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «أتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتتك ، معها إناءٌ فيه إدامٌ ـ أو طعامٌ ، أو شرابٌ ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربِّها ـ عزَّ وجلَّ ـ ومني ، وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قَصَبٍ[٣] لا صَخَبَ فيه ، ولا نَصَبَ» [البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢)] .

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النَّبيِّ ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها : «ما غرتُ على أحدٍ من نساء النَّبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكنْ كان النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذكرها ، وربما ذبح الشَّاة ، ثمَّ يُقطِّعُها أعضاء ، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأنَّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلا خديجةُ؟ فيقول : إنَّها كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد» [البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) واللفظ للبخاري] .

وأظهر ﷺ البشاشة ، والسُّرور لأخت خديجة ، لمَّا استأذنت عليه لتذكُّره خديجة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة[٤] فارتاح لذلك ، فقال : اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ! فغِرْت ، فقلت : وما تَذْكُرُ من

(١) انظر : وقفات تربوية من السِّيرة النبوية ، للبلالي ، ص ٤٠ .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي : (١/٦٨) .
(٣) يعنى من لؤلؤ ، أو ذهب .
(٤) يعني : لتشابه صوتيهما .

عجوزٍ من عجائز قريش ، حمراء الشِّدْقَيْنِ[١] هلكت في الدَّهر ؛ فأبدلك الله خيراً منها» [البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧)] . وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأةٍ كانت تأتيهم زمن خديجة ، وبيَّن : أن حفظ العهد من الإيمان[٢] .

ثامناً : سنَّة تكذيب المرسلين :

«يا ليتني فيها جَذَعاً ! ليتني أكون حياً ؛ إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله ﷺ : «أوَ مخرجيَّ هم؟!» قال : نعم ؛ لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُوديَ ، وإن يدركْني يومك ؛ أنصرْك نصراً مؤزراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] ، فقد بيَّن الحديثُ سنَّةً من سنن الأمم مع مَنْ يدعوهم إلى الله ـ عزَّ وجل ـ وهي التَّكذيب ، والإخراج ، كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] .

وكما قال قوم شعيب : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم : ١٣] .

تاسعاً : قوله : (وفتر الوحي) :

تحدَّث علماء السِّيرة قديماً ، وحديثاً عن فترة الوحي ، فقال الحافظ ابن حجر : وفتور الوحي عبارة عن تأخُّره مدَّةً من الزَّمان ، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الرَّوع ، وليحصل له التَّشوُّف[٣] إلى العود[٤] .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال وهو يحدِّث عن فترة الوحي : «بينا أنا أمشي ؛ إذ سمعت صوتاً من السَّماء ، فرفعت بصري ، فإذا الْمَلَكُ الَّذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السَّماء ، والأرض ، فرُعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ! فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ فَحَمِيَ الوحي ، وتتابع» [البخاري (٤) ومسلم (١٦١)] .

وقال صفيُّ الرَّحمن المباركفوري : «أمَّا مدَّة فترة الوحي ؛ فروى ابن سعدٍ عن ابن عبَّاسٍ ما يفيد : أنَّها كانت أياماً ، وهذا الذي يترجَّح ؛ بل يتعيَّن بعد إدارة النظر في جميع الجوانب ، وأمَّا

---

(١) يعني : لا أسنان لها من الكبر .
(٢) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ٧١) .
(٣) التَّشَوُّف : التطلُّع .
(٤) فتح الباري (١/ ٣٦) .

ما اشتهر من أنَّها دامت طيلة ثلاث سنين ، أو سنتين ونصف؛ فلا يصحُّ بحالٍ ، وليس هذا موضع التفصيل في ردِّه. وقد بقي رسولُ الله ﷺ في أيام الفترة كئيباً محزوناً تعتريه الحيرة ، والدَّهشة»[١].

ولقد ذكر البخاريُّ في صحيحه: أنَّه ﷺ حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلَّما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي منه نفسه؛ تَبَدَّى لَه جبريل ، فقَال: يا محمد! إنَّك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرُّ نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل؛ تبدَّى له جبريل ، فقالَ له مثل ذلك [البخاري (٦٩٨٢) وابن حبان (٣٣) والبيهقي في الدلائل (٢/١٣٨)].

* * *

(١) انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ٧٩ ، ٨٠.

المبحث الثَّاني
الدَّعوة السِّرِّيَّة

أولاً: الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة:

عرف النَّبيُّ ﷺ معرفة اليقين: أنَّه أصبح نبياً لله الرَّحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه السلام للمرَّة الثَّانية، وأنزل الله على نبيِّه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذاناً للرَّسول ﷺ بأنَّ الماضي قد انتهى بمنامه، وهدوئه، وأنَّه أمامه عملٌ عظيمٌ، يستدعي اليقظة، والتَّشْمير، والإنذار، والإعذار، فليحمل الرِّسالة، وليوجِّه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه؛ فإنَّه مصدر رسالته، ومدد دعوته(١).

وتعدُّ هذه الآيات أوَّل أمرٍ بتبليغ الدَّعوة، والقيام بالتَّبعة، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدَّعوة المحمَّدية، والحقائق الإسلاميَّة؛ الَّتي بُني عليها الإسلام كلُّه، وهي: الوحدانيَّة، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النُّفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النَّفع(٢).

كانت هذه الآيات تهييجاً لعزيمة رسول الله ﷺ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربِّه، فيمضي قُدُماً بدعوته، لا يبالي العقبات، والحواجز. كان هذا النِّداء مُتلطِّفاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إيذاناً بشحذ العزائم، وتوديعاً لأوقات النَّوم، والرَّاحة، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنُّهوض ﴿قُمْ﴾ في عزيمةٍ ناهضةٍ، وقوَّةٍ حازمةٍ، تتحرَّك في اتجاه تحقيق واجب التَّبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التَّبشير. في أوَّل خطابٍ وُجِّه إلى النَّبيِّ ﷺ بعد فترة الوحي ـ إيذانٌ بأنَّ رسالته تعتمد على الكفاح الصَّبور، والجهاد المرير، ثمَّ زادت الآيات في تقوية عزيمة النَّبيِّ ﷺ، وشدِّ أزره، وحَضِّه على المضيّ قُدُماً إلى غاية ما أُمر به، غير عابىءٍ بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها، فقيل له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: لا تعظم شيئاً من

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص ٩٠.

(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، د. كامل سلامة، ص ١٨١.

أمور الخلق ، ولا يتعاظمك منهم شيءٌ ، فلا تتهيَّب فعلاً من أفعالهم ، ولا تخشَ أحداً منهم ، ولا تعظِّم إلا ربَّك ، الَّذي تعهَّدك وأنت في أصلاب الآباء ، وأرحام الأمَّهات ، فربَّاك على موائد فضله ، ورعاك بإحسانه وجوده حتَّى أخرجك للنَّاس نبياً ، ورسولاً ، بعد أن أعدَّك خلْقاً وخُلُقاً؛ لتحمل أمانة أعظم رسالاته ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ : فكلُّ تعظيمٍ وتكبيرٍ وإجلال حقٌّ لله تعالى وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، أو شيءٌ من مخلوقاته[1] .

وفي قوله تعالى : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فكأنَّه قيل له ﷺ : فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيَّتك ، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق ، وبما حباك به من نبوَّته؛ ليعدَّك بها ليومك هذا ـ أحوج إلى أن تزداد في تطهُّرك النَّفسيِّ ، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء ، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين ، وكمال الرِّسالة في كمال الخُلق الاجتماعيِّ؛ صبراً ، وحلماً ، وعفواً ، وإحساناً ، ودأباً على الجدِّ في تبليغ الدَّعوة إلى الله تعالى ، ولا يثنيك إيذاءٌ ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فكأنَّه قيل له ﷺ : ليكن قصدك ، ونيَّتك في تركك ما تركت فطرةً ، وطبعاً؛ هجره تكليفاً ، وتعبُّداً؛ لتكون قدوة أمَّتك ، وعنوان تطهُّرها بهداية رسالتك[3] .

ثانياً : بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة :

بعد نزول آيات المدثر ، قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله ، وإلى الإسلام سراً ، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته ، وأصدقائه ، وأقرب النَّاس إليه .

١ ـ إسلام السَّيدة خديجة رضي الله عنها :

كان أوَّل من آمن بالنَّبيِّ ﷺ من النِّساء ، بل أوَّل من آمن به على الإطلاق ، السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، فكانت أوَّل من استمع إلى الوحي الإلٰهي من فم الرَّسول الكريم ﷺ ، وكانت أوَّل من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرَّسول العظيم ﷺ ، وكانت كذلك أوَّل من تعلَّم الصَّلاة من رسول الله ﷺ ، فبيتُها هو أوَّل مكان تُلي فيه أوَّل وحيٍ نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[4] .

كان أوَّل شيءٍ فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتَّوحيد ، إقامة الصَّلاة ، وقد جاء في

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصادق عرجون (١/ ٥٨٩ ـ ٥٩١) بتصرفٍ كبير .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٣ .
(٤) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، ص ٣٦ .

الأخبار حديث تعليم الرّسول ﷺ زوجه خديجة الوضوء ، والصَّلاة ، حين افتُرضت على رسول الله : أتاه جبريل وهو بأعلى مكَّة ، فهمز له بعَقبِه في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عينٌ ، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام ، ورسولُ الله ﷺ ينظر ليُرِيَه كيفية الطُّهور للصَّلاة ، ثمَّ توضَّأ رسولُ الله ﷺ كما رأى جبريل توضَّأ ، ثمَّ قام جبريل عليه السلام فصلَّى به ، وصلَّى النَّبيُّ ﷺ بصلاته ، ثمَّ انصرف جبريل عليه السلام ، فجاء رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها ، فتوضَّأ لها يريها كيف الطُّهور للصَّلاة ، كما أراه جبريل عليه السلام ، فتوضَّأت كما توضَّأ رسول الله ﷺ ، ثمَّ صلَّى بها رسولُ الله ﷺ ، كما صلَّى به جبريل عليه السلام ، فصلَّت بصلاته . [ابن هشام (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)] .

٢ ـ إسلام عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه :

وبعد إيمان السَّيدة خديجة ، دخل عليُّ بن أبي طالب في الإسلام ، وكان أوَّل من آمن من الصِّبيان ، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال ، وهو قول الطَّبريِّ ، وابن إسحاق[١] ، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربَّى في حجر رسوله ﷺ قبل الإسلام ، حيث أخذه من عمِّه أبي طالب وضمَّه إليه[٢] ، وكان عليٌّ رضي الله عنه ثالث من أقام الصَّلاة بعد رسول الله ﷺ ، وبعد خديجة رضي الله عنها[٣] .

وقد ذكر بعض أهل العلم : أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصَّلاة ؛ خرج إلى شعاب مكَّة ، وخرج معه عليُّ بن أبي طالبٍ مستخفياً من أبيه ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصلِّيان الصَّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ليضمَّهما ذلك البيت الطَّاهر التَّقيُّ بالإيمان ، المفعم بصدق الوفاء ، وكرم الْمَنْبِتِ[٤] .

٣ ـ إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه :

هو أوَّل من آمن بالدَّعوة من الموالي[٥] ، حِبُّ النَّبيِّ ﷺ ، ومولاه ، ومُتَبنَّاه : زيد ابن حارثة الكلبيُّ ، الَّذي آثر رسول الله ﷺ على والده ، وأهله ؛ عندما جاؤوا إلى مكَّة لشرائه من رسول الله ﷺ ، فترك رسول الله ﷺ الأمر لزيدٍ ، فقال زيدٌ لرسول الله : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، وأنت منِّي بمنزلة الأب ، والعمِّ ، فقال له والده ، وعمُّه : ويحك ! تختار العبوديَّة على الحرِّيَّة ،

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٢٨٤) .
(٢) ابن هشام (١/ ٢٤٦) .
(٣) عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (١/ ١١٥) .
(٤) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ . د. عصمة الدِّين ، ص ٤٢ .
(٥) يطلق المولى على السَّيد ، وعلى المملوك الذي أُعتق ، وهو المراد هنا .

وعلى أبيك ، وعمِّك ، وأهل بيتك! قال: نعم! وإنِّي رأيت من هذا الرَّجل شيئاً ما أنا بالَّذي أختار عليه أحداً أبداً[١] .

٤ ـ بنات النَّبيِّ ﷺ :

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النَّبيِّ ﷺ ، كلٌّ من: زينب ، وأمِّ كلثوم ، وفاطمة ، ورقيَّة ، فقد تأثَّرْنَ قبل البعثة بوالدهنَّ ﷺ في الاستقامة ، وحسن السِّيرة ، والتَّنزُّه عمَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة ، من عبادة الأصنام ، والوقوع في الآثام ، وقد تأثَّرن بوالدتهنَّ؛ فأسرعن إلى الإيمان[٢] . وبذلك أصبح بيت النَّبيِّ ﷺ أوَّل أسرةٍ مؤمنةٍ بالله تعالى ، منقادةٍ لشرعه في الإسلام ، ولهذا البيت النَّبويِّ الأوَّل مكانةٌ عظمى في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ لما حباه الله به من مزايا ، وخصَّه بشرف الأسبقية في الإيمان ، وتلاوة القرآن ، وإقام الصَّلاة؛ فهو:

* أوَّل مكانٍ تلي فيه وحي السَّماء بعد غار حراء .

* وأوَّل بيتٍ ضمَّ المؤمنة الأولى سابقة السَّبق إلى الإسلام .

* وأوَّل بيت أقيمت فيه الصَّلاة .

* وأول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثَّلاثة السَّابقون إلى الإسلام: خديجة ، وعليٌّ ، وزيد بن حارثة .

* وأوَّل بيت تعهَّد بالنُّصرة ، ولم يتقاعس فيه فردٌ من أفراده ـ كباراً ، أو صغاراً ـ عن مساندة الدَّعوة[٣] .

يحقُّ لهذا البيت أن يكون قدوةً ، ويحقُّ لربَّته أن تكون مثالاً ، ونموذجاً حيّاً لبيوت المسلمين ، ولنسائهم ، ورجال المؤمنين كافَّةً؛ فالزَّوجة فيه طاهرةٌ ، مؤمنةٌ ، مخلصةٌ ، وزيرة الصِّدق ، والأمان ، وابن العمِّ المحضون ، والمكفول مستجيبٌ ، ومعضِّد ، ورفيقٌ ، والْمُتَبَنَّى مؤمنٌ ، صادقٌ ، مساعدٌ ، ومعينٌ ، والبنات مصدِّقاتٌ ، مستجيباتٌ ، مؤمناتٌ ، ممتثلات[٤] .

لقد اكتسى هذا البيت بأبهى حُلل الإيمان ، وأضاء أركانَه قبسُ نور التَّصديق ، فكان بين الزَّوجين التَّجاوب ، والتَّكافل ، وتمَّ بذلك تجسيد معنى قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ

---

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٩١ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٢٨٤) .

(٣) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدين ، ص ٤٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٥ .

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وفيه أيضاً تجسيد ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ في مجال التَّربية في قوله: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمَجِّسانه» [البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)] ومن استقامة التَّربية كان بناته رضي الله عنهن من السَّابقات إلى التَّصديق، والإيمان، وهكذا كان للبيت النَّبويِّ مكانته الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا، والأنموذج الَّذي نسير على هديه، في المعاشرة، ومثاليَّة السُّلوك بالصِّدق، والتَّصديق، في الاستجابة، والعمل لكلِّ من آمن بالله رباً، وبمحمَّدٍ نبياً، ورسولاً[١]. إنَّ الحقيقة البارزة في المنهج الرَّبانيِّ تشير إلى أهميَّة بناء الفرد الصَّالح، والأسرة الصَّالحة كأوَّل حلقةٍ من حلقات الإصلاح، والبناء، ثمَّ المجتمع الصَّالح، ولقد تجلَّت عناية الإسلام بالفرد المسلم، وتكوينه، ووجوب أن يسبق أيَّ عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزَّاوية في أي بناءٍ اجتماعيٍّ، ولهذا كانت الأسرة هي التي تستقبل الفرد منذ ولادته، وتستمرُّ معه مدَّةً طويلةً من حياته، بل هي الَّتي تحيط به طوال حياته، هي المحضن المتقدِّم الَّذي تتحدَّد به معالم الشَّخصيَّة، وخصائصها، وصفاتها، كما أنَّها الوسيط بين الفرد، والمجتمع، فإذا كان هذا الوسيط سليماً قويّاً؛ أمدَّ طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسَّلامة، والقوَّة[٢].

ولهذا اهتمَّ الإسلام بالأسرة، واتَّجه إليها، يضع لها الأسس الَّتي تكفل قيامها، ونموَّها نمواً سليماً، ويوجِّهها الوجهة الرَّبَّانيَّة؛ لتكون حلقةً قويَّةً في بناء المجتمع الإسلاميِّ، والدَّولة الإسلاميَّة الَّتي تسعى لصناعة الحضارة الرَّبَّانيَّة في دنيا النَّاس[٣].

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من حركة الدَّعوة الإسلاميَّة منذ ساعتها الأولى؛ إذ كان من قدر الله تعالى أن يكون أوَّل السَّابقين إلى الإسلام امرأةٌ (خديجة رضي الله عنها)، إشادةً بمنزلة المرأة في الإسلام، وأنَّه يرسي قواعده على الأسرة، وصبيٌّ (علي رضي الله عنه)، إشارةً لحاجة الدَّعوة إلى البراعم الجديدة، واهتمامها بالجيل النَّاشئ؛ لتسير في مراحلها الصَّحيحة لبناء المجتمع، ثمَّ الدَّولة، ثمَّ الحضارة[٤].

وإنَّ التَّأمُّل في نقطة البدء بهذه الدَّعوة الَّتي توجَّهت إلى امرأةٍ كخديجة رضي الله عنها، ومولىً كزيد بن حارثة، وصبيٍّ كعليِّ بن أبي طالبٍ، وبقيَّة أسرة النَّبيِّ ﷺ، ليدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة موجهةٌ لكلِّ النَّاس ـ صغيرهم، وكبيرهم، ذكرهم، وأنثاهم،

---

(١) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ، ص ٤٦.
(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، لكامل سلامة، ص ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة المسلمة، لمحمود الجوهري، ص ٧.

وسيِّدهم ، ومولاهم ـ فلكلٍّ هذه الشَّرائح الاجتماعيَّة من الرِّجال والنِّساء ، والأطفال ، والموالي دوره المنتظر في البناء الاجتماعيِّ ، وإقامة الدَّولة ، وانتشار الحضارة[١] .

٥ ـ إسلام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه :

كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه أوَّل مَنْ آمن بالنَّبيِّ ﷺ من الرِّجال الأحرار ، والأشراف ، فهو من أخصِّ أصحاب رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وفيه قال رسولُ الله ﷺ : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ ، وتردُّدٌ ، ونَظَرٌ ، إلا أبا بكر ، ما عَكَم[٢] حين دعوته ، ولا تردَّد فيه» [البيهقي في الدلائل (٢/ ١٦٤)] ، فأبو بكرٍ صاحب رسول الله ﷺ ، وهو حسنةٌ من حسناته ﷺ ؛ فلم يكن إسلامه إسلام رجلٍ ، بل كان إسلامه إسلام أمَّةٍ ، فهو في قريشٍ ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ في موقع العين منها :

ـ كان رجلاً مَأْلَفاً[٣] لقومه ، محبباً ، سهلاً .

ـ وكان أنسب قريش لقريشٍ ، وأعلم قريشٍ بها ، وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ .

ـ وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلقٍ ، ومعروفٍ .

ـ وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر؛ لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته[٤] .

لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادَّخره الله تعالى لنبيِّه ﷺ ، وكان من أحبِّ قريشٍ لقريشٍ ، فذلك الخُلُق السَّمح الَّذي وهبه الله تعالى إيَّاه جعله من الموطَّئين أكنافاً ، من الذين يألفون ، ويؤلفون ، والخُلُق السَّمح وحدَه عنصرٌ كاف لألفة القوم ، وهو الَّذي قال فيه ﷺ : «أرْحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكرٍ» [أحمد (٣/ ١٨٤ ـ ٢٨١) والترمذي (٣٧٩٠ و٣٧٩١) وابن ماجه (١٥٤)] وعِلْمُ الأنساب عند العرب وعلم التَّاريخ هما أهمُّ العلوم عندهم ، ولدى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه النَّصيب الأوفر منهما ، وقريشٌ تعترف للصِّدِّيق بأنَّه أعلمها بأنسابها ، وأعلمها بتاريخها ، وما فيه من خيرٍ وشرٍّ ، فالطبقة المثقَّفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارةً ، ووفرةً ، وسعةً ، ومن أجل هذا كان الشَّباب النَّابهون ، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً ، إنَّهم الصَّفوة الفكريَّة المثقَّفة الَّتي تودُّ أن تلقى عنده هذه العلوم ، وهذا جانبٌ آخر من جوانب عظمته . وطبقة رجال الأعمال ، ورجال المال في مكَّة ، هي كذلك من روَّاد مجلس

(١) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التَّمكين ، ص ٢٠٨ .
(٢) ما تلبَّث ، بل سارع .
(٣) مألفاً لقومه أي : محبباً فيهم .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٧١) .

الصِّدِّيق ، فهو إن لم يكن التَّاجر الأوَّل في مكَّة ، فهو من أشهر تجَّارها ، فأرباب المصالح هم كذلك قُصَّاده. ولطيبته ، وحسن خلقه تلقى عوامَّ النَّاس يرتادون بيته ، فهو المضياف الدَّمث الخُلُق؛ الَّذي يفرح بضيوفه ، ويأنس بهم ، فكلُّ طبقات المجتمع المكيِّ تجد حظَّها عند الصِّدِّيق ، رضوان الله عليه[١] كان رصيده الأدبيُّ ، والعلميُّ ، والاجتماعيُّ في المجتمع المكيِّ عظيماً ، ولذلك عندما تحرَّك في دعوته للإسلام استجاب له صفوةٌ من خيرة الخلق ، وهم:

ـ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، في الرَّابعة والثلاثين من عمره.

ـ وعبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه ، في الثَّلاثين من عمره.

ـ وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، وكان في السَّابعة عشرة من عمره.

ـ والزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، وكان في الثانية عشرة من عمره.

ـ وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وكان في الثالثة عشرة من عمره[٢].

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أوَّل ثمرةٍ من ثمار الصِّدِّيق أبي بكرٍ رضي الله عنه ، دعاهم إلى الإسلام ، فاستجابوا ، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى ، فأسلموا بين يديه ، فكانوا الدِّعامات الأولى؛ الَّتي قام عليها صرح الدَّعوة ، وكانوا العدَّة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ ، وبهم أعزَّه الله وأيَّده ، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، رجالاً ، ونساءً ، وكان كلٌّ من هؤلاء الطلائع داعيةً إلى الإسلام ، وأقبل معهم رعيل السَّابقين ، الواحد ، والاثنان ، والجماعة القليلة ، فكانوا على قلَّة عددهم كتيبة الدَّعوة ، وحصن الرِّسالة ، لم يسبقهم سابقٌ ، ولا يلحق بهم لاحقٌ في تاريخ الإسلام[٣].

إنَّ تحرُّك أبي بكر رضي الله عنه في الدَّعوة إلى الله تعالى يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدِّين ، والاستجابة لله ورسوله ﷺ؛ صورة المؤمن الَّذي لا يقرُّ له قرارٌ ، ولا يهدأ له بالٌ ، حتَّى يحقِّق في دنيا النَّاس ما آمن به ، دون أن تكون انطلاقته دفعةً عاطفيَّةً مؤقَّتةً سرعان ما تخمد ، وتذبل ، وتزول ، وقد بقي نشاط أبي بكرٍ ، وحماسه إلى أن توفَّاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لم يفتر ، أو يضعف ، أو يملَّ ، أو يعجز.

ونلاحظ: أنَّ أصحاب الجاه لهم أثرٌ كبيرٌ في كسب أنصارٍ للدَّعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكرٍ رضي الله عنه في الإسلام أكثرَ من غيره[٤].

---

(١) انظر: التربية القياديَّة ، للغضبان (١/ ١١٥).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ١١٦).
(٣) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لعرجون (١/ ٥٣٣).
(٤) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص ٦٢.

بعد أن كانت صحبة الصِّدِّيق لرسول الله ﷺ مبنيةً على مجرَّد الاستئناس النفسيِّ ؛ والخلقيِّ ؛ صارت الأنسة بالإيمان بالله وحدَه ، وبالمؤازرة في الشَّدائد ، واتَّخذ رسول الله ﷺ من مكانة أبي بكر ، وأُنْسِ النَّاس به ، ومكانته عندهم قوةً لدعوة الحقِّ فوق ما كان له ﷺ من قوَّة نفسٍ ، ومكانةٍ عند الله ، وعند النَّاس(١) .

ومضت الدَّعوة سرِّيَّةً ، وفرديَّةً على الاصطفاء ، والاختيار للعناصر ؛ الَّتي تصلح أن تتكوَّن منها الجماعة المؤمنة ، الَّتي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ، ودعوة الخلق إلى دين ربِّ العباد ، والَّتي ستقيم حضارةً ربّانيَّةً ليس لها مثيلٌ .

٦ ـ الدُّفْعة الثَّانية :

جاء دور الدُّفعة الثَّانية بعد إسلام الدُّفعة الأولى ، فأوَّل من أسلم من هذه الدُّفعة : أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرَّة ابن عمَّة رسول الله ﷺ (برَّة بنت عبد المطلب) ، وأخوه من الرَّضاع ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميُّ ، وعثمان بن مظعون الجمحيُّ ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيلٍ ، وقُدامة وعبد الله ابنا مظعونٍ ، وفاطمة بنت الخطَّاب بن نفيل ، أخت عمر بن الخطَّاب وزوجة سعيد بن زيد ، وأسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ، وعائشة بنت أبي بكرٍ الصدِّيق ، وخباب بن الأرتِّ حليف بني زُهرة(٢) .

٧ ـ الدُّفعة الثالثة :

أسلم عمير بن أبي وقَّاص أخو سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعبد الله بن مسعودٍ ، ومسعود بن القاري ، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرٍو ، وسليط بن عمرٍو ، وأخوه حاطب بن عمرٍو ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وامرأته أسماء بنت سلامة ، وخُنَيس بن حُذافة السَّهميُّ ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطَّاب ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته أسماء بنت عُمَيس ، وحاطب بن الحارث ، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل ، وأخوه حطَّاب بن الحارث ، وامرأته فُكَيهة بنت يسار ، وأخوهما معمَر بن الحارث ، والسَّائب بن عثمان بن مظعون ، والمطَّلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنَّحَّام بن عبد الله بن أُسَيْد ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكرٍ ، وفهيرة : أمُّه ، وكان عبداً للطُّفيل بن الحارث بن سَخْبَرة ، فاشتراه الصِّدِّيق ، وأعتقه ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ ، وامرأته أمينة بنت خلف ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ ، وواقد بن عبد

---

(١) انظر : خاتم النَّبيين ، لأبي زهرة ، ص ٣٩٨ .

(٢) انظر : دولة الرَّسول ﷺ ، من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٢ .

الله بن عبد مناف ، وخالدٌ ، وعامرٌ ، وعاقلٌ ، وإياسٌ بنو البُكَيْر بن عبد يا ليل ، وعمَّار بن ياسرٍ حليف بني مخزوم بن يقظة ، وقال ابن هشام : عَنْسيٌّ من مَذْحج .

وصُهيب بن سنان ، هو (سابق الرُّوم) .

ومن السَّابقين إلى الإسلام : أبو ذرٍّ الغفاريِّ ، وأخوه أُنَيس ، وأمُّه[١] .

ومن أوائل السَّابقين : بلال بن رباح الحبشيُّ .

وهؤلاء السَّابقون : من جميع بطون قريش ، عدَّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً[٢] .

وقال ابن إسحاق : ثمَّ دخل النَّاس في الإسلام أرسالاً من الرِّجال ، والنِّساء ، حتى فشا ذكر الإسلام في مكَّة ، وتُحدِّث به[٣] .

ويتَّضح من عرض الأسماء السَّابقة : أنَّ السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم ، ولم يكونوا ـ كما يحبُّ أعداء الإسلام أن يصوِّروا للنَّاس ـ من حثالة النَّاس ، أو من الأرقَّاء ؛ الَّذين أرادوا استعادة حرِّيَّتهم ، أو ما شابه ذلك . وجانب الصَّوابَ بعضُ كُتَّاب السِّيرة لدى حديثهم عن السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، فكان من كتابة بعضهم : «وتُحَدِّثنا السِّيرة : أنَّ الَّذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمُهم خليطاً من الفقراء ، والضُّعفاء ، والأرقَّاء ، فما الحكمة في ذلك؟»[٤] ، وكذلك قولهم :

«كان رصيد هذه الدَّعوة بعد سنواتٍ ثلاثٍ من بدايتها أربعين رجلاً وامرأةً ، عامَّتهم من الفقراء ، والمستضعفين ، والموالي ، والأرقَّاء ، وفي مقدِّمتهم أخلاطٌ من مختلف الأعاجم : صهيبٌ الرُّوميُّ ، وبلالٌ الحبشيُّ»[٥] . وقولهم : «فآمن به ناسٌ من ضعفاء الرِّجال ، والنِّساء ، والموالي»[٦] .

إنَّ البحث الدَّقيق يثبت : أنَّ مجموع من أشير إليهم بالفقراء ، والمستضعفين ، والموالي والأرقَّاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر ، ونسبة هذا العدد من العدد الكلِّيِّ من الدَّاخلين في الإسلام لا يقال عليه : «أكثرهم» ، ولا «معظمهم» ، ولا «عامَّتهم» .

إنَّ الَّذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافعٌ دنيويٌّ ؛ وإنَّما هو إيمانهم بالحقِّ الَّذي شرح الله

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١/ ٢٨٧) .
(٢) انظر : سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٥ إلى ٢٦٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٢٦٢) .
(٤) فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٧٧ .
(٥) فقه السيرة للبوطي ، ص ٧٩ .
(٦) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، لابن الرَّبيع (١/ ٣٠١) .

صدورهم له، ونصرة نبيّه ﷺ ، يشترك في ذلك الشَّريف، والرَّقيق، والغنيُّ ، والفقير ، ويتساوى في هذا أبو بكرٍ ، وبلالٌ ، وعثمان ، وصهيبٌ رضي الله عنهم[١] .

يقول الأستاذ صالح الشَّامي : نحن لا نريد أن ننفي وجود الضُّعفاء ، والأرقَّاء؛ ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبيَّة؛ لأنَّ هذا مخالفٌ للحقائق الثَّابتة ، ولو كانوا كذلك؛ لكانت دعوةً طبقيَّةً يقوم فيها الضُّعفاء ، والأرقَّاء ضدَّ الأقوياء وأصحاب السُّلطة ، والنُّفوذ ، ككلِّ الحركات الَّتي تقاد من خلال البُطون. إنَّ هذا لم يَدُرْ بِخَلَدِ أيٍّ من المسلمين وهو يعلن إسلامه ، إنَّهم يدخلون في هذا الدِّين على اعتبارهم إخوةً في ظلِّ هذه العقيدة ، عباداً لله ، وإنَّه لمن القوَّة لهذه الدَّعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذَّات من كرام أقوامهم ، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحمَّلوا أصنافاً من الهوان ، ما سبق لهم أن عانوها ، أو فكَّروا فيها[٢] .

لقد كان الإسلام ينساب إلى النُّفوس الطَّيبة ، والعقول النَّيِّرة ، والقلوب الطَّاهرة الَّتي هيَّأها الله لهذا الأمر ، ولقد كان في الأوائل: خديجة ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، وعثمان ، والزُّبير ، وعبد الرَّحمن ، وطلحة ، وأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن جحش ، وجعفر ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، وخالد بن سعيد ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وهم من سادة القوم ، وأشرافهم[٣] .

هؤلاء هم السَّابقون الأوَّلون ، الَّذين سارعوا إلى الإيمان والتَّصديق بدعوة النَّبيِّ ﷺ .

ثالثاً: استمرار النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة:

استمرَّ النَّبيُّ ﷺ في دعوته السِّرِّيَّة يستقطب عدداً من الأتباع ، والأنصار من أقاربه ، وأصدقائه ، وخاصَّة الَّذين يتمكَّن من ضمِّهم في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ بعد إقناعهم بالإسلام ، وهؤلاء كانوا نعم العون والسَّند للرَّسول ﷺ ؛ لتوسيع دائرة الدَّعوة في نطاق السِّرِّيَّة ، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرَّسول ﷺ ظهرت فيها الصُّعوبة والمشقَّة في تحرُّك الرَّسول ﷺ ومن آمن معه بالدَّعوة ، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شرِّه ، ويثقون به ، وهذا يعني : أنَّ الدَّعوة خطواتها بطيئةٌ ، وحذرةٌ ، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقِّي مطالب الدَّعوة من مصدرها ، وصعوبة تنفيذها؛ إذ كان الدَّاخل في هذا الدِّين ملزماً منذ البداية بالصَّلاة ، ودراسة ما تيسَّر من القرآن ـ مثلاً ـ ولم يكن يستطيع أن يصلِّي بين ظَهْرَانَي قومه ، ولا أن يقرأ القرآن ، فكان المسلمون

(١) انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠ .

يتخفَّون في الشِّعاب ، والأودية ؛ إذا أرادوا الصَّلاة[(١)] .

١ ـ الحسُّ الأمنيُّ :

إنَّ من معالم هذه المرحلة الكتمان ، والسِّرِّيَّة ، حتَّى عن أقرب النَّاس ، وكانت الأوامر النَّبويَّة على وجوب المحافظة على السِّرِّيَّة واضحةً ، وصارمةً ، وكان ﷺ يكوِّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا) ، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعدادٍ ، وتدريبٍ ، لا اختفاء جبنٍ ، وهروبٍ ، حسب ما تقتضيه الخطَّة الرَّبَّانيَّة ، فبدأ الرَّسول ﷺ ينظِّم أصحابه من أسرٍ وخلايا صغيرةٍ ، فكان الرَّجل يجمع الرَّجل والرَّجلين ؛ إذا أسلما عند الرَّجل به قوَّةٌ ، وسعةٌ من المال ، فيكونان معه ، ويصيبان منه فضل طعامه ، ويجعل منهم حلقاتٍ ، فمن حفظ شيئاً من القرآن ؛ عَلَّمَ مَنْ لم يحفظ ، فيكون من هذه الجماعات أسر أُخُوَّة ، وحلقات تعليم .

إنَّ المنهج الَّذي سار عليه رسول الله ﷺ في تربية أتباعه هو القرآن الكريم ، وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّي أصحابه تربيةً شاملةً ؛ في العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والحسِّ الأمنيِّ ، وغيرها ، ولذلك نجد في القرآن الكريم آياتٍ كريمةً تَحَدَّثَتْ عن الأخذ بالحسِّ الأمنيِّ ؛ لأنَّ مِنْ أهمِّ عوامل نهوض الأمَّة أن ينشأ الحسُّ الأمنيُّ في جميع أفرادها ، وخصوصاً في الصَّفِّ المنظَّم الَّذي يدافع عن الإسلام ، ويسعى لتمكينه في دنيا النَّاس ، ولذلك نجد النَّواة الأولى للتَّربية الأمنيَّة كانت في مكَّة ، وتوسَّعت مع توسُّع الدَّعوة ، ووصولها إلى دولة ، ومن الآيات المكِّيَّة التي أشارت إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧] .

ووجه الاستدلال : أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسَّسوا ، ويبحثوا عن يوسف ، وأخيه ، وفي هذا إقرارٌ من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ، ويؤكِّد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾[(٢)] .

ولا شكَّ : أن الصَّحابة كانوا يجمعون المعلومات عمَّن يريدون دعوته للإسلام ، وكانت القيادة تشرف على ذلك ، ولذلك قام النَّبيُّ ﷺ بترتيب جهازٍ أمنيٍّ رفيعٍ ، يشرف على الاتِّصال المنظَّم بين القيادة والقواعد ؛ ليضمن تحقيق مبدأ السِّرِّيَّة .

وفي القرآن المكي نجد قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا

(١) انظر : الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة .

(٢) انظر : الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، لعبد الله علي ، ص ١٠٥ .

يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١١، ١٢].

ونلحظ في الآيتين الآتي:

١ ـ استخدام أمِّ موسى مبدأ جمع المعلومات، والحصول عليها في حفاظها على ابنها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] والقَصُّ إنَّما هو تتبُّع الأثر، وجمع المعلومات.

٢ ـ اختيار العنصر الأمين، والحريص في جمع المعلومات؛ لتكون صحيحةً، وموثَّقةً، وأمينة، وقبل ذلك حريصةً على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، فأمُّ موسى لم تختر غير أخته؛ لأنَّ الأخت تعتبر من الحريصين، والأمناء على تلك المصلحة، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات، وتحصيل الأخبار، فمن الأهمِّيَّة بمكانٍ أن يكون العنصر المرسَل في عملية الاستخبارات مندفعاً من ذاته، حريصاً على المصلحة المرسل إليها.

٣ ـ القَصُّ، والتَّتبُّع بدون إشارةٍ، أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] إذ نفهم من كلمة ﴿قُصِّيهِ﴾ الانتباه، وعدم إثارة الأنظار، ودليل ذلك: أنَّها بصرت به دون أن يشعروا بها.

٤ ـ دقة الملاحظة، وقوَّة الفراسة في أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

٥ ـ استعملت أختُ موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصريَّة، وهو التَّخريب الفكري، فبعد أن نظرت إليهنَّ وهنَّ غير قادرات على إرضاعه؛ قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

٦ ـ محاولة تحقيق الهدف في أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمَّها بمكانه، وإنما هي قصَّت الأخبار، وتوصَّلت إلى مكانه، وحاولت إعادته إلى أمِّه، وقد نجحت في هذا(١).

إنَّ هذه الآيات الكريمة تربِّي في حسِّ الصَّحابة الحسَّ الأمنيَّ، وأخذ الحيطة في مسيرتهم الدَّعويَّة.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في أبعادها الأمنيَّة منذ تربية الأفراد، وحتَّى بعد قيام الدَّولة، وتظهر الحاجة للحركات الإسلاميَّة والدُّول المسلمة لإيجاد أجهزةٍ أمنيَّةٍ متطوِّرةٍ (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام، والمسلمين من أعدائها ـ اليهود، والنَّصارى، والملاحدة ـ وتعمل على حماية الصفِّ المسلم في الدَّاخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين،

---

(١) انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام، ص ١١١، ١١٢.

والمحاربين للإسلام ، حتَّى تستفيد القيادة من المعلومات الَّتي تقدِّمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنيَّة ، ولابدَّ أن تؤسَّس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وتكون أخلاق رجالها قمَّةً رفيعةً تمثِّل صفات رجال الأمن المسلمين .

إنَّ اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنِّبهم المفاجآت العدوانيَّة ؛ «إذا عرفت العدوَّ ، وعرفت نفسك ، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركةٍ ، وإذا عرفت نفسك ، ولم تعرف العدوَّ فإنك ستواجه الهزيمة في كلِّ معركة»[١] .

إن بناء الأجهزة الأمنيَّة ، ومكاتب المعلومات الَّتي تقدِّم للقيادة التَّقارير لوضع الخطط المناسبة على إثرها ليس أمراً جديداً ، بل هو موغلٌ في تاريخ الإنسانيَّة ، وكذلك في تاريخ المسلمين ؛ منذ عصر النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة حتَّى يومنا هذا .

إنَّ من أسباب التَّمكين المهمَّة إعطاء هذا الأمر حقَّه من الاهتمام ، والارتقاء به ، وتطويره بما يناسب أحوال العصر الَّذي نحن فيه[٢] . كان النَّبيُّ ﷺ يشرف بنفسه على تربية أصحابه في شتَّى الجوانب ، ووزَّعهم في أسرٍ ؛ فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد ـ وهو ابن عمِّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم ـ كانوا في أسرةٍ واحدةٍ مع نُعَيم بن عبد الله النَّحَّام بن عديٍّ ، وكان معلِّمهم خبَّاب بن الأرت ، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصر على تجويد تلاوته ، وضبط مخارج حروفه ، ولا على الاستكثار من سرده ، والإسراع في قراءته ؛ بل كان همُّهم دراسته ، وفهمَه ، ومعرفة أمره ، ونهيه ، والعمل به[٣] .

كان النَّبيُّ ﷺ يهتمُّ بالتَّخطيط الدَّقيق المنظَّم ، ويحسب لكلِّ خطوةٍ حسابها ، وكان مدركاً تماماً : أنَّه سيأتي اليوم الذي يُؤمر فيه بالدَّعوة علناً ، وجهراً ، وأنَّ هذه المرحلة سيكون لها شدَّتها ، وقوَّتها ، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظَّمة تقتضي أن يلتقي الرَّسول المربِّي مع أصحابه ، فكان لابدَّ من مقرٍّ لهذا الاجتماع ، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتَّسع لكثرة الأتباع ، فوقع اختيار النَّبيِّ ﷺ وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم ؛ إذ أدرك الرَّسول ﷺ : أنَّ الأمر يحتاج إلى الدِّقَّة المتناهية في السِّرِّيَّة ، والتَّنظيم ، ووجوب التقاء القائد المربِّي بأتباعه في مكانٍ آمنٍ بعيدٍ عن الأنظار ؛ ذلك : أنَّ استمرار اللِّقاءات الدَّوريَّة المنظَّمة بين القائد ، وجنوده هو خير وسيلةٍ للتَّربية العمليَّة ، والنَّظرية ، وبناء الشَّخصيَّة القياديَّة الدَّعويَّة .

---

(١) انظر : الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ٣١١ .
(٢) انظر : فقه التمكين في القرآن ، لعلي الصَّلابي ، ص ٣١١ .
(٣) انظر : الدَّعوة الإسلاميَّة ، د. عبد الغفار محمَّد عزيز ، ص ٩٦ .

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان يعدُّ أتباعه؛ ليكونوا بناة الدَّولة ، وحملة الدَّعوة ، وقادة الأمم حرصُه الشَّديد على هذا التَّنظيم السِّرِّيِّ الدَّقيق ، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كلِّ هذا.

ولو كان يريد مجرَّد إبلاغ الدَّعوة للنَّاس؛ لكان خير مكانٍ في الكعبة؛ حيث منتدى قريشٍ كلِّها ، ولكن الأمر غير ذلك؛ فلابدَّ من السِّرِّيَّة التَّامَّة في التَّنظيم ، وفي المكان الَّذي يلتقي فيه مع أصحابه ، وفي الطَّريقة الَّتي يحضرون بها إلى مكان اللِّقاء(١).

٢ ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقرُّ القيادة):

تَذْكُرُ كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مَقَراً لقيادة الرَّسول ﷺ كان بعد المواجهة الأولى الَّتي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب ، فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْبٍ من شِعاب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون ، فناكَرُوهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحي(٢) بعيرٍ ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أُريق في الإسلام» [ابن هشام (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)].

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون ، ويتلقَّون عن رسول الله ﷺ كلَّ جديدٍ من الوحي ، ويستمعون له ﷺ وهو يذكِّرهم بالله ، ويتلو عليهم القرآن ، ويضعون بين يديه كلَّ ما في نفوسهم وواقعهم؛ فيربيهم ﷺ على عينه كما تربَّى هو على عين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأصبح هذا الجمع هو قرَّة عين النَّبيِّ ﷺ(٣).

رابعاً: أهمُّ خصائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله ﷺ:

كانت الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله ﷺ ، قد برزت فيها خصائص مهمَّة؛ جعلتها تتقدَّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشَّخصية المسلمة ، الَّتي تقيم الدَّولة المؤمنة ، وتصنع الحضارة الرَّائعة ، ومن أبرز هذه الخصائص:

١ ـ الاستجابة الكاملة للوحي ، وعدم التَّقديم بين يديه:

إنَّ العلم ، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد ، والشَّرائع ، والآداب وغيرها ، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل ـ قرآناً وسنَّةً ـ وذلك بالعلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ،

---

(١) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٨.
(٢) اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللِّحية ، ومن الحيوان العظم الذي على الفخذ.
(٣) انظر: التربية القياديَّة (١/ ١٩٨).

ومعرفة ما يجب له ، وما ينزَّه عنه ـ سبحانه وتعالى ـ والعلم بالملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والعلم بالآخرة ، والجنَّة ، والنَّار ، والعلم بالشَّرائع المجملة والمفصَّلة ، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين ، والعلم بالمسلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا ، في القصد والغنى ، في الأمن والخوف ، في الخير والشَّرِّ ، في الهدنة والفتنة ، والتزام الدَّليل الشَّرعيِّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّحيح[١] . قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] .

لقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعاً بالدَّليل والوحي ، وتسليماً له؛ لأسبابٍ عديدةٍ؛ منها :

أ ـ نزاهة قلوبهم ، وخلوُّها من كلِّ ميلٍ أو هوًى غير ما جاءت به النُّصوص ، واستعدادها التَّامُّ لقبول ما جاء عن الله ، ورسوله ﷺ ، والإذعان ، والانقياد له انقياداً مطلقاً دون حرجٍ ، ولا تردُّدٍ ، ولا إحجامٍ .

ب ـ معاصرتهم لوقت التَّشريع ، ونزول الوحي ، ومصاحبتهم للرَّسول ﷺ ، ولذلك كانوا أعلم النَّاس بملابسات الأحوال الَّتي نزلت النُّصوص فيها ، والعلم بملابسات الواقعة أو النَّصِّ من أعظم أسباب فقهه ، وفهمه ، وإدراك مغزاه .

ج ـ وكانت النُّصوص ـ قرآناً وسنَّةً ـ تأتي في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بهم ـ بصورةٍ فرديَّةٍ ، أو جماعيَّةٍ ـ فتخاطبهم خطاباً مباشراً ، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنَّها تعالج أحداثاً واقعيَّةً ، وتعقب في حينها ، حيث تكون النُّفوس مشحونةً بأسباب التأثُّر ، متهيِّئةً لتلقِّي الأمر ، والاستجابة له .

د ـ قد أعفاهم قرب عهدهم بالنَّبيِّ ﷺ من الجهد الَّذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النُّصوص ، وتصحيحها ، فلم يحتاجوا ـ في غالب أحوالهم ـ إلى سلسلة الإسناد ، ولا معرفة الرِّجال ، والعلل ، وغيرها ، ولم يختلط عليهم الصَّحيح بغيره ، ومن ثمَّ لم يقع عندهم التردُّد في ثبوت النَّص الَّذي وقع عند كثيرٍ ممَّن جاء بعدهم ـ خاصَّةً من أصحاب النُّفوس المريضة ، أو من الجهلة الَّذين لم يدرسوا السُّنَّة ، ويفقهوها روايةً ، ودرايةً[٢] ـ فكانوا إذا سمعوا أحداً يقول : قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارُهم ، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[٣] .

---

(١) انظر : صفة الغرباء ، لسلمان العودة ، ص ٨٣ .
(٢) انظر : صفة الغرباء ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٤ .

٢ ـ التَّـأثُّـر الوجدانـيُّ العميـق بالوحي والإيمان:

كان الصَّحابة يتعاملون مع العلم الصَّحيح ، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحسب ، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب ، والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ـ محبَّته ، والتألُّه إليه ، والشَّوق إلى لقائه ، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ ، وأورثهم تعظيمه ، والخوف منه ، والحذر من بأسه ، وعقابه ، وبطشه ، ونقمته ، وأورثهم رجاء ما عنده ، والطَّمع في جنَّته ، ورضوانه ، وحسن الظَّنِّ به ، فاكتملت لديهم ـ بذلك ـ آثار العلم بالله ، والإيمان به ، وهي الحبُّ ، والخوف ، والرَّجاء.

وأورثهم العلم بالجنَّة ، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديِّ السَّرمديِّ ، والخوف من مقاساة العذاب الرَّهيب ، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه ، وتخشى فوته ، وعذابٍ تحذره ، وتخشى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالآخرة ـ فكرةً ، وخوفاً ، ورجاءً ـ حتَّى كأنَّهم يرون البعث ، والقيامة ، والميزان ، والصِّراط ، والجنَّة ، والنَّار رأيَ العين. وأورثهم علمهم بالقدر ، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه ـ التَّوكُّل على الله ، وعدم التَّوكلِ على الأسباب ، وعدم الفرح بما أوتوا ، ولا الأسَى على ما مُنعوا ، والإجمال في الطَّلب؛ إذ لن يفوت المرء ما قدِّر له ، ولن يأتيه ما لم يقدَّر ، كما غرس في نفوسهم الشَّجاعة ، والإقدام. وأورثهم علمُهم بالموت ، وإيمانُهم به ـ العزوفَ عن الدُّنيا ، والإقبال على الآخرة ، والدَّوام على العمل الصَّالح؛ إذ لا يدري المرء متى يموت ، والموت منه قريب. وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم ، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ ، بل هو ضررٌ في العاجل ، والآجل[(١)].

ولقد كان للصَّحابة رضي الله عنهم من هذه المعاني الوجدانيَّة أعظم نصيبٍ؛ لأنَّ إيمانهم كان أعمق ، وأكمل من إيمان غيرهم ، ولقد تلقَّوه غضَّاً طريَّاً من النَّبيِّ ﷺ لم يَعْلَقْ بغبرة الأهواء ، والغفلان[(٢)].

وكان الصَّحابة فرساناً بالنَّهار ، ورهباناً باللَّيل ، لا يمنعهم علمُهم ، وإيمانُهم الحقُّ وخشوعُهم لله ِ من القيام بشؤونهم الدُّنيويَّة؛ من بيعٍ ، وشراءٍ ، وحرثٍ ، ونكاحٍ ، وقيامٍ على الأهل ، والأولاد ، وغيرهم فيما يحتاجون إليه ، وكانوا بعيدين كلَّ البعد عن الإعجاب بالنَّفس ، الَّذي أصيب به بعض المتعبِّدين ممَّن جاء بعدهم ، فترتَّب عليه ازدراؤهم ، واحتقارهم لأعمال الآخرين ، واستهانةٌ بمجهوداتهم في سبيل الدِّين ، وحطٌّ من قدرهم ،

---

(١) انظر: صفة الغرباء ، ص ٩٧.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٢.

فأصبحوا في الحقيقة متعبِّدين في محراب (الذَّات) ، معظِّمين لأنفسهم ، وهذا مصدر كلِّ رذيلةٍ خلقيَّةٍ ، وسببٌ لمحق كلِّ عملٍ صالحٍ.

والَّذين يصابون بهذه البليَّة المردية يشعرون بأنَّهم ـ وحدهم ـ الأوصياء على الدِّين ، ويغلقون عقولهم ، وأعينهم عن رؤية فضائل الآخرين ، فلا يرون إلا العيوب والمساوئ؛ بل تصبح الفضائل عندهم عيوباً ، ومساوئ[١].

خامساً: شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسةٍ للتَّربيَة والتَّعليم عرفتها البشريَّة ، كيف لا ، وأستاذها هو رسولُ الله ﷺ أستاذ البشريَّة كلِّها ، وتلاميذها هم الدُّعاة والهداة ، والقادة الرَّبانيُّون الَّذين حرَّروا البشرية من رِقِّ العبودية ، وأخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّور ، بعد أن ربَّاهم الله تعالى على عينه تربيةً غير مسبوقةٍ ، ولا ملحوقةٍ؟![٢].

في دار الأرقم وفَّق الله تعالى رسوله ﷺ إلى تكوين الجماعة الأولى من الصَّحابة ، الَّذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان ، وأصبحوا جميعاً من عظماء الرِّجال ومشاهير العالم ، وصنَّاع التَّاريخ البشريِّ ، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشريَّة.

إنَّ خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم ، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة ، والجهاد ، والدَّولة ، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعمرَ بن الخطَّاب ، وعثمان بن عفَّان ، وعليِّ بن أبي طالبٍ ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

لقد استطاع الرَّسول المربِّي الأعظم ﷺ أن يربِّي في تلك المرحلة السرِّيَّة ، وفي دار الأرقم ، أفذاذ الرِّجال الَّذين حملوا راية التَّوحيد والجهاد والدَّعوة؛ فدانت لهم الجزيرة ، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النَّبيِّ ﷺ فائقةً في اختيار العناصر الأولى للدَّعوة، في خلال السَّنوات الثَّلاث الأولى من عمر الدَّعوة ، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصّاً ليؤهِّلهم لتسلُّم القيادة ، وحمل الرِّسالة ، فالرِّسالات الكبرى ، والأهداف الإنسانيَّة العظمى ، لا يحملها إلا أفذاذ الرِّجال ، وكبار القادة ، وعمالقة الدُّعاة. كانت دار الأرقم مدرسةً من أعظم مدارس الدُّنيا ، وجامعات العالم ، التقى فيها الرَّسول المربِّي ﷺ بالصَّفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّابقين الأوَّلين) ، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسة على مفهوم الجنديَّة ،

---

(١) انظر: صفة الغرباء ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٩.

والسَّمع ، والطَّاعة ، والقيادة ، وآدابها ، وأصولها ، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثِّقة بالله ، والعزيمة ، والإصرار ، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب ، والتَّربية ، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشحذ العزائم ، ويقوِّي الهمم ، ويدفع إلى البذل ، والتَّضحية ، والإيثار(١).

كانت نقطة البدء في حركة التَّربية الرَّبانيَّة الأولى لقاء المدعو بالنَّبيِّ ﷺ ، فيحدث للمدعو تحوُّلٌ غريب واهتداءٌ مفاجئ بمجرَّد اتِّصاله بالنَّبيِّ ﷺ ، فيخرج المدعو من دائرة الظَّلام إلى دائرةِ النُّور ، ويكتسب الإيمان ، ويطرح الكفر ، ويقوى على تحمل الشَّدائد ، والمصائب في سبيل دينه الجديد ، وعقيدته السَّمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرِّك الأوَّل للإسلام؛ فشخصيته ﷺ تملك قوى الجذب ، والتأثير على الآخرين ، فقد صنعه الله على عينه ، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض ، والعظمة دائماً تُحَبُّ ، وتحاط من النَّاس بالإعجاب ، ويلتفُّ حولها المعجبون ، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ ، ولكن رسول الله ﷺ يضاف إلى عظمته تلك: أنَّه رسول الله ، مُتلقِّي الوحي من الله ، ومبلِّغه إلى الناس ، وذلك بُعْدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه؛ فهو لا يحبُّه لذاته فقط ، كما يُحبُّ العظماء من النَّاس ، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الرَّبَّانيَّة الَّتي تشمله من عند الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلٰهيِّ المكرَّم؛ ومن ثَمَّ يلتقي في شخص الرَّسول ﷺ البشر العظيم ، والرَّسول العظيم ، ثمَّ يصبحان شيئاً واحداً في النِّهاية ، غير متميِّز البداية ، ولا النِّهاية ، حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر ، أو للبشر الرَّسول ، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله ﷺ ، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره نقطة ارتكاز المشاعر كلِّها ، ومحور الحركة الشُّعورية ، والسُّلوكية كلِّها ، كذلك كان هذا الحبُّ الَّذي حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة هو مفتاح التَّربية الإسلاميَّة ، ونقطة ارتكازها ، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه(٢).

سادساً: المادة الدِّراسيَّة في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدِّراسيَّة الَّتي قام بتدريسها النَّبيُّ ﷺ في دار الأرقم ، القرآنَ الكريمَ ، فهو مصدر التَّلقِّي الوحيد ، فقد حَرَصَ الحبيب المصطفى ﷺ على توحيد مصدر التَّلقِّي ، وتفرُّده ، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج ، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، وكان روح القُدُس ينزل بالآيات غضَّةً طريَّةً على رسول الله ﷺ ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرةً ، فَتُسْكَب في قلوبهم ،

---

(١) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٠.
(٢) انظر: منهج التَّربيَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

وتتسرَّب في أرواحهم ، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم ، وكانت قلوبهم ، وأرواحهم تتفاعل مع القرآن ، وتنفعل به ، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنسانٍ جديدٍ؛ بقيمه ، ومشاعره ، وأهدافه ، وسلوكه ، وتطلُّعاته. لقد حرص الرَّسول ﷺ حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادَّة الدِّراسيَّة ، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه نفوس أصحابه ، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القرآن(١) .

في دار الأرقم تعلَّموا: أنَّ القرآن الكريم ، وتوجيهات الحبيب المصطفى ﷺ ، هما الدُّستور الأعلى؛ للدَّعوة ، والحياة ، والدَّولة ، والحضارة. كان القرآن الكريم المادَّة الدِّراسيَّة الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد ﷺ ، فهو المصدر الوحيد للتلقِّي ، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة ، فهو كتاب هذه الأمَّة الحيُّ ، ورائدها النَّاصح ، وهو مدرستها الَّتي تتلقَّى فيها دروس حياتها .

لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القرآن الكريم بجدِّيَّةٍ ، ووعيٍ ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاتـه ، والعمل بها بدقَّـةٍ تامَّةٍ ، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم الواقعيَّة ، والمستقبليَّة .

نشأ الرَّعيل الأوَّل على توجيهات القرآن الكريم ، وجاؤوا صورةً عمليَّةً لهذه التَّوجيهات الرَّبَّانيَّة ، فالقرآن كان هو المدرسة الإلٰهيَّة ، الَّتي تخرَّج منها الدُّعاة ، والقادة الرَّبَّانيُّون ، ذلك الجيل الَّذي لم تعرف له البشريَّة مثيلاً من قبلُ ، ومن بعدُ. لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله ﷺ ؛ لينشئ به أمَّةً ، ويقيم به دولةً ، وينظِّم به مجتمعاً؛ وليربِّيَ به ضمائر ، وأخلاقاً ، وعقولاً ، ويبني به عقيدةً ، وتصوُّراً ، وأخلاقاً ومشاعر ، فخرَّج الجماعة المسلمة الأولى الَّتي تفوَّقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقديَّة، والرُّوحيَّة، والخلقيَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة ، والحربيَّة(٢) .

سابعاً : الأسباب في اختيار دار الأرقم :

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها :

١ ـ أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بداره .

٢ ـ أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم ، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لـواء الحرب ضدَّ بني هاشم ، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه ، ولن يخطر في البال أن يكون

(١) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٣٣٥ .

اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

٣ ـ أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السَّادسة عشرة من عمره، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ ﷺ؛ بل يتَّجه نظرها، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه ﷺ.

قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التَّجمُّع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكرٍ رضي الله عنه، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أنَّ اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من النَّاحية الأمنيَّة، ولم نسمع أبداً: أنَّ قريشاً داهمت ذات يومٍ هذا المركز، وكشفت مكان اللِّقاء(١).

ثامناً: من صفات الرَّعيل الأوَّل:

كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة، والفرديَّة، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً، ومنظَّماً، وسياسيَّاً محكماً، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح، ومواعظ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة، ومدرسةً للتَّعليم، والتَّربية، والإعداد، والتَّأهيل للدَّعوة، والقيادة، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة، وتعهُّد بعض العناصر، والتَّركيز عليها تركيزاً خاصَّاً؛ لتأهيلها لأعباء الدَّعوة، والقيادة، فكأنَّ الرَّسول المربِّي ﷺ قد حدَّد لكلِّ فردٍ من هؤلاء عمله بدقَّةٍ، وتنظيمٍ حكيمٍ، فالكلُّ يعرف دوره المنوط به، والكلُّ يدرك طبيعة الدَّعوة، والمرحلة الَّتي تمرُّ بها، والكلُّ ملتزمٌ جانب الحيطة، والحذر، والسِّرِّيَّة والانضباط التَّامِّ(٢).

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكِّيَّة يتمُّ بكلِّ هدوءٍ وتدرُّجٍ وسرِّيَّةٍ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثِّل في قوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إنَّ الآية الكريمة تأمر النَّبيَّ ﷺ بأن يصبر على تقصير، وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصَّةً إن كانت خطأً، وأن يصبر على تردُّدهم في قبول التَّوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدَّعوة، وأن يوضِّح لهم طبيعة طريق الدَّعوة، وأنَّها شاقَّةٌ، وألا يغرِّر به مغرِّرٌ ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم منتقِصاً، وألا يطيع فيهم

(١) انظر: المنهاج الحركي، للغضبان (١/ ٤٩).

(٢) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص ٢٣٧.

متكبِّراً أغفل اللهُ قلبَه عن حقيقة الأمور، وجوهرها[(١)].

إنَّ الآية الكريمة السَّابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى، والَّتي من أهمِّها:

أـ الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾:

إنَّ كلمة الصَّبر تتردَّد في القرآن الكريم، وفي أحاديث النَّبيِّ ﷺ، ويوصي النَّاس بها بعضُهم بعضاً، وتبلغ أهمِّيَّتُها أن تصير صفةً من أربع للفئة النَّاجية من الخسران، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر]؛ فحكم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العمل الصَّالح.

٣ ـ التَّواصي بالحقِّ.

٤ ـ التَّواصي بالصَّبر.

لأنَّ نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان، والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنُّصح، والإرشاد، فيكون قد جمع بين حقِّ الله، وحقِّ العباد، والتواصي بالصَّبر ضرورةٌ؛ لأنَّ القيام على الإيمان، والعمل الصَّالح، وحراسة الحقِّ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد، والجماعة، ولا بدَّ من الصَّبر على جهاد النَّفس، وجهاد الغير، والصَّبر على الأذى والمشقَّة، والصَّبر على تبجُّح الباطل، والصَّبر على طول الطَّريق، وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعْدِ النِّهاية[(٢)].

ب ـ كثرة الدُّعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؛ فالدُّعاء بابٌ عظيمٌ، فإذا فتح للعبد؛ تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بدَّ من تربية الأفراد الَّذين يُعَدُّون لحمل الرِّسالة، وأداء الأمانة، على حسن الصِّلة بالله، وكثرة الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من أعظم، وأقوى عوامل النَّصر[(٣)].

---

(١) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، لحسين بن محسن، ص ١٧٠.
(٢) انظر: الظِّلال (٦/ ٣٩٦٨).
(٣) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص٢٢١.

ج ـ الإخلاص :

ويظهر في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ؛ فلا بدَّ عند إعداد الأفراد إعداداً ربَّانيّاً أن يتربَّى المسلم على أن تكون أقواله ، وأعماله ، وجهاده كلُّه ، لوجه الله ، وابتغاء مرضاته ، وحسن مثوبته من غير نظرٍ إلى مغنمٍ ، أو جاهٍ ، أو لقبٍ ، أو تقدُّم ، أو تأخُّرٍ ، وحتَّى يصبح جنديّاً من أجل العقيدة والمنهج الرَّبانيِّ ، ولسان حاله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

إنَّ الإخلاص ركنٌ من أركان قبول العمل ، ومعلومٌ: أنَّ العمل عند الله لا يُقبل إلا بالإخلاص ، وتصحيح النِّيَّة ، وبموافقة السُّنَّة ، والشَّرع .

د ـ الثَّبات :

ويظهر في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨] .

وهذا الثبات المذكور فرعٌ عن ثباتٍ أعمَّ ينبغي أن يتَّسم به الدَّاعية الرَّبانيُّ ، قال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفاتٍ : إيمانٌ ، ورجولةٌ ، وصدقٌ . وهذه العناصر مهمَّةٌ للثَّبات على المنهج الحقِّ ؛ لأنَّ الإيمان يبعث على التمسُّك بالقيم الرَّفيعة ، والتشبُّث بها ، ويبعث على التَّضحية بالنَّفس ؛ ليبقى المبدأ الرَّفيع . والرُّجولة محرِّكةٌ للنَّفس نحو هذا الهدف ، غير مهتمةٍ بالصَّغائر ، والصَّغار ، وإنَّما دائماً دافعةٌ نحو الهدف الأسمى ، والمبدأ الرَّفيع . والصِّدق يحول دون التحوُّل ، أو التغيير ، أو التبديل ، ومن ثَمَّ يورث هذا كلُّه الثبات الذي لا يتلوَّن معه الإنسان ، وإن رأى شعاع السَّيف على رقبته ، أو رأى حبل المشنقة ينتظره ، أو رأى دنيا يصيبها ، أو امرأةً ينكحها .

ولا شكَّ : أنَّ اللَّبنات الَّتي تعدُّ لحمل الدَّعوة ، وإقامة الدَّولة ، وصناعة الحضارة ، تحتاج إلى الثَّبات الَّذي يعين على تحقيق الأهداف السَّامية ، والغايات الجميلة ، والقيم الرَّفيعة[١] .

هذه من أهمِّ الصِّفات الَّتي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى .

تاسعاً : انتشار الدَّعوة في بطون قريش ، وعالميَّتها :

كان انتشار الإسلام في المرحلة السِّرِّيَّة ، في سائر فروع قريش بصورةٍ متوازنةٍ ، دون أن يكون ثقلٌ كبيرٌ لأيِّ قبيلة ، وهذه الظاهرة مخالفةٌ لطبيعة الحياة القبليَّة آنذاك . وهي إذا أفقدت

(١) انظر : دعوة الله بين التكوين والتمكين ، د. علي جريشة ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبليِّ ، والعصبية لحماية الدَّعوة الجديدة ، ونشرها ، فإنَّها في الوقت نفسه لم تؤلِّب عليه العشائر الأخرى ؛ بحجَّة : أنَّ الدَّعوة تحقِّق مصالح العشيرة الَّتي انتمت إليها ، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى ، ولعلَّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشيَّة العديدة دون تحفُّظاتٍ متَّصلةٍ بالعصبيَّة .

فأبو بكر الصِّدِّيق من «تَيْم» ، وعثمان بن عفان من «بني أميَّة» ، والزُّبير بن العوَّام من «بني أسد» ، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدَّار» ، وعليُّ بن أبي طالب من «بني هاشم» ، وعبد الرَّحمن بن عوف من «بني زُهرة» ، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ» ، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح» ؛ بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش ؛ فعبد الله بن مسعودٍ من هُذَيل ، وعتبة بن غزوان من مازنٍ ، وعبد الله بن قيس من الأشعريين ، وعمَّار بن ياسر من عنس من مَذْحِج ، وزيد بن حارثة من كلب ، والطُّفيل بن عمرو من دَوْسٍ ، وعمرو بن عبسة من سليم ، وصهيب النَّمَري من بني النَّمِر بن قاسِط . لقد كان واضحاً : أنَّ الإسلام لم يكن خاصّاً بمكَّة[1] .

لقد شقَّ النَّبيُّ ﷺ طريقه بكلِّ تخطيطٍ ودقَّـةٍ ، وأخذ بالأسبـاب مع التوكُّل على الله تعالى ؛ فاهتمَّ بالتَّربية العميقة ، والتَّكوين الدَّقيق ، والتَّعليم الواسع ، والاحتياط الأمني ، والانسياب الطَّبيعي في المجتمع ، والإعداد الشَّامل للمرحلة التي بعد السِّرِّيَّة ؛ لأنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يعلم : أنَّ الدَّعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوةً سرِّيَّةً ، يخاطب بها الفرد بعد الفرد ، بل نزلت لإقامة الحجَّة على العالمين ، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من النَّاس ، من ظلمات الشِّركِ والجاهليَّة إلى نور الإسلام والتَّوحيد ، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدَّعوة ، وميدانها ، منذ خطواتها الأولى ؛ حيث إنَّ القرآن المكيَّ بيَّن شمول الدَّعوة ، وعالميتها :

قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : ٥٢] .

إنَّ الدَّعوة جاءت لتخاطب البشر ، كلَّ البشر ، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى ، وهذا يعني : أنَّ الدَّعوة جاءت ومن خصائصها الإعلان ، والصَّدع ، والبلاغ ، والبيان ، والإنذار ، وتَحمُّل ما يترتَّب على هذا من التَّكذيب ، والإيذاء ، والقتل .

إن استسرار النَّبيِّ ﷺ في دعوته أوَّل الأمر إنَّما هو حالٌ استثنائيٌّ لظروفٍ وملابساتٍ خاصَّة ، وهي ظروف بداية الدَّعوة ، وضعفها ، وغربتها ، وينبغي أن يُفهم ضمن هذا الإطار .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ١٣٣) .

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسةً مصلحيَّةً في كثيرٍ من أمور الإسلام في الحرب ، والسَّلام؛ فهو كذلك في موضوع الدَّعوة؛ فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع ، وإلا فالأصل هو بيان دين الله ، وشرعه ، وحكمه لكلِّ النَّاس ، أمَّا الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل ، والخطط ، والتَّفصيلات؛ فهو أمرٌ مصلحيٌّ خاضعٌ للنَّظر ، والاجتهاد البشريِّ؛ إذ لا يترتَّب عليه كتمانٌ للدِّين ، ولا سكوتٌ عن حقٍّ ، ولا يتعلَّق به بيانٌ ، ولا بلاغٌ ، ومن ذلك ـ مثلاً ـ معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدَّعوة ، فهـذا أمـرٌ مصلحيٌّ لا يخلُّ بقضية البلاغ ، والنذارة ، الَّتي نزلت الكتب ، وبعثت الرُّسل من أجلها ، فيمكن أن يظلَّ سرّاً متى كانت المصلحة في ذلك ، مع القيام بأمر الدَّعوة ، والتبليغ ، ولهذا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ حتَّى بعد أن صدع بدعوته ، وأنذر النَّاس ، وأعلن النُّبوَّة ظلَّ يخفي أشياء كثيرةً لا تؤثِّر على مهمة البلاغ والبيان ، كعدد أتباعه ، وأين يجتمع بهم ، وما هي الخطط الَّتي يتَّخذونها إزاء الكيد الجاهليِّ[1].

* * *

---

(١) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

المبحث الثَّالث
البناء العقديُّ في العهد المكِّيِّ

أولًا: فقه النَّبيِّ ﷺ في التَّعامل مع السُّنن:

إنَّ بناء الدُّول، وتربية الأمم، والنُّهوض بها يخضع لقوانين، وسنن، ونواميس، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشُّعوب، والأمم والدُّول، وعند التأمُّل في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ نراه قد تعامل مع السُّنن، والقوانين بحكمةٍ، وقدرةٍ فائقةٍ.

إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة، هي أحكام الله تعالى الثَّابتة في الكون على الإنسان في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، وهي كثيرةٌ جدّاً، والَّذي يهمُّنا منها في هذا الكتاب هو ما يتعلَّق بحركة النُّهوض تعلُّقاً وثيقاً.

«ولقد شاء الله ربُّ العالمين أن يجري أمر هذا الدِّين، بل أمر هذا الكون على السُّنن الجارية، لا على السُّنن الخارقة، وذلك حتَّى لا يأتي جيلٌ من أجيال المسلمين، فيتقاعس، ويقول: لقد نُصِر الأوَّلون بالخوارق، ولم تَعُد الخوارق تنزل بعد ختم الرِّسالة، وانقطاع النُّبوَّات»(١).

إنَّ المتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلةً بالحديث عن سُنن الله تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر، ويجد عنايةً ملحوظةً بإبراز تلك السُّنن، وتوجيه النَّظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.

والقرآن الكريم حينما يوجِّه أنظار المسلمين إلى سُنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول الَّتي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنَّواميس الَّتي تحكم الكون، والشعوب، والأمم، والدُّول، والأفراد جاريةٌ لا تتخلَّف، والأمور لا تمضي جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ وإنَّما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السُّنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيَّنت لهم الأهداف من

(١) انظر: واقعنا المعاصر، لمحمَّد قطب، ص ٤١٤.

وراء الوقائع ، واطمأنُّوا إلى ثبات النِّظام الَّذي تتبعه الأحداث ، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النِّظام ، واستشرفوا خطَّ السَّير على ضوء ما كان في ماضي الطَّريق ، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين؛ لينالوا النَّصر ، والتَّمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدِّية إليه[١].

«والسُّنن الَّتي تحكم الحياة واحدةٌ؛ فما وقع منها من زمانٍ مضى سيقع في كلِّ زمان»[٢].

وهذه السُّنن هي الَّتي يُجْرِي الله ـ تعالى ـ عليها فَلَكَ الحياة ، ويُسيِّرُ عليها حركَتَها ، فليس هناك شيءٌ واحدٌ في حياة البشر يحدُث اعتباطاً ، وإنَّما يجري كلُّ شيءٍ في هذه الحياة حسب سُنن اللهِ تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتخلَّف ، ولا تحابي أحداً من الخلق ، ولا تستجيب لأهواء البشر[٣].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربِّهم المبرزة لهم في كتاب الله ، وفي سنة رسول ﷺ ، حتَّى يصلوا إلى ما يرجون من عزَّةٍ وتمكينٍ؛ «فإنَّ التَّمكين لا يأتي عفواً ، ولا ينزل اعتباطاً ، ولا يخبط خَبْطَ عشواء ، بل إنَّ له قوانينه الَّتي سجَّلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون ، ويتعاملوا معها على بصيرة»[٤].

إنَّ أوَّل شروط التعامل المنهجيِّ السليم مع السُّنن الإلٰهيَّة ، والقوانين الكونيَّة في الأفراد ، والمجتمعات ، والأمم ، هو أن نفهم ، بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُّنن ، وكيف تعمل ضمن النَّاموس الإلهيِّ ، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السُّنن» ، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعيَّة ، والمعادلات الحضاريَّة[٥].

يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ في منهجيَّة التَّعامل مع السُّنن: «لا تصادموا نواميس الكون؛ فإنَّها غلابة ، ولكن غالبوها ، واستخدموها ، وحوِّلوا تيَّارها ، واستعينوا ببعضها على بعضٍ ، وترقَّبوا ساعة النَّصر ، وما هي منكم ببعيد»[٦].

ونلاحظ في هذا الكلام عدَّة أمورٍ مهمَّةٍ:

١ ـ عدم المصادمة.

٢ ـ المغالبة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٤٧٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السَّيد ، ص ٢٠٨.

(٤) انظر: جيل النَّصر المنشود ، للقرضاوي ، ص ١٥.

(٥) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر البنا ، ص ٥٨.

(٦) انظر: رسالة المؤتمر الخامس ، ص ١٢٧.

٣ ـ الاستخدام .

٤ ـ التَّحويل .

٥ ـ الاستعانة ببعضها على بعضٍ .

٦ ـ ترقُّب ساعة النَّصر[(١)] .

إنَّ ما وصل إليه الأستاذ البنَّا يدلُّ على دراسته العميقة للسِّيرة النَّبويَّة ، والتَّاريخ الإسلاميِّ ، وتجارب الشُّعوب ، والأمم ، ومعرفةٍ صحيحةٍ للواقع الَّذي يعيشه ، وتوصيفٍ سليمٍ للدَّاء ، والدَّواء .

إنَّ حركة الإسلام الأولى ؛ الَّتي قادها النَّبيُّ ﷺ في تنظيم جهود الدَّعوة ، وإقامة الدَّولة ، وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيِّ الحضاريِّ خضعت لسنن ، وقوانين قد ذكر بعضها بنوعٍ من الإيجاز ؛ كأهمِّيَّة القيادة في صناعة الحضارات ، وأهمِّيَّة الجماعة المؤمنة المنظَّمة في مقاومة الباطل ، وأهمِّية المنهج الَّذي تستمدُّ منه العقائد ، والأخلاق ، والعبادات ، والقيم ، والتَّصوُّرات . ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنَّة التَّدرُّج ، وهي من سنن الله تعالى في خلقه ، وكونه ، وهي من السُّنن المهمَّة الَّتي يجب على الأمَّة أن تراعيها ، وهي تعمل للنُّهوض ، والتَّمكين لدين الله عزَّ وجلَّ .

ومنطلق هذه السُّنَّة : أنَّ الطَّريق طويلٌ ـ لا سيَّما في هذا العصر الَّذي سيطرت فيه الجاهليَّة ، وأخذت أُهْبَتَها ، واستعدادها ـ كما أنَّ الشرَّ ، والفساد قد تَجَذَّر في الشُّعوب ، واستئصاله يحتاج إلى تدرُّج .

بدأت الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى متدرجةً ، تسير بالنَّاس سيراً دقيقاً ، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء ، والتَّأسيس ، ثمَّ مرحلة المواجهة والمقاومة ، ثمَّ مرحلة النَّصر والتَّمكين ، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقتٍ واحدٍ ، وإلا كانت المشقَّة ، والعجز ، وما كان يمكن كذلك أن تقدم واحدةٌ منها على الأخرى ، وإلا كان الخلل ، والإرباك[(٢)] .

إنَّ اعتبار هذه السُّنَّة في غاية الأهمِّيَّة ؛ «ذلك أنَّ بعض العاملين في حقل الدَّعوة الإسلاميَّة يحسبون أنَّ التَّمكين يمكن أن يتحقَّق بين عشيةٍ وضحاها ، ويريدون أن يغيِّروا الواقع الَّذي تحياه الأمَّة الإسلاميَّة في طرفة عينٍ ، دون النَّظر في العواقب ، ودون فهمٍ للظُّروف ، والملابسات المحيطة بهذا الواقع ، ودون إعدادٍ جيِّدٍ للمقدِّمات ، أو للأساليب ، والوسائل»[(٣)] ، وقد وجَّه

---

(١) انظر : المشروع الإسلاميُّ لنهضة الأمَّة ، ص ٥٨ .
(٢) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧ .
(٣) انظر : آفات على الطَّريق (١/ ٥٧) وما بعدها .

الله تعالى أنظارنا إلى هذه السُّنَّة في أكثر من موقع ، فالله ـ تعالى ـ خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيام ، يعلمها سبحانه ، ويعلم مقدارها ، وكان ـ جلَّ شأنُه ـ قادراً على خلقها في أقلَّ مِنْ لمح البصر ، وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان ، والحيوان ، والنَّبات ، كلُّها تتدرَّج في مراحل حتَّى تبلغ نماءها ، وكمالها ، ونضجها ، وَفْقَ سنَّة الله ـ تعالى ـ الحكيمة .

وسنَّة التَّدرُّج مقررةٌ في التَّشريع الإسلاميِّ بصورةٍ واضحةٍ ملموسةٍ ، وهذا من تيسير الإسلام على البشر؛ حيث إنَّه راعى معهم سنَّة التَّدرُّج فيما شرعه لهم إيجاباً ، وتحريماً ، فنجده حين فرض الفرائض؛ كالصَّلاة ، والصِّيام ، والزَّكاة فرضها على مراحل ، ودرجاتٍ؛ حتَّى انتهت إلى الصُّورة الأخيرة الَّتي استقرَّت عليها[١] .

«ولعلَّ رعاية الإسلام للتدرُّج هي الَّتي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرِّقِّ الذي كان نظاماً سائداً في العالم كلِّه عند ظهور الإسلام ، وكانت محاولة إلغائه تؤدِّي إلى زلزلةٍ في الحياة الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، فكانت الحكمة في تضييق روافده؛ بل ردمها كلِّها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حدٍّ ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرِّق بطريق التَّدرُّج»[٢] .

«إننا إذا درسنا القرآن الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، دراسةً عميقةً؛ علمنا كيف؛ وبأيِّ تدرُّج ، وانسجامٍ تمَّ التَّغيير الإسلاميُّ في بلاد العرب ، ومنها إلى العالم كلِّه على يد النَّبيِّ ﷺ . . فلقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً حسب مجراها الطبيعيِّ؛ حتَّى تستقرَّ في مستقرِّها الَّذي أراده الله ربُّ العالمين»[٣] .

«وهذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة في رعاية التَّدرُّج ينبغي أن تُتَّبع في سياسة النَّاس ، وعندما يُراد تطبيق الإسلام في الحياة ، واستئناف حياةٍ إسلاميَّةٍ متكاملةٍ؛ يكون التَّمكين ثمرتها ، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقيّاً؛ فلا نتوهَّم : أنَّ ذلك يمكن أن يتحقَّق بقرارٍ يصدر من رئيسٍ ، أو ملكٍ ، أو من مجلسٍ قياديٍّ ، أو برلمانيٍّ ، وإنَّما يتحقَّق ذلك بطريق التَّدرُّج؛ أي : بالإعداد ، والتَّهيئة الفكريَّة ، والنَّفسيَّة ، والاجتماعيَّة .

وذلك هو المنهج الَّذي سلطه النَّبيُّ ﷺ لتغيير الحياة الجاهليَّة إلى الحياة الإسلاميَّة ، فقد ظلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة ، كانت مهمَّته الأساسيَّة فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن ، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدَّعوة ، وتكاليف الجهاد؛ لحمايتها ، ونشرها في الآفاق ، ولهذا لم تكن المرحلة المكِّيَّة مرحلة تشريعٍ بقدر ما كانت مرحلة تربيةٍ ، وتكوينٍ»[٤] .

---

(١) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧ .

(٢) انظر : الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٦٦ وما بعدها .

(٣) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، نقلاً عن المودودي ، ص ٢٢٩ .

(٤) انظر : الخصائص العامَّة للإسلام ، ص ١٦٨ بتصرف يسير .

ثانياً: سنة التَّغيير وعلاقتها بالبناء العقديِّ:

من السُّنن المهمَّة على طريق النُّهوض: السُّنَّة الَّتي يقرِّرها قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وارتباط هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة بالتَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة واضحٌ غاية الوضوح؛ ذلك: أنَّ التَّمكين لا يمكن أن يتأتَّى في ظلِّ الوضع الحالي للأمَّة الإسلاميَّة، فلا بدَّ من التَّغيير، كما أنَّ التَّمكين لن يتحقَّق لأمَّةٍ ارتضت لنفسها حياة المذلَّة، والتخلُّف، ولم تحاول أن تغيِّر ما حلَّ بها من واقعٍ، وأن تتحرَّر من أسره[(١)].

«والإسلام يوم جاء أوَّل مرَّةٍ، وقف في وجهه واقعٌ ضخمٌ، واقع الجزيرة العربيَّة، وواقع الكرة الأرضيَّة، ووقفت في وجهه عقائد وتصوُّرات، ووقفت في وجهه قيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمةٌ، وأوضاعٌ، ووقفت في وجهه مصالح، وعصبياتٌ.

كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع النَّاس في الجزيرة العربيَّة، وفي الأرض كافَّةً، مسافةً هائلةً، وكانت النُّقلة الَّتي يريدهم عليها بعيدةً بعيدةً، وكانت تساند الواقع أحقابٌ من التَّاريخ، وأشتاتٌ من المصالح، وألوانٌ من القوى، وقفت كلُّها سدّاً في وجه هذا الدِّين الجديد، الَّذي لا يكتفي بتغيير العقائد، والتَّصوُّرات، والقيم، والموازين، والعادات، والتَّقاليد، والأخلاق، والمشاعر؛ إنَّما يريد كذلك أن يغيِّر الأنظمة، والأوضاع، والشَّرائع، والقوانين، كما يريد انتزاع قيادة البشريَّة من يد الطَّاغوت، والجاهليَّة؛ ليردَّها إلى الله، وإلى الإسلام»[(٢)].

«ولا شكَّ: أنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى، فقد حدث ما حدث وَفْقَ سنَّةٍ جاريةٍ، لا وفق معجزاتٍ خارقةٍ، وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدَّخرة لكلِّ من يستنفد هذا الرَّصيد، ويجمعه، ويطلقه في اتِّجاهه الصَّحيح»[(٣)].

إنَّ التَّغيير الَّذي قاده النَّبيُّ ﷺ بمنهج الله تعالى بدأ بالنَّفس البشريَّة، وصنع منها الرِّجال العظماء، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل النَّاس من الظُّلمات

---

(١) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص٢١٠.
(٢) انظر: هذا الدِّين، لسيد قطب، ص ٥١، ٥٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥.

إلى النُّور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التَّخلُّف إلى التَّقدُّم ، وأنشأ بهم أروع حضارةٍ عرفتها الحياة(١) .

لقد قام النَّبيُّ ﷺ ـ بمنهجه القرآنيِّ ـ بتغيير في العقائد ، والأفكار ، والتَّصوُّر ، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه؛ فتغيَّر ما حوله في دنيا النَّاس ، فتغيَّرت المدينة ، ثمَّ مكَّة ، ثمَّ الجزيرة ، ثمَّ بلاد فارس ، والرُّوم في حركةٍ عالميَّةٍ تسبِّح ، وتذكر خالقها بالغدوِّ ، والآصال .

كان اهتمام المنهج القرآنيِّ في العهد المكيِّ بجانب العقيدة ، فكان يعرضها بشتَّى الأساليب؛ فغمرت قلوبهم معاني الإيمان ، وحدث لهم تحوُّل عظيمٌ ، قال الله تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

حقَّاً إنَّه تصويرٌ رائعٌ عجيبٌ تقف الأقلام حائرةً في وصفه! وكذلك الأسلوب القرآنيُّ في كلِّ حينٍ تنهل منه الألباب ، وتصدر عنه الأساليب ، وتعجز عن إيفائه حقَّه من التَّعبير؛ من الموت إلى الحياة ، ومن الظُّلمات إلى النُّور ، هل يستويان مثلاً؟! مسافةٌ هائلةٌ! ونقلةٌ عظيمةٌ لا يعرف عظمتها ، ويدرك مقدارها إلا مَنْ تفرَّس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآنيِّ المعجز(٢) .

ثالثاً: تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة:

كان تصورُ الصَّحابة رضي الله عنهم قبل البعثة تصوراً فيه قصورٌ ، ونقصٌ ، فهم ينحرفون عن الحقِّ في أسمائه ، وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، فينكرون بعض صفاته ، ويسمُّونه بأسماء لا توفيق فيها ، أو بما يوهم معنىً فاسداً ، وينسبون إليه النَّقائص ، كالولد، والحاجة، فزعموا: أنَّ الملائكة بنات الله ، وجعلوا الجنَّ شركاء له سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] .

فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصَّحيحة ، وتثبيتها في قلوب المؤمنين ، وإيضاحها للنَّاس أجمعين ، وذلك ببيان توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الأسماء ، والصِّفات ، والإيمان بكلِّ ما أخبر الله به من الملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والقدر خيره ،

(١) انظر: نفوس ودروس في إطار التَّصوير القرآني ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٣٦٧ .
(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، للزَّهراني (١/ ٢٥ ، ٢٦).

وشرِّه ، واليوم الآخر ، وإثبات الرِّسالة للرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ والإيمان بكلِّ ما أخبروا به[(١)] .

فقد عَرَّف القرآن المكيُّ الناسَ مَنْ هو الإله الَّذي يجب أن يعبدوه، وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّيهم على تلك الآيات العظيمة؛ فقد حرص ﷺ منذ اليوم الأوَّل على أن يعطي النَّاس التَّصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم ، وعن حقِّه عليهم مدركاً: أنَّ هذا التَّصوُّر سيورث التَّصديق ، واليقين عند مَنْ صفت نفوسهم ، واستقامت فطرتُهم. ولقد كان تركيز النَّبيِّ ﷺ في هذا التَّصوُّر المستمدِّ من القرآن الكريم قائماً على عدَّة جوانب ، منها:

١ ـ أنَّ الله منزَّهٌ عن النَّقائص ، موصوفٌ بالكمالات الَّتي لا تتناهى؛ فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له ، لم يتَّخذ صاحبةً ، ولا ولداً.

٢ ـ وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ ، ومالكه ، ومدبِّر أمره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

٣ ـ وأنَّه تعالى مصدر كلِّ نعمةٍ ـ دقَّت أو عظمت ، ظهرت أو خفيت ـ في هذا الوجود ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] .

٤ ـ وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، ولا ما يُخفي الإنسان ، وما يُعلن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] .

٥ ـ وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتابٍ لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللَّحظة المناسبة ، والوقت المناسب: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] .

٦ ـ وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون ، وما يهوون؛ ليعرف النَّاسُ معادنَهم ، ومن منهم يرضى بقضاء الله ، وقدره ، ويسلم له ظاهراً وباطناً ، فيكون جديراً بالخلافة ، والإمامة ، والسيادة ، ومن منهم يغضب ، ويسخط ، فيكون جزاؤه غضبَ الله ، وعدمَ إسناد شيءٍ إليه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ، وذلك مع علمه بالشَّيء قبل وقوعه.

٧ ـ وأنَّه سبحانه يوفِّق ، ويؤيِّد ، وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي ، وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

---

(١) انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، لعلي العلياني ، ص ٤٧ .

٨ ـ وأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ حقُّه على العباد أن يعبدوه ، ويوحِّدوه ، فلا يشركوا به شيئاً: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] .

٩ ـ وأنَّه ـ سبحانه ـ حدَّد مضمون هذه العبوديَّة ، وهذا التَّوحيد في القرآن العظيم[(١)] .

وتربَّى الرَّعيل الأوَّل رضي الله عنهم ، على فهم صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وعبدوه بمقتضاها؛ فَعَظُمَ الله في نفوسهم ، وأصبح رضاه سبحانه غايةَ مقصدهم ، وسعيهم ، واستشعروا مراقبته لهم في كلِّ الأوقات ، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزلَّ؛ والله مطَّلعٌ عليها ، وتطهَّر صحابة رسول الله ﷺ من الشِّرك بجميع أنواعه ، سواءٌ من اعتقاد متصرِّف مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أيِّ شيءٍ ، من تدبير الكون؛ من إيجادٍ ، أو إعدامٍ ، أو إحياءٍ ، أو إماتةٍ ، أو طلب خير ، أو دفع شرٍّ بغير إذنٍ من الله سبحانه ، أو اعتقاد منازعٍ له في شيءٍ من مقتضيات أسمائه وصفاته ، كعلم الغيب ، وكالعظمة ، والكبرياء ، وكالحاكميَّة المطلقة ، وكالطَّاعة المطلقة ، ونحو ذلك[(٢)] .

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة للأفراد على التَّوحيد هي الأساس الَّذي قام عليه البناء الإسلاميُّ ، وهي المنهجيَّة الصَّحيحة الَّتي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل ، فكلُّ رسولٍ دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة. قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ، وقال عن هودٍ عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠] ، وقال عن صالح عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، وقال عن شعيبٍ عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤] ، وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١] .

وبالجملة: فالرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ كلُّهم دعوا لتوحيد الألوهيَّة ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ، واجتناب الطَّاغوت ، والأصنام. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

---

(١) انظر: منهج الرَّسول ﷺ في غرس الرُّوح الجهاديَّة ، ص ١٠ ـ ١٦ .

(٢) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٣ .

وقد ربَّى رسول الله ﷺ صحابته على تجريد التَّوحيد بأنواعه كلِّها ، وكان هو ﷺ مثالاً حيّاً للمؤمن الموحِّد غاية التَّوحيد: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

وقد آتت تربية الرَّسول ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة؛ فتطهَّر الصَّحابة في الجملة ممَّا يضادُّ توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتَّبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يحبُّوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكَّلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يذبحوا إلا لله، ولم ينذروا إلا لله، ولم يستغيثوا إلا بالله، ولم يستعينوا ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ إلا بالله وحده، ولم يركعوا، أو يسجدوا، أو يَحُجُّوا، أو يطوفوا، أو يتعبَّدوا إلا لله وحده، ولم يُشَبِّهُوا الله لا بالمخلوقات، ولا بالمعدومات؛ بل نزَّهوه غاية التَّنزيه، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ، أو تعطيلٍ، أو تأويلٍ، ولم يخافوا خوف السِّرِّ إلا من الله وحده، ولم يصرفوا الطَّاعة المطلقة إلا لله وحده، ولم يشركوا أحداً من خلقه في خاصِّيَّةٍ من خصائص ربوبيَّته؛ كالإحياء، والإماتة، والرِّزق، والعلم المحيط، والقدرة الباهرة، والقيُّوميَّة، والبقاء المطلق، والتَّحليل، والتَّحريم، ونحو ذلك؛ جعلنا الله ممَّن يحقِّق التَّوحيد قولاً، وعملاً، واعتقاداً، إنَّه وليُّ ذلك، والقادر عليه(١).

وقد جاء القرآن المكِّيُّ موضِّحاً عقيدة التَّوحيد، ومثبِّتاً لرسالة محمَّدٍ ﷺ إلى الإنس، والجنِّ كافةً. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١] وغير هذه الآيات في القرآن الكريم كثيرٌ، والَّتي تثبت رسالة محمَّدٍ ﷺ للإنس والجنِّ كافَّةً(٢).

---

(١) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة، ص ٥٤، ٥٥.

(٢) انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة، ص ٥٦.

وكما رسَّخ القرآن المكِّيُّ في قلوب الصَّحابة رضي الله عنهم العقيدة الصَّحيحة حول التَّوحيد بأنواعه ، وحول الرَّسول ﷺ والرِّسالة ؛ صحَّح عقيدتهم حول الملائكة ، وأنَّهم خلقٌ من خلقه ، يسجدون له ، ولا يستكبرون عن عبادته ، وليس لهم شركٌ في السَّماء ولا في الأرض ، وأنَّهم لا يضرُّون ولا ينفعون أحداً إلا بأمره سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣] ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩] ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١] ، ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] .

وكذلك سائر أركان الإيمان الأخرى ، غرسها القرآن المكِّيُّ في قلوب المؤمنين بأسلوب القرآن المعجز ، ووضَّحها للنَّاس كافَّةً ؛ فبيَّن كيفيَّة إنزال القرآن على الرَّسول ﷺ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ، ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وبيَّن سبحانه : أنَّ له كتباً غير القرآن الكريم : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥] ، ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣] ، وبيَّن سبحانه : أنَّه بعث كثيراً من الأنبياء : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٦] ، فبعضهم ذكرهم القرآن ، وبعضهم لم يذكرهم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨] .

رابعاً: وصف الجنَّة في القرآن الكريم ، وأثره على الصَّحابة :

ركَّز القرآن المكِّيُّ على اليوم الآخر غاية التَّركيز ، فقلَّ أن توجد سورةٌ مكِّيَّةٌ لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة ، وأحوال المنعَّمين ، وأحوال المعذَّبين ، وكيفية حشر النَّاس ومحاسبتهم ، حتَّى لكأنَّ الإنسان يرى يوم القيامة رأيَ العين : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٦٧ ـ ٧٥].

وقد جاءت الآيات الكريمة مبيِّنةً ، واصفةً للجنَّة ، فأثَّرَ ذلك في نفوس الصَّحابة أيَّما تأثير؛ فممَّا جاء في وصف الجنَّة: أنَّها لا مثيل لها ، وأنَّ لها أبواباً ، وفيها درجاتٌ ، وتجري من تحتها الأنهار ، وفيها عيونٌ ، وقصورٌ ، وخيامٌ ، وفيها أشجارٌ متنوعةٌ ، كسدرة المنتهى ، وشجرة طوبى ، وتحدَّث القرآن الكريم عن نعيم أهلها ، وطعامهم ، وشرابهم ، وخمرهم ، وآنيتهم ، ولباسهم ، وحليِّهم ، وفرشهم ، وخدمهم ، وأحاديثهم ، ونسائهم ، وعن أفضل ما يُعْطاه أهلها ، وعن آخر دعواهم؛ بحيث أصبح الوصف القرآنيُّ للجنَّة مهيمناً على جوارح ، وأحاسيس ، وأذهان ، وقلوب المسلمين ، ونذكر بعض ما جاء من وصفها من خلال القرآن الكريم:

١ ـ الجنَّة لا مثيل لها:

إنَّ نعيم الجنَّة شيءٌ أعدَّه الله لعباده المتَّقين ، نابعٌ من كرم الله ، وجوده ، وفضله ، ووصف لنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ شيئاً من نعيمها ، إلا أنَّ ما أخفاه الله عنَّا من نعيمٍ شيءٌ عظيم ، لا تدركه العقول ، ولا تصل إلى كُنْهِهِ الأفكار ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء ، وهو ما وفَّقهم إليه من أعمالٍ عظيمةٍ؛ من قيام ليلٍ ، وإنفاقٍ في سبيله. قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

٢ ـ درجات الجنَّة:

إنَّ أهل الجنَّة متفاوتون فيما بينهم على قدر أعمالهم ، وتوفيق الله لهم ، وكذلك درجاتهم في الآخرة ، بعضها فوق بعض. قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وأولياء الله المؤمنون في تلك الدَّرجات بحسب إيمانهم ، وتقواهم ، قال تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢١] ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١] ، ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

٣ ـ أنهار الجنَّـة:

ذكر القرآن الكريم في آياتٍ عديدةٍ أنهار الجنَّة. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [محمد: ١٥].

٤ ـ عيون الجنَّـة:

في الجنَّة عيونٌ كثيرةٌ ، مختلفة الطُّعوم ، والمشارب. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات: ٤١] ، وقال في وصف الجنَّتين اللَّتين أعدَّهما لمن خاف ربه: ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] ، ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

وفي الجنَّة عينان يشرب المقرَّبون ماءهما صِرْفاً غير مخلوطٍ ، ويشرب منهما الأبرار الشَّراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره:

العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٦]. فقد أخبر: أنَّ الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التَّسنيم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨].

ومن عيون الجنَّة عينٌ تسمَّى السَّلسبيل. قال تعالى: ﴿ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

٥ ـ وصف بعض شجر الجنَّة:

أ ـ سدرة المنتهى:

وهذه الشَّجرة ذكرها المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز ، وأخبر ـ سبحانه ـ: أنَّ رسولنا ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأنَّ هذه الشجرة عندها جنَّة

المأوى ، وهذه السِّدرة يغشاها ما لا يعلمه إلا الله . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٧].

ب ـ شجرة طوبى :

وهذه الشَّجرة عظيمةٌ كبيرةٌ ، تصنع منها ثياب أهل الجنَّة ، فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «طوبى شجرةٌ في الجنَّة مسيرة مئة عامٍ ، ثياب أهل الجنَّة تخرج من أكمامها» [أحمد (٣/ ٧١) وأبو يعلى (١٣٧٤) ومجمع الزوائد (١٠/ ٦٧)] .

الشَّجرة الَّتي يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة عام ، هذه الشَّجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الَّذي خلقها ، وقد بيَّن الرسول ﷺ عِظَمَ هذه الشَّجرة ، بأنْ أخبر: أنَّ الرَّاكب لفرس من الخيل الَّتي تعدُّ للسِّباق ، يحتاج إلى مئة عامٍ حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه ، ففي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّـة لشجرةً يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة سنةٍ ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠]» [البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦)] .

وهذا يدلُّ على خَلْقٍ بديعٍ ، وقدرةِ الصَّانع ، سبحانه وتعالى .

٦ ـ طعام أهل الجنَّـة وشرابهم :

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ في الجنَّة ما تشتهيه الأنفس من المآكل ، والمشارب فقال: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠] ، وقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١] .

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها ، وألوان طعامها ، وشرابها ما يشتهون ، فقال: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] .

٧ ـ خمر أهل الجنَّـة :

من الشَّراب الَّذي يتفضَّل اللهُ به على أهل الجنَّة الخمر ، وخمر الجنَّة خالٍ من العيوب ، والآفات الَّتي تتَّصف بها خمر الدُّنيا ، فخمر الدُّنيا تذهب العقول ، وتُصدِّع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الأسقام ، وقد تكون معيبةً في صنعها ، أو لونها ، أو غير ذلك ، أمَّا خمر الجنَّة؛ فإنَّها خاليةٌ من ذلك كلِّه ، وجميلةٌ ، صافيةٌ ، رائعةٌ[1] . قال الله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧] . فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ، ثمَّ بين: أنَّها يلتذُّ بها شاربُها ، لا يملُّ من شربها . وقال في موضع آخر يصف خمر الجنَّة: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن

(١) انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص ٢٣ .

مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٦]، والرَّحيق هو الخمر، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأوَّل: أنه مختومٌ؛ أي: موضوعٌ عليه خاتم الأمر. الثاني: أنَّهم إذا شربوه؛ وجدوا في ختام شرابهم له رائحة المسك[1].

٨ ـ طعام أهل الجنَّة وشرابهم لا دنس معه:

الجنَّة دارٌ خالصةٌ من الأذى، وأهلها مطهَّرون من أوساخ أهل الدُّنيا. قال رسول الله ﷺ: «أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة من أمَّتي على صورة القمر ليلة البدر، ثمَّ الذين يلونهم على أشدِّ نجم في السَّماء إضاءةً، ثمَّ هم بعد ذلك منازلُ، لا يتغوَّطون، ولا يبولون، ولا يَمْتَخِطُونَ، ولا يَبْزُقُون» [البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)].

فالَّذي يتفاوت فيه أهل الجنَّة ممَّا نُصَّ عليه في الحديث قوَّة نور كلٍّ منهم، أمَّا خلوصهم من الأذى؛ فإنَّهم يشتركون فيه جميعاً، فهم لا يتغوَّطون، ولا يبولون، ولا يتفلون، ولا يَبْزُقُون، ولا يَمْتَخِطُونَ، وفضلات الطَّعام والشَّراب تتحوَّل إلى رشح كرشح المسك، يفيض من أجسادهم، كما يتحوَّل بعضٌ منه إلى جشاءٍ، ولكنَّه جشاء تنبعث منه روائح طيِّبةٌ عبقةٌ عطرةٌ.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها، ويشربون، لا يَتْفُلُون، ولا يَبُولُون، ولا يَتَغَوَّطُون، ولا يَمْتَخِطُونَ». قالوا: فما بالُ الطَّعام؟ قال: «جُشَاءٌ، ورَشْحٌ كَرَشْحِ المسك» [مسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١)].

٩ ـ لباس أهل الجنَّة، وحليُّهم، ومباخرهم:

أهل الجنَّة يلبسون فيها الفاخر من اللِّباس، ويتزيَّنون فيها بأنواع الحليِّ من الذَّهب، والفضَّة، واللؤلؤ؛ فمن لباسهم الحرير، ومن حليِّهم أساور الذَّهب، والفضَّة، واللؤلؤ. قال تعالى: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣]، ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].
وملابسهم ذات ألوان، ومن ألوان الثِّياب الَّتي يلبسون الخضر من السُّندس والإستبرق: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. وقد أخبر الرَّسول ﷺ: أنَّ لأهل الجنَّة أمشاطاً من الذَّهب، والفضَّة، وأنَّهم يتبخَّرون بعود الطِّيب، مع أنَّ رائحة المسك

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٤).

تفوح من أبدانهم الزَّكيَّة. قال رسول الله ﷺ: «آنيتُهم الذَّهبُ، والفضَّةُ، وأمشاطُهم الذَّهب، وَوَقُودُ مَجامِرِهم الأَلُوَّةُ ـ عود الطِّيب ـ ورَشْحُهم الْمِسْك» [البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤/١٧)].

وثياب أهل الجنَّة، وحليُّهم لا تبلى، ولا تفنى. قال رسول الله ﷺ: «من يدخلُ الجنة ينعمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يفنى شبابُه» [مسلم (٢٨٣٦) وأحمد (٢/٣٦٩ ـ ٣٧٠ و٤٠٧ و٤١٦ و٤٦٢) والدارمي (٢٨٦١) وأبو نعيم في صفة الجنة (٩٧)].

١٠ ـ اجتماع أهل الجنَّة، وأحاديثهم:

أهل الجنَّة يزور بعضهم بعضاً، ويجتمعون في مجالس طيبة، يتحدَّثون ويذكرون ما كان منهم في الدُّنيا، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان. قال الله تعالى في وصف اجتماع أهل الجنَّة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وحدَّثنا القرآن عن أصناف الأحاديث الَّتي يتكلَّمون بها في اجتماعهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٨]. ومن ذلك تذكُّرهم أهل الشرِّ الَّذين كانوا يشكِّكون أهل الإيمان، ويدعونهم إلى الكفران: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٦١].

١١ ـ نساء أهل الجنَّة:

زوجة المؤمن في الدُّنيا هي زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنةً. قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، وهم في الجنَّات منعَّمون مع الأزواج، يتّكئون في ظلال الجنَّة مسرورين فرحين: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

١٢ ـ الحور العين:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]، والحور: جمع حوراء، وهي الَّتي يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السَّواد، والعين: جمع عيناء، والعيناء هي واسعة العين، وقد وصف الله في القرآن الحور العين بأنهنَّ كواعب أتراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٣]. والكاعب: المرأة الجميلة الَّتي برز ثديها، والأتراب: المتقاربات في السنِّ، والحور العين من خلق الله في الجنَّة، أنشأهنَّ الله

إنشاءً فجعلهن أبكاراً ، عرباً أتراباً: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]. وكونهنَّ أبكاراً يقضي أنَّه لم ينكحهنَّ قبلهم أحدٌ ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦] ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن جمال نساء أهل الجنة ، فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣] والمراد بالمكنون: الخفيُّ المصون، الَّذي لم يغيِّر صفاء لونه ضوءُ الشَّمس، ولا عبثُ الأيدي ، وشبَّههنَّ في موضع آخر بالياقوت والمرجان: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٦ ـ ٥٨] . والياقوت والمرجان: حجران كريمان فيهما جمالٌ ، ولهما منظرٌ حسنٌ بديعٌ ، وقد وصف الحور بأنهنَّ قاصرات الطَّرف ، وهنَّ اللَّواتي قصَرْنَ بصرهنَّ على أزواجهنَّ ، فلم تطمح أنظارهنَّ لغير أزواجهنَّ ، وقد شهد الله لحور الجنَّة بالحسن ، والجمال ، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٠ ـ ٧١]. ونساء الجنَّة لَسْنَ كنساء الدُّنيا ، فإنهنَّ مطهراتٌ من الحيض والنِّفاس ، والبصاق ، والمخاط ، والبول ، والغائط[(١)] .

وقد تحدَّث الرَّسول ﷺ عن جمال رجال ، ونساء أهل الجنَّة ، فقال: «أوَّل زمرةٍ تلج الجنَّة صورتُهم على صورة القمر ليلةَ البدر ، لا يَبْصُقُون فيها ، ولا يمْتَخِطُونَ ، ولا يتغوَّطُون ، وآنيتُهم فيها الذَّهبُ ، أمشاطُهم من الذَّهب والفضة ، ومجَامِرُهم الألُوَّةُ ، ورَشْحُهم المسكُ ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ ، يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللَّحم من الْحُسْن» [البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤/١٧)] .

وانظر إلى هذا الجمال الَّذي حدَّث به رسول الله ﷺ أصحابَه ، هل تجد له نظيراً ممَّا تعرف؟! «ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنَّة اطَّلعت إلى أهل الأرض؛ لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ، ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» [البخاري (٢٧٩٦) وأحمد (٣/١٤١) والترمذي (١٦٥١) وابن حبان (٧٣٩٩)].

١٣ ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ، يقول اللهُ تبارك تعالى: تريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهنا؟! ألم تُدْخِلْنا الجنة ، وتُنَجِّنَا من النار؟! قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربهم تبارك وتعالى» ، وجاء في روايةٍ أخرى: ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦] [أحمد (٤/٣٣٢ ـ ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)] .

---

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم ، ص ٤٣٣ .

وأمَّا عن رضوان الله الَّذي يعطى لأهل الجنَّة ؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنَّة : يا أهل الجنة! فيقولون : لبيك ربنا ، وسَعْدَيْكَ ، والخير كلُّه في يَدَيْكَ! فيقول : هل رَضِيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟! فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون : يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩)] .

١٤ ـ آخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين :

يمرُّ المؤمنون في الموقف العظيم بأهوالٍ عظام ، ثمَّ يمرُّون على الصِّراط ، فيشاهدون هولاً ، ورعباً ، ثمَّ يدخلهم الله جنَّات النَّعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن ، فيرون ما أعدَّ الله لهم فيها من خيراتٍ عظام ، فترتفع ألسنتهم تسبِّح ربَّهم وتقدِّسه ؛ فقد أذهب عنهم الحزن ، وصدَقَهم وعده ، وأورثهم الجنَّة : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٣ ـ ٣٤] .

وآخر دعواهم في جنَّات النَّعيم الحمد لله رب العالمين : ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يربِّي أصحابه على السَّعي لمرضاة الله تعالى حتى يدخلهم جنَّاته العظيمة ، فكان يصف لهم الجنَّات من خلال المنهج القرآنيِّ ، حتَّى لكأنَّ الصَّحابي يرى الجنَّة معروضةً أمامه في تلك اللحظة ، وينفعل بها كأنَّه يراها في عالم العيان بالفعل ، وليست أمراً يتصوَّر حدوثه في المستقبل ، وهذا من الإعجاز البياني في التعبير القرآني إلى حدٍّ تصبح الآخرة ـ التي لم تأت بعد ـ كأنَّها الحاضر الَّذي يعيشه الإنسان ، ويصبح الحاضر الَّذي يعيشه بالفعل كأنَّه ماضٍ سحيقٌ تفصله عن الإنسان آمادٌ ، وأبعاد(١) .

إنَّ التَّصوُّر البديع للجنان ، والاعتقاد الجازم بها ، مهمٌّ في نهضة أمَّتنا ، فعندما تُحيَا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمَّة ، فإنَّهم سيندفعون لمرضاة الله تعالى ، ويُقدِّمون الغالي ، والنَّفيس ، ويتخلَّصون من الوَهَن ، وكراهة الموت ، وتتفجَّر في نفوسهم طاقاتٌ هائلةٌ تمدُّهم بعزيمةٍ ، وإصرارٍ ، ومثابرةٍ على إعزاز دين الله ، وقد لاحظت في المعارك الفاصلة ، والانتصارات العظيمة ؛ التي حقَّقتها الأمَّة في تاريخها المجيد من أسبابها الواضحة حبُّ القادة ، والجنود المقاتلين للشَّهادة في سبيل الله ، والشَّوق لجنانه ، وتعبُّدهم لله بفريضة الجهاد ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ ، كمعركة الزلاَّقة الَّتي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين

---

(١) انظر : دراسات قرآنيَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٨١ .

على النَّصارى في الأندلس ، وكمعركة حطِّين بقيادة صلاح الدِّين ، وعين جالوت بقيادة قطز ، وكفتح القسطنطينية بقيادة محمَّد الفاتح .

خامساً : وصف النَّار في القرآن الكريم ، وأثره في نفوس الصَّحابة :

كان الصَّحابة يخافون الله تعالى ، ويخشونه ، ويرجونه ، وكان لتربية الرَّسول ﷺ أثرٌ في نفوسهم عظيم ، وكان المنهج القرآنيُّ الَّذي سار عليه رسول الله ﷺ يفعل الأفاعيل في نفوس الصَّحابة؛ لأنَّ القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ، ومعالمها من قبض الأرض ودكِّها ، وطيِّ السَّماء ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، وتسجيرها ، ومَوْرِ السماء ، وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وخسوف القمر ، وتناثر النُّجوم ، وصوَّر القرآن الكريم حال الكفَّار ، وذلَّتهم ، وهوانهم ، وحسرتهم ، ويأسهم ، وإحباط أعمالهم ، وتخاصم العابدين والمعبودين ، وتخاصم الأتباع وقادة الضَّلالة ، وتخاصم الضعفاء والسَّادة ، وتخاصم الكافر وقرينه الشَّيطان ، ومخاصمة الكافر أعضاءه ، وتخاصم الرُّوح والجسد ، وتحدَّث القرآن الكريم عن الشَّفاعة ، وبيَّن شروطها ، والمقبول منها ، والمرفوض ، والمراد بالحساب والجزاء ، وعن مشهد الحساب ، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟

وتحدَّث القرآن الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق ، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة ، وبين المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في القرآن الكريم عظم شأن الدِّماء ، وبين : أنَّ هناك يوم القيامة توضع الموازين الَّتي توزن بها الأعمال ، وأخبر النَّبيُّ ﷺ عن الحوض ، ومَنِ الَّذين يردون على الحوض ، والَّذين يُذادون عنه ، وتحدَّث القرآن الكريم عن حشر الكفَّار إلى النَّار ، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصِّراط ، وخلاص المؤمنين وحدهم(١) .

وقد كان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصَّحابة ، وصوَّر القرآن الكريم ألوان العذاب في النَّار ، فأصبح الرَّعيل الأوَّل يراها رأيَ العين ، ومن حديث القرآن عن النَّار بيانه لكلٍّ من :

١ ـ طعام أهل النَّار وشرابهم ولباسهم :

أ ـ بيَّن القرآن الكريم : أنَّ من طعام أهل النَّار الضَّريع ، والزقُّوم ، وأنَّ شرابهم الحميم ، والغسلين ، والغسَّاق ، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية : ٦ ـ ٧] ، وأكلهم لهذا الطَّعام هو نوعٌ من أنواع العذاب؛ فهم لا يتلذَّذون به ، ولا تنتفع به أجسادهم .

أمَّا الزَّقُّوم؛ فقال تعالى فيه : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان : ٤٣ ـ ٤٦] وقد وصف الله شجرة الزَّقوم في موضعٍ آخر ،

(١) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٤٠٢ .

فقال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٥] وقال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال في موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٥]، ويؤخذ من هذه الآيات:

أنَّ هذه الشَّجرة شجرةٌ خبيثةٌ، جذورها تضرب في قعر النَّار، وفروعها تمتدُّ في أرجائها، وثمر هذه الشَّجرة قبيح المنظر: لذلك شبَّه برؤوس الشَّياطين، وقد استقرَّ في النُّفوس قبح رؤوسهم ـ وإن كانوا لا يرونهم ـ ومع خبث هذه الشَّجرة، وخبث طلعها إلا أنَّ أهل النَّار يُلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرّاً من الأكل منها، إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم؛ أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي عكر الزَّيت، فيجدون لذلك آلاماً مبرحةً، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ؛ اندفعوا إلى الحميم ـ وهو الماء الحارُّ الَّذي تناهى حرُّه ـ فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب، وتشرب، ولا تروى لمرضٍ أصابها، وعند ذلك يقطِّع الحميمُ أمعاءهم: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم[(١)].

وإذا أكل أهل النَّار هذا الطَّعام الخبيث من الضَّريع، والزَّقُّوم؛ غصُّوا به؛ لقبحه، وخبثه، وفساده: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣].

ومن طعام أهل النَّار الغسلينُ، قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧]، وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، والغسلين، والغسَّاق بمعنىً واحدٍ، وهو ما سال من جلود أهل النَّار من القيح والصَّديد، وقيل: هو ما يسيل من فروج النِّساء الزَّواني، ومن نتن لحوم الكفرة، وجلودهم وقال القرطبيُّ: «هو عصارة أهل النَّار»[(٢)].

ب ـ أمَّا شرابهم فهو الحميم، والغسَّاق، والمهل، والصديد. قال الله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ

---

(١) انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار، لعمر الأشقر، ص ٨٨.
(٢) يقظة أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار، لصديق حسن، ص ٨٦.

ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧].

وقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النَّار، هي: الحميم، وهو الماء الحار؛ الَّذي تناهى حرُّه؛ والغسَّاق، وقد مضى الحديث عنه، فإنَّه يذكر في مأكول أهل النَّار ومشروبهم؛ والصَّديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر، وجلده؛ والمهل، وهو كعكر الزَّيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه(١).

ج ـ لباس أهل النَّار:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠]، والقطران هو النُّحاس المُذاب.

٢ ـ صور من عذاب أهل النَّار:

أ ـ تفاوت عذاب أهل النَّار:

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقد حدَّث النَّبيُّ ﷺ عن أخفِّ الناس عذاباً، فقال فيه: «إن أهون أهل النَّار عذاباً يوم القيامة، لَرجلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرةٌ يغلي منها دِماغُه» [البخاري (٦٥٦١ و٦٥٦٢) ومسلم (٢١٣)].

ب ـ حشرهم على وجوههم، ولفح النَّار لهم:

ومن إهانة الله لأهل النَّار: أنَّهم يُحشرون في يوم القيامة على وجوههم، عُمْياً، وصُمّاً وبُكماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويلقون في النَّار على وجوههم: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

---

(١) اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار، ص ٩٠.

ثمَّ إنَّ النَّار تلفح وجوههم ، وتغشاها أبداً ، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها ، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] .

ج ـ السَّحْب :

ومن أنواع العذاب الأليم ، سحب الكفار في النَّار على وجوههم ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٨] ، ويزيد في آلامهم ـ حال سحبهم في النَّار ـ أنَّهم مقيَّدون بالقيود ، والأغلال ، والسَّلاسل: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧٢] .

د ـ تسويد الوجوه :

يسوِّد الله في الدَّار الآخرة وجوهَ أهل النار بسوادٍ شديدٍ ، كأنَّما حلَّت ظلمة الليل في وجوههم ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧] .

هـ ـ إحاطة النَّار بالكفَّار :

لمَّا كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السِّوار بالْمِعْصَم ، وكان الجزاء من جنس العمل ، فإنَّ النار تحيط بالكفار من كلِّ جهةٍ ، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] ، **والمهاد**: ما يكون من تحتهم ، **والغواش**: جمع غاشية ، وهي الَّتي تغشاهم من فوقهم ، والمراد: أنَّ النِّيران تحيط بهم من فوقهم ، ومن تحتهم ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] .

وقال في موضعٍ آخر: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] .

وقد صرَّح بالإحاطة في موضعٍ آخر ، وذلك أنَّ للنَّار سُوراً يحيط بالكفَّار ، فلا يستطيع الكفار مغادرتها ، أو الخروج منها ، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] ، وسرادق النَّار: سورها ، وحائطها الَّذي يحيط بها[1] .

---

(١) انظر: اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار ، ص ١٠٢ .

و ـ اطِّلاع النَّار على الأفئدة:

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٧].

ز ـ قيود أهل النَّار، وأغلالهم، وسلاسلهم:

أعدَّ الله لأهل النَّار سلاسلَ وقيوداً ومطارقَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣]، وهذه الأغلال تُوضَع في الأعناق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣]، ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، والأنكال: هي القيود، وقد سمِّيت أنكالاً؛ لأنَّه يعذبهم، ويُنكِّل بهم بها ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢]، والسَّلاسل نوعٌ آخر من ألوان العذاب الَّتي يُقيَّد بها المجرمون، كما يُقيَّد المجرمون في الدُّنيا.

وانظر إلى هذه الصُّورة الَّتي أخبر بها الكتاب الكريم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

ح ـ قَرْنُ معبوداتهم وشياطينهم في النَّار:

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩].

خ ـ حسرتهم، وندمهم، ودعاؤهم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره، وشركه الَّذي يؤهِّله للخلود في النَّار؛ فإنَّه يدعو على نفسه بالـثُّبور، والهلاك: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢]، ويتكرَّر دعاؤهم بالويل، والهلاك عندما يُلقَوْن في النار، ويَصْلَوْن حرَّها: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ

ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

وهناك يعلو صراخهم، ويشتدُّ عويلهم، ويدعون ربَّهم آملين أن يخرجهم من النَّار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وسيعترفون في ذلك الوقت بضلالهم، وكفرهم، وقلَّة عقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ولكن طلبهم يرفض بشدَّة، ويجابون بما يستحقُّ أن تجاب به الأنعام: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

لقد حقَّ عليهم القول، وصاروا إلى المصير الَّذي لا ينفع معه دعاءٌ، ولا يُقبل فيه رجاءٌ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٢ ـ ١٤].

ويتوجَّه أهل النَّار بعد ذلك النِّداء إلى خزنة النَّار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم؛ كي يخفف الله عنهم شيئاً ممَّا يعانونه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

وعند ذلك ينادون مالكاً، طالبين منه أن يقبض الله أرواحهم، فيريحهم من العذاب: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨].

لقد خسر هؤلاء الظَّالمون أنفسهم، وأهليهم عندما استحبُّوا الكفر على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

كان القرآن المكيُّ يربِّي المسلم على الخوف من عقاب الله، ويبيِّن للصَّحابة: أنَّ العذاب في الآخرة حسِّيٌّ ومعنويٌّ، وفي خطاب القرآن، وتوضيح النَّبيِّ ﷺ للصَّحابة حقيقةَ النَّار ما يجعل الصَّحابيَّ يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه، فكان الصَّحابي يستحضر في مخيِّلته صورة الجنان، والنِّيران، ويستعدُّ للموت الَّذي هو آتٍ لا محالة، وأنَّه سوف يُسأل في وَحْدَته لا محالة، وأنَّ القبر إمَّا روضةٌ من رياض الجنَّة، أو حفرةٌ من حفر النِّيران، فالصَّحابي حين يستحضر في نفسه كلَّ هذا؛ فإنَّ قلبه يستشعر خوف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومراقبته في السِّرِّ والعلن بل

يندفع بكلِّيته إلى العمل الصَّالح من دعوةٍ وجهادٍ ، والسَّعي لإقامة دولةٍ تحكم بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصناعة حضارةٍ تنقذ البشرية من ضياعها ، وانحرافها عن شرع الله تعالى ، ويدعو الله في خلواته، وفي سرِّه، وجهره أن يكرمه الله برفقة النَّبيين والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

إنَّ هذا التَّصُّور والفهم العميق لحقيقة الآخرة وحقيقة الجنَّة والنَّار ، له أثره على العاملين لنهضة الأمَّة ، واستعادة مجدها ، وعزَّتها ، وكرامتها ، وهو أصلٌ عظيمٌ في بناء التَّصوُّر العقديِّ لأفراد الأمَّة ، سار على نهجه الحبيب المصطفى ﷺ ؛ ولذلك لابدَّ لنا من السَّير على الطَّريق نفسه .

سادساً : مفهوم القضاء والقدر ، وأثره في تربية الصَّحابة رضي الله عنهم :

اهتمَّ القرآن الكريم في الفترة المكِّيَّة بقضية القضاء والقدر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، وكان ﷺ يغرس في نفوس الصَّحابة مفهوم القضاء والقدر ، ويُبيِّن لهم مراتبه من خلال القرآن الكريم ، وهي :

المرتبة الأولى : علم الله المحيط بكلِّ شيءٍ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] .

المرتبة الثَّانية : كتابة كلِّ شيءٍ كائن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

المرتبة الثالثة : مشيئة الله النَّافذة ، وقدرته التَّامَّة : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤] .

المرتبة الرابعة : خَلْقُ الله لكلِّ شيءٍ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

كان للفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلوب الصَّحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمارٌ نافعةٌ ومفيدةٌ ، عادت عليهم بخيرات الدُّنيا والآخرة ؛ **فمن تلك الثمرات :**

١ ـ أداء عبادة الله عزَّ وجلَّ ؛ فالقدر ممَّا تَعبَّدَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمَّة بالإيمان به .

٢ ـ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشِّرْك ؛ لأنَّ المؤمن يعتقد : أنَّ النَّافع والضَّار ، والمعزَّ ، والمذلَّ ، والرافع ، والخافض ، هو الله وحده سبحانه وتعالى .

٣ ـ الشَّجاعة والإقدام : فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون : أنَّ الآجال بيد الله تعالى ، وأنَّ لكل نفسٍ كتاباً .

٤ ـ الصَّبر والاحتساب ، ومواجهة الصِّعاب .

٥ ـ سكون القلب ، وطُمَأْنِينَـةُ النَّفس ، وراحة البال : فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهي هدفٌ منشودٌ ، فكلُّ مَنْ على وجه البسيطة يبتغيها ، ويبحث عنها ، فقد كان عن الصَّحابة من سكون القلب ، وطُمأْنِينَة النَّفس ما لا يخطر على بالٍ ، ولا يدور حول ما يشبهه خيالٌ ، فلهم في ذلك الشَّأن القِدْحُ المُعَلَّى (النَّصيب الوافر) والنَّصيب الأوفى .

٦ ـ عزَّة النَّفس والقناعة والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين : فالمؤمن بالقدر يعلم : أنَّ رزقه بيد الله ، ويدرك أنَّ الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأنَّه لن يموت حتَّى يستوفي رزقه ، وأنَّ العباد مهما حاولوا إيصال الرِّزق له ، أو منعه عنه ؛ فلن يستطيعوا إلا بشيءٍ قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة ، وعزَّة النَّفس ، والإجمال في الطَّلب ، وترك التكالب على الدُّنيا ، والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين ، وقطع الطَّمع ممَّا في أيديهم ، والتوجُّه بالقلب إلى ربِّ العالمين .

إنَّ ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرةٌ ، وهذه من باب الإشارة .

ولم تقتصر تربية الرَّسول ﷺ لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان السِّتَّة المتقدِّمة ؛ بل صحَّح عندهم كثيراً من المفاهيم والتَّصوُّرات ، والاعتقادات عن الإنسان ، والحياة ، والكون ، والعلاقة بينهما ؛ ليسير المسلم على نورٍ من الله ، ويدرك هدف وجوده في الحياة ، ويحقِّق ما أراد الله منه غاية التَّحقيق ، ويتحرَّر من الوهم والخرافات[1] .

سابعاً : معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان :

إنَّ القرآن الكريم عرَّف الإنسان بنفسه ، بعد أن عرَّفه بربِّه ، وباليوم الآخر ، وأجاب على تساؤلات الفطرة : من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كلِّ إنسان سَوِيٍّ ، وتلحُّ في طلب الجواب[2] .

وبيَّن القرآن الكريم للصَّحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانيَّة ، وأصولهم الَّتي يرجعون إليها ، وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وما هو مصيرهم بعد الموت؟

تعرَّف الصَّحابة بواسطة النَّبيِّ ﷺ ، ومنهجه القرآني على الأصل الإنسانيِّ الَّذي هو الماء والتُّراب ـ أي : الطِّين ـ وبسلالته الَّتي هي الماء المهين ، أو النطفة ، كما عرَّفه بمكانته ،

(١) انظر : أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة الإسلامية ، ص ٥٩ .

(٢) انظر : منهج التَّربية الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب (٢/ ٥٤) .

وكرامته عند ربِّه؛ حيث أسجد له الملائكة، وأعلى كرامتَه، وتفضيلَه على كثيرٍ من الخلق؛ ليقف الإنسان وسطاً بين هذين الحدَّين: الأدنى، والأعلى، فبمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزاً، وبأصله وسلالته يتواضع مُعَظِّماً شأنَ من أنشأه من ذلك الأصل، وأوصله إلى تلك المكانة العالية، فينجو بذلك من العُجْبِ والكبر، والغرور، كما يمنعه عزُّه وكرامته من التذلُّل لغير الله تعالى، والإنسان لو تركه الإله دون هدىً؛ لعانى الكثير من سوء الفهم للنَّفس، بل إنَّ عدداً من النَّاس قد يعانون ذلك لسببٍ ما؛ كالإفراط في الثِّقة بنظرتهم الخاصَّة إلى أنفسهم؛ الَّتي قد تؤدِّي إلى الغرور، والتَّعالي، وإمَّا إلى الهوان والتَّدنِّي(١).

إنَّ نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثِّرات في تربيته، وما زال الإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه، يميل إلى جانب الإفراط حيناً؛ فيرى أنَّه أكبر، وأعظم كائنٍ في العالم، فينادي بذلك وقد امتلأ أنانيةً، وغطرسةً، وكبرياء كما نادى قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] وكما نادى فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ويربأ بنفسه ـ أي: الإنسان ـ أن يعتقد أنَّه مسؤولٌ أمام أحدٍ، ويتحوَّل إلى متألِّهٍ، ويميل حيناً آخر إلى جانبٍ معاكسٍ هو التَّفريط؛ فيظن أنَّه أدنى، أو أرذل كائنٍ في العالم، فَيُطَأْطِىء رأسه أمام شجرٍ، أو حجرٍ، أو نهرٍ، أو جبلٍ، أو أمام حيوان؛ بحيث لا يرى السَّلامة إلا أن يسجد للشَّمس أو للقمر(٢).

وقد بيَّن القرآن الكريم بوضوحٍ: أنَّ «حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد، وهو الخلقة الأولى من طينٍ، حين سوَّاه، ونفخ فيه الرُّوح، والأصل القريب المستمرُّ، وهو خلقه من نطفةٍ»(٣)، وقال الله تعالى في ذلك عن نفسه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

وتحدَّث القرآن الكريم عن تكريم الله تعالى للإنسان، وكان لذلك الحديث أثره في نفوس، وعقول، وقلوب الرَّعيل الأوَّل؛ فقد بـيَّن لهم القرآن الكريم صوراً عديدةً لتكريم الإنسان؛ منها:

١ ـ اختصَّ الله الإنسان بأن خلقه بيديه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٧٢

(١) أساليب التشويق في القرآن، د. الحسين جلو، ص ١٣٤.
(٢) انظر: أصول التَّربية للنَّحلاوي، ص ٣١.
(٣) انظر: أساليب التَّشويق والتَّعزير، ص ١٣٤.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٥] فبيَّن لهم علوَّ مكانة الرُّوح الَّتي حلَّت في الإنسان، وأنَّ لها منزلةً ساميةً، وكرَّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الَّذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق ـ جلَّ شأنه ـ تكريم هذا الإنسان بقوله عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

٢ ـ الصُّورة الحسنة، والقامة المعتدلة:

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

٣ ـ ومنحه العقل، والنطق، والتمييز:

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

٤ ـ وسخَّر الله تعالى للإنسان مافي السَّماء والأرض:

بعد أن خلق الله تعالى الإنسان، أكرمه بالنِّعم العظيمة التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

لقد سخَّر الله ـ عزَّ وجل ـ للإنسان ـ تكريماً له ـ ملكوتَ السَّموات؛ بما تشتمل عليه من نجومٍ، وشموسٍ، وأقمار، وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان؛ من تعاقب اللَّيل والنَّهار، واختلافٍ في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

٥ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بتفضيله على كثيرٍ من خلقه:

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٦ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بإرسال الرُّسل إليه:

ومن أجلِّ مظاهر التكريم من المولى سبحانه للإنسان أن أرسل الرُّسل لهداية الخلق،

ودعاهم لما يحييهم ، وضمن لهم الفوز في الدُّنيا والآخرة ، فكان من أعظم النِّعم الَّتي أنعم الله بها على الإنسان تكريماً له نعمةُ الإسلام ، ونعمةُ الإيمان ، ونعمةُ الإحسان ، وأنْ هدانا الله إليها ، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] ، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن مظاهر هذا التَّكريم الَّذي شعر به الصَّحابة رضي الله عنهم ، حصرُ مظاهر شرف الإنسان في العبوديَّةِ لله وحده ، وتحريره من عبادة الأصنام ، والأوثان ، والبشر: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

٧ ـ حبُّ الله للإنسان ، وذكره في الملأ الأعلى:

من أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان أنْ جعله أهلاً لحبِّه ورضاه ، وأرشده في القرآن الكريم إلى ما يجعله خليقاً بهذا الحبِّ ، وأوَّل ذلك اتِّباع رسول الله ﷺ ، فيما دعا النَّاس إليه؛ كي يحيوا حياةً طيِّبةً في الدُّنيا ، ويظفروا بالنَّعيم المقيم في الآخرة ، وقد أشار المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى ثمرة هذا الاتِّباع ، وما أحلاها من ثمرة! ألا وهي التَّمتُّع بخيري الدُّنيا والآخرة! قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

٨ ـ حفظ الإنسان ورعايته:

ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحفظه من السُّوء.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠] ، وسخَّر له الملائكة لحفظه: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤] ، وصورُ التَّكريم للإنسان كثيرةٌ في القرآن الكريم(١).

ثامناً: تصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لقصَّة الشَّيطان مع آدم عليه السلام:

كان رسول الله ﷺ من خلال المنهج القرآنيِّ ، يحدثهم عن قصَّة الشَّيطان مع آدم ، ويشرح لهم حقيقة الصِّراع بين الإنسان مع عدوِّه اللَّدود ، الَّذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام من خلال الآيات الكريمة؛ مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ﷺ (٤/١١٣٦ ، ١١٤٢).

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] ، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٧].

كان الشَّيطان يتجسَّم في حسِّ الرَّعيل الأوَّل مرئيّاً مشهوداً ، يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، يوسوس لهم بالمعصية ، ويستثير فيهم كوامن الشَّهوات ، فكانوا يحاولون أن يكونوا دائماً منتبهين من عدوِّهم ، وكانوا يسارعون في الخيرات؛ ليضيِّقوا مسالك الشَّيطان ويسدُّوها ، فلا يجد له مسلكاً إليهم: حتَّى فيما هو أخفى من دبيب النَّمل(١) ، وقد تعلَّموا ذلك بعد قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

جاءت قصَّة آدم ـ عليه السَّلام ـ مع الشَّيطان في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ فأحياناً تجيء بكلِّ تفصيلاتها ـ كما في سورة الأعراف ـ وأحياناً تجيء ببعض التَّفصيلات ـ كما في سورة الحِجْر ، والإسراء ، وطه ، وص ـ وأحياناً تجيء في صورة إشارةٍ عابرةٍ ، وهذا كثيرٌ جدّاً في القرآن ، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشَّيطان يوم القيامة من بني آدم ، الَّذين استجابوا له في الدُّنيا ، وتنصُّله الكامل من تبعتهم ـ كما في الآية الثانية والعشرين ـ(٢).

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٧].

إنَّ ممَّا يهمُّ الإنسان أن يعرف تاريخه؛ ليعتبر به ، لا ليتسلَّى ، وقصَّة آدم مع الشَّيطان قصةٌ

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ، ص ٤٦.
(٢) انظر: دراسات قرآنيَّة ، ص ١١٢.

لها دَلالاتها الخاصَّة بين القصص القرآنيِّ كله ، فهي تحدِّد للبشر ، مبدأهم ومنتهاهم ، ودورهم في الأرض ، وخطَّة سيرهم فيها ، والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم ، وطريقة تجنُّب هذه العقبات وتخطِّيها(١) .

كانت الآيات الكريمة الَّتي تحدَّثت عن قصَّة آدم ، وصراعه مع الشَّيطان قد علَّمت الرَّعيل الأوَّل قضايا مهمَّةً في مجال التَّصوُّر والاعتقاد ، والأخلاق؛ ومنها :

١ ـ إنَّ آدم هو أصل البشر :

إنَّ آدم عليه السلام هو أصل البشر؛ فقد خلقه الله تعالى من طينٍ على صورته البشريَّة الكاملة الَّتي لم تأتِ عن طريق التدرُّج عن نوعٍ من أنواع المخلوقات ، أو عن صورةٍ أو هيئةٍ أخرى ، فالله تعالى خلق آدم من طينٍ ، ثمَّ نفخ فيه الرُّوح ، فصار بشراً سوياً من لحمٍ ، ودمٍ بكامل هيئته ، وصورته الإنسانيَّة .

٢ ـ جوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله تعالى :

أمر الله تعالى الملائكة بالسُّجود لآدم ، فسجدوا له سجود تحيَّةٍ ، وتكريمٍ ، وتعظيمٍ ، واعترافٍ بفضله ، وطاعةً لله ربِّ العالمين دون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، مع أنَّهم في الملأ الأعلى ، وهم في حال تسبيحٍ ، وتقديسٍ ، وعبادةٍ مستمرَّةٍ لله ربِّ العالمين ، وقبل أن يصدر من آدم أي نوعٍ من العبادة ترجح على عبادتهم ، وإنَّما كانت مبادرة الملائكة إلى السُّجود لآدم ، والحال كما وصفنا؛ لأنَّ الأمر لهم بالسُّجود لآدم صادر من الله ربِّ العالمين ، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا توقفٍ في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر ، وهذا هو جوهر الإسلام ، وهذا هو شأن المسلم: يسارع إلى طاعة ربِّه ، والامتثال لأمره بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا تعليقٍ لهذه الطَّاعة على شيءٍ آخر من معرفة سبب الأمر ، أو معرفة حكمته ، أو موافقته لعقله ، وهواه .

٣ ـ قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة :

تعلَّم الصَّحابة من قصَّة وقوع آدم في الخطيئة : أنَّ الإنسان له قابليةٌ للوقوع في المعصية ، وأنَّ هذه القابلية متأتِّيةٌ من طبيعة الإنسان ، فقد خلقه الله تعالى على طبيعةٍ تجعل وقوعه في الخطيئة أمراً ممكناً؛ لما في طبيعته ، وما جبله الله عليه من ميولٍ ورغباتٍ ، وغرائز ـ هي جوانب الضَّعف في الإنسان ـ والَّتي من خلالها ينفذ الشَّيطان بوساوسه إليه ، ويزيِّن له الوقوع في الخطيئة ، فمن غرائز الإنسان الكامنة فيه : أنَّه يحبُّ أن يكون خالداً لا يموت ، أو معمِّراً أجلاً

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٤ .

طويلاً كالخلود ، يحبُّ أن يكون له ملكٌ غير محدَّدٍ بالعمر القصير[(١)] ، فجاء إبليس إلى آدم عليه السلام من هذه الغريزة ، فقال له ، ولزوجته : ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] ، وأكَّد لهما ادِّعاءه بالحلف بالله بأنَّه لهما لمن النَّاصحين.

وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول ، والرَّغبات ، بل لابدَّ للمسلم من أن يضبطها ، ويكبح جماحها ، ويجعلها تابعةً لأحكام الشَّرع الحنيف ، وهذه الميول ، والغرائز ، والرَّغبات هي ما تهواه النَّفس ، وغالباً ما تكون منفلتةً ، ومتجاوزةً حدودها ، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشَّرع ، ولذلك يأتي ذمُّ (الهوى) ، ويراد به ما تهواه النفس من أمرٍ مذموم. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] ، فقد أطلق الهوى ، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى؛ لأنَّه ينصرف عند الإطلاق إلى ما هو مذموم[(٢)].

٤ ـ خطيئةُ آدمَ تُعَلِّم المسلمَ ضرورة التَّوكُّل على ربِّه:

إنَّ خطيئة آدم عليه السلام تظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة ، وتثير الخوف ، والفزع في النُّفوس ، وبالتالي تزيد من تَوَكُّلِ المسلم على ربِّه ، واعتماده عليه؛ ليكفيه شرَّ الشَّيطان الرَّجيم ، وبيان ذلك: أنَّ الله تعالى أَسْجَدَ الملائكة لآدم إظهاراً لفضله ، وعلوِّ منزلته عند ربِّه ، وطَرَد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السُّجود له ، وأسكنه وزوجه في الجنَّة ، وأمره بالأمر الصَّريح بعدم الاقتراب من شجرةٍ معيَّنةٍ وأباح له ما عداها من نعيم الجنَّة ، وثمارها ، قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وحذَّرهما من الشَّيطان ، ومن خداعه وكيده؛ لئلا يخرجهما من الجنَّة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه ١١٦ ـ ١١٧] ومع هذا كلِّه فإنَّ الشَّيطان استزلَّهما ، وغرَّهما ، فأكلا من الشَّجرة ، ووقعا في المعصية فأخرجهما ممَّا كانا فيه.

إنَّ خطيئة آدم عليه السلام أثارت في نفوس الصَّحابة الكرام الخوف ، والفزع من هذا العدوِّ الخبيث ، وهذا الخوف من الشَّيطان ، وإغوائه دفعهم إلى الالتجاء الدَّائم إلى الله تعالى ، والتَّوكُّل عليه ، والاستعانة به على هذا الشَّيطان الرَّجيم ، الَّذي لا همَّ له إلا إغواءُ الإنسان ، وجرُّه إلى الخطيئة ، وهذا هو الَّذي فهموه من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٢٦٩).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة ، د. عبد الكريم زيدان (١/ ٢٨).

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]؛ فلا تأثير ، ولا قدرة للشَّيطان على إغواء الَّذين آمنوا بالله إيماناً عميقاً؛ لأنَّ الله تعالى قد وجَّهَ قلوبهم إليه سبحانه، وحرَّكَ جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشَّيطان على هؤلاء من سلطانٍ ، فهم يحاربون أمانيه الباطلة ، ويهدمون ما يُلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النُّور الكاشف عن مكره ، والتَّوكُّل عليه يفيدهم التقوية بالله؛ فيضعف الشَّيطان ، وينخذل أمام قوَّة الإيمان بالله والتَّوكُّل عليه(١) .

٥ ـ ضرورة التَّوبة والاستغفار :

تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من هذه القصَّة ضرورة التَّوبة ، والاستغفار عند الوقوع في الذَّنب أو المعصية ، فقد سارع آدم وزوجه إلى المغفرة وطلب الرَّحمة من ربِّهم الكريم عندما وقعوا في المعصية : ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣] فهذا اعترافٌ بالذَّنب سريعٌ ، مقرونٌ بندمٍ شديدٍ ، فندمٌ من قوله تعالى: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ، وتوبةٌ خالصةٌ مقرونةٌ برجاء قبولها؛ لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين ، وهذا يفهم من قولهما: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ، فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التَّوبة ، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوِّ منزلتهما؛ فغيرهما أولى بذلك(٢) .

٦ ـ الاحتراز من الحسد ، والكِبْر :

إنَّ إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد ، والكِبْر ، فكان بدء الذُّنوب الكِبْر ، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربِّه بالسُّجود لآدم ، ولهذا جاء التَّحذير من الكِبْر ، والوعيد للمُتكبِّرين ، قال ﷺ : «لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ» [أحمد (١/ ٣٩٩ و٤٥١) ومسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩)] .

وحقيقة الكبر: بَطَرُ الحقِّ ، وغَمْطُ النَّاس.

وبطر الحقِّ: ردُّه ودفعه ، وعدم الخضوع له ، وعدم الانقياد له؛ استخفافاً به ، وترفُّعاً عليه ، وعناداً له.

وغمط النَّاس: احتقارهم ، والازدراء بهم(٣) .

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٧١).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٣٠).

(٣) المستفاد من قصص القرآن (١/ ٣٣).

ومن أعظم مظاهر بطر الحقِّ رفضُ أوامر الله ، والتَّمرُّد عليها؛ لأنَّ ما يأمر به الله هو الحقُّ ، فالتَّمرُّد على هذا الحقِّ ، ودفعه يمثِّل حقيقة الكِبْر ، فكان الصَّحابة رضي الله عنهم أبْعَدَ خلق الله تعالى عن جراثيم الحسد والكِبْر ، والابتعاد عن الحديث عن النَّفس وتزكيتها ، وقد شعروا بخطورة ذلك من قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ لأنَّ فيها معنى التكبُّر ، والله قال لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] ، وتعلَّموا: أنَّه لا فخر بالأصل والنَّسب؛ وإنَّما بالتَّقوى ، والطَّاعات والخيرات؛ ابتغاء ربِّ الأرض والسَّموات؛ لأنَّ إبليس افتخر بسبب أصله ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] .

٧ ـ إبليس هو العدوُّ لآدم وزوجه وذريتهما :

تعلَّم الصَّحابة من القرآن المكِّيِّ: أنَّ إبليس هو عدوُّهم الأوَّل؛ لأنَّه بسبب امتناعه عن السُّجود لأبيهم آدم طرده الله من رحمته ، ولعنه ، فأصبح عدوّاً لآدم ، وزوجه وذرِّيَّته قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] ، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] .

وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني آدم ، وإغوائهم ، وطلب من الله تعالى إمهاله ، وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم ، وصمَّم عليه ، ممَّا يدلُّ على شدَّة عداوته لآدم ، وبنيه.

قال تعالى حكاية عن قول إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٦ ـ ٤٠] .

لقد أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال المنهج القرآنيِّ: أنَّ طبيعة علاقة الشَّيطان بالبشر هي العداوة ، ولا يمكن تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما لإزالة هذه العداوة؛ لأنَّ الشَّيطان لا همَّ له ، ولا عمل ، ولا غرض في حياته ، سوى إضلال الإنسان ، ودفعه إلى معصية الله ، بواسطة تزيين الذُّنوب ، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] .

وقال تعالى حكايةً عمَّا قاله الهدهد لسليمان عليه السلام بشأن ملكة سبأ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم: أي: حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر ، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي:

عن طريق التَّوحيد[١]، ومن هذا الباب، وبهذا الأسلوب ـ أسلوب التَّزيين ـ يزيِّن الشَّيطان البدع في الدِّين في أعين المبتدعين[٢].

ولذلك جعل الصَّحابةُ إبليسَ عدوَّهم الأكبر، وامتثلوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] فعادوه، ولم يطيعوه، واحترزوا منه، وحذَّروا منه النَّاس.

٨ ـ التَّخاطب بأحسن الكلام بين الصَّحابة الكرام:

من الوسائل التي استخدمها الصَّحابة الكرام لمحاربة الشَّيطان امتثالُهم قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، لقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ، أن يأمر المؤمنين بأن يقولوا في مخاطباتهم، ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطَّيِّبة؛ لأنَّهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم؛ أي: أفسد فيما بينهم، وهيَّج الشَّرَّ، والمِراء؛ لتقع بينهم العداوة والبغضاء: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة للإنسان؛ ولذلك فهو لا يريد إلا الشَّرَّ لهم، والعداوة فيما بينهم.

وقد تربَّى الصَّحابة الكرام على خُلُقٍ رفيع وأسلوبٍ جميلٍ في معاملة النَّاس من قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخَلَّة الَّتي هي أحسن الخِلال؛ أي: بالصَّفح، ومكارم الأخلاق، ادفع إساءة من يسيء إليك، فبهذا تعود عداوته صداقة، وبغضه محبَّة[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشُّرور والفساد، والصَّدِّ عن الحق؛ لأنَّ الشَّياطين لا ينفع معهم شيءٌ، ولا ينقادون بالمعروف[٤]، ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأنٍ من شؤوني أو في شيءٍ من أمري، ولهذا أمر الشَّرع بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطرد الشَّيطان.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١٨٥).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٥١).

(٣) تفسير القاسمي (١٢/ ١٠٠).

(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٨٥).

هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: مَنْ أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ كأنَّه وليٌّ؛ أي: صديقٌ، أو قريب. (حميم): أي: شديد الولاء. ومعنى ذلك: أنَّك إذا أحسنت إلى مَنْ أساء إليك؛ قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك، ومحبَّتك، والحنوِّ عليك؛ حتَّى يصير كأنَّه وليٌّ لك، حميمٌ؛ أي: قريب إليك من الشَّفقة عليك والإحسان إليك.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: وما يقبل هذه الوصيَّة ـ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها ـ إلا مَنْ صبر على ذلك، فإنَّه يشق على النُّفوس، وما يقبل هذه الوصية ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيبٍ وافرٍ من السَّعادة في الدُّنيا والآخرة(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: وإما يُلْقِيَنَّ الشَّيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة، والانتقام منه، فاستعذ بالله من وساوس هذا الشَّيطان ونزغه، وشرِّه، فإنه يسمع استعاذتك، ويعلم حالك، فالشَّيطان لا تنفع معه مداراةٌ، ولا مقابلة إساءته بإحسانٍ؛ لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله، ولا يقبل منك غير هذا أبداً، أمَّا عدوُّ الإنسان فقد ينفع معه إحسانُك إليه، وعدم مقابلة إساءته بإساءةٍ مثلها، ولذلك حثَّنا الشَّرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه، أمَّا بالنِّسبة لنزغ الشَّيطان وتحرُّشه بالإنسان؛ فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلِّصك من شرِّه(٢).

إنَّ المنهج القرآنيَّ الكريم وضَّح حقيقة العلاقة بين الإنسان والشَّيطان، وبيَّنَ سُبُلَ علاجها، ووسائل الشَّيطان لإغواء بني آدم، ومضى القرآن يتحدَّث عن الشَّيطان، وهو في جهنم، وقد تبرَّأ ممَّن أغواهم، وأضلَّهم من بني الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠، ١٠١).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٨٦).

هذه صورةٌ موجزةٌ عن حقيقة إبليس ، وتصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لهذا العدوِّ اللَّعين .

تاسعاً: نظرة الصَّحابة إلى الكون ، والحياة ، وبعض المخلوقات :

ظلَّ رسول الله ﷺ يعلِّم الصَّحابة كتاب الله تعالى ، ويربِّيهم على التَّصوُّر الصَّحيح في قضايا العقائد ، والنَّظر السليم للكون والحياة ، من خلال الآيات القرآنيَّة الكريمة ، فبيَّن بدء الكون ومصيره .

قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١٢] .

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاث حقائق كونيَّة :

١ ـ خلق الأرض ، وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيَّامٍ قبل الاستواء إلى السماء ؛ وهيَ دخانٌ .

٢ ـ أصل الكون الماديِّ من الدُّخان .

٣ ـ الدَّورات التَّكوينيَّة للأرض ، والسَّماء مجموعها ستَّة أيَّامٍ[(١)] .

وقد بيَّنَ القرآن الكريم حقيقةً مهمَّةً ، وهي استحالة تحديد الحالة الأوَّلية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النُّجوم ، والكواكب ، والمجرَّات ، ولن يستطيع الناس معرفة ذلك ، إلا ظنّاً ، وتخميناً ، قال تعالى : ﴿ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] .

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحَّد ، وساق حقائق كونيَّةً في غاية الوضوح . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

لقد فهم الصَّحابة من الآيات ـ الَّتي في سورة فصِّلت ـ : أنَّ الله تعالى خلق الأرض ، ووضع البركة فيها وقدَّر أقواتها في أربعة أيَّام ، كلُّ ذلك قبل تشكيل السَّماء وجعلها سبع سمٰواتٍ ، وهذه الحقيقة وصل إليها الصَّحابة من طريق الوحي ، من خالق السَّموات والأرض[(٢)] .

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : وَخلَق الأرض في يومين ، ثمَّ خلَقَ السَّماء ، ثمَّ استوى إلى

---

(١) انظر : مباحث في إعجاز القرآن ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧ .

(٢) انظر : مباحث في إعجاز القرآن ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧ إلى ١٧٩ .

السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين آخرين ، ثمَّ دحا الأرض ، ودَحْوُها أنْ أخرج منها الماء والمرعى ، وخلقَ الجبالَ ، والرِّمالَ ، والجمادَ ، والآكامَ ، وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ . فجُعِلَتِ الأرضُ وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام ، وخُلِقَتِ السَّمواتُ في يومين . [البخاري تعليقاً (٨/ ٧١٤)] .

وبيَّن لهم القرآن الكريم في آياتٍ عظيمة : أنَّ الله هو الَّذي خلق السَّموات وألقى في الأرض رواسيَ ، وتحدَّث عن حقائق في الكون ، وعن الشَّمس ، والقمر ، والنُّجوم ، وفصَّل في الجبال ، وبيَّن فوائدها ، وضرب بها الأمثال ، ودعا إلى التأمُّل فيها ، وأخبر أنَّه سوف ينسفها نسفاً ، وتحدَّث القرآن الكريم عن البحار ، وما فيها من السُّفن ، والأرزاق ، وتكلَّم القرآن الكريم عن الظَّواهر الجوِّيَّة ، كالرِّياح ، والسُّحب ، والمطر ، والرَّعد ، والبرق ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢] .

وقرَّر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان ، لا تقلُّ في الأهمِّيَّة ، والدِّقَّة عن الحقائق الَّتي قرَّرها في كلِّ جوانب الكون ، والحياة ، فهو يلفت النَّظر تارةً إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدَّوابِّ ركوباً ، وحملاً ، ولباساً ، وطعاماً ، وشراباً ، وزينة ، فهي مسخَّرةٌ للإنسان ، مذلَّلةٌ له منقادةٌ ، كان الرَّعيل الأوَّل قبل البعثة ؛ ينظر إلى الكون والحياة ، والمخلوقات من شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجومٍ ، نظرةً مضطربةً غير واضحةٍ في معالمها التَّصوُّريَّة ، والعقديَّة ، ولا يستشعرون بالمنظومة التي خلقها الله ، وأنَّها تسبِّح لله ، وله حكمة من خلقها ، فأرشدهم القرآن الكريم إلى التأمُّل ، والتدبُّر في هذا الكون ، وما فيه من مخلوقات ، وبيَّن لهم حقيقة أنَّ مخلوقاته العظيمة تسبِّح له ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن لا يفقهون تسبيحهم ، قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وحدَّثهم القرآن الكريم عن ظاهرة تذليل ، وانقياد الحيوان للإنسان ، وبيَّن لهم : أنَّها ظاهرةٌ تستدعي شكر المنعم ؛ الَّذي جعل فيها هذه الطَّبائع ، ولولا وجود هذا الطَّبع فيها ؛ لما استطاع الإنسان التغلُّب عليها سبيلاً(١) . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٧١ ـ ٧٣] .

---

(١) انظر : مباحث في إعجاز القرآن ، ص ٢١٤ .

ولفت القرآن الكريم الأنظار إلى مسألة رزق الحيوان ، وأنَّ الإنسان يعقل ويفكِّر ، ويخطِّط ، ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه ، وإذا حصل على الكسب بطريقةٍ ما ؛ فكَّر في ادِّخاره ، وتخزينه للمستقبل ، أمَّا الحيوان ؛ فليست عنده القدرة على التَّفكير والتَّخطيط ، وليس من طبعه ذلك ، ولكنَّ قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكلِّ شيءٍ قد تكفلت بأرزاقها ، وتوفير سبل البقاء أمامها. قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠] .

هكذا شأن الألوهيَّة في المخلوقات: العلم ، والإحاطة بالمكان ، والتَّكفُّل بالرزق في جميع الظُّروف ، فالحيوان مرزوقٌ في كلِّ مكانٍ ، في أعماق البحار ، والمحيطات ، وفي الصَّحراء المحرقة ، والأصقاع المتجمِّدة ، تحت الصُّخور الصَّمَّاء ، وفي أجواء الفضاء ، كلُّ ذلك في كتابٍ لا يضلُّ ربِّي ، ولا ينسى ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦] .

وقد لفت القرآن الكريم النَّظر إلى أنَّ هذه المخلوقات ـ من الدَّواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة ، والسَّير ـ أممٌ ، وفصائلُ أمثال النَّاس[1] ، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

وهكذا نَظَّمَ القرآن الكريم أفكار ، وتصوُّرات الرَّعيل الأوَّل عن الكون ، وما فيه من مخلوقاتٍ ، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية ، واستمرَّ النَّبيُّ ﷺ في غرس حقيقة المصير ، وسبيل النَّجاة في نفوس أصحابه ، موقناً: أنَّ مَنْ عرف منهم عاقبته ، وسبيل النَّجاة ، والفوز سيسعى بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ ووسيلةٍ لسلوك السَّبيل ، حتَّى يظفر غداً بهذه النَّجاة ، وذلك الفوز ، وركَّز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التَّالية:

إنَّ هذه الحياة الدُّنيا مهما طالت ؛ فهي إلى زوالٍ ، وإنَّ متاعها مهما عظم ؛ فإنَّه قليلٌ حقيرٌ ، ووضَّحَ لهم ذلك الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤] .

إنَّ الآية الكريمة السَّابقة فيها عشر جملٍ وقع التَّركيب من مجموعها ، بحيث لو سقط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيه ؛ إذ المقصود تشبيه حال الدُّنيا في سرعة تقضِّيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ، ص ٢١٦ .

النَّاس بها ، بحال ماءٍ نزل من السَّماء ، وأنبت أنواع العشب ، وزيَّن بزخرفه وجهَ الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثِّياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنُّوا أنها مُسَلَّمَةٌ من الجوائح ؛ أتاها بأس الله فجأةً ، فكأنَّها لم تكن بالأمس(١) .

وأخبرهم الرَّسول ﷺ بقول الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] أي : واضرب يا محمَّد للنَّاس ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ في زوالها ، وفنائها ، وانقضائها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي : ما فيها من الحبِّ ، فشبَّ ، ونما ، وحسن ، وعلاه الزَّهر ، والنَّضرة ، ثمَّ بعد هذا كلِّه ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ أي : يابساً ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي : تفرِّقه ، وتطرحه ذات اليمين ، وذات الشِّمال ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي : هو قادر على الإنشاء والإفناء(٢) .

وقال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] يقول تعالى مُوَهِّناً أمر الحياة الدُّنيا ، ومحقِّراً لها : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ أي : تفريح نفسٍ ، ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ أي : باطل ، ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ أي : منظرٌ جميلٌ ﴿ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : بالحسب والنَّسب ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أي : مطر ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أي : يعجب الزُّرَّاع نبات ذلك الزَّرع ؛ الَّذي نبت بالغيث ، وكما يُعجب الزُّرَّاع ذلك ، كذلك تُعجب الحياة الدُّنيا الكفار ، فإنَّهم أحرص النَّاس عليها ، وأميل النَّاس إليها ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي : ثمَّ يجفُّ بعد خضرته ، ونضرته ، فتراه مصفرّاً ؛ أي : من اليبس ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ ثم يكون بعد ذلك كلِّه حطاماً ؛ أي : هشيماً منكسراً ، وكذلك الدُّنيا لا تبقى ، كما لا يبقى النَّبات الَّذي وصفناه ، ولمَّا كان هذه المثل دالاً على زوال الدُّنيا ، وانقضائها لا محالة ، وأنَّ الآخرة كائنةٌ ، وآتيةٌ لا محالة ، حذَّرنا الله تعالى من أمرها ، ورغَّبنا فيما فيها من الخير ، فقال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ أي : وليس في الآخرة الآتية إلا : إمَّا هذا ، وإما هذا ؛ أي : إمَّا عذابٌ شديدٌ ، وإمَّا مغفرةٌ من الله ، ورضوانٌ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي : هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ، ويخدع مَنْ يركن إليها ، وإلى متاعها ، فيغترُّ بها ، وتعجب مَنْ يعتقد : أنَّه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، مع أنَّها حقيرةٌ ، قليلة المتاع بالنسبة إلى الدَّار الآخرة(٣) .

---

(١) انظر : الإتقان ، للسيوطي (٢/ ٧٠) .
(٢) انظر : تفسير القاسمي (١١/ ٤٩) .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢ _ ٣١٣) .

إنَّ هذه الحقيقة الَّتي أشارت إليها الآيات الكريمة ، هي حقيقة الدُّنيا بكلِّ متاعها ، وزينتها ، وما تشتهيه النَّفس منها ، وإنَّ كلَّ ذلك بالنِّسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافهٌ ، وقليلٌ وزائلٌ ، هكذا فهم الرَّعيل الأوَّل حقيقة الدُّنيا ، فكان رسول الله ﷺ يبصِّرهم ، ويذكِّرهم بدورهم ، ورسالتهم في الأرض ، ومكانتهم عند الله ، وظلَّ ﷺ معهم على هذه الحال من التَّبصير والتَّذكير حتَّى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله ، وما دورهم وما رسالتهم في الأرض ، وتأثُّراً بتربيته الحميدة تولَّد الحماس ، والعزيمة في نفوس أصحابه ، فانطلقوا عاملين باللَّيل والنَّهار بكلِّ ما في وسعهم ، وما في طاقتهم دون فتورٍ ، أو توانٍ ، ودون كسلٍ ، أو مللٍ ، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا من الله ، ودون طمع في مغنمٍ أو جاهٍ إلا أداء هذا الدَّور وهذه الرِّسالة؛ لتحقيق السَّعادة في الدُّنيا ، والفوز ، والنَّجاة في الآخرة(١).

إنَّ كثيراً من العاملين في مجال الدَّعوة بهتت في نفوسهم هذه الحقيقة؛ لأنَّهم انغمسوا في هذه الحياة الدُّنيا ، ومتاعها وشغفتهم حبّاً ، فهم يلهثون وراءها ، وكلَّما حصلوا على شيءٍ من متاعها؛ طلبوا المزيد ، فهم لا يشبعون ، ولا يقنعون؛ بسبب التصاقهم بالدُّنيا ، وإنَّها لكارثةٌ عظيمةٌ على الدَّعوة ، والنُّهوض بالأمَّة ، أمَّا التمتُّع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشَّرع ، واتِّخاذها مطيَّةً للآخرة فذلك فعلٌ محمودٌ.

* * *

(١) انظر: منهج الرَّسول ﷺ في غرس الروح الجهادية ، ص ١٩ إلى ٣٤.

المبحث الرَّابع
البناء التعبُّدي والأخلاقي في العهد المكي

أولًا: تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وقد ربَّى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم؛ ومن أهمِّها:

١ ـ التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق، وحكمته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ ـ التأمُّل في علم الله الشَّامل، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح، والقلب بعظمة الله، ويطهِّر النَّفس من الشكوك، والأمراض. قال الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠].

٣ ـ عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي من أعظم الوسائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّل لله سبحانه، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، والعبادات الَّتي تسمو بالرُّوح وتطهِّر النفس نوعان:

أ ـ **النَّوع الأوَّل**: العبادات المفروضة كالطَّهارة، والصَّلاة، والصِّيام، والزَّكاة، والحجِّ وغيرها.

ب ـ **النوع الثَّاني**: العبادات بمعناها الواسع، الَّذي يشمل كلَّ عملٍ يعمله الإنسان، أو يتركه، بل كلّ شعورٍ يُقبِل عليه الإنسان تقرُّباً به إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كلُّ شعورٍ يطرده الإنسان من نفسه تقرُّباً به إلى الله تعالى، ما دامت نيَّة المتعبِّد بهذا العمل هي إرضاء الله سبحانه وتعالى، فكلُّ الأمور مع نيَّة التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى عبادةٌ يُثاب صاحبها، وتربِّي روحه تربيةً حسنةً(١).

إنَّ تزكية الرُّوح بالصَّلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتَّسبيح له سبحانه أمرٌ مهمٌّ في الإسلام؛ فإنَّ النَّفس البشريَّة إذا لم تتطهَّر من أدرانها، وتتَّصل بخالقها فلن تقوم بالتَّكاليف الشَّرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها، تعطي الرُّوح وقوداً وزاداً، ودافعاً قويّاً إلى القيام بما تؤمر به، ويدلُّ على هذا أمر الله الرَّسول ﷺ في ثالث سورةٍ نزلت عليه بالصَّلاة والذِّكر، وترتيل القرآن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ١ ـ ٨].

إنَّ الاستعداد للأمر الثَّقيل، والتَّكاليف الشَّاقَّة يكون بقيام اللَّيل والمداومة على الذِّكر والتِّلاوة، وقد حرص رسول الله ﷺ بتوجيهٍ من ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ على تربية الصَّحابة من أوَّل إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة(٢).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلَّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب، واستخْفَوا بصلاتهم(٣). ولمَّا خاف ﷺ في بداية الإسلام على أصحابه، وعرف: أنَّ الكفار لا يتركونهم يمارسون الصَّلاة، وقراءة القرآن علناً، دخل بهم دار الأرقم، وصار يصلِّي بهم، ويعلِّمهم كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولولا أهمِّية تزكية الرُّوح بالعبادة، والصَّلاة، والتِّلاوة؛ لأمرهم بتركها عند الخوف، حتَّى إنَّه بعد أن اكتشفت قريش المكان الَّذي يصلِّي فيه الرَّسول ﷺ بأصحابه لم يترك الرَّسول ﷺ الصَّلاة، والتِّلاوة لأجل الخوف(٤).

وقد حضَّ الله تعالى في القرآن المكِّيِّ على إقامة الصَّلاة، وأثنى على الَّذين يخشعون في صلاتهم، والَّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله، وعلى الذين

---

(١) فقه الدَّعوة، لعبد الحليم محمود (١/ ٤٧١، ٤٧٢).
(٢) انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة، ص ٦٩.
(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٢/ ٤٠٤).
(٤) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، ص ٧٠.

يدعون الله ويسبِّحونه ، ويذكرونه ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠].

وهذه الآياتُ الأخيرةُ تدلُّ على أنَّ العُدَّةَ في حال الضيق والشدَّة هي الإكثار من الصَّلاة ، والذِّكر ، وتلاوة القرآن ، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده ، والإكثار من الدُّعاء(١).

إنَّ الصَّلاة تأتي في مقدِّمة العبادات الَّتي لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية روح المسلم ، ولعلَّ من أبرز آثارها الَّتي أصابت الرَّعيل الأوَّل:

١ ـ الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين استجابوا لأمره ، فقال عزَّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

ولا تتحقَّق معاني العبودية الصَّادقة لله سبحانه وتعالى ، إلا إذا اقترنت بصدق التوجُّه إليه ، والإخلاص له سبحانه ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وكان الرَّعيل الأوَّل يرى: أنَّ لكل عملٍ من أعمال الصَّلاةِ عبوديةً خاصةً ، وتأثيراً في

---

(١) انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة إلى الله ، ص ٧٢.

النَّفس ، وتزكيةً للرُّوح ؛ فقراءة سورة الفاتحة مع التدبُّر تشعرهم بعبوديَّتهم لله تعالى ، فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يثبت كلَّ كمال لله ـ سبحانه وتعالى ـ ويحمده على ما وفَّقه إليه من الطَّاعة ، وما أنعم عليه من النِّعم ، ويثني عليه بصفاته ، وأسمائه الحسنى[1] .

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقرُّ بالتَّوحيد والاستعانة بالله وحده ، فالله هو المعبود ، وهو المستعان ، وكلُّ استعانةٍ بغير الله فهي خذلانٌ وذلٌّ .

وعندما يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو إقرارٌ من العبد بأنَّه مفتقرٌ إلى الهداية ، والثَّبات على طريق الحقِّ ، وأنَّه محتاجٌ إلى ثمار الهداية ، والاستزادة منها ، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم ، والضَّالِّين[2] .

وعندما ينحني للرُّكوع يكبِّر ربَّه معظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ، فيجتمع في هذا الرُّكن خضوع الجوارح ، وخضوع القلب ، ثمَّ يأتي السُّجود ، فيجعل العبدُ أشرف أعضائه ، وأعزَّها متذللاً لله سبحانه ، ويتبع هذا انكسارُ القلب ، وتواضعُه ، فيسجد القلب لربِّه كما سجد الجسد[3] ، وحَرِيٌّ به في هذهِ الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربِّه ، وكلَّما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربِّه في سجوده ، ازداد منه قرباً ، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩] .

وفي الحديث النَّبويِّ الشريف: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ ؛ فأكثروا الدُّعاءَ»[4] .

وعندما يعتدل جالساً ، يتمثَّل جاثياً بين يدي ربِّه ، ملقياً نفسه بين يديه ، معتذراً إليه ممَّا جناه ، راغباً إليه أن يغفر له ، ويرحمه ، وهكذا تتجلَّى في كلِّ أفعال الصَّلاة العبوديةُ لله سبحانه ، وإقبالُ العبد على ربِّه ، وتوحيده ، وتقوية الإيمان به الَّذي هو أساس التَّزكية ، وهذه أعظم ثمرةٍ من ثمرات الصَّلاة ، وهي الَّتي تنير للعبد طريق حياته ، وتمنحه طهارة القلب ، وطمأنينة النَّفس[5] .

٢ ـ مناجاة العبد لربِّه:

وقد بيَّن رسول الله ﷺ مشهداً من مشاهد هذه المناجاة ، فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله

---

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (١/ ٢٢١).
(٢) الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصَّلاة والقرآن ، لابن قيِّم الجوزيَّة ، ص ٣٥ ـ ٤٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٣ ـ ٤٦) ، وانظر: الخشوع في الصَّلاة ، لابن رجب ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .
(٤) مسلمٌ ، كتاب الصَّلاة ، باب ما يقال في الرُّكوع والسُّجود ، رقم (٤٨٢).
(٥) انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/ ٢٢٢).

تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجَّدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل». [أحمد (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) ومسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤)].

لقد تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من النَّبيِّ ﷺ: أنَّ هذه المناجاة، من أعظم أسباب تزكية النَّفس، وتقوية الإيمان، إذا هيَّأ العبد نفسه لها، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوِّق للوقوف بين يدي ربِّه، الوافد عليه، المنتظر لرحمته، وفضله؛ يستمدُّ العون منه سبحانه في كلِّ أموره وأعماله.

٣ ـ طمأنينة النَّفس، وراحتها:

كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ؛ صلَّى [أبو داود (١٣١٩) وأحمد (٥/ ٣٨٨)]، وقد جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة [أحمد (٣/ ١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥) والنسائي (٧/ ٦١) والحاكم (٢/ ١٦٠)]، وقد علَّم الرَّسول ﷺ الصَّحابة كثيراً من السُّنن والنَّوافل ليزدادوا صلةً بربِّهم، وتأمن بها نفوسهم، وتصبح الصَّلاة سلاحاً مهمَّاً لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

٤ ـ الصَّلاة حاجزٌ عن المعاصي:

قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كان الصَّحابة رضي الله عنهم عندما يؤدُّون صلاتهم، تستريح بها نفوسُهم، وتمدُّهم بقوَّةٍ دافعةٍ لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورعاية حدوده، والتَّغلُّب على نوازع الهوى، ومجاهدة النَّفس، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي (١)، كما أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ الصَّلاة تكفِّر السَّيئات، وترفع الدَّرجات. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وغير ذلك من الآثار التَّربويَّة، والنَّفسيَّة الطَّيبة؛ الَّتي تتضافر، فيغنمها العبد المصلِّي، فتؤدِّي الصَّلاة دورها في تزكية النَّفس، وطهارتها، ويتحقَّق قول رسول الله ﷺ: «والصَّلاة نورٌ»؛ [مسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٧) والنسائي (٥/ ٥ ـ ٦) وابن ماجه (٢٨٠) وأحمد (٥/ ٣٤٢ و٣٤٣

---

(١) انظر منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٢٧).

و٣٤٤)]؛ فهي نورٌ تضيء لصاحبها طريق الهداية ، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصَّالح ، وهي نورٌ في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ، ولذَّة المناجاة لربِّه ، وهي نورٌ بما تمنح النَّفس من تزكيةٍ ، وطمأنينةٍ ، وراحةٍ ، وبما تمدُّ من أمنٍ ، وسكينةٍ ، وهي نورٌ ظاهرٌ على وجه المقيم لها في الدُّنيا ، تتجلَّى بها وَضَاءَةُ الوجه وبهاؤه؛ بخلاف تارك الصَّلاة [(١)]، وهي نورٌ له يوم القيامة[(٢)] .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] .

كان الصَّحابة يكثرون من الذِّكر ، والدُّعاء ، وتلاوة القرآن الكريم ، والاستماع إليه ، واغتنام السَّاعات الفاضلة في قيام اللَّيل ، ومجاهدة النَّفس على الخشوع والتدبُّر وحضور القلب ، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى ، وله آثار عظيمةٌ في تزكية النَّفس ، وسموِّ الرُّوح ، وترقيتها إلى مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصَّحابة من آثار الذِّكر ، والدُّعاء ، والتِّلاوة مناجاةُ الله ، وتحقيقهم مقامات العبوديَّة التي تُعلي مكانتهم عند الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : «يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنا عند ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ؛ إن ذكرني في نفسه؛ ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ؛ ذكرته في ملأٍ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّبَ مني شبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً ، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلَـةً» [البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)] .

ومن أعظم أنواع الذِّكر الَّتي مارسها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم تلاوة القرآن الكريم ، فقد عظمت محبَّة الله في قلوبهم ، وازدادت خشيتهم له ـ سبحانه وتعالى ـ فقد شفى القرآنُ نفوسَهم من أمراضها ، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

---

(١) انظر : منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٣٣) .
(٢) أشار إلى هذا المعنى النَّوويُّ في شرحه على مسلم (٣/ ١٠٠) ، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، ص ١٩٠ .

وكان للصَّحابة مع الدُّعاء شأنٌ عظيمٌ ، فقد علَّمهم النَّبيُّ ﷺ : أنَّه مِنْ أجلى مظاهر العبودية ، والمناجاة لله سبحانه وتعالى ، قال رسول الله ﷺ : «الدُّعاء هو العبادة» [أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٣٧٢) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان (٨٨٧) والحاكم (١/ ٤٩١)] ، ولقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالدُّعاء ، وتوعَّد من يستكبر ، فيترك الدُّعاء ؛ وكأنه مستغنٍ عن ربه .

قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يستكبرون عن عبادتي ؛ أي : عن دعائي ، وتوحيدي»(١) .

كان النَّبيُّ ﷺ يبيِّن لهم حاجة القلب إلى غذاءٍ دائمٍ ؛ من ذكرٍ ، ودعاءٍ ، وتلاوة قرآن ؛ ليكون ذلك تحصيناً لهم من الأمراض ، والآفات ، وبيَّن لهم ما يستحبُّ للمسلم من الأدعية ، والأذكار في الصَّباح والمساء ، وعند دخول المنزل ، أو الخروج منه ، وعند دخول السُّوق ، أو الأكل ، أو اللبس ، وغير ذلك من الأعمال اليوميَّة ؛ حتى يبقى في وقايةٍ دائمةٍ من كلِّ مرضٍ ، فإذا أصيب بمرض عارضٍ ، كالقلق ، والكآبة ، والاضطراب العصبيِّ ، أو غيرها ، كانت تلك الأذكار والدَّعوات البلسم الشَّافي ؛ الَّذي تطمئنُّ به القلوب ، وتحيا به النُّفوس ، ومن بين تلك الأذكار والدَّعوات المأثورة الَّتي علَّمها رسولُ الله ﷺ لأصحابه ، دعاء الشِّدَّة ، والكرب ؛ الَّذي يقول فيه : «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم» . [البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠)] .

إنَّ رسول الله ﷺ عَلَّمَ أصحابه كيف يلجؤون إلى الله سبحانه وقت الضِّيق ؛ ليجدوا المأمن ، والسَّكينة ، فلا يفزعوا ، ولا يقلقوا ، وهم موقنون بأنَّ الله معهم ، وأنَّه ناصرهم ، ومتولِّي أمرهم ، ومؤيِّدهم ، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين(٢) .

قال تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل : ٦٢] .

إنَّ الذِّكر والدُّعاء ، وتلاوة القرآن ، وقيام اللَّيل ، والنَّوافل بأنواعها ، لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية النفس ، وسموِّ الرُّوح ، ومهما كتبنا في هذا الموضوع ؛ فلا يمكن أن نحيط به في صفحاتٍ أو كتبٍ ؛ وإنَّما هذا جزءٌ من كلٍّ وغيضٌ من فيضٍ .

ثانياً : التزكية العقلية :

كانت تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه شاملةً ؛ لأنَّها مستمدةٌ من القرآن الكريم ، الَّذي خاطب

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٦) .

(٢) منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/ ٣٣١) .

الإنسان ككلٍّ يتكون من الرُّوح ، والجسد ، والعقل ، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّحابي على تنمية قدرته في النَّظر ، والتأمُّل ، والتفكُّر ، والتدبُّر ؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله ، وهذا مطلبٌ قرآنيٌّ ، أرشد إليه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم تنزيله .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال جلَّ شأنُه : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢] .

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمَّة ، وقد جعله المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ مناط التَّكليف ، فمن حُرم العقل لجنونٍ أو غيره ، فهو غير مكلَّفٍ ، ويسقط عنه التَّكليف قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

إنَّ العقل نعمةٌ من الله على الإنسان يتمكَّن بها من قبول العلم ، واستيعابه ؛ ولذلك وضع القرآن الكريم منهجاً لتربية العقل ، سار عليه رسول الله ﷺ لتربية أصحابه ؛ ومن أهمِّ نقاط هذا المنهج :

١ ـ تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتَّخمين ، أو التبعيَّة والتقليد ، فقد حذَّر القرآن الكريم من ذلك في الآية الكريمة التَّالية ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم : ٢٨] .

٢ ـ إلزام العقل بالتَّحرِّي والتَّثبُّت ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

٣ ـ دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥] .

٤ ـ دعوة العقل إلى التأمُّل في حكمة ما شرع الله لعباده من عباداتٍ ، ومعاملاتٍ ، وأخلاقٍ ، وآدابٍ ، وأسلوب حياةٍ كاملٍ ، في السِّلم والحرب ، في الإقامة والسَّفر ؛ لأنَّ ذلك يُنْضِجُ العقل ، وينمِّيه ، وبتعرُّفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص ، ليطبق الشَّرع الرَّبانيَّ

في حياته ، ولا يبغي عنه حولاً ؛ لما فيه من السَّكينة ، والطمأنينة ، والسَّعادة للبشريَّة ، ولأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنَّما شرع ما شرع لذلك .

قال سبحانه : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام : ١١٩] .

٥ ـ دعوة العقل إلى النَّظر إلى سنَّة الله في النَّاس عبر التَّاريخ البشريِّ ؛ ليتَّعظ النَّاظر في تاريخ الآباء ، والأجداد ، والأسلاف ، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم ، والشُّعوب ، والدُّول . قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام : ٦] .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ١٣ ـ ١٤] .

وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم : ٩] .

كانت هذه الآيات الكريمة ترشد الصَّحابة إلى استخدام عقولهم وفق المنظور الرَّبانيِّ ؛ لكي لا تضلَّ عقولهم في التيه ؛ الَّذي ضلَّ فيه كثيرٌ من الفلاسفة ، الَّذين قدَّسوا العقل ، وأعطوه أكثر ممَّا يستحقُّ(١) ، وقد كان لهذه التَّربية القرآنيَّة آثارٌ عمليَّة عظيمةٌ .

ثالثاً : التَّربية الجسديَّة :

حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ على تربية أصحابه جسديّاً ، واستمدَّ أصول تلك التَّربية من القرآن الكريم ، بحيث يؤدِّي الجسم وظيفته ، الَّتي خلق لها ، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ ، ودون محاباةٍ لطاقة من طاقاته على حساب طاقةٍ أخرى .

إنَّ الله أرشد عباده في القرآن الكريم ، إلى ما أحلَّه من الطَّيبات ، وما حرَّمه من الخبائث ، وأنكر على أولئك الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم الطَّيبات ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

ولاشكَّ : أنَّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة ، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي

(١) انظر : فقه التَّمكين في القرآن الكريم ، للصلاَّبي ، (ص ٣٥٤) .

كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله، واستخلافٍ في الأرض، وإعمارها، وتعارفٍ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين؛ ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشريِّ على النَّحو التَّالي:

١ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الطَّعام، والشَّراب بقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الملبس، بأن أوجب من اللِّباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من عاديات الحرِّ والبرد، وندب ما يكون زينةً عند الذَّهاب إلى المسجد. قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

٣ ـ ضَبَطَ الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

٤ ـ ضَبَطَ حاجته إلى الزَّواج والأسرة بإباحة النِّكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزِّنى، والمخادنة، واللِّواط، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

٥ ـ ضَبَطَ حاجته إلى التَّملُّك والسِّيادة، وأباح التَّملُّك للمال، والعقار، وَفْقَ ضوابط شرعيَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

٦ ـ ضَبَطَ الإسلام السِّيادة بتحريم الظُّلم، والعدوان، والبغي. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

٧ ـ ضَبَطَ حاجته إلى العمل، والنَّجاح؛ بأن جعل من اللَّازم أن يكون العمل مشروعاً، وغير مضرٍّ بأحدٍ من النَّاس، ونادى المسلمين أن يعملوا في هذه الدُّنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدَّعوة والدِّين، وما يدَّخرون عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وربط العلم بالإيمان في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، وشرط في العمل أن يكون صالحاً،

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وطالب بالإحسان في العمل، فقال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

٨ ـ وحذَّر سبحانه من الدَّعة والبطر، والاغترار بالنِّعمة، فقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

هذه بعض الأسس الَّتي قامت عليها التربية النَّبويّة للأجسام، حتى تستطيع أن تتحمَّل أثقال الجهاد، وهموم الدَّعوة، وصعوبة الحياة.

لقد ربَّى النَّبيُّ ﷺ صحابته على المنهج الكريم، منهج تزكية الأرواح، وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد، وتقويتها؛ لإعداد الشَّخصيَّة الإسلاميَّة الرَّبَّانيَّة المتوازنة، ولقد نجحت تربيته ﷺ في تحقيق أهدافها المرسومة.

رابعاً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرَّذائل:

إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ، وقد ربَّى رسولُ الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعةٍ، وكان ﷺ يتلو عليهم ما ينزل من قرآن، فإذا سمعوه، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتدبِّر للقرآن المكِّيِّ يجده مليئاً بالحثِّ على مكارم الأخلاق، وعلى تنقية الرُّوح، وتصفيتها، من كلِّ ما يعوق سيرها إلى الله تعالى، ورسول الهدى ﷺ القدوة الكاملة، والمربِّي النَّاصح للأمَّة كان على خلقٍ عظيمٍ(١)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ومعنى الآية واضحٌ، أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله، والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي آثرك الله به في القرآن(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كان القرآنَ» [مسلم (٧٤٦) وأحمد (٦/ ٥٤) وأبو داود (١٣٤٢)]. وقد جمع الله تعالى لنبيِّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال مجاهد في معنى الآية: يعني: خذ العفو من أخلاق النَّاس، وأعمالهم من غير

---

(١) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدَّعوة، ص ٦٤، ٦٥.
(٢) انظر: تهذيب مدارج السَّالكين (٢/ ٦٥٣).

تخسيسٍ، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتَّفتيش عن حقائق بواطنهم[(١)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو كلُّ معروفٍ، وأعْرَفُهُ التَّوحيدُ، ثُمَّ حقوق العبوديَّة، وحقوق العبيد[(٢)]، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، يعني: إذا سفه عليك الجاهل، فلا تقابله بالسَّفه، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وهكذا كان خلقه ﷺ؛ «كان النَّبيُّ ﷺ أحسنَ النَّاس خُلُقاً» [البخاري (٦٢٠٣) ومسلم (٦٥٩)].

وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّي أصحابه على حسن الخُلُق، ويحثُّهم عليه، فعن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخُلُق، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِض الفاحشَ البذيءَ» [أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٤٧٦)].

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسنُ الخلق»، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ النارَ؟ فقال: «الفمُ، والفرجُ» [أحمد (٢/ ٣٩٢) والترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وابن حبان (٤٧٦) والبخاري في الأدب الفرد (٢٨٩ و٢٩٤)]، وقد بيَّن ﷺ لأصحابه عظم ثواب حُسْنِ الخُلُق، فقال: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني يوم القيامة، الثَّرْثارون، والمتشدِّقونَ، والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله! قد علمنا (الثرثارون، والمتشدِّقون)، فما المتفيهقون؟ قال: «المُتكبِّرون» [الترمذي (٢٠١٨)].

الثَّرثار: هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيَّةٍ. والمتشدِّق: المتكلِّم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً، وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره، والمتفيهق: هو الَّذي يتوسَّع في الكلام، ويفتح به فاهه، وأصله: من الْفَهْقِ، وهو الامتلاء[(٣)].

لقد سار النَّبيُّ ﷺ على المنهج القرآنيِّ في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة، والعقائد في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحةٌ في كتاب الله تعالى، وقد بيَّن سبحانه لرسوله ﷺ، وللمسلمين، الأخلاقيات الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ (لا إله إلا الله)، والأخلاقيات الجاهليَّة الَّتي ينبغي أن ينبذها المؤمنون، والحقيقة: أنَّ التَّنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللَّحظة الأولى، مع

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٦٥٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تهذيب مدارج السَّالكين (٢/ ٦٥٧).

التنديد بفساد تصوُّراتهم الاعتقاديَّة ، واستمرَّ معه حتَّى النِّهاية .

إنَّ الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدِّين ، وليست محصورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريِّ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه ، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريِّ كلِّه ، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة ، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد ، والإيمان الصَّحيح؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسبٍ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك ، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السُّلوك العمليَّ ، أو حين نرى عكسه أن نتساءل : أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّل إلى سلوكٍ(١)؟!

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قويّاً ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ؛ منها :

قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١ ـ ١١]؛ فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التَّوكيد : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، ثُمَّ تصف هؤلاء المؤمنين بذلك الوصف المطوَّل المفصَّل ، الذي يُعْنَى بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين ، موحياً إيحاءً واضحاً أنَّ هذه الأخلاقيات ـ من جهةٍ ـ هي ثمرة الإيمان ، وأنَّ الإيمان ـ من جهةٍ أخرى ـ هو سلوكٌ ملموسٌ يُترجِم عن العقيدة المكنونة .

إنَّهم بادئ ذي بدء خاشعون في صلاتهم ، فذلك أوَّل مظهرٍ للمؤمن الصَّادق : أن تكون صلاتُه ـ وهي اللَّحظة التي يقف فيها متعبِّداً لربِّه ، ذاكراً له في قلبه ، متَّصلاً به بروحه ـ صلاةً خاشعةً بما ينبئ عن صدق الصِّلة بالله؛ الَّتي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصَّلاة ، ثمَّ تثنِّي السُّورة بصفة سلوكيَّة أخرى ذات دَلالةٍ ، هي : أنَّهم عن اللغو معرضون؛ فاللَّغو لا ينبئ عن نفسٍ جادَّةٍ ، والإيمان الصَّحيح يورث النَّفس الجدَّ بما يشعرها من ثقل التَّكاليف ، وجدِّيتها ، والجدُّ ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً ، ولكنَّ اللَّغو ـ من جانبٍ آخر ـ لا يستقيم مع جدِّية الشُّعور بعظم الأمانة؛ التي يحملها الإنسان أمام خالقه ، ثمَّ إنَّ هؤلاء المؤمنين لابدَّ أن تكون في قلوبهم الحساسية لحقِّ الله في أموالهم ، وهو الزَّكاة .

ولابدَّ أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس؛ فلا يتعدَّون حدود الله ، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعيَّة؛ فيحفظون الأمانة ، ويرعون العهد ، وبهذا نفهم فَهْم الصَّحابة

---

(١) انظر : دراساتٌ قرآنيَّةٌ ، لمحمَّد قطب ، ص ١٣٠ .

للأخلاق ، فهي ثمرةٌ طبيعيَّةٌ للعقيدة الصَّحيحة ، وكذلك العبادة الحيَّة الخاشعة لله ، هكذا تعلَّموا من القرآن الكريم ، ومن هدي حبيبهم الصَّادق الأمين ﷺ .

لقد رسم القرآن الكريم لهم صورةً تفصيليَّةً للشَّخصيَّة المؤمنة ، فكانت العبادة أوَّل مَعْلَمٍ واضح فيها ؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين أول وصفٍ لهم الخشوعَ في الصَّلاة ، وآخر أوصافهم المحافظة عليها ، ووصفهم بفعل الزَّكاة ، وهي عبادةٌ ، مع الفضائل الخلقيَّة الأخرى .

إنَّ القرآن الكريم يبرز جانب العبادة أحياناً ، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى ؛ لمناسباتٍ واعتباراتٍ توجب هذا الإبراز ، ففي سورة الذَّاريات كانت العناية بالعبادة في وصف المتقين : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٦ ـ ١٩] .

وفي سورة الرَّعد كانت العناية بالجانب الأخلاقيِّ في وصف أصحاب العقول ، قال تعالى : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٩ ـ ٢٢] .

ومع أنَّ معظم الأوصاف هنا أخلاقيَّةٌ ـ لمناسبة أولي الألباب ـ مثل الوفاء والصِّلة ، والصَّبر ، والإنفاق ؛ لكنَّ الملحوظ فيها أنَّها ليست مجرَّد أخلاقٍ (مدنيَّة) ، وإنَّما هي أخلاقٌ ربَّانيَّة ، أخلاقٌ فيها معنى العبادة ، والتَّقوى ، فهم إنَّما يوفون (بعهد الله) ، وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهم إنَّما يفعلون ويتركون ؛ لأنَّهم ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، وهم إنَّما يصبرون ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله ، ويرجون اليوم الآخر[١] .

لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق ؛ لأنَّها من باب الوفاء لله ، والشُّكر للنِّعمة ، والاعتراف بالجميل ، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير ، والتَّعظيم ، وكلُّها من مكارم الأخلاق[٢] ، كانت أخلاقُ الصَّحابة ربَّانيَّة ، باعثها الإيمان بالله ، وحاديها الرَّجاء في الآخرة ، وغرضها رضوان الله ، ومثوبته ، فكانوا يصدقون في الحديث ، ويؤدُّون الأمانة ، ويوفون بالعهود ، ويصبرون في البأساء والضَّرَّاء ، وحين البأس ، ويغيثون الملهوف ،

---

(١) انظر : العبادة في الإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٢٣ .
(٢) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٥٩١ .

ويرحمون الصَّغير ، ويوقِّرون الكبير ، ويرعون الفضيلة في سلوكهم ؛ كلُّ ذلك ابتغاء وجه الله ، وطلباً لما عنده تعالى ؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١١ ـ ١٢] .

إنَّ أخلاق المؤمن عبادةٌ؛ لأنَّ مقياسه في الفضيلة ، والرَّذيلة ، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع ، هو أمر الله ونهيه؛ بالضَّمير وحدَه ليس بمعصومٍ ، وكم من أفرادٍ وجماعاتٍ رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال![1] .

والعقل وحده ليس بمأمونٍ؛ لأنَّه محدودٌ بالبيئة والظُّروف ، ومتأثِّرٌ بالأهواء والنِّزاعات ، وفي الاختلاف الشَّاسع للفلاسفة الأخلاقيِّين في مقياس الحكم الخلقيِّ ، دليلٌ واضحٌ على ذلك ، والعرف لا ثبات له ، ولا عموم؛ لأنَّه يتغيَّر من جيلٍ إلى جيل ، وفي الجيل الواحد من بلدٍ إلى بلدٍ ، وفي البلد الواحد من إقليمٍ إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الَّذي لا يضلُّ ، ولا ينسى ، ولا يتأثَّر ، ولا يجور[2] .

إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان ، وكلَّ أحاسيسه ، ومشاعره ، وتفكيره؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع ، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو ، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله ، وحرماته ، والتَّعامل مع الآخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف ، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس ، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح ، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار ـ أي : ردُّ العدوان ـ وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكيِّفه ، ولا شيءٌ واحدٌ ليست له دَلالةٌ أخلاقيَّةٌ مصاحبةٌ .

هذا أمر ، والأمر الآخر ـ وهو الأهمُّ ـ أنَّ الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله ، وليست للبشر ، ولا لأحدٍ غير الله ؛ فالصِّدق لله ، والوفاء بالعهد للهِ ، واتِّقاء المحرَّمات في علاقات الجنس لله ، والعفو ، والصَّفح لله ، والانتصار من الظُّلم لله ، وإتقان العمل لله ، كلُّها عبادةٌ لله ، تُقدَّمُ لله وحدَه؛ خشيةً لله ، وتقوى ، وتطلُّعاً إلى رضاه ، إنَّها ليست صفقةً بشريَّةً للكسب ، والخسارة ، إنَّما هي صفقةٌ تُعقد مع الله[3] .

قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ، للقرضاوي ، ص ٢٥٦ .
(٢) انظر : الوسطية في القرآن ، ص ٥٩٢ .
(٣) انظر : دراساتٌ قرآنية ، ص ١٣٩ .

بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]. ذلك هو الميثاق الأخلاقيُّ الشَّامل الَّذي التزم به الصَّحابة ، ومَنْ سار على هديهم؛ اتِّباعاً لصراط الله المستقيم ، فهو ـ إذاً ـ من العقيدة مرتبطٌ بها ارتباطاً أساسياً ، لا ينفصل عنها بحالٍ.

إنَّ الأعمال الخلقيَّة تدخل في جميع الجوانب ، ويرتقي بها الوحي الإلهيُّ إلى ذروةٍ متفرِّدة حين يجعلها ديناً ، وعبادةً ومحلاً لثواب الله تعالى ، أو عقابه الأليم عند المخالفة(١) ، وإذا تأمَّلنا في الآيات السَّابقة من سورة الأنعام ، نجدها قد اشتملت على العناية بالضَّروريات الخمس ، وهي: «ما لابدَّ منها في قيام مصالح الدِّين ، والدُّنيا؛ حيث إنَّها إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدُّنيا على استقامةٍ ، بل على فسادٍ ، وتهارجٍ وفوت حياةٍ ، وفي الأخرى فوت النَّجاة والنَّعيم ، والرُّجوع بالخسران المبين»(٢) إنَّ دعوة النَّبيِّ ﷺ من أهدافها إرجاع النَّاس إلى مقاصد الشَّريعة ، والَّتي من ضمنها المحافظة على الضَّروريات الخمس ، فقد اشتملت الآيات الكريمة السَّابقة على العناية بالضَّروريات ، وهي:

أ ـ حفظ الدِّين: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لأنَّه لا يستقيم دينٌ مع الشِّرك بالله تعالى ، فأمَرَ سبحانه عباده أن يوحِّدوه بالعبادة ، وأن يتَّبعوا صراطه المستقيم ، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، ونهاهم عن اتِّباع سُبُل الشيطان؛ فإنَّها غيٌّ وضلالٌ ، وفي سلوكها إعراضٌ عن دين الحقِّ ، واتِّباعٌ لأهواء النفوس ، ووسواس الشَّيطان(٣) ، وقد قام النَّبيُّ ﷺ بالمحافظة على الدِّين من خلال العمل به ، والجهاد من أجله ، والدَّعوة إليه ، والحكم به ، وردِّ كلِّ ما يخالفه(٤).

ب ـ حفظ النَّفس: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وقد وضعت الشَّريعة الوسائلَ الكفيلةَ ـ بإذن الله ـ بحفظ النَّفس

---

(١) انظر: الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٥٩٤.
(٢) الموافقات ، للشَّاطبي (٢/٨).
(٣) مقاصد الشَّريعة ، د. محمد اليوبي ، ص ١٨٨.
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤.

من التَّعدِّي عليها ، ومن هذه الوسائل[١] : تحريمُ الاعتداء عليها ، وسدُّ الذَّرائع المؤدِّية إلى القتل ، كالقِصاص ، وضرورةُ إقامة البيِّنة في قتل النَّفس ، وضمان النَّفس ، وتأخير تنفيذ القِصاص ؛ بحيث إذا خشيَ مِنْ قَتْلِ غير القاتل ؛ وجب عليه العفو ، وكذلك إباحة المحظورات حالَ الضَّرورة[٢] .

ج ـ حفظ النَّسل : في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ومن أعظم الفواحش الزِّنى ؛ الَّذي وصفه الله تعالى في آيةٍ أخرى بأنَّه فاحشةٌ ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] .

إنَّ حفظ النَّسل من الركائز الأساسية في الحياة ، ومن أسباب عمارة الأرض ، وفيه تكمن قوَّة الأمَّة ، وبه تكون مرهوبة الجانب ، عزيزة القدر ، تحمي دينها ، وتحفظ نفسها ، وتصون عرضها ، ومالها ؛ ولذلك عُنِيَت الشَّريعة بحماية النَّسل ، ومنع كلِّ ما من شأنه أن يقف في طريق سلامته ، ووضعت ضوابط ، وأصولاً شرعيَّةً مهمَّةً في هذا الباب[٣] .

د ـ حفظ المال : في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وقوله : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ . ومن وسائل حفظ المال في الشَّريعة : تحريم الاعتداء عليه ، وتحريم إضاعة المال ، وما شُرِعَ من الحدود في العهد المدنيِّ ؛ كحدِّ السَّرقة ، وحدِّ الحرابة ، وضمان المتلفات ، ومشروعيَّة الدِّفاع عن المال ، وتوثيق الدُّيون والإشهاد عليها ، وتعريف اللُّقَطَة ، وما يتبعه[٤] .

هـ ـ حفظ العقل : وأمَّا حفظ العقل ، فمطلوب أيضاً ؛ لأنَّ التَّكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله ، ولا يقوم بها فاسد العقل ، وفي قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إشارةٌ إلى ذلك ، والله أعلم[٥] ، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما من شأنه إفساد العقل ، وإدخال الخَلل عليه[٦] .

وهكذا القرآن الكريم يعلم ، ويربِّي الصَّحابة على العقائد ، والعبادة ، والأخلاق ، ومقاصد الشَّريعة في وقتٍ واحدٍ ، إنَّ الأخلاق الرَّبَّانيَّة تصدر من القرآن الكريم بتقرير التَّوحيد ، والعبودية لله تعالى ، وهذا بدوره تأكيدٌ أساسيٌّ على حقائق وأصول هذا المنهج القرآنيِّ ، الَّتي تتبع جميعها هذا المدخل التَّأسيسي ، وبذلك يتقرَّر :

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٧) .
(٢) مقاصد الشَّريعة ، ص ٢١٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٧ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٩ .
(٦) مقاصد الشريعة ، ص٢٣٦ .

١ ـ أنَّ الله تعالى هو وحده مصدر الشَّرائع جميعاً ، وهو شارع القيم ، والمعايير الأخلاقية ؛ الَّتي تنسجم مع الفطرة ، وتوافق العقل السَّليم .

٢ ـ أنَّ الأخلاق دينٌ ملتزمٌ به ، بل هي أصلٌ من أصول المنهج الرَّبانيِّ ، وليست مجرَّد فضائل فرديَّةٍ ، أو آدابٍ اجتماعيَّةٍ ، أو أذواقٍ حضاريَّةٍ .

٣ ـ أنَّ الأخلاق قيمٌ أساسيَّة في حياة البشر ، ينبغي أن تحظى بالثَّبات والاستقرار ، وبالتَّالي يمنع الطَّواغيت من التلاعب بها ، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء(١) .

وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذَّة ، الَّتي تعطي أسمى التَّوجيهات في باب الفضائل ، والآداب الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، ففي سورة الإسراء جاءت آياتٌ كريمةٌ هي من أجمع الآيات ؛ للحثِّ على الخُلُق المحمود ، والتَّنفير من الخُلق المذموم .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ
أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ
ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ
لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ
إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ
قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ
مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ
وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ
أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ
كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨] .

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل التَّوحيد ـ أي : إفراد الله بالعبادة ـ على رأس هذا المنهج الخُلقيِّ ؛ الَّذي رسمته الآيات مدحاً ، وذماً ؛ لأنَّ التَّوحيد له في الحقيقة جانبٌ أخلاقي أصيل ؛ إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل ، والإنصاف ، والصِّدق مع النَّفس ، كما أنَّ الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأوَّل ، مثل الكِبْر ، عن قبول الحقِّ ، والاستكبار عن اتِّباع الرُّسل غروراً ، وأنَفَةً ، أو الولوع بالمِراء والجدل بالباطل

(١) انظر : المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع ، لعبد الستار فتح الله سعيد ، (ص ٤٢٥ ـ ٤٣٣) .

مغالبةً ، وتطلُّعاً للظُّهور ، أو تقليداً وجموداً على الإلف ، والعرف مع ضلاله وبهتانه ، وكلُّها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تُهلك أصحابها ، وتصدُّهم عن الحقِّ بعدما تبيَّن ، وعن سعادة الدَّارين ، مع استيقان أنفسهم بأنَّ طريق الرُّسل هو السَّبيل إليها .

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطاً خُلُقيَّةً متعدِّدة الجوانب في شؤون الأسرة ؛ مثل برِّ الوالدين ، وما جاء فيه من وصايا غايةً في السُّموِّ ، والإحسان ، والوفاء بالجميل ، ومثل برِّ الأقارب ، والضعفاء ، وفي شؤون المال ، والإنفاق بالنَّهي عن التبذير ، والأمر بالاعتدال بين الشُّحِّ المُطْبق ، والبسط المستغرق ، وقد نفَّر الله تعالى من التَّبذير بإضافته إلى شرِّ الخلق: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]. ونفَّر من الحرص ، والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثالٍ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ .

وتأمر الآيات الكريمة بخلقٍ جميلٍ غايةً في السُّموِّ ، وهو الحرص على الكلمة الطَّيبة ، إذا لم يجد الإنسان من المال ما يَسَعُ به النَّاس: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ وهي وصيَّـةٌ ذات أثرٍ بالغ في إحسان العلائق بين النَّاس ، بل ربَّما فضَّلوها على العطاء المادِّيِّ؛ خاصَّةً إذا اقترن بالمنِّ ، والأذى ، ثمَّ تتحدَّث الآيات عن سوء الخلق بالبغي والاستطاعة ، وقساوة القلب ، وجفافه من الرَّحمة ، وجمود العاطفة الكريمة ، ويتمثَّل ذلك في مظهره الجنائيِّ ، وهو القتل ، وخاصَّةً قتل الابنة الصَّغيرة .

نعم ، القتل جريمةٌ جنائيَّةٌ تسلك في قانون العقوبات القصاصيَّة ، ولكنَّها هنا تُعالَج من زاويتها الأخلاقيَّة؛ التي تستهدف الوقاية ، وتعمل على تغيير الإرادة ، وتوجيهها وجهةً صالحةً لتحريم الفعل ، وتجريمه ، وإصلاح عقيدة صاحبه: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ ، وبهدم القيم الاجتماعيَّة الجائرة الَّتي صنعت هذا المنكر ، وسوَّغته بلا نكيرٍ ، وتنهى الآيات عن الزِّنى ، وهو بالمقياس نفسه جريمةٌ خلقيَّةٌ أساسها البغي ، والاستطالة على الأعراض ، والحرمات ، وإهدار العفاف ، والشَّرف ، والاستهانة بكلِّ كريمٍ من القيم الإنسانيَّة العليا ، وتأمر الآيات ، وتنهى عن أمورٍ مردُّها إلى خلق الأمانة أو الخيانة ، والجدِّ أو العبث ، والتَّواضع العزيز أو الكبر ، والغرور؛ فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتَّى يبلغ أشدَّه ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والخيانة أضدادها ، ومن الجدِّ اشتغال الإنسان بما ينفعه ، وعدم تتبُّعه ما ليس به شأنٌ ، ولا علمٌ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

والعبث كلُّ العبث اشتغال الإنسان بما نُهِيَ عنه ، ومن التَّواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده ، ومعرفتُه قدر نفسه ، فيضعها في مواضعها الصَّحيحة ، ومن الكبر والغرور ذلك

التَّطاول المبنيُّ على الجهل ، والطيش ، والحماقة : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

ولأنَّ هذه الوصايا جامعةٌ لك ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء: ٣٩] .

فسمَّاها حكمةً ، وختمها بالدَّعوة إلى التوحيد ، والنَّهي عن الشِّرك كما بدأها ؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى مِفْتَاحُ كلِّ خيرٍ ، وحافظُه ، وحارسُه ، والكفر به مفتاحُ كلِّ شرٍّ وباعثُه(١) .

هكذا كانت تربية القرآن الكريم للصَّف المؤمن ، فقد كانت قائمةً على التخلُّق بمحاسن الأخلاق ، ونَبْذِ سيِّئها .

خامساً : تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآنيِّ :

إنَّ القصص القرآنيَّ غنيٌّ بالمواعظ ، والحكم ، والأصول العقديَّة ، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة ، والأساليب التَّربويَّة ، والاعتبار بالأمم والشُّعوب ، والقصص القرآنيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين ، وإنَّما هو أعلى ، وأشرف ، وأفضل من ذلك ، فالقصص القرآنيُّ مليءٌ بالتَّوحيد ، والعلم ، ومكارم الأخلاق ، والحجج العقليَّة ، والتَّبصرة ، والتَّذكرة ، والمحاورات العجيبة .

وأضرب لك مثلاً من قصَّة يوسف عليه السلام ، متأمِّلاً في جانب الأخلاق الَّتي عُرضت في مشاهدها الرَّائعة ، قال علماء الأخلاق ، والحكماء : «لا ينتظم أمر الأمَّة إلا بمصلحين ، ورجال أعمالٍ قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروطٌ معلومةٌ ، وأخلاقٌ معهودةٌ ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً ؛ فله أربعون خَصْلَةً ذكروها ، كلُّها آدابٌ ، وفضائل بها يسوسُ أمتَه ، وإن كان رئيساً فاضلاً ، اكتفوا من الشُّروط الأربعين ببعضها ، وسيِّدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين ، وجمال النَّبيِّين ، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدياً لاختيار الأكفاء في مهامِّ الأعمال ؛ إذ قد حاز الملك ، والنبوة! ونحن لا قِبَل لنا بالنُّبوة لانقطاعها ، وإنَّما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها اثنتي عَشْرَةَ خَصْلَةً هي أهمُّ خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكَّر في القرآن ، وتنبيهاً للمتعلِّمين السَّاعين للفضائل»(٢) .

أهمُّ ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة :

١ ـ العفَّة عن الشَّهوات ؛ ليضبط نفسه ، وتتوافر قوَّته النَّفسيَّة : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ

---

(١) انظر : المنهاج القرآنيُّ للتَّشريع ، ص ٤٣٣ .

(٢) انظر : تفسير القاسمي (٩/ ٣١٠) .

وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٢ ـ الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

٣ ـ وضع اللِّين في موضعه، والشِّدَّة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩ ـ ٦٠] فبداية الآية لينٌ، ونهايتها شدَّةٌ.

٤ ـ ثقته بنفسه بالاعتماد على ربِّه: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥ ـ قوَّة الذَّاكرة ليمكنه تذكر ما غاب، ومضى له سنون؛ ليضبط السِّياسات، ويعرف للنَّاس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

٦ ـ جودة المصوِّرَة والقوَّة المخيِّلة؛ حتَّى تأتي بالأشياء تامَّة الوضوح: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧ ـ استعداده للعلم، وحبُّه له، وتمكُّنه منه: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، و﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٨ ـ شفقته على الضُّعفاء، وتواضعه مع جلال قدره، وعلوِّ منصبه، فقد خاطب الفتيين المسجونين بالتَّواضع، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وحادثهما في أمور دينهما، ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧]، و﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، وشَهِدَا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

٩ ـ العفو عند المقدرة: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١٠ ـ إكرام العشيرة: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

١١ ـ قوَّة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا المَلِك واقتداره على الأخذ بأفئدة الرَّاعي والرَّعيَّة والسُّوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنيَّة على الحكمة ، والعلم : ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف : ٥٤] .

١٢ ـ حسن التَّدبير : ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ [يوسف : ٤٧] تالله! ما أجملَ القرآنَ! وما أبهج العلم!

لاشكَّ أنَّ العلاقة بين القصص القرآنيِّ والأخلاق متينةٌ؛ لأنَّ من أهداف القصص القرآنيِّ التذكير بالأخلاق الرَّفيعة؛ الَّتي تفيد الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، والدَّولة ، والأمَّة ، والحضارة ، كما أنَّ من أهداف القصص القرآنيِّ التنفير من الأخلاق الذَّميمة؛ الَّتي تكون سبباً في هلاك الأمم والشُّعوب ، ولقد استفاد الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ ﷺ لهم ، ومن المنهج الَّذي سار عليه ، فهذا جزءٌ من الأخلاق القرآنيَّة النَّبويَّة أردت به التمثيل وليس الاستقصاء ، وفي سنَّة رسول الله ﷺ وهديه مزيدٌ من التَّفصيل والبيان ، وإنَّ المنهج النَّبويَّ القرآنيَّ الرَّبانيَّ في الأخلاق نمطٌ فريدٌ ، وعجيبٌ ، ليس له مقاربٌ ، ولا نظيرٌ؛ لأنه من ربِّ العالمين ، وقد تفرَّد بأمورٍ وخصائص ، زاد من قوَّتها واكتمالها وجودُها مجتمعةً على هذا الوجه المُحْكَم ، ومنها :

١ ـ وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرَّبانيِّ متمثِّلاً في الكتاب والسُّنَّة ، وقد حدَّدا ما يُحْمَدُ ، أو يُذمُّ .

٢ ـ وجود ما يضبط السُّلوك ويبعث على العلم ، وهو رجاء الله والدَّار الآخرة .

٣ ـ وجود القدوة العمليَّة، وهي من أسس التَّربية الخلقيَّة ، وقد تمثَّل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله ﷺ(١) ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم : ٤] .

لقد أولى المنهاج النبويُّ الكريم ـ المستمدُّ من كتاب ربِّ العالمين ـ الأخلاق أهمِّيَّةً كبيرةً ، وحثَّ على التمسُّك بفضائلها بمختلف الأساليب ، وحذَّر من ارتكاب مرذولها بشتَّى الطُّرق ، ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقةٌ من نظرته إلى الكون والحياة ، والإنسان ، فإذا كانت العقائد تشكِّل أركان الصَّرح الإسلاميِّ؛ فإنَّ التَّشريعات تكوِّن تقسيمات حُجراته ، وممرَّاته ، ومداخله ، والأخلاق تُضفي البهاء ، والرَّونق ، والجمال على الصَّرح المكتمل ، وتصبغه الصِّبغة الربَّانيَّة المتميِّزة ، وإذا كانت العقيدة الإسلاميَّة تشكِّل جذور الدَّوحة الإسلاميَّة ، وجذعها ، فإنَّ الشَّريعة تمثِّل أغصانها ، وتشعُّباتها ، والأخلاق تكوِّن ثمارها اليانعة ، وظلالها الوارفة ، ومنظرها البهيج النَّضِر(٢) .

---

(١) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، ص ٦٠٣ .

(٢) انظر : المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع ، ص ٤٢٥ .

لقد استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة ، والالتزام في تربيته للصَّحابة ؛ لكي يحوَّل الخلق من دائرة النَّظريات ، إلى صميم الواقع التَّنفيذيِّ ، والعمل التَّطبيقيِّ ، سواءٌ كانت اعتقاديَّةً ، كمراقبة الله تعالى ، ورجاء الآخرة ، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر ، وصقل الإرادات ، وتزكية النَّفس ، ومع تطوُّر الدَّعوة الإسلاميَّة ، ووصولها إلى الدَّولة أصبحت هناك حوافز إلزاميَّةٌ تأتي من خارج النفس ، متمثلةً في :

أ ـ التَّشريع :

الَّذي وُضع لحماية القيم الخلقيَّة ، كشرائع الحدود ، والقِصاص ؛ الَّتي تحمي الفرد ، والمجتمع من رذائل البغي على الغير : (بالقتل ، أو السَّرقة) ، أو انتهاك الأعراض : (بالزِّنى والقذف) أو البغي على النَّفس ، وإهدار العقل : (بالخمر ، والمسكرات المختلفة) .

ب ـ سلطة المجتمع :

الَّتي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والتَّناصح بين المؤمنين ، ومسؤوليَّة بعضهم على بعض ، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤوليَّة قرينة الزَّكاة ، والصَّلاة ، وطاعة الله ورسوله ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٧١] .

بل جعلها المقوِّم الأصليَّ لخيريَّة هذه الأمَّة : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وقد ظهرت هذه السُّلطة ، وأثرها في الفترة المدنيَّة :

ج ـ سلطة الدَّولة :

الَّتي وجب قيامها ، وأقيمت على أسس أخلاقيَّةٍ وطيدةٍ ، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق ، وبثِّها في سائر أفرادها ومؤسَّساتها ، وتجعلها من مهامِّ وجودها ومبرراته(١) .

وبذلك اجتمع للخلق الإسلاميِّ أطراف الكمال كلِّه ، وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي ، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني .

هذه بعض الخطوط في البناء العقائديِّ والرُّوحيِّ والأخلاقيِّ في الفترة المكِّيَّة ، ولقد آتت هذه التَّربية أُكُلَها ، فقد كان ما يزيد على العشرين من الصَّحابة الكرام من الخمسين الأوائل

---

(١) المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع ، ص ٤٣٣ .

السَّابقين إلى الإسلام ، يمارسون مسؤولياتٍ قياديَّةً بعد توسع الدَّعوة ، وانطلاقها في عهد النَّبيِّ ﷺ وبعد وفاته ، وأصبحوا القادة الكبار للأمَّة ، وعشرون آخرون معظمهم استشهدوا ، أو ماتوا على عهد رسول الله ﷺ ؛ فكان في الرَّعيل الأول أعظم شخصيات الأمَّة على الإطلاق ، كان فيه تسعةٌ من العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، وهم أفضل الأمَّة بعد رسول الله ﷺ ، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة ، كعمَّار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعودٍ ، وأبي ذرٍّ ، وجعفر بن أبي طالب ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان من هذا الرَّعيل أعظم نساء الأمَّة خديجة رضي الله عنها ، ونماذج عاليةٌ أخرى ، مثل أمِّ الفضل بنت الحارث ، وأسماء ذات النِّطاقين ، وأسماء بنت عُمَيس ، وغيرهنَّ.

لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة ، والرُّوحيَّة ، والعقليَّة ، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ ﷺ ، فكانوا هم حداة الرَّكب ، وهداةُ الأمَّة[1] ، فقد كان رسولُ الله ﷺ يزكِّيهم ، ويربِّيهم وينقِّيهم من أوضار الجاهليَّة ، فإذا كان السَّعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله ﷺ ولو مرَّةً واحدةً في حياته ، وآمن به ، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له ، ويتلقَّى منه ، ويعبق من نوره ، ويتغذَّى من كلامه ، ويتربَّى على عينه[2]؟!!

* * *

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة ، للغضبان ، (١/ ٢٠١).
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣).

الفصل الثَّالث
الجهر بالدَّعوة ، وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأوَّل
الجهر بالدَّعوة

بعد الإعداد العظيم الَّذي قام به النَّبيُّ ﷺ لتربية أصحابه ، وبناء الجماعة المسلمة المنظَّمة الأولى على أسسٍ عقديَّةٍ ، وتعبُّديَّةٍ ، وخلقيَّةٍ رفيعة المستوى حان موعدُ إعلان الدَّعوة ، بنزول قول الله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء : ٢١٤ ـ ٢١٦] .

فجمع قبيلته ﷺ ، وعشيرته ، ودعاهم علانيةً إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ ، وخوَّفهم من العذاب الشَّديد؛ إن عصوه ، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النَّار ، وبيَّن لهم مسؤولية كلِّ إنسانٍ عن نفسه(١) .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا ، فجعل ينادي : يا بني فِهْر! يا بني عَديٍّ ـ لبُطونِ قريش ـ حتَّى اجتمعوا ، فجعل الرَّجل إذا لم يستطعْ أن يَخرج ؛ أرسل رسولاً ؛ لينظر ما هو ، فجاء أبو لهبٍ ، وقريشٌ ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتُكم : أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا : نعم! ما جَرَّبْنا عليك إلا صِدقاً ، قال : فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبّاً لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾

[المسد : ١ ـ ٢] [البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨)] وفي روايةٍ : ناداهم بطناً بطناً ، ويقول لكلِّ بطن : «أنقذوا أنفسكم من النَّار . . . . » ، ثمَّ قال : «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار ، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأَبُلُّها بِبَلالِهَا» [البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤)] كان

(١) رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/ ٤٦) .

القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين ، فلمَّا رأوا محمَّداً ﷺ ، ـ وهو الصَّادق الأمين ـ قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر إلى ما وراءه ، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم إنصافهم ، وذكاؤهم إلى تصديقه ، فقالوا : نعم .

ولما تمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة ، وتحقَّقت شهادة المستمعين ؛ قال رسول الله ﷺ : «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبوَّة ، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة ، والعلوم الوهبيَّة ، وموعظةً ، وإنذاراً ، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات ، والنُّبوَّات ، فلم تكن طريقٌ أقصر من هذه الطَّريق ، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب ، فسكت القوم[١] ، ولكنَّ أبا لهب قال : تبّاً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبيُّ ﷺ قد وضع للأمَّة أسس الإعلام ؛ فقد اختار مكاناً عالياً ـ وهو الجبل ـ ليقف عليه ، وينادي على جميع النَّاس ، فيصل صوته إلى الجميع ، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسال في عصرنا الحديث ، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعيِّ ، ثمَّ اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصِّدق ، وبهذا يكون ﷺ قد علَّم رجال الإعلام والدَّعوة : أنَّ الاتصال بالنَّاس بهدف إعلامهم ، أو دعوتهم يجب أن يعتمد ـ وبصفةٍ أساسيَّةٍ ـ على الثِّقة التَّامَّة بين المرسِل ، والمستقبِل ، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة ، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه[٢] .

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرَّسول ﷺ دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين ؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة ، فبدء الدَّعوة بالعشيرة ، قد يعين على نصرته ، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثرٌ خاصٌّ ؛ لما لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ ، فَجَلبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابدَّ أن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقيَّة القبائل ؛ لأنَّ الإسلام ـ كما يتجلَّى من القرآن الكريم ـ اتَّخذ الدَّعوة في قريشٍ خطوةً أولى لتحقيق رسالته العالية»[٣] ، فقد جاءت الآيات المكِّيَّة تبيِّن عالمية الدَّعوة، قال تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ، وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨] .

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها ، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم ، وبلدانهم ، ويتبع النَّاس في أنديتهم ، ومجامعهم ، ومحافلهم ، وفي المواسم،

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، ص ١٣٨ .
(٢) انظر : الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٢١ .
(٣) انظر : دراسة في السيرة ، لعماد الدين خليل ، ص ٦٦ .

ومواقف الحجِّ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ، وعبدٍّ، وقويٍّ، وضعيفٍ، وغنيٍّ، وفقير[(١)]؛ حين نزول قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٧].

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ، والإعراض، والسُّخرية، والإيذاء، والتَّكذيب، والكيد المدبَّر المدروس، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّراع في كلِّ مكانٍ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسباً عظيماً للدَّعوة، ساهم فيه أشدُّ، وألدُّ أعدائها، ممَّن كان يشيع في القبائل قالة السُّوء عنها، فليس كلُّ الناس يسلِّمون بدعاوى زعماء الكفر، والشِّرك.

كانت الوسيلة الإعلاميَّة في ذلك العصر، تناقل النَّاس للأخبار مشافهةً، وسمع القاصي، والدَّاني بنبوَّة الرَّسول ﷺ، وصار هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في المجالس، ونوادي القبائل، وفي بيوت النَّاس[(٢)].

أهم اعتراضات المشركين:

كانت أهمُّ اعتراضات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النَّبيِّ ﷺ، والقرآن الكريم الذي أُنزل عليه من ربِّ العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والردّ عليها:

أولاً: الإشراك بالله:

لم يكن كفارُ مكَّةَ ينكرون: أنَّ الله خلقهم، وخلق كلَّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، لكنَّهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون: أنَّها تقرِّبهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ[(٣)] إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدَّعوة إلى التَّوحيد بأعظم إنكارٍ، وأشدِّ استغرابٍ[(٤)]. قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٤٨ ـ ٤٩).
(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ١٦٧.
(٣) زُلْفَى: قُربى.
(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٢).

لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[1] [ص: ٤ ـ ٧] ولم يكن تصوُّرهم لله تعالى، ولعلاقته بخلقه صحيحاً؛ إذ كانوا يزعمون: أنَّ لله تعالى صاحبةً من الجنِّ، وأنَّها ولدت الملائكة، وأنَّ الملائكة بناتُ الله!

كانت الآيات تنزل مُبيِّنةً: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الجنَّ، والملائكة، كما خلق الإنس، وأنَّه لم يتَّخذ ولداً، ولم تكن له صاحبةٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا[2] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١]، ومبينةً: أنَّ الجنَّ يُقرُّون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

ومُطالِبةً المشركين باتِّباع الحقِّ، وعدم القول بالظُّنون، والأوهام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٧ ـ ٢٨]، ومُوضِّحةً أنَّه لا يُعْقَلُ أن يَمْنَحَ اللهُ المشركين البنين، ويخصَّ نفسه بالبنات، وهنَّ أدنى قيمةً ـ في رأيهم ـ من البنين: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

ومُحمِّلةً المشركين مسؤوليَّة أقوالهم الَّتي لا تقوم على دليلٍ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

ثانياً: كفرهم بالآخرة:

أمَّا دعوة الرَّسول ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسُّخرية والتَّكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧ ـ ٨]؛ فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلَّظة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨ ـ ٣٩]، وكانوا يظنُّون أنَّه لا توجد حياةٌ في غير الدُّنيا، ويطلبون إحياء آبائهم؛ ليصدقوا بالآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

---

(١) احتجُّوا بما عليه النَّصارى من الشِّرك والتَّثليث.

(٢) اختلقوا.

يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤ ـ ٢٧].

وفاتَهُم: أنَّ الذي خلقهم أوَّل مرَّةٍ، قادرٌ على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد، وغيره: جاء أُبَيُّ بنُ خلف[١] إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتّته، ويذروه في الهواء؛ وهو يقول: يا محمد! أتزعم: أنَّ الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يميتك الله تعالى، ثمَّ يبعثك، ثمَّ يحشرك إلى النار»، ونزلت هذه الآيات[٢]:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩] [الدر المنثور (٧/ ٧٥ ـ ٧٦)].

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع النَّاس بالبعث تعتمد على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكَّر الله عباده: أنَّ حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء، والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرُّسل، وأنزل الكتب؛ لبيان الطَّريق الَّذي به يعبدونه، ويطيعونه، ويتبعون أمره، ويجتنبون نهيه، فمن العباد مَنْ رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى، وبغى، أفليس من العدل بعد ذلك أن يموت الطَّالح والصَّالح، ثمَّ يُجزي اللهُ المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٨].

إنَّ الملاحدة الَّذين ظلموا أنفسهم هم الَّذين يظنُّون: أنَّ الكون خُلِق عبثاً، وباطلاً، لا لحكمة، وأنَّه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح، والكافر المفسد، ولا بين التَّقيِّ والفاجر[٣]. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٨].

وضرب القرآن الكريم للنَّاس الأمثلة في إحياء الأرض بالنَّبات، وأنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

---

(١) وفي رواية عن ابن عباسٍ أنَّه العاص بن وائل.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨١).
(٣) المصدر السابق نفسه، (٢/ ١٢٤).

وذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه، أمثلةً من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدُّنيا، فأخبر النَّاسَ في كتابه عن أصحاب الكهف، بأنَّه ضُرب على آذانهم في الكهف ثلاثمئةٍ وتسع سنين، ثمَّ قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وغير ذلك من الأدلَّة والبراهين؛ التي استخدمها رسول الله ﷺ في مناظراته مع زعماء الكفر، والشِّرك.

ثالثاً: اعتراضهم على الرَّسول ﷺ:

اعترضوا على شخص الرَّسول ﷺ، فقد كانوا يتصوَّرون: أنَّ الرَّسول لا يكون بشراً مثلهم، وأنَّه ينبغي أن يكون مَلَكاً، أو مصحوباً بالملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩]، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة؛ لجعلناه على هيئة رجلٍ، حتَّى يمكنهم مخاطبته، والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالْتبس عليهم الأمر كما هم يلبِّسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[1]. وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطَّعام، ولا يمشي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]، وكأنَّهم لم يسمعوا بأنَّ الرُّسل جميعاً كانوا يأكلون، ويسعون، ويعملون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً[2] أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

ويريدون أن يكون الرَّسولُ كثيرَ المال، كبيراً في أعينهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ويقصدون بـ ﴿رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: الوليد بن المغيرة بمكَّة، أو عروة بن مسعود الثَّقفي بالطَّائف[3].

---

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم، ص ٤٠٢.
(٢) اختبرنا بعضكم ببعض.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

ونسبوا الرَّسول ﷺ إلى الجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٧]، ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣ ـ ١٤].

وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

كما نسبوه إلى الكهانة، والشعر: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٩ ـ ٣٠].

هذا مع أنَّهم كانوا يعلمون: أنَّه لا يَنْظِمُ الشِّعر، وأنَّه راجح العقل، وأنَّ ما يقوله بعيدٌ عن سجع الكُهَّان، وقول السَّحرة[١].

ونسبوه ﷺ إلى السِّحر، والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨].

وكانت الآيات تتنزَّلُ على رسول الله ﷺ تفنِّد مزاعم المشركين، وتبيِّن له أنَّ الرُّسل السَّابقين استهزئ بهم، وأنَّ العذاب عاقبة المستهزئين: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وتُعلِّمُهُ أنَّ المشركين لا يُكذِّبون شخصه، ولكنَّهم يعاندون الحقَّ، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل[٢]: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

رابعاً: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدِّقوا: أنَّ القرآن الكريم منزلٌ من عند الله، واعتبروه ضرباً من الشِّعر، الَّذي كان ينظمه الشُّعراء، مع أنَّ كلَّ من قارن بين القرآن، وأشعار العرب يعلم أنَّه مختلفٌ عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠] وكيف يكون القرآن شعراً وقد نزل فيه ذمٌّ للشعراء الَّذين يُضِلُّون النَّاس ويقولون خلاف الحقيقة؟![٣] قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[٤] ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ[٥]﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]؛ فهو كلام الله المنزل

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٧).
(٢) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٨).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ٥٩).
(٤) يعني: الضَّالُّون.
(٥) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٥٩).

على رسوله ﷺ وليس شبيهاً بقول الشعراء، ولا بقول الكهّان: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣].

وقد أدرك الشُّعراء قبل غيرهم: أنَّ القرآن الكريم ليس شعراً[١]، ومن فرط تكذيبهم، وعنادهم قالوا: إنَّ محمَّداً يتعلَّم القرآن من رجلٍ أعجميٍّ[٢]، كان غلاماً لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصَّفا، وربَّما كان الرسول ﷺ يجلس إليه، ويكلِّمه بعض الشيء، وذاك كان أعجميَّ اللِّسان لا يعرف من العربيَّة إلا اليسير، بقدر ما يردُّ جواب الخطاب فيما لابدَّ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] أي: فكيف يتعلَّم مَنْ جاء بهذا القرآن في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التَّامَّة الشَّاملة من رجلٍ أعجميٍّ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكةٍ من العقل[٣].

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملةً واحدةً، مع أنَّ نزوله مفرَّقاً أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به، وتيسير فهمه، وحفظه، وامتثاله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

فلمَّا اعترض المشركون على القرآن، وعلى من أُنزل عليه بهذه الاعتراضات؛ تحدَّاهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنس والجنِّ مجتمعين عن ذلك: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سورٍ مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وحتَّى السُّورة الواحدة هم عاجزون عن أن يأتوا بمثلها: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧ ـ ٣٨].

فعجزُهم ـ مع أنَّ الفصاحة كانت من سجاياهم، وكانت أشعارهم ومعلَّقاتهم في قمَّة البيان ـ

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٣/ ٥٩).
(٢) انظر: تهذيب السِّيرة (١/ ٧٤، ٩٠).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٦).

دليلٌ على أنَّ القرآن كلام الله الَّذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين(١).

خامساً: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ:

تحدَّث بعض الباحثين(٢) عن دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ، فذكروا منها:

١ ـ ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

كان العرب الَّذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ بعيدين عن الدِّيانات السَّماويَّة، فلم يكونوا يدينون بدينٍ؛ ولم ينشغلوا بدراسة كتابٍ سماويٍّ ـ كما كانت تفعل اليهود، والنَّصارى ـ ولهذا احتجَّ الله عليهم ببعثة محمَّدٍ ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وكان لتغلغل المعتقدات الوثنيَّة في حياتهم، وعقولهم، وسيطرتها على تفكيرهم أثرٌ عظيم في تصلُّبهم أمام الحقِّ، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته، هذا فضلاً عن أنَّ طبيعة النَّفس البشريَّة حين لا تدين بدينٍ سماويٍّ، فإنَّها تبتعد عن التجرُّد والصَّفاء العقديِّ، وتميل إلى التَّجسيم المادِّيِّ الحسِّيِّ، ولذلك أقدم عُبَّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم، وأبنائهم دونها، وهم يشاهدون مصارع إخوانهم، وما حلَّ بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبّاً لها، وتعظيماً، ويوصي بعضهم بعضاً بالصَّبر عليها، وتحمُّل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها، وهم يسمعون أخبار الأمم الَّتي فُتنت بعبادتها، وما حلَّ بهم من عاجل العقوبات(٣).

٢ ـ العصبيَّة لتراث الآباء، والأجداد:

كان أكبر طاغوتٍ تحارَب به دعوات الرُّسل والأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ هو طاغوت التَّقليد، والعادة المتبعة، وهي من أكبر العوامل في الصَّدِّ عن دين الله، ومن الصَّعب على الإنسان الخروج من مألوفاته، وإنَّ ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها؛ إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها، وقد أشار القرآن الكريم إلى مرض تقليد الآباء في الباطل في الأمم السَّابقة(٤)؛ فهذا

---

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٦٦).
(٢) مثل: سلمان العودة، ومحمد العبدة، وعبد الرحمن الملاَّحي.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٢/ ٢٢٥).
(٤) انظر: الطريق إلى المدينة، لمحمد العبدة، ص ٤٣.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه قائلاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٤].

وهذا المنهج هو دأب المشركين، والمعارضين لدين الله على مرِّ الأجيال، وإذا استنكر عليهم الدُّعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشَّهوات، وانهماكهم في الفواحش، وساءلوهم عن ذلك، قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ما ذلك إلا لفقدان الدَّليل، وانقطاع الحجَّة؛ إذ إنَّهم لا يعتمدون على عقلٍ يرشدهم، ولا كتابٍ يؤيِّدهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠ ـ ٢١].

وإنَّما أوقع الكفارَ في هذا التَّقليد المنحرف استدراجُ الشَّيطان لهم من خلال فطرة مركوزةٍ في الإنسان أصلاً، تدعوه إلى الوفاء للآباء، والأجداد، وتربطه بتاريخه وتراثه، وهذا من أعظم وسائل الشيطان في الكيد: أن يأتي الإنسانَ من قبل غريزةٍ مطبوعةٍ فيه؛ من حبِّ الشَّهوة، والوطن، والمال، وغيرها، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسْلِمُ، وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك؟ فعصاه، فأسلم، ثمَّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر، وتدع أرضك، وسماءك؟! وإنَّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل![1] فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد؟! فهو جهد النَّفس، والمال، فتقاتل، فتقتل، فتُنكح المرأة! ويُقسم المال! فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة، ومن قتل كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة، وإن غرق كان حقّاً على الله أن يدخله الجنَّة، أو وَقَصَتْهُ[2] دابته كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة» [النسائي (٦/ ٢١ ـ ٢٢) وأحمد (٣/ ٤٨٣) وابن حبان (٤٥٩٣)].

فلما بُعث النبيُّ ﷺ، كان من التُّهم الَّتي وُجِّهت إليه: أنَّه كان يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه

(١) الطِّوَل: هو الحبل.
(٢) أي: سقط عنها، فاندقَّت عنقه، فمات.

الآباء والأجداد، وبذلك نفَّروا منه العامَّة والدَّهماء، وفرضوا على الدَّعوة نوعاً من الحصار المؤقت[١].

٣ ـ موقف أهل الكتاب المساند للوثنيّة:

كانت بيئة العرب الوثنيّة مستعدَّةً لمواجهة دعوة التَّوحيد، ومحاربتها، ووجدت في موقف أهل الكتاب الرَّافض للدَّعوة مستنداً قويّاً لهذه المعارضة، فهاهم أهل التَّوراة، والإنجيل، وورثة الكتب السَّماوية، ينكرون دعوة محمَّد ﷺ، ويردُّونها، ويكذِّبونها، وهم أدرى منَّا بالدِّين، وهذا كان مصدر دعمٍ، وتقويةٍ، وتثبيتٍ لموقف المشركين: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ [صٓ: ٦ ـ ٧].

فمن عوامل الصَّبر على الآلهة في مواجهة الدَّعوة الجديدة: أنهم لم يسمعوا بما جاء به ﷺ في الملَّة الآخرة، وهي النَّصرانيَّة، قاله ابن عباس، والسُّدِّيُّ، ومحمَّد بن كعب القرظيُّ، وقتادة، ومجاهد[٢]، وهذا مبنيٌّ على شهادة أهل الكتاب للمشركين ضدَّ الرَّسول ﷺ، وإلا فما كان للعرب من علمٍ بالكتب السَّماوية، وما فيهامن الحقائق والأخبار[٣].

٤ ـ سيطرة الأعراف، والعوائد القبليّة:

كان الصِّراع القبليُّ، والتَّنافس على الرِّياسة، والشَّرف، والسُّؤدد، ذا جذورٍ في الأعراف، والعوائد القبليَّة، ولذلك تجد المعارضين للدَّعوة المنتسبين للبطن الَّذي ينتسب إليه الرَّسول ﷺ، يحتجُّون على رسول الله ﷺ بأنَّه ليس شيخاً ذا رياسةٍ، وتقدُّمٍ فيهم، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الإسلام خوفاً على مناصبهم، ومكانتهم، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظاً على مراكز قبائلهم، وتكبُّراً على اتِّباع فردٍ من قبيلةٍ أخرى، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «إنَّ أوَّل يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ، كنت أنا، وأبو جهل بن هشام في بعض أزقَّة مكَّة؛ إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم! هَلُمَّ إلى الله، وإلى رسوله، إنِّي أدعوك إلى الله، فقال أبو جهل: يا محمد! هل أنت مُنتهٍ عن سبِّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله! لو أنِّي أعلم أنَّ ما تقول حقاً ما تبعتك! فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ، فقال: والله! إنِّي لأعلم أنَّ ما يقوله حقٌّ، ولكن بني قصيٍّ قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا النَّدوة، قلنا: نعم، قالوا: فينا اللِّواء، قلنا: نعم، قالوا: فينا السِّقاية، قلنا: نعم. ثم أطعموا، وأطعمنا

---

(١) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ٨٣.
(٢) تفسير الطَّبريِّ (٢٣/١٢٦)، والدرُّ المنثور (٧/١٤٦).
(٣) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ٨٦.

حتَّى إذا تحاكَّت الرُّكب؛ قالوا: منا نبيٌّ! فلا والله لا أفعل» [البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧)].

٥ ـ حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب:

فقد كانوا يريدون أن تبقى لهم منزلتهم المرموقة، وأمجادهم العريقة، ويريدون أن تبقى لمكَّة قداستها عند القبائل العربيَّة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الإسلام سيسلبها هذه الميزة، ويجعل العرب يغزونها، ويمتنعون عن جلب الرِّزق إلى أسواقها، وينسون: أنَّ الله هو المُنعم عليهم بالأمن والرِّزق[1]: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

إنَّ قريشاً كانت تظنُّ: أن العرب الَّذين يقدِّسون الأصنام، عندما يعلمون: أنَّ قريشاً ستعتنق ديناً جديداً، وستترك دين آبائهم؛ فإنَّهم سينقضُّون عليها، ويتخطَّفون أهلها؛ جزاءَ ما فعلوا، بل ويمتنعون عن جلب الرِّزق إليهم في مواسم الحجِّ، لكن هيهات! فإنَّ الله غالبٌ على أمره، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٩٦ ـ ١٠٦.

المبحث الثَّاني
سنَّة الابتلاء

الابتلاء ـ بصفةٍ عامَّةٍ ـ سنَّة الله في خلقه ، وهذا واضحٌ في تقريرات القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] ، وقال جلَّ شأنُهُ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] .

الابتلاء مرتبطٌ بالتَّمكين ارتباطاً وثيقاً ؛ فلقد جرت سنَّة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمَّةٍ إلا بعد أن تمرَّ بمراحل الاختبار المختلفة ، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطَّيِّب ، وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأمَّة الإسلاميَّة لا تتخلَّف ، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبلي المؤمنين ، ويختبرهم ؛ ليمحِّص إيمانهم ، ثمَّ يكون لهم التَّمكين في الأرض بعد ذلك ، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشَّافعيِّ رضي الله عنه حين سأله رجلٌ : أيُّهما أفضل للمرء ، أنْ يُمكَّن ، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشَّافعيُّ : لا يُمكَّن حتَّى يبتلى ، فإنَّ الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّداً ـ صلوات الله ، وسلامه عليهم أجمعين ـ فلمَّا صبروا مكَّنهم ؛ فلا يظنُّ أحدٌ أن يخلص من الألم ألبتَّة(١) .

وابتلاء المؤمنين قبل التَّمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التَّمحيص ؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكُّنٍ ورسوخ ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرَّحمة ، لا ابتلاء الغضب ، وابتلاء الاختيار ، لا مجرَّد الاختبار(٢) .

إنَّ طريق الابتلاء سنَّة الله في الدَّعوات ، كما أنَّه الطريق إلى الجنَّة ، وقد «حُفَّت الجنَّةُ بالْمكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات» [مسلم (٢٨٢٢) وأحمد (٣/١٥٣) والترمذي (٢٥٥٩)] .

حكمة الابتلاء ، وفوائده : للابتلاء حِكَمٌ كثيرة ؛ من أهمِّها :

١ ـ تصفية النُّفوس :

---

(١) الفوائد ، لابن القيِّم ، ص ٢٨٣ .

(٢) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السيد محمَّد يوسف ، ص ٢٣٥ .

جعل الله الابتلاء وسيلةً لتصفية نفوس النَّاس ، ومعرفة المؤمن الصَّادق من المنافق الكاذب ؛ وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرَّخاء ، لكن يتبيَّن في الشِّدَّة . قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت : ٢] .

٢ ـ تربية الجماعة المسلمة :

وفي هذا يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ : «ثمَّ إنَّه الطَّريق الَّذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة الَّتي تحمل هذه الدَّعوة ، وتنهض بتكاليفها ؛ طريق التربية لهذه الجماعة ، وإخراج مكنوناتها من الخير ، والقوَّة ، والاحتمال ، وهو طريق المزاولة العمليَّة للتَّكاليف ، والمعرفة الواقعيَّة لحقيقة النَّاس ، وحقيقة الحياة ؛ ذلك ليثبت على هذه الدَّعوة أصلبُ أصحابها عوداً ، فهؤلاء هم الَّذين يصلحون لحملها ـ إذاً ـ بالصَّبر عليها ، فهم عليها مؤتمنون»(١) .

٣ ـ الكشف عن خبايا النُّفوس :

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال : «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله ، مغيَّبٌ عن علم البشر ، فيحاسب النَّاس ـ إذاً ـ على ما يقع من عملهم ، لا على مجرَّد ما يعلمه سبحانه من أمرهم ، وهو فضلٌ من الله من جانبٍ ، وعدلٌ من جانبٍ ، وتربيةٌ للنَّاس من جانبٍ ، فلا يأخذون أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حقَّقه فعله ؛ فليسوا بأعلمَ من الله بحقيقة قلبه»(٢) .

٤ ـ الإعداد الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة :

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال : «وما بالله ـ حاشا للهِ ـ أن يعذِّب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة ، ولكنَّه الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة ، فهي في حاجةٍ إلى إعدادٍ خاصٍّ ، لا يتمُّ إلا بالمعاناة العمليَّة للمشاقِّ ، وإلا بالاستعلاء الحقيقيِّ على الشَّهوات ، وإلا بالصَّبر الحقيقيِّ على الآلام ، وإلا بالثِّقة الحقيقيَّة في نصر الله وثوابه ، على الرَّغم من طول الفتنة ، وشدَّة الابتلاء . والنَّفس تصهرها الشَّدائد ، فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة ، فتستيقظ وتتجمَّع ، وتطرقها بعنف وشدَّةٍ ، فيشتدُّ عودها ، ويصلب ويُصقل ، وكذلك تفعل الشَّدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً ، وأقواها طبيعةً ، وأشدُّها اتِّصالاً بالله ، وثقةً فيما عنده من الحُسْنَيَيْن : النَّصر أو الشَّهادة ، وهؤلاء هم الَّذي يُسلَّمون الرَّاية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»(٣) .

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٨٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (٦/ ٣٨٧) .

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٩) .

٥ ـ معرفة حقيقة النَّفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدَّعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة، والجهاد مزاولةً عمليَّةً واقعيَّةً، ويعرفوا حقيقة النَّفس البشريَّة وخباياها، حقيقة الجماعات، والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشَّهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشَّيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطَّريق ومسارب الضَّلال»[١].

٦ ـ معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي تعزَّ هذه الدَّعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من جهدٍ وبلاءٍ، وبقدر ما يضحُّون في سبيلها من عزيزٍ، وغالٍ، فلا يفرِّطون فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»[٢].

٧ ـ الدِّعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوةٌ صامتةٌ لهذا الدِّين، وهي الَّتي تُدخِل النَّاس في دين الله، ولو وهنوا، أو استكانوا؛ لمَا استجاب لهم أحدٌ، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ يأتيه أمر النَّبيِّ ﷺ أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم، وأذاهم، ويتابع طريقه؛ حتَّى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ[٣]، وسنرى ذلك في الصَّفحات القادمة، إن شاء الله.

٨ ـ جذب بعض العناصر القويَّة إليها:

أمام صمود المسلمين وتضحياتهم تتوق النُّفوس القويَّة إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصَّلابة الإيمانيَّة تكبر عند هذه الشَّخصيات الدَّعوة، وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردُّدٍ، وأعظم الشَّخصيات الَّتي يعتزُّ بها الإسلام دخلت إلى هذا الدِّين من خلال هذا الطريق[٤].

٩ ـ رفع المنزلة والدَّرجة عند الله، وتكفير السَّيِّئات:

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمنَ من شوكةٍ فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجةً، أو حَطَّ عنه بها خطيئةً» [البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢)]. فقد يكون للعبد درجةٌ عند الله تعالى لا يبلغها

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٢/ ١٨١).
(٢) المصدر السابق نفسه، (٢/ ١٨٠).
(٣) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ١٩٢، ١٩٣.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٣، ١٩٤.

بعمله، فيبتليه الله تعالى حتَّى يرفَعه إليها، كما أنَّ الابتلاء طريقٌ لتكفير سيِّئات المسلم[(١)].

كما أنَّ للابتلاء فوائدَ عظيمةً؛ منها: معرفة عزِّ الرُّبوبية، وقهرها، ومعرفة ذلِّ العبودية، وكسرها، والإخلاص، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتَّضرُّع، والدُّعاء، والحلم عمَّن صدرت عنه المصيبة، والعفو عن صاحبها، والصَّبر عليها، والفرح بها لأجل فوائدها، والشُّكر عليها، ورحمة أهل البلاء، ومساعدتهم على بلواهم، ومعرفة قدر نعمة العافية، والشُّكر عليها، وما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد، ومن أراد التوسُّع فليراجع كتاب فقه الابتلاء[(٢)].

وقد تعرَّض النَّبيُّ ﷺ وأصحابه لأشكالٍ وأنواعٍ، وأصنافٍ متعدِّدةٍ من الابتلاء، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله ﷺ، وتشويه الدَّعوة، وإيذائه ﷺ، وإيذاء أصحابه، وعرض المغريات، والمساومات لترك الدَّعوة، ومطالبته بجعل الصَّفا ذهباً، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله ﷺ، والدِّعاية الإعلاميَّة في المواسم ضدَّ الدَّعوة، وشخص الرَّسول ﷺ، والحصار الاقتصاديِّ الَّذي تعرَّض له رسول الله ﷺ، وبنو هاشم، وبنو المطَّلب من قِبَل كفار مكَّة، والإيذاء الجسديِّ، وغير ذلك من أنواع الابتلاء، وسنبين في الصَّفحات القادمة ـ بإذن الله تعالى ـ أساليب المشركين في محاربة الإسلام، وكيف تصدَّى لها رسولُ الله ﷺ وأصحابه، وكيف دفع رسول الله ﷺ قَدَرَ سنَّة الابتلاء، بسنَّة الأسباب، وكيف تعامل رسول الله ﷺ مع سنَّة الأخذ بالأسباب، حتَّى أقام دولة الإسلام في المدينة.

* * *

---

(١) انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٢٢٤، وانظر: فقه الابتلاء، لمحمَّد أبو صعيليك، ص ٨ إلى ١١.

(٢) انظر: فقه الابتلاء، لمحمَّد أبو صعيليك، ص ١٥ إلى ٢٨.

المبحث الثَّالث
أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة

أجمع المشركون على محاربة الدَّعوة الَّتي عرَّت واقعهم الجاهليَّ ، وعابت آلهتهم ، وسفَّهت أحلامهم ـ أي: آراءهم ، وأفكارهم ـ وتصوُّراتهم عن الله ، والحياة ، والإنسان ، والكون؛ فاتَّخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدَّعوة ، وإسكات صوتها ، أو تحجيمها ، وتحديد مجال انتشارها .

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة ، وحماية رسول الله ﷺ:

جاءت قريش إلى أبي طالب ، فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ، ومسجدنا؛ فانهه عنَّا ، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: إنَّ بني عمِّك هؤلاء زعموا: أنك تؤذيهم في ناديهم ، ومسجدهم ، فانْتَهِ عن أذاهم ، فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السَّماء ، فقال: «ترون هذه الشَّمس؟» قالوا: نعم! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعَلوا منها بشعلةٍ» وفي روايةٍ: «والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعَل أحدٌ من هذه الشَّمس شعلةً من نارٍ» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قطُّ ، فارجعوا راشدين» [البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١/ ٥١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٧)][1] ، وحاولت قريش مرَّاتٍ عديدةً الضَّغط على رسول الله ﷺ بواسطة عائلته ، ولكنَّها فشلت .

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه ، وتصميمه على مناصرته ، وعدم خذلانه ، فاشتدَّ ذلك على قريش غمّاً ، وحسداً ، ومكراً ، فمشوا إليه بعُمَارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له: «يا أبا طالب! هذا عُمَارةُ بنُ الوليد ، أنهدُ فتًى في قريشٍ ، وأجملُها ، فخذه ، فلك عَقْلُه[2] ونصرُه ، واتَّخذه ولداً ، فهو لك ، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفَّه أحلامنا ، فنقتله ، فإنَّما هو رجلٌ برجلٍ» قال: «والله لبئس

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٧٨ .

(٢) فلك عَقْلُه: أي: ديته إذا قتل .

ما تسومونني![1] أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً!». [السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٥) وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٤٨)].

وإنَّ المرء ليسمع عجباً، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالبٍ مع رسول الله ﷺ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمَّد ﷺ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضمَّ بني هاشم، وبني المطلب إليه في حلفٍ واحدٍ، على الحياة والموت؛ تأييداً لرسول الله ﷺ، مسلمهم، ومشركهم على السَّواء[2]، وأجار ابن أخيه محمَّداً إجارةً مفتوحةً لا تقبل التردُّد، أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهليَّة، والتَّقاليد العربيَّة تُسَخَّر من قبل النَّبيِّ ﷺ لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم، وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهبٍ عدوِّ الله اللَّعين.

ولمَّا رأى أبو طالبٍ من قومه ما سرَّه من جهدهم معه، وحَدَبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم؛ ليشدَّ لهم رأيهم، وليَحْدَبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجْتَمَعَتْ يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّها وصَمِيمُها
وإنْ حُصِّلَتْ أشْرافُ عَبْدِ مَنَافِها ... ففِي هَاشِمٍ أَشْرَافُها وقَدِيْمُهَا
وإنْ فَخَرَتْ يوماً فإنَّ مُحَمَّداً ... هوَ المصْطَفى مِنْ سِرِّهَا وكَرِيمُهَا
تَداعَتْ قريشٌ غَثُّهَا وثَمِيْنُها ... علينا فَلَمْ تَظْفَرْ وطَاشَتْ حُلُومُها
وكُنَّا قَديماً لا نُقِرُّ ظُلامَةً ... إذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخُدُوْدِ نُقِيْمُها[3]

وحين حاول أبو جهل أن يَخْفِر جوارَ أبي طالبٍ، تصدَّى له حمزةُ، فَشَجَّه بقوسه، وقال له: تشتم محمَّداً وأنا على دينه! فَرُدَّ ذلك؛ إن استطعت.

إنَّها ظاهرةٌ فذَّةٌ أن تقوم الجاهليَّة بحماية مَنْ يسبُّ آلهتها، ويعيب دينها، ويسفِّه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدِّمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يُمَسُّ محمَّدٌ ﷺ بسوءٍ.

ولمَّا خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكَّة، وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنَّه

(١) تسومونني: تُبادِلُونني.
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ١٨٤.
(٣) السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (١/ ٢٦٩).

غيرُ مُسْلِمٍ رسولَ الله ﷺ، ولا تاركه لشيءٍ أبداً حتَّى يهلك دونه؛ فقال:

ولمَّا رأيتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيْهِمُ ... وقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائِلِ
وقَدْ صارَحُونَا بالعَداوَةِ والأَذَى ... وقَدْ طاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المُزَايِلِ
وقد حالفوا قوماً عَلَيْنَا أَظِنَّةً ... يَعَضُّون غيظاً خَلْفَنا بالأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لهمْ نَفْسِي بِحَمْرَاءَ[1] سَمْحَةٍ ... وأَبْيَضَ عَضْبٍ[2] مِنْ تُرَاثِ المَقَاوِلِ
وأَحْضَرْتُ عِنْدَ البَيْتِ رَهْطِي وإِخْوَتِي ... وأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِه بالوَصَائِلِ[3]

وتعوَّذ بالبيت، وبكلِّ المقدَّسات الَّتي فيه، وأقسم بالبيت بأنَّه لن يُسْلِمَ محمَّداً ولو سالت الدِّماء أنهاراً، واشتدَّت المعارك مع بطون قريشٍ:

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ الله نُبْزَى مُحمَّداً ... ولمَّا نُطَاعِنْ دُوْنَهُ ونُنَاضِلِ
ونُسْلِمه حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ[4] ... ونُذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا والْحَلائِلِ[5]
ويَنْهَضُ قَوْمٌ في الحَدِيْدِ إِلَيْكُمُ ... نُهُوْضَ الرَّوَايا[6] تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ

وقرَّع زعماءَ بني عبد منافٍ بأسمائهم لخذلانهم إيَّاه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فَعُتْبَةُ لاَ تَسْمَعْ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍ ... حَسُوْدٍ كَذُوبٍ مُبْغِضٍ ذِيْ دَغاوِلِ[7]

ولأبي سفيان بن حربٍ يقول:

ومَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّيَ مُعْرِضاً ... كمَا مرَّ قَيْلٌ[8] مِنْ عِظَامِ المَقَاوِلِ
يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِ ... ويَزْعُمُ أَنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ[9]

وللمُطْعم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل يقول:

أَمُطعِمُ لَم أَخْذُلْكَ في يَوْمِ نَجْدَةٍ ... ولاَ مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُوْرِ الجَلائِلِ
أَمُطْعِمُ إنَّ الْقَوْمَ سَامُوْكَ خُطَّةً ... وإنِّي مَتَى أُوكَلَ فَلَسْتُ بِوَائِلِ[10]

---

(١) حمراء: كناية عن الرُّمح.
(٢) أبيض عضب: كناية عن السيف.
(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٢٧٣).
(٤) ونسلمه حتى نصرع حوله: أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.
(٥) الحلائل: الزوجات.
(٦) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.
(٧) الدغاول: الدواهي.
(٨) قيْل: الرَّئيس الكبير في اليمن.
(٩) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢١٢.
(١٠) بوائل: بناج.

جَـزَى اللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ ونَـوْفَـلاً عقُـوبـةَ شـرٍّ عَـاجِـلاً غَيْـرَ آجِـلِ [١]

لقد كان كسب النَّبيِّ ﷺ لعمِّه، وجذبه إلى صفِّه للدِّفاع عنه، نصراً عظيماً، وقد استفاد ﷺ من العُرْف القبليِّ، فتمتَّع بحماية العشيرة، ومُنِع من أيِّ اعتداء يقع عليه، وأعطي حرِّيَّة التَّحرُّك والتَّفكير، وهذا يدلُّ على فهم النَّبيِّ ﷺ للواقع الَّذي يتحرَّك فيه، وفي ذلك درسٌ بالغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى للتَّعامل مع بيئتهم، ومجتمعاتهم، والاستفادة من القوانين، والأعراف، والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرَّسول ﷺ:

قام مشركو مكَّة بتشويه دعوة الرَّسول ﷺ، ولذلك نظَّمت قريش حرباً إعلاميَّةً ضدَّه لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة؛ حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر موسم الحجِّ، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيُكذِّب بعضكم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضُه بعضاً.

- فقالوا: فأنت أبا عبد شمس! فقلْ، وأقِمْ لنا رأياً نقول به.

- قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

- فقالوا: نقول: كاهنٌ.

- فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكُهَّانَ، فما هو بزمزمة [٢] الكاهن، ولا سَجْعه.

- فقالوا: نقول: مجنونٌ.

- فقال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنونَ، وعرفناه، فما هو بخَنْقِه، ولا تَخالُجِه، ولا وَسْوَسَتِه.

- فقالوا: نقول: شاعرٌ.

- فقال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشِّعر برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشِّعر.

- قالوا: فنقول ساحرٌ.

- قال: ما هو ساحر، لقد رأينا السُّحَّار، فما هو بِنَفْثِهِمْ، ولا عَقْدِهِمْ.

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢١٢.

(٢) الزَّمزمة: كلام خفيٌّ لا يسمع.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!

ـ قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوةً، وإن أصله لعَذقٌ[١]، وإن فرعه لَجَنَاةٌ[٢]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنَّه باطلٌ، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحرٌ، فقولوا: ساحرٌ يفرِّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته[٣].

وأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا[٤] ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا[٥] ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[٦] ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[٧] ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ[٨] ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦].

ويتَّضح من هذه القصَّة: أنَّ الحرب النَّفسيَّة المضادَّة للرَّسول ﷺ لم تكن توجَّه اعتباطاً، وإنَّما كانت تعدُّ بإحكام ودقَّةٍ بين زعماء الكفَّار، وحسب قواعد معيَّنةٍ، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النَّفسيَّة في العصر الحديث؛ كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمُّع النَّاس في موسم الحج، والاتِّفاق وعدم التَّناقض، وغير ذلك من هذه الأسُس حتَّى تكون حملتهم منظَّمةً، وبالتَّالي لها تأثيرٌ على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوَّة منها، ومع اختيارهم للزَّمان المناسب، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتَّى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكَّة[٩].

ويتَّضح من هذا الخبر، عظمة النَّبيِّ ﷺ وقوَّته في التَّأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبُّر، والتَّعاظم، فإنَّه قد تأثَّر بالقرآن، ورقَّ له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك الوصف البليغ[١٠]، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلاميَّة المنظَّمة أن تحاصر دعوة

---

(١) العذق: النَّخلة.

(٢) الجناة: ما يجنى من الثَّمر.

(٣) السِّير والمغازي، لابن إسحاق، ص ١٥٠، ١٥١، وتهذيب السِّيرة (١/ ٦٤، ٦٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٠)، وابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

(٤) واسعاً.

(٥) أي: سأصليه عذاباً شديداً.

(٦) أي: تروَّى ماذا يقول في القرآن.

(٧) أي: قبض بين عينيه، وكلَّح، وقطَّب.

(٨) أي: هذا سحرٌ ينقله محمَّد عن غيره ممَّن قبله، ويحكيه عنهم.

(٩) انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٠٣.

(١٠) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميدي (١/ ١٢٣).

رسول الله ﷺ؛ بل استطاع محمَّد ﷺ أن يخترق حصار الأعداء، الَّذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكَّة من رسول الله ﷺ، وتشويه سمعته عندهم؛ بل صاروا يتلقَّون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثُّر بدعوته، فقد كان رسولُ الله ﷺ عظيمَ النَّجاح في دعوته، بليغاً في التأثير فيمن خاطبه، حيث يؤثِّر على من جالسه بهيئته، وسَمْتِه، ووقاره قبل أن يتكلَّم، ثمَّ إذا تحدَّث أسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ، المتمثِّل في العقل السَّليم، والعاطفة الجيَّاشة بالحبِّ والصَّفاء، والنِّيَّة الخالصة في هداية الأمَّة بوحي الله تعالى[١]. ومن أبرز الأمثلة على قوَّته في التأثير بالكلمة المعبِّرة، والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديديِّ، الَّذي حاول زعماء مكَّة ضربه عليه، ما كان من موقفه مع ضماد الأزديِّ، وعمرو بن الطُّفيل الدَّوسيِّ، وأبي ذرٍّ، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم، وهَاكَ التفصيلَ:

١ ـ إسلام ضِماد الأزديِّ رضي الله عنه:

وفَدَ ضِمادُ الأزديُّ إلى مكَّة، وتأثَّر بدعاوى المشركين على رسول الله ﷺ، حتَّى استقرَّ في نفسه: أنَّه مصاب بالجنون ـ كما يتَّهمه بذلك زعماء مكَّة ـ وكان ضماد من أزد شنوءة، وكان يعالِجُ من الجنون، فلمَّا سمع سفهاء مكَّة يقولون: إنَّ محمَّداً ﷺ مجنونٌ، فقال: لو أني رأيت هذا الرَّجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ.

قال: فلقيه، فقال: يا محمد! إنِّي أرقي من هذه الرِّيح، وإنَّ الله يشفي على يديَّ من شاء؛ فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أما بعدُ».

فقال: أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاء! فأعادهنَّ عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرَّاتٍ. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السَّحرة، وقول الشُّعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ[٢]، فقال لرسول الله ﷺ: هات يدك أبايعْك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسولِ الله تُبعث؛ مرُّوا على قوم ضماد، فقال صاحب السَّريَّة للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطْهَرَةً، فقال: ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء قومُ ضمادٍ. [مسلم (٨٦٨) وأحمد (١/٣٠٢) والنسائي (٦/٨٩ ـ ٩٠) وابن ماجه (١٨٩٣)].

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميدي (١/١٢٧ ـ ١٣٧).

(٢) ناعُوسُ البحر: معناه: وسطه، أو لجَّته، أو قعره الأقصى.

دروسٌ وفوائد:

١ ـ دعاية قريش، وتشويه شخص الرَّسول ﷺ، واتِّهامه بالجنون؛ حمل ضماداً على السَّير للرَّسول ﷺ من أجل رقيته، فكانت الحرب الإعلاميَّة المكيَّة ضدَّ الرَّسول ﷺ سبباً في إسلامه، وإسلام قومه.

٢ ـ تتَّضح صفتا الصَّبر والحلم في شخص النَّبيِّ ﷺ، فقد عرض ضماد على رسول الله ﷺ، معالجته من مرض الجنون، وهذا موقفٌ يثير الغضب، ولكنَّ رسول الله ﷺ استقبل الأمر بحلمٍ، وهدوءٍ، ممَّا أثار إعجاب ضمادٍ واحترامه لرسول الله ﷺ.

٣ ـ أهمِّيَة هذه المقدِّمة الَّتي يستفتح بها رسول الله ﷺ بعض خطبه، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يجعلها بين يدي خطبه، ومواعظه.

٤ ـ تأثَّر ضماد بفصاحة الرَّسول ﷺ، وقوَّة بيانه؛ لأنَّ حديث الرَّسول ﷺ انبعث من قلب مُلئ إيماناً، ويقيناً، وحكمةً، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب، ويجذبها إلى الإيمان.

٥ ـ في سرعة إسلام ضماد دليلٌ على أنَّ الإسلام دين الفطرة، وأنَّ النفوس إذا تجرَّدت من الضُّغوط الدَّاخليَّة والخارجيَّة؛ فإنَّها غالباً تتأثَّر وتستجيب، إمَّا بسماع قول مؤثِّرٍ، أو الإعجاب بسلوكٍ قويم.

٦ ـ حرص الرَّسول على انتشار دعوته؛ حيث رأى في ضماد صدق إيمانه، وحماسته للإسلام، وقوَّة اقتناعه به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

٧ ـ وفي هذا بيانٌ واضح لأهمِّيَّة الدَّعوة إلى الله تعالى؛ حيث جعلها النَّبيُّ ﷺ قرينة الالتزام الشَّخصيِّ، فقد بايع رسول الله ﷺ على الالتزام بالدِّين، فلم يكتف رسولُ الله ﷺ بذلك؛ بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

٨ ـ حفظ المعروف والودّ لأهل السَّابقة، والفضل: «ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء من قوم ضماد»[1].

٩ ـ في الحديث بعض الوسائل التَّربويَّة التي استعملها النَّبيُّ ﷺ مع ضماد، كالتأنِّي في الحديث، وأسلوب الحوار، والتَّوجيه المباشر، وتظهر بعض الصِّفات في شخصية رسول الله ﷺ كمربٍّ؛ كالحلم، والصبر، والتَّشجيع على الإكثار من الخيرات.

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (١/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص ١١١ ـ ١١٣).

٢ ـ إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

قال عَمْرُو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أَظُنُّ أنَّ النَّاس على ضلالةٍ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ؛ وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسولُ الله ﷺ مستخفياً، جُرَآءُ عليه قومُه، فَتَلطَّفْتُ حتَّى دخلت عليه بمكَّة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ» فقلت: وما نبيٌّ؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيءٍ أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ به شيءٌ» فقلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ، وعبدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر، وبلالٌ ممَّن آمن به، فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا، ألا ترى حالي وحالَ النَّاس؟ ولكن ارجعْ إلى أهلك، فإذا سمعتَ بي قد ظَهَرْتُ فائتني».

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلتُ أتخَبَّرُ الأخبارُ، وأسأل النَّاس حين قدم المدينة، حتَّى قدم عليَّ نفرٌ من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرَّجلُ الَّذي قدم المدينة؟ فقالوا: النَّاسُ إليه سِراعٌ، وقد أراد قومُه قتله، فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله! أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الَّذي لقيتني بمكَّة».

وذكر بقيَّة الحديث، وفيه: أنَّه سأله عن الصَّلاة، والوضوء. [مسلم (٨٣٢) وأحمد (٤/ ١١٢) وأبو داود (١٢٧٧) والنسائي (١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) وابن ماجه (١٢٥١)].

دروس وعبر:

١ ـ عَمْرُو بنُ عَبَسَةَ كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهليَّة.

٢ ـ كانت الحروب الإعلاميَّة الضَّروس الَّتي شنَّتها قريشٌ على رسول الله ﷺ سبباً في تتبُّع عمرو بن عبسة لأخبار الرَّسول ﷺ.

٣ ـ جرأة، وشدَّة قريش على رسول الله ﷺ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفياً وقومه جُرَآءُ عليه.

٤ ـ الأدب في الدُّخول على أهل الفضل والمنزلة، قال عمرو بن عبسة: «فتلطَّفت حتَّى دخلت عليه».

٥ ـ الرِّسالة المحمَّدية تقوم على ركيزتين: حقِّ الله، وحقِّ الخلق. قال ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان» وفي هذا دليلٌ على أهمِّيَّة صلة الأرحام؛ حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدَّعوة إلى التَّوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوَّة، مع أنَّها كانت أقدس شيءٍ عند العرب، وفي هذا دلالةٌ على أهمِّيَّة إزالة معالم

الجاهليَّة ، وأنَّ دعوة التَّوحيد لا تستقرُّ ولا تنتشر ، إلا بزوال هذه المعالم .

٦ ـ وفي اهتمام النَّبيِّ ﷺ المبكِّر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالةٌ على أنَّ أمور الدِّين لا يجوز تأخير بيانها للنَّاس ، بحجَّة عدم القدرة على تطبيقها ، فالَّذين يبيِّنون للنَّاس من أمور الدِّين ما يستطيعون تطبيقه بسهولةٍ ، وأمن ، ويحجمون عن بيان أمور الدِّين الَّتي يحتاج تطبيقها إلى شيءٍ من المواجهة والجهاد هؤلاء دعوتهم ناقصةٌ ، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهليَّة وطغاتها وهو في قلَّةٍ من أنصاره ، والسِّيادة في بلده لأعدائه(١) .

٧ ـ حِرْصُ الرَّسول ﷺ على صحابته ، وتوفير الجوِّ الآمن لهم ، والسَّير بهم إلى برِّ الأمان ، وإبعادهم عن التَّعرُّض للمضايقات ، فقد قال لعَمْرِو بنِ عَبَسَةَ : «إنك لا تستطيع يومك هذا» .

٨ ـ تذكُّر رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه ، وعدم نسيان مواقفهم ، قال : «أنت الذي لقيتني بمكَّة» .

٩ ـ لم يكن رسول الله ﷺ يعطي كلَّ مَنْ أسلم قائمةً بأسماء أتباعه ، فهذا ليس للسَّائل منه مصلحةٌ ، ولا يتعلَّق به بلاغ ، ولذلك لمَّا سأله عمرو بن عبسة عمَّن تبعه ؛ قال : «حرٌّ ، وعبدٌ» وهذه تورية ـ كما قال ابن كثير ـ بأن هذا اسم جنس فَهِمَ منه عمرو : أنَّه اسم عين(٢) .

١٠ ـ في قوله : «ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعتَ بي ظَهَرْتُ ؛ فائتني» ، نأخذ منه درساً في الدَّعوة : أنَّ تكديس المريدين ، والأعضاء حيث المحنة ، والإيذاء ، ليس هو الأصل ؛ فهذا رسول الله ﷺ يوجِّه نحو الرُّجوع إلى الأقوام ، وأمر ـ كما سنرى ـ بالهجرتين إلى الحبشة ، فذلك تخفيفٌ عن المسلمين ، وإبعادٌ عن مواطن الخطر ، وسترٌ لقوَّة المسلمين ، وإعطاء فرصةٍ للقائد حتَّى لا ينشغل ، وضمانٌ للسِّرِّيَّة ، وإفادةٌ للمكان المرسل إليه ، وإعدادٌ للمستقبل ، وملاحظةٌ لضمان الاستمرار ، وتجنُّب الاستئصال(٣) .

وممَّن أسلم بسبب الحرب الإعلاميَّة ضدَّ الرَّسول ﷺ ، الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيُّ ، وجاءت قصَّته مفصَّلةً في كتب السِّيرة ، ويرى الدُّكتور أكرم ضياء العمري : أنَّه لم يثبت منها إلا أنَّه دعا رسولَ الله ﷺ للالتجاء إلى حصن دوسٍ المنيع ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك [مسلم (١١٦) وأحمد (٣/ ٣٧١)] ، وأشارت روايةٌ صحيحةٌ إلى أنَّ الطُّفيل دعا قومه إلى الإسلام ، ولقي منهم صدوداً ، حتَّى طلب الطُّفيل من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم ، لكن رسول الله ﷺ دعا لهم

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ١٠٩) .
(٢) انظر : الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٦ إلى ١٠٩ .
(٣) انظر : الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّىٰ ، (١/ ١٢٦) .

بالهداية [البخاري (٢٩٣٧) ومسلم (٢٥٢٤)] وكان الرسول ﷺ آنئذٍ بالمدينة المنوّرة[١] . .

٣ ـ إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنهما :

جاءت قريش إلى الحصين ـ وكانت تعظِّمه ـ فقالوا له : كَلِّمْ لنا هذا الرَّجل ، فإنَّه يذكر آلهتنا ، ويسبُّها ، فجاؤوا معه حتَّى جلسوا قريباً من باب النَّبيِّ ﷺ ، فقال : «أوسعوا للشَّيخ» ، وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا ، وتذكرها ، وقد كان أبوك حصينةً[٢] ، وخيراً؟ فقال : «يا حُصَيْنُ! إنَّ أبي وأباك في النَّار ، يا حُصَيْنُ! كم تعبد من إله؟» قال : سبعاً في الأرض ، وواحداً في السَّماء . فقال : «فإذا أصابك الضرُّ مَنْ تدعو؟» قال : الَّذي في السَّماء . قال : «فإذا هلك المال مَنْ تدعو؟» قال : الَّذي في السَّماء ، قال : «فيستجيب لك وحده ، وتشركهم معه؟ أرضيته في الشُّكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال : ولا واحدةً من هاتين . قال : وعلمت أنِّي لم أكلم مثله ، قال : «يا حصين! أسلمْ تسلمْ» . قال : إنَّ لي قوماً ، وعشيرةً ، فماذا أقول؟ قال : «قل : اللَّهم أستهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني» ، فقالها حصين ، فلم يَقُمْ؛ حتَّى أسلم . فقام إليه عِمْرانُ فقبَّل رأسه ، ويديه ، ورجليه ، فلمَّا رأى ذلك النَّبيُّ ﷺ ؛ بكى ، وقال : «بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلمَّا أسلم قضى حقَّه ، فدخلني من ذلك الرِّقَّة» ، فلمَّا أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : «قوموا فشيِّعوه إلى منزله» فلمَّا خرج من سُدَّةِ الباب؛ رأته قريشٌ ، فقالوا : صبأ! ! وتفرَّقوا عنه»[٣] .

ولعلَّ الَّذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السُّرعة سلامة فطرته ، وحسن استعداده من ناحيةٍ ، وقوَّة حجَّة الرَّسول ﷺ وسلامة منطقه من ناحية أخرى[٤] ، ونلاحظ : أنَّ رسول الله ﷺ استخدم أسلوب الحوار مع الحصين؛ لغرس معاني التوحيد في نفسه ، ونسف العقائد الباطلة الَّتي كان يعتقدها .

٤ ـ إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه :

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه مُنْكِراً لحال الجاهليَّة ، ويأبى عبادة الأصنام ، وينكر على مَنْ يشرك بالله ، وكان يصلِّي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات ، دون أن يخصَّ قبلة بعينها بالتوجُّه ، ويظهر أنَّه

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٧٦) ، وانظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للدُّكتور العمري (١/ ١٤٦) .
(٢) حصينة : يعني عاقلاً متحصِّناً بدين آبائه وأجداده ، ومعتقداتهم . انظر : النهاية (١/ ٢٣٤) .
(٣) الإصابة في تمييز الصَّحابة ، لابن حجر ، (١/ ٣٣٧) وعنه نقل الشَّيخ محمد يوسف الكاندهلوي في : حياة الصحابة (١/ ٧٥ ، ٧٦) ، وبنحوه مختصراً رواه الترمذي (٣٤٨٣) .
(٤) انظر : فقه الدعوة الفردية ، د. السيد محمد نوح ، ص ١٠٤ .

كان على نهج الأحناف، ولمَّا سمع بالنَّبيِّ ﷺ قدم إلى مكَّة، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه اللَّيل، فاضطجع فرآه عليٌّ رضي الله عنه، فعرف: أنَّه غريب، فاستضافه، ولم يسأله عن شيءٍ، ثمَّ غادره صباحاً إلى المسجد الحرام، فمكث حتَّى أمسى، فرآه عليٌّ فاستضافه لِلَيلة ثانية، وحدث مثل ذلك في اللَّيلة الثَّالثة، ثمَّ سأله عن سبب قدومه، فلمَّا استوثق منه أبو ذرٍّ؛ أخبره بأنَّه يريد مقابلة الرَّسول ﷺ، فقال له عليٌّ: فإنَّه حقٌّ، وهو رسول الله، فإذا أصبحت؛ فاتَّبعْني، فإنِّي إن رأيتُ شيئاً أخاف عليك؛ قمت كأنِّي أريق الماء، فإن مضيت، فاتَّبعني، فتبعه، وقابل الرَّسول ﷺ، واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتَّى يأتيك أمري»، فقال: والَّذي نفسي بيده، لأصرخنَّ بها بين ظَهْرَانيْهم، فخرج حتَّى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وثار القوم حتَّى أضجعوه، فأتى العبَّاس بن عبد المطَّلب، فحذَّرهم من انتقام غفار، والتَّعرُّض لتجارتهم الَّتي تمرُّ بديارهم إلى الشَّام، فأنقذه منهم[(١)]، وكان أبو ذرٍّ قبل مجيئه قد أرسل أخاه؛ ليعلم له علم النَّبيِّ ﷺ ويسمع من قوله، ثمَّ يأتيه، فانطلق الأخ حتَّى قدم إليه، وسمع من قوله، ثمَّ رجع إلى أبي ذرٍّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشِّعر، فقال: ما شفيتني[(٢)] ممَّا أردت[(٣)]، وعزم على الذَّهاب بنفسه لرسول الله ﷺ، فقال أخوه له: «وكُن على حذرٍ من أهل مكَّة فإنَّهم قد شَنِفُوا له، وتجهَّمُوا» [البخاري (٣٨٦١) ومسلم (٢٤٧٤)][(٤)].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ شيوع ذكر رسول الله ﷺ بين القبائل، واكثر مَنْ ساهم في ذلك مشركو قريش، بما اتَّخذوه من منهج التَّحذير والتَّشويه لرسول الله ﷺ، ولمَا جاء به، حتَّى وصل ذكره قبيلة غِفار.

٢ ـ تميُّزُ أبي ذرٍّ رضي الله عنه بأنَّه رجلٌ مستقلٌّ في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزُّه الدِّعايات، فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله ﷺ، بعيداً عن التَّأثيرات الإعلاميَّة.

٣ ـ شدَّة اهتمام أبي ذرٍّ بأمر الرَّسول ﷺ، فلم يكتف بالمعلومات العامَّة الَّتي جاء بها أخوه أُنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إنَّ مجال البحث ليس عن رجلٍ يأمر بالخير فحسب؛ وإنما عن رجلٍ يَذكر أنَّه نبيٌّ؛ ولذلك تحمَّل المشاقَّ، والمتاعب، وشظف العيش،

---

(١) مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي ذرٍّ، رقم (٢٤٧٤)، والبخاريُّ رقم (٣٨٦١)، و(٣٥٢٢).

(٢) ما شفيتني ممَّا أردت: ما بلغتني غرضي، وأزلت عنِّي همَّ كشفِ هذا الأمر.

(٣) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، ص ٨٣.

(٤) شَنِفُوا له أي: أبغضوه، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٤٥).

والغربة عن الأهل، والوطن في سبيل الحقِّ، فأبو ذرٍّ ترك أهله، واكتفى من الزاد بجرابٍ، وارتحل إلى مكَّة لمعرفة أمر النُّبوَّة[١].

٤ ـ التَّأنِّي والتَّريُّث في الحصول على المعلومة؛ حيث تأنَّى أبو ذرٍّ رضي الله عنه؛ لما يعرفه من كراهية قريشٍ لكلِّ مَنْ يخاطب الرَّسول ﷺ، وهذا التَّأنِّي تصرُّفٌ أمنيٌّ تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه؛ لعلمت به قريش، وبالتَّالي قد يتعرَّض للأذى والطَّرد، ويخسر الوصول إلى هدفه، الَّذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمَّل في سبيله مصاعب، ومشاقَّ السَّفر.

٥ ـ الاحتياط والحذر قبل النُّطق بالمعلومة: حين سأل عليٌّ رضي الله عنه أبا ذرٍّ رضي الله عنه عن أمره، وسبب مجيئه إلى مكَّة، لم يخبره بالرَّغم من أنَّه استضافه ثلاثة أيَّام؛ إمعاناً في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غايةٌ في الاحتياط، وتمَّ ما أراده.

٦ ـ التَّغطية الأمنيَّة للتَّحرُّك: تمَّ الاتفاق بين عليٍّ وأبي ذرٍّ رضي الله عنه على إشارةٍ، أو حركةٍ معيَّنةٍ، كأنَّه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى عليٌّ رضي الله عنه من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطيةٌ أمنيةٌ لتحرُّكهم تجاه المقرِّ (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أنَّ أبا ذرٍّ كان يسير على مسافةٍ من عليٍّ، فيُعدُّ هذا الموقف احتياطاً، وتحسُّباً لكلِّ طارئ، قد يحدث في أثناء التَّحرُّك.

٧ ـ هذه الإشارات الأمنيَّة العابرة، تدلُّ على تفوُّق الصَّحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنيَّة، وعلى مدى توافر الحسِّ الأمنيِّ لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتَّى أصبح سمةً مميِّزةً لكلِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتهم الخاصَّة والعامَّة، فأتت تحرُّكاتهم منظَّمةً ومدروسةً، فما أحوجنا لمثل هذا الحسِّ، الَّذي كان عند الصَّحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمِّيةٌ بالغةٌ في زوال واستمرار الحضارات[٢]، وأصبحت له مدارسه الخاصَّة، وتقنياته المتقدِّمة، وأساليبه، ووسائله المتطوِّرة، وأجهزته المستقلَّة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامَّةً، والمعلومات الأمنيَّة خاصَّةً تباع بأغلى الأثمان، ويُضَحَّى في سبيل الحصول عليها بالنَّفس إذا لزم الأمر!.

وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالنَّاحية الأمنية؛ حتَّى لا تصبح قضايانا

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، د. يحيى اليحيى، (ص ٩١ ـ ٩٣).
(٢) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي، ص ٥٨، ٥٩.

مستباحةً للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم[١].

٨ ـ صدق أبي ذرٍّ رضي الله عنه في البحث عن الحقِّ، ورجاحة عقله، وقوَّة فهمه، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

٩ ـ حرص رسول الله ﷺ واهتمامه بأمن أصحابه، وسلامتهم؛ حيث أمر أبا ذرٍّ بالرُّجوع إلى أهله، وكتمان أمره حتَّى يظهره الله.

١٠ ـ شجاعة أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وقوَّته في الحقِّ فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش، ومجتمعاتهم، تحدِّياً لهم وإظهاراً للحقِّ[٢]، وكأنَّه فهم: أنَّ أمر النَّبيِّ ﷺ له بالكتمان، ليس على الإيجاب؛ بل على سبيل الشَّفقة عليه، فأعلمه بأنَّ به قوَّةً على ذلك؛ ولهذا أقرَّه النَّبيُّ ﷺ على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحقِّ عند من يخشى منه الأذيَّة لمن قاله ـ وإن كان السُّكوت جائزاً ـ والتَّحقيق: أنَّ ذلك مختلفٌ باختلاف الأحوال والمقاصد، وبحسب ذلك يترتَّب وجود الأجر، وعدمه[٣].

١١ ـ كان موقف أبي ذرٍّ رضي الله عنه مفيداً للدَّعوة، ومساهماً في مقاومة الحرب النَّفسيَّة الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ الرَّسول ﷺ، وكانت ضربةً معنويَّةً أصابت كفار مكَّة في الصَّميم، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذرٍّ رضي الله عنه وقدرته على التحمُّل، فقد سالت الدِّماء من جسده، ثمَّ عاد مرَّةً أخرى للصَّدع بالشَّهادة.

١٢ ـ مدافعة العبَّاس عن المسلمين، وسعيه لتخليص أبي ذرٍّ من أذى قريش، دليلٌ على تعاطفه مع المسلمين، وكان أسلوبه في ردِّ الاعتداء يدلُّ على خبرته بنفوس كفار مكَّة؛ حيث حذَّرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم، عندما تمرُّ بديار غِفار[٤].

١٣ ـ امتثل أبو ذرٍّ للترتيبات الأمنيَّة، الَّتي اتَّخذها رسول الله ﷺ في مكَّة، فمع تعلُّق أبي ذرٍّ بالرَّسول ﷺ، وحبِّه له، وحرصه على لقائه، إلا أنَّه امتثل أمر رسول الله ﷺ في مغادرة مكَّة إلى قومه، واهتمَّ بصلاح، وهداية الأهل، ودعوتهم للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمِّه وقومه.

١٤ ـ أثرُ أبي ذرٍّ الدَّعويُّ على قومه وقدرته على هدايتهم، وإقناعهم بالإسلام، ومع ذلك فإنَّه لا يصلح للإمارة، روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍّ، قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على مَنْكِبي، ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيف، وإنَّها أمانةٌ،

---

(١) انظر: دروس في الكتمان، لمحمود شيت خطَّاب، ص ٩.
(٢) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة، ص ٩٥.
(٣) فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٦١).
(٤) انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة (ص ٩٤، ٩٥).

وإنَّها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ ، إلا من أخذها بحقِّها ، وأدَّى الَّذي عليه فيها» [مسلم (١٨٢٥) وأحمد (٥/ ١٧٣ ، ٢٦٧)] ، فلكلِّ شخصٍ مجاله الَّذي سخَّره الله فيه ، وميدانه الَّذي يقوم بواجبه فيه ، فليس معنى : أنَّه نجح في الدَّعوة ، وإقناع النَّاس : أنَّه يصلح لكلِّ شيءٍ .

١٥ ـ تفويض أبي ذرٍّ الإمامة إلى سيِّد غفار (أيماء بن رَحضة) ـ مع تقدُّم أبي ذرٍّ عليه في الإسلام وعلوِّ منزلته ـ يدلُّ على مهارةٍ إداريَّةٍ ، وهي عدم جمع كلِّ الأعمال في يده ، وتقدير النَّاس ، وإنزالهم منازلهم(١) .

١٦ ـ نجاح أبي ذرٍّ الباهر في الدَّعوة؛ حيث أسلمت نصف غفار ، وأسلم نصفها الثَّاني بعد الهجرة(٢) .

لقد فشلت محاولات التَّشويه ، والحرب الإعلاميَّة ، والحجر الفكري الَّذي كان الكفار يمارسونه على الدَّعوة الإسلاميَّة في بداية عهدها؛ لأنَّ صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم ، ووسائله في التَّبليغ كانت أبلغ من وسائلهم ، وثباته على مبدئه السَّامي كان أعلى بكثيرٍ ممَّا كان يتوقَّعه أعداؤه؛ فالرَّسول ﷺ لم يجلس في بيته ، ولم ينزوِ في زاويةٍ من زوايا المسجد الحرام؛ ليستخفي بدعوته ، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة؛ بل إنَّه غامر بنفسه ﷺ ، فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكَّة ، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقيَّة من حياةٍ ، وأثارةٍ من حرِّيَّةٍ وإباءٍ ، فيتسرَّب نور الهدى إلى مجامع لبِّه ، وسويداء قلبه(٣) ، وكان من هؤلاء ضماد الأزديُّ ، وعمْرُو بن عَبَسَةَ ، وأبو ذرٍّ الغفاري ، والطُّفيل بن عمرو الدَّوسي ، وحصين والد عمران بن الحصين رضي الله عنهم ، وهذا دليلٌ قاطعٌ ، وبرهانٌ ساطعٌ ، على فشل حملات التَّشويه الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ رسول الله ﷺ ، فعلينا أن نعتبر ، ونستفيد من الدُّروس ، والعبر .

ثالثاً : ما تعرَّض له رسولُ الله ﷺ من الأذى والتَّعذيب :

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم ، وأظهره الله عليهم ، ويدلُّ على ذلك ـ مبلغ هذا الأذى ـ تلك الآيات الكثيرة الَّتي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصَّبر ، وتدلُّه على وسائله ، وتنهاه عن الحزن ، وتضرب له أمثلةً من واقع إخوانه المرسلين؛ مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل : ١٠] ، و﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٤] ، و﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) انظر : الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٠ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/ ٤٥).
(٣) التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/ ١٤٤).

تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، و﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

وهذه أمثلةٌ تدلُّ على ما تعرَّض له النَّبيُّ ﷺ من الإيذاء:

١ ـ قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهَه[1] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاَّتِ والعُزَّى! لئن رأيتُهُ يفعل ذلك؛ لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفِّرَنَّ وجهه في التُّراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلِّي، زعم لِيَطَأ على رقبته، قال: فما فَجِئَهُمْ[2] منه إلا وهو يَنْكُصُ على عقبيه[3] ويتَّقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهَولاً، وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» [مسلم (٢٧٩٧)].

وفي حديث ابن عباسٍ قال: «كان النَّبيُّ يُصلِّي، فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟! ألم أنهك عن هذا؟! فانصرف النَّبيُّ ﷺ، فزبره[4]، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧ ـ ١٨] قال ابن عباس: لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله» [الترمذي (٣٣٤٩)].

٢ ـ وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «بينما رسول الله ﷺ قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها، ودمها، وسلاها، فيجيءُ به، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلمَّا سجد رسول الله ﷺ؛ وضعه بين كتفيه، وثبت النَّبيُّ ﷺ ساجداً، فضحكوا حتَّى مال بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحك، فانطلق مُنطِلقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ ـ وهي جُوَيرِيةٌ ـ فأقبلت تسعى، وثبت النَّبيُّ ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسُبُّهم، فلمَّا قضى رسولُ الله ﷺ الصَّلاة، قال: اللَّهم عليك بقريش! اللَّهمَّ عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! ثمَّ سَمَّى: اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعُتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميَّة بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وعُمارةَ بن الوليد، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ، ثمَّ سحبوا إلى القَلِيب[5] ـ قليب بدرٍ ـ ثمَّ قال رسول الله ﷺ: وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيبِ لعنةً» [البخاري (٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤)].

وقد بيَّنت الرِّوايات الصَّحيحة الأخرى: أنَّ الَّذي رمى الرَّفث عليه هو عقبة بن أبي مُعَيْطٍ،

---

(١) يعفِّر وجهه: أي يسجد، ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب.
(٢) فجئَهم: بغتهم.
(٣) عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.
(٤) زبره: نهره.
(٥) القَليب: البئر المفتوحة.

وأنَّ الَّذي حرَّضه هو أبو جهل [مسلم (١٧٩٤)]، وأنَّ المشركين تأثَّروا بدعوة الرَّسول ﷺ عليهم، وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنَّهم يرون أنَّ الدَّعوة بمكَّة مستجابةٌ[١].

٣ ـ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرَّسول ﷺ: اجتمع أشراف قريش يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّهَ أحلامنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم! فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ الله ﷺ، فوثبوا وثبة رجلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون: أنت الَّذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثمَّ أخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّيَ الله؟! [البخاري (٣٦٨٧ و٣٨٥٦ و٤٨١٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٧٤)][٢].

٤ ـ كان أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ ﷺ من أشدِّ النَّاس عداوةً له، وكذلك كانت امرأته أمُّ جميلٍ، من أشدِّ النَّاس عداوةً للنَّبيِّ ﷺ؛ فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاس بالنَّميمة، وتضع الشَّوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ ـ ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن؛ أتت رسول الله ﷺ وهو جالسٌ عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصدِّيق، وفي يدها فهرٌ من حجارةٍ؛ فلمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنَّه يهجوني، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثمَّ انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عنِّي، وكانت تنشد: مذمَّمٌ أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح؛ لأن المشركين يسبُّون مذمَّماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنِّي شتم قريش، ولعنهم، يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمَّد» [البخاري (٣٥٣٣)].

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنَّه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق، والمجامع، ومواسم الحج ويكذِّبه[٣].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذيَّة المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكِّيَّة[٤]، وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريشٍ قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه، يقول: «لقد أُخِفْتُ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما يُخاف

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمريِّ (١/ ١٤٩)، وانظر كذلك المصدر السَّابق.
(٢) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي من طرقٍ أخرى، ص ٩٦.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٢٩٣).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ١٥٣).

أحدٌ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلة، وما لي، ولا لبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال» [الترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١)].

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر، ومنتهى الشَّرف، إلا أنَّه قد حظي من البلاء بالحمل الثَّقيل، والعناء الطَّويل، منذ أوَّل يومٍ صدع فيه بالدَّعوة، ولقد لقي النَّبيُّ ﷺ من سفهاء قريش أذىً كثيراً، فكان إذا مرَّ على مجالسهم بمكَّة استهزؤوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة[١]، يُكلَّم من السَّماء! وكان أحدهم يمرُّ على الرَّسول ﷺ فيقول له ساخراً: أما كُلِّمْتَ اليوم من السَّماء؟![٢].

ولم يقتصر الأمر على مجرَّد السُّخرية، والاستهزاء، والإيذاء النَّفسيِّ، بل تعدَّاه إلى الإيذاء البدنيِّ، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدوُّ الله أميَّة بن خلف في وجه النَّبيِّ ﷺ[٣]، وحتَّى بعد هجرته ـ عليه السَّلام ـ إلى المدينة، لم تتوقف حدَّة الابتلاء والأذى، بل أخذت خطّاً جديداً، بظهور أعداءٍ جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكَّة؛ صار له ﷺ أعداءٌ من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود، والفرس، والرُّوم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكَّة شتماً، وسخريةً، وحصاراً، وضرباً، صار مواجهةً عسكريَّة مسلَّحةً، حامية الوطيس، فيها كرٌّ، وفرٌّ، وضربٌ، وطعنٌ؛ فكان ذلك بلاءٌ في الأموال، والأنفس على السَّواء[٤]، وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته، سلسلةً متَّصلةً من المحن، والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتَّى لقي ربَّه[٥].

لقد واجه الرَّسول ﷺ من الفتن، والأذى، والمحن مالا يخطر على بالٍ، في مواقف متعدِّدةٍ، وكان ذلك على قدر الرِّسالة الَّتي حُمِّلها، ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرَّفيعة عند ربِّه، وقد صبر على ما أصابه؛ إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأمم الماضية من العذاب؛ وليكون قدوةً للدُّعاة، والمصلحين[٦]، فإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسولَ الله ﷺ، فلم يعد هناك أحدٌ أكبر من الابتلاء، والمحنة، وتلك سنّة الله في الدَّعوات؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله! أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً؛ اشتدَّ بلاؤه،

---

(١) والد الرَّسول ﷺ من الرَّضاعة.
(٢) انظر: الرَّوض الأنف (٢/ ٣٣) وما بعدها.
(٣) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٤٨).
(٤) انظر: زاد اليقين، لأبي شنب، ص ١٣٧.
(٥) انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٢٤٣.
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، د. سليمان السُّويكت، ص ١٩٧.

وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتَّى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة» [ابن ماجه (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري، ورواه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١/ ١٧٢)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص].

رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتَّعذيب:

١ ـ ما لاقاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

تحمَّل الصَّحابة رضي الله عنهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يَسْلَمْ أشرافُ المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أُوذي أبو بكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه التُّراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنِّعال حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وحُمِل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت[1]، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أنَّه لمَّا اجتمع أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظُّهور، فقال: «يا أبا بكر! إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحُّ حتَّى ظهر رسولُ الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كلُّ رجلٍ في عشيرته، وقام أبو بكر في النَّاس خطيباً ورسولُ الله ﷺ جالسٌ، فكان أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئَ أبو بكر، وضُرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسقُ عتبةُ بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكرٍ رضي الله عنه، حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تَيْمٍ يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكرٍ، وحمَلتْ بنو تيم أبا بكرٍ في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكُّون في موته، ثمَّ رجعت بنو تيمٍ، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تَيْم يكلِّمون أبا بكر حتَّى أجاب، فتكلَّم آخر النَّهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم، وعذلوه، وقالوا لأمِّه أمِّ الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إيَّاه، فلمَّا خلت به؛ ألحَّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أمِّ جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل؛ فقالت: إنَّ أبا بكرٍ يسألك عن محمَّد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكرٍ، ولا محمَّد بن عبد الله، وإن كنت تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها؛ حتَّى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً، فدنت أمُّ جميل، وأعلنت بالصِّياح، وقالت: والله! إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فِسْقٍ وكفرٍ، إنِّني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمُّك

(١) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ٢٤٣.

تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالمٌ، صالحٌ، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإنَّ لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو آتي رسولَ الله ﷺ، فأمهلتاه؛ حتَّى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتَّكئ عليهما، حتَّى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فقال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ، فقبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّةً شديدة، فقال أبو بكر: بأبي، وأمي يا رسول الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها، وأنت مباركٌ فادعها إلى الله، وادعُ الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النَّار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الله فأسلمت(١).

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ حِرْصُ أبي بكرٍ رضي الله عنه على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفَّار، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه، وشجاعته، وقد تحَمَّل الأذى العظيم، حتَّى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته.

٢ ـ مدى الحبِّ الَّذي كان يُكنُّه أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ؛ حيث إنَّه وهو في تلك الحال الحرجة، يسأل عنه، ويُلِحُّ إلحاحاً عجيباً في السُّؤال، ثمَّ يحلف ألاَّ يأكل، ولا يشرب حتَّى يراه، كيف يتمُّ ذلك، وهو لا يستطيع المشي، بل النُّهوض؟ ولكنَّه الحبُّ الَّذي في الله، والعزائم التي تقهر الصِّعاب، وكلُّ مصابٍ في سبيل الله؛ ومن أجل رسوله ﷺ هيِّنٌ، ويسيرٌ.

٣ ـ إنَّ العصبيَّة القبليَّة، كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث والتَّعامل مع الأفراد، حتَّى مع اختلاف العقيدة؛ فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدِّد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكر(٢).

٤ ـ الحسُّ الأمنيُّ لأمِّ جميلٍ رضي الله عنها، فقد برز في عدَّة تصرُّفاتٍ؛ لعلَّ من أهمها:

إخفاء الشَّخصيَّة، والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سألت أمُّ الخير أمَّ جميل، عن مكان الرَّسول ﷺ، أنكرت أنَّها تعرف أبا بكر، ومحمَّد بن عبد الله، فهذا تصرُّفٌ حذِرٌ سليم؛ إذ لم تكن أمُّ الخير ساعتئذٍ مسلمةً، وأمُّ جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تودُّ أن تعلم به أمُّ الخير، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرَّسول ﷺ؛ مخافةَ أن تكون عيناً لقريشٍ(٣).

استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأمُّ جميلٍ أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكرٍ رضي الله عنه، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأمِّ الخير؛ إمعاناً في السِّرِّيَّة، والكتمان، فاستغلَّت الموقف لصالحها قائلةً: «إن

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (١/ ٤٣٩ ـ ٤٤١)، والبداية والنِّهاية (٣/ ٣٠).
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٧٩.
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٥٠.

كنتِ تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك؛ فعلت»، وقد عرضت عليها هذا الطَّلب بطريقةٍ تنم عن الذَّكاء وحسن التَّصرُّف، فقولها: «إن كنت تحبِّين ـ وهي أمُّه ـ» وقولها: «إلى ابنك»، ولم تقل لها: إلى أبي بكرٍ، كلُّ ذلك يحرِّك في أمِّ الخير عاطفة الأمومة، فغالباً ما ترضخ لهذا الطَّلب، هذا ما تم بالفعل؛ حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتَّالي نجحت أمُّ جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

استغلال الموقف في كسب عطف أمِّ أبي بكر:

يبدو أنَّ أمَّ جميل حاولت أن تكسب عطف أمِّ الخير، فاستغلَّت وضع أبي بكرٍ رضي الله عنه، الَّذي يظهر فيه صريعاً دَنِفاً، فأعلنت بالصِّياح، وسَبَّتْ مَنْ قام بهذا الفعل بقولها: «إنَّ قوماً نالوا هذا منكَ لأهلُ فسقٍ، وكفرٍ»؛ فلا شك أنَّ هذا الموقف من أمِّ جميلٍ يشفي بعض غليل أمِّ الخير من الَّذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنُّ شيئاً من الحبِّ لأمِّ جميل، وبهذا تكون أمُّ جميل كسبت عطف أمِّ الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهِّل مهمَّة أمِّ جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه[١].

الاحتياط والتأنِّي قبل النُّطق بالمعلومة:

لقد كانت أمُّ جميل في غاية الحيطة، والحذر، من أن تتسرَّب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدَّعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أمِّ الخير؛ لأنَّها ما زالت مشركةً آنذاك، وبالتَّالي لم تأمن جانبها، لذا تردَّدت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنها عن حال رسول الله ﷺ، فقالت له: هذه أمُّك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأنَّ الرسول ﷺ سالمٌ صالحٌ[٢]، وزيادةً في الحيطة، والحذر، والتكتُّم لم تخبره بمكانه، إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

تخيُّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمَّة:

حين طلب أبو بكرٍ رضي الله عنه الذَّهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أمُّ جميل على الفور؛ بل تأخَّرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن النَّاس؛ خرجت به ومعها أمُّه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتَّحرُّك، وتنفيذ هذه المهمَّة، حيث تنعدم الرَّقابة من قِبَلِ أعداء الدَّعوة، ممَّا يقلِّل من فرص كشفها، وقد نُفِّذت المهمَّةُ بالفعل دون أن يشعر بها

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة في جوانب الحذر والحماية، ص ٥٠.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥١.

الأعداء، حتَّى دخلت أمُّ جميل، وأمُّ الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكِّد: أنَّ الوقت المختار كان أنسب الأوقات[(١)].

٥ ـ قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أمُّ الخير أمُّ أبي بكر، بسبب رغبة الصِّدِّيق في إدخال أمِّه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرَّسول ﷺ الدُّعاء لها؛ لِمَا رأى من برِّها به، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على هداية الناس الآخرين فكيف بأقرب الناس إليه؟![(٢)].

٦ ـ إنَّ من أكثر الصَّحابة الَّذين تعرَّضوا لمحنة الأذى، والفتنة بعد رسول الله ﷺ، أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ نظراً لصحبته الخاصَّة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرَّض فيها للأذى من قومه، فينبري الصِّدِّيق مدافعاً عنه، وفادياً إيَّاه بنفسه، فيصيبه من أذىٰ القوم وسفههم، هذا مع أنَّ الصِّدِّيق يُعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل، والإحسان[(٣)].

٢ ـ بلالٌ رضيَ الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله ﷺ، ولأصحابه؛ حتَّى وصل إلى ذروة العنف وخاصَّةً في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكَّلت بهم؛ لتفتنهم عن عقيدتهم، وإسلامهم؛ ولتجعلهم عِبرةً لغيرهم، ولتنفِّس عن حقدها، وغضبها، بما تصبُّه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أوَّل من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله ﷺ، وأبو بكرٍ، وعمَّارٌ، وأمُّه سميَّة، وصهيبٌ، وبلالٌ، والمقداد؛ فأمَّا رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمِّه أبي طالبٍ، وأمَّا أبو بكر؛ فمنعه الله بقومه، وأمَّا سائرهم؛ فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشَّمس، فما منهم إنسانٌ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدانَ، وأخذوا يطوفون به شعاب مكَّة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ» [أحمد (١/٤٠٤) وابن ماجه (١٥٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٨١ ـ ٢٨٢)]. لم يكن لبلال رضي الله عنه ظَهْرٌ يسنده، ولا عشيرةٌ تحميه، ولا سيوفٌ تذود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ يعادل رقماً من الأرقام، فليس له دورٌ في الحياة إلا أن يخدم، ويطيع، ويُباع، ويُشْترى كالسَّائمة، أمَّا أن يكون له رأيٌ، أو يكون صاحبَ فكرٍ، أو صاحب دعوةٍ، أو صاحب قضيَّةٍ، فهذه جريمةٌ شنعاءُ في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ، تهزُّ أركانه، وتزلزل أقدامه، ولكنَّ الدَّعوة الجديدة؛ الَّتي سارع لها الفتيان؛ وهم يتحدَّون تقاليد، وأعراف آبائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرميِّ المنسيِّ، فأخرجته إنساناً

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٥٠، ٥١، ٥٢، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدُّروس الأمنيَّة.
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٧٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٥.

جديداً على الوجود[١]، فقد تفجَّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن آمن بهذا الدِّين، وانضمَّ إلى محمَّدٍ ﷺ وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وها هو الآن يتعرَّض للتَّعذيب من أجل عقيدته، ودينه، فقصد وزيرُ رسولِ الله ﷺ الصِّديقُ موقعَ التَّعذيب، وفاوض أميَّةَ بن خلف، وقال له: «ألا تتَّقي الله في هذا المسكين؟ حتَّى متَّى؟! قال: أنت الَّذي أفسدته، فأنقذه ممَّا ترى! فقال أبوبكر: أفعل، عندي غلامٌ أسود أجلد منه، وأقوىٰ على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه غلامه ذلك، وأخذه، فأعتقه»[٢]. وفي روايةٍ: اشتراه بسبع أواقٍ، أو بأربعين أوقيَّةٍ ذهباً[٣].

ما أصبر بلالاً، وما أصلبه رضي الله عنه! فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صَلُبَ ولم تَلِنْ قناتُه أمام التَّحدِّيات، وأمام صنوف من العذاب، وكان صبره، وثباته ممَّا يغيظهم، ويزيد حنقهم، خاصَّةً: أنَّه كان الرَّجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الَّذي ثبت على الإسلام، فلم يواتِ الكفار فيما يريدون، مردِّداً كلمة التَّوحيد بتحدٍّ صارخٍ، وهانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه[٤].

وبعد كلِّ محنةٍ منحةٌ؛ فقد تخلَّص بلالٌ من العذاب والنَّكال، وتخلَّص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ﷺ بقيَّة حياته ملازماً له، ومات راضياً عنه مبشِّراً إيَّاه بالجنَّة، فقد قال ﷺ لبلال: «... فإنِّي سمعت الليلةَ خَشْفَ نعليك بين يديَّ في الجنة» [البخاري (١١٤٩) ومسلم (٢٤٥٨)]. وأمَّا مقامه عند الصَّحابة، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيِّدنا» يعني: بلالاً[٥].

وأصبح منهج الصِّدِّيق في فكِّ رقاب المستضعفين ضمن الخطَّة الَّتي تبنَّتها القيادة الإسلامية لمقاومة التَّعذيب الَّذي نزل بالمستضعفين، فمضىٰ يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمِّين إلى هذا الدِّين الجديد من الرِّقِّ.

«ثمَّ أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقابٍ؛ بلالٌ سابعهم: عامر بن فهيرة شهد بدراً، وأحداً، وقُتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمُّ عُبيس، وزِنِّيرة، وأُصيب بصرُها حتى أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات، والعزَّى. فقالت: كذبوا وبيت الله،

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ١٣٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٤).
(٣) انظر: التَّربية القيادية (١/ ١٤٠).
(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، ص ٩٢.
(٥) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ٢٣٢)، ورجاله ثقات.

ما تضرُّ اللات والعزَّى، وما تنفعان، فردَّ الله بصرها[١]. وأعتق النَّهدية، وبنتها، وكانتا لامرأةٍ من بني عبد الدَّار، فمرَّ بهما، وقد بعثتهما سيِّدتهما بطَحينٍ لها، وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً! فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلٌّ[٢] يا أمَّ فلان! فقالت: حِلٌّ، أنت أفسدتهما، فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا، وكذا. قال: قد أخذتُهما، وهما حرَّتان، أَرْجعا إليها طَحينها. قالتا: أوَ نَفْرَغُ منه يا أبا بكر! ثمَّ نردُّه إليها؟ قال: وذلك؛ إن شئتما»[٣].

وهنا وقفة تأمُّل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصِّدِّيق والجاريتين حتَّى خاطبتاه، خطابَ النِّدِّ للندِّ، لا خطاب المسود للسَّيِّد، وتقبَّل الصِّدِّيق ـ على شرفه، وجلالته في الجاهليَّة، والإسلام ـ منهما ذلك، مع أنَّ له يداً عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتَّى تخلَّقتا بهذا الخلق الكريم، وكان يمكنهما، وقد أُعتقتا، وتحرَّرتا من الظُّلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراجَ الرِّياح، أو يأكله الحيوان، والطَّير، ولكنَّهما أبتا ـ تفضُّلاً ـ إلا أن تفرغا منه، وتردَّاه إليها[٤].

ومرَّ الصِّدِّيق بجارية بني مُؤَمَّل ـ حيٌّ من بني عديِّ بن كعب ـ وكانت مسلمةً، وعُمر بن الخطَّاب يُعذِّبها لتترك الإسلام، وهو يومئذٍ مشركٌ، وهو يضربها، حتَّى إذا ملَّ؛ قال: إني أعتذر إليك، إنِّي لم أتركك إلا عن ملالةٍ، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكرٍ، فأعتقها[٥].

هكذا كان واهب الحرِّيَّات، ومحرِّر العبيد، شيخ الإسلام الوقور؛ الَّذي عُرف بين قومه بأنَّه يكسب المعدوم، ويصل الرَّحم، ويحمل الكلَّ، ويُقري الضَّيف، ويعين على نوائب الحقِّ، لم ينغمس في إثمٍ في جاهليته، أليفٌ مألوفٌ، يسيل قلبه رقَّةً ورحمةً على الضُّعفاء، والأرقَّاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد، وأعتقهم لله، وفي الله قبل أن تنزل التَّشريعات الإسلاميَّة المحبَّبة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثَّواب[٦].

كان المجتمع المكيُّ يتندَّر بأبي بكرٍ رضي الله عنه؛ الَّذي يبذل هذا المال كلَّه لهؤلاء المستضعفين، أمَّا في نظر الصديق؛ فهؤلاء إخوانه في الدِّين الجديد، فكلُّ مشركي الأرض، وطغاتها لا يساوون عنده واحداً من هؤلاء، وبهذه العناصر، وغيرها تُبنَى دولةُ التَّوحيد،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٢) حلٌّ: تحلَّلي من يمينك.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٣٤٦).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٣).
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (١/ ٣٤٥).

وتصنع حضارة الإسلام الرَّائدة، والرَّائعة[1]. ولم يكن الصدِّيق يقصد بعمله هذا محمدةً، ولا جاهاً، ولا دنيا، وإنَّما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، ولقد قال له أبوه ذات يوم: «يا بنيَّ، إنِّي أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنَّك إذ فعلت ما فعلت؛ أعتقت رجالاً أجْلاداً يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت! إنِّي إنَّما أريد ما أريد لله عزَّ وجلَّ». فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصِّدِّيق قرآناً يتلىٰ إلى يوم الدِّين.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[2] [الليل: ٥ ـ ٢١].

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلاميَّة الأولى قِمَّةً من قِمَمِ الخير، والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيدُ بالإسلام أصحابَ عقيدةٍ، وفكرةٍ، يناقشون بها، وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على شرائهم، ثمَّ إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدِّين، ومدى تغلغله في نفسية الصِّدِّيق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحيُوا هذا المثل الرَّفيع، والمشاعر السَّامية؛ ليتم التَّلاحم والتَّعايش، والتَّعاضد بين أبناء الأمة؛ الَّتي يتعرض أبناؤها للإبادة الشَّاملة من قِبَلِ أعداء العقيدة، والدِّين!

٣ ـ عمَّار بن ياسرٍ، وأبوه، وأمُّه رضي الله عنه:

كان والد عمَّار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكَّة، وأخواه: الحارثُ، ومالكٌ يطلبون أخاً لهم، فرجع الحارث، ومالكٌ إلى اليمن، وأقام ياسرٌ بمكَّة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزوميَّ[3]، فزوَّجه أبو حذيفةَ أَمَةً له، يقال لها: سُميَّة بنت خيَّاط، فولدت له عَمَّاراً، فأعتقه أبو حذيفة الَّذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر، وسميَّة، وعمَّار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً، وصبُّوا عليهم العذاب صبّاً، فكانوا يُخرِجونهم إذا حميت الظَّهيرة، فيعذِّبونهم برمضاء مكَّة[4]، ويقلِّبونهم ظهراً لبطنٍ[5]، فيمرُّ عليهم الرَّسول ﷺ؛ وهم يعذَّبون، فيقول: «صبراً آل

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٤٢).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣١٩)، وتفسير الآلوسي (٣٠/ ١٥٢).
(٣) انظر: أنساب الأشراف، للبلاذريِّ (١/ ١٠٠، ١٥٧).
(٤) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٢/ ٦٨).
(٥) بهجة المحافل، للعامريِّ (١/ ٩٢).

ياسر ! فإنَّ موعدكم الجنة» [الحاكم (٣/ ٣٨٣) والحلية (١/ ١٤٠) والمطالب العالية (٤٠٣٤)][١] . وجاء أبو جهل إلى سميَّة ، فقال لها : ما آمنت بمحمَّد إلا لأنكِ عشقتِه لجماله ، فأغلظت له القول ، فطعنها بالحربة في ملمس العِفَّة ، فقتلها ، فهي أوَّل شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[٢] ، وبذلك سطَّرت بهذا الموقف الشُّجاع أعلى ، وأغلىٰ ما تقدِّمه امرأةٌ في سبيل الله ؛ لتبقى كلُّ امرأةٍ مسلمةٍ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها ، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها ، فلا تبخل بشيءٍ في سبيل الله بعد أن جادت سميَّة بنت خيَّاط بدمها في سبيل الله[٣] .

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال : «أقبلتُ مع رسول الله ﷺ آخذاً بيده نتمشَّى بالبطحاء ، حتَّى أتى على آل عمَّار بن ياسر ، فقال أبو عمَّار : يا رسول الله ! الدَّهر هكذا؟ فقال له النَّبيُّ ﷺ : اصبر ، ثمَّ قال : اللَّهمَّ اغفر لآل ياسرٍ ، وقد فعلتَ» [أحمد (١/ ٦٢)][٤] . ثمَّ لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب .

لم يكن في وسع النَّبيِّ ﷺ أن يقدمَ شيئاً لآل ياسر ، رموز الفداء ، والتضحية ، فليسوا بأرقاء حتَّى يشتريهم ، ويعتقهم ، وليست لديه القوَّة ليستخلصهم من الأذى والعذاب ، فكلُّ ما يستطيعه ﷺ أن يزفَّ لهم البشرى بالمغفرة ، والجنَّة ، ويحثَّهم على الصبر ؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوةً للأجيال المتلاحقة ، ويشهد الموكب المستمرُّ على مدار التَّاريخ هذه الظَّاهرة : «صبراً آل ياسر ! فإنَّ موعدكم الجنَّة» [سبق تخريجه][٥] .

أمَّا عمَّارٌ رضي الله عنه ، فقد عاش بعد أهله زمناً يكابد من صنوف العذاب ألواناً ، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين ، الَّذين لا عشائر لهم بمكَّة تحميهم ، وليست لهم منعةٌ ، ولا قوَّةٌ ، فكانت قريش تعذِّبهم في الرَّمضاء بمكَّة في منتصف النَّهار ؛ ليرجعوا عن دينهم ، وكان عمَّار يُعذَّب حتَّى لا يدري ما يقول[٦] . ولمَّا أخذه المشركون ليعذبوه ؛ لم يتركوه حتَّى سبَّ النَّبيَّ ﷺ ، وذكر آلهتهم بخيرٍ ، فلمَّا أتى النَّبيَّ ﷺ قال : «ما وراءك؟» قال : شرٌّ ، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك! وذكرت آلهتهم بخير ، قال : «كيف تجد قلبك؟» قال : مطمئنّاً بالإيمان ، قال : « فإن عادوا ؛ فعد » [الحاكم (٢/ ٣٥٧) والزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٥٨)][٧] . ونزل

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) انظر : محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٩٩ .
(٣) التَّربية القياديَّة (١/ ٢١٧) .
(٤) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٩٨ .
(٥) التَّربية القياديَّة (١/ ٢١٧ ، ٢١٨) .
(٦) انظر : محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٠ .
(٧) انظر : فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ١٠٣ .

الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمَّار. قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ(١).

وفي حادثتي بلالٍ، وعمَّارٍ فقهٌ عظيمٌ يتراوح بين العزيمة، والرُّخصة، يحتاج الدُّعاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصَّحيح، وفي معاييره الدَّقيقة دون إفراطٍ، أو تفريطٍ.

٤ ـ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه:

تعرَّض للفتنة من قِبَلِ والدته الكافرة، فقد امتنعت عن الطَّعام، والشَّراب حتَّى يعود إلى دينها. روى الطَّبرانيُّ: أن سعداً قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلاً بارّاً بأمِّي، فلمَّا أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدِّين الَّذي أراك قد أحدثت؟! لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتَّى أموت، فتُعيَّر بي، فيقال: يا قاتلَ أمه! فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه؛ فإنِّي لا أدع ديني لشيء، فمكثتْ يوماً وليلةً لم تأكل، فأصبحتْ؛ وقد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت وقد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلةً أخرىٰ لا تأكل، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها، فلمَّا رأيت ذلك؛ قلت: يا أُمَّه، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفسٍ، فخرجت نفساً نفساً؛ ما تركت ديني هذا الشيءِ، فإن شئت؛ فكلي، وإن شئت؛ لا تأكلي! فأكلتْ(٢).

وروىٰ مسلمٌ: أنَّ أمَّ سعدٍ حلفت ألاَّ تكلِّمه أبداً؛ حتَّى يكفر بدينه، ولا تأكل، ولا تشرب، قالت: زعمْتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمُّك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثتْ ثلاثاً حتَّى غُشي عليها من الجهد، فقال ابنٌ لها ـ يقال له عُمَارَةَ ـ فسقاها، فجعلت تدعو على سعدٍ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾؛ وفيها: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها؛ شجروا فاها بعصاً، ثمَّ أَوْجَرُوها [مسلم (١٧٤٨) والترمذي (٣١٨٩)](٣). فمحنة سعدٍ محنةٌ عظيمةٌ، وموقفه موقف فَذٌّ، يدلُّ على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنَّه لا يقبل فيه مساومةً مهما كانت النَّتيجة(٤).

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦).

(٣) (شجروا فاها ثم أوجروها): أي فتحوا فمها، وصبُّوا فيه الطَّعام.

(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ١٠٦.

ومن خلال تتبُّع القرآن المكيِّ، نجد: أنَّه برغم قطع الولاء، سواءٌ في الحبِّ، أو النُّصرة بين المسلم وأقاربه الكفَّار، فإنَّ القرآن أمر بعدم قطع صلتهم، وببرِّهم، والإحسان إليهم، ومع ذلك فلا ولاء بينهم؛ لأنَّ الولاء لله ولرسوله ﷺ، لدينه، وللمؤمنين[١].

٥ ـ مصعب بن عُمَير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير أنعمَ غلامٍ بمكَّة، وأجودَها حلَّةً، وكان أبواه يحبِّانه، وكانت أمُّه مليئةً كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثِّياب، وأرقَّه، وكان أعطرَ أهل مكَّة، يلبس الحضرميَّ، من النِّعال[٢]، وبلغ من شدَّة كلف أمِّه به: أنَّه كان يبيت وقَعْبُ الحَيْس[٣] عند رأسه، فإذا استيقظ من نومه؛ أكل[٤]، ولمَّا علم: أنَّ رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ دخل عليه، فأسلم، وصدَّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمِّه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرّاً، فبصر به عثمان بن طلحة[٥] يصلِّي، فأخبر أمَّه وقومه، فأخذوه، وحبسوه، فلم يزل محبوساً حتَّى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[٦].

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: لقد رأيته وقد جَهِدَ في الإسلام جهداً شديداً، حتَّى لقد رأيت جلده يتحشَّف ـ أي: يتطاير ـ تحشُّف جلد الحيَّة عنها، حتَّى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله ممَّا به من الجهد[٧]، وكان رسول الله ﷺ كلَّما ذكره، قال: «ما رأيت بمكَّة أحداً أحسن لمَّةً، ولا أرقَّ حلَّةً، ولا أنعم نعمةً، من مصعب بن عمير» [الحاكم (٣/ ٢٠٠)][٨]، ومع كلِّ ما أصابه رضي الله عنه من بلاءٍ ومحنةٍ، ووهنٍ في الجسم، والقوَّة، وجفاءٍ من أقرب النَّاس إليه لم يقصِّر عن شيءٍ ممَّا بلغه أصحاب رسول الله ﷺ من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتَّى أكرمه الله تعالى بالشَّهادة يوم أحدٍ[٩].

يُعَدُّ مصعبٌ رضي الله عنه أنموذجاً من تربية الإسلام للمترفين الشَّباب، للمنعمين من أبناء

---

(١) انظر: الولاء والبراء، لمحمَّد القحطاني، (ص ١٧٤، ١٧٥).
(٢) الطَّبقات الكبرى (٣/ ١١٦).
(٣) القعب: القدح الغليظ، والحيس: تمر، وأقط، وسمن تخلط، وتعجن.
(٤) الرَّوض الأنف (٢/ ١٩٥).
(٥) سير أعلام النبلاء، للذَّهبي (٣/ ١٠ ـ ١٢).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ١٠٧.
(٧) السِّير والمغازي، لابن إسحاق، ص١٩٣.
(٨) الطَّبقات الكبرى (٣/ ١١٦).
(٩) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ١٠٨.

الطَّبقات الغنيَّة المرفَّهة، لأبناء القصور، والمال، والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنُّقهم، السَّاعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيَّرت، ووقف بعد إسلامه قويّاً لا يضعف، ولا يتكاسل، ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه، وشهواته؛ فيسقط في جحيم النَّعيم الخادع[1].

لقد ودَّع ماضيه بكلِّ ما فيه من راحةٍ ولذَّةٍ، وهناءةٍ، يوم دخل هذا الدِّين، وبايع تلك البيعة، وكان لابدَّ له من المرور في درب المحنة؛ لكي يصقل إيمانه، ويتعمَّق يقينه، وكان مصعب مطمئناً راضياً برغم ما حوله من جبروتٍ، ومخاوف، وبرغم ما نزل به من البؤس، والفقر، والعذاب، وبرغم ما فقده من مظاهر النَّعيم والرَّاحة[2]، فقد تعرَّض لمحنة الفقر، ومحنة فَقْدِ الوجاهة، والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتَّعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كلِّ تلك المحن منتصراً بدينه وإيمانه، مطمئناً أعمق الاطمئنان، ثابتاً أقوى الثبات[3]، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

٦ ـ خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خبَّاب رضي الله عنه قَيْناً[4] بمكَّة، وأراد الله له الهداية مبكِّراً، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[5]، فكان من المستضعفين الَّذين عُذبوا بمكَّة لكي يرتدَّ عن دينه، ووصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحمَّاة حتَّى ذهب ماء مَتْنه[6].

وكان الرَّسول ﷺ يألف خباباً، ويتردَّد عليه بعد أن أسلم، فلمَّا علمت مولاته بذلك، وهي أمُّ أنمار الخزاعيَّة، أخذت حديدةً قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابٌ ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «اللَّهمَّ انصر خباباً!» فاشتكت مولاتُه رأسَها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خبَّابٍ ليكويها، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرةً لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله، ونصره من عباده

---

(١) انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد، لمحمد بريغش، ص ١٠٥.
(٢) المصدر السَّابق نفسه، (ص ١٠٥، ١٠٧).
(٣) انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد، ص ١٢٦.
(٤) قيناً: حداداً.
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٩).
(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٩٥.

المؤمنين الصابرين! فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويَ رأسَها[1].

ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين، ولقوا منهم شدَّةً؛ جاء خبَّابٌ إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، فقال له: «ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟!» فقعد الرَّسول ﷺ وهو محمرٌّ وجهه، قال: «كان الرَّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عَصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله! لَيَتمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [البخاري (٣٦١٢) وأحمد (٥/١٠٩ و١١١) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٨/٢٠٤)].

وللشيخ سلمان العودة ـ حفظه الله ـ تعليقٌ لطيفٌ على هذا الحديث، هو: يا سبحان الله! ماذا جرى حتى احمرَّ وجه المصطفى ﷺ، وقعد من ضجعته، وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القويِّ المؤثِّر، ثمَّ عاتبهم على الاستعجال؛ لأنهم طلبوا الدُّعاء منه ﷺ؟ كلا، حاشاه من ذلك، وهو الرَّؤوف الرَّحيم بأمَّته.

إنَّ أسلوب الطَّلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنَّه صادر من قلوبٍ أضناها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدَّتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النَّصر، فتستدعيه، وهو ﷺ يعلم: أنَّ الأمور مرهونةٌ بأوقاتها، وأسبابها، وأنَّ قبل النَّصر البلاءُ، فالرُّسل تُبتلى، ثمَّ تكون لها العاقبة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

ويلمس ـ عليه السَّلام ـ من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، بَرَمهم بالعذاب الذي يلاقون، حتَّى يُفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التَّعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ـ بمجرَّد قراءة النَّصِّ ـ حقيقة الحال التي كانوا عليها، حين طلبوا منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ الدُّعاء، والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات الَّتي كانت تثور في نفوسهم، إلا أن يعيش حالاً قريباً من حالهم، ويعاني ـ في سبيل الله ـ بعضَ ما عانوا.

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، ص ٩٦.

لقد كان ﷺ يربِّيهم على:

أ ـ التأسِّي بالسَّابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، في تحمُّل الأذى في سبيل الله، ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب ـ التَّعلُّق بما أعدَّه الله في الجنة للمؤمنين الصَّابرين من النَّعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدُّنيا.

ج ـ التَّطلُّع للمستقبل، الَّذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدُّنيا، ويذلُّ فيه أهل الكفر، والعصيان.

وثمَّة أمرٌ آخر كبيرٌ، ألا وهو: أنَّه ﷺ مع هذه الأشياء كلِّها كان يخطِّط، ويستفيد من الأسباب الماديَّة المتعدِّدة لرفع الأذى والظُّلم عن أتباعه، وكفِّ المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدَّولة الَّتي تجاهد في سبيل الدِّين، وتتيح الفرصة لكلِّ مسلمٍ أن يعبد ربَّه حيث شاء، وتزيل الحواجز، والعقبات الَّتي تعترض طريق الدَّعوة إلى الله[١].

وقد تحدَّث خبابٌ رضي الله عنه عن بعض ما كانوا يلقونه من المشركين، من عنتٍ، وسوء معاملة، ومساومةٍ على الحقوق، حتَّى يعودوا إلى الكفر، فقال: كنت رجلاً قَيْناً[٢]، وكان لي على العاص بن وائل دَيْنٌ، فأتيته لأقتضيه، فقال لي: لن أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد، فقلت: لن أكفر حتَّى تموت، وتبعث، قال: وإنِّي لمبعوث بعد الموت؟ فإن كان ذلك؛ فلسوف أقضيك؛ إذا رجعت إلى مالي وولدي، فنزلت فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠] [البخاري (٢٠٩١) ومسلم (٢٧٩٥)].

وذُكِرَ: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبَّاباً عمَّا لقي في ذات الله تعالى، فكشف خبابٌ عن ظهره، فإذا هو قد برص، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، فقال خباب: يا أميرَ المؤمنين، لقد أوْقَدُوا لي ناراً، ثمَّ سلقوني فيها، ثمَّ وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري، فما اتَّقيت الأرض ـ أو قال: برد الأرض ـ إلا بظهري، وما أطفأ تلك النَّار إلا شحمي[٣].

٧ ـ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه:

كان منهج رسول الله ﷺ في معاملته للنَّاس حكيماً، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطفٍ وترفُّقٍ، وكذلك الصِّبيان الصِّغار؛ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدِّثنا عن لقائه اللَّطيف

---

(١) انظر: الغرباء الأوَّلون، ص ١٤٥، ١٤٦.
(٢) القَيْنُ: الحداد، والجمع: قُيُون.
(٣) الرَّوض الأنف (٢/ ٩٨).

برسول الله ﷺ يقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقْبة بن أبي مُعَيْط، فمرَّ بي رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ، فقال: يا غلام! هل من لبنٍ؟ قلت: نعم، ولكني مؤتمنٌ، قال: فهل من شاةٍ لم يَنْزُ عليها فحلٌ؟ فأتيته بشاةٍ، فمسح ضرعها، فنزل لبنٌ فحلبه في إناءٍ، فشرب، وسَقَى أبا بكرٍ، ثمَّ قال للضَّرع: اقلص، فقلص، قال: ثمَّ أتيته بعد هذا فقلت: يا رسولَ الله! علِّمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي، وقال: «يرحمك الله! فإنَّك غُلَيِّم معلَّمٌ» [أحمد (١/ ٣٧٩ و٤٦٢) وأبو يعلى (٤٩٨٥) والطيالسي (٣٥٣) والحلية (١/ ١٢٥)][1].

وهكذا كان مِفْتَاحُ إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه: «إنِّي مؤتمن»، والثانية: كانت من الصادق المصدوق، حيث قال له: «إنك غُلَيِّم معلَّم».

ولقد كان لهاتين الكلمتين دورٌ عظيمٌ في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضي الله عنهم، ودخل عبد الله في ركب الإيمان، وهو يمخر بحار الشِّرك في قلعة الأصنام، فكان واحداً من أولئك السَّابقين؛ الَّذين مدحهم الله في قرآنه العظيم[2]، وقد قال عنه ابن حجر: «أحد السَّابقين الأوَّلين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، والمشاهد بعدها، ولازم النَّبيَّ ﷺ، وكان صاحب نعليه»[3].

أوَّل من جهر بالقرآن الكريم:

بالرَّغم من أنَّ ابن مسعودٍ رضي الله عنه كان حليفاً، وليس له عشيرةٌ تحميه، ومع أنَّه كان ضئيل الجسم، دقيق السَّاقين، فإنَّ ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته، وقوَّة نفسه رضي الله عنه وله مواقف رائعةٌ في ذلك؛ منها ذلك المشهد المثير في مكَّة، وإبَّان الدَّعوة، وشدَّة وطأة قريشٍ عليها، فلقد وقف على مَلَئِهم، وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة، وقلوبهم المغلَّقة[4]، فكان أوَّل من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكَّة.

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله! ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطُّ، فَمَنْ رجلٌ يُسْمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعودٍ: أنا! قالوا: إنَّا نخشاهم عليك، إنَّما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم؛ إن أرادوه! قال: دعوني؛ فإنَّ الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعودٍ حتَّى أتى المقام في الضُّحى؛ وقريشٌ في أنديتها؛ حتَّى قام عند المقام، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ رافعاً بها صوته ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، قال: ثمَّ استقبلها يقرؤها، قال: فتأمَّلوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟ قال: ثمَّ قالوا:

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٣٢)، وسير أعلام النُّبلاء (١/ ٤٦٥).
(٢) انظر: عبد الله بن مسعود، لعبد الستار الشَّيخ، ص٤٣.
(٣) الإصابة (٦/ ٢١٤).
(٤) انظر: عبد الله بن مسعود، ص٤٥.

إنَّه ليتلو بعض ما جاء به محمَّدٌ! فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتَّى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثمَّ انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غداً! قالوا: لا! حسبُك، قد أسمعتهم ما يكرهون(١).

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أوَّل مَنْ جهر بالقرآن بمكَّة بعد رسول الله ﷺ، ولا غرو: أنَّ هذا العمل الَّذي قام به عبد الله يعتبر تحدِّياً عملياً لقريشٍ؛ التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التَّجربة على الرَّغم ممَّا أصابه من أذى(٢).

٨ ـ خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالدٍ قديماً؛ لرؤيا رآها عند أوَّل ظهور النَّبي ﷺ؛ إذ رأى كأنَّه وقف على شفير النَّار، وهناك مَنْ يدفعه فيها، والرَّسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقداً: أنَّ هذه الرؤيا حقٌّ، فقصَّها على أبي بكرٍ الصِّدِّيق، فقال له: أُرِيدَ بك خيراً، هذا رسول الله ﷺ فاتَّبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفاً من أبيه، لكنَّ أباه علم لمَّا رأى كثرة تغيُّبه عنه، فبعث إخوته الَّذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنَّبه، وضربه بمقرعةٍ، أو عصاً كانت في يده، حتى كسرها على رأسه، ثمَّ حبسه بمكَّة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذَّرهم من عمله، ثمَّ ضيق عليه الخناق؛ فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيَّامٍ، وهو صابرٌ محتسبٌ، ثمَّ قال له أبوه: والله لأمنعنَّك القوت! فقال خالد: إن منعتني فإنَّ الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه، ويكون معه، ثمَّ رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرَّة الثَّانية(٣).

٩ ـ عثمان بن مظعونٍ رضي الله عنه:

لمَّا أسلم عَدَا عليه قومُه بنو جمح، فآذوه، وكان أشدَّهم عليه وأكثرهم إيذاءً له أميةُ بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه(٤):

أأخْـرَجْتَنِـي مِـنْ بطـن مكَّـةَ آثمـاً ... وأَسْكَنْتَنِـي فـي صَـرْحٍ بَيْضَـاءَ تُقْـذَعُ
تَـرِيْـشُ نِبَـالاً لاَ يُـواتِيْـكَ رِيْشُهَـا ... وتَبْـرِي نِبَـالاً رِيْشُهَـا لَـكَ أَجْمَـعُ
وحَـارَبْـتَ أَقْـوامـاً كِـرَامـاً أَعِـزَّةً ... وأَهْلَكْـتَ أَقْـوَامـاً بِهِـمْ كُنْـتَ تَفْـزَعُ
سَتَعْلَـمُ إِنْ نَـابَتْـكَ يَـوْمَـاً مُلِمَّـةٌ ... وأَسْلَمَـكَ الأَوْبَـاشُ مَـا كُنْـتَ تَصْنَـعُ

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).
(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّي، ص ٨٨.
(٣) انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٦٠).
(٤) السِّيرة النَّبوية، للذَّهبيِّ، ص ١١٢.

وبقي عثمان بن مظعون فترةً في الحبشة، لكنَّه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرَّة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكَّة إلا بجوارٍ من الوليد بن المغيرة، حيث ظلَّ يغدو في جواره آمناً مطمئناً، فلمَّا رأى ما يصيب أصحاب النَّبيِّ ﷺ من البلاء، وما هو فيه من العافية، أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله! إنَّ غُدوِّي، ورَواحي آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشِّرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني؛ لنقصٌ كبير في نفسي[1]، فذهب إلى الوليد بن المغيرة، وقال له: يا أبا عبد شمس! وفت ذمَّتك، وقد ردَدت إليك جوارك! فقال: لِمَ يابن أخي؟ فلعلَّك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا! ولكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلِقْ إلى المسجد فارددْ عليَّ جواري علانيةً، كما أجرتك علانيةً، فانطلقا إلى المسجد فردَّ عليه جواره أمام النَّاس، ثمَّ انصرف عثمان إلى مجلسٍ من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة[2] الشَّاعر ينشدهم، فقال لبيد: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ». فقال عثمان: صدقت، واستمرَّ لبيد في إنشاده، فقال: «وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل»، فقال: عثمان: كذبت، نعيم الجنَّة لا يزول! قال لبيد: يا معشر قريش! والله ما كان يُؤْذَى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيهٌ في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله، فردَّ عليه عثمان حتَّى شَرِيَ[3] أمرُهما، فقام إليه ذلك الرَّجل، فلطم عينه فاخْضرَّت، والوليد بن المغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يابن أخي! إن عينك لغنيةٌ عمَّا أصابها، ولقد كنت في ذمَّةٍ منيعةٍ، فقال عثمان: والله! إنَّ عيني الصَّحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنِّي لفي جوار من هو أعزُّ منك، وأقدر يا أبا عبد شمس! ثمَّ عرض عليه الوليد الجوار مرَّةً أخرى، فرفض[4].

وهذا يدلُّ على مدى قوَّة إيمانه رضي الله عنه، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله؛ ولذلك لمَّا مات، رأت أمُّ العلاء الأنصاريَّة ـ وكان عثمان ممَّن وقع في سهمها عندما اقترع الأنصار على سكنى المهاجرين ـ في المنام: أنَّ له عيناً تجري، فجاءت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ذلك عملُه» [البخاري (٧٠٠٤)].

وغير هؤلاء من الصَّحابة الكرام تعرَّض للتَّعذيب، وهكذا نرى أولئك الرَّهط من الشَّباب القرشيِّ، قد أقبلوا على دعوة الرَّسول ﷺ، واستجابوا لها، والتفُّوا حول صاحبها؛ على الرَّغم من مواقف آبائهم، وذويهم، وأقربائهم المتشدِّدة تجاههم، فضحُّوا بكل ما كانوا يتمتَّعون به

(١) السِّيرة النَّبوية لابن هشام (٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: طبقات الشُّعراء، لابن سلام، (ص ٤٨، ٤٩).
(٣) شَرِيَ: عظم.
(٤) السِّير والمغازي، لابن إسحاق، (ص ١٧٨ ـ ١٨٠).

من امتيازاتٍ قبل دخولهم في الإسلام ، وتعرَّضوا للفتنة ؛ رغبةً فيما عند الله تعالى من الأجر ، والثَّواب ، وتحمَّلوا أذىً كثيراً ، وهذا فعل الإيمان في النفوس عندما يخالطها ، فتستهين بكلِّ ما يصيبها من عنتٍ ، وحرمانٍ ؛ إذا كان ذلك يؤدِّي إلى الفوز برضا الله تعالى ، وجنَّته.

هذا ، ولم يكن التَّعذيب والأذى مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم ، وإنَّما طال النِّساء أيضاً قسطٌ كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنَّ ، كسميَّة بنت خياط ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، ولبيبة جارية بني المؤمِّل ، وزِنِّيرة الرُّوميَّة ، والنَّهْدية ، وابنتها ، وأمِّ عُبَيْسٍ ، وحمامةَ أمِّ بلال ، وغيرهنَّ[١].

خامساً: حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ ﷺ بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدِّفاع عن أنفسهم ، ويبدو: أنَّ الموقف السِّلمي أغاظ بعضهم ، وخاصَّةً الشَّباب منه ، وقد أتى عبدُ الرحمن بن عوف وأصحابُه رضي الله عنهم إلى النَّبيِّ ﷺ بمكَّة ، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزَّةٍ ونحن مشركون ، فلمَّا آمنَّا ؛ صرنا أذلَّةً! قال: «إنِّي أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم» [(النسائي (٦/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١١) والحاكم (٢/٦٦ ـ ٦٧ و٣٠٧)][٢].

وتعرَّض بعض الباحثين للحكمة الرَّبَّانيَّة في عدم فرضية القتال في مكَّة ، ومن هؤلاء الأستاذ سيِّد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال: لا نجزم بما نتوصَّل إليه ؛ لأنَّنا حينئذٍ نتألَّى على الله ما لم يبيِّن لنا من حكمةٍ ، ونفرض أسباباً ، وعللاً قد لا تكون هي الأسباب ، والعلل الحقيقية ، أو قد تكون.

ذلك: أنَّ شأن المؤمن أمام أيِّ تكليفٍ ، أو أيِّ حكمٍ من أحكام الشَّريعة هو التَّسليم المطلق ؛ لأنَّ الله سبحانه هو العليم الخبير ، وإنَّما نقول هذه الحكم ، والأسباب من باب الاجتهاد ، وعلى أنَّه مجرَّد احتمال ؛ لأنَّه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ولم يحدِّدها هو لنا ، ويطلعنا عليها بنصٍّ صريح[٣] ، ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجازٍ:

١ ـ أنَّ الكفَّ عن القتال في مكَّة ربما لأنَّ الفترة المكِّيَّة كانت فترة تربيةٍ ، وإعدادٍ ، في بيئةٍ معيَّنةٍ ، لقومٍ معيَّنين ، وسط ظروفٍ معيَّنةٍ ، ومن أهداف التَّربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربيِّ على الصَّبر ، على ما لا يصبر عليه عادة من الضَّيم حين يقع عليه ، أو على من يلوذون

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، (ص ١١٦ ، ١١٧).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٥٨).
(٣) الظلال (٢/٧١٤).

به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرَّد من ذاته، فلا يندفع لأوَّل مؤثِّر، ولا يهيج لأوَّل مهيجٍ؛ ومن ثمَّ يتمُّ الاعتدال في طبيعته، وحركته، ثمَّ تربيته على أن يتَّبع نظام المجتمع الجديد، بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرَّف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصيَّة العربيِّ المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدَّعوة السِّلميَّة أشدُّ أثراً وأنفذُ في مثل بيئة قريش، ذات العنجهيَّة والشَّرف، والَّتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد، ونشأة ثاراتٍ دمويةٍ جديدةٍ، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس، والغبراء، وحرب البسوس، وحينئذٍ يتحوَّل الإسلام من دعوةٍ، إلى ثاراتٍ تُنسى معها فكرتُه الأساسيَّة.

٣ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كلِّ بيت، فلم تكن هناك سلطةٌ نظاميَّةٌ عامَّةٌ هي التي تعذِّب المؤمنين، وإنَّما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كلِّ فردٍ، ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركةٌ، ومقتلةٌ في كلِّ بيتٍ، ثمَّ يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتَّى والإسلام يأمر بالكفِّ عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم: أنَّ محمداً يفرِّق بين الوالد، وولده، فوق تفريقه لقومه، وعشيرته؛ فكيف لو كان يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟!

٤ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لما يعلمه الله من أنَّ كثيراً من المعاندين، الَّذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذِّبونهم، سيكونون من جند الإسلام المخلصين؛ بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطَّاب من بين هؤلاء؟!

٥ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ النَّخوة العربيَّة في بيئةٍ قبليَّةٍ، من عادتها أن تثور للمظلوم الَّذي يتحمَّل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصَّةٍ إذا كان الأذى واقعاً على كرام النَّاس فيهم؛ وقد وقعت ظواهر كثيرةٌ تثبت صحَّة هذه النَّظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغنَّة[1] لم يرضَ أن يترك أبا بكر ـ وهو رجلٌ كريم ـ يهاجرُ ويخرج من مكَّة ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره، وحمايته، وآخر هذه الظَّواهر، نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شِعْب أبي طالب.

٦ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً لقلَّة عدد المسلمين حينئذٍ، وانحصارهم في مكَّة؛ حيث لم تبلغ الدَّعوة إلى بقيَّة الجزيرة، أو بلغت، ولكن بصورةٍ متناثرةٍ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركةٍ داخليَّةٍ بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف؛ ففي مثل

---

(١) ابن الدُّغنَّة: رجلٌ جاهليٌّ أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه، وأراد الهجرة إلى الحبشة، انظر: الإصابة (٢/ ٣٤٤).

هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتَّى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشِّرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظامٌ، ولا يوجد له كيانٌ واقعيٌّ، وهو دينٌ جاء ليكون منهج حياةٍ ونظام دنيا وآخرة.

٧ ـ أنَّه لم تكن هناك ضرورةٌ قاهرةٌ ملحَّةٌ لتجاوز هذه الاعتبارات كلِّها، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأنَّ الأمر الأساسيَّ في هذه الدَّعوة كان قائماً، ومحقَّقاً، وهو (وجود الدَّعوة)، ووجودها في شخص الدَّاعية محمَّد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتدُّ إليه يدٌ إلا وهي مهدَّدة بالقطع؛ ولذلك لا يجرؤ أحدٌ على منعه من إبلاغ الدَّعوة، وإعلانها في ندوات قريشٍ حول الكعبة، ومِنْ فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامَّة، ولا يجرؤ أحدٌ على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله.

إنَّ هذه الاعتبارات كلَّها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمةُ الله معه أن يأمر المسلمين بكفِّ أيديهم، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة؛ لتتمَّ تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب، وليُخرجوا أنفسهم من المسألة كلِّها، فلا يكون لذواتهم فيها حظٌّ؛ لتكون خالصةً، وفي سبيل الله[(١)].

وقد تعلَّم الصَّحابة من القرآن الكريم فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التَّعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهكذا تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ المصلحة إنْ أدَّت إلى مفسدةٍ أعظمَ؛ تُتْرَكُ[(٢)]، وفي هذا تهذيبٌ أخلاقيٌّ، وسموٌّ إيمانيٌّ، وترفُّعٌ عن مجاراة السُّفهاء الَّذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء: أنَّ الحكم باقٍ في الأمَّة على كلِّ حالٍ، فمتى كان الكافر في منعةٍ، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيفة أن يُسبَّ الإسلامُ، أو النَّبيُّ ﷺ أو اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يحلُّ لمسلمٍ أن يسبَّ صلبانهم، ولا دينهم، ولا كنائسهم، ولا أن يتعرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك؛ لأنَّه فعلٌ بمنزلة التَّحريض على المعصية، وهذا نوعٌ من الموادعة، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدِّ الذَّرائع[(٣)].

والنَّاظر في الفترة المكِّيَّة ـ والَّتي كانت ثلاثة عشر عاماً، كلُّها في تربيةٍ، وإعدادٍ وغرسٍ لمفاهيم (لا إله إلا الله) ـ يدرك ما لأهمِّيَّة هذه العقيدة من شأنٍ في عدم الاستعجال واستباق

---

(١) الولاء والبراء، لمحمَّد القحطاني، لخَّص نقاطاً من الظلال، ص ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، وفي ظلال القرآن (٢/ ٧١٤، ٧١٥)، وفي (معالم في الطَّريق) (ص ٦٩ ـ ٧١).

(٢) انظر: التفسير المنير، للزُّحَيلي (٧/ ٣٢٥).

(٣) المصدر السَّابق نفسه، (٧/ ٣٢٦).

الزَّمن، فالعقيدة بحاجةٍ إلى غرسٍ يُتعَهَّد بالرِّعاية، والعناية، والمداومة؛ بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيبٌ، وما أجدرَ الدُّعاةَ إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة وقفةً طويلةً، فيأخذوا منها العبرة والأسوة؛ لأنَّه لا يقف في وجه الجاهليَّة ـ أيّاً كانت قديمةً، أو حديثةً، أو مستقبلةً ـ إلا رجالٌ اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الرَّبَّانيَّة، وتعمَّقت جذور شجرة التَّوحيد في نفوسهم(١).

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بضبط النَّفس والتَّحلِّي بالصَّبر، وكان يربِّي أصحابه على عينه، ويوجِّههم نحو توثيق الصِّلة بالله، والتَّقرُّب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكِّيَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]، فقد أرشدت سورة المزمِّل الصَّحابة إلى حاجة الدُّعاة إلى قيام الليل، والدَّوام على الذِّكر، والتَّوكُّل على الله في جميع الأمور، وضرورة الصَّبر، ومع الصَّبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصَّالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزَّمِّل، تأمر النَّبيَّ ﷺ أن يخصِّص شطراً من اللَّيل للصَّلاة، وقد خيَّره الله تعالى أن يقوم للصَّلاة نصف اللَّيل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النَّبيُّ ﷺ، وأصحابُه معه قريباً من عامٍ، حتَّى ورمت أقدامهم، فنزل التَّخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربُّهم، فخفَّف عنهم، فقال: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفُرُشِ، ومقاومة النَّوم، ومألوفات النَّفس؛ لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس تمهيداً لحمل زمام القيادة، والتَّوجيه في عالمهم؛ إذ لابدَّ من إعدادٍ روحيٍّ عالٍ لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، واتَّخذ منهم شهداء على النَّاس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التَّاريخية، كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة النَّاس إلى التَّوحيد، وتخليصهم من الشِّرك، وهي مهمَّةٌ عظيمةٌ يقدر على تنفيذها أولئك الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

وقد وصف الله قيام اللَّيل، والصَّلاة فيه، وقراءة القرآن ترتيلاً ـ أي: مع البيان والتُّؤدة ـ بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ فهو أثبت أثراً في النَّفس مع سكون اللَّيل، وهدأة

---

(١) انظر: الولاء والبراء، ص ١٧١.

الخلق، حيث تخلو من شواغلها، وتفرغ للذِّكر والمناجاة بعيداً عن علائق الدُّنيا، وشواغل النَّهار، وبذلك يتحقَّق الاستعداد اللازم لتلقِّي الوحي الإلٰهيِّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ والقول الثَّقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدَّقيق للمسلمين الأوائل، في قدرتهم على تحمُّل أعباء الجهاد وإنشاء الدَّولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا النَّاس، ونشره بين العالمين[1].

لقد كان النَّبيُّ ﷺ مهتمّاً بجبهته الدَّاخلية، وحريصاً على تعبئة أصحابه بالعقيدة القويَّة، التي لا تتزعزع، ولا تلين، وكان هذا مبعثاً لروح معنويَّةٍ مرتفعةٍ، وقويَّةٍ للدِّفاع وتحمُّل العذاب والأذى في سبيل الدَّعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وَحْدَةً متماسكةً، لا تؤثِّر فيها حملات العدوِّ النَّفسيَّة، ولا تجد لها مكاناً في هذه الجماعة، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين، فقد أصبحت رابطة الأخوَّة في الله تزيد على رابطة الدَّم، والنَّسب، وتفضلها في الدِّين الإسلاميِّ.

وتعايش الرَّعيل الأوَّل بمعاني الأخوَّة الرَّفيعة، القائمة على الحبِّ، والمودَّة، والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان ﷺ يحثُّ المسلمين على الأخوَّة، والتَّرابط، والتَّعاون وتفريج الكرب، لا لشيءٍ إلا لرضا الله سبحانه، لا نظير خدمةٍ مقابلةٍ، أو نحو ذلك، وإنَّما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادىء هي سرُّ استمرار الأخوَّة الإسلاميَّة، وتماسك المجتمع الإسلاميِّ[2]، وبيَّن لهم الرَّسول ﷺ في الحديث القدسيِّ؛ الذي يرويه عن ربِّه سبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النَّبيُّون والشُّهداء» [الترمذي (٢٣٩٠) وأحمد (٥/ ٢٣٩)].

وهكذا أصبحت الأخوَّة الصَّادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبَّة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدَّرجات عند الله، وحذَّر الرَّسول ﷺ المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرَّابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها، فقال لهم: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ» [البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)].

واستعان النَّبيُّ ﷺ في ربط المجتمع الدَّاخليِّ، وتوحيد جبهته؛ لتكون قويَّة في مواجهة الحرب النَّفسيَّة الموجَّهة ضدَّها بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة، وإعطائهم الحرِّيَّة، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرِّيَّة، ثمَّ كانت لهم في داخله حرِّيَّة الرأي وحرِّيَّة التعبير،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٦٠).
(٢) انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٢٨.

والمشورة، فقد أتى محمَّدٌ ﷺ بمبدأ المساواة بين جميع النَّاس، الحاكم والمحكوم، والغنيُّ والفقير، وبين جميع الطَّبقات، وقد كان لهذا المبدأ العظيم أكبر الأثر في نفوس أتباع النَّبيِّ ﷺ، وجعلهم يتحابُّون ويتماسكون، ويفتدون بأرواحهم، ويدافعون عنه بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ وعزيمةٍ؛ فهو ﷺ لم يقرَّ تفاوتاً بين البشر بسبب مولدٍ، أو أصلٍ، أو حسبٍ أو نسبٍ، أو وراثةٍ، أو لونٍ، والاختلاف في الأنساب والأجناس، والألوان لا يؤدِّي إلى اختلافٍ في الحقوق، والواجبات أو العبادات؛ فالكلُّ أمام الله سواسيةٌ، وعندما طلب أشراف مكَّة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس العبيد والضُّعفاء، حتَّى لا يضمَّهم وإيَّاهم مجلسٌ واحد؛ بيَّن الرَّسول ﷺ أنَّ جميع النَّاس متساوون في تلقِّي الوحي، والهداية.

ورفض كفَّار مكَّة، وساداتُها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد، ومَنْ يعتبرونهم ضعفاء أذلاَّء من أتباع محمَّدٍ ﷺ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ـ٥٣]، بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا أعرض عن ابن أمِّ مكتوم الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف؛ عاتبه الله أشدَّ العتاب، كما في الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١ـ١٢].

وكان من أكبر أساليب النَّبيِّ ﷺ في ربطه المجتمع الإسلاميَّ، وتوحيده، وتقويته للجبهة الدَّاخلية، وجعلها قويَّة البنيان متماسكةً ما دعا إليه ﷺ من التَّكافل المادِّيِّ والمعنويِّ بين المسلمين؛ ليعين منهم القويُّ الضَّعيف، وليعطف الغنيُّ على الفقير، ولم يترك ﷺ ثغرةً واحدةً تنفذ منها الحرب النفسيَّة إلى هذا الصَّفِّ الإسلاميِّ الأوَّل، وأصبحت الجماعة الأولى صخرةً عظيمةً تحطَّمت عليها كلُّ الجهود والخطط؛ الَّتي بذلها زعماء مكَّة للقضاء على الدَّعوة(١).

سادساً: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصَّحابة:

كان للقرآن الكريم أثرٌ عظيم في شدِّ أزر المؤمنين من جانبٍ، وتوعُّده الكفار بالعذاب من جانبٍ آخر، ممَّا كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصَّحابة يتمثَّل في نقطتين:

---

(١) انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام، (ص ١٢٥ ـ ١٤٠).

الأولى: حثُّ الرَّسول ﷺ على رعايتهم، وحسن مجالستهم، واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف الَّتي ترك فيها بعض الصَّحابة؛ لانشغاله بأمر الدَّعوة أيضاً.

الثانية: التَّخفيف عن الصَّحابة، بضرب الأمثلة والقصص لهم، من الأمم السَّابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا مِنْ قومهم الأذى والعذاب؛ ليصبروا، ويستخفُّوا بما يلاقون، وأيضاً بمدح بعض تصرُّفاتهم، ثمَّ بوعدهم بالثَّواب، والنَّعيم المقيم في الجنَّة، وكذلك بالتَّنديد بأعدائهم الَّذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى(١).

أما النُّقطة الأولى: حينما كان النَّبي ﷺ يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه؛ مثل: خبَّاب، وعمَّار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أميَّة، وصهيب، وأشباههم، فكانت قريش تهزأ بهم، ويقول بعضهم لبعضٍ: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثمَّ يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحقِّ، لو كان ما جاء به محمَّدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصَّهم الله به دوننا(٢).

وردَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على استهزاء هؤلاء الكفَّار، مبيِّناً لهم: أنَّ رضا الله على عباده، لا يتوقَّف على منزلتهم، ولا مكانتهم بين النَّاس في الدنيا، كما يؤكِّد لرسوله ﷺ هذا المفهوم، حتَّى لا يتأثَّرَ بما يقوله الكفَّار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصَّحابة، ومبيِّناً له أيضاً مكانتهم، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤].

وهكذا بيَّن الله لرسوله ﷺ شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم، ومنزلتهم الَّتي يجهلها، أو يتجاهلها الكفَّار، ويحاولون أن ينالوا منها؛ بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرَّسولَ ﷺ عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيَّتهم، ويأمره أيضاً أن يبشِّرهم بأنَّ الله سبحانه قد وعدهم بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الرُّوح المعنويَّة لهؤلاء؟! وكيف يجدون الأذى من الكفَّار بعد ذلك؟! إنَّهم سيفرحون بهذا الأذى؛ الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة(٣).

---

(١) انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام، ص ٢٦٩.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧٠، ٢٧١.
(٣) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، ص ٢٧٠، ٢٧١.

ثمَّ نرى عتاب الله لرسوله ﷺ في آياتٍ تتلى إلى يوم القيامة ، وكان هذا العتاب في شأن رجلٍ فقير أعمى من الصَّحابة ، أعرض عنه الرَّسول ﷺ مرَّةً واحدةً ، ولم يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكَّة[١] .

قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس : ١ ـ ١٠] .

إنَّه لا مجال للامتيازات في دعوة الحقِّ ، بسبب الحسب ، والنَّسب ، أو المال والجاه ، فهي إنَّما جاءت لتأصيل النَّظرة إلى الإنسان ، وبيان وحدة الأصل ، وما تقتضيه من المساواة ، والتكافؤ ، ومن هنا يمكن تعليل شدَّة أسلوب العتاب الَّذي وجَّهه الله تعالى لرسوله ﷺ ، للاهتمام الكبير الَّذي أظهره لأُبيٍّ بن خلف ، على حساب استقباله لابن أمِّ مكتوم الضعيف رضي الله عنه ، فابن أمِّ مكتوم يرجح في ميزان الحقِّ على البلايين من أمثال أُبيٍّ بن خلف[٢] لعنه الله !

وكانت لهذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، استفاد منها الرَّعيل الأوَّل ومَنْ جاء بعدهم من المسلمين ، وَمِنْ أهمِّ هذه الدُّروس الإقبال على المؤمنين ؛ فإنَّ على الدُّعاة البلاغ ، وليس عليهم الهداية ، ففي قصَّة الأعمى دليلٌ على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ، فلو لم يكن نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ رسولَ الله ؛ لكتم هذه الحادثة ، ولم يخبر النَّاس بها ؛ لما فيها من عتابٍ له ﷺ ، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي ؛ لكتم هذه الآيات ، وآيات قصَّة زيدٍ ، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما[٣] ، فعلى الدُّعاة تقديم أهل الخير ، والإيمان[٤] .

أما النقطة الثَّانية في دفاع القرآن الكريم عن الصَّحابة ، فقد كانت بالتَّخفيف عنهم ، وكان أهمَّ وسائل التَّخفيف إظهارُ : أنَّ هذا الأذى الَّذي يلقونه لم يكن فريداً من نوعه ؛ وإنَّما حدث قبل ذلك مثله ، وأشدُّ منه ، كان القصص الَّذي يتحدَّث عن حياة الرُّسل في القرآن الكريم من لدن نوحٍ ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ـ عليهم السَّلام ـ تثبيتاً للمسلمين ، ولروح التَّضحية ، والصَّبر فيهم من أجل الدِّين ، وبيَّن لهم القدوة الحسنة الَّتي كانت في العصور القديمة ؛ فالقصص القرآنيُّ يحوي الكثير من العبر ، والحكم ، والأمثال .

---

(١) الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص ٢٧١ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٦٧) مع تصرُّف في العدد بدل مئة : بلايين .
(٣) تفسير ابن عطيَّة (١٥/ ٣١٦) ، والقاسمي (١٧/ ٥٤) .
(٤) انظر : المستفاد من قصص القرآن ، لعبد الكريم زيدان (٢/ ٨٩) .

كان أيضاً من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصَّحابة، والدِّفاع عنهم أسلوبه في مدحهم، ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرؤها النَّاس إلى أن يرث الله الأرض، ومَنْ عليها؛ كما حدث مع الصِّدِّيق لمَّا أعتق سبع رقاب من الصَّحابة؛ لينقذهم من الأذى، والتَّعذيب، وفي الوقت نفسه يندِّد بأميَّة بن خلف، الَّذي كان يعذِّب بلال بن أبي رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي قد قدَّم قواعد الثَّواب، والعقاب، وشجَّع المؤمنين، وحذَّر المخالفين، وحمل هذا الأسلوب مغزًى عميقاً، فقد أنار الطريق للصَّحابة، وكان غمَّةً وكرباً على نفوس الكفار المتردِّدين؛ إذ جاء قول الله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢١].

وكذلك خلَّد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام، برغم استهزاء الكفَّار، ومحاولاتهم لصدِّهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرِّخين(١)، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

وكانت الآيات بعد ذلك تبشِّر الصَّحابة بالثَّواب العظيم، وبالنَّعيم المقيم في الجنَّة، جزاءً بما صبروا، وما تحمَّلوا من الأذى، وتشجيعاً لهم على الاستمرار في طريق الدَّعوة غير مبالين بما يسمعونه، وما يلاقونه، فالنَّصر، والغلبة لهم في النِّهاية، كما بيَّن لهم النَّبيُّ ﷺ في أحاديثه، وكما بيَّن لهم القرآن، كما بيَّن القرآن الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم، كفَّار مكَّة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]، وبيَّن فضل تمسُّكهم بالقرآن وإيمانهم به. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

وبيَّن ـ سبحانه ـ فضل التَّمسُّك بعبادته برغم الأذى، والتعذيب، وبيَّن جزاء الصَّبر على ذلك، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٢/ ٤).

يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ٩ ـ ١٠].

وهكذا كان القرآن الكريم يخفِّف عن الصَّحابة، ويدافع عنهم، ويحصِّنهم ضدَّ الحرب النَّفسيَّة، وبذلك لم تؤثِّر تلك الحملات، ووسائل التَّعذيب على قلوب الصَّحابة بفضل المنهج القرآنيِّ، والأساليب النَّبويَّة الحكيمة، فلقد تحطَّمت كلُّ أساليب المشركين في محاربة الرَّسول ﷺ وأصحابه أمام العقيدة الصَّحيحة، والمنهج السَّليم؛ الَّذي تَشَرَّبهُ الرَّعيل الأوَّل.

سابعاً: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسِّحر، والكهانة، والشِّعر، فليأت هذا الرَّجل الَّذي فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعاب ديننا؛ فليكلِّمه، ولينظر ماذا يردُّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبةَ بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد! فأتاه عتبة، فقال: يا محمد! أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ. قال: فإن كنت تزعم: أنَّ هؤلاء خيرٌ منك؛ فقد عبدوا الآلهة الَّتي عبت، وإن كنت تزعم: أنَّك خيرٌ منهم، فتكلَّم؛ حتَّى نسمع قولك، إنَّا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك! فرَّقت جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب؛ حتَّى لقد طار فيهم: أنَّ في قريش ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى! أن يقوم بعضنا إلى بعضٍ بالسيُّوف حتَّى نتفانى.

أيُّها الرَّجل! إن كان إنَّما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنَّما بك الباءة فاختر أيَّ نساء قريش شئت؛ فلنزوِّجك عشراً. فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم! فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٣] إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريشٍ، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنَّكم تكلِّمونه إلا كلَّمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم [ابن هشام (١/٣١٣ ـ ٣١٤) والبيهقي في الكبرى (٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤)][(١)].

وفي رواية ابن إسحاق: فلمَّا جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟! قال: ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ! والله ما هو بالشعر! ولا بالسِّحر، ولا بالكهانة.. يا معشر قريش! أطيعوني، واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبْه العرب؛ فقد كُفيتموه

(١) البداية والنِّهاية، لابن كثير (٣/٦٨ ـ ٦٩).

بغيركم، وإن يَظْهَر على العرب، فملكه مُلْككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعدَ النَّاس به، قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم(١).

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ لم يدخل الرَّسول ﷺ في معركةٍ جانبيَّةٍ حول أفضليته على أبيه، وجدِّه، أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقُضِيَ الأمرُ دون أن يسمع عتبة شيئاً.

٢ ـ لم يخضْ ﷺ معركة جانبيَّةً حول العُروض المغرية، وغضبه الشَّخصيِّ لهذا الاتِّهام؛ إنَّما ترك ذلك كله لهدفٍ أبعد، وترك عتبة يعرض كلَّ ما عنده، وبلغ من أدبه ﷺ أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟!» فقال: نعم(٢).

٣ ـ كان جواب رسول الله ﷺ حاسماً، وإنَّ اختياره لهذه الآيات لدليلٌ على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسيةً كان منها: أنَّ هذا القرآن تنزيلٌ من الله، وبيان موقف الكافرين، وإعراضهم، وبيان مهمَّة الرَّسول ﷺ، وأنَّه بشرٌ، وبيان: أنَّ الخالق واحدٌ هو الله، وأنَّه خالق السَّموات والأرض، وبيان تكذيب الأمم السَّابقة، وما أصابها، وإنذار قريشٍ صاعقةً مثل صاعقة عادٍ، وثمود(٣).

٤ ـ خطورة المال، والجاه، والنِّساء على الدُّعاة، فكم من الدُّعاة سقط في الطَّريق تحت بريق المال! وكم عُرِضت الآلاف من الأموال على الدُّعاة ليكفُّوا عن دعوتهم! والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنَّبيِّ ﷺ، وخطورة الجاه واضحةٌ؛ لأنَّ الشَّيطان في هذا المجال يزيِّن، ويغوي بطرقٍ أكبر، وأمكر، وأفجر، والدَّاعية الرَّبَّانيُّ هو الَّذي يتأسَّى برسول الله ﷺ في حركته، وأقواله، وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي يعيش ويموت من أجله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وأمَّا النِّساء؛ فقد قال ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساءِ» [البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)]، سواءٌ كانت زوجةً تثبِّط الهمَّة عن الدَّعوة، والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه لِيُسْقِطْنَه في شباكهنَّ، أو في تهيئة أجواء البغي، والإثم، والمجون ليرتادها، أيّاً كانت، فإنَّها فتنةٌ عظيمةٌ في الدِّين، فهاهي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها، يختار

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٢٩٤).
(٢) انظر: التَّحالف السِّياسي في الإسلام، لمنير الغضبان، ص ٣٣.
(٣) انظر: معين السِّيرة، للشَّامي، ص ٧٥.

عشراً منها، أجملهنَّ وأحسنهنَّ يكنَّ زوجاتٍ له؛ إن أرادهنَّ. إنَّ خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشدُّ من خطر السَّيف المُصْلَت على الرِّقاب[1]، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بسيِّد الخلق ﷺ، ويتذكَّروا دائماً قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

٥ ـ تأثُّر عتبة من موقف النَّبيِّ ﷺ، وكان هذا التأثير واضحاً لدرجة أنَّ أصحابه أقسموا على ذلك التَّأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدوُّ ينوي القضاء على الدَّعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلِّيَ بيـن محمَّد ﷺ، وما يريد[2].

٦ ـ استمع الصَّحابة لما حدث بين النَّبيِّ ﷺ، وعتبة، وكيف رفض حبيبهم ﷺ كلَّ عروضه المغرية، فكان ذلك درساً تربويّاً خالط أحشاءهم، تعلَّموا منه الثَّبات على المبدأ، والتَّمسُّك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدامهم.

٧ ـ تعلَّم الصَّحابة من الرَّسول الكريم ﷺ الحلم، ورحابة الصَّدر، فقد استمع ﷺ إلى تُـرَّهات عتبة بن ربيعة، ونيله منه، وقوله عنه: «إنَّ في قريشٍ ساحراً» و: «إنَّ في قريشٍ كاهناً»، و: «ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك»، و: «إن كان الذي يأتيك رَئِيّاً من الجنِّ»، فقد أعرض عنه ﷺ، وأغضَّ عن هذا السِّباب، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته، وتبليغه إيَّاها لسيد بني عبد شمس، فقد كانت كلُّ كلمةٍ تصدر من سيِّد الخلق ﷺ مبدأً يُحتذى، وكلُّ تصرفٍ دِيناً يُتَّبع، وكلُّ إغضاءٍ خُلُقاً يُتأسَّى به[3].

وذكرت بعض كتب السِّيرة: أنَّ قيادات مكَّة دخلوا في مفاوضاتٍ بعد ذلك مع رسول الله ﷺ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشريَّة، ممَّن أراد الدُّنيا وطمع في مغانمها، إلا أنَّ رسول الله ﷺ اتَّخذ موقفاً حاسماً في وجه الباطل، دون مراوغة، أو مداهنةٍ، أو دخولٍ في دهاءٍ سياسيٍّ، أو محاولة وجود رابطة استعطافٍ، أو استلطافٍ مع زعماء قريش[4]؛ لأنَّ قضية العقيدة تقوم على الوضوح، والصَّراحة، والبيان، بعيدةً عن المداهنة، والتَّنازل؛ ولذلك ردَّ رسولُ الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشَّرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ١٦٩.
(٢) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٨٧.
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٠٤).
(٤) انظر: الوفود في العهد المكي، لعلي الأسطل، ص ٣٧.

أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا، والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبر لأمر الله حتَّى يحكم الله بيني وبينكم» [ابن هشام (١/٣١٦)][(١)].

بهذا الموقف الإيمانيِّ الثَّابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضيَّةٌ من أخطر قضايا العقيدة الإسلاميَّة، وهي خلوص العقيدة من أيِّ شائبةٍ غريبةٍ عنها، سواءٌ في جوهرها، أو في الوسيلة الموصلة إليها[(٢)].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾:

ولمَّا رأى المشركون صلابة المسلمين، واستمساكهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كلِّ باطلٍ؛ بدأت خطوط اليأس في نفوسهم؛ من أنَّ المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ فسلكوا مهزلةً أخرى من مهازلهم الدَّالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: يا محمد! هلمَّ، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً ممَّا نعبد؛ كنَّا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً ممَّا تعبد؛ كنت قد أخذت بحظِّك منه، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦][(٣)].

ومثل هذه السُّورة آياتٌ أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر، وأهله؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٧].

ولقد بيَّنت سورة (الكافرون): أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ لا عوج فيه، ولا فجاج له، إنَّه العبادة الخالصة لله وحده ربِّ العالمين، فنزلت هذه السُّورة على الرَّسول ﷺ للمفاصلة الحاسمة بين عبادةٍ، وعبادة، ومنهجٍ، ومنهج، وتصوُّرٍ، وتصور، وطريقٍ، وطريق. نعم نزلت نفياً بعد نفي، وجزماً بعد جزم، وتوكيداً بعد توكيدٍ بأنَّه لا لقاء بين الحقِّ والباطل، ولا اجتماع بين

(١) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/١٩٧)، والتَّربيَّة القياديَّة (١/٣٠٥).
(٢) تاريخ صدر الإسلام، لعبد الرحمن الشُّجاع، ص ٣٩.
(٣) ابن هشام (١/٣٦٢).

النُّور والظلام، فالاختلاف جوهريٌّ كاملٌ، يستحيل معه اللِّقاء على شيء في منتصف الطَّريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنةٍ، أو مراوغةٍ، نعم فالأمر هنا ليس مصلحةً ذاتيَّةً، ولا رغبةً عابرةً، ولا سُمّاً في عسلٍ، وليس «الدِّين لله، والوطن للجميع» كما تزعم الجاهليَّة المعاصرة، ويدَّعي المنافقون، والمستغربون الَّذين يتَّبعون الضَّالِّين، والمغضوب عليهم، والملحدين أعداء الله سبحانه في كلِّ مكان.

كان الردُّ حاسماً على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسطاً، ولا ترضياتٍ شخصيَّةً؛ فإنَّ الجاهليَّة جاهليَّةٌ، والإسلام إسلامٌ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، والفارق بينهم كبير، كالفرق بين التِّبْرِ[1] والتُّراب، والسَّبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهليَّة بجملتها إلى الإسلام بجملته، عبادةً وحكماً، وإلا فهي البراءة التَّامَّة، والمفاصلة الكاملة، والحسم الصَّريح بين الحقِّ، والباطل في كلِّ زمانٍ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

وجاء وفدٌ آخر بعد فشل الوفد السَّابق، يتكوَّن من: عبد الله بن أبي أميَّة، والوليد بن المغيرة، ومُكْرَز بن حفصٍ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ، والعاص بن عامرٍ[3]؛ جاء ليقدِّم عرضاً آخر للتَّنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النَّبيِّ ﷺ أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذمِّ آلهتهم، فأنزل الله لهم جواباً حاسماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وهذه الوفود، والمفاوضات تبيِّن مدى الفشل الَّذي أصاب زعماء قريشٍ في عدم حصولهم على التَّنازل الكلِّيِّ عن الإسلام، الأمر الَّذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيءٍ من التَّنازل، ويلاحظ: أنَّ التنازل الَّذي طلبوه في المرة الأولى أكبر ممَّا طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدلُّ على تدرُّجهم في التَّنازل من الأكبر إلى الأصغر؛ لعلَّهم يجدون آذاناً صاغيةً لدى قائد الدَّعوة، كما أنَّهم كانوا يغيِّرون الأشخاص المتفاوضين، فالَّذين تفاوضوا مع الرَّسول ﷺ في المرَّة الأولى، غير الَّذين تفاوضوا معه في المرَّة الثَّانية، ما خلا الوليد بن المغيرة؛ وذلك حتَّى لا تتكرَّر الوجوه، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات، والعقول المفاوضة، فربَّما أثَّر ذلك في نظرهم بعض الشَّيء، وفي هذا درسٌ للدُّعاة إلى يوم القيامة، ألا تنازل عن الإسلام ـ ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً ـ فالإسلام دعوةٌ ربَّانيَّة، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً، مهما كانت الأسباب، والدَّوافع، والمبررات، «وعلى الدُّعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض،

---

(١) التِّبْرُ: فُتَاتُ الذَّهب أو الفضَّة قبل أن يُصاغا.
(٢) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩١) بتصرفٍ كبير.
(٣) أسباب النزول، للواحديِّ، ص ٢٠٠، ونور اليقين، للخضريِّ، ص ٦١ بتصرف.

والإغراءات الماديَّة ، الَّتي قد لا تُعرض بطريقٍ مباشرٍ ، فقد تأخذ شكلاً غير مباشرٍ ، في شكل وظائف عُليا ، أو عقود عملٍ مجزيةٍ ، أو صفقاتٍ تجاريَّةٍ مربحةٍ ، وهذا ما تخطِّط له المؤسَّسات العالميَّة المشبوهة ؛ لصرف الدُّعاة عن دعوتهم ، وبخاصَّةٍ القياديون منهم ، وهناك تعاونٌ تامٌّ في تبادل المعلومات ، بين هذه المؤسَّسات الَّتي تعمل من مواقع متعدِّدة لتدمير العالم الإسلامي»[(١)]

ولقد جاء في التَّقرير الَّذي قدَّمه «ريتشارد ب . ميشيل» ، أحد كبار العاملين في الشَّرق الأوسط ، لرصد الصَّحوة الإسلاميَّة ، وتقديم معلوماتٍ ، وتقارير عنها ، جاء في هذا التَّقرير ، وضع تصور لخطةٍ جديدةٍ يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلاميَّة ، فكان من بين فقرات هذا التَّقرير فقرةٌ خاصَّةٌ بإغراء قيادات الدَّعوة ، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء ما يلي :

١ ـ تعيين مَنْ يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا ؛ حيث يتمُّ شغلهم بالمشروعات الإسلاميَّة فارغة المضمون ، وغيرها من الأعمال الَّتي تستنفد جهدهم ، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيّاً ومادِّياً ، وتقديم تسهيلاتٍ كبيرةٍ لذويهم ، وبذلك يتمُّ استهلاكهم محلِّياً ، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيريَّة .

٢ ـ العمل على جذب ذوي الميول التِّجاريَّة والاقتصاديَّة ، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة ، الَّتي تقام في المنطقة العربيَّة لصالح أعدائها .

٣ ـ العمل على إيجاد فرص عملٍ ، وعقودٍ مجزيةٍ في البلاد العربيَّة الغنيَّة ، الأمر الَّذي يؤدِّي إلى بُعدهم عن النَّشاط الإسلاميِّ[(٢)] .

فالمتدبِّر في النُّقاط الثلاث السَّابقة ، يلاحظ : أنَّها إغراءاتٌ مادِّيَّةٌ غير مباشرةٍ ، وبنظرةٍ فاحصةٍ للعالم الإسلاميِّ اليوم نلاحظ : أن هذه النُّقاط تنفَّذ بِكلِّ هدوء ، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدَّعاة ، واستهلكت بعض الدُّول العربيَّة الغنية جمّاً غفيراً من الدُّعاة ، وألهت التِّجارة بعضهم[(٣)] .

ثامناً : أسلوب المجادلة ، ومحاولة التَّعجيز :

كان النَّبيُّ ﷺ قد أقام الحجج ، والبراهين ، والأدلَّة على صحَّة دعوته ، وكان ﷺ يتقن اختيار الأوقات ، وانتهاز الفرص والمناسبات ، ويتصدَّى للردِّ على الشُّبهات مهما كان نوعها ، وقد استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرةً ، استنبطها من كتاب الله تعالى في

---

(١) في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩ .
(٢) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٩١ .

إقامة الحجَّة العقليَّـة، واستخدام الأقيسة المنطقيَّة، واستحضار التَّفكير، والتأمُّل، ومن الأساليب الَّتي استخدمها ﷺ مع كفَّار مكَّة:

١ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب التَّرغيب فيه، والآخر هو الشَّرُّ المطلوب التَّرهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكُّر في كلا الأمرين، وعاقبتهما، ثمَّ الوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى تفضيل الخير، واتِّباعه.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن كثيرٌ في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الَّذي كان ميتاً؛ أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له، ووفَّقه لاتِّباع رسله»(١).

٢ ـ أسلوب التَّقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقليَّة إلى الإقرار بالمطلوب، الَّذي هو مضمون الدَّعوة، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٤٥].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الرُّبوبية، وتوحيد الألوهيَّة، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أوُجِدُوا من غير مُوجِدٍ؟ أم هم أوْجَدُوا أنفسهم؟ أي: لا هذا، ولا هذا؛ بل الله هو الَّذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»(٢).

وهذه الآية في غاية القوَّة من حيث الحجَّة العقليَّة؛ لأنَّ «وجودهم هكذا من غير شيءٍ أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثيرٍ، أو قليل، أمَّا أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم؛ فأمرٌ لم يدَّعوه، ولا يدَّعيه مخلوقٌ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة؛ فإنَّه لا يبقى سوى الحقيقة الَّتي يقولها القرآن، وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤).

الَّذي لا يشاركه أحدٌ»[(١)] والتَّعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرَّر بداهةً في العقل.

وتأمَّلْ هذا الإلزام بالإقرار بربوبيَّة الله وألوهيته، فيما ذكره السَّعديُّ في تفسيره، حيث قال: «وهذا استدلالٌ عليهم، بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلا التَّسليم للحقِّ، أو الخروج عن موجب العقل والدِّين، وبيان ذلك: أنَّهم منكرون لتوحيد الله، مكذِّبون لرسوله ﷺ، وذلك مُستَلزِمٌ لإنكار: أنَّ الله خلقهم، وقد تقرَّر في العقل مع الشَّرع: أنَّ ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمورٍ: إمَّا أنَّهم خلقوا من غير شيءٍ، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجادٍ، ولا موجد، وهذا عين المُحال، أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محالٌ؛ فإنَّه لا يُتصوَّر أن يوجد أحدٌ نفسه، فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعيَّن القسم الثَّالث، وهو أنَّ الله هو الَّذي خلقهم، وإذا تعيَّن ذلك عُلم: أنَّ الله هو المعبود وحده، الَّذي لا تنبغي العبادة، ولا تصلح إلا له تعالى»[(٢)].

٣ ـ أسلوب الإمرار، والإبطال:

وهو أسلوبٌ قويٌّ في إفحام المعاندين أصحاب الغرور، والصَّلَف[(٣)] بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة؛ منعاً للجدل، والنِّزاع، خلوصاً إلى حجَّةٍ قاطعةٍ تدمغهم، وتبطل بها حجَّتهم تلك، فتبطل الأولى بالتَّبع، وفي قصَّة موسى ـ عليه السَّلام ـ مع فرعون، نموذجٌ مطوَّلٌ لهذا الأسلوب؛ حيث أعرض موسى عن كلِّ اعتراضٍ وشبهةٍ أوردها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون، من خلال إقامة الحجَّة العقليَّة الظَّاهرة على ربوبيَّة الله، وألوهيَّته[(٤)]، وذلك في الآيات من سورة الشُّعراء، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩].

وهكذا كانت الأساليب القرآنيَّة الكريمة، هي الرَّكيزة، في مجادلة رسول الله ﷺ للمشركين، ولمَّا احتار المشركون في أمر الرَّسول ﷺ، ولم يكونوا على استعدادٍ في تصديقه: أنَّه رسولٌ من عند الله، ليس لأنَّهم يكذِّبونه، وإنَّما عناداً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، هداهم

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٩).

(٢) تفسير السَّعدي (٧/ ١٩٥، ١٩٦).

(٣) الصَّلفَ: التَّكبُّر والتَّفاخر.

(٤) انظر: مقومات الدَّاعية النَّاجح، د. علي بادحدح، ص ٥٩ إلى ٦٩، والأساليب السَّابقة من هذا الكتاب.

تفكيرُهم المعوَجُّ إلى أن يطلبوا من الرَّسول ﷺ مطالب ليس الغرض منها التَّأكد من صدق النَّبيِّ ﷺ ولكن غرضهم منها التعنُّت والتَّعجيز، وهذا ما طلبوه من الرَّسول ﷺ:

١ ـ أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً؛ أي: يُجري لهم الماء عيوناً جارية.

٢ ـ أو تكون له جنَّة من نخيل وعنبٍ يفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً؛ أي: تكون له حديقة فيها النَّخل والعنب، والأنهار تُفَجَّرُ بداخلها.

٣ ـ أو يسقط السَّماء كسفاً عليهم؛ أي: يسقط السَّماء قطعاً كما سيكون يوم القيامة.

٤ ـ أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

٥ ـ أو يكون له بيتٌ من زُخْرُفٍ؛ أي: ذهب.

٦ ـ أو يرقى في السَّماء؛ أي: يتَّخذ سُلَّماً يرتقي عليه، ويصعد إلى السَّماء.

٧ ـ وينزِّل كتاباً من السَّماء يقرؤونه، يقول مجاهد: أي: مكتوبٌ فيه إلى كلِّ واحدٍ صحيفةٌ، هذا كتابٌ من الله لفلان بن فلانٍ، تصبح موضوعةً عند رأسه(١).

٨ ـ طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم، فيُسَيِّر لهم الجبال، ويقطع الأرض، ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى(٢).

إنَّ عملية طلب الخوارق والمعجزات، هي خطَّةٌ متَّبعةٌ على مدى تاريخ البشريَّة الطَّويل، وبرغم حرص النَّبيِّ ﷺ على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك، إلا أنَّه رفض طلبهم هذا؛ لأنَّه علم من آيات القرآن: أنَّهم إن لم يؤمنوا بعد إجابتهم لما طلبوا؛ عُذِّبُوا عذاباً شديداً، وكانت إجابته ﷺ: «ما بهذا بعثت إليكم، إنَّما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبرُ لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم» [سبق تخريجه](٣).

وانصرف رسولُ الله ﷺ إلى أهله حزيناً أَسِفاً لما فاته، ممَّا طمِع فيه من قومه حين دعوه، ولمَّا رأى من مباعدتهم إيَّاه(٤)، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنُّتات، والردَّ عليها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

---

(١) انظر: المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة، د. سميرة محمد، ص ١٧١، ١٧٢.
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣١١).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٤٥٩).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٣١٧).

قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٦].

ونزل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ[1] بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

إنَّ الحكمة في أنَّهم لم يُجابوا لما طلبوا: أنَّهم لم يسألوا مسترشدين وجادِّين، وإنَّما سألوا متعنِّتين، ومستهزئين، وقد علم الحقُّ سبحانه: أنَّهم لو عاينوا، وشاهدوا ما طلبوا، لما آمنوا، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون، ولظلُّوا في غيِّهم وضلالهم يتردَّدون، قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهيَّة، والرَّحمة الرَّبَّانيَّة، ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنَّ سنَّته سبحانه: أنَّه إذا طلب قومٌ آياتٍ، فأجيبوا، ثمَّ لم يؤمنوا؛ عذَّبهم عذاب الاستئصال، كما فعل بعادٍ، وثمود، وقوم فرعون.

وليس أدلَّ على أنَّ القوم كانوا متعنِّتين، وساخرين، ومعوِّقين لا جادِّين، من أنَّ عندهم القرآن، وهو آيةُ الآيات، وبيِّنةُ البيِّنات؛ ولذلك لمَّا سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات، وغيرها؛ ردَّ عليهم سبحانه[2] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢].

وقد ذكر عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه روايةً، مفادها: أنَّ قريشاً قالت للنَّبيِّ ﷺ ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفا ذهباً، ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا؛ فأتاه

---

(١) يعني لو أنَّ هناك قرآناً بهذه الصِّفات أو هذه الشُّروط؛ لكان هذا القرآن الكريم، فهو ليس له مثيلٌ، لا من قبل، ولا من بعد، فجواب (لو) محذوفٌ، دلَّ عليه المقام.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٣٢٠، ٣٢١).

جبريل، فقال: إنَّ ربك ـ عزَّ وجلَّ ـ يقرأ عليك السَّلام، ويقول: إن شئت؛ أصبح لهم الصَّفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئت، فتحت لهم أبواب التَّوبة، والرَّحمة، فقال: بل باب التَّوبة، والرَّحمة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] [الحاكم (١/ ٥٣) و(٤/ ٢٤٠) والبزار (٢٢٢٤) والبيهقي (٧/ ٥٠)][(١)].

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شنُّ حربٍ إعلاميَّةٍ ضدَّ الدَّعوة، والدَّاعية، وتآمراً على الحقِّ؛ كي تبتعد القبائل العربيَّة عنه ﷺ؛ لأنَّهم يطالبونه بأمورٍ يدركون: أنَّها ليست طبيعة هذه الدَّعوة، ولهذا أصرُّوا عليها، بل لقد صرَّحوا بأن لو تحقَّق شيءٌ من ذلك، فلن يؤمنوا أيضاً بهذه الدَّعوة، وهذا كلُّه محاولةٌ منهم لإظهار عجز الرَّسول ﷺ، واتِّخاذ ذلك ذريعةً لمنع النَّاس عن اتِّباعه[(٢)].

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكِّيِّ، واستعانة مشركي مكَّة بهم:

تحدَّث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سورٍ كثيرةٍ، بلغت خمسين سورةً في المرحلة المكِّيَّة، وفي المرحلة المدنيَّة كان دور اليهود كبيراً في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإسلام، وعلى حياة رسول الله ﷺ، ولم تحظَ مِلَّةٌ من الملل، ولا قومٌ من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشُّمول، وهذه التَّفصيلات، ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتَّسم بمنهجٍ دقيقٍ يتناسب مع المراحل الدَّعوية الَّتي مرَّت بها دعوة الإسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى أنَّ غفلة المشركين عن الحقِّ، الَّذي جاء به رسول الله ﷺ، وعدم اكتراثهم به، وبدعوته له نماذج بشريَّةٌ تقدَّمتهم؛ مثل: عادٍ، وثمودٍ، وفرعون، وبني إسرائيل، وقوم تُبَّعٍ، وأصحاب الرَّس[(٣)].

اقرأ معي تلك الإشارات، في قوله تعالى في سورة المزمَّل ـ وهي السُّورة الثَّالثة في ترتيب النُّزول ـ[(٤)]: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٩].

وكذلك ما ورد في سورة الأعلى، وهي السُّورة الثَّامنة في ترتيب النُّزول، فبعد أن ذكرت

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٩٠.
(٢) انظر: الوفود في العهد المكي، ص ٤٠ ـ ٥١.
(٣) معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود، لمصطفى مسلم، ص ٣٠، ٣١.
(٤) المصدر السابق نفسه.

بعض الصِّفات الجليلة لله جلَّ جلاله، وما أسبغ به من النِّعم الدُّنيويَّة والأخرويَّة على عباده، وذكر طريق الفلاح في الدُّنيا وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى، ختمت السُّورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩].

وفي سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

وجاء في سورة النَّجم ذِكْرُ بني إسرائيل، كنماذج بشريَّة تعرَّضت للفتنة، والاضطهاد، فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء، ومنهم من صمد، ونجح في الابتلاء.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٤٢].

إنَّ تلك المبادئ مقرَّرةٌ في صحف موسى ـ عليه السَّلام ـ المرسل إلى بني إسرائيل، فليرجعوا إليها إن كانوا في شكٍّ من أمر محمَّد ﷺ، وكذلك في صحف إبراهيم، وهم «أي: قريش» يزعمون أنَّهم ينتمون إليه، ويعظِّمون شرائعه؛ الَّتي توارثوها، كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة، وخدمة الحجيج(١).

وفي سورة (ص، ويس، ومريم، وطه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وما أصابهم من الفتنة والابتلاء، وكيف أوذوا فصبروا، وبيان سنَّة الله تعالى في أولئك المتحزِّبين المناهضين لدعوة الحقِّ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١١ ـ ١٧].

إنَّها إشارةٌ ذات دلالةٍ تربويَّةٍ لأصحاب النَّبيِّ ﷺ مأخوذةٌ من سيرة هؤلاء الأقوام؛ الَّذين

---

(١) انظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، ص ٣١٦.

تحزَّبوا ضدَّ دعوة الحقِّ؛ لقد كذَّبوا أنبياءهم، فحقَّ عليهم كلمة العذاب، وانتصر أهل الحقِّ عليهم.

لم يسلم أحدٌ من الأنبياء من إيذاء الأقوام، مهما كانت مكانتهم، وعزَّتهم في مجتمعاتهم، فلئن كان نوحٌ، وهودٌ، وموسى، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ من عامَّة النَّاس، فما قولك في داود صاحب القوَّة، والسُّلطة، والملك، الَّذي كانت معجزاته بارزةٌ للعيان من تسبيح الجبال معه، وحَشْرِ الطُّيور لسماع مزاميره، وتلاوته؟ ماذا تقول عنه بنو إسرائيل؟ وماذا دوَّنوا في كتبهم عن سيرته؟ إنَّهم لم يتركوا نقيصةً إلا ألصقوها فيه، وهو النَّبيُّ العابد الأوَّاب، ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول ـ عليها وعلى ابنها السَّلام ـ وقد أورد القرآن الكريم حملها، وولادتها، والخوارق الَّتي حصلت لهما؛ حيث جعلها وابنها آيةً للعالمين: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]؛ فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم، وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التَّوراة، ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، فلا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحقِّ ما يدلُّ على ضلالها، وجهلها، إنَّها تهيئةٌ للنُّفوس، وتثبيتٌ لها على الحقِّ لملاقاة أعدائه المفترين المكذِّبين من المشركين ومن أهل الكتاب، ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الَّذين كذَّبوهم ولم يؤمنوا لهم؛ بل كانت لهم مواقف غريبةٌ مشينةٌ مع أعظم أنبيائهم؛ الَّذين يفتخرون بنسبتهم إليه، وهم يزعمون: أنَّهم أهل كتابه الَّذي أنزل عليه، وحملة شرائعه وهداياته، إنَّه نبيُّهم موسى ـ عليه السَّلام ـ أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبةً.

وتذكر لنا سورة (طه) كيف كان الحال معه، وما عاناه من سفههم، وتمرُّدهم على أوامر الله، وعصيانهم المتعمَّد، فما كاد موسى ـ عليه السلام ـ يغادرهم لمناجاة ربِّه، وقد ترك بين ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم، ولا يتَّبع سبيل المفسدين، إلا وتآمروا عليه، وجمعوا زينة القوم ليُخرج لهم السَّامريُّ عجلاً جسداً له خوار، فيقوم النَّاس بالطَّواف به لعبادته؛ وليقولوا كلمتهم الكبيرة: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]، ولمَّا عرف الحقيقة، استدعى السَّامري ليسأل عن الدَّافع له على هذا التصرُّف السَّفيه، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦].

إنَّ قوماً يصل بهم السَّفه إلى هذا الحدِّ من الزَّيغ، والضَّلال، والإفساد، فهل يُؤْمَن جانبهم، ويُتوقَّع منهم الخير، أو مناصرة الحقِّ؟! لقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكِّيَّة المتقدِّمة آثارٌ بعيدةُ الدَّلالة في تكوين الشَّخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة عن هذه الطَّوائف والنِّحَلِ(١). ومن لطائف الأسرار القرآنيَّة، ومن جميل وجوه المناسبات أن يأتي الحديث عن عالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة، من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم؛

(١) انظر: معالم قرآنيَّة في الصراع مع اليهود، ص ٣٩، ٤٠.

لكي يؤمنوا بالنَّبيِّ الأمِّيِّ عندما يأتيهم بدعوته العالميَّة، وكان ذلك في سورة الأعراف، وكان إيراد التَّفصيلات في انحرافات بني إسرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين، بألا يتأثَّروا بموقف اليهود؛ إن هم تنكَّروا لهم، فإنَّهم قوم بُهْت، وتلك سيرتهم مع أنبيائهم، فإن أعرضوا عن دعوة الإسلام، وكذَّبوا محمَّداً ﷺ، وقد وجدوا أوصافه في كتبهم، فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين[1].

قال تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨].

نعم، إنَّها نقلةٌ من صعيد مكَّة، وشعابها، وجبالها إلى أقطار العالم جميعاً، إنَّها نقلةٌ رُوحيَّةٌ نفسيَّةٌ كبيرةٌ؛ حيث نلاحظ سياق الآيات يرسم معالم الدَّعوة العالميَّة عندما تخرَّج من مكَّة إلى الصَّعيد العالميِّ، كما أنَّ الآيات في سورة الأعراف مليئةٌ بالدُّروس التَّربويَّة العظيمة لأمَّة محمَّد ﷺ، من خلال السَّرد التَّاريخيِّ لحياة بني إسرائيل، وما اعتورها من أحداثٍ عظامٍ، وهذه المداخلات الَّتي تلفت النَّظر إلى أمَّة رسول الله ﷺ ودورها ومهمَّتها في قيادة العالم، وفي الوقت نفسه تحذيرٌ لها لكي تتجنَّب ما وقعت فيه بنو إسرائيل، ويمضي السِّياق في الحديث عن الأمم الَّتي تكوَّنت من الأسباط، وكيف فُكَّت ضائقتهم في المطعم والمشرب، بتفجير الينابيع وإنزال المنِّ، والسَّلوى عليهم، وتوفير الظِّلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم، ولكن هل أدَّوا شكر هذه النِّعم؟ وماذا كان موقفهم من التكاليف الشَّرعيَّة؟ لقد كان العناد، والتَّحريف، والتَّحايل، والتمرُّد دائماً!

إنَّ إنسانيَّة الإنسان تتحقَّق باتِّباعه الوحي الرَّبَّانيَّ المُنزل من خالق السَّموات والأرض، والعبودية لله تعالى تحقِّق الكمال الإنسانيَّ، حيث تتحقَّق الغاية الَّتي خُلق الإنسان من أجلها، وأيُّ إهمالٍ لهذه المهمَّة، وأيُّ ابتعادٍ عن نور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشريِّ، ويلحقه بالدَّواب، والأنعام، وقد يكون أضلَّ منها؛ لأنه يسخِّر عقله لمزيد من الإسفاف،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٤.

والانحطاط، بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف، والانحطاط، وإنَّما هي مفطورةٌ على غرائز معيَّـنةٍ تدفعها لتصرُّفٍ محدَّدٍ.

كانت سورة الأعراف المكِّيَّة، تعرض لمحاتٍ تربويَّةً، وتبيِّن توجيهاتٍ ربَّانيَّةً، وتوضِّح سنناً إلٰهيةً، من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل(١).

عندما وجدت قريش نفسها عاجزةٌ أمام دعوة الحقِّ، وكان المعبِّر عن هذا العجز النَّضر بن الحارث؛ الَّذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد! فانظروا في شأنكم، فإنَّه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم!». فقرَّروا بعد ذلك إرسال النَّضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، إلى أحبار اليهود بالمدينة، لمعرفة حقيقة هذه الدَّعوة، لا لكي يتَّبعوها، ولكن لإدراكهم: أنَّ اليهود قد يمدُّونهم بأشياء تظهر عجز الرَّسول ﷺ، ولمعرفة زعماء مكَّة بحقد اليهود المنصبِّ على الأنبياء جميعاً، وأصحاب الحقِّ أينما كانوا.

كانت بعثة المصطفى صدمةً قويَّةً لليهود؛ وذلك لأنَّهم عاشوا في جزيرة العرب على حلمٍ توارثوه طوال السِّنين الماضية، وهو أنَّه سيبعث نبيٌّ مُخلِّص في ذلك الزَّمان والمكان، فرجوا أن يكون منهم؛ آملين أن يخلِّصهم من الفرقة، والشَّتات؛ الَّذي كانوا فيه(٢).

كان التقارب بين معسكر الكفر والشِّرك مع اليهود ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام، ولذلك زوَّدوا الوفد المكيَّ ببعض الأسئلة محاولةً لتعجيز النَّبيِّ ﷺ.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النَّضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمَّد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا؛ حتَّى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنَّكم أهل التَّوراة، وقد جئناكم؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقَوِّلٌ، فقرِّروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل، ما كان من أمرهم؟ فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسلوه عن رجلٍ طوَّاف، بلغ مشارق الأرض، ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك، فإنَّه نبيٌّ فاتَّبعوه، وإن هو لم يخبركم؛ فهو رجلٌ مُتَقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النَّضر، وعقبة حتَّى قدما مكَّة على قريشٍ، فقالا: يا معشر قريش!، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد، قد أمرنا أحبار

---

(١) انظر: معالم قرآنية في الصَّراع مع اليهود، ص ٥٥ إلى ٦٠.
(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة، د. عبد الله الشَّقاوي (١/ ١٨٨).

يهود أن نسأله عن أمورٍ، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! أخْبِرْنا، فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غداً بما سألتم عنه، ولم يستثنِ[١]، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلةً، لا يحدِث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكَّة، وقالوا: وعدنا محمَّد غداً، واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه، وحتَّى أحْزَنَ رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة، ثمَّ جاء جبريل عليه السلام من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيَّاه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية والرَّجل الطَّوَّاف، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] [ابن هشام (١/ ٣٢٢)] ولمَّا سمع اليهود: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: كيف وقد أوتينا التَّوراة، ومن أوتي التَّوراة؛ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

كانت سورة الكهف قد احتوت على إجابةٍ لأسئلتهم، وإشارةٍ إلى أنَّ كهفاً من عناية الله سوف يُؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمَّد ﷺ، كما آوى الكهف الجبليُّ الفتية المؤمنين الفارِّين بدينهم من الفتنة، وأنَّ نفوساً ستبشُّ في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب بالقرب من الَّذين عاضدوا قريشاً في شكِّهم، وحاولوا معهم طمس نور الحقِّ، بتلقينهم المنهج التعجيزيِّ في التَّثبُّت من أمر النُّبوَّة، وهو منهجٌ غير سليم؛ فمتى كانت الأسئلة التَّعجيزيَّة وسيلة التَّحقُّق من صدق الرِّسالة، وصاحبها؟! فهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته، على الرَّغم من تعهده ألاَّ يسأله عن شيءٍ حتَّى يحدث له منه ذكراً، على الرَّغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث، وما دار حولها في نبوَّة موسى عليه السلام شيئاً، ولم يشكِّك بنو إسرائيل في نبوَّته، فلِمَ يجعلون مثل هذه الأسئلة أسلوباً للتحقُّق من صدق الرِّسالة؟![٢].

جعل الله هذه المناسبة وسيلةً للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة؛ ليجدوا مأوىً كما وجد الفتية المأوى وليبشَّ في وجوههم أهل المدينة، كما بشَّ أهل المدينة في وجه أحد الفتية، ثمَّ ذهبوا إليهم ليكرموهم، وليخلِّدوا ذكراهم[٣].

إنَّ القرآن الكريم نزل ليكوِّن خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، لها مقوِّماتها الذَّاتيَّة، ومصادرها

---

(١) أي: لم يقل: (إن شاء الله).

(٢) انظر: مباحث في التَّفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، ص ١٨٩.

(٣) انظر: تأمُّلات في سورة الكهف، للشَّيخ أبي الحسن النَّدوي، ص ٤٦، وانظر: معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود، ص ٦١.

المعرفيَّة، ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكِّيَّة، سورة الفاتحة، وفيها التَّضرُّع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصِّراط المستقيم، وتجنُّبه صراط المغضوب عليهم ـ وهم اليهود ـ وصراط الضَّالين ـ وهم النَّصارى ـ كما جاء في حديث عديٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه [الترمذي (٢٩٥٤) وأحمد (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩)].

فتحديد هذا النَّهج، وبيان الصِّراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضَّالَّة؛ حتَّى تُتَجنَّب السُّبل الأخرى المتفرِّقة؛ الَّتي تؤدِّي بصاحبها إلى المزالق، والمهالك، فكان التعرُّض لعقائد اليهود، وانحرافاتهم، ومواقفهم مع أنبيائهم أمراً تقتضيه دواعي التكوين للشخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة، إنَّ معركتنا مع اليهود معركةٌ مستمرَّةٌ؛ لأنَّها معركةٌ بين المنهج الرَّبَّانيِّ، والصِّراط المستقيم ضدَّ المناهج الجاهليَّة المحرِّفة لكلمات الله، السَّاعية للإفساد في الأرض(١).

عاشراً: الحصار الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ في آخر العام السَّابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمام صبر الرَّسول ﷺ والمسلمين على الأذى، وإصرارهم على الدَّعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمَّته في الحصار الماديِّ، والمعنويِّ؛ الَّذي ضربته قريشٌ ظلماً، وعدواناً على النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، ومَنْ عطف عليهم مِنْ قرابتهم(٢).

قال الزُّهريُّ: «ثمَّ إنَّ المشركين اشتدُّوا على المسلمين كأشدِّ ما كانوا؛ حتَّى بلغ المسلمين الجهد، واشتدَّ عليهم البلاء، وأجمعت قريش أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانيةً؛ فلمَّا رأى أبو طالب عمل القوم؛ جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله ﷺ شِعْبَهم، ويمنعوه ممَّن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمُهم وكافرُهم، فمنهم مَنْ فعله حَمِيَّةً، ومنهم من فعله إيماناً، ويقيناً، فلمَّا عرفت قريشٌ: أنَّ القوم قد منعوا رسول الله ﷺ؛ أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يَدْخُلوا بيوتهم؛ حتَّى يُسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا من مكرهم صحيفةً، وعهوداً ومواثيق؛ ألا يتقبَّلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ؛ حتَّى يسلموه للقتل(٣).

وفي روايةٍ: «.... على ألا ينكحوا إليهم، ولا يُنْكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يَدَعُوا سبباً من أسباب الرِّزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صُلحاً،

---

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، ص ٧٨، ٧٩، نقلاً عن معالم قرآنيَّة، لمصطفى مسلم، ص ٢٩.

(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء، د. سفر الحوالي (١/ ٥٠).

(٣) لمعرفة تفصيلات قصَّة الشِّعْب وما تخلَّلها من أحداث، انظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقي (٢/ ٨٠ ـ ٨٥)، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٢/ ٤٣ ـ ٧٢)، والرَّوض (٢/ ١٠١ ـ ١٢٩)، والسيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦).

ولا تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتَّى يُسْلِمُوا إليهم رسولَ الله ﷺ للقتل، ثمَّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمَّ علَّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم»(١).

فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين، واشتدَّ عليهم البلاء، والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم من مكَّة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه، فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ(٢).

وكان أبو طالب إذا أخذ النَّاسُ مضاجعهم؛ أمر رسولَ الله ﷺ فأتى فراشه حتَّى يراه من أراد به مكراً، أو غائلة، فإذا نام النَّاس؛ أخذ أحد بنيه، أو إخوته، أو بني عمِّه، فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسولَ الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم، فيرقد عليها(٣).

واشتدَّ الحصار على الصَّحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، حتَّى اضطروا إلى أكل ورق الشَّجر، وحتى أصيبوا بشظف العيش، وشدَّته إلى حدِّ أنَّ أحدهم يخرج ليبول، فيسمع بقعقعة شيءٍ تحته، فإذا هي قطعةٌ من جلد بعيرٍ، فيأخذها، فيغسلها، ثمَّ يحرقها، ثم يسحقها، ثمَّ يستفُّها، ويشرب عليها الماء، فيتقوى بها ثلاثة أيام(٤)، وحتَّى لتسمع قريشٌ صوت الصِّبية يتضاغون من وراء الشِّعْب من الجوع(٤).

فلمَّا كان رأس ثلاث سنين، قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنقض الصَّحيفة أناساً من أشراف قريشٍ، وكان الَّذي تولَّى الانقلاب الدَّاخلي لنقض الصَّحيفة، هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أميَّة المخزومي، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب، فقال له: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطَّعام، وتلبس الثِّياب، وتنكح النِّساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يبتاعون، ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكْحون، ولا يُنْكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثمَّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم؛ ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ، والله لو كان معي رجلٌ آخر؛ لقمت في نقضها! فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبْغِنَا ثالثاً.

فذهب إلى المُطْعِم بن عديٍّ، فقال له: يا مُطْعِمُ! أقد رضيت أن يَهْلِك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريشٍ فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه؛ لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً! قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ، قال: قد وجدت

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٣٥٠)، وزاد المعاد (٢/ ٤٦)، والكامل في التاريخ (٢/ ٨٧).
(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء (١/ ٥١).
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان، ص ١٨٠.
(٤) انظر: الغرباء الأولون، ص ١٤٨، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم (٧).

لك ثانياً، قال: من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: مَنْ؟ قال: زهير بن أبي أميَّة، فقال: أبغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً ممَّا قال للمطعم بن عديٍّ، فقال له: ويحك! وهل نجد أحداً يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أميَّة، والمطعم بن عديٍّ، وأنا، فقال: أبغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد، فكلَّمه، وذكر له قرابته، وحقَّهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الَّذي تدعوني إليه من أحدٍ؟ قال: نعم، ثمَّ سمَّى له القوم؛ فاتَّعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكَّة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتَّى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤُكم، فأكون أوَّل من يتكلَّم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أميَّة عليه حُلَّةٌ، فطاف بالبيت سبعاً، ثمَّ أقبل على النَّاس، فقال: أنأكل الطَّعام، ونلبس الثِّياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة! فقال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تُشقُّ! فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقِرُّ به، فقال المطعم بن عديٍّ: صدقتما، وكذبَ مَنْ قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، وممَّا كُتِبَ فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قضي بليلٍ، تُشُووِرَ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلَّم.

وقام المُطْعم بن عدِيٍّ إلى الصَّحيفة ليشقَّها، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها، إلا «باسمك اللَّهمَّ»(١).

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ ـ قال لأبي طالب: يا عم! إن ربي الله قد سلط الأَرَضَة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا(٢).

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

١ ـ إنَّ المتأمِّل لبنود هذه الاتِّفاقيَّة، يجد: أنَّ قريشاً قد أحكمت البنود، ولم تدع فيها ثُغْرَةً

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (٢/ ٤٣ ـ ٥٠، ٦٧ ـ ٦٩).
(٢) السيرة النبوية (١/ ٣٧٧).

يمكن النفاذ من خلالها، ممَّا يؤكد: أنَّها وُضِعت بعد مداولاتٍ، ومشاوراتٍ على نطاقٍ واسعٍ، وشاركت في وضعها عقولٌ مفكرةٌ، امتزجت معها خبراتٌ عديدةٌ، وحبكَها ذكاءٌ مفرطٌ.

٢ ـ في عدم الزَّواج بين الطَّرفين، جانب اجتماعيٌّ مهمٌّ؛ فالزَّواج غالباً ما يؤدِّي إلى التآلف، والتآخي، والتَّراحم، والتَّواصل، والتَّزاور بين أهل الزَّوجين، فإذا تمَّ شيءٌ من ذلك؛ فسيؤدِّي إلى فشل الحصار، وحتَّى لا يحدث ذلك نصَّتِ الوثيقةُ على عدم الزَّواج بين الطَّرفين.

٣ ـ وفي النَّهي عن البيع، والشِّراء منهم يَظْهر جانبٌ اقتصاديٌّ بالغ الأهمِّيَّة، فالبيع، والشِّراء عصب الحياة الاقتصادية، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر، فإذا انعدم ذلك التَّعامل؛ انهار البناء الاقتصاديُّ، وباتت الحياة الاقتصاديَّة مهدَّدةً بالخطر، فيصبح الإنسان مفتقداً لضروريات الحياة؛ ممَّا يعرضه إلى الرُّضوخ، والانصياع لأوامر مَنْ يملك تلك الضروريات، ومعلومٌ أثر ذلك على الجماعة، والأفراد، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين، وهذا ما وقع فعلاً، فقد جاء: أنَّهم جُهِدوا حتَّى كانوا يأكلون ورق الشَّجر، والجلود[(١)].

٤ ـ وزيادةً في الحصار الاقتصاديِّ، وضعوا بنداً يسدُّ الطَّريق أمام المسلمين في التَّعامل مع التُّجار الوافدين من خارج مكَّة، فكانوا يغلون على المسلمين في السِّعر حتَّى لا يدرك الصَّحابة شيئاً يشترونه، فيرجعون إلى أطفالهم الَّذين يتضاغون جوعاً؛ وليس في أيديهم شيءٌ يشغلونهم به، فكان يُسمَعُ بُكَاء الأطفال من بعيدٍ[(٢)]. كل هذا التضييق بسبب البند الَّذي يقول: «ولا يدعوا شيئاً من أسباب الرِّزق يصل إليهم»، كما أنَّ هذا البند يفوِّت الحجَّة على مَنْ أراد أن يهديَ شيئاً لأهل الشِّعب، بحجة: أنَّه لا يبيع، وإنَّما يهدي، وحتَّى لا تبقى ذريعةٌ لإيصال الطَّعام إليهم تحت أيِّ مسمَّى وضعت قريش هذا البند[(٣)].

٥ ـ والبند التَّالي: «ولا تقبلوا منهم صلحاً»، يسدُّ الطَّريق أمام أيِّ خيارٍ آخر سوى تسليم محمَّدٍ ﷺ، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهم، أمَّا البند الذي يقضي «بألا تأخذهم بهم رأفةٌ»، فهو بندٌ يضع قيوداً حتَّى على العواطف؛ كي لا يكون للرأفة، والرَّحمة وجودٌ بين أهل الصَّحيفة تجاه المؤمنين؛ لأنَّ الرَّحمة والرَّأفة قد تقودان إلى فكِّ الحصار؛ الَّذي يؤدِّي بدوره

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٧٧)، والرَّحيق المختوم، ص ١٢٩.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٧٧)، والسِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص ١٢٠.
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ٩٦.

إلى فشل جهود قريش، وهو ما لا تهواه، لذا عملت على إبطال مفعول الرَّأفة بوضعها لهذا البند في الصَّحيفة.

٦ ـ وفي «عدم مجالستهم، ومخالطتهم، وكلامهم»، سدٌّ ثغرةٍ مهمَّةٍ ربُّما جاء من قِبَلِها خطرٌ على المقاطعة والحصار؛ لأنَّ المجالسة، والمخالطة، والكلام مع المسلمين، يؤدِّي إلى النِّقاش، وتبادل الآراء، ووجهات النَّظر، فقد يُقنِع المسلمون بعض أهل الصَّحيفة بخطأ ما هم عليه؛ لأنَّ المسلمين يملكون من الحقِّ والأدلَّة ما يمكن أن يقنعوا بها سواهم، وحتَّى لا يتمَّ ذلك نصَّت الصَّحيفة على عدم المجالسة، والمخالطة والكلام.

٧ ـ قولهم: «لا يدخلوا بيوتهم»، بندٌ لا يختلف عمَّا سبقه؛ لأنَّ دخولهم البيوت يحرِّك الجوانب الإنسانيَّة في النَّفس، فالإنسان عندما يرى بيتاً يخلو من أقلِّ مقومات الحياة، وأصاب أهله الجوع، والعري، والمرض، ليس لذنبٍ سوى أنَّهم اختاروا ديناً غير دين قريشٍ؛ لاشكَّ أنَّ العاطفة ستتحرَّك عندهم، وسيحاولون رفع هذا الظُّلم، وتلك المعاناة، وحتَّى لا تقع قيادة قريش في مثل هذا الموقف نصَّت على عدم دخول البيوت.

٨ ـ وتعليق الصَّحيفة في الكعبة يعطيها قدسيَّةً، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة الَّتي يجب التَّقيُّد، والالتزام بها، فالعرب قاطبةً تقدِّس الكعبة، وتضع لها مكاناً سامياً من الحرمة والقدسيَّة، لذا عمَدت قريش إلى تعليق الصَّحيفة داخل الكعبة(١).

٩ ـ إنَّ مشركي بني هاشمٍ، وبني المطَّلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ، وحموه كأثرٍ من أعراف الجاهليَّة، ومن هنا، ومن غيره، نأخذ: أنَّه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدَّعوة، على أن يكون ذلك مبنِيّاً على فتوى صحيحةٍ من أهلها(٢).

١٠ ـ إنَّ حقوق الإنسان في عصرنا ضمانٌ للمسلم، والحرِّيَّة الدِّينيَّة في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرةٌ من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك، وغيره من خلال موازناتٍ دقيقةٍ(٣).

١١ ـ من المهمِّ أن تعلم: أنَّ حماية أقارب رسول الله ﷺ له لم تكن حمايةً للرِّسالة الَّتي بُعِث بها، وإنَّما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغلَّ هذه الحماية من قِبَلِ المسلمين

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة ـ لجوانب الحذر والحماية، ص ٩٦، ٩٧.
(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها، السِّيرة النَّبوية، لسعيد حوى (١/ ٢٦٤).
(٣) المصدر السابق نفسه.

كوسيلةٍ من وسائل الجهاد والتغلُّب على الكافرين ، والردِّ لمكائدهم وعدوانهم ؛ فأنعم بذلك من جهدٍ مشكورٍ ، وسبيلٍ ينتبهون إليها ![1].

١٢ ـ لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التَّحالف الباغي إلا بالحرب السِّياسيَّة من جهةٍ ، ومحاولة تفتيت هذا التَّحالف ، فعمل قصيدته اللاَّمية المشهورة وفي بدايتها قال :

ولَمَّـا رأَيْـتُ القَـوْمَ لا وُدَّ عِنْـدَهُـمْ ... وقَـدْ قَطَعُـوا كُـلَّ العُـرَا والْـوَسَـائِـلِ
وقَـدْ حَـالَفُـوا قَـوْمـاً عَلَيْنَـا أَظِنَّـةً ... يَعَضُّـونَ غَيْظـاً خَلْفَنَـا بـالأَنَـامِـلِ[2]

وكان لهذه القصيدة أثرٌ خطيرٌ زلزل أوضاع مكَّة ، واستطاعت أن تحرِّك كامن العصبية عند أقارب بني هاشمٍ ، حيث ائتمروا سرّاً ، ودعوا إلى نقض الصَّحيفة[3] .

١٣ ـ انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشيِّ بقصائده الضَّخمة ، الَّتي هزَّت كيانه هزاً ، وتحرَّك لنقض الصَّحيفة مَنْ ذكرنا مِنْ قبل ، أولئك الخمسة الَّذين يمتُّون بصلة قرابةٍ ، أو رحمٍ لبني هاشم ، وبني المطَّلب ، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظُّلامة وهذا الحيف ، عن المسلمين ، وأنصارهم ، وحلفائهم ، وخطَّطوا له ، ونجحوا فيه ، وفي هذا الموقف إشارةٌ إلى أنَّ كثيراً من النُّفوس ـ والَّتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهليِّ ـ قد تملك في أعماقها رفضاً لهذا الظُّلم ، والبغي ، وتستغلُّ الفرصة المناسبة لإزاحته ، وعلى أبناء المسلمين أن يهتمُّوا بهذه الشَّرائح ، وينفذوا إلى أعماقها ، وتُوضِّحَ لهم حقيقة القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة ، وتبيِّن لها طبيعة العداء بين الإسلام ، واليهود ، والنَّصارى ، والعلمانيَّة ، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام[4] .

١٤ ـ ظاهرة أبي لهبٍ تستحقُّ الدِّراسة والعناية ؛ لأنَّها تتكرَّر في التَّاريخ الإسلاميِّ ، فقد يجد الدُّعاة من أقرب حلفائهم مَنْ يقلب لهم ظهر المِجَنِّ ، ويبالغ في إيذاء الدُّعاة وحربهم أكثر بكثير من خصومهم الألدَّاء الأشدَّاء[5] .

١٥ ـ كانت تعليمات الرَّسول ﷺ لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدوَّ ، وأن يضبطوا أعصابهم ، فلا يُشْعِلوا فتيل المعركة ، أو يكونوا وقودها ؛ وإنَّ أعظم تربيةٍ في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومةٍ ؛ حمزةُ ، وعمر ، وأبو بكرٍ ، وعثمان ، وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ سمعوا وأطاعوا ، فلقوا كلَّ هذا الأذى ، وهذا الحقد ، وهذا

---

(١) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٨٨ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٢٤٥) .
(٣) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، للغضبان ، ص ٣٥ إلى ٣٧ .
(٤) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ١٨٥ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦ .

الظُّلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثـةٍ واحدةٍ فقط، أو يوم واحدٍ فقط، بل ثلاث سنين عجافٍ، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهمٍ أو شجَّة رأسٍ[١].

١٦ ـ أثبتت الأحداث عظمة الصَّفِّ المؤمن في التزامه بأوامر قائده، وبُعْده عن التَّصرُّفات الطَّائشة؛ فلم يكن شيءٌ أسهلَ من اغتيال أبي جهلٍ، وإشعال معركة غير مدروسةٍ ـ لا يعلم إلا الله مداها ـ وغير متكافئةٍ.

١٧ ـ كانت الدَّعوة الإسلاميَّة تحقِّق انتصاراتٍ رائعةً في الحبشة، وفي نجران، وفي أزْد شنوءة، وفي دَوس، وفي غِفار، وكانت تتمُّ في خطٍّ واضحٍ، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين، ومراكز قوى يمكن أن تتحرَّك في اللَّحظة الحاسمة، وامتدادات للدَّعوة، تتجاوز حدود مكَّة الصَّلْدة المستعصية.

١٨ ـ كانت هذه السَّنوات الثلاث للجيل الرَّائد زاداً عظيماً في البناء، والتَّربية، حيث ساهم بعضه في تحمُّل آلام الجوع، والخوف، والصَّبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضَّغط على النُّفوس، والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٩ ـ كانت بعض الشَّخصيات في الصَّفِّ المشرك تبنى في داخلها بالتَّربية النَّبويَّة، وتتأثر بعظمة شخصية النَّبيِّ ﷺ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ الَّتي يقدِّمها الدِّين الجديد، لكن سيطرة الملأ، وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التَّفاعل، وهذا الحبِّ، وهذه التَّربية، وختام قصَّة الصَّحيفة تقدِّم لنا أجلى بيانٍ عن ذلك[٢].

٢٠ ـ قيام الحجج الدَّامغة، والبراهين السَّاطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثِّر في أصحاب الهوى، وعبدة المصالح والمنافع؛ لأنَّهم يلغون عقولهم، ويغلقون قلوبهم، وعقولهم عن التدبُّر، ويصمُّون آذانهم عن سماع الحقِّ، ويغمضون أعينهم عن النَّظر والتأمُّل والاهتداء إلى الحقِّ بعد قيام الأدلَّة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرَّسول ﷺ بما حدث للصَّحيفة من أكل الأرَضَة لها، وبقاء اسم الله فقط «باسمك اللَّهمَّ» ورأوا ذلك بأمِّ أعينهم، فما آمن منهم أحدٌ، إنَّه الهوى الذي يغشي عن الحقِّ، ويصمُّ الآذان عن سماعه[٣].

٢١ ـ كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدَّعوة والدِّعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كلِّ القبائل العربيَّة من خلال موسم الحجِّ، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدَّعوة، الَّتي يتحمَّل صاحبها وأصحابه الجوع، والعطش، والعزلة

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٧١).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٨٤، ٣٨٥).
(٣) السِّيرة النَّبوية، لأبي فارس، ص ١٦٧.

لكلِّ هذا الوقت، وأثار في نفوسهم: أنَّ هذه الدَّعوة حقٌّ، ولولا ذلك لما تحمَّل صاحب الرِّسالة وأصحابه كلَّ هذا الأذى والعذاب.

٢٢ ـ أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكَّة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، فما إن انفك الحصار، حتَّى أقبل النَّاس على الإسلام، وحتَّى ذاع أمر هذه الدَّعوة، وتردَّد صداها في كلِّ بلاد العرب، وهكذا ارتدَّ سلاح الحصار الاقتصاديِّ على أصحابه، وكان عاملاً قويّاً من عوامل انتشار الدَّعوة الإسلاميَّة، عكس ما أراد زعماء الشِّرك تماماً[1].

٢٣ ـ كان لوقوف بني هاشم، وبني المطَّلب مع رسول الله ﷺ، وتحمُّلهم معه الحصار الاقتصاديَّ، والاجتماعيَّ، أثرٌ في الفقه الإسلاميِّ؛ حيث إنَّ سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطَّلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فيقول: «وأمَّا سهم ذوي القربى، فإنَّه يصرف إلى بني هاشمٍ، وبني المطَّلب؛ لأن بني المطَّلب وازروا بني هاشم في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام، ودخلوا معهم الشِّعْب غضباً لرسول الله ﷺ، وحمايةً لهم، مسلمُهم طاعةً لله ورسوله ﷺ، وكافرهم حميَّة للعشيرة، وأنفةً، وطاعةً لأبي طالب عمِّ رسول الله ﷺ؛ وأمَّا بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمِّهم؛ فلم يوافقوهم على ذلك؛ بل حاربوهم، ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرَّسول ﷺ؛ ولهذا كان ذمُّ أبي طالبٍ لهم في قصيدته اللاَّمية أشدَّ من غيرهم لشدَّة قربهم... وفي بعض روايات هذا الحديث: إنَّهم لم يفارقونا في جاهليةٍ، ولا إسلامٍ [أبو داود (٢٩٨٠) والنسائي (٧/ ١٣٠) وأحمد (٤/ ٨١)]، وهذا قول جمهور العلماء: أنَّهم بنو هاشم، وبنو المطلب»[2].

٢٤ ـ لمَّا أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله ﷺ، وفتح مكَّة، ثمَّ حجَّة الوداع؛ كان النَّبيُّ ﷺ يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة؛ ليتذكَّر ما كانوا فيه من الضِّيق، والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكَّة ـ التي أُخرجوا منها ـ وليؤكِّد قضية انتصار الحقِّ، واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصَّابرين[3]، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ ـ في حجَّته ـ قال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟ ثمَّ قال:

---

(١) انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص ١٠١.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢).

(٣) انظر: الغرباء الأولون، ص ١٤٩.

نحن نازلون غداً بِخَيْف بني كنانة ، الْمُحَصَّبِ ، حيث قاسمت قريشٌ على الكفر ، وذلك : أنَّ بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم : ألاَّ يبايعوهم ، ولا يؤووهم . قال الزُّهريُّ : والخَيْفُ : الوادي . [البخاري (٣٠٥٨) ومسلم ، طرفه الأول (١٣٥١) وأحمد (٥/٢٠٢) وأبو داود (٢٠١٠) وابن ماجه (٢٩٤٢)] .

٢٥ ـ على كل شَعْبٍ في أيِّ وقتٍ يسعى لتطبيق شرع الله أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار ، والمقاطعة من أهل الباطل ، فالكفر ملَّةٌ واحدةٌ؛ فعلى قادة الأمَّة الإسلاميَّة تهيئة أنفسهم ، وأتباعهم لمثل هذه الظُّروف ، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت ، وأن تفكِّر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة ؛ كي تتمكَّن الأمَّة من الصُّمود في وجه أيِّ نوعٍ من أنواع الحصار[١] .

* * *

(١) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٨ .

الفصل الرَّابع
هجرة الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء

المبحث الأوَّل
تعامل النَّبيِّ ﷺ مع سنَّة الأخذ بالأسباب

من السُّنن الرَّبانيَّة الَّتي تعامل معها النَّبيُّ ﷺ سنَّةُ الأخذ بالأسباب ، والأسباب: جمع سبب ، وهو كلُّ شيءٍ يُتوصَّل به إلى غيره . وسنَّةُ الأخذ بالأسباب مقرَّرةٌ في كون الله تعالى بصورةٍ واضحةٍ ، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته ، وأودع فيه من القوانين ، والسُّنن ما يضمن استقراره ، واستمراره ، وجعل المسببات مرتبطةً بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فجعل عرشه سبحانه محمولاً بالملائكة ، وأرسىٰ الأرض بالجبال ، وأنبت الزَّرع بالماء . . . وغير ذلك .

ولو شاء الله ربُّ العالمين؛ لجعل كلَّ هذه الأشياء وغيرها - بقدرته المطلقة - غير محتاجةٍ إلى سبب ، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى ، وحكمته؛ الَّتي يريد أن يوجِّه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السُّنَّة؛ ليستقيم سير الحياة على النَّحو الَّذي يريده سبحانه ، وإذا كانت سنَّة الأخذ بالأسباب مبرزةً في كون الله تعالى بصورةٍ واضحة ، فإنَّها كذلك مقرَّرةٌ في كتاب الله تعالى ، ولقد وجَّه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السُّنَّة في كل شؤونهم ، الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء ، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] ، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] .

ولقد أخبرنا القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى طلب من السَّيدة مريم ، أن تباشر الأسباب وهي في أشدِّ حالات ضعفها . قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] .

وهكذا يؤكِّد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كلِّ الأمور ، والأحوال . ورسولُ الله ﷺ كان أوعىٰ النَّاس بهذه السُّنَّة الرَّبانيَّة ، فكان - وهو يؤسِّس لبناء الدَّولة الإسلامية - يأخذ بكلِّ

ما في وسعه من أسباب ، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً ، ولقد لمسنا ذلك فيما مضىٰ ، وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى .

وكان ﷺ يوجّه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة ، في أمورهم الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء(١) . وقد كان في حسِّ الأمَّة الإسلاميَّة ، في صدرها الزَّاهر : أنَّ إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة ، وقضائه ، وقدره لا يتعارض مع اتِّخاذ الأسباب ، فلقد كانوا يدركون : أنَّ لله تعالى سنناً في هذا الكون ، وفي حياة البشر ، غيرُ قابلةٍ للتَّغيير ، ومع أنَّ لله تعالى سنناً خارقةً تملك أن تصنع كلَّ شيءٍ ، ولا يعجزها شيءٌ إلا أنَّ الله تعالى ـ جلَّت قدرته ـ قد قضىٰ بأن تكون سنَّته الجارية ثابتةً في الحياة الدُّنيا ، وأن تكون سنَّته الخارقة استثناءً لها ، وكلتاهما معلَّقةٌ بمشيئة الله ، لذلك كان في حسِّهم أنَّه لا بدَّ لهم من مجاراة السُّنن الجارية ؛ إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجةٍ معيَّنة في واقع حياتهم ؛ أي : أنَّه لا بد من اتِّخاذ الأسباب المؤدِّية إلى النتائج ، بحسب تلك السُّنن الجارية(٢) .

وإنَّ تخلُّف المسلمين اليوم عن رَكْبِ الزَّعامة العالميَّة لم يكن ظلماً نزل بهم ، بل كان العدل الإلٰهيُّ مع قومٍ نَسُوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأهواء ، والأوهام في مجال العلم ، والعمل على السَّواء ، وأهملوا السُّنَن الرَّبانيَّة ، وظنُّوا : أنَّ التمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام ، ولكن هيهات! ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وربَّما سائل يقول : ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الَّذين عصوه ، فما بال الكافرين الَّذين جحدوه سبحانه بالمرَّة ، ومع ذلك فإنَّهم ممكَّنون في الأرض ـ من النَّاحية المادِّيَّة ـ غاية التمكين؟!

إنَّ هؤلاء الكفار ، لم يبلغوا ما بلغوه لأنَّهم أقرب إلى الله ، أو أرضىٰ له ، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحرٍ ، أو بمعجزةٍ ، أو لأنَّهم خلقٌ آخر متميِّز ، ولم يقيموا الصِّناعات ، أو يجوبوا البحار ، أو يخترقوا أجواء الفضاء ؛ لأنَّ عقيدتهم حقٌّ ، أو لأنَّ فكرهم سليمٌ ، إنَّهم بلغوا بذلك ؛ لأنَّ السبيل إلى هذا التَّقدُّم دربٌ مفتوح لجميع خلق الله ، مؤمنهم ، وكافرهم ، برِّهم ، وفاجرهم . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥] .

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل التَّمكين في الحياة يمضي بالجهد البشريِّ ، وبالطَّاقة البشريَّة ، على سُننٍ ربَّانيَّةٍ ثابتةٍ ، وقوانين لا تتبدَّل ، ولا تتحوَّل ؛ فمن يُقدِّم الجهد الصَّادق ، ويخضع لسنن الحياة ؛ يصل على قدر جهده ، وبذله ، وعلى قدر سعيه ، وعطائه .

---

(١) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠) .

(٢) انظر : مفاهيم ينبغي أن تصحح ، لمحمَّد قطب ، ص ٢٦٢ ، وما بعدها بتصرف .

إنَّها السُّنَّة الَّتي أرادها الله في هذه الحياة ، إنَّها مشيئته ، وسنَّته ، وإرادته صحيحٌ : أنَّ هذا التَّقدُّم كلَّه لا يفتح للكافرين أبواب الجنَّة ، ولا يغني عنهم شيئاً ، ولكنَّ التَّقصير من جانب المسلم إثمٌ يحاسب عليه(١) .

التَّوكُّل على الله والأخذ بالأسباب :

التَّوكُّل على الله ـ تعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب ، فالمؤمن يتَّخذ الأسباب من باب الإيمان بالله ، وطاعته فيما يأمر به من اتِّخاذها ، ولكنَّه لا يجعل الأسباب هي الَّتي تنشئ النَّتائج ، فيتوكَّل عليها .

إنَّ الَّذي ينشئ النَّتائج ـ كما ينشئ الأسباب ـ هو قدر الله ، ولا علاقة بين السَّبب والنَّتيجة في شعور المؤمن . اتِّخاذ السَّبب عبادةٌ بالطاعة ، وتحقُّق النتيجة قدرٌ من الله مستقلٌ عن السَّبب ، لا يقدر عليه إلا الله ، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التعبُّد للأسباب والتَّعلُّق بها ، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاعته ؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها(٢) .

ولقد قرَّر النَّبيُّ ﷺ في أحاديث كثيرةٍ ضرورة الأخذ بالأسباب مع التَّوكُّل على الله تعالى ، كما نَبَّهَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ على عدم تعارضهما .

يروي أنس بن مالكٍ رضي الله عنه : أنَّ رجلاً وقف بناقته على باب المسجد ، وهمَّ بالدُّخول ، فقال : يا رسول الله! أرسلُ راحلتي ، وأتوكل؟ . . . وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التَّوكُّل على الله تعالى ، فوجَّهه النَّبيُّ ﷺ إلى أنَّ مباشرة الأسباب أمرٌ مطلوبٌ ، ولا ينافي ـ بحالٍ من الأحوال ـ التَّوكُّل على الله تعالى ، ما صدقت النِّيَّة في الأخذ بالأسباب ، فقال له ﷺ : «بل قيِّدها وتوكَّل» [الحاكم (٣/ ٦٢٣) ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٩١) وبلفظ : (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي (٢٥١٧)] .

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي تبيِّن : أنَّه لا تعارض بين التَّوكُّل ، والأخذ بالأسباب بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب ، والاعتماد عليها ، ونسيان التَّوكُّل على الله . وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «لو أنكم توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله ؛ لرزقكم كما يرزق الطَّير ، تغدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً» [أحمد (١/ ٣٠ ، ٥٢) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) وأبو يعلى (٢٤٧) والحاكم (٤/ ٣١٨)] .

وفي هذا الحديث الشَّريف حثٌّ على التَّوكُّل ، مع الإشارة إلى أهمِّية الأخذ بالأسباب ؛ حيث

(١) انظر : لقاء المؤمنين ، (٢/ ١٢٤) ، وما بعدها بتصرُّف .
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٧٦) .

أثبت الغدوّ ، والرَّواح للطَّير مع ضمان الله تعالى الرِّزق لها .

ويمكن تلخيص نظرة الإسلام في هذه القضيّة ، في النُّقاط التَّالية :

١ ـ يقرِّر الإسلام مبدأ الأخذ بالأسباب ، ذلك ؛ لأنَّ تعطيل الأخذ بالأسباب تعطيلٌ للشَّرع ، ولمصالح الدُّنيا .

٢ ـ الاعتماد على الأخذ بالأسباب وحدها ، مع ترك التوكُّل على الله ، شركٌ .

٣ ـ يربط الإسلام اتخاذ الأسباب بالتَّوحيد ، مع الاعتقاد بأنَّ أمر الأسباب كلِّها بيد الله .

٤ ـ المطلوب من المسلم إذاً ، هو اتِّخاذ الأسباب مع التوكُّل على الله تعالى[(١)] .

ولا بدَّ للأمَّة الإسلاميَّة ، أن تدرك : أنَّ الأخذ بالأسباب للوصول إلى التَّمكين أمرٌ لا محيص عنه ، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنَّته الَّتي لا تتخلَّف ، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ: أنَّه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب ، ولم يطلب منهم أن يُعِدُّوا العُدَّة التي تكافئ تجهيز الخصم ، ولكنَّه سبحانه قال : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فكأنه تعالى يقول لهم : افعلوا أقصى ما تستطيعون ، احشدوا أقصىٰ إمكاناتكم ؛ ولو كانت دون إمكانات الخصوم ، فالاستطاعة هي الحدُّ الأقصى المطلوب ، وما يزيد على ذلك يتكفَّل الله تعالى به ، بقدرته الَّتي لا حدود لها ؛ وذلك لأنَّ فعل أقصىٰ المستطاع هو برهان الإخلاص ، وهو الشَّرط المطلوب ؛ لينزل عون الله ، ونصره[(٢)] .

إنَّ النِّداء اليوم موجَّهٌ لجماهير الأمَّة الإسلاميَّة ، بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن ، والغثاء ، إلى مرحلة القوَّة ، والبناء ، وأن يودِّعوا الأحلام ، والأمنيات ، وينهضوا للأخذ بكلِّ الأسباب ؛ الَّتي تعينهم على إقامة دولة الإسلام ، وصناعة حضارة الإنسان الموصول بربِّ العالمين .

وعلى الأمَّة أن تراعي سُنن الله المبثوثة في كونه ، والظَّاهرة في قرآنه الكريم ؛ وذلك لتسير على طريق النُّهوض بنورٍ من الله تعالى .

إنَّ النَّبيَّ ﷺ أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتَّى وفاته ، ولم يفرِّط في أيٍّ منها ، فتعامل مع سنَّة الله في تغيير النُّفوس ، وسنَّة التَّدافع مع الباطل ، وسنَّة التَّدرُّج في بناء الجماعة ، ثمَّ الدولة ، وسنَّة الابتلاء ، واستفرغ ﷺ جهده في الأخذ بالأسباب الَّتي توصل للتَّمكين ، فكانت

(١) انظر : التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٥٤ .

(٢) انظر : الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، ص ٦٤ .

هجرتا الحبشة ، وذهابه للطَّائف ، وعرضه للدَّعوة على القبائل ، ثمَّ هجرته إلى المدينة ، فأقام الدَّولة ، وحافظ عليها ، وسار أصحابه من بعده على نهجه ، وتعاملوا مع السُّنن بوعيٍ ، وبصيرةٍ ، وصنعوا حضارةً لم يعرف التَّاريخُ البشريُّ مثلها حتَّى يومنا هذا .

إنَّ حركة النَّبيِّ ﷺ في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة نورٌ يُهتدى به ، وسنَّةٌ يُقتدىٰ بها في هذه البحور المتلاطمة ، والمناهج المتغايرة ، والظَّلام البهيم ، وإنَّها ليسيرةٌ على من يسَّرها الله عليه .

* * *

المبحث الثَّاني
الهجرة إلى الحبشة[١]

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

فقد نقل القرطبيُّ ـ رحمه الله! قول قتادة ـ رحمه الله! ـ: «المراد أصحاب محمَّد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكَّة، وأخرجوهم؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشة، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين»[٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يريد جعفر بن أبي طالبٍ، والَّذين خرجوا معه إلى الحبشة[٣].

قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ: «هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الَّذي لا يقدرون فيه على إقامة الدِّين إلى أرض الله الواسعة؛ حتَّى يمكن إقامة الدِّين... إلى أن قال: ولهذا لمَّا ضاق على المستضعفين بمكَّة مقامهم بها؛ خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة؛ ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المُنْزِلين هناك، أصحمةَ النَّجاشيَّ ملك الحبشة، رحمه الله تعالى!»[٤].

---

(١) ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٤٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٠٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (١٥/ ٢٤٠).
(٤) تفسير ابن كثير للآية رقم (٥٦) من سورة العنكبوت (٥/ ٣٣٥).

أولاً: الهجرة الأولىٰ إلى أرض الحبشة:

١ ـ أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل الكفَّار يحبسونهم، ويعذِّبونهم بالضَّرب، والجوع، والعطش، ورمضاء مكَّة، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، ومنهم من تصلَّب في دينه، وعصمه الله منهم، فلمَّا رأىٰ رسولُ الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله، ومن عمِّه أبي طالب، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صِدْقٍ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافةَ الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوَّل هجرةٍ كانت في الإسلام». [ابن هشام (١/ ٣٤٤)][(١)].

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدةً في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ منها: ما ذكرت، ومنها: ظهور الإيمان: حيث كثُر الدَّاخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحدِّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن آمن من قبائلهم، يعذِّبونهم، ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ؛ قال لِلَّذين آمنوا به: «تفرَّقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا»، وأشار إلى أرض الحبشة[(٢)].

ومنها: الفرار بالدِّين:

كان الفرار بالدِّين خشية الافتتان فيه سبباً مهماً من أسباب هجرتهم للحبشة. قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم»[(٣)].

ومنها: نشر الدَّعوة خارج مكَّة:

قال الأستاذ سيِّد قطب: «وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّسول ﷺ يبحث عن قاعدةٍ أخرىٰ غير مكَّة، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرِّيَّة، ويتاح فيها أن تتخلَّص من هذا التجميد؛ الذي انتهت إليه في مكَّة، حيث تظفر بحرية الدَّعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد، والفتنة، وهذا

---

(١) الهجرة في القرآن الكريم، لأحزمي سامعون، ص ٢٩٠.
(٢) المغازي النَّبويَّة، للزُّهري، تحقيق: سهيل زكَّار، ص ٩٦.
(٣) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٣٩٨).

في تقديري ، كان هو السَّبب الأوَّل ، والأهمَّ للهجرة ، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنَّهم هاجروا إليها لمجرَّد النَّجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويَّةٍ ، فلو كان الأمر كذلك؛ لهاجر إذاً أقلُّ الناس وجاهةً ، وقوَّةً ، ومنعةً من المسلمين ، غير أنَّ الأمر كان على الضدِّ من هذا ، فالموالي المستضعفون الَّذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد ، والتَّعذيب ، والفتنة لم يهاجروا؛ إنَّما هاجر رجالٌ ذوو عصبياتٍ ، لهم من عصبيتهم ـ في بيئة قبليَّةٍ ـ ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ، وكان عدد القرشيين يؤلِّف غالبية المهاجرين»[1] .

ووافق الغضبان سيِّداً فيما ذهب إليه ، يقول: «وهذه اللَّفتة العظيمة من (سيِّد) ـ رحمه الله! ـ: لها في السِّيرة ما يعضُدها ، ويساندها ، وأهمُّ ما يؤكِّدها في رأيي هو الوضع العامُّ الَّذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة ، فلم نعلم أنَّ رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة ، حتَّى مَضَتْ هجرةُ يثرب ، وبدرٌ ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، فلقد بقيت يثرب معرَّضةً لاجتياحٍ كاسحٍ من قريش خمس سنوات ، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق ، وحين اطمأنَّ رسول الله ﷺ إلى أنَّ المدينة قد أصبحت قاعدةً أمينةً للمسلمين ، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين ، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة ، فلم يعد ثمَّة ضرورةٌ لهذه القاعدة الاحتياطيَّة ، الَّتي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ ، ولو سقطت يثرب في يد العدوِّ»[2] .

ويميل الأستاذ دروزة إلى أنَّ فتح مجالٍ للدَّعوة في الحبشة ، كان سبباً من أسباب هجرة الحبشة؛ حيث يقول: «بل إنَّه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النَّصرانيَّة أمل وجود مجالٍ للدَّعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متَّصلاً بهذا الأمل»[3] . وذهب إلى هذا القول الدُّكتور سليمان بن حمد العودة: «وممَّا يدعم الرَّأي القائل بكون الدَّعوة للدِّين الجديد في أرض الحبشة سبباً ، وهدفاً من أسباب الهجرة إسلامُ النَّجاشيِّ ، وإسلام آخرين من أهل الحبشة ، وأمرٌ آخر ، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النَّبيِّ ﷺ ، وتوجيهه ، فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمرِ النَّبيِّ ﷺ وتوجيهه ، وفي صحيح البخاريِّ: فقال جعفر للأشعريِّين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله ﷺ بعثنا هنا ، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا» [البخاري (٤٢٣٠)] .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩).

(٢) المنهج الحركي للسِّيرة (١/ ٦٧ ، ٦٨).

(٣) سيرة الرَّسول ﷺ (١/ ٢٦٥) عن الشَّامي ، ص ١١١ .

وهذا يعني: أنَّهم ذهبوا لمهمَّة معيَّنةٍ ـ ولا أشرف من مهمَّة الدَّعوة لدين الله ـ وأنَّ هذه المهمَّة قد انتهت حين طُلِب المهاجرون[١].

ومنها البحث عن مكانٍ آمنٍ للمسلمين:

كانت الخطَّة الأمنيَّة للرَّسول ﷺ تستهدف الحفاظ على الصَّفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرَّسول ﷺ: أنَّ الحبشة تعتبر مكاناً آمناً للمسلمين، ريثما يشتدُّ عود الإسلام، وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمَّنهم، وطمأنهم، وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: «لمَّا نزلنا أرض الحبشة؛ جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النَّجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى»[٢].

٢ ـ لماذا اختار النَّبيُّ ﷺ الحبشة؟

هناك عدَّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السُّؤال؛ منها:

أ ـ النَّجاشيُّ العادل:

أشار النَّبيُّ ﷺ إلى عدل النَّجاشيِّ بقوله لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحدٌ»[٣].

ب ـ النَّجاشيُّ الصَّالح:

فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ ثناؤه على ملك الحبشة، بقوله: «قد تُوفي اليوم رجلٌ صالحٌ من الحبشة، فهَلُمَّ فَصَلُّوا عليه» [البخاري (١٣٢٠) ومسلم (٩٥٢/٦٦)] ويظهر هذا الصَّلاح في حمايته للمسلمين، وتأثُّره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه، وكان معتقده في عيسى ـ عليه السَّلام ـ صحيحاً.

ج ـ الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجارة كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ، والحبشة تُعَدُّ من مراكز التِّجارة في الجزيرة، فربَّما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التِّجارة، أو ذكرها لهم مَنْ ذهب إليها قبلهم، وقد ذكر الطَّبريُّ في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجراً

---

(١) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، ص ٣٤.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، تحقيق: همام أبو صعليك (١/ ٤١٣).
(٣) المصدر السابق نفسه، (١/ ٣٩٧).

لقريش ، يتَّجرون فيها ، يجدون فيها رَفَاغاً[(١)] من الرِّزق ، وأمناً ، ومتجراً حسناً»[(٢)] .

كما ذكر ابن عبد البرِّ : أنَّ رسول الله ﷺ حين دخل الشِّعْب ، أمر مَنْ كان بمكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكانت متجراً لقريش[(٣)] .

وذكر ابن حبَّان ـ ضمن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة ـ : أنَّها كانت أرضاً دفيئة ، ترحل إليها قريش رحلة الشِّتاء[(٤)] .

د ـ الحبشة البلد الآمن :

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطَّاعة لقريش ، وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب ؛ إذ لها نفوذٌ عليها ، وكانت القبائل في حاجـةٍ لقريش في حَجِّها ، وتجارتها ، ومواسمها ، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشاً في حرب الدَّعوة ، وعدم الاستجابة للنبيِّ ﷺ ، وقد أشار ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الَّذين رفضوا عرضه ، ودعوته[(٥)] ، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة ، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدٌ أكثر أمناً من بلاد الحبشة ، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانبٍ ، كما أنَّها لا تدين لقريشٍ بالاتِّباع كغيرها من القبائل[(٦)] . وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيارالحبشة مكاناً للهجرة: أنَّها: أرض صِدْقٍ ، وأن بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ[(٧)] ، فهي أرض صدقٍ ، وملكها عادلٌ ، وتلك من أهمِّ سمات البلد الآمن[(٨)] .

هـ ـ محبة الرَّسول ﷺ للحبشة ، ومعرفته بها :

ففي حديث الزُّهريِّ : أنَّ الحبشة كانت أحبَّ الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها[(٩)] ، ولعلَّ تلك المحبة لها أسبابٌ منها :

* حكم النَّجاشيِّ العادل .

* التزام الأحباش بالنَّصرانيَّة ، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنيَّة ؛ ولذلك فرح المؤمنون

---

(١) رَفَاغاً : الرَّفْغ والرَّفاغة : سعة العيش ، والخصب .
(٢) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير ، ص ١٠٤ .
(٣) انظر : الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ، ص ٢٧ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء ، ص ٧٢ .
(٥) السِّير والمغازي ، تحقيق سهيل زكَّار ، ص ٢٣٢ .
(٦) انظر : هجرة الرَّسول ﷺ وأصحابه في القرآن والسُّنَّة ، ص ٩٧ .
(٧) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٩٧) .
(٨) الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٦ .
(٩) مغازي الزُّهري ، ص ٩٦ .

بانتصار الروم النَّصارى على فارسٍ المجوس المشركين ، في الفترة المكِّية سنة ثمانٍ من البعثة ، كما في القرآن[١] .

* معرفة الرَّسول ﷺ بأخبار الحبشة ، من خلال حاضنته أمِّ أيمن رضي الله عنها ، وأمُّ أيمن هذه ثبت في صحيح مسلمٍ ، وغيره : أنَّها كانت حبشيَّةً [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)] ، ونُقل ذلك عن ابن شهابٍ ، وفي سنن ابن ماجه : أنَّها كانت تصنع للنَّبيِّ ﷺ طعاماً ، فقال : ما هذا؟ فقالت : طعام نصنعه بأرضنا ، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفاً . [ابن ماجه (٣٣٣٦)] .

ولم تستطع أن تغيِّر لكنتها الحبشية ، ورخَّص لها النَّبيُّ ﷺ فيما لا تستطيع نطقه ، فلا يُستبعد حديثها للنَّبيِّ ﷺ عن طبيعة أرضها ، ومجتمعها ، وحكَّامها[٢] ، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان خبيراً بطبائع وأحوال الدُّول الَّتي كانت في زمانه .

٣ـ وقت خروج المهاجرين ، وسرِّيَّة الخروج ، والوصول إلى الحبشة :

غادر أصحاب رسول الله ﷺ مكَّة في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة ، وكانوا عشرة رجالٍ ، وأربع نسوةٍ ، وقيل : خمس نسوةٍ ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكَّة ، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر ، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا ، متوجِّهين إلى الحبشة[٣] .

وعند التأمُّل في فقه المرويَّات يتبيَّن لنا سِرِّيَّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقديِّ : «فخرجوا متسلِّلين سرّاً»[٤] ، وعند الطَّبريِّ[٥] ، وممَّن يذكر السِّرِّيَّة في الهجرة : ابن سيِّد النَّاس[٦] ، وابن القيِّم[٧] ، والزُّرقانيُّ[٨] . ولمَّا وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشيُّ مثواهم ، وأحسن لقاءهم ، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة ، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم ، وأهليهم ، فعن أمِّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت : «لمَّا نزلنا أرض الحبشة ، جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ ـ النَّجاشيَّ ـ أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله لا نُؤْذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه» [سبق تخريجه] .

---

(١) صحيح السِّيرة النَّبويَّة (٢/ ١٥٢) .
(٢) انظر : الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٨ ، ويعتبر مبحث الحبشة جلُّه قد أخذ من هذا الكتاب والذي بعده .
(٣) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٤) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٤) .
(٥) تاريخ الطَّبري (٢/ ٣٢٩) .
(٦) عيون الأثر (١/ ١١٦) .
(٧) زاد المعاد (٣/ ٢٣) .
(٨) شرح المواهب (١/ ٢٧١) .

أسماء أصحاب الهجرة الأولىٰ إلى الحبشة:

*** الرِّجال:**

ـ عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس.

ـ عبد الله بن عوف بن عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة.

ـ الزُّبير بن العوَّام بن خُوَيلد بن أسد.

ـ أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

ـ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

ـ أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ـ عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح.

ـ عامر بن ربيعة، حليف آل الخطَّاب من عَنْز بن وائل.

ـ سُهَيل بن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث.

ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أوَّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة.

*** النِّساء:**

ـ رقيَّة بنت النَّبيِّ ﷺ.

ـ سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والَّتي هاجرت مع زوجها أبي حذيفة، وولدت له بأرض الحبشة محمَّد بن أبي حذيفة.

ـ أمُّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة.

ـ ليلى بنت أبي حَثمة بن حذافة بن غانم (بن عامر) بن عبد الله بن عوف بن عبيد ابن عويج بن عديِّ بن كعب، امرأة عامر بن ربيعة.

ـ أمُّ كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، امرأة أبي سَبْرة بن أبي رُهْم[١].

وكان أول من هاجر منهم، عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، فقد روى

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٩٦، ٩٧)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤ ـ ٣٥٢) والهجرة في القرآن الكريم ص ٢٩٢ إلى ٢٩٤.

يعقوب بن سفيان: «إنَّ عثمان لأوَّلُ مَنْ هاجر بأهله بعد لوطٍ» [ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)][١].

إنَّ المتأمِّل في الأسماء سالفة الذِّكر لا يجد فيهم أحداً من الموالي، الَّذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشدُّ من غيرهم، كبلال، وخبَّاب، وعمَّار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النَّسب، والمكانة في قريشٍ، ويمثِّلون عدداً من القبائل، صحيحٌ: أنَّ الأذى شمل ذوي النَّسب والمكانة، كما طال غيرهم، ولكنَّه كان على الموالي أشدَّ في بيئةٍ تقيم وزناً للقبيلة، وترعى النَّسب، وبالتَّالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السَّبب في الهجرة؛ لكان هؤلاء الموالي المعذَّبون أحقَّ بالهجرة من غيرهم، ويؤيِّد هذا: أنَّ ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[٢].

ويصل الباحث إلى حقيقةٍ مهمَّةٍ، ألا وهي: أن ثَمَّةَ أسباباً أخرىٰ تدفع للهجرة غير الأذىٰ، اختار لها النَّبيُّ ﷺ نوعيةً من أصحابه، تُمثِّل عدداً من القبائل، وقد يكون لذلك أثرٌ في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانبٍ، وتهزُّ هجرتهم قبائل قريش كلَّها، أو معظمها من جانبٍ آخر، فمكَّة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بُدّاً من الخروج عنها بحثاً عن الأمن في بلدٍ آخر، ومن جانبٍ ثالثٍ يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الآفاق، وقد تكون محلاً أصوب، وأبرك للدَّعوة إلى الله، فتنفتح عقولٌ وقلوبٌ حين يستغلق سواها[٣].

ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولىٰ:

١ ـ شبهة عودة المهاجرين بسبب قصَّة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرِّخين والمفسِّرين عودة المسلمين من الحبشة بعد الهجرة إلى مكَّة لأسطورة راجت كثيراً، واحتلَّت مساحاتٍ واسعةً من كتب المستشرقين، قاصدين بذلك ترويجها، وجعلها حقيقةً واقعةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة.

إنَّ الَّذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون حيالها مناهج شتَّىٰ؛ فمنهم مَنْ يذكرها، ويسكت عنها، لا ينفيها، ولا يثبتها، ومنهم مَنْ يحاول إثباتها، ومنهم مَنْ يورد الأدلَّة على بطلانها[٤].

وتلك الأسطورة تتلخَّص في: أنَّ رسول الله ﷺ جلس يوماً عند الكعبة، وقرأ سورة النَّجم،

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٦٧)، نقلاً عن (الهجرة في القرآن الكريم)، ص ٢٩٤.
وانظر: فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٧٢).
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ١٥٦ ـ ١٩٨)، وابن هشام (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٦).
(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص ٣٧.
(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٢٩٥.

حتَّى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى»، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخيرٍ قبل اليوم، وقد علمنا أنَّ الله يرزق، ويحيي، ويميت، ولكنَّ آلهتنا تشفع عنده، فلمَّا بلغ السَّجدة سجد، وسجد معه المسلمون، والمشركون كلُّهم، إلا شيخاً من قريش، رفع إلى جبهته كفّاً من حصىً، فسجد عليه[1].

وصَافَىٰ المشركون رسول الله ﷺ، وكفُّوا عن أذىٰ المسلمين، وشاع ذلك حتَّى بلغ مَنْ في الحبشة، فاطمأنُّوا إلى حسن إقامتهم في مكَّة، وممارستهم عباداتهم آمنين، فعادوا إلى مكَّة.

تلك خلاصة الأسطورة، والَّذين ذكروا القصَّة ـ مع اختلاف مواقفهم منها ـ يقولون: إنَّ رسول الله ﷺ لمَّا قالت قريش: «إمَّا جعلت لآلهتنا نصيباً، فنحن معك» كبر عليه ذلك، وجلس في بيته حتَّى أمسى، ثمَّ أتاه جبريل، فقرأ عليه سورة النَّجم، فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ يقصد «تلك الغرانيق العلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» فحزن الرَّسول ﷺ حزناً شديداً، وخاف من ربِّه، فأنزل الله عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] [الحج: ٥٢]، وحينئذٍ عاد الرَّسول ﷺ إلى عيب آلهتهم، وتسفيه عقولهم، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

٢ ـ تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصَّة الكثير من علماء الإسلام السَّابقين، والمُحْدَثين، **نقلاً**، **وعقلاً**؛ وذلك لأنَّها تتنافىٰ مع عصمة الرَّسول ﷺ؛ بل وتطعن في نبوَّته ﷺ، كما أنَّها تتهاوىٰ أمام البحث العلميِّ، **ومن الأدلة النقليّة على بطلانها:**

أ ـ أنَّ القرآن الكريم بيَّن بوضوح: أنَّ النبي ﷺ لا يستطيع أن يتقوَّل على الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

ب ـ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أخبر أنَّه يحفظ القرآن من أن يُدخل عليه ما ليس منه، أو يُنقص منه شيءٌ، أو يُحرَّف عن مواضعه. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولو صحَّ: أنَّ الرَّسول ﷺ نطق في أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين، لدخل في القرآن ما ليس منه، فلا يكون هناك حفظٌ، وهو مخالفٌ للنَّصِّ.

---

(١) انظر: مختصر سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد بن عبد الوهاب، ص ٨٤.

(٢) فتح القدير (٣/٤١٦)، وفتح الباري (٨/ ٣٥٥)، وأسباب النزول للسُّيوطي على هامش الجلالين (٢/١٦)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٢٩٦.

ج ـ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وهل هناك بشرٌ أصدق إيماناً، وأشدُّ توكُّلاً على الله من الأنبياء، ولا سيَّما خاتمهم ﷺ؟! وقد أقرَّ رئيس الشَّياطين بأنَّه لا سلطان له على عباد الله المخلصين، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وَمَنْ أحقُّ من الأنبياء بالاصطفاء؟! ومن أشدُّ إخلاصاً منهم لله؟! ونبيُّنا محمَّد ﷺ على رأس المصطفين الأخيار، وفي الذِّروة منهم إخلاصاً لله[١].

وقد ذكر القاضي عياض: أنَّ مَنْ ذكرها من المفسرين، وغيرهم لم يسندها أحدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحبٍ، إلا رواية البزَّار، وقد بيَّن البزَّار: أنَّه لا يعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى ما ذكره، وفيه ما فيه[٢].

ورأىٰ ابن حجر: وما قيل من أنَّ ذلك ـ السُّجود من المشركين ـ بسبب إلقاء الشَّيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ لا صحَّة له عقلاً، ولا نقلاً[٣].

ورأىٰ ابن كثير: أنه قد ذكر كثيرٌ من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثيرٍ من المهاجرين إلى أرض الحبشة، ظنَّاً منهم: أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنَّها من طرقٍ كلِّها مرسلةٌ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيح. والله أعلم[٤].

* **وأمَّا بطلان القصَّة من جهة العقل**: فقد قام الدَّليل العقليُّ، وأجمعت الأمَّة، على عصمته ﷺ من مثل هذا؛ إذ لو جاز هذا من الرَّسول ﷺ لجاز عليه الكذب، والكذب على الرَّسول ﷺ محالٌ؛ إذ صدور مثل هذه القصَّة عن الرَّسول ﷺ محالٌ، ولو قاله عمداً، أو سهواً لم يكن هناك عصمةٌ، وهو مردودٌ، كما أنَّ القصَّة تخالف عقيدة التَّوحيد الَّتي من أجلها بَعَثَ اللهُ نبيَّه ﷺ.

* **وأمَّا بطلان القصَّة لغويّاً**: فلأنَّه لم يرد قطُّ عن العرب أنَّهم وصفوا آلهتهم بـ (الغرانيق)، في الشِّعر، ولا في النَّثر، والَّذي تعرفه اللغة أنَّ (الغُرْنُوق) اسم لطائرٍ مائيٍّ أسود، أو أبيض، ومن معانيه: الشَّابُّ الأبيض الجميل[٥]، ولا شيء من معانيه اللُّغويَّة يلائم معنى الآلهة والأصنام حتَّى يطلق عليهما في فصيح الكلام؛ الَّذي يُعرَض على أمراء الفصاحة والبيان، فكيف

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٢٩٨.
(٢) انظر: الشِّفا (٢/١١٧).
(٣) فتح الباري، عند شرح حديث رقم (٤٨٦٢).
(٤) تفسير ابن كثير والبغوي (٦/ ٦٠٠ وما بعدها)، نقلاً عن الهجرة في القرآن، ص ٢٩٨.
(٥) القاموس المحيط (٣/ ٢٨١) مادَّة (الغرنوق).

يفرح به المشركون ، ويعتبرونه ذكراً لآلهتهم بالخير؟![(١)].

إنَّ قصَّة الغرانيق لا تثبت من جهة النَّقل ، وهي مخالفةٌ للقرآن الكريم ، ولما قام عليه الدَّليل العقلي ، كما أنكرتها اللُّغة ، وهذا ممَّا يدلُّنا على أنَّ حديث الغرانيق مكذوبٌ ، اختلقته الزَّنادقة ، الَّذين يسعون لإفساد العقيدة والدِّين ، والطَّعن في سيِّد الأنبياء ، وإمام المرسلين ﷺ[(٢)].

٣ـ الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين :

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة ، وحدث تغيُّر كبيرٌ على حياة المسلمين في مكَّة ، ونشأت ظروفٌ لم تكن موجودةً من قبل ، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدَّعوة في مكَّة ؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله ﷺ ؛ عصبيَّةً لابن أخيه ، ثمَّ شرح الله صدره للإسلام ؛ فثبت عليه ، وكان حمزةُ أعزَّ فتيان قريش ، وأشدَّهم شكيمةً ، فلمَّا دخل في الإسلام ؛ عرفت قريش : أنَّ رسول الله ﷺ قد عزَّ ، وامتنع ، وأنَّ عمه سيمنعه ، ويحميه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[(٣)].

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وكان عمر ذا شكيمةٍ لا يرام ، فلمَّا أسلم ؛ امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ ، وبحمزة ؛ حتَّى عازُّوا قريشاً[(٤)].

كان إسلام الرَّجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة ، فكان إسلامهما عزَّةً للمسلمين ، وقهراً للمشركين ، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله ﷺ على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعودٍ : «إنَّ إسلام عمرَ كان فتحاً ، وإنَّ هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمةً ، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً ؛ حتَّى صلَّى عند الكعبة ، وصلَّينا معه»[(٥)].

وعن ابن عمر قال : لمَّا أسلم عمر ؛ قال : أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له : جميل بن مَعْمر الجُمَحي ، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت معه أتبع أثره ، وأنظر ماذا يفعل ، حتَّى جاءه ، فقال له : أعلمت يا جميل! أنِّي أسلمت ، ودخلت في دين محمَّد؟ قال : فوالله ما راجعه حتَّى قام يجرُّ رداءه ، وتبعه عمر ، واتَّبعتُ أبي ؛ حتَّى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلىٰ

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة ، لأبي شهبة (١/ ٣٧٢).
(٣) مختصر سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٩٠.
(٤) السِّيرة النَّبويَّة (١/ ٢٩٤) ، وعازُّوا قريشاً : أي : غلبوهم.
(٥) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٣٦٥).

صوته: يا معشر قريش! ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطَّاب قد صبأ[١]. قال: يقول عمر مِنْ خلفه: كذب! ولكنِّي أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم، ويقاتلونه، حتَّى قامت الشَّمس على رؤوسهم، وَطَلِحَ (أي: أعيا) فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئةٍ، لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا[٢].

«لقد أصبح المسلمون إذاً في وضعٍ غير الَّذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة، وعمر رضي الله عنهما، واستطاعوا أن يصلُّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين، حتَّى دخلوا المسجد، وَكَفَّت قريش عن إيذاءهم بالصُّورة الوحشيَّة الَّتي كانت تعذِّبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغيَّر بالنسبة للمسلمين، والظُّروف الَّتي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحوَّلت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفىٰ على أحد؟! وهل تظنُّ: أنَّ هذه التَّغييرات الَّتي جرت على حياة المسلمين في مكَّة لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحَّارة الَّذين كانوا يمرُّون بجدَّة؟!

لا بدَّ: أنَّ كلَّ ذلك قد وصلهم، ولا شكَّ: أنَّ هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيراً، ولا يستغرب أحدٌ بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن ـ وهو فطرةٌ فطر الله عليها جميع المخلوقات ـ قد عاودهم، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز، مكَّة أمُّ القرى، وإلى حيث يوجد الأهل، والعشيرة، فعادوا إلى مكَّة في ظلِّ الظُّروف الجديدة، والمشجِّعة، وتحت إلحاح النَّفس، وحنينها إلى حرم الله، وبيته العتيق»[٣].

لقد رجع المهاجرون إلى مكَّة بسبب ما علموا من إسلام حمزة، وعمر، واعتقادهم: أنَّ إسلام هذين الصَّحابيَّيْن الجليلين، سيعتزُّ به المسلمون، وتقوىٰ به شوكتُهم.

ولكنَّ قريشاً واجهت إسلام حمزة، وعمر رضي الله عنهما، بتدبيراتٍ جديدة، يتجلَّى فيها المكر والدَّهاء من ناحيةٍ، والقسوة، والعنف من ناحيةٍ أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب الَّتي تستعملها ضدَّ النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، سلاحاً قاطعاً، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية ـ وقد تحدَّثت عنه ـ وكان من جرَّاء ذلك الموقف العنيف، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرَّةً ثانيةً، وانضمَّ إليهم عددٌ كبير ممَّن لم يهاجروا قبل ذلك[٤].

---

(١) صبأ: خرج من دين إلى دينٍ آخر، القاموس المحيط، باب الهمزة (١/ ٢٠).
(٢) سبل الهدى والرَّشاد للصالحي (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩).
(٣) تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد سيد الوكيل، ص ٥٩، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٢.
(٤) انظر: القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين ﷺ، د. محمد النَّجار، ص ١١١، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٢.

ثالثاً: هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة:

قال ابن سعدٍ: قالوا: لمَّا قدم أصحاب النَّبيِّ ﷺ مكَّة من الهجرة الأولىٰ؛ اشتدَّ عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرَّةً ثانيةً، فكانت خرجَتُهم الثَّانية أعظمها مشقَّةً، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذىٰ، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النَّجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولىٰ وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى، وإليَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[(١)]!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدَّتهم ـ كما قال ابن إسحاق وغيره ـ ثلاثةٌ وثمانون رجلاً؛ إن كان عمَّار بن ياسر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّهيلي: وهو الأصحُّ عند أهل السِّير كالواقديِّ، وابن عقبة، وغيرهما[(٢)]، وثماني عشرة امرأةً: إحدى عشرة قرشيَّاتٌ، وسبعٌ غير قرشيَّاتٍ، وذلك عدا أبنائهم الَّذين خرجوا معهم صغاراً، ثمَّ الذين وُلِدوا لهم فيها[(٣)].

١ ـ سعي قريش لدى النَّجاشيِّ في ردِّ المهاجرين:

لمَّا رأت قريش: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنُّوا بأرض الحبشة، وأنَّهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً، وحُسْنَ جوارٍ من النَّجاشيِّ، وعبدوا الله، لا يؤذيهم أحدٌ؛ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنَّجاشيِّ لإحضار مَنْ عنده من المسلمين إلى مكَّة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أنَّ هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النَّجاشيِّ عن حوارٍ هادف، دار بين أحد المهاجرين، وهو جعفر بن أبي طالب، وبين ملك الحبشة، أسفر هذا الحوار عن إسلام النَّجاشيِّ، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[(٤)].

فعن أمِّ سلمة بنت أبي أميَّة بن المغيرة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: لمَّا نزلنا أرض الحبشة، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ (النَّجاشيِّ)؛ أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلمَّا بلغ ذلك قريشاً؛ ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجاشي فينا رجلين جَلْدين[(٥)]، وأن يُهْدوا

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٧) (ط. بيروت)، والهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٣.

(٢) انظر: الرَّوض الأنف، للسهيلي (٣/ ٢٢٨).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٣.

(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٠٤.

(٥) الجلد: القوَّة والشدَّة.

للنَّجاشيِّ هدايا ممَّا يستطرف من متاع مكَّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأَدَم[١] ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته[٢] بِطْريقاً إلا أَهْدَوْا له هديَّةً ، ثمَّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزوميَّ ، وعمرو بن العاص بن وائل السَّهميَّ ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النَّجاشيَّ فيهم ، ثمَّ قدِّما للنَّجاشيِّ هداياه ، ثمَّ سلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. قالت: فخرجا ، فقدما على النَّجاشيِّ ، ونحن عنده بخير دارٍ ، وخير جارٍ ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النَّجاشيَّ ، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنَّه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم ، وأعمامهم؛ لتردُّوهم إليهم ، فإذا كلَّمنا الملك فيهم؛ فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهم إلينا ، ولا يكلِّمهم ، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[٣] ، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم . ثمَّ إنهما قرَّبا هداياهما إلى النَّجاشيِّ ، فقبلها منهما ، ثمَّ كلَّماه ، فقالا له: أيها الملك! إنَّه قد صبأ إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنت ، وقد بَعَثَنَا فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النَّجاشيُّ كلامهم ، فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك! قومُهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأَسْلِمْهم إليهما ، فليردَّانهم إلى بلادهم ، وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشيُّ ، ثمَّ قال: لا هَيْمُ[٤] الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[٥] ، قوماً جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على مَنْ سواي ، حتَّى أدعوهم ، فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون؛ أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك؛ منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ، ما جاوروني[٦] .

---

(١) الأدم: جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ.
(٢) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم.
(٣) أعلى بهم عيناً: قال السُّهيلي: أي: أبصر بهم ، أي: أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم ، وانظر: الرَّوض الأنف (١/ ٩٢).
(٤) والمعنى: لا والله!
(٥) لا أكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد ، وفي سيرة ابن هشام: ولا يُكادُ قوم جاوروني.
(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٠) وقال: إسناده صحيح ، ورقمه (٢٢٤٩٨).

٢ ـ حوارٌ بين جعفر ، والنَّجاشيِّ :

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلمَّا جاءهم رسوله ؛ اجتمعوا ، ثمَّ قال بعضهم لبعضٍ : ما تقولون للرَّجل ؛ إذا جئتموه؟ قالوا : نقول والله ما علَّمنا ، وما أَمَرَنا به نبيُّنا ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن . فلمَّا جاؤوه ، وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته(١) ، فنشروا مصاحفهم(٢) حوله ، سألهم ، فقال : ما هذا الدِّين الَّذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت : فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له : أيُّها الملك! كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسِيء الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف ، فكنَّا على ذلك ، حتَّى بعث اللهُ إلينا رسولاً نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزُّور ، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصَّلاة ، والزَّكاة ، والصِّيام . قالت : فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدَّقناه ، وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومُنا ، فعذَّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث ، فلمَّا قهرونا ، وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ؛ خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملك(٣) .

قالت : فقال له النَّجاشيُّ : هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قال له جعفر : نعم ، فقال له النَّجاشيُّ : فاقرأه عليَّ .

فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، قالت : فبكى ، والله النَّجاشيُّ ، حتَّى أَخْضَلَ(٤) لحيته ، وبكت أساقفته ، حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثمَّ قال النَّجاشيُّ : إنَّ هذا ـ والله! ـ والَّذي جاء به موسىٰ ، ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ ،

---

(١) أساقفته : جمع الأسقف ، وهو العالم والرَّئيس من علماء النَّصارى .

(٢) أي : أناجيلهم ، وكانوا يسمُّونها مصاحف .

(٣) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

(٤) ابتلت بالدُّموع : يقال خضل وأخضل : إذا ندي ، النهاية (٣/ ٤٣) .

انطلقا؛ فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبداً، ولا يُكادون[(١)].

٣ ـ محاولة أخرى للدَّس بين المهاجرين والنَّجاشيِّ:

قالت: فلمَّا خرج كلٌّ من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النَّجاشيِّ؛ قال عمرو بن العاص: والله! لآتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[(٢)]. قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقىٰ الرَّجلين فينا ـ: لا تفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله! لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبدٌ، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك! إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم، فاسألهم عمَّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قطُّ، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسىٰ إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول ـ والله! ـ فيه ما قاله الله، وما جاء به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمَّا دخلوا عليه؛ قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ: نقول فيه الَّذي جاء به نبيُّنا، هو عبد الله، ورسولُه، وروحه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء[(٣)] البَتُول[(٤)].

قالت: فضرب النَّجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثمَّ قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرت[(٥)] بطارقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي (والشُّيوم الآمنون)؛ من سبَّكم غَرِمَ، ثمَّ من سبَّكم غرم، فما أُحِبُّ أن لي دَبَراً ذهباً، وأنِّي آذيتُ رجلاً منكم، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل، ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله! ما أخذ اللهُ مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلْكي؛ فآخذَ الرَّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فيَّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْنِ، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ. [أحمد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) و(٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) وابن هشام (١/ ٣٥٧ ـ ٣٦٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٩٤) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤)].

٤ ـ إسلام النَّجاشيِّ:

وقد أسلم النَّجاشيُّ، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ، وإن كان قد أخفىٰ إيمانه عن قومه؛ لِمَا علمه

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ولا يُكادون: لعل المعنَّى: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم، ويعذِّبوهم.

(٢) أستأصل به خضراءهم: أي بما أجتثُّ به شجرة حياتهم.

(٣) العذراء: الجارية التي لم يمسَّها رجلٌ، وهي البكر.

(٤) يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرِّجال، لا شهوة لها فيهم.

(٥) فتناخرت: أي: تكلَّمت، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٌ.

فيهم من الثَّبات على الباطل ، وحرصهم على الضَّلال ، وجمودهم على العقائد المنحرفة ـ وإن صادمت العقل ، والنَّقل ـ [البخاري (١٢٤٥) ومسلم (٩٥١/ ٦٢ و٦٣)] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : «أنَّ رسول الله ﷺ نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيراتٍ»(١) ، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ حين مات النَّجاشيُّ : «مات اليوم رجلٌ صالحٌ ؛ فقوموا ، فصلُّوا على أخيكم أصحمة» [البخاري (٣٨٧٧)] . وكانت وفاته ـ رحمه الله ! ـ سنة تسعٍ عند الأكثر ، وقيل : سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»(٢) .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم ، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار ، والضَّالون أنواع العذاب ، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم ، وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسموٌّ نفوسهم ، وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير ، واطمئنان النَّفس والعقل . وما يأملونه من رضا الله ـ جلَّ شأنُه ـ ، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم ، من تعذيبٍ ، وحرمانٍ ، واضطهادٍ ؛ لأنَّ السيطرة في المؤمنين الصَّادقين ، والدُّعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم ، لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم ، من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم ، من راحةٍ ، وشبعٍ ، ولذَّةٍ ، وبهذا تنتصر الدَّعوات ، وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات ، والجهالات(٣) .

٢ ـ ممَّا يتبادر إلى الذِّهن من هذه الهجرة العظيمة ، شفقة الرَّسول الكريم ﷺ على أصحابه ، ورحمته بهم ، وحرصه الشَّديد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم ، ولذلك أشار عليهم بالذَّهاب إلى الملك العادل ؛ الَّذي لا يُظْلم أحدٌ عنده ، فكان الأمر كما قال ﷺ ، فأمنوا في دينهم ، ونزلوا عنده في خير منزلٍ(٤) ، فالرَّسول ﷺ هو الَّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الَّذي اختار المكان الآمن لجماعته ، ودعوته ؛ كي يحميها من الإبادة ، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ ، وبُعْد نظرٍ لحماية الدَّعوة ، والدُّعاة ، وتبحث عن الأرض الآمنة الَّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة ، ومركزاً من مراكز انطلاقها ـ فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر ، أو وقع احتمال اجتياحه ـ فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقية ، وهم الَّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم ، وحمايتهم دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ في أرواحهم ، وأمنهم ، ومسلمٌ

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٠٩ .
(٢) أسد الغابة (١/ ٩٩) ، والإصابة (١/ ١٠٩) .
(٣) السِّيرة النَّبوية ، للدُّكتور مصطفى السِّباعي ، ص ٥٧ .
(٤) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣١٢ .

واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله ، وتوحيده[١] .

٣ ـ كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً ، ولذلك حرص النَّبيُّ ﷺ على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف ، كشرح قضيَّة الإسلام ، وموقف قريشٍ منه ، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ ، يشرح قضاياها ، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها[٢] ، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة ، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر ، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب ، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[٣] .

٤ ـ إنَّ وجود ابـن عمِّ رسول الله ﷺ جعفر ، وصهره عثمان ، وابنته رقيَّـة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ في مقدِّمة المهاجرين له دلالةٌ عميقةٌ ، تشير إلى أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد ، وأهله ، ورحمه ، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأىً عن الخطر ، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة ؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ ﷺ[٣] .

٥ ـ مشروعية الخروج من الوطن ـ وإن كان الوطن مكَّة على فضلها ـ إذا كان الخروج فراراً بالدِّين ـ وإن لم يكن إلى دار إسلام ـ فإنَّ أهل الحبشة كانوا نصارىٰ ، يعبدون المسيح ، ولا يقولون : هو عبد الله ، وقد تبيَّن ذلك في هذا الحديث ـ يعني : حديث أمِّ سلمة المتقدِّم ـ وسُمُّوا بهذه مهاجرين ، وهم أصحاب الهجرتين الَّذين أثنى الله تعالى عليهم بالسَّبق ، فقال : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ .

وجاء في التفسير : إنَّهم هم الذين شهدوا بيعة الرِّضوان[٤] ، فانظر كيف أثنىٰ الله عليهم بهذه الهجرة ، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر لمَّا كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم ، ورجاء أن يُخلي بينهم وبين عبادة ربهم ؛ يذكرونه آمنين مطمئنين ، وهذا حكمٌ مستمرٌّ متى غلب المنكر في بلدٍ ، وأوذي على الحقِّ مؤمنٌ ، ورأىٰ الباطل قاهراً للحقِّ ، ورجا أن يكون في بلدٍ آخر ـ أيَّ : بلدٍ كان ـ يخلِّى بينه وبين دينه ، ويظهر فيه عبادة ربِّه ؛ فإن الخروج على هذا الوجه حقٌّ على المؤمن ، هذه هي الهجرة ؛ الَّتي لا تنقطع إلى يوم القيامة : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١١٥][٥] .

٦ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواءٌ كان المُجير من أهل الكتاب كالنَّجاشي ؛ إذ كان نصرانيّاً عندئذٍ ، ولكنَّه أسلم بعد ذلك ، أو كان

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة ، للغضبان (١/ ٣٣٣) .
(٢) أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٤٢٧ .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٣) .
(٤) تفسير الطَّبري (١١/ ٦) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣١) .
(٥) الرَّوض الأنف ، للسُّهيليِّ (٢/ ٩٢) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣١٢ .

مشركاً؛ كأولئك الَّذين عاد المسلمون إلى مكَّة في حمايتهم، عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالبٍ عمِّ رسول الله ﷺ ، وكالمُطْعِم بن عديٍّ، الذي دخل الرَّسولُ ﷺ مكةَ في حمايته عندما رجع من الطَّائف(١).

وهذا مشروطٌ ـ بحكم البداهة ـ بألاَّ تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدَّعوة الإسلاميَّة ، أو تغييراً لبعض أحكام الدِّين ، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرَّمات ، وإلاَّ لم يَجُزْ للمسلم الدُّخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه ﷺ حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسه ، ولا يحمِّله ما لا يطيق ، فلا يتحدَّث عن آلهة المشركين بسوءٍ ، فقد وطَّن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمِّه ، وأبى أن يسكت عن شيٍ ممَّا يجب عليه بيانه ، وإيضاحه(٢).

٧ ـ إنَّ اختيار الرَّسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ ، تمثَّلت في معرفة الرَّسول ﷺ بما حوله من الدُّول ، والممالك ، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها ، وعادلها مِنْ ظالمها ، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ آمنةٍ لهجرة أصحابه ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله ، مطَّلعاً على أحوال ، وأوضاع الأمم ، والحكومات(٣).

٨ ـ يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرَّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى ، وكيفية الخروج ، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسلُّلاً ، وخفيةً ؛ حتَّى لا تفطن له قريشٌ ، فتحبطه ، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضيِّقٍ ، لم يزد على ستة عشر فرداً ، فهذا العدد لا يلفت النَّظر في حالة تسلُّلهم ، فرداً ، أو فردين ، وفي الوقت ذاته يساعد على السَّير بسرعةٍ ، وهذا ما يتطلَّبه الموقف؛ فالرَّكب يتوقَّع المطاردة ، والملاحقة في أيِّ لحظةٍ ، ولعلَّ السِّرِّيَّة المضروبة على هذه الهجرة ، فوَّتت على قريشٍ العلم بها في حينها ، فلم تعلم بها إلا مؤخَّراً ، فقامت في إثرهم؛ لتلحق بهم ، لكنَّها أخفقت في ذلك ، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً ، وهذا ممَّا يؤكِّد على أنَّ الحذر هو ممَّا يجب أن يلتزمه المؤمن في تحرُّكاته الدَّعوية ، فلا تكون التَّحرُّكات كلُّها مكشوفةً ، ومعلومةً للعدوِّ؛ بحيث يترتَّب عليها الإضرار به وبالدَّعوة(٤).

٩ ـ لم ترضَ قريشٌ بخروج المسلمين إلى الحبشة ، وشعرت بالخطر الَّذي يهدِّد مصالحها في المستقبل ، فربَّما تكبر الجالية هناك ، وتصبح قوَّةً خطرةً ، ولذلك جدَّ المشركون ، وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين ، وبدأت قريشٌ تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع

---

(١) الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣١٦.

(٢) فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٢٦ ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣١٧.

(٣) انظر: في السِّيرة النَّبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠١.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

هذا الموقع الجديد منهم في تخطيطٍ محكمٍ ذكيٍّ؛ بالهدايا إلى النَّجاشيِّ ، والهدايا إلى بطارقته، ووُضِعتِ الخطَّة داخل مكَّة، وكيف تُوزَّع الهدايا ، وما نوعية الكلام الَّذي يرافق الهدايا ، وصفات السُّفراء ، فعمرٌو من أصدقاء النَّجاشي ومعروفٌ بالدَّهاء . ما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدوَّنا ، وألا ننام عن مخطَّطاته ، وأن نعطيه حجمه الحقيقيَّ ، وندرس تحرُّكاته؛ لنستعدَّ لمواجهة مخطَّطاته الماكرة![١] .

١٠ ـ نُفِّذت خطَّة قريشٍ بحذافيرها كاملةً ، ولكنَّها فشلت؛ لأنَّ شخصية النَّجاشيِّ الَّتي تمَّ جوارها رفضت أن تسلِّم المسلمين قبل السَّماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين؛ ليعرضوا قضيَّتهم العادلة ، ودينهم القويم .

١١ ـ اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي ، طلب منهم الحضور ، وتدارسوا الموقف ، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم ، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنَّه يضمُّ خلاصة عقولٍ كثيرةٍ. وتبدو مظاهر السُّموِّ التَّربويِّ في كون الصَّحابة لم يختلفوا ، بل أجمعوا على رأيٍ واحدٍ ، ألا وهو: أن يُعرض الإسلامُ كما جاء به رسولُ الله ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، وعزموا على عرض الإسلام بعزةٍ؛ وإن كان في ذلك هلاكهم[٢] .

١٢ ـ كان وَعْيُ القيادة النَّبويَّة على مستوى الأحداث ، ولذلك وُضِع جعفر بن أبي طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة ، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛ وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص ، وقد امتازت شخصيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ ، جعلتها تتقدَّم لسدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها: أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ من ألصق النَّاس برسول الله ﷺ ، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة ، وسيِّد الأمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة .

وهذا الموقف بين يدي النَّجاشيِّ يحتاج إلى بلاغةٍ ، وفصاحةٍ ، وبنو هاشم قمَّةُ قريش نسباً ، وفضلاً ، وجعفر في الذُّؤابة[٣] من بني هاشم ، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة ، واختار نبيَّه من بني هاشم؛ فهو أفصح النَّاس لساناً ، وأوسطهم نسباً .

وهو ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، وهذا يجعل النَّجاشيَّ أكثر اطمئناناً ، وثقةً بما يعرض عن ابن عمِّه[٤] .

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣١٧).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢/ ٩٢).
(٣) الذُّؤابة من كلِّ شيء: أعلاه.
(٤) التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٥).

خُلُقُ جعفر المقتبس من مشكاة النُّبوَّة ، وجمال خَلْقِه المنحدر من أصلاب بني هاشم ، فقد قال رسولُ الله ﷺ لجعفر : «أشبهت خَلْقي ، وخُلُقي» [البخاري (٢٦٩٩) والترمذي (٣٧٦٥)] فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسفراء المسلمين على مرِّ الزَّمان ، وكرِّ العصور ، فقد اتَّصف بسمات السُّفراء المسلمين؛ كالإسلام ، والانتماء إليه ، والفصاحة ، والعلم ، وحسن الخلق ، والصَّبر ، والشَّجاعة ، والحكمة ، وسعة الحيلة ، والمظهر الجذَّاب[١] .

١٣ ـ كان عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو يمثِّل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله ﷺ على مستوىً كبيرٍ من الذَّكاء ، والدَّهاء ، والمكر ، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كلَّ ما لديه من حُجَّةٍ ، وألقىٰ بها بين يدي النَّجاشيِّ ، من خلال النقاط الآتية : تحدَّث عن بلبلة جوِّ مكة ، وفساد ذات بينها ، من خلال دعوة محمَّد ﷺ ، وهو سفير مكَّة ، وممثِّلها بين يدي النَّجاشيِّ ، فكلامه مصدَّقٌ ، لا يعتريه الشَّكُّ ، وهو عند النَّجاشيِّ موضع ثقةٍ .

وقد تحدث عن خطورة أتباع محمَّد ﷺ ، فربما يزلزلون الأرض تحت قدمي النَّجاشيِّ ، كما أفسدوا جوَّ مكَّة ، ولولا حبُّ قريش للنَّجاشيِّ ، وصداقتها معه؛ ما تعنَّوا هذا العناء لنصحه : «وأنت لنا عَيْبَة صدقٍ ، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقلَّ من ردِّ المعروف بمثله ، وتحذيره من هذه الفتنة المخيفة .

وأخطر ما في أمرهم هو خروجهم على عقيدة النَّجاشيِّ ، وكفرهم بها : فهم لا يشهدون : أنَّ عيسىٰ ابن مريم إلٰهٌ ، فليسوا على دين قومهم ، وليسوا على دينك؛ فهم مبتدعةٌ ، دعاة فتنةٍ .

ودليل استصغارهم لشأن الملك ، واستخفافهم به : أنَّ كل النَّاس يسجدون للملك لكنَّهم لا يفعلون ذلك ، فكيف يتمُّ إيواؤهم عندك ، وهو عودةٌ إلى إثارة الرُّعب في نفسه من عدم احترام الدُّعاة له ، حين يستخفُّون بملكه ، ولا يسجدون له ، فكان على جعفر أن يفنِّد كلَّ الاتِّهامات الباطلة ، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[٢] .

١٤ ـ كان ردُّ جعفر على أسئلة النَّجاشيِّ في غاية الذَّكاء ، وقِمَّة المهارة السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والدَّعويَّة ، والعقديَّة؛ فقد قام بالتَّالي :

* عدَّد عيوب الجاهليَّة ، وعرضها بصورةٍ تنفِّر السَّامع ، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك ، وركَّز على الصِّفات الذَّميمة؛ الَّتي لا تُنتزع إلا بنبوَّة .

* عرض شخصيَّة الرَّسول ﷺ ، في هذا المجتمع الآسن[٣] ، المليء بالرَّذائل ، وكيف كان

---

(١) انظر : سفراء النَّبيِّ ﷺ لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٢ إلى ٣١٧) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٣١٩ ، ٣٤٠) .
(٣) الآسن : المتغيِّر الفاسد .

بعيداً عن النَّقائص كلِّها ، ومعروفاً بنسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فهو المؤهَّل للرِّسالة .

* أبرز جعفر محاسن الإسلام ، وأخلاقه ، الَّتي تتَّفق مع أخلاقيَّات دعوات الأنبياء؛ كنبذ عبادة الأوثان ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم ، والدِّماء ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة؛ وكون النَّجاشي وبطارقته موغلين في النَّصرانية؛ فهم يدركون: أنَّ هذه رسالات الأنبياء؛ الَّتي بعثوا بها من لدن موسىٰ ، وعيسى عليهما الصَّلاة ، والسَّلام .

* فضح ما فعلته قريشٌ بهم ؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان ، وآمنوا بما نُزِّل على محمَّد ﷺ ، وتخلَّقوا بخلقه .

* أحسن الثَّناء على النَّجاشيِّ بما هو أهله ، بأنَّه لا يُظْلم عنده أحدٌ ، وأنَّه يقيم العدل في قومه .

* وأوضح: أنَّهم اختاروه كهفاً من دون النَّاس ، فراراً من ظلم هؤلاء الَّذين يريدون تعذيبهم. وبهذه الخطوات البيِّنة الواضحة دَحَرَ بلاغة عمرٍو ، وفصاحته ، واستأثر بلُبِّ النَّجاشي ، وعقله ، وكذلك استأثر بلُبِّ وعقل البطارقة ، والقسِّيسين الحاضرين .

وعندما طلب الملك النَّجاشيُّ شيئاً ممَّا نُزِّل على محمَّد ﷺ ؛ جاء صدر سورة مريم ، في غاية الإحكام والرَّوعة ، والتأثير ، حتَّى بكى النَّجاشيُّ ، وأساقفته ، وبلَّلُوا لحاهم ، ومصاحفهم من الدُّموع ، واختيار جعفر لسورة مريم يُظْهر بوضوحٍ حكمة وذكاء مندوب المهاجرين ، فسورة مريم تتحدَّث عن مريم وعيسى عليهما السَّلام[(١)] .

إنَّ عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع ، والزَّمن المناسب ، والقلب المتفتِّح ، والشُّحنة العاطفيَّة أدت إلى أن يربح الملكَ إلى جانبه[(٢)] .

كان ردُّه في قضية عيسى ـ عليه السَّلام ـ دليلاً على الحكمة ، والذَّكاء النَّادر ، فقد ردَّ بأنهم لا يُؤَلِّهون عيسى ابن مريم ، ولكنَّهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم ـ عليها السَّلام ـ كما يخوض الكاذبون؛ بل عيسى ابن مريم كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطَّاهرة ، وليس عند النَّجاشي زيادة عمَّا قال جعفر ، ولا مقدار هذا العود[(٣)] .

هم لا يسجدون للنَّجاشي ، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله شيئاً! ولا ينبغي السُّجود إلا لله؛

---

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠٦ .
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ٣٣٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٢) .

لكنَّهم لا يستخفُّون بالملك؛ بل يوقِّرونه ، ويسلِّمون عليه كما يسلِّمون على نبيِّهم ، ويحيُّونه بما يُحيي أهلُ الجنَّة أنفسَهم به في الجَنَّة(٣) .

انتهى الأمر بأن أعلن النَّجاشيُّ صدق القوم ، وأيقن بأنَّ هؤلاء صدِّيقون ، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله ﷺ ، الَّذي يأتيه ناموسٌ كناموس موسىٰ ، وأن يتقرَّب إلى الله بحماية أصحابه ، وأكَّد لعمرٍو : أنَّه لا يضيره تجارة قريش ، ولا مال قريش ، ولا جاهها ، ولو قطعت علاقتها معه(١) .

١٥ ـ انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيّاً ، ومعنويّاً ، وإعلاميّاً أمام مقاومة المسلمين الموفَّقة ، وخطواتهم ، وأساليبهم الرَّصينة .

١٦ ـ كان موقف جعفر ، وإخوانه مثالاً تطبيقيّاً لقول رسول الله ﷺ : «من التمس رضا الله بسخط النَّاس ؛ كفاه الله مُؤْنَة النَّاس ، ومن التمس رضا النَّاس بسخط الله ؛ وَكَلَهُ الله إلى النَّاس» [الترمذي (٢٤١٤) وابن حبان (٢٧٦) وابن المبارك في الزهد (٦٦)] فهؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع أنَّ الظَّاهر في الأمر : أنَّه يترتَّب عليه في هذه القضيَّة سخط أولئك النَّصارى ، وهم الَّذين لهم الهيمنة عليهم ، فكانت النَّتيجة : أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سخَّر لهم ملك الحبشة ، حتَّى نطق بالحقِّ الموافق لدعوة النَّبيِّ ﷺ ، مع مخالفته الصَّريحة لمعتقدهم المنحرف ؛ الَّذي قام عليه مُلْكُهُم ، وما يغلب على الظَّنِّ من ثورة النَّصارى المتعصِّبين عليه(٢) .

١٧ ـ كان عند بعض النَّصارى إيمانٌ صحيحٌ بدينهم ، ولكنَّهم يكتمون ذلك ، لكون الغلبة والسِّيادة في الأرض لأصحاب الدِّين المحرَّف ، ومن الَّذين كانوا على الاعتقاد الصَّحيح ملك الحبشة ، وكان يخفي إيمانه هذا مداراةً لقومه ، وإبقاءً على نفسه ، وملكه ، فلمَّا وقع في هذا الابتلاء ؛ أظهر إيمانه ، إرضاءً لربِّه ، وإراحةً لضميره ، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين ، مهما ترتَّب على ذلك من نتائج ؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التَّاريخ(٣) .

١٨ ـ ومن دروس هجرة الحبشة : أنَّ الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحةٍ لا يضرُّ . قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ! ـ : وهو يقرِّر العذر بالجهل : «ولمَّا زِيدَ في صلاة الحضر حين هاجر النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة ، كان مَنْ بعيداً عنه ـ مثل من كان بمكَّة ، وبأرض الحبشة ـ يصلُّون ركعتين ، ولم يأمرهم النَّبيُّ ﷺ بإعادة الصَّلاة»(٤) .

---

(١) انظر : التربية القياديَّة (١/ ٣٤٢) .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٢/ ١٠٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٠٦) .
(٤) الفتاوى (٢٢/ ٤٣) .

وقال الذَّهبيُّ: «فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجَّة، وقد كان سادة الصَّحابة بالحبشة ينزل الواجب، والتَّحريم على النَّبيِّ ﷺ، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل، حتَّى يبلغهم النَّصُّ»(١).

١٩ ـ ومن دروس هجرة الحبشة تفاضل الجهاد حسب الحاجة، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهاداً، ميَّز الله أصحابها، وخصَّهم بالذِّكر، والفضيلة، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة، وإن تأخر لحوقهم بالنَّبيِّ ﷺ حتَّى فتح خيبر، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة، وهذا ما أكَّده النَّبيُّ لأصحاب السَّفينتين(٢)، فعن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه قال: ودخلت أسماءُ بنت عُمَيس ـ وهي ممَّن قدم معنا ـ على حفصةَ زوج النَّبيِّ ﷺ زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنت عُمَيس، قال عمر: آلحبشيةُ هذه؟ آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنَّا في دار ـ أو في أرض ـ البُعَداء الْبُغَضَاءِ بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله ﷺ. وايمُ الله لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شَراباً، حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤْذَى، ونُخاف، وسأذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ، وأسأله، والله! لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاء النَّبيُّ ﷺ قالت: يا نبيَّ الله! إنَّ عمرَ قال: كذا، وكذا. قال: «فما قلت له؟» قالت: قلتُ له: كذا، وكذا. قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السَّفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسىٰ، وأصحاب السَّفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظم في أنفسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ. [البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢ و٢٥٠٣)].

٢٠ ـ كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة، وهذا بلا شكٍّ أثرٌ من آثار الهجرة للحبشة، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاسب للدَّعوة، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتَّجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النَّجاشيِّ، وهو المشهور كما يقول ابن حجر(٣)، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسلم صحابيٌّ على يد تابعيٍّ، كما يقول الزُّرقاني(٤)، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

---

(١) الكبائر، ص ١٢.
(٢) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص ٢٠٥.
(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، ص ١٦٧.
(٤) انظر: شرح المواهب (١/ ٢٧١).

٢١ ـ يرتبط زواج الرَّسول ﷺ بأمِّ حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطاً وثيقاً ، ويحمل هذا الزَّواج منه ﷺ لإحدىٰ المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً ، وكان عقد الزَّواج على أمِّ حبيبة رضي الله عنها ؛ وهي في أرض الحبشة ، وجاء تأكيده في كتب السُّنَّة ، فقد روىٰ أبو داود في سننه بسندٍ صحيح عن أمِّ حبيبة رضي الله عنها : أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش ، فمات بأرض الحبشة ، فزوَّجها النَّجاشيُّ النَّبيَّ ﷺ ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إلى الرَّسول ﷺ مع شُرَحبيل بن حسنة . [أبو داود (٢١٠٧)] .

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهمِّ ، متابعةَ الرَّسول ﷺ لأحوال المهاجرين ، ومشاركتهم في مصابهم ، وتطييب أنفس الصَّابرين ، وتقدير ثبات الثَّابتين . وبالتَّتبُّع لأحوال المهاجرات ، لا نجد (أمَّ حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة الَّتي يُعنى الرَّسول الكريم ﷺ بأمرها ، ويواسيها في مصابها ، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[١] ، فلمَّا رجعت مع زوجها إلى مكَّة من الحبشة ، توفِّي زوجها السَّكران بن عمرو ، فلمَّا حلَّت ؛ أرسل إليها ﷺ ، وخطبها ، فقالت : أمري إليك يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : «مُري رجلاً من قومك يزوِّجك ، فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ ، فزوَّجها ، فكانت أوَّل امرأة تزوَّجها رسول الله ﷺ بعد خديجة[٢] .

وهذان الحدثان مؤشِّران من مؤشِّرات حِكَم تعدُّده ﷺ في الزَّواج بشكلٍ عامٍّ ، ولهما دلالتهما ، وحكمتهما بالاهتمام بالنِّساء المجاهدات بشكلٍ خاصٍّ ، هذا فضلاً عمَّا يمكن أن يقال من أنَّ الرَّسول ﷺ كان يهدف أيضاً من وراء الزَّواج بأمِّ حبيبة ، تخفيف عداوة «بني أميَّة» بشكلٍ عامٍّ ، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكلٍ أخصَّ للإسلام ، ونبيِّه ، والمسلمين[٣] .

فالتَّأليف للإسلام واردٌ في السِّيرة ، والرَّسول ﷺ كان حريصاً على قومه بكلِّ وسيلةٍ لا تتنافى مع قيم الإسلام[٤] .

٢٢ ـ يرى بعض الباحثين : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن يحبُّ أن يهاجر إلى الحبشة ، لأسبابٍ كثيرة ؛ منها :

---

(١) انظر : الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ١٨٨ .
(٢) الطَّبقات (٨/ ٣) .
(٣) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د . مهدي رزق الله ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .
(٤) انظر : شرح المواهب (١/ ٢٧١) .

ـ أنَّه ثبت ـ كما سيجيء ـ رؤية النَّبيِّ ﷺ دار الهجرة: أرضاً ذات نخلٍ ، بين حرَّتين ، وأنَّه ظنَّها هجر[١] .

ـ طبيعة الوضع الجغرافيِّ للحبشة ؛ الَّذي يعوق انتشار الدَّعوة ، وبسط سلطانها على العالم .

ـ أنَّ اختيار الجزيرة العربيَّة ومكَّة بالذَّات ، ثمَّ المدينة لنزول الوحي ، وانطلاق الدِّين لم يكن اتِّفاقاً ، بل كان لمميزاتٍ كثيرة[٢] .

ـ أنَّ هذه البيئة الحبشيَّة لم تكن لتسمح لهذا الدِّين اللاجئ أن ينمو إلى جوار المسيحيَّة ، ولم تكن الرُّومان ـ وهي المهيمنة على المسيحيَّة في العالم ـ لتسمح للحبشة بذلك[٣] .

٢٣ ـ كان للهجرة إلى الحبشة أثرٌ في الحطِّ من مكانة القرشيِّين عند سائر العرب ، وإدانة موقفهم من الدَّعوة ، وحملتها ؛ إذ كانت البيئة العربيَّة تفتخر بإيواء الغريب ، وإكرام الجار ، وتتنافس في ذلك ، وتحاذر السُّبَّة ، والعار في خلافه ، فهاهم الأحباش يسبقون قريشاً ، ويُؤوون مَنْ طردتهم وأساءت إليهم من أشراف النَّاس ، ومن ضعفائهم ، ومن غربائهم[٤] .

* * *

---

(١) هَـجرَ: هي الأحساء .

(٢) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٣) انظر: أضواء على الهجرة ، ص ١٥٦ إلى ١٦١ ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٢٠ .

(٤) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

المبحث الثَّالث
عام الحزن ومحنة الطَّائف

أولاً: عام الحزن:

١ ـ وفاة أبي طالبٍ:

كانت وفاة أبي طالبٍ بعد مغادرة بني هاشمٍ شِعْبه، وذلك في آخر السَّنة العاشرة من المبعث[١]. وقد كان أبو طالب «يحوط النَّبيَّ ﷺ، ويغضبُ له» [البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩)] و«ينصره» [مسلم (٢٠٩/٣٥٨)]، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة، جاء زعماء الشِّرك، وحرَّضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدُّخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام قائلاً: قل: «لا إله إلا الله» أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا تعيِّرني بها قريش، يقولون: إنَّما حمله عليها الجزع؛ لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] [مسلم (٢٥) والترمذي (٣١٨٨) وأحمد (٢/ ٤٣٤)].

كانت أفكار الجاهليَّة راسخةً في عقل أبي طالبٍ، ولم يتمكَّن من تغييرها، فهو شيخٌ كبيرٌ يصعب عليه تغيير فكره، وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره؛ فأثَّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه، وتأثير ذلك على قومه[٢].

٢ ـ وفاة السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

أمَّا السَّيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، فقد توفِّيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[٣] في العام نفسه لوفاة أبي طالبٍ[٤].

---

(١) فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٨٣).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٨٤).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ١٨٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.

وبموت أبي طالبٍ؛ الَّذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها، تضاعف الأسى، والحزن على رسول الله ﷺ، بفقد هذين الحبيبين؛ اللَّذين كانا دعامتين من دعائم سير الدَّعوة في أزماتها، فقد كان أبو طالب السَّندَ الخارجيَّ الَّذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة رضي الله عنها السَّند الدَّاخلي الَّذي يخفِّف عنه الأزمات والمحن، فتجرَّأ كفار قريش على رسول الله ﷺ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالبٍ[١]. وابتدأت مرحلةٌ عصيبةٌ في حياة الرَّسول ﷺ واجه فيها كثيراً من المشكلات، والمصاعب، والمحن، والفتن حينما أصبح في السَّاحة وحيداً لا ناصر له إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع هذا؛ فقد مضىٰ في تبليغ رسالة ربِّه إلى النَّاس كافَّةً، على ما يلقى من الخلاف والأذىٰ الشَّديد؛ الَّذي أفاضت كتب الحديث، وكتب السِّير، بأسانيدها الصَّحيحة الثَّابتة في الحديث عنه، وتحمَّل ﷺ من ذلك ما تنوء الجبال بحمله. ولمَّا تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله ﷺ في بلده الَّذي نبت فيه، وبين قومه الَّذين يعرفون عنه كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، عزم ﷺ على أن ينتقل إلى بلدٍ غير بلده، وقومٍ غير قومه؛ ليعرضَ عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم؛ رجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فخرج إلى الطَّائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكَّة[٢].

ثانياً: رحلة الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف[٣]:

كان النَّبيُّ ﷺ، يقتدي بالأنبياء والمرسلين الَّذين سبقوه في الدَّعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، فكانت هذه الأعوام الطَّويلة عملاً دائباً، وتنويعاً متكرِّراً: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ١ ـ ٩]، ومع امتداد الزَّمن الطَّويل ما توقف عن الدَّعوة، ولا ضَعُفَتْ همَّته في تبليغها، ولا ضَعُفَتْ بصيرته، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها. قال الآلوسي في تفسيره: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ أي: إلى الإيمان والطَّاعة، ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: دائماً من غير فتورٍ، ولا توانٍ، ثمَّ وصف إعراضهم الشَّديد، وإصرارهم العنيد، ثمَّ علَّق على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ فقال: أي دعوتهم مرَّةً بعد مرَّةٍ، وكرَّةً غِبَّ كرَّةٍ على وجوهٍ مختلفةٍ، وأساليب متفاوتةٍ، وهو تعميمٌ لوجوه الدَّعوة، بعد

---

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ، ص ٣٤.
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٣٦ ـ ٤٥).
(٣) ينظر الشكل (١٠) في الصفحة (٧٤٦).

تعميم الأوقات ، وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ يُشْعِر بمسبوقية الجهر بالسرِّ ، وهو الأليق بِمَنْ همُّه الإجابة ؛ لأنَّه أقرب إليها ؛ لما فيه من اللُّطف بالمدعوِّ[(١)] .

فكان النبي ﷺ ينوِّع ، ويبتكر في أساليب الدَّعوة ، فدعا سرّاً وجهراً ، وسلماً وحرباً ، وجمعاً وفرداً ، وسفراً وحضراً ، كما أنَّه ﷺ قصَّ القصص ، وضرب الأمثال ، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض ، وغيره ، كما رغَّب وبشَّر ، ورهَّب وأنذر ، ودعا في كلِّ آنٍ ، وعلى كلِّ حالٍ ، وبكلِّ أسلوبٍ موثِّرٍ فعَّالٍ[(٢)] ، فها هو ﷺ ينتقل إلى الطَّائف ، ثمَّ يتردَّد على القبائل ، ثمَّ يهاجر ، ويستمرُّ في دعوة الخلق إلى الله تعالى .

كان رسول الله ﷺ يسعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة ، وطلبَ النُّصْرة من ثقيفٍ ، لكنَّها لم تستجب له ، وأغرت به صبيانها ، فرشقوه بالحجارة ، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصرانيّاً ، فأسلم ، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شوَّال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب ، وخديجة ، وذكر : أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف ، كانت عشرة أيام[(٣)] .

١ ـ لماذا اختار الرَّسول ﷺ الطَّائف؟ :

كانت الطَّائف تمثل العمق الاستراتيجيَّ لملأ قريش ؛ بل كانت لقريش أطماعٌ في الطَّائف ، ولقد حاولت في الماضي أن تضمَّ الطَّائف إليها ، ووثبت على وادي وَجٍّ ؛ وذلك لما فيه من الشَّجر ، والزَّرع ؛ حتَّى خافتهم ثقيفٌ ، وحالفتهم ، وأدخلت معهم بني دَوْسٍ[(٤)] . وقد كان كثيرٌ من أغنياء مكَّة يملكون الأملاك في الطَّائف ، ويقضون فيها فصل الصَّيف ، وكانت قبيلة بني هاشمٍ ، وعبد شمسٍ على اتِّصال مستمرٍ مع الطَّائف ، كما كانت تربط مخزوماً مصالحُ ماليَّةٌ مشتركة بثقيفٍ[(٥)] ، فإذا اتَّجه الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف ، فذلك توجُّهٌ مدروسٌ ، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدمٍ ، وعصبةً تناصره ، فإنَّ ذلك سيفزع قريشاً ، ويهدِّد أمنها ، ومصالحها الاقتصاديَّة تهديداً مباشراً ، بل قد يؤدِّي لتطويقها ، وعزلها عن الخارج . وهذا التَّحرك الدَّعويُّ السِّياسيُّ الاستراتيجيُّ ، الَّذي قام به الرَّسول ﷺ يدلُّ على حرصه في الأخذ بالأسباب ، لإيجاد دولةٍ مسلمةٍ ، أو قوَّةٍ جديدةٍ ، تطرح نفسها داخل حلبة الصِّراع ؛ لأنَّ الدَّولة ، أو إيجاد القوَّة الَّتي لها وجودها من الوسائل المهمَّة في تبليغ دعوة الله إلى النَّاس .

---

(١) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٨٩) .
(٢) انظر : مقوِّمات الدَّعوة والدَّاعية ، بادحدح ، ص ١٢٣ .
(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٨٥) .
(٤) انظر : فتح الباري ، كتاب الكفالة ، شرح حديث رقم (٢٢٩٤) .
(٥) انظر : أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٧٣ .

عندما وصل النبي ﷺ إلى الطائف ، اتجه مباشرة إلى مركز السلطة ، وموضع القرار السياسي في الطائف[١] .

٢ ـ أين كان موضع السُّلطة في الطَّائف؟

كان بنو مالكٍ ، والأحلاف ـ بحكم أسبقيتهم الزَّمنيَّة للاستيطان ـ هما المسيطرين عليها ، وتنتهي إليهما قيادتُها ، فكانت لهما الرِّئاسة الدِّينية المتمثِّلة في رعاية المسجد ، وبالإضافة إلى الزَّعامة السِّياسيَّة العامَّة ، والعلاقة الخارجيَّة ، والنُّفوذ الاقتصاديِّ؛ إلا أنَّهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدِّفاع عن منطقة الطَّائف؛ الَّتي كانت من أخصب بلاد العرب ، وأكثرها جذباً للأنظار والأطماع ، فكانا يخافان قبيلة هوازن ، ويخافان قريشاً ، ويخافان بني عامر ، وكلُّها قبائل قويَّةٌ وقادرةٌ على الانقضاض والاستلاب ، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطَّائف على سياسة المهادنة ، وحفظ الاستقرار السِّياسيِّ عن طريق المعاهدات والموازنات ، وهي الطَّريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش ، فصار بنو مالكٍ يوثِّقون علاقاتهم مع هوازن؛ ليأمنوا شرَّها ، وصار الأحلاف يرتبطون بقريشٍ ليأمنوا جانبها[٢] .

هذا، ولم يكن الرَّسول ﷺ غافلاً عن هذه الشَّبكة من العلاقات ، والمعاهدات ، وهو يتَّجه إلى الطائف ، بل كان يعرف : أنَّ الطَّائف لم تكن توجد بها سلطةٌ مركزيَّةٌ واحدةٌ ، وإنما يقتسم السُّلطة فيها بطنان من بطون العرب ، بموجب اتفاقيَّةٍ داخليَّةٍ ، وأنَّ أيّاً منهما كان يدور في فلك قبيلةٍ خارجيَّةٍ أقوى ، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيّاً منهما ، فسوف يكون لذلك أثرٌ كبير في ميزان القوى السِّياسيَّة ، هذا على وجه العموم ، أمَّا إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف ، وهو المعسكر المتحالف مع قريشٍ؛ فإنَّ خطَّته تكون قد بلغت تمامها ، وهو أمرٌ غير مستحيلٍ ، فهو يعلم أنَّ موادَّة هذا المعسكر لقريشٍ لا تقوم على القناعة المذهبيَّة ، أو الولاء الدِّينيِّ ، بقدر ما تقوم على أساس التَّخوُّف من قريشٍ ، وعلى هذا التَّقدير للوضع السِّياسيِّ ، اتجه الرَّسول ﷺ مباشرةً ـ حينما دخل الطَّائف ـ إلى بني عمرو بن عمير ، الَّذين يترأسون الأحلاف ، ويرتبطون بقريشٍ ، ولم يذهب إلى بني مالكٍ الَّذين يتحالفون مع هوازن[٣] .

قال ابن هشام في السِّيرة : لمَّا انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ ، هم يومئذٍ سادة ثقيف ، وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ : عبد يا لَيْل بن عمرو ابن عُميرٍ ، ومسعود بن عمرو بن عُميرٍ ، وحَبيب بن عمرو بن عُمَير بن عُقْدة بن غِيرَة بن عَوْف بن ثقيف ، وعند أحدهم

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٧٤ .
(٢) انظر : أصول الفكر السياسي في القرآن ، ص ١٧٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص (١٧٥) .

امرأةٌ من قريش من بني جُمح[١]؛ غير أنَّ بني عمرٍو كانوا شديدي الحذر، وكثيري التَّخوُّف، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول ﷺ؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه، فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيفٍ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عنِّي»[٢]، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيُذْئرهم[٣] ذلك عليه، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جوٍّ من السِّرِّيَّة، وألا تنكشف تحرُّكاته لقريشٍ[٤]؛ فقد كان النَّبيُّ ﷺ يهتمُّ كثيراً بجوانب الحيطة، والحذر، فقد:

أ ـ كان خروجه من مكَّة على الأقدام، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكباً؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة، والشُّكوك، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

ب ـ واختيار الرَّسول ﷺ زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّةٌ؛ فزيد هو ابن رسول الله ﷺ بالتَّبنِّي، فإذا رآه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ من الشَّكِّ، لقوَّة الصِّلة بينهما، كما أنَّه ﷺ عرف زيداً عن قربٍ، فعلم فيه الإخلاص، والأمانة، والصِّدق، فهو إذاً مأمونُ الجانب، فلا يُفشي سرّاً، ويُعتَمد عليه في الصُّحبة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النَّبيَّ ﷺ من الحجارة بنفسه، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

ج ـ وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائف ردّاً قبيحاً مشُوباً بالاستهزاء، والسُّخرية؛ تحمَّله الرَّسول ﷺ، ولم يغضب، أو يَثُرْ؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرُّفٌ غايةٌ في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما شدَّدت عليه في العذاب، والاضطهاد، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل، وخارج مكَّة[٥].

٣ ـ تضرُّعٌ ودعاءٌ:

كان بنو عمرو لئاماً، فلم يكتموا خبر الرَّسول ﷺ؛ بل أَغْرَوْا به سفهاءهم، وعبيدهم، يسبُّونه، ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتَّى دميت عقباه، وتلطَّخت نعلاه، وسال دمه الزَّكي على أرض الطَّائف، وما زالوا به، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤوهما إلى حائطٍ (أي: بستان) لعتبة، وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحان من عنائهما، وما أصابهما،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) فيُذْئرهم: يجرِّئهم ويثيرهم.
(٤) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكي.
(٥) في السِّيرة النَّبويَّة، قراءةٌ لجوانب الحيطة والحماية، ص ١٠٩، ١١٠.

وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويَرَيَان ما لقي من سفهاء أهل الطَّائف ، ولم يحرِّكا ساكناً ، وفي هذه الغمرة من الأسى ، والحزن ، والآلام النفسيَّة ، والجسمانية توجه الرَّسول ﷺ إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً ، ويقيناً ، ورضاً بما ناله في الله ، واسترضاء الله : «اللَّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي ، وقِلَّة حيلتي ، وهواني على النَّاس ، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى مَنْ تكِلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟[1] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك؛ الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدُّنيا والآخرة ، من أن تُنزل بي غضَبك ، أو يحلَّ عليَّ سخطُك ، لك العُتْبى[2] حتَّى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك!» [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٦١ ـ ٦٢) والقرطبي في تفسيره (١٦/ ١٩٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ٣٤٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)][3] .

وإنَّا لنلمح في هذا الدُّعاء عمق توحيد النَّبيِّ ﷺ ، ومبلغ تجرُّده لله ـ جلَّ وعلا ـ فهو لم يشعر بهذا الحزن المُفضي ، والهمِّ المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى ، أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء ، والنَّعيم؛ بل هو يستعذب كلَّ هذا الأذىٰ من أجل الله تعالى ، غير أنَّه مشفقٌ من غضب ربِّه سبحانه أن يكون قصَّر في أمرٍ من أمور الدَّعوة ، من غير أن يشعر ، فيتعرَّض لشيءٍ من غضب مولاه ـ جلَّ وعلا ـ فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ ، وهو المطلب الأعظم الَّذي تُسَخَّر له كلُّ المطالب ، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحلَّ رضاه ، وينجلي سخطه؛ فأهلاً بالبلاء ، فهو ساعتئذٍ نعمةٌ ، ورخاء .

وختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة ، الَّتي يقولها ، وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره : «ولا حول ولا قوة إلا بك!» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشِّدَّة إلى حال الرَّخاء ، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى ، ولا قوَّة على مواجهة الشَّدائد ، وتحمُّل المكاره ، إلا بالله جلَّ وعلا[4] .

إنَّ الدُّعاء من أعظم العبادات ، وهو سلاحٌ فعَّال في مجال الحماية للإنسان ، وتحقيق أمنه ، فمهما بلغ العقل البشريُّ من الذَّكاء ، والدَّهاء؛ فهو عرضةٌ للزَّلل ، والإخفاق ، وقد تمرُّ على

---

(١) تجهمه : استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحِّب به ، ولا راغبٍ فيه .

(٢) العتبى : الاسترضاء والرِّضا .

(٣) ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبوية الصحيحة (١/ ١٨٦) ، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته ، وبيَّن أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه ، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبويَّة) ص ١٣٦ ، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقيه قويٌّ مقبول ، وخرَّج طرقه في كتابه الهجرة النَّبويَّـة المباركة ، ص ٣٨ .

(٤) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ٢٠) .

المسلم مواقف يعجز فيها عن التَّفكير ، والتَّدبير تماماً ، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدُّعاء؛ ليجد فرجاً ، ومخرجاً ، فعندما لحق برسول الله ﷺ من أهل الطَّائف الأذى ، والطَّرد ، والسُّخرية ، والاستهزاء ، وأصبح هائماً على وجهه؛ لجأ إلى الله بالدُّعاء ، فما أن انتهى من الدُّعاء ، حتَّى جاءت الإجابة من ربِّ العالمين ، مع جبريل وملك الجبال(١) .

٤ ـ الرَّحمة ، والشَّفقة النَّبويَّة :

كانت رحمته ، وشفقته العظيمة هي الَّتي تغلب في المواقف العصيبة؛ الَّتي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها ، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو ، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم ، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ، ورحمته العظيمة ، هي الغالبة(٢) .

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ ، أنَّها سألت رسول الله ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من أُحُد؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابْنِ عَبْدِ يَالَيْل بْنِ عَبْدِ كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أَسْتفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب(٣) ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال ، فسلَّم عليَّ ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ. فقال النَّبيُّ ﷺ : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحدَه لا يشرك به شيئاً. [البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

كانت إصابته ﷺ يوم أحدٍ ، أبلغ من النَّاحية الجسميَّة ، أمَّا من النَّاحية النفسيَّة؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائف أبلغ ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه ، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً ، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائف إلى قَرْن الثَّعالب(٤) .

٥ ـ من مناهج التَّغيير :

كان مُقْتَرَحَ ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين ، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال ، وقد نفذ في قوم نوحٍ ، وعادٍ ، وثمودٍ ، وقوم لوطٍ. قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا

(١) انظر: في السِّيرة النَّبوية ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٢) انظر: مقوّمات الدَّاعية النَّاجح ، ص ٧٦ .
(٣) هو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، ويسمَّى الآن السيل الكبير .
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ٢٦ ، ٢٧) .

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وكان هناك اقتراحٌ آخر، وهو أن يستمرَّ في هجرته، والابتعاد عن مكَّة، والطَّائف الكافرتين؛ فالأولىٰ أخرجته، والثَّانية خذلته، وعرض ذلك الأمرَ زيدُ بن حارثة على رسول الله ﷺ. قال ابن القيِّم: إنَّ رسول الله ﷺ بعد أن لم يجد ناصراً في الطَّائف، انصرف إلى مكَّة؛ ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً، وهو يدعو بدعاء الطَّائف المشهور، فأرسل ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ مَلَكَ الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكَّة، وهما جبلاها اللَّذان كانت بينهما، فقال: «لا، بل أستأني بهم؛ لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شيئاً»، وأقام بنخلةَ أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم؛ وقد أخرجوك ـ يعني: قريشاً ـ وخرجت تستنصر، فلم تُنصر ـ يعني: الطَّائف ـ فقال ﷺ: «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً، ومخرجاً، وإنَّ الله ناصرٌ دينَهُ، ومظهرٌ نبيَّه»[(١)].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ رفض منهج الاستئصال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرَّة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرَّر الدُّخول إلى مكَّة الكافرة ليواصل جهاده الميمون، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد، لم يَخْتَرِ النَّبيُّ ﷺ أحد المنهجين السَّابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكَّة الكافرة، وليس الانسحاب منها، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها، الَّتي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسَّساتها، واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها؛ ليتغذَّى بكلِّ ذلك مجتمع المؤمنين، الَّذي سيولد من أحشائها؛ أي: أنَّه كان ﷺ يريد أن يتَّخذ من أصلاب الكافرين، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين، المقاتلين في سبيل الله، فالنَّظر النَّبويُّ هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورةٍ جليَّةٍ، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[(٢)].

كان النَّبـيُّ ﷺ قد عزم على دخول مكَّة مرَّةً ثانية، غير أنَّ ظاهر الأحوال تدلُّ على أنَّ دخول مكَّة لم يكن أمراً هيناً، ولا آمناً، وهنالك احتمالٌ كبيرٌ للغدر به، أو اغتياله من قِبَلِ قريش، الَّتي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها، وبين حلفائها؛ ثمَّ إنَّه حتَّى لو لم تكن هناك خطورةٌ على شخصه؛ فإنَّ دخوله إلى مكَّة بصورة «عادية» وقد طردته الطَّائف، سيجعل أهل مكة يصوِّرون الأمر كهزيمةٍ كبيرةٍ أصابت المسلمين، ويجترئون عليهم، ويزدادون سفهاً؛ ولذلك فقد اتَّجه نظر الرَّسول ﷺ هذه المرَّة، إلى تفجير مكَّة من الدَّاخل، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي: أنَّه أراد أن يتغلغل في داخل

(١) انظر: زاد المعاد (٢/٤٦).
(٢) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّيِّ، ص ١٧٦.

بطون قريش ذاتها ، ويُوجِدُ له حلفاء من بينهم ، ويُكَوِّن له وجوداً في قلبها(١) .

قال ابن القيِّم في كتابه زاد المعاد: ثمَّ إنَّه ﷺ لما انصرف من الطَّائف ، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، من تصديقه ، ونصرته ، صار إلى حِراء ، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال: أنا حليف ، والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو ، فقال له: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديٍّ ـ سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف ـ بعث إليه رجلاً من خُزاعة: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم. ودعا بنيه ، وقومه ، فقال: البَسوا السِّلاح ، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنِّي قد أجرت محمَّداً ، فدخل رسول الله ﷺ ، ومعه زيد بن حارثة ، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام؛ فقام الْمُطْعِم بن عديٍّ على راحلته ، فنادى: «يا معشرَ قريش! إنِّي قد أجرت محمَّداً؛ فلا يَهِجْه أحدٌ منكم» ، فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الرُّكن ، فاستلمه ، وصلَّى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والْمُطْعِم بن عديٍّ وولده محدقون به بالسِّلاح ، حتَّى دخل بيته(٢) .

وفي جواب الأخنس ، وسهيلٍ نظرٌ؛ لأنهما لو لم يكونا ممَّن يجير؛ لما سألهما رسول الله ﷺ ذلك؛ لمعرفته ﷺ لأعراف قومه ، وعاداتهم ، كيف وعامرٌ ـ الَّذي هو جدُّ سهيل ـ وكعبٌ أخوان ، أبوهما لؤيٌّ ، فهما سواء في مكانهما ، يجير أحدهما على الآخر؟! هكذا قال الزُّرقانيُّ(٣) .

لقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرَّسول ﷺ الجديدة ، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزماً ، مختفياً ، دخلها ويحرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش ، على مسمعٍ منهم ، ومرأىً ، هذا ونلاحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ قد اختار رجلاً من خزاعة ، فبعثه رسولاً ، وفي هذين الاختيارين حُنْكَةٌ سياسيَّة مدهشةٌ ، ووعيٌ تاريخيٌّ ، ودبلوماسيٌّ عميقٌ؛ لأنَّ نوفلاً ـ وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل الَّتي يتزعَّمها الْمُطْعِم بن عديٍّ آنذاك ـ كان خصيماً لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله ﷺ في الجاهليَّة ، فقد وثب على أفنيةٍ ، وساحاتٍ كانت لعبد المطَّلب ، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطَّلب لذلك ، واستنهض قومه ، فلم ينهض كبير أحدٍ منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النَّجار من الخزرج قصيدةً يستنصرهم؛ فقدم عليه منهم جمع كثيف ، فأناخوا بفِناء الكعبة ، وتنكَّبوا القسيَّ ، وعلَّقوا التِّراس؛ فلمَّا رآهم نوفل؛ قال: لِشَرٍّ ما قدم هؤلاء؟ فكلَّموه ، فخافهم ، وردَّ أركاح عبد المطلب إليه؛ فلمَّا نصر بنو الخزرج عبد المطَّلب ، قالت خزاعة ـ وهم قد قووا ، وعزُّوا ـ: والله! ما رأينا بهذا الوادي أحداً أحسن وجهاً ، ولا أتمَّ خلقاً ،

---

(١) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّيِّ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٧).

(٣) محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لصادق عرجون (٢/ ٣٢٤).

ولا أعظم حِلماً من هذا الإنسان ، يعنون: عبد المطلب ، وقد نصره أخواله من الخزرج ، ولقد ولدناه كما ولدوه ، وإنَّ جدَّه عبد مناف سيِّد خزاعة ، ولو بذلنا له؛ نَصَرَنا ، وحَالَفَنا ، وانتفعنا به ، وبقومه ، وانتفع بنا. فأتاه وُجُوهُهُم ، فقالوا: يا أبا الحارث! إنَّا قد ولدناك كما ولدك قومٌ من بني النَّجار ، ونحن بعد متجاورون في الدَّار ، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريشٍ من الأحقاد ، فهلمَّ فنحالفك ، فأعجب ذلك عبد المطَّلب ، وقَبِلَهُ ، وسارع إليه ، ولم يحضر أحدٌ من بني نوفل ، ولا عبد شمس[١].

هذا النَّص يشير إلى جذور الصِّراع التَّاريخيِّ القديم بين خزاعة ، وقريش ، حينما جمع قصيُّ بن كلاب قريشاً من متفرقات المواقع ، وقاتل بهم خزاعة الَّتي كان لديها رئاسة البيت ، وسيادة العرب ، فأخرج خزاعة من البيت ، وقسم مكَّة أرباعاً على قريشٍ ، فما زالت خزاعة مبغضةً لقريش ، كارهين لها؛ ولمَّا اضطرب الأمر بين قريشٍ ، وعبد المطلب؛ تحالفت خزاعة مع عبد المطَّلب؛ نكايةً بقريش ، وإضعافاً لها؛ وليس صحيحاً: أنَّ الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريشٍ من الأحقاد ، كما ذكر وفدهم؛ بل الصَّحيح: أنَّ الأحقاد لم تزل حيَّةً ، والصِّراع لم يزل مستمرّاً ، وممَّا يدل على ذلك: أنَّ بني نوفل ، وبني عبد شمس لم يدخلا ، ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ إنَّه حلفٌ مضادٌّ لهما.

فإذا بعث الرَّسول ﷺ رجلاً من خزاعة ، إلى سيِّد قبيلة بني نوفل ، فإنَّ هذا الفعل إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تلك الوقائع التَّاريخية الَّتي ذكرناها ، كما أنَّ فيها تذكيراً بالحلف القديم بين عبد المطلب ، وخزاعة ضدَّ بني نوفل ، وعبد شمس؛ ليفهم من ذلك: أنَّ الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكَّة ، وأنَّه قد يفعل ما فعله جدُّه عبد المطَّلب ، فيتحالف مع خزاعة ، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرَّسول ﷺ لم يكن في الواقع يستعطف الْمُطْعِم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل؛ ليدخل في جواره بقدر ما كان يهدِّده ، ويثير مخاوفه ، وحماية الْمُطْعِم بن عَدِيٍّ لرسول الله ﷺ لم تكن مجرَّد أَرْيَحِيَّةٍ ، ونبلٍ بقدر ما كانت رعايةً لمصلحته ، وحمايةً لوضعه ، وصَمْتُ قريشٍ ـ وهي ترى محمَّداً ﷺ يدخل في جوار بني نوفل ، وهم يحرسونه بالسِّلاح ـ لم يكن خوفاً من سلاح نوفل ، وإنَّما خوفاً من سلاح خزاعة ، وقسيِّ الخزرج[٢].

كما لا ننسى: أنَّ المطعم ممَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة ـ مع من ذكرنا فيما مضى ـ وممَّن تحسَّن موقفه بعد تقريع أبي طالبٍ له ، عندما قال:

أَمُطْعِمُ لَمْ أخذلْكَ فِيْ يَوْمِ نَجْدَةٍ ولا مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلائِلِ

---

(١) أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ ، تحقيق: محمَّد حميد الله (١/ ٧١).

(٢) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكي ، ص ١٨٠.

جـزَىٰ اللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ وَنَـوْفـلاً عُقُـوبَـةَ شَـرٍّ عَـاجِـلاً غَيْـرَ آجـلِ[١]

وقد حفظ رسولُ الله ﷺ صنيع مُطْعِم بن عديٍّ ، وعرف مدى الخطورة الَّتي عرَّض نفسه ، وولده ، وقومه لها من أجله ، فقال عن أُسارىٰ بدرٍ السَّبعين يوم أسرهم : «لو كان الْمُطْعِمُ بنُ عديٍّ حيّاً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى ؛ لتركتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) وأبو داود (٢٦٨٩) وأحمد (٤/ ٨٠)] .

فرغم العداء العقديِّ ؛ فرسول الله ﷺ يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة ، ويحارُبها ، ومن يناصِرُها ، ويسالمها ، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة النُّبوَّة أن تتنكَّر للجميل[٢] .

وقد أثنىٰ شاعر الرَّسول ﷺ ، حسَّان بن ثابتٍ على موقف المطعم ، فقال في مدحه :

فَلَـو كَـانَ مَجْـدٌ مُخْلِـدَ اليَـوْمَ وَاحِـدَاً مِـنَ النَّـاسِ نجَّـى مَجْـدُه اليـومَ مُطْعِمَـا
أَجَـرْتَ رَسُـولَ اللهِ مِنْهـمْ فَـأَصْبَحُـوا عِبَـادَكَ مَـا لبَّـى مُحِـلٌّ وَأَحْـرَمَـا
فَلَـوْ سُئِلَـتْ عَنْـهُ مَعَـدٌّ بِـأَسْـرِهَـا وَقَحْطَـانُ أَوْ بَـاقِـي بَقِيَّـةِ جُـرْهُمَـا
لَقَـالُـوا هُـوَ المُـوفِـي بِخُفْـرَةِ جَـارِهِ وَذِمَّتِـه يَـوْمـاً إِذَا مَـا تجشَّمَـا
وَمَـا تَطْلُـعُ الشَّمْـسُ المُنِيْـرَةُ فَـوْقَهُـمْ عَلَـىٰ مِثْلِـهِ فِيْهِـمْ أَعَـزَّ وَأَكْـرَمَـا
إِبَـاءٌ إذا يَـأبَـىٰ وَأَلْيَـنُ شِيْمَـةً وَأَنْـوَمُ عَـنْ جـارٍ إِذَا اللَّيْـلُ أَظْلَمَـا[٣]

إنَّ كون النَّبيِّ ﷺ أقرَّ حسَّان بن ثابت في ثنائه البالغ على المُطعِم بن عديٍّ ، وكونه ﷺ أثنىٰ عليه أيضاً ؛ إلى حدِّ أنَّه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرىٰ ؛ لو كان المطعم حيّاً ، وكلَّمه فيهم لدليلٌ واضحٌ على أنَّ من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل ، والثَّناء عليهم بما لهم من معروفٍ ؛ وإن كانوا غير مسلمين[٤] .

وهكذا كان ﷺ يوظِّف الأعراف ، والتَّقاليد الَّتي في مجتمعه لمصلحة الإسلام ، فكان ينظر للبناء الاجتماعيِّ القائم ، باعتباره حقيقةً موضوعيَّةً تاريخيَّةً ، وينظر للإنسان الكافر ليس باعتباره رقماً حسابيّاً منقطعاً ، وإنَّما ينظر إليه كفردٍ في شبكةٍ اجتماعيَّةٍ متداخلة العلاقات ، ومتنوعة الدَّوافع ، وإنَّ الإنسان يملك الفرصة ، والإمكان لأن يتحوَّل هو نفسه ، وطوع إرادته إلى قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ مؤثِّرةٍ ، وله وزنٌ في اتِّخاذ القرار ، ونقضه وَفْقاً للقيم الَّتي يختارها ، والمطعم بن عديٍّ لم يكن فرداً ، وإنَّما كان مؤسَّسةً ، وهي مؤسَّسةٌ لم تولد بميلاده ، وإنَّما يرجع وجودها إلى تاريخٍ قديمٍ ، تصارعت فيها قيم التَّوحيد ، والإشراك ، فإن صارت مؤسَّسةً

(١) انظر : التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٣٦ .
(٢) انظر : التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٤٤ .
(٣) البداية والنِّهاية (٣/ ١٣٦) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ٣٢) .

خالصةً للكافرين الآن ، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها ، وتسخيرها للعودة للإيمان ، والتَّوحيد(١) .

٦ ـ قصَّة عَدَّاس النَّصرانيِّ ، وإسلام الجنِّ :

لقد حقَّقت رحلة النَّبيِّ ﷺ انتصاراتٍ دعويَّةً رفيعةَ المستوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصرانيُّ عَدَّاس؛ الَّذي أسلم(٢) ، كما وصلت الدَّعوة إلى الجنِّ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا ، ثمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرِين .

أ ـ قصة عَدَّاس :

لمَّا تعرَّض رسولُ الله ﷺ للأذىٰ من أهل الطَّائف ، وخرج من عندهم ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورآه عتبة ، وشيبة؛ رَقَّا له ، ودَعَوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : (عَدَّاس) ، فقالا له : خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطَّبق ، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عدَّاس ، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثمَّ قال له : كُلْ . فلمَّا وضع رسولُ الله ﷺ فيه يَـدَهُ ؛ قال : بسم الله ، ثمَّ أكل ، فنظر عَدَّاسٌ في وجهـه ، ثمَّ قال : والله! إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هـذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس؟! وما دينك؟ قال : نصرانيٌّ ، وأنا رجلٌ من أهل نِينوى .

فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرَّجل الصَّالح يونس بن مَتَّى . فقال له عداسٌ : وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبيّاً ، وأنا نبيٌّ ، فأكبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ، ويديه ، وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمَّا غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلمَّا جاءهما عدَّاسٌ؛ قالا له : ويلك يا عداس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل ، ويديه ، وقدميه؟! قال : يا سيِّدي ، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالا له : ويحك يا عداس! لا يصرفنَّك عن دينك ، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه . [ابن هشام (٢/ ٦٢ ـ ٦٣) وتفسير القرطبي (١٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦)](٣) .

* إنَّ تسمية النَّبيِّ ﷺ قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة ، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيُّ إلى الإسلام ، فما إن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولىٰ النَّصرانيِّ ، وجاشت مشاعره ، فأخبر النَّبيَّ ﷺ بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى .

---

(١) انظر : أصول الفكر السياسيُّ ، ص ١٨١ .
(٢) انظر : الرَّسول المبلِّغ ، للخالديِّ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

* إنَّ التَّسمية قبل الأكل ـ كسائر السُّنن الظَّاهرة ـ من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار ، ويدفعهم إلى السُّؤال عن سبب ذلك ، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميِّ ، والانجذاب إليه(١) .

* كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسول الله قويّاً ، يدلُّ على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة ، وشيبة ابني ربيعة لمَّا أرادا الخروج إلى بدرٍ ، وأمراهُ بالخروج معهما ، حيث قال لهما : قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال ، فقالا : ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه(٢) .

* في قول عدَّاس : «والله ما على الأرض خير من هذا» مواساةٌ عظيمةٌ ، فلئن آذاه قومه ، فهذا وافد من العراق ، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه ، ورجليه ، ويقبِّلهما ، ويشهد له بالرِّسالة ، وإنَّ هذا لقَدَرٌ رَبَّانيٌّ ، يسوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورسوله؛ حيث كان الصَّدُّ من أقرب الناس إليه!(٣) .

ب ـ إسلام الجنِّ :

لمَّا انصرف النَّبيُّ ﷺ من الطَّائف ، راجعاً إلى مكَّة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيل يصلِّي ، فمرَّ به النَّفر من الجنِّ ، الَّذين ذكرهم الله تعالى ، وكانوا سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين ، فاستمعوا لتلاوة الرَّسول ﷺ؛ فلما فرغ من صلاته ، ولَّوْا إلى قومهم مُنذرين؛ قد آمنوا ، وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقصَّ الله تعالى خبرهم على النَّبيِّ ﷺ ، فقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠] .

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبيِّ ﷺ وهو يقرأ ببطن نخلة ، فلمَّا سمعوه؛ قالوا : ﴿أَنصِتُوا۟ۖ﴾ .

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائف تنتقل إلى عالمٍ آخر ، هو عالم الجنِّ ، فتلقَّوا دعوة النَّبيِّ ﷺ ، ومضوا بها إلى قومهم ، كما مضى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه ، والطفيل بن عمرٍو إلى قومه ، وضِمَادُ الأزديُّ إلى قومه ، فأصبح في عالم الجنِّ دعاةٌ ، يبلغون دعوة الله تعالى : ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ (٣/ ٢٢) .
(٢) انظر : سبل الهدى والرَّشاد (٢/ ٥٧٨) .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٤٣٧) .

وأصبح اسم محمَّد ﷺ تهفو إليه قلوب الجنِّ ، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط ، وأصبح من الجنِّ حواريُّون ، حملوا راية التَّوحيد ، ووطَّنوا أنفسهم دعاةً إلى الله ، ونزل في حقهم قرآنٌ يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن : ١ ـ ١٣] .

كان هذا الفتح الرَّبانيُّ في مجال الدَّعوة ؛ ورسولُ الله ﷺ ببطن نخلة عاجزٌ عن دخول مكَّة ، فهل يستطيع عتاة مكَّة ، وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجنِّ ، ويُنزلوا بهم ألوان التَّعذيب؟![1] وعندما دخل النَّبيُّ ﷺ مكَّة في جوار المطعم بن عدي ، كان يتلو على صحابته سورة الجنِّ ، فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً ، وتأثُّراً من روعة الفتح العظيم في عالم الدَّعوة ، وارتفاع راياتها ، فليسوا هم وحدهم في المعركة ، هناك إخوانهم من الجنِّ يخوضون معركة التَّوحيد مع الشِّرك .

وبعد عدَّة أشهرٍ من لقاء الوفد الأول من الجنِّ برسول الله ﷺ ، جاء الوفد الثَّاني متشوِّقاً لرؤية الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، والاستماع إلى كلام ربِّ العالمين[2] . فعن علقمةَ قال : سألت ابن مسعود ، فقلت : هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنِّ؟ قال : لا ، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ ، ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب ، فقلنا : اسْتُطِيرَ ، أو اغْتِيلَ ، قال : فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فلمَّا أصبحنا ؛ إذا هو جاء من قِبَلِ حِرَاءٍ ، فقلنا : يا رسول الله! فقدناك ، فطلبناك ، فلم نجدك ، فبتنا شرَّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فقال : «أتاني داعي الجنِّ ، فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن» ، قال : فانطلَقَ بنا ، فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم . وسألوه الزَّاد ، فقال : «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه ، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً ،

---

(١) انظر : التربية القيادية (١/ ٤٤٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٤٤٥) .

وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ : «فلا تستنجوا بهما ؛ فإنَّهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (٤٥٠) وأبو داود (٨٥) والترمذي (١٨)] .

كان هذا الفتح العظيم ، والنَّصر المبين ، في عالم الجنِّ ، إرهاصاً ، وتمهيداً لفتوحاتٍ وانتصاراتٍ عظيمة في عالم الإنس ، فقد كان اللِّقاء مع وفد الأنصار بعد عدَّة أشهر [١] .

وقد علَّق الدكتور البوطي على سماع الجنِّ من رسول الله ﷺ ، في عودته من الطَّائف ، فقال : «والَّذي يهمُّنا أن نعلمه بعد هذا كلِّه هو : أنَّ على المسلم أن يؤمن بوجود الجنِّ ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعبادته ، كما كلَّفنا بذلك ، ولئن كانت حواسُّنا ، ومداركنا لا تشعر بهم ، فذلك ؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل وجودهم غير خاضعٍ للطَّاقة البصريَّة ، الَّتي بثَّها في أعيننا ، ومعلومٌ : أن أعيننا إنَّما تبصر أنواعاً معيَّنةً من الموجودات ، بقدرٍ معيَّنٍ ، وبشروطٍ معيَّنةٍ .

إنَّ وجود هذه المخلوقات مسندٌ إلى أخبار يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكتاب ، والسُّنَّة ، وصار وجود هذه المخلوقات أمراً معلوماً من الدِّين بالضَّرورة ، والتَّكذيب بوجودها تكذيباً للخبر الصَّادق المتواتر إلينا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعن رسوله ﷺ .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشدِّ مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم : أنَّه لا يؤمن إلا بما يتَّفق مع العلم ، فيمضي يتبجَّح بأنَّه لا يعتقد بوجود الجانِّ ، من أجل أنَّه لم يرَ الجانَّ ، ولم يحسَّ بهم .

إنَّ من البداهة بمكانٍ : أنَّ مثل هذا الجاهل المتعالم يستدعي إنكار كثيرٍ من الموجودات اليقينيَّة لسببٍ واحدٍ ، هو عدم إمكان رؤيتها ، والقاعدة العلميَّة المشهورة تقول : عدم شعوري بالشَّيء لا يستلزم عدم الوجود ؛ أي : عدم رؤيتك لشيءٍ تفتِّش عنه لا يستلزم أن يكون بحدِّ ذاته مفقوداً ، أو غير مفقودٍ» [٢] .

وبعد هذا التَّكرُّم الرَّبانيُّ ، الَّذي خُصَّ به النَّبيُّ ﷺ ، في عالم الثَّقلين : الإنس ، والجن حان وقت الحديث عن رحلته ﷺ إلى عالم السَّموات العلا ، إلى عالم الملائكة ، إلى حضرة الجليل سبحانه ، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً ، ثُمَّ يعيده إليهم ، فيحدثهم بما رأىٰ في هذه الرِّحلة الميمونة الخالدة ، الَّتي لم تعرف البشريَّة لها مثيلاً ، ولن تعرف حتَّى يرث اللهُ الأرض ، ومَنْ عليها [٣] .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (١/ ٤٤٦) .

المبحث الرَّابع
الإسراء والمعراج.. ذروة التَّكريم

كان وجود أبي طالبٍ بجانب رسول الله ﷺ، سياجاً واقياً له يمنع عنه أذى قريش؛ لأنَّ قريشاً ما كانت تريد أن تخسر أبا طالبٍ، ولمَّا تُوفي أبو طالب؛ انهار هذا الحاجزُ، ونال رسولَ الله ﷺ من الضَّرر الجسديِّ الشيءُ الكثير.

وكانت خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ البلسم الشَّافي لما يصيب رسول الله ﷺ من الجراح النَّفسيَّة الَّتي يُلحقها به المشركون، ولمَّا توفيت فَقَدَ رسولُ الله ﷺ هذا البلسمَ.

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطَّائف بعدما اشتدَّ عليه أذى قريش، وأمعنوا في التَّضييق عليه، يطلب من زعمائها نصرة الحقِّ الذي يدعو إليه، وحمايته، حتى يبلِّغ دين الله، فما كان جوابهم إلا أن ردُّوه أقبح ردٍّ، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمَّد ﷺ، فتجهَّمت له قريش، وأضمرت له الشَّرَّ، فلم يستطع رسول الله ﷺ دخول مكَّة إلا في جوار رجلٍ كافر، لقد تجهَّمت له قريش، وأحدقت برسول الله ﷺ، فزادتْ حزنَه، وهمَّه؛ حتَّى سُمِّي ذلك العام بالنِّسبة لرسول الله ﷺ بـ(عام الحزن)[1].

وبعد هذا كلِّه حصلتْ معجزةُ اللهِ لِرسوله، ألاَ وهي: الإسراء والمعراج.

أمَّا هدف هذه المعجزة، فيتمثل في أمورٍ؛ من أهمِّها:

أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أراد أن يتيح لرسوله ﷺ فرصة الاطّلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتَّى يملأ قلبه ثقةً فيه، واستناداً إليه؛ حتَّى يزداد قوَّةً في مهاجمة سلطان الكفَّار القائم في الأرض، كما حدث لموسىٰ عليه السلام، فقد شاء أن يريه عجائب قدرته. قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٢] فلمَّا ملأ قلبه بمشاهدة هذه

---

(١) انظر: دراسةٌ تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ، ص ١٢٨.

الآيات الكبرى ، قال له بعد ذلك : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه : ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه ﷺ على هذه الآيات الكبرى ، توطئةً للهجرة ، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التَّاريخ للكفر ، والضَّلال ، والفسوق. والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرةٌ؛ منها: الذَّهاب إلى بيت المقدس ، والعروج إلى السَّماء ، ورؤية الأنبياء ، والمرسلين ، والملائكة ، والسَّموات ، والجنَّة ، والنار ، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

كان حديث القرآن الكريم عن الإسراء في سورة الإسراء ، وعن المعراج في سورة النَّجم ، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١] وفي سورة النجم بقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨]. وفي الإسراء والمعراج علومٌ ، وأسرارٌ ، ودقائق ، ودروسٌ ، وَعِبَرٌ[١].

يقول الأستاذ أبو الحسن النَّدوي: «لم يكن الإسراء مجرَّد حادثٍ فرديٍّ بسيطٍ رأىٰ فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى ، وتجلَّى له ملكوت السَّموات ، والأرض مشاهدةً ، عياناً؛ بل ـ زيادةً إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرِّحلة النَّبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ ، وشاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضمَّت قصَّةُ الإسراء ، وأعلنت السُّورتان الكريمتان اللَّتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و«النَّجم»: أنَّ محمّداً ﷺ هو نبيُّ القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه ، وفي إسرائه مكةُ بالقدس ، والبيتُ الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلَّى بالأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته ، وخلود إمامته ، وإنسانيَّة تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزَّمان ، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النَّبي ﷺ ، ووصف إمامته ، وقيادته ، وتحديد مكانة الأمَّة التي بعث فيها ، وآمنت به ، وبيان رسالتها ودورها الَّذي ستمثِّله في العالم ، ومن بين الشُّعوب ، والأمم»[٢].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتيتُ بالبُرَاق ـ وهو دابـةٌ أبيضُ طويلٌ ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طَرْفه ـ قال: فركبتهُ حتَّى أتيت بيت المقدس ، قال: فربطته بالحلقة[٣]؛ الَّتي يَرْبِطُ به الأنبياءُ. قال: ثمَّ دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين ، ثمَّ خرجت ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، فاخترتُ

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (١/ ٢٩١ ، ٢٩٢).
(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة (١/ ٢٩٢).
(٣) الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

اللَّبن ، فقال جبريل : اخترتَ الفطرة»[(١)] . . . فذكر الحديث [مسلم (١٦٢)] .

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه : أنَّ نبيَّ الله ﷺ حدَّثهُ عن ليلة أسري به ، قال : «بينما أنا في الحطيم[(٢)] ـ وربما قال في الحِجر ـ مضطجعاً ؛ إذ أتاني آتٍ[(٣)] ، فَقَدَّ ـ قال : وسمعته يقول : فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني به؟ قال : من ثُغرةِ نحرِه[(٤)] إلى شِعْرَته[(٥)] وسمعته يقول : من قَصِّهِ[(٦)] إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً ، فغُسِلَ قلبي ، ثمَّ حُشيَ ، ثمَّ أُعِيدَ ، ثمَّ أُتيتُ بدابةٍ دون البغل ، وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود : هو البُرَاقُ يا أبا حمزة؟! قال : أنسٌ : نعم ـ يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[(٧)] ، فحُمِلتُ عليه ، فانطَلَقَ بي جبريلُ حتَّى أتى السَّماء الدُّنيا ، فاستفتحَ[(٨)] فقيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ ، قيلَ : ومن معك؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أُرسِلَ إليه؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به[(٩)] ، فنعم المجيءُ جاء ، فَفَتَح ، فلما خَلَصتُ ؛ فإذا فيها آدمُ ، فقال : هذا أبوك آدمُ ، فَسَلِّمُ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ السلام ، ثمَّ قال : مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح . ثمَّ صعِد بي حتَّى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح ، قيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، فَفَتَح ، فلمَّا خَلَصتُ ؛ إذا يحيى ، وعيسى ـ وهما ابنا خالةٍ ـ قال : هذا يحيى ، وعيسى ، فسلِّمْ عليهما ، فسلَّمتُ فَرَدَّا ، ثمَّ قالا : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثمَّ صُعد بي إلى السَّماء الثَّالثة ، فاستفتح ، قيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ ، قيل : ومَنْ معك؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت ؛ إذا يوسفُ ، قال : هذا يوسُفُ فسلِّمْ عليه ، فسلَّمْتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال : مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح .

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الرَّابعة ، فاستفتح ، قيل : مَنْ هذا؟ قال : جبريلُ . قيل : وَمَنْ معك؟ قال : محمَّد ، قيل : أَوَ قد أُرسِل إليه؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ،

---

(١) الفطرة : الإسلام ، والاستقامة .
(٢) الحطيم : هو ما بين الرُّكن والمقام .
(٣) آت : هو جبريل عليه السلام .
(٤) ثغرة النحر : الموضع المنخفض في أدنى الرَّقبة من الأمام .
(٥) شعرته : شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة .
(٦) القص : رأس عظام الصَّدر .
(٧) يضع خَطْوَهُ عند أقصى طرفه : يضع رجله عند منتهى بصره .
(٨) استفتح : طلب فتح باب السَّماء الدُّنيا .
(٩) مرحباً به : أصاب رحباً ، وسعةً .

ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إدريس ، قال: هذا إدريس فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الخامسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا هارون ، قال: هذا هارون ، فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء السَّادسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء. فلمَّا خلصت؛ فإذا موسىٰ ، قال: هذا موسىٰ فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ؛ فلمَّا تجاوزتُ ؛ بكى ، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي ؛ لأنَّ غلاماً[(١)] بُعِثَ بعدي يدخل الجنَّةَ من أمَّته أكثرُ مِمَّن يَدْخُلها من أمَّتي.

ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، ونعم المجيء جاء ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إبراهيم ، قال: هذا أبوك ، فسلِّم عليه ، قال: فسلَّمت عليه ، فردَّ السَّلام ، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ، ثمَّ رُفِعَتْ لي[(٢)] سِدرةُ المنتهى ، فإذا نَبَقُها[(٣)] مثل قِلالِ هَجَر[(٤)] ، وإذا ورقُها مثل آذانِ الفيلة ، قال: هذه سِدرة المنتهى ، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت: ما هذان يا جبريل؟! قال: أمَّا الباطنان؛ فنهران في الجنَّة ، وأمَّا الظاهران؛ فالنِّيلُ والفراتُ ، ثمَّ رُفعَ لي البيتُ المعمور.

ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، وإناءٍ من عسلٍ ، فأخذتُ اللَّبنَ ، فقال: هي الفطرةُ[(٥)] ؛ الَّتي أنت عليها ، وأمَّتُك.

ثمَّ فُرضتْ عليَّ الصَّلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، فرجعتُ ، فمررتُ على موسىٰ ، قال: بِمَ أُمِرت؟ قال: أُمرت بخمسين صلاةً كلَّ يومٍ. قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، وإنِّي والله! قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة[(٦)] ، فارجعْ إلى

---

(١) أبكي ؛ لأن غلاماً . . . : ليس هذا على سبيل النَّقص ، بل على سبيل التَّنويه بقدرة الله وعظيم كرمه.
(٢) رُفعت لي: قُرِّبت لي.
(٣) النَّبق: هو ثمر السِّدر.
(٤) قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها ، وهجر: قرية في البحرين ، والقلَّة: الجرة الكبيرة.
(٥) الفطرة: دين الإسلام.
(٦) عالجتهم أشدَّ المعالجة: مارست بني إسرائيل أشدَّ الممارسة.

ربِّك ، فاسأله التَّخفيف لأمَّتك ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت ، فأُمرت بعشر صلوات كلَّ يوم ، فرجعت ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يوم ، فرجعت إلى موسىٰ ، فقال : بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت : أمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يوم ، قال : إنَّ أمتك لا تستطيع خمس صلواتٍ كلَّ يوم ، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتِّك ، قال : سألت ربِّي حتى استحييتُ ، ولكن أرضى ، وأسلِّم ، قال : فلمَّا جاوزت نادى منادٍ : أمضيتُ فريضتي ، وخففت عن عبادي» [البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤)] .

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ـ عليه السَّلام ـ بسنةٍ ، هكذا قال القاضي عياض في الشِّفا[(١)] .

ولمَّا رجع رسول الله ﷺ من رحلته الميمونة ؛ أخبر قومه بذلك ، فقال لهم في مجلسٍ حضره المطعم بن عديٍّ ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة : إنِّي صليت اللَّيلة العشاء في هذا المسجد ، وصليت به الغداة ، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس ، فَنُشِر لي رهطٌ من الأنبياء ؛ منهم : إبراهيم ، وموسىٰ وعيسى ، وصلَّيت بهم ، وكلَّمتهم ، فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به : صِفْهم لي ، فقال : أمَّا عيسى : ففوق الرَّبعة ، ودون الطول ، عريض الصَّدر ، ظاهر الدَّم ، جعدٌ ، أشعرُ ، تعلوه صُهْبَةٌ[(٢)] ، كأنَّه عروة بن مسعود الثَّقفي . وأمَّا موسىٰ : فضخمٌ آدَمُ ، طوالٌ ، كأنَّه من رجال شَنُوءَةَ ، متراكب الأسنان ، مقلَّص الشَّفة ، خارج اللَّثة ، عابسٌ ، وأمَّا إبراهيم : فوالله إنه لأشبه النَّاس بي ، خَلْقاً ، وخُلُقاً[(٣)] .

فقالوا : يا محمد! فصف لنا بيت المقدس ، قال : «دخلت ليلاً ، وخرجت منه ليلاً» ، فأتاه جبريل بصورته في جناحه ، فجعل يقول : «بابٌ منه كذا ، في موضع كذا ، وبابٌ منه كذا ، في موضع كذا» .

ثمَّ سألوه عن عيرهم ، فقال لهم : «أتيت على عير بني فلان بالرَّوحاء ، قد ضَلَّتْ ناقةٌ لهم ، فانطلقوا في طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم ، ليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء ، فشربت منه ، فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا : هذه والإله آيةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلان ، فنفرت منِّي الإبل ، وبرك منها جملٌ أحمر ، عليه جُوالِق[(٤)] مخطَّطٌ ببياض ، لا أدري أكسر البعير ، أم لا؟

---

(١) انظر : الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٠٨) .
(٢) صهبة : بياض بحمرة .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٣/ ٣٧) .
(٤) الجُوالق : هو العِدْل الذي يوضع فيه المتاع .

فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله آيةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلانٍ في التَّنعيم ، يقدمها جملٌ أورق[(١)] ، وها هي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة»[(٢)] فقال الوليد بن المغيرة: ساحرٌ ، فانطلقوا ، فنظروا ، فوجدوا الأمر كما قال ، فرموه بالسِّحر ، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [المطالب العالية (٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٤ ، ومجمع الزوائد (١/ ٧٥ ـ ٧٦) وابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ١١)] .

كانت هذه الحادثة فتنةً لبعض النَّاس ، مِمَّن كانوا آمنوا ، وصدَّقوا بالدَّعوة ، فارتدُّوا ، وذهب بعض النَّاس إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم: أنَّه أسري به اللَّيلة إلى بيت المقدس!

قال: أَوَ قَال ذلك؟! قالوا: نعم! قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق! قالوا: أو تصدِّقه: أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم ، إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السَّماء ، في غدوةٍ أو روحة . فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيق [الحاكم (٣/ ٦٢)] .

ثانياً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ بعد كلِّ محنةٍ منحةٌ ، وقد تعرَّض رسول الله ﷺ لمحنٍ عظيمةٍ ، فهذه قريش قد سدَّت الطَّريق في وجه الدَّعوة في مكَّة ، وفي ثقيفٍ ، وفي قبائل العرب ، وأحكمتْ الحصار ضدَّ الدعوة ورجالاتها من كلِّ جانبٍ ، وأصبح النَّبيُّ ﷺ في خطرٍ بعد وفاة عمِّه أبي طالبٍ أكبر حُماته ، ورسولُ الله ﷺ ماضٍ في طريقه ، صابرٍ لأمر ربِّه ، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ ، ولا حربُ محاربٍ ، ولا كيدُ مستهزىءٍ ، فقد آن الأوان للمحنة العظيمة ، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج ، على قَدَرٍ من ربِّ العالمين ، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً ، ويكرمه على صبره ، وجهاده ، ويلتقي به مباشرة دون رسولٍ ، ولا حجابٍ ، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافَّةً ، ويجمعه مع إخوانه من الرُّسل في صعيدٍ واحدٍ ، فيكون الإمام ، والقدوة لهم ، وهو خاتمهم ، وآخرهم ﷺ[(٣)] .

٢ ـ إنَّ الرَّسول ﷺ كان مُقدِماً على مرحلةٍ جديدةٍ ، مرحلة الهجرة ، والانطلاق لبناء الدَّولة ، يريد اللهُ تعالى لِلَّبِنَات الأولىٰ في البناء أن تكون سليمةً قويَّةً ، متراصَّةً متماسكةً ، فجعل الله هذا الاختبار والتَّمحيص ؛ ليُخلِّص الصَّفَّ من الضِّعاف المتردِّدين ، والَّذين في قلوبهم مرضٌ ، ويُثبِّت المؤمنين الأقوياء والخلَّص؛ الذين لمسوا عياناً صدق نبيِّهم بعد أن

---

(١) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد .
(٢) الثَّنِيَّة: الطَّريق الجبلي .
(٣) انظر: التربية القياديَّة (١/ ٤٤٧) .

لمسوه تصديقاً ، وشهدوا مدى كرامته على ربِّه ، فأيُّ حظٍّ يحوطهم ، وأيُّ سعدٍ يغمرهم ، وهم حول هذا النَّبيِّ المصطفىٰ ، وقد آمنوا به ، وقدَّموا حياتهم فداءً له ، ولدينهم؟! كم يترسَّخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الَّذي تمَّ بعد وعثاء الطَّائف؟! وبعد دخول مكَّة في جوارٍ ، وبعد أذى الصِّبيان ، والسُّفهاء؟![1].

٣ ـ إنَّ شجاعة النَّبيِّ ﷺ العالية ، تتجسَّد في مواجهته للمشركين بأمرٍ تنكره عقولهم ، ولا تدركه في أوَّل الأمر تصوُّراتهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم ، وتلقِّي نكيرهم ، واستهزائهم ، فضرب بذلك ﷺ لأمَّته أروع الأمثلة في الجهر بالحقِّ أمام أهل الباطل ، وإن تحزَّبوا ضدَّ الحقِّ ، وجنَّدوا لحربه كلَّ ما في وسعهم ، وكان من حكمة النَّبيِّ ﷺ في إقامة الحجَّة على المشركين أنْ حدَّثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس ، وأظهر الله له علاماتٍ تُلزِم الكفَّار بالتَّصديق ، وهذه العلامات هي :

* وصف النَّبيِّ ﷺ بيت المقدس ، وبعضهم قد سافر إلى الشَّام ، ورأىٰ المسجد الأقصىٰ ، فقد كشف الله لنبيِّه ﷺ المسجد الأقصىٰ حتَّى وصفه للمشركين ، وقد أقرُّوا بصدق الوصف ، ومطابقته للواقع الَّذي يعرفونه .

* إخباره عن العير التي بالرَّوحاء ، والبعير الَّذي ضَلَّ ، وما قام به من شرب الماء الَّذي في القدح .

* إخباره عن العير الثَّانية الَّتي نفرت فيها الإبل ، ووصفه الدَّقيق لأحد جمالهم .

* إخباره عن العير الثَّالثة الَّتي بالأبواء ، ووصفه الجمل الَّذي يقدمها ، وإخباره بأنَّها تطلع ذلك الوقت من ثَنِيَّة التَّنعيم ، وقد تأكَّد المشركون ، فوجدوا أنَّ ما أخبرهم به الرَّسول ﷺ كان صحيحاً ، فهذه الأدلَّة الظَّاهرة كانت مفحِمةً لهم ، ولا يستطيعون معها أن يتَّهموه بالكذب. كانت هذه الرِّحلة العظيمة تربيةً ربَّانيَّة رفيعة المستوىٰ وأصبح ﷺ يرى الأرض كلَّها ، بما فيها من مخلوقاتٍ نقطةً صغيرةً في ذلك الكون الفسيح ، ثمَّ ما مقام كفار مكَّة في هذه النقطة؟! إنَّهم لا يمثِّلون إلا جزءاً يسيراً جدّاً من هذا الكون ، فما الَّذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه ، وخصَّه بتلك الرِّحلة العلويَّة الميمونة ، وجمعه بالملائكة والأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وأراه السَّموات السَّبع ، وسدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، وكلَّمه جلَّ وعلا[2]؟

٤ ـ يظهر إيمان الصِّدِّيق رضي الله عنه القويُّ في هذا الحدث الجَلَلِ ، فعندما أخبره الكفَّار ، قال بلسان الواثق : لئن كان قال ذلك ؛ لقد صدق! ثمَّ قال : إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ،

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٥١).
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي ، (٣/ ٤١ ، ٤٢).

أصدِّقه بخبر السَّماء في غدوةٍ ، أو روحةٍ ، وبهذا استحقَّ لقب الصِّدِّيق ، وهذا منتهى الفقه ، واليقين ، حيث وازن بين هذا الخبر ، ونزول الوحي من السَّماء ، فبيَّن لهم : أنَّه إذا كان غريباً على الإنسان العاديِّ ، فإنَّه في غاية الإمكان بالنِّسبة للنَّبيِّ ﷺ(١) .

٥ ـ إنَّ الحكمة في شقِّ صدر النَّبيِّ ﷺ ، وملء قلبه إيماناً وحكمةً ؛ استعداداً للإسراء تظهر في عدم تأثُّر جسمه بالشَّقِّ ، وإخراج القلب ممَّا يؤمِّنه من جميع المخاوف العادية الأخرىٰ ، ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة يجب التَّسليم لها دون التَّعرُّض لصرفها عن حقيقتها ؛ لمقدرة الله تعالى ، الَّتي لا يستحيل عليها شيءٌ(٢) .

٦ ـ إنَّ شُرْب رسول الله ﷺ اللَّبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر ، وبشارة جبريل عليه السلام : «هُديتَ للفطرة» ، تؤكِّد : أنَّ هذا الإسلام دين الفطرة البشريَّة ؛ الَّتي ينسجم معها ، فالَّذي خلق الفطرة البشريَّة خلق لها هذا الدِّين ، الَّذي يلبِّي نوازعها ، واحتياجاتها ، ويحقِّق طموحاتها ، ويكبح جماحها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

٧ ـ كان إسراء النَّبيِّ ﷺ ، بالرُّوح والجسد يقظةً إلى بيت المقدس ، وعلى هذا جماهير السَّلف ، والخلف ، ولا يُعوَّل على مَنْ قال : إنَّ الإسراء كان بروحه ، وأنَّه رؤيا منام ؛ إذ لو كان الإسراء مناماً ؛ لما كانت فيه آيةٌ ، ولا معجزةٌ ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذَّبوه ؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر(٣) ، ثمَّ إنَّ في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ ، والمقصود بعبده : سيدنا محمَّدٍ ﷺ ، وكلمة «بعبده» تشمل روحه ، وجسده(٤) .

٨ ـ إنَّ صلاة النَّبيِّ ﷺ بالأنبياء دليلٌ على أنَّهم سلَّموا له القيادة ، والرِّيادة ، وأنَّ شريعة الإسلام نسخت الشَّرائع السَّابقة ، وأنَّه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم ، أن يسلِّموا القيادة لهذا الرَّسول ﷺ ، ولرسالته الَّتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها .

إنَّ على الَّذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة ، ويدعوا إليها ، وهي ضرورة الانخلاع من الدِّيانات المنحرفة ، والإيمان بهذا الرَّسول ﷺ ورسالته ، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدَّعوات المشبوهة ، الَّتي تخدم وضعاً من الأوضاع ، أو نظاماً من الأنظمة الجاهليَّة .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي ، (٣/ ٤٣) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ١٨٩) .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٩١) .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣) ، وتفسير القاسمي (١٠/ ١٨٩) .

وأيُّ تقريب بين عقيدةٍ منحرفةٍ تعتقد: أنَّ الله هو المسيح، وأنَّ المسيح ابن الله، وأنَّ الله ثالث ثلاثةٍ، أو بين مَنْ يعتقد: أنَّ عزيراً ابنُ الله، ويحرِّف كلام الله، وبين من يعتقد: أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، ولا والد، ولا ولد، ولا زوجة له ـ وهو عبثٌ من القول[١].

٩ ـ إنَّ الرَّبط بين المسجد الأقصىٰ والمسجد الحرام وراءه حِكَمٌ، ودلالاتٌ، وفوائد؛ منها:

* أهمِّيَّة المسجد الأقصى بالنِّسبة للمسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم ﷺ، ومعراجه إلى السَّموات العلا، وكان لا يزال قبلتهم الأولىٰ طيلة الفترة المكِّيَّة، وهذا توجيهٌ وإرشادٌ للمسلمين بأن يحبُّوا المسجد الأقصى، وفلسطين؛ لأنَّها مباركةٌ، ومقدَّسةٌ.

* الرَّبط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، بمسؤوليَّة تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشِّرك، وعقيدة التَّثليث، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام، من أوضار الشِّرك، وعبادة الأصنام.

* الرَّبط يشعر بأنَّ التَّهديد للمسجد الأقصى، هو تهديدٌ للمسجد الحرام، وأهله، وأنَّ النَّيل من المسجد الأقصى، توطئةٌ للنَّيل من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصىٰ بوابة الطَّريق إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصىٰ من أيدي المسلمين، ووقوعه في أيدي اليهود، يعني: أن المسجدالحرام والحجاز قد تهدَّد الأمن فيهما، واتَّجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتَّاريخ قديماً وحديثاً يؤكِّد هذا، فإنَّ تاريخ الحروب الصَّليبيَّة يخبرنا: أنَّ (أرناط) الصَّليبيَّ صاحب مملكة الكرك، أرسل بعثةً للحجاز للاعتداء على قبر الرَّسول ﷺ، وعلى جُثمانه في المسجد النَّبويِّ، وحاول البرتغاليُّون (النَّصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشَّريفين؛ لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصَّليبيُّون، ولكن المقاومة الشَّديدة الَّتي أبداها المماليك، وكذا العثمانيُّون، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنميِّ، وبعد حرب (١٩٦٧ م)، الَّتي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماؤهم بأنَّ الهدف بعد ذلك احتلال الحجاز، وفي مقدِّمة ذلك مدينة رسول الله ﷺ، وخيبر.

لقد وقف دافيد بن جوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس، يستعرض جنوداً وشبَّاناً من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى، ويُلقي فيهم خطاباً ناريّاً، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس، ونحن في طريقنا إلى يثرب»[٢].

ووقفت جولدا مائير رئيسة وزراء اليهود، بعد احتلال بيت المقدس، وعلى خليج إيلات

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٢١٣.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس ص ٣١٤.

العقبة ، تقول: «إنَّني أشمُّ رائحة أجدادي في المدينة ، والحجاز ، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»(١) .

وبعد ذلك نشر اليهود خريطةً لدولتهم المنتظرة ؛ الَّتي شملت المنطقة من الفرات إلى النِّيل ، بما في ذلك الجزيرة العربيَّة ، والأردن ، وسورية ، والعراق ، ومصر ، واليمن ، والكويت ، والخليج العربي كلِّه، ووزَّعوا خريطة دولتهم هذه بعد انتصارهم في حرب (١٩٦٧) م في أوروبة(٢) .

١٠ ـ يرى القارئ في سورة الإسراء : أنَّ الله ذكر قصَّة الإسراء في آيةٍ واحدةٍ فقط . قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ثمَّ أخذ في ذكر فضائح اليهود ، وجرائمهم ، ثمَّ نبَّههم إلى أنَّ هذا القرآن يهدي لِلَّتي هي أقوم ، والارتباط بين الآيات في سورة الإسراء ، يشير إلى أنَّ اليهود سيُعزَلون عن منصب قيادة الأمَّة الإنسانيَّة ؛ لما ارتكبوا من الجرائم الَّتي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّه سيصير إلى رسوله ﷺ ، ويُجمَع له مركزا الدَّعوة الإبراهيمية كلاهما(٣) .

إنَّ سورة الإسراء تعرَّضت للاستبداد الإسرائيليِّ ، وبيَّنت كيف تهاوى بين مخالب القوى الدَّولية الكبرى في ذلك الزَّمان «الفرس ، والروم» ؛ ولذلك فإنَّ من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله ﷺ وأمَّته رؤية بعض آيات الله ؛ لأنَّ من أوضح آيات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى هي آياته التَّاريخيَّة الَّتي كان يعكسها الصِّراع الرُّومانيُّ الفارسيُّ ـ الإسرائيليُّ قبل الإسراء(٤) .

قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٢ ـ ٧] .

---

(١) جريدة الدُّستور الأردنيَّة ، العدد (٤٦١٣) بقلم أميل الغوري ، نقلاً عن السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ٣١٤ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٥ .
(٣) انظر : الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ١٢٠ ، بتصرف .
(٤) انظر : أصول الفكر السِّياسي في القرآن المكيِّ ، ص ١٤٩ .

ذكر ابن كثيرٍ في البداية والنِّهاية: أنَّ (بختنصر) بأمرٍ من ملك الفرس[(١)] ، قد قام بتخريب مملكة اليهود ، وجاس خلال الدِّيار ، وتفرَّقت بسبب ذلك بنو إسرائيل ، فنزلت طائفةٌ الحجاز ، وطائفةٌ يثرب ، وطائفةٌ بوادي القرى ، وذهبت شرذمةٌ لمصر[(٢)] ، وقد وقع هذا الدَّمار الفارسيُّ لدولة اليهود ، في القرن السَّادس قبل الميلاد (٥٩٧ق.م)[(٣)] .

أمَّا الدَّمار الثاني ، وهو الدَّمار الرُّوماني للدَّولة اليهوديَّة «بعد أن أعيد بناؤها» ، فقد وقع في القرن الميلادي الأوَّل (٧٠ م) ، وذلك حين هدم القائد الرُّوماني (تيتوس) هيكل أورشليم ، وفرَّ اليهود من وجه الاضطهاد الرُّومانيِّ السِّياسيِّ الدِّينيِّ ، وتتابعت هجرتهم ، وانتهى بعضهم إلى جنوب الجزيرة العربية ، حيث سبقهم أجدادهم الأوائل[(٤)] .

فالشَّتات اليهوديُّ في أطراف الجزيرة العربيَّة ، ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض ، فإذا كان الرَّسول ﷺ قد استوعب الظَّاهرة القرشيَّة ، واستعدَّ لها ، فعليه أن يحلِّل الظاهرة اليهوديَّة ، ويستعدَّ لها[(٥)] ، فاليهود ليسوا مجرَّد أمَّةٍ تاريخيَّةٍ ، كعاد ، وثمود ، تُورَد أخبارها للإرشاد ، والاعتبار ، وإنَّما هم أمَّةٌ لها حضورٌ كثيفٌ في الواقع العربيِّ الَّذي يعيش فيه الرَّسول ﷺ ، ويتحرَّك فيه لإقامة دولة الإسلام ، فقد كانوا يشكِّلون ـ فوق مكانتهم الاقتصاديَّة ـ مركز سلطةٍ فكريَّةٍ؛ لما لهم من أحبارٍ ، وأخبارٍ ، وكتب تراثٍ نبويٍّ ، تؤهِّلهم لتحديد مواصفات النُّبوَّة ، وطلب المعجزات ، ووضع الشُّروط لصدق الرُّسل وصحَّة الرسالات ، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام ، فإنَّ اليهود كانوا يستخدمون التَّوراة لمحاربة القرآن ، وإذا كان محمَّد ﷺ يتوقَّع معركةً مع قريشٍ؛ فعليه أن يتوقَّع معارك مع اليهود[(٦)] .

لقد صوَّرت سورة الإسراء جانباً من الصِّراع الدَّولي بين الفرس ، والرُّوم ، واليهود ، ونزلت بعدها سورة الرُّوم ، وهي كذلك تتحدَّث عن الصِّراع الدَّولي .

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا

---

(١) يرى الدُّكتور فرست مرعي أستاذ التاريخ في جامعة صنعاء: أن بختنصَّر كلداني ، وليس فارسيّاً ، والأمر من الملك الكلداني .

(٢) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٢ .

(٤) ابن خلدون ، (٢/٢٠٦).

(٥) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥٢ .

(٦) أصول الفكر السِّياسيِّ ص ١٥٣ .

﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٧].

كان مشركو قريشٍ يحبُّون أن يظهر أهل فارس على الرُّوم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل أوثانٍ، بينما كان المسلمون يحبُّون أن تظهر الرُّوم على فارس؛ لأنَّهم أهل كتاب، كما أورد المفسِّرون تفصيلاتٍ كثيرةً عن الرِّهَان الَّذي جرى بين أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وبعض مشركي مكَّة حول المعركة القادمة بين الفرس، والرُّوم؛ الَّتي جزم فيها القرآن بانتصار الرُّوم، وهزيمة الفرس(١).

وذهب ابن عطيَّة إلى رأيٍ آخر، يستحقُّ التدبُّر؛ حيث قال: «الأقرب أن يُعَلَّل ذلك ـ أي: فرح المؤمنين ـ بما يقتضيه النَّظر من محبَّة أن يغلب العدوُّ الأصغر ـ الرُّوم ـ لأنَّه أيسر مؤنةً ـ ومتى غلب الأكبرُ ـ الفرس ـ كثر الخوف منه. فتأمَّل هذا المعنى؛ مع ما كان رسول الله ﷺ يرجوه من ظهور دينه، وشرع الله الَّذي بعثه به، وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكَّة أن يرميه بملكٍ يستأصله، ويريحهم منه»(٢).

فابن عطيَّة يرى: أنَّ فرح المؤمنين الأكبر، ليس سببه أنَّ الروم أهل كتاب، أو أن انتصارهم على الفرس سيكون دليلاً ماديّاً على صدق الخبر القرآنيِّ؛ وإنَّما سببه هو أنَّ الله تعالى وظَّف القوَّة الجهازية الرُّومانية لصالح المسلمين الَّذين لم يقم لهم سلطانٌ جهازيٌّ بعد؛ إذ إنَّه بعد أن يسلِّط الروم على الدَّولة الفارسيَّة، فيحطِّموها، ويخضدوا شوكتها سيخرجون من المعارك منتصرين، ولكنَّهم منهكو القوَّة، ممَّا سيمهد طريقاً لنصر المسلمين عليهم، وينفتح للإسلام بذلك طريقٌ للبروز كقوَّة عالميَّةٍ جديدةٍ على أنقاض القوَّتين المندحرتين(٣).

١١ ـ أهمِّيَّة الصَّلاة، وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السُّنَّة النَّبويَّة: أنَّ الصَّلاة فُرضت على الأمَّة الإسلاميَّة في ليلة عروجه ﷺ إلى السَّموات، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناءٌ عظيمٌ بشرف الصَّلاة، وعظمتها»(٤)، فعلى الدُّعاة أن يؤكِّدوا على أهمِّية الصَّلاة، والمحافظة عليها، وأن يذكروا فيما يذكرون من أهمِّيتها، ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج، وأنَّها من آخر ما أوصىٰ به رسولُ الله ﷺ قبل موته(٥).

١٢ ـ سُئل رسولُ الله ﷺ: إن كان قد رأىٰ ربَّه، فقال: «نورٌ أنَّى أراه» [مسلم (١٧٨) والترمذي (٣٢٧٨)].

١٣ ـ تحدَّث الرَّسول ﷺ عن مخاطر الأمراض الاجتماعيَّة، وبيَّن عقوبتها، كما شاهد ذلك

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٢١/ ١٢).
(٢) تفسير ابن عطيَّـة (١١/ ٤٢٥).
(٣) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ، ص ١٥٨.
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣).
(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٣/ ٩٣).

في ليلة الإسراء والمعراج ؛ ومن هذه الأمراض؛ وعقوبتها :

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين: رأىٰ رسولُ الله ﷺ أناساً يأكلون الجيف ، فأخبره جبريل : «هؤلاء الَّذين يأكلون لحوم النَّاس» [أحمد (١/ ٢٥٧)] .

* عقوبة أكلة أموال اليتامى : رأىٰ رسول الله ﷺ رجالاً لهم مشافر ـ شفاه كبيرةٌ ـ كمشافر الإبل في أيديهم قطعٌ من نار كالأفهار ـ أي: الحجارة ـ يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فأخبره جبريل : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً . [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤٧)].

* أكلة الرِّبا: أتى النَّبيُّ ﷺ على قومٍ بطونهم كالبيوت ، فيها الحيَّات تُرى من خارج بطونهم ، فأخبره جبريل : هؤلاء أكلة الرِّبا [أحمد (٢/ ٣٥٣) وابن ماجه (٢٢٧٣)][(١)] .

* وذكرت الرِّوايات[(٢)] عقوبة الزُّناة ، ومانعي الزَّكاة ، وخطباء الفتنة [أحمد (٣/ ١٢٠ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩) وعبد بن حميد (١٢٢٢)] والتَّهاون في الأمانة[(٣)] .

* ثواب المجاهدين: في ليلة الإسراء والمعراج ، مرَّ رسولُ الله ﷺ على قومٍ يزرعون في يومٍ ويحصدون في يومٍ ، كلَّما حصدوا؛ عاد كما كان ، فأخبر جبريل : «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنات بسبعمئة ضعفٍ ، وما أنفقوا من شيءٍ؛ فهو يُخْلَف». [البزار (٥٥) ومجمع الزوائد (١/ ٦٧ ـ ٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١١٢٩)] [(٤)] .

١٤ ـ إدراك الصَّحابة لأهمِّية المسجد الأقصى: أدرك الصَّحابة رضي الله عنهم ، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، وهو يقع أسيراً تحت حكم الرُّومان ، فحرَّره في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وظلَّ ينعم بالأمن ، والأمان ، حتَّى عاث الصَّليبيُّون فساداً فيه بعد خمسة قرون ، من هجرة المصطفىٰ ﷺ ، ومكثوا ما يعادل قرناً يعيثون فساداً ، فحرَّره المسلمون بقيادة صلاح الدِّين الأيوبيِّ ، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهوديِّ ، فما الطَّريق إلى تخليصه ؟[(٥)] .

الطَّريق إلى تخليصه: الجهاد في سبيل الله؛ على المنهج الَّذي سار عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

(٢) وكلُّ ما ورد من روايات في هذه العقوبات الَّتي رآها النَّبي ﷺ في رحلة المعراج ، هو حديث مروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو موجودٌ في بعض كتب التفاسير ، وفي سيرة ابن هشام في قصَّة المعراج ، غير أنَّه لم يرد في هذا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ ، ولم يُخرج هذا الحديث في البخاريِّ أو في مسلمٍ ، والله أعلم.

(٣) تفسير الطَّبري (١٥/ ٧) ، والفتح الرباني (٢٠/ ٢٥٧).

(٤) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٧١) والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠.

(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠.

الفصل الخامس
الطَّواف على القبائل ، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

المبحث الأوَّل
الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة

بعد رجوعه ﷺ من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ، يشرح لهم الإسلام ، ويطلب منهم الإيواء ، والنُّصرة ، حتَّى يبلِّغ كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان رسول الله ﷺ يتحرَّك في المواسم التِّجارية ، ومواسم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم ، ومحدَّدة الأهداف ، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق ؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب ، وتاريخها ، وكانا يقصدان «غُرَر النَّاس ، ووجوه القبائل ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ، يسأل وجوه القبائل ، ويقول لهم : كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله ﷺ ، ويعرض دعوته»[١] .

يقول المقريزي : «ثمَّ عرض ﷺ نفسه على القبائل أيَّام المواسم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وهم بنو عامر ، وغسَّان ، وبنو فَزارة ، وبنو مرَّة ، وبنو حنيفة ، وبنو سليم ، وبنو عبس ، وبنو نصر ، وثعلبة بن عكابة ، وكندة وكلب ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو عذرة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً ، ويقال : إنَّه ﷺ بدأ بكندة ، فدعاهم إلى الإسلام ، ثمَّ أتى كلباً ، ثمَّ بني حنيفة ، ثمَّ بني عامر ، وجعل يقول : «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه ، فيمنعني ؛ حتَّى أبلغ رسالة ربِّي ؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس : لا تسمعوا منه ؛ فإنَّه كذاب» [أحمد (٣/ ٤٩٢ ، ٤٩٣) وابن هشام (٢/ ٦٤ ـ ٦٥)][٢] .

---

(١) انظر : الأنساب ، للسَّمعاني (١/ ٣٦) .
(٢) إمتاع الأسماع ، للمقريزي (١/ ٣٠ ، ٣١) .

وقد تعرَّض ﷺ للأذى العظيم ، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال : كان النَّبيُّ ﷺ يعرض نفسه بالموقف ، فيقول : «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي» [أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) وأحمد (٣/ ٣٩٠)] وظلَّ النَّبيُّ ﷺ في تردُّده على القبائل يدعوهم ، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ ، ويؤذونه ، ويقولون : قومه أعلم به ، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه(١) وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً ، وقبولاً ؛ مثل : الصابئ ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم : أنَّه رسول ، وغير ذلك ، ولا شكَّ : أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول ﷺ ، ويضاعف ألم التَّكذيب ، وعدم الاستجابة(٢) .

ولم يقتصر الأذى على ذلك ، بل واجه الرَّسول ﷺ ما هو أشدُّ ، وأقسى ، فقد روى البخاريُّ في تاريخه ، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك بن منيب أيضاً ، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ في الجاهليَّة ، وهو يقول : «يا أيها النَّاس! قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا» ، فمنهم من تفلَ في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التُّراب ، ومنهم من سبَّه ؛ حتَّى انتصف النَّهار ، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ ، فغسل وجهه ، ويديه ، وقال : «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً ، ولا ذلَّةً !» فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ . [البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٢/ ١٤) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٤٢) ومجمع الزوائد (٦/ ٢١)](٣) .

وقد كان أبو جهل ، وأبو لهب ـ لعنهما الله ـ يتناوبان على أذيَّة رسول الله ﷺ عندما يدعو في الأسواق ، والمواسم ، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم(٤) .

أولاً : من أساليب النَّبيِّ ﷺ في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ ، والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل :

١ ـ مقابلة القبائل في اللَّيل :

فكان ﷺ من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام اللَّيل ؛ حتَّى لا يحول بينه وبينهم

(١) انظر : الدُّرر ، لابن عبد البرِّ ، ص ٣٥ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ١٨٥) .
(٢) انظر : المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر : المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣ .

أحدٌ من المشركين[١] ، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدِّعاية المضادَّة؛ الَّتي كانت تتبعها قريشٌ ، كلَّما اتَّصل الرَّسول ﷺ بقبيلةٍ من القبائل ، والدَّليل على نجاح هذا الأسلوب المضادِّ ، اتِّصال الرَّسول ﷺ بالأوس ، والخزرج ليلاً ، وَمِنْ ثمَّ كانت العقبة الأولى ، والثَّانية ليلاً[٢] .

٢ ـ ذهاب الرَّسول ﷺ إلى القبائل في منازلهم :

فقد أتى كلباً ، وبني حنيفة ، وبني عامر في منازلهم[٣] ؛ وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش ، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطَّريقة المناسبة ، دونما تشويشٍ ، أو تشويهٍ من قريش .

٣ ـ اصطحاب الأعوان :

كان أبو بكر ، وعليٌّ رضي الله عنهما يرافقان الرَّسول ﷺ في بعض مفاوضاته ، مع بعض القبائل ، وربَّما كانت هذه الرُّفقة لأجل ألا يظنَّ المدعوُّون : أنَّه وحيدٌ ، ولا أعوان له من أشراف قومه، وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكرٍ رضي الله عنه بأنساب العرب[٤] ، الأمر الَّذي يساعد الرَّسول ﷺ في التَّعرُّف على معادن القبائل ، فيقع الاختيار على أفضلها ؛ لتحمل تَبِعَات الدَّعوة .

٤ ـ التأكُّد من حماية القبيلة :

ومن الجوانب الأمنيَّة المهمَّة ، سؤاله ﷺ عن المنعة ، والقوَّة لدى القبائل ، قبل أن يوجِّه إليهم الدَّعوة ، ويطلب منهم الحماية ، فقوَّة ، ومنعةُ القبيلة الَّتي تحمي الدَّعوة شيءٌ ضروريٌّ ، ومهمٌّ لابدَّ منه ؛ لأنَّ هذه القبيلة ستواجه كلَّ قوى الشَّرِّ ، والباطل ، فلابدَّ أن تكون أهلاً لهذا الدَّور ، من حيث الاستعداد المعنويِّ والمادِّيِّ ؛ الَّذي يرهب الأعداء ، ويحمي حمى الدَّعوة ، ويتحمَّل تبعات نشرها ، مزيلاً لكلِّ العقبات ؛ التي تقف في طريقها[٥] .

ثانياً : المفاوضات مع بني عامر :

اختار الرَّسول ﷺ أن يُجري مفاوضاتٍ مع بني عامرٍ ، وقامت تلك المفاوضات على

---

(١) تاريخ الإسلام ، للنَّجيب آبادي (١/ ١٢٩) ، نقلاً عن الرَّحيق المختوم .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/ ٤٤ ، ٥٢)، وفي السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١١٦ .
(٣) البداية والنِّهاية ، لابن كثير (٣/ ١٤٠) .
(٤) في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٦ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

دراسةٍ ، وتخطيطٍ ، فالرَّسول ﷺ ، وصاحبه أبو بكر ، كانا يعلمان: أنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةُ العدد ، وعزيزةُ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس الَّتي لم يمسَّها سِبَاءٌ[١] ، ولم تتبع لملكٍ ، ولم تؤدِّ إتاوة ، مثلها مثل قريش ، وخزاعة[٢] ، كما أنَّ الرَّسول ﷺ كان يعلم: أنَّ هنالك تضادّاً قديماً بين بني عامرٍ ، وثقيف ، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل ، فلماذا لا يحاول أيضاً تطويقها من الخارج ، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة ، فإذا استطاع النَّبيُّ ﷺ أن يبرم حلفاً مع بني عامر؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر[٣].

يذكر أصحاب السِّيرة: أنَّ الرَّسول ﷺ لمَّا أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعا إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، قال له رجلٌ منهم يقال له: بَيْحَرَة بن فِراس: والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ، ثمَّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثمَّ أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمرُ لله يضعه حيث يشاء ، فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك الله: كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه. [ابن هشام (٢/٦٦) وأبو نعيم في الدلائل (٢١٥) والطبري في تاريخه (٢/٣٥٠ ـ ٣٥١) وابن سعد مختصراً (١/٢١٦)].

ثالثاً: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: لمَّا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيَّه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب؛ خرج ، وأنا معه... إلى أن قال: ثمَّ دفعنا إلى مجلس آخر ، عليه السَّكينة ، والوقار ، فتقدَّم أبو بكر ، فسلَّم ، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، وقال: بأبي ، وأمي! هؤلاء غُرَر النَّاس ، وفيهم مفروقٌ قد غلبهم لساناً وجمالاً ، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيْه ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكرٍ ، فقال أبو بكر: كيف العَدَدُ فيكم؟ فقال مفروق: إنَّا لنزيد على الألف ، ولن تُغلب ألفٌ من قلَّة. فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروقٌ: إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسِّلاح على اللِّقاح ، والنَّصر من عند الله يديلنا مرَّةً ، ويديل علينا أخرى ، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم: أنَّه رسول الله ﷺ ، فها هو ذا. فقال مفروق: إلامَ تدعونا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنِّي عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤوُوني ، وتنصروني؛ فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على الله ، وكذَّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن

(١) لم يمسَّها سِبَاءٌ: لم تُسْبَ نساؤها في الحرب.
(٢) انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٨٢.
(٣) المصدر السابق نفسه.

الحقِّ ، والله هو الغنيُّ الحميد ، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال مفروق: دعوت والله! إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قومٌ كذَّبوك ، وظاهروا عليك ، ثمَّ ردَّ الأمر إلى هانئ بن قبيصة ، فقال: وهذا هانئ ، شيخنا ، وصاحب ديننا ، فقال هانئ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش! وإنِّي أرى تركنا ديننا ، واتِّباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أوَّل له ، ولا آخر لذلٌّ في الرَّأي ، وقلَّةُ نظرٍ في العاقبة؛ إنَّ الزَّلَّة مع العجلة ، وإنَّا نكره أن نعقِد على مَنْ وراءنا عقداً ، ولكن نرجع ، وترجع ، وننظر ، ثمَّ كأنَّه أحبَّ أن يشركه المثنَّى بن حارثة ، فقال: وهذا المثنَّى ، شيخنا ، وصاحب حربنا ، فقال المثنَّى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ، ومتابعتنا دينك ، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صريين؛ أحدهما: اليمامة ، والآخر: السَّمامة ، فقال له رسول الله ﷺ: ما هذان الصَّريان؟ قال: أنهار كسرى ، ومياه العرب ، فأمَّا ما كان من أنهار كسرى ، فذنبٌ صاحبه غير مغفورٍ ، وعذره غير مقبولٍ ، وإنَّا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ، ألا نحدث حدثاً ، ولا نُؤوي مُحدثاً ، وإنِّي أرى هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه يا أخا قريش! مما تكره الملوك ، فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم في الردِّ إذ أفصحتم بالصِّدق ، وإنَّ دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورِّثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، ويفرشكم نساءهم ، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟ فقال النُّعمان بن شريك: اللَّهمَّ فلك ذاك. [أبو نعيم في دلائل النبوة (٢١٤)][1].

رابعاً: فوائد ، ودروس ، وعبر:

كانت النُّصرة الَّتي طلبها النَّبيُّ ﷺ ذات صفةٍ مخصوصةٍ ، وذلك على النَّحو التالي:

١ ـ طلب الرَّسول ﷺ للنُّصرة من خارج مكَّة إنَّما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش ، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة ، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّك الفعَّال لأجلها ، وتوفير الاستجابة لها ، في جوٍّ من العنف ، والضَّغط ، والإرهاب.

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٣/١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥) ، وفيها زياداتٌ ليست عند الصَّالحي في سُبُل الرَّشاد (٢/٥٩٦ ، ٥٩٧).

٢ ـ كان عرض الرَّسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النُّصرة ، إنَّما هو بأمرٍ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له في ذلك ، وليس مجرَّد اجتهادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه ، اقتضته الظُّروف؛ الَّتي وصلت إليها الدَّعوة في مكَّة.

٣ ـ حصر رسول الله ﷺ طلب النُّصرة في زعماء القبائل ، وذوي الشَّرف ، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم ، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة ، وصاحبها.

٤ ـ يلاحظ في سيرة النَّبيِّ ﷺ ، بخصوص طلب النُّصرة: أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ ـ كان يطلبُ النُّصرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب ، بعيدةً عن الإساءة إليها ، وإلى أتباعها.

ب ـ كان يطلب النُّصرة ، من أجل أن يتسلَّم النَّبيُّ ﷺ مقاليد الحكم ، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة ، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمور.

٥ ـ رفض النَّبيُّ ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصرتها أيَّة ضماناتٍ ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم ، والسُّلطان على سبيل الثَّمن ، أو المكافأة لما يقدِّمونه من نُصرةٍ ، وتأييدٍ للدَّعوة الإسلاميَّة؛ وذلك لأنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة إنَّما هي دعوةٌ إلى الله ، فالشَّرط الأساسيُّ فيمن يؤمن بها ، ويستعدُّ لنصرتها أن يكون الإخلاص لله ، ونشدان رضاه هما الغاية الَّتي يسعى إليها من النُّصرة والتَّضحية ، وليس طمعاً في نفوذٍ ، أو رغبةٍ في سلطانٍ ، وذلك لأنَّ الغاية التي يضعها الإنسان للشَّيء هي الَّتي تكيِّف نشاط الإنسان في السَّعي إليه ، فلابدَّ ـ إذاً ـ أن تتجرَّد الغاية المستهدفة من وراء نُصرة الدَّعوة عن أيِّ مصلحةٍ مادِّيَّةٍ لضمان دوام التأييد لها ، وضمان المحافظة عليها من أيِّ انحرافٍ ، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدَّعم لها، وتقديم التَّضحيات في سبيلها[١] ، فيجب على كلِّ من يريد أن يلتزم بالجماعة؛ الَّتي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً ، أو عرضاً من أعراض الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الدَّعوة لله ، والأمر لله يضعه حيث يشاء ، والدَّاخل في أمر الدَّعوة إنَّما يريد ابتداءً وجه الله ، والعمل من أجل رفع رايته ، أمَّا إذا كان المنصب هو هَمَّه الشَّاغل؛ فهذه علامةٌ خطيرةٌ ، تنبئ عن دَخَنٍ في نيَّة صاحبها[٢] ، لذا قال يحيى بن معاذ الرَّازي: «لا يفلح مَنْ شَمَمْتَ منه رائحة الرِّياسة»[٣].

٦ ـ ومن صفة النُّصرة؛ الَّتي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل

(١) انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة ، لمحمَّد خير هيكل (١/ ٤١١).
(٢) انظر: وقفات تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، ص ٧٢.
(٣) انظر: صفة الصَّفوة (٤/ ٩٤).

النُّصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة ، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة ـ والحالة هذه ـ يُعرِّضها لخطر القضاء عليها ، مِنْ قِبَلِ الدُّول الَّتي بينهم وبينها تلك المعاهدات ، والَّتي تجد في الدَّعوة الإسلاميَّة خطراً عليها ، وتهديداً لمصالحها(١) .

إنَّ الحماية المشروطة ، أو الجزئية لا تحقِّق الهدف المقصود ، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه ، ولن يخوضوا حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد مهاجمة محمَّد رسول الله ﷺ ، وأتباعه ، وبذلك فشلت المباحثات(٢) .

٧ ـ «إنَّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» ، كان هذا الردُّ من النَّبيِّ ﷺ على المثنَّى بن حارثة حين عرض على النَّبيِّ ﷺ حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس ، فمن يسبر أغوار السِّياسة البعيدة؛ يَرَ بُعْدَ النَّظر الإسلاميِّ النَّبويِّ الَّذي لا يُسامى(٣) .

٨ ـ كان موقف بني شيبان يتَّسم بالأَرْيَحِيَّةِ ، والخلق ، والرُّجولة ، وينمُّ عن تعظيم هذا النَّبيِّ ﷺ ، وعن وضوح في العرض ، وتحديد مدى قدرة الحماية الَّتي يملكونها ، وقد بيَّنوا: أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرهه الملوك ، وقدَّر الله لشيبانَ بعد عشر سنين ، أو تزيد ، أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام ، وكان المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيُّ صاحب حربهم ، وبطلهم المغوار ، الَّذي قاد الفتوح في أرض العراق ، في خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه(٤) ، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس ، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ، ولا يفكِّرون في قتالهم؛ بل إنَّهم ردُّوا دعوة النَّبيِّ ﷺ بعد اقتناعهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس ، الأمر الَّذي لم يكونوا يفكِّرون فيه أبداً ، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الَّذي رفع الله به المسلمين في الدُّنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض ، مع ما ينتظرون في أخراهم من النَّعيم الدَّائم ، في جنَّات النَّعيم(٥) .

* * *

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة (١/ ٤١٢).
(٢) انظر: التحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٤ .
(٤) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٠).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٣/ ٦٩).

المبحث الثَّاني
مواكب الخير وطلائع النُّور

قال جابر بن عبد الله الأنصاريُّ :

«مكث رسول الله ﷺ بمكَّـة عشر سنين ، يَـتَّـبَّعُ النَّاس في منازلهم ، بعُكاظ ، ومجَنَّة ، وفي المواسم بمنى ، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتَّى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتَّى إنَّ الرجل ليخرج من اليمن، أو مُضَر، فيأتيه قومه ، فيقولون: احذر غلام قريش؛ لا يفتننَّك! ويمشي بين رجالهم؛ وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتَّى بعَثَنا اللهُ إليه من يثرب ، فآويناه ، وصدَّقناه ، فيخرج الرَّجل منا ، فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتَّى لم يبقَ دارٌ من دور الأنصار ، إلا وفيها رهطٌ من المسلمين، يُظهرون الإسلام» [أحمد (٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، ٣٣٩ ـ ٣٤٠)] .

أوَّلًا : الاتِّصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ ، والعمرة :

١ ـ إسلام سُوَيد بن الصَّامت :

كان رسولُ الله ﷺ ، لا يسمع بقادمٍ يقدم مكَّة من العرب ، له اسمٌ ، وشرفٌ ، إلا تصدَّى له ، ودعاه إلى الله ، وعرض عليه ما جاء به من الهدى ، والحقِّ ، فقدم سُوَيد بن الصَّامت ـ أخو بني عمرو بن عوف ـ مكَّة حاجّاً ، أو معتمراً ، وكان سُوَيد يسمِّيه قومُه فيهم الكامل ، لَجَلده ، وشِعْره ، وشرفه ، ونسبه ، فتصدَّى له رسولُ الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد: فلعلَّ الذي معك مثلُ الَّذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ : «وما الَّذي معك؟» قال: مجلَّة[١] لقمان ، فقال له رسول الله: «اعرضها عليَّ» فعرضها عليه ، فقال: «إنَّ هذا الكلام حسن ، والَّذي معي أفضل من هذا؟ قرآنٌ أنزله الله عليَّ ، وهو هدًى ونورٌ» ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُد منه ، وقال: إنَّ هذا القول حسنٌ ، ثمَّ انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقد كان

(١) المجلة: الصحيفة ، وتطلق على الحكمة ، أي: حكمة لقمان .

رجالٌ من قومه يقولون: إنَّا لنراه قُتل؛ وهو مسلمٌ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث. [ابن هشام (٢/ ٦٧ ـ ٦٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤١٨) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٢)].

وعلى أيَّة حالٍ، لا توجد دلائل على قيام سُوَيد بن الصامت بالدَّعوة إلى الإسلام وسط قومه(١).

٢ ـ إسلام إياس بن معاذ:

لمَّا قدم أبو الحَيْسَر بن رافع مكَّة، ومعه فتيانٌ من بني عبد الأشْهَل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج؛ سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير ممَّا جئتم له؟» قالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسولُ الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب»، ثمَّ ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ: هذا والله ِخيرٌ ممَّا جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من ترابٍ، وضرب بها وجهه، وقال: دعنا منك، فلَعَمرِي لقد جئنا لغير هذا! فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس، والخزرج، ثمَّ لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روى من حضره من قومه، أنَّه ما زال يهلِّل الله، ويكبِّره، ويحمده، ويسبحه حتَّى مات، فما كانوا يشكُّون: أنَّه مات مسلماً، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع. [ابن هشام (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) وأحمد (٥/ ٤٢٧) والطبراني في المعجم الكبير (٨٠٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) ومجمع الزوائد (٦/ ٣٦) والإصابة (١/ ١٠٢)].

ثانياً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفدٍ من الخزرج في موسم الحجِّ عند عقبة منى، قال لهم رسول الله ﷺ: من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: أَمِنْ موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. [ابن هشام (٢/ ٧٠ ـ ٧١)، وابن سعد (١/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٦٢)، ومجمع الزوائد (٦/ ٤٠ ـ ٤٢)].

فلمَّا كلَّم رسولُ الله ﷺ أولئك النَّفر، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله: أنَّه للنَّبيُّ الَّذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه، وقَبِلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٩٥).

ونعرض عليهم الَّـذي أجبناك إليه من هذا الدِّيـن ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعزُّ منك . ثمَّ انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا ، وصدَّقوا[(١)] ، وكانوا ستَّة نفرٍ ، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارةَ ، وعوف بن الحارث من بني النَّجار ، ورافع بـن مالك ، وقُطْبـة بـن عامرٍ ، وعُقْبـة بـن عامرٍ ، وجابر بـن عبد الله بـن رئاب[(٢)] . فلمَّا قدموا المدينـة إلى قومهم ؛ ذكروا لهـم رسولَ الله ﷺ ، ودعَوهـم إلى الإسـلام ، حتَّى فشا بينهم ، فلم تبـقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْـرٌ لرسول الله ﷺ[(٣)] .

فهذا أوَّل موكبٍ من مواكب الخير ، لم يكتفِ بالإيمان ؛ وإنَّما أخذ العهد على نفسه أن يدعوَ إليه قومه ، وقد وفَّى كلٌّ منهم لدينه ، ورسوله ، فإنَّهم حين رجعوا ؛ نشطوا في الدَّعوة إلى الله ، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم، وذويهم ، فلم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذكرٌ لمحمَّد ﷺ ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة ، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرَّسول ﷺ على غير موعـدٍ ، لكنَّه لقاء هيَّأه الله ؛ ليكون نبع الخير المتجِّدد الموصول ، ونقطة التَّحوُّل الحاسم في التَّاريخ ، وساعة الخلاص المحقَّق من عبادة الأحجار ؛ بل إنَّها على التَّحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كلِّه ، ونقل الحياة من الظُّلمات إلى النُّور ، أكان معقولاً في لحظةٍ يسيرةٍ أن يتحوَّل هؤلاء من وثنيِّين متعصِّبين ، إلى أنصارٍ للدَّعوة متفتِّحين ، وجنودٍ للحقِّ مخلصين ، ودعاةٍ إلى الله متجرِّدين ، يذهبون إلى أقوامهم ، وبين جوانحهم نورٌ وعلى وجوههم نورٌ ، وإنَّهم لعلى نورٍ؟! تلك مشيئة القدر العالي ، هيَّأت للدَّعوة مجالها الخصب ، وحماها الأمين ، والسَّنوات العِجاف الَّتي قضاها الرَّسول ﷺ نضالاً مستمرّاً ، وكفاحاً دائماً ، وتطوافاً على القبائل ، والتماساً للحليف ، قد ولَّت إلى غير رجعةٍ ؛ سيكون بعد اليوم للإسلام قوَّته الرَّادعة ، وجيشه الباسل ، وسيلتقي الحقُّ بالباطل ؛ ليصفِّي معه حساب الأيام الخوالي ، والعاقبة للمتقين ، وستتوالى على مكَّة منذ اليوم مواكب الخير ، وطلائع النُّور ، الَّتي هيَّأها الله للخير ؛ لتتصل بالهداية ، وتسبح في النُّور ، وتغترف من الخير ، وترجع إلى يثرب بما وَعَتْ من خير ، وبما حملت من نورٍ[(٤)] .

ومن الجدير بالتَّنبيه : أنَّ هذه المقابلة الَّتي حدثت عند العقبة ، وتلاقى فيها فريقٌ من الخزرج بالنَّبيِّ ﷺ ، وأسلموا على يديه ، لم تكن فيها بيعةٌ[(٥)] ؛ لأنَّها كانت من نفر صغيرٍ ، لم يروا

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ١٤٨ ، ١٤٩) .
(٢) انظر : شرح المواهب ، للزُّرقاني (١/ ٣٦١) .
(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ١٤٧) .
(٤) انظر : أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٥) انظر : هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته ، للجمل ، ص ١٤٣ .

لأنفسهم الحقَّ في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرُّجوع إلى قبائلهم في المدينة ، ولكنَّهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام(٢) .

ثالثاً : بيعة العقبة الأولى :

بعد عامٍ من المقابلة الأولى ؛ الَّتي تمَّت بين الرَّسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة ، وَافَى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه ﷺ بالعقبة ، وبايعوه العقبة الأولى ، عشرةٌ من الخزرج ، واثنان من الأوس ، ممَّا يشير إلى أنَّ نشاط وفد الخزرج الَّذين أسلموا في العام الماضي ، تركَّز على وسطهم القبلي بالدَّرجة الأولى ؛ لكنَّهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام(١) .

وقد تحدَّث عبادةُ بن الصَّامت الخزرجيُّ عن البيعة ، في العقبة الأولى ، فقال : «كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنيْ عَشَرَ رجلاً ، فبايعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب ، على ألاَّ نشرك بالله ، ولا نسرق ، ولا نزني ، لا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا ، وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفَّيتم فلكم الجنَّة ، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً ، فأمركم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إن شاء ؛ غفر ، وإن شاء ؛ عذَّب» [البخاري (١٨ و٩٢ و٣٨ و٣٩٩٩) ومسلم (١٧٠٩)] .

وبنود هذه البيعة ، هي الَّتي بايع الرَّسول ﷺ عليها النِّساء فيما بعد ، ولذلك عرفت باسم بيعة النِّساء(٢) ، وقد بعث الرَّسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير ، يعلِّمهم الدِّين ، ويقرئهم القرآن ، فكان يُسمَّى بالمدينة (المقرئ) ، وكان يؤمُّهم في الصَّلاة ، وقد اختاره رسول الله ﷺ عن علمٍ بشخصيَّته من جهةٍ ، وعلمٍ بالوضع القائم في المدينة من جهةٍ أخرى ، حيث كان بجانب حفظه لما نزل من القرآن يملك من اللَّباقة ، والهدوء ، وحسن الخُلُق ، والحكمة قدراً كبيراً ، فضلاً عن قوَّة إيمانه ، وشدَّة حماسه للدِّين ، ولذلك تمكَّن خلال أشهرٍ أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة ، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها ، كسعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وقد أسلم بإسلامهما خلقٌ كثير من قومهم(٣) .

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدِّين الجديد ، وتعليم القرآن الكريم ، وتفسيره ، وتقوية الرَّوابط الأخويَّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحيةٍ ، وبين النَّبيِّ ﷺ وصحبه بمكَّة المكرمة ، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدَّعوة .

---

(١) انظر : السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/ ١٩٧) .
(٢) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زُرارة رضي الله عنه(١) ، ونشط المسلمون في الدَّعوة إلى الله ، يقود تلك الحركة الدَّعوية الرَّائدة مصعب رضي الله عنه ، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته ، وهذا هو الذي تعلَّمه من أستاذه ﷺ ، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنيَّة المكِّيَّة بصورةٍ عمليَّةٍ حيَّةٍ ، مثل قوله تعالى : ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥] .

رابعاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضير ، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما :

كان سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل ، وكانا مشركَيْن على دين قومهما ، فلمَّا سَمِعَا بمصعب بن عمير ، ونشاطه في الدَّعوة إلى الإسلام ؛ قال سعد لأُسَيْدٍ: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرَّجلين ، اللَّذين أتيا دارينا ؛ لِيُسَفِّها ضعفاءنا ، فازجرهما ، وانههما أن يأتيا دارَينا ؛ فإنَّه لولا أسعد بن زُرارةَ منِّي حيث قد علمت ؛ كفيتُك ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدماً ، فأخذ أُسَيْد حربته ، ثمَّ أقبل عليهما ، فلمَّا رآه أسعد بن زرارة ؛ قال: هذا سيِّد قومه ، وقد جاءك ؛ فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلسْ أكلِّمْه ، فوقف عليهما مُتشتِّماً ، فقال : ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا ؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ ، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته : أو تجلسُ ، فتسمع ، فإن رضيت أمراً ؛ قبلته ، وإنْ كرهته ؛ نكفُّ عنك ما تكره؟

قال أُسَيْد : أنصفتَ ، ثمَّ ركَّز حربته ، وجلس إليهما ، فكلَّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا ـ فيما يُذكر عنهما ـ: والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله ، ثمَّ قال : ما أحسنَ هذا الكلامَ ، وأجْمَلَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له : تغتسل ، فتتطهَّر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلِّي ، فقام ، فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، وتشهَّد شهادة الحقِّ ، ثمَّ قام فركع ركعتين ، ثمَّ قال لهما : إنَّ ورائي رجلاً ، إن اتَّبعْكما ؛ لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه ، وسأرسله إليكم الآن : سعد بن معاذ .

ثمَّ أخذ حربته ، وانصرف إلى سعدٍ ، وقومه ؛ وهم جلوسٌ في ناديهم ، فلمَّا نظر إليه سعد مقبلاً ، قال : أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلمَّا وقف على النَّادي ؛ قال له سعدٌ : ما فعلتَ؟ قال : كلَّمتُ الرَّجلين ، فوالله! ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببتَ ، وقد حُدِّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة (١/ ٤٤١) .

زُرارةَ؛ ليقتلوه؛ وذلك أنَّهم عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ[١] .

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوُّفاً لِلَّذي ذكر لـه من أمر بني حارثـة ، وأخذ الحربة في يده ، ثمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً ، ثمَّ خرج إليهما سعد ، فوجدهما مطمئنَّيْن ، فعرف: أنَّ أسَيْداً إنَّما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتِّماً ، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتَ هذا منِّي ، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء ـ والله! ـ سيِّدُ مَنْ وراءَه مِنْ قومه ، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان ، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً ، ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت ، ثمَّ ركَّز الحربة ، وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ القرآن. وذكر موسى بن عقبة: أنَّه قرأ عليه أوَّل سورة الزُّخرف ، قالا: فعرفنا ـ والله! ـ في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله.

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالا: تغتسل ، فتتطَّهر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ ، ثمَّ ركع ركعتين ، ثمَّ أخذ حربته ، فأقبل عائداً إلى نادي قومه ، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر ، فلمَّا رآه قومه مقبلاً؛ قالوا: نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمُننا نقيبةً! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام؛ حتَّى تؤمنوا بالله ، ورسوله! قال: فوالله ، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ، ولا امرأة إلا مسلماً ، أو مسلمةً.

ورجع أسعد ، ومصعب إلى منزل أسعـد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛ حتَّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون ، ونساءٌ مسلماتٌ [قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩) وابن سعد (٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٦٢)] إلا ما كـان من الأُصَيْرِم ، وهو عمرو بـن ثابت بـن وقش؛ فإنَّـه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحدٍ ، فأسلم؛ واستُشهِـد بأحدٍ ، ولم يصلِّ لله سجدةً قـطُّ ، وأخبر رسول الله ﷺ : أنَّـه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصلِّ صلاةً قطُّ ، فإذا لم يعرفه النَّاس ، قال: هو أُصَيْرِم بني عبد الأشهل» [أحمد (٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٦٤)][٢] .

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٤٢).

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٤٤) ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩١.

خامساً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ اتَّجه التَّخطيط النَّبويُّ للتَّركيز على يثرب بالذَّات ، وكان للنَّفر السِّتَّة الذين أسلموا ، دورٌ كبيرٌ في بث الدَّعوة إلى الإسلام ، خلال ذلك العام.

٢ ـ كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة؛ منها:

(أ) ما طبع الله عليه قبائل الخزرج ، والأوس من الرِّقَّة ، واللِّين ، وعدم المغالاة في الكبرياء ، وجحود الحقِّ ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدَّمويَّة والسُّلاليَّة؛ الَّتي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وَفَد وَفْدٌ من اليمن ، بقوله: «أتاكم أهل اليمن ، هم أرقُّ أفئدةً ، وألين قلوباً» [البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢)] وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزَّمن القديم[١] ، فيقول القرآن الكريم مادحاً لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

(ب) التَّشاحن ، والتَّطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة ، الأوس والخزرج ، وقد قامت بينهما الحروب الطَّاحنة كيوم بُعاث ، وغيره ، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ، ممَّن كان نظراؤهم في مكَّة ، والطائف ، وغيرها ، حجر عثرة في سبيل الدَّعوة ، ولم يبقَ إلا القيادات الشَّابَّة الجديدة ، المستعدَّة لقبول الحقِّ؛ إضافةً إلى عدم وجود قيادةٍ بارزةٍ معروفةٍ ، يتواضع الجميع على التَّسليم لها ، وكانوا بحاجةٍ إلى من يأتلفون عليه ، ويلتئم شملهم تحت ظلِّه. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يومُ بُعاثَ أمراً قدَّمه الله تعالى لنبيِّه ﷺ ، فَقَدِمَ رسولُ الله ﷺ وقد افترق مَلَؤهم ، وقُتِلت سَرَوَاتهم[٢] وجُرِّحوا ، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام». [البخاري (٣٧٧٧ و٣٨٤٦ و٣٩٣٠) وأحمد (٦/ ٦١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٢١)].

(ج) مجاورتهم لليهود ، ممَّا جعلهم على علمٍ ـ ولو يسيرٍ ـ بأمر الرِّسالات السَّماويَّة ، وخبر المرسلين السَّابقين ، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضيَّة في حياتهم اليوميَّة ، وليسوا مثل قريشٍ؛ التي لا يساكنها أهل كتاب ، وإنَّما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرِّقةً عن الرِّسالات ، والوحي الإلهيِّ ، دون أن تلحَّ عليها هذه المسألةُ ، أو تشغل تفكيرها باستمرارٍ ، وكان اليهود يهدِّدون الأوس ، والخزرج بنبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، ويزعمون: أنَّهم سيتَّبعونه ، ويقتلونهم به قتل عادٍ ، وإرم! مع أنَّ الأوس ، والخزرج كانوا أكثر من اليهود[٣] ، وقد حكى الله

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ١٥٤.

(٢) السَّرَوات: الأشراف.

(٣) انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٣.

عنهم ذلك في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكان الأوس ، والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهليَّة ، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل كتاب ، فكانوا يقولون: إنَّ نبيّاً قد أظلَّ زمانه ، نقتلكم به قتلَ عادٍ وإرم(١).

فلمَّا أراد الله إتمام أمره بنصر دينه؛ قيَّض ستَّة نفرٍ من أهل المدينة للنَّبيِّ ﷺ ، فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام ، فاستبشروا ، وأسلموا ، وعرفوا: أنَّه النَّبيُّ الَّذي توعَّدَهم به اليهود ، ورجعوا إلى المدينة ، فأفشوا ذكر النَّبيِّ ﷺ في بيوتها(٢) ، وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسمِّيه أهل السِّير(٣).

٣ ـ حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس ، وهذا تطوُّر مهمٌّ لمصلحة الإسلام ، فبعد الحرب العنيفة في بُعَاث استطاع النَّفر السِّتَّة من الخزرج ، أن يتجاوزوا قصَّة الصِّراعات الدَّاخلية ، ويُحضروا معهم سبعةً جدداً ، فيهم اثنان من الأوس ، وهذا يعني أنَّهم وفوا بالتزاماتهم؛ الَّتي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصَّدع ، وتوجيه التَّيَّار لدخول الإسلام في المدينة؛ أوسها ، وخزرجها ، وتجاوز الصِّراعات القبليَّة القائمة.

٤ ـ كان التَّطُّور الجديد الَّذي أثمرته بيعة العقبة قد بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيّاً للرَّسول ﷺ إلى المدينة؛ يعلِّم النَّاس القرآن الكريم ، ومبادئ الإسلام ، واستطاع مصعب بحكمته ، وحصافته ، وذكائه السِّياسيِّ أن يحقِّق انتصاراتٍ كبيرةً للإسلام(٤).

٥ ـ استطاع سفير رسول الله ﷺ أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير ، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ، ثمَّ بصدق ذلك الدَّاعية وإخلاصه ، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله ﷺ ، فعلى ولاة الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب؛ الَّذي يستطيع أن يمثِّل بلاده ، ودينه قولاً وعملاً ، وخُلُقاً وسلوكاً ، فيرى النَّاسُ ، ويسمعون من خلاله.

٦ ـ استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيِّئ البيئة الصَّالحة ، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليّاً وسلوكيّاً ، والَّتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام(٥).

---

(١) الدُّر المنثور ، للسُّيوطي (١/٢١٦).
(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٤٤).
(٣) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٣٩ ، ٤٤).
(٤) انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١.
(٥) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٣٥٦.

٧ ـ بذل الرَّسول ﷺ كلَّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسلاميَّة في المدينة ، ولم يكن هناك أدنى تقصيرٍ للجهد البشريِّ الممكن في بناء القاعدة الصُّلبة ، الَّتي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة ، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة ، والتَّنظيم(١) .

٨ ـ نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار ، وشعرت الأنصار بأنَّه قد آن الأوان لقيام الدَّولة الجديدة ، وكما يقول جابرٌ رضي الله عنه ، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة : «حتَّى متى نترك رسولَ الله ﷺ يطوف ، ويُطرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف؟!»(٢) .

٩ ـ وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكَّة قبيل موسم الحجِّ ، من العام الثَّالث عشر للبعثة ، ونقل الصُّورة الكاملة الَّتي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك ، والقدرات ، والإمكانات المتاحة ، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس ، والخزرج ، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة ، قادرةٍ على حماية رسول الله ﷺ ، ومنعته(٢) .

١٠ ـ كان اللِّقاء الَّذي غيَّر مجرى التَّاريخ ، في موسم الحجِّ في السَّنة الثَّالثة عشرة من البعثة ؛ حيث حضر لأداء مناسك الحجِّ بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين ، من أهل يثرب ، فلمَّا قدموا مكَّة ؛ جرت بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ اتصالاتٌ سرِّيَّة ، أدَّت إلى اتِّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيَّام التَّشريق في الشِّعْب الَّذي عند العقبة ، حيث الجمرة الأولى من مِنًى ، وأن يتمَّ هذا الاجتماع في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ في ظلام اللَّيل(٣) .

* * *

---

(١) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٢ .

(٣) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٣٧ .

المبحث الثَّالث
بيعة العقبة الثَّانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « . . . فقلنا : حتَّى متى نترك رسول الله ﷺ ؛ يُطْرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتَّى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شِعْب العقبة ، فاجتمعنا عليه من رجلٍ ، ورجلين ؛ حتَّى توافينا فقلنا : يا رسول الله ! علام نُبايعك ؟

قال : «تبايعوني على السَّمع ، والطَّاعة في النَّشاط ، والكسل ، والنَّفقة في العسر ، واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله ، لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنَّة» .

قال : فقمنا إليه ، فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال : رويداً يا أهلَ يثرب ! فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم : أنَّه رسول الله ﷺ ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً ، وقتلُ خياركم ، وأن تعضَّكم السُّيوف ، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك ، وأجركم على الله ، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً ؛ فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله ! قالوا : أمط عنَّا يا أسعد ! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ! ولا نَسْلِبها (أي : نتركها) ! قال : فقمنا إليه ، فبايعناه ، فأخذ علينا ، وشَرَطَ ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[1] .

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطَّاعة ، والنُّصرة ، والحرب ؛ لذلك سمَّاها عبادة بن الصَّامت بيعة الحرب[2] ، أمَّا رواية الصَّحابي كعب بن مالك الأنصاريِّ ـ وهو أحد المبايعين في العقبة الثَّانية ـ ففيها تفصيلاتٌ مهمَّةٌ ، قال : «خرجنا في حجَّاج قومنا من المشركين ، وقد صلَّينا ، وفقهنا ، ثمَّ خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة ، من أوسط أيام التَّشريق ، وكنَّا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا ، فَنِمْنَا تلك اللَّيلة مع قومنا في رحالنا ، حتَّى إذا مضى ثلثُ اللَّيل ؛ خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسَّلل تسلُّلَ القَطَا

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ١٩٩) .
(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٦) بإسنادٍ صحيحٍ لغيره .

(الحمام) مستخفين، حتَّى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرٍو، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتَّى جاءنا، ومعه العبَّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثَّق له، فلمَّا جلس؛ كان أول متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب؛ فبيَّن أنَّ الرَّسول ﷺ في منعةٍ من قومه بني هاشم، ولكنَّه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكُّد من حماية الأنصار له، وإلا؛ فَلْيَدَعُوه، فطلب الأنصار أن يتكلَّم رسولُ الله ﷺ، فيأخذ لنفسه، ولربِّه ما يحبُّ من الشُّروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم» فأخذ البراء بن مَعْرور بيده، ثمَّ قال: نعم والَّذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[(١)]، فبايِعْنا يا رسولَ الله! فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحَلقة (السِّلاح)، ورثناها كابراً عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله! إنَّ بيننا وبين القوم حبالاً، وإنَّا قاطعوها (يعني: اليهود)، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتَدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثمَّ قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم، وأنتم منِّي، أحارب مَنْ حاربتم، وأسالم مَنْ سالمتم».

ثمَّ قال: «أخرِجُوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخْرَجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرَّسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشَّيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْلة: والله الَّذي بعثك بالحق! إن شئتَ؛ لنميلنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤْمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصَّباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش، يسألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ ﷺ، ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج، والأوس، بأنَّهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[(٢)]، قال: ثمَّ قام القوم؛ وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميُّ، وعليه نعلانِ جديدانِ، قال: فقلت له كلمةً ـ كأنِّي أريد أن أشرك بها القومَ فيما قالوا ـ يا أبا جابر! أما تستطيع أن تتَّخذ، وأنت سيِّدٌ من ساداتنا، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريشٍ؟ قال: فسمعهما الحارث، فخلعهما من رجليه، ثمَّ رمى بها إليَّ، وقال: والله لتَنْتَعِلَنَّهما، قال: يقول

---

(١) الأزُر: الثِّياب، والمقصود النِّساء أو الأنفس، والمعنى: لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه نساءنا، وأنفسنا.
(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٦١)، بإسنادٍ حسن، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمريِّ (١/ ٢٠١).

أبو جابر: مَهْ! أَحْفَظْتَ (أي: أغضبت) والله الفتى ، فارددْ إليه نعليه. قال: قلت: لا والله! لا أردُّهما ، فألٌ والله صالح! لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه. [أحمد (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢) والحاكم (٢/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٩)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها ، وبواعثها ، وآثارها ، وواقعها التَّاريخي ، (فتحَ الفتوح)؛ لأنَّها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلاميَّة ، الَّتي تتابعت حلقاتها في صورٍ متدرِّجة ، مشدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها ، بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهودٍ ومواثيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصار الله؛ الَّذين كانوا أعرف النَّاس بقدر مواثيقهم ، وعهودهم ، وكانوا أسمح النَّاس بالوفاء بما عاهدوا الله ، ورسوله ﷺ عليه؛ من التَّضحية ، مهما بلغت متطلبَّاتها من الأرواح ، والدِّماء ، والأموال ، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحقِّ ، ونصرته ، وهي في ملابساتها قوَّةٌ تناضل قوًى هائلةً تقف متألِّبةً عليها ، ولم يَغِبْ عن أنصار الله قدرها ، ووزنها ، في ميادين الحروب ، والقتال ، وهي في آثارها تشميرٌ ناهضٌ بكلِّ ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتاليِّ في سبيل إعلاء كلمة الله ، على كلِّ عالٍ مستكبرٍ في الأرض؛ حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله ، وهي في واقعها التَّاريخيِّ صدقٌ ، وعدلٌ ، ونصرٌ ، واستشهاد ، وتبليغٌ لرسالة الإسلام»(١) .

٢ ـ إنَّ حقيقة الإيمان ، وأثره في تربية النفوس ، تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ، ودماءها في سبيل الله ، ورسوله ﷺ ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً ، ولا منصباً ، ولا قيادةً ، ولا زعامةً ، وهم الَّذين أفنوا عشرات السِّنين من أعمارهم ، يتصارعون على الزَّعامة ، والقيادة ، إنَّه أثر الإيمان بالله ، وبحقيقة هذا الدِّين ، عندما يتغلغل في النُّفوس(٢) .

٣ ـ يظهر التَّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمَّت في ظروفٍ غايةٍ في الصُّعوبة ، وكانت تمثِّل تحدِّياً خطيراً ، وجريئاً لقوى الشِّرك في ذلك الوقت ، ولذلك كان التَّخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدِّقَّة على النَّحو التَّالي(٣) :

أ ـ سِرِّيَّة الحركة ، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتَّى لا ينكشفَ الأمر ، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيٍّ قوامه نحو خمسمئة ممَّا يجعل حركة

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٢/ ٤٠٠).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٠٣).
(٣) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٦١.

هؤلاء السَّبعين صعبةً ، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ ، وقد تحدَّد موعد اللِّقاء في ثاني أيام التَّشريق ، بعد ثلث اللَّيل ، حيث النَّوم قد ضرب أعين القوم ، وحيث قد هدأت الرِّجْل ، كما تمَّ تحديد المكان في الشِّعْب الأيمن ، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّوم لحاجةٍ(١) .

ب ـ الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين ، إلى موعد ، ومكان الاجتماع ، فقد خرجوا يتسلَّلون مستخفين ، رجلاً رجلاً ، أو رجلين رجلين .

ج ـ ضرب السِّرِّيَّة التَّامة على موعد ، ومكان الاجتماع ، بحيث لم يعلم به سوى العبَّاس بن عبد المطلب ، الَّذي جاء مع النَّبيِّ ﷺ ليتوثَّق له(٢) ، وعليُّ بن أبي طالبٍ ، الَّذي كان عيناً للمسلمين على فم الشِّعب ، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّريق ـ وهو الآخر ـ عيناً للمسلمين(٣) ، أمَّا مَنْ عداهم من المسلمين ، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً ، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّوت ، وألا يطيلوا في الكلام ؛ حذراً من وجود عينٍ تسمع صوتهم ، أو تجسُّ حركتهم(٤) .

د ـ متابعة الإخفاء والسِّرِّيَّة حين كشف الشَّيطان أمر البيعة ، فأمرهم النَّبيُّ ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم ، ولا يحدثوا شيئاً ؛ رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلَّحة ؛ التي لم تتهيَّأ لها الظُّروف بعد ، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر ؛ موَّه المسلمون عليهم بالسُّكوت ، أو المشاركة بالكلام الَّذي يشغل عن الموضوع(٥) .

هـ ـ اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ ، وهي الليلة الثالثة عَشْرة من ذي الحجَّة ؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي ، وهو يوم الثالث عشر ، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم ، أو تعويقهم ؛ إذا انكشف أمر البيعة ، وهو أمرٌ متوقَّع ، وهذا ما حدث(٦) .

٤ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح ، والقوَّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي ، إنَّه السَّمع ، والطَّاعة في النَّشاط والكسل ، والنَّفقة في اليسر ، والعسر ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم ، ونصرٌ لرسول الله ﷺ وحمايته ؛ إذا قدم المدينة(٧) .

---

(١) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٦١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٢ .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٠٩) .
(٤) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٦٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥ .
(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧ .
(٧) انظر : التَّحالف السِّياسي ، ص ٨٢ .

٥ ـ سرعان ما استجاب قائد الأنصار ـ دون تردُّدٍ ـ البراء بن مَعْرور ، قائلاً : والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابرٍ ، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله ﷺ ، فقومه أبناء الحرب ، والسِّلاح(٥) . وممَّا يجدر الإشارة إليه في أمر البراء : أنَّه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم : إني قد رأيت رأياً ، فوالله ما أدري : أتوافقونني عليه ، أم لا؟

فقالوا : وما ذاك؟ قال : قد رأيت ألاَّ أدع هذه البَنيَّة ـ يعني : الكعبة ـ منِّي بِظَهْر ، وأن أصلِّي إليها ، فقالوا له : والله ما بلغنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ يصلِّي إلاَّ إلى الشَّام ـ ببيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه ، فكانوا إذا حضرت الصَّلاة صلُّوا إلى بيت المقدس ، وصلَّى هو إلى الكعبة ، واستمرُّوا كذلك ؛ حتى قدموا مكَّة ، وتعرَّفوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ مع عمِّه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام ، فسأل النَّبيُّ ﷺ العباسَ رضي الله عنه : «هل تعرف هذين الرَّجلين يا أبا الفضل؟» قال : نعم ، هذا البراء بن مَعْرور سيِّد قومه ، وهذا كعب بن مالكٍ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «الشَّاعر؟» قال : نعم . فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة . قال : فماذا ترى يا رسول الله؟! قال : «قد كنت على قِبْلةٍ لو صبرتَ عليها»(١) قال كعب : فرجع البراء إلى قِبْلةِ رسول الله ﷺ ، وصلَّى معنا إلى الشَّام ، فلمَّا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجِّهوه قبَلَ الكعبة ، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهرٍ ، وأوصى بثلث ماله إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقبله ، وردَّه على ولده ، وهو أوَّل من أوصى بثلث ماله(٢) .

ويستوقفنا في هذا الخبر :

أ ـ الانضباط ، والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم ﷺ ، وأوامره ، وإنَّ أيَّ اقتراحٍ مهما كان مصدره ، يتعارض مع ذلك يُعَدُّ مرفوضاً ، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله ، تأخذ حيِّزها في حياتهم ، وهم ـ بعد ـ ما زالوا في بداية الطَّريق .

ب ـ إنَّ السِّيادة لم تعد لأحدٍ غير رسول الله ﷺ ، وإنَّ توقير أيِّ إنسانٍ ، واحترامه إنَّما هو انعكاسٌ لسلوكه ، والتزامه بأوامر الرَّسول ﷺ ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهليَّةٌ ؛ لتحلَّ محلَّها قيمٌ إيمانيَّة ، فهي المقاييس الحقَّة ؛ الَّتي بها يمكن الحكم على النَّاس تصنيفاً وترتيباً(٣) .

٦ ـ كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحاً عندما قال للرَّسول ﷺ : إنَّ بيننا وبين الرِّجال حبالاً ، وإنَّا قاطعوها ـ يعني : اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ؛ أن ترجع

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٤٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٤٥) .

(٣) انظر : معين السِّيرة النَّبويَّة ، للشَّامي ، ص ١٣٥ .

إلى قومك، وتدعنا؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهدمُ الهدمُ، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

وهذا الاعتراض يدلُّنا على الحرِّيَّة العالية؛ الَّتي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبَّر عمَّا في نفسه بكامل حرِّيَّته[١]، وكان جواب سيِّد الخلق ﷺ عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار، والأنصار جزءاً منه[٢].

٧ ـ يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمَّةٌ؛ منها:

أ ـ أنَّ الرَّسول ﷺ لم يعيِّن النُّقباء؛ إنَّما ترك طريق اختيارهم إلى الَّذين بايعوا، فإنَّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمرٌ شوريٌّ، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشُّورى عمليّاً من خلال اختيار نقبائهم.

ب ـ التَّمثيل النِّسبي في الاختيار، فمن المعلوم أنَّ الذين حضروا البيعة من الخزرج، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج[٣].

ج ـ جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدَّعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقَّفوه، ومعتنقوه، فأراد الرَّسول ﷺ أن يشعرهم أنَّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم، وأنَّهم غدوا أهل الإسلام، وحماته، وأنصاره[٤].

٨ ـ تأكَّد زعماء مكَّة من حقيقة الصَّفقة، الَّتي تمَّت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذَاخر[٥]، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، فأمَّا المنذر، فأعجز القومَ، وأمَّا سعدٌ، فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع[٦] رَحْله، ثمَّ أقبلوا به حتَّى أدخلوه مكَّة، يضربونه، ويجذبونه بجُمَّته[٧] ـ وكان ذا شعرٍ كثيرٍ ـ[٨]، واستطاع أن يتخلَّص من قريش، بواسطة الحارث بن حرب بن أميَّة، وجبير بن مُطْعِم؛ لأنَّه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهليَّة، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ (٣/ ٩٧).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٦٧).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٢٠٩.
(٤) انظر: دراسات في السِّيرة النَّبوية، د. عماد الدين خليل، ص ١٣٢.
(٥) أذاخر: مكان قريب من مكَّة.
(٦) النِّسْع: الشِّراك الَّذي يشدُّ به الرَّحل.
(٧) الجمَّة: مجتمع شعر الرأس.
(٨) انظر: التاريخ الإسلاميّ، للحميديِّ (٣/ ١٠٧).

غضاضةً من ذلك، فهو يعرف: أنَّ المسلمين مطاردون في مكَّة، وعاجزون عن حماية أنفسهم[(١)]، وقد قيل في هذه الحادثة أوَّل شعرٍ في الهجرة، بيتان قالهما ضرار بن الخطَّاب بن مرداس؛ حيث قال:

تَدارَكْتُ سَعْداً عَنْوةً فأَخَذْتُهُ ... وكانَ شِفاءً لَو تَدارَكْتُ مُنْذِرا
ولو نِلْتهُ طُلَّتْ[(٢)] هُنَاكَ جِراحُهُ ... وكانَ حَرِيًّا أَنْ يُهَانَ ويُهْدَرا

وكان حسَّان بن ثابت بالمرصاد، وردَّ عليه بأبيات من الشِّعر، تناقلتها الرُّكبان:

وَلَسْتُ إِلَى سَعْدٍ ولاَ المَرْءُ مِنْذِرٌ ... إِذَا مَا مَطَايَا القَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا[(٣)]
فَلاَ تَكُ كَالوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ ... بِقَرْيَةِ كِسْرَىٰ أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرَا
فإنَّا وَمَنْ يَهْدِي القَصَائِدَ نَحْوَنَا ... كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إِلَى أَرْضِ خَيْبَرا[(٤)]

٩ ـ في قول العبَّاس بن عبادة بن نضلة: «والله الذي بعثك بالحق! إن شئت لَنميلنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا»، وقول رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه] درسٌ تربويٌّ بليغٌ، وهو: أنَّ الدِّفاع عن الإسلام، والتَّعامل مع أعداء هذا الدِّين، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه؛ وإنَّما هو خضوعٌ لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شُرع الجهاد؛ فإنَّ أمر الإقدام، أو الإحجام متروكٌ لنظر المجتهدين، بعد التَّشاور، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[(٥)]، وكلَّما كانت عبقريَّة التَّخطيط السِّياسيِّ أقوى؛ أدَّت إلى نجاح المهمَّات أكثر، وإخفاء المخطَّطات، وتنفيذها عن العدوِّ، هو الكفيل ـ بإذن الله ـ بنجاحها: «ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه][(٦)].

١٠ ـ كانت البيعة بالنِّسبة للرِّجال ببسط رسول الله ﷺ يده، وقولهم له: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، وأمَّا بيعة المرأتين اللَّتين شهدتا الوقعة، فكانت قولاً؛ ما صافح رسول الله ﷺ امرأةً أجنبيةً قطُّ، فلم يتخلَّف أحدٌ عن بيعته ﷺ، حتَّى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأمَّا نُسَيبة بنت كعب (أمُّ عمارة)، فقد سقطت في أُحدٍ، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً، وقد خرجت يوم أحدٍ مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاءٌ تسقي به المسلمين، فلمَّا انهزم المسلمون؛ انحازت إلى رسول الله ﷺ، فكانت تباشر القتال، وتذبُّ

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١١٦).
(٢) أي: أهدرت.
(٣) ضُمَّرا: جمع ضامر، والضامر من الخيل والإبل: هو الخفيف اللَّحم من التَّدريب.
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥).
(٥) انظر: التاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ (٣/ ١٠٤).
(٦) انظر: التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام، ص ٩٦.

عنه بالسَّيف ، وقد أصيبت بجراحٍ عميقةٍ ، وشهدت بيعة الرِّضوان[١] ، وقطَّع مسيلمة الكذَّاب ابنها إرباً إرباً ، فما وهنت ، وما استكانت[٢] ، وشهدت معركة اليمامة ، في حروب الرِّدة مع خالد بن الوليد ، فقاتلت حتَّى قطعت يدُها ، وجُرحت اثني عَشَرَ جُرحاً[٣] ، وأمَّا أسماء بنت عمرو من بني سلمة ، قيل : هي والدة معاذ بن جبل ، وقيل : ابنة عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[٤] .

١١ ـ عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السِّير والتَّراجم ، نجد : أنَّ هؤلاء الثلاثة والسَّبعين ، قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النَّبيِّ ﷺ وبعده ، ونلاحظ : أنَّه قد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ قرابة النِّصف ، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرَّسول ﷺ في جميع غزواته ، وأمَّا الَّذين حضروا غزوة بدر ، فكانوا قرابة السَّبعين .

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ، ورسوله ﷺ ؛ فمنهم من قضى نحبه ، ولقي ربَّه شهيداً ، ومنهم من بقي حتَّى ساهم في قيادة الدَّولة المسلمة ، وشارك في أحداثها الجِسَام ، بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام ، النَّماذج الَّتي تعطي ، ولا تأخذ ، والَّتي تقدِّم كلَّ شيءٍ ، ولا تطلب شيئاً إلا الجنَّة ، ويتصاغر التَّاريخ في جميع عصوره ، ودهوره ، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرِّجال والنِّساء[٥] .

* * *

---

(١) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ ، دكتورة عصمة الدِّين ، ص ١٠٨ .

(٢) انظر : التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٨٧ .

(٣) ابن هشام (٢/ ٨٠) ، وأسد الغابة (٥/ ٣٩٥) ، والبداية والنِّهاية (٣/ ١٥٨ ـ ١٦٦) ، والإصابة (٨/ رقم ٤٨ ، ٤٩) ، نقلاً عن المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨ .

(٤) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨ .

(٥) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٤٠) .

المبحث الرَّابع
الهجرة إلى المدينة

أولاً: التَّمهيد ، والإعداد لها:

إنَّ الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيدٌ ، وإعدادٌ ، وتخطيط من النَّبيِّ ﷺ ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى ، وتدبيره ، وكان هذا الإعداد في اتِّجاهين: إعداد في شخصية المهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجَرِ إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهةً ، أو رحلةً يروِّح فيها الإنسان عن نفسه؛ ولكنَّها مغادرةُ الأرض ، والأهل ، ووشائج القربى ، وصلات الصَّداقة والمودَّة ، وأسباب الرِّزق ، والتَّخلِّي عن كلِّ ذلك من أجل العقيدة ، ولهذا احتاجت إلى جهدٍ كبيرٍ ، حتَّى وصل المهاجرون إلى قناعةٍ كاملةٍ بهذه الهجرة ، ومن تلك الوسائل:

ـ التَّربية الإيمانيَّة العميقة الَّتي تحدَّثنا عنها في الصَّفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الَّذي أصاب المؤمنين ، حتَّى وصلوا إلى قناعةٍ كاملةٍ بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

ـ تناول القرآن المكِّيِّ التَّنويه بالهجرة ، ولفت النَّظر إلى أنَّ أرض الله واسعةٌ. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

ثمَّ تلا ذلك نزولُ سورة الكهف ، والَّتي تحدَّثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم ، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف ، وهكذا استقرَّت صورةٌ من صور الإيمان في نفوس الصَّحابة ، وهي ترك الأهل ، والوطن من أجل العقيدة.

ثم تلا ذلك آياتٌ صريحةٌ تتحدَّث عن الهجرة في سورة النَّحل ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

وفي أواخر السُّورة يؤكِّد المعنى مرَّةً أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عملياً على ترك الأهل، والوطن[١].

٢ ـ الإعداد في يثرب:

نلاحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ، لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى؛ وإنَّما أخَّر ذلك لأكثر من عامين؛ حتَّى تأكَّد من وجود القاعدة الواسعة نسبيّاً، كما كان في الوقت نفسه يتمُّ إعدادها في أجواء القرآن الكريم، وخاصَّةً بعد انتقال مصعب رضي الله عنه إلى المدينة.

وقد تأكَّد: أنَّ الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرَّسول الكريم ﷺ إليهم، كما كانت المناقشات الَّتي جرت في بيعة العقبة الثَّانية، تؤكِّد الحرص الشَّديد من الأنصار على تأكيد البيعة، والاستيثاق للنَّبي ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل مِنًى ممَّن آذى رسول الله ﷺ بأسيافهم؛ لو أذن الرَّسول الكريم بذلك، ولكنَّه قال لهم: «لم نؤمر بذلك».

وهكذا تمَّ الإعداد لأهل يثرب؛ ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين، وما يترتَّب على ذلك من تَبِعَات[٢].

ثانياً: تأمُّلاتٍ في بعض آيات سورة العنكبوت:

تعتبر سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في المرحلة المكِّيَّة، وتحدَّثت السُّورة عن سنَّة الله في الدَّعوات، وهي سنَّةُ الابتلاء، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٤].

وفي سورة العنكبوت ثلاثةُ أمورٍ تلفت النَّظر، وهي:

١ ـ ذِكْرُ كلمة المنافقين، ومن المعلوم: أنَّ النِّفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين؛ حيث يخشى بعضُ النَّاس على مصالحهم، فيظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، ومن المعلوم: أنَّ المجتمع في مكَّةَ كان جاهليّاً، وكانت القوَّة والغلبة لأهل الشِّرك، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السُّورة، في قوله تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، وهي سورةٌ مكِّيَّةٌ كما قلنا: فهل كانت الآمال قد قويت عند الفئة

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ، لصَالح الشامي، ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠، ١٢١.

المؤمنة بحيث تراءىٰ لهم الفرج، والنَّصر قاب قوسين أو أدنى؟ أم أنَّ هذه الآية مدنيَّةٌ وضعت في سورةٍ مكِّيَّةٍ؛ لأنَّ النِّفاق لم يحِنْ وقتُه بعدُ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين؟[(١)].

٢ ـ ورد الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن، وكأنَّه تهيئةٌ للنُّفوس للمرحلة القادمة؛ الَّتي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب فيها احتكاكٌ، فلا يكونون البادئين بالشدَّة، فيأتي التَّنبيه على هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦ ـ ٤٧].

٣ ـ تهيئة النُّفوس للهجرة في أرض الله الواسعة، وربما كانت المدينة قد بدأت تستقبل المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى، ومهما كان الأمر، وأنَّى كان وقت نزول سورة العنكبوت؛ فإنَّ الإشارة واضحةٌ، والحثَّ على الهجرة ـ أيضاً ـ واضحٌ ببيان تكفُّل الله الرِّزق للعباد؛ في أيِّ أرضٍ، وفي أيِّ زمانٍ[(٢)]. قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

هذه الآية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الَّذين كانوا بمكَّة على الهجرة؛ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصوابٍ؛ بل الصَّواب أن يُتلمَّس عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها، فهاجروا إلى المدينة؛ فإنَّها واسعةٌ لإظهار التَّوحيد بها[(٣)]، ثمَّ أخبرهم تعالى: أنَّ الرِّزق لا يختصُّ ببقعةٍ معيَّنةٍ؛ بل رزقه تعالى عامٌّ لخلقه حيث كانوا، وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر، وأوسع، وأطيب، فإنَّهم بعد قليل صاروا حكَّام البلاد في سائر الأقطار، والأمصار[(٤)]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

كما ذكَّرهم تعالى: أنَّ كلَّ نفسٍ واجدةٌ مرارة الموت، فقال جلَّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

أي: واجدةٌ مرارته، وكربه، كما يجد الذَّائق طعم المذوق، ومعناه: إنَّكم ميِّتون،

---

(١) انظر في ذلك: صنيع محمَّد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز للآية بـ (م) وهو رمز الآيات المدنية، وما ذكره القرطبيُّ من خلاف العلماء في الآية (١٣/ ٣٢٣).

(٢) انظر: معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود، د. مصطفى مسلم، ص ٦٢، ٦٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٥٠٧٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠).

فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته؛ لم يكن له بُـدٌّ من التزوُّد لها، والاستعداد بجهده[١]، وهذا تشجيعٌ للنَّفس على الهجرة؛ لأنَّ النَّفس إذا تيقَّنت بالموت؛ سهُلَ عليها مفارقةُ وطنها[٢].

قال ابن كثير في الآية: أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وحيث أمركم الله؛ فهو خيرٌ لكم، فإنَّ الموت لابدَّ منه، ولا محيد عنه، ثمَّ إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له؛ جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتمَّ الثَّواب[٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]، أي: صبروا على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابزوا الأعداء، وفارقوا الأهل، والأقرباء؛ ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده، وتصديق موعوده، ولم يتوكَّلوا في جميع ذلك إلا على الله[٤].

ثالثاً: طلائع المهاجرين:

لمَّا بايعتْ طلائعُ الخير، ومواكبُ النُّور من أهل يثرب النَّبيَّ ﷺ على الإسلام، والدِّفاع عنه؛ ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاءً للمسلمين، فأذن النَّبيُّ ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة، إقامة الدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي تحمل الدَّعوة، وتجاهد في سبيلها؛ حتَّى لا تكون فتنةٌ، ويكون الدِّين كلُّه لله[٥]، وكان التَّوجيه إلى المدينة من الله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمَّا صدر السَّبعون من عند رسول الله ﷺ؛ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعةً، وقوماً أهل حربٍ، وعدَّةٍ، ونجدةٍ، وجعل البلاء يشتدَّ على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من الخروج، فضيَّقوا على أصحابه، وتعبَّثوا[٦] بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتم، والأذى، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله ﷺ واستأذنـوه في الهجرة، فقال: «قـد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخةً ذات نخلٍ بين لابتين ـ وهما الحرَّتان ـ ولو كانت السَّراة أرض نخلٍ، وسباخٍ؛ لقلت: هي، هي» [البخاري (٢٢٩٧) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٥٩)].

ثمَّ مكث أياماً، ثمَّ خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي

---

(١) انظر: الكشاف للزَّمخشري (٣/ ٣١٠)، وتفسير أبي السعود (٧/ ٤٥)، وتفسير فتح القدير (٤/ ٢١٠).
(٢) انظر: الأساس في التفسير، لسعيد حوَّى (٨/ ٤٢٢٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٩).
(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٢٥.
(٥) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ٣٣، ٣٤.
(٦) عَبثَ عبثاً: لعب، فهو عابثٌ لاعبٌ لما لا يعنيه، انظر: لسان العرب (٢/ ١٦٦).

يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل القوم يتَّجهون ، ويتوافقون ، ويتواسون ، ويخرجون ، ويخفون ذلك ، فكان أوَّلَ من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثمَّ قدم بعده عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة ، فهي أوَّل ظعينةٍ قدمت المدينة ، ثمَّ قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فآووهم ، ونصروهم ، وآسوهم ، وكان سالم مولى أبي حُذيفة ، يؤمُّ المهاجرين بقباء ، قبل أن يقدم النَّبيُّ ﷺ ، فلمَّا خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة ، كَلِبَتْ[1] قريشٌ عليهم ، وحربوا ، واغتاظوا على مَنْ خرج من فتيانهم ، وكان نفرٌ من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في البيعة الآخرة ، ثمَّ رجعوا إلى المدينة ، فلمَّا قدم أوَّل مَنْ هاجر إلى قُباء؛ خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكَّة ، حتَّى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون أنصاريُّون ، وهم: ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد ، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبقَ بمكَّة فيهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، أو مفتونٌ ، أو مريضٌ ، أو ضعيفٌ عن الخروج . [ابن سعد (١/ ٣٢٥)] .

رابعاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة ، واتَّبعت في ذلك عدَّة أساليب؛ منها:

١ ـ أسلوب التَّفريق بين الرَّجل ، وزوجه ، وولده:

ونترك أمَّ المؤمنين أمَّ سلمة ، هند بنت أبي أميَّة تحدِّثنا عن روائع الإيمان ، وقوَّة اليقين في هجرتها ، وهجرة زوجها أبي سلمة . قالت رضي الله عنها: «لما أَجْمَعَ أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة ، رَحَل لي بعيرَهُ ، ثمَّ حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثمَّ خرج بي يقود بعيرَه ، فلمَّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ قاموا إليه ، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه .

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا: لا والله ، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا .

قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم ، حتَّى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة .

---

(١) كلبت قريش عليهم: أي: غضبت عليهم .

قالت : ففُرِّق بيني ، وبين زوجي ، وبين ابني .

قالت : فكنت أخرج كلَّ غداةٍ ، فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتَّى أُمسي ، سنةً ، أو قريباً منها ؛ حتَّى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي ـ أحدُ بني المغيرة ـ فرأى ما بي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تُخرْجون هذه المسكينة ؛ فرَّقتم بينها وبين زوجها ، وبين ولدها؟ !

قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئتِ .

قالت : وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني .

قالت : فارتحلتُ بعيري ، ثمَّ أخذت ابني ، فوضعته في حِجري ، ثمَّ خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحدٌ من خَلْق الله .

قالت : فقلت : أتبلَّغ بمن لقيت حتَّى أقدم على زوجي ، حتَّى إذا كنت بالتَّنْعيم ، لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدَّار .

فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أميَّة؟ !

قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة .

قال : أو ما معك أحد؟

قالت : فقلت : لا والله! إلا الله ، وبُنَيَّ هذا .

قال : والله ما لكِ من مَتْرك .

فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يَهْوِي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أرى أنَّه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل ؛ أناخ بي ، ثمَّ استأخر عنِّي ، حتَّى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فحطَّ عنه ، ثمَّ قيَّده في الشَّجرة ، ثمَّ تنحَّى عنِّي إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّواح ؛ قام إلى بعيري ، فقدَّمه ، فرحَّله ، ثمَّ استأخر عنِّي ، وقال : اركبي ، فإذا ركبتُ ، واستويت على بعيري ؛ أتى فأخذ بخطامه ، فقاده حتَّى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدَمني المدينة فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء ، قال : زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادْخُليها على بركة الله ، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة .

قال : فكانت تقول : والله! ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة» . [ابن هشام (٢/ ١١٢ ـ ١١٣)][(١)] .

فهذا مثل على الطُّرق القاسية ، الَّتي سلكتها قريشٌ ؛ لتحول بين أبي سلمة والهجرة ، فرجلٌ

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصحيحة (١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

يفرَّق بينه وبين زوجه عَنْوَةً ، وبينه وبين فلذة كبده على مرأىً منه ، كلُّ ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة ، ولكنْ متى تمكَّن الإيمان من القلب؛ استحال أن يقدِّم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئاً ، حتَّى لو كان ذلك الشَّيء ، فلذة كبده ، أو شريكة حياته ، لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة ، لا يلوي على أحدٍ ، وفشل معه هذا الأسلوب ، وللدُّعاة إلى الله فيه أسوةٌ(١) .

وهكذا أثَرُ الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب ، فهذه أسرةٌ فُرِّق شملُها ، وامرأةٌ تبكي شدَّة مصابها ، وطفلٌ خُلعت يده ، وحُرِم من أبويه ، وزوج ، وأبٌ يسجِّل أروع صور التَّضحية ، والتَّجرد؛ ليكون أوَّل مهاجرٍ يصل أرض الهجرة ، محتسبين في سبيل الله ما يلقون ، مصمِّمين على المضيِّ في طريق الإيمان ، والانحياز إلى كتيبة الهدى ، فماذا عسى أن ينال الكفر ، وصناديده من أمثال هؤلاء؟!

وأمَّا صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، فقد كان يومئذ كافراً «وأسلم قبل الفتح» ، ومع ذلك تشهَدُ له أمُّ سلمة رضي الله عنها بكرم الصُّحْبَةِ ، وذلك شاهد صدقٍ على نفاسة هذا المعدن ، وكمال مروءته ، وحمايته للضَّعيف(٢) ، فقد أبت عليه مروءته ، وخلقه العربيُّ الأصيل ، أن يَدَع امرأةً شريفةً ، تسير وحدها في هذهِ الصَّحراء الموحشة ، وإن كانت على غير دينه ، وهو يعلم أنَّها بهجرتها تراغمه ، وأمثاله من كفَّار قريش .

فأين من هذه الأخلاق ـ يا قومي المسلمين! ـ أخلاق الحضارة في القرن العشرين؛ من سطوٍ على الحرِّيات ، واغتصابٍ للأعراض؛ بل وعلى قارعة الطَّريق ، وما تطالعنا به الصَّحافة كلَّ يومٍ من أحداثٍ يندى لها جبين الإنسانيَّة؛ مِن تَفَنُّنٍ في وسائل الاغتصاب ، وانتهاك الأعراض ، والسَّطو على الأموال! .

إنَّ هذه القصة ـ ولها مُثُلٌ ونظائر ـ لتشهدُ أنَّ ما كان للعرب من رصيدٍ من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ، ورذائلهم ، فَمِنْ ثمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ، وكانوا أهلاً لحمل الرِّسالة ، وتبليغها للنَّاس كافَّةً(٣) .

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه ، وتسخيره لهم ، فهو ـ جلَّ وعلا ـ الَّذي سخَّر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأمِّ سلمة ، ولذلك بذل الجهد ، والوقت من أجلها(٤) ، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة؛ الَّتي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعلَّ إضاءة قلبه بدأت

---

(١) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة ، د. إبراهيم علي محمَّد ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، تقسيم الأساليب أخذ من هذا الكتاب ، وأخذت مشاهد العظمة من كتاب (الهجرة النَّبويَّة المباركة) .
(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسنة ، د. محمَّد أبو شهبة (١/ ٤٦١) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/ ١٢٨) .

منذ تلك الرِّحلة في مصاحبته لأمِّ سلمة رضي الله عنها[١] .

٢ ـ أسلوب الاختطاف :

لم تكتفِ قيادة قريش بالمسلمين داخل مكَّة بمنعهم من الهجرة ، بل تعدَّت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجراً ، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين ، ولقد نجحت هذه المحاولة ، وتمَّ اختطاف أحد المهاجرين من المدينة ، وأعيد إلى مكَّة[٢] ، وهذه الصُّورة التَّاريخيَّة للاختطاف يحدِّثنا بها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث قال : اتَّعدتُّ لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهمي التَّناضِبَ[٣] من أضَاة[٤] بني غفارٍ ، فوق سَرِف[٥] ، وقلنا : أيُّنا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس ، فليمضِ صاحباه .

قال : فأصبحت أنا ، وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضِب ، وحُبِس عنَّا هشام ، وفُتن ، فافتتن[٦] .

فلمَّا قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عيَّاش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمِّهما ، وأخاهما لأمِّهما ، حتَّى قدما علينا المدينة ، ورسول الله ﷺ بمكَّة ، فكلَّماه ، وقالا : إنَّ أمَّك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مشطٌ حتَّى تراك ، ولا تستظلَّ من شمسٍ حتَّى تراك ، فرقَّ لها ، فقلت له : عيَّاش ، إنَّه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمَّك القملُ ، لامتشطت ، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت .

قال : أبرُّ قسم أمِّي ، ولي هناك مالٌ ، فآخذه .

قال : فقلت : والله إنك لتعلم أنِّي لَمِنْ أكثر قريشٍ مالاً ، فلك نصفُ مالي ، ولا تذهب معهما ، قال : فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما ، فلمَّا أبى إلا ذلك ، قلت له : أما إذ قد فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذلول[٧] ، فالزمْ ظهرها ، فإن رابك من القوم ريبٌ؛ فانجُ عليها ، فخرج عليها معهما ، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا أخي ،

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٠٤) .
(٢) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢ .
(٣) التناضب : جمع تنضيب ، وهو شجر ، وهو اسم موضع قريب من مكَّة .
(٤) الأضاة : على عشرة أميال من مكَّة .
(٥) سرف : وادٍ متوسط الطُّول من أودية مكَّة .
(٦) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٩ .
(٧) الذلول : أذلَّها العمل ، فصارت سهلة الرُّكوب والانقياد .

والله! لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعْقِبني[(١)] على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخ، ليتحوَّل عليها، فلما استوَوْا بالأرض، عدوا عليه، فأوثقاه، ثمَّ دخلا به مكَّة، وفتناه، فافتتن[(٢)].

قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممَّن افتتن صَرفاً، ولا عدلاً، ولا توبةً، قوم عرفوا الله، ثمَّ رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا، وقولهم لأنفسهم: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥].

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفةٍ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام: فلمَّا أتتني؛ جعلت أقرؤها بذي طَوَى[(٣)] أُصَعِّد بها فيه، وأُصَوِّبُ، ولا أفهمها، حتَّى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنَّها إنَّما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويُقال: فينا، قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ، وهو بالمدينة. [البزار (١٧٤٦) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢) ومجمع الزوائد (٦/ ٦١)][(٤)].

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعدَّ عمر رضي الله عنه خطَّة الهجرة له، ولصاحبيه عيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السَّهميِّ، وكان ثلاثتهم كلٌّ واحدٍ من قبيلةٍ، وكان مكان اللِّقاء الَّذي اتَّعدوا فيه بعيداً عن مكَّة، وخارج الحرم، على طريق المدينة، ولقد تحدَّد الزمان، والمكان بالضَّبط؛ بحيث إنَّه إذا تخلف أحدهم؛ فليمضِ صاحباه، ولا ينتظرانه؛ لأنَّه قد حُبس، وكما توقعوا، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه، بينما مضى عمر، وعيَّاش بهجرتهما، ونجحت الخطَّة كاملة، ووصلا المدينة سَالِمَيْنِ[(٥)].

إلا أنَّ قريشاً صمَّمت على متابعة المهاجرين، ولذلك أعدَّت خطَّةً محكمةً، قام بتنفيذها أبو جهل، والحارث، وهما أَخَوَا عياش من أمِّه، الأمر الذي جعل عياشاً يطمئنُّ لهما، وبخاصَّةٍ إذا كان الأمر يتعلَّق بأمِّه، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة؛ لعلمه بمدى شفقة ورحمة

---

(١) تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٠٥).
(٣) ذو طوى: وادٍ من أودية مكَّة.
(٤) الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٣١.
(٥) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٥٩).

عيَّاش بأمِّه ، والَّذي ظهر جليّاً عندما أظهر موافقته على العودة معهما ، كما تُظهر الحادثة الحسَّ الأمني الرَّفيع ؛ الَّذي كان يتمتَّع به عمر رضي الله عنه ؛ حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[١] .

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوَّة التي بناها الإسلام في هذه النُّفوس ؛ فعمر يضحِّي بنصف ماله حرصاً على سلامة أخيه ، وخوفاً عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته ، ولكن غلبت عياشاً عاطفتُه نحو أمِّه ، وبرِّه بها ؛ ولذلك قرَّر أن يمضي لمكَّة فيبرَّ قسم أمِّه ، ويأتي بماله من هناك ، وتأبى عليه عفَّته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر رضي الله عنه ، وماله قائم في مكَّة لم يُمسَّ ، غير أنَّ أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد ، فكأنه يرى رأي العين ، المصير المشؤوم ، الَّذي سينزل بعياشٍ لو عاد إلى مكَّة ، وحين عجز عن إقناعه ؛ أعطاه ناقته الذَّلول النَّجيبة ، وحدث لعياش ما توقَّعه عمر من غدر المشركين به[٢] .

وساد في الصفِّ المسلم : أنَّ الله تعالى لا يقبل صرفاً ، ولا عدلاً ، من هؤلاء الذين فُتِنوا ، فافتتنوا ، وتعايشوا مع المجتمع الجاهليِّ ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، وما إن نزلت هذه الآيات ، حتَّى سارع الفاروق رضي الله عنه ، فبعث بهذه الآية إلى أخَوَيه الحميمين عيَّاش ، وهشام ؛ ليجدِّدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر . . أيُّ سموٍّ عظيمٍ عند ابن الخطَّاب رضي الله عنه؟! لقد حاول مع أخيه عياش ، أعطاه نصف ماله على ألاَّ يغادر المدينة ، وأعطاه ناقته ليفرَّ عليها ، ومع هذا كلِّه ، فلم يشمت بأخيه ، ولم يَتَشَفَّ منه لأنَّه خالفه ، ورفض نصيحته ، وألقى برأيه خلف ظهره ؛ إنَّما كان شعور الحبِّ ، والوفاء لأخيه هو الَّذي يسيطر عليه ، فما إن نزلت الآية ، حتَّى سارع ببعثها إلى أخويه في مكَّة ، ولكلِّ المستضعفين هناك ؛ ليقوموا بمحاولاتٍ جديدةٍ للانضمام إلى المعسكر الإسلاميِّ[٣] .

٣ ـ أسلوب الحبس :

لجأت قريش إلى الحبس كأسلوبٍ لمنع الهجرة ، فكلُّ من تقبض عليه ، وهو يحاول الهجرة كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت مع وضع يديه ، ورجليه في القيد ، وتفرض عليه رقابةً ، وحراسةً مشدَّدةً حتَّى لا يتمكَّن من الهرب ، وأحياناً يكون الحبس داخل حائطٍ بدون سقف ، كما فُعل مع عيَّاش ، وهشام بن العاص رضي الله عنهما ، حيث كانا محبوسَيْن في بيتٍ لا سَقف

---

(١) انظر : في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٤ .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٦٠) .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ١٦٠) .

له[١] ، وذلك زيادة في التَّعذيب؛ إذ يضاف إلى وحشة الحبس ، حرارة الشَّمس ، وسط بيئةٍ جبليَّةٍ شديدة الحرارة مثل مكَّة .

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين؛ أوَّلهما: منع المحبوسين من الهجرة ، والآخر: أن يكون هذا الحبس درساً وعِظَةً ، لكلِّ مَنْ يحاول الهجرة من أولئك الَّذين يفكِّرون بها ممَّن بقي من المسلمين بمكَّة ، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنَّورة ، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكَّة؛ مثل عيَّاش ، وهشام رضي الله عنهما، ولكنَّهما تمكَّنا من الخروج، واستقرّا بالمدينة[٢] .

كان النَّبيُّ ﷺ بعد هجرته يقْنُتُ ، ويدعو للمستضعفين في مكَّة عامَّةً ، ولبعضهم بأسمائهم خاصَّةً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفع رأسه من الرَّكعة الأخيرة؛ يقول: «اللَّهم أَنْجِ عيَّاش بن أبي ربيعة ، اللَّهمَّ أنج سَلَمَةَ بن هشام ، اللَّهم أنج الوليدَ بن الوليد ، اللهم أَنجِ المستضعفين من المؤمنين ، اللَّهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها سنينَ كسِنِي يوسفَ» [البخاري (١٠٠٦) وأحمد (٢/٤١٨)] .

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عيَّاش؛ فقد ندب الرَّسول ﷺ أحد أصحابه ، وفعلاً استعدَّ للمهمَّة ، ورتَّب لها ما يحقِّق نجاحها ، وذهب إلى مكَّة ، واستطاع بكلِّ اقتدارٍ ، وذكاءٍ ، أن يصل إلى البيت الَّذي حُبسا فيه ، وفكَّ قيدهما ، ورجع بهما إلى المدينة المنوَّرة[٣] .

٤ ـ أسلوب التَّجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمر بن قاسط ، أغارت عليهم الرُّوم ، فسُبي وهو صغيرٌ ، وأخذ لسان أولئك الَّذين سَبَوْه ، ثمَّ تقلَّب في الرِّق ، حتَّى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثمَّ أعتقه ، ودخل الإسلام هو ، وعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما في يومٍ واحدٍ[٤] .

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه ، عملاً تتجلَّى فيه روعة الإيمان ، وعظمة التَّجرُّد لله؛ حيث ضحَّى بكلِّ ما يملك في سبيل الله ، ورسوله ﷺ ، واللُّحوق بكتيبة التَّوحيد ، والإيمان[٥] ، فعن أبي عثمان النَّهْديِّ ـ رحمه الله ـ قال: بلغني: أنَّ صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة ، قال له أهل مكَّة: أتيتنا هاهنا صُعْلُوكاً[٦] ، حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت

(١) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٥ .
(٤) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٠ .
(٦) الصعلوك: الفقير .

ما بلغتَ، ثمَّ تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي؛ تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «ربح صهيبٌ! ربح صهيبٌ!» [المطالب العالية (٤٠٦٣) وابن هشام (٢/ ١٢١)].

وعن عكرمة ـ رحمه الله ـ قال: لمَّا خرج صهيب مهاجراً؛ تبعه أهل مكَّة، فنثل[١] كنانته، فأخرج منها أربعين سهماً، فقال: لا تَصِلُون إليَّ حتى أضع في كلِّ رجلٍ منكم سهماً، ثمَّ أصيرُ بعد إلى السَّيف، فتعلمون أنِّي رجلٌ، وقد خلَّفت بمكَّة قينتين، فهما لكم» [الحاكم (٣/ ٣٩٨)]، وقال عكرمة: ونزلت على النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فلمَّا رآه النَّبيُّ ﷺ قال: «أبا يحيى! ربح البيع!» قال: وتلا عليه الآية [الحاكم (٣/ ٣٩٨)] لكأنِّي[٢] بصهيبٍ رضي الله عنه يقدِّم الدَّليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين؛ الَّذين يَزِنُون حركات التَّاريخ، وأحداثَه كلَّها بميزان المادَّة، فأين هي المادَّة الَّتي سوف يكسبها صهيبٌ في هجرته، والَّتي ضحَّى من أجلها بكلِّ ما يملك؟!

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمَّدٌ ﷺ منصباً يعوِّضه عمَّا فقده؟! أو هل ترى محمَّداً ﷺ يُمنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إنَّ صهيباً ما فعل ذلك، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة، إلا ابتغاء مرضاة الله، بالغاً ما بلغ الثَّمن؛ ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التَّضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدَّرب، ويقتفون الأثر[٣].

إنَّ هذه المواقف الرائعة، لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشُّموخ في الهجرة المباركة، بل امتلأ هذا الحدث العظيم، بكثيرٍ من مشاهد العظمة والتَّجرُّد والتَّضحية، الَّتي تعطي الأمَّة دروساً بليغةً في بناء المجد، وتحصيل العزَّة[٤].

خامساً: البيوتات الحاضنة، وأثرها في النُّفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار، ومبايعتهم، وتعهُّدهم بالنُّصرة أن دعا رسولُ الله ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرةٌ عظيمةٌ من التَّكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها، وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين،

---

(١) نثل: استخرج ما فيها من النَّبل والسِّهام.
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، د. عبد الرحمن البر، ص ١٢١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢١.
(٤) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١١٩.

واستعدَّت لاحتضانهم رجالاً ، ونساءً؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضمُّ المهاجر، والأنصاريَّ ، والمهاجرة ، والأنصاريَّة ، يتقاسمون المال ، والمكان ، والطَّعام والمسؤوليَّة الإسلاميَّة؛ فمن هذه البيوتات الحاضنة :

١ ـ دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء : ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين ، نساءً ، ورجالاً ، وقد ضمَّت هذه الدُّور ، عمر بن الخطاب ، ومن لحق به من أهله وقومه ، وابنته حفصة ، وزوجها ، وعيَّاش بن أبي ربيعة .

٢ ـ دار خُبَيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح[١] : نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وأمُّه ، وصهيب بن سنان .

٣ ـ دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار ، قيل : نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب .

٤ ـ دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار ، وكان يسمَّى : بيت العزاب ، ونزل بها العُزَّاب من المهاجرين .

٥ ـ دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقُباء ، ونزل بها عُبيدة بن الحارث ، وأمُّه سُخيلة ، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب ، والطُّفيل بن الحارث ، وطُليب بن عُمير ، والحُصَيْن بن الحارث؛ نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقُباء .

٦ ـ دار بني جَحْجَبَى ، والْمُحتَضِن هو منذر بن محمَّد بن عُقبة ، نزل عنده الزُّبير بن العوَّام ، وزوجه أسماء بنت أبي بكر ، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم ، وزوجته أمُّ كلثوم بنت سُهيل[٢] .

٧ ـ دار بني عبد الأشهل ، والمُحْتَضِن هو سعد بن معاذ بن النُّعمان من بني عبد الأشهل ، نزل بها مصعب بن عمير ، وزوجته حَمْنة بنت جحش .

٨ ـ دار بني النَّجار ، والمُحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر ، نزل بها عثمان بن عفان ، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ[٣] .

فهذه المقاسمة ، وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ كان من أهمِّ العناصر الَّتي مهَّدت لإقامة رسول الله ﷺ وصحابته المهاجرين معه ، وبعده ، إقامةً طيِّبةً ، تنبض بالإيثار على النَّفس ، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة[٤] .

---

(١) المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٧ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٦٨ ، ٤٦٩) .
(٤) انظر : المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٨ .

بهذه الروح العالية ، والإيمان الوثيق ، والصِّدق في المعاملة تمَّت المؤاخاة ، وتمَّ الوفاق بين المهاجرين ، والأنصار ، وقد يحدث تساؤلٌ ، فيقال: لماذا لم نسمع ، ولم تسجِّل المصادر ، ولم تكتب المراجع : أنَّ خلافاتٍ وقعت في هذه البيوت؟ وأين النِّساءُ وما اشتهرن به من مشاكسات؟

إنَّه الدِّين الحقُّ ؛ الَّذي جعل تقوى الله أساساً لتصرُّف كلِّ نفسٍ ، والأخلاق السَّامية الَّتي فرضت الأخوة بين المسلمين ، ونصرة الدَّعوة ، إنَّها المبايعة ، وأثرها في النُّفوس ، إنَّه الصِّدق ، والعمل من أجل الجماعة ، خوفاً من العقاب ، ورهبةً من اليوم الآخر ، ورغبةً في الثواب ، وطمعاً في الجنة ، إنَّه دفء حضانة الإيمان ، واستقامة النَّفس والسُّلوك ، وصدق الطَّويَّة ، فكلُّ مَنْ أسلم ، وكلُّ من بايع ، وكلُّ من أسلمت ، وبايعت ، يعملون جميعهم ما يؤمرون به ، ويخلصون فيما يقولون ، يخافون الله في السِّر ، والعلن ، آمنت نفوسهم فاحتضنت المناصرةُ المهاجرةَ ، فالكلُّ يعمل من أجل مصلحة الكلِّ ، فهذا هو التَّكافل الاجتماعيُّ في أجلى صورةٍ ، وأقدس واقعةٍ ، رغب الكلُّ في الثَّواب ؛ حتَّى إنَّ الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كلِّه(١) .

إنَّ جانب البذل ، والعطاء ظاهرةٌ ، نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كلِّ وقتٍ ؛ إنَّنا في عالمنا المعاصر ، وفي الصَّفِّ الإسلاميِّ ، وفي رحلةٍ لبضعة أيام تتكشَّف النُّفوس والعيوب ، والحزازات والظُّنون ، وهذا مجتمعٌ يبنى ؛ ولمَّا يصلْ رسول الله ﷺ بعد ، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجُدُد ، ليس على مستوى فردٍ فقط ؛ بل على مستوى جماعيٍّ كذلك ، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار شهوراً عدَّةً ، والمعايشة اليوميَّة مستمرةٌ ، والأنصار يبذلون المال ، والحبَّ ، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم ، نحن أمام مجتمعٍ إسلاميٍّ ، بلغ الذِّروة في لُحْمَتِهِ ، وانصهاره ، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل ، والعطاء ، فلم يكونوا أصلاً فقراء ؛ بل كانوا يملكون المال ، ويملكون الدَّار ، وتركوا ذلك كلَّه ابتغاء مرضاة الله ، وبذلوه كلَّه لطاعته جلَّ وعلا ، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٨ ـ ٩] .

كان هذا المجتمع المدنيُّ الجديد يتربَّى على معاني الإيمان ، والتَّقوى ، ولم يصل النَّبيُّ ﷺ

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٣٢ .

بعد ، ولكن تحت إشراف النُّقباء الاثنى عشر ، الَّذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى ، الَّتي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعاً من النَّبع النَّبويِّ الثَّرِّ(١) ، واقتبسوا من هديه(٢) .

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية؛ فقد كان إمامُ المسلمين ، سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكثرهم قرآناً ، فهذا المجتمع الَّذي يوجد فيه عِلْيَةُ أصحاب محمَّد ﷺ ؛ من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش ، والأوس والخزرج ، يقوده ويؤمُّه حامل القرآن ، فالكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله ، وحامل القرآن في المجتمع الإسلاميِّ هو نفسه حامل اللِّواء في الحرب ، فليس بينهما ذلك الانفصام الَّذي نشهده اليوم ، بين حملة القرآن من الحفَّاظ ، وبين المجاهدين في سبيل الله ، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، وكان شعاره: (بئس حامل القرآن) ـ يعني: إن فررت ـ ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت ، فاعتنقه إلى أن صُرع ، واستُشهد في سبيل الله(٣) .

ومن معالم المجتمع الإسلاميِّ الجديد حرِّيَّة الدَّعوة إلى الله علانيةً ، فقد أصبح واضحاً عند الجميع: أنَّ معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدِّين ، ونشط الشَّباب، والنِّساء ، والرِّجال في الدَّعوة إلى الله ، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ على قدمٍ وساقٍ. ولابدَّ من المقارنة بين المجتمع الَّذي قام بالحبشة من المسلمين ، وبين المجتمع الإسلاميِّ في يثرب؛ فلقد كانت الحبشة تحمل طابع اللُّجوء السِّياسيِّ ، والجالية الأجنبيَّة أكثر ممَّا كانت تحمل طابع المجتمع الإسلاميِّ الكامل؛ صحيحٌ: أن المسلمين ملكوا حرِّيَّة العبادة هناك؛ لكنَّهم معزولون عن المجتمع النَّصرانيِّ ، لم يستطيعوا أن يؤثِّروا فيه التَّأثير المنشود ، وإن كانت هجرة الحبشة خطوةً متقدِّمةً على جو مكَّة؛ حيث لا تتوفر حرِّيَّة الدَّعوة ، وحرِّيَّة العبادة ، ولكنَّه دون المجتمع الإسلاميِّ في المدينة بكثير ، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرَّد سماع خبر هجرة المدينة ، بالتوجُّه نحوها مباشرة ، أو عن طريق مكَّة؛ إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك ، لقد أصبحت المدينة مسلمةً بعد أن عاشت قروناً وثنيَّةً مشركةً.

لقد أصبح المجتمع المدنيُّ مسلماً ، وبدأ نموُّه ، وتكوينه الفعليُّ بعد عودة الاثني عشر صحابيّاً من البيعة الأولى ، والَّتي كان على رأسها ، الصحابيُّ الجليل أسعد بن زُرَارةَ والَّتي حملت المسؤوليَّة الدَّعويَّة فقط ، دون الوجود السِّياسيِّ ، وبلغ أوج توسُّعه ، وبنائه بعد عودة

(١) الثَّرّ: الغزير الكثير.
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٧١ ، ١٧٢).
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ١٧٤ ، ١٧٥).

السَّبعين ، الَّذين ملكوا الشَّارع السِّياسيَّ والاجتماعيَّ ، وقرَّروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض ، وهم على استعدادٍ أن يواجهوا كلَّ عدوٍّ خارجيٍّ ، يمكن أن ينال من هذه السِّيادة ، حتَّى قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم في المدينة .

إنَّ القاعدة الصُّلبة ، الَّتي بذل رسول الله ﷺ وقتاً وجهداً في تربيتها ، بدأت تعطي ثمارها أكثر ، بعد أن التحمت بالمجتمع المدنيِّ الجديد ، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة ، وأخوَّة الدين .

لقد أعدَّ رسول الله ﷺ الأفراد ، وصقلهم في بوتقة الجماعة ، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة ، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض(١) .

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظَّمة القويَّة إلى المدينة ، والتحمت مع إخوانها الأنصار ، وتشكَّل المجتمع المسلم؛ الَّذي أصبح ينتظر قائده الأعلى ﷺ ؛ ليعلن ولادة دولة الإسلام ، الَّتي صنعت ـ فيما بعد ـ حضارةً؛ لم يعرفِ التَّاريخ مثلها حتَّى يومنا هذا .

سادساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة داراً للهجرة ، ومركزاً للدَّعوة ـ عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ـ أسرارٌ لا يعلمها إلا الله ؛ إنَّها امتازت بتحصُّن طبيعيٍّ حربيٍّ ، لا تزاحمها في ذلك مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرة ، فكانت حَرَّة الوَبْرَة ، مُطبقةً على المدينة من النَّاحية الغربية ، وحَرَّة واقِم مطبقةً على المدينة من النَّاحية الشَّرقيَّة ، وكانت المنطقة الشَّمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة ـ وهي الَّتي حصَّنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب ـ وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة ، محاطة بأشجار النَّخيل والزُّروع الكثيفة ، لا يمرُّ منها الجيش إلا في طرقٍ ضيِّقةٍ ، لا يتَّفق فيها النِّظام العسكريُّ ، وترتيب الصُّفوف .

وكانت خفاراتٌ عسكريَّةٌ صغيرةٌ ، كافيةٌ لإفساد النِّظام العسكريِّ ، ومنعه من التقدُّم ، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورةً ، وسائر جوانبها مشكَّكةً بالبنيان ، والنَّخيل ، لا يتمكَّن العدوُّ منها»(٢) .

ولعلَّ النَّبيَّ ﷺ ، قد أشار إلى هذه الحكمة الإلٰهيَّة في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني أُريتُ دار هجرتكم ، ذات نخيلٍ بين لابتين ، وهما الحرَّتان» [سبق تخريجه] ، فهاجر مَنْ هاجر قِبَلَ المدينة ، ورجع عامَّةُ من كان هاجرَ بأرض الحبشة إلى المدينة .

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (١/ ١٤٦ ، ١٤٧) .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ١٥٧ .

وكان أهل المدينة من الأوس ، والخزرج أصحاب نخوةٍ ، وإباءٍ ، وفروسيَّةٍ ، وقوَّةٍ ، وشكيمةٍ ، ألفوا الحرِّيَّة ، ولم يخضعوا لأحدٍ ، ولم يدفعوا إلى قبيلةٍ ، أو حكومةٍ إتاوةً ، أو جبايةً . يقول ابن خلدون : ولم يزل هذان الحيَّان قد غلبوا على يثرب ، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في ملَّتهم مَنْ جاورهم من قبائل مُضَر .

وكان بنو عديِّ بن النَّجار أخواله ﷺ ، فأمُّ عبد المطلب بن هاشم بن عديِّ بن النَّجار إحدى نسائهم ، فقد تزوَّج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عديِّ بن النَّجار ، وولدت لهاشم عبد المطلب ، وتركه هاشم عندها ، حتَّى صار غلاماً دون المراهقة ، ثمَّ احتمله عمُّه المطَّلب ، فجاء به إلى مكَّة ، وكانت الأرحام يحسب لها حسابٌ كبيرٌ ، في حياة العرب الاجتماعيَّة ، ومنهم أبو أيوبٍ الأنصاريُّ ؛ الَّذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة .

وكان الأوس ، والخزرج من قحطان ، والمهاجرون وَمَنْ سبق إلى الإسلام في مكَّة ، وما حولها من عدنان ، ولمَّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره ؛ اجتمعت بذلك عدنان ، وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسدٍ واحدٍ ، وكانت بينهما مفاضلةٌ ، ومسابقةٌ في الجاهليَّة ، وبذلك لم يجد الشَّيطان سبيلاً إلى قلوبهم ؛ لإثارة الفتنة ، والتَّعزِّي بعزاء الجاهليَّة ، باسم الحميَّة القحطانيَّة ، أو العدنانيَّة ، فكانت لكلِّ ذلك مدينة يثرب أصلحَ مكانٍ لهجرة الرَّسول ﷺ وأصحابه ، واتِّخاذهم لها داراً ، وقراراً ، حتَّى يقوى الإسلام ، ويشقَّ طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ، ثمَّ يفتح العالم المتمدِّن[(١)] .

سابعاً : من فضائل المدينة :

لقد عظم شرف المدينة المنوَّرة المباركة ، بهجرة النَّبيِّ ﷺ إليها ، حتَّى فضلت على سائر بقاع الأرض ـ حاشا مكَّة المكرَّمة ـ وفضائلها كثيرةٌ منها :

١ ـ كثرة أسمائها :

إنَّ كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المُسمَّى ، ولا توجد بلدةٌ في الدُّنيا لها من الأسماء ، مثل ما للمدينة المنوَّرة ، أو نصفه ، أو حتَّى ربعه ، وقد بلغ العلماء بأسمائها حوالي مئة اسمٍ[(١)] ، وقد ذكر هذه الأسماء الزَّركشي في (إعلام السَّاجد بأحكام المساجد)[(٢)] ، والمجد الفيروز آبادي صاحب (القاموس المحيط)[(٣)] ، ونور الدِّين السَّمهودي في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، ومحمَّد بن يوسف الصَّالحي في (سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد) .

---

(١) انظر : الأساس في السُّنَّة (١/ ٣٣٣) .

(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٥ ، وهذا الكتاب هو المرجع الأساسي في فضائل المدينة .

(٣) ذكر السَّخاوي له في الضَّوء اللامع (١/ ٧٩ : ٨٦) مؤلفات منها : المغانم .

وأشهر هذه الأسماء:

(أ) يثرب: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وقد ورد النَّهي عن تسميتها بهذا الاسم، وأمَّا تسميتها في القرآن «يثرب» فذلك حكاية عن قول المنافقين.

(ب) طابة: فعن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمَّى المدينة يثرب؛ فليستغفر الله؛ فإنَّما هي طابة» وفي روايةٍ: «هي طابة، هي طابة، هي طابة»(١).

(ج) المدينة: وهذا أشهر أسمائها، وهذا الاسم إذا أطلق؛ أريدت به المدينة المنوَّرة دون غيرها من مدن الدُّنيا، وقد جاءت الآيات الكثيرة بهذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقد وصفت المدينة بالمباركة، والمنوَّرة، والمشرَّفة، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة(٢).

٢ ـ محبته ﷺ لها، ودعاؤه برفع الوباء عنها:

دعا النَّبي ﷺ ربَّه قائلاً: «اللَّهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكَّة، أو أشدَّ!(٣)» وعن أنسٍ رضي الله عنه: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا قدم من سفرٍ، فنظر إلى جُدُرات المدينة(٤)؛ أَوْضَعَ راحلته(٥)، وإن كان على دابةٍ حرَّكها؛ من حُبِّها» [البخاري (١٨٠٢، ١٨٨٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة؛ وُعِكَ أبو بكر، وبلالٌ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمَّى يقول:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ   وَالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته، يقول: .... وقال: «اللَّهمَّ العن شيبة بن

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥)، وضعَّفه الشَّوكانيُّ في فتح القدير (٤/ ٢٦٨).
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٥٦.
(٣) المصدر السابق نفسه: ص ١٥٧.
(٤) جُدُرات: جمع جدار، وهو الحائط.
(٥) أَوْضَعَ راحلته: حثَّها على السرعة.

ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأميَّة بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء!» ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «اللَّهمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكَّة ، أو أشدَّ! اللَّهمَّ بارك لنا في صاعنا ، وفي مُدِّنا ، وصحِّحْها لنا ، وانقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ!» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

٣ ـ دعاء النَّبيِّ ﷺ لها بضعفي مافي مكَّة من البركة :

فعن أنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «اللَّهمَّ اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكَّة من البركة!» [البخاري (١٨٨٥) ومسلم (١٣٦٩)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النَّاس إذا رأوا أوَّل الثَّمر؛ جاؤوا به إلى النبيِّ ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ ؛ قال: «اللَّهمَّ بارك لنا في ثمرنا! ، وبارك لنا في مدينتنا! وبارك لنا في صاعنا! وبارك لنا في مُدِّنا! اللَّهمَ إنَّ إبراهيم عبدُك ، وخليُلك ونبيُّك وإنِّي عبدك ، ونبيُّك ، وإنَّه دعاك لمكَّة ، وإنِّي أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكَّة ، ومثلِهِ معه» قال: ثمَّ يدعو أصْغَرَ وليدٍ له ، فيعطيه ذلك الثَّمر. [مسلم (١٣٧٣) والترمذي (٣٤٥٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٢) وابن ماجه (٣٣٢٩) وابن السني (٢٧٩)] .

٤ ـ عصمتها من الدَّجال والطَّاعون ببركته ﷺ :

إنَّ الله تعالى قيَّض لها ملائكةً يحرسونها ، فلا يستطيع الدَّجال إليها سبيلاً؛ بل يلقي إليها بإخوانه من الكفَّار ، والمنافقين ، كما أنَّ من لوازم دعاء النَّبيِّ ﷺ بالصِّحَّة ورفع الوباء ألاَّ ينزل بها الطَّاعون ، كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ . [البخاري (١٨٨٠) ومسلم (١٣٧٩)][1] .

٥ ـ فضيلة الصَّبر على شدَّتها :

فقد وعد النَّبيُّ ﷺ من صبر على شدَّة المدينة ، وضيق عيشها ، بالشَّفاعة يوم القيامة[2] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها مَنْ هو خيرٌ منه ، ولا يثبت أحدٌ على لأْوَائِهَا[3] وجَهْدِها ، إلا كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ يوم القيامة» [مسلم (١٣٦١)] .

٦ ـ فضيلة الموت فيها :

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من استطاع أن يموت بالمدينة؛ فليَمت بها ، فإنِّي أشفع لمن يموت بها» [الترمذي (٣٩١٧) وابن ماجه (٣١١٢) وابن حبان (٣٧٣٣) والبيهقي في الشعب (٤١٨٤)] ، وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدُّعاء: «اللَّهم ارزقني شهادةً

(١) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٠ .
(٣) اللأواء: الشِّدَّة ، وضيق العيش .

في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ » [البخاري (١٨٩٠)] .

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه ، فاستُشهد في محراب رسول الله ﷺ ، وهو يؤمُّ المسلمين في صلاة الفجر .

٧ ـ هي كهف الإيمان ، وتنفي الخبث عنها :

الإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد ، والأخباث ، والأشرار لا مقام لهم فيها ، ولا استقرار ، ولا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين[١] .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الإيمان ليأْرِزُ[٢] إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحيةُ إلى جُحرها» [البخاري (١٨٧٦) ومسلم (١٤٧)] ، وقال ﷺ : « . . . والَّذي نفسي بيده! لا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إنَّ المدينة كالكير ، تُخرِج الخبث ، لا تقوم السَّاعة حتى تنفي المدينة شرارها ، كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد» [مسلم (١٣٨١) وأحمد (٢/ ٤٣٩)] .

٨ ـ تنفي الذُّنوب والأوزار :

عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّها ـ أي : المدينة ـ طَيْبَةُ تنفي الذُّنوب[٣] ، كما تنفي النَّار خبث الفضَّة» [البخاري (٤٥٨٩) ومسلم (١٣٨٤)] .

٩ ـ حفظ الله إيَّاها ممَّن يريدها بسوء :

قد تكفَّل الله بحفظها من كلِّ قاصدٍ إيَّاها بسوءٍ ، وتوعَّد النَّبيُّ ﷺ مَنْ أحدث فيها حدثاً ، أو آوى فيها مُحدِثاً ، أو أخاف أهلها ، بلعنة الله ، وعذابه ، وبالهلاك العاجل[٤] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع[٥] ، كما ينماع الملحُ في الماء» [البخاري (١٨٢٢) ومسلم (١٣٨٧)] ، وقال ﷺ : «المدينة حَرَمٌ ، فمن أحدث فيها حَدَثاً[٦] أو آوى مُحدثاً[٧] ؛ فعليه لعنةُ اللهِ ، والملائكة ، والنَّاس أجمعين ، لا يُقْبَلُ منه يومَ القيامة عَدْلٌ ، ولا صَرْفٌ» [مسلم (١٣٧١)] .

---

(١) انظر : الهجرة النبويَّة المباركة ، ص ١٦١ .
(٢) يأرز : ينضمُّ ، ويجتمع .
(٣) في رواية : (تنفي الخبث) وفي رواية : (تنفي الدَّجال) .
(٤) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٦٢ .
(٥) انماع : ذاب ، وسال .
(٦) الحدث : الإثم ، أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروفٍ في السنة .
(٧) المحدث : هو مَنْ أتى الحَدَث .

١٠ ـ تحريمها:

قد حرَّمها النَّبيُّ ﷺ بوحيٍ من الله ، فلا يُراق فيها دمٌ ، ولا يُحمل فيها سلاحٌ ، ولا يروَّع فيها أحدٌ ، ولا يقطع فيها شجرٌ ، ولا تَحِلُّ لُقطتُها إلا لمنشدٍ ، وغير ذلك ممَّا يدخل في تحريمها ، قال ﷺ : «إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّةَ ودعا لها ، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكَّةَ ، ودعوتُ لها في مُدِّها ، وصَاعها مِثْلَ ما دَعا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لمكَّة» [البخاري (٢١٢٩) ومسلم (١٣٦٠)].

وقال ﷺ : «هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه ، اللَّهمَّ! إنَّ إبراهيم حرَّم مكة ، وإني حرَّمت ما بين لابتيها» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٢)] يعني: المدينة ، وقال ﷺ : «لا يُخْتلى خلاها[1] ، ولا ينفَّر صيدها[2] ، ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلا لمن أشادها[3] ، ولا يصلح لرجلٍ أن يحمل فيها السِّلاح لقتالٍ ، ولا يصلح أن يقطع منها شجرٌ ، إلا أن يعلف رجلٌ بعيرَه» [أحمد (١/١١٩)] .

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصَّحابة يتعلَّقون بها ، ويحرصون على الهجرة إليها ، والمقام فيها ، وبذلك تجمَّعت طاقات الأمَّة فيها ، ثمَّ توجَّهت نحو القضاء على الشِّرك بأنواعه ، والكفر بأشكاله ، وفتحوا مشارق الأرض ، ومغاربَها.

* * *

---

(١) لا يُخْتَلى خَلَاها: لا يُجزُّ ، ولا يقطع الحشيش الرَّطب فيها.

(٢) لا ينفَّر صيدُها: لا يُزجر ، ويمنع من الرَّعي.

(٣) أشادها: أشاعها ، والإشادة: رفع الصَّوت ، والمراد: تعريف اللقطة.

الفصل السَّادس
هجرة النَّبيِّ ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه[1]

المبحث الأوَّل
فشل خطَّة المشركين، والتَّرتيب النَّبويُّ الرَّفيع للهجرة

أولاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ ﷺ:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصَّحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرَّغم من أساليبها الشَّنيعة، والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصاديَّة، وكيانهم الاجتماعيِّ القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار النَّدوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدَّعوة، وقد تحدَّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فقال: تشاورت قريش ليلةً بمكَّة، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٦) وابن سعد (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٨) وأبو نعيم في دلائله (٦٣ ـ ٦٤) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٢ ـ ٥٣)][2]، يريدون النَّبيَّ ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع اللهُ نبيَّه على ذلك، فبات عليٌّ على فراش النَّبيِّ ﷺ ـ تلك اللَّيلة [أحمد (١٠/ ٣٤٨) وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٨٩) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٢) ومجمع الزوائد (٦/ ٥٢ ـ ٥٣)][3]. وخرج النَّبيُّ ﷺ، فلمَّا أصبحوا؛ ثاروا إليه، فلمَّا رأوا عليّاً؛ ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصُّوا أثره، فلمَّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً[4].

---

(١) ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٧٤٧).

(٢) الوُثُق: الحبال، والمفرد: وثاق.

(٣) انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١٣٥.

(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ١٨١)، وابن حجر في الفتح، وحسَّن إسناده، شرح حديث رقم (٣٩٠٥).

قال سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآيات الَّتي تتحدَّث عن مكر المشركين بالنَّبيِّ ﷺ: «إنَّه التَّذكير بما كان في مكَّة قبل تغيُّر الحال، وتبدلُّ الموقف، وإنَّه ليوحي بالثِّقة واليقين في المستقبل، كما ينبِّه إلى تدبير قدر الله، وحكمته فيما يقضي به ويأمر. ولقد كان المسلمون الَّذين يخاطَبون بهذا القرآن أوَّل مرَّةٍ يعرفون الحالين معرفة الَّذي عاش، ورأى، وذاق، وكان يكفي أن يذكَّروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوفٍ، وقلقٍ في مواجهة الحاضر الواقع، وما فيه من أمنٍ، وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين، ومكرهم برسول الله ﷺ في مواجهة ما صار إليه من غلبةٍ عليهم، لا مجرَّد النَّجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون؛ ليوثقوا رسول الله ﷺ، ويحبسوه حتَّى يموت؛ أو ليقتلوه، ويتخلَّصوا منه، أو ليخرجوه من مكَّة منفيّاً مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كلِّه، ثمَّ اختاروا قتله، على أنَّ يتولَّى ذلك المنكر فتيةٌ من القبائل جميعاً؛ ليتفرَّق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعاً، فيرضوا بالدِّية، وينتهي الأمر.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إنَّها صورةٌ ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورةٌ مفزعةٌ؛ فأين هؤلاء البشر الضِّعاف المهازيل، من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبَّار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكلِّ شيءٍ محيط؟!»[(١)].

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة:

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النَّهار، إمَّا بُكرةً، وإمَّا عشيَّةً، حتَّى إذا كان اليوم الَّذي أُذِن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكَّة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة[(٢)]، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها، قالت: فلمَّا رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه السَّاعة إلا لأمرٍ حَدَث.

قالت: فلمَّا دخل؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسولُ الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخْرِجْ عنِّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله! إنَّما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي، وأمِّي! فقال: «إنَّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُّحبة يا رسول الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح، حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأْجَرا عبد الله بن أريقط ـ

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠١).

(٢) الهاجرة: هي نصف النَّهار عند اشتداد الحرِّ.

رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر ، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً ـ يدلُّهما على الطَّريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. [ابن هشام (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩)][(١)] .

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديثٍ طويل ، وفيه: «. . . قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر ، في نحر الظَّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً[(٢)]؛ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمِّي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «أخْرِجْ من عندك» ، فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلك. قال: «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخروج» ، فقال أبو بكر: الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: «نعم» ، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيَّ هاتين ، قال رسول الله ﷺ: «بالثَّمن» ، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز (من الحثِّ وهو الإسراع) ، وصنعنا لهم سُفرةً في جِرابٍ ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سمِّيت ذات النطاقين ، ثمَّ لحق رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور ، فكمنا[(٣)] فيه ثلاث ليالٍ ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما ، وهو غلامٌ ، شابٌّ ، ثَقِفٌ[(٤)] ، لَقِنٌ[(٥)] ، فيُدلجُ[(٦)] من عندهما بسَحَرٍ ، فيصبح مع قريشٍ بمكَّة كبائتٍ ، فلا يسمع أمراً يُكتادانِ[(٧)] به إلا وَعَاهُ ، حتَّى يأتيهما بخبر ذلك ، حين يختلط الظَّلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَم ، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء ، فيبيتان في رسْلٍ ـ وهو لَبَنُ مِنْحتِهما ورَضِيفهما[(٨)] ـ حتى ينعق[(٩)] بها عامر بن فهيرة بَغَلسٍ[(١٠)] يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث ، واستأجر رسول الله ﷺ ، وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْل ، وهو من بني عبد بن عديٍّ ـ هادياً خِرِّيتاً ـ والخرِّيت: الماهر بالهداية ، قد

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير (٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٢) متقنعاً: مغطِّياً رأسه.
(٣) كمنا فيه: أي استترا ، واستخفيا ، ومنه الكمين في الحرب ، النِّهاية (٤/ ٢٠١).
(٤) ثقف: ذو فطنةٍ ، وذكاء ، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، النِّهاية (١/ ٢١٦).
(٥) لقن: فَهِم ، حسن التَّلقِّي لما يسمعه ، النِّهاية (٤/ ٢٦٦).
(٦) يدلج: أدلج إذا سار أوَّل الليل ، وادَّلج ـ بالتشديد ـ: إذا سار آخره.
(٧) يُكتادان: أي: يُطلب لهما فيه المكروه ، وهو من الكيد.
(٨) الرَّضيف: اللَّبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّمس ، أو النَّار ، لينعقد وتزول رخاوته.
(٩) ينعق: نعق بغنمه ، أي: صاح بها ، وزجرها ، القاموس المحيط (٣/ ٢٩٥).
(١٠) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح ، النِّهاية (٣/ ٣٧٧).

غمس حلفاً[(١)] في آل العاص بن وائل السَّهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمِناهُ ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُبْحَ ثلاثٍ ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة ، والدَّليل ، فأخذ بهم طريق السَّواحل» [البخاري (٣٩٠٥) ، وأحمد (٦/١٩٨ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٧٣ ـ ٤٧٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٨٨) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨)] .

ثالثاً: خروج الرَّسول ﷺ ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالبٍ ، وأبو بكر الصِّدِّيق ، وآل أبي بكرٍ .

أمَّا عليٌّ رضي الله عنه ، فإنَّ رسول الله ﷺ أمره أن يتخلَّف ؛ حتَّى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ؛ الَّتي كانت عنده للنَّاس ، وكان رسول الله ﷺ ، وليس بمكَّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه عنده ؛ لما يعلم من صدقه ، وأمانته[(٢)] ، وكان الميعاد بين الرَّسول ﷺ ، وأبي بكرٍ رضي الله عنه ، فخرجا من خوخة[(٣)] ، لأبي بكر في ظَهْرِ بيته ، وذلك للإمعان في الاستخفاء ؛ حتَّى لا تتبعهما قريشٌ ، وتمنعهما من تلك الرِّحلة المباركة ، وقد اتَّعَدا مع اللَّيل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط ، في غار ثور ، بعد ثلاث ليالٍ[(٤)] .

رابعاً: دعاء النَّبيِّ ﷺ عند خروجه من مكَّة:

وقد دعا النَّبي ﷺ عند خروجه من مكَّة إلى المدينة قائلاً:

«الحمد لله الَّذي خلقني ولم أَكُ شيئاً! اللَّهمَّ أعنِّي على هول الدُّنيا ، وبوائق الدَّهر ، ومصائب اللَّيالي والأيام! اللَّهمَّ اصحبني في سفري ، واخلفني في أهلي ، وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فذَلِّلني ، وعلى خلقي فقوِّمني ، وإليك رب فحبِّبني ، وإلى النَّاس فلا تكلْني! ربَّ المستضعفين! وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الَّذي أشرقت له السَّموات ، والأرض ، وكُشِفت به الظُّلمات ، وصلُح عليه أمر الأوَّلين ، والآخرين أن تحلَّ عليَّ غضبك ، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك ، وَفُجَاءَة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك ،

(١) غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم ، وحلفهم يأمن به .
(٢) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٢٣٤) .
(٣) الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٣٤ .
(٤) خاتم النَّبيِّين ، لأبي زهرة (١/ ٦٥٩) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٢٣٤) .

لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت ، لا حول ، ولا قوَّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤)][(١)] .

ووقف الرَّسول ﷺ عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكَّة ، وقال: «والله إنَّكِ لخيرُ أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منكِ ما خَرَجْتُ» [الترمذي (٣٩٢٥) وأحمد (٤/ ٣٠٥) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

ثمَّ انطلق رسول الله ﷺ ، وصاحبه ، وقد حفظهما الله من بطش المشركين ، وصرفهم عنهما .

روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أنَّ المشركين اقتصُّوا أثر رسول الله ﷺ ، فلمَّا بلغوا الجبل ـ جبل ثور ـ اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمرُّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت؛ فقالوا: لو دخل هاهنا ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه» [أحمد (١/ ٣٤٨)] ، وهذه من جنود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّتي يخذل بها الباطل ، وينصر بها الحق؛ لأنَّ جنود الله ـ جلَّت قدرته ـ أعمُّ من أن تكون مادِّيَّةً ، أو معنويةً ، وإذا كانت مادِّيَّة؛ فإنَّ خطرها لا يتمثَّل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيشٍ ذي لَجَبٍ[(٢)] . قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] . أي: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فجنود الله غير متناهيةٍ ، لأنَّ مقدوراته غير متناهيةٍ[(٣)] ، كما أنَّه لا سبيل لأحدٍ إلى حصر الممكنات ، والوقوف على حقائقها ، وصفاتها ، ولو إجمالاً ، فضلاً عن الاطِّلاع على تفاصيل أحوالها من كمٍّ ، وكَيْفٍ ، ونسبةٍ[(٤)] .

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله ﷺ:

بالرَّغم من كلِّ الأسباب الَّتي اتخذها رسول الله ﷺ ، فإنَّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنَّما كان كاملَ الثِّقة في الله ، عظيم الرَّجاء في نصره ، وتأييده ، دائم الدُّعاء بالصِّيغة الَّتي علَّمه الله إيَّاها[(٥)] . قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] .

وفي هذه الآية الكريمة ، «دعاء يعلِّمه الله لنبيِّه ليدعوه به ، ولتتعلَّم أمَّته كيف تدعو الله ، وكيف تتَّجه إليه؟ دعاء بصدق المُدْخَل ، وصدق المُخْرَج ، كناية عن صدق الرِّحلة كلِّها؛

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣٤).

(٢) لَجِبَ القَوْمُ لَجَباً: صاحوا وأجلبوا ، والبحرُ: اضطرب موجه ، فهو لَجِبٌ.

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/ ٢٠٨).

(٤) انظر: تفسير أبي السُّعود (٩/ ٦٠).

(٥) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٧٢.

بدئها ، وختامها ، أوَّلها ، وآخرها ، وما بين الأوَّل والآخر ، وللصِّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه ؛ ليفتري على الله غيره ، وللصدق كذلك ظلاله : ظلال الثَّبات ، والاطمئنان والنَّظافة ، والإخلاص .

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قوةً ، وهيبةً أستعلي بهما على سلطان الأرض ، وقوَّة المشركين ، وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصوِّر القرب ، والاتِّصال بالله ، والاستمداد من عونه مباشرةً ، واللُّجوء إلى حماه .

وصاحب الدَّعوة لا يمكن أن يستمدَّ السُّلطان إلا من الله ، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله ، ولا يمكن أن يستظلَّ بحاكمٍ ، أو ذي جاهٍ ، فينصره ، ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله ، والدَّعوة قد تغزو قلوب ذوي السُّلطان ، والجاه ، فيصبحون لها جنداً ، وخدماً ، فيفلحون ، ولكنَّها هي لا تفلح إن كانت من جند السُّلطان ، وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السُّلطان ، والجاه»(١) .

وعندما أحاط المشركون بالغار ، وأصبح منهم رأيَ العين ؛ طمأن الرَّسول ﷺ الصِّدِّيق بمعيَّة الله لهما ، فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قال : قلت للنَّبيِّ ﷺ وأنا في الغار : لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه ؛ لأبصرنا ، فقال ﷺ : «ما ظنُّك يا أبا بكر ! باثنين الله ثالثُهما؟» [البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١)]. وفي روايةٍ : «اسكت يا أبا بكر ! اثنان الله ثالثهما» [البخاري (٣٩٢٢)] .

وسجّل الحقُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك في قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وقد تحدَّث الطَّبريُّ في تفسيره عن هذه الآية الكريمة ، فقال : هذا إعلامٌ من الله لأصحاب رسوله ﷺ : أنَّه المتكفِّل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم ؛ أعانوه ، أو لم يعينوه ، وتذكيرٌ منه لهم بفعل ذلك به ، وهو من العدد في قلَّةٍ ، والعدوُّ في كثرةٍ ، فكيف به ؛ وهو من العدد في كثرةٍ ؛ والعدوُّ في قلَّة؟! يقول لهم جلَّ ثناؤه : إلا تنفروا ـ أيُّها المؤمنون ـ مع رسولي ؛ إذا استنصركم فتنصروه ؛ فالله ناصره ، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله من قريش، من وطنه، وداره ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ يقول : أخرجوه وهو أحد الاثنين ، وإنَّما عنى جلَّ ثناؤه بقوله : ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ رسولَ الله ﷺ ، وأبا بكرٍ رضي الله عنه ؛ لأنَّهما كانا اللَّذين خرجا هاربين من قريش ؛ إذ همُّوا بقتل رسول الله ﷺ ، واختفيا في الغار ، وقوله : ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٧) .

يقول: إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في الغار[(١)] ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ يقول: إذ يقول الرَّسول ﷺ لصاحبه أبي بكر: لا تحزن؛ وذلك: أنَّه خاف من الطَّلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: لا تحزن؛ لأنَّ الله معنا، والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا، ولن يصلوا إلينا، يقول جلَّ ثناؤه: فقد نصره على عدوِّه وهو بهذه الحال من الخوف، وقلَّة العدد، فكيف يخذله، ويحوجه إليكم وقد كثَّر الله من أنصاره وعدد جنوده. [الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦)].

وقد تحدَّث الدكتور عبد الكريم زيدان، عن المعيَّة في هذه الآية الكريمة، فقال: «وهذه المعيَّة الرَّبانية المستفادة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، أعلى من معيَّته للمتَّقين، والمحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ لأنَّ المعيَّة هنا هي لذات الرَّسول، وذات صاحبه، غير مقيَّدةٍ بوصفٍ هو عملٌ لهما، كوصف التَّقوى، والإحسان؛ بل هي خاصَّةٌ برسوله، وصاحبه، مكفولةٌ هذه المعيَّة بالتأييد بالآيات، وخوارق العادات»[(٢)].

وتحدَّث صاحب الظِّلال عن هذه الآيات، فقال: «ذلك حين ضاقت قريش بمحمدٍ ذرعاً، كما تضيق القوَّة الغاشمة دائماً بكلمة الحقِّ، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صبراً، فائتمرت به، وقرَّرت أن تتخلَّص منه، فأطلعه الله على ما ائتمرت به، وأوحى إليه بالخروج وحيداً، إلا من صاحبه الصِّدِّيق، لا جيش، ولا عدَّة، وأعداؤه كُثُرٌ، وقوَّتهم إلى قوته ظاهرةٌ، ثمَّ ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلُّها من جانبٍ، والرَّسول ﷺ مع صاحبه منها مجرَّد؟ كان النَّصر المؤزَّر من عند الله بجنود لم يرها النَّاس، وكانت الهزيمة لِلَّذين كفروا والذُّلُّ والصَّغار، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾، وظلَّت كلمة الله في مكانها العالي منتصرةً قويَّةً نافذةً.

ذلك مثلٌ على نصرة الله لرسوله، ولكلمته، والله قادرٌ على أن يعيده على أيدي قوم آخرين؛ غير الَّذين يتثاقلون ويتباطؤون وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجةٍ بعد قول الله إلى دليلٍ!»[(٣)].

سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النَّبيِّ ﷺ في الغار خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطَّلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله ﷺ، وقد قلنا: إنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) الغار: الثقب العظيم يكون في الجبل، وقيل: شبه البيت في الجبل.

(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٠).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٦٥٦).

وأبا بكر ، قد استأجرا رجلاً من بني الدِّيْل ، يُسمَّى عبد الله ابن أريقط ، وكان مشركاً ، وقد أمِنَاهُ ، فدَفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما ، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدَّد ، وسلك بهما طريقاً غير معهودةٍ؛ ليخفي أمرهما عمَّن يلحق بهم من كفار قريش[(١)] .

وفي الطريق إلى المدينة ، مرَّ النَّبيُّ ﷺ بأمِّ مَعْبَد[(٢)] في قُدَيْد[(٣)] حيث مساكن خزاعة ، وهي أخت خُنَيْس بن خالدٍ الخزاعيِّ؛ الَّذي روى قصَّتها ، وهي قصَّةٌ تناقلها الرُّواة ، وأصحاب السِّير ، وقال عنها ابن كثير : «وقصَّتها مشهورةٌ مرويَّةٌ من طرقٍ يشدُّ بعضها بعضاً»[(٤)] ، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعيِّ رضي الله عنه ، صاحب رسول الله ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ حين خرج من مكَّة ، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة ، هو وأبو بكر رضي الله عنه ، ومولى أبي بكرٍ عامر بن فهيرة رضي الله عنه ، ودليلهما اللَّيثي عبد الله بن أريقط ، مرُّوا على خيمة أمِّ معبد الخزاعيَّة ، وكانت بَرْزَة[(٥)] ، جَلْدَة[(٦)] ، تحتبي[(٧)] بفناء القبَّة ، ثمَّ تسقي وتطعم ، فسألوها لحماً ، وتمراً؛ ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْمِلين[(٨)] مُسْنِتين[(٩)] ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاةٍ في كَسْر الخيمة[(١٠)] ، فقال : «ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبد؟!» قالت : خلَّفها الجَهْد عن الغنم ، قال : «فهل بها من لبنٍ؟» قالت : هي أجهد من ذلك . قال : «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت : بلى بأبي أنت وأمِّي! نعم إن رأيت بها حَلْباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها ، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ ، ودعا لها في شاتها ، فتفاجَّت[(١١)] عليه ، ودَرَّت[(١٢)] ، واجترَّت[(١٣)] ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ[(١٤)] الرَّهط ، فحلب فيها

---

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠١) .
(٢) هي عاتكة بنت كعب الخزاعيَّة .
(٣) وادي قُدَيْد : موضع قرب مكَّة ، يبعد عن الطَّريق المعبَّدة حوالي ثمانية كيلو مترات .
(٤) البداية والنهاية (٣/ ١٨٨) .
(٥) برزة : كهلةٌ ، كبيرة السن ، لا تحتجب احتجاب الشَّوَابِّ .
(٦) جَلْدَة : قوِّيةٌ صلبة ، وقيل : عاقلة .
(٧) تحتبي : أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ، على ركبتيها ، وتلك جلسة الأعراب .
(٨) مرملين : نفد زادهم .
(٩) مسنتين : أي : داخلين في سَنَةٍ ، وهي الجدب ، والمجاعة ، والقحط .
(١٠) كسر الخيمة ـ بفتح الكاف وكسرها ، وسكون المهملة ـ أي : جانبها .
(١١) تفاجَّت : فتحت ما بين رجليها للحلب .
(١٢) دَرَّت : أرسلت اللَّبن .
(١٣) واجترَّت : من الجِّرة ، وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها .
(١٤) يربض : يرويهم حتَّى يثقلوا ، فيربضوا ، أي : يقعوا على الأرض للنَّوم والرَّاحة .

ثجّاً[(١)]؛ حتَّى علاه البهاء[(٢)]، ثمَّ سقاها حتَّى رَوِيت، وسقى أصحابه؛ حتَّى رَوَوْا، وشرب آخرهم ﷺ، ثمَّ أراضوا[(٣)]، ثمَّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ؛ حتَّى ملأ الإناء، ثمَّ غادره عندها، ثمَّ بايعها، وارتحلوا عنها.

فقلَّما لبثت حتَّى جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزاً عجافاً[(٤)]، يتساوَكن هُزلاً[(٥)] ضحىً، مخُّهنَّ قليلٌ، فلمَّا رأى أبو معبد اللبن؛ عجب، وقال: من أين لك هذا اللَّبن يا أمَّ معبد! والشَّاة عازبٌ حِيال[(٦)]، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنَّه مرَّ بنا رجلٌ مبارك، من حاله كذا، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[(٧)]، أَبْلَج الوجه[(٨)]، حسنُ الخَلْقِ، لم تَعِبْه نُحْلَة[(٩)]، ولم تُزْرِ به صَعْلَة[(١٠)]، وسيمٌ[(١١)]، في عينيه دَعَجٌ[(١٢)]، وفي أشفاره وَطَفٌ[(١٣)]، وفي صوته صَهَلٌ[(١٤)]، وفي عنقه سَطَع[(١٥)]، وفي لحيته كثاثةٌ، أزجُّ[(١٦)]، أقرن[(١٧)]، إن صمت؛ فعليه الوقار، وإن تكلَّم سما[(١٨)] وعلاه البهاء، أجمل النَّاس، وأبهاهم من بعيدٍ، وأحلاهم وأحسنهم من قريبٍ، حُلْوُ المنطق، فَصْلٌ، لا هذر، ولا نزر[(١٩)] كأنَّ

---

(١) ثجَّاً: السَّيلان، ومعنى ثجَّاً: لبناً كثيراً سائلاً.
(٢) علاه البهاء: أي: علا الإناء بهاء اللَّبن.
(٣) أراضوا: أي: رَوَوا، فنقعوا بالرَّي، يريد شربوا مرَّة بعد مرَّةٍ حتى رَوَوْا.
(٤) عجافاً: ضد السَّمن، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.
(٥) يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضَّعف.
(٦) عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في اللَّيل، حيال: لم تحمل.
(٧) ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.
(٨) أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.
(٩) نُحلة: من النُّحول، والدقَّة، والضُّمور، أي: أنَّه ليس نحيلاً.
(١٠) صَعْلة: صغر الرأس، وهي تعني الدقَّة والنُّحول في البدن.
(١١) وسيم: الوسيم المشهور بالحسن، كأنَّ الحسن صار له سمةً.
(١٢) دَعَج: شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها.
(١٣) في أشفاره وَطَفٌ: في شعر أجفانه طول.
(١٤) صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حادَّ الصوت.
(١٥) سطع: طول العنق.
(١٦) أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.
(١٧) أقرن: متصل ما بين الحاجبين من الشَّعر، أو مقرون الحاجبين.
(١٨) سما: علا برأسه، أو بيده وارتفع.
(١٩) لا هذر، ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه، والنَّزر: القليل، والمعنى: وسط، لا قليل، ولا كثير.

منطقه خرزات نظمٍ يتحدَّرن ، رَبْعٌ[١] ، لا بأس من طولٍ[٢] ، ولا تقتحمه العين من قصرٍ[٣] ، غُصْنٌ بين غصنين ، فهو أنضر الثَّلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفُّون به ؛ إن قال ؛ استمعوا لقوله ، وإن أمر ؛ تبادروا إلى أمره ، محْفُودٌ[٤] ، محشودٌ[٥] ، لا عابسٌ ، ولا مُفنَّدٌ[٦] .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش ؛ الَّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكَّة ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً .

فأصبح صوتٌ بمكَّة عالياً ، يسمعون الصوت ، ولا يدرون مَنْ صاحبه ، وهو يقول :

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جزائِهِ ... رَفِيقَيْنِ قالا[٧] خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بالبِرِّ ثُمَّ تروَّحا ... فَقَدْ فازَ مَنْ أَمْسَىٰ رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَىٰ اللهُ عَنْكُمُ ... بهِ مِنْ فِعَالٍ لا تُجَارَىٰ وسُؤْدُدِ[٨]
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ ... ومَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أختكمْ عنْ شاتِهَا وإنَائِهَا ... فإنَّكُمْ إنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ[٩] فَتَحَلَّبَتْ ... عَلَيْهِ صَرِيْحاً ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[١٠]
فغَادَرَهَا رَهْناً لَدَيْهَا لِحَالِبٍ ... يُرَدِّدُهَا في مَصْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

[حديث أم معبد : رواه الطبراني في الكبير (٣٦٠٥) وفي الأحاديث الطوال (٣٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٦ ـ ٥٧) عن حبيش بن خالد][١١] .

سابعاً : سراقة بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ :

أعلنت قريش في نوادي مكَّة : أنَّه من يأتِ بالنَّبيِّ ﷺ ، حيَّاً ، أو ميتاً ، فله مئة ناقةٍ ، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب ، الَّذين في ضواحي مكَّة ، وطمع سراقة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب ، الَّذي أعدَّته قريش لمن يأتي برسول الله ﷺ ، فأجهد نفسه لينال ذلك ، ولكن الله

---

(١) رَبْع : ليس بالقصير ، ولا بالطويل .
(٢) لا بأس من طول : لا يجاوز الناس طولاً .
(٣) لا تقتحمه العين من قصر : لا تزدريه ، ولا تحتقره .
(٤) محفود : مخدوم .
(٥) محشود : يجتمع الناس حواليه .
(٦) لا عابس ولا مفنَّد : ليس عابس الوجه ، ولا مفنَّد : ليس منسوباً إلى الجهل ، وقلَّة العقل .
(٧) قالا : نزلا في وقت القيلولة على الخيمتين .
(٨) وسؤدد : من السِّيادة .
(٩) حائل : غير حامل .
(١٠) مزبد : الصريح ومعناها الخالص ، والضرة : لحم الضرع .
(١١) انظر : الهجرة النبوية المباركة ، ص ١٠٧ .

بقدرته الَّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله ﷺ بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرَّحمن بن مالك المُدْلِجيُّ ـ وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُم ـ: أنَّ أباه أخبره، أنَّه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول: جاءنا رُسُلُ كفَّار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ، وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدْلِج؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتَّى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة! إنِّي قد رأيت آنفاً أَسْوِدَةً[1] بالسَّاحل، أراها محمَّداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفتُ أنَّهم هم، فقلت له: إنَّهم ليسوا بهم، ولكنَّك رأيتَ فلاناً، وفلاناً، انطلَقوا بأعيننا، ثمَّ لبثتُ في المجلس ساعةً، ثمَّ قمتُ، فدخلتُ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي ـ وهو من وراء أكمةٍ[2] ـ فتَحْبِسَهَا عليَّ، وأخذت رُمْحِي، فخرجت به من ظَهْر البيت، فخططت بزُجِّهِ[3] الأرضَ، وخَفَضْت عاليه، حتَّى أتيتُ فرسي فركبتُها، فرفعتُها (أي: أسرعت بها السَّير) تُقَرِّب بي، حتَّى دنوت منهم، فَعَثَرت بي فرسي، فخررتُ عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[4]، فاستقسمت بها: أَضُرُّهم، أم لا؟ فخرج الَّذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تُقرِّب بي، حتَّى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفتُ، وأبو بكر يكثر الالتفات، سَاخَتْ[5] يدا فرسي في الأرض؛ حتَّى بلغتا الرُّكبتين، فخررتُ عنها، ثُمَّ زجرتها، فنهضتْ، فلم تكد تُخْرِجُ يديها، فلمَّا استوت قائمةً؛ إذا لأثر يديها عُثان[6] ساطعٌ في السَّماء مثلُ الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الَّذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي؛ حتَّى جئتُهم، ووقع في نفسي حين لَقِيتُ ما لَقِيتُ من الحبس عنهم، أن سَيظهرُ أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّية، وأخبرتهم أخبار ما يريد النَّاس بهم، وعرضت عليهم الزَّاد والمتاع، فلم يَرْزآني[7]، ولم يسألاني، إلا أن قال: أخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ، فأمرَ عامرَ بن فهيرة، فكتب في رقعةٍ من أدَمٍ[8]، ثُمَّ مضى رسول الله ﷺ. [البخاري (٣٩٠٦) ومسلم (٢٠٠٩/ ٩١)].

وكان ممَّا اشتهر عند النَّاس من أمر سراقة، ما ذكره ابن عبد البرِّ، وابن حجر، وغيرهما.

---

(١) أسودة: جمع قلَّةٍ لسواد، وهو الشَّخص يُرى من بعيد أسود، الهجرة في القرآن، ص ٣٤٤.
(٢) الأكمة: وهي الرَّابية.
(٣) الزج: الحديدة في أسفل الرُّمح.
(٤) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهليَّة، مكتوب عليها الأمر، أو النهي: افعل، أو لا تفعل.
(٥) ساخت يدا فرسي: أي: غاصت في الأرض.
(٦) عُثان: أي: دخان، وجمعه عواثن على غير قياسٍ، النِّهاية (٣/ ١٨٣).
(٧) فلم يرزآني: أي: لم يأخذا مني شيئاً.
(٨) أدم: قطعة من جلد.

قال ابن عبد البرِّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى ، عن الحسن: أنَّ رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلمَّا أُتِيَ عمرُ بسواري كسرى ، ومِنْطَقَته وتاجه؛ دعا سراقة بن مالكٍ ، فألبسه إيَّاها ، وكان سراقة رجلاً أزَبَّ[١] كثير شعر السَّاعدين ، وقال له: ارفع يديك ، فقال: الله أكبر ، الحمد للهِ الَّذي سلبهما كسرى بن هُرْمز ، الَّذي كان يقول: أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُم أعرابيَّاً من بني مُدْلِج ، ورفع بها عمر صوته[٢] ، ثمَّ أركب سُراقة ، وطوَّف به المدينة ، والنَّاس حوله ، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر ، الحمد للهِ الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن جُعْشُمٍ أعرابيّاً من بني مُدْلِج[٣] .

ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله ﷺ ، وتسليمه لزعماء مكَّة؛ لينال مئة ناقة ، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عَقِب ، ويصبح يردُّ الطلب عن رسول الله ﷺ ، فجعل لا يلقى أحداً من الطَّلب إلا ردَّه ، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه ، فلمَّا اطمأنَّ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصل إلى المدينة المنوَّرة ، جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصَّته ، وقصَّة فرسه ، واشتهر هذا عنه ، وتناقلته الألسنة؛ حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة ، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكَّة ، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج ، ورئيسهم ، فكتب أبو جهل إليهم:

بني مُدْلِجٍ إنِّي أخاف سَفيهَكُمْ ... سراقةَ مستغوٍ لِنَصْرِ مُحَمَّدِ
عَلَيْكُمْ بهِ ألاَّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْ ... فَيُصْبِحَ شَتَّىٰ بَعْدَ عِزٍّ وسُؤْدُدِ

فقال سراقة يردُّ على أبي جهلٍ:

أبا حَكَمٍ والَّلاتِ لَوْ كنتَ شاهداً ... لأَمْرِ جَوَادِي إذْ تسيخُ قَوائِمُهْ
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بأَنَّ مُحَمَّداً ... رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ
عَلَيْكَ فكُفَّ القَوْمَ عَنْهُ فإنَّني ... أرَى أَمْرَهُ يَوْماً سَتَبْدُو مَعالِمُهْ
بأَمْرٍ تَوَدُّ النَّاسُ فِيْهِ بأَسْرِهِمْ ... بأَنَّ جَمِيْعَ النَّاسِ طُرّاً مُسَالِمُهْ[٤]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ:

«ولمَّا سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله ﷺ من مكَّةَ ، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّة فينتظرونه ، حتَّى يردَّهم حرُّ الظَّهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلمَّا أَوَوْا إلى

---

(١) التَّزبب في الإنسان: كثرة الشَّعر ، وطوله.
(٢) انظر: الرَّوض الأنف (٤/ ٢١٨) والهجرة في القرآن ، ص ٣٤٦.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٩٤) ، وانظر أيضاً: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٩٠٦).

بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطُمٍ[١] من آطامهم ، لأمرٍ ينظر إليه ، فبصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضين[٢] ، يزولُ بهم السَّرابُ[٣] ، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشرَ العرب! هذا جَدُّكم[٤] الَّذي تنتظرونَ ، فثار المسلمون إلى السِّلاح ، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرَّة ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتَّى نزَل بِهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين[٥] من شهر ربيع الأوَّل[٦] ، فقام أبو بكر للنَّاس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ـ ممَّن لم يرَ رسول الله ﷺ ـ يُحَيِّي أبا بكرٍ ، حتَّى أصابت الشَّمْسُ رسولَ الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتَّى ظلَّلَ عليه بردائه ، فعرف النَّاس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسولُ الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ عَشْرَةَ ليلةً[٧] ، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى ، وصلَّى فيه رسول الله ﷺ ، ثمَّ ركب راحلته» [البخاري (٣٩٠٦)] .

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدَّة الَّتي مكثها بقُباء ، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاؤوا إلى نبيِّ الله ﷺ وأبي بكر ، فسلَّموا عليهما ، وقالوا: اركبا آمِنَيْن مُطَاعَيْن ، فركب نبيُّ الله ﷺ ، وأبو بكرٍ ، وحَفُّوا دونَهما بالسِّلاح» .

وعند وصوله ﷺ إلى المدينة ، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله ، جاء نبيُّ الله ﷺ ، فأشرفوا ينظرون ، ويقولون: جاء نبيُّ الله» [البخاري (٣٩١١)] .

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ ، لم ترَ المدينة يوماً مثله ، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم ، كأنَّهم في يوم عيدٍ ، ولقد كان حقّاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيِّز الضَّيِّق في مكَّة ، إلى رحابة الانطلاق والانتشار ، بهذه البقعة المباركة (المدينة) ، ومنها إلى سائر بقاع الأرض ، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الَّذي حباهم الله به ، وبالشَّرف الَّذي اختصَّهم به أيضاً ، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله ﷺ ، وصحابته المهاجرين ، ثم لنصرة الإسلام ، كما أصبحت موطناً للنِّظام الإسلاميِّ العامِّ ، والتَّفصيليِّ بكلِّ مقوِّماته ، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ ، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله[٨]!

---

(١) أطم ـ بضم أوله وثانيه ـ: الحصن .
(٢) مُبَيَّضين: عليهم ثياب بيض .
(٣) السَّراب: أي: يزول السَّراب عن النَّظر بسبب عروضهم له .
(٤) جدَّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الَّذي تتوقَّعونه .
(٥) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد ، وشذَّ من قال: يوم الجمعة ، (الفتح شرح حديث رقم ٣٩٠٦) .
(٦) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٥١ .
(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٢ .
(٨) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٥٣ .

روى الإمام مسلمٍ بسنده ، قال: «عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة؛ صعد الرِّجال ، والنِّساء فوق البيوت ، وتفرَّق الغِلْمَان ، والخدم في الطُّرق ، ينادون: يا محمد! يا رسول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!» [مسلم (٣٠١٤/م)] .

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريِّ العظيم؛ الَّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيَّة سار رسول الله ﷺ حتَّى نزل في دار أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يسيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه ليُحدِّثُ أهلَه(١)؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلَام ، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِف(٢) لهم ، فعجَّل أن يضع الَّذي يَخْتَرِف لهم فيها ، فجاء وهي معه ، فسمع من نبيِّ الله ﷺ ، ثمَّ رجع إلى أهله ، فقال نبيُّ الله ﷺ : أيُّ بيوتِ أهلنا(٣) أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي ، قال: فانْطَلِقْ فهيىءْ لنا مقيلاً(٤) . . . .» [البخاري (٣٩١١)] ، ثمَّ نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوبٍ حتَّى بنى مسجده ، ومساكنه .

وبهذا قد تمَّت هجرته ﷺ ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها ، وغاياتها ، بل بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة ، وبدأت معها رحلة المتاعب ، والمصاعب ، والتَّحدِّيات ، فتغلَّب عليها رسول الله ﷺ للوصول للمستقبل الباهر للأمَّة ، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً ، على أسس من الإيمان ، والتَّقوى ، والإحسان ، والعدل بعد أن تغلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم ، وهما: دولة الفرس ، ودولة الرُّوم(٥) .

عاشراً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبر:

١ ـ الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ ، وممتدٌّ:

وهو سنَّةٌ إلٰهيَّةٌ نافذةٌ ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] .

---

(١) الضَّمير هنا للنَّبيِّ ﷺ فتح الباري (٧/ ٢٥١).
(٢) يخترف: أي: يجتني من ثمارها ، انظر: النِّهاية (٢/ ٢٤).
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٥٤.
(٤) مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القيلولة.
(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٥٥.

ولكنَّ هذا الصِّراع معلومُ العاقبة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

٢ ـ مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌ متكرِّرٌ:

سواءٌ عن طريق الحبس، أو القتل، أو النَّفي، والإخراج من الأرض، وعلى الدَّاعية أن يلجأ إلى ربِّه، وأن يثق به، ويتوكَّل عليه، ويعلم: أنَّ المكر السَّيئ لا يحيق إلا بأهله(١)، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدَّعوة استخدام سلاح المال لإغراء النُّفوس الضَّعيفة، للقضاء على الدَّعوة والدُّعاة، ولذلك رصدوا مئة ناقةٍ، لمن يأتي برسول الله ﷺ حيّاً، أو ميتاً، فتحرَّك الطَّامعون، ومنهم سراقة؛ الَّذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديّاً، بأوفر ربح، وأطيب رزقٍ، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمِّي الطريق على الطَّامعين الآخرين، الَّذين اجتهدوا في الطَّلب، وهكذا يردُّ الله عن أوليائه والدُّعاة(٢). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٣ ـ دقَّة التَّخطيط، والأخذ بالأسباب:

إنَّ مَنْ تأمَّل حادثة الهجرة، ورأى دقَّة التَّخطيط فيها، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنَّ التَّخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً، وأنَّ التَّخطيط جزءٌ من السُّنَّة النَّبويَّة، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كل ما طولب به المسلم، وأنَّ الَّذين يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنَّ التخطيط، وإحكام الأمور ليسا من السُّنَّة؛ أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين(٣).

فعندما حان وقت الهجرة للنَّبيِّ ﷺ، وشرع النَّبيُّ ﷺ في التَّنفيذ، نلاحظ الآتي:

* وجود التَّنظيم الدَّقيق للهجرة حتَّى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ، وذلك أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة، كان مدروساً دراسةً وافيةً؛ فمثلاً:

---

(١) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٩٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٠.
(٣) الأساس في السُّنَّة، لسعيد حوَّى (١/ ٣٥٧).

١ ـ جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر ، في وقت شدَّة الحرِّ ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ ـ؛ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت ، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

٢ ـ إخفاء شخصيته ﷺ في أثناء مجيئه للصِّدِّيق ، وجاء إلى بيت الصِّدِّيق متلثماً؛ لأنَّ التلثُّم يقلِّل من إمكانية التعرُّف على معالم الوجه المتلثم(١).

٣ ـ أمر ﷺ أبا بكر أن يُخْرِج مَن عنده ، ولما تكلَّم لم يبيِّن إلا الأمر بالهجرة ، دون تحديد الاتجاه.

٤ ـ كان الخروج ليلاً ، ومن بابٍ خلفيٍّ في بيت أبي بكرٍ(٢).

٥ ـ بلغ الاحتياط مداه ، باتِّخاذ طرقٍ غير مألوفةٍ للقوم ، والاستعانة في ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية ، ومسارب الصَّحراء ، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ، ما دام على خُلُقٍ ورزانةٍ ، وفيه دليلٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها(٣).

* انتقاء شخصياتٍ عاقلةٍ لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة ، ويلاحظ أنَّ هذه الشَّخصيات كلَّها تترابط برباط القرابة ، أو برباط العمل الواحد ، ممَّا يجعل من هؤلاء الأفراد ، وحدةً متعاونةً على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كلِّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب؛ الذي يجيد القيام به على أحسن وجهٍ؛ ليكون أقدر على أدائه ، والنُّهوض بتبعاته.

* فكرة نوم عليِّ بن أبي طالب مكان الرَّسول ﷺ فكرةٌ ناجحةٌ ، قد ضلَّلت القوم ، وخدعتهم ، وصرفتهم عن الرَّسول ﷺ ، حتَّى خرج في جنح اللَّيل ، تحرسه عناية الله ، وهم نائمون ، ولقد ظلَّت أبصارهم معلَّقةً بعد اليقظة ، بمضجع الرَّسول ﷺ ، فما كانوا يشكُّون في أنَّه ما يزال نائماً ، مُسجّىً في بردته ، في حين أنَّ النَّائم هو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

* وقد كان عملُ أبطال هذه الرِّحلة على النَّحو التالي:

١ ـ عليٌّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرَّسول ﷺ؛ ليخدع القوم؛ ويُسلِّم الودائع ، ويلحق بالرَّسول ﷺ بعد ذلك.

٢ ـ عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصَّادق ، وكاشف تحرُّكات العدوِّ.

---

(١) في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٤١.
(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٧.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٦١.

٣ ـ أسماء ذات النِّطاقين: حاملة التموين من مكَّة إلى الغار، وسط جنون المشركين؛ بحثاً عن محمَّدٍ ﷺ ليقتلوه.

٤ ـ عامر بن فهيرة: الرَّاعي البسيط الذي قدَّم اللَّحم واللَّبن إلى صاحبي الغار، وبدَّد آثار أقدام المسيرة التَّاريخيَّة بأغنامه كي لا يتفرَّسها القوم!! لقد كان هذا الرَّاعي يقوم بدور الإمداد، والتَّموين، والتَّعمية.

٥ ـ عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصَّحراء البصير ينتظر في يقظةٍ إشارة البدء من الرَّسول ﷺ؛ ليأخذ الرَّكبُ طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبيرٌ للأمور على نحوٍ رائعٍ دقيقٍ، واحتياطٌ للظُّروف بأسلوبٍ حكيمٍ، وَوَضْعٌ لكلِّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسدٌّ لجميع الثَّغرات، وتغطيةٌ بديعةٌ لكلِّ مَطالب الرِّحلة، واقتصارٌ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ، ولا إسرافٍ.

لقد أخذ الرَّسول ﷺ بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته، وقدرته؛ ومن ثمَّ باتت عنايةُ الله متوقَّعةً[1].

٤ ـ الأخذ بالأسباب أمرٌ ضروريٌّ:

إنَّ اتخاذ الأسباب أمرٌ ضروريٌّ وواجبٌ؛ ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة؛ ذلك لأنَّ هذا أمرٌ يتعلَّق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكُّل أمراً ضروريّاً، وهو من باب استكمال اتِّخاذ الأسباب.

إنَّ رسول الله ﷺ أعدَّ كلَّ الأسباب، واتَّخذ كلَّ الوسائل؛ ولكنَّه في الوقت نفسه مع الله، يدعوه، ويستنصره أن يكلِّل سعيه بالنَّجاح، وهنا يُستجاب الدُّعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض، ويكلَّل العمل بالنَّجاح[2].

٥ ـ الإيمان بالمعجزات الحسِّيَّة:

وفي هجرة النَّبيِّ ﷺ وقعت معجزاتٌ حسِّيَّةٌ، وهي دلائل ملموسةٌ على حفظ الله، ورعايته لرسوله ﷺ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج العنكبوت على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أمِّ معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إيَّاه بأن يلبس سواري كسرى، فعلى الدُّعاة ألا يتنصَّلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتةً بالسُّنَّة النَّبويَّة، على أن

---

(١) انظر: أضواء على الهجرة، لتوفيق محمَّد، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٧.

(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ١٤٨.

ينبِّهوا الناس على أن هذه الخوارق ، هي من جملة دلائل نبوَّته ، ورسالته عليه السَّلام[١] .

٦ ـ جواز الاستعانة بالكافر المأمون :

ويجوز للدُّعاة أن يستعينوا بمن لا يُؤمنون بدعوتهم ما داموا يثقون بهم ، ويأتمنونهم ؛ فقد رأينا : أنَّ النَّبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ استأجرا مشركاً ليدلهما على طريق الهجرة ، ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه عند غار ثور ، وهذه أمورٌ خطيرةٌ أطلعاه عليها ، ولاشكَّ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ ، وأبا بكر وثقا به ، وأمَّناه ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكافر ، أو العاصي ، أو غير المنتسب إلى الدُّعاة ، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدُّعاة بهم ، كأن تربطهم رابطة القرابة ، أو المعرفة القديمة ، أو الجوار ، أو عمل معروف كان قد قدَّمه الدَّاعية لهم ، أو لأن هؤلاء عندهم نوعٌ جيِّدٌ من الأخلاق الأساسيَّة ؛ مثل الأمانة ، وحبِّ عمل الخير ، إلى غير ذلك من الأسباب ، والمسألة تقديريَّة ، يترك تقديرها إلى فطنة الدَّاعي ، ومعرفته بالشَّخص[١] .

٧ ـ دور المرأة في الهجرة :

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماءٌ كثيرةٌ ، كان لها فضلٌ كبيرٌ ، ونصيبٌ وافرٌ من الجهاد ؛ منها : عائشة بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق ؛ الَّتي حفظت لنا القصَّة ، ووعتها ، وبلَّغتها للأمَّة ، وأمُّ سلمة المهاجرة الصَّبور ، وأسماء ذات النِّطاقين[٢] ، الَّتي أسهمت في تموين الرَّسول ﷺ وصاحبه في الغار ، بالماء ، والغذاء ، وكيف تحمَّلت الأذى في سبيل الله ، فقد حدَّثتنا عن ذلك ، فقالت : «لمَّا خرج رسول الله ﷺ ، وأبو بكرٍ رضي الله عنه أتانا نفرٌ من قريشٍ ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكرٍ ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوكِ يا بنتَ أبي بكرٍ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي!

قالت : فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خَدِّي لطمةً ، طرح منها قُرْطِي ، قالت : ثمَّ انصرفوا» [الطبري في تاريخه (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) وابن هشام (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢)][٣] .

فهذا درسٌ من أسماء رضي الله عنها ؛ تعلِّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل ، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء ، وكيف تقف صامدةً شامخةً أمام قوى البغي والظُّلم! وأمَّا درسها الثَّاني البليغ ، فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : «والله إنِّي لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه» ، قالت : «كلا يا أبت! ضع يدك على هذا المال» قالت : «فوضع يده عليه» ، فقال : «لابأس ، إذا كان ترك لكم هذا ؛ فقد أحسن» ، وفي هذا بلاغ لكم ، قالت :

---

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٨) .

(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٦ .

«ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنِّي أردت أن أسكِّن الشَّيخ بذلك»[(١)].

وبهذه الفطنة ، والحكمة ، سترت أسماء أباها ، وسكَّنت قلب جدِّها الضرير ، من غير أن تكذب فإنَّ أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار الَّتي كوَّمتها؛ لتطمئن لها نفس الشَّيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال ، ولا تحرِّكه العواصف الهوج ، ولا يتأثر بقلَّةٍ أو كثرةٍ في المال ، وورَّثهم يقيناً ، وثقةً به لا حدَّ لها ، وغرس فيهم همَّةً تتعلَّق بمعالي الأمور ، ولا تلتفت إلى سفاسفها[(٢)] ، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزَّ أن يتكرَّر ، وقلَّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء ، وبنات المسلمين مثلاً هُنَّ في أمسِّ الحاجة إلى الاقتداء به ، والنَّسج على مِنواله.

وظلَّت أسماء مع أخواتها في مكَّة ، لا تشكو ضيقاً ، ولا تظهر حاجةً ، حتَّى بعث النَّبيُّ ﷺ زيد بن حارثة ، وأبا رافع مولاه ، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهمٍ إلى مكَّة ، فقدما عليه بفاطمة ، وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجه ، وأسامة بن زيد ، وأُمُّه بركة المكنَّاة بأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ ، فيهم عائشة ، وأسماء ، فقدموا المدينة ، فأنزلهم في بيت حارثة بن النُّعمان[(٣)].

٨ ـ أمانات المشركين عند رسول الله ﷺ:

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له ، وتصميمهم على قتله دليلٌ باهرٌ على تناقضهم العجيب ، الَّذي كانوا واقعين فيه؛ ففي الوقت الَّذي كانوا يكذِّبونه ، ويزعمون: أنَّه ساحرٌ ، أو مجنونٌ ، أو كذَّابٌ ، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم مَنْ هو خيرٌ منه أمانةً وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم ، ولا أموالهم الَّتي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدلُّ على أنَّ كفرانهم ، لم يكن بسبب الشَّكِّ لديهم في صدقه؛ وإنَّما بسبب تكبُّرهم ، واستعلائهم على الحقِّ الَّذي جاء به ، وخوفاً على زعامتهم ، وطغيانهم[(٤)] ، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وفي أمر الرَّسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكَّة؛ برغم هذه

---

(١) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ١٠٢) ، وإسناده صحيح.
(٢) السَّفْسَافُ: الرَّديءُ الحقير من كل شيء ، والجمع: سَفَاسِف.
(٣) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٨.
(٤) انظر: فقه السِّيرة ، للدُّكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ١٩٣.

الظُّروف الشَّديدة؛ الَّتي كان من المفترض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتَّجه التَّفكير إلا إلى إنجاح خطَّة هجرته فقط؛ برغم ذلك فإنَّ الرَّسول ﷺ ما كان لينسى، أو ينشغل عن ردِّ الأمانات إلى أهلها، حتَّى ولو كان في أصعب الظُّروف الَّتي تُنسي الإنسان نفسه، فضلاً عن غيره(١).

٩ ـ الرَّاحلة بالثَّمن:

لم يقبل رسولُ الله ﷺ أن يركب الرَّاحلة، حتَّى أخذها بثمنها من أبي بكرٍ رضي الله عنه، واستقرَّ الثَّمن دَيْناً بذمَّته، وهذا درسٌ واضحٌ بأنَّ حملة الدَّعوة لا ينبغي أن يكونوا عالةً على أحدٍ في وقتٍ من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كلِّ شيءٍ.

إنَّ يدهم إن لم تكن العليا، فلن تكون السُّفلى، وهكذا يصرُّ ﷺ أن يأخذها بالثَّمن، وسلوكه ذلك هو التَّرجمة الحقَّة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

إنَّ الذين يحملون العقيدة، والإيمان، ويبشِّرون بهما، ما ينبغي أن تمتدَّ أيديهم إلى أحدٍ إلا الله؛ لأنَّ هذا يتناقض مع ما يدعون إليه، وقد تعوَّد النَّاس أن يعوا لغة الحال؛ لأنَّها أبلغ من لغة المقال، وما تأخَّر المسلمون، وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدَّعوة، والعاملون بها خاضعين لِلُغة المادَّة؛ إذ ينتظر الواحد منهم مرتَّبه، ويومها تحوَّل العمل إلى عملٍ ماديٍّ؛ فقَد الرُّوح، والحيويَّة، والوضاءة، وأصبح للأمر بالمعروف موظَّفون، وأصبح الخطباء موظَّفين، وأصبح الأئمَّة موظَّفين.

إنَّ الصَّوت الَّذي ينبعث من حنجرةٍ وراءها الخوف من الله، والأمل في رضاه، غير الصَّوت الَّذي ينبعث ليتلقَّى دراهم معدودة، فإذا توقَّفت؛ توقف الصَّوت، وقديماً قالوا: «ليست النَّائحة كالثَّكلى»؛ ولهذا قلَّ التأثير، وبَعُدَ النَّاس عن جادَّة الصَّواب(٢).

١٠ ـ الدَّاعية يَعفُّ عن أموال النَّاس:

لمَّا عفا النَّبيُّ ﷺ عن سراقة؛ عرض عليه سراقة المساعدة، فقال: «وهذه كنانتي فخذ منها سهماً؛ وإنَّك ستمرُّ بإبلي، وغنمي في موضع كذا، وكذا، فخذ منها حاجتك». فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لي فيها» [أحمد (١/ ٣) ومسلم (٣٠١٤/ م)](٣).

فحين يزهد الدُّعاة فيما عند النَّاس، يحبُّهم الناس، وحين يطمعون في أموال النَّاس، ينفر

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٣٦٤.
(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ١٤٨، ١٤٩.
(٣) في البخاريِّ: «وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يَرْزآني» رقم (٣٩٠٦).

النَّاس منهم ، وهذا درسٌ بليغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى[(١)] .

١١ ـ الجندية الرَّفيعة والبكاء من الفرح :

تظهر أثر التَّربية النَّبويَّة ، في جندية أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ؛ فأبو بكرٍ رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة ، وقال له رسول الله ﷺ : «لا تعجل ؛ لعلَّ الله يجعل لك صاحباً» ؛ بدأ في الإعداد والتَّخطيط للهجرة ؛ فابتاع راحلتين ، واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك ، وفي رواية البخاريِّ : «وعلف راحلتين كانتا عندهُ ورقَ السَّمُر ـ وهو الخَبَط ـ أربعة أشهر» [البخاري (٣٩٠٥) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٧٣)] لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه ـ وهو الَّذي تربَّى ؛ ليكون قائداً ـ : أنَّ لحظة الهجرة صعبةٌ ، قد تأتي فجأةً ، ولذلك هيَّأ وسيلة الهجرة ، ورتَّب تموينها ، وسخَّر أسرته لخدمة النَّبيِّ ﷺ ، وعندما جاء رسول الله ﷺ ، وأخبره : أنَّ الله قد أذن له في الخروج ، والهجرة ؛ بكى من شدَّة الفرح ، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشَّأن : «فوالله! ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم : أنَّ أحداً يبكي من الفرح ؛ حتَّى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ» ، إنَّها قمَّة الفرح البشريِّ أن يتحوَّل الفرح إلى بكاءٍ ، كما قال الشَّاعر عن هذا :

وَرَدَ الكِتَابُ مِنَ الحَبِيْبِ بِأَنَّهُ ... سَيَزُورُنِي فَاستعبرتْ أَجْفَانِي
غَلَبَ السُّرورُ عليَّ حتَّى إنَّني ... مِنْ فرْطِ ما قَدْ سرَّني أَبْكَانِي
يا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةً ... تَبْكِيْنَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانِ

فالصِّدِّيق رضي الله عنه ، يعلم : أنَّ معنى هذه الصُّحبة : أنَّه سيكون وحدَه برفقة رسول ربِّ العالمين ، بضعة عشر يوماً على الأقلِّ ، وهو الَّذي سيقدِّم حياته لسيِّده ، وقائده ، وحبيبه المصطفى ﷺ ، فأيُّ فوزٍ في هذا الوجود يفوق هذا الفوز : أن يتفرَّد الصِّدِّيق وحدَه من دون أهل الأرض ، ومن دون الصَّحب جميعاً برفقة سيِّد الخلق ﷺ وصحبته كلَّ هذه المدَّة[(٢)] . وتظهر معاني الحبِّ في الله في خوف أبي بكرٍ ، وهو في الغار من أن يراهما المشركون ؛ ليكون الصِّدِّيق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جنديُّ الدَّعوة الصَّادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوفٍ ، وإشفاقٍ على حياته ؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالَّذي يخشى على نفسه الموت ، ولو كان كذلك ؛ لما رافق رسولَ الله ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة ، وهو يعلم : أنَّ أقلَّ جزائه القتلُ ؛ إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ ؛ ولكنَّه كان يخشى على حياة الرَّسول الكريم ﷺ ، وعلى مستقبل الإسلام ؛ إن وقع الرَّسول ﷺ في قبضة المشركين[(٣)] .

---

(١) انظر : في ظلال الهجرة النَّبويَّة ، ص ٥٨ .
(٢) انظر : التربية القياديَّة (٢/ ١٩١ ، ١٩٢) .
(٣) السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، للسِّباعي ، ص ٧١ .

ويظهر الحسُّ الأمنيُّ الرَّفيع للصِّدِّيق في هجرته مع النَّبيِّ ﷺ ، في مواقف كثيرةٍ؛ منها: حين أجاب السَّائل: مَنْ هذا الرَّجل الَّذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السَّبيل ، فظنَّ السائل بأنَّ الصِّدِّيق يقصد الطريق ، وإنَّما كان يقصد سبيل الخير. [البخاري (٣٩١)][(١)] ، وهذا يدلُّ على حسن استخدام أبي بكرٍ للمعاريض فراراً من الكذب[(٢)] ، وفي إجابته للسَّائل توريةٌ ، وتنفيذٌ للتَّربية الأمنيَّة؛ الَّتي تلقَّاها من رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ الهجرة كانت سرّاً ، وقد أقرَّه الرَّسول ﷺ على ذلك[(٣)].

وفي موقف عليِّ بن أبي طالبٍ مثالٌ للجنديِّ الصَّادق المخلص لدعوة الإسلام؛ حيث فدى قائده بحياته ، ففي سلامة القائد سلامةٌ للدَّعوة ، وفي هلاكه خذلانها ، ووهنها ، وهذا ما فعله عليٌّ رضي الله عنه ليلة الهجرة؛ من بياته على فراش الرَّسول ﷺ ؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس عليٍّ رضي الله عنه ، ولكنَّ عليّاً رضي الله عنه لم يبالِ بذلك ، فحسبه أن يَسْلَم رسول الله ﷺ نبيُّ الأمَّة ، وقائد الدَّعوة[(٤)].

١٢ ـ فنُّ قيادة الأرواح ، وفنُّ التَّعامل مع النُّفوس:

يظهر الحبُّ العميق؛ الَّذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله ﷺ في الهجرة ، كما يظهر حبُّ سائر الصَّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ، وهذا الحبُّ الرَّبَّانيُّ كان نابعاً من القلب وبإخلاصٍ ، لم يكن حبَّ نفاقٍ ، أو نابعاً من مصلحة دنيويَّةٍ ، أو رغبةٍ في منفعةٍ ، أو رهبةٍ لمكروه قد يقع ، ومن أسباب هذا الحبِّ لرسول الله ﷺ صفاته القياديَّة الرَّشيدة ، فهو يسهر؛ ليناموا ، ويتعب؛ ليستريحوا ، ويجوع؛ ليشبعوا ، كان يفرح لفرحهم ، ويحزن لحزنهم ، فمن سلك سنن الرَّسول ﷺ مع صحابته ، في حياته الخاصَّة والعامَّة ، وشارك النَّاس في أفراحهم ، وأتراحهم ، وكان عمله لوجه الله ، أصابه شيءٌ من هذا الحبِّ؛ إنْ كان من الزُّعماء أو القادة أو المسؤولين في أمَّة الإسلام[(٥)]. وصدق الشَّاعر اللِّيبيُّ عندما قال:

فَــإِذَا أَحَــبَّ اللهُ بَــاطِــنَ عبــدِهِ ... ظَهَــرَتْ عَلَيْــهِ مَــوَاهِــبُ الفَتَّــاحِ
وإِذَا صَفَــتْ للهِ نِيَّــةُ مُصْلِــحٍ ... مَــالَ العِبَــادُ عَلَيْــهِ بِــالأَرْوَاحِ[(٦)]

إنَّ القيادة الصَّحيحة هي الَّتي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيءٍ ، وتستطيع أن تتعامل مع

(١) البخاريُّ ، رقم (٣٩١١).
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٤.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٥٤.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٦٨.
(٥) انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٤.
(٦) انظر: الحركة السَّنوسيَّة في ليبيا ، للصَّلابي (٢/٧) ، والشَّاعر هو: أحمد رفيق المهدوي.

النُّفوس قبل غيرها ، وعلى قدر إحسان القيادة ، يكون إحسان الجنود ، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحبُّ من الجنود ، فقد كان ﷺ رحيماً ، وشفيقاً بجنوده ، وأتباعه ، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه ، ولم يبقَ إلا المستضعفون ، والمفتونون ، ومن كانت له مهمَّاتٌ خاصَّةٌ بالهجرة[١] .

١٣ ـ وفي الطَّريق أسلم بُريدة الأسْلَمِيُّ رضي الله عنه في ركبٍ من قومه :

إنَّ المسلم الَّذي تغلغلت الدَّعوة في شغاف قلبه ، لا يفتر لحظة واحدةً عن دعوة النَّاس إلى دين الله تعالى ، مهما كانت الظُّروف قاسيةً ، والأحوال مضطربةً ، والأمن مفقوداً ؛ بل ينتهز كلَّ فرصةٍ مناسبةٍ لتبليغ دعوة الله تعالى ، فهذا نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام حينما زُجَّ به في السِّجن ظُلْماً ، واجتمع بالسُّجناء في السِّجن لم يندُبْ حظَّهُ ، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التَّوحيد ، وتبليغها للنَّاس ، ومحاربة الشِّرك ، وعبادة غير الله ، والخضوع لأيِّ مخلوقٍ .

قال تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧ ـ ٤٠] .

وسورة يوسف عليه السلام مكِّيَّة ، وقد أمر الله تعالى رسوله محمَّداً ﷺ أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله ؛ ولذلك نجده ﷺ في هجرته من مكَّة إلى المدينة ـ وقد كان مطارداً من المشركين ، قد أهدروا دمه ، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة ، ليأتوا برأسه حيّاً أو ميتاً ـ لا ينسى مهمَّته ، ورسالته ، فقد لقي ﷺ في طريقه رجلاً يقال له : بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلميُّ رضي الله عنه ، في رَكْبٍ من قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فآمنوا ، وأسلموا[٢] .

وذكر ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ : «أنَّ النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلميَّ ، فدعاه إلى الإسلام ، وقد غزا مع الرَّسول ﷺ ست عَشْرَة غَزْوة[٣] ، وأصبح بُرَيْدَةُ بعد ذلك من الدُّعاة إلى الإسلام ، وفتح الله لقومه «أسْلَم» على يديه أبوابَ الهداية ، واندفعوا إلى الإسلام ، وفازوا بالوسام النَّبويِّ ؛ الَّذي نتعلَّم

---

(١) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٥ .
(٢) انظر : الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٩ ، وشرح المواهب (١/ ٤٠٥) .
(٣) انظر : الإصابة (١/ ١٤٦) .

منه منهجاً فريداً في فقه النُّفوس [١]. قال ﷺ: «أَسْلَمُ سالمها الله، وغِفَارُ غَفَرَ الله لها، أَما إنِّي لم أَقُلْهَا، ولكنْ قالها الله» [البخاري (٣٥١٤) ومسلم (٢٥١٦)].

١٤ ـ وفي طريق الهجرة أسلم لصَّان على يدي رسول الله ﷺ:

كان في طريقه ﷺ بالقرب من المدينة لصَّان من أَسْلم، يقال لهما: المُهَانَانِ، فقصدهما ﷺ، وعرض عليهما الإسلام، فأسلما، ثمَّ سألهما عن اسميهما، فقالا: نحن المهانان، فقال: بل أنتما المُكْرمان، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [أحمد (٤/ ٧٤)] وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه ﷺ بالدَّعوة إلى الله؛ حيث اغتنم فرصةً في طريقه، ودعا اللِّصَّين إلى الإسلام، فأسلما، وفي إسلام هذين اللِّصين مع ما ألفاه من حياة البطش، والسَّلب، والنَّهب دليلٌ على سرعة إقبال النُّفوس على اتِّباع الحقِّ؛ إذا وجد مَنْ يمثِّله بصدقٍ وإخلاصٍ، وتجرَّدت نفس السَّامع من الهوى المنحرف، وفي اهتمام الرَّسول ﷺ بتغيير اسمي هذين اللِّصين، من المُهَانَيْن إلى المُكْرَمَيْن دليلٌ على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم، إكراماً لهم، ورفعاً لمعنوياتهم.

وإنَّ في رفع معنوية الإنسان تقويةً لشخصيته، ودفعاً له إلى الأمام؛ ليبذل كل طاقته في سبيل الخير، والفلاح [٢].

١٥ ـ الزُّبير، وطلحة رضي الله عنهما، والتقاؤهما برسول الله ﷺ في طريق الهجرة:

وممَّا وقع في الطَّريق إلى المدينة: أنَّه ﷺ لقي الزُّبير بن العوَّام في ركبٍ من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشَّام، فكسا الزُّبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء. [البخاري (٣٩٠٦) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٤٩٨)] [٣]، وكذا روى أصحاب السِّيَر: أنَّ طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشَّام، وكساهما بعض الثِّياب [البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٩٨)] [٤].

١٦ ـ أهمِّيَّة العقيدة والدِّين في إزالة العداوة والضَّغائن:

إنَّ العقيدة الصَّحيحة السَّليمة، والدِّين الإسلاميَّ العظيم لهما أهمِّيَّةٌ كبرى في إزالة العداوات، والضَّغائن، وفي التَّأليف بين القلوب والأرواح، وهو دورٌ لا يمكن لغير العقيدة الصَّحيحة أن تقوم به، وهاقد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلاميَّة بين الأوس، والخزرج، وأزالت آثار معارك استمرَّت عقوداً من الزَّمن، وأغلقت ملف ثاراتٍ كثيرةٍ في مدَّةٍ قصيرةٍ، بمجرَّد

---

(١) انظر: المستدرك على الصَّحيحين (٤/ ٩٢) رقم ٦٩٨١ صحيح الإسناد.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ (٣/ ١٧٨).
(٣) انظر: السِّيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).
(٤) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٤٩٥)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص ١٨١.

التَّمسُّك بها ، والمبايعة عليها ، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار ، فقد استقبلوا المهاجرين بصدورٍ مفتوحةٍ، وتآخوا معهم في مثاليَّةٍ نادرةٍ، لا تزال مثارَ الدَّهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدُّنيا فكرةٌ ، أو شعارٌ آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصَّافية في النُّفوس .

ومن هنا ندرك السِّرَّ في سعي الأعداء الدَّائب إلى إضعاف هذه العقيدة ، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين ، واندفاعهم المستمرِّ نحو تزكية النَّعرات العصبيَّة ، والوطنيَّة ، والقوميَّة ، وغيرها ، وتقديمها كبديلٍ للعقيدة الصَّحيحة(١) .

١٧ ـ فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النَّبيِّ ﷺ :

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب ؛ من أنصارٍ ، ومهاجرين بقدوم رسول الله ﷺ ووصوله إليهم سالماً فرحةً أخرجت النِّساء من بيوتهنَّ ، والولائد ، وحملت الرِّجال على ترك أعمالهم ، وكان موقف يهود المدينة ، موقف المشارك لسكَّانها في الفرحة ظاهراً ، والمتألِّم من منافسة الزَّعامة الجديدة باطناً ، أمَّا فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم ؛ فلا عجب فيها ، فهو الَّذي أخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وأما موقف اليهود ، فلا غرابة فيه ؛ فهم الذين عُرِفوا بالملق ، والنِّفاق للمجتمع ؛ الَّذي فقدوا السَّيطرة عليه ، وبالغيظ ، والحقد الأسود ممَّن يسلبهم زعامتهم على الشُّعوب ، ويَحُول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض ، وسفك دمائها باسم النُّصح ، والمشورة ، وما زال اليهود يحقدون على كلِّ من يخلِّص الشُّعوب من سيطرتهم ، وينتهون من الحقد إلى الدَّسِّ ، والمؤامرات ، ثمَّ إلى الاغتيال إن استطاعوا ، ذلك دينهم ، وتلك جِبِلَّتُهم(٢) .

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم ، بالحفاوة والإكرام ، فقد حدث ذلك لرسول الله ﷺ ، وكان هذا الإكرام ، وهذه الحفاوة ، نابعين من حبٍّ للرسول ﷺ ؛ بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر ، ويستفاد كذلك التنافس في الخير ، وإكرام ذوي العلم والشرف ، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسولَ الله ﷺ ، وتعرض أن يكون رجالها حُراساً له ، ويؤخذ من هذا ، إكرام العلماء والصالحين ، واحترامهم وخدمتهم(٣) .

١٨ ـ مقارنة بين الهجرة ، والإسراء والمعراج :

كانت الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة على النَّحو الَّذي كانت عليه ، وسارت على الوضع الَّذي يسلكه

---

(١) انظر : الهجرة النَّبوية المباركة ، ص ٤٠٥ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٤٣ ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٦٧ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

كلُّ مهاجرٍ ؛ حتَّى توجد القدوة ، وتتحقَّق الأسوة ، ويسير المسلمون على نهجٍ مألوفٍ ، وسبيلٍ معروفٍ ، ولذلك ، فلم يرسلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له ﷺ البراق ليهاجر عليه ـ كما حدث في ليلة الإسراء ـ مع أنَّ الرَّسول ﷺ في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أيِّ وقتٍ آخر ؛ لأنَّ القوم يتربَّصون به هنا ، ولم يكن هناك تربُّص في ليلة الإسراء ، ولو ظفروا به في هجرته ؛ لشفوا نفوسهم منه بقتله .

والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ : أنَّ الهجرة كانت مرحلةً طبيعيَّةً من مراحل تطوُّر الدَّعوة ، ووسيلةً من أهمِّ وسائل نشرها ، وتبليغها ، ولم تكن خاصةً برسول الله ﷺ ؛ بل كان غيره من المؤمنين مكلَّفين بها ، حين قطع الإسلام الولاية[1] بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

أمَّا رحلة الإسراء ، والمعراج ، فكانت رحلةَ تشريفٍ ، وتقديرٍ ، كما كانت إكراماً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيِّه ﷺ ؛ ليطلعه على عالم الغيب ، ويريه من آياته الكبرى ، فالرِّحلة من أولها إلى آخرها خوارق ، ومعجزاتٌ ، ومشاهد للغيبيَّات ، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهةً لغايتها .

زِدْ على ذلك : أنَّ رحلة الإسراء خصوصيَّةٌ للرسول ﷺ ، وليس لأحدٍ من النَّاس أن يتطلَّع لمثلها ، ولسنا مطالبين بالاقتداء به فيها ، ولذا فإنَّ حصولها على النَّحو ؛ الَّذي كانت عليه ، هو أنسب الأوضاع لحدوثها[2] .

١٩ ـ وضوح سنَّة التَّدرُّج :

حيث نلاحظ : أنَّ رسول الله ﷺ عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى ، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام ، وتلاوة القرآن عليهم ، فلمَّا جاؤوا في العام التالي ، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات ، والأخلاق ، والفضائل ، فلمَّا جاؤوا في العام التالي ؛ كانت بيعة العقبة الثَّانية على الجهاد ، والنَّصر ، والإيواء[3] .

وجديرٌ بالملاحظة : أنَّ بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين ، أي بعد تأهيلٍ ، وإعدادٍ

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٣٦٥ .
(٢) انظر : تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، بتصرُّف .
(٣) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٢ .

استمرَّ عامين كاملين ، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّجٍ ينسجم مع المنهج التَّربويِّ الَّذي نهجت عليه الدَّعوة من أوَّل يومٍ(١) .

إنَّه المنهج الَّذي هدى الله نبيَّه ﷺ إلى التزامه ، ففي البيعة الأولى ، بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام ؛ عقيدةً ، ومنهاجاً ، وتربية ، وفي البيعة الثانية ، بايعه الأنصار على حماية الدَّعوة ، واحتضان المجتمع الإسلاميِّ ؛ الذي نضجت ثماره ، واشتدَّت قواعده قوَّةً وصلابةً .

إنَّ هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التَّربويِّ للدَّعوة الإسلاميَّة ، وإنَّ الأمر الأول هو المضمون ، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السِّياج الَّذي يحمي ذلك المضمون ، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام ، وليس فور إعلانهم .

بعد عامين ؛ إذ تمَّ إعدادهم حتَّى غدوا موضع ثقةٍ، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ : أنَّ بيعة الحرب لم يسبق أن تمَّت قبل ذلك اليوم مع أيِّ مسلم ؛ إنَّما حصلت عندما وجدت الدَّعوة في هؤلاء الأنصار ، وفي الأرض الَّتي يقيمون فيها المعقل الملائم ؛ الَّذي ينطلق منه المحاربون ؛ لأنَّ مكَّة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب(٢) .

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «ألاَّ يُحمِّلَهم واجبَ القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام ، تكون لهم بمثابة معقلٍ يأوون إليه ، ويلوذون به ، وقد كانت المدينة المنوَّرة أوَّل دار إسلامٍ»(٣) .

لقد كانت البيعة الأولى قائمةً على الإيمان بالله ، ورسوله ﷺ ، والبيعة الثَّانية على الهجرة ، والجهاد ، وبهذه العناصر الثلاثة : الإيمان بالله ، والهجرة ، والجهاد ، يتحقَّق وجود الإسلام في واقع جماعيٍّ ممكنٍ ، والهجرة لم تكن لتتمَّ لولا وجود الفئة المستعدَّة للإيواء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

وقد كانت بيعة الحرب هي التَّمهيد الأخير لهجرة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وَجَدَ الإسلامُ موطنَه ؛ الَّذي ينطلق منه دعاةُ الحقِ بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتنطلق منه

---

(١) انظر : بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة ، لمحمد توفيق ، ص ١١٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٧٢ .

جحافل الحقِّ المجاهدة أوَّل مرَّةٍ ، وقامت الدَّولة الإسلاميَّة المحكِّمة لشرع الله(١) .

٢٠ ـ الهجرة تضحيةٌ عظيمةٌ في سبيل الله :

كانت هجرة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه من البلد الأمين تضحيةً عظيمةً ، عبَّر عنها النَّبيُّ ﷺ بقوله : «والله! إنك لخير أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخرِجت منك ما خرجتُ» [أحمد (٤/ ٣٠٥) والترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة ؛ قدمها ، وهي أوبأ أرض الله من الحمَّى ، وكان واديها يجري نجلاً ـ يعني ماءً آجناً ـ فأصاب أصحابَه منها بلاءٌ ، وسقمٌ ، وصرف الله ذلك عن نبيِّه ، قالت : فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال ، في بيتٍ واحدٍ ، فأصابتهم الحمَّى ، فاستأذنتُ رسولَ الله ﷺ في عيادتهم ، فأذن ، فدخلت إليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدَّة الوعك(٢) ، فدنوت من أبي بكرٍ ، فقلت : يا أبتِ كيف تجدُك؟ فقال :

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... والمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

قالت : فقلت : والله! ما يدري أبي ما يقول ، ثم دنوت من عامر بن فهيرة ، فقلت : كيف تجدُك يا عامر؟! فقال :

لَقَدْ وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ ... إنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ(٣) ... كالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ(٤)

قالت : فقلت : والله! ما يدري عامر ما يقول . قالت : وكان بلال إذا أقلع عنه الحمَّى ، اضطجع بفناء البيت ، ثمَّ يرفع عقيرته(٥) ، ويقول :

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ(٦) وَجَلِيْلُ
وهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيْلُ(٧)

قالت : فأخبرت رسولَ الله ﷺ بذلك ، فقال : «اللهمَّ! حبِّبْ إلينا المدينة ، كما حببت إلينا

---

(١) انظر : الغرباء الأوَّلون ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٢) الوعك : الحمَّى .
(٣) بطوقه : بطاقته .
(٤) بروقه : بقرنه .
(٥) عقيرته : صوته ، قال الأصمعيُّ : إنَّ رجلاً عُقرت رجله ، فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له : رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله .
(٦) الإذخر : نباتٌ طيِّب الرَّائحة .
(٧) شامة وطفيل : جبلان مشرفان على مِجَنَّة على بريد مكة .

مكَّة ، أو أشدَّ ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ . اللَّهمَّ! باركْ لنا في مُدِّنا ، وصاعنا» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

وقد استجاب الله دعاء نبيِّه ﷺ ، وعُوفي المسلمون بعدها من هذه الحمَّى ، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكلِّ الوافدين ، والمهاجرين إليها ، من المسلمين على تنوُّع بيئاتهم ، ومواطنهم(١) .

٢١ ـ مكافأة النَّبيِّ ﷺ لأمِّ معبد :

وقد روي : أنَّها كثرت غنمها ، ونمت ؛ حتَّى جلبت منها جَلَباً إلى المدينة ، فمرَّ أبو بكر ، فرآه ابنها فعرفه ، فقال : يا أُمَّه! هذا هو الرَّجل الَّذي كان مع المبارك .

فقامت إليه فقالت : يا عبد الله! مَنِ الرَّجل الَّذي كان معك؟ قال : أو ما تدرين من هو؟! قالت : لا! قال : هو نبيُّ الله ، فأدخلها عليه ، فأطعمها رسولُ الله ﷺ ، وأعطاها ، وفي روايةٍ : فانطلقت معي ، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئاً من أقطٍ ، ومتاع الأعراب ، فكساها ، وأعطاها ، قال : ولا أعلمه إلا قال : وأسلمت ، وذكر صاحب (الوفاء) : أنَّها هاجرت هي وزوجها ، وأسلم أخوها خُنَيْس ، واستشهد يوم الفتح(٢) .

٢٢ ـ أبو أيُّوبٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه ومواقف خالدة :

قال أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه : «لمَّا نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي ؛ نزل في السُّفْل ، وأنا وأمُّ أيوبٍ في العُلْو ، فقلت له : يا نبيَّ الله ـ بأبي أنت ، وأمي! إنِّي لأكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظْهَرْ أنت ، فكن في العلوِّ ، وننزل نحن فنكون في السُّفل ، فقال : يا أبا أيوب! إنَّ أرفق بنا ، وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت .

قال : فلقد انكسر حُبٌّ(٣) لنا فيه ماءٌ ، فقمت أنا ، وأمُّ أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشِّفُ بها الماء ؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيءٌ ، فيؤذيه» [ابن هشام (٢/ ١٤٤)](٤) .

٢٣ ـ هجرة عليٍّ رضي الله عنه وأمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد :

بعد أن أدَّى عن رسول الله ﷺ الأمانات الَّتي كانت عنده للنَّاس لحق برسول الله ﷺ ، وأدركه بقُباء بعد وصوله بليلتين ، أو ثلاثٍ ، فكانت إقامته بقُباء ليلتين ، ثمَّ خرج مع النَّبيِّ ﷺ

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ٣١٠) .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٨٩ ، ٤٩٠) .

(٣) الحُبُّ : الجرَّة الضَّخمة .

(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/ ٢٢٠) .

إلى المدينة يوم الجمعة[١] ، وقد لاحظ سيِّدنا عليٌّ مدَّة إقامته بقُباء امرأةً مسلمة لا زوج لها ، ورأى إنساناً يأتيها من جوف اللَّيل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه ، فيعطيها شيئاً معه ، فتأخذه ، قال: فاستربت بشأنه ، فقلت لها: يا أمةَ الله! مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلَّ ليلةٍ فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو! وأنت امرأةٌ مسلمةٌ لا زوج لك؟ قالت: هذا سهلُ بن حُنيف ، قد عرف أني امرأةٌ لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه ، فكسرها ، ثمَّ جاءني بها ، فقال: احتطبي بهذا ، فكان عليٌّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف ، حين هلك عنده بالعراق[٢].

٢٤ ـ الهجرة النَّبويَّة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النَّبويَّة من مكَّة المشرَّفة إلى المدينة المنوَّرة أعظم حدثٍ حوَّل مجرى التَّاريخ ، وغيَّر مسيرة الحياة ، ومناهجها؛ التي كانت تحياها ، وتعيش محكومةً بها في صورة قوانين ، ونظمٍ ، وأعرافٍ ، وعاداتٍ ، وأخلاقٍ ، وسلوكٍ للأفراد والجماعات ، وعقائد ، وتعبُّداتٍ ، وعلمٍ ، ومعرفةٍ ، وجهالةٍ ، وسفه ، وضلالٍ ، وهدًى ، وعدلٍ ، وظلمٍ»[٣].

٢٥ ـ الهجرة من سنن الرُّسل الكرام:

إنَّ الهجرة في سبيل الله سنَّةٌ قديمة ، ولم تكن هجرة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ بدعاً في حياة الرُّسل لنصرة عقائدهم ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ، ومسقط رأسه من أجل الدَّعوة حفاظاً عليها ، وإيجاداً لبيئةٍ خصبةٍ تتقبلها ، وتستجيب لها ، وتذود عنها؛ فقد هاجر عددٌ من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها ، التي دعت نبيَّنا للهجرة.

وذلك: أنَّ بقاء الدَّعوة في أرضٍ قاحلةٍ لا يخدمها؛ بل يعوق مسارها ، ويشلُّ حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم نماذج من هجرات الرُّسل ، وأتباعهم من الأمم الماضية؛ لتبدو لنا في وضوحٍ سنَّةٌ من سنن الله في شأن الدَّعوات ، يأخذ بها كلُّ مؤمن من بعدهم؛ إذا حيل بينه وبين إيمانه ، وعزَّته ، واستُخفَّ بكيانه ، ووجوده ، واعتُدِيَ على مروءته وكرامته[٤].

هذه بعض الفوائد ، والعبر ، والدروس ، وأترك للقارئ الكريم أن يستخرج غيرها ، ويستنبط سواها من الدُّروس ، والعبر ، والفوائد الكثيرة النَّافعة من هذا الحدث العظيم.

* * *

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/ ٤٩٧).

(٢) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصَّادق عرجون (٢/ ٤٢١) ، ويأثر ذلك: أي: يرويه ويحكيه.

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٢٣).

(٤) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٧٥.

المبحث الثَّاني
الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ، والوعد لمن هاجر منهم، والوعيد لمن تخلَّف

تُعَدُّ الهجرةُ النَّبويَّة المباركة من مكَّة إلى المدينة أهمَّ حدثٍ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ إذ كانت نقطة تحوُّل في تاريخ المسلمين؛ فقد كان المسلمون قبل الهجرة أمَّة دعوةٍ، يبلغون دعوة الله للنَّاس، دون أن يكون لهم كيانٌ سياسيٌّ، يحمي الدَّعاة، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكوَّنت دولة الدَّعوة، هذه الدَّولة الَّتي أخذت على عاتقها نشر الإسلام، في داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها، ترسل الدُّعاة إلى الأمصار، وتتكفَّل بالدِّفاع عنهم، وحمايتهم من أيِّ اعتداءٍ قد يقع عليهم، ولو أدَّى ذلك إلى قيام حربٍ، أو حروبٍ[(١)].

وبجانب هذا، فإنَّ الهجرة النَّبويَّة لها مكانتها في فهم القرآن وعلومه؛ حيث فرَّق العلماء بين المكِّيِّ، والمدنيِّ؛ فالمكِّيِّ: ما نزل قبل الهجرة ـ وإن كان بغير مكَّة ـ والمدني: ما نزل بعد الهجرة ـ وإن كان بغير المدينة ـ وترتَّب على ذلك فوائد؛ من أهمِّها:

١ ـ تذوُّق أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدَّعوة إلى الله.

٢ ـ الوقوف على السِّيرة النَّبويَّة من خلال الآيات القرآنيَّة[(٢)].

ولأهمية الهجرة النَّبويَّة نرى: أنَّ القرآن الكريم حثَّ المؤمنين على الهجرة في سبيل الله بأساليب متنوعةٍ، مرَّةً بالثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ، وأخرى بالوعد للمهاجرين، وتارةً بالوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة[(٣)].

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ:

أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على المهاجرين في القرآن الكريم، ووصفهم بأوصافٍ حميدةٍ متميِّزةٍ؛ وذلك لأنَّهم أُخرِجوا من ديارهم، وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى،

---

(١) انظر: الهجرة النَّبوية، لمحمد أبو فارس، ص ١٣.
(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، للقطَّان، ص ٥٩.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٨٤.

والاضطهاد، والتنكُّر لهم من قرابتهم، وعشيرتهم في مكَّة، وما أُخرِجوا إلا أن يقولوا ربُّنا الله، فمن أهمِّ الصِّفات المميِّزة للمهاجرين[١]:

١ ـ الإخلاص:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؛ قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يخرجوا من ديارهم، وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه[٢].

٢ ـ الصَّبر:

ومن صفات المهاجرين، وأخلاقهم المتميِّزة؛ الَّتي أثنى الله عليهم بها الصَّبر. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

٣ ـ الصِّدق:

ومن الصفات الحميدة الَّتي أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها على المهاجرين الصِّدق. قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

قال البغويُّ في تفسيره قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الَّذين تركوا الدِّيار، والأموال، والعشائر، وخرجوا حبّاً لله، ولرسوله ﷺ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدَّةٍ، حتَّى ذُكِر لنا: أنَّ الرَّجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرَّجل يتَّخذ الحصيرة في الشِّتاء، ما له من دثارٍ غيرها[٣].

٤ ـ الجهاد والتَّضحية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥، وهذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرُّف اليسير.
(٢) المصدر السَّابق نفسه، ص ٨٦.
(٣) انظر: تفسير البغوي (٤/٣١٨).

تركَّزت دعوة الرُّسل على التَّضحية ، والفداء؛ إذ إنَّها تواجه عناداً ، وتكذيباً وعداءً مستحكماً ، وهذا لابدَّ من مواجهته بصلابة عودٍ ، وقوَّة إيمانٍ ، ورسوخ عقيدةٍ ، وعظيم بذل ، والحياة في ظلِّ العقيدة حياةُ جهادٍ وكفاحٍ ، ومنذ مطلع الدَّعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرسول الله ﷺ بإيذاء قومه؛ حيث قال له ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موسى . يا ليتني فيها جَذَعاً[(١)] ! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ : «أومخرجيَّ هم؟» فقال ورقة: «نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يُدركْني يومُك؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

وقد اشتمل حدث الهجرة على أنواعٍ من التَّضحية ، والفداء ، وبذل النَّفس ، والمال في سبيل الله[(٢)] .

ولعلَّ الملاحظة الجديرة بالتأمُّل في هذا المجال: أنَّ التَّضحية ملازمةٌ للجهاد في سبيل الله؛ إذ لا جهاد دون تضحيةٍ[(٣)] .

٥ ـ نصرُهم لله ورسوله ﷺ :

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] .

امتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية الكريمة المهاجرين ، بأنهم ينصرون الله ورسوله؛ ذلك لأنَّهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم ، مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى ، ورسوله ﷺ .

ونَصْرُ الله شرطٌ لتحقيق النَّصر ، والتثبيت. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] .

قال سيِّد قطب: وكيف يَنْصُرُ المؤمنون الله؛ حتَّى يقوموا بالشَّرط ، وينالوا ما شرط لهم من النَّصر ، والتثبيت؟

إنَّ لله ِفي نفوسهم أن تتجرَّد له ، وألا تشرك به شيئاً شركاً ظاهراً ، أو خفيّاً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ، ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها ، ومن كلِّ ما تحبُّ وتهوى ، وأن تحكِّمَه في رغباتها ، ونزواتها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وسرِّها وعلانيتها ، ونشاطها كلِّه ، وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النُّفوس .

---

(١) جَذَعاً: شابّاً قويّاً. انظر: شرح صحيح مسلم ، للنَّوويِّ.
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٠٤ .
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٠٦ .

وإنَّ للهِ شريعةً ، ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد ، وموازين ، وقيمٍ ، وتصوُّر خاصٍّ للوجود كلِّه ، وللحياة ، ونصرُ الله يتحقَّق بنصرة شريعته ، ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلِّها بدون استثناءٍ ، فهنا نصر الله في واقع الحياة(١) .

٦ ـ التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ :

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢] يمتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين ، بأنَّهم يتوكَّلون على الله لا على غيره ، والتوكُّل على الله خاصِّيَّةُ الإيمان ، وعلامته ، وهو منطق الإيمان ، ومقتضاه . قال تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] .

وقد ضرب رسول الله ﷺ ، وصحابتُه الكرام مثالاً يُقتدى به على مرِّ الدُّهور في ترجمة التَّوكُّل في واقع الحياة في حادثة الهجرة ، ولحسن توكُّلهم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى عليهم ، وجزاهم أحسن الجزاء(٢) .

٧ ـ الرَّجاء :

ومن صفات المهاجرين الحميدة؛ الَّتي مدحهم الله بها: الرَّجاء . قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨] .

وإنَّما قال : ﴿ يَرْجُونَ ﴾ وقد مدحهم؛ لأنَّه لا يعلم أحدٌ في هذه الدُّنيا : أنَّه صائر إلى الجنَّة ، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغ لأمرين : أحدهما : أنَّه لا يدري بما يُختم له ، والثَّاني : لئلا يتَّكل على عمله ، فهؤلاء قد غفر الله لهم ، ومع ذلك يرجون رحمة الله ، وذلك زيادة إيمانٍ منهم(٣) .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٨) .
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١١٤ إلى ١١٧ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٥٠) ، وتفسير أبي السُّعود (١/ ٢١٨) .

٨ ـ اتِّباع الرَّسول ﷺ:

وممَّا يدلُّ على أنَّ الهجرة لها مكانةٌ عظيمةٌ في القرآن الكريم: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصف المهاجرين، وأنصارهم بأنَّهم يتَّبعون الرَّسول ﷺ. قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] فالمهاجرون، والأنصار، هم الذين يتَّبعون الرَّسول ﷺ؛ في أقواله، وأعماله؛ بل في ساعة العسرة، ممَّا يدلُّ على أنَّهم يستحقُّون بذلك الدَّرجة العظمى، والتَّوبة من الله عزَّ وجلَّ.

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شدَّةٍ من الأمر، في سَنَةٍ مُجْدبةٍ، وحرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ في الزَّاد، والماء.

قال قتادة: «خرجوا إلى الشَّام عام تبوك في لهبان الحرِّ، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديدٌ، حتَّى لقد ذُكِرَ لنا: أنَّ الرجلين كانا يشقَّان التَّمرة بينهما، وكان النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم؛ يمصُّها هذا، ثمَّ يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم، وأقفلهم(١) من غزوتهم»(٢).

إنَّ اتِّباع الرَّسول ﷺ يدلُّ على حقيقة الإيمان، وحقيقة الدِّين، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان، والكفر في جلاءٍ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أنْ يُصاحبه الاتِّباع لرسول الله ﷺ، والسَّير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة. إنَّ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال، ولا مشاعر تَجيش، ولا شعائر تُقام، ولكنَّه طاعةُ الله، والرَّسول، وعملٌ بمنهج الله؛ الَّذي يحمله الرَّسول ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢].

قال ابن كثيرٍ في تفسيره للآية المذكورة: «هذه الآية الكريمة، حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى محبَّة الله؛ وليس هو على الطَّريقة المحمَّدية؛ فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ، والدِّين النَّبويَّ، في جميع أقواله، وأعماله(٣)، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» [البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)].

---

(١) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٧).
(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٦٦).

٩ ـ حقُّ السَّبق في الإيمان والعمل :

قال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

قال الرَّازي : والسَّبق موجبٌ للفضيلة ؛ فإقدامهم على هذه الأفعال يُوجِبُ اقتداء غيرهم بهم . قال ﷺ : «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً ، فله أجرُها ، وأجر من عمل بها ، إلى يوم القيامة» [أحمد (٤/٣٥٧ ـ ٣٥٨) ومسلم (١٠١٧) والترمذي (٢٦٧٥) والنسائي (٥/ ٧٥ ـ ٧٧) وابن ماجه (٢٠٣)] . فدواعي النَّاس تَقوى بما يرون من أمثالهم ، في أحوال الدِّين ، والدُّنيا ، وثبت بهذا : أنَّ المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم(١) .

وهكذا اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ السَّابقين من المهاجرين ، من تلك العناصر الفريدة النَّادرة ، الَّتي تحتمل الضغوط ، والفتنة ، والأذى ، والجوع ، والغربة ، والعذاب ، والموت في أبشع الصُّور في بعض الأحيان ؛ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين في مكَّة ، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين بعد ذلك في المدينة ، مع السَّابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوا بها في أوَّل الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أنَّ بيعتهم لرسول الله ﷺ (بيعة العقبة) ، قد دلَّت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعةٍ أصيلةٍ مكافئةٍ لطبيعة هذا الدِّين .

وبالمهاجرين ، والأنصار تكوَّنت للإسلام قاعدةٌ صلبةٌ من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربيِّ ، فأما العناصر الَّتي لم تحتمل هذه الضُّغوط ؛ فقد فُتنت عن دينها ، وارتدَّت إلى الجاهليَّة مرَّةً أخرى ، وكان هذا النَّوع قليلاً ، فقد كان الأمر كلُّه معروفاً مكشوفاً من قبل ، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهليَّة إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشَّائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التَّكوين(٢) . وبذلك أيضاً تتَّضح لنا منزلة المهاجرين ، وعلوُّ طبقتهم في الفضل ؛ حيث أنفقوا ، وقاتلوا ؛ والعقيدة مطاردةٌ ، والأنصار قلَّةٌ ، وليس في الأفق ظلُّ منفعةٍ ، ولا سلطانٍ ، ولا رخاءٍ ، مما يدلُّ على أنَّهم لا يستوون مع غيرهم من الَّذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظُّروف الصَّعبة(٣) . قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد : ١٠] .

---

(١) انظر : تفسير الرَّازي (١٥/ ٢٠٨) .
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٣) .
(٣) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٢٤ .

وقد تحدَّث ابن كثيرٍ عن آية سورة التَّوبة؛ الَّتي بيَّنت فضل السَّابقين من المهاجرين ، والأنصار ، فقال: فقد أخبر الله العظيم: أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار ، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ ، فيا ويل من أبغضهم ، أو سبَّهم أو أبغض ، أو سبَّ بعضهم ، ولا سيما سيِّد الصَّحابة بعد الرَّسول ﷺ؛ وخيرهم ، وأفضلهم ، أعني: الصِّديق الأكبر ، والخليفة الأعظم ، أبا بكرٍ بن أبي قحافة؛ فإنَّ الطَّائفة المخذولة من الرَّافضة يعادون أفضل الصَّحابة ، ويبغضونهم ، ويسبُّونهم ، عياذاً بالله من ذلك! وهذا يدلُّ على أنَّ عقولهم معكوسةٌ ، وقلوبهم منكوسةٌ ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟! وأمَّا أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّون عمَّن رضي الله عنهم ، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متَّبعون ، لا مبتدعون ، ويقتدون ، ولا يبتدعون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون[(١)].

١٠ ـ الفوز:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

قال أبو السُّعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أي: المختصُّون بالفوز العظيم ، أو بالفوز المطلق ، كأنَّ فوز من عداهم ليس بفوزٍ بالنِّسبة إلى فوزهم[(٢)].

فهذا ثناءٌ من الله العليِّ العظيم ، على المهاجرين ، بأنَّهم يستحقُّون الفوز العظيم ، والفوز يكون عظيماً لأنَّه يأتي من مصدر العظمة ، وأيُّ فوزٍ أعظم من هذا الفوز! يخبرهم ربُّهم بأنَّهم من الفائزين في الآخرة ، وذلك بدخولهم الجنَّة ، وبُعْدهم عن النَّار. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

١١ ـ الإيمان الحقيقيُّ:

ومن هذه الصِّفات الحميدة؛ الَّتي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحقِّ. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فهذه شهادةٌ من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنَّهم المؤمنون حقّاً ، فالمهاجرون رضي الله عنهم هم النَّموذج الحقيقيُّ؛ الَّذي يتمثَّل فيه الإيمان ـ بعد رسول الله ﷺ ـ كما أنَّهم قدوةٌ حسنةٌ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢).
(٢) تفسير أبي السُّعود (٤/ ٥٣).

لمن جاء بعدهم ، وصورةٌ حقيقيَّةٌ في ترجمة الصِّفات الحميدة في واقع الحياة ، فلذلك استحقُّوا هـذا الثناء الرَّبانيَّ بأنَّهم المؤمنون حقّاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ ـ ٤] . وهذه الصِّفات الحميدة تتمثَّل في حياة المهاجرين ، كما أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان(١) .

ثانياً : الوعد للمهاجرين :

ذكر الله تعالى بعض النِّعم الَّتي وعد بها المهاجرين في الدُّنيا ، والآخرة ؛ ومن هذه النِّعم :

١ ـ سعة رزق الله لهم في الدُّنيا :

قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

ومن سعة رزق الله لهم في الدُّنيا تخصيصهم بمال الفيء ، والغنائم . قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] فالمال لهؤلاء لأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، فهم أحقُّ النَّاس به(٢) .

ومن سعة الله لهم في الرِّزق أن خلَّص الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأنصار من شحِّ النفس ، ووسَّع صدورهم للمهاجرين . قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعد المهاجرين سعة الرِّزق في الدُّنيا ، وتحقَّق ذلك الوعد الكريم ؛ وذلك لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في منهجه الرَّبانيِّ القرآني يعالج هذه النَّفس في وضوحٍ وفصاحةٍ ، فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ، ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار ـ بما في ذلك خطر الموت ـ ولكنَّه يسكب فيها الطُّمأنينة بحقائق أخرى ، وبضمانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو يحدِّد الهجرة بأنَّها «في سبيل الله» ، وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام ، فليست هجرةً للثَّراء ، أو هجرةً للنَّجاة من المتاعب ، أو هجرةً للذائذ والشَّهوات ، أو هجرةً لأيِّ عرضٍ من أعراض الحياة ، ومَنْ يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحةً ، ومنطلقاً ، فلا تضيق به الأرض ،

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٢٩ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٥) ، وتفسير أبي السعود (٨/ ٢٢٨) ، وتفسير فتح القدير (٥/ ٢٠٠) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٣٢ .

ولا يعدم الحيلة ، والوسيلة للنَّجاة ، وللرِّزق ، والحياة[١] ؛ لأنَّ الله سيكون في عونه ، ويسدِّد خطاه .

٢ ـ تكفير سيئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم :

ومن النِّعم الَّتي وعد بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين تكفيرُ سيِّئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم . قال تعالى : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ ، أحاديث كثيرةٌ تبيِّن : أنَّ الهجرة من أعظم الوسائل المكفِّرة للسَّيِّئات ، وأنَّها سببٌ لمغفرة ذنوب أهلها ، ومن هذه الأحاديث : عن ابن شماسة المهريِّ قال : حضَرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة[٢] الموت ، فبكى طويلاً ، وحوَّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنُهُ يقول : يا أبتاهُ! أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أمَا بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال : فأقبل بوجهه ، فقال : إنَّ أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله . إنِّي كنت على أطباقٍ[٣] ثلاث ، لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ منِّي ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه ، فقتلْتُهُ ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النَّار ، فلمَّا جعل اللهُ الإسلامَ في قلبي ، أتيتُ النَّبيَّ ﷺ ، فقلتُ : ابسُطْ يمينك فلأبايعنَّك ، فَبَسَطَ يمينَهُ ، قال : فقبضتُ يدي ، قال : «مالك يا عمرو؟» قال : قلتُ : أردت أن أشترط ، قال : «تشترط بماذا؟» قلتُ : أن يُغْفَرَ لي . قال : «أما علمت أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله!» وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجلَّ في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه ؛ إجلالاً له ، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطَقْتُ ؛ لأنِّي لم أكن أملأ عينيَّ منه ، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنَّة ، ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحةٌ ، ولا نارٌ ، فإذا دفنتموني ؛ فشُنُّوا[٤] عليَّ التُّرابَ شنّاً ، ثمَّ أقِيمُوا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ ، ويُقْسَمُ لحمُها ؛ حتى أستأنسَ بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربِّي . [مسلم (١٢١)] .

قال النَّوويُّ : فيه : عظم موقع الإسلام ، والهجرة ، والحجِّ ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها يهدم ما كان قبله من المعاصي . وفيه : استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنِّه بالله سبحانه وتعالى ،

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٥) .
(٢) سياقة الموت : أي النَّزع ، كأنَّ روحه تساق لتخرج من بدنه .
(٣) أطباق ثلاث : أحوال ثلاث ، واحدها طبق .
(٤) فشنُّوا عليَّ التُّراب : أي صبُّوه متفرقاً ، انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٣٦ .

وذكر آيات الرَّجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشيره بما أعدَّه الله تعالى للمسلمين ، وذكر حسن أعماله عنده ليحسن ظنَّه بالله تعالى ، ويموت عليه ، وهذا الأدب مستحبٌّ بالاتفاق[١] .

٣ ـ ارتفاع منزلتهم ، وعظمة درجتهم عند ربِّهم :

وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الَّذين نالوا أفضل الإيمان ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم أعظم الدَّرجات عند الله . قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة : ٢٠] .

يقول الفخر الرَّازي : إنَّ الموصوفين بهذه الصِّفات الأربعة ، في غاية الجلالة والرِّفعة ؛ لأنَّ الإنسان ليس له إلا مجموع أمورٍ ثلاثة : الرُّوح ، والبدن ، والمال ، أمَّا الرُّوح ؛ فلمَّا زال عنها الكفر ، وحصل فيها الإيمان ؛ فقد وصلت إلى مراتب العادات اللاَّئقة بها ، وأمَّا البدن ، والمال ؛ فبسبب الهجرة وقعا في النُّقصان ، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا مُعرَّضَيْنِ للهلاك ، والبطلان ، ولا شكَّ : أنَّ كلاً من النَّفس ، والمال ؛ محبوبٌ للإنسان ، والإنسان لا يعرض عن مجموعه إلا للفوز بمحبوبٍ أكمل من الأوَّل ، فلولا أنَّ طلب الرِّضوان أتمُّ عندهم من النَّفس ، والمال ؛ لما رجَّحُوا جانب الآخرة على جانب النَّفس ، والمال ، ولما رَضُوا بإهدار النَّفس ، والمال لطلب مرضاة الله تعالى .

فثبت : أنَّ عند حصول الصِّفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى أعلى درجات البشريَّة ، وأوَّل مراتب درجات الملائكة ، وهم بذلك يكونون أفضل من كلِّ مَنْ سواهم من البشر على الإطلاق ؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصِّفات[٢] .

فالذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم أعظم ، وأعلى مقاماً في مراتب الفضل ، والكمال في حكم الله ، وأكبر مثوبةً من أهل سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام ؛ الَّذين رأى بعض المسلمين : أنَّ عملهم إيَّاهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالَّذين نالوا فضل الهجرة ، والجهاد بنوعيه : النَّفسيِّ ، والماليِّ أعلى مرتبةً ، وأعظم كرامةً ممَّن لم يتَّصف بهما كائناً مَنْ كان ، ويدخل في ذلك أهل السِّقاية ، والعمارة[٣] .

وأنَّه تعالى لم يقل : أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية ، والعمارة ؛ لأنَّه لو عين ذكرهم لأوهم أنَّ فضيلتهم إنَّما حصلت بالنسبة إليهم ، ولمَّا ترك ذكر المرجوح ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم أفضل من كل مَنْ سواهم على الإطلاق ؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى ،

---

(١) انظر : شرح النَّووي لصحيح مسلمٍ للحديث المذكور ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٣٨ .

(٢) انظر : تفسير الرازي (١٦/ ١٣) وما بعدها بتصرف .

(٣) تفسير المراغي (١٠/ ٧٨) .

وأكمل من هذه الصِّفات[(١)] . والتَّفضيل هنا في قوله : ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ليس على وجهه ، فهو لا يعني : أنَّ للآخرين درجةً أقلَّ ؛ إنما هو التَّفضيل المطلق ، فالآخرون ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ [التوبة : ١٧] فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجةٍ ، ولا في نعيمٍ[(٢)] .

٤ ـ استحقاقهم الجنَّة ، والخلود فيها :

ومن النِّعم الَّتي أعدَّها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمهاجرين الجنَّةُ ، والخلود فيها . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢٠ ـ ٢٢] .

قال الشَّوكاني في تفسيره : والتنكير في الرَّحمة ، والرِّضوان ، والجنَّات للتَّعظيم ، والمعنى : أنَّها فوق وصف الواصفين ، وتصوُّر المتصوِّرين . والنَّعيم المقيم : الدَّائم المستمرُّ الَّذي لا يفارق صاحبه ، وَذِكْرُ الأبد بعد الخلود تأكيدٌ له[(٣)] . هذه بشرى ما بعدها بشرى ، وقد وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المؤمنين والمؤمنات . قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

٥ ـ الفوز العظيم ورضوان الله عليهم :

ومن النِّعم الَّتي وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المهاجرين : أنَّهم سينالون الفوز العظيم . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة : ٢٠] .

ورضوانُ الله تعالى عليهم أكبر ، وأجلُّ ، وأعظم ممَّا هم فيه من النَّعيم ، وهو نهاية الإحسان ، وهو أعلى النِّعم ، وأكمل الجزاء[(٤)] ، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

ورضا الله عنهم هو الرِّضا الَّذي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى ، وأكرم مثوبةً ، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه على نعمائه ، والصَّبر على ابتلائه ، ولكن التَّعبير بالرِّضا هنا ، وهناك

---

(١) تفسير الرَّازي (١٦/ ١٤) .

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٤) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٤١ .

(٣) تفسير فتح القدير (٢/ ٣٤٥) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٤٢ .

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٠) ، وتفسير المراغي (١٠/ ٧٩) ، والهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٤٤ .

يشيع جوَّ الرِّضا الشَّامل ، الغامر ، المتبادل ، الوافر ، الوارد ، الصَّادر بين الله سبحانه وتعالى وهذه الصَّفوة المختارة من عباده ، ويرفع من شأن هذه الصَّفوة من البشر؛ حتَّى إنَّهم ليبادلون ربهم الرِّضا ، وهو ربُّهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون ، وهو حالٌ ، وشأنٌ وجوٌّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبِّر عنه ، ولكن يتَّسم ، ويتشرَّف ، ويستجلي من خلال النَّصِّ القرآنيِّ ، بالرُّوح المتطلِّع ، والقلب المتفتِّح ، والحسِّ الموصول(١) .

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء ، والثَّواب بسبب جهادهم المرير. إنَّ المهاجرين بإيمانهم الرَّاسخ ، ويقينهم الخالص لم يمكِّنوا الجاهليَّة في مكَّة من وأد الدَّعوة؛ وهي في مستهلِّ حياتها؛ لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيِّهم ، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه ، وآمنوا به ، فلمَّا أسرفت الجاهليَّة في عسفها ، واضطهادها ، وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصَّابرين بالهجرة من مكَّة؛ خرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، ويمَّموا صوب المدينة؛ ليس رهبة من الكفر ، ولا رغبة في الدنيا؛ ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ، ويبتغون فضلاً منه ورضواناً؛ ولذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فَضْلٍ في الدُّنيا ، وما أعدَّه لهم يوم القيامة من ثوابٍ عظيم(٢) .

ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة:

إنَّ الأسلوب القرآنيَّ في الوعد ، والوعيد يهدف إلى الخشية ، والرَّجاء في النُّفوس: رجاء يدفعها إلى الطَّاعة ، والاستقامة ، وخشيةٍ تمنعها من المعصية ، وتسرع بها إلى الاستغفار ، والتَّوبة ، والمؤمن بينهما في معادلةٍ جِدُّ دقيقةٍ؛ لئلا يقعَ فريسةً لليأس ، والقنوط ، ولا يندفع إلى الجرأة على محارم الله ، أو التهاون فيما أمر الله ، ولقد استطاع القرآن الكريم بسلاحيه هذين أن يحفظ للفرد شخصيته ، وللمجتمع مقوِّماته؛ في الحياة ، والمال ، والعقل ، والعِرْض ، والدِّين(٣) ، وهي كلِّياتٌ تقوم عليها الحياة الرَّشيدة الفاضلة. ولقد رأت الحياة النُّور في أجيالٍ عديدةٍ ، أنارها القرآن بالوعد ، والرجاء ، وبالوعيد ، والخشية ، ولمَّا خَفَتَ ذلك النورُ بِبُعد النَّاس عن القرآن؛ اصطدم الفردُ بفطرته ، والمجتمعُ بواقعه؛ فاضطربت القيم ، وانهارت الأخلاق ، وفسدت المعاملات ، والمناهج والتَّصوُّرات ، ولن يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلح به أوَّلها ، وأن تخشى الله لا تخشى سواه ، وأن ترجوه لا ترجو إلا إيَّاه(٤) .

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٥) .

(٢) انظر: هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته في القرآن والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٣) ولا شك أنَّ سلطان الدَّولة المسلمة يحافظ على مقاصد الشَّريعة .

(٤) تفسير سورة فصلت ، د. محمد صالح علي ، دار النفائس ، ص ٩٨ ، نقلاً عن الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٥١ .

ومن العقوبات الَّتي توعَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها المتخلِّفين عن الهجرة سوءُ المصير. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

روى البخاريُّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يُكثرون سوادَ المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السَّهم يُرْمَى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُله، أو يُضْرَبُ، فيُقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [البخاري (٤٥٩٦ و٧٠٨٥)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان قومٌ من أهل مكَّة أسلموا، وكانوا يَسْتخْفُون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدرٍ معهم، فأُصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين، وأُكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكَّة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم التَّقيَّة، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، وأيسوا من كلِّ خير، ثمَّ نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠](١).

لقد وصف الله ـ سبحانه ـ المتخلِّفين عن الهجرة بأنَّهم ظلموا أنفسهم، والمراد بالظُّلم في هذه الآية: أنَّ الذين أسلموا في دار الكفر، وبقوا هناك، ولم يهاجروا إلى المدينة ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة(٢). وبما أنَّهم حرموها من دار الإسلام، تلك الحياة الرَّفيعة النَّظيفة الكريمة الحرَّة الطَّليقة، وألزموها الحياة في دار الكفر، تلك الحياة الذَّليلة الخاسئة الضَّعيفة المضطهدة؛ توعَّدهم ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ممَّا يدلُّ على أنَّها تعني الَّذين فُتِنوا عن دينهم بالفعل هناك(٣).

وفي هذه الآية الكريمة وعيد للمتخلِّفين عن الهجرة، بهذا المصير السَّيِّئ، وبالتَّالي التزم الصَّحابة بأمر الله، وانضمُّوا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة؛ تنفيذاً لأمر الله، وخوفاً من عقابه، وكان لهذا الوعيد أثرُه في نفوس الصَّحابة رضي الله عنهم، فهذا ضَمْرَة بنُ جُنْدب لمَّا

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (٢/ ٩٧)، وتفسير القاسمي (٣/ ٣٩٩).
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ١٦١.
(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٤٧٣).

بلغه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو بمكَّة ، قال لبنيه: احملوني ؛ فإنِّي لست من المستضعفين ، وإنِّي لأهتدي الطريق ، وإنِّي لا أبيت اللَّيلة بمكَّة ، فحملوه على سريرٍ ، متوجهاً إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً ، فمات بالتَّنعيم ، ولمَّا أدركه الموت ، أخذ يصفِّق بيمينه على شماله ، ويقول: اللَّهمَّ هذه لك ، وهذه لرسولك ﷺ ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ، ولمَّا بلغ خبرُ موته الصَّحابة رضي الله عنهم ، قالوا: ليته مات بالمدينة! فنزل[1] قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] .

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصَّحابة ، من سرعةٍ في امتثال الأمر ، وتنفيذه في النَّشاط ، والشِّدَّة ، كائنةً ما كانت ظروفهم ، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير ، ولا يطلبون الرُّخص[2] .

فهذا الصحابيُّ تفيد بعض الرِّوايات: أنَّه كان مريضاً[3] ، إلا أنَّه رأى أنَّه ما دام له مالٌ يستعين به ، ويُحمل به إلى المدينة؛ فقد انتفى عذره ، وهذا فقهٌ أملاه الإيمان ، وزكَّاه الإخلاص ، واليقين[4] .

وبعد أن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعيده للمتخلِّفين عن الهجرة بسوء مصيرهم استثنى من ذلك مَنْ لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ، والتَّعرُّض للفتنة في الدِّين ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشُّيوخ ، والضِّعاف ، والنِّساء ، والأطفال ، فيعلقهم بالرَّجاء في عفو الله ، ومغفرته ، ورحمته بسبب عذرهم البيِّن ، وعجزهم عن الفرار[5] . قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩] .

* * *

---

(١) روح المعاني ، للآلوسي (٥/ ١٢٨ ، ١٢٩) ، وأسباب النزول ، للواحدي ، ص ١٨١ .
(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٥ .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٢٦ .
(٥) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ، ص ١٦٧ .

الفصل السَّابع
دعائم دولة الإسلام في المدينة(١)

شرع رسول الله ﷺ منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدَّولة الجديدة ، على قواعد متينةٍ ، وأسسٍ راسخةٍ ، فكانت أولى خطواته المباركة ، الاهتمام ببناء دعائم الأمَّة ؛ كبناء المسجد الأعظم بالمدينة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحبِّ في الله ، وإصدار الوثيقة ، أو الدُّستور الإسلاميِّ في المدينة ، الَّذي ينظِّم العلاقات بين المسلمين، واليهود، ومشركي المدينة ، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسَّعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حلِّ مشاكل المجتمع الجديد ، وتربيته على المنهج الربَّانيِّ في شؤون الحياة كافَّةً ، فقد استمرَّ البناء التَّربويُّ والتَّعليميُّ، واستمرَّ القرآن الكريم يتحدَّث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنَّة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقوِّمات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً ، وتجاهد في سبيل الله .

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة ، والتَّربويَّة ، تتطوَّر مع تطوُّر مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع ، وتأسيس الدَّولة . وعالج رسول الله ﷺ الأزمة الاقتصاديَّة بالمدينة ، من خلال المنهج الربَّانيِّ ، واستمرَّ البناء التربويُّ ، ففُرِض الصِّيامُ ، وفُرضتِ الزَّكاة ، وأخذ المجتمع يزدهر ، والدَّولة تتقوَّى على أسسٍ ثابتةٍ ، وقويَّـة .

* * *

---

(١) ينظر الشكلان (١٢ و١٣) في الصفحتين (٧٤٨ و٧٤٩).

المبحث الأوَّل
الدِّعامة الأولى
بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أوَّلَ ما قام به الرَّسول ﷺ بالمدينة بناءُ المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، الَّتي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصَّلوات؛ الَّتي تربط المرء بربِّ العالمين، وتنقِّي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدُّنيا(١).

روى البخاريُّ بسنده: أنَّ رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلتَهُ، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتَّى بَرَكَتْ عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين، وكان مِرْبَداً(٢) للتَّمر، لسهلٍ، وسُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زُرَارَة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثمَّ دعا رسولُ الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمِرْبَد ليتَّخذَه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتَّى ابتاعه منهما. [البخاري (٣٩٠٦)].

وفي رواية أنس بن مالكٍ: فكان فيه ما أقول: كان فيه نَخْلٌ، وقُبورُ المشركين، وخربٌ، فأمر رسولُ الله ﷺ بالنَّخل، فقُطع، وبقبور المشركين، فنُبِشَتْ، وبالخربِ، فسُوِّيَتْ. قال: فَصَفُّوا النَّخلَ قبلةً، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً. قال: فكانوا يرتجزون، ورسولُ الله ﷺ معهم؛ وهم يقولون:

اللَّهُمَّ! لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الآخِرَهْ ... فَانْصُرِ الأنْصَارَ والمُهَاجِرَهْ

[البخاري (٤٢٨) ومسلم (٥٢٤)].

شرع الرَّسول ﷺ في العمل مع أصحابه، وضرب أوَّل معولٍ في حفر الأساس؛ الَّذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثمَّ اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة، والجدران ـ الَّتي لم تزد عن قامة الرَّجل إلا قليلاً ـ باللَّبن؛ الَّذي يعجن بالتُّراب، ويسوَّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للغزالي، ص ١٩١، وفقه السِّيرة، للبوطي، ص ١٥١.

(٢) مربد: الموضع الذي يُجفَّف فيه التَّمر. القاموس المحيط (١/ ٣٠٤).

للبناء[١] . وفي النَّاحية الشَّمالية منه ، أقيمت ظلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النَّخل ، كانت تسمَّى «الصُّفة» ، أما باقي أجزاء المسجد ، فقد تُرِكت مكشوفةً بلا غطاءٍ[٢] .

أمَّا أبواب المسجد؛ فكانت ثلاثةً : باب في مؤخرته من الجهة الجنوبيَّة ، وباب في الجهة الشَّرقيَّة ، كان يدخل منه رسول الله ﷺ بإزاء باب بيت عائشة ، وباب من الجهة الغربية ، يقال له : باب الرَّحمة ، أو باب عاتكة[٣] .

أولاً : بيوتات النَّبيِّ ﷺ التَّابعة للمسجد :

وبُني لرسول الله ﷺ حُجَرٌ حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له ، ولأهله ، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك ، والأكاسرة ، والقياصرة؛ بل كانت بُيوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عن الدُّنيا ، وزخارفها ، وابتغى الدَّار الآخرة ، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبن ، والطين ، وبعض الحجارة ، وكانت سقوفها من جذوع النَّخل ، والجريد ، وكانت صغيرة الفناء ، قصيرة البناء ، ينالها الغلام الفارع بيده . قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ : «قد كنت أنال أول سقفٍ في حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ بيدي»[٤] . وهكذا كانت بيوت النَّبيِّ ﷺ في غاية البساطة ، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية ، الَّتي كان يتَّخذها عِلْيَةُ القوم؛ تباهياً بها في السِّلم ، واتقاءً بها في الحرب ، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء ، كما كان حصن عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول اسمه : (مزاحم) ، وكما كان حصن حسَّان بن ثابت رضي الله عنه اسمه : (فارع) .

إنَّ النبي ﷺ بنى بيوته بذلك الشَّكل المتواضع ، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقةً ، ولو أنَّه أشار إلى رغبته بذلك مجرَّد إشارةٍ ، لسارع الأنصار في بنائها له ، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدَّولة العامَّة؛ كالفيء ، ونحوه ، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك؛ ليضرب لأمَّته مثلاً رفيعاً ، وقدوةً عاليةً في التَّواضع والزُّهد في الدُّنيا ، وجمع الهمَّة ، والعزيمة للعمل لما بعد الموت[٥] .

ثانياً : الأذان في المدينة[٦] :

تشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه لإيجاد عملٍ ينبِّه النَّائم ، ويدرك السَّاهي ، ويُعلِم النَّاس

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٣) ، وانظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة ، لعلي معطي ، ص ١٥٦ .

(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٣) ، ومحمَّد رسول الله ، لمحمَّد رضا ، ص ١٤٣ .

(٣) انظر : التَّاريخ السياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة ، لعلي معطي ، ص ١٥٧ .

(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٦) .

(٥) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٤/ ١٣) .

(٦) انظر : تفصيل ذلك في صحيح البخاريِّ ، كتاب الأذان ، باب بدء الأذان ، رقم (٦٠٣ ، ٦٠٤) .

بدخول الوقت لأداء الصَّلاة ، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصَّلاة ليراها النَّاس ، فاعترضوا على هذا الرأي؛ لأنَّها لا تفيد النَّائم ، ولا الغافل ، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب ، فلم يُقبل هذا الرّأي أيضاً ، وأشار آخرون ببوقٍ ـ وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم ـ فكرهه الرَّسول ﷺ ؛ لأنه يحبُّ مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم ، وأشار بعضُ الصَّحابة باستعمال النَّاقوس ـ وهو ما يستعمله النَّصارى ـ فكرهه الرَّسول ﷺ أيضاً ، وأشار فريقٌ بالنِّداءِ ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها ، فقُبل هذا الرَّأي ، وكان أحد المنادين عبدَ الله بن زيدٍ الأنصاريَّ ، فبينما هو بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النِّداء بالصَّلاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين ، وتشهَّد مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّلاة مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين ، ثمَّ كبِّر ربَّك مرَّتين ، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجَّه إلى الرَّسول ﷺ ، وأخبره خبر رؤياه ، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛ فإنَّه أندى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤذِّن للصَّلاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه ، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤذِّنيه بالمدينة ، والآخر عبد الله بنُ أمِّ مكتومٍ ، وكان بلال يقول في أذان الصُّبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّلاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين ، وأقرَّه الرَّسول ﷺ على ذلك ، وكان يُؤذِّن في البداءة من مكانٍ مرتفعٍ ، ثمَّ استُحدثت المنارة (الْمئذَنة) [أحمد (٤/ ٤٣) وأبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩) وابن ماجه (٧٠٦) وابن حبان (١٦٧٩)][(١)] .

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة:

كانت أوَّل خطبةٍ خطبها رسولُ الله ﷺ بالمدينة: أنه قام فيهم ، فحمِدَ الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ! فقدموا لأنفسكم. تعلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه؛ وليس له ترجمانٌ ، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي ، فبلَّغك؟! وآتيتك مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدَّمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً ، وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثمَّ لينظرنَّ قُدَّامه ، فلا يرى غير جهنَّم؛ فمن استطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشقٍّ من تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمئة ضعفٍ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [البيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٤) وابن هشام (٢/ ١٤٦)] .

ثمَّ خطب رسول الله ﷺ مرَّةً أخرى ، فقال: «إنَّ الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله

---

(١) انظر: نور اليقين ، للخضري ، ص (٨٧ ، ٨٨) ، وتاريخ خليفة بن خياط ، ص ٥٦ ، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى ، د. فايد حمَّاد عاشور ، وسليمان أبو عزب ، ص ١٠٨ .

من شرور أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى . قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث النَّاس ، إنَّه أحسن الحديث ، وأبلغه ، أَحِبُّوا من أحبَّ اللهُ ، أَحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تَملُّوا كلام الله وذكرَهُ ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم ؛ فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار ، ويصطفي ، قد سمَّاه الله خيرتَه من الأعمال ، ومُصطفاه من العباد ، والصَّالح من الحديث ، ومن كلِّ ما أوتي النَّاس الحلالُ والحرامُ ، فاعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقوه حقَّ تقاته ، واصْدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكم ، إنَّ الله يغضب أن يُنْكَثَ عهده ، والسَّلام عليكم» [البيهقي في الدلائل (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) وابن هشام (٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧)] .

رابعاً : الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ :

لمَّا تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة بأمر الله تعالى ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٤٥)] ، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي ، فأمر النبي ﷺ به ، فظلِّل ، أو سقف ، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة)[١] ، ولم يكن له ما يسترُ جوانبه[٢] .

قال القاضي عياض : الصُّفَّة ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ ، يأوي إليها المساكين ، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة[٣] .

وقال ابن تيميَّة : الصُّفَّة كانت في مؤخرة مسجد النَّبيِّ ﷺ ، في شمالي المسجد بالمدينة المنوَّرة[٤] .

وقال ابن حَجَرٍ : الصُّفَّة مكانٌ في مؤخَّر المسجد النَّبويِّ مظلَّلٌ ، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ، ممَّن لا مأوىً له ، ولا أهل . [فتح الباري (٦/ ٧٣٨)][٥] .

١ ـ أهل الصُّفَّة :

قال أبو هريرة رضي الله عنه : «وأهلُ الصُّفَّة أضيافُ الإسلام ، لا يأوون إلى أهلٍ ، ولا مالٍ ، ولا على أحدٍ» [البخاري (٦٤٥٢)] .

---

(١) انظر : وفاء الوفا ، للسَّمهودي (١/ ٣٢١) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٥٨) .
(٣) انظر : نظام الحكومة النَّبوية المسمَّى التراتيب الإداريَّة ، لعبد الحيِّ الكتاني (١/ ٤٧٤) .
(٤) الفتاوى (١١/ ٣٨) .
(٥) انظر : فتح الباري ، في شرح حديث رقم (٣٥٨١) .

إنَّ المهاجرين الأوائل ، الَّذين هاجروا قبل النَّبيِّ ﷺ ، أو معه ، أو بعده ؛ حتَّى نهايـة الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ ، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم ، وأن يشاركوهم النَّفقة ، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين ، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصار على استيعابهم[١] ؛ فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيءٍ ؛ فإنَّ الإسلام صار ينتشر ، والنَّاس يدخلون فيه ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء ، والأغنياء ، والآهلين ، والعُزَّاب ، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه ، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»[٢] .

والَّذي يظهر للباحث : أنَّ المهاجر الَّذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرَّسول ﷺ ، ثمَّ يوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله ، فإن لم يجد فإنَّه يستقرُّ في الصُّفَّة مؤقتاً ، ريثما يجدُ السَّبيل[٣] ؛ فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ يُشغل ، فإذا قدم رجلٌ مهاجرٌ على رسول الله ﷺ ، دفعه إلى رجلٍ منَّا يعلِّمه القرآن ، فدفع إليَّ رسولُ الله ﷺ رجلاً ، وكان معي في البيت ، أُعشِّيه عشاء أهل البيت ، فكنت أُقرئه القرآن» [أحمد (٥/ ٣٢٤)] . وقد كان أول مَنْ نزل الصُّفة المهاجرون[٤] ؛ لذلك نسبت إليهم ، فقيل : (صُفَّة المهاجرين)[٥] ، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود ، الَّتي كانت تقدم على النَّبيِّ ﷺ معلنةً إسلامَها ، وطاعتها[٦] ، وكان الرَّجل إذا قدم على النَّبيِّ ﷺ وكان له عريفٌ ؛ نزل عليه ، وإذا لم يكن له عريف ؛ نزل مع أصحاب الصُّفَّة[٧] ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُّفَّة من القاطنين، ومَنْ نزلها من الطَّارقين، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد دعوتهم، عهد إلى أبي هريرة ، فدعاهم ؛ لمعرفته بهم ، وبمنازلهم ، ومراتبهم في العبادة ، والمجاهدة[٨] . ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة ؛ حبّاً لحياة الزُّهد ، والمجاهدة ، والفقر ، برغم استغنائهم عن ذلك ، ووجود دارٍ لهم في المدينة ؛ ككعب بن مالك الأنصاريِّ ، وحنظلة بن أبي عامرٍ الأنصاري (غسيل الملائكة) ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ ، وغيرهم[٩] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، للشَّامي ، ص ١٧٥ .
(٢) الفتاوى (١١/ ٤٠ ، ٤١) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة تربيةُ أمَّة وبناء دولة ، ص ١٧٥ .
(٤) انظر : وفاء الوفا ، للسَّمهودي (١/ ٣٢٣) .
(٥) سنن أبي داود (٢/ ٣٦١) .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٥٨) .
(٧) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٥٩) .
(٨) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٥٩) .
(٩) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٥٩) .

٢ ـ نفقة أهل الصُّفَّة ، ورعاية النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة لهم :

كان النَّبيُّ ﷺ يتعهَّد أهل الصُّفَّة بنفسه ، فيزورهم ، ويتفقَّد أحوالَهم ، ويعود مرضاهم ، كما كان يكثر مجالستهم ، ويرشدهم ، ويواسيهم ، ويذكِّرهم ، ويعلِّمهم ، ويوجِّههم إلى قراءة القرآن الكريم ، ومدارسته ، وذِكْرِ الله ، والتَّطلُّع إلى الآخرة[(١)] ، وكان ﷺ يؤمِّن نفقتهم بوسائل متعدِّدةٍ ، ومتنوعةٍ ؛ منها :

١ ـ «إذا أتته ﷺ صدقةٌ ؛ بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديَّة ، أرسل إليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها» [البخاري (٦٤٥٢)] .

٢ ـ كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطَّعام في إحدى حجرات أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً ؛ بل كانت حالتُهم ماثلةً أمامه ؛ فعن عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال : إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء ، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال مرَّةً : «من كان عنده طعام اثنين ؛ فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة ؛ فليذهب بخامسٍ ، أو سادسٍ ـ أو كما قال ـ وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثةٍ ، وانطلق النَّبيُّ ﷺ بعشرةٍ» [البخاري (٣٥٨١) ومسلم (٢٠٥٧)]. وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاريِّ ، قال : «كان أبي من أصحاب الصُّفَّة ، فأمر رسولُ الله ﷺ بهم ، فجعل الرَّجل ينقلب بالرَّجل ، والرَّجل بالرَّجلين ؛ حتَّى بقيت خامس خمسة ، فقال رسول الله ﷺ : «انطلقوا» ، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة» . [أحمد (٤/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠) والطيالسي (١٣٣٩)] .

٣ ـ وكان ﷺ يطلب من النَّاس أن يوجِّهوا صدقاتهم إليهم ؛ فقد جاء في المسند : أنَّ فاطمة لمَّا ولدت الحسن ؛ طلب منها ﷺ أن تحلق رأسه ، وتتصدَّق بوزن شعره من فضَّة ، على أهل الصُّفَّة . [أحمد (٦/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)] .

٤ ـ وقد كان ﷺ يقدِّم حاجتهم على غيرها ممَّا يطلب منه ؛ فقد أُتي بسَبْيٍ مرَّةً ، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً ، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ : «والله! لا أعطيكما ، وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطْوى بطونُهم من الجوع ، لا أجد ما أنفق عليهم ؛ ولكن أبيعُهم ، وأنفق عليهم أثمانَهم» [البخاري (٣١١٣)] .

٥ ـ وقد أوصى النَّبيُّ ﷺ الصَّحابة بالتَّصدُّق على أهل الصُّفَّة[(٢)] ، فجعلوا يَصلُونهم بما استطاعوا مِنْ خيرٍ [الحلية (١/ ٣٤٠)] ، فكان أغنياء الصَّحابة يبعثون بالطَّعام إليهم [الحلية (١/ ٣٧٨)] .

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٦) .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٧) .

٣ ـ انقطاعهم للعلم ، والعبادة ، والجهاد :

كان أهل الصُّفَّة يعتكفون في المسجد للعبادة ، ويألفون الفقر ، والزُّهد ، فكانوا في خلواتهم يصلُّون ويقرؤون القرآن ، ويتدارسون آياته ، ويذكرون الله تعالى ، ويتعلَّم بعضهم الكتابة ، حتَّى أهدى أحدُهم قوسَه لعبادة بن الصَّامت رضي الله عنه ؛ لأنَّه كان يعلمهم القرآن ، والكتابة(١) . واشتهر بعضهم بالعلم ، وحفظ الحديث عن النَّبيِّ ﷺ ؛ مثل أبي هريرة رضي الله عنه ، الَّذي عُرِف بكثرة تحديثه ، وحُذَيفة بن اليمان ، الذي اهتم بأحاديث الفتن .

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد ؛ بل كان منهم الشُّهداء ببدرٍ ؛ مثل صفوان ابن بيضاء ، وخريم بن فاتك الأسديِّ ، وخبيب بن يساف ، وسالم بن عُمير ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ(٢) ، ومنهم من استشهد بأحدٍ ؛ مثل حنظلة الغسيل [الحلية (١/ ٣٥٧)] ، ومنهم من شهد الحديبية ؛ مثل جرهد بن خويلد [الحلية (١/ ٣٥٣)] ، وأبو سريحة الغفاري [الحلية (١/ ٣٥٥)] ، ومنهم من استشهد بخيبر ؛ مثل ثقيف بن عمرو(٣) ، ومنهم من استشهد بتبوك ؛ مثل عبد الله (ذو البِجادَين)(٤) ، ومنهم من استشهد باليمامة ؛ مثل سالم مولى أبي حذيفة ، وزيد بن الخطاب ، فكانوا رهباناً باللَّيل ، فُرْساناً في النَّهار(٥) .

وكان بعض الصَّحابة قد اختاروا المكوث في الصُّفَّة رغبةً منهم لا اضطراراً ؛ كأبي هريرة رضي الله عنه ، فقد أحبَّ أن يلازم رسول الله ﷺ ، ويعوِّضَ ما فاته من العلم ، والخير ـ فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السَّابع ـ وحرص على سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من حديثه ﷺ ، ومعرفة أحواله ، وتبرُّكاً بخدمته ﷺ ، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريباً من بيت النَّبيِّ ﷺ ، فكانت الصُّفة هي المكان الوحيد الَّذي يؤمِّن له ذلك ، ولنستمع إليه يوضِّح لنا ذلك ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : «إنَّكم تقولون : إنَّ أبا هريرة يُكْثِرُ الحديث عن رسول الله ﷺ ، وتقولون : ما بالُ المهاجرين ، والأنصار لا يُحَدِّثُون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشغَلُهُم الصَّفْقُ بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني ، فأشهدُ إذا غابوا ، وأحفظ إذا نَسُوا ، وكان يَشْغَلُ إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم ، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة ، أعي حين يَنْسَون» [البخاري (٢٠٤٧) ومسلم (٢٤٩٢)] .

---

(١) سنن أبي داود (٢/ ٢٣٧) ، وابن ماجه (٢/ ٧٣٠) .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٤) .

(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السَّابق نفسه .

وهكذا يوضِّح رضي الله عنه: أنه فعل ذلك رغبةً منه في ملازمة النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ إنَّ أبا هريرة كان له سكنٌ في المدينة، وهو المكان الَّذي تسكنه أمُّه، والَّتي طلب من النَّبيِّ ﷺ أن يدعو لها بالهداية. [مسلم (٢٤٩١) وأحمد (٢/ ٣٢٠)].

ثمَّ إنَّ أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن فقيراً مُعْدماً، ففي أوَّل يومٍ قدم فيه على النَّبيِّ ﷺ في خيبر أسهم له ﷺ من الغنيمة، كما أنَّه لمَّا قدم كان معه عبدٌ يخدمه ـ كما ورد في الصَّحيح ـ[(١)]؛ وإذاً فالَّذي أفقره هو إيثاره ملازمة النَّبيِّ ﷺ، واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد[(٢)].

كان أهل الصُّفَّة يكثرون، ويقلُّون بحسب تبدُّل الأحوال الَّتي تحيط بأهل الصُّفَّة؛ من عودة الأهل، أو زواجٍ، أو يُسرٍ بعد عُسْر، أو شهادةٍ في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل، وكسب الرِّزق، فقد ذكر الزَّمخشريُّ: أنهم كانوا يرضخون النَّوى بالنَّهار، ويظهر: أنَّهم كانوا يرضخون النَّوى ـ يكسرونه ـ لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذاً يعملون لكسب الرِّزق[(٣)].

٤ ـ عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون؛ إذا قدمت الوفود إلى المدينة، ويقلُّون إذا قلَّ الطَّارقون من الغرباء، على أنَّ عدد المقيمين منهم في الظروف العاديَّة، كان في حدود السَّبعين رجلاً [الحلية (١/ ٣٣٩، ٣٤١)]، وقد يزيد عددهم كثيراً؛ حتَّى إنَّ سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم، فضلاً عن الآخرين الَّذين يتوزَّعهم الصَّحابة [الحلية (١/ ٣٤١)].

ومن أهل الصُّفَّة:

١ ـ أبو هريرة رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٢ ـ أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٣ ـ واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

٤ ـ قيس بن طهفة الغفاريُّ رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٥ ـ كعب بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة، ص ١٨٤.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: المدينة النَّبوية فجر الإسلام والعصر الرَّاشديَّ، لشُرَّاب (١/ ٢٢٢).

٦ ـ سعيد بن عامر بن حذيم الجمحيُّ رضي الله عنه .
٧ ـ سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه .
٨ ـ أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلميُّ رضي الله عنه .
٩ ـ حنظلة بن أبي عامر الأنصاريُّ «غسيل الملائكة» رضي الله عنه .
١٠ ـ حازم بن حرملة رضي الله عنه .
١١ ـ حارثة بن النُّعمان الأنصاريُّ النَّجاريُّ رضي الله عنه .
١٢ ـ حُذَيفة بن أَسِيد أبو سريحة الأنصاريُّ رضي الله عنه .
١٣ ـ حُذَيفة بن اليمان رضي الله عنه .
١٤ ـ جارية بن حُمَيل بن نُشَبَة بن قُرْطٍ رضي الله عنه .
١٥ ـ جُعَيْل بن سراقة الضَّمَّريُّ رضي الله عنه .
١٦ ـ جَرْهَدُ بن خويلد الأسديُّ رضي الله عنه .
١٧ ـ رفاعة أبو لبابة الأنصاريُّ رضي الله عنه .
١٨ ـ عبد الله ذو البِجَادَين رضي الله عنه .
١٩ ـ دكين بن سعيد المزنيُّ ، وقيل : الخثعميُّ رضي الله عنه .
٢٠ ـ خُبَيْبُ بن يساف بن عِنَبة رضي الله عنه .
٢١ ـ خريم بن أوس الطائيُّ رضي الله عنه .
٢٢ ـ خريم بن فاتك الأسديُّ رضي الله عنه .
٢٣ ـ خُنيس بن حذافة السَّهميُّ رضي الله عنه .
٢٤ ـ خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه .
٢٥ ـ الحكم بن عمير الثُّماليُّ رضي الله عنه .
٢٦ ـ حرملة بن أياس ، وقيل : حرملة بن عبد الله العنبريُّ رضي الله عنه(١) .
٢٧ ـ زيد بن الخطَّاب رضي الله عنه .
٢٨ ـ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه .
٢٩ ـ الطَّفاويُّ الدَّوسيُّ رضي الله عنه .
٣٠ ـ طلحة بن عمرو النَّضريُّ رضي الله عنه .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٢) .

٣١ ـ صفوان بن بيضاء الفهريُّ رضي الله عنه .

٣٢ ـ صهيب بن سنان الرُّوميُّ رضي الله عنه .

٣٣ ـ شدَّاد بن أسيد رضي الله عنه .

٣٤ ـ شقران رضي الله عنه مولى النَّبيِّ ﷺ .

٣٥ ـ السَّائب بن خلَّاد رضي الله عنه .

٣٦ ـ سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوفٍ رضي الله عنه .

٣٧ ـ سالم بن عبيد الأشجعيُّ رضي الله عنه .

٣٨ ـ سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه .

٣٩ ـ سفينة رضي الله عنه مولى النَّبيِّ ﷺ .

٤٠ ـ أبو رزين رضي الله عنه .

٤١ ـ الأغرُّ المزنيُّ رضي الله عنه .

٤٢ ـ بلال بن رباحٍ رضي الله عنه .

٤٣ ـ البراء بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه .

٤٤ ـ ثوبان رضي الله عنه مولى النَّبيِّ ﷺ .

٤٥ ـ ثابت بن وديعة الأنصاريُّ رضي الله عنه .

٤٦ ـ ثَقْفُ بن عمرو بن سُميط الأسديُّ رضي الله عنه .

٤٧ ـ سعد بن مالكٍ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه .

٤٨ ـ العِرباض بن سارية رضي الله عنه .

٤٩ ـ غَرَفَةُ الأزديُّ رضي الله عنه .

٥٠ ـ عبد الرَّحمن بن قُرْطٍ رضي الله عنه .

٥١ ـ عبادة بن خالد الغفاريُّ[(١)] رضي الله عنهم أجمعين ، وغيرهم من الصَّحابة الكرام .

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادحٍ حين استدلَّ بعضهم على مشروعيَّة مسلك بعض المنحرفين من المتصوِّفة ، من حيث ترك العمل ، والإخلاد إلى الرَّاحة ، والكسل ، والمكوث

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٦٣) .

في الزَّوايا ، والتكايا؛ بحجَّة الاقتداء بحال أهل الصُّفَّة[١] ؛ فإن أبا هريرة ـ وهو أكثر ارتباطاً بالصُّفَّة من غيره ـ لم يستمرَّ فيها ، وخرج إلى الحياة؛ بل أصبح أميراً في بعض أيَّامه على البحرين ، في عهد عمر بن الخطَّاب ، ولم يكن مخشوشناً في حياته[٢] ؛ بل إنَّ أهل الصُّفَّة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال ، وقد استشهد بعضهم كما ذكرتُ .

خامساً : فوائد ودروس وعبر :

١ ـ المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع :

إنَّ إقامة المساجد من أهمِّ الرَّكائز في بناء المجتمع الإسلاميِّ ؛ ذلك أنَّ المجتمع المسلم إنَّما يكتسب صفة الرُّسوخ ، والتَّماسك بالتزام نظام الإسلام ، وعقيدته ، وآدابه ، وإنَّما ينبع ذلك من رُوح المسجد ، ووحيه[٣] .

قال تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : ٣٦ ـ ٣٨] .

٢ ـ المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام :

١ ـ حيث «أُنشئ ليكون متعبَّداً لصلاة المؤمنين ، وذكرهم لله تعالى ، وتسبيحهم له ، وتقديسهم إيَّاه بحمده ، وشكره على نعمه عليهم ، يدخله كلُّ مسلمٍ ، ويقيم فيه صلاته ، وعبادته ، ولا يضارُّه أحدٌ ما دام حافظاً لقداسته ، ومؤدِّياً حقَّ حرمته»[٤] .

٢ ـ كما «أنشئ المسجد ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه ، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية ، ورغبةً في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»[١] .

٣ ـ «وهو قد أنشئ ليكون جامعةً للعلوم ، والمعارف الكونيَّة ، والعقليَّة ، والتَّنزليَّة ، الَّتي حثَّ القرآن الكريم على النَّظر فيها ، وليكون مدرسةً يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم ، وثمرات عقولهم ، ومعهداً يَؤُمُّهُ طلاب العلم من كلِّ صوبٍ؛ ليتفقهوا في الدِّين ، ويرجعوا إلى قومهم مبشِّرين ، ومنذرين ، داعين إلى الله هادين ، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ»[١] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، ص ١٨٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٨ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٣ .
(٤) محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/ ٣٣) .

٤ ـ وهو «قد أنشئ؛ ليجد فيه الغريب مأوىً، وابن السَّبيل مستقراً، لا تكدِّره منَّةُ أحدٍ عليه، فينهل من رِفْدِه، ويعبُّ من هدايته ما أطاق استعداده النَّفسيُّ، والعقليُّ، لا يصدُّه أحدٌ عن علمٍ، أو معرفةٍ، أو لونٍ من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرَّج فيه، وبرزت بطولتُه بين جدرانه! وكم من عالمٍ استبحر علمُه في رحابه، ثمَّ خرج به على النَّاس يروي ظمأهم للمعرفة! وكم من داعٍ إلى الله تلقَّى في ساحاته دروس الدَّعوة إلى الله، فكان أسوة الدُّعاة، وقدوة الهداة، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شَذَاها، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية؛ لتستضيء بأنوارها!

وكم من أعرابيٍّ جلفٍ لا يفرِّق بين الأحمر، والأصفر وفد عليه، فدخله، ورأى أصحابَ رسول الله ﷺ حوله هالةً تحفُّ به، يسمعون منه؛ وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبَّأةً تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل، وفَقِهَ، واهتدى، واستضاء، ثمَّ عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله، ويربِّيهم بعلمه الَّذي علم، وسلوكه الَّذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التَّاريخ الإسلاميِّ!»[(١)].

٥ ـ وهو «قد أُنشئ ليكون قلعةً لاجتماع المجاهدين إذا استُنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد، والدَّعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرَّايات، للتوجُّه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلِّها يقف جند الله في نشوة ترقُّب النَّصر، أو الشَّهادة»[(١)].

٦ ـ وهو «قد أُنشئ؛ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه، ليكون مشفىً يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد؛ ليتمكن نبيُّ الله ﷺ من عيادتهم، والنَّظر في أحوالهم، والاستطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقَّةٍ، ولا نَصَبٍ؛ تقديراً لفضلهم»[(١)].

٧ ـ «وهو قد أُنشئ ليكون مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار، ويُبْرَدُ البريد، وتصدر الرَّسائل، وفيه تُتلقَّى الأنباء السِّياسيَّة سلماً، أو حرباً، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنَّصر، ورسائل طلب المدد، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد؛ ليتأسَّى بهم المتأسُّون، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»[(١)].

٨ ـ «وهو قد أُنشئ ليكون مرقباً للمجتمع المسلم؛ يتعرَّف منه على حركات العدو المريبة، ويراقبها، ولا سيَّما الأعداء الَّذين معه يساكنونه، ويخالطونه في بلده؛ من شراذم اليهود، وزُمَر المنافقين، ونفايات الوثنيَّة، الذين انغمسوا في الشِّرك، فلم يتركوه، ليتجنَّب المجتمع

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٤، ٣٥).

المسلم عاقبة كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، ويأمن مَغَبَّةَ[١] غدرهم ، وخياناتهم»[٢].

فالمسجد النَّبويُّ «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أوَّل ما بدأ من عملٍ في مستقرِّه ، ودار هجرته في مطلع مقدمه ؛ ليكون نموذجاً يُحتذَى به في بساطة المظهر ، وعمق المخبر ؛ ليحقِّق به أعظم الأهداف ، وأعمَّها بأقلِّ النفقات ، وأيسر المشقَّات»[٣].

٣ ـ التَّربية بالقدوة العمليَّة :

من الحقائق الثَّابتة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ شارك أصحابه العمل ، والبناء ، فكان يحمل الحجارة ، وينقل اللَّبن على صدره ، وكتفيه ، ويحفر الأرض بيديه كأيِّ واحدٍ منهم ، فكان مثال الحاكم العادل ، الَّذي لا يفرِّق بين رئيسٍ ومرؤوسٍ ، أو بين قائدٍ ومقودٍ ، أو بين سيِّد ومسودٍ ، أو بين غنيٍّ ، وفقيرٍ ؛ فالكلُّ سواسيةٌ أمام الله ، لا فرق بين مسلمٍ وآخر إلا بالتَّقوى ، ذلك هو الإسلام : عدالةٌ ، ومساواةٌ في كلِّ شيءٍ ، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعيِّ للمصلحة العامَّة ، وبهذا الفضل ثوابٌ من الله ، والرَّسول ﷺ كغيره من المسلمين ، لا يطلب إلا ثواب الله[٤] ؛ فقد كانت مشاركة النَّبيِّ ﷺ في عملية البناء ككلِّ العمال الَّذين شاركوا فيه ، وليس بِقَطْعِ الشَّريط الحريريِّ فقط ، وليس بالضَّربة الأولى بالفأس فقط ؛ بل غاص بعملية البناء كاملةً ، وقد دُهِشَ المسلمون من النَّبيِّ ﷺ ؛ وقد عَلَتْهُ غَبَرةٌ ، فتقدَّم أُسيد بن حُضَير رضي الله عنه ؛ ليحمل عن رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! أعطنيه ! فقال : «اذهب فاحتمل غيره ؛ فإنَّك لست بأفقرَ إلى الله منِّي»[٥] ، وقد سمع المسلمون ما يقول النَّبيُّ ﷺ لصاحبه ، فازدادوا نشاطاً ، واندفاعاً في العمل[٦].

إنَّه مشهدٌ فريدٌ من نوعه ، ولا مثيل له في دنيا النَّاس ، وإذا كان الزُّعماء ، والحكَّام قد يقدمون على المشاركة أحياناً بالعمل ؛ لتكون شاشات التِّلفزيون جاهزةً لنقل أعمالهم ، وتملأ الدُّنيا في الصُّحف ، ووسائل الإعلام كلِّها ، بالحديث عن أخلاقهم ، وتواضعهم ؛ فالنَّبيُّ ﷺ ينازع الحجرَ أحدَ أفراد المسلمين ، ويبيِّن له : أنَّه أفقر إلى الله تعالى ، وأحرص على ثوابه منه .

وقد تفاعل الصَّحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء ، وأنشدوا هذا البيت :

---

(١) المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ : عاقبتُه ، وآخرُه .
(٢) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٦) .
(٣) انظر : محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/ ٣٣) .
(٤) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨ .
(٥) انظر : صورٌ من حياة الرَّسول ﷺ ، لأمين دويدار ، ص ٢٦١ .
(٦) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨ .

لَئِـــنْ قَعَـــدْنــــا والنَّبِــــيُّ يَعْمَـــلُ   لَــــذاك مِنَّـــا العَمَــــلُ المُضَلَّـــلُ[1]

إنَّ هذه التَّربية العمليَّة لا تَتِمُّ من خلال الموعظة ، ولا من خلال الكلام المنمَّق ، إنَّما تتمُّ من خلال العمل الحيِّ الدَّؤُوب ، والقدوةِ المصطفاة من ربِّ العالمين ، والَّتي ما كان يمكن أن تتمَّ في أجواء مكَّة ، والملاحقة ، والاضطهاد ، والمطاردة فيها ، إنَّما تَتِمُّ في هذا المجتمع الجديد ، والدَّولة الَّتي تُبنى ، وكأنَّما غدا هذا الجمع من الصَّحابة الكرام كلُّه صوتاً واحداً ، وقلباً واحداً ، فمضى يهتف :

اللَّهُـــمَّ إنَّ العَيْـــشَ عَيْـــشُ الآخِـــرَهْ   فَـــانْصُـــرِ الأنْصَـــارَ وَالمُهَـــاجِـــرَهْ

ويهتف بلحنٍ واحدٍ :

لَئِـــنْ قَعَـــدْنَـــا والنَّبِـــيُّ يَعْمَـــلُ   فَـــذَاكَ مِنَّـــا العَمَـــلُ المُضَلَّـــلُ

وكان الهُتاف الثَّالث :

هَـــذِي الحِمَـــالُ لاَ حِمَـــالُ خَيْبَـــرْ   هَـــذَا أَبَـــرُّ لِـــرَبِّنَـــا وأطْهَـــرْ

[البخاري (٣٩٠٦)][2] .

فحَمْلُ التَّمر ، والزَّبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانةً عظيمةً في المجتمع المدنيِّ ؛ لكنَّه أصبح لا يُذْكَرُ أمام حمل الطُّوب لبناء المسجد النَّبويِّ العظيم ، فقد أيقنوا بقوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل : ٩٦] .

وأمَّا الهُتاف الرَّابع :

لاَ يَسْتَـــوِي مَـــنْ يَعْمُـــرُ المَسَـــاجِـــدَا   يَـــدْأَبُ فِيْهَـــا قَـــائِمـــاً وقَـــاعِـــدا
وَمَـــنْ يُـــرَىٰ عَـــنِ الغُبَـــارِ حَـــائِـــدَا

[فتح الباري (٧/ ٣١٤) وابن هشام (٢/ ١٤٢)][3] .

٤ ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص :

أخرج الإمام أحمد [مجمع الزوائد (٢/ ٩)] عن طَلْق بن عليٍّ اليماميِّ الحنفيِّ ، قال : بنيت المسجد مع رسول الله ﷺ ، فكان يقول : «قرِّبوا اليماميَّ من الطِّين ؛ فإنَّه أحسنكم له مسيساً» ، وأخرج الإمام أحمد عن طلقٍ أيضاً [الطبراني في الكبير (٨٢٥٤) ومجمع الزوائد (٢/ ٩)] قال : جئت إلى النَّبي ﷺ ؛ وأصحابه يبنون المسجد ، وكأنَّه لم يعجبه عملهم ، فأخذت المسحاة ، فخلطت الطِّين ، فكأنَّه أعجبه ، فقال : «دعوا الحنفيَّ والطِّين ؛ فإنَّه أضبطكم للطِّين» ، وأخرج ابن حبَّان

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٤٩٦) ، وفتح الباري ، وشرح حديث رقم (٣٩٠٦) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٤٩) ، والبخاريُّ ، حديث رقم (٣٩٠٦) وشرحه في فتح الباري .
(٣) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/ ١٥) .

عن طلقٍ ، قال: فقلت: يا رسولَ الله! أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا ، ولكن اخلطْ لهمُ الطِّين؛ فأنت أعلم به» [ابن حبان (١١٢٢)][١] .

فقد اهتمَّ النَّبيُّ ﷺ بهذا الوافد الجديد على المدينة ، والَّذي لم يكن من المسلمين الأوائل ، ووظَّف خبرته في خلط الطِّين ، وفي قوَّة العمل ، وهو درسٌ للمسلمين في الثَّناء على الكفاءات ، والاستفادة منها ، وإرشادٌ نبويٌّ كريمٌ في كيفيَّة التعامل معها ، وما أحوجَنَا إلى هذا الفهم العميق![٢] .

٥ ـ شعار الدَّولة المسلمة:

إنَّ أذان الصَّلاة شعارٌ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّة عالميَّةٍ: «**الله أكبر ، الله أكبر**»: إنَّها تعني: أنَّ الله أكبر من أولئك الطُّغاة ، وأكبر من صانعي العقبات ، وهو الغالب على أمره .

«**أشهد أن لا إله إلا الله**» أي: لا حاكمية ، ولا سيادة ، ولا سلطة ، إلا لله ربِّ العالمين ، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ، ولا آمر ، ولا مُشَرِّع ، إلا الله .

«**أشهد أنَّ محمداً رسول الله**»: أسْلَمَهُ الله تعالى القيادة ، فليس لأحدٍ أن ينزعها منه ، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن ، وبما يلهمه إيَّاه من سُنَّة[٣] ، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرِّسالة ، والزَّعامة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ، والسَّمع والطَّاعة له[٤] .

«**حَيَّ على الصَّلاة . . حيَّ على الفلاح**»: أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدَّولة الَّتي أخلصت لله ، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه ، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساسٍ من القيم السَّامية . «**قد قامت الصَّلاة**»: وقد اختيرت الصَّلاة من بين سائر العبادات؛ لأنَّها عماد الدِّين كلِّه ، ولأنَّها بما فيها من الشَّعائر كالرُّكوع ، والسُّجود ، والقيام أعظم مظهرٍ لمظاهر «العبادة» بمعناها الواسع؛ الَّتي تعني: الخضوع ، والتذلُّل ، والاستكانة ، فهي خضوعٌ ليس بعده خضوعٌ ، فكلُّ طاعةٍ لله على وجه الخضوع ، والتذلُّل عبادةٌ ، فهي طاعة العبد لسيِّده ، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعةً وتذلُّلاً .

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦] .

وهذا الارتباط بين شعار الدَّولة الرَّسميِّ بحاكمية الله ، وسيادة الشَّرع ، وسقوط

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/ ١٥) .
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٥٢) .
(٣) انظر: قراءةٌ سياسيَّةٌ للسيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١١٤ .
(٤) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة الدَّقس ، ص ٤٣٨ .

الطَّواغيت ، وقوانينهم ، وأنظمتهم ، وشرائعهم ، بـ «حيَّ على الفلاح . . . قد قامت الصَّلاة» يشير إلى أنَّه : لا قيام للصَّلاة ، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظلِّ دولةٍ تقوم عليها ، وتقوم بها ، ولها ، فقد كان المسلمون يصلُّون خِفْيَةً في شِعاب مكَّة قبل قيام دولتهم ، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار ، فليجهروا بالأذان ، والإقامة ، وليركعوا ويسجدوا لله ربِّ العالمين .

إنَّ الواقع التَّاريخيَّ خيرُ شاهدٍ على أنَّ الله لا يُعْبَدُ في الأرض حقَّ عبادته ، إلا في ظلِّ دولةٍ قويَّةٍ ، تحمي رعاياها من أعداء الدِّين .

ثمَّ تتكرَّر كلمات الأذان : «**الله أكبر . . . الله أكبر**» للتأكيد على المعاني السَّابقة(١) .

إنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ لفهم الأذان ، وإدراك معانيه ، والعمل على ترجمته ترجمةً عمليَّةً ؛ لنجاهد في الله حقَّ جهاده ، حتَّى ندمِّر شعارات الكفر ، ونرفع شعارات الإيمان ، ونقيم دولة التَّوحيد ، الَّتي تحكم بشرع الله ، ومنهجه القويم .

٦ ـ حكم تشييد المساجد ، ونقشها ، وزخرفتها :

والتَّشييد : أن تقام عمارة المسجد بالحجارة ، ممَّا يزيد في قوَّة بنائه ، ومتانة سقفه وأركانه . والنَّقش ، والزَّخرفة : ما جاوز أصل البناء من شتَّى أنواع الزِّينة .

فأمَّا التشييد : فقد أجازه ، واستحسنه العلماء عامَّةً ؛ بدليل ما فعله عمر ، وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده ﷺ ؛ لأنَّ في ذلك عنايةً ، واهتماماً بشعائر الله تعالى ، واستدلَّ العلماء على ذلك بقوله تعالى : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

وأمَّا النَّقش ، والزَّخرفة ؛ فقد أجمع العلماء على كراهتهما ، ثمَّ هم في ذلك بين محرِّمٍ ، ومكرِّهٍ كراهةَ تنزيه ؛ غير أنَّ الذين قالوا بالحرمة ، والَّذين قالوا بالكراهة اتَّفقوا على أنَّه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيءٍ من الزَّخرفة ، والنَّقش(٢) . وكان أوَّلَ مَنْ زخرف المساجد الوليدُ بن عبد الملك بن مَرْوان ، ومن يومها والنَّاس شرعوا يغالون في بناء المساجد ، وزخرفتها ، حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف ، وكلُّ ذلك خارج عن هَدي النُّبوَّة(٣) ، فعندما زُخرفتِ المساجد ، وخرجت عن نمط البساطة ؛ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٣٩ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النبوية ، للبوطي ، ص ١٤٥ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٣) .

بخعَ الأسفُ نفوسَ المستضعفين، وتنافس في شهوات التَّزخرف الفارغون من عواصم الإيمان(١).

إنَّ الذين يهتمُّون بتعمير المساجد، وتشييدها، وينصرفون بكلِّ جهودهم إلى التَّفنُّن في تزيينها، ونقشها، وإضفاء مختلف مظاهر الأبَّهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيمٍ؛ حتَّى إنَّ الداخل إليها لا يكاد يستشعر أيَّ معنىً من ذلِّ العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فنُّ الهندسة المعماريَّة، وفنون الزَّخرفة العربيَّة.

إنَّ الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهرَّبوا من مظاهر الإغراء الدُّنيويِّ إلى أيِّ جهةٍ، لقد كان في المساجد ما يعزِّي الفقير بفقره، ويخرجه من جوِّ الدُّنيا، وزخرفها إلى الآخرة، وفضلها، فأصبحوا يجدون حتَّى في مظهر هذه المساجد ما يذكِّرهم بزخارف الدُّنيا الَّتي حُرموها، ويشعرهم بنكد الفقر، وأوضاره، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران لحقائق إسلامهم، وانشغالٍ بمظاهر كاذبةٍ، ظاهرها الدِّين، وباطنها الدُّنيا بكلِّ ما فيها من شهواتٍ، وأهواءٍ!(٢).

٧ ـ فضائل المسجد النَّبويِّ:

تحدَّث النَّبيُّ ﷺ عن فضائل المسجد النَّبويِّ؛ ولذلك تعلَّق الصَّحابة به. ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الآتي:

أ ـ تأسيس المسجد النَّبويِّ على التَّقوى:

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله! أيُّ المسجدينِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حَصْبَاء، فضرب به الأرض، ثمَّ قال: «هو مسجدكم هذا» [مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩) والنسائي (٢/٣٦) وأحمد (٣/٨)] لمسجد المدينة.

وقد تكلَّم بعض العلماء، في الأحاديث الَّتي أشارت إلى أنَّ المسجد النَّبويَّ هو الَّذي أُسِّس على التَّقوى؛ بحجَّة أنَّها معارضةٌ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى في الآية السَّابقة، فقال بعضهم: هو مسجد النَّبيِّ ﷺ، وقال آخرون: هو مسجد قُباء، وقد ذكر أقوالهم محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره، ثمَّ قال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصَّواب، قول مَنْ قال:

---

(١) انظر: محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٣٩).
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص ١٤٦.

هـو مسجد الرَّسول ﷺ ؛ لصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ »(١) .

ولا معارضة بين الحديث والآية السَّابقة على القول بأنَّ المراد بالمسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى فيها هو مسجد قُباء ؛ لأنَّ كلاً من المسجدين أُسِّس على التَّقوى(٢) . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة : أنَّ الآية السَّابقة نزلت بسبب مسجد قُباء ، ثمَّ قال : «لكن الحكم يتناوله ، ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك ، وهو مسجد المدينة ، وهذا يوجِّه ما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ : أنَّه سئل عن المسجد الذي أُسِّس على التَّقوى ، فقال : «هو مسجدي هذا» [سبق تخريجه](٣) .

وقال في موضع آخر : « . . . فتبيَّن أنَّ كلا المسجدين أُسِّس على التَّقوى ، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النَّعت ، فهو أحقُّ بهذا الاسم ، ومسجد قُباء كان سبب نزول الآية»(٤) .

وذكر الحافظ ابن حجرٍ : أنَّ السِّرَّ في جوابه ﷺ بأنَّ المسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى مسجده رفعُ توهم أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجد قُباء(٥) .

ب ـ فضل الصَّلاة في المسجد النَّبويِّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «صلاةٌ في مسجدي هذا ، خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجد الحرامَ» [البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤/٥٠٦ و٥٠٧)] .

ج ـ أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ ﷺ : أنَّه قال : «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد : «المسجد الحرام ، ومسجد الرَّسول ﷺ ، ومسجد الأقصى» [البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧/٥١١)] .

د ـ الرَّوضة في المسجد النَّبويِّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال : «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنَّة ، ومنبري على حوضي» [البخاري (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١)] .

هـ ـ فضل التَّعلُّم والتَّعليم في المسجد النَّبويِّ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول : «مَنْ دخل مسجدنا هذا ؛ يتعلَّم

---

(١) انظر : تفسير الطَّبري (١٤/ ٤٧٦ ـ ٤٧٩) .
(٢) انظر : الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ، د . صالح الرِّفاعي ، ص ٣٧٢ .
(٣) انظر : منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٧/ ٧٤) .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٠٦) .
(٥) فتح الباري (٧/ ٢٤٥) .

خيراً ، أو يعلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومَنْ دخله لغير ذلك؛ كان كالنَّاظر إلى ما ليس له» [أحمد (٢/ ٣٥٠) وابن ماجه (٢٢٧) والحاكم (١/ ٩١)] .

٨ ـ آيةٌ نزلت في أهل الصُّفَّة وفقراء المهاجرين :

قال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣] .

ذكر ابن سعدٍ بسنده إلى ابن كعبٍ القرظيِّ ، قال: هُمْ أصحاب الصُّفَّة[١] . وذكر الطَّبريُّ بأسانيده عن مجاهدٍ والسُّدِّيِّ : أنَّها في فقراء المهاجرين[٢] .

إنَّ الأحداث الَّتي تتعلَّق بالدِّعامة الأولى في المجتمع كثيرةٌ ، وكذلك ما يتعلَّق بها من أحكام؛ كضمان حقوق الأيتام ، وجواز نبش القبور الدَّارسة ، واتِّخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت ، وطابت أرضُها ، إلاَّ أنني أكتفي بهذه الدُّروس ، والعبر ، والفوائد فيما يتعلَّق بالمسجد؛ خوفاً من الإطالة .

* * *

---

(١) انظر : الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (١/ ٢٥٥) .

(٢) انظر : تفسير الطَّبري (٥/ ٥٩١) ، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/ ٢٦٩) .

المبحث الثَّاني
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان مِنْ أولى الدَّعائم الَّتي اعتمدها الرَّسول ﷺ في برنامجه الإصلاحيِّ والتَّنظيميِّ للأمَّة ، وللدَّولة ، والحكم ، الاستمرار في الدَّعوة إلى التَّوحيد ، والمنهج القرآنيِّ ، وبناء المسجد ، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهي خطوةٌ لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم ، ويتآلف ، وتتَّضح معالم تكوينه الجديد[١] .

كان مبدأ التَّآخي العام بين المسلمين قائماً ، منذ بداية الدَّعوة في عهدها المكِّيِّ، ونهى الرَّسول ﷺ عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التَّباغض بين المسلمين ، فقال ﷺ : «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيَّام» [البخاري (٦٠٦٥ و٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)] ، وقال ﷺ : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلِمُهُ ، ولا يُسْلِمُهُ[٢] ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة[٣] ، فرَّج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه كربةً من كُرُبات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ، ستره الله يوم القيامة» [البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠)] .

وقد أكَّد القرآن الكريم الأُخوَّة العامَّة بين أبناء الأمَّة ، في قوله تعالى : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٦٣] .

أمَّا موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصَّة؛ الَّتي شُرِعت ، وترتبت عليها حقوقٌ ،

---

(١) انظر : الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. مجدلاوي ، ص ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) أي : لا يتركه مع مَنْ يؤذيه ، ولا فيما يؤذيه؛ بل ينصره ، ويدفع عنه .
(٣) كربة : أي : غمة .

وواجباتٌ أخصُّ من الحقوق ، والواجبات العامَّة بين المؤمنين كافَّةً[١] .

وقد تحدَّث بعض العلماء عن وجود مؤاخاةٍ كانت في مكَّة بين المهاجرين ، فقد أشار البلاذري إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ آخى بين المسلمين في مكَّة قبل الهجرة على الحقِّ ، والمواساة ، فآخى بين حمزة ، وزيد بن حارثة ، وبين أبي بكرٍ ، وعمر ، وبين عثمان بن عفَّان وعبد الرَّحمن بن عوف، وبين الزُّبير بن العوَّام، وعبد الله بن مسعودٍ، وبين عبيدة بن الحارث ، وبلالٍ الحبشيِّ ، وبين مصعب بن عميرٍ ، وسعد ابن أبي وقَّاصٍ ، وبين أبي عبيدة بن الجرَّاح ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، وبينه وبين عليِّ بن أبي طالب[٢] وَيُعَدُّ البلاذريُّ (ت ٢٧٦ هـ) أقدم مَنْ أشار إلى المؤاخاة المكِّيَّة ، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البرِّ (ت ٤٦٣هـ) دون أن يصرِّح بالنَّقل عنه ، كما تابعهما ابن سيِّد النَّاس دون التَّصريح بالنَّقل عن أحدهما[٣] .

وقد أخرج الحاكم في المستدرك ، من طريق جميع بن عمير ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : «آخى رسولُ الله ﷺ بين أبي بكرٍ، وعمر ، وبين طلحة ، والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان»[٤] ، وعن ابن عباسٍ: «آخى النَّبيُّ ﷺ بين الزُّبير ، وابن مسعودٍ» [الحاكم (٣/ ٣١٤)][٥] .

وذهب كلٌّ مِنْ : ابن القيِّم ، وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكَّة ، فقال ابن القيِّم : «وقد قيل : إنَّه ـ أي النَّبيَّ ﷺ ـ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، مؤاخاةً ثانيةً ، واتَّخذ فيها عليّاً أخاً لنفسه ، والثَّابت الأوَّل[٦] ؛ فالمهاجرون كانوا مستغنين بأخوَّة الإسلام ، وأخوَّة الدَّار ، وقرابة النَّسب عن عقدِ مؤاخاةٍ ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[٧] ، أمَّا ابن كثيرٍ ؛ فقد ذكر : أنَّ من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلَّة نفسها ، الَّتي ذكرها ابن القيِّم[٨] .

لم تُشِرْ كتب السِّيرة الأولى المختصَّة ، إلى وقوع المؤاخاة بمكَّة ، والبلاذريُّ ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسنادٍ ؛ ممَّا يضعِّف الرِّواية ، كما أنَّ البلاذريَّ نفسه ضعَّفه النُّقاد ، وعلى فرض

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (١/ ٢٤٠) .
(٢) أنساب الأشراف ، للبلاذري (١/ ٢٧٠) ، وابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ١٥٠ ـ ١٥٢) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٤٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٤٠) .
(٥) فتح الباري (٧/ ٤٧١) .
(٦) يعني : المؤاخاة في المدينة .
(٧) زاد المعاد (٢/ ٧٩) .
(٨) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير .

صحَّة هذه المؤاخاة بمكَّة ، فإنها تقتصر على المؤازرة ، والنَّصيحة بين المتآخين؛ دون أن تترتب عليها حقوق التَّوارث[١] .

أولاً : المؤاخاة في المدينة :

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمَّة بعضها ببعض ، فقد أقام الرَّسول ﷺ هذه الصِّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء الَّذي تذوب فيه عصبيَّات الجاهليَّة ، فلا حَميَّة إلا للإسلام ، وتسقط به فوارق النَّسب ، واللَّون ، والوطن ، فلا يتأخَّر أحدٌ ، أو يتقدَّم ، إلا بمروءته ، وتقواه .

وقد جعل الرَّسولُ ﷺ هذه الأخوَّة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدِّماء ، والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ، ولا يقوم لها أثرٌ .

وكانت عواطف الإيثار ، والمواساة ، والمؤانسة تمتزج في هذه الأُخوَّة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[٢] .

والسَّبب الَّذي أدَّى إلى تقوية هذه الأُخوَّة بين المهاجرين والأنصار هو أنَّ أهل هذا المجتمع ، ممَّن التقوا على دين الله وحده ، نشَّأهم دينهم الَّذي اعتنقوه ، على أن يقولوا ، ويفعلوا ، وعلَّمهم الإيمانَ ، والعملَ جميعاً ، فهم أبعد ما يكونون عن الشِّعارات الَّتي لا تتجاوز أطراف الألسنة ، وكانوا على النَّحو الَّذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

وبذلك الَّذي درج عليه المسلمون كفل البقاء ، والاستمرار لهذه الأخوَّة؛ الَّتي شدَّ الله بها أَزْرَ دينه ، ورسوله ﷺ ، حتَّى آتت ثمارَها في كلِّ أطوار الدَّعوة ، طوال حياته ﷺ ، وامتدَّ أثرها ، فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصِّدِّيق رضي الله عنه دون أن تطوِّع لهم أنفسهم (أي : للأنصار) أن يحدثوا صدعاً في شمل الأمَّة ، مستجيبين في ذلك لشهوات السُّلطة ، وغريزة السَّيطرة ، لذلك فإنَّ سياسة المؤاخاة بين المهاجرين ، والأنصار نوع من السَّبق السِّياسيِّ : الَّذي اتَّبعه رسول الله ﷺ ، في تأصيل المودة ، وتمكينها في مشاعر المهاجرين ، والأنصار ، الَّذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودَّة ، وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[٣] ،

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٤١) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٣) انظر : فصولٌ في السِّيرة النَّبوية ، د. عبد المنعم السَّيِّد ، ص ٢٠٠ .

ولا سيما الأنصار ، الَّذين لا يجد الكُتَّاب ، والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان ، خيراً من حديث الله عنهم(١) .

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

ونلحظ في الآية السَّابقة : أنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات :

١ ـ تبوَّؤوا الدَّار ، والإيمان من قبلهم .

٢ ـ يحبُّون من هاجر إليهم .

٣ ـ لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا .

٤ ـ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

٥ ـ ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون(٢) .

وفي الآية السَّابقة فوائدُ عظيمةٌ ، وحكمٌ جليلةٌ ؛ منها :

(أ) التَّعبير عن المدينة بلفظ «الدَّار» إشعارٌ بأنَّها دارٌ خاصَّةٌ لكلِّ متوطِّنٍ بها ، متبوِّئٍ لها ، فهي بالنِّسبة لأهلها كدارٍ خاصَّةٍ للفرد ، يهنأ بالأمن ، والاستقرار ، وهو في داخلها ، وفي هذا الإشعار نوعٌ من الأُنس السَّريِّ في النَّفس ، يزيدها رُوْحاً ، وطُمأْنِينَةً ، فالأنصار في دارهم ، وإيمانهم متمكِّنون من الأمن ، والاستقرار المادِّيِّ ، تتنزَّل عليهم السَّكينة ، فتحفُّهم بنورها ، كأنَّها سياجٌ من الرَّحمة مضروبٌ عليهم ، لا يلحقهم فزعٌ ، ولا يدخل عليهم قلقٌ .

(ب) أمَّا قولـه تعالى : ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فالضَّمير فيه للمهاجرين ، ومعناه : أنَّ الأنصار هم الذين تبوَّؤوا المدينة المنوَّرة داراً لهم ، وتبوَّؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم ؛ لأنَّ المهاجرين وإن تبوَّؤوا الإيمان قبل الأنصار ؛ لأنَّهم سبقوهم إليـه ، وتمكَّنـوا منـه أعظم تمكُّنٍ ، وتمكَّن هو منهـم أبلغ تمكُّنٍ ؛ لكنَّهم لم يتبوَّؤوا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّيِّ المادِّيِّ ، والأمن على أنفسهم ، وإيمانهم من فزعات الأعداء ، وسطواتهم ، فكان للمهاجرين في تَبَوُّؤ الإيمان دون تَبوؤ الدَّار ، وكان للأنصار تَبَوُّؤُهما معاً في قرنٍ واحدٍ .

(ج) ومن لطائف القرآن الحكيم : أنَّه ساق مدْحَةَ المهاجرين قبل مِدْحَة الأنصار ، مفتتحاً لها

---

(١) انظر : هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته في القرآن والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٢٤٥ .

(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٢/ ٢٨٤) .

بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

فجعل فَقْد بعض ما كان مدحةً للأنصار من تَبَوُّؤ الدَّار، والإيمان مدحةً للمهاجرين؛ لأنَّهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصرهم الله بنصر دينه، ونصر رسوله ﷺ بنصر رسالته، ودعوته، ووصفهم بأنَّهم هم الصَّادقون، وأنَّ النَّاس تَبَعٌ لهم في ذلك، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وقال لعامَّة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فالقَبْلِيَّةُ - أي: قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ - بهذا المعنى مدحةٌ للأنصار؛ جاءت لتشعرهم بواجباتهم نحو إخوانهم الَّذين هاجروا إليهم، تاركين ديارهم، وأموالهم ابتغاء فضل الله، ورضوانه، والتَّفرُّغ لنصرة دينه، ونصرة رسوله، فالدَّار الَّتي فقدها المهاجرون بما فيها من أموالٍ، وفلذات أكبادٍ إنَّما فقدوها تقرُّباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوَّؤون معهم دارهم، دار الأمن، والاستقرار، مع سبق تَبوُّئهم الإيمان قبل الأنصار، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوُّءُ الدَّار والإيمان، وانفردوا بسبق تَبَوُّئِهم الإيمان. فضيلةٌ لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين، وفي طليعتهم الأنصار، الَّذين جعلوا من الإيواء والنُّصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحبِّ الصَّادق، فقيل في وصفهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا حبٌّ لله، والله جعله فضيلةً لهم، ميَّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنَّهم أُخرجوا من ديارهم، وأموالهم؛ ابتغاء مرضاة الله، وتعرُّضاً لفضله المنهمر عليهم غيثُه ديمة لا ينقطع، ولا يفتر، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرةً بالحبِّ لإخوانهم الأنصار، الَّذين وُصفوا بالإخلاص الصَّفيِّ، الَّذي كان ثمرة الحبّ في الله، ولله، فقيل عنهم: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: أنَّهم لا تستشرف نفوسهم إلى فضلٍ ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم، وأموالهم، وانتهاضهم لنصرة دين الله، ورسالاته، ولا يتطلَّعون إلى شيءٍ منه تطلباً له، أو مشاركةً فيه[1].

(د) وفي قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: والحبُّ الَّذي يسجِّله ربُّ العزَّة - تبارك وتعالى - في محكم كتابه آياتٍ بيِّنات تُتلى، ويُتعبَّد بها في روعة إعجازها، وبراعة أسلوبها، وسموِّ منهجها في الهداية، لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النَّفس المؤمنة آثارُ حزازةٍ تحسد المهاجرين على ما آتاهم الله من مكارم الإيمان، والتَّضحية في سبيله بالدِّيار، والأموال، بله متعةً مادِّيَّةً زائلةً تافهةً.

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٩٤).

وصفات المدحة السَّلبيَّة لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع ، فيكون نفيُها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفاتٍ إيجابيَّةٍ في بناء المدحة المشرِّفة(١) .

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبِّهم المهاجرين: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ ، معنى ذلك: أنَّ هؤلاء الأنصار سَمَوا في حبِّهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذِروة الصَّفاء ، والإخلاص ، ووحدة الشُّعور ، وامتلأت صدورهم بهذا الحبِّ القدسيِّ ، فلم تعد تتَّسع لشيءٍ معه ، إلا أن يكون ذلك الشَّيء أثراً من آثار الحبِّ ، وليس ذلك إلا ذِروة الفضائل ، وهو إيثارهم على أنفسهم بكلِّ مكرمة ، ولو كانوا هم في أشدِّ الحاجة إليها(٢) .

(هـ) ومجيء قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عقب قوله عزَّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ بيـانٌ لثمرة هذا الحبِّ ، وهي ثمرةٌ سما بها الأنصار إلى آفاقٍ لم تصل إليها البشريَّة في تاريخها البعيد السَّحيق ، ولا في تاريخها الدَّاني القريب ، تلك هي ثمرة الإيثار على النَّفس ، الَّتي أثمرها الحبُّ الإيمانيُّ(٣) .

(و) ثمَّ وُصِفُوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصِّدق في عزائمهم ، والإخلاص في إيمانهم ، فقيل فيهم بعد تقرير: أنَّهم بهذا الإيثار صفَتْ نفوسُهم من كُدورات التَّطلُّعات ، والحزازات ، وأخلصوا الحبَّ لإخوانهم المهاجرين ، وطُهِّروا من رشح الشُّح ، فتوقَّوه بفضيلة الكرم والسَّخاء المؤثر: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

كان هذا الحبُّ الأخويُّ بين المهاجرين والأنصار ، هو الأساس الَّذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعيَّة؛ الَّتي عقدها النَّبيُّ ﷺ بين أصحابه بعد مَقْدِمِه المدينة ، فقد كانت هذه المؤاخاة ، من أسبق الأعمال؛ الَّتي قام بها رسول الله ﷺ أوَّل ما استقرَّ في مقامه ، وأخذ في بناء مسجده الأعظم(٤) .

والظاهر: أنَّ ابتداءها كان في المسجد؛ وهو يُـبْنى ، والنَّبيُّ ﷺ مشغولٌ في بنائه مع أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، وكان ذلك المكان الطَّاهر ، والعمل الشَّريف الخالص لوجه الله ـ تبارك وتعالى ـ أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة ، لما فيهما من اقتضاء التَّرافق ، والتَّعاون ، والتَّعاضد ، والتَّواسي ، والتَّناصر ، والتوادُد ، وتقوية آصرة الأخوَّة الإيمانيَّة ، فآخى رسول الله ﷺ بين العاملين معه في بناء المسجد أوَّلاً ، ثمَّ آخى بين قومٍ آخرين في دار أنسٍ ،

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٩٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (٣/ ٩٦).

(٤) انظر: محمَّدٌ رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ٩٨).

وتكرَّر ذلك منه ﷺ، حتَّى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين، والأنصار، وكانوا نحو المئة، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار(١).

بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممَّن تآخوا في الله:

أبو بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه، وخارجة بن زهيرٍ. وعمر بن الخطَّاب، وعتبان بن مالكٍ. وأبو عبيدة بن الجرَّاح، وسعد بن معاذ. وعبد الرَّحمن بن عوفٍ، وسعد بن الرَّبيع. والزُّبير بن العوام، وسلامة بن سلامة بن وَقْشٍ. وطلحة ابن عُبيد الله، وكعب بن مالكٍ. وسعيد بن زيدٍ، وأُبيُّ بن كعبٍ. ومصعب بن عميرٍ، وأبو أيوبٍ خالد بن زيد. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعبَّاد بن بشر بن وَقْش. وعمَّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان. وأبو ذرٍّ الغفاريُّ، والمنذر بن عمرو. وحاطب بن أبي بلتعة(٢)، وعُوَيم بن ساعدة. وسلمان الفارسي، وأبو الدَّرداء. وبلال مؤذِّن رسول الله ﷺ، وأبو رُوَيْحة عبد الله بن عبد الرَّحمن الخَثْعميُّ(٣).

ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد:

١ ـ آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إنَّ المجتمع المدنيَّ الَّذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقديّاً يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله، ولرسوله، وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط، وأرقاه؛ إذ يتَّصل بوحدة العقيدة، والفكر، والرُّوح(٤).

إنَّ الولاء لله، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين من أهمِّ الآثار، والنَّتائج المترتِّبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربِّي المسلمين على هذه المعاني الرَّفيعة، فقد بيَّن الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ ابن نوحٍ وإن كان من أهله باعتبار القرابة؛ لكنَّه لم يَعُدْ من أهله لمَّا فارق الحقَّ، وكفر بالله، ولم يتَّبع نبيَّ الله. قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

وقد حصر الإسلامُ الأُخوَّة والموالاة بين المؤمنين فقط. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] وقطع الولاية بين المؤمنين،

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٣/ ١٠٠).

(٢) بلتعة: تبلتع الرَّجل: إذا تظرَّف.

(٣) انظر: ابن هشام (٢/ ١٠٩ ـ ١١١)، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٢/ ٣٢٤).

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٥٢).

والكافرين من المشركين ، واليهود ، والنَّصارى ، حتَّى لو كانوا آباءهم ، أو إخوانهم ، أو أبناءهم ، ووصف مَنْ يفعل ذلك من المؤمنين بالظُّلم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ موالاة المؤمنين للكافرين ، من أعظم الذُّنوب.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة : ١ ـ ٣] .

فإذا كان الله سبحانه يحذِّر المؤمنين في الآيات السَّابقة من موالاة الكفَّار عامَّةً ، فهناك آياتٌ كثيرةٌ وردت في تحذير المؤمنين ، ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصَّةً ، أو اتخاذهم أولياء ، أو الرُّكون إليهم(١) .

قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

قال صاحب الظِّلال : «هذا النِّداء موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة في المدينة ، ولكنَّه في الوقت ذاته موجَّهٌ لكلِّ جماعةٍ مسلمةٍ ، تقوم في أيِّ ركنٍ من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء لِلَّذين آمنوا: أنَّ المفاصلة لم تكن كاملةً ، ولا حاسمةً بين بعض المسلمين في المدينة ، وبعض أهل الكتاب ، وبخاصَّةٍ اليهود ، فقد كانت هناك علاقات ولاءٍ ، وحلفٍ ، وعلاقات اقتصادٍ ، وتعاملٍ ، وعلاقات جيرةٍ ، وصحبةٍ ، وكان هذا كلُّه طبيعياً مع الوضع التَّاريخي ، والاقتصاديِّ ، والاجتماعيِّ في المدينة قبل الإسلام بين أهل المدينة من العرب ، وبين اليهود بصفةٍ خاصَّةٍ ، وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدِّين وأهله بكل صنوف الكيد ؛ التي عدَّدَتْها ، وكشفتها النُّصوص القرآنيَّة الكثيرة .

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، لأحزمي جزولي ، ص ٤١٧ .

ونزل القرآن؛ ليبثَّ الوعي اللاَّزم للمسلم في المعركة الَّتي يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة ، بينه وبين كلِّ من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها الخاصَّة. المفاصلة الَّتي لا تُنهي السَّماحة الخلقيَّة ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنَّها تنهي الولاء الَّذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ، ورسوله ، والذين آمنوا. الوعي ، والمفاصلة اللَّذان لابُدَّ منهما في كلِّ أرضٍ ، وفي كلِّ جيلٍ . . . ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ، إنَّها حقيقةٌ لا علاقة لها بالزَّمن؛ لأنَّها حقيقةٌ نابعةٌ من طبيعة الأشياء ، إنَّهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أيِّ أرضٍ ، ولا في أيِّ تاريخٍ ، وقد مضت القرون تلو القرون ، ترسم مصداق هذه المقولة الصَّادقة ، ولم تختلَّ هذه القاعدة مرَّةً واحدةً ، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرَّره القرآن الكريم في صيغة الوصف الدَّائم ، لا الحادث المفرد ، واختيار الجملة الاسميَّة على هذا النَّحو ، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ليست مجرد تعبير! إنَّما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدَّائم الأصيل»(١) .

وقد نهى الله ـ سبحانه ـ المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء؛ وذلك لأنَّ من أبرز صفاتهم موالاة الكفار ، وكراهية دين الله . قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩] .

وقد جاءت آياتٌ توضِّح صور هذه المفاصلة في القرآن المدنيِّ ، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣] .

ونهى المولى ـ عزَّ وجل ـ عن الصَّلاة عليهم ، أو القيام على قبورهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] .

وحدَّد المولى ـ عزَّ وجل ـ لِلَّذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة ، الَّتي تتَّفق مع صفة الإيمان ، وبيَّن لهم من يتولَّون. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦] .

فقد فهم الصحابة: أنَّ ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم ، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم ، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله ، فحقَّقوا ذلك كلَّه في أنفسهم ، وطبَّقوه على حياتهم ، فمحَّضوا ولاءهم ، وجعلوه لله ، ورسوله ، والمؤمنين ، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرَّائعة ، الَّتي تدلُّ على فهمهم العميق لمعنى الولاء ، الذي منحوه لخالقهم ، ولدينهم ، وعقيدتهم ، وإخوانهم.

إنَّ التَّآخي الَّذي تمَّ بين المهاجرين ، والأنصار كان مسبوقاً بعقيدةٍ تمَّ اللِّقاء عليها ،

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩١١).

والإيمان بها؛ فالتآخي بين شخصين يُؤْمِن كلٌّ منهما بفكرةٍ ، أو عقيدةٍ مخالفةٍ للأخرى خرافةٌ ، ووَهْمٌ ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة ، أو العقيدة ، ممَّا تَحْمِلُ صاحبها على سلوكٍ معيَّنٍ في الحياة العمليَّة ، ولذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة الَّتي جاء بها رسولُ الله ﷺ من عند الله تعالى هي العمود الفقريَّ للمؤاخاة التي حدثت؛ لأنَّ تلك العقيدة تضع الناس كلَّهم في مصافِّ العبودية الخالصة لله ، دون الاعتبار لأيِّ فارقٍ ، إلا فارق التَّقوى ، والعمل الصَّالح؛ إذ ليس من المتوقَّع أن يسود الإخاء ، والتَّعاون ، والإيثار بين أناسٍ شَتَّتَتْهُمُ العقائد ، والأفكار المختلفة ، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته ، وأثرته ، وأهوائه(١) .

٢ ـ الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدنيِّ :

إنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأمَّة المسلمة ، فإذا وَهَتْ؛ تآكل كلُّ بنيانها(٢)؛ ولذلك حرصَ النَّبيُّ ﷺ على تعميق معاني الحبِّ في الله ، في المجتمع المسلم الجديد ، فقد قال ﷺ : «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي» [مسلم (٢٥٦٦) وأحمد (٢/ ٢٣٧ و٥٣٥) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢)] .

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حقَّت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ ، وحقَّت محبَّتي للمتواصلين فيَّ ، وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرَ من نورٍ ، يغبطهم النَّبيُّون ، والصِّدِّيقون ، والشُّهداء» [أحمد (٥/ ٢٢٩ و٢٣٩) وابن حبان (٥٧٧) وروى الترمذي (٢٣٩٠) طرفه الأخير] .

كانت توجيهات النَّبيِّ ﷺ ، تحثُّ الصَّحابة على معاني الحبِّ والتَّكافل ، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً ، فلا يستعلي غنيٌّ على فقيرٍ ، ولا حاكمٌ على محكومٍ ، ولا قويٌّ على ضعيفٍ ، وكان للحبِّ في الله أثرُه في المجتمع المدنيِّ الجديد ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً ، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مُستقبلةَ المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ ، فلمَّا نزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ قام أبو طلحة ، فقال: يا رسول الله! إنَّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ ، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بَيْرُحاء) ، وإنَّها صدقةٌ لله ، أرجو برَّها ، وذُخْرها عند الله ، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. قال رسول الله ﷺ : «ذلك مالٌ رابحٌ! ذلك مالٌ رابحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإنِّي أرى أن

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٥٦ .
(٢) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ١٢٩) .

تجعلها في الأقربين» ، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. [البخاري (١٤٦١)(١) ومسلم (٩٩٨)].

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدِّثنا عن هذه المعاني الرَّفيعة، حيث قال: لمَّا قدمنا المدينة؛ آخى رسولُ الله ﷺ بيني، وبين سعدٍ بن الرَّبيع، فقال سعد بن الرَّبيع: إنِّي أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويتَ؛ نَزَلْتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ(٢)؛ تزوَّجتَها. قال: فقال له عبد الرَّحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟ قال: سوق قينقاع(٣).

قال: فغدا إليه عبد الرَّحمن فأتى بأقطٍ، وسمنٍ، قال: ثمَّ تابع الغُدُوَّ(٤)، فما لبث أن جاء عبدُ الرَّحمن عليه أثَرُ صُفرةٍ، فقال رسول الله ﷺ: «تَزَوَّجتَ؟» قال: نعم. قال: «ومَنْ؟» قال: امرأةً من الأنصار. قال: «كم سُقْتَ؟» قال: زِنَةَ نواةٍ من ذهبٍ ـ أو: نواةً من ذهب ـ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أوْلِمْ ولو بشاةٍ» [البخاري (٢٠٤٨ و٣٧٨٠) ومسلم (١٤٢٦)].

ونلاحظ: أنَّ كرم سعد بن الرَّبيع قابله عفةُ وكرمُ نفسٍ من عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهما، ولم يكن مسلك عبد الرَّحمن بن عوفٍ خاصّاً به؛ بل إنَّ الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار، ثمَّ باشروا العمل، والكسب، واشتروا بيوتاً لأنفسهم، وتكفَّلوا بنفقة أنفسهم؛ ومن هؤلاء: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وغيرُهم رضي الله عنهم.

٣ ـ النَّصيحة بين المتآخين في الله:

كان للمؤاخاة أثرٌ في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النَّبيُّ ﷺ بين سلمان، وأبي الدَّرداء، فزار سلمانُ أبا الدَّرداء، فرأى أمَّ الدرداء، مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء، ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كلْ، فإنِّي صائم، قال: ما أنا بآكلٍ حتَّى تأكل. قال: فأكل، فلمَّا كان اللَّيل؛ ذهب أبو الدَّرداء يقوم، قال: نَمْ، فنام، ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نَمْ. فلمَّا كان آخر اللَّيل، قال سلمان: قم الآن، فصَلَّيا. فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «صَدَقَ سلمان» [البخاري (١٩٦٨ و٦١٣٩) والترمذي (٢٤١٣)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (١/ ٢٥٤).
(٢) نزلتُ لك عنها: أي: طلَّقتها لأجلك، فإذا حلَّت: أي: انقضت عدَّتها.
(٣) قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السُّوق إليهم.
(٤) تابع الغُدُوَّ: أي: داوم الذَّهاب إلى السُّوق للتجارة.

٤ ـ لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم :

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم ، وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدُّنيا ، وهذا شاهدٌ على صدق محبَّتهم ، وقوَّة إيمانهم ، فقد رويت نماذج عالية من مواقف الأنصار ، الَّتي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصارُ للنَّبيِّ: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة ، ونشرككم في الثَّمرة. قالوا: سمعنا ، وأطعنا» [البخاري (٢٣٢٥)] .

فهذا الحديث يفيد: أنَّ الأنصار عرضوا على النَّبيِّ ﷺ ، أن يتولَّى قسمة أموالهم بينهم ، وبين إخوانهم المهاجرين ، وقد كانت أموالهم هي النَّخيل ، فأبى عليهم النَّبيُّ ﷺ ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم ، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة ـ أي: العمل في النَّخيل من سقيها ، وإصلاحها ـ ونشرككم في الثَّمرة ، فلمَّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله ﷺ : أنَّ هذا الرأي ضمن سدِّ حاجة المهاجرين ، مع الإرفاق بالأنصار ، فأقرَّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا ، وأطعنا[١] .

وقد قام الأنصار بالمؤونة ، وأشركوا المهاجرين في الثَّمرة ، ولعلَّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ، ولكنَّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ، ومواقفهم الرَّفيعة في الإيثار ، والكرم ، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليلٍ ، ولا أحسن بذلاً في كثيرٍ ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[٢] ، حتَّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه ، قال: «لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله ـ عزَّ وجل ـ لهم» [أحمد (٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) والترمذي (٢٤٨٧) وابن أبي شيبة (٩/ ٦٨)] .

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويِّ بيانٌ لعمق تصوُّرهم للحياة الآخرة ، وهيمنة هذا التَّصور على تفكيرهم[٣] .

وقد أراد النَّبيُّ ﷺ أن يكافئ الأنصار على تلك المكارم العظيمة ، الَّتي قدَّموها لإخوانهم المهاجرين ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «دعا النَّبيُّ ﷺ الأنصارَ إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البحرين ، فقالوا: لا ، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إمَّا لا؛ فاصبروا حتَّى تلْقَوني؛ فإنَّه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ» [البخاري (٣٧٩٤)] .

لقد حقَّقتْ هذه المؤاخاةُ أهدافها ، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين ، ومؤانستهم عن

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/ ٣٠).

(٢) يعني: كفونا العمل ، وأشركونا في الثَّمرة.

(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/ ٤٠٦).

مفارقة الأهل ، والعشيرة ، وشدِّ أزر بعضهم بعضاً ، ومنها نهوض الدَّولة الجديدة؛ لأنَّ أيَّ دولةٍ لا يمكن أن تنهض ، وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمَّة ، وتساندها ، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتَّساند أن يتمَّ بغير عاملِ التَّـآخي والمحبَّـة المتبادلة ، فكلُّ جماعةٍ لا تؤلف بينها آصرة المودة ، والتَّـآخي الحقيقية لا يمكن أن تتَّحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتِّحاد حقيقةً قائمةً في الأمَّة ، أو الجماعة ، فلا يمكن أن تتألَّف منها دولةٌ[١] .

٥ ـ الإرث بالمؤاخاة :

لم يعرف تاريخ البشر كلُّه حادثاً جماعيّاً ، كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين ، بهذا الحبِّ الكريم ، وبهذا البذل السَّخيِّ ، وبهذه المشاركة الفعَّالة ، وبهذا التَّسابق إلى الإيواء ، واحتمال الأعباء ، فقد طُبِّقت الأخوَّة في الواقع العمليِّ لحياة الصَّحابة رضي الله عنهم .

إنَّ ما أقامه الرَّسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ تاريخيٍّ لم يكن مجرَّد شعارٍ في كلمةٍ أجراها على ألسنتهم؛ وإنَّما كان حقيقةً عمليَّةً ، تتَّصل بواقع الحياة ، وبكلِّ أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين ، فقد جعل النَّبيُّ ﷺ من هذه الأخوة مسؤوليَّةً حقيقيَّةً ، تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسؤوليَّة تؤدَّى فيما بينهم على خير وجهٍ ، ولذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقَّ الميراث منوطاً بهذا التَّـآخي دون حقوق القرابة والرَّحم ، فقد كان من حكمة التَّشريع أن تتجلَّى الأخوَّة الإسلاميَّة حقيقةً محسوسةً في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أنَّ ما بين المسلمين من التآخي والتَّحابب ، ليس شعاراً ، وكلاماً مجرَّدين؛ وإنَّما هي حقيقةٌ قائمةٌ ، ذات نتائج اجتماعيَّةٍ محسوسةٍ ، تكوِّن أهمَّ أسس نظام العدالة الاجتماعيَّة . أمَّا حكمة نسخ التَّوارث على أساس هذه الأخوَّة فيما بعد ، فهي أنَّ نظام الميراث الَّذي استقرَّ أخيراً إنَّما هو نفسه قائم على أخوَّة الإسلام بين المتوارثين؛ إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين؛ إلا أنَّ الفترة الأولى من الهجرة ، وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين ، أمام مسؤوليَّةٍ خاصَّةٍ من التعاون ، والتَّناصر ، والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم ، وتركهم ديارهم ، وأموالهم في مكَّة ، ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة ، فكان من إقامة الرَّسول ﷺ من التَّـآخي بين أفراد المهاجرين ، والأنصار ضمانةٌ لتحقيق هذه المسؤوليَّة ، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤوليَّة أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته ، وأثره من أُخوَّة الرَّحم المجرَّدة ، فلمَّا استقرَّ أمر المهاجرين في المدينة ، وتمكَّن الإسلام فيها؛ غدت الرُّوح الإسلاميَّة هي وحدها العصب الطَّبيعيُّ للمجتمع الجديد في المدينة[٢] .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٢٦) .

(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص (٢١١ ، ٢١٢) .

ولمَّا أَلِفَ المهاجرون جوَّ المدينة ، وعرفوا مسالك الرِّزق فيها ، وأصابوا من غنائم بدرٍ الكبرى ما كفاهم؛ رجع التَّوارث إلى وضعه الطَّبيعيِّ ، المنسجم مع الفطرة البشريَّة ، على أساس صلة الرَّحم ، وأبطل التَّوارث بين المتآخين ، وذلك بنصِّ القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فهذه الآية نسخت التَّوارث بموجب نظام المؤاخاة(١) ، وبقيت النُّصرة ، والرِّفادة ، والنَّصيحة بين المتآخين(٢) ، فقد بيَّن حَبْرُ الأمَّة ابن عباسٍ ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٣٣].

قال: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ قال: ورثةً ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ كان المهاجرون لمَّا قدموا المدينة يرثُ المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه؛ للأُخوة الَّتي آخى النَّبيُّ ﷺ بينهم ، فلمَّا نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾؛ نُسِخَتْ ، ثمَّ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾(٣) من النَّصر ، والرِّفادة والنَّصيحة ، وقد ذهب الميراثُ ، ويُوصي له [البخاري (٢٢٩٢ و٤٥٨٠ و٦٧٤٧) وأبو داود (٢٩٢٢) والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٣٧)].

٦ ـ قيمٌ إنسانيَّة ومبادئ مثاليَّةٌ:

من خلال الرَّوابط الوثيقة الَّتي أَلَّفَتْ بين المهاجرين ، والأنصار أُرْسِيَتْ قيمٌ إنسانيَّةٌ ، واجتماعيَّةٌ ، ومبادئ مثاليَّةٌ لا عهد للمجتمع القبليِّ بها؛ وإنَّما هي من شأن المجتمعات المتحضِّرة الفاضلة ، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشَّريف كوسيلةٍ لكسب الرِّزق ، فلقد قَبِلَ المهاجرون في أوَّل الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة ، ولكنَّهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزقٍ لهم ، ولا يُعوِّلُوا على رابطة المؤاخاة الَّتي سعد بها الأنصار ، فكان منهم من اشتغل بالتِّجارة ، ومنهم من عمل بالزِّراعة ، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالةً على إخوانهم؛ ذلك لأنَّ عزَّة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالةً على أحدٍ ، بل تطلب منه أن يعطي أكثر ممَّا يأخذ ، فاليد العليا خيرٌ ، وأحبُّ إلى الله من اليد السُّفلى ، وقد فهم الصَّحابة الكرام من تعاليم الإسلام: أنَّ العمل عبادةٌ ، وهي منزلةٌ لم تصل إليها النُّظم المعاصرة ، الَّتي قصرت فائدتها على سدِّ حاجات الإنسان المادِّيَّة والمعنويَّة ، وفي ضوء هذا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٤٦).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٤/ ٢٥).
(٣) هذه الجملة من رواية الطَّبري بنفس إسناد البخاريِّ (فتح الباري ٨/ ٢٤٩).

المفهوم الإسلاميِّ نستطيع أن نقول: إنَّ الإخاء، والعمل كانا حَجَرَ الزَّاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتَّالي في تأسيس الحضارة الإسلاميّة؛ الَّتي بُنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أوَّل دولةٍ في الإسلام، برئاسة النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ ترعرعت حتَّى أصبحت شجرةً يتفيَّأ ظلالَها العالمُ كلُّه[١].

٧ ـ تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إنَّ القضاء على الفوارق الإقليميَّة، والقبليَّة، ليس بالأمر الهيِّن في المجتمعات الجاهليَّة؛ حيث العصبية هي الدِّين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورةٍ واقعيَّةٍ، منطلقةٍ من قلب البيئة الجاهليَّة.

إنَّ من الأمراض في الصَّفِّ الإسلاميِّ المعاصر، سيطرةَ الرُّوح الإقليميَّة، والعصبيَّة في نفوس بعض الدُّعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين، وتُضعف الصُّفوف؛ بل تُشتِّتها، وينشغل الصَّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميَّة بداء العصبية الإقليميَّة، والعصبيَّة الشَّخصيَّة، والعصبية القُطريَّة، والعصبية حتَّى على مستوى المدينة، والقرية الصَّغيرة[٢]، وقد تولَّد هذا عن أمراضٍ في نفوس بعض الأفراد، بسبب بُعْدِهم عن القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ، فلم يتربَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّناحر، والتَّباغض.

إنَّ المسلمين اليوم في أشدِّ الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة؛ الَّتي حدثت بين المهاجرين، والأنصار؛ لأنَّه يستحيل أن تُستَأْنف حياةٌ إسلاميَّةٌ عزيزةٌ قويَّةٌ؛ إذا لم تتخلَّق المجتمعات الإسلاميَّة بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المستوى الإيمانيِّ الرَّفيع، وإلى هذه التَّضحيات الكبيرة، وأمَّا المظاهر الزَّائفة من الأخوة (باللِّسان)؛ فلا تجدي فتيلاً.

إنَّ الفرد المسلم حين يشعر: أنَّ له إخوةً يحبُّهم، ويحبُّونه، وينصرهم، وينصرونه، خاصَّةً إذا تفاقمت الأزمات، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، فإنَّ هذا ممَّا يرفع من رُوحه المعنويَّة؛ بل ويرفع قدراته الذَّاتية، ويجعله أقوى مضاءً، وعزيمةً، وإنَّ فقدان مثل هذه المؤاخاة، ممَّا يضعف الصفَّ الإسلاميَّ، ويجعل الفرد المسلم يشعر أحياناً: أنَّه وحيدٌ أمام أعداء يكنُّون له كلَّ حقدٍ، ويحيطون به من كلِّ جانبٍ، فكيف يستطيع حمل كلِّ هذه الضُّغوط النَّفسيَّة والمادِّيَّة؟![٣].

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٤١١.
(٢) انظر: التربية القياديَّة (٢/ ٢٨٦).
(٣) انظر: الطَّريق إلى المدينة، لمحمد العبده، ص ١٠، ١٠١.

وقد حفظ لنا التَّاريخ جهاد المجتمع المسلم مع أعدائه ، بعد تحقيق وحدته الاجتماعيَّة ، وهو لا يزال في دَوْرِ نشأته ، وتكوينه ، وكثيراً من المحاولات الإفساديَّة ، الَّتي كان الأعداء يدبِّرون مكايدها؛ ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم ، ليفرِّقوا جمعه ، ويفكِّكوا وحدته ، ولكنَّ هذه المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران؛ لأنَّها كانت تصطدم بقوَّة تماسك المجتمع المسلم ، في تركيبه الإيمانيِّ والاجتماعيِّ ، فيذيبها في تلك القوَّة ، الَّتي جعلت من تركيبه الاجتماعيِّ وحدةً مدمَّجة العناصر دمجاً لا يقبل التَّفريق ، ولا تنفصم عراه ، ولا تُحَلُّ روابطه[1] .

٨ ـ المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التَّمكين المعنويَّة :

إنَّ من أسباب التَّمكين المعنويَّة العملَ على تربية الأفراد تربيةً ربانيَّةً ، وإعداد القيادة الرَّبَّانيَّة ، ومحاربة أسباب الفُرْقة ، والأخذ بأصول الوحدة ، والاتِّحاد[2] .

وأهمُّ أصول الوحدة ، والاتِّحاد وحدةُ العقيدة ، وصدق الانتماء إلى الإسلام ، وطلب الحقِّ ، والتَّحري في ذلك ، وتحقيق الأخوَّة بين أفراد المسلمين .

إنَّ من الأصول العظيمة؛ التي تحقِّق وحدة الصَّف ، وقوَّة التَّلاحم ، ومتانة التَّماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوَّة في أوساطهم .

إنَّ الأُخوَّة منحةٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعطيها الله للمخلصين من عباده ، والأصفياء ، والأتقياء من أوليائه ، وجنده . قال تعالى : ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال : ٦٢ ـ ٦٣] .

وهي قوَّةٌ إيمانيَّةٌ ، تورث شعوراً عميقاً بعاطفةٍ صادقةٍ ، ومحبَّةٍ وودٍّ ، واحترامٍ ، وثقةٍ متبادلةٍ مع كلِّ مَنْ تربطنا بهم عقيدة التَّوحيد ، ومنهج الإسلام الخالد ، يتبعها ، ويستلزمها تعاونٌ ، وإيثارٌ ، ورحمةٌ ، وعفوٌ ، وتسامحٌ ، وتكافلٌ ، وتآزرٌ ، وهي ملازمةٌ للإيمان . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ولا يذوق حلاوة الإيمان ، إلا من أشرب هذه الأُخوَّة . قال ﷺ : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان : أن يكون اللهُ ، ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النَّار» [البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)] .

إنَّ القرآن الكريم يرسم لنا صورةً جميلةً لأصحاب رسول الله ﷺ . قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/ ١٥٢) .
(٢) انظر : فقه التَّمكين في القرآن الكريم للصَّلابي ، ص ٢٥٣ .

ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

إنَّ القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصُّورة إنَّما يخبرنا بتكريم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فَهُمْ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ أشدَّاء على الكفَّار؛ ولو كان فيهم الآباء، والقرابة، والأبناء، رحماءُ بينهم، وهذه الأخوَّة في الحقِّ أخوَّةٌ في الدِّين. إن الأخوَّة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصُّمود في وجه أعتى المحن الَّتي تنزل بالمسلمين، كما أنَّ الفهم المتبادل، والكامل للأخوَّة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين، وقوَّتهم، ومن أسباب شموخهم، والتَّمكين لهم(١).

٩ ـ من فضائل الأنصار:

تسميتهم بالأنصار: سمَّاهم الله، ورسولُه ﷺ بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين، ونصرة دين الله، ورسول الله ﷺ، ولم يكونوا معروفين بذلك مِنْ قبل(٢)، فعن غَيْلان بن جرير ـ رحمه الله! ـ قال: قلتُ لأنسٍ رضي الله عنه: أرأيتَ اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به، أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمَّانا الله [البخاري (٣٧٧٦)].

أمَّا مناقبهم، وفضائلهم، فكثيرةٌ، لا تحصى، منها مناقب عامَّةٌ لجميع الأنصار، ومناقب خاصَّة بأفراد من الأنصار. أمَّا المناقب العامَّة الواردة في القرآن الكريم مايلي:

فقد وصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بأنَّهم من المؤمنين حقّاً، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وبشَّرهم ربُّهم برضاه عنهم، وامتدح رضاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ووصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفلاح. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) انظر: شرح رسالة التَّعاليم، د. محمَّد عبد الله الخطيب، ص (٢٩٦).
(٢) انظر: الهجرة النَّبوية المباركة، لعبد الرحمن البر، (ص ١٣١ ـ ١٣٥).

وأمَّا الأحاديث الَّتي تحدَّثت عن مآثر الأنصار؛ فمنها:

حبُّ النَّبيِّ ﷺ للأنصار: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رأى النَّبيُّ ﷺ النِّساءَ، والصِّبيان مقبلين ـ قال: حَسِبْتُ: أنَّه قال: مِنْ عُرس ـ فقام النَّبيُّ ﷺ مُمْتَناً[1]، فقال: «اللَّهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ النَّاس إليَّ» قالها ثلاث مِرارٍ [البخاري (٣٧٨٥) ومسلم (٢٥٠٨)].

حبُّ الأنصار علامة الإيمان، وبغضهم علامة النِّفاق: عن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ، ولا يُبْغِضُهم إلا منافقٌ، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله» [البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥)].

مَنْ أحبَّهم فاز بحبِّ الله إيَّاه، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إيَّاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أحَبَّ الأنصارَ أحبَّه اللهُ، ومن أبغض الأنصارَ أبغضه الله» [أحمد (٢/ ٥٠١ و٥٢٧) وأبو يعلى (٧٣٦٧) والبزار (٢٧٩٢ و٢٧٩٣) ومجمع الزوائد (١٠/ ٣٩)].

الشَّهادة لهم بالعفاف، والصَّبر: العفة والصَّبر شيمتان كريمتان، تدلاَّن على أصالة معدن المتخلِّق بهما، وتمام مروءته، وكمال رجولته، وفتوته، وقد شهد النَّبيُّ ﷺ للأنصار بهما، وما أعظمها من شهادةٍ! وما أعظمه من شاهدٍ![2]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يضرُّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار، أو نزلت بين أبويها» [أحمد (٦/ ٢٥٧) وابن حبان (٧٢٦٧) والحاكم (٤/ ٨٣) والبزار (٢٨٠٦) ومجمع الزوائد (١٠/ ٤٠)].

رغبة النَّبيِّ ﷺ في الانتساب إليهم لولا الهجرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً، أو شعباً، لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» [البخاري (٣٧٧٩ و٧٣٤٤) وأحمد (٢/ ٤١٠) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٦١)].

دعاء النَّبيِّ ﷺ بالمغفرة لهم، ولأبنائهم، ولأزواجهم، ولذراريهم: لاشكَّ أنَّ دعاء الرَّسول ﷺ مستجابٌ، وقد فاز الأنصار بهذا الفضل، فقد روى البخاريُّ عن عبد الله بن الفضل: أنَّه سمع أنس بن مالكٍ يقول: «حَزِنْتُ على من أُصيبَ بالحَرَّةِ[3]، فكتب إليَّ زيدُ بنُ أرقم ـ وبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزني ـ يذكر: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغفر للأنصار! ولأبناء

---

(١) مُمْتَناً: يعني متفضِّلاً عليهم بذلك.

(٢) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٤٢.

(٣) كانت وقعة الحرَّة في سنة ثلاث وستين، وسببها: أنَّ أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية؛ لمَّا بلغهم ما يتعمَّده من الفساد، فأرسل إليهم يزيدُ بنُ معاوية مسلمَ بن عقبة المرِّي في جيشٍ كثير، فهزمهم، واستباحوا المدينة، وقُتِلَ من الأنصار شيءٌ كثير، وكان أنسٌ يومئذ بالبصرة، فبلغه ذلك، فحزن على من أصيب من الأنصار، فكتب إليه زيد بن أرقم ـ وكان يومئذٍ بالكوفة ـ يسلِّيه، ومحصَّل ذلك: أنَّ الذي يصير إلى مغفرة الله، لا يشتدُّ الحزن عليه، فكان ذلك تعزيةً لأنس فيهم.

الأنصار». وشكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار[(١)]، فسأل أنساً بعضُ مَنْ كان عنده، فقال: هو الذي يقولُ رسولُ الله ﷺ، هذا الَّذي أوفى الله له بأذنِهِ[(٢)]» [البخاري (٤٩٠٦) ومسلم (٢٥٠٦)].

وصية النَّبيِّ ﷺ بالإحسان إليهم، وعدم إفزاعهم: كان جهاد الأنصار في سبيل الدِّين عظيماً، وكان فضلهم في نشره، والدِّفاع عنه بليغاً؛ إذ لم يمنعهم من الخفَّة إلى الخروج في سبيل الله عسرٌ، ولا يسرٌ، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وَمِنْ ثَمَّ كانت وصيَّة رسول الله ﷺ بالأنصار، والإحسان إلى محسنهم، والتَّجاوز عن مسيئهم، وكان ترهيبه ﷺ من ترويعهم، وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيراً[(٣)]، فعن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الأنصار كَرِشي، وعَيْبَتي[(٤)]، والنَّاسُ سيكثرون، ويَقِلُّون[(٥)]، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» [البخاري (٣٨٠١) ومسلم (٢٥١٠)].

وعنه أيضاً، قال: خرج نبيُّ الله ﷺ، فتلقَّته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده! إنِّي لأحِبُّكم، وإنَّ الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الَّذي لهم[(٦)]، فأحْسِنوا إلى مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم» [أحمد (٣/١٨٧) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٧٠) وابن حبان (٧٢٦٦ و٧٢٧١) وأبو يعلى (٣٧٧٠)] وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول

---

(١) هذه الزيادة ثابتةٌ عند مسلم، في كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم، رقم (٢٥٠٦، ٢٥٠٧).

(٢) أوفى الله له بأذنه: أي: بسمعه، وهو بضمِّ الهمزة والذَّال، ويجوز فتحهما، أي: أظهر صدقه فيما أعلم به.

(٣) انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص ١٥٠.

(٤) كرشي، وعيبتي: أي: بطانتي، وخاصَّتي، يريد أنَّهم موضع سرِّه، وأمانته.

(٥) قال ابن حجر: «أي: أنَّ الأنصار يقلُّون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فُرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل؛ فُرض في كلِّ طائفة من أولئك، فهم أبداً بالنِّسبة إلى غيرهم قليل.
ويحتمل أن يكون ﷺ اطَّلع على أنَّهم يقلُّون مطلقاً، فأخبر بذلك، فكان كما أخبر؛ لأنَّ الموجودين الآن من ذرِّية عليِّ بن أبي طالب ممَّن يتحقَّق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّن يتحقق نسبه، وقس على ذلك، ولا التفات إلى كثرة مَنْ يدَّعي: أنَّه منهم بغير برهانٍ» فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٨٠١).

(٦) قضوا الَّذي عليهم: يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النَّبيَّ ﷺ، وينصروه على أنَّ لهم الجنَّة، فوفوا بذلك. فتح الباري، شرح حديث رقم (٣٧٩٩)، وهذا الحديث موجودٌ بنحوه في البخاريِّ، رقم (٣٧٩٩).

على المنبر للأنصار: «. . . . فمن ولي الأنصار؛ فليحسن إلى محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ومَنْ أفزعهم؛ فقد أفزع هذا الَّذي بين هاتين ، وأشار إلى نَفْسِه ﷺ»[١] .

* * *

(١) انظر : الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥١ ومن أراد المزيد؛ فليرجع إلى صحيح البخاريِّ ، كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (٣٧٧٦ ، ٣٩٤٨) ومسلم ، كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، حديث رقم (٢٥٠٥ ، ٢٥١٣) .

المبحث الثَّالث
الوثيقة أو الصَّحيفة

نظَّم النَّبيُّ ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التَّاريخية ، واستهدف هذا الكتاب ، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق ، والواجبات ، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب ، والصَّحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور) .

ولقد تعرَّض الدُّكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة ، وقال : «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحيحة»(١) ، وبيَّن : أنَّ أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها ؛ «فنصوصها مكوَّنةٌ من كلماتٍ ، وتعابير كانت مألوفةً في عصر الرَّسول ﷺ ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد ، حتَّى أصبحت مغلقةً على غير المتعمِّقين في دراسة تلك الفترة . وليس في هذه الوثيقة نصوصٌ تمدح ، أو تقدح فرداً ، أو جماعةً ، أو تخصُّ أحداً بالإطراء ، أو الذَّمِّ ؛ لذلك يمكن القول بأنَّها وثيقةٌ أصليةٌ ، وغير مزوَّرةٍ»(٢) ، ثمَّ إنَّ التَّشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة ، وأساليب كُتُبِ النَّبيِّ ﷺ يعطيها توثيقاً آخر .

أولاً : كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود :

نصُّ الوثيقة(٣) :

١ ـ هذا كتاب من محمَّد النَّبيِّ «رسول الله» بين المؤمنين ، والمسلمين من قريشٍ ، «وأهل يثرب» ، وَمَنْ تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم .

٢ ـ إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس .

٣ ـ المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم(٤) ، يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدُون عانِيَهم(٥)

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري ، (١/ ٢٧٥) .
(٢) تنظيمات الرَّسول ﷺ الإدارية في المدينة ، لصالح العلي ، ص ٤ ـ ٥ .
(٣) مجموعة الوثائق السِّياسية ، لمحمَّد حميد الله ، ص ٤١ ـ ٤٧ ، وابن هشام (٢/ ١٤٧ ـ ١٥٠) .
(٤) الربعة : الحال الَّتي جاء الإسلام ، وهم عليها .
(٥) العاني : الأسير .

بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عَوْف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم[١] الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النَّجار على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وبنو النَّبيت على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ ـ وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[٢] بينهم أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ، أو عَقْل، وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

١٣ ـ وإنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعةَ[٣] ظُلْمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدِهم.

١٤ ـ ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

١٥ ـ وإنَّ ذمة الله واحدةٌ، يُجير عليهم أدناهم، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

---

(١) معاقلهم: المعاقل أي: الدِّيات، الواحدة: معقلة.
(٢) مُفْرَحاً: أي: المثقل بالدَّين، والكثير العيال.
(٣) دسيعة: عظيمة.

١٦ ـ وإنَّه مَنْ تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصرَ ، والأُسوة غير مظلومين ، ولا متناصرٍ عليهم .

١٧ ـ وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ ، وعدلٍ بينهم .

١٨ ـ وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقب بعضها بعضاً .

١٩ ـ وإنَّ المؤمنين يُبِئ[١] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ ـ وإنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً ، وأقومه ، وإنَّه لا يجير مشركٌ مالاً لقريشٍ ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمنٍ .

٢١ ـ وإنَّه من اعتبط[٢] مؤمناً قتلاً عن بيِّنةٍ؛ فإنَّه قَوَدٌ[٣] به ، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ (العَقْل) ، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّةً ، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه .

٢٢ ـ وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر مُحْدِثاً[٤] ، أو يُؤْوِيه ، وإنَّ مَنْ نصره ، أو آواه ، فإنَّ عليه لعنةَ الله ، وغضبه يوم القيامة ، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ ، ولا عدلٌ .

٢٣ ـ وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّدٍ ﷺ .

٢٤ ـ وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ ـ وإن يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم نفسه ، وأَثِمَ ، فإنَّه لا يُوتِغُ[٥] إلا نفسَه ، وأهلَ بيته .

٢٦ ـ وإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ .

٢٧ ـ وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ .

٢٨ ـ وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ .

---

(١) يُبِئ : من «البَوَاء» وهو المساواة .

(٢) أي : قتله دون جنايةٍ ، أو سببٍ يوجب قتله .

(٣) القود : القصاص .

(٤) المحدث : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : من نصر جانياً ، وآواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتصَّ منه ، وبالفتح : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرِّضا به ، والصَّبر عليه ، فإنَّه إذا رضي بالبدعة ، وأقرَّ فاعلها ، ولم ينكرها عليه؛ فقد آواه .

(٥) يوتغ : يهلك ، والوتغ ـ بالتَّحريك ـ: الهلاك . والمعنى : فسد ، وهلك ، وأثم .

٢٩ ـ وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ .

٣٠ ـ وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ .

٣١ ـ وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ ، إلا من ظَلَمَ ، وأَثِمَ ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه ، وأهلَ بيته .

٣٢ ـ وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ ـ وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ ، وإنَّ البر دون الإثم .

٣٤ ـ وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ ـ وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم . (بطانة الرَّجل : أي : خاصَّته ، وأهل بيته) .

٣٦ ـ وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد ﷺ .

٣٧ ـ وإنَّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ بينهم النُّصح ، والنَّصيحة ، والبرُّ دون الإثم .

٣٨ ـ وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه ، وإنَّ النَّصر للمظلوم .

٣٩ ـ وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٤٠ ـ وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة .

٤١ ـ وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍّ ، ولا آثم .

٤٢ ـ وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها .

٤٣ ـ وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ ، أو اشتجار يُخاف فسادُه ، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله ـ عزَّ و جلَّ ـ وإلى محمَّدٍ رسول الله ﷺ ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه (أي : إنَّ الله ، وحزبه المؤمنين على الرِّضا به) .

٤٤ ـ وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ ، ولا مَنْ نصرها ، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ .

٤٥ ـ وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه ، ويَلْبَسونه ؛ فإنَّهم يصالحونه ، ويلبسونه ، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك ؛ فإنَّه لهم على المؤمنين ، إلا مَنْ حارب في الدِّين . وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتُهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم .

٤٦ ـ وإنَّ يهود الأوس ـ مواليهم ، وأنفسهم ـ على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة ، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ البرَّ دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه ، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه .

٤٧ ـ وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ ، أو آثمٍ ، وإنَّه مَنْ خرج آمنٌ ، ومن قعد آمنٌ بالمدينة ، إلا من ظَلم ، وَأَثِمَ ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ ، واتقى ، ومحمَّدٌ رسولُ الله ﷺ[١] .

ثانياً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد من الوثيقة :

١ ـ تحديد مفهوم الأمَّة :

تضمَّنت الصَّحيفة مبادئ عامَّةً ، درجت دساتير الدُّول الحديثة على وضعها فيها ، وفي طليعة هذه المبادئ ، تحديد مفهوم الأمَّة؛ فالأمَّة في الصَّحيفة تضمُّ المسلمين جميعهم ، مهاجريهم ، وأنصارهم ، وَمَنْ تبعهم ممَّن لحق بهم ، وجاهد معهم ، أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس[٢] ، وهذا شيءٌ جديدٌ كلَّ الجدَّة في تاريخ الحياة السِّياسيَّة في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرَّسول ﷺ قومه من شعار القبليَّة ، والتَّبعيَّة لها ، إلى شعار الأمَّة ، الَّتي تضمُّ كلَّ من اعتنق الدِّين الجديد ، فلقد قالت الصَّحيفة عنهم: «إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ» (الفقرة: ١ ، ٢). وقد جاء به القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ، وبيَّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمَّة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، ووضَّح ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّها أمَّةٌ إيجابيَّة؛ فهي لا تقف موقف المتفرِّج من قضايا عصرها؛ بل تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتدعو إلى الفضائل ، وتحذِّر من الرَّذائل[٣]. قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وبهذا الاسم الَّذي أُطلق على جماعةٍ من المسلمين ، والمؤمنين ، ومَنْ تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة؛ الَّتي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام؛ فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظَّالم ، وهم يرعون حقوق القرابة ، والمحبَّة ، والجوار[٤]. لقد انصهرت طائفتا الأوس ، والخزرج في جماعة الأنصار ، ثمَّ انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، وأصبحوا أمَّةً واحدةً[٥] ، تربط أفرادها رابطةُ العقيدة ، وليس الدَّم ، فيتَّحد شعورهم ، وتتَّحد أفكارهم ، وتتَّحد قبلتهم ، ووجهتهم ،

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، ص ٤١ ـ ٤٧ .
(٢) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ١٦٩ .
(٣) انظر: دستورٌ للأمَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، ص ٩ .
(٤) انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيِّد عبد العزيز سالم ، ص ١٠٠ .
(٥) انظر: قيادة الرَّسول ﷺ السِّياسيَّة والعسكريَّة ، لأحمد راتب ، ص ٩٣ .

وولاؤهم لله وليس للقبيلة ، واحتكامهم للشَّرع وليس للعُرْف ، وهم يتمايزون بذلك كلِّه على بقيَّة النَّاس «من دون النَّاس» ، فهذه الرَّوابط تقتصر على المسلمين ، ولا تشمل غيرهم من اليهود ، والحلفاء ، ولا شكَّ : أنَّ تمييز الجماعة الدِّينية كان أمراً مقصوداً ، يستهدف زيادة تماسكها ، واعتزازها بذاتها[(١)] ، ويتَّضح ذلك في تمييزها بالقبلة ، واتجاهها إلى الكعبة ، بعد أن اتَّجهت ستة عشر ، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس[(٢)] .

وقد مضى النَّبيُّ ﷺ يميِّز أتباعه عمَّن سواهم في أمورٍ كثيرةٍ ، ويوضِّح لهم : أنَّه يقصد بذلك مخالفة اليهود ، ومن ذلك : أنَّ اليهود لا يُصلُّون بالخِفاف ، فأذن النَّبيُّ ﷺ لأصحابه أن يصلُّوا بالخُفِّ ، واليهود لا تصبغ الشَّيب ، فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحنَّاء ، والكَتَم[(٣)] ، واليهود تصوم عاشوراء ، والنبيُّ ﷺ يصومه أيضاً ، ثمَّ اعتزم في أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه ؛ مخالفةً لهم[(٤)] . ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم ، والتميُّز عليهم ، فقال : «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم» [أحمد (٢/ ٥٠ و٩٢) وأبو داود (٤٠٣١) وعبد بن حميد (٨٤٨)] ، وقال أيضاً : «لا تشبَّهوا باليهود» [أحمد (١/ ١٦٥) والنسائي (٨/ ١٣٧) وأبو يعلى (٦٨١)] . والأحاديث في ذلك كثيرةٌ ، وهي تفيد معنى تميُّز المسلمين ، واستعلائهم على غيرهم ، ولا شك : أنَّ التشبُّه ، والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذَّات ، والاستعلاء على الكفار ، ولكن هذا التَّميُّز ، والاستعلاء ، لا يشكِّل حاجزاً بين المسلمين ، وغيرهم ، فكيان الجماعة الإسلاميَّة مفتوح ، وقابلٌ للتوسُّع ، ويستطيع الانضمامَ إليه مَنْ يؤمن بعقيدته[(٥)] .

واعتبرت الصَّحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة ، وعنصراً من عناصرها ؛ ولذلك قيل في الصَّحيفة : «وإنَّه من تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرٌ عليهم» (الفقرة ١٦) ، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً ، في الفقرة (٢٥) وما يليها ؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله : «وإنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين . . . » .

وبهذا ترى : أنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب ؛ الَّذين يعيشون في أرجائه مواطنين ، وأنَّهم أمَّةٌ مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتِّبة عليهم ؛ فاختلاف الدِّين ليس ـ بمقتضى

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٢٩٣) .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، وسيرة ابن هشام (١/ ٥٥٠) .
(٣) الكَتَم : جَنْبَةٌ من الفصيلة المرسينية ، قريبة من الآس ، تنبت في المناطق الجبلية ، وكانت تُستعمل قديماً في الخِضابِ ، وَصُنْع المِداد .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٩٣) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، (١/ ٢٩٣) .

أحكام الصَّحيفة ـ سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[١] .

٢ ـ المرجعيَّة العليا لله ورسوله ﷺ :

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ، ورسوله ﷺ ، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (٢٣) ، وقد جاء فيها : «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّد ﷺ » والمغزى من ذلك واضحٌ ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ ، تُهيمن على المدينة ، وتفصل في الخلافات ؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات ، وفي الوقت نفسه تأكيدٌ ضمنيٌّ برئاسة الرَّسول ﷺ على الدَّولة[٢]، فقد حدَّدت الصَّحيفة مصدر السُّلطات الثلاثة : التَّشريعية ، والقضائية ، والتَّنفيذية ، فكان رسول الله ﷺ ، حريصاً على تنفيذ أوامر الله ، من خلال دولته الجديدة ؛ لأنَّ تحقيق الحاكمية لله على الأمَّة هو محض العبوديَّة لله تعالى ؛ لأنَّه بذلك يتحقَّق التَّوحيد ، ويقوم الدِّين . قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

يعني : «ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية ، والعقائد ، والعبادات ، والمعاملات إلا لله وحده ، يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشرٍ أن يحكم فيه برأيه وهواه ، ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله ، لا تختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة»[٣] .

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبوديَّة ، والحاكميَّة لله تعالى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٢ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥] فكما أنَّ تحقيق العبودية غايةٌ من إنزال الكتاب ؛ فكذلك تطبيق الحاكميَّة غايةٌ من إنزاله ، وكما أنَّ العبادة لا تكون إلا عن وحي مُنَزَّل ؛ فكذلك لا ينبغي أن يُحكم إلا بشرع منزَّلٍ ، أو بما له أصلٌ في شرعٍ مُنزَّلٍ[٤] .

إنَّ تحقيق الحاكميَّة تمكينٌ للعبوديَّة ، وقيامٌ بالغاية الَّتي من أجلها خُلق الإنسان ، والجان ،

---

(١) انظر : نظام الحكم ، لظافر القاسمي (١/ ٣٧) .
(٢) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، للسيد عبد العزيز ، ص ١٠٢ .
(٣) انظر : تفسير المنار (١٢/ ٣٠٩) .
(٤) انظر : الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣) .

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا، يرجع إليها سكَّان المدينة ـ بما فيهم اليهود ـ بموجب بند رقم (٤٣)، لكنَّ اليهود لم يُلزَموا بالرُّجوع إلى القضاء الإسلاميِّ دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة، وأحوالهم الشَّخصيَّة، فهم يحتكمون إلى التَّوراة، ويقضي بينهم أحبارها، ولكن إذا شاؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيِّ ﷺ، وقد خيَّر القرآن الكريم النَّبيَّ ﷺ بين قبول الحكم فيهم، أو ردِّهم إلى أحبارهم، قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرَّسول ﷺ فيها اختلافُ بني النَّضير، وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النَّضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دِيَةً مضاعفةً لقتلاها، فلمَّا ظهر الإسلام في المدينة؛ امتنعت بنو قريظة عن دفع الضِّعف، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة[(١)]، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وبهذه الصَّحيفة ـ الَّتي أقرَّت المادة (٤٣): على «أنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجارٍ يُخاف فساده. فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ رسوله ﷺ» ـ أصبح للرَّسول ﷺ سلطةٌ قضائيَّةٌ مركزيَّةٌ عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرَّسول ﷺ، ولها قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ؛ لأنَّ أوامر الله واجبة الطَّاعة، وملزمة التَّنفيذ، كما أنَّ أوامر الرَّسول ﷺ هي من الله، وطاعتها واجبةٌ[(٢)].

وبذلك أصبح رسول الله ﷺ رئيسَ الدَّولة، وفي الوقت نفسه رئيس السُّلطة القضائيَّة، والتَّنفيذيَّة، والتَّشريعية؛ فقد تولَّى رسول الله ﷺ السُّلطات الثلاث، بصفته رسول الله ﷺ، المكلَّف بتبليغ شرع الله، والمفسِّر لكلام الله، والسُّلطة التَّنفيذيَّة بصفته الرَّسول الحاكم، ورئيس الدَّولة، فقد تولَّى رئاسة الدَّولة وَفْقَ نصوص الصَّحيفة، وباتفاق الطَّوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممَّن شملتهم نصوص الصَّحيفة في المادة (٣٦)، الَّتي تقرِّر: أنَّه: «لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّدٍ ﷺ» ولهذا تأثيرٌ كبيرٌ في عدم السَّماح لهم بمحالفة قريش،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٢٩١).

(٢) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين، ص ٤١٨.

أو غيرها من القبائل المعادية. وهناك المادَّة (٤٤) الَّتي ذهبت إلى ما هو أبعد، وأصرح من ذلك؛ إذ قرَّرت: أنَّه: «لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نَصَرَها»، ولم يَرِدْ في الصَّحيفة اسمٌ لأيِّ شخصٍ ما عدا رسولِ الله ﷺ[١].

٣ـ إقليم الدَّولة:

وجاء في الصَّحيفة: «إنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصَّحيفة» مادة (٤٠)، وأصل التَّحريم ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّجر والطَّير، فما بالك في الأموال، والأنفس؟![٢] فهذه الصَّحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أمَّةٌ واحدةٌ، وإقليمٌ هو المدينة، وسلطةٌ حاكمةٌ يُرْجَع إليها، وتَحْكُم بما أنزل الله.

إنَّ المدينة كانت بداية إقليم الدَّولة الإسلاميَّة، ونقطة الانطلاق، ومركز الدَّائرة؛ الَّتي كان الإقليم يتَّسع منها، حتَّى يضع حدّاً للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم، والأمن العام.

وقد أرسل النَّبيُّ ﷺ أصحابه ليثبِّتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابَتَيْها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثَوْر في الشمال، وجبل عَيْر في الجنوب[٣].

ثمَّ اتسع «الإقليم» باتِّساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتَّى عمَّ مساحةً واسعةً في الأرض، والبحر، وما يعلوهما من فضاء، فمن المحيط الأطلسي غرباً، ومناطق واسعةٍ من غرب أوربة، وجنوبها، ومناطق فسيحةٍ من غرب آسية وجنوبها، إلى أكثر أهل الصِّين وروسية شرقاً، وكلِّ شمال إفريقية وأواسطها[٤]. إنَّ إقليم الدَّولة مفتوحٌ وغير محدودٍ بحدود جغرافيَّةٍ، أو سياسيَّةٍ؛ فهو يبدأ من عاصمة الدَّولة «المدينة»، ويتَّسع حتَّى يشمل الكرة الأرضيَّة بأسرها.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] كما أنَّ مفهوم الأمَّة مفتوحٌ وغير منغلقٍ على فئةٍ دون فئةٍ؛ بل هي ممتدَّةٌ لتشمل الإنسانيَّة كلَّها، إذا ما استجابت لدين الله تعالى؛ الذي ارتضاه لخلقه، ولبني آدم أينما كانوا، فالدَّولة الإسلاميَّة دولةُ الرِّسالة العالمية، لكلِّ فردٍ من أبناء

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢٠.

(٢) انظر: نظام الحكم، لظافر القاسمي (١/ ٣٨).

(٣) قال ﷺ: «المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْر إلى ثَوْر، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى مُحْدِثاً، فعليه لعنة الله...» البخاري (٦٧٥٥)، ومسلمٌ، كتاب الحجِّ، باب فضل المدينة... وبيان حدود حرمها، رقم (١٣٧٠).

(٤) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص ٤١١.

المعمورة نصيبٌ فيها ، وهي تتوسَّع بوسيلة الجهاد[١] .

٤ ـ الحرِّيَّات وحقوق الإنسان :

إنَّ الصَّحيفة تدلُّ بوضوحٍ ، وجلاءٍ على عبقرية الرَّسول ﷺ في صياغة موادِّها ، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعضٍ ؛ فقد كانت موادُّها مترابطةً ، وشاملةً ، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك ، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقِّق العدالة المطلقة ، والمساواة التَّامَّة بين البشر ، وأن يتمتَّع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأديانهم، بالحقوق والحرِّيَّات بأنواعها[٢] . يقول الأستاذ محمد سليم العوَّا: «ولا تزال المبادئ التي تضمَّنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها ، والأغلب أنَّها ستظل كذلك في مختلف نُظُم الحكم المعروفة إلى اليوم . . . وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها ، في أوَّل وثيقة سياسيَّة دوَّنها الرَّسول ﷺ »[٣] .

فقد أعلنت الصَّحيفة: أنَّ الحرِّيات مصونةٌ؛ كحرية العقيدة ، والعبادة ، وحقِّ الأمن . . . إلخ ، فحرية الدِّين مكفولةٌ: «للمسلمين دينهم ، ولليهود دينهم». قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقد أنذرت الصَّحيفة بإنزال الوعيد ، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ ، أو يكسر هذه القاعدة ، وقد نصَّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين النَّاس ، وعلى تحقيق مبدأ المساواة .

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة واجبٌ عليها أن تقيم العدل بين الناس ، وتفسح المجال وتيسِّر السُّبل أمام كلِّ إنسانٍ ـ يطلب حقَّه ـ أن يصل إلى حقِّه بأيسر السُّبل ، وأسرعها ، دون أن يكلِّفه ذلك جهداً ، أو مالاً[٤] ، وعليها أن تمنع أيَّ وسيلةٍ من الوسائل ، التي من شأنها أن تعوق صاحب الحقِّ من الوصول إلى حقِّه .

لقد أوجب الإسلام على الحكَّام أن يقيموا العدلَ بين النَّاس دون النّظر إلى لغاتهم ، أو أوطانهم ، أو أحوالهم الاجتماعيَّة ، فهو يعدل بين المتخاصمين ، ويحكم بالحقِّ ، ولا يهمُّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء ، أو أعداء ، أغنياء ، أو فقراء ، عمالاً أو أصحاب عمل . قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] والمعنى :

---

(١) انظر: دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٤٢١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢٠ .
(٣) انظر: النظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٦٥ .
(٤) انظر: النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٥٨ .

لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على ظلمهم ، ومقتضى هذا أنَّه لا يحملنَّكم حبُّ قوم على محاباتهم ، والميل إليهم(١) .

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ معقِّباً على قوله تعالى : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى : ١٥] ما نصُّه : «يعني أنَّني مأمور بالإنصاف دون عداوةٍ ، فليس من شأني أن أتعصَّب لأحدٍ ، أو ضدَّ أحدٍ ، وعلاقتي بالنَّاس كلِّهم سواءٌ ، وهي علاقة العدل ، والإنصاف ، فأنا نصيرُ مَنْ كان الحقُّ في جانبه ، وخصيم من كان الحق ضدَّه ، وليس في ديني أيُّ امتيازات لأيِّ فردٍ كائناً مَنْ كان ، وليس لأقاربي حقوقٌ ، وللغرباء حقوقٌ أخرى ، ولا للأكابر عندي مميِّزاتٌ لا يحصل عليها الأصاغر ، والشُّرفاء والوضعاء عندي سواءٌ ، فالحقُّ حقٌّ للجميع ، والذَّنب والجُرْم ذنبٌ للجميع ، والحرام حرامٌ على الكلِّ ، والحلال حلالٌ للكُلِّ ، والفرض فرض على الكلِّ، حتَّى أنا نفسي لست مستثنىً من سلطة القانون الإلهيِّ»(٢) .

إنَّ تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانيَّة بخصائصه ؛ التي احتواها منهجه التربويُّ حفيَّةٌ أشدَّ الحفاوة بِشِرْعَةِ العدل، وإقامته بين الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، والشُّعوب ؛ لأنَّ العدل في شمول مواطنه هو دعامةُ القيادة الموفَّقة .

قال تعالى : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء : ١٣٥] .

وهذا نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في تكليف المجتمع القياديِّ المسلم بتحقيق العدل على أتمِّ صوره ، وأكمل أحواله ، فالعدل على النفس ، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس ، وأبعد البُعَدَاء ، وفي قوله تعالى : ﴿كُونُواْ﴾ ، أمرٌ للمجتمع المسلم ، في جميع أفراده ، وجماعاته ، أينما حلُّوا من أرض الله ، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة ، أو المتباعدة ، وهو أمر كينونة يُشْعر بمادَّته بالإلزام ، والالتزام ، والتَّهيُّؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة ، وفي قوله تعالى : ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ بصيغة المبالغة ، إيماءٌ إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكلِّ ما أوتي من قوة مادِّية ، ورُوحية ، مشمِّراً على ساق العزم في بذل الجهد ، والتحفُّز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعيِّ .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٢ .

(٢) انظر : الحكومة الإسلاميَّة ، ص ٢٠٢ .

إنَّ القرآن الكريم ـ وهو دستور المجتمع المسلم ـ لا يقف في أسلوبه الَّذي يحضُّ به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة ، ولكنَّه يَلِجُ(١) إلى مداخل الضَّمير الإنسانيِّ ، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملَّق الغنيَّ لغناه ، وسعة ثروته من المال ، أو يتملَّق عاطفة الرَّحمة ، فيرحم الفقير لفقره ، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلمٍ ، وحَيْفٍ على الحق .

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم ، أن يحمله تعزُّز الغني بثرائه ، وغناه على ألا يقام معه العدل ، ويظلم له الفقير ، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرَّحمة للفقير ، فيُحابي بظلم الغنيِّ لأجله .

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم ، أن يميل مع الهوى ، ويخضع للعواطف ، فيحيد عن العدل ليّاً بالحق ، وإعراضاً عنه .

وقد جاءت أخت هذه الآية ، في نسق أسلوبها ، وألفاظها ؛ لتكمِّل صورة إقامة العدل على أتمِّ وجوهه ، ولتقرِّر : أنَّ موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحبُّ والمُبْغض ، والقريب والبعيد ، والصَّديق والعدوُّ ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

فصورة الخطاب الكينوني هنا ﴿ كُونُواْ ﴾ ـ الَّذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم ؛ الَّذي نيطَ به قيادة الإنسانيَّة ـ هي صورته هناك ؛ لأنَّ العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى الَّتي حملوها ؛ ليؤدُّوها إلى النَّاس في حياتهم(٢) ؛ بيد أنَّ الأمر قد اختلف في الآيتين اختلافاً جَمَعَ مُتَفَرِّقَ مواطنِ العدل باعتباره أصلاً من أصول الرِّسالة الخالدة الخاتمة ؛ الَّذي يعمُّ الحياة من جميع جوانبها ؛ ففي الآية الأولى وجَّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه ـ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ـ إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ منازع الحبِّ ، والودِّ ، والقربى ، وفي هذه الآية الثانية وجَّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرِّف ، إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ جميع عواطف البغض ، والعداوة(٣) .

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضاً بالعدل ، قائماً به بين النَّاس ، له قيادته للإنسانيَّة ، وليخلص له التوجُّه إلى الله

(١) يلج : يدخل .
(٢) انظر : محمد رسول الله ﷺ (٣/ ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤) .
(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٤٤ ، ١٤٥) .

تعالى في إخلاص العبوديَّة له وحده ، لا تحمله محبَّةٌ مهما عظمت ، أو بغضٌ مهما اشتدَّ على الإعراض عن إقامة العدل ؛ إحقاقاً للحقِّ ، وإنصافاً للمظلوم ، ونصراً للضَّعيف(١) .

أمَّا مبدأ المساواة ؛ فقد جاءت نصوصٌ صريحةٌ في الصَّحيفة حولها ، منها : «أن ذمَّة الله واحدة» ، وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» ، وأنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس» ، ومعنى الفقرة الأخيرة : أنَّهم يتناصرون في السَّراء والضَّرَّاء (الفقرة ١٥) . وتضمَّنت الفقرة (١٩) : أنَّ «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعضٍ ، بما نال دماءهم في سبيل الله» ، قال السُّهيلي ـ شارح السيرة ـ في كتابه (الرَّوض الأنف) : «ومعنى قوله يبيء : هو من البَوَاء ، أي : المساواة»(٢) .

ويعدُّ مبدأ المساواة أحد المبادئ العامَّة الَّتي أقرَّها الإسلام ، وهو من المبادئ الَّتي تساهم في بناء المجتمع المسلم ، ولقد أقرَّ هذا المبدأ ، وسبق به تشريعات ، وقوانين العصر الحديث ، وممَّا ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال رسول الله ﷺ : «يا أيها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأحمرَ على أسودَ ، ولا لأسودَ على أحمرَ ، إلا بالتَّقوى . أَبَلَّغْتُ؟» [أحمد (٥/ ٤١١)] .

إنَّ هذا المبدأ كان من أهم المبادئ الَّتي جذبت الكثير من الشُّعوب قديماً نحو الإسلام ، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوَّة للمسلمين الأوَّلين(٣) .

وليس المقصود بالمساواة هنا ، (المساواة العامَّة) بين النَّاس جميعاً في أمور الحياة كافَّةً ، كما ينادي بعض المخدوعين ، ويرون ذلك عدلاً(٤) ؛ فالاختلاف في المواهب ، والقدرات ، والتَّفاوت في الدَّرجات غايةٌ من غايات الخلق(٥) ؛ ولكنَّ المقصود المساواةُ ؛ الَّتي دعت إليها الشَّريعة الإسلاميَّة ، مساواةٌ مقيَّدةٌ بأحوالٍ فيها التَّساوي ، وليست مطلقةً في جميع الأحوال(٦) ، فالمساواة تأتي في معاملة النَّاس أمام الشَّرع ، والقضاء ، والأحكام الإسلاميَّة

(١) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، (٣/ ١٤٥) .
(٢) انظر : الرَّوض الأُنف (٢/ ١٧) ، نقلاً عن نظام الحكم ، للقاسمي (١/ ٣٨) .
(٣) انظر : مبادئ نظام الحكم في الإسلام ، لعبد الحميد متولِّي ، ص ٣٨٥ .
(٤) انظر : الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها ، للميداني (١/ ٦٢٤) .
(٥) انظر : فلسفة التَّربية الإسلاميَّة ، لماجد الكيلاني ، ص ١٧٩ .
(٦) انظر : مبادئ علم الإدارة ، لمحمَّد نور الدِّين ، ص ١١٦ .

كافَّةً ، والحقوق العامَّة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس ، أو اللَّون ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو غير ذلك(١) .

إنَّ النَّاس جميعاً في نظر الإسلام سواسيةٌ ، الحاكم ، والمحكوم ، الرِّجال والنساء ، العرب والعجم ، الأبيض والأسود ، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين النَّاس بسبب الجنس ، واللون ، أو النَّسب ، أو الطَّبقة ، والحكَّام والمحكومون كلُّهم في نظر الشَّرع سواء؛ ولذلك كانت الدَّولة الإسلاميَّة الأولى ، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين النَّاس وكانت تراعي الآتي :

ـ إنَّ مبدأ المساواة أمرٌ تعبُّديٌّ ، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى .

ـ إسقاط الاعتبارات الطَّبقية ، والعُرْفية ، والقبليَّة ، والعنصريَّة ، والقوميَّة ، والوطنية ، والإقليمية ، وغير ذلك من الشِّعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانيَّة ، وإحلال المعيار الإلٰهيِّ بدلاً عنها للتَّفاضل ، ألا وهو التَّقوى .

ـ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، ولا يُراعى أحدٌ لجاهه ، أو سلطانه ، أو حسبه ونسبه؛ وإنَّما الفرص للجميع ، وكلٌّ على حسب قدراته ، وكفاءاته ، ومواهبه ، وطاقته ، وإنتاجه .

ـ إنَّ تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدَّولة الإسلاميَّة ، يقوِّي صفَّها ، ويوحِّد كلمتها ، وينتج عنه مجتمعٌ متماسكٌ متراحمٌ يعيش لعقيدةٍ ، ومنهجٍ ، ومبدأ(٢) .

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمِّ ما قد تحتاجه الدَّولة ، من مقوِّماتها الدُّستوريَّة ، والإداريَّة ، وعلاقة الأفراد بالدَّولة ، وظَلَّ القرآن يتنزَّل في المدينة عشر سنين ، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة ، ويرسي مبادئ الحكم ، وأصول السِّياسة ، وشؤون المجتمع ، وأحكام الحرام والحلال ، وأسس التَّقاضي ، وقواعد العدل ، وقوانين الدَّولة المسلمة في الدَّاخل ، والخارج ، والسُّنَّة الشريفة تدعم هذا ، وتشيده ، وتفصِّله في تنوير وتبصرةٍ ، فالوثيقة خطَّت خطوطاً عريضة في التَّرتيبات الدُّستورية ، وتُعَدُّ في قمَّة المعاهدات الَّتي تحدِّد صلة المسلمين بالأجانب الكفَّار المقيمين معهم، في شيءٍ كثيرٍ من التَّسامح، والعدل، والمساواة ، وعلى التَّخصيص إذا لُوحِظَ أنَّها أوَّل وثيقةٍ إسلاميَّة ، تُسَجِّل ، وتنفَّذ في أقوامٍ كانوا ـ منذ قريب ـ وقبل الإسلام ـ أسرى العصبية القَبَلِيَّة ، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة ، والتسلُّط ، وبالتَّخوض في حقوق الآخرين ، وأشيائهم(٣) .

---

(١) انظر : فقه التمكين ، د. علي الصَّلابي ، ص ٤٦٣ .
(٢) انظر : فقه التَّمكين ، ص ٤٦٦ .
(٣) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فوزي فيض الله ، ص (٢٩ ، ٣٠) .

كانت هذه الوثيقة ، فيها من المعاني الحضاريَّة الشيء الكثير ، وما توافق النَّاس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وأنَّه لا بدَّ على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها ، فهل حدث هذا الالتزام(١) .

ثالثاً: موقف اليهود في المدينة :

لقد قامت الحجج القاطعة ، والبراهين السَّاطعة لليهود على صدق رسالة الرَّسول ﷺ ، ولكنَّ ذلك لم يزدْهم إلا عناداً ، وعداوةً ، واستكباراً ، وحقداً ، وحسداً على الرَّسول ﷺ والَّذين آمنوا معه ، فعن صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب : أنَّها قالت : كنتُ أحَبَّ ولدِ أبي إليه ، وإلى عمِّي أبي ياسر ، لم ألقَهُما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه ، قالت : فلمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة ، ونزل قُباء ، في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حُيَيُّ بن أخطب ، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب ، مُغَلِّسَيْن . قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالَّيْنِ ، كسلانينِ ، ساقطينِ ، يمشيان الهُوَيْنَى . قالت : فَهَشِشْتُ إليهما ، كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغَمِّ . قالت : وسمعتُ عمِّي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حُيَيِّ بن أخطب : أهو هو؟ قال : نعم والله! قال : أتعرفه ، وتُثْبته؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه؟ قال : عداوته والله! ما بَقِيتُ(٢) .

وقد شنَّ اليهودُ على رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ، حملاتٍ إعلاميَّةً لتشويه صورة الرَّسول ﷺ ، وتنفير النَّاس منه ، ونَزْع الثِّقة بينه ، وبين النَّاس . لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدِّين على مصالحهم ، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيَّفة ، القائمة على الاستعلاء ، واحتقار النَّاس ، عدا الجنسَ اليهوديَّ؛ لقد جاء ينادي بعقيدة التَّوحيد ، وهم يقولون : «عزير ابن الله» ، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشريِّ ، وأنَّه لا يعلو شعبٌ على شعبٍ ، ولا جماعةٌ على جماعةٍ ، وهم يرون : أنَّهم شعب الله المختار ، يترفَّعون عن بقيَّة الأجناس ، وينظرون إليهم على أنَّهم دونهم ، وأقلُّ منهم(٣)؛ ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة ، وشرعوا في التَّشكيك في نبوَّة الرَّسول ﷺ ورسالته ، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله ﷺ ، وخدعوا المؤمنين ، ودلَّسوا عليهم(٤) ، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة .

١ ـ محاولة اليهود تصديع الجبهة الدَّاخلية :

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتُهم المستمرَّة لتمزيق الصَّفِّ المسلم ،

---

(١) انظر : هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته ، للجمل ، ص ٢٦١ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٥١٨ ، ٥١٩) .
(٣) انظر : الصِّراع مع اليهود ، لمحمد أبو فارس (١/ ٣١) .
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٣١ ـ ٤٦) .

وتخريبه بتقطيع أواصر المحبَّة بين المسلمين ، وذلك بإثارة الفتن الدَّاخلية ، والشِّعارات الجاهليَّة ، والنَّعرات الإقليميَّة ، والدَّعوات القوميَّة ، والقَبَلِيَّة ، والسَّعي بالدَّسيسة والوقيعة بين الإخوة المتآلفين المتوادِّين المتحابِّين ، فهم في توادِّهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسَّهر[(١)].

فقد تفتَّق ذهنُ أحد شيوخهم الكبار في السنِّ ، عن حيلةٍ هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار ، وذلك بإثارة العصبيَّة القبليَّة بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، ويخسر النَّبيُّ ﷺ بذلك أقوى أنصاره[(٢)] ، وفي بيان هذا الخبر يقول محمَّد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى! ـ: ومَرَّ شأس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عَسَا[(٣)] ، عظيمَ الكفر ، شديدَ الضِّغْن على المسلمين ، شديدَ الحسد لهم ـ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس ، والخزرج ، في مجلسٍ قد جمعهم يتحدَّثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهم ، وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الَّذي كان بينهم في الجاهليَّة ، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[(٤)] بهذه البلاد ، لا والله! ما لنا معهم ـ إذا اجتمع مَلَؤهم بها ـ من قرارٍ ، فأمر فتىً شابّاً من يهود كان معهم ، فقال: اعْمِدْ إليهم ، فاجلس معهم ، ثمَّ اذكر يوم بُعاث ، وما كان قَبْلَه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار.

وكان يومُ بُعاث يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج ، وكان الظَّفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَيْر بن سماك الأشهليُّ أبو أُسيد بن حُضَير ، وعلى الخزرج عمرو بن النُّعمان البَيَاضي ، فَقُتِلا جميعاً.

قال ابن إسحاق: ففعل ، فتكلَّم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتَّى تواثب رجلانِ من الْحَيَّيْنِ على الرُّكب: أوس بن قَيْظيٍّ ـ أحد بني حارثة بن الحارث ، من الأوس ـ وجبَّار بن صخر ـ أحد بني سلمة من الخزرج ـ فتقاولا ، ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة[(٥)] ، فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا: قد فعلنا ، موعدكم الظَّاهرة ـ والظَّاهرة: الحَرَّة ـ السِّلاحَ السِّلاحَ ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتَّى جاءهم ، فقال: يا معشرَ المسلمين! اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجاهلية ، وأنا بين أظهُركم بعد أن هداكم الله

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٤٤).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/ ٣٧).
(٣) عَسَا: كَبِرَتْ سِنُّه.
(٤) قيلة: أمُّ الأوس والخزرج.
(٥) جَذَعَة: أي: رددنا الحرب فتيةً قويَّةً ، أو: رددنا الآخر إلى أوله.

للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بين قلوبكم؟!

فعرف القوم أنَّها نزغةٌ من الشَّيطان ، وكيدٌ من عدوِّهم ، فبكوا ، وعانق الرِّجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً ، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوِّ الله شأس بن قيس ، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس ، وما صنع: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨ ـ ٩٩] وأنزل الله في أوس بن قَيْظيٍّ ، وجبَّار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما؛ الَّذين صنعوا ما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية[(١)]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥] .

ونرى من خلال القصَّة ، قدرة القيادة النَّبويَّة على إحباط مخطَّط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصفِّ ، واهتمام النَّبيِّ ﷺ بأمور المسلمين ، وإشفاقه عليهم ، وفزعه ممَّا يصيبهم من الفتن والمصائب ، فقد أسرع إلى الأنصار ، وذكَّرهم بالله ، وبيَّن لهم: أنَّ ما أقدموا عليه من أمر الجاهليَّة ، وذكَّرهم بالإسلام ، وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب والفتن ، وتطهير النُّفوس من الضَّغائن ، وتأليف القلوب بالإيمان ، وكانت لكلمات النَّبيِّ ﷺ أثرٌ في نفوسهم ، وسرت في كيانهم رُوحٌ جديدةٌ ، مسحت كل أثرٍ لأمر الجاهليَّة بفضل الله تعالى ، ثمَّ بكلمات نبيِّه ﷺ المعبِّرة ، ورُوحه القويَّة المؤثِّرة ، وهيئته الوثَّابة المنذرة ، وأدركوا: أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشَّيطان ، وكيد عدوِّهم من اليهود ، فبكوا ندماً على ما وقعوا فيه من الذُّنوب ، وتعانق رجال الإسلام؛ تعبيراً عن محبَّتهم الإيمانيَّة لبعضهم[(٢)] .

٢ ـ التَّهجم على الذَّات الإلهيَّة:

ذكر غيرُ واحدٍ من كُتَّاب السِّير ، والمفسِّرين: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه ، قد دخل بيت

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١١ ـ ٢١٤).

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

الْمِدْرَاس[١] على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً ، قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم ، يقال له: (فِنْحاص) ، وكان من علمائهم ، وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ من أحبارهم ، يقال له: (أشيع) ، فقال أبو بكر لِفِنْحاص: ويحك! اتَّق الله ، وأَسْلِم ، فوالله! إنَّك تعلم: إنَّ محمداً لَرسولُ اللهِ ، قد جاءكم بالحقِّ من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التَّوراة ، والإنجيل. فقال فِنْحاص لأبي بكرٍ: والله! يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فَقْرٍ ، وإنَّه إلينا لفقير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا ، وإنَّا عنه لأغنياء ، وما هو عنَّا بغنيٍّ ، ولو كان عنَّا غنيّاً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويُعْطِيناه ، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فِنْحاص ضرباً شديداً ، وقال: والذي نفسي بيده! لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم؛ لضربتُ رأسَك أيْ عدوَّ الله! فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً؛ إنَّه يزعم: أنَّ الله فقيرٌ ، وأنَّهم أغنياء ، فلمَّا قال ذلك؛ غضبتُ لله ممَّا قال ، وضربتُ وجهه! فجحد ذلك فِنْحاص ، وقال: ما قلتُ ذلك؛ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص؛ ردّاً عليه ، وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزل في أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه ، وما بلغه في ذلك من الغضب[٢]: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][٣].

وذكر القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ ، سوءَ أدبهم مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعدم تنزيهه عن النَّقائص ، وَوَصْفَه بما لا يليق به سبحانه ، وهذا عين الوقاحة ، وانعدام الأدب؛ ومن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويبدو من مضمون الآية: أنَّ هذا الموقف الَّذي وقفوه ، كان منبعثاً ممَّا كان يملأ صدورهم

(١) المِدْراس: مكان يُتلى فيه التَّوراة.
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢٩٥).
(٣) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩) ، وسبل الهدى والرَّشاد (٣/ ٥٨٣ ـ ٥٨٥) ، وتفسير مجاهد ، ص ١٤٠.

من الغيظ ، والسُّخط من رسوخ قدم النَّبيِّ ﷺ وانتشار دعوته ، ولعلَّ ممَّا يصحُّ أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم ، أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد ، والجحود؛ الَّتي ما فتئوا يقفونها ، واستجابةً لأمر القرآن ، ونهيه ، وتحذيره ، فأثَّر ذلك في حالتهم الاقتصاديَّة تأثيراً سيئاً ، فزاد سخطهم ، وغيظهم ، وتبرُّمهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حقِّ الله ، ومن ردٍّ غير جميلٍ لرسول الله ﷺ[1] .

وقد جاء بعد هذه الآية ما يدلُّ على صحَّة ما ذهبتُ إليه ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦] .

٣ ـ سوء أدبهم مع رسول الله ﷺ والنَّيل من الرُّسل الكرام والقرآن الكريم :

وكان اليهود يسيئـون الأدب مع رسول الله ﷺ ، في حضرتـه ، وأثناء خطابـه؛ إذ يلمزونه ، ويحيِّونه بتحيَّةٍ فيها من الأذى والتهجُّم ما يدلُّ على سوء أخلاقهم ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ[2] عليك يا أبا القاسم! فقلتُ: السَّام عليكم! وفعل الله بكم! فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة! فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش ، ولا التفحُّش» ، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: «ألستِ تريني أردُّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» ، قالت: فنزلت هذه الآية في ذلك [البخاري (٢٩٣٥) ومسلم (٢١٦٥/ ١١)][3] وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨] .

وهذه الآية تُظْهِر الحقد الَّذي هيمن على نفوس اليهود ، ودفعهم إلى استخدام كلِّ الوسائل ، والطُّرق لهدم الإسلام ، والتخلُّص من صاحب الرِّسالة ﷺ ، والسَّيطرة على المسلمين ، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرَّسول ﷺ بالموت ـ مع التَّظاهر بالسَّلام عليه ـ الضَّعفُ الَّذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النَّوع من السَّلام ، فالممارس لمثل ما قام به اليهوديُّ الَّذي سلَّم على الرَّسول ﷺ بقوله: «السَّام عليك» يعيش أزمةً نفسيَّةً متولِّدة عن فقدان عزٍّ كان يظنُّ أنه ينعم فيه ، لقد تغلَّبت قوىً جديدةٌ على ماضيه وحاضره ، ولم يستطع أن يتفاعل مع مَنْ تغلَّب عليه ،

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٥١).

(٢) السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (٨/ ١٨٩).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٨/ ١٨٩) ، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروقٍ ، عن عائشة ، وإسناده صحيحٌ .

ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدِّين الجديد ، وممَّا زاد في تأزُّم اليهود: أنهم جرَّبوا محاربة الإسلام بوسائلهم الَّتي كانوا يظنُّون أنَّها لا تُقهر ، فكان الفشل حليفهم ، لذلك لجؤوا إلى الطُّرق السَّلبيَّة ، والوسائل الملتوية ، فالدُّعاء على الخصم مع التَّظاهر بالسَّلام ، هو سلاح العاجزين ، ووسيلة الخائبين ، وتِرْيَاقُ الحاقدين(١) .

ولمَّا سمع رسولُ الله ﷺ ما صدر عن عائشة رضي الله عنها ، دعاها إلى الرِّفق ، واللِّين ، وبيَّن لها: أنَّ المسلم لا يجوز له أن يترك الغضبَ يتحكَّم فيه ، فالرِّفق في الإسلام ثمرةٌ لا يثمرها إلا حسن الخُلُق ، فالله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف(٢) .

وأمَّا نَيْلُهم من المرسلين: فقد أتى رسولَ الله ﷺ نفرٌ من يهود ، فيهم أبو ياسر ابن أخطب ، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وغيرهم ، وسألوا رسولَ الله ﷺ عمَّن يؤمن به من الرُّسل ، فقال ﷺ: «نؤمن بالله ، وما أُنزل إلينا ، وما أُنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أُوتي موسى وعيسى ، وما أُوتي النبيون من ربهم ، لا نفرِّق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون» ، فلما ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام جحدوا نبوَّته ، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ، ولا بمن آمن به(٣) ، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩] .

وأمَّا عن محاولاتهم للنَّيل من القرآن الكريم في أسئلتهم ، ونقاشهم ، الَّذي لا ينتهي: فعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ قالت أحبار اليهود: يا محمد! أرأيتَ قولك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] إيَّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاًّ» ، قالوا: فإنَّك تتلو فيما جاءك: أنّا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيءٍ ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّها في عِلْم الله قليلٌ ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم؛ لو أقمتموه»(٤) . قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] .

٤ ـ دعم حزب المنافقين ، وتآمرهم معهم:

حدَّثنا القرآن الكريم ، عن قيادة اليهود الفكريَّة لحزب المنافقين ، فهم شياطين المنافقين؛

---

(١) انظر: حوار الرَّسول ﷺ مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ١٠١ .
(٢) انظر: حوار الرَّسول ﷺ مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ٨٧ .
(٣) انظر: ابن هشام في السِّيرة (١/ ٥٦٧) ، وتفسير ابن جرير (١/ ٤٤٢) ، وانظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، لعبد الله الشَّقاري (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).
(٤) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/ ٢٤١) ، وتفسير ابن كثير: سورة الإسراء الآية (٨٥).

يخطِّطون لهم ، ويوجِّهونهم ، ويدرسون لهم أساليب الكيد ، والمكر ، والخداع ، والدَّهاء ، وإثارة الفتن . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] .

قال النَّسفي في تفسيره : «وشياطينهم الَّذين ماثلوا الشَّياطين في تمرُّدهم ، هم اليهود»(١) .

وكان اليهود في المدينة يتآمرون مع المنافقين ضدَّ المسلمين ، وفي هذا التآمر يقول تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٨ ـ ١٣٩] .

قال الأستاذ محمد دَرْوَزَة : «وجمهور المفسرين على أنَّ الكافرين هنا هم اليهود ، وفي الآية قرينةٌ على صحَّة ذلك ، كما أنَّ فيما بعدها قرينةً ثانيةً أيضاً ، وواضحٌ : أن اتِّخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنَّما هما أثران من آثار التآمر الموطَّد بين اليهود ، والمنافقين تجاه الدَّعوة والقوَّة الإسلاميَّة»(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۝٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٥ ـ ٢٦] .

والجمهور على أنَّ الآية الأولى عَنَتِ المنافقين ، وأنَّ الَّذين كرهوا ما نزَّل الله هم اليهود ، وهكذا تبدو في الآية الثَّانية صورةٌ من صور التآمر بين الفريقين ضدَّ الإسلام ، والمسلمين ، ونلفت النَّظر إلى ما حَكَتْهُ الآية الثَّانية ، من وَعْد المنافقين لليهود بطاعتهم ، والسَّير على الخطَّة ؛ الَّتي يضعونها ، ففي هـذا كما هو ظاهرٌ صورةٌ لبعض ما كان لليهود من التَّوجيه والتَّأثير والنُّفوذ في المنافقين ، وحركتهم ، وأعمالهم(٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٥ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [المجادلة : ١٤ ـ ١٦] .

قال الماورديُّ في تفسيره لهذه الآية : «يعني : المنافقين ؛ تولَّوا قوماً غضب الله عليهم : هم اليهود»(٤) ، وفسر الماورديُّ الصدَّ عن سبيل الله بأنه : الصَّدُّ عن الجهاد ممايلةً لليهود(٢) .

---

(١) انظر : تفسير النَّسفي (١/ ٢١) .
(٢) انظر : سيرة الرَّسول ﷺ ، لدروزة (٢/ ١٧٩ ، ١٨٠) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٨٠) .
(٤) انظر : النكت والعيون ، للماوردي (٤/ ٢٠٣) .

ودفع اليهود المنافقين لإشعال حربٍ ضدَّ رسول الله ﷺ . فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فَدَكِيَّة[١] ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعودُ سعدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول ، وذلك قبل أن يُسْلم عبد الله بن أُبيٍّ ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود ، وفي المجلس عبد الله بن رَواحة ، فلمَّا غَشيَتِ المجلسَ عَجَاجةُ الدَّابة ، خمَّر عبد الله بن أُبيٍّ أنفه بردائه ، ثمَّ قال: لا تُغبِّروا علينا ، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم ، ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول: أيها المرءُ! إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقول ـ إن كان حقّاً ـ فلا تُؤْذِنَا به في مجلسنا ، ارجع إلى رَحْلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله! فَاغْشَنَا به في مجالسنا ، فإنَّا نحبُّ ذلك ، فاستبَّ المسلمون ، والمشركون ، واليهود ، حتَّى كادوا يتثاورون[٢] ، فلم يزلِ النَّبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتَّى سكنوا ، ثمَّ ركب النَّبيُّ ﷺ دابته ، فسار حتى دخل علي سعد بن عبادة ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : «يا سعدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ـ يريد عبد الله بن أبيٍّ ـ قال كذا ، وكذا» . قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله! اُعْفُ عنه ، واصفحْ ، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب! لقد جاء الله بالحقِّ الذي أَنزل عليك ، ولقد اصطلح أهلُ هذه البحيرة[٣] على أن يُتَوِّجوه ، فيعصِّبُونه بالعصابة[٤] ، فلمَّا أبى الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك فعل به ما رأيتَ . فعفا عنه رسول الله ﷺ .
[البخاري (٤٥٦٦)] .

٥ ـ طعنُ اليهود في مَنْ آمن من الأحبار (عبد الله بن سَلام) رضي الله عنه:

«بلغَ عبدَ الله بن سَلام مَقْدَمُ رسول الله ﷺ المدينةَ ، فأتاه ، فقال: إنِّي سائلُك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ ، قال: ما أوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ ومن أيِّ شيءٍ يَنْزِعُ الولدُ إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيء يَنْزِعُ إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ : «خَبَّرَني بهنَّ آنفاً جبريلُ» ، قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله ﷺ : «أمَّا أوَّلُ أشراط السَّاعة ، فنارٌ تحشر النَّاسَ من المشرق إلى المغرب ، وأمَّا أولُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنة ، فزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ ، وأما الشَّبهُ في الولد ، فإنَّ الرَّجل إذا غَشيَ المرأةَ ، فسبقها ماؤه؛ كان الشَّبه

---

(١) قطيفة فدكية: كساءٌ غليظٌ منسوبٌ إلى فَدَك ، وهي بلدٌ مشهور على مرحلتين من المدينة .
(٢) يتثاورون: أي: يتواثبون ، والمعنى: كادوا أن يَثِبَ بعضهم على بعضٍ فيقتتلوا ، ويقال: ثار ، إذا قام بسرعةٍ وانزعاج .
(٣) البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد ، والمراد به هنا المدينة النَّبويَّة .
(٤) يعني: يرئِّسونه عليهم ، ويسودونه .

له ، وإذا سبق ماؤها ؛ كان الشَّبهُ لها». قال: أشهد أنَّك رسول الله ، ثمَّ قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قومٌ بُهْتٌ ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، ودخل عبدُ الله البيت ، فقال رسول الله ﷺ : «أيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سلام!» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمِنا ، وأخبرُنا وابن أخبرِنا ، فقال رسول الله ﷺ : «أفرأيتم إن أسلم عبد الله!» قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك. فخرج عبد الله إليهم ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمَّداً رسول الله ، فقالوا: شرُّنا ، وابن شرِّنا ، ووقعوا فيه» [البخاري (٣٣٢٩)] . فكانوا يؤذون من آمن من أحبارهم ، ويثيرون حولهم الشُّكوك ، ويقذفونهم بتهمٍ باطلةٍ قبيحةٍ ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن هذه الوسيلة ، ودافع عن هؤلاء المؤمنين ، الَّذين وجَّه اليهود ضدَّهم تلك الحملات الظَّالمة[١] .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥] .

قال الواحديُّ في (أسباب النُّزول): «قال ابن عباسٍ ، ومقاتلٍ: لمَّا أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيد ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عُبيد ، ومن أسلم من اليهود ، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمَّد إلا شرارُنا ، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم ، وقالوا لهم: لقد خُنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره ، فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً . . . ﴾ الآية»[٢] .

٦ ـ بثُّ الإشاعات والشَّماتة بالنَّبيِّ ﷺ والمسلمين:

كان اليهود يتحيَّنون الفرص للنَّيل من المسلمين ، والبحث عمَّا يفرِّق كلمتهم ، ومن ذلك استغلالهم ـ في الأشهر الأولى من الشَّهر ـ لوفاة أحد النُّقباء ، الَّذين بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعة العقبة ، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرارةَ الأنصاريُّ الخزرجيُّ رضي الله عنه ، فعندما أخذته الشَّوْكة[٣] ، فجاءه رسول الله ﷺ يعوده ، فقال: بئس الميِّتُ ليهود ـ مرَّتين ـ سيقولون: لولا دفع عنه صاحبه ، ولا أملك له ضرّاً ، ولا نفعاً ، ولأتَمَحَّلَنَّ[٤] له» ، فأمر به ، فكُوِيَ بخطَّين فوق رأسه فمات ، [أحمد (٤/١٣٨) والحاكم (٤/٢١٤) ومجمع الزوائد (٥/٩٨)] . وفي روايةٍ: فكواه

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٥٩).
(٢) انظر: أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص ١١٤ .
(٣) الشوكة: حُمرةٌ تعلو الوجه والجسد.
(٤) أتَمَحَّلَنَّ: أي: لأحاولنَّ له في حيلةٍ يشفى بواسطتها ، انظر: النهاية (٤/٣٠٣).

حَوْران[١] ، على عنقه ، فمات ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «بئس الميتُ لليهود ، يقولون: قد داواه صاحبه ، أفلا نفعه!» [الطبراني في المعجم الكبير (٥٥٨٤) وعبد الرزاق في المصنف (١٩٥١٥) ومجمع الزوائد (٥/ ٩٨)] .

ولم تكن حادثة أبي أُمامة هي الحدث الوحيد الَّذي أبان الحقد اليهوديَّ على المسلمين ، فقد أشاعوا في أوَّل الهجرة: أنَّهم سحروا المسلمين ، فلا يُولد لهم ولد ، أشاعوا ذلك ليضيِّقوا على المسلمين الخناق ، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة ، التي عاشوها في مدينة رسول الله ﷺ ، وليعكِّروا ذلك الجوَّ الصَّافي؛ الَّذي يملؤه الحبُّ ، والتآلف بين المسلمين .

وممَّا يدلُّ على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين ، شدَّة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أوَّل مولودٍ ذكر من المهاجرين ، وهو عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه[٢] ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «أنَّها حَمَلَتْ بعبد الله بن الزُّبير في مكَّة ، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ ، فأتيت المدينة ، فنزلت قُباءً ، فولدت بقُباء ، ثمّ أتيت به رسولَ الله ﷺ ، فوضعتُه في حجره ، ثمَّ دعا بتمرةٍ ، فمضغها ، ثمَّ تفل في فيه ، فكان أوَّل شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ، ثمَّ حَنَّكه بالتَّمرة ، ثمَّ دعا له ، فَبَرَّك عليه ، وكان أولَ مولود وُلِدَ في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً؛ لأنَّهم قيل لهم: إنَّ اليهود قد سحرتكم ، فلا يُولدُ لكم» [البخاري (٥٤٦٩) ومسلم (٢١٤٦/ ٢٦)] ، وفي روايةٍ مسلم [(٢١٤٦/ ٢٥)]: «وسمَّاه عبد الله ، ثمَّ جاء بعدُ وهو ابن سبع ، أو ابن ثماني سنين ، يبايع النَّبيَّ ﷺ ، أمره الزُّبير رضي الله عنه بذلك ، فتبسم النَّبيُّ ﷺ حين رآه مقبلاً ، وبايعه» ، وكان أوَّل من وُلِدَ في الإسلام بالمدينة بعد مَقْدَمِ رسول الله ﷺ ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم ، فلا يُولدُ لهم بالمدينة وُلد ذكر ، فكبَّرَ أصحابُ رسول الله ﷺ حين وُلد عبد الله [الحاكم (٣/ ٥٤٨)] .

٧ ـ موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة ، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة هي الفاصل بين الحرب الكلاميَّة ، وحرب المناوشات ، والتدخُّل الفعليَّ من جانب اليهود ، لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة[٣] ، فعن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أولَ ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده ـ أو قال: أخواله ـ من الأنصار ، وأنَّه ﷺ صلَّى قِبَلَ بيت المقدس ستةَ عَشَرَ شهراً ، أو سبعةَ عَشَرَ شهراً ، وكان يُعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت ، وأنَّه ﷺ صلَّى أوَّل صلاةٍ

---

(١) حَوْران: هي كيةٌ مُدَوَّرةٌ ، من: حار يحور إذا رجع ، وحوّره: إذا كواه هذه الكية ، وتسمى حوراء أيضاً ، انظر: النِّهاية (١/ ٤٥٩).

(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٦٥).

(٣) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٥٨).

صلاها ، صلاةَ العصر ، وصلَّى معه قومٌ ، فخرج رجلٌ ممَّن صلَّى معه ، فمرَّ على أهل مسجدٍ؛ وهم راكعون ، فقال: أشهد بالله! لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكَّة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم أنَّه كان يُصلِّي قِبَلَ بيت المقدس ، وأهلُ[1] الكتاب ، فلمَّا ولَّى وجهه قِبَلَ البيت؛ أنكروا ذلك [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٢٥)] ، وقد نزلت في هذه الحادثة آياتٌ عظيمة ، فيها عِبَرٌ ، وحكمٌ ودروسٌ للصفِّ المسلم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢].

* ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢]: أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ بما سيقوله اليهود عند تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من إثارة الشُّكوك ، والتَّساؤلات قبل وقوع الأمر ، ولهذا دلالته؛ فهو يدلُّ على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ؛ إذ هو أمر غيبيٌّ ، فأخبر عنه قبل وقوعه ، ثمَّ وقع ، فدلَّ ذلك على أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ ، ونبيٌّ يخبره الوحي بما سيقع؛ إذ من الأدلَّة على صدق رسالة الرَّسول ﷺ ، أن يخبر بأمور غيبية ثمَّ تقع بعد ذلك.

وهو يدلُّ أيضاً على علاجٍ للمشاكل قبل حدوثها ، حتَّى يستعدَّ المسلمون ، ويهيِّئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلُّب عليها ، والردِّ عليها ، ودفعها؛ لأنَّ الأمر حين يكون مفاجئاً لهم ، يكون وقعه على النفس أشدَّ ، ويربك المفاجأ ، أمَّا حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه ، فالحديث يطمئنهم ، ويوطِّن نفوسهم ، ويعدُّها لمواجهة الشَّدائد[2]. قال أبو السعود في تفسيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه؛ لتوطين النُّفوس ، وإعدادها على ما يبكتهم ، فإنَّ مفاجأة المكروه على النَّفس أشقُّ ، وأشدُّ ، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردُّ»[3] ، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسَّفه؛ لاعتراضهم على تحويل القبلة ، وللكيد ضدَّ رسول الله ﷺ. قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفَّت أحلامُهم ، واستمهنوها بالتَّقليد ، والإعراض عن التدبُّر ، والنَّظر. وقولهم: ثوبٌ سفيهٌ ، إذا كان خفيف النَّسيج ، وقيل: السَّفيه: البهَّات الكذَّاب ، المتعمِّد

---

(١) هو بالرفع؛ عطفاً على اليهود.
(٢) انظر الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠٢).
(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/ ١٧١).

خلاف ما يعلم ، وقيل: الظَّلوم الجهول ، والسُّفهاء هم اليهود»[١] .

* ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][٢] : يقول ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيارَ الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداءَ الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل . والوسط هاهنا: الخيار ، والأجود ، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي: خيرها ، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، ومنه الصَّلاة الوسطى الَّتي هي أفضل الصَّلوات وهي العصر»[٣] .

فهي أمَّةٌ وسطٌ في التَّصوُّر والاعتقاد ، في التَّفكير والشُّعور ، في التَّنظيم والتَّنسيق ، في الارتباطات والعلاقات ، في المكان في سرَّة الأرض وأوسط بقاعها[٤] .

* ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فالآية تذكِّر أنَّ الصَّلاة نحو بيت المقدس كانت فتنةً؛ أي: اختباراً ، والتَّحوُّل من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضاً اختباراً ، وامتحاناً . قال البيضاويُّ في تفسيره: «وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم مَنْ يتَّبع الرَّسول ، ممَّن ينقلب على عقبيه ، إلا لنمتحن به النَّاس ، ونعلم من يتَّبعك في الصَّلاة إليها ، ممَّن يرتدُّ عن دينك إلفاً لقبلة آبائه ، أو لنعلم من يتَّبع الرَّسول ممَّن لا يتَّبعه ، وما كان لعارض يزول بزواله ، وعلى الأول: معناه: ما رددناك إلى الَّتي كنت عليها ، إلا لنعلم الثَّابت على الإسلام ، ممَّن ينكص على عقبيه؛ لقلقه ، وضعف إيمانه»[٥] .

فالصَّلاة إلى الكعبة في بداية الأمر ، ثمَّ الصَّلاة إلى بيت المقدس ، ثمَّ العودة إلى الكعبة ، واستمرار ذلك لا شيء فيه؛ ما دام الباري سبحانه أمر بذلك ، ومن ثَمَّ فالتَّوجه في كلِّ حالةٍ هو عبادة ، وما على النَّاس إلا أن ينقادوا لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ويلتزموا بأمره ، فالذي يتَّبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يُعَدُّ فائزاً في الاختبار ، والامتحان ، والَّذي يجد في نفسه مخالفة حكمٍ من الأحكام الشَّرعيَّة كان ساقطاً ، وهالكاً ، والإيمان الحقُّ هو الَّذي يُلزم صاحبه

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ١٧٠) .
(٢) كانت رسالة الماجستير للمؤلف حول هذه الآية (الوسطية في القرآن الكريم) وتحدَّث عنها في حوالي ٧٠٠ صفحة .
(٣) انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الآية .
(٤) انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الآية ، (٢/ ٤٣٠) .
(٥) انظر: تفسير البيضاوي ، نقلاً عن الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠١) .

بالاتِّباع ، ومخالفة الهوى[1]؛ ولهذا ثبت الصَّحابة الكرام ، واستجابوا لأوامر الله تعالى ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينا النَّاس يصلُّون الصُّبح في مسجد قُباء؛ إذ جاء رجلٌ فقال: قد أُنزل على النَّبيِّ ﷺ قرآن ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاسْتقبِلُوها . فتوجَّهوا إلى الكعبة[2] .

* ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

تبيِّن الآية الكريمة حرص المؤمنين على إخوانهم ، وحبَّ الخير لهم ، فحينما نزلت الآيات؛ الَّتي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم ، الَّذين ماتوا؛ وقد صلوا نحو بيت المقدس ، فأخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ صلاتهم مقبولةٌ ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما وُجِّه النَّبيُّ ﷺ إلى الكعبة؛ قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الَّذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] [أبو داود (٤٦٨٠) والترمذي (٢٩٦٤) وأحمد (١/ ٢٩٥ و٣٠٤ و٣٢٢ و٣٤٧)] ، وبيَّن لهم: أنَّه رؤوف رحيمٌ ، «وبهذا يسكب في قلوب المسلمين الطُّمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرِّضا ، والثِّقة ، واليقين»[3] .

* ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٤ ـ ١٤٨] .

كان رسول الله ﷺ ، حريصاً على أن يتوجَّه في صلاته إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، فهو أولى النَّاس به؛ لأنَّه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وحامل لواء التَّوحيد بحقٍّ كما حملها إبراهيم عليه السلام ، وهو ﷺ كان يحرص على أن يكون مستقلاً ، ومتميِّزاً عن أهل الدِّيانات السَّابقة؛ الَّذين حرَّفوا ، وبدَّلوا ، وغيَّروا؛ كاليهود ، والنَّصارى؛ ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتَّشبُّه بهم؛ بل يأمر بمخالفتهم، ويحذِّر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزَّلل،

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠١) .
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٧) .
(٣) في ظلال القرآن ج ٢/ ١٣١ ـ ١٣٣ .

والخَطَلِ(١) ، والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجَّه في صلاته بشكلٍ دائم إلى قِبلة أبي الأنبياء ، وهو أوَّل بيتٍ وضع للنَّاس(٢) .

إنَّ لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرةً: منها السِّياسيُّ ، ومنها العسكريُّ ، ومنها الدِّينيُّ البحت ، ومنها التَّاريخيُّ؛ فبعدها السِّياسيُّ: أنَّها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث ، وبعدها التَّاريخيُّ: أنَّها ربطت هذا العالم بالإرث العربيِّ لإبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وبُعْدها العسكريُّ: أنَّها مهَّدت لفتح مكَّة ، وإنهاء الوضع الشَّاذِّ في المسجد الحرام ، حيث أصبح مركزُ التَّوحيد مركزاً لعبادة الأصنام ، وبُعْدها الدِّينيُّ: أنَّها ربطت القلب بالحنيفيَّة ، وميَّزت الأمَّة الإسلاميَّة عن غيرها ، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقيَّة الأديان(٣) .

* ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢] .

إنَّ نعمة توجيهكم إلى قبلتكم ، وتمييزكم بشخصيَّتكم من نِعَمِ الله عليكم ، وقد سبقتها آلاء من الله كثيرةٌ عليكم؛ منها:

ـ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾: فوجود شخص رسول الله ﷺ ـ إمام المربِّين ، والدُّعاة ـ هو من خصيصة هذه النُّخبة القياديَّة ، الَّتي شرَّفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها؛ فقيه النُّفوس ، وطبيب القلوب ، ونور الأفئدة ، فهو النُّور ، والبرهان ، والحجَّة.

ـ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾: فالمادة الأساسيَّة للبناء والتَّربية كلام الله تعالى ، وكان يرافقه شحنةٌ عظيمةٌ لنزوله أوَّل الأمر غضَّاً طريَّاً ، فكان جيلاً متميِّزاً في تاريخ الإنسانيَّة.

ـ ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: فالمعلم المربِّي رسولُ الله ﷺ ، فهو المسؤول عن عمليَّة التَّربية ، وهو الَّذي بَلَغَ من الخُلُق ، والتَّطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله تعالى به من هذا الوصف الجامع المانع ، الَّذي تفرَّد به ﷺ من دون البشريَّة كافَّةً ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ، وهو الَّذي وصفته عائشة رضي الله عنها ، بأعظم ما يملك بشرٌ أن يصف به نبيَّاً ،

---

(١) الخَطَلُ: الكلامُ الفاسدُ الكثيرُ المضطرب.
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٠٠).
(٣) انظر: الأساس في السُّنَّة (١/ ٤٤٠).

فقالت: «كان خُلُق نبيِّ الله القرآن» [البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) وأحمد (٦/ ٩١) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)] فكان الصَّحابة يسمعون القرآن الَّذي يُتلى من فم رسول الله ﷺ، ويرون القرآن الَّذي يمشي على الأرض، متجسِّداً في خلُقه الكريم ﷺ.

ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: فهذه هي المهمَّة الثَّالثة، تعليم الصَّحابة الكرام الكتاب، والحكمة، فالقرآن الكريم لكي يكون مؤثراً في الأمَّة لا بدَّ من المربِّي الرَّبَّانيِّ الَّذي يزكِّي النُّفوس، ويطهِّر القلوب، ويعلِّمها شرع الله تعالى من خلال القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ؛ فيشرح للمسلمين غامضَه، ويبيِّن مُحْكَمَهُ، ويفصِّل مجمله، ويسأل عن تطبيقه، ويصحِّح خطأ الفهم لهم؛ إن وجد. كان الرَّسول ﷺ، يعلِّم، ويربِّي أصحابه؛ لكي يُعلِّموا، ويربُّوا النَّاس على المنهج الرَّبَّانيِّ، فتعلَّم الصَّحابة من رسول الله ﷺ منهج التَّعليم، ومنهج التَّربية، ومنهج الدَّعوة، ومنهج القيادة للأمَّة من خلال ما تسمع، وما تبصر، ومن خلال ما تعاني وتجاهد، فاستطاع ﷺ أن يعدَّ الجيل إعداداً كاملاً، ومؤهَّلاً لقيادة البشريَّة، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التَّربية القرآنيَّة، والتَّربية النَّبويَّة إلى كل صُقْعٍ[(١)]، وأصبحوا شهداء على النَّاس.

ـ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: ماذا كانوا قبل الوحي والرِّسالة؟ وماذا أصبحوا بعد ذلك؟ كانوا في حروبٍ، وصراعٍ، وجاهليَّةٍ عمياء، وأصبحوا بفضل الله، ومَنِّهِ، وكرمه أمةً عظيمةً، لها رسالةٌ، وهدفٌ في الحياة، لا همَّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وحقَّقوا العبوديَّة لله وحده، والطاعة لله وحده، ولرسوله ﷺ، وانتقلوا من نزعة الفردية، والأنانيَّة، والهوى إلى البناء الجماعيّ، بناء الأمَّة، وبناء الدَّولة، وصناعة الحضارة، واستحقَّت بفضل الله، ومنِّه أعظمَ وسامَيْنِ في الوجود[(٢)]، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال ـ أيضاً ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ـ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: فهذه المنن، وهذه العطايا، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدوِّ، والآصال، وشكره عليها، وحثَّهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على ذكره، وبكرمه يُذكرون في الملأ الأعلى، بعدما كانوا تائهين في الصَّحاري، ضائعين في الفيافي، وحُقَّ لهذه النعم جميعاً أن تُشْكَر[(٣)]!.

---

(١) الصُّقْع: الناحية، والجمع: أَصْقَاع.
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٤٣٨ ـ ٤٤٢).
(٣) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٤٤٢).

وهكذا الآيات الكريمة تربِّي الصَّحابة من خلال الأحداث العظيمة ، وتصوغ الشَّخصيَّة المسلمة القويَّة ، الَّتي لا ترضى إلا بالإسلام ديناً ، والتَّي تعرَّفت على طبيعة اليهود من خلال القرآن الكريم ، وبدأت تتعمَّق في ثنايا طبيعتهم الحقيقيَّة ، وانتهت إلى الصُّورة الكلِّيَّة النِّهائيَّة ، الَّتي تربوا عليها من خلال القرآن الكريم ، والتَّربيَة النَّبويَّة . قال تعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

٨ ـ من صفات اليهود في القرآن الكريم :

إنَّ المتتبِّع لتاريخ اليهود ، ومواقفهم مع المصطفى ﷺ يشاهد تلك الأفعال القبيحة ، والأخلاق الرَّذيلة ، الَّتي يتَّصف بها هؤلاء البشر ، ولا غرابة في ذلك ، فهي طبيعة كلِّ آدميٍّ ينسلخ من دينه الصَّحيح ، وعقيدته السَّليمة .

كانت معاناة رسول الله ﷺ والمسلمين من اليهود شديدةً ، وأليمةً ، فالقرآن الكريم تحدَّث عن بعضها ، وكتب السُّنَّة ، والتَّاريخ ، والسِّير حافلةٌ بالأحداث الجسيمة مع اليهود ، وقد تحدَّث القرآن الكريم ، وبيَّنت السُّنَّة النَّبويَّة صفاتهم القبيحة ؛ كالنِّفاق ، وسوء الأدب مع الله ، ورسوله ﷺ ، والمكر ، والخداع ، والمداهنة ، وعدم الانتفاع بالعلم ، والحقد ، والكراهية ، والحسد ، والجشع ، والبُخل ، ونكران الجميل ، وعدم الحياء ، والغرور ، والتكبُّر ، وحبُّ الظهور ، والإشراك في العبادة ، ومحاربة الأنبياء ، والصَّالحين ، والتَّقليد الأعمى ، وكتمان العلم ، وتحريف المعلومات ، والتَّحايل على المحرمات ، والتَّفرُّق ، والطَّبقيَّة في تنفيذ الأحكام ، والرِّشوة ، والكذب ، والقذارة[(١)] ، وسوف نشير إلى بعض هذه الصِّفات الذَّميمة ؛ التي جاءت في القرآن الكريم .

١ ـ الإشراك في العبادة :

فعبادة اليهود شركيَّةٌ باطلةٌ ؛ حيث يعتقدون : أنَّ لله ولداً ، ويشركون معه في عِبادته غيره ، وقد سجَّل الله ـ عزَّ وجل ـ عليهم بعض مظاهر الإشراك . قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١] .

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدِّم ؛ بل عبدوا أنبياءهم ، وصالحيهم ، واتخذوا

(١) راجع الرِّسالة القيمة : «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» ، د . عبد الله الشقاري .

قبورهم مساجد، وأوثاناً يعبدونها من دون الله[١]. قال ﷺ: «قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» [البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠)].

٢ ـ محاربة الأنبياء والصَّالحين:

في الوقت الَّذي يقدِّسون فيه أحبارهم، ورهبانهم إلى درجة العبادة نجدهم في المقابل لا يتورَّعون عن محاربة أنبيائهم، وصالحيهم، ويشنُّون عليهم الحملات المغرضة بشتَّى الطُّرق، والوسائل كافَّةً، ولا يمتنعون حتَّى عن قتلهم؛ كما فعلوا بزكريا، ويحيى عليهما السَّلام[٢]، وقد أخبرنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم بذلك، فبعد أن بيَّن ـ عزَّ وجلَّ ـ ألواناً من العذاب أوقعه عليهم؛ قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

٣ ـ كتمانهم العلم، وتحريفهم للحقائق:

إنَّ كتمان العلم، وتحريف الحقائق صفتان ملازمتان لليهود من قديم الزَّمن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، فبدَّلوا، ودخلوا يزحفون على أَسْتاههم، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعرةٍ» [البخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥)].

ومن أعظم العلوم الَّتي كتمها أحبار اليهود، وحاولوا إخفاء حقيقتها علمُ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسلام بن مِشْكم، ومالك بن الصَّيف، ورافع بن حُريملة، فقالوا: يا محمد! ألستَ تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم، ودينه، وتؤمن بما عندنا من التَّوراة، وتشهد أنَّها من الله حقٌّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى؛ ولكنَّكم أحدثتم، وجحدتم ما فيها، ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبيِّنوه للنَّاس، فَبَرِئْتُ من إحداثكم». قالوا: فإنَّا نأخذ بما في أيدينا، فإنَّا على الهدى والحقِّ، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم [ابن هشام (٢/٢١٧) وابن جرير في تفسيره (٦/٣١٠)]: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

٤ ـ التَّفرُّق:

إنَّ اليهود دائماً، وأبداً مختلفون في الأفكار، مفترقون في الأحكام، تحسبهم جميعاً؛

---

(١) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٥٠٧).

(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٥٠٩).

وقلوبهم شتَّى ، تماماً كما وصفهم الباري ـ عزَّ وجلَ ـ في قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر : ١٤] .

٥ ـ الرِّشوة :

إنَّ من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثَهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها ، بشتَّى السُّبل ، والوسائل ؛ ولو كانت مخالفةً لشرعهم ؛ كدفع الرِّشوة ، والمال الحرام ، فأكل السُّحت من رشوةٍ ، ومال حرامٍ من طباعهم ، وقد وصفهم الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة : ٤٢] .

٦ ـ النِّفاق :

وقد أظهر بعضُ زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة ، وتستَّروا بالنِّفاق ، وقد سجل الله عليهم ذلك في قولـه تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٣ ـ ١٤] .

٧ ـ المداهنة :

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع ، ولا ينكرون المنكر ؛ ولذلك لعنهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسجَّل لعنته عليهم في كتابـه العزيز . قال تعـالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ـ ٧٩] .

٨ ـ عدم الانتفاع بالعلم :

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك ، وصوَّر هذه الصِّفة تصويراً دقيقاً(١) . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥] .

٩ ـ الحقد ، والكراهية :

من صفات اليهودِ المستقرَّة في أعماق نفوسهم الحقدُ على كلِّ شيءٍ ليس منهم ، والكراهية

---

(١) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٨٢) .

لكلِّ ما هو غير يهوديٍّ؛ مهما كان نوعه ومصدره، وخاصَّةً إذا كان يمتُّ إلى رسول الله ﷺ بصلةٍ، كما حصل في أمر القبلة، وما حصل في تحريم الخمر، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت آية تحريم الخمر، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها؟! [الحاكم (٤/١٤٣ ـ ١٤٤)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

١٠ ـ الحسد:

فقد حسد اليهودُ النَّبيَّ ﷺ على الرِّسالة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الرَّسول الَّذي سيبعث، سيكون منهم، يتجمَّعون حوله، ويقاتلون به أعداءهم، فلمَّا بُعِث الرَّسول ﷺ من غيرهم؛ جُنَّ جنونهم، وطار صوابهم، ووقفوا يعادونه عداوةً شديدةً، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان، ونعمة الهدى؛ الَّتي شرح الله صدورهم لها[(١)]، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٤ ـ ٥]، وسورتا «الفلق» و«النَّاس» تعوَّذ بهما الرَّسول ﷺ حينما سحرته اليهود. وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

١١ ـ الغرور والتَّكبُّر:

اتَّصف اليهود بالغرور، والتَّكبُّر على الخلق من قديم الزَّمان، فهم يرون أنَّهم أرقى من النَّاس، وأفضل من النَّاس، ويزعمون أنَّهم شعب الله المختار، ويعتقدون أنَّ الجنَّة لليهود، وأنَّ طريق اليهودية هو طريق الهداية، وسواها ضلالٌ، وقد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه عن هذه الخصلة الذَّميمة فيهم[(٢)]. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] وقد مارسوا ذلك الغرور والتَّعالي على رسول الله ﷺ، بشتَّى الوسائل والصُّور، ومن ذلك هذه الصُّورة[(٣)]:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أتى رسولَ الله ﷺ نُعمانُ بن أضاء، وبَحْريُّ بن عمرو، وشأسُ بن عديٍّ، فكلَّموه، وكلَّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذَّرهم نِقمته، فقالوا: ما تُخوِّفنا يا محمد! نحن أبناء الله، وأحبَّاؤه ـ كقول النَّصارى ـ فأنزل الله تعالى

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ٧٠).
(٢) انظر: اليهود في السنَّة المطهَّرة (٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).
(٣) انظر: تفسير الطَّبريِّ (٦/ ١٠٥).

فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

١٢ ـ البخل:

من صفات اليهود القديمة بخلُهم بالمال، وعدم إنفاقه في سبيل الخير، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم؛ فإنَّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النَّفقة؛ فإنَّكم لا تدرون علامَ يكون[1]، فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧] أي: من التَّوراة الَّتي فيها تصديق ما جاء به محمَّد ﷺ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

١٣ ـ العناد:

برغم قيام الأدلَّة، والبراهين على صدق نبوَّة ورسالة محمَّدٍ ﷺ، إلا أنَّ اليهود بسبب عنادهم، امتنعوا عن الإيمان، وانغمسوا في الكفر، والتكذيب؛ لأنَّ العناد يقفل العقول بأقفال الهوى، وقد بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الصِّفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] نعم! لو قدَّمت لهم يا محمد! ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا، وما غيَّروا، وما بدَّلوا، ويصدق فيهم قول الله تعالى[2]: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

هذه بعض الصِّفات الَّتي تجسَّدت في الشَّخصية اليهوديَّة، والَّتي أشار القرآن الكريم إليها؛ لنعرف اليهود على حقيقتهم، حتَّى لا يغترَّ[3] المسلمون بهم في أيِّ وقتٍ، أو أيِّ زمانٍ، أو أيِّ مكانٍ.

رابعاً: (إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين):

إنَّ هذه الوثيقة وضَّحت مدى العدالة الَّتي تميَّزت بها معاملة النَّبيِّ ﷺ لليهود، وأعطت

---

(١) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨).
(٢) انظر: دراساتٌ في السِّيرة، ص ١٥١.
(٣) اغْترَّ فلانٌ بكذا: خُدِعَ به.

لمواطني الدَّولة مفهوم الحرية الدِّينيَّة ، وضربت عُرْضَ[(١)] الحائط بمبدأ التَّعصُّب ، ومصادرة الأفكار والمعتقدات ، ولم تكن المسألةُ مسألةَ تكتيكٍ مرحليٍّ ، ريثما يتسنَّى للرَّسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج ، لكي يبدأ تصفيةً أخرى إزاء أولئك الَّذين عاهدهم . . وحاشاه؛ وإنَّما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسةٍ إسلاميَّةٍ منبثقةٍ من شريعةٍ ربَّانيَّة[(٢)] .

لقد عقد الرَّسول ﷺ مع اليهود المعاهدات الَّتي تؤمِّن لهم الحياة الكريمة في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة ، بحكم أنَّهم أهل كتاب (أهل الذِّمَّة) ، ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء ، ولم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا لؤماً وخسَّةً ـ أن يتخلَّوا عن تلك الصِّفات الذَّميمة ، فنقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال؛ حيث أجلى رسولُ الله ﷺ بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وَقَتَل رجالَ بني قريظة[(٣)] ، وهذا ما سوف نراه ـ بإذن الله تعالى ـ في هذا الكتاب ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود ، فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٦] .

والعهد هنا ما عقده رسولُ الله ﷺ مع اليهود ، من عهودٍ ، ومواثيق ، بألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، كما بيَّن ذلك المفسِّرون[(١)] .

لقد سلك اليهود وسائل عدَّةً ، ومتغايرةً ، ومتنوِّعةً للكيد لرسول الله ﷺ ، والَّذين آمنوا معه ، ومقاومتهم ، إلا أنَّ هذه الوسائل لم تفلح ، ولم تؤتِ ثمارها المرجوَّة منها ، وهي القضاء على جماعة المسلمين ، ودولتهم ، وكيانهم السِّياسيِّ ، فما أسباب ذلك؟

إنَّ ذلك يرجع إلى تلك التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة ، الَّتي غرست معاني الإيمان في القلوب ، وحقَّقت العبوديَّة الخالصة لله ، وحاربت الشِّرك بجميع أشكاله ، وعلَّمت الصَّحابة الأخذ بأسباب النُّهوض ، والتَّمكين المعنويَّة ، والمادِّيَّة ، فقد ربَّى النَّبيُّ ﷺ أصحابه على العزَّة ، والنَّخوة ، والرُّجولة ، والشَّجاعة ، ورفض الذلِّ ، ومقاومة الظُّلم ، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود ، وغيرهم؛ بل مقاومتها ، والقضاء عليها ، وعلى أهلها ، فثابروا ، وصابروا ، حتَّى انتصروا على أعدائهم[(٤)] .

كان مكر اليهود في غاية الدَّهاء ، تكاد تزول منه الجبال؛ ولكنَّه لم يفلح مع الرَّعيل الأوَّل ، بسبب القيادة النَّبوية ، والمنهج الرَّبانيِّ الَّذي سار عليه رسول الله ﷺ[(٥)] .

---

(١) عُرْض الشَّيء : جانبه ، وناحيته . ويقال : ضربَ بالأمر عُرْض الحائط : أهمله ، ولم يُبالِ به .
(٢) انظر : العهد والميثاق في القرآن الكريم ، د. ناصر العمر ، ص ١٢١ .
(٣) انظر : تفسير الطَّبري (٨/ ٣٠) ، والتَّحرير والتَّنوير (١٠/ ٤٨) .
(٤) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ٨٠) .
(٥) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٧٩) .

إنَّ المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخطَّطات اليهوديَّة ، ومؤامراتها؛ لبُعْدهم عن المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، وكيفيَّة التَّعامل مع اليهود ، فالأمَّة في أشدِّ الحاجة للقيادة الرَّبانيَّة ، الحكيمة ، الواعية ، الموفَّقة من عند الله ، الخبيرة بأخلاق اليهود ، وصفاتهم ، فتتعامل معهم معاملةً واعيةً ، مستمدَّةً أصولها من السِّياسة النَّبويّة الرَّاشدة ، في التَّعامل مع هذا الصِّنف المنحرف من البشر .

لقد تغلغلت في عصرنا هذا الأصابع اليهوديَّة القذرة في مجالاتٍ عديدةٍ من حياة الشُّعوب ، والدُّول ، تلك الأصابع الَّتي تهدف إلى غايةٍ محدَّدةٍ ، هي (الفساد في الأرض) ، وهذا هو التَّعبير القرآنيُّ : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة : ٦٤] .

إنَّ استعمال الفعل المضارع في الآية ، يدل على التَّجدُّد ، والاستمرار ، فليس سعيهم للفساد مرحلةً تاريخيَّةً انتهت؛ لكنَّه قدرهم الكونيُّ إلى يوم يبعثون ، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدَّرات الأمم من خلال كيدهم المدروس ، وفي غيبة الوجود الإسلاميِّ القادر على إحباط مؤامراتهم ، وفضح ألاعيبهم .

إنَّ العبقريَّة اليهوديَّة في الهدم ، والتخريب ، ليست موضعَ جدلٍ ، تلك العبقرية الَّتي تستغلُّ الأحداث ، وتستثمرها لمصلحتها . إنَّ لليهود وجوداً مؤثِّراً في الدُّول الكبرى ، اقتصاديّاً ، وسياسيّاً ، وإعلاميّاً ، ولم يكونوا غائبين في النِّظامين العالميين : الرَّأسمالية ، والشيوعية ، ولا عن الثَّورات الكبرى في العالم ، وهناك عددٌ من المنظَّمات العالمية ، تبذل جهداً ضخماً في تحقيق أهداف اليهود ، أبرزها (الماسونية) ، و(الليونز) ، و(الرُّوتاري) ، و(شهود يهوه) . . . إلخ .

ألا يحسُّ الباحث الواعي : أنَّ في الأمر نوعاً من المبالغة المقصودة ، أو غير المقصودة؟! هذه الصُّورة الجاثمة في عقول الكثيرين : أنَّ اليهود هم الذين يحرِّكون العالم ، وهم زعماؤه السِّياسيُّون ، ومفكروه ، ومبدعوه و . . . و . . . وأنَّ الشَّخصيات المهمَّة من غير اليهود ، ما هي إلا «أحجار على رقعة الشَّطرنج» على حدِّ تعبير «وليام غاي كار»[(١)] .

إنَّ هذا الكمَّ الهائل من الكتب الَّتي تتحدَّث عن اليهود ، ودورهم العالمي الخطير تساهم في تهيئة الجوِّ للتسليم بالأمر الواقع ، وتمنح تفسيراً جاهزاً لجميع الهزائم الَّتي مُنِيَتْ[(٢)] بها الأمَّة ، الهزائم الحضاريَّة ، والعسكرية على حدٍّ سواءٍ .

إنَّ إحساس النَّاس بأنَّ كلَّ شيءٍ مدبَّرٌ ، ومُبَيَّتٌ ، ومدروسٌ من قِبَلِ اليهود ، أو محافلهم

---

(١) انظر : قضايا في المنهج ، لسلمان العودة ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٢) مُنِيَ بكذا : ابْتُلِيَ به .

يقعد بهم عن المقاومة ، والمواجهة ، والجهاد. وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أيِّ عدوٍّ آخر ، ينتهج سياسة الإرهاب الفكريِّ ، والعسكريِّ.

هذه الجماعات تجد ـ أحياناً ـ من يُهَوِّل من شأنها ، ويعطيها أكبر من حجمها ، فكلُّ من يتحدَّث ـ مثلاً ـ عن هذه الفئة الغالية المنحرفة ، أو يكتب ، أو يحاضر ، فهو مهدَّدٌ في رزقه ، وحياته ، إذاً: فليسكت الجميع حفاظاً على أرزاقهم ، وأرواحهم[١]. إنَّ هذا التَّضخيم الرَّهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقةٌ؛ لأنَّ أولياء الشَّيطان كيدهم مهما عظُم ، وكبُر ضعيفٌ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ، فإنَّ قوَّتهم بسبب ضعف إيماننا ، وبُعْدنا عن منهج ربِّنا؛ لأنَّ الإيمان الصَّحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات ، وتفشل بسببه جميع الخطط ، لكن لا بدَّ من نزع عنصر الخوف الَّذي قتل كثيراً من الهِمَم ، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداثُ تؤكِّد أنَّ (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصَّابرة يتحطَّم الكيد كلُّه؛ يهوديّاً كان أم غير يهوديٍّ أمام عوامل التصدِّي والنُّهوض. قال تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وهذا لا يعني ـ بحالٍ من الأحوال ـ تجاهل قوَّة العدوِّ ، أو التَّقليل من شأنه ، حتَّى لو كان عدوّاً حقيراً ، فضلاً عن عدو مُدَجَّجٍ ، وقديم (الْمُدَجَّجُ: من عليه سلاحه).

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدوِّ ، فلا نبالغ في تهويل قوَّته بما يوهن قوانا ، ويفتِّت عزيمتنا ، ويُسوِّغ لنا الهزيمة ، وفي المقابل لا نستهين به ، أو نتجاهل وجوده[٢]. وستمضي في اليهود وغيرهم سنَّة الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

* * *

---

(١) انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦.

(٢) انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦ ـ ٨٧.

المبحث الرَّابع
سنَّة التَّدافع وحركة السَّرايا

أولاً: سنَّة التَّدافع:

إنَّ من السُّنن الَّتي تعامل معها النَّبيُّ ﷺ، سنَّةَ التَّدافع، وتظهر جليّاً في الفترة المدنيَّة مع حركة السَّرايا، والبُعوث، والغزوات الَّتي خاضها النَّبيُّ ﷺ ضدَّ المشركين، وهذه السنَّة متعلقةٌ تعلُّقاً وطيداً بالتَّمكين لهذا الدِّين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التَّنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة: أنَّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصِّراع بين الحقِّ والباطل، المتمثِّل هنا في طالوتَ وجنوده المؤمنين، وجالوتَ وأتباعه، ويذيِّل الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ «ممَّا يفيد: أنَّ دفع الفساد بهذا الطَّريق، إنعامٌ يعمُّ النَّاسَ كلَّهم»[١].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنَّه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوِّهم، ويختتم الآية بتقريرٍ لقاعدةٍ أساسيَّةٍ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

لقد أدرك الصَّحابة هذه السُّنَّة، وعلموا: أنَّ القضاء على الباطل وتدميره، لابدَّ له من أمَّةٍ لها قيادةٌ ومنهجٌ، وقوَّةٌ تدمغ الباطل، وتزهقه، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاج إلى عزائمَ تنهض به، وسواعدَ تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به. لقد علَّمهم النَّبيُّ ﷺ كيف يتعاملون مع هذه السُّنَّة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد لهذه الأمَّة، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة، لا يبطله جورُ جائرٍ،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرَّازي (٣/ ٥١٤).

ولا عدلُ عادل ، وما تركه قومٌ إلا أذلَّهم الله ، وسلَّط عليهم عدوَّهم . وقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد على مراحل ؛ ليكون أروضَ للنَّفس ، وأكثر ملاءمةً للطَّبع البشري ، وأحسن موافقةً لِسَيْرِ الدَّعوة ، وطريقة تخطيطها[١] ؛ فكان تشريع القتال على مراحل :

المرحلة الأولى : الحظر ، وذلك عندما كان المسلمون في مكَّة ، وكانوا يطالبون النَّبيَّ ﷺ بالإذن لهم في القتال ، فيجيبهم ﷺ : «اصبروا ؛ فإنِّي لم أُؤمر بالقتال» [الكشاف (٤/ ١٩٩)][٢] .

المرحلة الثانية : الإذن به من غير إيجابٍ . قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : ٣٩] .

المرحلة الثالثة : وجوب قتال من قاتل المسلمين . قال تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

المرحلة الرابعة : فرض قتال عموم الكفَّار على المسلمين . قال تعالى : ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٣٦] .

إنَّ هذا التدرُّج في حكم القتال ، كان يقتضيه وضعُ الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، وحالة الجيش الإسلاميِّ الَّذي كان آخذاً في التَّكوين ، من حيث العَدد ، والعُدد والتَّدريب ، وما إلى ذلك ، فكان لابُدَّ من مُضيِّ فترةٍ من الوقت ، يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدَّعوة الإسلاميَّة من كفَّار قريش ـ الَّذين آذوا المسلمين ، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم . . يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدَّعوة ، إنَّما هو على سبيل الاختيار ، لا على سبيل الإجبار ، وذلك إلى أن يَصْلُب عودُ الدَّولة الإسلاميَّة ، ويشتدَّ بأسُها ، بحيث تستطيع الصُّمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربيَّة ، حتَّى لو عملت قريش على تأليبها ضدَّ المسلمين ، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال ، في حالةٍ تكون فيها أوضاع الدَّولة الإسلاميَّة ، والجيش الإسلامي ، على أُهْبَةِ الاستعداد لمواجهة الاحتمالات كافَّةً ، هذا فيما يتَّصل بالقتال الَّذي يتعرَّض فيه المسلمون لكفَّار قريش ، جاء النَّصُّ بالإذن ، أي بالإباحة ، لا بالوجوب ، أمَّا في حالة ما لو تعرَّض المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم ؛ فالقتال هنا فرضٌ ، لا مجال فيه للخيار ، وليس مجرَّد أمرٍ مأذون فيه ، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب ، بيعة العقبة الثَّانية ، الَّتي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر ، والأسود من النَّاس ، في سبيل الذَّود عن الدَّعوة الإسلاميَّة ، وصاحبها ﷺ ، وأتباعها[٣] .

---

(١) انظر : الهجرة في القرآن الكريم ، ص ٤٣٨ .

(٢) انظر : تفسير الآلوسي (٦/ ١٠٨) .

(٣) انظر : القتال والجهاد ، لمحمد خير هيكل (١/ ٤٦٣ ، ٤٦٤) .

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسولُ الله ﷺ في تدريب أصحابه على فنون القتال، والحروب، واشترك معهم في التَّمارين، والمناورات، والمعارك، وعَدَّ السَّعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات، وأقدس العبادات؛ التي يُتَقَرَّب بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قام النَّبيُّ ﷺ بتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وكان منهجه ﷺ في تكوين المجاهد المسلم، يعتمد على نهجين متوازنين: التَّوجيه المعنويِّ، والتَّدريب العمليِّ.

١ ـ التَّوجيه المعنويُّ:

كان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين؛ فيمنحهم أملاً يقينيّاً بالنَّصر، أو الجنَّة، ومنذ تلك اللَّحظات وفيما بعد، ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجنديَّ المسلم في ساحات القتال، ويدفعه إلى بذل كلِّ طاقاته النَّفسيَّة، والجسدية، والفنِّيَّة من أجل كسب المعارك، أو الموت تحت ظلال السُّيوف[1]، فمن أقواله ﷺ في حثِّ أصحابه على الجهاد: «والَّذي نفسي بيده! لولا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تَطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي، ولا أجد ما أحملهم عليه؛ ما تخلَّفت عن سريَّةٍ تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده! لوددت أنِّي أُقتلُ في سبيل الله، ثمَّ أُحيا، ثم أُقتل، ثمَّ أُحْيا، ثمَّ أقتل، ثمَّ أُحيا، ثمَّ أقتلُ» [البخاري (٢٧٩٧) والنسائي (٦/٨)]، وقوله ﷺ: «ما أحدٌ يدخلُ الجنةَ، يُحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيدُ؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مراتٍ؛ لما يرى من الكرامة» [البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧/١٠٩)].

٢ ـ التَّدريب العمليُّ:

سعى النَّبيُّ ﷺ إلى اعتماد كلِّ طاقات الأمَّة القادرة على البذل، والعطاء، رجالاً، ونساءً، وصبياناً، وشباباً، وشيوخاً، وإلى التَّمرُّس على كلِّ مهارةٍ في القتال، طعناً بالرُّمح، وضرباً بالسَّيف، ورمياً بالنَّبل، ومناورةً على ظهور الخيل، وكان ﷺ يمزج خَطَّي التَّربية العسكريَّة المتوازنين: التَّوجيه، والتدريب، والأمل في النَّصر، أو الجنة، وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحضُّ المسلمين على إتقان ما تعلَّموا من فنون الرِّماية. قال رسول الله ﷺ: «من عَلِمَ الرَّمي ثمَّ تركه؛ فليس منَّا، أو: قدْ عَصَى» [مسلم (١٩١٩) وأحمد (٤/١٤٨) وابن ماجه (٢٨١٤)]، فهي دعوةٌ إلى عموم الأمَّة، وحتَّى مَنْ دخلوا في سنِّ الشيخوخة، للتَّدريب على إصابة الهدف،

(١) انظر: دراساتٌ في السِّيرة ص ١٦١.

ومهارة اليد ، ونشاط الحركة. إنَّ الإسلام يهتمُّ بطاقات الأمَّة جميعها ، ويوجِّهها نحو المعالي ، وعلوِّ الهمَّة.

وكان ﷺ يهتمُّ بالأعداء على حسب كلِّ ظرفٍ وحالٍ ، ويحثُّ على كلِّ وسيلةٍ يستطيعها المسلمون ، وقد ثبت عنه ﷺ : أنَّه قال: «وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إنَّ القوَّة الرَّمي! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ!» [مسلم (١٩١٧) وأبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٠٨٣) وابن ماجه (٢٨٨٣)].

إنَّ القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يعلمان المسلمين الإعداد على الأصعدة المعنويَّة ، والمادِّيَّة كافَّةً ، وأن يأخذوا حذرهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] وهذا يدلُّ على وجوب العناية بالأسباب ، والحذر من مكائد الأعداء ، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد؛ المتعلِّقة بالأسلحة ، والأبدان ، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة ، وكيفيَّة استعمالها ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على جهاد عدوهم ، والسَّلامة من مكائده ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ أطلق الأمر بالإعداد ، وأخْذِ الحذر ، ولم يذكر نوعاً دون نوعٍ ، ولا حالاً دون حالٍ ، وما ذلك إلا لأنَّ الأوقات تختلف ، والأسلحة تتنوَّع ، والعدوَّ يقلُّ ويكثر ، ويضعف ويقوى.

كان الجهاد في فهم الصَّحابة مدرسةً عظيمةً في تزكية النَّفس ، وأيقنوا: أنَّه لكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوَّة ، فعليهم أن يخلصوا لله سبحانه في جهادهم ، وأن يعملوا بما آمنوا به ، ودعوا النَّاس إليه ، فقد بيَّن لهم الرَّسول ﷺ خطورة الرِّياء في الأعمال. فقد قال ﷺ : «إنَّ أوَّل النَّاس يُقْضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهدَ ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فعَرَفَها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشْهِدتُ ، قال: كَذبت! ولكنَّك قاتلت؛ لأن يُقال: جَريءٌ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه؛ حتَّى أُلقي في النَّار ، ورجلٌ تعَلَّمَ العلمَ ، وعلَّمه ، وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفها ، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ ، وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القرآن ، قال: كذبتَ! ولكنَّك تعلَّمت العلمَ؛ ليقال: عالمٌ ، وقرأتَ القرآن؛ ليقال: هو قارئٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، حتَّى أُلقي في النَّار ، ورجلٌ وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفَها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيه إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ! ولكنَّك فعلت؛ ليقال: هو جَوَادٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، ثمَّ أُلقي في النَّار» [مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائي (٦/ ٢٣)].

ولذلك أخلص الصَّحابة في جهادهم لله تعالى؛ طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، فكان كلامهم لله ، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وقدَّموا أنفسهم دفاعاً عن دين الله ، ومن أجل

إعلاء كلمة الله تعالى ، وكان لجهاد الصَّحابة في سبيل الله تعالى آثارُه العظيمة في تزكية نفوسهم ، والَّتي تتجلَّى في الجوانب التَّالية :

(أ) تحرير النَّفس من حبِّ الحياة ، والتَّعلُّق بها :

الجهاد في سبيل الله تدريبٌ عمليٌّ على الزُّهد في الدُّنيا ، والتَّطلُّع إلى الآخرة ، والتَّشوُّق لما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة ، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلاميُّ في تزكية النَّفس؛ فالمجاهد يبيع نفسه لله تعالى ابتغاء مرضاته ، والله سبحانه واهب الأنفس ، والأموال ، ومالكُها ، يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم؛ إذا بذلوها في سبيله(١) .

قال تعالى : ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة : ١١١ ـ ١١٢] .

(ب) تمحيص النَّفس ، وتدريبها على الصَّبر ، والفداء :

أيقن الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ ﷺ لهم : أنَّ الجنَّة محفوفةٌ بالمكاره ، ولا تُنال براحة البدن ، ولابدَّ من تعويد النَّفس على المشاقِّ ، والصِّعاب؛ ليقوى بنيانها ، وتصمد في وجه الشَّدائد ، والأهوال ، وتدع الخمول ، والكسل ، والتَّواني ، وتعلَّمُوا من القرآن الكريم : أنَّ حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرَّض النُّفوس للتَّمحيص؛ ليظهر ثباتها ، ويستقيم حالها ، وأنَّ ميدان الجهاد من أكبر الميادين لهذا التمحيص(٢) .

قال تعالى : ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ـ ١٤٣] .

(ج) الجهاد عزَّةٌ للنَّفس ، وقوَّةٌ لها :

وتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من الهدي النَّبويِّ الكريم : أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى

(١) منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (١/ ٢٩٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٩٤) .

وسيلةٌ عظيمةٌ لتنمية العزَّة في نفس المسلم ، وتقوية كيانها ، وتطهيرها من الذِّلَّة ، والمهانة ، والخمول ، وغير ذلك من الصِّفات المهلكة للفرد ، والمجتمع ، فقد بيَّن لهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنَّ المؤمن عزيز الجانب؛ لأنَّه يستمدُّ العزَّة من إيمانه بربه ، وتمسُّكه بدينه؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] .

فإذا تخلَّى المسلم عن الجهاد ، وشُغل بالدُّنيا عن الآخرة؛ تعوَّدت نفسه الذِّلَّة ، والهوان ، والاستكانة ، والخُنُوع (أي: الذُّلَّ ، والخضوع) قال ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة(١) ، وأخذتم أذناب البقر(٢) ، ورضيتم بالزَّرع ، وتركتُم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتَّى ترجعوا إلى دينكم» [أبو داود (٣٤٦٢) وأحمد (٢/ ٤٢ و٨٤)] .

ويُخشى على منْ جعل الدُّنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا من أجلها أن يكون ممَّن قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ ـ ٨] .

وقد قال ﷺ: «مَنْ مات؛ ولم يَغْزُ ، ولم يُحَدِّث به نَفْسَه؛ مات على شعبةٍ من نفاقٍ» [مسلم (١٩١٠) وأحمد (٢/ ٣٧٤) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٦/ ٨)] .

إنَّ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، سلكوا طريق الجهاد بأنواعه ، وبذلك حظوا بالبشارة العظمى ، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

١ ـ حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩ ـ ٤٠] .

قال صاحب الظِّلال: «هناك واجبٌ آخر على الجماعة المسلمة ، وهو أن تُحطِّم كلَّ قوَّةٍ تعترض طريق الدَّعوة ، وإبلاغها للنَّاس في حرِّيَّةٍ ، أو تهدِّد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن النَّاس عنها ، وأن تظلَّ تجاهد حتَّى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنةٍ لقوَّةٍ في الأرض ، ويكون الدِّين لله؛ لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدُّخول ، ولا يخاف قوَّةً في الأرض تصدُّه عن دين الله أن

(١) أي: أن يبيع الرَّجل لغيره سلعةً ، ثم يشتريها منه بثمنٍ أقلَّ .
(٢) معناه: اتخذتم الماشية للحرث والرَّي ، وعكفتم على ذلك ، فلم تنشغلوا إلا به .

يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضعٌ ، أو نظامٌ يحجب نور الله وهداه عن أهله ، ويضلُّهم عن سبيل الله بأيَّة وسيلةٍ ، وبأيَّة أداةٍ ، وفي حدود هذه المبادئ العامَّة كان الجهاد في الإسلام . إنَّه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها ، وشريعتها في الحياة ، وإقرار رايتها في الأرض ؛ بحيث يَرْهَبُها من يهمُّ بالاعتداء عليها ، وبحيث يلجأ إليها كلُّ راغبٍ فيها ، لا يخشى قوَّةً أخرى في الأرض تتعرَّض له ، أو تمنعه ، أو تفتنه .

وهذا هو الجهاد الوحيد الَّذي يأمر به الإسلام ، ويقرُّه ، ويثبت عليه ، ويَعْتَبِر الَّذين يقاتلون فيه شهداء ، والَّذين يَحْتَمِلون أعباءه أولياء»[(١)] .

٢ ـ حماية الشَّعائر ، والعبادات :

قال تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٨ ـ ٤١] .

قال النَّسفي ـ رحمه الله! ـ : «أي : لولا إظهاره ، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة ؛ لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبَّداتهم ، فهدموها ، ولم يتركوا للنَّصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلواتٍ ؛ أي : كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمَّة محمَّدٍ ﷺ على المسلمين ، وعلى أهل الكتاب الَّذين في ذمَّتهم ، وهدموا متعبَّدات الفريقين ، وقدَّم غير المساجد عليها ؛ لتقدُّمها وجوداً ، أو لقربها من التَّهديم»[(٢)] .

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٠ ـ ٢٥٢] .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٨٧) .

(٢) تفسير النَّسفي (٣/ ١٠٦) ، والكشَّاف (٣/ ١٦) ، وتفسير المراغي (٦/ ١١٩) .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ «أي: لولا الله يدفع عن قومٍ بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت، وشجاعة داود؛ لهلكوا»(١).

وقال صاحب الكشَّاف في تفسير هذه الآية: «ولولا أنَّ الله يدفع بعض النَّاس ببعض، ويكفُّ بهم فسادهم؛ لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطَّلت مصالحها؛ من الحرث، والنَّسل، وسائر ما يعمر الأرض»(٢).

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي في تفسيره: «إنَّ في هذه الآية عبراً كثيرةً للأمَّة؛ منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنَّه السَّبب الوحيد في حفظ الدِّين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان، والأموال، وأنَّ المجاهدين ولو شقَّت عليهم الأمور؛ فإنَّ عواقبهم حميدةٌ، كما أنَّ النَّاكلين ولو استراحوا قليلاً؛ فإنَّهم سيتعبون طويلاً»(٣).

٤ ـ الابتلاء، والتَّربية، والإصلاح:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد، وقتال الأعداء، ليختبركم، وليبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران، وبراءة، في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢](٤).

قال صاحب الظِّلال: «إنَّما يتَّخذ الله المؤمنين ـ حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار، وشدِّ وثاقهم بعد إثخانهم إنَّما يتَّخذهم سبحانه ـ ستاراً لقدرته، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرةً، كما انتصر منهم من غير هذه الأسباب كلِّها؛ ولكنَّه إنَّما يريد لعباده المؤمنين الخير. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهو يبتليهم، ويربِّيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢).
(٢) تفسير الكشَّاف (١/ ٣٨٢)، وتفسير أبي السُّعود (١/ ٢٤٥).
(٣) تفسير السَّعدي (١/ ٣٠٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٤).

أ ـ يريد ليبتليهم: وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النَّفس البشرية من طاقاتٍ، واتِّجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحقُّ؛ الَّذي تؤمن به، حتَّى تجاهد في سبيله، فتقتُل، وتُقتل، ولا تسلِّم في هذا الحق الذي تعيش له، وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحبُّ هذه الحياة في غير ظلِّه.

ب ـ ويريد ليربيهم: فيظلُّ يُخرج من نفوسهم كلَّ هوىً، وكلَّ رغبةٍ في أعراض هذه الأرض الفانية ممَّا يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه، ويظلُّ يقوِّي في نفوسهم كلَّ ضعفٍ، ويكمل كلَّ نقصٍ، وينفي كلَّ زَغلٍ(١)، ودَخل، حتَّى تصبح رغائبهم كلُّها في كفَّةٍ، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتَّطلُّع إلى وجه الله، ورضاه، وتشيل تلك(٢)، ويعلم الله من هذه النُّفوس: أنَّها خُيِّرت، فاختارت، وأنَّها تربَّت، فعرفت، وأنَّها لا تندفع بلا وعيٍ؛ ولكنَّها تقدِّر، وتختار.

ج ـ ويريد ليصلحهم: ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتَّعرُّض للموت في كلِّ جولةٍ ما يعوِّد النَّفس الاستهانة بخطر المخوِّف، الَّذي يكلف النَّاس الكثير من نفوسهم، وأخلاقهم، وموازينهم، وقيمهم، ليتَّقوه، وهو هيِّنٌ، هيِّنٌ عند من يعتاد ملاقاته، سواءٌ سَلِمَ منه، أو لاقاه، والتَّوجُّه به لله في كلِّ مرَّةٍ، يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقرِّبه للتَّصوُّر فعل الكهرباء بالأجسام، وكأنَّه صياغةٌ جديدةٌ للقلوب والأرواح، على صفاءٍ، ونقاءٍ، وصلاح.

ثمَّ هي الأسباب الظَّاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلِّها عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين؛ الَّذين فرغت نفوسهم من كلِّ أعراض الدُّنيا، وكلِّ زخارفها، وهانت عليهم الحياة؛ وهم يخوضون غِمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله، والتَّطلُّع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلُّها، ويصلح العباد، ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلِّم راية القيادة للكفر، والضَّلال، والفساد، وهي قد اشترتها بالدِّماء، والأرواح، وكلُّ عزيزٍ، وغالٍ أرخصته لتتسلَّم هذه الراية، لا لنفسها، ولكن لله»(٣).

٥ ـ إرهاب الكفَّار، وإخزاؤهم، وإذلالهم، وتوهين كيدهم:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ

---

(١) الزَّغلُ: الغِشُّ.
(٢) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفَّتيه، انظر: لسان العرب (١١/ ٣٧٥).
(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٦).

عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧ ـ ١٨].

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: «أي: لابدَّ أن يعقد سبباً من المحنة يظهر فيه وليُّه، ويفتضح فيه عدوُّه، يعرف به المؤمن الصَّابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أُحُد، الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانُهم، وصبرُهم، وجلَدُهم، وثباتُهم، وطاعتُهم لله، ورسولِه ﷺ، وهتك به سِتْرَ المنافقين، فظهر مخالفتُهم، ونكولُهم عن الجهاد، وخيانتهم للهِ، ولرسوله ﷺ»(١).

٧ ـ إقامة حكم الله، ونظام الإسلام في الأرض:

إنَّ إقامة حكم الله في الأرض هدفٌ من أهداف الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

٨ ـ دفع عدوان الكافرين:

إنَّ من أهداف الجهاد في الإسلام دفعَ عدوان الكافرين، وهذا العدوان أنواعٌ؛ منها:

أ ـ أن يعتدي الكفَّار على فئةٍ مؤمنةٍ مُسْتَضْعفةٍ في أرض الكفار، لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلادٍ تأمن فيها على دينها: فإنَّ الواجب على الدَّولة الإسلاميَّة، أن تعدَّ العدة لمجاهدة الكفار؛ الَّذين اعتدوا على تلك الطَّائفة، حتَّى يخلِّصوها من الظُّلم، والاعتداء الواقع عليها(٢).

قال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٥].

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ:

«حضٌّ على الجهاد، وهو يتضمَّن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين؛ الذين

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١).

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ١٦٢).

يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدِّين ؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، واستنقاذ المؤمنين الضُّعفاء من عبادِه ، وإن كان في ذلك تلفُ النُّفوس. وتخليص الأُسارى واجبٌ على جماعة المسلمين ؛ إمَّا بالقتال ، وإمَّا بالأموال ، وذلك أوجب لكونها دون النُّفوس ؛ إذ هي أهون منها»[١] .

ب ـ أن يعتدي الكفَّار على ديار المسلمين : قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢] .

نصَّ الفقهاء على أنَّه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين ؛ يتعيَّن الجهاد للدِّفاع عن الدِّيار ؛ لأنَّ العدوَّ إذا احتلَّها سام المسلمين عذاباً ، ونفَّذ فيها أحكام الكفر ، وأجبر أهلها على الخضوع له ، فتصبح دار كفرٍ بعد أن كانت دار إسلام .

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «ويتعيَّن الجهاد في ثلاثة مواضع : . . . الثاني : إذا نزل الكفار ببلدٍ معيَّنٍ على أهله قتالُهم ، ودفعُهم»[٢] .

وقال بعض علماء الحنفيَّة : «وحاصله : أنَّ كلَّ موضعٍ خيفَ هجوم العدوِّ منه ، فُرِض على الإمام ، أو على أهل ذلك الموضع ، حفظُه ، وإن لم يقدروا فُرِض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدوِّ»[٣] .

ج ـ أن ينشر العدوُّ الظُّلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفاراً ـ: إنَّ الله سبحانه حرَّم على عباده الظلم ، والعدلُ في الأرض واجبٌ لكلِّ النَّاس ، وإذا لم يدفع المسلمون الظُّلم عن المظلومين ؛ أثِموا ؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض ؛ لإحقاق الحقِّ ، وإبطال الباطل ، ونشر العدل ، والقضاء على الظُّلم ، ولا فلاح لهم إلا بذلك ، وهو الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وما كانوا خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٩) .
(٢) انظر : المغني (٩/ ٢٧٩) .
(٣) انظر : حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤) .

ومن العدل كفُّ الظُّلم عن المظلوم الكافر، الَّذي يبغضه المسلم لكفره. قال السَّرخسيُّ ـ رحمه الله! ـ: «وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب الذِّمَّة على أن يُتْرَك يحكم في أهل مملكته بما شاء؛ من قتلٍ، أو صَلْبٍ، أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام؛ لم يُجَبْ إلى ذلك؛ لأنَّ التقرير على الظُّلم مع إمكان المنع منه حرامٌ»(١).

د ـ الوقوف ضدَّ الدُّعاة إلى الله، ومنعهم من تبليغ دعوة الله: إنَّ المسلمين مفروضٌ عليهم من قِبَل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يبلِّغوا رسالات الله للنَّاس كافَّةً. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وأعداء الله يصدُّون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته، ولا يتركون لهم سبيلاً إلى النَّاس، كما لا يأذنون للدُّعاة أن يُسْمِعوا النَّاس دعوة الله، ويضعون العراقيل، والعوائق، والحواجز، بين الدَّعوة، ودعاتها، والناس، ولذلك أوجب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده المؤمنين، قتال كلِّ مَنْ يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى(٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١ ـ ٤].

وممَّا تقدَّم يتَّضح لنا أنَّ للجهاد أهدافاً ساميةً، ومصالح كريمةً، وفوائدَ عظيمةً تتحقَّق للمسلمين وغيرهم، وأنَّ الجهاد من آثار الهجرة، ونتائجها المهمَّة، وأنَّه من الدَّعائم؛ الَّتي أقامها الرَّسول ﷺ لبناء الدَّولة الإسلاميَّة، وتوطيد أركان الإسلام(٣)؛ وذلك «لأنَّ الأمَّة بغير جيشٍ قويٍّ عرضةٌ للضَّياع؛ إذ يطمع فيها أعداؤها، ولا يهابون قوَّتها، فإذا كان لها جيشٌ قويٌّ احترم العدوُّ إرادتها، فلا تحدِّثه نفسه باعتداءٍ عليها؛ فيسود عند ذلك السَّلام»(٤).

ثالثاً: أهم السَّرايا، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى:

بمجرَّد الاستقرار الَّذي حصل للمسلمين بقيادة الرَّسول ﷺ في المدينة، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابدَّ أن يتنبَّه المسلمون، وقيادتهم إلى الوضع حولهم،

(١) انظر: المبسوط، للسَّرخسي (١٠/ ٨٥).
(٢) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصَّلابي، ص ٤٨٨.
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص ٤٥٣.
(٤) الحركات العسكريَّة للرَّسول الأعظم ﷺ في كفتي الميزان، لسيف الدِّين، ص ٦٢.

وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدَّعوة ، وكان لابدَّ أن تنطلق الدَّعوة الإسلاميَّة إلى غايتها الَّتي أرسل الله محمَّداً ﷺ بها ، وتحمَّل هو وأصحابه في سبيلها المشاقَّ الكثيرة .

إنَّ موقف قريشٍ في مكَّة من أهم الأمور الَّتي يجب أن تعالجها قيادة المدينة ؛ لأنَّ أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيانٌ ـ ولو كان في المدينة ـ لأنَّ ذلك يهدِّد كيانهم ، ويُقَوِّض[١] بنيانهم ، فهم يعلمون أنَّ قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهليَّة ، وعادات الآباء ، والأجداد ، فلابدَّ من الوقوف في وجهه .

وقد بذلت مكةُ ، وأهلُها المحاولات الكثيرة ؛ لعدم وصول النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة ، واتَّخذت مواقف عدائيَّةً لضرب الإسلام ، والقضاء على المسلمين[٢] ، واستمرَّ هذا العداء بعد هجرة النَّبيِّ ﷺ ، ومن أهم المواقف الدَّالة على ذلك : أنَّ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حـدَّثَ عن سعد بن معـاذ : أنَّـه قال : كـان صديقـاً لأُميـة بن خَلف ، وكـان أُمَيَّةُ إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكَّة نزل على أميَّةَ ، فلمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، انطلق سعد معتمراً ، فنزل على أُميةَ بمكَّةَ ، فقال لأُميةَ : انظر لي ساعةَ خَلوةٍ ، لعلِّي أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من نصف النَّهار ، فلقيهما أبو جهل ، فقال : يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال : هذا سعدٌ . فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكَّة آمناً ، وقد أويتم الصُّبَأة[٣] ، وزعمتم : أنَّـكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان ؛ ما رجَعْتَ إلى أهلك سالماً . فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ : أما والله! لئن منعتني هذا ، لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه ، طريقَك على المدينة . . . » [البخاري (٣٩٥٠)] وفي روايةٍ عند البيهقيِّ [دلائل النبوة (٣/ ٢٥)] : «والله! لئن منعتني أن أطوف بالبيت ، لأقطعنَّ عليك متجرَك إلى الشَّام» .

تدلُّ هذه الواقعة على أنَّ (أبا جهلٍ) ، يَعْتَبِرُ (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنِّسبة إلى قريش ، ولولا أنَّه دخل مكة في أمان زعيمٍ من زعمائها ؛ لأهدر دمه ، وهذا تصرُّف جديدٌ من رؤساء مكَّة حيال أهل المدينة ، لم يكن قبل الدَّولة الإسلاميَّة فيها ؛ فلم يكن أحدٌ من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمانٍ ؛ لكي يُسْمَحَ له بالدُّخول إلى مكَّة! بل إن قريشاً كانت تكره أن تفكِّر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد ، وقالوا في هذا الصَّدد ، يخاطبون أهل المدينة ما نصُّه : «والله! ما مِنْ حيٍّ من العرب أبغضَ إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[٤] ، كما تدلُّ هذه القصَّة ، على أنَّ قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشَّام كانت

---

(١) قَوَّض البناء : هَدَمَه ، وتَقَوَّضت الصُّفوف والمجالسُ : تفرَّقت .

(٢) انظر : مرويات غزوة بدر ، لأحمد باوزير ، ص ٧٩ .

(٣) جمع صابئ : أي الخارج عن دينه . وكان المشركون يسمُّون من أسلم صابئاً .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (الروض الأنف ٢/ ١٩٢) .

في أمانٍ حتَّى حدوث هذه الواقعة ، لم تتعرَّض لها الدَّولة الإسلاميَّة بمكروهٍ؛ أي: أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة حتَّى هذا الوقت لم تعامل أهل مكَّة معاملة أهل الحرب ، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصاديَّ ، ولم تصادر لهم أيَّة قافلةٍ ، أو تقصدها بسوءٍ! ومعنى هذا أنَّ الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكَّة هي الَّتي بادرت ، وأعلنت الحرب على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ، واعتبرت المسلمين أهلَ حرب ، لا يُسْمح لهم بدخول مكَّة إلا بصفة مُسْتأمَنين[١] .

ودليلٌ آخر على مبادرة رؤساء مكَّة إلى إعلان الحرب ، على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ : أنَّ كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبيٍّ) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج؛ ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا ، وإنَّا نقسم بالله! لتُقاتِلنَّه ، ولتُخرجُنَّه ، أو لَنَسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتَّى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم. فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبيِّ ﷺ ، فلمَّا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ؛ لَقِيَهم ، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ممَّا تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم ، وإخوانكم!» فلمَّا سمعوا ذلك من النَّبيِّ ﷺ ؛ تفرَّقوا. [أبو داود (٣٠٠٤) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠)] .

وهنا تظهر عظمة النُّبوَّة ، وعظمة القائد المربِّي ﷺ ؛ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها ، وضرب على وتر العزَّة القبليَّة؛ فقد كان ﷺ يدرك أغوار النَّفس البشريَّة الَّتي يتعامل معها؛ ولذلك كان خطابه مؤثِّراً في نفوس مشركي يثرب ، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم ، في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصفِّ الإسلاميِّ ، وزعزعة بنيانه الدَّاخلي ، وبعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة ، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال؛ صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريشٍ حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه ، فقد اتَّجه نشاط الرَّسول ﷺ من أجل توطيد مكانة هذه الدَّولة ، والردِّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتَّجه نشاطه ﷺ نحو إرسال السَّرايا، والخروج في الغزوات[٢] ، فكانت تلك السَّرايا ، والغزوات الَّتي سبقت بدر الكبرى؛ ومن أهمها:

١ ـ غزوة الأبْوَاء:

أولى الغزوات الَّتي غزاها النَّبيُّ ﷺ غزوة الأبواء[٣] ، وتُعْرَف بغزوة وَدَّان[٤] أيضاً ، وهما

---

(١) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٦).
(٢) انظر: الجهاد والقتال (١/ ٤٧٧).
(٣) قيل: سمِّيت بذلك لما فيها من الوباء.
(٤) ودَّان: قرية قريبة من الأبواء.

موقعان متجاوران بينهما ستة أميال ، أو ثمانية ، ولم يقع قتال في هذه الغزوة ؛ بل تمَّت موادعة بني ضمرة (من كنانة) ، وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة) ، وكان عدد المسلمين مئتين بين راكبٍ ، وراجلٍ[١] .

٢ ـ سرية عُبَيْدة بن الحارث :

وهي أوَّل رايةٍ عقدها رسول الله ﷺ[٢] ، وكان عدد السَّرِيَّة ستِّين من المهاجرين ، وكانت قوَّة الأعداء من قريش أكثر من مئتي راكبٍ ، وراجلٍ ، وكان قائدَ المشركين أبو سفيان بن حرب ، وحصلت مناوشاتٌ بين الطَّرفين على ماءٍ بوادي رابغ ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهمٍ ، فكان أوَّل سهمٍ رُمِيَ به في الإسلام ، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[٣] .

٣ ـ سريَّة حمزة بن عبد المطلب :

قال ابن إسحاق : وبعث النَّبيُّ ﷺ في مقامه ذلك ـ أي لمَّا وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء ـ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف[٤] البحر[٥] من ناحية العيص[٦] ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السَّاحل ، في ثلاثمئة راكبٍ من أهل مكَّة ، فحجز بين الفريقين مجديُّ بن عمرو الجُهَنيُّ ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف بعضُ القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال[٧] .

٤ ـ غزوة بُوَاط[٨] :

وكانت غزوة رسول الله ﷺ بُواط في شهر ربيع الأوَّل ، في السَّنة الثَّانية من مُهَاجره ، وخرج في مئتين من أصحابه ، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش ، كان فيها أميَّة بن خلف ، في مئة رجلٍ ، وألفين وخمسمئة بعيرٍ ، فلم يلق النَّبيُّ ﷺ كيداً ؛ فرجع إلى المدينة .

---

(١) انظر : جيش النَّبي ﷺ ، لمحمود شيت خطاب ، ص ٥٤ ، والرَّاجل : خِلاف الفارس ، والجمع : رَجَّالةٌ .
(٢) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ٧) .
(٣) انظر : حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ ، د. محمد بكر آل عباد (١/ ٤٠) .
(٤) سيف : السِّيف ـ بالكسر ـ : الشاطئ والسَّاحل ، والجمع : أسياف .
(٥) سيف البحر : ساحله من ناحية العيص .
(٦) العيص ـ بالكسر ـ : مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .
(٧) انظر : سيرة ابن هشام (١/ ٥٩٥) .
(٨) بُواط ـ بفتح الموحدة وضمِّها ـ : جبلٌ من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع .

٥ ـ غزوة العُشَيرة[(١)] :

وفيها غزا ﷺ قريشاً ، واستعمل على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسد ، وسُمِّيت هذه الغزوة بغزوة العُشَيرة ، فأقام بها جُمَادَى الأولى ، وليالي من جُمادى الآخرة ، وادع فيها بني مُدْلِج ، وحلفاءهم من بني ضَمْرة ، ثمَّ رجع إلى المدينة ، ولم يلقَ كيداً؛ وذلك : أنَّ العير الَّتي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيامٍ ، ذاهبةً إلى الشَّام[(٢)] ، فساحلت على البحر ، وبلغ قريشاً خبرُها ، فخرجوا يمنعونها ، فلقوا رسول الله ﷺ ووقعت غزوة بدر الكبرى[(٣)] .

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاصٍ :

وبعد غزوة العُشيرة ، بعث النَّبيُّ ﷺ سعد بن أبي وقَّاص ، في سريةٍ قوامها ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتَّى بلغ الخَرَّار[(٤)] من أرض الحجاز ، ثمَّ رجع ، ولم يلقَ كيداً[(٥)] .

٧ ـ غزوة بدر الأولى :

سببها : أن كُرْزَ بنَ جابر الفِهريَّ ، قد أغار على سَرْحِ[(٦)] المدينة ، ونهب بعض الإبل ، والمواشي ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه ، حتَّى بلغ وادياً يقال له : سَفْوان ، من ناحية بدرٍ ، وفاتَه كُرْزُ بن جابرٍ ، فلم يدركه ، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة[(٧)] .

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش الأسديِّ إلى نَخْلة[(٨)] :

وأرسل النبيُّ ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رَهطٍ من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر يومٍ من رجب؛ للاستطلاع ، والتَّعرف على أخبار قريش؛ لكنَّهم تعرضوا لقافلةٍ تجاريَّةٍ لقريش ، فظَفِرُوا بها ، وقتلوا قائدها عمرو بن الحَضْرمي ، وأسروا اثنين من رجالها ، هما : عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كَيْسان ، وعادوا بهما إلى المدينة ، وقد توقَّف النَّبيُّ ﷺ في هذه الغنائم ، حتَّى نزل عليه قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ

---

(١) العشيرة : موضع بين مكَّة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر . (مراصد الاطلاع : ٢/ ٩٤٣) .
(٢) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ١٠) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١) .
(٤) علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة ، انظر : (مراصد الاطلاع : ١/ ٤٥٥) .
(٥) انظر : سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٠) .
(٦) السَّرح : الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة .
(٧) انظر : سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠١) .
(٨) نخلة اليمانية : وادٍ عسكرت به هوازن يوم حنين .

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلمَّا نـزل القرآن الكريم؛ قبـض رسولُ الله ﷺ العيـر، والأسيريـن، وفي سريـة عبد الله هـذه غنم المسلمون أوَّل غنيمـة، وعمرو بـن الحَضْرَمي أوَّل قتيلٍ قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان أوَّل من أسر المسلمون(١).

رابعاً: فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ:

١ ـ متى شُرِع الجهاد؟

ذهب الشَّيخ الدُّكتور محمَّد أبو شهبة إلى أنَّ تشريع الجهاد كان في أوائل السَّنة الثَّانية للهجرة، وعلَّل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السَّنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدِّينيَّة، والدُّنيويَّة؛ كبنائهم المسجد النَّبويِّ، وأمور معايشهم، وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السِّياسيَّة؛ كعقد التآخي بينهم، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة؛ كي يأمنوا شرورهم(٢). وذهب الأستاذ صالح الشَّامي إلى أنَّ الإذن بالجهاد كان في أواخر السَّنة الأولى للهجرة(٣).

٢ ـ الفَرْق بين السَّرية، والغزوة:

يُطلق كُتَّاب السِّيَر في الغالب على كلِّ مجموعةٍ من المسلمين؛ خرج بها النَّبيُّ ﷺ ليلقى عدوَّه غزوةً، سواءٌ حدث فيها قتالٌ، أم لم يحدث، وسواءٌ كان عددها كبيراً، أم صغيراً. ويطلقون على كل مجموعة من المسلمين؛ يرسلها النَّبيُّ ﷺ لاعتراض عدوٍّ كلمة: (سَرِيَّة) أو: (بعث)، وقد يحدث فيها قتالٌ، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوِّه، أو غيره، وغالباً ما يكون عدد الَّذين يخرجون في السَّرايا قليلاً؛ لأنَّ مهمَّتهم محدَّدةٌ في مناوشـة العدوِّ، وإخافتـه، وإرباكه، وقد قاد رسولُ الله ﷺ سبعاً وعشرين غزوةً، وأرسل ما يُقدَّر بثمانٍ

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٤٣)، وقد كانت هذه السَّريَّة في شهر رجب، وهو أحد الأشهر الحُرم، فلمَّا كانوا في آخر يوم من رجب وتعرضوا لهذه القافلة، تشاوروا، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، فإن قاتلناهم؛ انتهكنا الشَّهر الحرام، وإن تركناهم الليلة؛ دخلوا الحرم، ثمَّ اجتمعوا على اللِّقاء، فقتلوا، وأسروا، وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» فنزلت الآية.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (١/ ٧٥، ٧٦).

(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ١٧٥.

وثلاثين سريَّةً ، وبعثاً ، وقد خطَّط لها في فترةٍ وجيزةٍ في عُمْرِ الأمم ، بلغت عَشْرَ سنواتٍ من الزَّمن[(١)] .

٣ ـ تعداد سكَّان المدينة ، وعلاقته بالسَّرايا :

أمر النَّبيُّ ﷺ بإجراء تعدادٍ سكَّانيٍّ في السَّنة الأولى من الهجرة ، وبعد المؤاخاة مباشرةً ، وكان الإحصاء للمسلمين فقط ، أو حسب نصِّ أمر رسول الله ﷺ حينما قال : «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من النَّاس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفاً وخمسمئة رجلٍ[(٢)] ، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجبٍ ، واستغرابٍ : «نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟!»؛ لأنهم كانوا قبلُ لا ينامون إلا ومعهم السِّلاح؛ خوفاً على أنفسهم ، وكان رسول الله ﷺ يمنع خروجهم ليلاً فرادى؛ حمايةً لهم من الغدر[(٣)] ، وبعد هذا التَّعداد مباشرةً ، بدأت السَّرايا ، والغزوات ، وهذا الإجراء الإحصائيُّ يدخل ضمن الإجراءات التَّنظيميَّة في تطوير الدَّولة النَّاشئة[(٤)] .

٤ ـ حراسة الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ الشَّخصيَّة :

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يحرسون النَّبيَّ ﷺ حراسةً شخصيَّةً ، فعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : «أرِقَ النَّبيُّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، فقال : «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يَحْرسُني اللَّيلة» ؛ إذ سمعنا صوتَ السِّلاح ، قال : «مَنْ هذا؟» قال : سعدٌ يا رسولَ الله! جئتُ أحْرُسُك ، فنام النَّبيُّ ﷺ حتَّى سمعنا غَطيطه» [البخاري (٢٨٨٥ و٧٢٣١) ومسلم (٢٤١٠)] ، وكان ذلك قبل غزوة بدرٍ الكبرى[(٥)] . وفي حديث عائشة رضي الله عنها : مشروعية الاحتراس من العدوِّ ، والأخذ بالحزم ، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط ، وأنَّ على النَّاس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل ، وفيه الثَّناء على مَنْ تبرَّع بالخير ، وتسميته ، وإنَّما عنَى النَّبيُّ ﷺ ذلك مع قوَّة توكُّله ؛ للاستنان به في ذلك[(٦)] .

٥ ـ نص وثيقة المعاهدة مع بني ضَمْرَة والتعليق عليها :

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا كتابٌ من محمَّدٍ رسول الله ، لبني ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، بأنَّهم آمنون على أموالهم ، وأنفسهم ، وأنَّ لهم النَّصر على مَنْ رامهم ؛ إلا أن

---

(١) في ظلال السيرة ـ غزوة بدر ، لأبي فارس ، ص ١٢ .
(٢) انظر : الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، ص ٦٥ .
(٣) انظر : الرَّوض الأُنف (٥/ ٤٣).
(٤) انظر : دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٦٣ .
(٥) انظر : تفسير القرطبيِّ (٦/ ٢٣٠).
(٦) انظر : ولاية الشرطة في الإسلام ، د. عمر محمد الحميداني ، ص ٦٣ .

يُحارِبُوا دين الله ، ما بَلَّ بحرٌ صُوفةَ[(١)] ، وأنَّ النَّبيَّ إذا دعاهم لنُصْرة ؛ أجابوه ، عليهم بذلك ذمَّة الله ، وذمَّة رسوله ، ولهم النَّصرُ على مَنْ برَّ منهم ، واتَّقى»[(٢)] .

انتهز النَّبيُّ ﷺ في غزوة الأبْواء فرصةً ذهبيَّةً ، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة ، فقد كان موقع بلاده ذا قيمةٍ عسكريَّةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ في الصِّراع بين الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وقريش ؛ ولذلك عمل رسول الله ﷺ على ضمان حيدتهم ، في حالة وقوع صدام مسلَّحٍ بين المدينة ، وأهل مكَّة ، وكانت خطَّته ﷺ حتَّى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعاتٍ صغيرةٍ من المهاجرين ، وخاصَّةً أنَّ هذه القوافل كانت غير مصحوبةٍ بجيشٍ يحميها ، وهو أمرٌ لم تفكِّر فيه قريش حتَّى تلك اللَّحظة[(٣)] .

كان قُرْبُ بني ضَمْرَة ، وحلفائهم من المدينة ؛ الَّتي كانت سوقَهم ، ومصدرَ رزقهم قد وضعهم في موقفٍ لا يسمح لهم بأيِّ مسلكٍ غير موادعة الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وهو حلف عدم اعتداءٍ وفق المصطلح الحديث[(٤)] .

وقد دلَّت هذه الموادعة على أنَّ مقتضيات السِّياسة الشَّرعيَّة ، قد تدفع المسلمين إلى التَّحالف العسكريِّ ، أو الاقتصاديِّ ، أو التِّجاريِّ ، مع أيٍّ من الكتل القائمة ، وأنَّ التَّحالف السِّياسيَّ له أصلٌ في الشَّريعة ، وضرورةٌ يوجبها استهدافُ رفع الضَّرر الحاصل ، أو المرتقب[(٥)] ، وأنَّ التَّحالف مبنيٌّ على قاعدة رفع الضَّرر ، والمصلحة المشتركة ، وأن تكون لأصل الحلف غايةٌ شرعيَّةٌ معلومةٌ ، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرارٌ ، ورأيٌ ، أما إذا كانوا أتباعاً ، ومنفذين ـ كما في الأحلاف الحديثة ـ فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشَّرعيُّ ، وعلى قيادة الأمَّة أن تستوعب هدي النَّبيِّ ﷺ في حركته السياسية ، وأن تفهم القاعدة الشَّرعيَّة ؛ الَّتي تقول : «لا ضرر ولا ضرار» [ابن ماجه (٢٣٤١) وأحمد (١/٣١٣) والطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٨٩)][(٦)] .

يقول الشَّيخ مصطفى الزَّرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ، ما نصُّه :

«وهذه القاعدة من أركان الشَّريعة ، وتشهد لها نصوصٌ من الكتاب والسنَّة ، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عامّاً ، أو خاصّاً ، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية

---

(١) كناية عن التأبيد والاستمرار .
(٢) الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٢٢٠ رقم (١٥٩) .
(٣) انظر : نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د . عون الشريف ، ص ٤٣ .
(٤) انظر : الفقه السِّياسي ، لخالد سليمان الفهداوي ، ص ١١٩ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٤ .
(٦) هذه القاعدة أصلها حديثٌ نبويٌّ .

الممكنة ، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التَّدابير الَّتي تزيل آثاره ، وتمنع تكْرَاره ، كما يدلُّ على وجوب اختيار أهون الشَّرَّين ؛ لدفع أعظمهما ؛ لأنَّ في ذلك تخفيفاً للضَّرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً»(١) .

إنَّ هذه الموادعة توضِّح جواز عقد الدَّولة الإسلاميَّة معاهدةً دفاعيَّةً بينها وبين دولةٍ أخرى ، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين ، ولم يترتَّب أيُّ ضررٍ على مثل هذه المعاهدة ، ويجب على الدَّولة الإسلاميَّة في هذه الحال ، نصرة الدَّولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النُّصرة ضدَّ الكفار المعتدين ، كما يجوز للدَّولة الإسلاميَّة أن تطلب من الدَّولة الحليفة إمدادها بالسِّلاح ، والرِّجال ؛ ليقاتلوا تحت راية الدَّولة الإسلاميَّة ، ضدَّ الأعداء من الكفَّار(٢) .

وقد شرط النَّبيُّ ﷺ على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله ؛ حتَّى يكون لهم النَّصر على من اعتدى عليهم ، أو حاول الاعتداء .

وفي هذا إبعادٌ للعقبات ؛ الَّتي يمكن أن تقف في طريق الدَّعوة ، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضَمرة ألا يحاربوا هذا الدِّين ، أو يقفوا في طريقه(٣) ، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسيَّاً وعسكريَّاً للمسلمين ، لا يستهان به(٤) .

٦ ـ (وإنِّي لأوَّل رجلٍ رمَى بسهمٍ في سبيل الله)(٥) :

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث رضي الله عنه أوَّلَ سريَّةٍ في تاريخ السَّرايا ، يلتقي فيها المسلمون مع المشركين في مواجهةٍ عسكريَّةٍ ، وقد اتَّخذ القتال بين الطَّرفين طابع المناوشة بالسِّهام ، وكان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه «أوَّل العرب رمى بسهم في سبيل الله»(٦) في تلك المعركة ؛ الَّتي لم تستمرَّ طويلاً ؛ إذ قرَّر الفريقان الانسحاب من أرضها ، وقد كان انسحاب المسلمين قوياً ، ومنظَّماً ، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، فقد كان له الدَّور الأكبر في تثبيت ، وإحباط استعدادات العدوِّ ، لشنِّ أيِّ هجوم مضادٍّ ، وذلك بوابل من السِّهام المزعجة الَّتي قذفها نحوه ، والتي كونت ساتراً دفاعياً ، مهَّد لانسحابٍ سليمٍ منظَّمٍ بالنِّسبة للمسلمين ، وقد فرَّ عُتْبة بن غَزوان ، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذٍ إلى المسلمين ، وكانا قد أسلما قبل ذلك ، وفي هذه السَّريَّة حقَّق سعد بن أبي وقَّاص رضي الله

---

(١) انظر : المدخل الفقهي ، للشَّيخ الزرقا ، ص ٩٧٢ .
(٢) انظر : الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية ، د. محمد خير هيكل (١/ ٤٧٩) .
(٣) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٠ .
(٤) انظر : الدَّعوة الإسلامية ، د. عبد الغفار عزيز ، ص ٢٩٦ .
(٥) انظر : صحيح سنن التِّرمذيِّ (٢/ ٢٧٧) .
(٦) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، د. بريكك العُمري ، ص ٩١ .

عنه سبقاً عسكريّاً إسلاميّاً ، يسجَّل في سجلِّه الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى ، كما أكَّدت هذه السَّريَّة ، استمرار سياسة رسول الله ﷺ التَّعبويَّة ، الخاصَّة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسَّرايا الأولى حتَّى بدر ؛ تنفيذاً لاتفاقية العقبة الثَّانية[١] .

٧ ـ نصُّ وثيقة الموادعة مع جُهَيْنة ، والتَّعليق عليها :

«إنَّهم آمنون على أنفسهم ، وأموالهم ، وإنَّ لهم النَّصر على من ظلمهم ، أو حاربهم ، إلا في الدِّين ، والأهل ، ولأهل باديتهم من برَّ منهم ، واتَّقى ما لحاضرتهم»[٢] .

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخَّل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنيُّ في التَّوسُّط بين سريَّة حمزة بن عبد المطلب ، والقافلة القرشيَّة الَّتي كان يقودها أبو جهل بن هشام ، ويحرسها ثلاثمئة راكبٍ من فُرْسان قريشٍ[٣] ، فقد التقوا ناحية العيص ، في منطقة نفوذ جهينة ، واصطفُّوا للقتال[٤] ، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين ، تدخَّل مجْديُّ بن عمرو ـ زعيم من زعماء جهينة ـ في وساطة سلامٍ بينهم ، واستطاع أن ينجح في مساعيه السِّلمية بين الطَّرفين ، فقد كان مجديُّ ، وقومه حلفاء للفريقين جميعاً ، فلم يعصوه ، فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما ، فلم يكن بينهما قتالٌ[٥] .

ويظهر من هذه المعاهدة : أنَّ عقد المعاهدات بين الدَّولة الإسلامية والقبائل المجاورة ، كان سابقاً على الأعمال العسكريَّة ؛ الَّتي قامت بها ؛ بدليل أنَّ حركة السَّرايا الأولى الموجَّهة ضدَّ قريشٍ ، كان قد سبقها معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر ، وقد توسَّطت لمنع القتال بين المسلمين ، وكفَّار مكَّة .

ومن فقه هذه المعاهدة جوازُ عقد معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، ودولةٍ أخرى ، هي بدورها مرتبطةٌ بمعاهدة سلامٍ مع أعداء الدَّولة الإسلاميَّة ؛ بشرط ألاَّ تتجاوز تلك المعاهدة الاتفاق على أن تنصر الدَّولة المعاهدة للمسلمين العدوَّ إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتالٍ ، ويجوز للدَّولة الإسلاميَّة ، أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعدَّ لذلك ؛ استجابةً لوساطة دولةٍ أخرى ؛ إذا لم يترتب على ذلك ضررٌ للمسلمين[٦] .

كانت نتائج سريَّة حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثنيِّ سيئةً للغاية ؛ حيث هزَّت كيان

(١) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٩٢ .
(٢) انظر : مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٦٢ .
(٣) انظر : المواهب اللَّدنيَّة (١/ ٧٥).
(٤) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ٦) ، وانظر : السَّرايا والبعوث ، ص ٨٥ .
(٥) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦ .
(٦) انظر : الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية (١/ ٤٧٨ ، ٤٧٩) .

قريش ، وبثَّت الرُّعب في نفوس رجالها ، وفتحت أعينهم على الخطر المُحْدق بهم ، والَّذي أصبح يهدِّد طريق تجارتهم ، وقوَّتهم الاقتصاديَّة[١] ، فقد قال أبو جهل حين قدم مكَّة منصرفاً عن حمزة: «يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد نزل يثربَ ، وأرسل طلائعه ؛ وإنَّما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمرُّوا في طريقه ، وأن تقاربوه ؛ فإنَّه كالأسد الضَّاري ، إنه حَنِقٌ[٢] عليكم؛ نفيتموه نَفْيَ القردان[٣] على المناسم[٤] ، والله! إنَّ له لسحرةً ، ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصحابه ، إلا رأيتُ معهم الشَّياطين ، وإنَّكم عرفتم عداوة ابني قَيْلَة[٥] ، فهو عدوٌّ استعان بعدوٍّ»[٦] .

٨ ـ **سريَّة عبد الله بن جحش وما فيها من دروسٍ ، وعبر :**

إنَّ سرية عبد الله بن جحشٍ ، حقَّقت نتائج مهمَّةً ، وفيها دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد عظيمةٌ؛ منها:

أ ـ جاء في خبر هذه السَّريَّة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ كتب لأمير السَّريَّة كتاباً ، وأمره ألاَّ ينظرَ فيه حتَّى يسير يومين ، وهذا مثلٌ لتطبيق مبدأ مهمٍّ من مبادئ الحرب ، وهو إخفاء الخُطط الحربيَّة ، ومنها خط السَّير ، حتَّى يكون الجيش في أمانٍ من كيد الأعداء؛ فالمدينة كانت آنذاك تضمُّ اليهود، والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكَّة ، بخطِّ سير تلك السَّريَّة الموجَّهة ضدَّهم ، فلمَّا سار أفراد السَّريَّة وهم بأنفسهم لا يعلمون اتِّجاههم؛ أصبح النَّبيُّ ﷺ آمناً من انكشاف الهدف المقصود[٧] .

وإنَّ الباحث ليرى أثر التَّربية النَّبويَّة في هذه السَّريَّة المباركة؛ حيث سمعوا ، وأطاعوا جميعاً ، وساروا إلى منطقة أعدائهم ، وتجاوزوها حتَّى أصبحوا من ورائهم ، وهذا شاهدٌ على قوَّة إيمان الصَّحابة رضي الله عنهم ، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[٨] .

ب ـ حاولت قريش أن تستغلَّ ما وقع من قَتْلٍ في الشَّهر الحرام مِنْ قِبلَ أفراد السَّريَّة ، فشنُّوا حرباً إعلاميَّة ، وهجوميَّة مركَّزةً ، تتخلَّلها دعاياتٌ مغرضةٌ ضدَّ المسلمين ، استغلت فيها

---

(١) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦ .
(٢) حَنق عليه حنقاً: اشتد غيظه ، فهو حنقٌ ، وحنيقٌ .
(٣) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل .
(٤) المناسم: جمع منسم ، وهو طرف خُفِّ البعير ، وقيل: هو للنَّاقة كالظُّفر للإنسان .
(٥) كناية عن الأوس والخزرج ، فقيلة أمُّهم وكانوا يُنسبون إليها .
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨ ، ٢١٩) .
(٧) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر (٤/ ٧١) .
(٨) المصدر السابق نفسه .

التعاليم الإبراهيميَّة؛ الَّتي لا زالت بعض آثارها باقيةً في المجتمع الجاهليِّ حتَّى ذلك الوقت؛ من تحريم القتال في الأشهر الحرم، وغير ذلك، فقد «انتهزت قريش هذه الفرصة للتَّشهير بمحمَّدٍ ﷺ، وبالمسلمين، وإظهارهم بمظهر المعتدي الَّذي لا يراعي الحرمات»[١]. «قالت قريش: قد استحلَّ محمَّدٌ، وأصحابه الشَّهر الحرام، وسفكوا فيه الدَّم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرِّجال» [البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٩) وفي الدلائل (٣/ ١٩) وابن هشام (٢/ ٢٥٤)][٢].

ونجحت قريش في خُطَّتها تلك بادئ الأمر؛ حيث «كان لدعايتها صدىً كبيرٌ، وأثرٌ ملموسٌ حتَّى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل، والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السَّريَّة محاربتهم في الشَّهر الحرام، واشتدَّ الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»[٣]، وقالوا: إنَّ الحرب واقعةٌ لا محالة بين المسلمين وقريش؛ بل بينهم وبين العرب جميعاً؛ جزاء ما انتهكوا من حرمة الشَّهر الحرام، وأخذوا يردِّدون: «عمرو بن الحَضرمي قتله واقدُ بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب»[٤]، وهذا الكلام من اليهود يعبِّر عن حقدٍ دفينٍ في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[٥].

وعندما ظنَّ أهل السَّريَّة: أنَّهم قد هلكوا، وسُقط في أيديهم[٦]؛ جاء الردُّ الرَّبانيُّ المفحم؛ قطعاً لألسنة المشركين الَّذين يتترَّسون بالحرمات، ويتَّخذونها ستاراً لجرائمهم، ففضح القرآن هؤلاء المجرمين، وأبطل احتجاجهم، وأجاب على استنكارهم القتال في الشَّهر الحرام، فالصدُّ عن سبيل الله، والكفر به أكبر من القتال في الشَّهر الحرام، والمسجد الحرام، وإخراجُ أهله منه أكبرُ من القتال في الشَّهر الحرام، وفتنةُ الرَّجل في دينه أكبرُ من القتل في الشَّهر الحرام. لقد فعلت قريشٌ كلَّ هذه الجرائم، وارتكبت هذه الكبائر؛ ولكنَّها تناستها، أو استهانت بها، ولم تذكر إلا حُرمة الشَّهر، واتَّخذتها وسيلةً لإثارة حربٍ شعواء على الإسلام، ودولته؛ لتأليب القبائل الوثنيَّة عليها، وتنفير النَّاس من الدُّخول في هذا الدِّين؛ الَّذي يستحلُّ الحرمات، ويستبيح المقدَّسات؛ حتَّى إنَّ رسول الله ﷺ قد لحقه الغمُّ، ولام قائد السَّريَّة، وأصحابه على

(١) انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول ﷺ، للأستاذ أحمد الشريف، ص ٤٤٥.
(٢) انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١٠٠.
(٣) انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول ﷺ، للأستاذ أحمد الشريف، ص٤٤٥.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٣، ٦٠٤).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/ ٧٢).
(٦) سقط في أيديهم: أي: ندموا على ما فعلوا، وهو تعبير قرآنيٌّ في سورة الأعراف، الآية (١٤٩).

ما فعلوا[(١)] ، فنزلت الآيات البيِّنات تردُّ وبقوَّةٍ على دعايات قريشٍ المغرضة ، موضحةً : أنَّه وإن كان الشَّهر الحرام لا يحلُّ فيه القتال ، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات ، وصدَّ عن سبيله[(٢)] .

ج ـ حِرْصُ القائد على سلامة الجنود: عندما تخلَّف سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعُتْبة بن غَزْوان؛ بسبب بحثهما عن بعيرٍ لهما قد ضلَّ ، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين ، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك ، وعُتبة بن غَزْوان» فلم يفادهما حتَّى قدم سعدٌ ، وعُتبة ، ففوديا ، فأسلم الحكم بن كَيسان[(٣)]، وأقام عند رسول الله ﷺ ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافراً[(٤)] .

ونفهم من المنهاج النَّبويِّ ، ضرورة أن يهتمَّ القائد بسلامة جنده؛ لأنَّهم هم الَّذين يقدِّمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله ، وإقامة دولة الإسلام .

إنَّ المدارس العسكريَّة الحديثة تقول: إنَّ الجنديَّ حين يُحسُّ باهتمام القيادة به ، وبسلامته ، وبأمنه لا يتردَّد في أن يبذل غاية البذل ، ويعطي أقصى العطاء[(٥)] .

د ـ ظهور التَّربيَّة الأمنيَّة في الميدان: كانت سريَّة عبد الله بن جحشٍ قد حقَّقت أهدافها ، وظهرت قدرتها على التوغُّل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش ، ممَّا أذهلها ، وزاد دهشتها وذهولها تلك السِّرِّيَّـةُ التَّامَّةُ ، والدِّقَّةُ المتناهية؛ الَّتي تمَّت بها العمليَّة؛ حتَّى إنَّ جواسيس قريش لم تستطع رصدها ، ولا معرفة الوجهة الَّتي قصدتها ، وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ ، وخطَّط له بابتكاره أسلوب الرَّسائل المكتوبة؛ للمحافظة على الكتمان ، وحرمان العدوِّ من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده عن حركات المسلمين، «والكتمان أهمُّ عاملٍ من عوامل مبدأ (المباغتة) ، وهي أهمُّ مبدأ من مبادئ الحرب»[(٦)] .

وقد أثبتت هذه السَّرِيَّةُ بما لا يدع مجالاً للشك: أنَّ سرايا النَّبيِّ ﷺ قويَّةٌ ، تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمَّات ، وتتحلَّى بمزايا القتال ، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكلِّ كفاءة ، واقتدارٍ ، ممَّا يدلُّ على رُوحها المعنويَّة العالية .

وتظهر آثار التَّربية النَّبويَّة في الضَّبط العسكريِّ الرَّفيع ، الَّذي تميَّز به قائد السَّريَّة ، وطاعته

---

(١) انظر: دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٣ .
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٠٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لمحمد أبو فارس ، ص ٢٣ .
(٦) انظر: الرَّسول القائد ﷺ ، لخطاب ، ص ٩٤ .

للأوامر النَّبويَّة العليا؛ دون تردُّدٍ، أو تخاذلٍ، فما إن قرأ الكتاب، حتَّى امتثل فوراً للأمر بحذافيره، معطياً من نفسه القدوة الحسنة، وباثّاً في نفوس جنوده الحماس، وهو يقول لهم: «من كان منكم يريد الشَّهادة، ويرغب فيها؛ فلينطلق، ومن كره ذلك؛ فليرجع، فأمَّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ»(١).

٩ ـ من أهداف السَّرايا:

عندما ندرس حركة السَّرايا، والغزوات؛ الَّتي قادها رسول الله ﷺ بدقَّةٍ، وعمقٍ، وتحليلٍ، نستطيع أن نتلمَّس كثيراً من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروسٍ وعبرٍ، وفوائد؛ فإذا تأمَّلنا في حركة السَّرايا الَّتي سُيِّرت قبل بدرٍ؛ نجد أنَّ أفرادها كلَّهم من المهاجرين، ليس فيهم واحدٌ من الأنصار. يقول ابن سعدٍ ـ رحمه الله! ـ: «والمجتمع عليه: أنَّهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مَبْعثاً حتَّى غزا بهم بدراً»(٢). وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه؛ ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أوَّلاً، وإحياؤها على المستوى الخارجيِّ، وإنهاك الاقتصاد القرشيِّ، ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريشٍ عسكريّاً، وتدريب الصَّحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحرُّكات قريش، وإرهاب العدوِّ الدَّاخليِّ في المدينة، وما حولها، واختبار قوة العدوِّ(٣)، وقد حقَّقت تلك السَّرايا أهدافها، والَّتي من أهمها:

أ ـ بسط هيبة الدَّولة في الدَّاخل، والخارج: فقد استطاعت تلك السَّرايا والغزوات، أن تلفت أنظار أعداء الدَّعوة، والدَّولة الإسلاميَّة إلى قوَّة المسلمين، وقدرتهم على ضرب أيَّة حركةٍ مناوئةٍ، سواءٌ في الدَّاخل، أو الخارج؛ حتَّى لا يُحَدِّث أحدٌ نفسَه بمهاجمة الدَّولة الإسلاميَّة، الَّتي لا يتوقَّف جيشها ليلَ نهارَ، ممَّا أرهب الأفاعي اليهوديَّة، والقبائل الوثنيَّة المحيطة بالمدينة، وجعل الجميع يعمل ألف حسابٍ قبل أن تحدِّثه نفسُه بغزو المدينة، أو مناصرة أحدٍ من الأعداء عليها. والَّذي نلاحظه في حركة السَّرايا الزِّيادة المستمرَّة في أعداد قوَّة تلك الغزوات، والسَّرايا، ومجيئها متتابعةً ليس بينها فاصلٌ زمنيٌّ على الإطلاق، فلا تكاد السَّريَّة، أو الغزوة تعود؛ حتَّى تكون الَّتي بعدها قد خرجت؛ لتحقيق الهدف نفسه، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصاديَّة، وقطع طرق تجارتها، وخصوصاً إلى بلاد الشَّام؛ ممَّا كلَّفها زيادة عدد حرَّاس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، هذا غير الرُّعب، والخوف الَّذي شعر به رجال

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.
(٢) انظر: الطَّبقات الكبرى، لابن سعدٍ (٢/ ٦).
(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، (ص ١٤ ـ ٢٤).

القوافل القرشيَّة ، وأصحاب الأموال في مكَّة على حدٍّ سواءٍ[(١)] .

ب ـ كسب بعض القبائل ، وتحجيم دَور الأعراب: لقد وادع رسولُ الله ﷺ قبيلة جُهَيْنة ، وحالفها ، وكذلك بعض القبائل الضَّاربة في تلك المنطقة من أجل تحييدها في الصِّراع الدَّائر بين مكَّة ، والمدينة ، والعمل على كسبها في هذا الصِّراع ؛ وذلك «لأنَّ الأصل : أنَّ هذه القبائل تميل إلى قريشٍ ، وتتعاون معها ؛ إذ بينهما مُحالفاتٌ تاريخيَّةٌ ، سمَّاها القرآن الكريم بالإيلاف[(٢)] ، سَعَت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشَّام ، واليمن»[(٣)] .

وبعد أن اتَّفقت بعض القبائل مع رسول الله ﷺ ، وعقدت معه معاهداتٍ ، أصبحت تشكِّل خطراً على تجارة قريش ، وصار المسلمون هم السَّادة في المنطقة[(٤)] .

وقام النَّبيُّ ﷺ بتحجيم دور الأعراب ؛ كي لا يكون لهم وجودٌ في طرق التِّجارة ، فقد كان الأعراب يُشَكِّلون قوَّة تهديدٍ للقوافل التِّجارية ، وكان المارُّ في مناطق نفوذهم ، لا يمرُّ إلا بإتاوة تُدْفع إليهم ، وحينما قامت الدَّولة الإسلاميَّة ؛ لم يجدوا شيئاً منها ؛ فجرَّبوا مهاجمتها ، وتولَّى هذا كُرْزُ الفهريُّ ؛ ولكنَّه وجد رسول الله ﷺ يطارده إلى سفوان «بالقرب من بدرٍ مسافةً تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلو متراً» ، وقد سمَّى أهلُ السِّير هذه المطاردة : غزوة بدر الصُّغرى ، وتُعدُّ هذه الغزوة درساً لكلِّ الأعراب ، فلم يحصل : أنَّ أعرابيّاً سوَّلت له نفسه أن يهاجم المدينة بعد هذه المطاردة ، ومِنْ ثمَّ لم تدفع الأمَّة الإسلاميَّة إتاواتٍ لقُطَّاع الطُّرق ؛ بل أجبرتهم على الانسحاب ، والدُّخول في اتِّفاقاتٍ مع المسلمين ؛ فأمنوا شرَّهم[(٥)] .

ج ـ علاقة هذه السَّرايا بحركة الفتوح الإسلاميَّة: وقد استمرَّت حركة السَّرايا ، والبعوث ، وكانت بمثابة تمريناتٍ عسكريَّةٍ تعبويَّةٍ ، ومناوراتٍ حيَّةٍ لجند الإسلام ، وكان هذا النَّشاط المتدفِّق على شكل موجاتٍ متعاقبةٍ من جند الإسلام الأوائل ، دلالةً قاطعةً على أنَّ دولة الإسلام في المدينة ـ وبقيادة النَّبيِّ القائد ﷺ ـ كانت مثل خلية النَّحل ، لا تهدأ ، ولا تَكِلُّ ، وإنَّ الباحث ليلحظ في حركة السَّرايا ، والبعوث ، والغزوات الكبرى في زمن النَّبيِّ ﷺ ، حرص الصَّحابة على المشاركة كقادة ، وجنود ، فكان ﷺ يعدُّهم لتثبيت دعائم الدَّولة ، والاستعداد للفتوحات المرتقبة ، والَّتي ما فتئ ﷺ يبشِّر بها أصحابه بين الفَيْنَة والأخرى في أوقات الحرب ، والسِّلم ، والخوف ، والأمن .

---

(١) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٢ .
(٢) انظر : سورة قريش (١ ـ ٤) .
(٣) انظر : المجتمع المدني ، د. أكرم ضياء العمري ، ص ٢٧ .
(٤) انظر : دراسات في السِّيرة ، لمؤنس ، ص ١٩ .
(٥) انظر : دراسات في عهد النُّبوة ، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٣١ .

إنَّه بنظرةٍ فاحصةٍ في قوَّاد وجنود تلك السَّرايا ، والبعوث ، تطالعنا أسماء لمعت كثيراً في تاريخ الفتح الإسلاميِّ فيما بعد؛ مثل: قائد فتوحات الشَّام ـ أمين الأمَّة ـ أبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسيَّة ، وفاتح المدائن ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الرُّوم في اليرموك ، وعمرو بن العاص فاتح مصر ، وليبيا ، وغيرهم رضي الله عنهم. لقد التحق خالدٌ ، وعمرٌو فيما بعد بحركة السَّرايا ، وقادا بعضها بعد إسلامهم. لقد كانت السَّرايا والغزوات الَّتي أشرف عليها الحبيب المصطفى ﷺ في حياته ، بمثابة تدريبٍ حيٍّ نابضٍ؛ بل يمكن اعتبارها دورات أركانٍ للقادة الَّذين فتحوا مشارق الأرض ، ومغاربها فيما بعد.

إنَّ حياة الصَّحابة رضي الله عنهم ، خلال الأربع والعشرين ساعةً اليوميَّة ، عبارةٌ عن تدريبٍ مستمرٍّ؛ فالبرنامج اليوميُّ المنتظم ، يبدأ مبكِّراً من صلاة الفجر ، الَّتي تُؤَدَّى في جماعةٍ مع قائدهم الأعلى ﷺ؛ الَّذي كان يحثُّهم على أداء هذه الصَّلاة جماعة وفي وقتها ، موضحاً لهم ، ولأمَّته أنَّها المِفْتاح العجيب ليوم مليءٍ بالنَّشاط والحيويَّة. قال ﷺ: «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ ، يضربُ مكان كلِّ عقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ ، فارقدْ ، فإن استيقظ ، فذكر الله؛ انحلَّت عقدةٌ ، فإن توضَّأ؛ انحلَّت عُقْدَةٌ ، فإن صلَّى؛ انحلت عُقَدُهُ كلُّها ، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفس كسلان» [البخاري (١١٤٢) ومسلم (٧٧٦)].

ثمَّ ينطلق كلٌّ منهم إلى عمله الَّذي تتخلَّله فترات الصَّلوات الباقية؛ حتَّى إذا ما صلَّوا الصَّلاة الآخرة (صلاة العشاء) ناموا ، حتى إذا ما أخذوا قسطاً وافراً من النَّوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه؛ قام معظمهم لأداء صلاة التَّهجُّد الَّتي تملأ قلوبهم روحانيَّةً ، وتكسبهم مزيداً من النَّشاط لأدائها في وقتٍ يكون الجسم فيه مرتاحاً.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدَّائم ، واليقظة التامَّة لمتطلبات دولة الإسلام ، فكانوا يقومون بنشاطاتٍ تدريبيَّةٍ مركَّزةٍ ، تتمثَّل في ركوب الخيل ، والسَّبق ، والرِّماية ، وكان النَّبيُّ ﷺ يحثُّهم على فعل ذلك؛ بل ويشاركهم فيه ، معطياً من نفسه القدوة ، وكان ﷺ يركِّز على تعلُّم الرِّماية كثيراً ، موضِّحاً أنَّها خير ما يعدُّ من قوَّةٍ استعداداً للكفَّار.

وكان ﷺ يشجِّعهم على الصِّناعة الحربيَّة ، المتمثِّلة في ذلك الوقت في صناعة الأسهم ، ويخبرهم: أنَّ الأجر الذي غايته الجنَّة ينسحب على صانعها ، والمتنبِّل بها ، والرَّامي بها ، فيروي لنا عقبة عن رسول الله ﷺ قوله: «إنَّ الله يُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنَّة: صانعُه؛ الَّذي احتسب في صنعته الخير ، ومتنبِّله[1] ، والرَّامي ، ارموا ، واركبوا ، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ

(١) المُتَنبِّل: هو الذي يناول السَّهم للرَّامي.

من أن تركبوا ، وليس من اللَّهو إلاَّ ثلاثة: تأديب الرَّجل فرسَه ، وملاعبته زوجتَه ، ورميه بنبله عن قوسه ، ومن عُلِّم الرَّمي ثُمَّ تركه ، فهي نعمةٌ كفرها» [أبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) والحاكم (٢/ ٩٥) والبيهقي في الشعب (٤٣٠١)].

فيا لَهُ من عصرٍ تمسَّك فيه الصَّحابة رضي الله عنهم بالتعاليم القرآنيَّة الرَّبَّانيَّة ، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وقاموا بتطبيقها حرفيّاً في شتَّى شؤون حياتهم ، فغزوا ، واستعلوا على أمم الأرض شرقاً ، وغرباً رغم قلَّتهم ، وبساطتهم! وحين ابتعد المسلمون عن تلك التَّعاليم ، وألقوا بها وراء ظهورهم؛ ركبهم الذُّلُّ ، والصَّغار ، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها؛ بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السَّيل.

إنَّ المهمَّات ، والأهداف الَّتي سعت لتحقيقها السَّرايا ، والبعوث كانت تتفاوت تَبعاً لاختلاف الظُّروف المحيطة والحادثة ، فكانت السَّرايا الأولى في معظمها عبارةً عن دورياتٍ استطلاعيَّة ، واستكشافيَّة ، وجسِّ نبضٍ ، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضيَّةٍ، تُوقع الرُّعب، والفزع في القوافل القرشيَّة ، وذلك قبل غزوة بدرٍ الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها؛ أصبحت مهمَّة بعض السَّرايا ، والبعوث تنصبُّ في تصفية الأفراد من أعداء الدَّولة الإسلاميَّة ، الَّذين يحاولون النَّيل من مسيرتها؛ مثل كعب بن الأشرف ، والعصماء بنت مَرْوَان ، وأبي عفك ، فكان في قَتْل كعب ردعٌ لليهود ، وقتل العَصْماء ، وأبي عفك ردعٌ للمشركين ، والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمور لغير صالح المسلمين بعد أُحدٍ؛ طمع الأعراب في خيرات المدينة ، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنَّهم غدروا ببعض البعوث التَّعليميَّة ـ كما في الرَّجيع ، وبئر معونة ـ غيَّر تبعاً لذلك رسول الله ﷺ (استراتيجيَّته) العسكريَّة ، فانتقل بالسَّرايا من قريشٍ إلى الأعراب؛ لتأديبهم بطريقةٍ صارمةٍ ، وسريعةٍ ، ومباغتةٍ ، وكان أهمَّ ما يمِّيز تلك السرايا ، هجومُها التَّعرضيُّ للأعراب قبل تحشُّدهم ، وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلَّت السَّرايا ، والبعوث النَّبويَّة تؤدِّي دورها ، وتقوم بمهامِّها الخاصَّة لخدمة أهداف الدَّعوة ، فمن دورياتٍ قتاليَّةٍ ، إلى سرايا تعقُّبيَّةٍ ، وأخرى تمويهيَّةٍ ، حتَّى إذا ما توطَّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكَّة ، اهتمَّ النَّبيُّ ﷺ بإزالة كلِّ ما يمتُّ للوثنيَّة بصلةٍ ، فبعث السَّرايا ، والبعوث من مكَّة لتحطيم بقيَّة رموز الشِّرك ، والوثنيَّة ، فانطلقت السَّرايا لتحطيم العُزَّى ،

ومناة ، واللاَّت ، وسُواع ، وذي الخَلصة[١] ، وغيرها من الأصنام ، والطَّواغيت الوثنيَّة[٢] .

وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، ثمَّ تحرَّكت الجيوش الرَّاشديَّة بعد وفاة الرَّسول ﷺ ؛ لنشر دين الله في المعمورة ، وإزالة كلِّ العوائق ، والقوى الَّتي تقف في وجه الدَّعوة .

لقد أدهشت النتائج السَّريعة الإيجابيَّة لحركة الفتوح الإسلاميَّة جميع المحلِّلين على اختلاف دياناتهم ، وأفكارهم ، ومشاربهم؛ ولكن ستزول دهشة المحلِّلين المنصفين ، عندما يقرؤون تلك التَّعاليم ، والوصايا النَّبويَّة لقوَّاد ، وجنود السَّرايا ، والبعوث ، والَّتي هي نواة حركة الفتوح الإسلاميَّة ، والَّتي صارت تتكرَّر على ألسنة الخلفاء ، وقادة جيوش الفتوح ، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[٣] .

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً؛ قال: «انطلقوا باسم الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأةً ، ولا تغلُّوا ، وضمُّوا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، إنَّ الله يحبُّ المحسنين» [أبو داود (٢٦١٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٩٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٤٣٠)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره؛ قال: «بَشِّروا ، ولا تُنَفِّروا ، ويَسِّرُوا ، ولا تُعَسِّرُوا» [مسلم (١٧٣٢) وأبو داود (٤٨٣٥) وأحمد (٤/ ٣٩٩)] .

* * *

---

(١) الخلصة: بفتح الخاء المعجمة واللاَّم ، بعدها مهملةٌ ، وحكى ابن دريد فتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وحكى ابن هشام ضمَّهما ، وقيل: بفتح أوله وضمِّ ثانيه ، والأوَّل أشهر ، وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٣٥٥).

(٢) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦١ ـ ٦٥).

(٣) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦٥ ـ ٦٦).

المبحث الخامس
استمرارية البناء التَّربويِّ والعلميِّ

كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدنيِّ مقدِّماتُ سورة البقرة ، الَّتي تحدَّثت عن صفات أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، وأهل النِّفاق ، ثمَّ إشارة لأهل الكتاب ـ اليهود والنَّصارى ـ وكان التَّركيز على بيان حقيقة اليهود؛ لأنَّهم الذين تصدَّوا للدَّعوة الإسلاميَّة من أوَّل يومٍ دخلت فيه المدينة ، وتتضمَّن سورة البقرة جانباً طويلاً منها لشرح صفة يهود ، وطباعهم(١) .

والملاحظ : أنَّ سورة البقرة ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المدنيِّ ـ كانت توجِّه الدَّعوة للنَّاس أجمعين أن يدخلوا في دين الله ، وأن يتوجَّهوا له بالعبادة . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] .

وكانت الآيات القرآنيَّة في العهد المدنيِّ تحذِّر المسلمين من الاتِّصاف بصفات المنافقين ، وتوضِّح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشئ والدَّولة الجديدة ، ولم تظهر حركة النِّفاق ضدَّ المجتمع ، والدَّولة المسلمة إلا في العهد المدنيِّ؛ لأنَّ المسلمين في مكَّة «لم يكونوا من القوَّة ، والنُّفوذ في حالةٍ تستدعي وجود فئةٍ من النَّاس ترهبهم ، أو ترجو خيرهم ، فتتملَّقهم ، وتَتَزَلَّف إليهم في الظَّاهر ، وتتآمر عليهم ، وتكيد لهم ، وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجهٍ عام . . والآيات تتضمَّن أوصاف ، وأخبار ، ومواقف المنافقين . والحملات عليهم كثيرةٌ جداً ، حتَّى لا تكاد تخلو سورةٌ مدنيَّةٌ منها ، وخاصَّةً الطَّويلة ، والمتوسطة ، وهذا يعني : أنَّ هذه الحركة ظلَّت طِيلَةَ العهد المدنيِّ تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأوَّل»(٢) .

واستمرَّ القرآن المدنيُّ يتحدَّث عن عظمة الله ، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقومات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر

---

(١) انظر : الظلال (١/ ٢٧) وما بعدها .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لدروزة (٢/ ٧٣ ـ ٧٦) نقلاً عن : دراسات في عهد النُّبوة ، د . عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٧٢ .

دعوة الله بين النَّاس قاطبةً(١) ، وتجاهد في سبيل الله .

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة تتطوَّر مع تطور مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة ، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم ، والَّذين يتعلَّمون ، ورُويت أحاديث عن تقدير الرَّسول ﷺ للعلم ، وتضمَّنت كتبُ الحديث أبواباً عن العلم .

لقد أيقنت الأمَّة : أنَّ العلم من أهم مقوِّمات التَّمكين ؛ لأنَّه من المستحيل أن يمكِّن الله تعالى لأمَّةٍ جاهلةٍ ، متخلِّفةٍ عن ركاب العلم . وإنَّ النَّاظر للقرآن الكريم ؛ ليتراءى له في وضوح : أنَّه زاخرٌ بالآيات الَّتي ترفع من شأن العلم ، وتحثُّ على طلبه وتحصيله ، فقد جعل القرآنُ الكريم العلم مقابلاً للكفر(٢) ؛ الذي هو الجهل ، والضَّلال . قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ٩] .

وإنَّ الشَّيء الوحيد ؛ الَّذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يطلب منه الزِّيادة هو العلمُ . قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] كما أنَّ أوَّل خاصِّيَّةٍ ميَّز الله تعالى بها آدم عليه السلام هي العلم . قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة : ٣١] .

واستمرَّ النَّبيُّ ﷺ في منهجه التَّربويِّ يعلِّم أصحابه ، ويذكِّرهم بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويحثُّهم على مكارم الأخلاق ، ويوضِّح لهم دقائق الشَّريعة ، وأحكامها ، وكان توجيهه ﷺ لأصحابه أحياناً فرديّاً ، ومرَّةً جماعيّاً ، وترك لنا الحبيب المصطفى ﷺ ، ثروةً هائلةً في وسائله التَّربويَّة في التَّعليم ، وإلقاء الدُّروس ، فقد راعى ﷺ الوسائل التَّربويَّة ؛ الَّتي تعين على الحفظ ، وحسن التلقِّي ، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ؛ فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النَّافعة(٣) في العهد المكيِّ ، والمدنيِّ :

أولاً : أهم هذه الوسائل والمبادئ التَّربوية :

١ ـ تكرار الحديث ، وإعادته :

فذلك أسهل في حفظه ، وأعون على فهمه ، وأدعى لاستيعابه ، ووعي معانيه ؛ ولذلك حَرَص النبي ﷺ على تكرير الحديث في غالب أحيانه ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، عن

(١) يقال : جاء القومُ قاطبةً : أي : جميعاً .
(٢) التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٦٢ .
(٣) انظر : مناهج وآداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

النَّبيِّ ﷺ: أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعادَها ثلاثاً؛ حتَّى تُفْهَمَ عنه، وإذا أتى على قومٍ، فسَلَّمَ عليهم؛ سَلَّمَ عليهم ثَلاثاً [البخاري (٩٥)].

٢ ـ التأنِّي في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان ﷺ يتأنَّى ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمةٍ، وأخرى، حتَّى يسهل الحفظ، ولا يقع التَّحريف والتَّغيير عند النَّقل، وبلغ من حرص النَّبيِّ ﷺ على ذلك: أنَّه كان يَسْهُل على السَّامع أن يَعُدَّ كلماته ﷺ؛ لو شاء[1]، فقد روى عروة بن الزُّبير ـ رحمه الله! ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: «ألا يُعجبُك أبو فلان «أبو هريرة»؟ جاء، فجلس إلى جانب حجرتي يُحَدِّث عن رسول الله ﷺ، يُسْمِعُني ذلك، وكنت أُسبِّحُ[2]، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي، ولو أدركتُهُ؛ لرددت عليه، إنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسَرْدِكم» [البخاري (٣٥٦٨)].

٣ ـ الاعتدال، وعدم الإملال، واختيار الوقت المناسب:

كان ﷺ يقتصد في تعليمه؛ في مقدار ما يلقيه، وفي نوعه، وفي زمانه؛ حتَّى لا يملَّ الصَّحابة، وحتَّى ينشطوا لحفظه، ويسهل عليهم عَقْلُهُ، وفهمه، فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلُنا[3] بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السَّآمةِ علينا [البخاري (٦٨)].

٤ ـ ضرب الأمثال:

للمثل أثرٌ بالغٌ في إيصال المعنى إلى العقل، والقلب؛ ذلك: أنَّه يقدِّم المعنويَّ في صورةٍ حسِّيَّةٍ، فيربطه بالواقع، ويقرِّبه إلى الذِّهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغةً تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصَّةٍ عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آياتٍ كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النَّبيُّ ﷺ، فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثلٍ»[4].

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحَدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ؛ لأحصاه، انظر: البخاريِّ رقم (٣٥٦٧).

(٢) أسبِّح: أصلي النَّافلة، وهي السُّبحة، وقيل: صلاة الضُّحى.

(٣) يتخوَّلنا: يتعهدنا.

(٤) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٦٥.

وقد أُلِّفت كتبٌ متعدِّدةٌ في الأمثال في الحديث النَّبويِّ؛ من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث)، للقاضي أبي محمَّد الحسن بن عبد الرَّحمن بن خلَّاد الرَّامَهُرْمُزِيِّ، (ت ٣٦٠هـ)(١).

٥ ـ طرح المسائل:

إنَّ طرح السُّؤال من الوسائل التربويَّة المهمَّة في ربط التَّواصل القويِّ بين السَّائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول، وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النَّشاط الذِّهنيِّ الكامل؛ ولذلك استخدم النَّبيُّ ﷺ السُّؤال في صورٍ متعدِّدةٍ لتعليم الصَّحابة؛ ممَّا كان له كبير الأثر في حسن فهمهم، وتمام حفظهم، فأحياناً يوجِّه النَّبيُّ ﷺ السُّؤال لمجرد الإثارة، والتَّشويق، ولفت الانتباه، ويكون السُّؤال عندئذٍ بصيغة التَّنبيه (ألا) غالباً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدَّرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فذلكم الرِّباط» [مسلم (٢٥١) ومالك في الموطأ (١/ ١٦١) والترمذي (٥١) والنسائي (١/ ٨٩) وابن ماجه (٤٢٨)].

وأحياناً يسألهم النَّبيُّ ﷺ عمَّا يعلم: أنَّهم لا علم لهم به، وأنَّهم سيكلُون علمه إلى الله، ورسوله؛ وإنَّما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه(٢)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له، ولا متاعَ. فقال: «إنَّ المفلس من أمَّتي، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دَمَ هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليه، ثمَّ طُرِح في النار» [مسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨)].

وأحياناً يسأل، فيحسن أحد الصَّحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشجيعاً له، وتحفيزاً لغيره، كما فعل مع أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا الْمُنْذِرِ! أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «يا أبا الْمُنْذر! أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله! ليَهْنِك العِلْمُ(٣) أبا المُنْذِرِ!» [مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأحمد (٥/ ١٤٢)].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥، وكلُّ وسائل التَّعليم النبويَّة اختصرتها من هذا الكتاب القيِّم.
(٢) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٦٧.
(٣) أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

فهذا الاستحسان، والتَّشجيع يبعث المتعلِّم على الشُّعور بالارتياح، والثِّقة بالنَّفس، ويدعوه إلى طلب، وحفظ المزيد من العلم، وتحصيله(١).

٦ ـ إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام، والدَّاعية إلى الاستفسار، والسُّؤال:

ومن ألطف ذلك، وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بالسُّوق، داخلاً من بعض العَالية، والنَّاس كُنَفَتَهُ(٢)، فمرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ(٣) ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثمَّ قال: «أيكم يحبُّ: أنَّ هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نحبُّ: أنَّه لنا بشيءٍ، وما نصنع به؟ قال: «أتحبُّون: أنَّه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنه أسَكُّ، فكيف، وهو ميتٌ؟! فقال: «فو الله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم» [مسلم (٢٩٥٧)].

٧ ـ استخدام الوسائل التوضيحيَّة:

كان النَّبيُّ ﷺ يستخدم ما يسمَّى اليوم بالوسائل التَّوضيحية؛ لتقرير، وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السَّامعين، وشغل كلِّ حواسِّهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه، ممَّا يساعد على تمام وعيه، وحسن حفظه بكلِّ ملابساته؛ ومن هذه الوسائل:

أ ـ التعبير بحركة اليد: كتشبيكه ﷺ بين أصابعه، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضاً»، وشبَّك بين أصابعه [البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥)].

ب ـ التعبير بالرَّسم: فكان ﷺ يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحيَّة، تسترعي نظر الصَّحابة، ثمَّ يأخذ في شرح مفردات ذلك التَّخطيط، وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً بيده، ثمَّ قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثمَّ قال: «وهذه سُبُلٌ ـ قال يزيد: متفرِّقةٌ ـ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] [أحمد (١/ ٤٣٥) والطيالسي (٢٤٤) والدارمي (٢٠٨) وابن حبان (٦ و٧)].

ج ـ التَّعبير برفع، وإظهار الشَّيء موضع الحديث، كما فعل ﷺ عند الحديث عن حكم لبس الحرير، والذَّهب، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله ﷺ أخذ حريراً، فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً، فجعله في شماله، ثمَّ قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي»

---

(١) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٦٩.
(٢) كنفته: يعني: عن جانبه، والكنف ـ بالتَّحريك ـ: النَّاحية، والجانب.
(٣) جدي أسكَّ: أي: صغير الأذنين.

[أبو داود (٤٠٥٧) والنسائي (٨/ ١٦٠)] ، وزاد في رواية: «حلٌّ لإناثهم» [المصدران السابقان] ، فجمع النَّبيُّ ﷺ بين القول ، وبين رفع الذَّهب ، والحرير ، وإظهارهما ، حتَّى يجمع لهم السَّماع ، والمشاهدة ، فيكون ذلك أوضحَ ، وأعونَ على الحفظ.

د ـ التَّعليم العمليُّ بفعل الشَّيء أمام النَّاس ، كما فعل عندما صَعِدَ ﷺ المنبرَ ، فصلَّى بحيث يراه النَّاس أجمعون ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: رأيت رسولَ الله ﷺ قام على المنبر ، فاستقبل القبلة ، وكبَّر ، وقام النَّاس خلفه ، فقرأ وركع ، وركع النَّاس خلفه ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى[١] ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرَى ، حتَّى سجد بالأرض ، فلمَّا فرغ؛ أقبل على الناس ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بي ، ولَتَعلَّموا[٢] صلاتي» [البخاري (٣٧٧)] .

٨ ـ استعمال العبارات اللَّطيفة ، والرَّقيقة:

إنَّ استعمال لطيف الخطاب ، ورقيق العبارات يؤلِّف القلوب ، ويستميلها إلى الحقِّ ، ويدفع المستمعين إلى الوعي ، والحفظ ، فقد كان ﷺ يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارةٍ لطيفةٍ رقيقةٍ ، وبخاصَّةٍ إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُسْتَحيا من ذكره ، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة؛ إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين ، يُعلِّمهم؛ شفقةً بهم[٣] ، فقد قال ﷺ : «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط؛ فلا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه» [أبو داود (٨)] .

لقد راعى المعلِّم الأوَّل ﷺ جملةً من المبادئ التَّربويَّة الكريمة؛ كانت غايةً في السُّموِّ الخُلُقيِّ ، والكمال العقليِّ ، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصَّحابة ، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم ، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربويةٍ كريمةٍ[٤] ، وهذه بعض المبادئ الرَّفيعة الَّتي استعملها النَّبيُّ ﷺ :

أ ـ تشجيع المحسن ، والثناء عليه:

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم ، والعمل؛ مثلما فعل مع أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ حين أثنى على قراءته ، وحسن صوته بالقرآن الكريم . فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ :

---

(١) القهقَرى: المشي إلى خلف ، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.
(٢) ولتعلَّموا: أي: لتتعلموا ، فحذف إحدى التاءين.
(٣) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة في التعلُّم والتَّعليم ، ص ٧٤.
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥.

أن النبي ﷺ قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مَزَاميرِ آل داود» [البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)] .

ب ـ الإشفاق على المخطئ ، وعدم تعنيفه:

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدِّر ظروف النَّاس ، ويراعي أحوالهم ، ويعذرهم بجهلهم ، ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم ، ويترفَّق في تعليمهم الصَّواب ، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ قلب المنصوح حبّاً للرِّسالة ، وصاحبها ، وحرصاً على حفظ الواقعة ، والتَّوجيه ، وتبليغهما ، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التَّصرُّف ، والتَّوجيه الرَّقيق مهيَّأةً لحفظ الواقعة بملابساتها كافَّةً[١]؛ ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ ؛ إذ عَطَس رجلٌ من القوم ، فقلت: يرحمُك الله! فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ![٢] ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني ، لكنِّي سكتُّ ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو ، وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ، ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ، فو الله! ما كَهَرَني[٣] ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، قال: «إن هذه الصَّلاة لا يَصْلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاس؛ إنَّما هو التَّسبيح ، والتَّكبير ، وقراءة القرآن» [مسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠ و٩٣١) والنسائي (٣/ ١٤ ـ ١٨) وأحمد (٥/ ٤٤٧)] .

فانظر ـ رحمك الله! ـ إلى هذا الرِّفق البالغ في التَّعليم! وانظر أثر هذا الرِّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه ، وتأثُّره بحسن تعليمه ﷺ ! .

ج ـ عدم التَّصريح ، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يُذمُّ:

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطئ ، والتَّأكيد على عموم التَّوجيه؛ ومن ذلك ما حَدَثَ مع عبد الله بن اللُّتْبيَّة رضي الله عنه حين استعمله النَّبيُّ ﷺ على صدقات بني سُلَيْم ، فقبل الهدايا من المتصدِّقين ، فعن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: استعمل رسولُ الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سُلَيْم ، يُدعى ابن اللُّتْبيَّة ، فلمَّا جاء حاسبه ﷺ ، فقال: هذا مالُكم ، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله ﷺ : «فَهَلاَّ جلستَ في بيت أبيك وأمِّك حتَّى تأتيك هديَّتُك؛ إن كنت صادقاً؟» ثمَّ خطبنا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ ، فإنِّي أستعمل الرَّجل منكم على العمل ممَّا ولاَّني الله ، فيأتي ، فيقول: هذا مالُكم ، وهذا هديةٌ أُهديت لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيه هديَّتُه؟ والله! لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقِّه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة ، فلأعرفنَّ

---

(١) المصدر السابق نفسه . ص ٨٦ .

(٢) وا: حرف للنُّدبة والحسرة ، والثكل: فقدان المرأة ولدها ، وأمِيَّاه ـ هو بكسر الميم ـ: أي: يا أمَّاه .

(٣) ما كَهرني: أي: ما انتهرني .

أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رُغَاءٌ ، أو بقرةً لها خُوارٌ ، أو شاةً تَيْعَرُ»[1] ثُمَّ رفع يديه؛ حتَّى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «اللَّهمَّ! هل بلَّغتُ؟ بَصْرَ عيني ، وسَمْعَ أذني» [البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢/ ٢٧)] .

د ـ الغضب ، والتَّعنيف؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمَّة:

وذلك كأن يحدث خطأٌ شرعيٌّ من أشخاصٍ لهم حيثيَّةٌ خاصَّةٌ ، أو تَجَاوَزَ الخطأُ حدود الفَرديَّة ، والجزئيَّة ، وأخذ يمثِّل بداية فتنةٍ ، أو انحرافٍ عن المنهج؛ على أنَّ هذا الغضب يكون غضباً توجيهيّاً ، من غير إسفافٍ ، ولا إسرافٍ؛ بل على قدر الحاجة؛ ومن ذلك غضبه ﷺ حين أتاه عمر؛ ومعه نسخةٌ من التَّوراة؛ ليقرأها عليه ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخةٍ من التَّوراة ، فقال: يا رسولَ الله! هذه نسخةٌ من التَّوراة. فسكت ، فجعل يقرأ ووجهُ رسول الله ﷺ يتغيَّر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ثكلتك الثَّواكلُ! ما ترى بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ ، فقال: أعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسوله ، رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّدٍ نبيّاً. فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفس محمَّدٍ بيده! لو بدا لكم موسى ، فاتبعتموه ، وتركتموني؛ لضَلَلْتُم عن سواء السَّبيل ، ولو كان حيّاً ، وأدرك نبوَّتي؛ لاتَّبعني» [أحمد (٣/ ٣٣٨ و٣٨٧) والبزار (١٢٤)] .

ومن ذلك غضبه ﷺ من تطويل بعض أصحابه الصَّلاة ، وهم أئمَّةٌ بعد أن كان ﷺ قد نهى عن ذلك؛ لما فيه من تعسيرٍ ، ومشقَّةٍ ، ولما يؤدِّي إليه من فتنةٍ لبعض الضُّعفاء ، والمعذورين ، وذوي الأشغال ، فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله! لا أكاد أُدركُ الصَّلاةَ ممَّا يُطولُ بنا فلانٌ. فما رأيت النَّبيَّ ﷺ في موعظةٍ أشدَّ غضباً من يومئذٍ ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّكم مُنفِّرون ، فمن صلَّى بالنَّاس فلْيُخفِّف؛ فإنَّ فيهمُ المريض ، والضَّعيفَ ، وذا الحاجة» [البخاري (٩٠) ومسلم (٤٦٦)] .

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة ، وتجادلهم في القَدرِ ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه؛ وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يُفقأ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب ، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعضٍ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم» [ابن ماجه (٨٥)] .

ومن ذلك غضبه ﷺ حين يخالف الصَّحابة أمرَه ، ويُصرُّون على المغالاة في الدِّين ، والتَّشديد على أنفسهم ، ظناً منهم: أنَّ ذلك أفضلُ ممَّا أُمروا به ، وأقرب إلى الله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم؛ أمرهم من الأعمال بما يُطِيقون ، قالوا: إنَّا

(١) الرُّغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها ، والخوار: صوت البقر ، وتيعر: يعني: تصيح.

لسنا كهيئتك يا رسولَ الله! إنَّ الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك ، وما تأخَّر ، فيغضبُ ، حتَّى يُعْرفَ في وجهه الغضبُ ، ثمَّ يقول: «إنَّ أتقاكُم وأعلمُكم بالله أنا» [البخاري (٢٠)] .

ولم يكن غضب النَّبيِّ ﷺ في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيّاً ، وتعليميّاً؛ تحريضاً للصَّحابـة على التَّيقُّظ ، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء ، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان؛ لأنَّ مقامه يقتضي تكلُّف الانزعاج؛ لأنَّه في صورة المُنْذِر ، وكذا المعلِّم إذا أنكر على مَنْ يتعلَّم منه سوءَ فهمٍ ونحوه؛ لأنَّه قد يكون أدعى للقبول منه ، وليس ذلك لازماً في حقِّ كلِّ أحدٍ؛ بل يختلف باختلاف أحوال المتعلِّمين»[(١)] .

هـ ـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة :

كان ﷺ تحدث أمامه أحداثٌ معيَّنةٌ ، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنًى معينٍ يريد تعليمه للصَّحابة ، ومشاكلته لتوجيهٍ مناسبٍ يريد بثَّه لأصحابه ، وعندئذٍ يكون هذا المعنى ، وذلك التَّوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النَّبيِّ ﷺ سَبْيٌ[(٢)] ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلُبُ ثَدْيَها[(٣)] تسقي[(٤)] ، إذا وجدت صبيّاً في السَّبي؛ أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «أَتُـرَوْن[(٥)] هذه طارحةً ولدها في النَّار؟» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تَطرَحَهُ[(٦)] ، فقال: «للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها!» [البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤)] .

«فانتهز ﷺ المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه ، والمشهود فيها حنان الأمِّ الفاقدة رضيعها؛ إذ وجدته ، وضرب بها المشاكلةَ والمشابهةَ برحمة الله تعالى؛ ليُعرِّف النَّاسَ رحمةَ ربِّ النَّاس بعباده»[(٧)] .

ثانياً: من أخلاق الصَّحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنَّبيِّ ﷺ :

حَرَصَ الصَّحابة رضي الله عنهم على الالتزام بآداب ومبادئ مهمَّة ، كان لها عظيمُ الأثر في

---

(١) فتح الباري (١/ ١٨٧) .
(٢) السَّبْيُ: الأسرى .
(٣) تَحْلُبُ ثديَها ، وفي لفظٍ آخر: تَحَلَّبَ ثديُها ، أو ثدياها: أي: تهيأ لأن يُحْلَبَ .
(٤) تسقي: تبتغي ولداً ترضعه؛ لأنَّ ثديها قد امتلأ ، وتضرَّرت باجتماع اللبن فيه ، وفي روايةٍ (تسعى): وهو من السَّعي ، وهو المشي بسرعة ، أي: تسعى للبحث عن ولدها الَّذي فُقِدَ منها .
(٥) أتُرَوْنَ ـ بضم المثناة ـ: أي: أتظنُّون .
(٦) أي: لا تطرحه ما دامت تقدر على حفظه معها ووقايته وعدم طرحه في النَّار .
(٧) الرَّسول المعلِّم ﷺ ، لعبد الفتاح أبو غدة ، ص ١٦٠ ، وهذا المبحث اختصرته من مناهج وآداب الصَّحابة في التعلم والتعليم ، للدُّكتور عبد الرحمن البر .

حسن الحفظ ، وتمام الضَّبط ، وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للنَّاس؛ ومن هذه الآداب ، والأخلاق:

١ ـ الإنصات التَّامُّ ، وحسن الاستماع:

فقد كان رسولُ الله ﷺ أجلَّ في نفوس الصَّحابة ، وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدَّث ، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم ، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته؛ وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم ، ويشهدون عقولهم ، وقلوبهم ، ويحفزون ذاكرتهم ، فعن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في الحديث عن سيرته ﷺ في جلسائه ، قال: «. . . وإذا تكلَّم؛ أطْرَقَ جلساؤه ، كأنَّما على رؤوسهم الطَّير ، فإذا سكت؛ تكلَّموا. . . . » [الشمائل للترمذي (٣٥٢)] .

قال الشَّيخ عبد الفتاح أبو غدَّة ـ رحمه الله ـ: «أصله: أنَّ الغراب يقع على رأس البعير ، فيلقط منه القُراد ، فلا يتحرَّك البعير حينئذٍ؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القُراد في رأس البعير فيؤلمه ، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»(١) .

وأيّاً ما كان أصل المثل ، فهو يدلُّ على السُّكون التَّامِّ ، والإنصات الكامل ، هيبةً لرسول الله ﷺ ، وتعظيماً له ، وإجلالاً لحديثه(٢) .

٢ ـ ترك التَّنازع وعدم مقاطعة المتحدِّث حتَّى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب ، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين ، وإقبال بعضهم على بعضٍ ، والمعين على سهولة الفهم ، والتَّعلم؛ ففي حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه السَّابق في سيرته ﷺ في جلسائه ، قال: «لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلَّم عنده أنصتوا له حتَّى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أوَّلهم. . . » [سبق تخريجه] ، أي: أنَّ من بدأ منهم الحديث والكلام ، سكتوا حتَّى يفرغ أوَّلاً من حديثه ، ولم يقاطعوه ، أو ينازعوه ، وبذلك يبقى المجلس على وقاره ، وهيبته ، ولا تختلط فيه الأصوات ، ولا يحصل أدنى تشويش(٣) .

٣ ـ مراجعته ﷺ فيما أشكل عليهم حتَّى يتبيَّن لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله ﷺ ، وشدَّة تعظيمهم له ، لم يكونوا يتردَّدون في مراجعته ﷺ ؛ لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمُه ، حتَّى يسهل حفظه بعد ذلك ، ولاشك أنَّ هذه المراجعة تعين على تمام الفهم ، وحضور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النَّبيُّ ﷺ : «إنِّي لأرجو ألا يدخلَ النَّار أحدٌ إن شاء الله ـ ممَّن شهد بدراً ، والحديبية» ، قالت:

---

(١) انظر: الرَّسول المعلم ﷺ وأساليبه في التَّعليم ، ص ٣٠ .
(٢) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة ، ص ٧٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٧ .

قلت: يا رسول الله! أليس قد قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، قال: «ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]» [أحمد (٦/ ٢٨٥) وابن ماجه (٢٨١)].

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أُنَيْسَ رضي الله عنهم؛ الَّذي رحل جابرٌ إليه فيه، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد ـ أو قال: النَّاس ـ عُراةً غُرْلاً[1] بُهْماً» قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيءٌ، ثمَّ يناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعُد، كما يسمعه مَنْ قَرُب: أنا الملك، أنا الدَّيَّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّة أن يدخل الجنَّة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النَّار، وعنده مظلمةٌ، حتَّى أُقِصَّه[2] منه، حتى اللَّطمة»، قال: قلنا: كيف ذا، وإنَّما نأتي الله غُرْلاً بُهماً؟ قال: «بالحسنات والسَّيِّئات» قال: وتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] [البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وأحمد (٣/ ٤٩٥) والحاكم (٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) ومجمع الزوائد (١/ ١٣٣)].

وهكذا استفهم الصَّحابة عمَّا خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثرٌ كبيرٌ في الفهم، والوعي، والحفظ[3].

٤ ـ مذاكرة الحديث:

كان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئاً من النَّبيِّ ﷺ، وحملوا عنه علماً؛ جلسوا، فتذاكروه فيما بينهم، وتراجعوه على ألسنتهم؛ تأكيداً لحفظه، وتقويةً لاستيعابه، وضبطه، والعمل به، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنَّا نكون عند النَّبي ﷺ، فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا؛ تذاكرناه فيما بيننا، حتى نحفظه»[4]. وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصَّحابة حتَّى بعد وفاته ﷺ؛ فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة ـ رحمه الله ـ! قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا؛ تذاكروا العلم، وقرؤوا سُورَةً»[5].

---

(١) غُرْلاً: جمع أغرَل، وهو الأقلف، والغُرْلَة: القُلفة، والقُلفة: هي القطعة التي تُقطع من الذَّكر عند الختان.
(٢) أقِصَّه: أمكِّنَهُ من أخذ القصاص ممَّن ظلمه.
(٣) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٨٠.
(٤) أخرجه الخطيب في الجامع (١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.
(٥) أخرجه الخطيب في الجامع (٢/ ٨٦) رقم (١٢٢٩)، والسَّمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، ص ٤٨.

٥ ـ السُّؤال بقصد العلم، والعمل[١]:

كانت أسئلة الصَّحابة بقصد العلم، والعمل، لا للعبث، واللعب، فكانت أسئلتهم مشفوعةً بهذا القصد؛ لِمَا علموا من كراهة النَّبيِّ ﷺ للمسائل العبثيَّة الَّتي لا يُحتاج إليها، ولِمَا سمعوا من تحذيره ﷺ من كثرة السُّؤال، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: «كَرِه رسولُ الله ﷺ المسائلَ، وعابَها»[٢].

قال النَّوويُّ: «المراد: كراهة المسائل الَّتي لا يُحْتاج إليها، لاسيَّما ما كان فيه هتك ستر مسلمٍ، أو إشاعةُ فاحشةٍ، أو شناعةٍ على مسلمٍ، أو مسلمةٍ، قال العلماء: أمَّا إذا كانت المسائل ممَّا يُحتاج إليه في أمور الدِّين، وقد وقع، فلا كراهة فيها»[٣].

٦ ـ ترك التنطُّع، وعدم السُّؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقاً لتحذير النَّبيِّ ﷺ من ذلك، وتشديده على المتنطِّعين، ونهيه عن مجالستهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الَّذين يتَّبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الَّذين سَمَّى الله؛ فاحذروهم!» [البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥)].

٧ ـ ترك السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع:

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب، فلم يتكلَّفوا السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع؛ حتَّى لا يؤدِّي السُّؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشَّرع، أو تحريم ما لم يحرِّمه؛ فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التَّضييق على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وحذَّر الرَّسول ﷺ من مثل ذلك؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحرَّمْ، فحُرِّمَ من أجل مسألته» [البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)].

---

(١) انظر: مناهج وآداب الصَّحابة، ص ٩٦.
(٢) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسنادٍ صحيح في كتاب العلم، ص ٢٠، رقم (٧٧).
(٣) شرح النَّوويِّ على مسلم (٣/ ٧٤١) طبعة الشَّعب.

٨ ـ اغتنام خلوة رسول الله ﷺ ، ومراعاة وقت سؤاله :

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب للسُّؤال ؛ ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته ﷺ ؛ حتَّى لا يكون في السؤال إثقالٌ ، أو إرهاقٌ أو نحو ذلك ؛ فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال : «كان النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّى الفجر ؛ انحرفنا إليه ، فمنَّا من يسأله عن القرآن ، ومنَّا من يسأله عن الفرائض ، ومنَّا من يسأله عن الرُّؤيا» [مجمع الزوائد : (١/ ١٥٩)] .

٩ ـ مراعاة أحواله ﷺ وعدم الإلحاح عليه بالسُّؤال :

وبخاصَّةٍ ، بعد أن نُهُوا عن السُّؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله ﷺ ، ويتحيَّنون ، وينتظرون مجيْ العقلاء منهم؛ ليسألوا رسول الله ﷺ ، وهم يسمعون؛ فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : نُهِينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ ، فكان يُعجِبنا أن يجيء الرَّجلُ من أهل البادية العاقلُ ، فيسأله ، ونحن نسمع ، فجاء رجلٌ من أهل البادية ، فقال : يا محمد! أتانا رسولك ، فزعم لنا أنَّك تزعم : أنَّ الله أرسلك . قال : «صدق» . . . . الحديث [مسلم (٩٢) وأبو داود (٤٨٦) والترمذي (٦١٩) والنسائي (٤/ ١٢١ ـ ١٢٢) وأحمد (٣/ ١٤٣ و١٩٣)] .

وهكذا استمرَّ البناء التَّربويُّ في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليَّة الواضحة ، منسجماً مع غرس فريضة التعلُّم ، والتَّعليم بين أفراد المجتمع المسلم ، فكانت تلك التَّوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم ، والأمَّة المسلمة ، والدَّولة المسلمة الَّتي أسَّسها رسولُ الله ﷺ ، وهذا جزءٌ من كلٍّ ، وغَيْضٌ من فَيْضٍ ، وتذكيرٌ ، وتنبيهٌ لأهميَّة استمرار البناء التَّربويِّ ، والعلميِّ في الأمَّة ، حتَّى بعد قيام الدَّولة .

* * *

المبحث السَّادس
أحداثٌ وتشريعات

أولًا: معالجة الأزمة الاقتصاديَّة:

أدَّت هجرة المسلمين إلى المدينة، إلى زيادة الأعباء الاقتصاديَّة الملقاة على عاتق الدَّولة النَّاشئة، وشرع القائد الأعلى ﷺ يَحُلُّ هذه الأزمة بطرقٍ عديدةٍ، وأساليب متنوعةٍ، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ؛ لاستيعاب أكبر عددٍ ممكنٍ من فقراء المهاجرين، واهتمَّ ﷺ بدراسة الأوضاع الاقتصاديَّة في المدينة؛ فرأى: أنَّ القوَّة الاقتصاديَّة بيد اليهود، وأنَّهم يملكون السُّوق التِّجاريَّة في المدينة، وأموالها، ويتحكَّمون في الأسعار والسِّلع، ويحتكرونها، ويستغلُّون حاجة النَّاس، فكان لابدَّ من بناء سوقٍ للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثَّروة، والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام، وأخلاقه الرَّفيعة في عالم التِّجارة، فحدَّد ﷺ مكاناً للسُّوق في غرب المسجد النَّبوي، وخَطَّه برجله، وقال: «هذا سوقُكم، فلا ينتقصنَّ، ولا يضربنَّ عليه خراجٌ» [ابن ماجه (٢٢٣٣)].

وقد قامت السُّوق في عهده ﷺ رَحْبةً واسعةً، وقد حظي السُّوق باهتمام النَّبيِّ ﷺ، ورعايته، فتعهَّده بالإشراف، والمراقبة، ووضع له ضوابطَ، وسنَّ له آداباً، وطهَّره من كثيرٍ من بُيُوع الجاهليَّة؛ المشتملة على الغَبْنِ، والغَرَرِ(١)، والغشِّ، والخداع، كما عُنِي ﷺ بحرِّيته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشِّراء، بين الجميع على السَّواء(٢).

وقد أرسى ﷺ آداباً كثيرة، وحرماتٍ عديدةً لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك، وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوةً لأسواق الأمَّة على مَرِّ الدُّهور، وكَرِّ العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملةً من الآداب الَّتي كان يأمر بها،

---

(١) أي: بيع ما يجهله المتبايعان، أو ما لا يُوثَقُ بتسلُّمه، كبيع السَّمك في الماء.

(٢) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام، لأحمد الدرويش، ص ٣٥، ٣٦.

أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السُّوق ، وإشرافه عليه ، ومتابعته سير المعاملات فيه ، فقد كان ﷺ لا يرى منكراً إلا غيَّره ، وأزاله ، ولا معروفاً إلا أقرَّه ، ورغب في المواظبة عليه ، والالتزام به ، مستمدّاً كلَّ ذلك من توجيهات ، وتعليمات ربِّه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] .

ومن هذه الآداب :

١ ـ يُسَنُّ في حقِّ الدَّاخل إلى السُّوق أن يذكر الله ـ تعالى ـ ابتداءً ، ويحمده ، ويثني عليه؛ وذلك لما ورد عنه ﷺ : أنَّه قال : «مَنْ دخل السُّوق ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ، ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كتب الله له ألف حسنةٍ ، ومحا عنه ألف سيئةٍ ، ورفع له ألف درجةٍ ، وبنى له بيتاً في الجنة» [الترمذي (٣٤٢٨) وابن ماجه (٢٢٣٥) والحاكم (١/ ٥٣٨)] .

«وإنَّما خصَّ السُّوق بالذِّكر؛ لأنَّه مكان الغفلة عن ذكر الله ، والاشتغال بالتِّجارة ، فهو في موضع سلطنة الشَّيطان ، ومجمع جنوده ، فالذِّكر هنا يحارب الشَّيطان ، ويهزم جنوده؛ فمن قال ذلك فهو خليقٌ بما ذُكر من الثَّواب»(١) .

٢ ـ يُكره لمن دخل السُّوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج؛ فقد ورد في صفته ﷺ : أنَّه : «ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سَخَّابٍ(٢) في الأسواق ، ولا يدفع بالسَّيئةِ السَّيئةَ ، ولكن يعفو ، ويغفرُ» [البخاري (٢١٢٥)] . فالصَّخَب مذمومٌ بذاته ، فكيف إذا كان في الأسواق؛ الَّتي هي مجمع النَّاس من كلِّ جنسٍ؟!(٣) .

٣ ـ ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق ، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار ، والأوساخ؛ لكي لا يُؤْذَى المسلمون في حركة سيرهم ، ولا بالرَّوائح الكريهة ، وقد حثَّ ﷺ على النَّظافة ، ونهى عن عدمها؛ وخاصَّةً في طرقات النَّاس ، وأسواقهم؛ وذلك لما فيها من الضَّرر ، قال ﷺ : «اتَّقوا اللَّعَّانَيْنِ»(٤) قالوا : وما اللَّعَّانَانِ يا رسولَ الله؟! قال : «الَّذي يَتَخَلَّى في طريق النَّاس ، أو في ظِلِّهم» [مسلم (٢٦٩) وأبو داود (٢٥)] .

٤ ـ الاحتراز في حمل السِّلاح لمن دخل السُّوق ، ومعه سلاحٌ؛ فقد ثبت عنه ﷺ : أنَّه قال : «إذا

---

(١) تحفة الأحوذي ، بشرح جامع التِّرمذيِّ (٩/ ٣٨٦) .
(٢) السَّخَب ، ويقال : الصَّخَب : رفع الصَّوت بالخصام .
(٣) انظر : أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٤١ .
(٤) اللَّعَّانَيْن : المراد بها الأمرين الجالبين لِلَّعن ، الحاملين النَّاس عليه ، وقد يكون اللاَّعن بمعنى الملعون ، والتَّقدير : اتقوا الأمرين الملعون فاعلهما .

مرَّ أحدكم في مسجدنا ، أو في سوقنا ، ومعه نَبْلٌ[(١)] فَلْيُمْسِكْ على نِصَالها[(٢)] ـ أو قال : فليقبضْ بكفِّه ـ أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [البخاري (٧٠٧٥) ومسلم (٢٦١٥)] ويقاس عليه الأسلحة ، مع ما فيها من خطرٍ محقَّقٍ عند أدنى ملامسةٍ لها[(٣)] .

٥ ـ الأمر بالوفاء بالعقود ، والعهود ، وسائر الالتزامات ، والتَّحذير من نقضهما ، أو الغدر فيهما ، قال تعالى : ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل : ٩١] .

٦ ـ السُّهولة ، واليسر ، والمسامحة في البيع ، والشِّراء ، ونحوهما من صنوف التِّجارة ، قال ﷺ : «رَحِمَ اللهُ عبداً سَمْحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى» [البخاري (٢٠٧٦) والترمذي (١٣٢٠) وابن ماجه (٢٢٠٣)] .

٧ ـ الصِّدقُ ، والبيانُ ، وعدم الكتمانِ من أهمِّ الآداب الَّتي يجب أن تسري بين النَّاس في معاملاتهم؛ فقد أثنى ﷺ على التَّاجر الصَّادق في معاملته ، الأمين في أخذه ، وعطائه ، وبيَّن : أنَّه يُحْشر يوم القيامة مع النَّبيِّين ، والصِّديقين ، والشُّهداء ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ، قال ﷺ : «التَّاجر الصَّدوق الأمين ، مع النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء» [الترمذي (١٢٠٩)] وفي لفظٍ : «يوم القيامة» [ابن ماجه (٢١٣٩)] .

٨ ـ وجوب الابتعاد عن الأَيْمان الكاذبة ، فقد قال ﷺ : «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ[(٤)] للسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ للرِّبْح» [البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦)] ، وقال ﷺ : «إيَّاكم وكَثرةَ الْحلِفِ في البيع! فإنَّه يُنْفِقُ ، ثمَّ يَمْحَقُ» [مسلم (١٦٠٧) والنسائي (٧/٢٤٦) وابن ماجه (٢٢٠٩)] . «فالحالف يروِّج سلعته ، وينفقها ، لكن هذا الرَّواج ، وذلك الإنفاق موضعٌ لنقصان البركة ، ومظنَّةٌ له في المال ، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها؛ إمَّا سرقاً ، أو حرقاً ، أو غرقاً ، أو غصباً ، أو نهباً ، أو عوارض يُنفَق فيها من أمراضٍ وغيرها»[(٥)] .

هذه بعض الآداب والتَّوجيهات النَّبويَّة ، تتعلَّق بآداب التَّعامل في السُّوق الإسلاميِّ ؛ ممَّا كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين ، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن

---

(١) النَّبل : السِّهام العربيَّة ، ولا واحد لها من لفظها.
(٢) النَّصْل : حديدة السَّهم ، والرُّمح ، والسَّيف ما لم يكن له مقبض .
(٣) انظر : أحكام السُّوق ، ص ٤٤ .
(٤) مَنْفَقَة ، ومَمْحَقة : فيه النَّهي عن الحَلِف في البيع ؛ فإنَّ الحلف من غير حاجةٍ مكروهٌ ، وينضمَّ إليه ترويج السِّلعة ، وربما اغترَّ المشتري باليمين .
(٥) شرح السُّيوطي على سنن النَّسائي (٧/ ٢٤٦) .

يسيطروا على الاقتصاد في المدينة ، ويتحكَّموا فيه ، وهكذا قهروا اليهود في أدقِّ اختصاصاتهم[١] .

ولقد تطوَّرت تلك التعاليم ، والآداب مع توسُّع الدَّولة ، ونزول التَّشريعات ، وأصبح للتِّجارة علمٌ ، وفقهٌ ، ومبادئ ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : «لا يبيعُ في سوقنا إلا مَنْ تفقَّه في الدِّين»[٢] .

إنَّ للأسواق في الإسلام مكانةً عاليةً ، ومنزلةً ساميةً؛ وذلك نظراً لأهمِّيتها الماليَّة والاقتصاديَّة في حياة النَّاس؛ حيث إنَّها موضع التَّعامل ، والمبادلات فيما بينهم ، وعن طريقه يحصل كلُّ فردٍ على أموره المعيشية ، وحاجته الضَّروريَّة ، ومستلزماته الخاصَّة والعامَّة ، ولذلك حظي السُّوق الإسلاميُّ بالتَّوجيهات النَّبويَّة[٣] .

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن آفةٍ اقتصاديةٍ ، واجتماعيَّةٍ خطيرةٍ ، أثَّرت على دين النَّاس ، ودنياهم ، ألا وهي نقص الميزان ، والمكيال ، فقد كان هذا العمل يخالف ، ويناقض النَّهج الَّذي أنزله الله من عنده؛ ليتعامل الناس بمقتضاه ، ذلك النَّهج هو العدل في كلِّ شيءٍ. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] والميزان: هو العدل[٤] ، والموازين ، والمكاييل آلاتٌ لإقامة العدل؛ ولذا أمر الله بإيفائها ، ونهى عن نقصها .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] .

وتوعَّد اللهُ المطفِّفين بالويل ، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١ ـ ٥] .

فتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من قصَّة شعيبٍ: أنَّ نقص الميزان ، والمكيال تعطيلٌ للمنهج الإلٰهيِّ ، ومخالفةٌ للأوامر الرَّبَّانيَّة ، وتعرُّضٌ لسخط الجبَّار ، وعذابه في الدُّنيا ، والآخرة .

---

(١) في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ـ الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٧٠ .
(٢) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٣ .
(٣) انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٨٥ ، ٥٨٦ .
(٤) انظر: زاد المسير ، لابن الجوزي (٧/ ٧٧).

إنَّ هذا العمل له ضَرَرهُ على دنيا النَّاس؛ لأنَّه يجلب الشِّدَّة بدل الرَّخاء، وغلاء الأسعار بدل رخصها، ويؤدِّي إلى إضرارٍ بمعايش النَّاس؛ ولذلك حاربته الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة(١).

إنَّ نقص المكيال، والميزان، كان من الأسباب التي أدَّت إلى هلاك قوم شعيبٍ، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

كانت قصَّة شعيبٍ مع قومه من ضمن المنهاج النَّبويِّ في تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه؛ ولذلك فهموا: أنَّ الانحراف عن المنهج الرَّبانيِّ معناه الدَّمار، والهلاك، وأنَّ شموليَّة هذا الدِّين تدخل في شؤون حياتهم كافَّةً.

إنَّ المنهج الرَّبانيَّ، عالج المشكلة الاقتصاديَّة عن طريق القصص القرآنيِّ، لكي يتَّعظ النَّاس، ويعتبروا بِمَنْ مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التَّشريعيَّ التَّعبديَّ، الَّذي له أثرٌ في البناء التَّنظيميِّ التَّربويِّ، فقد كان المولى - عزَّ وجلَّ - يرعى هذه الأمَّة، وينقل خطاها؛ لكي تكون مؤهَّلةً لحمل الأمانة، وتبليغ الرِّسالة، ولا فرق في وسط هذه الدَّولة بين الأمور الصَّغيرة، والأمور الكبيرة؛ لأنَّها كلَّها تعمل لرفع بنائها، ووقوفها شامخةً أمام الأعاصير الَّتي تحتمل مواجهتها؛ ومن هذه الشعائر التعبُّديَّة التي فُرِضت في السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزَّكاة، وزكاة الفطر، والصِّيام، ونلاحظ سنَّة التَّدرُّج في بناء المجتمع المسلم، ومراعاته لواقع النَّاس، والانتقال بهم نحو الأفضل؛ دون اعتسافٍ، أو تعجيلٍ، بل كلُّ شيءٍ في وقته(٢).

ثانياً: بعض التَّشريعات:

١ - تشريع فريضة الصِّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصِّيامَ، وجعله ركناً من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السَّابقة، وفي ذلك تأكيدٌ على أهمِّيَّة هذه العبادة الجليلة، ومكانتها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام، واختصَّه من بين سائر الشُّهور؛ لإنزال القرآن العظيم، فقال - عزَّ وجل -: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ

(١) انظر: أسباب هلاك الأمم السَّالفة، لسعيد محمَّد، ص ٤٤٦.
(٢) انظر: دراساتٌ في عصر النُّبوَّة، للشُّجاع، (ص ١٦٦ - ١٦٨).

ﵟٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَﵞ [البقرة: ١٨٥] .

وقد وضَّحت الآية الكريمة الأولى الثَّمرة العظمى الَّتي يحظى بها الصَّائمون المخلصون؛ ألاَ وهي بلوغ درجة التَّقوى: ﵟلَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَﵞ فالصِّيام بالنِّسبة للأمَّة المسلمة، مدرسةٌ فريدةٌ، ودورةٌ تدريبيَّةٌ على طهارة النُّفوس؛ لكي تنخلع من آفاتها، وتتحلَّى بالفضائل، وترتقي في مدارج التَّقوى، والصَّلاح[١].

ولأهمِّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم، فقد رغَّب النَّبيُّ ﷺ في أيَّامٍ للصِّيام، وحثَّ على صيامها، ورغَّب في الأجر، والمثوبة من الله تعالى؛ وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحةً أبوابُها طِيلَةَ السَّنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوةٍ في قلبه، وحاجةٍ لترويض نفسه، ورغبةٍ في المزيد من الأجر، والفضل عند الله سبحانه، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صَامَ يوماً في سبيل الله؛ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عن النَّارِ سبعين خريفاً» [البخاري (٢٨٤٠) ومسلم (١١٥٣)] .

٢ ـ تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه، شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ زكاة الفطر، وهي على كلِّ حُرٍّ أو عبدٍ، ذكرٍ أو أنثى، صغيرٍ أو كبيرٍ من المسلمين، والحكمة من فرضية هذه الزَّكاة، وإلزام المسلمين بها ظاهرةٌ وجليَّةٌ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهْرَةً للصَّائم من اللَّغو والرَّفث، وطُعْمةً للمساكين، من أدَّاها قبل الصَّلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقةٌ من الصَّدقات» [أبو داود (١٦٠٩) وابن ماجه (١٨٢٧) والحاكم (١/ ٤٠٩)]، ففي هذا الحديث النَّصُّ على أنَّ الحكمة مركَّبةٌ من أمرين[٢]:

أ ـ يتعلَّق بالصَّوم في شهر رمضان، فإنَّ النُّفوس مجبولةٌ على الخطأ، والتَّقصير، والوقوع في لغو القول؛ الَّذي لا فائدة فيه، أو فيه ضررٌ من الكلام الباطل، ونحو ذلك، ممَّا لا يسلم الإنسان منه غالباً، فجاءت هذه الزَّكاة في ختام الشَّهر تطهيراً للصَّائم ممَّا خالط صومَه من ذلك.

ب ـ إغناء المحتاج في يوم العيد؛ الذي يعقب الفطر من رمضان، فهذا يومٌ يسعد فيه المجتمع المسلم كلُّه، فينبغي أن يعمَّ هذا السُّرور على الجميع، فشُرِعت هذه الزَّكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال، واستجداء النَّاس، لذلك كانت خاصَّةً بالفقراء، والمساكين، لا تُعْطَى

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ١٠٦)، ومنهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/ ٢٥١، ٢٥٢).
(٢) انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

لغيرهم ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم : «طعمةً للمساكين» ؛ ولذلك نرى : أنَّ رسول الله ﷺ لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثيرٌ من النَّاس عنه ؛ بل جعل الواجب شيئاً قليلاً ، ممَّا يسهل على النَّاس ، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد ، حتَّى يتمكَّن من أدائها كثيرٌ من المسلمين ، فيحصل الغَنَاءُ بذلك لهؤلاء المحتاجين ، فما أعظم هذا الدِّين![١] ولهذه الزَّكاة أحكامٌ وتفصيلاتٌ تُطْلَب من كتب الفقه[٢] .

٣ ـ صلاة العيد :

وفي هذه السَّنَةِ صلَّى النَّبيُّ ﷺ صلاة العيد ، فكانت أوَّل صلاةٍ صلاَّها ، وخرج بالنَّاس إلى المُصَلَّى ؛ يهلِّلون الله ، ويكبِّرونه ، ويعظِّمونه ؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النِّعم المتتالية .

إنَّ العيد موسمٌ من مواسم الخير ، والتَّعاطف ، والتَّحابب ، وكان من دأب رسول الله ﷺ : أنَّه إذا صلَّى العيد ، ذكَّر ، وأنذر ، ورغَّب ، ورهَّب ، فيتسابق في مِضْمَار البذل ، والعطاء الرِّجالُ ، والنِّساء ، والصِّغار ، والكبار[٣] .

٤ ـ تشريع الزَّكاة :

وفي السَّنة الثانية للهجرة شرع الله الزَّكاة ؛ الَّتي هي ركنٌ من أركان الإسلام ، وكان ذلك بعد شهر رمضان ؛ لأنَّ تشريع الزَّكاة العامَّة كان بعد زكاة الفطر ، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً ؛ يدلُّ على هذا ما رواه الأئمَّة : أحمد ، وابن خزيمة ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال : «أمَرَنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزَّكاةُ ، ثمَّ نزلت الزَّكاةُ ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله»[٤] ، قال الحافظ ابن حجر : «إسناده صحيحٌ»[٥] ، «وجمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً على أنَّ مشروعية الزَّكاة إنما كانت بالمدينة في السَّنة الثَّانية»[٦] .

فالزَّكاة في العهد المكيِّ كانت مطلقةً من القيود ، والحدود ، وكانت موكولةً إلى إيمان الأفراد ، وأرْيَحِيَّتِهِم ، وشعورهم بواجب الأخوَّة نحو إخوانهم من المؤمنين ، فقد يكفي في

---

(١) انظر : المال في القرآن الكريم ، لسليمان الحصين ، ص ٣٣٤ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٠٩) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١٠) .
(٤) صحيح سنن النَّسَائي ، للألباني ، كتاب الزَّكاة ، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزَّكاة ، ورقمه (٢٥٠٦) وصححه .
(٥) فتح الباري (٣/ ٢٠٧) .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ١١١) .

ذلك القليل من المال ، وقد تقتضي الحاجة بذلَ الكثيرِ ، أو الأكثر[١] .

فكانت الآيات المكِّيَّة تهتمُّ بجانب التَّربية ، والتَّوجيه ، وتحثُّ على رعاية الفقراء والمساكين بأساليب متنوعةٍ ، منها : أنَّ إطعام المساكين من لوازم الإيمان ، ففي سورة المدَّثر ـ وهي من أوائل ما نزل من القرآن ـ يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين ، في جنَّاتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة ، وقد أُطبقت عليهم النِّيران ، فيسألونهم عمَّا أحلَّ بهم هذا العذاب ، فكان من أسبابه ، وموجباته : إهمال حقِّ المسكين ، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه ، وهم عنه معرضون[٢] ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المدثر : ٣٨ ـ ٤٦] .

وقصَّ الله على عباده قصَّة أصحاب الجنَّة ، الَّذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بلَيْلٍ ؛ ليحرموا منها المساكين ـ الَّذين اعتادوا أن يصيبوا شيئـاً من خيرها يوم الحصاد ـ فحلَّت بهم عقوبة الله العاجلة : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٩ ـ ٣٣] .

ولم تقف عناية القرآن المكِّيِّ عند الدَّعوة إلى الرَّحمة بالمسكين ، والتَّرغيب ، في إطعامه ، ورعايتـه ، والتَّرهيب من إهمالـه والقسوة عليـه ؛ بل تجاوز ذلـك ، فجعل في عنق كلِّ مؤمنٍ حقاً للمسكين ، أن يحضَّ غيره على إطعامـه ، ورعايته ، وجعل تَـرْكَ هذا الحضِّ قرينَ الكفر بالله العظيم ، وموجبـاً لسُخْطه ـ سبحانه ـ وعذابه في الآخرة .

قال تعالى في شأن أصحاب (الشِّمال) : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢] .

وَلِمَ كلُّ هذا العذاب ، والهوان ، والخزي على رؤوس الأشهاد؟ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة : ٣٣ ـ ٣٤] .

وهذه الآيات المزلزِلة للقلوب ، المنذرة بالعذاب ، هي الَّتي جعلت مثلَ أبي الدَّرداء رضي

---

(١) انظر : فقه الزَّكاة ، للقرضاوي (١/ ٧٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٧٠) .

الله عنـه يقول لامرأتـه: «يا أمَّ الدرداء! إنَّ لله سلسلةٌ ولم تزل تغلي بها مرَاجِلُ النَّار منذ خَلقَ الله جهنَّمَ، إلى يوم تُلقى في أعناق الناس، وقد نجَّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء»(١).

أمَّا القرآنُ المدني، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعةٌ، لها أرضٌ، وكيانٌ وسلطان؛ فلهذا اتَّخذت التَّكاليف الإسلاميَّة صورةً جديدةً ملائمةً لهذا الطَّور: صورة التحديد، والتَّخصيص، بعد الإطلاق والتَّعميم، صورة قوانين إلزاميَّة، بعد أن كانت وصايا توجيهيةً فحسب، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوَّة والسُّلطان، مع اعتمادها على الضَّمير، والإيمان، وظهر هذا الاتِّجاه المدنيُّ في الزَّكاة؛ فحدَّد الشَّارع الأموال التي تجب فيها، وشروط وجوبها، والمقادير الواجبة، والجهات التي تُصرف لها، وفيها، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها(٢)، وأكَّد النَّبيُّ ﷺ في المدينة فريضة الزَّكاة، وبيَّن مكانتها في دين الله، وأنَّها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين، ورغَّب في أدائها، ورهَّب من منعها بأحاديث شتَّى، وأساليب متنوعةٍ.

وأعلن الرَّسول ﷺ في أحاديثه: أنَّ أركان الإسلام خمسةٌ، بدأها بالشَّهادتين، وثنَّاها بالصَّلاة، وثلَّثها بالزَّكاة، فالزَّكاة في السُّنَّة ـ كما هي في القرآن ـ ثالثةُ دعائم الإسلام: الَّتي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها(٣)، وعندما طبَّق المسلمون هذا الرُّكن كما أمر الله تعالى، وكما شرع رسولُه ﷺ، تحقَّقت أهدافٌ عظيمة في المجتمع، وبرزت آثارها في حياة الفرد، والمجتمع.

فمن آثار الزَّكاة على الفرد:

أ ـ الوقاية من الشُّحِّ:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ب ـ تنمية المال وزيادته:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

---

(١) الأموال، ص ٣٥ نقلاً عن فقه الزَّكاة (١/ ٧٠).
(٢) انظر: فقه الزَّكاة (١/ ٧٨).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٨٩).

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] ، وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦] .

وقال ﷺ : «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ» [مسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (٢/ ١٠٠٠)] .

وقال ﷺ : «ما من يوم يُصبحُ العبادُ فيه إلا مَلَكانِ يَنزلان ، فيقول أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر: اللَّهُمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً» [البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)] .

وهكذا يتمُّ تطهير نفس المسلم من آفة الشُّحِّ ، والبُخل ، ويسارع إلى الإنفاق ، موقناً بفضل الله ، ووعده الذي لا يتخلَّف بالرِّزق الواسع(١) .

ج ـ حصول الأمن في الدُّنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] .

فهم في أمنٍ ، وسعادةٍ ، وراحةِ بالٍ؛ لأنَّهم أدَّوا ما أمرهم الله تعالى به ، وانتهوا عمَّا نهاهم الله عنه .

ومن آثار الزَّكاة على المجتمع: حصولُ المحبَّة بين الأغنياء والفقراء ، وشيوع الأمن والطُّمأنينة في أوساطه ، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنَّهم كالجسد الواحد ، قال ﷺ : «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مَثَلُ الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» [مسلم (٢٥٨٦) وأحمد (٤/ ٢٧٠)] ، ومن الآثار أيضاً حفظ التوازن الاجتماعي(٢) .

عندما كانت الزَّكاة تُجمَع من كلِّ من تجب عليه ، وتُنفَق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام؛ كان المجتمع الإسلاميُّ يعيش في رخاءٍ ، ورغدٍ ، وتمتُّعٍ بالطَّيبات ، وتآلفٍ ، وتآخٍ ، وتحاببٍ؛ فقد روى الرُّواة: أنَّه في عهد خامس الخلفاء الرَّاشدين ، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب النَّاس ، واغتنوا ، حتَّى إنَّهم بحثوا عن مستحقٍّ للصَّدقة ، فلم يجدوا ، فما كان منهم إلا أن اشترَوا بها عبيداً ، وأعتقوهم لوجه الله ، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى ، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أممٌ قليلةٌ اليوم ، وذلك بفضل تشريع الزَّكاة(٣) .

---

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٤٩) .
(٢) انظر: المال في القرآن الكريم ، ص٢٤٠ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ١١٥) .

٥ ـ زواجه ﷺ بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله ﷺ على عائشة في مكَّة قبل الهجرة، وهي ابنة ستِّ سنين، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين، وذلك في شهر شوَّال من السَّنة الأولى للهجرة(١).

وكانت حركة الدَّعوة والجهاد، والتَّربية، وبناء الدَّولة مستمرةً، ولم تتعطَّل حالات الزَّواج في حياة الرَّسول ﷺ وأصحابه؛ بل الزَّواج، والإكثار منه كان عاديّاً جدّاً، في حياتهم، كالطَّعام، والشَّراب، وذلك من مظاهر: أنَّ الإسلام دين الفطرة، والواقع؛ بل إنَّ الزَّواج جزءٌ مهمٌّ في بناء المجتمع المسلم(٢).

كان رسول الله ﷺ قد بنى بعائشة رضي الله عنها وهو في الرَّابعة والخمسين من عمره، وحيثما يُذكر هذا الرَّقم؛ يتبادر للذِّهن الشَّيب، والضَّعف، ونفسيةٍ أصابتها الشَّيخوخة، ولاشكَّ أنَّ مرور الأعوام هو مقياس أعمار النَّاس كقاعدةٍ عامَّةٍ؛ ولكنَّ المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان، ونشاطه، وقدرته على المبادرة والعمل؛ فقد نجد إنساناً في الثَّلاثين يحمل في جسمه، ونفسيته أعباء الخمسين، وقد نجد في بعض الأحيان إنسان الخمسين، فلا نحكم عليه بأكثر من الثَّلاثين، وشخصية رسول الله ﷺ فذَّةٌ في هذا الميدان، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه؛ همَّةً، وعزماً، ومَضَاءً وفحولةً؛ إنَّه في هذا لا يساويه أيُّ إنسان، والأدلة تؤيِّد ما ذهبت إليه؛ ومنها:

أ ـ لما عرض رسولُ الله ﷺ نفسَه على القبائل، مرَّ على بني عامر بن صعصعة، وعرض عليهم أمره، فقال بَيْحَرةُ بن فِرَاس: «والله! لو أنِّي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب»(٣)، ونلحظ في قول بَيْحَرَة:

ـ عبَّر عنه بـ(الفتى)، والفتى هو الشَّابُّ في مُقْتَبَلِ العمر، الممتلئ حيويةً، ونشاطاً.

ـ وفي قوله: «لأكلت به العرب» يعبِّر عمَّا لاحظه في شخصية الرَّسول الكريم ﷺ من حيويَّةٍ، وهمَّةٍ لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبةً، كانت هذه نظرة بَيْحَرَة، والرَّسول ﷺ في الخمسين من العمر يومئذٍ؛ إنَّه الشباب شكلاً، ومضموناً، مظهراً ونفسيَّةً، همَّةً، وروحاً(٤).

ب ـ وفي خبر الهجرة، روى البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «أقبل نبيُّ الله ﷺ إلى

---

(١) انظر: من معين السِّيرة، ص ١٦٨.
(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة (١/ ٤٢٠).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٤).
(٤) انظر: من معين السِّيرة، ص ١٧١.

المدينة ، وهو مُرْدِفٌ أبا بكرٍ ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعْرَف ، ونبيُّ الله ﷺ شابٌّ لا يُعْرَفُ ، قال: فيلقى الرَّجلُ أبا بكرٍ ، فيقول: يا أبا بكر! من هذا الرَّجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرَّجل يهديني السبيل ، قال: فيحسِب الحاسِبُ: أنَّه إنَّما يعني الطَّريقَ ، وإنَّما يعني سبيلَ الخير» [البخاري (٣٩١١) وأحمد (٢/ ٢١١)] ، وكان ﷺ لم يَشِبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[١].

ويلاحظ من النَّصِّ بوضوحٍ: أنَّ أبا بكرٍ كان يبدو في سنِّهِ الحقيقي شيخاً[٢]؛ بينما كان ﷺ يبدو شابّاً؛ لعدم ظهور الشَّيب فيه ، كما أوضح ذلك القسطلاَّنيُّ بقوله: وكان ﷺ لم يَشِبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[٣].

وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الفارق في العمر بينه ﷺ وبين عائشة ، لم يكن ذلك الفارقَ الكبير من وجهة النَّظر العمليَّة ، فها هو ﷺ يسابق السَّيدة عائشة ، فتسبقه مرَّةً ، ويسبقها أخرى ، فيقول: «هذه بتلك» [أحمد (٦/ ٢٦٤) وأبو داود (٢٥٧٨) وابن ماجه (١٩٧٩) وابن حبان (٤٦٩١)] ، والأمثلة في حياته ﷺ كثيرةٌ[٤].

ويستطيع كلُّ ذي نظرٍ أن يدرك الحكمة الجليلة الَّتي كانت وراء زواج رسول الله ﷺ من عائشة رضي الله عنها ، فقد تمَّ هذا الزَّواج الميمون في مَطْلِع الحياة في المدينة ، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته ﷺ ، وممَّا لاشك فيه: أنَّ الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته ، ومع أسرته ، وكان لابدَّ من نقل سلوك الرَّسول الكريم ﷺ ، في هذا الجانب من حياته إلى النَّاس؛ حتَّى يستطيعوا التأسِّيَ به ، وكانت تلك مهمَّةُ السِّيِّدة عائشة رضي الله عنها ـ على الخصوص ـ وبقيَّة أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهُنَّ؛ فقد استطاعت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، بما وهبها الله من ذكاءٍ وفهمٍ ، أن تؤدِّيَ دورها على خير ما يُرام ، وإنَّ نظرةً عابرةً لأيِّ كتابٍ من كتب السِّيرة تبيِّن ، وتؤكِّد ما ذهبت إليه؛ وقد ساعدها على ذلك: أنَّ الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وساعدتها تلك المدَّة على أن تُبَلِّغَ ما وَعَتْهُ عن رسول الله ﷺ ، فرضي الله عنها![٥].

* * *

---

(١) انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (١/ ٣٥٥) نقلاً عن (من معين السيرة).

(٢) انظر: من معين السيرة ، ص ١٧١ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٢ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٣ .

الفصل الثَّامن
غزوة بدرٍ الكبرى[1]

المبحث الأوَّل
مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ من الشَّام ، تحمل أموالاً عظيمة[2] لقريش ، يقودها أبو سفيان ، ويقوم على حراستها بين ثلاثين ، وأربعين رجلاً[3] ، فأرسل الرَّسول ﷺ بَسْبَسَ بنَ عمرو[4] ؛ لجمع المعلومات عن القافلة[5] ، فلَّما عاد بَسْبَسُ بالخبر اليقين ، ندب رسولُ الله ﷺ أصحابه للخروج ، وقال لهم : «هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ؛ لعلَّ الله يُنْفِلُكُموها»[6] ، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر ، من شهر رمضان المبارك ، من السَّنة الثانية للهجرة ، ومن المؤكَّد : أنَّه حين خروجه ﷺ من المدينة ، لم يكن في نيَّته قتالٌ ؛ وإنَّما كان قصده عِيرَ قريش ، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكَّة حالة حرب ، وفي حالة الحرب تكون أموال العدوِّ ، ودماؤهم مباحةً ، فكيف إذا علمنا : أنَّ جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشيَّة ، كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكَّة ، قد استولى عليها المشركون ظلماً ، وعدواناً[7] .

---

(١) ينظر الشكلان (١٤ و١٥) في الصفحتين (٧٥٠ و٧٥١) .

(٢) قُدِّرتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار ، انظر : موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ (١/ ٢٨٦) .

(٣) جوامع السِّيرة ، لابن حزم ص ١٠٧ .

(٤) ورد هذا الاسم في مسلمٍ هكذا : «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشَّهيد ، رقم (١٩٠١) ، قال النَّووي في شرحه على الحديث : «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس) . . . قلت : يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والآخر لقباً» .

(٥) مسلمٌ ، رقم (١٩٠١) .

(٦) سيرة ابن هشام (٢/ ٦١) بسندٍ صحيح إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما .

(٧) انظر : حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ ، د. محمَّد آل عابد (١/ ٤٣) .

كلَّف رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن أمِّ مكتوم بالصَّلاة بالنَّاس في المدينة ، عند خروجه إلى بدرٍ ، ثمَّ أعاد أبا لُبَابة من الرَّوحَاء إلى المدينة ، وعيَّنه أميراً عليها[١] .

أرسل النَّبيُّ ﷺ اثنين من أصحابه[٢] إلى بدرٍ طليعةً ، للتَّعرُّف على أخبار القافلة فرجعا إليه بخبرها[٣]: وقد حصل خلاف بين المصادر الصَّحيحة حول عدد الصَّحابة ، الذين رافقوا النَّبيَّ ﷺ في غزوته هذه إلى بدرٍ ، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمئةٍ» [البخاري (٣٩٥٧) و(٣٩٥٨)]؛ يذكر مسلمٌ: أنَّهم كانوا «ثلاثمئةٍ وتسعة عَشَرَ رجلاً» [مسلم (١٧٦٣)] ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمئةٍ وأربعين من الصَّحابة البدريين[٤] .

كانت قوَّات المسلمين في بدرٍ ، لا تمثِّل القدرة العسكريَّة القصوى للدَّولة الإسلاميَّة؛ ذلك: أنَّهم إنَّما خرجوا لاعتراض قافلةٍ ، واحتوائها ، ولم يكونوا يعلمون: أنَّهم سوف يواجهون قوَّات قريشٍ ، وأحلافها مجتمعةً للحرب ، والَّتي بلغ تعدادها ألفاً [مسلم (١٧٦٣)] ، معهم مئتا فرسٍ ، يقودونها إلى جانب جمالهم ، ومعهم القِيانُ[٥] يضربن بالدُّفوف ، ويغنِّين بهجاء النَّبيِّ ﷺ وأصحابه[٦] ، في حين لم يكن مع القوات الإسلاميَّة من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبَها . [الطبراني في المعجم الكبير (١٢١٠٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)] .

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النَّبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فيها من العِبَرِ والمواعظ الشَّيءُ الكثير:

١ ـ إرجاع البَرَاء بن عازبٍ وابن عمر لصغرهما: وبعد خروج النَّبيِّ ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عِير أبي سفيان وصلوا إلى (بيوت السُّقيا) خارج المدينة ، فعسكر فيها النَّبيُّ ﷺ ، واستعرض ﷺ مَنْ خرج معه ، فردَّ مَنْ ليس له قدرةٌ على المُضِيِّ مع جيش المسلمين ، وملاقاة مَنْ يُحتَمَل نشوبُ قتالٍ معهم ، فردَّ على هذا الأساس البَرَاء بن عازب ، وعبد الله بن عمر؛ لصغرهما ، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين ، وعازمَيْنِ على الاشتراك في الجهاد . [البخاري (٣٩٥٥) و(٣٩٥٦)] .

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ٢٦٠) ، والمستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢) .
(٢) هما عديُّ بن أبي الزَّغْباء ، وبسبس بن عمرو ، انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ٢٤) .
(٣) الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح .
(٤) البداية والنِّهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطَّبقات ، وخليفة بن خيَّاط .
(٥) القَيْنَة: المغنِّية ، والجمع: قِيَان .
(٦) البداية والنَّهاية (٣/ ٢٦٠) .

٢ ـ **(فارجعْ فلن أستعينَ بمشركٍ)**: عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرج رسولُ الله ﷺ قِبَلَ بدرٍ، فلمَّا كان بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ، أَدْركهُ رَجُلٌ، قد كان يُذْكرُ منه جُرْأَةٌ، ونَجْدةٌ؛ ففرِحَ أصحابُ رسول الله ﷺ حين رَأَوْهُ، فلمَّا أدْرَكَهُ، قال لرسول الله ﷺ: جئتُ لأتَّبِعَكَ، وأُصيبَ معَكَ، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمنُ بالله ورَسُولِهِ؟» قال: لا، قال: «فارجعْ؛ فلن أستعينَ بمشركٍ». قالت: ثمَّ مضى، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النَّبيُّ ﷺ كما قال أوَّل مرَّةٍ، ثمَّ رجع، فأدركه بالبَيْدَاءِ، فقال له كما قال أوَّل مرَّة: «تؤمنُ بالله ورسوله؟» قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «فانْطَلِقْ» [مسلم (١٨١٧) وأبو داود (٢٧٣٢) والترمذي (١٥٥٨) وأحمد (٣/ ١٤٨ و١٤٩)].

٣ ـ **مشاركة النَّبيِّ ﷺ أصحابه في الصِّعاب**: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا يوم بدرٍ كلُّ ثلاثة على بعيرٍ، وكان أبو لُبابَةَ، وعليُّ بن أبي طالبٍ زميلَيْ رسول الله ﷺ. قال: وكانت عُقبَةُ رسول الله ﷺ. قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى منِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [أحمد (١/ ٤١١) وابن حبان (٤٧٣٣) وأبو يعلى (٥٣٥٩) والبزار (١٧٥٩) ومجمع الزوائد (٦/ ٦٩)].

ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر: بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النَّبيِّ ﷺ، بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته، واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق السَّاحل، في الوقت نفسه أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَاريَّ إلى قريشٍ يستنفرها؛ لإنقاذ قافلتها، وأموالها[(١)]، فقد كان أبو سفيان يَقِظاً حَذراً، يتلقَّط أخبار المسلمين، ويسأل عن تحرُّكاتهم؛ بل يتحسَّس أخبارهم بنفسه، فقد تقدَّم إلى بدرٍ بنفسه، وسأل مَنْ كان هناك: هل رأيتم من أحدٍ؟ قالوا: لا، إلا رجلين، قال: أروني مُنَاخَ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر فَفَتَّهُ، فإذا هو فيه النَّوى، فقال: هذه والله! علائفُ يثربَ[(٢)]، فقد استطاع أن يعرف تحرُّكات عدوه، حتَّى خبر السَّريَّة الاستطلاعيَّة عن طريق غذاء دوابِّها، بفحصه البعر الَّذي خلَّفته الإبل؛ إذ عرف أنَّ الرَّجلين من المدينة؛ أي: من المسلمين، وبالتَّالي فقافلته في خطرٍ، فأرسل ضَمْضَمَ بنَ عمرٍو، إلى قريشٍ، وغيَّر طريق القافلة، واتَّجه نحو ساحل البحر[(٣)].

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريشٍ؛ التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يَرَوْنه من امتهانٍ للكرامة، وتعريضٍ للمصالح الاقتصاديَّة للأخطار؛ إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاطٍ

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٢/ ٢٣٠).
(٣) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص ٣٣، ٣٤.

لمكانة قريشٍ بين القبائل العربيَّة الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية(١).

لقد جاءهم ضَمْضَمُ بنُ عمرو الغِفَاريُّ بصورةٍ مثيرةٍ جدّاً، يتأثَّر بها كلُّ من رآها، أو سمع بها؛ إذ جاءهم وقد حوَّلَ رَحْلَه، وجَدَعَ أنفَ بعيره، وشقَّ قميصه من قُبُلٍ، ومن دُبُرٍ، ودخل مكَّة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشرَ قريش! اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ(٢)! أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد مع أصحابه، لا أرى أن تُدْركوها، الغوثَ، الغوثَ!(٣).

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة، أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجُحْفَة، برسالةٍ أخبرهم فيها بنجاته، والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكَّة، وذلك أدَّى إلى حصول انقسامٍ حادٍّ في آراء زعماء قريش، فقد أصرَّ أغلبهم على التَّقدُّم نحو بدرٍ؛ من أجل تأديب المسلمين، وتأمين سلامة طريق التِّجارة القرشيَّة، وإشعار القبائل العربيَّة الأخرى بمدى قوَّة قريشٍ، وسلطانها، وقد انشق بنو زُهْرَة(٤)، وتخلَّف في الأصل بنو عديٍّ، فعاد بنو زُهْرَةَ إلى مكَّة، أمَّا غالبية قوَّات قريشٍ، وأحلافهم؛ فقد تقدَّمت؛ حتَّى وصلت بدراً(٥).

ثالثاً: مشاورة النَّبيِّ ﷺ لأصحابه:

لمَّا بلغ النَّبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة، وإصرارُ زعماء مكَّة على قتال النَّبيِّ ﷺ، استشار رسولُ الله ﷺ أصحابه في الأمر(٦)، وأبدى بعضُ الصَّحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربيَّة مع قريشٍ؛ حيث إنَّهم لم يتوقَّعوا المواجهة، ولم يستعدُّوا لها، وحاولوا إقناع الرَّسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صوَّر القرآنُ الكريم موقفَهم، وأحوال الفئة المؤمنة عموماً، في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٢) اللَّطِيمة: القافلة المحمَّلة بشتَّى أنواع البضاعة غير الطعام.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٢/ ٢٢١).
(٤) نصحهم الأَخْنَسُ بن شريق بذلك، انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١).
(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٦) البخاريُّ، كتاب المغازي، باب ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ ﴾، رقم (٣٩٥٢)، وانظر: شرح هذا الحديث في فتح الباري.

وقد أجمع قادة المهاجرين، على تأييد فكرة التَّقُّدم لملاقاة العدوِّ[١]، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: شهدت من الْمِقْدَاد بن الأسود مشهداً، لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به[٢]: أتى النَّبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾، ولكنَّا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخَلْفك، فرأيت النَّبيَّ ﷺ أشرق وَجْهُهُ وسَرَّه؛ يعني: قوله. [البخاري (٣٩٥٢)].

وفي روايةٍ: قال المقداد: يا رسولَ الله! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن: امضِ ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ. [البخاري (٤٦٠٩)].

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» وكان إنَّما يقصد الأنصار؛ لأنَّهم غالبيةُ جنده، ولأنَّ بيعة العقبة الثَّانية، لم تكن في ظاهرها ملزمةً لهم بحماية الرَّسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصَّحابيُّ سعدُ بن معاذ، ـ وهو حامل لواء الأنصار ـ مقصد النَّبيِّ ﷺ من ذلك؛ فنهض قائلاً: (والله! لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل»، فقال: لقد آمنَّا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السَّمع، والطَّاعة، فامضِ يا رسول الله! لما أردت، فنحن معك، فوالَّذي بعثك بالحقِّ! لو استعرضت بنا هذا البحر، فخُضْتَه لخُضْنَاه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللِّقاء، ولعلَّ اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ على بركة الله. [ابن هشام (٢/ ٢٦٧) وبنحوه مسلم (١١٧٩)].

وسُرَّ النَّبيُّ ﷺ من مقالة سعد بن معاذٍ، ونشَّطه ذلك، فقال ﷺ: «سِيرُوا وأبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين، والله! لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم» [البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٤) وابن هشام (٢/ ٢٦٧)].

كانت كلمات سعدٍ مشجِّعةً لرسول الله ﷺ وملهبةً لمشاعر الصَّحابة؛ فقد رفعت معنويات الصَّحابة، وشجَّعتهم على القتال، إنَّ حرص النَّبيِّ ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات، يدلُّ على تأكيد أهمِّية الشُّورى في الحروب بالذَّات؛ ذلك لأنَّ الحروب تقرِّر مصير الأمم، فإمَّا إلى العلياء، وإمَّا تحت الغبراء[٣].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٢٨٨).

(٢) المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنَّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك، لكان حصوله أحبَّ إليه.

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص ٣٧.

رابعاً: المسير إلى لقاء العدوِّ، وجمع المعلومات عنه:

نظَّم النَّبيُّ ﷺ جنده، بعد أن رأى طاعة الصَّحابة، وشجاعتهم، واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض، وسَلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سَوْدَاوَيْن إلى سعد بن معاذٍ، وعليِّ بن أبي طالبٍ، وجعل على السَّاقة قيس بن أبي صَعْصَعَة[١].

وقام ﷺ ومعه أبو بكرٍ يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجوَّلان في تلك المنطقة، لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسولُ الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمَّدٍ وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم؛ فقال الشَّيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مِمَّن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا؛ أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشَّيخ: فإنَّه بلغني: أنَّ محمَّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً ـ ثمَّ قال الشيخ: لقد أخبرتكما عمَّا أردتما، فأخبراني ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماءٍ»، ثمَّ انصرف النَّبيُّ ﷺ وأبو بكر عن الشَّيخ، وبقي هذا الشَّيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن هشام (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨)].

وفي مساء ذلك اليوم الَّذي خرج فيه رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ، أرسل ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ، والزُّبيرَ بن العوَّام، وسعدَ بن أبي وقَّاصٍ، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدرٍ؛ يتسقَّطون له الأخبار عن جيش قريشٍ، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين، فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريشٍ» فقالا: هم ـ والله! ـ وراء هذا الكثيب الَّذي ترى بالعُدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثيرٌ، قال: «ما عدَّتُهم؟» قالا: لا ندْرِي، قال الرَّسول ﷺ: «كم ينحرون كلَّ يومٍ؟» قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التِّسعمئة والألف» ثمَّ قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، وأميَّة بن خلفٍ، في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكَّةُ قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [ابن هشام (٢/ ٢٦٩)].

كان من هدي النَّبيِّ ﷺ، حرصه على معرفة جيش العدوِّ، والوقوف على أهدافه، ومقاصده؛ لأنَّ ذلك يعينه على رسم الخطط الحربيَّة المناسبة لمجابهته، وصدِّ عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدرٍ في جمع المعلومات؛ تارةً بنفسه، وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبِّق

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢).

مبدأ الكتمان في حروبه ، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمِّية هذا المبدأ. قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] .

وقد تحلَّى رسولُ الله ﷺ بصفة الكِتمان في غزواته عامَّةً ، فعن كعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، قال : «ولم يكن رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها» [البخاري (٢٩٤٧)] ، وفي غزوة بدرٍ ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي :

١ ـ سؤاله ﷺ الشَّيخ الَّذي لقيه في بدرٍ عن محمَّدٍ وجيشه ، وعن قريشٍ وجيشها .

٢ ـ تورية الرَّسول ﷺ في إجابته على سؤال الشَّيخ : ممَّن أنتما؟ بقوله ﷺ : «نحن من ماءٍ» ، وهو جواب يقتضيه المقام ، فقد أراد به الرَّسولُ ﷺ كتمانَ أخبار جيش المسلمين عن قريشٍ .

٣ ـ وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ ـ أيضاً ـ وهو دليلٌ على ما يتمتَّع به رسول الله ﷺ من الحكمة ، فلو أنَّه أجاب هذا الشَّيخ ثمَّ وقف عنده ، لكان هذا سبباً في طلب الشَّيخ بيان المقصود من قوله ﷺ : «من ماءٍ»(١) .

٤ ـ أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدرٍ ، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدرٍ . [أحمد (٦/ ١٥٠) وابن حبان (٤٦٩٩) و(٤٧٠٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٧٤)] .

٥ ـ كتمانه ﷺ خبر الجهة الَّتي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر ، حيث قال ﷺ : «إنَّ لنا طَلبةً ؛ فمن كان ظَهْرُهُ حاضراً ؛ فيركبْ معنا» [مسلم (١٩٠١)] .

قال الإمام النَّوويُّ : «في هذا : استحباب التَّورية في الحرب ، وألاَّ يُبين الإمام جهة إغارته ، وإغارة سراياه ؛ لئلا يشيع ذلك ؛ فيحذرهم العدوُّ»(٢) .

ونلحظ : أنَّ التَّربية الأمنيَّة في المنهاج النَّبويِّ مستمرةٌ منذ الفترة السِّرِّيَّة والجهريَّة بمكَّة ، ولم تنقطع مع بناء الدَّولة ، وأصبحت تنمو مع تطوِّرها ، وخصوصاً في غزوات الرَّسول ﷺ .

خامساً : مشورة الحُبَاب بن المُنْذِر في بدرٍ :

بعد أن جمع ﷺ معلوماتٍ دقيقةً عن قوَّات قريشٍ ، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدرٍ ؛ ليسبقوا المشركين إلى ماء بدرٍ ، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عند أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ ، وهنا قام الْحُبَاب بن المُنذر ، وقال : يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه

(١) انظر : سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨) .
(٢) مسلمٌ ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، شرح حديث رقم (١٩٠١) .

اللهُ ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة» قال: يا رسولَ الله! فإن هذا ليس بمنزلٍ ، فانهضْ يا رسول الله بالنَّاس! حتَّى تأتي أدنى ماءٍ من القوم ـ أي: جيش المشركين ـ فننزله ، ونغوِّر ـ نخرِّب ـ ما وراءه من الآبار ، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثمَّ نقاتل القوم ، فنشرب ، ولا يشربون. فأخذ النَّبيُّ ﷺ برأيه ، ونهض بالجيش حتَّى أقرب ماءٍ من العدوِّ ، فنزل عليه ، ثمَّ صنعوا الحِيَاضَ ، وغوَّروا ما عداها من الآبار [ابن هشام (٢/ ٢٧٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٥)].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرَّسول ﷺ مع أصحابه ، حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدْلي برأيه ، حتَّى في أخطر القضايا ، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى ﷺ ، ثمَّ حصول ما يترتَّب على ذلك الغضب من تدنِّي سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد ، وتأخُّره في الرتبة ، وتضرُّره في نفسه أو ماله.

إنَّ هذه الحرِّيَّة؛ الَّتي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه ، مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرَّأي السَّديد ، والمنطق الرَّشيد ، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً ، وإن كان حديثَ السِّنِّ؛ لأنَّه لم يكن يفكِّر برأيه المجرَّد ، أو آراء عصبةٍ مهيمنةٍ عليه ، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة ، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامَّة؛ وإنَّما يفكِّر بآراء جميع أفراد جنده ، وقد يحصل له الرَّأي السَّديد من أقلِّهم سمعةً ، وأبعدهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنَّه ليس هناك ما يحول بين أيِّ فردٍ منهم ، والوصول برأيه إلى قائد جيشه[1].

ونلحظ عظمة التَّربية النَّبويَّة؛ الَّتي سرَتْ في شخص الحُبَاب بن المُنذر ، فجعلته يتأدَّب أمام رسول الله ﷺ ، فتقدَّم دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة الَّتي لديه؛ لكن هذا تمَّ بعد السُّؤال العظيم ، الَّذي قدَّمه بين يدي الرَّسول ﷺ: «يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة؟».

إنَّ هذا السُّؤال يوضِّح عظمة هذا الجوهر القياديَّ الفذِّ؛ الَّذي يعرف أين يتكلَّم ، ومتى يتكلَّم بين يدي قائده ، فإن كان الوحي هو الَّذي اختار هذا المنزل ، فلأن يقدم ، فتقطع عنقه أحبُّ إليه من أن يلفظ بكلمةٍ واحدةٍ ، وإن كان الرأي البشريُّ؛ فلديه خطَّةٌ جديدةٌ كاملةٌ باستراتيجيَّةٍ جديدةٍ.

إنَّ هذه النَّفسيَّة الرَّفيعة ، عرفت أصول المشورة ، وأصول إبداء الرَّأي ، وأدركت مفهوم السَّمع والطَّاعة ، ومفهوم المناقشة ، ومفهوم عرض الرَّأي المعارض لرأي سيِّد ولد آدم ﷺ.

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/ ١١٠).

وتبدو عظمة القيادة النَّبويَّة في استماعها للخطَّة الجديدة ، وتبنِّي الخطَّة الجديدة المطروحة من جنديٍّ من جنودها ، أو قائدٍ من قوَّادها[١] .

سادساً : الوصف القرآنيُّ لخروج المشركين :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

ينهى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين عن التشبُّه بالكافرين ؛ الَّذين خرجوا من ديارهم بطراً ، ورئاء النَّاس ، وتفسير الآية الكريمة :

١ ـ ﴿ بَطَرًا ﴾ : قال القرطبيُّ : «والبطر في اللغة : التَّقوية ، أي : التَّقوية بنعم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما ألبسه من العافية على المعاصي»[٢] .

٢ ـ ﴿ وَرِئَآءَ ﴾ : ومعناه : القول ، أو الفعل الَّذي لا يقصد معه الإخلاص ؛ وإنَّما يُقصد به التَّظاهر ، وحبُّ الثناء .

٣ ـ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ : معطوفاً على ﴿ بَطَرًا ﴾ ، والسَّبيل : الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ ، والمراد بسبيل الله : دينه ؛ لأنَّه يوصل النَّاس إلى الخير ، والصَّلاح .

فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء :

الأول : البطر ، والثَّاني : الرِّياء ، والثالث : الصَّدُّ عن سبيل الله .

ونلحظ : أنَّ الله تعالى عبَّر عن بطرهم ، بصيغة الاسم الدَّالِّ على التَّمكين ، والثُّبوت ، وعن صدِّهم بصيغة الفعل الدَّالّ على التجدُّد والحدوث[٣] .

قال الإمام الرَّازي : «إنَّ أبا جهلٍ ورَهْطَه ، وشيعتَه ، كانوا مجبولين على البطر ، والمفاخرة ، والعُجْب[٤] ، وأمَّا صدُّهم عن سبيل الله ، فإنَّما حصل في الزَّمان ؛ الَّذي أكرم فيه النَّبيَّ ﷺ بالنُّبوَّة ، ولهذا السَّبب ذُكِر البطر ، والرئاء بصيغة الاسم ، وذُكِر الصَّدُّ عن سبيل الله بصيغة الفعل ، والله أعلم»[٥] .

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبيِّ : أنَّ المقصود بالآية : «يعني : أبا جهلٍ وأصحابه

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٢١) .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (٨/ ٢٥) .
(٣) انظر : حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٦٥ ، ٦٦) .
(٤) العُجْب : الكِبْرُ ، والزَّهْوُ .
(٥) انظر : تفسير الرَّازي (١٥/ ١٧٣) بتصرف يسير .

الخارجين يوم بدرٍ لنُصرة العِير ، خرجوا بالقِيَان ، والمغنِّيات والمعازف ، فلمَّا وردوا الجُحفة ، بعث خُفافُ الكنانيُّ ـ وكان صديقاً لأبي جهلٍ ـ بهدايا إليه مع ابنٍ له ، وقال: إن شئتَ ؛ أمددتك بالرِّجال ، وإن شئتَ ؛ أمددتك بنفسي مع مَنْ خفَّ من قومي ، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل اللهَ كما يزعم محمَّد ؛ فوالله ما لنا بالله من طاقةٍ ، وإن كنَّا نقاتل النَّاس ؛ فوالله إنَّ بنا على النَّاس لقوةً ، والله ! لا نرجع عن قتال محمَّد حتَّى نرد بدراً ، فنشربَ فيها الخمور ، وتعزف علينا القِيانُ ، فإن بدراً موسمٌ من مواسم العرب ، وسوقٌ من أسواقهم ، حتَّى تسمع العرب بمخرجنا ، فتهابنا آخر الأبد ، فوردوا بدراً ، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[(١)] .

سابعاً: موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدرٍ:

بيَّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدرٍ ، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أنَّ أبا جهل قال حين التقى القومُ ـ في بدرٍ ـ اللَّهم! أقطعُنا للرَّحم ، وآتانا ممَّا لا يُعرف ، فأَحِنْهُ ـ أي: أهلكه ـ الغداةَ.

فكان المُسْتَفْتِح. [أحمد (٥/ ٤٣١) وابن هشام (٢/ ٢٨٠) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٤)] .

ومعنى الآية: إن تستنصروا اللهَ على محمَّد ، فقد جاءكم النَّصر ، وقد كانوا عند خروجهم من مكَّة سألوا الله أن ينصر أحقَّ الطَّائفتين بالنَّصر ، فتهكَّم الله بهم ، وسمَّى ما حلَّ بهم من الهلاك نصراً ، ومعنى بقيَّة الآية على هذا القول: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عمَّا كنتم عليه من الكفر ، والعداوة لرسول الله ﷺ ، ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿نَعُدْ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ، ونصرهم كما سلَّطناهم ، ونصرناهم في يوم بدرٍ ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا﴾ أي: جماعتكم ، ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: لا تغني عنكم في حالٍ من الأحوال ، ولو في حال كثرتها ، ثمَّ قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن كان معه فهو المنصور ، ومن كان الله عليه فهو المخذول[(٢)] .

ولما وصل جيش مكَّة إلى بدرٍ ، دبَّ فيهم الخلاف ، وتزعزعت صفوفهم الدَّاخلية ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزل المسلمون ، وأقبل المشركون ؛ نظر رسولُ الله ﷺ إلى عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وهو على جملٍ أحمر ، فقال: «إن يكن عند أحدٍ من القوم خيرٌ ، فهو عند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه ؛ يَرْشُدُوا» ، وهو يقول: يا قوم! أطيعوني في هؤلاء القوم ، فإنَّكم

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٦٨).

إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ، ينظر كلُّ رجلٍ إلى قاتل أخيه ، وقاتل أبيه ، فاجعلوا حقَّها برأسي ، وارجعوا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله! سَحْرُهُ[١] حين رأى محمَّداً وأصحابه ، إنَّما محمدٌ وأصحابه أكلة جزورٍ لو قد التقينا .

فقال عتبة : ستعلم من الجبان المفسد لقومه ، أما والله! إنِّي لأرى قوماً يضربونكم ضرباً ، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي ، وكأن وجههم السُّيوف . [البزار (١٧٦٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٦)] .

وهذا حكيم بن حزام ، يحدِّثنا عن يوم بدرٍ ـ وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه ـ قال : خرجنا؛ حتَّى نزلنا العُدْوة الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فجئتُ عُتبةَ بن ربيعة ، فقلت : يا أبا الوليد! هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال : أفعل؛ ماذا؟ قلت : إنَّكم لا تطلبون من محمَّد إلا دم ابن الحَضْرَمِي[٢] وهو حليفُك ، فتحمل ديته ، وترجع بالنَّاس ، فقال : أنت وذاك ، وأنا أتحمَّل ديته ، واذْهبْ إلى ابن الحَنْظَلِيَّة[٣] ـ يعني : أبا جهل ـ فقل له : هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمِّك؟ فجئته ، فإذا هو في جماعةٍ من بين يديه ، ومن ورائه ، وإذا ابن الحَضْرَميِّ[٤] واقف على رأسه وهو يقول : قد فسخت عقدي من عبد شمس ، وعقدي إلى بني مخزوم ، فقلت له : يقول لك عُتْبةُ بن ربيعة : هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمِّك بمن معك؟ قال : أما وجد رسولاً غَيْرَك؟ قلت : لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره! قال حكيم : فخرجت مبادراً إلى عتبة ؛ لئلا يفوتني من الخبر شيءٌ . [ابن هشام (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٦٥ ـ ٦٦)] .

فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريشٍ لا يرى داعياً لقتال محمَّد ﷺ ، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمَّدٍ؛ فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعِزُّهُ عِزُّ قريش ، ومُلْكُهُ مُلْكُهَا ، وستكون أسعد النَّاس به ، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب ، وينتهي .

ولكنَّ كبرياء الجاهليَّة دائماً في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ لا يمكن أن يترك الحقَّ يتحرَّك ؛ لأنَّها تعلم أنَّ انتصارَه معناه : زوالُها من الوجود ، وبقاؤه مكانها[٥] .

وهذا عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي ، ترسله قريش ، ليحزر لهم أصحاب محمَّد ﷺ ، فَاسْتَجَال حول العسكر ثـمَّ رجع إليهم ، فقال : ثلاثمئة رجلٍ ، يزيدون قليلاً ، أو ينقصـون ، ولكن

---

(١) السَّحْرُ : الرِّئة ، وانتفاخ السَّحْر : كناية عن الجبن .
(٢) هو عمرو بن الحَضْرمي الَّذي قتله وافد بن عبد الله في سريَّة عبد الله بن جحش في الشَّهر الحرام .
(٣) ابن الحَنْظَلِيَّة هو أبو جهل ، وهي أسماء بنت مُخرَّبة من بني تميم .
(٤) المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدِّم .
(٥) انظر : مرويات غزوة بدر ، ص ١٥٥ .

أمهلوني أنظـرْ أَلِلْقَوْمِ كمينٌ ، أو مددٌ؟ قال فضرب في الوادي حتَّى أَبْعد ، فلم يرَ شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال: ما وجدت شيئاً ، ولكنِّي قد رأيت يا معشرَ قريش ، البلايا(١) تحمل المنايا(٢) ، نواضح(٣) يثرب تحمل الموت النَّاقع(٤) ، قومٌ ليس معهم منعةٌ ، ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله! ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتَّى يَقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم!(٥) .

وهذا أميَّـة بن خلف ، رفض الخروج من مكَّة ابتداءً؛ خوفاً من الموت ، «فأتاه أبو جهلٍ ، فقال: يا أبا صفوان! إنَّك متى يراك النَّاسُ قد تخلَّفتَ؛ وأنت سيد أهل الوادي؛ تخلفوا معك ، فلم يزل به أبو جهل حتَّى قال: أما إذْ غلبتني ، فوالله! لأشترينَّ أجود بعيرٍ بمكَّة ، ثمَّ قال أميَّة: يا أمَّ صفوان! جهِّزيني. فقالت له: يا أبا صفوان! وقد نسيتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّهم قاتلوك» ؟ قال: لا ، ما أريدُ أن أجوزَ معهم إلا قريباً ، فلمَّا خرج أُميَّـةُ أخذ لا يتركُ منزلاً إلا عَقَلَ بعيرَه ، فلم يزل بذلك حتَّى قتله اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ببدرٍ» [البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥ ـ ٢٧)] .

ومن دهاء أبي جهل ـ لعنه الله ـ أن سلَّط عُقبةَ بن أبي مُعَيْط ، على أميَّةَ بن خلف ، فأتاه عقبةُ بمَجْمَرةٍ يحملها ، فيها نارٌ ومَجْمَر (العود يتبخَّر به) ، حتَّى وضعها بين يديه ، ثمَّ قال: استجمرْ؛ فإنَّما أنت من النِّساء ، قال: قبَّحك الله ، وقبَّح ما جئت به! ثمَّ تجهَّز ، وخرج من النَّاس(٦) .

لقد كانت القوَّة المعنويَّة لجيش مكَّة ، متزعزعةً في النُّفوس ، وإن كان مظهره القوَّة ، والعزم ، والثبات ، إلا أنَّ في مخبره الخوفُ ، والجبنُ ، والتردُّد(٧) .

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثرٌ على معنويات أهل مكَّة؛ فقد رأت في المنام: أنَّ رجلاً استنفر قريشاً ، وألقى بصخرةٍ من رأس جبل أبي قُبَيْس بمكَّة ، فتفتَّتت ، ودخلت سائر دُورِ قريش ، وقد أثارت الرُّؤيا خصومةً بين العبَّاس ، وأبي جهلٍ ، حتَّى قدم ضَمْضَمُ ،

---

(١) البلايا: جمع بلية ، وهي النَّاقة أو الدَّابة تُربط على قبر الميت فلا تعلف ، ولا تسقى حتَّى تموت.

(٢) مَنَايَا: جمع مَنِيَّة ، وهي الموت.

(٣) نواضح: الإبل الَّتي يُستقى عليها الماء.

(٤) النَّاقع: الثَّابت البالغ في الإفناء ، يقال: موتٌ ناقعٌ ، أي: دائم.

(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٢٦٩).

(٦) سيرة ابن هشام (عقبة يتهكم بأمية لقعوده فيخرج).

(٧) انظر: مرويات غزوة بدر ، (ص ١٣٨).

وأعلمهم بخبر القافلة ، فسكنت مكَّة ، وتأوَّلت الرُّؤيا[(١)] ، كما أن جُهَيم بن الصَّلْت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجُحْفة ، فقد رأى رجلاً أقبل على فرسٍ حتَّى وقف ، ومعه بعيرٌ له ، ثمَّ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وفلان ، وفلانٌ ، فعدَّد رجالاً ممَّن قُتِلَ يوم بدر من أشراف قريش ، ثمَّ رأيته ضرب في لَبَّة بعيره ، ثمَّ أرسله في العسكر ، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْحٌ[(٢)] من دمه ، فلمَّا بلغت أبا جهل هذه الرُّؤيا ، قال: وهذا أيضاً نبيٌّ آخر من بني المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا[(٣)]. كانت تلك الرُّؤَى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى ، في إضعاف النَّفسيَّة القرشيَّة المشركة.

ثامناً: الوصف القرآنيُّ لمواقع المسلمين والمشركين في أرض المعركة:

قال تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

هذه الآية الكريمة توضِّح الأماكن في غزوة بدرٍ ، وصوَّر لنا ـ سبحانه وتعالى ـ الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء ، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة ، وكانت أرضه رخوةً ، تغوص فيها الأقدام ، ولم يكن هناك ماءٌ ، وكان الكفَّار بالجانب الآخر من الوادي ـ الأبعد من المدينة ـ وكانت أرضه ثابتةً ، وكان فيها ماءٌ ، وكان ركب العير الَّذي يقوده أبو سفيان ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ بالقرب من ساحل البحر[(٤)].

فقد ذكَّر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين بنعمته عليهم ، قال: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة ، فسرتم حتَّى كنتم ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بجانب الوادي ، وحافَّته الأقرب إلى المدينة المنوَّرة ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي: والكفار بالجانب الأبعد الأقصى ـ الَّذي هو بعيد بالنِّسبة للمدينة ـ ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: وعِيرُ أبي سفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ منكم.

وفي الآية تصوير ما دبَّر ـ سبحانه ـ من أمر غزوة بدرٍ؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً؛ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطَّائفتين؛ مبهمةً غير مبينةٍ ، حتَّى خرجوا؛

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة ، للعمري ، (ص ١٣٨) وهذه القصة مروية في سيرة ابن هشام في باب (ذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب).

(٢) نَضْح: أصابه رشاشٌ من دمه.

(٣) سيرة ابن هشام (رؤيا جُهَيْم بن الصَّلْت في مصارع قريش).

(٤) حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ.

ليأخذوا العير راغبين في الخروج ، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرُّض المسلمين لأموالهم ، فنفروا؛ ليمنعوا عِيرَهم ، وسبَّب الأسباب حتَّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدُّنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، وراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساقٍ ، وكان ما كان[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ بيان لتدبير الله الحكيم ، وإرادته النافذة؛ أي : ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك؛ لاختلفتم في الميعاد؛ لكراهتكم للحرب على قلَّتكم ، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها ، وانحصار همِّكم في أخذ العير ، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً؛ لأنَّهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً ، أو استكباراً ، لا اعتقاداً ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي : ولكن تلاقيتم هنالك على غير موعدٍ ، ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه ، وحكمته : أنَّه واقعٌ لابدَّ منه ، وهو القتال المفضي إلى خزيهم ، ونصركم عليهم ، وإظهار دينه ، وصدق وعده لرسوله ﷺ كما تقدَّم[(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال الآلوسي : أي : ليموت من يموت عن حجَّةٍ عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجَّةٍ شاهدها ، فلا يبقى محلٌّ لتعليلٍ بالأعداد؛ فإنَّ وقعة بدرٍ من الآيات الواضحة ، والحجج الغُرِّ المحجَّلة[(٣)] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ تذييلٌ قُصِدَ به التَّرغيب في الإيمان ، والتَّرهيب من الكفر ، أي : لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال أهل الإيمان ، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبهم ، وضمائرهم ـ وسيجازي ـ سبحانه ـ كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه مِنْ ثوابٍ ، أو عقابٍ على حسب ما يعلم ، وما يسمع عنه[(٤)] .

* * *

(١) انظر : تفسير الكشَّاف للزَّمخشريِّ (٢/ ١٦٠) .
(٢) انظر : تفسير الطَّبري (١٠/ ١١) .
(٣) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٧) بتصرف .
(٤) انظر : تفسير الآلوسي (١٠/ ٧) بتصرف .

المبحث الثَّاني
النَّبيُّ ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة

أولًا: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النَّبيِّ ﷺ والمسلمين معه، على أدنى ماء بدرٍ من المشركين؛ اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريشٍ له؛ يكون مقرّاً لقيادته، ويأمن فيه من العدوِّ، وكان ممَّا قاله سعدٌ في اقتراحه: «يا نبيَّ الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نَلْقَى عدوَّنا، فإن أعزَّنا الله، وأظهرنا على عدوِّنا؛ كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى؛ جلستَ على ركائبك، فلحِقْتَ بمن وراءنا، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ، يا نبيَّ الله! ما نحن بأشدَّ لك حبّاً منهم، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً، ما تخلَّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك» فأثنى عليه النَّبيُّ ﷺ خيراً، ودعا له بخيرٍ، ثمَّ بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ، على تلٍّ مشرفٍ على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثُلَّةٌ من شباب الأنصار، بقيادة سعد بن معاذٍ، يحرسون عريش رسول الله ﷺ. [ابن هشام (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٤٤)].

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ؛ منها:

١ ـ لابدَّ أن يكون مكان القادة مشرفاً على أرض المعركة، يتمكَّن القائد فيه من متابعة المعركة، وإدارتها.

٢ ـ ينبغي أن يكون مقرُّ القيادة آمناً بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ ـ ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرُّض لأيِّ خطرٍ.

٤ ـ ينبغي أن يكون للقائد قوَّةٌ احتياطيَّةٌ أخرى، تعوِّض الخسائر الَّتي قد تحدث في المعركة[1].

---

(١) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، ص ٦٦.

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المِنَنِ(١) الَّتي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدرٍ: أنَّه أنزل عليهم النُّعاسَ، والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال القرطبيُّ: «وكان هذا النُّعاس في الليلة الَّتي كان القتال من غدها، فكان النَّوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمِّ، ولكنَّ الله ربط جأشهم.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المِقْدَاد على فرسٍ أَبْلَقَ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ يُصلِّي، ويبكي حتَّى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنَّوم في هذه الليلة وجهانِ:

أحدهما: أنْ قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثَّاني: أنْ أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم، كما يقال: الأمن مُنِيمٌ، والخوفُ مُسْهِرٌ»(٢).

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم، في وقتٍ لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه، وكرماً، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتَّنبيه على أنَّه أكرمهم به.

قال الإمام الرَّازي: «وقد عُلِم بالعادة: أنَّ المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً، ويغتمُّ إذا لم يتمكَّن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السَّبب، فلا جَرَمَ عدَّ ـ تعالى وتقدَّس ـ تمكينهم من الطَّهارة من جملة نعمه»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «نزل النَّبي ﷺ ـ يعني حين سار إلى بدرٍ ـ والمسلمون بينهم وبين الماء رملةٌ دِعْصَةٌ ـ أي كثيرةٌ مجتمعةٌ ـ فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقى الشَّيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: (تزعمون: أنَّكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مُجْنِبِينَ)، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون، وتطهَّروا، وأذهب الله عنهم

(١) الْمنَّةُ: الإحسان والإنعام، والجمع: مِنَنٌ.
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٧/ ٣٢٧).
(٣) انظر: تفسير الفخر الرَّازي (١٥/ ١٣٣).

رجز الشَّيطان ، وثبت الرَّمل حين أصابه المطر ، ومشى النَّاس عليه ، والدَّواب ، فساروا إلى القوم»[١] .

فقد بيَّن ـ سبحانه ـ: أنَّه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة ، فتطهَّروا به حسِّيّاً ، ومعنويّاً؛ إذ ربط الله به على قلوبهم ، وثبَّت به أقدامهم؛ وذلك: أنَّ النَّاظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحرِّكةً لا زالت حتَّى اليوم ، ومن العسير المشي عليها ، ولها غبارٌ كبيرٌ ، فلمَّا نزلت الأمطار تماسكت تلك الرِّمال ، وسَهُل السَّير عليها ، وانطفأ غبارها ، وكلُّ ذلك كان نعمةً من الله على عباده[٢] .

ثالثاً: خطَّة الرَّسول ﷺ في المعركة[٣]:

ابتكر الرَّسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدرٍ أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى ، لم يكن معروفاً من قبل؛ حيث قاتل ﷺ بنظام الصُّفوف[٤] ، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] .

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصَّلاة ، وتقلُّ هذه الصُّفوف ، أو تكثر تَبَعاً لقلة المقاتلين ، أو كثرتهم ، وتكون الصُّفوف الأولى من أصحاب الرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف الَّتي خلفها من أصحاب النِّبال؛ لتسديدها من المهاجمين على الأعداء ، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدرٍ:

١ ـ إرهاب الأعداء ، ودلالةٌ على حسن وترتيب النِّظام عند المسلمين .

٢ ـ جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوَّة احتياطيَّة ، عالج بها المواقف المفاجئة في صدِّ هجومٍ معاكس ، أو ضرب كمينٍ غير متوقَّع ، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة ، والفُرْسان ، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأوَّل مرَّةٍ في غزوة بدرٍ سبقاً عسكريّاً ، تميَّزت به المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة على غيرها منذ أربعةَ عَشَرَ قرناً من الزَّمان[٥] .

ويظهر للباحث في السِّيرة النَّبويَّة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٩/ ١٩٥) .

(٢) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٩١) .

(٣) ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٧٥٢) .

(٤) انظر: القيادة العسكريَّة ، د. محمَّد الرَّشيد ، ص ٤٠١ .

(٥) انظر: الرَّسول القائد ﷺ ، لخطَّاب ، ص ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧ .

الجديدة ، وخاصَّةً تلك الَّتي لم يعهدْها العرب من قبل ، على نحو ما قام به النَّبيُّ ﷺ في يوم بدرٍ ، وأُحدٍ ، وغيرهما .

فقد كانت العرب تقاتل بأسلوب الكَرِّ والفَرِّ ، وقد علَّق اللواء محمود شيت خطَّاب على كلا الأسلوبين القتاليين بقوله : «إنَّ القتال بأسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلِّ قوَّتهم على العدوِّ؛ النَّشابة منهم ، والَّذين يقاتلون بالسُّيوف ، ويطعنون بالرِّماح ، مشاةً ، وفُرْساناً ، فإن ثبت لهم العدوُّ ، أو أحسُّوا بالضَّعف؛ نكصوا ، ثمَّ أعادوا تنظيمهم ، وكَرُّوا من جديدٍ ، وهكذا يكرُّون ، ويفرُّون حتَّى يكتب لهم النَّصر ، أو الاندحار .

والقتال بأسلوب الصَّفِّ يكون بترتيب المقاتلين صفَّين ، أو ثلاثة صفوفٍ ، أو أكثر ، على حسب عددهم ، وتكون الصُّفوف الأماميَّة من المسلمين مسلحةً بالرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف المتعاقبة الأخرى مزوَّدةً بالنِّبال؛ لرمي المهاجمين من الأعداء .

وتبقى الصُّفوف بقيادة قائدها ، وسيطرته إلى أن يفتقد هجوم أصحاب الكرِّ ، والفرِّ زخمه وشدَّته ، عند ذاك تتقدَّم الصُّفوف متعاقبةً متساندةً للزَّحف على العدوِّ ، ومطاردته عند هزيمته .

ويرى اللِّواء (خطاب) أنَّ أسلوب الصَّفِّ يتميَّز عن أسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، بأنَّه يؤمن التَّرتيب (بالعمق) ، فتبقى دائماً بيد القائد قوَّةٌ احتياطيَّة يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان؛ كأن يصدَّ هجوماً مقابلاً للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو يحمي الأجنحة الَّتي يهددها العدوُّ بفُرْسانه ، أو مشاته ، ثمَّ يستثمر الفوز بهذا الاحتياط عند الحاجة»[(١)] .

وقد تحدَّث ابن خلدون عن الأساليب القتاليَّة الجديدة؛ الَّتي استحدثها النَّبيُّ ﷺ في معاركه ، والَّتي لم يكن للعرب عهدٌ بها ، فقال مشيراً إلى ذلك : «وكان أسلوب الحرب أوَّل الإسلام كلُّه زحفاً ، وكان العرب إنما يعرفون الكرَّ ، والفرَّ . . . »[(٢)] .

وبيَّن أفضلية الأساليب الَّتي استحدثها النَّبيُّ ﷺ بقوله : «وقتال الزَّحف أوثق وأشدُّ من قتال الكرِّ ، والفرِّ؛ وذلك لأنَّ قتال الزَّحف ترتب فيه الصُّفوف ، وتسوَّى كما تسوى القداح ، أو صفوف الصَّلاة ، ويمشون بصفوفهم إلى العدوِّ قُدُماً؛ فلذلك تكون أثبت عند المصارع ، وأصدق في القتال ، وأرهب للعدوِّ؛ لأنَّه كالحائط الممتدِّ ، والقصر المشيد لا يطمع في إزالته»[(٣)] .

ومن جهة النَّظرة العسكرية فإنَّ هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصيَّة النَّبيِّ ﷺ ،

---

(١) انظر : غزوة بدرٍ الكبرى الحاسمة ، لمحمود خطَّاب ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) انظر : المقدِّمة ، لابن خلدون ، ص ٢٧٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧١ .

وبراعته العسكريَّة؛ لأنَّ التَّعليمات العسكريَّة الَّتي كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[١].

وتفصيل ذلك: فقد اتَّبع ﷺ أسلوب الدِّفاع ولم يهاجم قوَّة قريشٍ، وكانت توجيهاته التَّكتيكيَّة الَّتي نفَّذها جنودُه بكلِّ دقَّةٍ سبباً في زعزعة مركز العدوِّ، وإضعاف نفسيته؛ وبذلك تحقَّق النَّصر الحاسم ـ بتوفيق الله ـ على العدوِّ برغم تفوُّقه[٢] (بنسبة ٣ إلى ١)، فقد كان ﷺ يتصرَّف في كلِّ موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال، والظروف، وقد طبَّق الرَّسول ﷺ في الجانب العسكريِّ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة في مكانها الصَّحيح، أمَّا أخذه بالأسلوب الإقناعيِّ في غزوة بدرٍ؛ فقد تجلَّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضعَ متعدِّدةٍ؛ لأنَّه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السُّلطة؛ بل بالكفاءة، والثِّقة، وهو ﷺ أيضاً لا يستبدُّ برأيه، بل يتَّبع مبدأ الشُّورى، وينزل على الرَّأي الَّذي يبدو صوابه، ومارس ﷺ في غزوة بدرٍ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة، فقد تجلَّى في أمورٍ؛ منها[٣]:

الأمر الأوَّل: أمره ﷺ الصَّحابة برمي الأعداء؛ إذا اقتربوا منهم؛ لأنَّ الرَّمي يكون أقربَ إلى الإصابة في هذه الحالة: «إن دنا القوم منكم؛ فانضحُوهم[٤] بالنَّبْل» [ابن هشام (٢/٢٧٨) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٨١)].

الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سلِّ السيوف إلى أن تتداخل الصُّفوف[٥]: «ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم» [أبو داود (٢٦٦٤)].

الأمر الثالث: أمره ﷺ الصَّحابة بالاقتصاد في الرَّمي[٦]: «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [البخاري (٢/ ٣٩٨٤) و٣٩٨٥) وأبو داود (٢٦٦٣)].

وعندما تقارن هذه التَّعليمات الحربيَّة بالمبادئ الحديثة في الدِّفاع؛ تجد أنَّ رسول الله ﷺ كان سبَّاقاً إليها، من غير عكوفٍ على الدَّرس، ولا التحاقٍ بالكلِّيات الحربيَّة، فالنَّبيُّ ﷺ يرمي

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة، لمحمَّد محفوظ، ص ١٢١.

(٢) انظر: مقومات النَّصر، د. أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤).

(٣) هذه الأمور الثلاثة موجودة في حديث رواه أبو داود، قال رسول الله ﷺ: «إذا أكثبوكم ـ يعني: اقتربوا منكم ـ فارموهم، واسْتَبْقُوا نبلكم، ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم». (أبو داود، باب في سل السيوف عند اللقاء) وهذه المعاني المذكورة في الحديث، وهي في صحيح البخاري، في الحديثين رقم (٣٩٨٤، ٣٩٨٥).

(٤) نَضَحَهُ بالنَّبل: إذا رماه به.

(٥) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص ٦٣، ٦٤.

(٦) المصدر السابق نفسه.

مِنْ وراء تعليماته الَّتي استعرضناها آنفاً إلى تحقيق ما يُعرف حديثاً بكبت النِّيران إلى اللحظة الَّتي يصبح فيها العدوُّ في المدى المؤثِّر لهذه الأسلحة ، وهذا ما قصده ﷺ في قوله : «واسْتَبْقوا نَبْلكم» [سبق تخريجه] .

فرصة الاستفادة من الظُّروف الطَّبيعية أثناء قتال الأعداء :

ولم يهملْ ﷺ فرصةَ الاستفادة من الظروف الطَّبيعية أثناء قتال العدوِّ ، فقد كان يستفيد من كلِّ الظُّروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه ، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدرٍ ، يقول المقريزي : «وأصبح ﷺ ببدرٍ قبل أن تنزل قريش ، فطلعت الشَّمس وهو يصفُّهم ، فاستقبل المغرب ، وجعل الشَّمس خلفه ، فاستقبلوا الشَّمس»[1] .

وهذا التَّصرُّف يدلُّ على حسن تدبيره ﷺ ، واستفادته حتَّى من الظُّروف الطَّبيعية ، لما يحقِّق المصلحة لجيشه ؛ وإنَّما فعل ذلك لأنَّ الشَّمس إذا كانت في وجه المقاتل ، تسبِّب له عَشَا[2] البصر ؛ فتقلُّ مقاومته ، ومجابهته لعدوِّه[3] . وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدرٍ إشارةٌ إلى أنَّ الظروف الطَّبيعيَّة كالشَّمس ، والرِّيح ، والتَّضاريس الجغرافيَّة ، وغيرها لها تأثيرٌ عظيمٌ على موازين القوى في المعارك ، وهي من الأسباب الَّتي طلب الله منَّا الأخذ بها ؛ لتحقيق النَّصر ، والصُّعود إلى المعالي[4] .

سَوَّاد بن غَزِيَّة في الصفوف :

كان ﷺ في بدرٍ يعدِّل الصُّفوف ، ويقوم بتسويتها ؛ لكي تكون مستقيمةً ، متراصةً ؛ وبيده سَهْمٌ لا ريش له ، يُعَدِّل به الصَّف ، فرأى رجلاً اسمه سَوَّاد بن غَزِيَّة وقد خرج من الصَّفِّ ، فطعنه ﷺ في بطنه ، وقال له : «استوِ يا سَوَّاد!» فقال : يا رسولَ الله! أَوْجَعْتَنِي! وقد بعثك الله بالحقِّ ، والعدل ، فأَقِدْني[5] ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : «استَقِدْ» ، فاعتنقه ، فقبَّل بطنه ، فقال : «ما حملك على هذا يا سَوَّاد!» قال : يا رسولَ الله! حضر ما ترى ؛ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلْدَك . فدعا له رسول الله بخير . [ابن هشام (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩)] .

---

(١) انظر : القيادة العسكرية ، ص ٤٥٣ .
(٢) عَشِيَ عَشاً ، وعَشَاوةً : ضعُفَ بصرُه ليلاً ، فهو أعشى .
(٣) انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذيِّ (٧/ ١٧٥) .
(٤) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، ص ٤٥٤ .
(٥) أقِدْني : اقتصَّ لي من نفسك .

ويُستفاد من قصَّة سَوَّاد رضي الله عنه أمورٌ؛ منها:

١ ـ حرص الإسلام على النِّظام.

٢ ـ العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القَوَد من نفسه.

٣ ـ حب الجندي لقائده.

٤ ـ تذكُّر الموت، والشَّهادة.

٥ ـ جسد رسول الله ﷺ مباركٌ، ومسُّه فيه بركةٌ؛ ولهذا حرص عليها سَوَّاد.

٦ ـ بطن الرَّجل ليس بعورةٍ؛ بدليل: أنَّ النبي ﷺ كشف عنه، ولو كان عورةً؛ لما كشف عنه[(١)].

تحريض النَّبيِّ ﷺ أصحابه على القتال:

كان رسولُ الله ﷺ يربِّي أصحابَه على أن يكونوا أصحاب إراداتٍ قويَّةٍ، راسخةٍ، ثابتةٍ، ثبات الشُّمِّ[(٢)] الرَّواسي، فيملأ قلوبهم شجاعةً، وجرأةً، وأملاً في النَّصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القويَّة أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب؛ التَّرغيب في أجر المجاهدين الثَّابتين، والتَّرهيب من التولِّي يوم الزَّحف، والفرار من ساحات الوَغَى[(٣)]، كما كان يحدِّثهم عن عوامل النَّصر، وأسبابه؛ ليأخذوا بها، ويلتزموها، ويحذِّرهم من أسباب الهزيمة؛ ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[(٤)].

وكان ﷺ يحثُّ أصحابه على القتال، ويحرِّضهم عليه؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء: ٨٤].

وفي غزوة بدرٍ الكبرى، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات، والأرض»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله! جَنَّةٌ عرضُها السَّموات والأرضُ؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ، بخٍ! (كلمة تعجب)، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملُك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟!» قال: لا والله! يا رسولَ الله! إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنَّك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قَرَنِهِ (جعبَة النُّشَّاب)، فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتَّى

---

(١) انظر: غزوة بدرٍ الكبرى، لأبي فارس، ص ٥٢.

(٢) الأشَمُّ: المرتفع، وهي شَمَّاءُ، ويقال: جبلٌ أَشَمُّ، والجمع: شُمٌّ.

(٣) الوَغَى: الحَرْبُ؛ لما فيها من الصَّوت، والجَلبة.

(٤) انظر: المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة، لأبي فارس، ص ١٤٠.

آكل تمراتي هذه ، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، قال: فرمى بما كان معه من التَّمر، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتل. [مسلم (١٩٠١)] .

وفي روايةٍ قال: قال أنسٌ رضي الله عنه: فرمى ما كان معه من التَّمر ، وقاتل؛ وهو يقول:

رَكْضــــاً إلـــى اللهِ بِغَيْــرِ زَادِ إلا التُّقَـــى وَعَمَـــلَ المَعَـــادِ
والصَّبْـرَ فـي اللهِ علـى الجِهَـادِ وكُـلُّ زادٍ عُـرْضَـةُ النَّفَـادِ
غَيْـرَ التُّقَـى والبِـرِّ والـرَّشَـادِ

فقاتل ـ رحمه الله! ـ حتَّى استُشْهِد[١] .

ومن صور التَّعبئة المعنويَّة: أنَّه ﷺ كان يبشِّرهم بقتل صَنَادِيد[٢] المشركين ، وزيادةً لهم في الطُّمأنينة ، كان يحدِّد مكان قتل كلِّ واحدٍ منهم[٣] ، كما كان يبشِّر المؤمنين بالنَّصر قبل بدء القتال ، فيقول: «أبشرْ أبا بكر» ووقف رسول الله ﷺ يقول للصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «والذي نفسُ محمد بيده! لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ ، فَيُقْتَل صابراً محتسباً ، مقبلاً غيرَ مُدْبرٍ ، إلا أدخله الله الجنَّة» [ابن هشام (٢/ ٢٧٩)] .

وقد أثَّرت هذه التَّعبئة المعنويَّة في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ والَّذين جاؤوا من بعدهم بإحسانٍ[٤] .

وكان ﷺ يطلب من المسلمين ألاَّ يتقدمَ أحدٌ إلى شيءٍ حتَّى يكون دونه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: . . . . فانطلق رسول الله ﷺ ، وأصحابه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدرٍ ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ: «لا يَقْدُمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونَه»[٥] ، فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ» [سبق تخريجه] .

دعاؤه ﷺ واستغاثته:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] ، لمَّا نظم ﷺ صفوف جيشه ، وأصدر أوامره لهم ، وحرَّضهم على القتالِ؛ رجع

(١) انظر: صفة الصَّفوة (١/ ٤٨٨) وزاد المعاد (٣/ ١٨٢) .
(٢) الصِّنْدِيدُ: الشَّريفُ الشُّجاعُ ، والجمع: صَنَادِيدُ.
(٣) قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول: هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدودَ الَّتي حدَّ رسولُ الله ﷺ» . رواه مسلمٌ ، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها ، رقم (٢٨٧٣) .
(٤) المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، لأبي فارس ، ص ١٤٣ .
(٥) (لا يتقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتَّى أكون أنا دونه): أي: قدَّامه متقدِّماً في ذلك الشَّيء؛ لئلا يفوت شيءٌ من المصالح التي لا تعلمونها .

إلى العريش الَّذي بُني له ، ومعه صاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه ، وسعد بن معاذٍ على باب العريش لحراسته؛ وهو شاهرٌ سَيْفَه ، واتَّجه رسول الله ﷺ إلى ربِّـه يدعوه ، ويناشده النَّصر الَّذي وعده ، ويقول في دعائه : «اللَّهمَّ أَنْجِزْ لي ما وعدتني! اللَّهُمَّ آتِ ما وعدتني! اللَّهُمَّ إن تُهْلِكْ هذه العصابةَ من أهل الإسلام لا تُعْبدْ في الأرض!» فما زال يهتفُ بربِّه ، مادّاً يديه ، مستقبلَ القبلة ، حتَّى سقط رداؤُهُ عن مَنْكبيه ، فأتاه أبو بكرٍ ، فأخذ ردَاءَهُ ، فألقاه على مَنْكبيه ، ثمَّ التزمه من ورائه ، وقال : يا نبيَّ الله! كفاك مناشدتُك ربَّك ، فإنَّه سينجز لـكَ ما وعدك! [مسلم (١٧٦٣) وأبو داود (٢٦٩٠) والترمذي (٣٠٨١) وأحمد (١/ ٣٠)]. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ .

وفي رواية ابن عباسٍ قال: قال النَّبيُّ ﷺ يوم بدرٍ : «اللَّهمَّ أنشُدُكَ عَهْدَكَ، ووعدك! اللَّهُمَّ إن شئتَ لم تُعْبَدْ» فأخذ أبو بكر بيده، فقال : حسبك، فخرج ﷺ ؛ وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [البخاري (٢٩١٥) وأحمد (١/ ٣٢٩) والبيهقي في الدلائل (٣/ ٥٠)] .

وروى ابن إسحاق: أنَّه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ هذه قريش ، قد أقبلت بخُيَلائها[(١)] ، وفَخْرِها ، تُحَادُّك[(٢)] وتكذِّبُ رسولَك ، اللَّهُمَّ فنصرَك الَّذي وعدتني! اللَّهُم أحنهم[(٣)] الغداة!» [ابن هشام (٢/ ٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/ ١١٠)] .

وهذا درسٌ ربَّانيٌّ مهمٌّ لكلِّ قائدٍ ، أو حاكمٍ ، أو زعيمٍ ، أو فردٍ في التَّجرُّد من النَّفس. وحظِّها ، والخلوص ، واللُّجوء لله وحدَه ، والسُّجود ، والجُثُوِّ بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره ، ويبقى مشهد نبيِّه؛ وقد سقط رداؤه عن كتفه؛ وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله ، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ، ووجدانه ، يحاول تنفيذه في مثل هذه السَّاعات ، وفي مثل هذه المواطن ، حيث تناط به المسؤوليَّة ، وتُلقى عليه أعباء القيادة[(٤)] .

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ :

بعد أن دعا ﷺ ربَّه في العريش ، واستغاث بـه ، خرج من العريش ، فأخذ قبضـةً من التُّراب ، وحصب بها وجوهَ المشركين ، وقال ﷺ : «شاهتِ الوجوه» [ابن هشام (٢/ ٢٨٠)] ثمَّ أمر ﷺ أصحابه أن يَصْدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين

---

(١) الخُيَلاء : التكبُّر ، والعجب.
(٢) تُحَادُّك : تعاديك.
(٣) أحنهم : أهلكهم.
(٤) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٣٦).

المشركين ، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] ، ومعنى الآية: أنَّ الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرَّمي ، ونفى عنه الإيصال الَّذي لم يحصل برميته(١) .

ونلحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ أخذ بالأسباب المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، وتوكَّل على الله ، فكان النَّصر والتَّأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدرٍ الأخذ بالأسباب بالقَدْرِ الممكن ، مع التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في تهيئة جميع أسباب النَّصر متعاونةً ، متكافئةً مع التأييدات الرَّبَّانيَّة الخارقة ، والغيبيَّة؛ ففي عالم الأسباب تشكِّل دراسة الأرض ، والطَّقس ، ووجود القيادة والثِّقة بها ، والرُّوح المعنويَّة لبناتٍ أساسيةً في صحَّة القرار العسكريِّ ، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين ، وكان الطَّقس مناسباً للمعركة ، والقيادة الرَّفيعة موجودةً ، والثِّقة بها كبيرة ، والرُّوح المعنويَّة مرتفعة ، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكلٍ مباشرٍ ، وتوفيقه ، وبعضها كان من فِعْلِ رسول الله ﷺ أخذاً بالأسباب المطلوبة ، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله ، وزيدَ على ذلك التأييدات الغيبيَّة ، والخارقة؛ فكان ما كان ، وذلك نموذجٌ على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله ، إذا ما صلحت النِّـيَّات عند الجند ، والقادة ، ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب(٢) .

* * *

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥) .
(٢) انظر: الأساس في السنة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوى (١/ ٤٧٤) .

المبحث الثَّالث
نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفرديَّة، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار؛ ولكنَّ الرَّسول ﷺ أرجعهم؛ لأنَّه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله، وذوي قرباه؛ ولذلك قال ﷺ: «قم يا عُبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!» وبارز حمزةُ شيبةَ، فقتله، وبارز عليٌّ الوليدَ، وقتله، وبارز عبيدةُ بن الحارث عتبةَ، فضرب كلُّ واحدٍ منهما الآخر بضربةٍ موجعةٍ، فكرَّ حمزة، وعليٌّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة، وأتيا به إلى رسول الله ﷺ، ولكن ما لبث أن اسْتُشهد متأثراً بجراحه. [أبو داود (٢٦٦٥)][1].

وفي هؤلاء السِّتَّة نزل قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٤].

ولمَّا شاهد المشركون قَتْلَ الثلاثة الَّذين خرجوا للمبارزة؛ استشاطوا غضباً، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد، وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدِّفاع، ويرمونهم بالنَّبل، كما أمرهم النَّبيُّ ﷺ، وكان شعار المسلمين: أَحَدٌ، أَحَدٌ، ثمَّ أمرهم النَّبيُّ ﷺ بالهجوم المضادِّ، محرِّضاً لهم على القتال، وقائلاً لهم: «شُدُّوا»، وواعداً مَنْ يُقتل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنَّة، وممَّا زاد في نشاط المسلمين، واندفاعهم في القتال، سماعُهم قولَ النَّبيِّ ﷺ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وعِلْمُهم، وإحساسُهم بإمداد الله لهم بالملائكة، وبتقليل المشركين في أعين المسلمين، ورؤيتهم رسولَ الله ﷺ يَثبُ في الدِّرع وقد تقدَّمهم، فلم يكن أحدٌ أقرب من المشركين منه، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[2].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/١٢٦).
(٢) انظر: الرَّحيق المختوم، ص ١١٦ ـ ١١٨، والحديث رواه البخاريُّ، رقم (٤٨٧٥).

كان ﷺ قد رأى في منامه ـ ليلة اليوم الَّذي التقى فيه الجيشان ، رأى ـ المشركين قليلاً ، وقد قصَّ رؤياه على أصحابه؛ فاستبشروا خيراً ، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال: ٤٣] .

والمعنى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ رآهم ـ أي: رأى المشركين ـ في منامه قليلاً ، فقصَّ ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم ، قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيراً؛ لفشلوا ، وجبنوا على قتالهم ، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الآية بمعنى الماضي؛ لأنَّ نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام ، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي: عصمهم من الفشل، والتنازع، فقلَّلهم في عين رسول الله ﷺ[1] ، فقصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيتٌ لهم، وتشجيعهم، وجرأتهم على عدوِّهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كلٌّ منهم عدد الآخر قليلاً .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤] .

وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين؛ تصديقاً لرؤيا النَّبي ﷺ ، وليعاينوا ما أخبرهم به ، فيزدادوا يقيناً ، ويجدُّوا في قتالهم؛ ويثبتوا ، قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة ، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً ، وقوله تعالى: ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتَّى قال قائل من المشركين: إنَّما هم أكلة جَزُور .

ووجه الحكمة ، واللُّطف بالمسلمين في هذا التَّقليل ، هو أنَّ إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبَّتهم ، ونشَّطهم ، وجرَّأهم على قتال المشركين ، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم ، ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين ، هو أنَّهم إذا رأوهم قليلاً؛ أقدموا على قتالهم غيرَ خائفين ، ولا مبالين بهم ، ولا آخذين الحذر منهم ، فلا يقاتلون بجدٍّ ، واستعدادٍ ، ويقظةٍ ، وتحرُّزٍ ، ثمَّ إذا ما التحموا بالقتال فعلاً؛ تفجؤهم الكثرة ، فَيُبْهَتُوا ، ويَهَابُوا ، وتكسر شوكتُهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم ، وتقديرهم ، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم ، وانتصار المسلمين عليهم[2] .

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة ، ومرويات عددٍ من الصحابة

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥) .

(٢) انظر: تفسير الزَّمخشري (٢/ ٢٢٥) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥) .

البدريين: أنَّ الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرُّعب.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وأورد البخاريُّ، ومسلمٌ، وأحمد بن حنبل، وغيرهم عدداً من الأحاديث الصَّحيحة الَّتي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدرٍ، وقيامهم بضرب المشركين، وقتلهم(١).

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ، يَشْتَدُّ في أَثَـرِ رجلٍ من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ(٢)! فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليـه فإذا هو خُطِمَ أنفُه(٣)، وشُقَّ وَجْهُهُ كضربة السَّوط، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فجاء الأنصاريُّ، فحدَّثَ بذلك رسولَ الله، فقال: «صدقتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماء الثالثة»، [سبق تخريجه] ومن حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما ـ أيضاً ـ قال: إنَّ النبي ﷺ قال يوم بدرٍ: «هذا جبريلُ آخِذٌ برأس فرسه، عليه أداةُ الحرب» [البخاري (٣٩٩٥)]، ومن حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: فجاء رجلٌ من الأنصار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطَّلب أسيراً، فقال العباس: يا رسولَ الله! إنَّ هذا والله! ما أسرني، لقد أسرني رجل أَجْلَحُ(٤)، من أحسن النَّاس وجهاً، على فرسٍ أَبْلَقَ(٥)، وما أراه في القوم، فقال الأنصاريُّ: أنا أسرته يا رسولَ الله! فقال: «اسكت، فقد أيَّدك الله بملكٍ كريمٍ»، [أحمد (١/١١٧)]، ومن حديث أبي داود المازنيِّ قال: «إنِّي لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه؛ إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنَّه قتله غيري» [أحمد (٥/ ٤٥٠) وابن هشام (٢/ ٢٨٦)].

«إنَّ إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعيٌّ ثابتٌ، لاشكَّ فيه، وإنَّ الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكلِّ ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين، من تبشيرهم بالنَّصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ﷺ (١/ ٢٩١).
(٢) حَيْزُوم: اسم الفرس الَّذي يركبه المَلَكُ.
(٣) خُطِم: الخطم الأثر على الأنف.
(٤) الأَجْلَح: الَّذي انحسر شعره من جانبي رأسه، فهو أجلحُ، وهي جَلْحَاءُ، والجمع: جُلْحٌ.
(٥) الأبلق: الَّذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم ، والنَّشاط في قتالهم ، وبما أظهروه لهم من أنَّهم مُعانون من الله تعالى ، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعليِّ في القتال ، ولاشكَّ: أنَّ هذا الاشتراك الفعليَّ في القتال قوَّى قلوبَهم ، وثبَّتهم في القتال ، وهذا ما دلَّت عليه الآيات ، وصرَّحت به الأحاديث النَّبوية»[1] .

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة ، مع أنَّ واحداً من الملائكة كجبريل عليه السَّلام ، قادرٌ ـ بتوفيق الله ـ على إبادة الكفَّار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك ، فقال: لقد مضت سنَّة الله بتدافع الحقِّ ، وأهله مع الباطل ، وأهله ، وأنَّ الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة ، والانتصار ، وأنَّ هذا التَّدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحقِّ والباطل ، ومن ثمرات التمسُّك بالحقِّ ، والقيام بمتطلَّباته أن يحصلوا على عونٍ ، وتأييد من الله تعالى بأشكالٍ ، وأنواعٍ متعدِّدة من التأييد ، والعون ، ولكن تبقى المدافعة ، والتدافع يجريان وَفْقاً لسنن الله فيهما ، وفي نتيجة هذا التَّدافع ، فالجهة الأقوى بكلِّ معاني القوَّة اللازمة للغلبة هي الَّتي تغلب ، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة ، ذلك الإمداد الَّذي تحقَّق به ما يستلزم الغلبة على العدوِّ ، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدَّمه أولئك المؤمنون في قتالٍ ، ومباشرة لأعمال القتال ، وتعرُّضهم للقتل ، وصمودهم ، وثباتهم في الحرب ، واستدامة توكُّلهم على الله ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهذه معانٍ جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة ، والنَّصر مع الأسباب الأخرى المادِّية؛ مثل العُدَّة ، والعَدد ، والاستعداد للحرب ، وتعلُّم فنونها . . . إلخ ، ولهذا فإنَّ الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل ، وقتال المبطلين ، وأن يهيئوا الأسباب المادِّيَّة ، والإيمانيّة للغلبة والانتصار ، وبأيديهم ـ إن شاء الله تعالى ـ ينال المبطلون ما يستحقُّونه من العقاب[2] ، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥] .

إنَّ نزول الملائكة ـ عليهم السَّلام ـ من السَّموات العلا إلى الأرض؛ لنصر المؤمنين حدثٌ عظيمٌ؛ إنَّه قوَّةٌ عظمى ، وثباتٌ راسخٌ للمؤمنين؛ حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، وأنَّهم إذا حققوا أسباب النَّصر ، واجتنبوا موانعه ، فإنَّهم أهلٌ لمدد السَّماء ، وهذا الشُّعور يعطيهم جرأةً في مقابلة الأعداء ، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة ، لبُعد التكافؤ

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١ ، ١٣٢).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١ ، ١٣٢).

المادِّيِّ بين جيش الكفار الكبيرِ عدداً ، القويِّ إعداداً ، وجيش المؤمنين القليلِ عدداً ، الضعيفِ إعداداً .

وهو في الوقت نفسه عاملٌ قويٌّ في تحطيم معنوية الكفَّارِ ، وزعزعة يقينهم ، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تَكْرَار نزول الملائكة ؛ الَّذين شاهدهم بعض الكفَّار عَيَاناً ، إنَّهم مهما قدَّروا قوَّة المسلمين ، وعددهم ؛ فإنَّه سيبقى في وجدانهم رعبٌ مزلزِلٌ من احتمال مشاركة قوىً غير منظورةٍ ، لا يعلمون عددها ، ولا يقدِّرون مدى قوَّتها ، وقد رافق هذا الشُّعورُ المؤمنين في كلِّ حروبهم؛ الَّتي خاضها الصَّحابة رضي الله عنهم في العهد النَّبويِّ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين ، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك ، فكان عاملاً قويّاً في انتصاراتهم المتكرِّرة الحاسمة مع أعدائهم[١] .

ثانياً : انتصار المسلمين على المشركين ، وحديث رسول الله ﷺ لأهل القَلِيب[٢] :

انتهت معركة بدرٍ بانتصار المسلمين على المشركين ، وكان قتلى المشركينَ سبعين رجلاً ، وأُسِر منهم سبعون ، وكان أكثرهم من قادة قريش ، وزعمائهم ، واسْتُشهد من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً ، منهم ستَّةٌ من المهاجرين ، وثمانيةٌ من الأنصار، ولمّا تمَّ الفتحُ ، وانهزم المشركون؛ أرسل ﷺ عبدَ الله بن رَوَاحة ، وزيدَ بن حارثة، ليبشِّرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين، وهزيمة المشركين[٣] .

ومكث ﷺ ثلاثة أيَّام في بدرٍ ، فقد ذكر أنس بن مالكٍ عن أبي طلحة : «أنَّ نبيَّ الله ﷺ . . . وكان إذا ظَهَرَ على قومٍ: أقام بالعَرْصَة ثلاثَ ليالٍ» [البخاري (٣٩٧٦)] ولعلَّ الحكمة في ذلك :

١ ـ تصفية الموقف بالقضاء على أيَّة حركةٍ من المقاومة اليائسة ؛ الَّتي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارِّين .

٢ ـ دفن من استشهد من جند الله ، مما لا تكاد تخلو منه معركةٌ ، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة ، ولم يَرِدْ ما يشير إلى الصَّلاة عليهم ، ولم يُدفن أحدٌ منهم خارج بدرٍ[٤] .

٣ ـ جمع الغنائم ، وحفظها ، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ ؛ حتى تُؤَدَّى كاملةً إلى

---

(١) انظر : التاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/ ١٤٥) .
(٢) القَلِيب : البئر ، والجمع : قُلُبٌ .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣) .
(٤) انظر : موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩١) .

مستحقِّيها ، وقد أُسندت أنفال ، وغنائم بدر ، إلى عبد الله بن كعبٍ الأنصاريِّ أحد بني مازنٍ(١) .

٤ ـ إعطاء الجيش الظَّافر فرصةً يستريح فيها ، بعد الجهد النَّفسيِّ ، والبدنيِّ الْمُضْنِي الَّذي بذله أفراده في ميدان المعركة ، ويضمِّد فيها جراح مجروحيه ، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النَّصر المؤزَّر ، الَّذي لم يكن دانيَ القطوف ، سهلَ المنال ، ويتذاكر أفراده ، وجماعاته ما كان من أحداثٍ ومفاجآت في الموقعة ، ممَّا كان له أثرٌ فعَّال في استجلاب النَّصر ، وما كان من فلانٍ في شجاعته وفدائيته ، وجرأته على اقتحام المضائق ، وتفريج الأزمات ، وما تكشَّفت عنه المعركة من دروسٍ عمليَّة في الكرِّ ، والفرِّ ، والتَّدبير المحكم الَّذي أخذ به العدو ، وما في ذلك من عبَر ، واستذكار أوامر القيادة العليا ، وموقفها في رسم الخطط ، ومشاركتها الفعليَّة في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياءٌ يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية ، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصَّبور ، المظفَّر بالنَّصر المبين .

٥ ـ مواراة جِيَفِ(٢) قتلى الأعداء ، الَّذين انفرجت المعركة عن قتلهم ، والتعرُّف عليهم ، وعلى مكانتهم في حشودهم ، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاءَ شرِّه في المستقبل؛ كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمَّة ، والذي كان من شأن رأس الكفر أميَّة بن خلف ، وأضرابهما ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ(٣) من قُلُبِ بدرٍ ، خبيثٍ مُخْبِثٍ [البخاري (٣٩٧٦)] ، ثمَّ وقف على شفة الرَّكي(٤) ، وقد ورد: أنَّه ﷺ وقف على القتلى ، فقال: «بئس عشيرةُ النَّبيِّ كنتم لنبيِّكم ؛ كذَّبتموني ، وصدَّقني النَّاس، وخذلتموني، ونصرني النَّاس، وأخرجتموني، وآواني النَّاس» [ابن هشام (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣)] .

ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ من قُلُبِ بدر، فطُرِحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبةُ بنُ ربيعةَ! ويا شيبةُ بنُ ربيعةَ! ويا أُميَّةُ بنُ خلف! ويا أبا جهل بن هشام! ويا فلان! ويا فلان! هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً ، فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقّاً» ، فقال عمر بن الخطَّاب: يا رسولَ الله! ما تخاطب من أقوامٍ قد جيَّفوا؟ فقال: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً» [البخاري (٣٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤)] .

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لصادق عرجون (٣/ ٤٥٣) .
(٢) الجِيفَةُ: جُثَّةُ الميت إذا أنْتَنَت ، والجمع: جِيَفٌ .
(٣) الرَّكِيَّةُ: البئر لم تُطْوَ ، والجمع رَكَايَا ، ورُكِيٌّ .
(٤) شفة الرَّكِيِّ: طرف البئر .

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه، توبيخاً، وتصغيراً، ونقمةً، وحسرةً، وندماً. [البخاري في نهاية حديث (٣٩٧٦)].

إنَّ مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بيَّنت أمراً عظيماً، وهو أنَّهم بدؤوا حياةً جديدةً، هي حياة البرزخ الخاصَّة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنَّهم لا يجيبون، ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتَّى إنَّه ﷺ مرَّ بقبرين، وقال: «إنهما لَيُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبيرٍ» [البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢)]. وذكر: أنَّ سبب تعذيبهما النَّمُّ بين النَّاس، وعدمُ الاستنزاه من البَوْلِ[1]. ولابدَّ من التَّسليم بهذه الحقائق الغيبيَّة، بعد أن تحدَّث عنها الصادق المصدوق ﷺ، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وأمَّا الشُّهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

* * *

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ص ٦٤.

المبحث الرَّابع
مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطُّغاة:

أـ مصرع أبي جهل بن هشامٍ المخزوميِّ:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: بَيْنَا أنا واقفٌ في الصَّفِّ يوم بدرٍ، فنظرتُ عن يميني، وشِمالي، فإذا أنا بغُلامَيْنِ من الأنصار حديثة أَسْنَانُهما، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بين أضلَعَ[١] منهما، فغمزني[٢] أحدُهما، فقال: يا عمُّ! هل تعرفُ أبا جهلٍ؟ قلتُ: نعم، وما حاجتُك إليه يابن أخي؟! قال: أُخْبِرْتُ أنَّه يَسُبُّ رسولَ الله ﷺ، والَّذي نفسي بيده! لئن رأيتُهُ لا يُفارقُ سوادي سوادَهُ؛ حتَّى يموتَ الأعجلُ منا[٣]، فتعجبتُ لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مِثْلَهَا، فلم أَنْشَبْ[٤] أَنْ نظرتُ إلى أبي جهلٍ يَجُول في النَّاس، فقلت: ألا إنَّ هذا صَاحِبُكما الَّذي سألتُمَاني، فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتَّى قتلاه، ثمَّ انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيُّكما قَـتَـلَهُ؟» قال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه! فقال: «هل مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُما؟»، قالا: لا. فنظر في السَّيفين، فقال: «كِلاكُما قتله، سَلَبُه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح» وكانا: مُعاذَ بن عَفْرَاء، ومُعَاذَ بن عمروِ بن الجموح» [البخاري (٣١٤١) ومسلم (١٧٥٢)][٥].

وفي حديث أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدرٍ: «مَنْ ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضرَبَه ابنا عفراء حتَّى بَرَدَ[٦]، فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبا جهل؟! قال:

---

(١) أضلع: أقوى، وأعظم، وأشدُّ.

(٢) غمزني: قرصني.

(٣) حتَّى يموتَ الأعجلُ منا: أي: الأقرب أجلاً.

(٤) أنشب: ألبث.

(٥) وإنَّما قضى ﷺ بالسَّلَب لعمرو بـن الجَمُوح وحده؛ لأن السَّلَب يستحقُّـه من أثخن فـي القتل، ولو شاركه غيره في الضَّرب، أو الطعن، وإنَّما قال النَّبيُّ ﷺ: «كلاكما قتله» تطييباً لقلب الآخر؛ من حيث إنَّ له مشاركة في قتله، ومن ذلك عُلِمَ أنَّ ابن الجموح هو الَّذي أثخنه، وأيضاً فإن مُعاذَ بن عفراء قُتِلَ في المعركة نفسها، وأما الآخر فقد عاش إلى زمان عثمان رضي الله عنه.

(٦) بَـرَدَ: قارب على الموت، وكان في النَّزع الأخير، أو فترَ وسَكَنَ، والمعنيان متقاربان.

وهل فوقَ رجلٍ قتله قومُه؟ أو قال: قَتَلتموه. [البخاري (٣٩٦٢) ومسلم (١٨٠٠/١١٨)].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركتُ أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً، فقلت: أيْ عدوَّ الله، قد أخزاك الله! قال: وبم أخزاني؟ هل أَعْمُدُ من رجلٍ قتله قومه[١]، ومعي سيفٌ لي، فجعلت أضربه، ولا يحتك فيه شيءٌ، ومعه سيفٌ له جيِّدٌ، فضربتُ يده، فوقع السَّيف من يده، فأخذته، ثمَّ كشفتُ المِغْفَرَ عن رأسه، فضربتُ عنقَه، ثمَّ أتيتُ النبيَّ ﷺ، فأخبرته، فقال: «آلله الَّذي لا إله إلا هو؟!» قلت: آلله الَّذي لا إله إلا هو!

قال: فانطلق فاستثبت، فانطلقتُ؛ وأنا أسعى مثلَ الطَّائر، ثم جئتُ، وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقتُ معه فأريتُه، فلمَّا وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعونُ هذه الأمَّة» [أحمد (١/ ٤٠٣ و٤٤٤) وأبو داود (٢٧٠٩) مختصراً].

كان الدَّافع من حرص الأنصاريَّيْنِ الشَّابَّيْنِ على قتل أبي جهلٍ ما سمعاه من أنَّه كان يسبُّ رسولَ الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبَّة شباب الأنصار لرسول الله ﷺ، إلى بذل النَّفس في سبيل الانتقام ممَّن تعرَّض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه وأبي جهلٍ ـ وهو في الرَّمق الأخير من حياته ـ فيه عبرةٌ بليغةٌ، فهذا الطَّاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكَّة، قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمقٍ من حياته، هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً؛ حتى؛ وهو صريعٌ وفي آخر لحظات حياته[٢]، فقد جاء في روايةٍ لابن إسحاق: أنَّه قال لعبد الله بن مسعود لمَّا أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعِي الغنم!» [ابن هشام (٢/ ٢٨٩)].

«فالله تعالى لم يُعجِّلْ لهذا الخبيث أبي جهلٍ بضربات الأبطال من أشبال الأنصار فحسب، ولكنَّه أبقاه مصروعاً في حالةٍ من الإدراك، والوعي، بعد أن أصابته ضرباتٌ أشفَتْ به على الهلاك الأبديِّ، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة، والذُّلِّ، والخذلان على يد من كان يستضعفه، ويؤذيه، ويضطهده بمكَّة من رجال الرَّعيل الأوَّل ـ السَّابقين إلى مظلَّة الإيمان، وطُهْر العقيدة، والتعبُّد لله بشرائعه الَّتي أنزلها رحمةً للعالمين ـ عبد الله بن مسعود رضي الله

---

(١) (أَعْمَدُ من رجل قتله قومه) أو (هل فوق رجل قتله قومه): أي: ليس عليَّ عارٌ؛ فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٤/ ١٥٨ ـ ١٦٠).

عنه ، فيعلو على صدره ، ويدوسه بقدميه ، ويقبض على لحيته تحقيراً له ، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره ، واستكباره في الأرض ، ويستلُّ منه سيفه إمعاناً في البطش به ، فيقتله به ، ويمعن في إغاظته بإخباره: أنَّ النَّصر عقد بناصية جند الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنَّ شَنَارَ[1] الهزيمة النَّكراء ، وعارها ، وخزيها ، وخذلانها قد رُزِئَتْ[2] به كتائب الغرور الأجوف ، في حشود النَّفير الَّذي قاده هذا الكفور الخبيث. . . »[3].

ب ـ مصرع أميَّةَ بن خلف:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: «كَاتبتُ أُميةَ بنَ خلف كتاباً ، بأن يحفظني في صَاغِيَتي[4] بمكَّة ، وأحفظه في صَاغِيَتِهِ بالمدينة ، فلمَّا ذكرتُ (الرَّحمن) قال: لا أعرفُ الرَّحمنَ ، كَاتِبْني باسمك الَّذي كان في الجاهليَّة ، فكاتبته (عبدُ عمرٍو).

فلمَّا كان في يوم بدرٍ؛ خرجْتُ إلى جَبَلٍ لأُحْرِزَهُ[5] حين نام النَّاسُ ، فأبصره بلالٌ ، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار ، فقال: أُميةُ بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أميَّةُ ، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا ، فلمَّا خَشِيتُ أن يلحقونا خلَّفتُ لهم ابنَهُ لأشْغِلَهم ، فقتلوه ، ثمَّ أَبَوا حتَّى يَتْبَعُونا ـ وكان رجلاً ثقيلاً[6] ـ فلما أدركونا؛ قلتُ له: ابْرُكْ ، فَبَرَكَ ، فألقيتُ عليه نفسي لأمنعه ، فتَجَلَّلُوهُ[7] بالسُّيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدُهم رجلي بسيفه ، وكان عبد الرَّحمن بن عوف يُرِينا ذلك الأثَرَ في ظَهْرِ قَدَمِهِ» [البخاري (٢٣٠١ و٣٩٧١)].

وفي روايةٍ أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أُمَيَّةُ بن خلفٍ لي صديقاً بمكَّة ، وكان اسمي عبدَ عمرٍو ، فتسمَّيتُ حين أسلمتُ عبدَ الرَّحمن ، ونحن بمكَّة ، فكان يلقاني؛ إذ نحن بمكَّة ، فيقول: يا عبدَ عمرو! أرغبتَ عن اسمٍ سمَّاكه أبواك؟ فأقول: نعم ، فيقول: فإنِّي لا أعرف الرَّحمن؛ فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوكُ به ، أمَّا أنت فلا تجيبني باسمك الأوَّل ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: فكان إذا دعاني: يا عبدَ عمرو! لم أجبْه ، قال: فقلت له: يا أبا عليٍّ! اجعلْ ما شئتَ! ، قال: فأنت عبدُ الإله ، قال: فقلت: نعم ، قال: فكنت إذا مررت به قال:

---

(١) الشَّنَارُ: الأمر المشهور بالشُّنعَةِ والقُبْح ، ويقال: عارٌ وشَنَارٌ.
(٢) رَزَأَهُ رُزْءاً: أصابه بمصيبة.
(٣) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ لصادق عرجون (٣/ ٤٣١ ، ٤٣٢).
(٤) الصَّاغية: صاغية الرَّجل: ما يميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال.
(٥) أُحْرِزَهُ: أحميه.
(٦) وكان رجلاً ثقيلاً: أي: ضخم الجثَّة.
(٧) تجلَّلوه: طعنوه ، وأصابوه ، وفي رواية (فتخلَّلُوه) أي: أدخلوا أسيافَهم خلاله.

يا عبدَ الإله! فأجيبه، فأتحدث معه، حتَّى إذا كان يومَ بدرٍ؛ مررتُ به؛ وهو واقفٌ مع ابنه عليٍّ، عليِّ بن أميَّة، آخذٌ بيده، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها، فأنا أحملُها، فلمَّا رآني؛ قال لي: يا عبدَ عمرو، فلم أجبْه، فقال: يا عبدَ الإله! فقلتُ: نعم، قال: هل لك فيَّ؛ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع الَّتي معك؟ قال: قلت: نعم ها الله ذا[1]! قال: فطرحتُ الأدراع من يدي، وأخذت بيده، ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطُّ، أما لكم حاجةٌ في اللَّبن؟ (قال): ثمَّ خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللَّبن: أنَّ من أسرني؛ افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللَّبن. [ابن هشام (٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)].

ونلحظ من الرِّوايات السَّابقة:

١ ـ ما جرى من بلالٍ رضي الله عنه، حينما رأى عدوَّه اللَّدود أميَّةَ بن خلفٍ؛ الَّذي كان يسومه أقسى، وأعنف أنواع العذاب في مكَّة في يد عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه أسيراً؛ صرخ بأعلى صوته: (لا نجوت؛ إن نجا!).

إنَّه موقف من مواقف التَّشفِّي من أعداء الله، والتَّشفِّي من كبار الكفرة الفجَّار في الحياة الدُّنيا، نعمةٌ يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين، الَّذين ذاقوا الذُّلَّ، والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطُّغاة، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

٢ ـ إنَّ فيما جرى لأُميَّةَ بن خلفٍ من قتلٍ مفزعٍ درساً بليغاً للطُّغاة المتجبِّرين، وعبرةً للمعتبرين؛ الَّذين يغترُّون بقوَّتهم، وينخدعون بجاههم، ومكانتهم، فيعتدون على الضُّعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، فمآلهم إلى عاقبةٍ سيِّئةٍ، ووخيمةٍ في الآخرة، وقد يمكِّن الله للضُّعفاء منهم في الدُّنيا قبل الآخرة؛ كما حدث لأُميَةَ بن خلف، وأضرابه من طغاة الكفر[2]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٣ ـ وفي قول عبد الرَّحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً! ذهبتْ أدْراعي، وفجعني

(١) كذا في شرح السِّيرة والرَّوض، قال السُّهيلي: «ها: تنبيه، وذا: إشارة إلى نفسه، وقال بعضهم: إلى القسم، أي: هذا قسمي، وأراها إشارة إلى المقسم، وخفض اسم الله بحرف القسم أضمره، وقام التَّنبيه مقامه، كما يقوم الاستفهام مقامه، فكأنَّه قال: ها أنذا مقسِمٌ، وفصل بالاسم المقسم به بين (ها) و(ذا)، فعلم أنَّه هو المقسم، فاستغنى عن أنا، ومثله قول أبي بكرٍ: لا ها اللهِ! في صحيح مسلمٍ (١٧٥١)».

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميدي (٤/ ١٥٢، ١٥٣).

بأسيرَيَّ»[١] ، مع ما جرى من بلالٍ من معارضةٍ وانتزاع الأسيرين من يده بقوَّة الأنصار الَّذين استنجد بهم ، دليلٌ على قوَّة الرِّباط الأخوي بين الصَّحابة الكرام[٢] .

٤ ـ موقف لأمِّ صفوان بن أميَّة (زوجة أُميَّةَ بن خَلف): قيل لأمِّ صفوان بن أميَّة بعد إسلامها ، وقد نظرت إلى الحُبَاب بن المنذر بمكَّة : هذا الذي قَطَعَ رِجْلَ عليِّ بن أميَّة يوم بدرٍ ، قالت : دَعُونا من ذكْرِ مَنْ قُتِل على الشِّرك! قد أهان الله علياً بضربة الحُبَاب بن المنذر ، وأكرم اللهُ الحُبَابَ بضربه علياً ، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتِلَ على غير ذلك[٣] ، وهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها؛ حيث اتَّضحت لها عقيدة الولاء والبراء ، فأصبحت تحبُّ المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها ، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها[١] .

وقولها عن ابنها عليٍّ : «قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتل على غير ذلك» تعني : أنَّه كان ممَّن عُرف عنهم الإسلام بمكَّة ، وخرجوا مع قومهم يوم بدرٍ مُكْرَهين فلمَّا التقى الصَّفَّان؛ فُتِنوا حينما رأوا قلَّة المسلمين ، فقالوا : قد غرَّ هؤلاء دينُهم[٤] ، فنزل فيهم قول الله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٤٩] .

ج ـ مصرع عُبَيْدَة بن سعيد بن العاص على يد الزُّبير رضي الله عنه :

«قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه : لقيتُ يوم بدرٍ عُبَيْدَةَ بن سعيد بن العاص ، وهو مُدَجَّجٌ[٥] لا يُرى منه إلا عيناه ، وهو يُكْنَى أبا ذات الكَرِش ، فقال : أنا أبو ذات الكَرِش ، فحملت عليه بالْعَنَزَةِ[٦] ، فطعنته في عينه ، فمات ، قال هشامٌ : فأُخْبِرْتُ : أنَّ الزُّبيرَ قال : لقد وضعتُ رجلي عليه ، ثمَّ تمطَّأتُ ، فكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرفاها[٧] .

قال عُرْوَة : فسأله إيَّاها رسولُ الله ﷺ ، فأعطاه ، فلمَّا قُبض رسولُ الله ﷺ أخذها ، ثمَّ طلبها أبو بكر ، فأعطاه ، فلمَّا قُبض أبو بكر ، سأله إيَّاها عمر ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُبض عمر أخذها ، ثمَّ طلبها عثمان منه ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُتل عثمان وقعت عند آل عليٍّ ، فطلبها عبد الله بن الزبير ، فكانت عنده حتَّى قُتل» [البخاري (٣٩٩٨)] .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤) .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ للحميدي (٤/ ١٥٣) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٥٤) .
(٤) انظر : تفسير الطَّبري (١٠/ ٢١) .
(٥) مُدَجَّجٌ : بجيمين الأولى ثقيلةٌ ومفتوحةٌ ـ وقد تكسر ـ أي : مغطًّى بالسِّلاح ؛ ولا يظهر منه شيء .
(٦) العَنَزة : شبيه العُكازة لها زُجٌّ من أسفلها يُطْعَنُ به .
(٧) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/ ١٥٤) .

«هذا الخبر يصوِّر لنا دقَّة الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه في إصابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرَّجل، مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزَّع طاقته بين الهجوم والدِّفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرَّجل بعيدةً جداً؛ لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي؛ لكنَّ الزُّبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق؛ ممَّا يدلُّ على قوَّة الزُّبير الجسديَّة، إضافةً إلى دقَّته، ومهارته في إصابة الهدف»[(١)].

د ـ مصرع الأَسْود المَخْزُوميِّ:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأَسْود المَخْزُوميُّ، وكان رجلاً شرساً سَيِّىءَ الخُلق، فقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتنَّ دونه! فلمَّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلمَّا التقيا ضربه حمزةُ فأَطنَّ[(٢)] قَدَمَهُ بِنصْف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تَشْخُب[(٣)] رجله دماً نحو أصحابه، ثمَّ حبا إلى الحوض حتَّى اقتحم فيه، يريد أن يُبِرَّ يمينه، وأتبعه حمزة فضربه؛ حتَّى قتله في الحوض[(٤)].

وقد سأل أميَّةُ بن خلف عبد الرحمن بن عوف، عن الرَّجل المُعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟ فأجابه عبد الرَّحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أميَّةُ: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[(٥)]، وهذه شهادةٌ من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني: أنَّه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً، وتشريداً[(٦)].

وكان هذا أوَّل من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللَّئيم الشَّرِس يتحدَّى المسلمين، فتصدَّى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه، ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبِّرين درساً في الصَّميم[(٧)].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ ـ استشهاد حارثة بن سُراقة رضي الله عنه:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أُصيب حارثةُ يوم بدرٍ، وهو غلامٌ، فجاءت أمُّه إلى النَّبيِّ ﷺ،

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٦٣).
(٢) أَطَنَّ: أطار.
(٣) تَشْخُب: تسيل بصوتٍ.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٧).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٤/ ١٥١)، وسيرة ابن هشام (مقتل أميَّة بن خلف).
(٦) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٥٢).
(٧) المصدر السَّابق نفسه، (٤/ ١٢١).

فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلةَ حارثةَ منِّي، فإن يكن في الجنَّة؛ أصبرْ، وأحتسبْ، وإن تكن الأخرى، ترَ ما أصنعُ؟ فقال: «ويحكِ! أَوَهَبِلْتِ! أَوجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنَّها جنانٌ كثيرةٌ، وإنَّه في جنة الفردوس» [البخاري (٣٩٨٢)] وفي روايةٍ: «يا أمَّ حارثةَ! إنَّها جنان في الجنَّة، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[(١)].

ب ـ استشهاد عوف بن الحارث رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أنَّ عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء[(٢)]، قال: يا رسول الله! ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: «غمسُهُ يده في العدوِّ حاسراً»[(٣)] فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثمَّ أخذ سيفه، فقاتل القوم حتَّى قُتل[(٤)].

وهذا الخبر يدلُّ على قوَّة ارتباط الصَّحابة الكرام بالآخرة، وحرصهم على رضوان الله تعالى، ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسَّهم، وهو حاسرٌ غير متدرِّع يثخن في الأعداء، حتَّى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيَّرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلَّق أفراده بالآخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته، بعد أن كان جُلَّ همِّهم أن تتحدث النساءُ عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتُنشد الأشعار في شجاعتهم[(٥)].

ج ـ استشهاد سعد بن خيثمة، ثمَّ أبيه رضي الله عنهما:

قال الحافظ بن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة، وأبوه، فخرج سهم سعدٍ، فقال له أبوه: يا بُنيَّ! آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة؛ فعلت، فخرج سعدٌ إلى بدرٍ، فقُتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أُحُدٍ[(٦)].

وهذا الخبر يُعطي صورةً مشرقةً عن بيوتات الصَّحابة في تنافسهم، وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى؛ فهذا سعد بن خيثمة، ووالده لا يستطيعان الخروج معاً؛ لاحتياج أسرتهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبةً في نيل الشَّهادة، حتَّى اضطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعدٍ رضي الله عنهما، وكان الابن في غاية الأدب مع

---

(١) الأساس في السُّنَّة وفقهها، السِّيرة النَّبويَّة، لسعيد حوَّى (١/ ٤٧٥).
(٢) عفراء: بنت عبيد بن ثعلبة النَّجَّاريَّة، شارك أولادها السَّبعة في غزوة بدرٍ.
(٣) حاسراً: غير لابس الدِّرع.
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٤٥، وانظر: الإصابة لابن حجر، ترجمة عوف بن الحارث، برقم (٦١٠٧).
(٥) انظر: التَّربية القياديَّة (٢/ ٣١).
(٦) الإصابة (٢/ ٢٣، ٢٤) رقم (٣١١٨).

والده؛ ولكنَّه كان مشتاقاً إلى الجنَّة ، فأجاب بهذا الجواب البليغ : «يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة فعلتُ»(١) .

د ـ دعاء النَّبيِّ ﷺ لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة :

عن عائشة رضي الله عنها في حديثها عن طرح قتلى قريش في القَلِيب بعد معركة بدرٍ ، قالت : فلمَّا أمر بهم ، فسُحبوا؛ عُرِفَ في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية ، وأبوه يُسحب إلى القَليب ، فقال له رسول الله ﷺ : «يا أبا حذيفة! والله لكأنَّه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال : والله يا رسول الله! ما شككت في الله ، وفي رسول الله ، ولكن إن كان حليماً سديداً ذا رأيٍ ، فكنت أرجو ألا يموتَ حتَّى يهديه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى الإسلام ، فلمَّا رأيت : أنَّه قد فات ذلك ، ووقع حيث وقع ؛ أحزنني ذلك! قال : فدعا له رسول الله ﷺ بخير . [الحاكم (٣/ ٢٢٤)] .

إنَّ هذا الموقف يبيِّن قوة التَّجاذب بين الإيمان في ذِرْوَةَ اليقين ، والعاطفة البشرَّية في قمَّة الوفاء النَّبويِّ؛ فالإيمان لا يُميت المشاعر البشريَّة؛ ولكنَّه يهذِّبها ، فيحوِّلها من عصبيةٍ جاهليَّةٍ ، إلى وفاءٍ لا ينكره المنهج الرَّبَّانيُّ في تطبيقه العمليِّ؛ فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمانٌ لا تهزُّه زلازل الأحداث ، فهو إذ يرى أباه يُقتل في أشراف قريشٍ كافراً ، ويُلقى معهم في قَلِيب بدرٍ ؛ يأخذه أسف العاطفة البشريَّة وفاءً لهذا الأب ، ويظلُّ أبو حذيفة مُزَمَّلاً بإيمانه الرَّاسخ رسوخ الأَطْوَاد(٢) الشَّامخات ، فلا يزيد على أن يعتريه الاكتئاب على ما فات أباه من خيرٍ يرجوه له بالهداية إلى الإسلام(٣)؛ ولهذا المقصد النَّبيل الَّذي أثار حزن أبي حذيفة ، دعا له رسول الله ﷺ بخيرٍ(٤) .

هـ ـ عُمَيْر بن أبي وقَّاص : لمَّا سار رسول الله ﷺ إلى بدرٍ ، وعُرض عليه جيش بدرٍ؛ ردَّ عُمَيْر ابن أبي وقَّاص ، فبكى عميرٌ ، فأجازه ، فعقد عليه حمائل سيفه ، ولقد كان عُمَيْر يتوارى حتَّى لا يراه رسولُ الله ﷺ ، فقال سعد: رأيت أخي عُمَيْر بن أبي وقَّاص قبل أن يعرضنا رسولُ الله ﷺ يوم بدر يتوارى ، فقلت: ما لك يا أخي؟ ! قال: إنِّي أخاف أن يراني رسول الله ﷺ ، فيستصغرَني، ويردَّني ، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشَّهادة(٥) . وقد استُشهد بالفعل .

* * *

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٤/ ٨٧) .
(٢) الأَطْوَادُ: جمع طَوْد ، وهو الجبل العظيم .
(٣) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ (٣/ ٤٤٦) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/ ١٧٤) .
(٥) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣١٧ ، نقلاً عن صفة الصفوة (١/ ٢٩٤) ، والمستدرك (٣/ ١٨٨) والإصابة (٣/ ٣٥) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الإهداء ٤
المقدِّمة ٥

الفصل الأوَّل
أهمُّ الأحداث التَّاريخية قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

المبحث الأول: الحضارات السَّائدة قبل البعثة ، ودياناتها ١٣
أولاً: الإمبراطورية الرُّومانية ١٣
ثانياً: الإمبراطورية الفارسيَّة ١٤
ثالثاً: الهند ١٤
رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّديَّة ١٦
المبحث الثَّاني: أصول العرب وحضارتهم ٢٠
أولاً: أصول العرب ٢٠
ثانياً: حضارات الجزيرة العربيَّة ٢٢
المبحث الثَّالث: الأحوال الدِّينيَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ،
والأخلاقيَّة عند العرب ٢٤
أوَّلاً: الحالة الدِّينيَّة ٢٤
ثانياً: الحالة السِّياسيَّة ٢٦
ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة ٢٧
رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة ٢٩
خامساً: الحالة الأخلاقيَّة ٣٥
المبحث الرَّابع: أهم الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى ﷺ ٤١

أولاً: قصَّة حفر عبد المطلب جدِّ النّبيِّ ﷺ لزمزم ٤١
ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل ٤٣
المبحث الخامس: من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفُضول ٥٠
أوَّلاً: نسب النَّبيِّ ﷺ ٥٠
ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطَّلب مِنْ آمنة بنت وهبٍ، ورؤيا آمنة أمِّ النَّبي ﷺ ٥١
ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ ٥٣
رابعاً: مرضعاتُه ﷺ ٥٤
خامساً: وفاة أمِّه، وكفالة جدِّه، ثمَّ عمِّه ٥٩
سادساً: عمله ﷺ في الرَّعي ٦٠
سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيِّه قبل البعثة ٦٣
ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيرا بالرَّسول ﷺ وهو غلامٌ ٦٥
تاسعاً: حرب الفِجار ٦٦
عاشراً: حلف الفُضول ٦٧
المبحث السَّادس: تجارته لخديجة، وزواجه منها، وأهمُّ الأحداث إلى البعثة ٧٠
أوَّلاً: تجارته لخديجة، وزواجه منها ٧٠
ثانياً: اشتراكه في بناء الكعبة الشَّريفة ٧٣
ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوَّة محمَّدٍ ﷺ ٧٥

الفصل الثَّاني
نزول الوحي، والدَّعوة السِّرِّيَّة

المبحث الأوَّل: نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين ﷺ ٨١
أوَّلاً: الرُّؤيا الصَّالحة ٨٢
ثانياً: ثُمَّ حبِّب إليه الخلاء ٨٣
ثالثاً: حتَّى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء ٨٤
رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ ﷺ، ووصف ظاهرة الوحي ٨٥
خامساً: أنواع الوحي ٨٧
سادساً: أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة ٨٩
سابعاً: وفاء النَّبيِّ ﷺ للسَّيِّدة خديجة رضي الله عنها ٩٢
ثامناً: سُنَّة تكذيب المرسلين ٩٣
تاسعاً: وفَتَـرَ الوحيُ ٩٣

المبحث الثَّاني : الدَّعوة السِّرِّيَّة ٩٥
أوَّلاً : الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة ٩٥
ثانياً : بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة ٩٦
ثالثاً : استمرار النَّبي ﷺ في الدَّعوة ١٠٤
رابعاً : أهم خصائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله ﷺ ١٠٨
خامساً : شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ ، وأثرها في صناعة القادة ١١١
سادساً : المادَّة الدِّراسية في دار الأرقم ١١٢
سابعاً : الأسباب في اختيار دار الأرقم ١١٣
ثامناً : من صفات الرَّعيل الأوَّل ١١٤
تاسعاً : انتشار الدَّعوة في بطون قريش ، وعالمِيَّتُها ١١٦
المبحث الثَّالث : البناء العقديُّ في العهد المكيِّ ١١٩
أوَّلاً : فقه النَّبي ﷺ في التَّعامل مع السُّنن ١١٩
ثانياً : سُنَّةُ التَّغيير ، وعلاقتها بالبناء العقديِّ ١٢٣
ثالثاً : تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة ١٢٤
رابعاً : وصف الجنَّة في القرآن الكريم ، وأثره على الصَّحابة ١٢٨
خامساً : وصف النَّار في القرآن الكريم ، وأثره في نفوس الصَّحابة ١٣٦
سادساً : مفهوم القضاء والقَدر ، وأثره في تربية الصَّحابة ١٤٢
سابعاً : معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان ١٤٣
ثامناً : تصوُّر الصَّحابة لقصَّة الشَّيطان مع آدم عليه السَّلام ١٤٦
تاسعاً : نظرة الصَّحابة إلى الكون ، والحياة ، وبعض المخلوقات ١٥٤
المبحث الرَّابع : البناء التعبُّديُّ ، والأخلاقيُّ في العهد المكِّيِّ ١٥٩
أوَّلاً : تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات ١٥٩
ثانياً : التَّربية العقليَّة ١٦٥
ثالثاً : التَّربية الجسديَّة ١٦٧
رابعاً : تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق ، وتنقيتُهم من الرَّذائل ١٦٩
خامساً : تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القَصص القرآنيِّ ١٧٨

الفصل الثَّالث

الجهر بالدَّعوة ، وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأوَّل : الجهر بالدَّعوة ١٨٣

أهمُّ اعتراضات المشركين ١٨٥
أوَّلاً : الإشراك بالله ١٨٥
ثانياً : كفرهم بالآخرة ١٨٦
ثالثاً : اعتراضهم على الرَّسول ﷺ ١٨٨
رابعاً : موقفهم من القرآن الكريم ١٨٩
خامساً : دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ ١٩١
المبحث الثَّاني : سنَّة الابتلاء ١٩٥
حكمة الابتلاء ، وفوائده ١٩٥
المبحث الثَّالث : أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة ١٩٩
أوَّلاً : محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة ، وحماية رسول الله ﷺ ١٩٩
ثانياً : محاولة تشويهٍ لدعوة الرَّسول ﷺ ٢٠٢
ثالثاً : ما تعرَّض له رسول الله ﷺ من الأذى ، والتَّعذيب ٢١٢
رابعاً : ما تعرَّض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى ، والتعذيب ٢١٦
خامساً : حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ ﷺ بالبناء الدَّاخليِّ ٢٣٢
سادساً : أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصَّحابة ٢٣٧
سابعاً : أسلوب المفاوضات ٢٤١
ثامناً : أسلوب المجادلة ، ومحاولة التَّعجيز ٢٤٦
تاسعاً : دور اليهود في العهد المكِّيِّ ، واستعانة مشركي مكَّة بهم ٢٥١
عاشراً : الحصار الاقتصاديُّ ، والاجتماعيُّ في آخر العام السَّابع من البعثة ٢٥٧

الفصل الرَّابع
هجرة الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء

المبحث الأوَّل : تعامل النَّبيِّ ﷺ مع سنَّة الأخذ بالأسباب ٢٦٦
المبحث الثَّاني : الهجرة إلى الحبشة ٢٧١
أوَّلاً : الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة ٢٧٢
ثانياً : أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى ٢٧٨
ثالثاً : هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة ٢٨٣
المبحث الثَّالث : عام الحزن ، ومحنة الطَّائف ٢٩٧
أوَّلاً : عام الحزن ٢٩٧
ثانياً : رحلة الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف ٢٩٨

المبحث الرَّابع : الإسراء والمعراج ذروة التَّكريم ٣١٢
أوَّلاً : قصَّة الإسراء والمعراج ، كما جاءت في بعض الأحاديث ٣١٣
ثانياً : فوائد ، ودروسٌ ، وعبر ٣١٧

الفصل الخامس
الطَّواف على القبائل ، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

المبحث الأوَّل : الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة ٣٢٥
أوَّلاً : من أساليب النَّبيِّ ﷺ في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل ٣٢٦
ثانياً : المفاوضات مع بني عامر ٣٢٧
ثالثاً : المفاوضات مع بني شيبان ٣٢٨
رابعاً : فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٣٢٩
المبحث الثَّاني : مواكب الخير ، وطلائع النُّور ٣٣٢
أوَّلاً : الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ ، والعمرة ٣٣٢
ثانياً : بدء إسلام الأنصار ٣٣٣
ثالثاً : بيعة العقبة الأولى ٣٣٥
رابعاً : قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضَيْرٍ ، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما ٣٣٦
خامساً : فوائد ، ودروسٌ ، وعبر ٣٣٨
المبحث الثَّالث : بيعة العقبة الثَّانية ٣٤١
المبحث الرَّابع : الهجرة إلى المدينة ٣٤٩
أوَّلاً : التَّمهيد والإعداد لها ٣٤٩
ثانياً : تأمُّلات في بعض آيات سورة العنكبوت ٣٥٠
ثالثاً : طلائع المهاجرين ٣٥٢
رابعاً : من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ، ومن مشاهد العظمة في الهجرة ٣٥٣
خامساً : البيوتات الحاضنة ، وأثرها في النُّفوس ٣٦٠
سادساً : لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟ ٣٦٤
سابعاً : من فضائل المدينة ٣٦٥

الفصل السَّادس
هجرة النَّبيِّ ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه

المبحث الأوَّل: فشلُ خطَّة المشركين ، والتَّرتيبُ النَّبويُّ الرَّفيعُ للهجرة ٣٧٠

أوَّلاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ ﷺ ٣٧٠

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة ٣٧١

ثالثاً: خروج الرَّسول ﷺ ، ووصوله إلى الغار ٣٧٣

رابعاً: دعاء النَّبيِّ ﷺ عند خروجه من مكَّة ٣٧٣

خامساً: عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورعايته لرسوله ﷺ ٣٧٤

سادساً: خيمة أمِّ مَعْبَدٍ في طريق الهجرة ٣٧٦

سابعاً: سُراقة بن مالك يلاحق رسول الله ﷺ ٣٧٩

ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب ٣٨١

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ ٣٨١

عاشراً: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٣٨٣

المبحث الثَّاني: الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، والوعد لمن هاجر منهم ، والوعيد لمن تخلَّف ٤٠٠

أوَّلاً: الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدة ٤٠٠

ثانياً: الوعد للمهاجرين ٤٠٧

ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة ٤١١

الفصل السَّابع
دعائم دولة الإسلام في المدينة

المبحث الأول: بناء المسجد الأعظم بالمدينة ٤١٥

أولاً: بيوتات النَّبي ﷺ التَّابعة للمسجد ٤١٦

ثانياً: الأذان في المدينة ٤١٦

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة ٤١٧

رابعاً: الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ ٤١٨

خامساً: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٤٢٥

المبحث الثَّاني: المؤاخاة بين المهاجرين ، والأنصار ٤٣٤

أوَّلاً: المؤاخاة في المدينة ٤٣٦

ثانياً: الدُّروس، والعبر، والفوائد ٤٤٠
المبحث الثَّالث: الوثيقة، أو الصَّحيفة ٤٥٤
أوَّلاً: كتابه ﷺ بين المهاجرين، والأنصار، واليهود ٤٥٤
ثانياً: دروسٌ، وعبرٌ، وفوائدُ من الوثيقة ٤٥٨
ثالثاً: موقف اليهود في المدينة ٤٦٨
رابعاً: إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين ٤٨٧
المبحث الرَّابع: سُنَّة التَّدافع، وحركة السَّرايا ٤٩١
أوَّلاً: سنَّة التَّدافع ٤٩١
ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى ٤٩٦
ثالثاً: أهمُّ السرايا، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى ٥٠٢
رابعاً: فوائدُ، ودروسٌ، وعبر ٥٠٧
المبحث الخامس: استمرارية البناء التَّربويِّ، والعلميِّ ٥٢٠
أوَّلاً: أهمُّ هذه الوسائل، والمبادئ التَّربويَّة ٥٢١
ثانياً: من أخلاق الصَّحابة عند سماعهم للنَّبيِّ ﷺ ٥٢٨
المبحث السَّادس: أحداثٌ، وتشريعاتٌ ٥٣٣
أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية ٥٣٣
ثانياً: بعض التَّشريعات ٥٣٧

الفصل الثَّامن

غزوة بدرٍ الكبرى

المبحث الأوَّل: مرحلة ما قبل المعركة ٥٤٥
أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ ٥٤٦
ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدرٍ ٥٤٧
ثالثاً: مشاورة النَّبيِّ ﷺ لأصحابه ٥٤٨
رابعاً: المسير إلى لقاء العدوِّ وجمع المعلومات عنه ٥٥٠
خامساً: مشورة الحُباب بن المنذر في بدرٍ ٥٥١
سادساً: الوصف القرآنيُّ لخروج المشركين ٥٥٣
سابعاً: موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدرٍ ٥٥٤
ثامناً: الوصف القرآنيُّ لمواقع المسلمين، والمشركين في أرض المعركة ٥٥٧

المبحث الثَّاني : النَّبيُّ ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة ٥٥٩
أوَّلاً : بناء عريش القيادة ٥٥٩
ثانياً : مِنْ نعم الله على المسلمين قبل القتال ٥٦٠
ثالثاً : خطَّة الرَّسول ﷺ في المعركة ٥٦١
المبحث الثَّالث : نشوب القتال ، وهزيمة المشركين ٥٦٩
أولاً : إمداد الله للمسلمين بالملائكة ٥٧٠
ثانياً : انتصار المسلمين على المشركين ، وحديث رسول الله ﷺ لأهل القَليب ٥٧٣
المبحث الرَّابع : مشاهدُ ، وأحداثٌ من المعركة ٥٧٦
أوَّلاً : مصارع الطُّغاة ٥٧٦
ثانياً : مِنْ مشاهد العظمة ٥٨١
فهرس الموضوعات ٥٨٥

* * *

الشكل (١)

خريطة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية

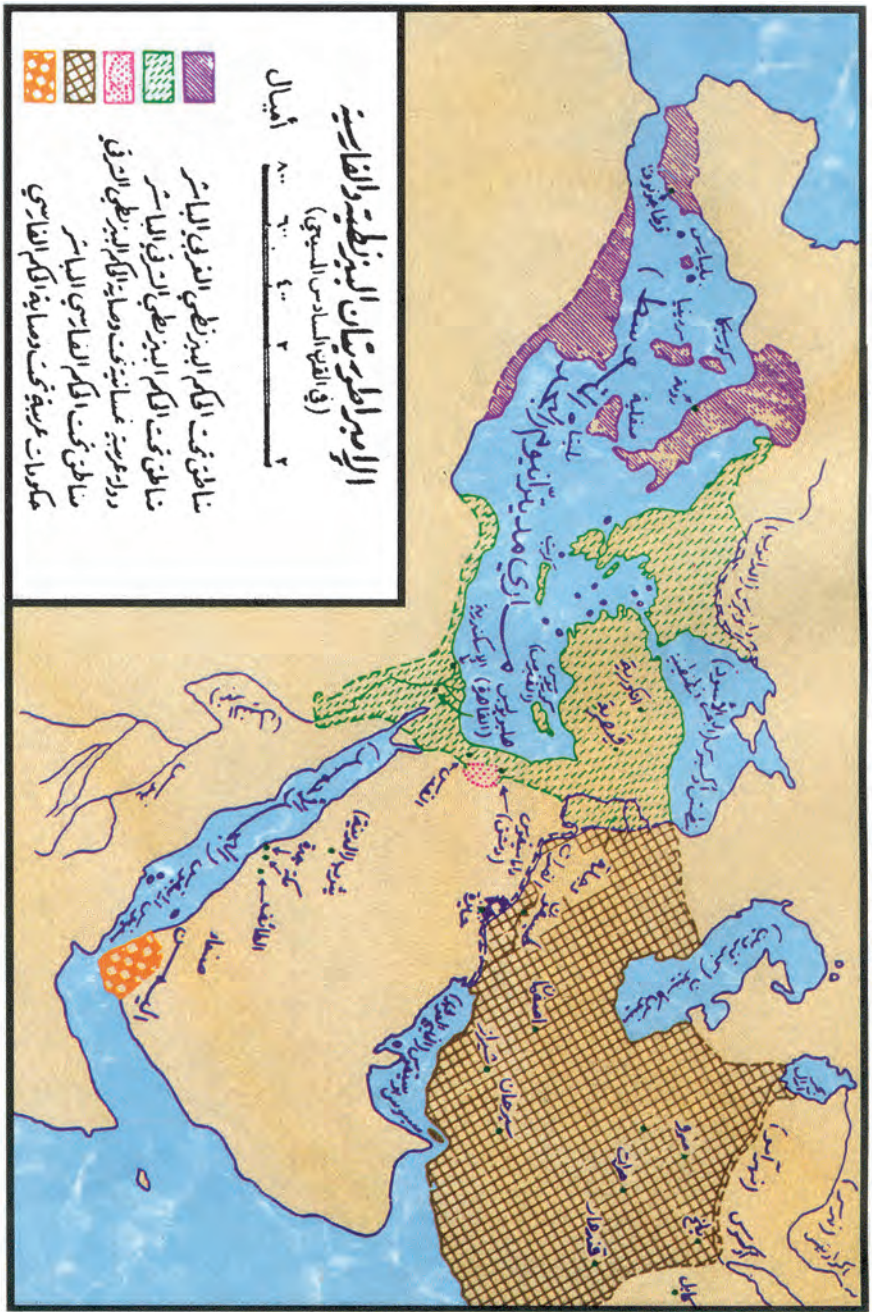

راعينا أسماء الأماكن والبحار والبحيرات والأنهار كما كانت تسمى في القرن السادس الميلادي حسب نطقها اللاتيني

الشكل (٢)

خريطة توزيع القبائل العربية في جزيرة العرب

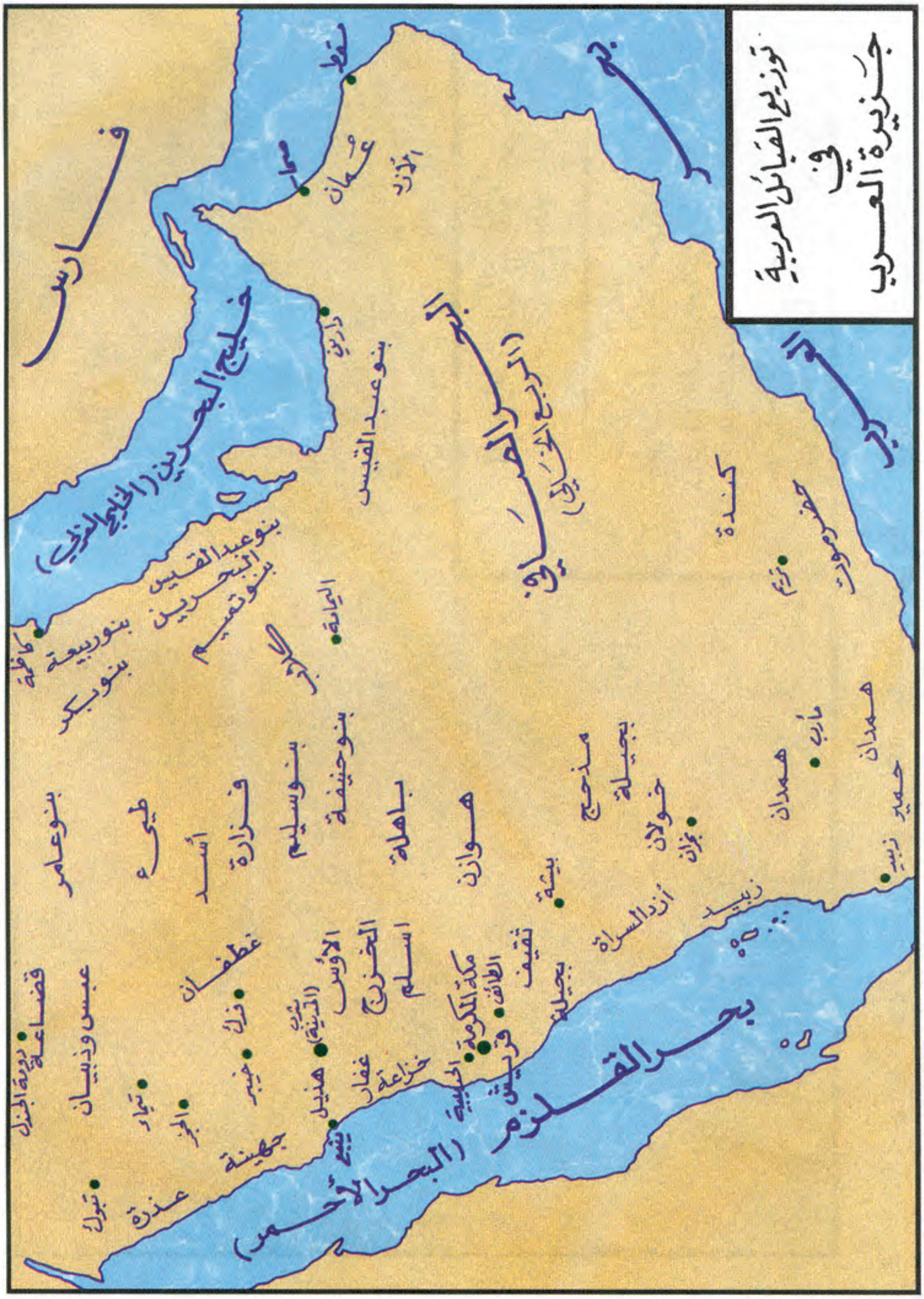

الشكل (٣)

خريطة بعض الأوثان التي عبدها العرب في الجاهلية

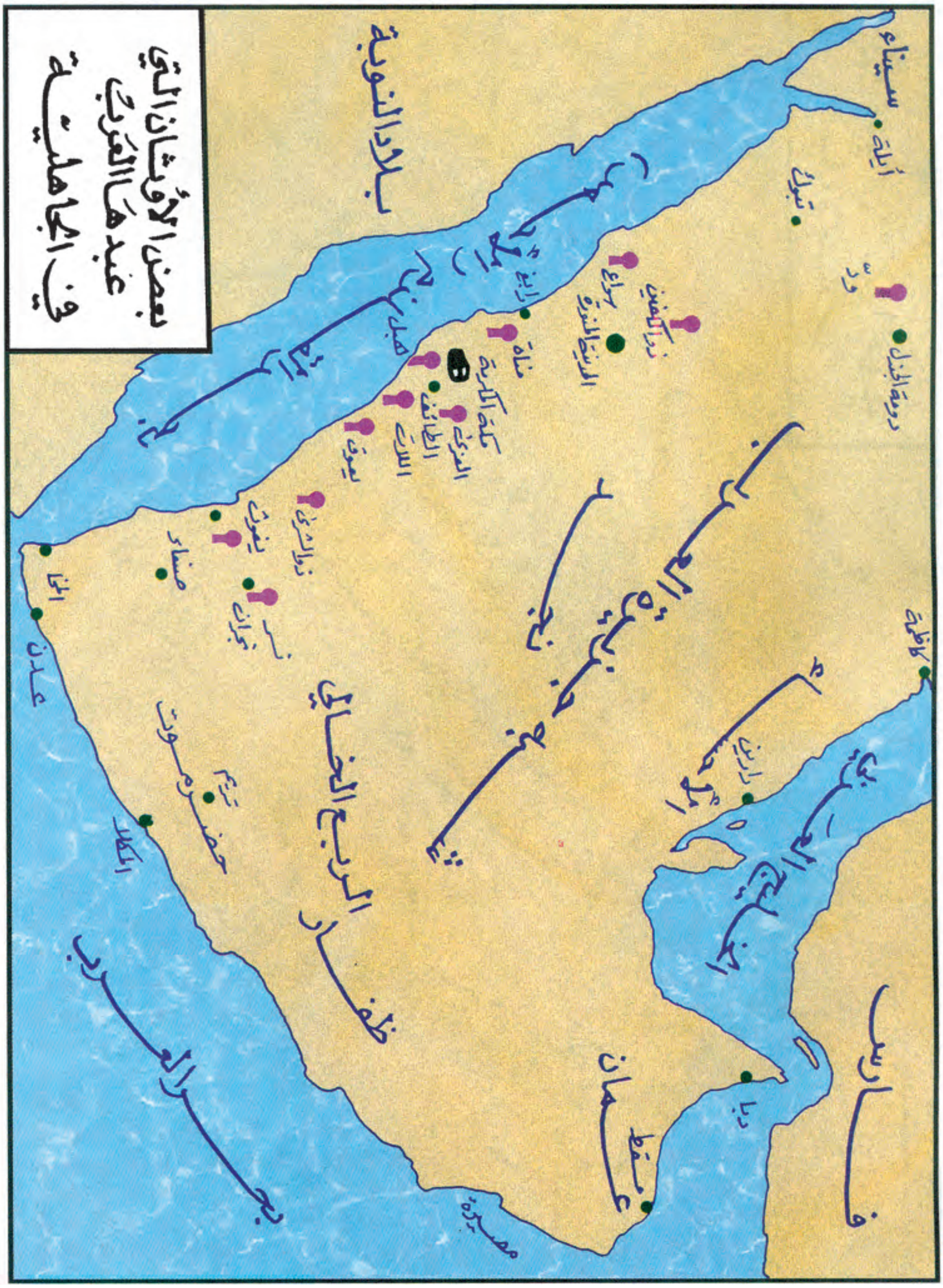

الشكل (٤)

خريطة الوضع السياسي للجزيرة العربية قبل الإسلام

الشكل (٥)

خريطة أصحاب الفيل

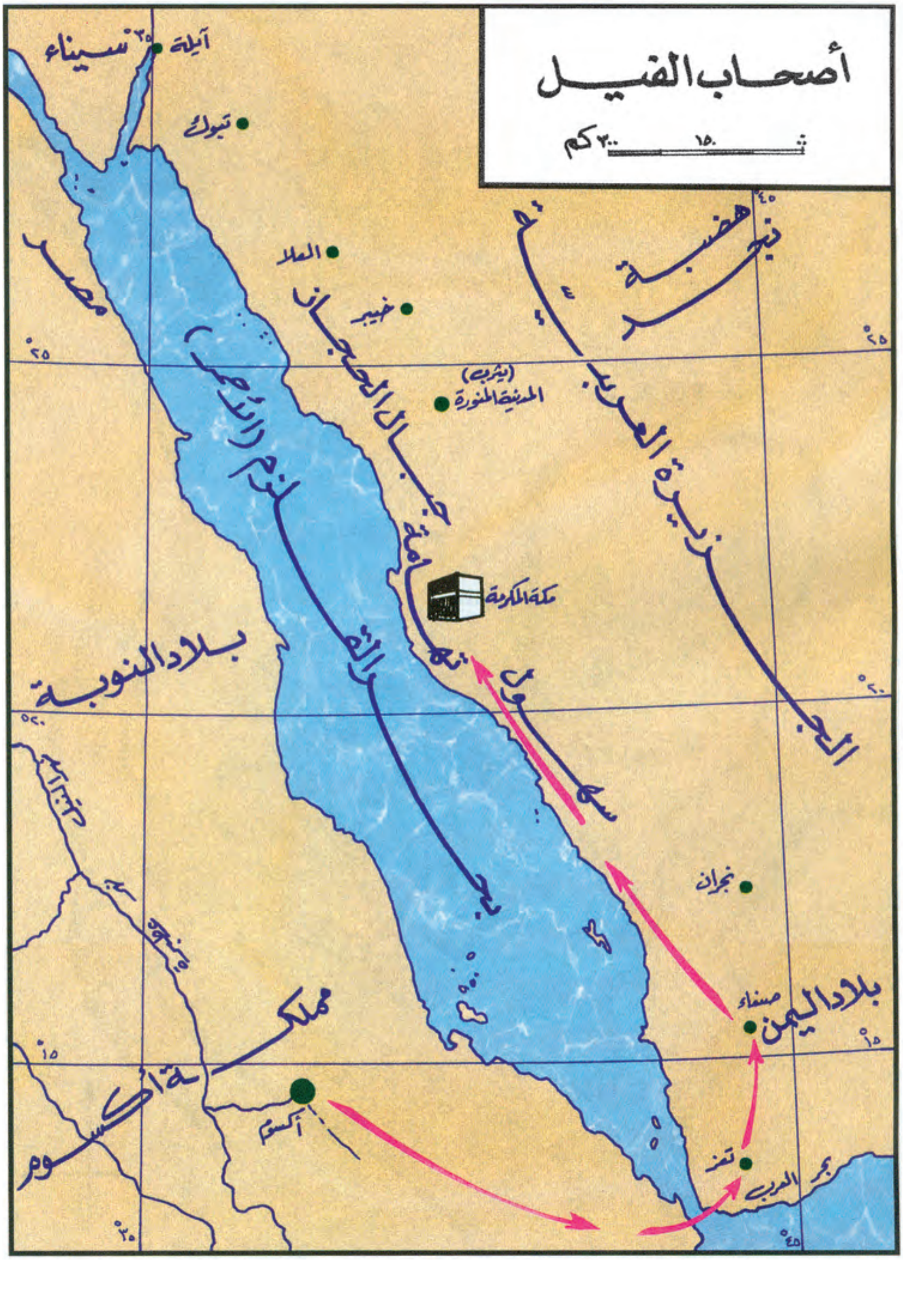

الشكل (٦)

خريطة مكة المكرمة

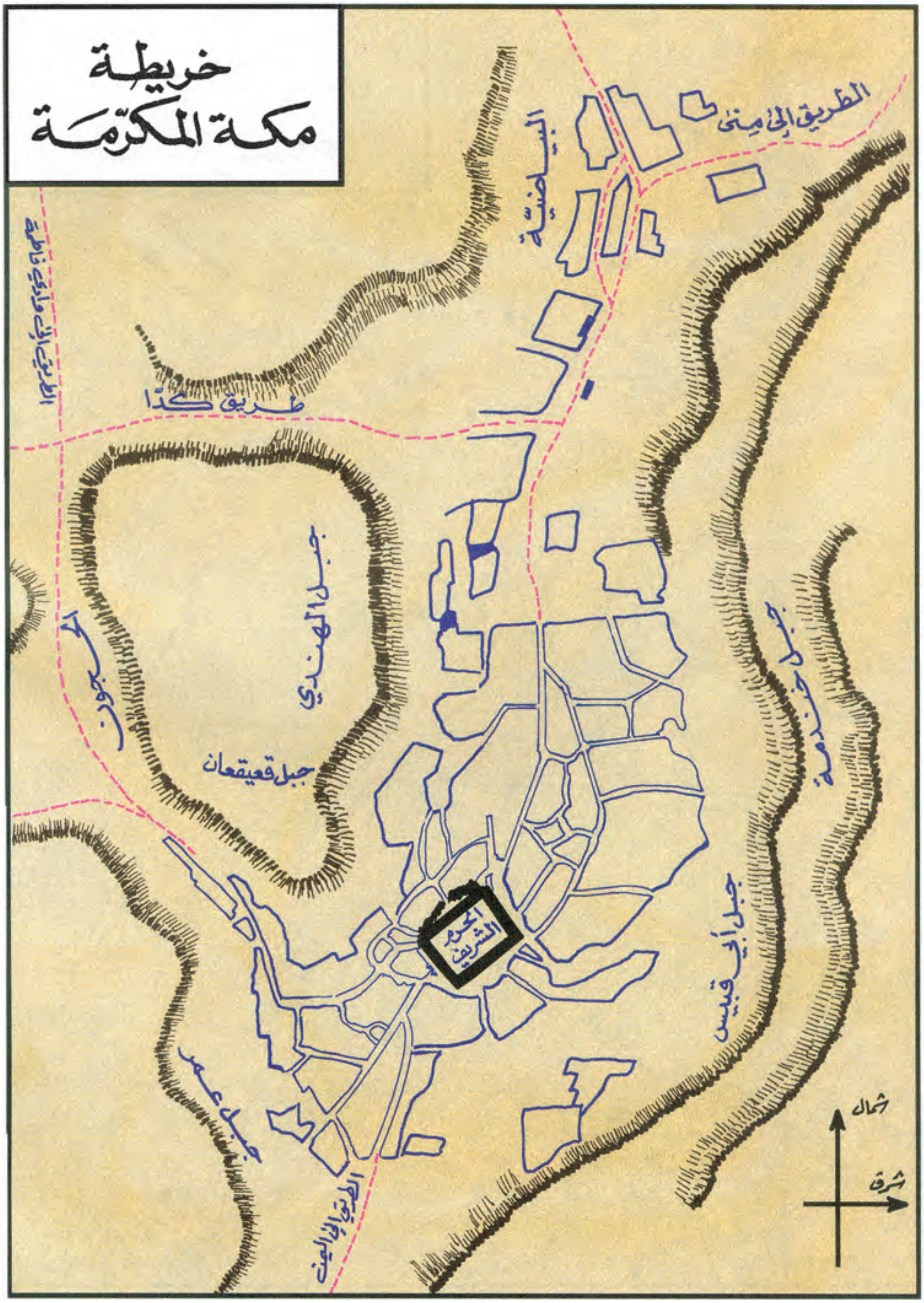

الشكل (٧)

مكة المكرمة في زمن الرسول ﷺ

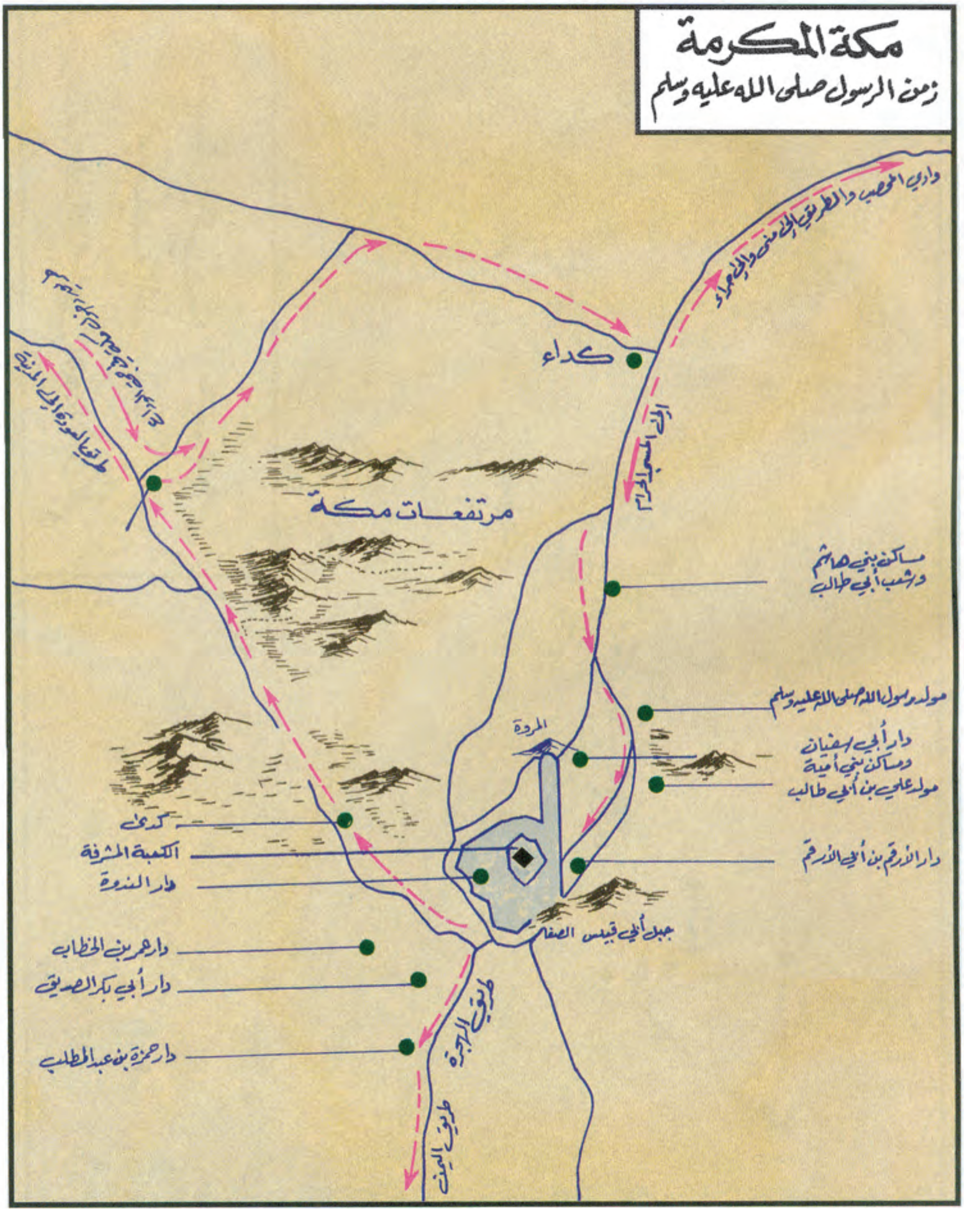

الشكل (٨)

خريطة ديار بني سعد

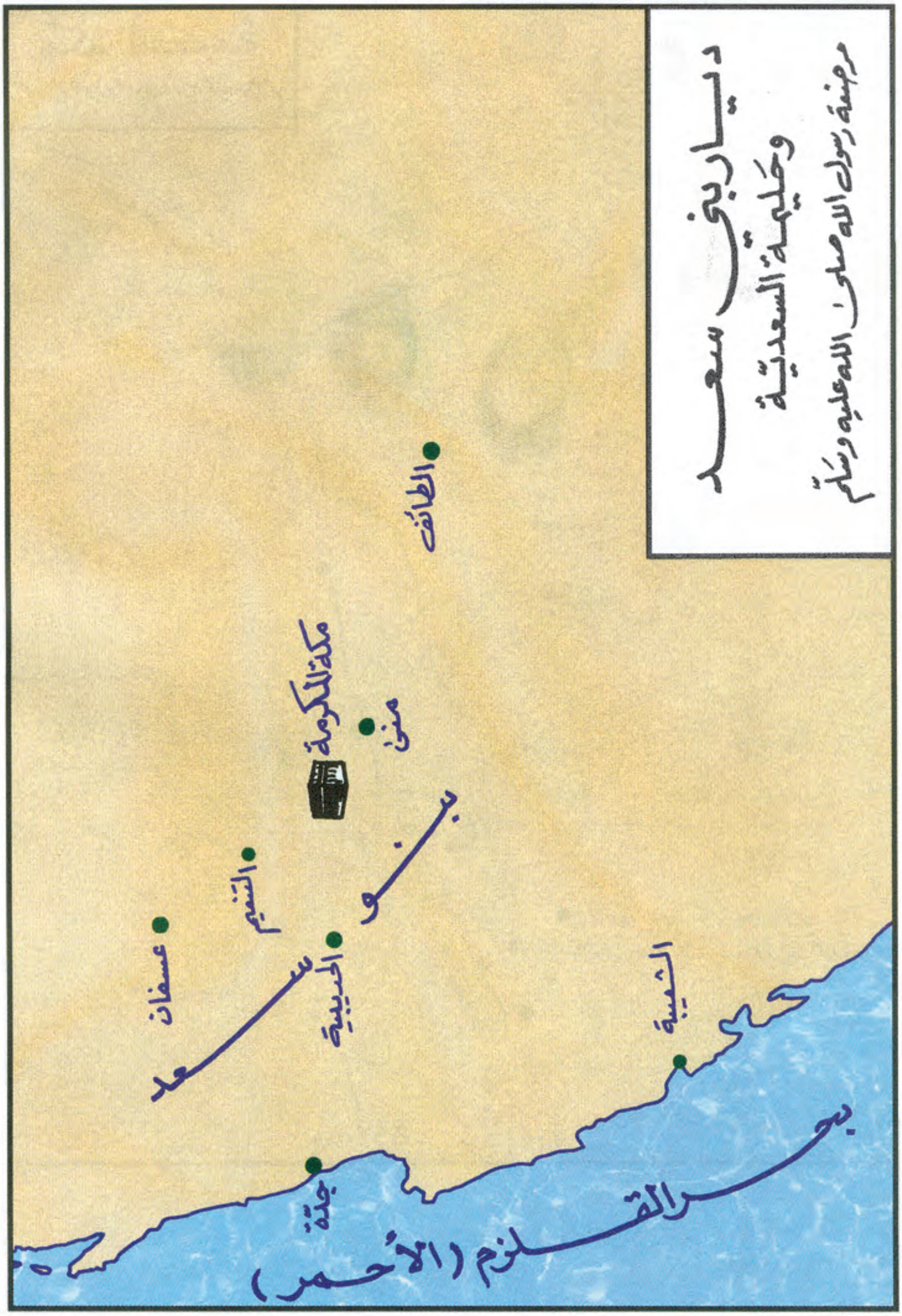

الشكل (٩)

خريطة الهجرة إلى الحبشة

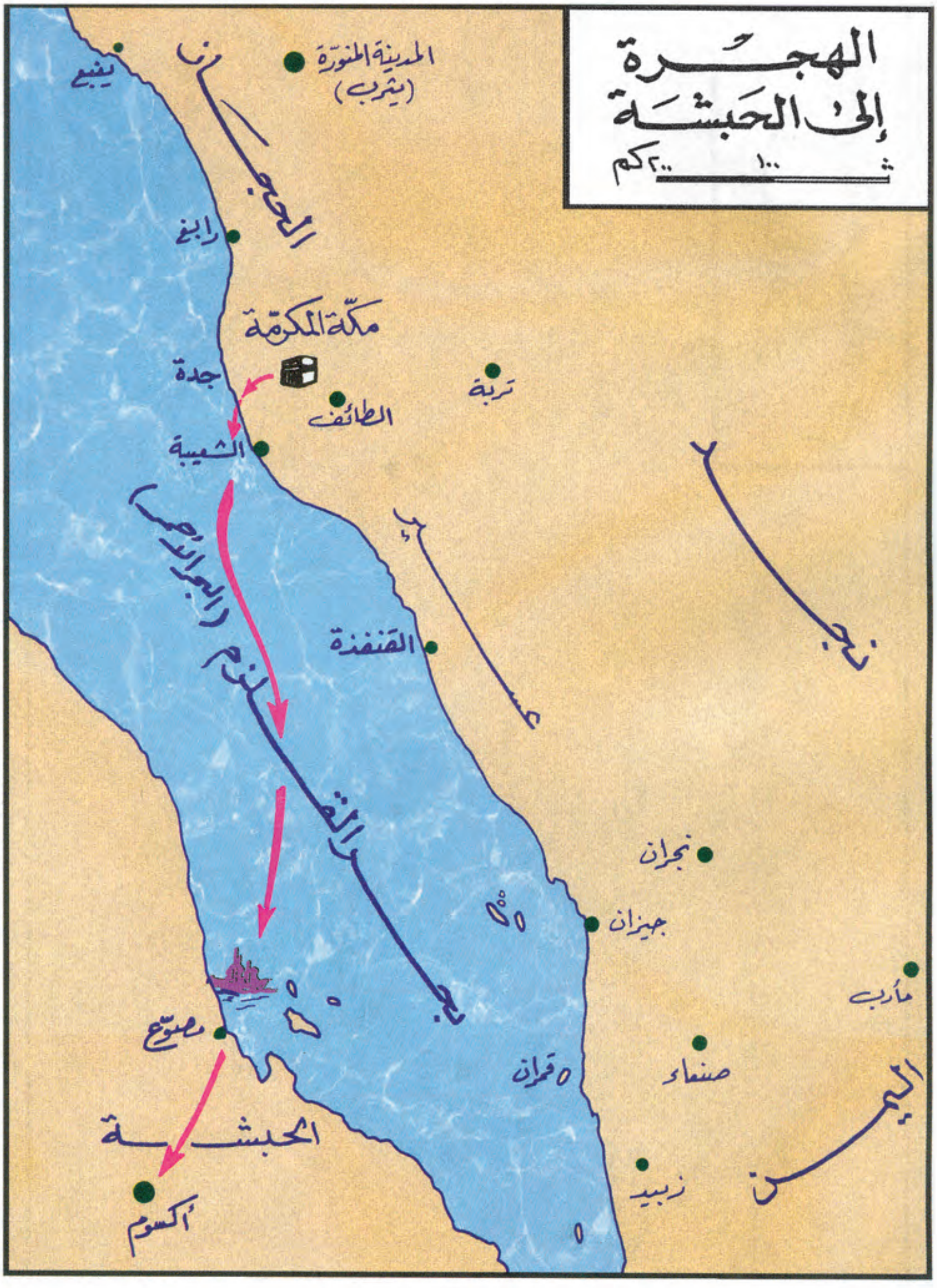

الشكل (١٠)

خريطة طريق رسول الله ﷺ إلى الطائف

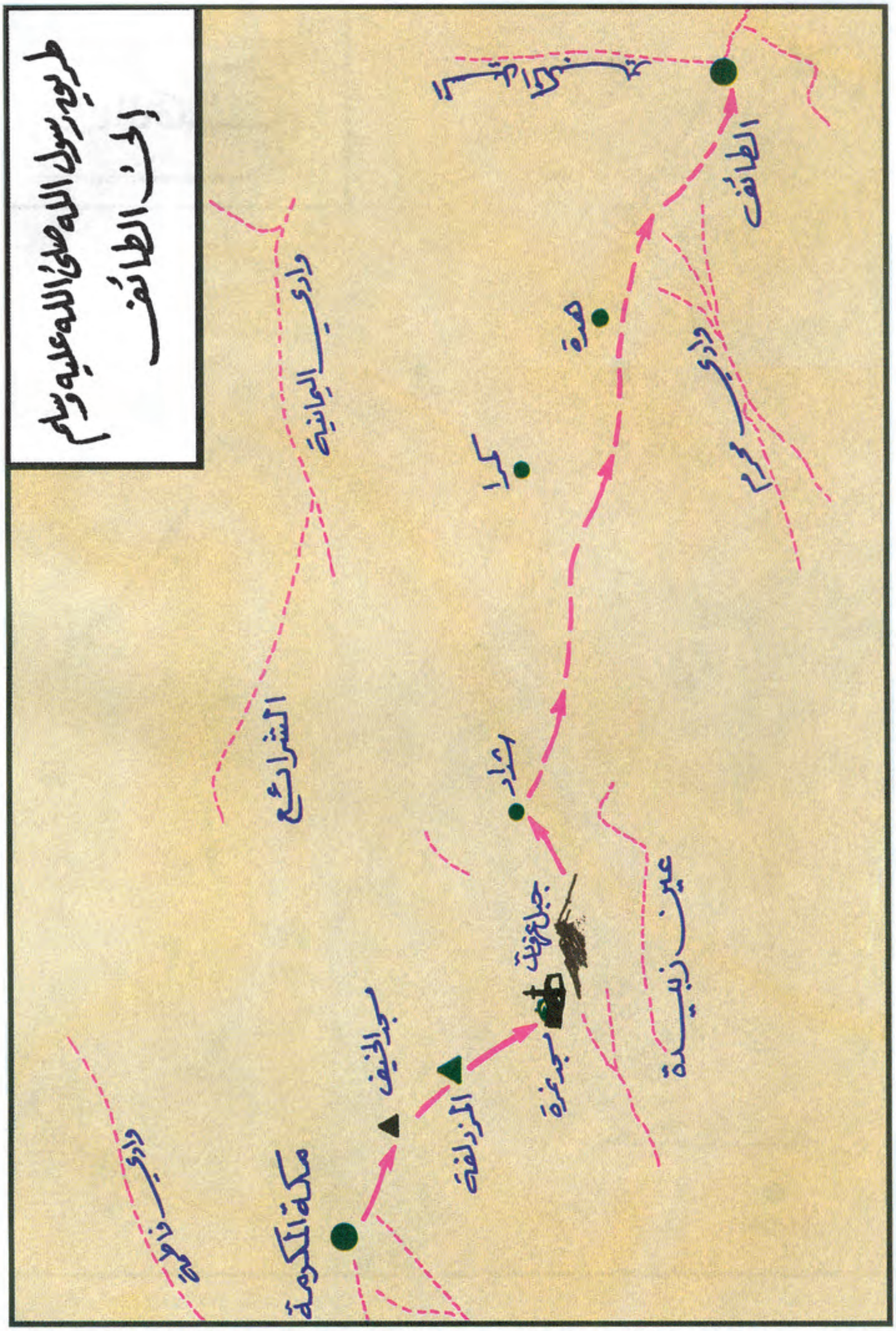

الشكل (١١)

خريطة هجرة الرسول ﷺ

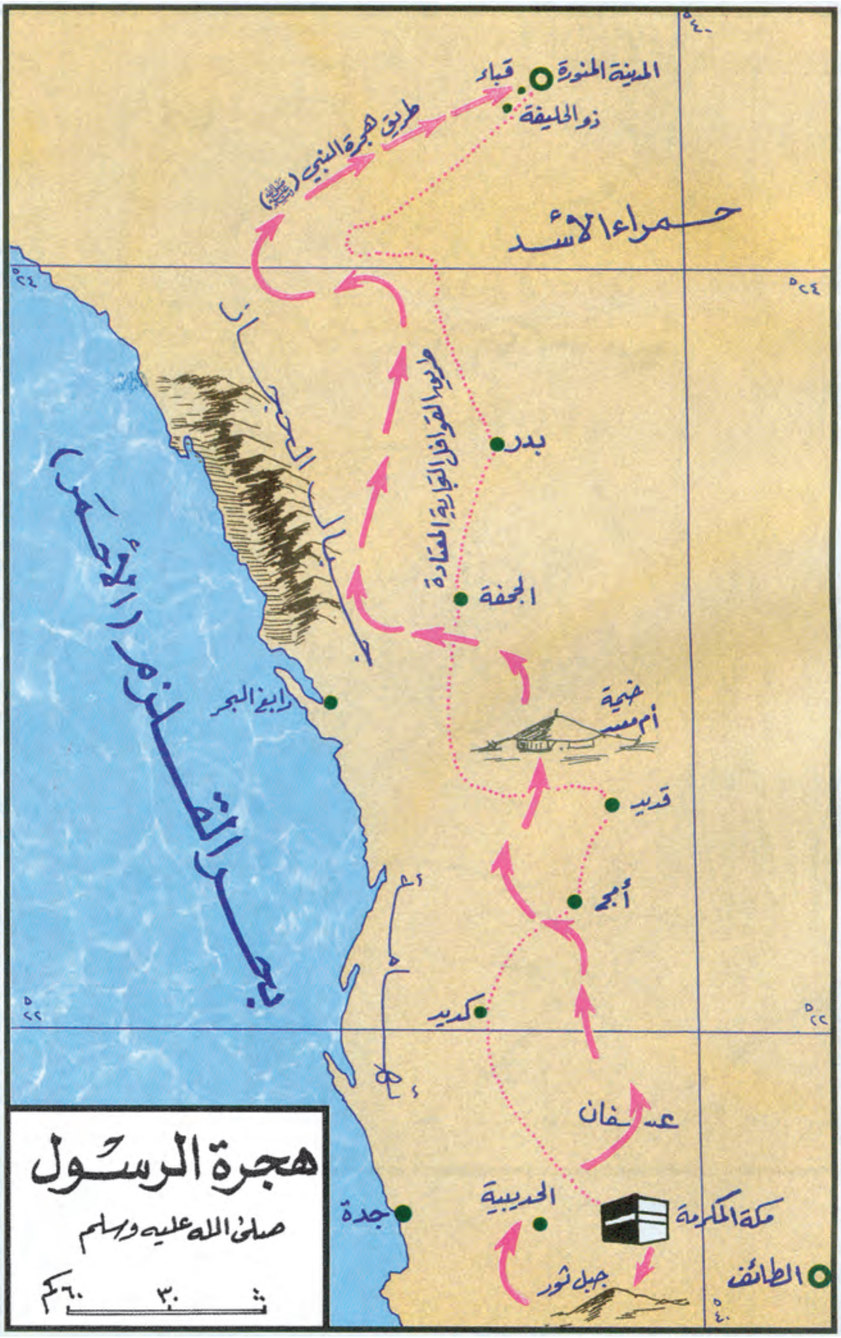

الشكل (١٢)

خريطة أثرية تقريبية للمدينة المنورة

الشكل (١٣)

مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية

الشكل (١٤)

خريطة السرايا قبل غزوة بدر

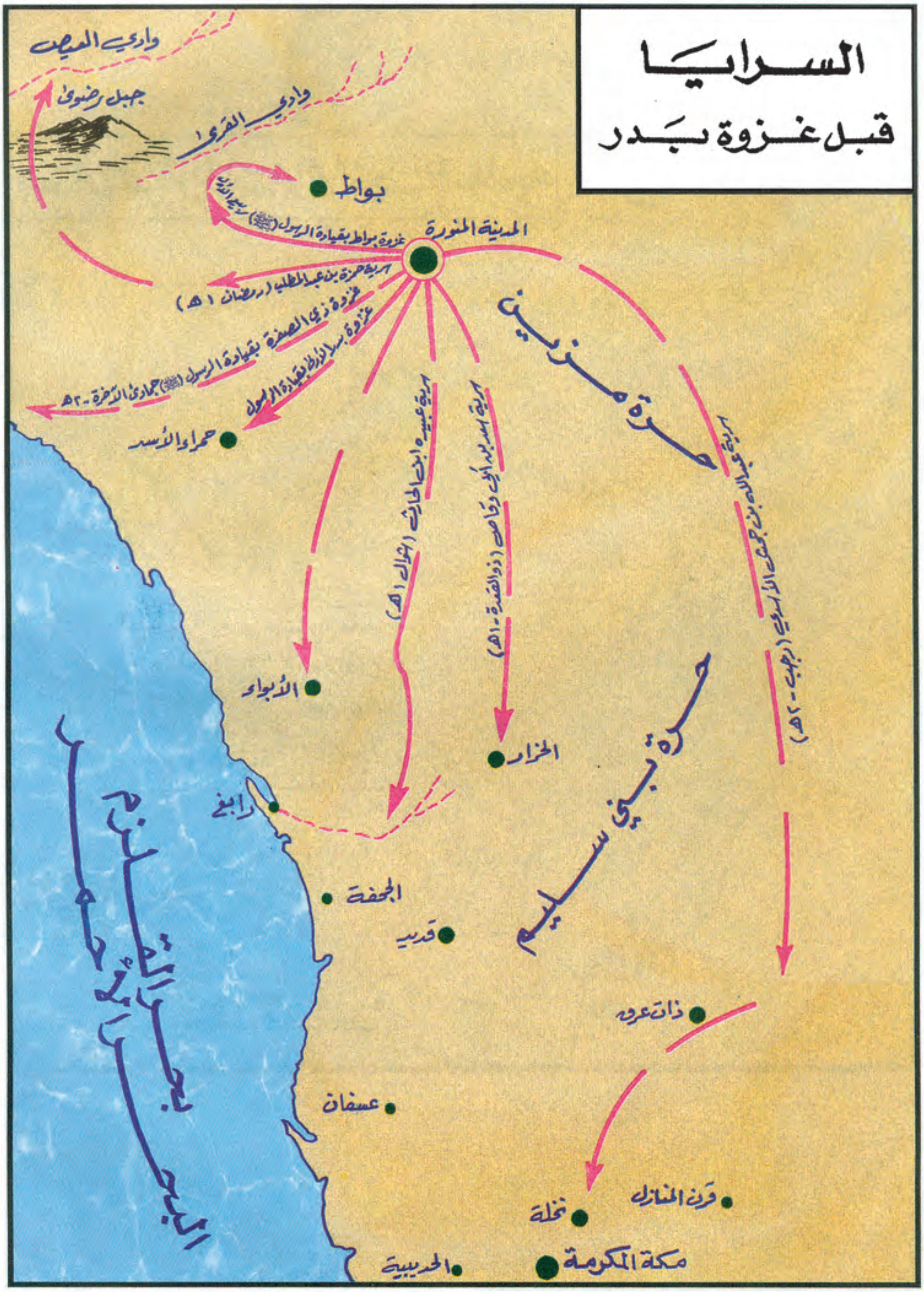

الشكل (١٥)

خريطة غزوة بدر الكبرى ١٧/ رمضان ٢هـ

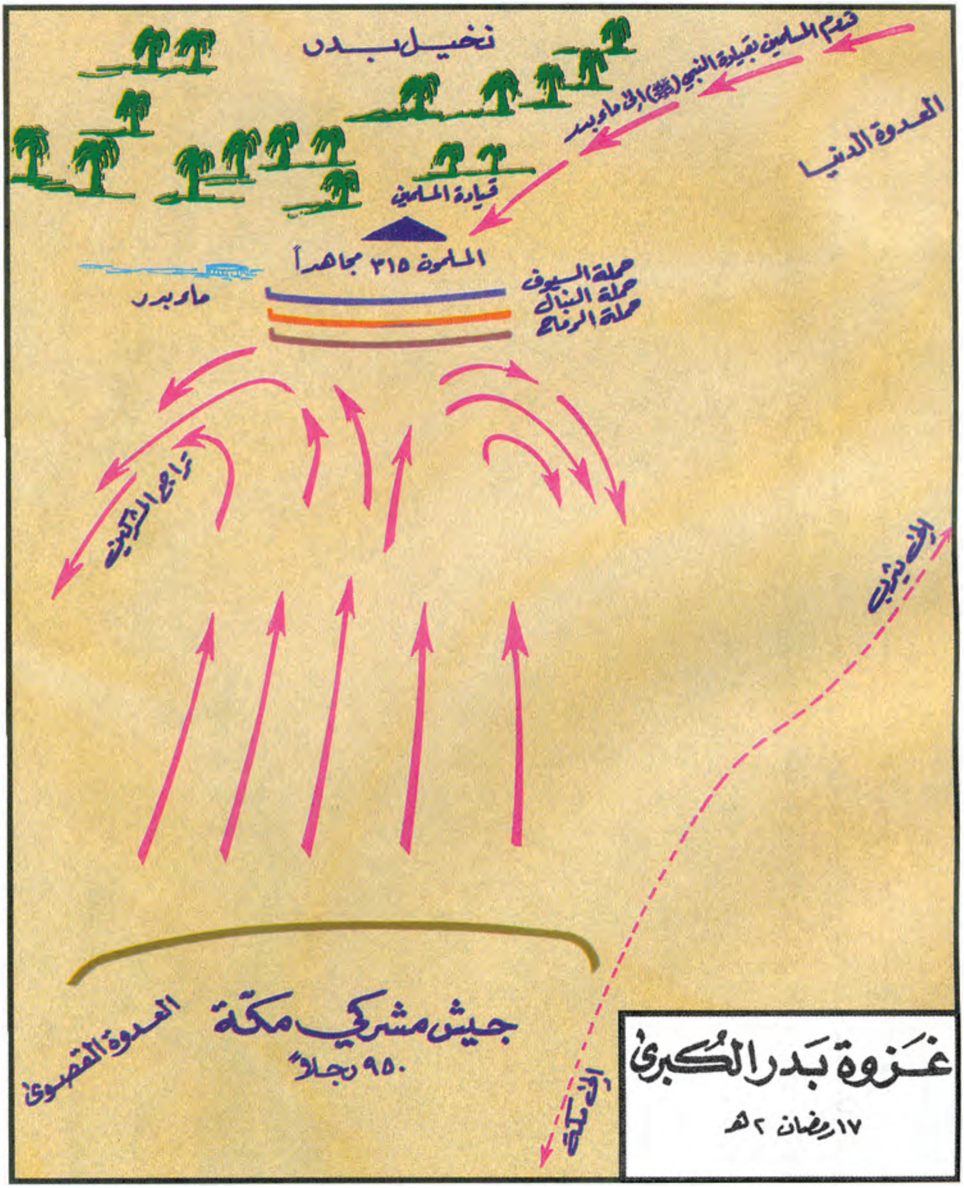

الشكل (١٦)

رسم ساحة القتال في غزوة بدر

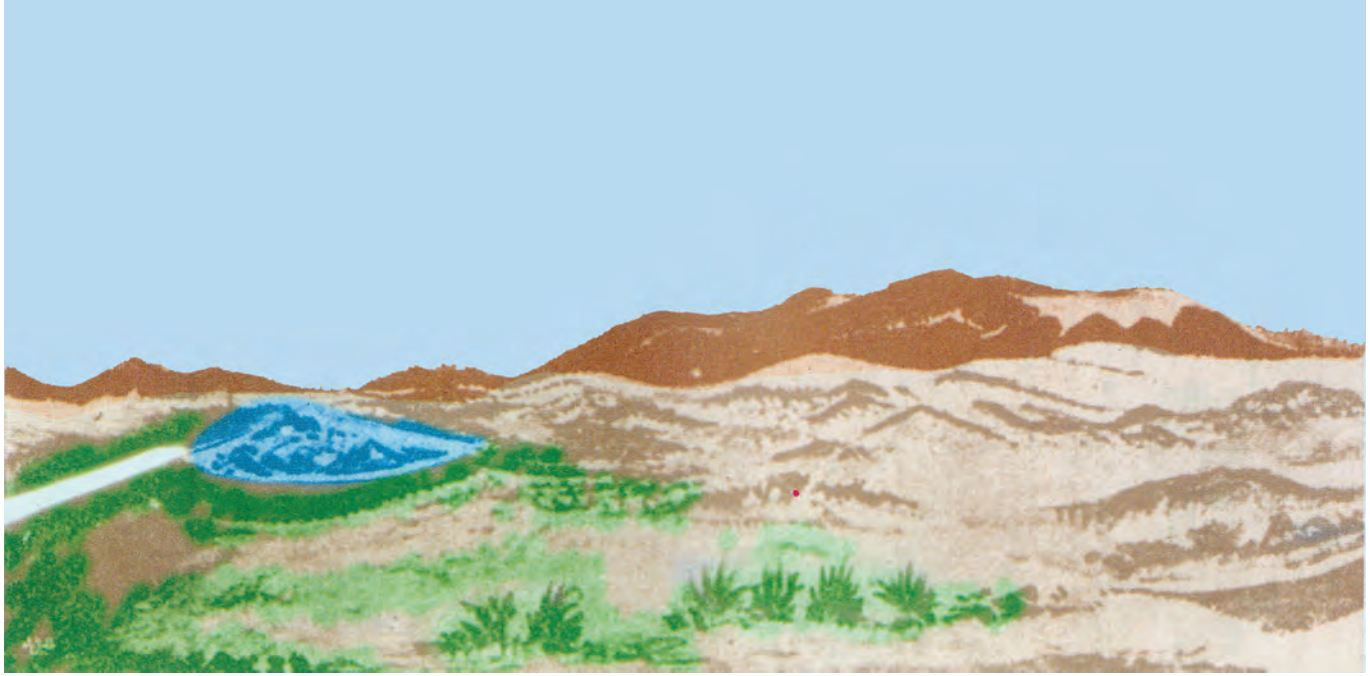

رسم ساحة القتال في غزوة بدر الكبرى ويبدو في جوانبها الحائط الذي بني حولها، وتقع العدوة القصوى في جانب اليسار من الرسم في الجهة الجنوبية من الساحة والتي كان نزول جيش الكفار فيها. أما العدوة الدنيا فإنها تقع في نهاية الرسم من الجانب الشرقي وكانت منزل الجيش الإسلامي وتقع بمقربة منها مقابر شهداء بدر التي يبدو جزء من حائطها في الرسم.

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

عَرْضُ وَقَائِعٍ وَتَحْلِيلُ أَحْدَاثٍ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

طبعةٌ جديدةٌ مُصحَّحةٌ ومنقَّحةٌ ومُخرجةُ الأحاديثِ
ومُزودةٌ بخرائط ومُصوَّراتٍ مُلونةٍ

تأليف

د. عليّ محمّد محمّد الصّلّابي

الجزءُ الثّاني

دارُ الأصالة

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الخامس
الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ، فشهدت معه بدراً، فالتقى النَّاس، فهزم الله ـ تبارك وتعالى ـ العدوَّ، فانطَلَقَتْ طائفةٌ في آثارهم يَهْزِمون ويقتلون، وأكبَّت طائفةٌ على العسكر يَحْوُونه، ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله ﷺ؛ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً؛ حتَّى إذا كان اللَّيل، وفَاءَ[١] النَّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ.

قال الَّذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْنَاها، وجمعناها؛ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ، وقال الَّذين خرجوا في طلب العدوِّ: لستم بأحقَّ بها منَّا؛ نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ، وهزمناهم، وقال الَّذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحقَّ بها مِنَّا؛ نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخِفنا أن يصيب العدوُّ منه غرَّةً، واشتغلنا به؛ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]؛ فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاقٍ بين المسلمين [أحمد (٥/ ٣٢٤)].

وفي روايةٍ: قال عبادة بن الصَّامت عن الأنفال حين سُئِلَ عن سورة الأنفال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النَّفل[٢]، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله ـ تبارك وتعالى ـ من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ فينا عن بواءٍ. يقول: على السَّواء. [أحمد (٥/ ٣٢٢)].

لقد خلَّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكرى غزوة بدرٍ في سورة الأنفال، وجاءت مفصلةً عن أحداثها وأسبابها، ونتائجها، وتعرَّضت الآيات الكريمة لعلاج النَّفس البشريَّة، وتربيتها على معاني الإيمان العميق، والتَّكوين الدَّقيق، فبدأت السُّورة بتبيان حكم أثرٍ من آثار القتال، وهو

---

(١) فَاءَ فَيْئاً: رَجَعَ.
(٢) النَّفَل: الغنيمة، والجمع: أنفال.

الغنائم ، فبيَّنت : أنَّ هذه الغنائم لله ، والرَّسول فالله هو مالك كلِّ شيءٍ ، ورسوله ﷺ هو خليفتهُ ، ثمَّ أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر :

بالتَّقوى ، وإصلاح ذات البين ، والطَّاعة لله والرَّسول ﷺ ، وهي أوامر مهمَّة جدّاً في موضوع الجهاد ؛ فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً ، والجهاد يحتاج إلى وحدة صفٍّ ، ومن ثَمَّ فلابدَّ من إصلاح ذات البين ، والانضباط هو الأساس في الجهاد؛ إذ لا جهاد بلا انضباط ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : أنَّ الطَّاعة لله ولرسوله ﷺ علامةُ الإيمان.

وحدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين الحقيقيين ، وهذا الوصف ، والتَّحديد مهمَّان في موضوع الجهاد الإسلاميِّ ؛ لأنَّ الإيمان الحقيقي هو الَّذي يقوم به الجهاد الإسلاميُّ . لقد حدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين ؛ بأنَّهم إذا ذكر الله ؛ فزعت قلوبهم ، وخافت ، وفرقت ، وإذا قرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم ، ونما .

والصِّفة الثَّالثة هي : التوكُّل على الله ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إيَّاه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون : أنَّ (ما شاء الله ؛ كان ، وما لم يشأ ؛ لم يكن) ، وأنَّه المتصرِّف في الخلق وحده لا شريك له ، ولا معقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

والصِّفة الرَّابعة : إقامة الصَّلاة ، والمحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها ، ومن ذلك إسباغ الطُّهور فيها ، وتمام ركوعها ، وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ، والتشهُّد ، والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ .

والصفة الخامسة : الإنفاق ممَّا رزقهم الله ، وذلك يشمل إخراج الزَّكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجبٍ ، ومستحبٍّ ، والخلق كلُّهم عباد الله ؛ فأحبُّهم إليه أنفعهم لخلقه ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان ، وأنَّ لهم عند الله منازلَ ، ومقامات ، ودرجات في الجنَّات ، وأنَّ الله يغفر لهم السَّيِّئات ، ويشكر الحسنات ، وبهذا تنتهي مقدِّمة السُّورة بعد أن رفعت الهمم لكلِّ لوازم الجهاد ، ونَفَتْ كلَّ عوامل الخذلان ؛ من اختلافٍ على غنائم ، أو خلافٍ بسبب شيءٍ ، داعيةً إلى الطَّاعة ، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل(١) .

قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) انظر : الأساس في التَّفسير (٤/ ٢١١٣ ـ ٢١١٤) .

ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤].

يقول الأستاذ محمَّد أمين المصري: لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدرٍ، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً، يَحْمِلُ المؤمنين على الرُّجوع إلى أنفسهم، والاستحياء من ربِّهم، وهناك نقاطٌ أرسلت الآيات النُّقاط عليها، وبيَّنت نواحي الضَّعف فيه بياناً جليّاً قويّاً بتصوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً، تشاهد العين فيه الحركات والخلجات.

وكلُّ ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن؛ ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان؛ الَّتي يهفو قلبُه للوصول إليها، ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم، ويشعر الذَّوق السَّليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب؛ ولكنَّه تصوير مافي النُّفوس تصويراً يوقن معه العادي من النَّاس: أنَّه ما كان لمؤمنٍ صحيح الإيمان أن يتَّصف بها، ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية، وميِّزاته الرَّفيعة، الَّتي تصوِّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أيِّ إسفاف: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ما ذكرت الآيات عتاباً، ولكنَّها ذكرت واقعاً، وكان ذكر الواقع أبلغ من كلِّ عتاب، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ وفحوى الخطاب: ما كان لهم أن يسألوا هذا السُّؤال، وقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة خروجهم من المدينة، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾ وهذا وصفٌ بالغ الغاية في تصوير الجزع، والرُّعب، صورة أناسٍ يساقون إلى الموت سوقاً لا مفرَّ منه، وهم يَرَوْن الموت بأمِّ أعينهم؛ وقال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وهذا تصويرٌ لضعفٍ في النُّفوس.... إلى أن يقول: دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أيَّ شعور بالاستعلاء، وصرفت عن أنفسهم كلَّ معنىً من معاني الغرور، وبسطت أمامهم نفوسهم، أو نفوس فريقٍ منهم، وما بينها وبين الإيمان الصَّحيح من درجاتٍ، وإذا جاء ذكر الثَّناء مصوَّراً بصورة المنِّ والفضل بما أنعم الله ليس ثناءً مستقلاً، الثناء عليهم: أنَّ الله منَّ عليهم، فاستجاب دعاءهم، ونزَّل عليهم الماء، ليطهِّرهم، وأنزل الملائكة؛ لتثبيتهم، وجمع بينهم وبين عدوِّهم لأمرٍ كبير دبَّره الله، وقدَّره[1].

بدأت السُّورة بموضوع الأنفال، واختلافهم في قسمتها، وسؤالهم عنها، فساقت في ذلك أربع آياتٍ عالجت بها نفوس المؤمنين، وطهَّرتها من الاختلاف الَّذي ينشأ عن حبِّ المال، والتَّطلُّع إلى المادة[2].

---

(١) من هدي سورة الأنفال، د. محمد المصري، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٧.

ولأهمِّيَّة هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السُّورة ـ وإنْ كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخِّراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدرٍ ، وقتال الأعداء ـ ومن سنَّة الله في كتابه : أنَّه في ذكر القصص والواقع لا يعرض لها مُرَتَّبةً حسب وقوعها(١) .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ : وأوَّل الطَّاعة هنا طاعته في حكمه الَّذي قضاه في الأنفال ، فقد خرجت من أن تكون لأحدٍ من الغزاة على الإطلاق ، وارتدَّت ملكيتها ابتداءً لله ، والرَّسول ﷺ ، فانتهى حقُّ التَّصرُّف فيها إلى الله ورسوله ﷺ ، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله ، وقَسْم رسول الله ﷺ طيبةً قلوبُهم ، راضيةً نفوسُهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ، ومشاعرهم ، ويصفُّوا قلوبهم بعضهم لبعضٍ(٢) .

وهذا العرض الرَّبَّانيُّ يؤكِّد حقيقةً أكبر من النَّصر على المشركين ، يؤكِّد : أنَّ صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقيَّ على مسارب النُّفوس ، ومشارب القلوب هو الأكبر في ميزان الله ، وهو الأعظم في ميزان الله ، ولا جدوى من نصرٍ يعقبه صراعٌ في الصَّفِّ واختلافٌ في القلوب .

وتبيِّن الآيات : أنَّ قضيَّة التَّقوى ، والإيمان ، تدخل في شؤون حياة المسلم كافَّةً ، وبها ينبع تحرُّكه في الحياة ، وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى(٣) .

لقد استجاب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم لهذا التَّوجيه الرَّبانيِّ ، ونزلت الآيات تبيِّن لرسول الله ﷺ كيف يتصرَّف في الأنفال .

بعد أن أصبحت الغنائم لله ولرسوله ﷺ بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ كيف توزَّع هذه الغنائم .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وهذا بعدما طَهُرَتْ قلوبهم من الأخلاط ، وأخلصت إلى علاَّم الغيوب في الطَّاعة ، وتمثَّلت الآيات ، فتحقَّقت بمعنى العبودية الخالصة لله ، وهذا الحكم صريحٌ في أنَّ أربعة أخماس ما غنموه مقسومٌ بينهم ، والخمس لله ، ولرسوله ﷺ ، وهذا الخمس نفسه مردودٌ فيهم أيضاً ، وموزَّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسُّنَّة ـ .

إنَّ التَّوجيه التَّربويَّ في إرجاء إنزال جواب السُّؤال عن الغنائم ، يشير إلى أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة ينبغي أن يهيَّأ لها الجوُّ النَّفسيُّ الرُّوحيُّ المناسب؛ لتحتلَّ مكانها اللائق في العقل ،

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) في ظلال القرآن الكريم (٣/ ١٤٧٣ ـ ١٤٧٤) .
(٣) المنهج التَّربويُّ للسِّيرة النَّبوية ـ التَّربية الجهادية ، للغضبان (١/ ٥٢) .

والضَّمير ، فتثبت ، وتتمكَّن ، وتؤتي أطيب النتائج ؛ إذ يتجلَّى فيها أكمل الحلول ، وهكذا صرف المولى ـ جلَّ شأنُه ـ عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير أوَّلاً ، وبالغنائم ثانياً ؛ ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره ، وإتمام نعمته ، فلمَّا تفرَّغوا للخالق ، وأخلصوا في الجهاد ؛ أكرمهم بالنَّصر من لدنه ، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر ممَّا كانوا يودُّون(١) ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمئة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : «اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم» ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين ، واكتَسَوْا وشبعوا . [أبو داود (٢٧٤٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٧) ، والحاكم (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ١٤٥)] .

ومن عدل النَّبيِّ ﷺ في تقسيم الغنائم ، إعطاؤه من هذه الغنيمة مَنْ تخلَّف بأمر رسول الله ﷺ لمهامٍ أَوْكَلَها إليهم ، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة ، وبأجرهم ، فكانوا كمن حضرها(٢) ، فكان ﷺ يراعي ظروف الجنود ؛ الَّتي تمنعهم من المشاركة في القتال ؛ لأنَّ الله تعالى لم يكلِّف عباده شيئاً فوق طاقتهم ، قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلِّف المسلمين فوق طاقتهم ، سواءٌ أكان ذلك في السِّلم ، أم الحرب ، وفي غزوة بدرٍ أعفى النَّبيُّ ﷺ بعض الصَّحابة ؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلَّب منهم القيام عليها ، ورعايتها ، فقد أعفى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من الخروج يوم بدرٍ ؛ لأنَّ زوجته رقيَّة كانت مريضةً ، وبحاجةٍ إلى من يرعى شؤونها ، روى البخاريُّ في صحيحه : أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيُّب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر ، فقال رضي الله عنه : وأمَّا تَغَيُّبُهُ عن بدرٍ ، فإنَّه كانت تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ ، وكانت مريضةً ، فقال له رسول الله ﷺ : «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهد بدراً ، وسَهْمَهُ» [البخاري (٣٦٩٩)] .

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمِّه ؛ حيث كانت مريضةً ، وهي بحاجة إليه ، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدرٍ ، وأجمع الخروج معه ، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار : أقِمْ على أمِّك يابن أختي! فقال له أبو أمامة : بل أنت فأقم على أختك . فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ ، فأمر أبا أمامة بالمقام على أمِّه ، وخرج بأبي بردة ، فقدم النَّبيُّ ﷺ وقد توفِّيت فصلَّى عليها . [الطبراني في الكبير (٧٩٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣١ ـ ٣٢)] .

إنَّ هذه الأخلاق الرَّفيعة ، ومراعاة شعور الجنود ، وأحوالهم العائليَّة تولِّد قوَّة ترابطٍ بين القيادة والجنود ، وتدخل تحت مفهوم فقه التَّمكين ، وقد مارسه الرَّسول ﷺ في أعلى صوره .

---

(١) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٢) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٢١٠ .

ومن الصَّحابة الَّذين كانت لهم مهمَّاتٌ خاصَّةٌ ، أو أُصيبوا أثناء الطَّريق ، فردَّهم الرَّسول ﷺ :

١ ـ أبو لبابة : استخلفه ﷺ على المدينة .

٢ ـ عاصم بن عديٍّ : أرسله ﷺ في مهمَّة لأهل العالية في المدينة .

٣ ـ الحارث بن حاطب : أرسله ﷺ في مهمَّةٍ إلى بني عمرو بن عوف .

٤ ـ الحارث بن الصِّمَّة : وقع أثناء الطَّريق فكسر ، فرُدَّ .

٥ ـ خوَّات بن جُبير : أصابه في الطَّريق حجرٌ في ساقه ، فردَّه من الصفراء(١) .

وكذلك أعطى لورثة الشُّهداء، وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَّبق في تكريم الشُّهداء ، ورعاية أبنائهم ، وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً(٢) .

ثانياً: الأسرى :

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلمَّا أسروا الأُسارى ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأُسارى؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ ، والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فديةً ، فتكون لنا قوَّةً على الكفَّار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر ، ولكنِّي أرى أن تُمَكِّنَّا منهم ، فنضرب أعناقهم ، فتمكِّن عليّاً من عَقِيلٍ ، فيضرب عنقه ، وتمكنِّي من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر ، وصناديدها ، فهوي رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلتُ ، فلمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك ، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت ، وإن لم أجد بكاء؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ : «أبكي لِلَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرة» ـ شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله ﷺ ـ.

وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم. [أحمد (١/ ٣٠ ـ ٣١) ، ومسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذي (٣٠٨١)] .

وفي رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم بدرٍ؛ قال رسول الله ﷺ :

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٥ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٧٦) .

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومُك، وأهلُك، اسْتَبْقِهِم، واسْتَأْنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك، وكذَّبوك؛ فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثمَّ أضرم عليهم ناراً، فقال العبَّاس: قطعت رحمك! فدخل رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكرٍ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله ليُلَيِّن قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون ألين من اللَّبن، وإنَّ الله لَيَشُدُّ قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر! كمثل إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ؛ إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وإنَّ مثلك يا عمر! كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

ثمَّ قال ﷺ: «أنتم عالة، فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداءٍ، أو ضربة عنقٍ».

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله! إلا سُهيل بن بيضاء؛ فإنِّي قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتُني في يومٍ أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء في ذلك اليوم؛ حتَّى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية. [أحمد (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤)، وأبو يعلى (٥١٨٧)، والترمذي (١٧١٤ و٣٠٨٥)، والحاكم (٣/ ٢١ ـ ٢٢)].

وهذه الآية تضع قاعدةً هامَّةً في بناء الدَّولة حينما تكون في مرحلة التَّكوين، والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهرَ بمظهر اللِّين؛ حتَّى تُرْهَب من قِبَلِ أعدائها، وفي سبيل هذه الكلِّيَّة يُطرح الاهتمام بالجزئيَّات ـ حتَّى ولو كانت الحاجة ملحةً إليها ـ[١].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لمَّا شرع الصَّحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسولُ الله ﷺ الكراهية في وجه سعدٍ لما يصنع النَّاس؛ فقال له رسول الله ﷺ: «والله! لكأنَّك يا سعدُ! تكره ما يصنعُ القوم!» قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشِّرك، فكان الإثخان بالقتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرِّجل. [ابن هشام (٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١)][٢].

---

(١) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٠٩.

(٢) انظر: التَّربية الجهاديَّة، للغضبان (١/ ١٤١).

* كانت معاملة النَّبيِّ ﷺ للأسرى تحفُّها الرَّحمة ، والعدل ، والحزم ، والأهداف الدَّعوية ؛ ولذلك تعدَّدت أساليبه ، وتنوَّعت طرق تعامله ﷺ ، فهناك من قتله ، وبعضهم قبل فيهم الفداء ، والبعض الآخر منَّ عليهم ، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم .

أ ـ حفظ رسول الله ﷺ لجِوار المُطْعِم بن عديٍّ :

قال رسول الله ﷺ في أُسارى بدر : «لو كان مُطْعِمُ بن عديٍّ حيّاً ، ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى ؛ لأطلقتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) ، وأبو داود (٢٦٨٩)] .

وهذا الحديث تعبيرٌ عن الوفاء ، والاعتراف بالجميل ، فقد كان للمُطعم مواقفُ تُذكَر بخيرٍ ، فهو الَّذي دخل الرَّسول ﷺ في جواره حينما عاد من الطَّائف ، كما كان من أشدِّ القائمين على نقض الصَّحيفة يوم حُصِر المسلمون ، وبنو هاشم[١] .

وهذا يدلُّ على قمَّة الوفاء لمواقف الرِّجال ـ ولو كانوا مشركين ـ[٢] .

ب ـ مقتل عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ والنَّضر بن الحارث :

وإذا كان هذا الوفاء لرجلٍ مثل المطعم بن عديٍّ ، فلابدَّ من الحزم مع مجرمي الحرب ، ورؤوس الفتنة ؛ من أمثال : عُقبة بن أبي مُعَيْط ، والنَّضر بن الحارث ، فقد كانا من أكبر دُعاة الحرب ضدَّ الإسلام ، والمتربِّصين بالمسلمين الدَّوائر ، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدرَ خطرٍ كبيرٍ على الإسلام ، ولاسيَّما في تلك الظُّروف الحاسمة ، الَّتي تمرُّ بها الدَّعوة الإسلاميَّة ، فلو أُطلِق سراحُهُمَا ؛ لما تورَّعا عن سلوك أيِّ طريقٍ فيه كيدٌ للإسلام ، وأهله ، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظَّرف ضرورةٌ تقتضيها المصلحة العامَّة لدعوة الإسلام الفتيَّة[٣] ؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بِقَتْلِهما عندما وصل إلى الصَّفراء[٤] أثناء رجوعه للمدينة ، فلمَّا سمع عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ بأمر قَتْلِهِ ، قال : يا ويلي! علام أُقْتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟! فقال رسول الله ﷺ : «لعداوتك لله ولرسوله» قال : يا محمد! مَنُّك أفضل ، فاجعلني كرجلٍ من قومي ، إنْ قتلتَهُم ؛ قَتَلْتَني ، وإن مَنَنْتَ عليهم ؛ مَنَنْتَ عَلَيَّ ، وإن أخذتَ منهم الفداء كنتُ كأحدِهم ، يا محمد! من للصبيَة؟ قال

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٢٠٨ .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٥٤) .
(٣) انظر : غزوة بدر الكبرى ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٦٢ .
(٤) الصَّفراء : وادٍ كثير النَّخل ، والزَّرع ، والخير .

رسول الله ﷺ: «النَّارُ، قدِّمْه يا عاصم! فاضربْ عُنُقَه» [الحاكم (٢/ ١٢٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ٨٩)]؛ فقدَّمه عاصمٌ، فضرَبَ عُنُقَهُ(١).

وأمَّا النَّضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريشٍ، وممَّن يؤذي رسول الله ﷺ، وينصِبُ له العداوة، وكان قد قدِم الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً، فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم مِنْ نِقْمَةِ الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام، ثمَّ قال: أنا والله يا معشر قريش! أحسنُ حديثاً منه، فهلمُّوا إليَّ، فأنا أحدِّثكم أحسن مِنْ حديثه، ثمَّ يحدِّثُهم عن ملوك فارس، ورستم واسفنديار، ثمَّ يقول: بماذا محمَّد أحسنُ حديثاً منِّي؟!(٢).

إنَّ هذا الرَّجل المتعالي على الله، والمتألِّي عليه، والَّذي يزعم: أنَّه سينزل أحسن ممَّا أنزل الله، والَّذي يزعم: أنَّه أحسنُ حديثاً من محمَّد، لابدَّ لمثل مَنْ يمثِّل هذا التَّيار ـ وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين ـ لابدَّ أن يُثأرَ لله، ولرسوله ﷺ منه، ومن أجل هذا لم يُدْخِلْهُ رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة(٣)، وأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه(٤).

وبمقتل هَذَيْنِ المُجرِمَيْنِ تعلَّم المسلمون: أنَّ بعض الطُّغاة العُتاة المُعادين لا مجال للتَّساهل معهم، فهم زعماءُ الشَّرِّ، وقادة الضَّلال، فلا هوادة(٥) معهم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّ العفو، والصَّفح(٦) بأعمالهم الشَّنيعة، فقد كان هذان الرَّجلان مِنْ شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسداً، وهجاءً للإسلام وأهله(٧).

ج ـ الوصيَّةُ بإكرام الأسرى جانبٌ من المنهج النَّبويِّ الكريم:

ولمَّا رجع ﷺ إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»(٨)؛ وبهذه التَّوصيَة النَّبويَّة الكريمة، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٦٠).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (١/ ٤٣٩، ٤٤٠).
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٥٧).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٢/ ٢٥٥).
(٥) الهَوَادة: اللِّينُ والرِّفق.
(٦) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٦٠).
(٧) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٦).
(٨) المصدر السابق (٣/ ٣٠٧).

فهذا أبو عزيز بن عُمَيْر أخو مُصعب بن عمير ، يحدِّثنا عمَّا رأى ، قال: كنتُ في الأسرى يوم بدرٍ ، فقال رسول الله ﷺ : «استوصوا بالأُسارى خيراً» ، وكنتُ في نفرٍ من الأنصار ، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم ، وعشاءهم ، أكلوا التَّمر ، وأطعموني البُرَّ[(١)] ؛ لوصيَّة رسول الله ﷺ . [الطبراني في الصغير (٤٠١) ، وفي الكبير (٢٢/ ٣٩٣) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٠) ، ومجمع الزوائد (٦/ ٨٦)] .

وهذا أبو العاص بن الرَّبيع يحدِّثنا ، قال: كنت في رَهْطٍ من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنَّا إذا تعشَّينا ، أو تغدَّينا ، آثروني بالخُبْزِ ، وأكلوا التَّمْرَ ، والخبزُ معهم قليلٌ ، والتَّمْرُ زادُهم ، حتَّى إنَّ الرَّجل لتقع في يده كِسْرَةٌ فيدفعها إليَّ ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثلَ ذلك ، ويزيد: «وكانوا يحملوننا ، ويمشون»[(٢)] .

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الَّذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين ، وذكَّر به النَّبيُّ ﷺ أصحابَه؛ فاتَّخذوه خُلقاً ، وكان لهم طبيعةً ، قد أثر في إسراع مجموعة مِنْ أشراف الأسرى ، وأفاضلهم إلى الإسلام ، فأسلم أبو عزيز عُقَيْبَ بدرٍ ، بُعيْد وصول الأسرى إلى المدينة ، وتنفيذ وصيَّة رسول الله ﷺ ، وأسلم معه السَّائب بن عبيدٍ[(٣)] بعد أن فدى نفسه ، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم ، وطهَّرت نفوسَهم ، وعاد الأسرى إلى بلادِهم وأهليهم ، يتحدَّثون عن محمَّدٍ ﷺ ، ومكارم أخلاقه ، وعن محبَّته ، وسماحته ، وعن دعوته ، وما فيها من البِرِّ والتَّقوى ، والإصلاح والخير[(٤)] .

إنَّ هذه المعاملة الكريمة للأسرى ، شاهدٌ على سموِّ الإسلام في المجال الأخلاقيِّ ، حيث نال أعداءُ الإسلام من معاملة الصَّحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق؛ الَّتي تتمثَّل في خُلُق الإيثار[(٥)] .

د ـ فداء العباس عمِّ النَّبيِّ ﷺ :

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العبَّاس: يا رسول الله! قد كنتُ مسلماً ، فقال رسول الله ﷺ : «الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك ، وأمَّا ظاهرك ، فقد كان علينا ، فافتدِ نفسَك ، وابني أخويك:

---

(١) البُرُّ: حَبُّ القمح .
(٢) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ١١٩) .
(٣) انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/ ٤٧٤) .
(٤) انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/ ٤٧٤) .
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦) .

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ، وحليفَك عتبةَ بن عمرٍو أخي ابن الحارث بن فهرٍ» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الَّذي دفنته أنت وأمُّ الفَضْل ، فقلتَ لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنتُه لبني الفَضْل ، وعبد الله ، وقُثَم؟!» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله ، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري ، وغير أمِّ الفضل ، فاحسب لي يا رسول الله! ما أصبتم منِّي عشرين أوقيَّة من مالٍ كان معي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه ، وابني أخويه ، وحليفه؛ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠ ـ ٧١].

قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيَّةً في الإسلام عشرين عبداً ، كلُّهم في يده مالٌ يَضْرِبُ به ، مع ما أرجو من مغفرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ [البيهقي في الدلائل (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣) ، وبنحوه أحمد (١/ ٣٥٣)][(١)].

هذا ، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب ، فهذه الآية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

استأذن بعضُ الأنصار رسولَ الله ﷺ ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العبَّاس فداءه. فقال: «والله! لا تذرون منه درهماً» [البخاري (١/ ٢٥٣٧ و٣٠٤٨ و٤٠١٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٤٢)][(٢)] ، أي: لا تتركوا للعبَّاس من الفداء شيئاً.

ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[(٣)] ، لتكون المنَّة عليهم في إطلاقه ، بخلاف لو قالوا: عمَّك؛ لكانت المنَّة عليه ﷺ ، وهذا من قوَّة الذَّكاء وحسن الأدب في الخطاب ، وإنَّما امتنع النَّبيُّ ﷺ عن إجابتهم؛ لئلا يكون في الدِّين نوعُ محاباة[(٤)].

وهنا يتعلَّم الأسرى ، والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القُربى ، بل كان الأمر على خلاف ذلك؛ فقد أغلى رسولُ الله الفداء على عمِّه العباس[(٥)].

ورجع العبَّاس لمكَّة ، وقد دفع فداءه ، وفداء ابنيْ أخويه ، وأخفى إسلامه ، وأصبح يقود

---

(١) انظر شرح الحديث (٤٠١٨) في فتح الباري.
(٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري (٧/ ٣٢١) نقلاً عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).
(٣) لأنَّ جدَّة العباس أمَّ عبد المطلب من بني النَّجار من يثرب.
(٤) انظر: سُبُلَ الهدى والرَّشاد ، للصالحي (٤/ ١٣٥).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

جهاز استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة بمكَّة بمهارةٍ فائقةٍ ، وقدرةٍ نادرةٍ ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكَّة ، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ[(١)] .

هـ ـ أبو العاص بنُ الرَّبيع زوجُ زينب رضي الله عنها بنتِ رسول الله ﷺ :

قالت عائشة رضي الله عنها : لمَّا بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم ؛ بعثت زينب بنتُ رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ ، وبعثت فيه بقِلادةٍ[(٢)] لها ، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[(٣)] ، قالت : فلمَّا رآها رسول الله ﷺ ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، وقال : «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي لها ، فافعلوا» فقالوا : نعم ، فأطلقوه ، وردُّوا عليها الَّذي لها . [أبو داود (٢٦٩٢) ، وأحمد (٦/ ٢٧٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٥٤) ، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٢٨) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢١٤)][(٤)] .

وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه ، أو وعده أن يُخَلِّيَ سبيل زينب إليه ، وبعث رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة ، ورجلاً من الأنصار ، فقال : «كونا ببطن يأجَج[(٥)] ، حتَّى تمرَّ بكما زينبُ ، فتصحباها ، حتَّى تأتيا بها» [انظر تخريج الحديث السابق] .

إنَّ أبا العاص بن الرَّبيع زوجَ زينب رضي الله عنها بنتِ الرَّسول ﷺ لم يُعرف عنه قطُّ موقفٌ في مقاومة الدَّعوة بأيِّ لونٍ من ألوانها ، وقد كفَّ يده ، ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وشغَله مالهُ وتجارتهُ ، وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقفِ الشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلى الله ، وفي بدرٍ كان أبو العاص صِهْرُ رسول الله ﷺ من بين الأسرى ؛ الَّذين لم يُسمع لهم في المعركة صوتٌ ، ولم يُعرف لهم رأيٌ ، ولا شُوهدتْ لهم في قتالٍ جولةٌ ، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها ؛ أرسلت السَّيدة زينب بنت رسول الله ﷺ ، وزوجة أبي العاص بمالٍ تفديه به ، ومع المال قلادةٌ كانت أمُّها السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، أهدتها إليها ، فأدخلتها بها على زوجها لتتحَلَّى بها ، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ قِلادَةَ ابنته ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، إذ كانت هذه القلادةُ الكريمة مبعثَ ذكرياتٍ أبويَّةٍ عنده ﷺ ، وذكرياتٍ زوجيَّةٍ ، وذكرياتٍ أُسريَّةٍ ، وذكريات عاطفيَّةٍ ؛ فالنَّبيُّ ﷺ أبٌ ، له من عواطف الأبوَّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسانيَّة ، وأشرفُها في فضائل الحياة ، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرَّمة أسمى مشاعر الرَّحمة ، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطفُ الحنان ، والحنين ، فتوجَّه إلى أصحابه رضي الله عنهم

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٦٨) .
(٢) القلادَةُ : ما يُجْعَل في العُنُق من حليٍّ ونحوه .
(٣) بَنَى بزوجته وعليها : دخل بها .
(٤) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١ .
(٥) اسم مكان على ثمانية أميال من مكَّة .

متلطِّفاً ، يطلب إليهم في رجاء الأعزِّ الأكرم ، رجاءً يدفعهم إلى العطاء ، ولا يسلبهم حقَّهم في الفداء؛ لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحقِّ؛ وهو في أيديهم ، يملكون التَّصرُّف فيه ، فقال لهم : «إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي هو لها» .

وهذا أسلوبٌ من أبلغ ، وألطف ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة ، فيطوِّعها إلى الاستجابة الرَّاغبة الرَّاضية ، رضاءً ينمُّ عن الغِبْطَة ، والبَهْجَة[١] .

إنَّ هذا الموقف ، وما يظهر منه من مظاهر الرَّحمة ، والعطف منه ﷺ على ابنته، يحمل في طيَّاته مقصداً آخر ، وهو أنَّه كان يتألَّف صِهْرَه للإسلام بذلك؛ لِمَا عَـرَفَ عنه من العقل السَّديد ، والرَّأي الرَّشيد ، فقد كان ﷺ يُثني عليه ، وهو على شِرْكِهِ بحسن المعاملة[٢] .

و ـ أبو عزَّة عمرُو بن عبد الله الجُمَحِيُّ بين الرَّحمة ، والحزم النَّبويِّ :

كان محتاجاً ذا بناتٍ ، قال : يا رسول الله! لقد عرفت ما لي مِنْ مالٍ ، وإنِّي لذو حاجةٍ ، وذو عيالٍ ، فامنُنْ عليَّ! فمنَّ عليه رسولُ الله ﷺ ، وأخذ عليه ألا يُظاهرَ عليه أحداً ، فقال أبو عزَّةَ يمدح رسول الله ﷺ على ذلك :

مَـنْ مُبْلِـغٌ عَنِّـي الـرَّسُـوْلَ مُحَمَّـداً ... بـأنَّـكَ حَـقٌّ والمَلِيْـكُ حَمِيْـدُ
وأَنْـتَ امْـرُؤٌ بُـوِّئْـتَ فِيْنَـا مبَـاءَةً[٣] ... لَهَـا دَرَجَـاتٌ سَهْلَـةٌ وَصُعـودُ
فـإنَّـكَ مَـنْ حَـارَبْتَـهُ لَمُحَـارَبٌ ... شَقِـيٌّ ومَـنْ سَـالَمْتَـهُ لَسَعِيـدُ
ولَكِـنْ إِذَا ذُكِّـرْتُ بَـدْراً وأَهْلَـهُ ... تـأَوَّبَ مَـا بِـي حَسْـرَةً وَقُعُـوْدُ

قال ابن كثير : ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذا نقض ما كان عاهد الرَّسول ﷺ عليه ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إليهم ، فلمَّا كان يومَ أحدٍ؛ أُسر أيضاً ، فسأل النَّبيَّ ﷺ أن يَمُنَّ عليه أيضاً ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «لا أدعك تمسح عارِضَيْكَ بمكَّةَ ، وتقولُ : خدعتُ محمَّداً مرَّتين» ثُمَّ أَمَرَ به ، فَضُرِبَتْ عنقهُ . [البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) ، وابن هشام (٣/ ١١٠)][٤] .

فكان النَّبي ﷺ به رحيماً ، وعفا عنه ، وأطلق سراحه بدون فداءٍ لَمَّا ذكر أبو عزَّة فقره ، وما لديه مِنْ بناتٍ يعولهنَّ؛ ولكنَّه لم يفِ لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه مِنْ لزوم السِّلم ، وعدم إثارة الحرب ضدَّه ، فوقع أسيراً في معركة أُحدٍ ، فكان موقفُ النَّبيِّ ﷺ منه الحزم ، فأمر بضرْب عنُقِه .

---

(١) انظر : محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/ ٤٨٠ ـ ٤٨٧) .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/ ١٨٣) .
(٣) مباءةٌ: مكانةٌ رفيعةٌ .
(٤) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣١٣) .

ز ـ سهيلُ بن عمرٍو ، ووقوعُه في الأسر ، وماذا قالت سودةُ رضي الله عنها :

قال عبد الرَّحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه : قُدِم بالأُسارى حين قُدِم بهم المدينة ؛ وسودةُ بنت زمعة زوج النَّبيِّ ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عَوْفٍ ، ومعوِّذ ابني عفراء ـ وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب ـ ، قالت سودة : فوالله إنِّي لَعِنْدهم ؛ إذ أتينا فقيل : هؤلاء الأُسارى قد أُتِيَ بهم ، فرجعتُ إلى بيتي ؛ ورسول الله ﷺ فيه ؛ فإذا أبو يزيد سهيلُ بنُ عمرٍو في ناحية الحُجْرَة ، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيدٍ كذلك أن قُلتُ : أبا يزيد! أعطيتُم بأيديكم؟ ألا مُتُّم كراماً؟! فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت : «يا سودةُ! أعَلَى الله ورسوله تُحَرِّضين؟!» فقلت : يا رسول الله! والَّذي بعثك بالحقِّ ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلتُ . [البيهقي في الكبرى (٩/ ٨٩) ، والحاكم (٣/ ٢٢) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٠)][1] .

وقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأخْيَف في فداء سهيل بن عمرو ، فلمَّا فاوض المسلمين ، وانتهى إلى رضائهم ، قالوا : هاتِ الَّذي لنا ، قال لهم مِكْرَز بن حفص : اجعلوا رجلي مكان رجله ، وخلُّوا سبيله حتَّى يَبعث إليكم بفدائه ، فخلُّوا سبيل سُهيل ، وحبسوا مِكْرزاً عندهم ، وجاء في حديثٍ مُرْسَلٍ : أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ : دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرٍو ، يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ آخر ! فقال رسول الله ﷺ : «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي ؛ وإن كنتُ نبيّاً» [ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٣٨٧)][2] . ثمَّ قال رسول الله ﷺ لعمر : «إنَّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»[3] .

قال ابن كثير : وهذا هو المقام الَّذي قامه سهيل بمكَّة حين مات رسول الله ﷺ وارتدَّ العرب ، ونجم النِّفاق بالمدينة وغيرها ، فقام بمكَّة ، فخطب في النَّاس ، وثبَّتهم على الدِّين الحنيف[4] ، فقد قال في ذلك : «يا معشر قريش! لا تكونوا آخر النَّاس إسلاماً ، وأوَّلهم ردَّةً ، مَنْ رَابنَا ضربنا عنُقَه»[5] .

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنيَّة سُهيلٍ ، ورأى : أنَّ ذلك من باب التَّمثيل وتشويه خلقة الإنسان ، وقال لعمر : «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي! وإن كنت نبيّاً» وهذا نموذجٌ من منهج رسالته

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني (٢/ ٢٠٠) .

(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣١١) . وقال ابن كثيرٍ : مرسلٌ ؛ بل معضل .

(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣١١) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/ ١٨١) .

ﷺ ، وضعه ؛ ليكون نبراساً لأمَّته في انتصاراتها على أعدائها[١] .

ح ـ التَّعليم مقابل الفداء :

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه : كان ناسٌ من الأُسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ ، فجعل رسولُ الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[٢] ، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة ، والكتابة ، وكلُّ مَنْ يُعَلِّم عشَرةً من الغلمان يفدي نفسه[٣] ، وقَبول النَّبيِّ ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الَّذي كانوا فيه في أشدِّ الحاجة إلى المال ، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم ، والمعرفة ، وإزالة الأميَّة ، وليس هذا بعجيبٍ مِنْ دينٍ كان أوَّل ما نزل من كتابه الكريم : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ [العلق: ١ ـ ٤]. واستفاضت فيه نصوصُ القرآن ، والسُّنَّة في التَّرغيب في العلم ، وبيان منزلة العلماء ، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبيُّ ﷺ أوَّل من وضع حجر الأساس في إزالة الأمِيَّة ، وإشاعة القراءة ، والكتابة ، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام[٤] .

ط ـ حكم الأسرى :

إنَّ حكم الأسرى في الإسلام مفوَّضٌ إلى رأي الإمام ؛ ليختار حُكْماً من أربعةٍ ، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامَّة ؛ والأحكام الأربعة هي :

١ ـ **القتلُ** : وقد قتل رسول الله ﷺ عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ ، والنَّضْر بن الحارث .

٢ ـ **المنُّ** : وهو إطلاق الأسير بدون مقابلٍ ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع أبي عَزَّةَ الجُمَحِيِّ .

٣ ـ **الفداءُ** : إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال ، وهذا ما حدث مع العبَّاس عمِّ النَّبيِّ ﷺ ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالبٍ ، وغيرهم .

٤ ـ **الاسترقاق** : وقد حكم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل المحارَبون ، وتقسم الأموالُ ، وتُسْبَى الذَّراري والنِّساء[٥] .

* * *

---

(١) انظر : محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/ ٤٧٤) .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١ .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٧٤) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥) .
(٥) انظر : غزوة بدر الكبرى ، ص ١٠١ .

المبحث السَّادس
نتائج غزوة بدرٍ ومحاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ

أولاً: نتائج غزوة بدرٍ:

١ ـ كان من نتائج غزوة بدرٍ أن **قويت شوكة المسلمين**، وأصبحوا مرهوبين في المدينة، وما جاورها، وأصبح مَنْ يريد أن يغزو المدينة، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكِّر، ويفكِّر قبل أن يُقدِم على فَعْلته، وتعزَّزت مكانة الرَّسول ﷺ في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشكِّكون في الدَّعوة الجديدة، والمشركون في المدينة يتجرَّؤون على إظهار كفرهم، وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النِّفاق، والمكر، والخداع، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقَوا على الكفر باطناً، فظلُّوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم، وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّع الله عليهم، وسمَّع بهم في كثيرٍ من آياته، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبرسوله الكريم ﷺ، واشتداد ساعدهم، وقوَّتهم، ودخول عددٍ كبيرٍ من مشركي قريشٍ في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الَّذين كانوا لا يزالون في مكَّة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنَّت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب، فازدادوا إيماناً على إيمانهم، وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارةً عسكريَّةً، وأساليبَ جديدةً في الحرب، وشهرةً واسعةً داخل الجزيرة العربيَّة، وخارجها؛ إذ أصبحوا قوَّةً يحسب لها حسابُها في بلاد العرب، فلا تهدِّد زعامة قريش وحدَها، بل زعامةَ جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف

الأَصْقَاع[١] والأماكن ، كما أصبح للدَّولة الجديدة مصدرٌ للدَّخل من غنائم الجهاد ، وبذلك انتعش حال المسلمين المادِّيِّ والاقتصاديِّ بما أفاء الله عليهم من غنائم ، بعد بؤسٍ ، وفقرٍ شديدين ، داما تسعةَ عَشَرَ شهراً[٢] .

٢ ـ أمَّا قريش ، فكانت خسارتها فادحةً ، فإضافةً إلى أنَّ مقتل أبي جهل بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم من زعماء الكفر؛ الَّذين كانوا من أشد القرشيِّين شجاعةً ، وقوةً ، وبأساً لم يكن خسارةً حربيَّةً لقريشٍ فحسب ، بل كان خسارةً معنويَّةً أيضاً؛ ذلك : أنَّ المدينة لم تعد تُهَدِّدُ تجارتَها فقط ، بل أصبحت تهدِّد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كلِّه[٣] .

كان خبر الهزيمة على أهل مكَّة كالصَّاعقة ، ولم يصدِّقوا ذلك في بداية الأمر ، قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: «وكان أوَّل من قدِم مكَّةَ بمصابِ قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا له : ما وراءك؟

قال : قُتِل عُتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وزَمعةُ بن الأسود ، ونُبيه ، ومنبَّه ابنا الحجَّاج ، وأبو البَخْتريِّ بن هشام ، فلمَّا جعل يُعَدِّد أشراف قريش ، قال صفوان بن أميَّة : والله إن يعقل هذا! فسلوه عنِّي!

فقالوا : ما فعل صفوان بن أميَّة؟

قال : هو ذاك جالسٌ في الحِجْر ، قد والله! رأيت أباه ، وأخاه حين قُتِلا»[٤] .

وهذا أبـو رافعٍ مولى رسول الله ﷺ ، يـقصُّ علينا أثر خبر هزيمـة قريشٍ على أبي لهبٍ ـ لعنه الله ـ ، حيثُ قال : كنت غلاماً للعبَّاس بن عبد المطَّلب ، وكان الإسلامُ قد دخلنا أهل البيت ، وأسلمتْ أمُّ الفضل ، وأسلمتُ ، وكان العبَّاس يهاب قومَه ، ويكره أن يخالفَهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرِّق في قومه ، وكان أبو لهب ـ عدوُّ الله ـ قد تخلَّف عن بدرٍ ، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، فلمَّا جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش : كَبَتَهُ[٥] الله ، وأخزاه ، ووجدْنا في أنفسنا قوَّة وعزّاً .

قال : كنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، وأنْحَتُها في حُجْرة زمزم ، فوالله! إنِّي لجالس فيها أنحَت القداح ، وعندي أمُّ الفضل (زوجة العبَّاس بن عبد المطلب) جالسةً ، وقد

---

(١) الصُّقْعُ : النَّاحية ، والجمع : أصْقَاع .
(٢) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .
(٤) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٥٧ ، وانظر : سيرة ابن هشام (بلوغ مصاب قريشٍ إلى مكَّة) .
(٥) كبته : أذله .

سرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه بشَرٍّ ، حتَّى جلس على طُنُبِ[١] الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس؛ إذ قال النَّاس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم ، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ ، فعندك لعمري الخبرُ! قال: فجلس إليه ، والناسُ قيامٌ عليه ، فقال: يابن أخي! أخبرني كيف كان أمر النَّاس؟ قال: والله! ما هو إلا أن لقينا القوم فَمَنَحْناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايْمُ الله! مع ذلك ما لُمتُ النَّاس؛ لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْق[٢] بين السَّماء والأرض ، والله! ما تُلِيق[٣] شيئاً ، ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي ، ثمَّ قلت: تلك والله الملائكة!

قال: فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً ، قال: وثاوَرْتُه[٤] ، فاحتملني ، وضرب بي الأرض ، ثمَّ برك عليَّ يضربني ـ وكنت رجلاً ضعيفاً ـ ، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُدِ الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فَلَعَتْ[٥] في رأسه شَجَّةً منكرةً ، وقالت: أستَضعفْتَه أن غاب عنه سيِّدُه؟ فقام مُولِّياً ذليلاً ، ثمَّ مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة[٦] ، فقتلته[٧] .

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكَّة المشركين ، كمداً ، وأحزاناً ، وآلاماً بسبب هزيمتهم ، ومن فُقدوا ، وأُسروا ، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بِعِلَّة ، ومات ، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له ، وأُسِر له ابنٌ آخر ، وما من بيتٍ من بيوت مكَّةَ إلا وفيه مناحةٌ؛ على قتل عزيز ، أو قريب ، أو أَسْر أسيرٍ ، فلا عجب أن كانوا صمَّموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتَّى إن بعضهم حرَّم على نفسه الاغتسال[٨] ، حتى يأخذ بالثَّأر ممَّن أذلُّوهم ، وقتلوا أشرافهم ، وصناديدهم ، وانتظروا يترقَّبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم ، فكان ذلك في أُحدٍ[٩] .

٣ ـ أمَّا اليهود؛ فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدرٍ ، وأن تقوى شوكتُهم فيها ، وأن يَعِزَّ

---

(١) طُنُب الحجرة: طرفُها.
(٢) بَلِقَ: بَلقاً وبُلْقَة: كان فيه سوادٌ ، وبياض ، فهو أَبْلَق ، وهي بَلْقَاءُ ، والجمع: بُلْق.
(٣) تُلِيق: تُبْقي.
(٤) ثاوَرْتُه: وثبتُ إليه.
(٥) فَلَعَتْ: شقت.
(٦) العَدَسَةُ: قرحةٌ قاتلةٌ كالطَّاعون ، وقد عدس الرَّجل: إذا أصابه ذلك ، وهي تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطَّاعون ، وتقتل صاحبها غالباً.
(٧) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢/٢٥٨).
(٨) هو أبو سفيان بن حرب؛ نذر ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.
(٩) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧١).

الإسلام ، ويظهر على دينهم ، ويكون لرسوله ﷺ دونهم الحُظوةُ ، والمكانة ، فصمَّموا على نقض العهد الَّذي عاهدوا عليه النَّبيَّ ﷺ عندما قدِم المدينة ، وأظهروا عداوتهم الَّتي كانت كامنةً في نفوسهم ، وأخذوا يجاهرون بها القول ، ويُعلنون ، ثمَّ راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله ﷺ ، ويعملون للقضاء عليه بكلِّ الوسائل المتاحة لديهم(١) ، وبدؤوا يتحرَّشون بالنَّبيِّ ﷺ ، والمسلمين ، وما كان النَّبيُّ ﷺ ليخفى عليه شيءٌ من ذلك ، فقد كان يراقبهم عن حذرٍ ، ويقظةٍ؛ حتَّى استخفُّوا بالمقرَّرات الخُلُقيَّة ، والحرمات الَّتي يعتزُّ بها المسلمون ، واستعلنوا بالعداوة ، فلم يكن بدٌّ من حربهم ، وإجلائهم عن المدينة ـ كما سنفصِّل ذلك فيما بعد إن شاء الله ـ(٢) .

ثانياً : محاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ وإسلام عُمير بن وهب (شيطان قريش) :

قال عروة بن الزُّبير : جلس عُمير بن وهب الجُمَحيُّ مع صفوان بن أميَّة في الحِجْر ، بعد مصاب أهل بدرٍ بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وممَّن كان يؤذي رسولَ الله ﷺ ، وأصحابه ، ويلقون منه عناءً(٣) ، وهو بمكَّة ، وكان ابنه وهب بن عُمير في أُسارى بدر ، فذكر أصحاب القَلِيب ، ومُصابهم ، فقال صفوان : واللهِ! إنْ في العيش بعدهم خيرٌ .

قال له عُمَيْرٌ : صدقتَ! أما والله ! لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه ، وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيعة(٤) بعدي ؛ لركبتُ إلى محمَّدٍ حتَّى أقتلَه ، فإنَّ لي فيهم عِلَّة(٥) ؛ ابني أسيرٌ في أيديهم .

قال : فاغتنمها صفوان بن أميَّة ، فقال : عليَّ دينُك ، أنا أقضِهِ عنك ، وعيالُك مع عيالي أُواسيهم(٦) ما بَقُوا ، لا يسعني شيءٌ ، ويعجِز عنهم ، فقال له عُمَيْرٌ : فاكتم شأني ، وشأنك . قال : أَفعَلُ .

قال : ثمَّ أمر عُمَيْرٌ بسيفه ، فشُحِذ له ، وسُمَّ ، ثمَّ انطلق حتَّى قدم المدينة ، فبينما عمرُ بن الخطاب في نفرٍ من المسلمين يتحدَّثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم في عدوِّهم ؛ إذ نظر عمرُ إلى عُمَيْرِ بن وهبٍ ، وقد أناخ راحلتَه على باب المسجد متوشِّحاً سيفه ،

---

(١) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٤ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٧١) .
(٣) عناء : تعباً .
(٤) الضَّيعة : الضَّياع والتشتت .
(٥) العلَّة : السبب .
(٦) أواسيهم : أقوم على أمرهم ومؤونتهم .

فقال: هذا الكلب عدوُّ الله عُمَيْرُ بنُ وهبٍ ، والله! ما جاء إلا لشرٍّ ، وهو الَّذي حرَّش[١] بيننا ، وحزَرنا[٢] للقوم يوم بدرٍ.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله! هذا عدوُّ الله عُمَيْرُ بن وهبٍ قد جاء متوشِّحاً سيفه.

قال: «فأَدْخله عليَّ»، قال: فأقبل عمر حتَّى أخذ بِحِمَالَةِ[٣] سيفه في عنقه فَلَبَّبَهُ[٤] بها ، وقال لرجالٍ ممَّن كانوا معه من الأنصار: ادْخُلُوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذوروا عليه من هذا الخبيث ، فإنَّه غير مأمونٍ.

ثمَّ دخل به على رسول الله ﷺ ، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذٌ بحِمَالَة سيفه في عنقه ، قال: «أرسله يا عمر! ادْنُ يا عُمَيْرُ!».

فدنا ، ثمَّ قال: انعموا صباحاً ـ وكانت تحيَّة أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحيَّةٍ خيرٍ من تحيَّتك يا عمير! بالسَّلام تحية أهل الجنَّة»[٥].

فقال: أما والله يا محمد! إن كنتُ بها لحديث عهدٍ.

فقال: «فما جاء بك يا عُمَيْرُ؟!» قال: جئت لهذا الأسير الَّذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بالُ السَّيف في عنقك؟» قال: قَبَّحَها اللهُ من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟!

قال: «اصْدُقْني ، ما الَّذي جئتَ له؟» قال: ما جئتُ إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوانُ بنُ أميَّة في الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريشٍ ، ثمُ قُلْتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ ، وعيالٌ عندي ، لخرجت حتَّى أقتل محمَّداً ، فتحمَّل لك صفوان بن أميَّة بدَيْنك ، وعيالك على أن تقتلني له ، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عُمَيْرُ: أشهد: أنَّك رسولُ الله ، قد كنَّا يا رسول الله! نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السَّماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضرْه إلا أنا وصفوان ، فوالله! إنِّي لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الَّذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثمَّ شهد شهادة الحقِّ.

---

(١) حرَّش: أفسد ، وأغرى بعضهم ببعضٍ.
(٢) حَزَرَ الشيء حَزْراً: قَدَّره بالتَّخمين.
(٣) حمَّالة السَّيف: ما يربط به السَّيف على الجسم.
(٤) لَبَّبَهُ: أخذ بتلابيبه ، أي: جمع ثيابه عند نحره ، وصدره ثمَّ جرَّه.
(٥) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٥٩.

فقال رسول الله ﷺ : «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرِئوه القُرآنَ ، وأَطْلِقُوا له أسيره» ، ففعلوا .

ثمَّ قال : يا رسولَ الله! إنِّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنا أحبُّ أن تأذن لي ، فأقدم مكَّة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعلَّ الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم ما كنت أوذي أصحابك في دينهم ، قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكَّة ، وكان صفوان بن أميَّة حين خرج عمير بن وهب ، يقول : أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيَّامٍ ، تُنْسيكم وقعة بدرٍ ، وكان صفوان يسأل عنه الرُّكبان ، حتَّى قدم راكبٌ فأخبره بإسلامه ، فحلف ألاَّ يكلِّمه أبداً ، ولا ينفعه بنفعٍ أبداً . [الطبراني في الكبير (١٧/ ٥٨) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٢٨٦) ، والإصابة (٣/ ٣٧)][1] .

وفي هذه القصَّة دروسٌ وعبر ؛ منها :

١ ـ حِرْص المشركين على التَّصفية الجسديَّة للدُّعاة؛ فهذا صفوان بن أميَّة ، وعُمَيْر بن وهب ، يتَّفقان على قتل النَّبيِّ ﷺ ، وهذا يرشدنا إلى أنَّ أعداء الدَّعوة قد لا يكتفون برفض الدَّعوة ، والتَّشويش عليها ، وصدِّ النَّاس عنها؛ بل يحاولون اغتيال الدُّعاة ، وتدبير المؤامرات لقتلهم ، وقد يستأجرون المجرمين؛ لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[2] ، وقد يستغلُّ الأغنياء المُتْرفون من أعداء الدَّعوة حاجة الفقراء ، وفقرهم ، فيوجِّهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم ، وإنْ أدَّى ذلك إلى هلاكهم ، فهاهو صفوان قد استغل فقر عُمَيْرٍ ، وقلَّة ذات يده ، ودَيْنَهُ؛ ليرسله إلى هلاكه[3] .

٢ ـ ظهور الحسِّ الأمنيِّ الرَّفيع الَّذي تميَّز به الصَّحابة رضي الله عنهم ، فقد انتبه عمر بن الخطَّاب لمجيء عمير بن وهبٍ ، وحذَّر منه ، وأعلن أنَّه شيطانٌ ما جاء إلا لشرٍّ ، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر ، فقد كان يؤذي المسلمين في مكَّة ، وهو الذي حرَّض على قتال المسلمين في بدرٍ ، وعمل على جمع معلوماتٍ عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرَّسول ﷺ ، فمن جهته فقد أمسك بحِمَالة سيف عمير الَّذي في عنقه بشدَّةٍ ، فعطَّله عن إمكانية استخدامه سيفه للاعتداء على الرَّسول ﷺ ، وأمر نفراً من الصَّحابة بحراسة النَّبيِّ ﷺ .

٣ ـ الاعتزاز بتعاليم هذا الدِّين ، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحيَّة الجاهليَّة ، ولم يردَّ على

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠ ، وسيرة ابن هشام (إسلام عُمَيْر بن وهب) .
(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٥٩) ، والخَسِيسُ : القليلُ التَّافِهُ .
(٣) انظر : غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٢ .

تحيَّة عُمَيْرٍ حين قال له: انعموا صباحاً، وأخبره بأنَّه لا يُحيِّي بتحيَّة أهل الجاهلية؛ لأنَّ الله تعالى أكرم المسلمين بتحيَّة أهل الجنَّة.

٤ ـ سموُّ أخلاق النَّبيِّ ﷺ، فقد أحسن إلى عُمَيْرٍ، وتجاوز عنه، وعفا عنه؛ مع أنَّه جاء؛ ليقتله[١]؛ بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عُمَيْرٌ، وقال لأصحابه: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأَطْلِقُوا له أسيره»[٢].

٥ ـ قوَّة إيمان عُمَيْرٍ، فقد قرَّر أن يواجه مكَّة كلَّها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ، وفعل، وواجه، وتحدَّى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناسٌ كثير، وكان حين تُعَدُّ الرِّجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممَّن يزن عنده ألف رجلٍ، وكان أحد الأربعة الَّذين أمدَّ بهم أميرُ المؤمنين عُمَرُ عمرَو بن العاص رضي الله عنهم، الَّذين كان كلُّ واحدٍ منهم بألفٍ[٣].

* * *

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص ٨٣.
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٦٠.
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٧٣).

المبحث السَّابع
بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى، فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

في هاتين الآيتين تأكيدٌ على أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والمعنى: ليس النَّصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزَّة؛ التي لا تُرام[(١)]، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفَّار مع القدرة على تدميرهم، وإهلاكهم بحَوْلِهِ، وقوَّته ـ سبحانه وتعالى ـ[(٢)].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه، مع التَّأكيد على أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة، أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون؛ لكن يجب ألاَّ يغترُّوا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب، حتى يمدَّهم اللهُ بنصره، وتوفيقه، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأنَّ النَّصر الَّذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النَّبيِّ ﷺ المشركين بالتُّراب يوم بدرٍ؛ إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أوَّلاً، وبفضله ومعونته.

وبهذه الآية الكريمة، يربِّي القرآنُ المسلمين، ويعلِّمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣) نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٩٧ ـ ١٠٥).

ولما بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر كان من عنده؛ وضَّح بعض الحِكَم من ذلك النَّصر. قال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وأمر ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين، بأن يتذكَّروا دائماً تلك النِّعمة العظيمة، نعمةَ النَّصر في بدرٍ، ولا ينسوا كيف كانت حالتُهم قبل النَّصر، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمِّيَ يومُ بدرٍ يومَ الفرقان، ولهذه التَّسمية أهمِّيَّةٌ عظيمةٌ في حياة المسلمين، وقد تحدَّث الأستاذ سيِّد قطب، عن وصف الله تعالى ليوم بدرٍ بأنه يوم الفرقان، في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فقال: لقد كانت غزوة بدر ـ الَّتي بدأت، وانتهت بتدبير الله، وتوجيهه، وقيادته، ومدده ـ فرقاناً... فرقاناً بين الحقِّ والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل، وأدق، وأوسع، وأعمق كثيراً.

كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل فعلاً، ولكنَّه الحقُّ الأصيل، الَّذي قامت عليه السَّمٰوات، والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء، والأشياء، الحقُّ الَّذي يتمثَّل في تفرُّد الله سبحانه بالألوهيَّة، والسُّلطان، والتَّدبير، والتَّقدير، وفي عبودية الكون كلِّه؛ سمائه، وأرضه، أشيائه، وأحيائه، لهذه الألوهية المتفرِّدة، ولهذا السُّلطان المتوحِّد، ولهذا التدبير، وهذا التَّقدير بلا معقِّبٍ، ولا شريك، والباطل الزَّائف الطَّارئ، الَّذي كان يعمُّ وجه الأرض إذ ذاك، ويُغْشِي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيتَ تتصرَّف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواءَ تُصَرِّفُ أمر الحياة، والأحياء.

فهذا الفرقان الكبير الَّذي تَمَّ يوم بدرٍ، حيث فرَّق بين ذلك الحقِّ الكبير، وهذا الباطل الطَّاغي، وزَيَّل(١) بينهما، فلم يعودا يلتبسانِ.

لقد كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل بهذا المدلول الشَّامل الواسع، الدَّقيق، العميق على أبعادٍ وآمادٍ، كانت فرقاناً بين هذا الحقِّ، وهذا الباطل في أعماق الضَّمير، فرقاناً بين الوحدانيَّة

---

(١) زَيَّل: فرَّق. زَايَلَهُ: فارَقَهُ.

المجرَّدة المُطْلَقَةِ بكلِّ شُعَبِها؛ في الضَّمير والشُّعور، وفي الخُلُق والسُّلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشِّرك في كلِّ صوره؛ الَّتي تشمل عبودية الضَّمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء، والقِيَم، والأوضاع والتَّقاليد والعادات، وكانت فرقاناً بين هذا الحقِّ، وهذا الباطل في الواقع الظَّاهر كذلك، فرقاناً بين العبودية الواقعيَّة للأشخاص، والأهواء، وللقِيَم والأوضاع، وللشَّرائع والقوانين، وللتَّقاليد والعادات، وبين الرُّجوع في هذا كله لله الواحد الَّذي لا إلٰه غيره، ولا حاكم دونه، ولا مشرِّع إلا إيَّاه، فارتفعت الهامات، لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس، فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحرَّرت القطعان البشريَّة؛ الَّتي كانت مستعبدةً للطُّغاة.

وكانت فرقاناً بين عهدٍ في تاريخ الحركة الإسلاميَّة، عهد المصابرة والصَّبر، والتَّجمُّع والانتظار، وعهد القوَّة، والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانيِّ، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدَّولة، بوصفه إعلاناً عامّاً لتحرير الإنسان في الأرض؛ بتقرير ألوهيَّة الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطَّواغيب، الَّتي تغتصب ألوهيته(١).

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحقِّ والباطل بمدلولٍ آخر، ذلك المدلول الَّذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ ـ ٨].

لقد كان الَّذين خرجوا للمعركة من المسلمين؛ إنَّما خرجوا يريدون عِيرَ أبي سفيان، واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا؛ أراد لهم أن تُفلِتَ منهم قافلةُ أبي سفيان (غير ذات الشَّوكة)، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشَّوكة)، وأن تكون معركةً، وقتالاً، وقتلاً، وأسراً، ولا تكون قافلةً، وغنيمةً، ورِحْلةً مريحةً، وقد قال الله ـ سبحانه ـ: إنَّه صنع هذا؛ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، وكانت هذه إشارةٌ لتقرير حقيقةٍ كبيرةٍ...

إنَّ الحقَّ لا يحقُّ، وإنَّ الباطل لا يبطلُ ـ في المجتمع الإنسانيِّ ـ بمجرَّد البيان النَّظريِّ للحقِّ والباطل، ولا بمجرَّد الاعتقاد النظريِّ بأنَّ هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ، إنَّ الحقَّ لا يحقُّ، وإنَّ الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا النَّاس، إلا بأن يتحطَّم سلطان الباطل، ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتمُّ إلا بأن يغلب جند الحقِّ، ويظهروا، ويهزم جند الباطل، ويندحروا.. فهذا الدِّين منهجٌ حركيٌّ واقعيٌّ، لا مجرَّد نظريةٍ للمعرفة، والجدل، أو لمجرد الاعتقاد السَّلبيِّ!

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢١ ـ ١٥٢٢).

ولقد حقَّ الحقُّ وبطل الباطل بالموقعة ، وكان هذا النَّصر العمليُّ فرقاناً واقعيّاً بين الحقِّ والباطل بهذا الاعتبار ، الَّذي أشار إليه قولُ الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرَّسول ﷺ من بيته بالحقِّ ، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشَّوكة) ، ولقاء الفئة (ذات الشَّوكة).

ولقد كان هذا كلُّه فرقاناً بين منهج هذا الدِّين ذاته ، تتَّضح به طبيعة هذا المنهج ، وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم ، وإنَّه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ، حينما نظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدِّين من تَمَيُّعٍ في نفوس من يسمُّون أنفسهم مسلمين! ، حتى ليصل هذا التميُّع إلى مفهومات بعض مَنْ يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] بهذه المدلولات المنوَّعة ، الشَّاملة ، العميقة.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : وفي هذا اليوم مَثَلٌ من قدرته على كلِّ شيء ، مثلٌ لا يجادِل فيه مجادلٌ ، ولا يُماري فيه ممارٍ[(١)] ، مثلٌ من الواقع المشهود؛ الَّذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله ، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[(٢)].

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمَّة صوراً مشرقةً في الولاء ، والبراء ، وجعلت خطّاً فاصلاً بين الحقِّ، والباطل ، فكانت الفرقان النَّفسيَّ ، والماديَّ ، والمفاصلة التامَّة بين الإسلام ، والكفر ، وفيها تجسَّدت هذه المعاني ، فعاشها الصَّحابة واقعاً مادِّياً ، وحقيقةً نفسيَّةً ، وفيها تهاوت القيم الجاهليَّة ، فالتقى الابن بأبيه ، والأخ بأخيه:

١ ـ كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صفِّ المسلمين، وكان أبوه عُتبة، وأخوه الوليد ، وعمُّه شيبة في صفِّ المشركين ، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

٢ ـ كان أبو بكر الصِّدِّيق في صفِّ المسلمين ، وكان ابنه عبد الرَّحمن في صفِّ المشركين.

٣ ـ كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفِّ المشركين ، ثمَّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار ، فقال مصعب للأنصاريِّ: شُدَّ يدك به؛ فإنَّ أمَّه ذاتُ متاع ، فقال أبو عزيز: يا أخي! هذه وصيَّتك بي؟! فقال مصعب: إنَّه أخي دونك ، تلك كانت حقائق ، وليس مجرَّد كلمات: إنَّه أخي دونك[(٣)]! . إنَّها القيم المطروحة لتقوم الإنسانيَّة

---

(١) امْتَرى في الشَّيء: شكَّ فيه ، ومَارَاهُ مِراءً ومُمَارَاةً: ناظره ، وجَادَلَهُ.
(٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢٣ ـ ١٥٢٤).
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٧).

على أساسها ، فإذا العقيدة هي آصرةُ النَّسب والقرابة ، وهي الرِّباط الاجتماعيُّ[١] .

٤ ـ كان شعار المسلمين في بدرٍ : (أَحَد . . . أَحَد) وهذا يعني : أنَّ القتال في سبيل عقيدةٍ تتمثَّل بالعبوديَّة للإله الواحد، فلا العصبيَّة ، ولا القبلية ، ولا الأحقاد ، ولا الضَّغائن ، ولا الثأر ، هو الباعث والمحرِّك ؛ ولكنَّه الإيمان بالله وحدَه .

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر ، واحدةً في مضمونها[٢] .

وللإيمان فقهٌ عظيمٌ ، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، هاجر إليها كلُّ من استطاع ذلك من المسلمين في مكَّة ، وحُبِس من كان مضطهداً ، ولم يستطع ذلك ، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صفِّ المشركين ؛ منهم : عبد الله بن سهيل بن عمرو ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكِه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليُّ بن أميَّة بن خلف ، والعاصُ بن مُنبِّه .

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو ؛ فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ ، فشهد المعركةَ ، وكان أحدَ الصَّحابة الذين نالوا هذا الشَّرف العظيم[٣] .

وأمَّا الآخرون ؛ فلم يفعلوا ذلك ، وشهدوا المعركة في صفِّ المشركين ، وقد أُصيبوا جميعاً[٤] ، فقتلوا تحت راية الكفر ، فنزل في حقِّهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] ، البخاري (٤٥٩٦)] .

قال ابن عباس : كان قومٌ من المسلمين أقاموا بمكَّة ـ وكانوا يَسْتَخْفُون بالإسلام ـ كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأُكرهوا على الخروج ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ . إنَّهم لم يُعْذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صفِّ المؤمنين متوفرةً ، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصَّفين ، ولن يُعدموا ـ لو أرادوا ـ الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل[٥] .

إنَّ للإيمان مستلزمات تعبِّر عن صدقه ، وقوَّته ، ومن مستلزماته استعلاؤه على كلِّ القيم ممَّا سواه ، فإذا كان كذلك ، كان لصاحبه الأثرُ الفعَّال ، والقوَّة الفاعلة في بناء الحقِّ والخير ؛ الَّذي أراده الله ، إنَّ الإيمان يصبُغ السُّلوك ، فإذا به يشعُّ من خلال الحركة والجهد ، ومن خلال

---

(١) انظر : من مَعِين السِّيرة ، ص ٢١٣ .
(٢) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٢١٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٧ .
(٤) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ٢٥٣) .
(٥) انظر : من معين السيرة ، ص ٢١٧ .

الكلمة ، والابتسامة ، ومن خلال السَّمْتِ[١] ، والانفعال ، ولذا لم يُعذَرِ الَّذين كانوا في صفِّ المشركين ؛ لأنَّ الإيمان الَّذي ادَّعوه لم توجد له مستلزماتٌ ، فلم يُـؤتِ ثمارَه[٢] .

وبهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم في بدرٍ مُثُلاً عليا لصدق الإيمان ، الَّتي تدل على أنَّهم آثروا رضاء الله ورسوله ﷺ على حبِّ الوالد ، والولد ، والأهل ، والعشيرة ، فلا يعجبُ المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصَّادقة في قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

رابعاً : المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها :

من المعجزات الَّتي ظهرت على يَدَيْ رسول الله ﷺ في بدرٍ إخبارُه عن بعض المغيَّبات ، ومن المعلوم : أنَّ علم الغيب مختصٌّ بالله تعالى وحده ، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آيةٍ من كتابه العزيز ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ومن المعلوم : أنَّ الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ لا يعلمون الغيب ، ولا اطِّلاع لهم على شيءٍ منه ، فقد قال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وكما جاءت الأدلَّة تدلُّ على أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد اختصَّ نفسه بمعرفة علم الغيب ، وأنَّه استأثر به دون خلقه ، جاءت أدلَّةٌ تفيد : أنَّ الله تعالى استثنى من خلقه مَنِ ارتضاه من الرُّسل ، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزةً لهم ، ودلالةً صادقة على نبوَّتهم .

قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

---

(١) السَّمْت : الهيئة .

(٢) انظر : من معين السيرة ، ص ٢١٨ .

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] فنخلص من ذلك إلى أنَّ ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيَّبات؛ فبوحيٍ من الله تعالى، وهو إعلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسوله ﷺ للدَّلالة على ثبوت نبوَّته، وصحَّة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بإطلاع الله له على المغيَّبات[١]، وكان لأحداث غزوة بدرٍ نصيبٌ من تلك المعجزات الغيبيَّة؛ منها:

أ ـ قتل أميَّة بن خلف:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: انطلق سعدُ بن مُعاذ معتمراً، قال: فنزل على أميَّةَ بن خلف أبي صفوان، وكان أميَّة إذا انطلق إلى الشَّام، فمرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ، فقال أميَّة لسعدٍ: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النَّهارُ، وغفل النَّاسُ انطلقت فطفتَ! فبينا سعدٌ يطوف إذا أبو جهل، فقال: مَنْ هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعدٌ: أنا سعدٌ، فقال أبو جهل: تطوفُ بالكعبة آمناً، وقد آويتم محمَّداً، وأصحابه؟ فقال: نعم، فَتَلَاحَيَا[٢] بينهما، فقال أميَّة لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك على أبي الحكم، فإنه سيِّد أهل الوادي، ثمَّ قال سعدٌ: والله! لئن منعتني أن أطوفَ بالبيت لأقطعنَّ متجركَ بالشَّام، قال: فجعل أميَّةُ يقول لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد، فقال: دعنا عنك؛ فإنِّي سمعت محمداً ﷺ يزعم: أنَّه قاتلُك، قال: إيَّايَ؟ قال: نعم! قال: والله! ما يكذب محمَّدٌ إذا حدَّث، فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربيُّ؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم: أنَّه سمع محمَّداً يزعم: أنَّه قاتلي. قالت: فوالله! ما يكذب محمَّدٌ.

قال: فلمَّا خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصَّريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ قال: فأراد ألاَّ يخرجَ، فقال له أبو جهل: إنَّك مِنْ أشراف الوادي، فسِرْ يوماً، أو يومين، فسار معهم، يومين، فقتله الله. [البخاري (٣٦٣٢)].

ب ـ مصارع الطُّغاة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كنَّا مع عمرَ بين مكَّة، والمدينة، فتراءينا الهلالَ، وكنتُ رجلاً حديدَ البصر[٣]، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم: أنَّه رآه غيري، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أمَا تراه؟ فجعل يقول: لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه، وأنا مُسْتَلْقٍ على فراشي، ثمَّ أنشأ يحدِّثنا عن أهل بـدرٍ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدرٍ بالأمس، يقول: «هذا

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٤٥٣).
(٢) تلاحيا: تلاوما، وتنازعا.
(٣) حديد البصر: أي: نافذ.

مصرعُ فلانٍ غداً؛ إن شاء الله» قال: فقال عمر: فوالَّذي بعثه بالحقِّ، ما أخطؤوا الحدودَ التي حَدَّ رسولُ الله ﷺ. [مسلم (٢٨٧٣)].

جـ- إخبار العباس بن عبد المطَّلب بالمال الَّذي دفنه، وإعلام عُمير بن وهب بالحديث الَّذي حَدَثَ بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لمَّا طلب رسول الله ﷺ من عمِّه دفع الفداء، وأجابه العبَّاس: ما ذاك عندي يا رسولَ الله! فقال له: «أين المالُ الذي دفنته أنت، وأمُّ الفضل، فقلتَ لها: إن أُصبت في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وقُثَم؟» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله؛ إنَّ هذا الأمر ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضل.

وما حدَّث به عمير بن وهب لمَّا جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النَّبيِّ ﷺ باتِّفاقٍ مع صفوان بن أميَّة، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه، وصدق إيمانه. [سبق تخريجه][(١)].

ومن المعجزات أيضاً:

ما ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد: أنَّ سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ، فأعطاه النَّبيُّ ﷺ جِذْلاً من حطبٍ، فقال: (دونك هذا)، فلمَّا أخذه عُكَّاشة، وهزَّه؛ عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيضَ، فلم يزل عنده يقاتل به حتَّى قُتِل في حروب الردَّة أيام أبي بكرٍ[(٢)]. وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهمٍ يوم بدرٍ، ففُقِئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيءٌ[(٣)].

قال الدُّكتور أبو شهبةَ: وما ينبغي لأحدٍ أن يزعم: أنَّ المعجزات الحسِّيَّة لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارُها واضحةً جليَّةً في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات: أنَّه نبيٌّ يُوحَى إليه، فقد أخبر بمغيَّبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنَّه خبر السَّماء، وغير خفيٍّ ما يحدثه من انقلاب عودٍ، أو عُرْجُونٍ[(٤)] في يد صاحبه سيفاً بتَّاراً في إيمانه، وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التَّردُّد، أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيفٍ خرقت به العادة، وصار مثلاً، وذكرى في الأوَّلين، والآخرين[(٥)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦). وذكر المحقِّق أنَّ ابن إسحاق ذكرها من غير سندٍ.

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦). والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

(٤) العُرْجُون: العِذْقُ، وهو من النَّخل كالعنقود من العنب، والجمع: عرَاجينُ.

(٥) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدرٍ ، وفي الأحداث الَّتي سبقتها ، أراد مشركٌ أن يلحق بجيش المسلمين ، وطلب من النَّبيِّ ﷺ الموافقة على قبوله معهم ، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه ، فقال ﷺ : «ارجع ، فلن أستعين بمشرك». [أحمد (٦/ ١٤٩) ، ومسلم (١٨١٧) ، وأبو داود (٢٧٣٢) ، والترمذي (١٥٥٨) ، وابن ماجه (٢٨٣٢)].

فالحديث يبيِّن: أنَّ القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامَّة، ولهذه القاعدة استثناءٌ ، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معيَّنةٍ ، وهي: تحقُّق المصلحة ، أو رجحانها بهـذه الاستعانـة ، وألاَّ يكون ذلك على حساب الدَّعوة ومعانيها ، وأن يتحقَّق الوثوق الكافي بمن يُستعان به ، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلاميَّة ، لا متبوعاً ، ومقوداً فيها لا قائداً لها ، وألاَّ تكون هذه الاستعانة مثارَ شبهةٍ لأفراد المسلمين ، وأن تكون هناك حاجة حقيقيَّةٌ لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به ، فإذا تحقَّقت هذه الشُّروط ؛ جازت الاستعانـة على وجه الاستثناء ، وإذا لم تتحقَّق ؛ لم تَجُزِ الاستعانة ، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسولُ الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عِيرِ قريش ؛ إذ لا حاجة به أصلاً.

وفي ضوء الاستثناء ، وتحقُّق شروطه استعان النَّبيُّ ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط ؛ الَّذي استأجره النَّبيُّ ﷺ ، وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ، ليدلَّهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء ، وتحقُّق شروطه قَبِل ﷺ حماية عمِّه أبي طالب له ، كما قَبِل جوار ، أو إجارة المُطْعِم بن عديٍّ له عند رجوعه ﷺ من الطَّائف ، وكذلك قبول الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جوار من أجارهم مِنَ المشركين؛ ليدفع هؤلاء الأذى عمَّن أجاروهم[1] ، وضبْطُ هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقهٍ دقيقٍ ، وإيمانٍ عميقٍ.

سادساً: حذيفة بن اليمان ، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

أ ـ حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أنِّي وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ ، فأخذنا كفَّار قريش، فقالوا: إنَّكم تريدون محمَّداً، فقلنا: ما نريده؛ إنَّما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرُن إلى المدينة ، ولا تقاتلوا مع محمَّدٍ ﷺ ، فلمَّا جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ ، فذكرنا له ما قالوا ، وما قلنا لهم؛ فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ، ونفي بعهدهم» ، فانطلقنا إلى المدينة ، فذاك الَّذي منعنا أن نشهد بدراً. [الحاكم (٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

هذه صورةٌ مشرقةٌ في حرص النَّبيِّ ﷺ لحفظ العهود ، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرَّفيعة ، وإن كان في ذلك إجحافٌ بالمسلمين ، ومفوِّتٌ لهم جُهْدَ بعض أفراد المجاهدين .

ب ـ أُسيد بن الحضير :

عندما رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة قادماً من بدرٍ ؛ لقي بالرَّوْحاء رؤوس النَّاس يهنِّئونه بما فتح الله عليه ، فقال أُسَيْدُ بن الحضير : يا رسول الله! الحمد لله الَّذي أظفرك ، وأقرَّ عينك ، والله يا رسول الله! ما كان تخلُّفي عن بدرٍ ، وأنا أظنُّ أنَّك تلقى عدوّاً ، ولكن ظننت أنَّها عيرٌ ، ولو ظننت : أنَّه عدوٌّ ؛ ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : «صَدَقْتَ» [البيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٣)](١) .

سابعاً : الحرب الإعلاميّة في بدرٍ :

قال حسَّان رضي الله عنه :

فَمَا نَخْشَىٰ بِحَوْلِ اللهِ قَوْماً ... وَإِنْ كَثُرُوا وأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ
إِذَا مَا ألبسُوا جَمْعاً عَلَيْنَا ... كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبٌّ رَؤُوفُ
سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالعَوَالي ... سِرَاعاً مَا تُضَعْضِعُنَا الحُتُوفُ(٢)
فَلَمْ تُرَ عُصْبَةٌ فِي النَّاسِ أَنْكَىٰ ... لِمَنْ عَادَوْا إِذَا لَقِحَتْ كُشُوفُ
ولكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا ... مَآثِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ
لَقِيْنَاهُمْ بِهَا لمَّا سَمَوْنَا ... ونَحْنُ عِصَابَةٌ(٣) وَهُمُ أُلُوفُ(٤)

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه :

ومَا حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ولا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ
وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللهِ يَجْلُو ... دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا والغِطَاءِ
رَسُولُ اللهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ ... مِنَ اَمْرِ اللهِ أُحْكِمَ بِالقَضَاءِ
فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ومَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
فَلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٦) ، الحتوف : جمع حتف ، وهو الموت .
(٣) العِصَابَةُ : الجماعة من الناس .
(٤) هذا محمولٌ على المبالغة ؛ لأنَّ جيش قريش ما كان يزيد على الألف .

بِنَصْـــــرِ اللهِ رُوْحُ القُـــــدْسِ فِيْهَـــــا وَمِيْكَـــالُ ، فَيَـــا طِيْـــبَ المَـــلاءِ[(١)][(٢)]

كان النَّبيُّ ﷺ يحثُّ شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدِّفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بِشِعْرِهِمْ ، فقد كان الشِّعر يمثِّل الحملات الإعلاميَّة المؤثِّرة في دنيا العرب ، فيرفع أقواماً ، ويخفض آخرين ، ويُشْعِل الحروب ، ويُطْفِئها[(٣)] .

كانت بوادر الحرب الإعلاميَّة قد اندلعت منذ الهجرة ، غير أنَّ ظهورها أكثرُ بدءاً مع حركة السَّرايا قُبيل بدر ، لكنَّها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدرٍ ؛ لأنَّ الجانب الإعلاميَّ للقبائل المجاورة كان هدفاً مُهمّاً من أهداف الفريقين ، ويظهر : أنَّ القصائد سَرعان[(٤)] ما تطير بها الرُّكبان بين يثربَ ، ومكَّةَ ، فيأتي الردُّ من الطَّرف الآخر ، فعند النَّصر تكثر أشعار الفريق المنتصر ، بينما تكثر المراثي عند الفريق الثَّاني ، وكان الصَّفُّ الإسلاميُّ يضمُّ شعراء متخصِّصين ؛ أمثال : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان أشدَّهم على الكفَّار حسانُ[(٥)] .

* * *

---

(١) أي : ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/ ٣٠) .

(٣) انظر : التَّاريخ الإسلاميُّ للحميديِّ (٤/ ١٩٩) .

(٤) سرعان ـ بضم السِّين أو فتحها أو كسرها ـ : تقولها للتَّعجُّب من السُّرعة .

(٥) انظر : المنهج الحركي للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

المبحث الثَّامن
أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ، وأحد[(١)]

في أعقاب غزوة بدرٍ أخذت الهيبة العسكريَّة للمسلمين مداها الكبير، في دائرةٍ واسعةٍ في الجزيرة العربيَّة، وأحسَّ ضعفاء المشركين بالخطر، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام، وبدأت النُّفوس تتطلَّع إلى الإيمان؛ فتوسَّعت دائرة الدُّخول في الإسلام، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً، أو خديعةً؛ وبهذا كلِّه أصبحت الدَّولة الجديدة أمام أوضاعٍ جديدةٍ من المكر، والتَّألُّب، والتَّحالفات؛ ولكنَّ تأييد الله تعالى، ثمَّ جهاز أمن الدَّولة المتيقِّظ أفشل مخطَّطاتِ أعداء الإسلام[(٢)].

أولاً: الغزوات الَّتي قادها رسول الله ﷺ بعد بدرٍ، وقبل أُحدٍ:

١ ـ ماء الكُدْر[(٣)] في بني سُليم:

غزا النَّبيُّ ﷺ بعد سبع ليالٍ من عودته إلى المدينة من غزوة بدرٍ، وبلغ ماء الكُدْر في ديار بني سُلَيم، الَّذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنَّه لَمْ يلقَ حرباً؛ فأقام ثلاث ليالٍ على الماء، ثمَّ رجع إلى المدينة[(٤)]، وكان سبب تلك الغزوة، تجمُّع أفراد بني سُلَيم لمقاتلة المسلمين، والاعتداء عليهم بعد معركة بدرٍ مباشرة، ولكنَّ رسول الله ﷺ فاجأهم بهجومٍ سريعٍ غير متوقَّعٍ، فهرب بنو سليم، وتفرَّقوا على رؤوس الجبال، وبقيت إبلهم مع راعٍ لها يُدعى يساراً، فاستاق رسولُ الله ﷺ الإبلَ مع راعيها، وعند موضع صرار على ثلاثة أميال من المدينة قسَّم النَّبيُّ ﷺ الإبل ـ الَّتي كان عددها خمسمئة بعير ـ على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال النَّبيُّ ﷺ خُمْسَها، وكان يسار من نصيبه، ولكنَّه أعتقه بعد ذلك[(٥)].

٢ ـ غزوة السَّويق:

قدم أبو سفيان بمئتي فارسٍ من مكَّة، وسلك طريق النَّجديَّة؛ حتَّى نزلوا حيَّ بني النضير

---

(١) ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٤٥).
(٢) انظر: الأساس في السُّنَّة، وفقهها، السِّيرة النَّبوية (١/ ٥١٢).
(٣) الكُدْر: ماء من مياه بني سُليم يقع في نجد.
(٤) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٢٩٦).
(٥) انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ، ص ٢٧٧.

ليلاً ، واستقبلهم سلاَّم بن مِشْكَم سيِّدُ بني النَّضير ، فأطعمهم ، وسقاهم ، وكشف لهم عن أسرار المسلمين ، وتدارس معهم إحدى الطُّرق لإيقاع الأذى بالمسلمين ، ثمَّ قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُرَيْض ـ وادٍ بالمدينة في طرف حَرَّةِ وَاقِم ـ فقتل رجلين ، وأحرق نخلاً ، وفرَّ عائداً إلى مكَّة ، فتعقَّبه رسول الله ﷺ في مئتي رجلٍ من المهاجرين ، والأنصار ، ولكنَّه لم يتمكن من إدراكهم ؛ لأنَّ أبا سفيان ورجاله قد جدُّوا في الهرب ، وجعلوا يتخفَّفون من أثقالهم ، ويُلْقون السَّوِيق(١) التي كانوا يحملونها لغدائهم ، وكان المسلمون يمرُّون بهذه الجُرب ، فيأخذونها ؛ حتَّى رجعوا بسَوِيقٍ كثيرٍ ، لذا سمِّيت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً(٢) .

٣ ـ غزوة ذي أمر :

جاءت الأخبار من قِبَلِ رجال الاستخبارات الإسلاميَّة ، تفيد بأنَّ رجال قبيلتي ثعلبة ، ومحارب تجمَّعوا بذي أمر ، بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربيِّ ، يريدون حرب رسول الله ﷺ ، والإغارة على المدينة ، فاستعمل النَّبيُّ ﷺ على المدينة عثمان بن عفَّان ، وخرج في أربعمئة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ ، وراجلٍ ، فأصابوا رجلاً بذي القَصَّة يقال له : جُبَار من بني ثعلبة ، كان يحمل أخباراً عن قومه ، أسرَّ بها إلى رسول الله ﷺ ، وقد دخل في الإسلام ، وانضمَّ إلى بلال ليتفقَّه في الدين(٣) .

أمَّا المشركون من بني ثعلبة ، ومحارب ما لبثوا أن فرُّوا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين ، وبقي رسولُ الله ﷺ في نجد مدةً تقارب الشَّهر دون أن يلقى كيداً من أَحَدٍ ، وعاد بعدها إلى المدينة(٤) .

وفي هذه الغزوة أسلم دُعثور بن الحارث الَّذي كان سيِّداً مطاعاً ، بعد أن حدثت له معجزة على يديْ رسول الله ﷺ ؛ فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ ، فابتلَّت ثياب رسول الله ﷺ ، فنزل تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتجفَّ ، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله ﷺ بسيفه ، فقال : يا محمد ! من يمنعك منِّي اليوم ؟ قال : الله . ودفع جبريل صدره ، فوقع السَّيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك منِّي ؟ قال : لا أحد ! وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، واللهِ لا أكثرُ عليك جمعاً أبداً ! فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه ،

---

(١) السَّويقُ : هو أن تحمَّص الحنطة ، أو الشَّعير ، أو نحو ذلك ، ثمَّ تطحن ، ثمَّ يسافر بها ، وقد تمزج باللَّبن ، والعسل ، والسَّمن ، وتلتُّ ، فإن لم يكن شيء من ذلك ؛ مزجت بالماء ، والجمع : أَسْوِقَةٌ .

(٢) انظر : السِّيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥١)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩ .

(٤) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩ .

فلمَّا رجع إلى أصحابه؛ قالوا: ويلك! ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجلٍ طويلٍ، فدفع صدري، فوقعت لظهري، فعرفت: أنَّه مَلَكٌ، وشهدت أنَّ محمَّداً رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعاً: وجعل يدعو قومه إلى الإسلام. [البيهقي في الدلائل (٣/١٦٨ ـ ١٦٩)][1].

ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١].

٤ ـ غزوة بَحْران[2]:

كانت هذه الغزوة في شهر جُمادى الأولى من السَّنة الثالثة للهجرة، وقد خرج النَّبيُّ ﷺ في ثلاثمئةٍ من المسلمين؛ حتَّى بلغ بَحْرَانَ بين مكَّة، والمدينة، يريد قتال بني سُلَيم، فوجدهم قد تفرَّقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عَشْرَ ليالٍ[3].

ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلاميَّة على رصد تحرُّكات العدوِّ، ومعرفة قوَّته، وخططه، ومدده؛ لكي تحطِّم هذه التَّجمُّعات المناوئة للدَّولة الإسلاميَّة الفتيَّة قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصَّحراء المترامية الأطراف كانت دوراتٍ تدريبيةً تربويَّةً للصَّحابة الكرام، وسعدت سرايا الصَّحابة بقيادة النَّبيِّ ﷺ لها، فقد كانت تلك الدَّورات العمليَّة التَّدريبيَّة القتاليَّة التَّربويَّة مستمرةً، وتمتدُّ من خمسة أيام إلى شهر، تتمَّ فيها الحياة الجماعيَّة، ويتربَّى جنود الإسلام، على السَّمع، والطَّاعة، والتَّدريب المتقن، ويكتسبون خبراتٍ جديدةً تساعدهم على تحطيم الباطل، وتقوية الحقِّ.

لقد كان المنهاج النَّبويُّ الكريم يهتمُّ بتربية الصَّحابة في ميادين النِّزال، ولا يَغْفُلُ عن المسجد النَّبويِّ ودوره في صقل النُّفوس، وتنوير العقول، وتهذيب الأخلاق من خلال وجود المربِّي العظيم ﷺ، الَّذي أصبحت تعاليمُه تشعُّ في أوساط المجتمع من خلال القُدوة، والعبادة الخاشعة للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فالمنهاج النبويُّ الكريم جمع بين الدَّورات المسجديَّة التَّربويَّة، والدَّورات العسكريَّة التَّربويَّة المكثَّفة؛ لكي يَقْوَى المجتمع الجديد، وتُرَصَّ صفوفُه، ويكسب الخبرات؛ لكي يقوم بنشر الإسلام في الآفاق[4].

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣)، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية وسبب ورودها.
(٢) بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران)، وبعضهم بضمها (بُحْران).
(٣) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص ٦١، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري، ص ٢٨٠.
(٤) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/١١٨ ـ ١١٩).

٥ ـ سرية زيد بن حارثة إلى القَرْدَة:

أصبح مشركو مكَّة بعد هزيمتهم في بدرٍ يبحثون عن طريقٍ أخرى لتجارتهم للشَّام ، فأشار بعضهم إلى طريق نجدٍ العراق ، وقد سلكوها بالفعل ، وخرج منهم تُجَّار ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وحويطب بن عبد العُزَّى ، ومعهم فضَّةٌ ، وبضائع كثيرةٌ ، بما قيمته مئة ألف درهمٍ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلاميِّ ، يُدعى سليط بن النُّعمان رضي الله عنه[١] ، فبعث زيدَ بن حارثة في مئة راكبٍ لاعتراض القافلة ، فلقيها زيد عند ماءٍ يقال له: القَرْدَة ، وهو ماء من مياه نجدٍ ، ففرَّ رجالها مذعورين ، وأصاب المسلمون العِيرَ وما عليها ، وأسروا دليلَها فُرات بن حَيَّان؛ الَّذي أسلم بين يدي النَّبيِّ ﷺ ، وعادوا إلى المدينة ، فخَمَّسَهَا رسولُ الله ﷺ ، ووزَّع الباقي بين أفراد السَّرِيَّـة[٢] .

ثانياً: غزوة بني قَيْنُقَـاع[٣]:

ذكر الزُّهريُّ: أنَّها وقعت في السَّنة الثَّانية للهجرة ، وذكر الواقديُّ ، وابن سعدٍ: أنها وقعت يوم السَّبت للنِّصف من شوال من السَّنة الثَّانية[٤] ، واتَّفق معظم من كَتَبَ في مغازي رسول الله ﷺ ، وسيرته على أنَّها وقعت بعد معركة بدرٍ؛ إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة الَّتي أبرمها الرَّسول ﷺ معهم ، ولم يوفوا بالتزاماتهم الَّتي حدَّدتها ، ووقفوا من الرَّسول ﷺ والمسلمين مواقفَ عدائيَّةً ، فأظهروا الغضب ، والحسد عندما انتصر المسلمون في بدرٍ ، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[٥] .

وقد جمعهم النَّبيُّ ﷺ في سوقهم بالمدينة ، ونصحهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وحذَّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدرٍ[٦]؛ غير أنَّهم واجهوا النَّبيَّ ﷺ بالتَّحدِّي ، والتَّهديد ، رغم ما يُفترض أن يلتزموا به من الطَّاعة ، والمتابعة لبنود المعاهدة الَّتي جعلتهم تحت رئاسته ، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنَّك من نفسك أنَّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ، لا يعرفون القتال ، إنَّك لو قاتلتنا لعرفت: أنَّا نحن النَّاس ، وأنَّك لم تلقَ مثلنا»[٧] .

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل؛ إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام ، والاحترام؛ بل

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٣٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٦).

(٣) ينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٤٦).

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّـة الصَّحيحة (١/ ٢٩٩).

(٥) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٢٦٩).

(٦) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٧٦).

(٧) المصدر السَّابق نفسه.

على العكس؛ فإنَّهم قد أظهروا رُوحاً عدائيَّةً، وتحدِّياً، واستعلاءً، واستعداداً للقتال، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣].

١ ـ الأسباب المباشرة للغزوة:

لمَّا انتصر المسلمون في بدرٍ، وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال؛ أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الَّذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحيَّنون الفرصة السَّانحة لمناوشة المسلمين، حتَّى جاءتهم فرصتُهم الحقيرة الدَّنيئة؛ عندما جاءت امرأةٌ من العرب بِجَلَبٍ(١) لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغٍ يهوديٍّ، فجعلوا يُريدونها على كَشْفِ وجهها، فأبت، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلمَّا قامت انكشفت سَوْءَتُها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصَّائغ فقتله ـ وكان يهوديّاً ـ وشدَّت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشَّرُّ بينهم، وبين بني قينقاع(٢).

فحين علم رسول الله ﷺ بذلك، سار إليهم على رأس جيشٍ من المهاجرين، والأنصار، وذلك يوم السَّبت للنِّصف من شوَّال من السَّنة الثَّانية للهجرة(٣)، وكان الَّذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، واستخلف ﷺ على المدينة أبا لُبابَةَ بن عبد المنذر العمريَّ(٤)، واسمه: بشير(٥). وحين سار إليهم رسول الله ﷺ؛ نبذ إليهم العهد، كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

٢ ـ ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدَمه ﷺ؛ تحصَّنوا في حصونهم، فحاصرهم النَّبيُّ ﷺ خمسَ عَشْرَةَ ليلةً ـ كما ذكر ابن هشام ـ(٦)، واستمرَّ الحصار حتَّى قذف الله في قلوبهم الرُّعب، واضطروا

---

(١) الجَلَبُ: كلُّ ما يجلب للأسواق؛ ليُباع فيها.
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).
(٣) انظر: المغازي، للواقديِّ (١/ ١٧٦)، والطَّبقات، لابن سعد (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).
(٤) انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٢/ ٤٨١).
(٥) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٧٩).
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٥).

للنُّزول على حكمه ﷺ ، فقد فاجأهم ﷺ بأسلوب الحصار ، فأربكهم ، وأوقعهم في حيرةٍ من أمرهم ؛ بعد أن قطع عنهم كلَّ مددٍ ، وجمَّد حركتهم ، فعاشوا في سجنٍ ؛ ممَّا جعلهم في النِّهاية ييأسون من المقاومة ، والصَّبر ، فبعد أن كانوا يهدِّدون رسول الله ﷺ ، وبأنَّهم قوم يختلفون بأساً ، وشدَّةً عن مشركي قريش ، إذا بهم يضطرون للنُّزول على حكم رسول الله ﷺ[1] ، فأمر بهم ، فرُبطوا ، فكانوا يكتَّفون أكتافاً ، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلميَّ الأوسيَّ[2] .

٣ ـ مصير يهود بني قينقاع :

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلَّ حلفاءه مِنْ وثَاقِهم ، فعندما مرَّ عليهم قال : حُلُّوهم ، فقال المنذر : أتحلُّون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ ؟! والله لا يحلُّهم رجلٌ إلا ضَرَبْتُ عنقَه[3] ، فاضطر عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول أن يتراجع عن أمره ، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النَّبيِّ ﷺ بفكِّ أسرهم[4] ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا محمد! أَحْسِنْ في مواليَّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ ، قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد! أحسن في مواليَّ ، قال : فأعرض عنه ، فأدخل ابن أُبيٍّ يده في جيبِ درعِ رسولِ الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ ، حتَّى رأوا لوجهه ظُللاً[5] ، ثمَّ قال : «ويحك! أرسلني» ، قال : لا والله ، لا أرسلك حتَّى تُحسِن في مواليَّ ؛ أربعمئة حاسرٍ[6] ، وثلاثمئة دارعٍ ، قد منعوني من الأحمر ، والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة؟ إنِّي والله امرؤ أخشى الدَّوائر! فقال رسول الله ﷺ : «هم لك» [الطبراني في تاريخه (٢/ ٤٨٠) ، والواقدي في مغازيه (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٤) ، وابن هشام (٣/ ٥١ ـ ٥٢)][7] .

فخلَّى رسولُ الله ﷺ سبيلَهم، ثمَّ أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مالٍ، وقد تولَّى جمع أموالهم ، وإحصاءها محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه[8] ، وحاول ابن أُبي بن سلول أن يحدِّث رسولَ الله ﷺ في يهود بني قينقاع ؛ لكي يُقرَّهم في ديارهم ، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاريَّ الأوسيَّ، فردَّه عويم، وقال : لا تدخل

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١٤٤) .
(٢) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/ ٢٨٠) .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/ ٣٢ ـ ٣٣) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) ظللاً : جمع ظلَّة ، وهي السَّحابة ، وهي كناية عن تغيُّر وجه النَّبي ﷺ .
(٦) حاسر : لا درع له .
(٧) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٨١) .
(٨) المصدر السابق نفسه .

حتَّى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أُبيٍّ، فغلَّظ عليه عويم، حتَّى جَحَش[١] وجهَ ابن أُبيٍّ الجدارُ، فسال الدَّم[٢].

ويظهر في هذا الخبر ، فقه النَّبيِّ ﷺ السِّياسيُّ في تعامله مع ابن سلول ، حيث لبَّى طلبه ، فلعلَّ هذا الموقف يغسل قلبه ، ويزيل الغشاوة عنه ، فتتمُّ هدايته ، فقال له: «هم لك» ، ولعلَّ الَّذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبيٍّ يَصْلُحون بصلاحه ، فيتماسك الصَّفُّ ، ويلتحم؛ فلا يتأثر مِنْ كيد أعداء الإسلام[٣].

وهناك بُعدٌ آخر؛ حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنةٍ في مجتمع المؤمنين؛ حيث إنَّ بعض الأنصار حديثو عهدٍ بالإسلام ، ويُخشى أن يؤثِّر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ لسمعته الكبيرة فيهم[٤]؛ ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة ، والصَّبر عليه ، وعلى إساءاته؛ تجنُّباً للفتنة ، وإظهاراً لحقيقة الرَّجل من خلال تصرُّفاته ، ومواقفه عند مَنْ يجهلها ، ومِنْ ثَمَّ يفرُّ النَّاس مِنْ حوله ، ولا يتعاطفون معه ، وقد حقَّق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً ، فقد ظهرت حقيقة ابن سلولٍ لجميع النَّاس؛ حتَّى أقرب النَّاس إليه ، ومنهم ولده عبد الله ، فكانوا بعدها إذا تكلَّم؛ أسكتوه ، وتضايقوا من كلامه[٥] ، بل أرادوا قتله ـ كما سيأتي بإذن الله تعالى ـ.

٤ ـ تبرُّؤ عبادة بن الصَّامت منهم:

لمَّا نقضت العهدَ بنو قينقاع ، سار عُبادة بن الصَّامت أحد بني عوف ـ لهم من حلف بني قينقاع مثل الَّذي لهم من عبد الله بن أُبيٍّ ـ لرسول الله ﷺ ، وخلعهم إليه ، وتبرَّأ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلى رسوله ﷺ من حلفهم ، وقال: يا رسول الله! أتولَّى الله ورسولَه ﷺ ، والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار ، وولايتهم[٦].

ولمَّا تقرَّر جلاء بني قينقاع ، أمر رسولُ الله ﷺ عُبادة بن الصَّامت أن يُجليَهم ، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد! من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لمَّا حاربتم جئتُ رسولَ الله ﷺ ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنِّي أبرأ إليك منهم، ومن حلفهم، وكان ابن أُبيٍّ ، وعبادة بن الصَّامت منهم بمنزلةٍ واحدةٍ في الحلف ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: تبرَّأتَ من حلف مواليك؟! ما هذا بيدهم عندك ، فذكَّره مواطن قد أبْلَوْا فيها ، فقال عبادة:

---

(١) جَحَشَ: خَدَشَ.
(٢) انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/ ٣٠).
(٣) انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٢٤٧.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٥/ ٣٢).
(٥) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١٤٨).
(٦) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

يا أبا الحُبَاب! تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله! إنك لمُعْصِمٌ بأمرٍ سنرى غيَّه غداً ، فقالت قينقاع : يا محمد! إنَّ لنا دَيْناً في النَّاس ، قال النَّبيُّ ﷺ : «تعجَّلوا ، وضعوا» وأخذهم عبادة بالرَّحيل ، والإجلاء ، وطلبوا التنفُّس ، فقال لهم : ولا ساعةً من نهارٍ ، لكم ثلاث لا أزيد عليها ، هذا أمر رسول الله ﷺ ، ولو كنت أنا ما نفَّستكم ، فلمَّا مضت ثلاث ، خرج في آثارهم حتَّى سلكوا إلى الشَّام ، وهو يقول : الشَّرف الأبعد ، الأقصى ، فالأقصى ، وبلغ خلف الذُّباب ثمَّ رجع ، ولحقوا بأذرعاتٍ(١) .

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين ، قد ألقَوا سلاحَهم ، وتركوا أموالهم غنيمةً للمسلمين ، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة ، وأشدِّهم بأساً ، وأكثرهم عدداً وعُـدَّةً ؛ ولذلك لاذت القبائل اليهوديَّـة بالصَّمت ، والهدوء ، فترةً من الزَّمن بعد هـذا العقاب الرَّادع ، وسيطـر الرُّعب على قلوبهـا ، وخُضِدَتْ شوكتُها(٢) .

٥ ـ الآيات الَّتي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود ، وبراءة عُبادة بن الصَّامت منهم :

قال تعالى : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦] .

قال ابن عطيَّة في هذه الآيات : لمَّا انقضت بدرٌ ، وشجر أمر بني قينقاع ؛ أراد رسول الله ﷺ قتلهم ، فقام دونهم عبدُ الله بن أبيٍّ بن سلول ـ وكان حليفاً لهم ـ وكان لعبادة بن الصَّامت من حلفهم مثل ما لعبد الله ، فلمَّا رأى عُبادة منزع رسول الله ﷺ ، وما سلكتْه اليهود من المشاقَّة لله ، ولرسوله ﷺ ؛ جاء إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله! إنِّي أبرأُ إلى الله من حلف يهود ، وولائهم ، ولا أُوالي إلا الله ، ورسولَه ، وقال عبدُ الله بن أُبيٍّ : أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود ، فإنِّي لابدَّ لي منهم ، إنِّي رجلٌ أخاف الدَّوائر(٣) .

إنَّ الفرق واضحٌ بين ابن سلول الَّذي انغمس في النِّفاق ، وبين عبادة بن الصَّامت رضي الله

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١٤٩) .
(٣) انظر : المحرر الوجيز ، لابن عطيَّة (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨) .

عنه الَّذي تربَّى على المنهاج النَّبويِّ ، فَصَفَتْ نفسه ، وتطهَّر قلبُه ، وقوي إيمانه ، وتنوَّر عقله ، فتخلَّص من آثار العصبية الجاهليَّة ، والأهواء ، والمصالح الذَّاتية ، وقدم مصلحة الإسلام على كلِّ مصلحةٍ ، فكان مثلاً حيّاً للمسلم الصَّادق المخلص لعقيدته(١) .

ثالثاً: تصفية المُحَرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة ، ومقتل كعب بن الأشرف :

إنَّ خطر المحرِّضين على الفتنة لا يقلُّ عن خطر الَّذين يشهَرون السُّيوف لقتال المسلمين ؛ إذ لولا هؤلاء المحرِّضون لما قامت الفتنة ؛ لذلك أخذ رسولُ الله ﷺ يتتبَّع هؤلاء المحرِّضين ، ويقتُلهم ؛ إطفاءً لنار الفتنة ، وتمكيناً للحقِّ ، وقد قَتل منهم خلقاً بعد موقعة بدرٍ(٢) ، ومنهم :

أ ـ عصماء بنت مَرْوان: الَّتي كانت تحرِّض على النَّبيِّ ﷺ ، وتعيب الإسلام ، فقد أقدم عُمَيْرُ بنُ عديٍّ الخُطميُّ رضي الله عنه على قتلها ، وحين سأل النَّبيَّ ﷺ بعد ذلك عمَّا إذا كان عليه شيء ؟ قال له النَّبيُّ ﷺ : «نصرت الله ورسوله يا عمير!» ، ثمَّ قال: «لا ينتطح فيها عنزان» [الخطيب البغدادي في تاريخه (١٣/ ٩٩)، وكشف الخفاء (٣١٣٧)]، وقد أسلم نتيجة ذلك عددٌ من بني خَطَمَةَ ، وجهر بالإسلام منهم مَنْ كان يستخفي(٣) .

ب ـ مقتل أبي عفكٍ اليهوديِّ :

كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف ، وكان يهوديّاً ، يُحرِّض على رسول الله ﷺ ويقول الشِّعر ، فقال رسول الله ﷺ : «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصَّحابيُّ سالم بن عُمَيْرٍ ، فقتله(٤) .

وأهمُّ حدثٍ في تصفية المحرِّضين على الدَّولة ما بين بدرٍ ، وأُحدٍ هو مقتل كعب بن الأشرف .

جـ ـ مقتل كعب بن الأشرف :

ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نَبْهان من قبيلة طيِّء ، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهليَّة ، فقدم المدينة ، وحالف يهود بني النَّضير ، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، فولدت له كعباً(٥) ، وكان شاعراً ، ناصب الإسلام العداء ، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريشٍ في معركة بدرٍ ، فسافر إلى مكَّةَ يهجو النَّبيَّ ﷺ ، ويحرِّض قريشاً على الثأر لقتلاهم ، الَّذين كان ينوح

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٣٠٢) .
(٢) انظر : قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٣٨ .
(٣) انظر : نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/ ٢٩٥) .
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٩٦) .
(٥) انظر : السِّيرة ، لابن هشام (٣/ ٥٨) .

عليهم ، ويبكيهم في شعره ، ويدعو إلى القضاء على الرَّسول ﷺ ، والمسلمين[١] ، وممَّا قاله من الشِّعر في قتلى بدرٍ من المشركين :

طَحَنَتْ رَحَىٰ بَدْرٍ لِمُهْلَكِ أَهْلِهِ ... وَلِمثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتدْمَعُ
قُتِلَتْ سُرَاةُ الناس حَوْلَ حِيَاضِهِمْ ... لا تَبْعَدُوا إِنَّ المُلُوكَ تُصَرَّعُ
كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهَا مِن ابْيَضَ مَاجِدٍ ... ذِي بَهجَةٍ تأْوِي إِلَيْهِ الضُّيَّعُ
ويقُولُ أَقْوَامٌ أُذَلُّ[٢] بِسُخْطِهِمْ ... إنَّ ابنَ الأشْرَف ظَلَّ كَعْباً يَجْزَعُ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الأَرْضَ سَاعَةَ قُتِّلُوا ... ظَلَّتْ تَسُوخُ بِأَهْلِهَا وتَصَدَّعُ
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي كِنَانَةَ كُلَّهُمْ ... خَشَعُوا لِقَوْلِ أَبِي الوليْدِ وَجُدِّعُوا[٣]

واستمرَّ كعب بن الأشرف في أذيَّة رسول الله ﷺ بالهجاء ، وتشجيع قريشٍ لمحاربة المسلمين ، واستغواهم على رسول الله ﷺ ، فقال له أبو سفيان : أناشدك الله ، أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمَّدٍ ، وأصحابه؟ قال : أنتم أهدى منهم سبيلاً[٤] ، ثمَّ خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ ، معلناً بعداوته وهجائه[٥] .

ولمَّا قدم المدينة؛ أعلن معاداة النَّبيِّ ﷺ ، وشرع في هجائه ، وبلغت به الوقاحة والصَّلَفُ[٦] أن يمتدَّ لسانه إلى نساء المسلمين ، وشَبَّب بأمِّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العبَّاس عمِّ النَّبي ﷺ ، فقال فيها :

أذَاهِبٌ أَنْتَ لَمْ تَحْلُلْ بِمَنْقَبَةٍ ... وتَارِكٌ أَنْتَ أَمَّ الفَضْلِ بالحَرَمِ
صَفْرَاءُ رَادِعَةٌ لَوْ تُعْصَرُ انْعَصَرتْ ... مِنْ ذِي القَوارِيرِ والحِنَّاء والكَتَمِ[٧]
إِحْدَىٰ بَنِي عَامِرٍ هَامَ الفؤادُ بها ... وَلَوْ تَشَاءُ شَفَتْ كَعْباً مِنَ السَّقَمِ
لَمْ أَرَ شَمْسَاً بِلَيْلٍ قَبْلَهَا طَلَعَتْ ... حَتَّى تَبَدَّتْ لَنَا فِي لَيْلَةِ الظُّلَمِ[٨]

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/ ٢٩٨) .
(٢) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨ .
(٣) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨ ، والسيرة النبويَّة لابن هشام (٣/ ٥٧) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) الصَّلَفُ : التكبُّر والتَّفاخر .
(٧) رادعة : أي : يفوح منها أثر الطِّيب والزَّعفران ، والكتم : نبتٌ يخلط بالحنَّاء ، فيخضَّب به الشَّعر ، فيبقى لونه .
(٨) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، قسم المغازي .

١ ـ حسَّان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسولُ الله ﷺ يحثُّ حسَّاناً للتصدِّي لكعب بن الأشرف ، فكان ﷺ يُعْلِم حسَّاناً أين نزل ابن الأشرف في مكَّة؟ فعندما نزل على المطَّلب بن أبي وَدَاعة بن ضبيرة السَّهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص ، فأبلغ ﷺ حسَّان بن ثابت بذلك ، فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف ، فلمَّا بلغ عاتكة بنت أسيد هِجَاءُ حسان ، نبذت رحل اليهوديِّ كعب بن الأشرف ، وقالت لزوجها: مالنا ولهذا اليهوديِّ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسَّان؟![١].

وتحوَّل كعب إلى أناسٍ آخرين ، وكان كلَّما تحوَّل إلى قومٍ ، دعا رسولُ الله ﷺ حساناً ، وأخبره أين نزل ابن الأشرف ، فيهجو مَنْ نزل عندهم ، فيطردونه ، وظلَّ يلاحقه حتَّى لفظه كلُّ بيتٍ هناك ، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السُّبل ينتظر مصيره المحتوم ، وجزاءه الَّذي يستحقُّه[٢].

كانت الحرب الإعلاميَّة التي شَنَّها حسَّان ضدَّ كعب بن الأشرف ، قد حققت أهدافها؛ وهذه بعض الأبيات الَّتي قالها حسَّان بن ثابت رضي الله عنه في الردِّ على كعب بن الأشرف:

أَبَكَى لِكَعْبٍ ثُمَّ عُلَّ[٣] بِعَبْرَةٍ ... مِنْهُ وَعَاشَ مُجَدَّعَاً لاَ يَسْمَعُ؟
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِبَطْنِ بَدْرٍ مِنْهُمُ ... قَتْلَىٰ تَسُحُّ لَهَا العُيُونُ وَتَدْمَعُ
فَابْكِ فَقَدْ أَبْكَيْتَ عَبْدَاً رَاضِعَاً ... شِبْهَ الكُلَيْبِ إِلَى الكُلَيْبَةِ يَتْبَعُ
وَلَقَدْ شَفَى الرَّحْمٰنُ مِنَّا سَيِّداً ... وَأَهَانَ قَوْمَاً قَاتَلُوهُ وَصُرِّعُوا
وَنَجَا وَأَفْلَتَ مِنْهُمُ مَنْ قَلْبُهُ ... شَغِفٌ يَظَلُّ لِخَوْفِهِ يَتَصَدَّعُ[٤]

٢ ـ جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهوديُّ ابن الأشرف بجرائمَ كثيرةٍ ، وخياناتٍ عديدةٍ ، وإساءاتٍ متعدِّدةٍ لرسول الله ﷺ ، وللمسلمين ، والمسلمات القانتات العابدات ، وكلُّ جريمة من هذه الجرائم تُعَدُّ نقضاً للعهد ، تستوجب عقوبة القتل ، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلُّها في هذا اليهوديِّ الشِّرِّير؟![٥].

إنَّ ابن الأشرف بهجائه للنَّبيِّ ﷺ ، وإظهاره التَّعاطُفَ مع أعداء المسلمين ، ورثاءِ قتلاهم ،

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١١١).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) عُلَّ: من العَلَل ، وهو الشُّرب بعد الشُّرب ، يريد البكاء بعد البكاء.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٥٩).
(٥) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١١١).

وتحريضِهم على المسلمين ، يكون قد نقض العهد ، وصار محارباً مهدورَ الدَّم ؛ ولذلك[١] أمر النَّبيُّ ﷺ بقتله ، وقد فَصَّلَ البخاريُّ خبر مقتله ، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : «مَنْ لكعب بن الأشرف ؛ فإنَّه قد آذى الله ورسوله؟» ، فقام محمَّد بن مسلمة ، فقال : يا رسول الله ! أتحبُّ أن أقتله؟

قال : «نعم» .

قال : فائذن لي أن أقول شيئاً .

قال : «قل» .

فأتاه محمَّد بن مسلمة[٢] فقال : إنَّ هذا الرَّجل قد سألنا صدقةً ، وإنَّه قد عَنَّانا[٣] ، وإنِّي قد أتيتك أستسلفُك ، قال : وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّهُ! قال : إنَّا قد اتَّبعناه ، فلا نحبُّ أن ندعه حتَّى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً ، أو وَسْقَين .

فقال : نعم ، أرهنوني .

قالوا : أيَّ شيءٍ تريد؟

قال : أرهنوني نساءكم .

قالوا : كيف نرهنُك نساءنا ، وأنت أجمل العرب؟

قال : فأرهنوني أبناءكم .

قالوا : كيف نرهنك أبناءنا ، فيُسَبُّ أحدُهم ، فيقال : رُهن بِوَسْقٍ ، أو وَسْقَيْنِ! هذا عارٌ علينا ، ولكن نرهنك الَّلأْمَةَ ، قال سفيان : يعني : السِّلاح .

فواعده أن يأتيه ، فجاء ليلاً ، ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرَّضاعة ، فدعاهم إلى الحصن ، فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه السَّاعة؟

فقال : إنما هو محمَّد بن مسلمة ، وأخي أبو نائلة .

قالت : أسمع صوتاً كأنَّه يقطر منه الدَّم .

قال : إنَّما هو أخي محمَّد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إنَّ الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ ، لأجاب .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٠٤) .

(٢) الَّذي كُتِب في السِّيرة النَّبوية لابن هشام : أنَّ الَّذي جاء كعبَ بن الأشرف أبو نائلة ، واسمه سِلْكان بن سلامة .

(٣) عَنَّانا : من العناء ، وهو التعب .

وجاء محمَّد بن مسلمة برجلين[(١)] ، وقال: إذا ما جاء فإنِّي قائلٌ (أي آخذٌ) بِشَعْرِهِ فأشمُّه ، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه ، فدونكُم ، فاضربوه ، فنزل منهم متوشحاً ، وهو يَنْفُحُ منه ريح الطِّيب.

قال: ما رأيت كاليوم ريحاً! ـ أي: أطيب ـ؛ أتأذن لي أن أشمَّ رأسك؟

قال: نعم! فشمَّه ، ثمَّ أشمَّ أصحابه ، ثمَّ قال: أتأذن لي؟

قال: نعم ، فلمَّا استمكن منه ، قال: دونكم؛ فقتلوه ، ثم أتَوا النَّبيَّ ﷺ ، فأخبروه. [البخاري (٤٠٣٧) ، ومسلم (١٨٠١)].

وجاء في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ محمَّد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف ، لا يأكل ، ولا يشرب إلاَّ ما يُعْلِقُ به نفسَه ، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ ، فدعاه ، فقال له: «لِمَ تركت الطَّعام والشَّراب؟».

فقال: يا رسول الله! قلت لك قولاً لا أدري: هل أَفِيَنَّ لك به ، أم لا؟!

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما عليك الجَهْد».

فقال: لابدَّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [ابن هشام ٣/٥٨].

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة عن ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ، ثمَّ وجَّههم ، فقال: «انطلقوا على اسم الله ، اللَّهم أَعِنْهم!» [ابن هشام (٣/ ٥٩)].

دروسٌ وعبرٌ:

* إنَّ في مقتل كعب بن الأشرف ، دروساً ، وعبراً ، وفوائد في فقه النَّبيِّ ﷺ في تعامله مع خصوم الإسلام ، والدَّولة الإسلاميَّة ، فقد اتَّضح أنَّ عقوبة النَّاقض للعهد القتل ، وهذا ما حكم به النَّبيُّ ﷺ ، وعقوبة المُعَاهَدِ الَّذي يَشْتُمُ الرَّسولَ ﷺ ، ويؤذيه بهجاءٍ ، أو غيره هي القتل ، وهذا ما كان لابن الأشرف ، ويؤخذ من هذا: أنَّ شاتم الرَّسول ﷺ سواءٌ أكان معاهداً ، أو غيره ، تُضْرب عنقه عقوبةً له ، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيميَّة في تفصيل هذه الأحكام ، في كتابه القيِّم: «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول ﷺ».

---

(١) وفي كتب السِّيرة: أنَّ الَّذين قاموا بقتله خمسةُ نفرٍ ، هم: محمَّد بن مسلمة ، وسِلْكَان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة ، أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرَّضاعة ، وعبَّاد بن بشر بن وقش ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جبر ، أحد بني حارثة ، هؤلاء قدَّموا أبا نائلة؛ ليحدِّث كعب بن الأشرف.

* يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرَّسول ﷺ باليهوديِّ ابن الأشرف: أنَّ الحُكْمَ قد تقتضي المصلحة العامَّة للمسلمين أن يُنَفَّذ سرّاً، ويتأكَّد هذا؛ إن كان يترتَّب على تنفيذه بغير هذه الصُّورة السِّرِّيَّة، فتنةٌ، أو خطرٌ قد يكلِّف المسلمين باهظاً[١]. وقد بيَّنت هذه الصُّورة: أنَّ مواجهة الكفَّار أعداء الإسلام، ومحاربي الدَّولة الإسلاميَّة، لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى كلِّ عملٍ تحصل به النِّكاية بالأعداء؛ ما لم يكن إثماً، وقد يوفِّر القضاء على رجلٍ له دوره البارز في حرب المسلمين جهوداً كبيرة، وخسائر فادحةً يتكبَّدها المسلمون.

وهذا مشروطٌ بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكةٌ، وقوَّةٌ، ودولةٌ، بحيث لا يترتَّب على نوعيَّة هذا العمل فتكٌ بالمسلمين، واجتثاث الدُّعاة من بلدانهم، وإفسادٌ في مجتمعاتهم[٢]، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلاميِّ، وتعجَّل الصِّدام المسلَّح، واستدلُّوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة، ولا حجَّة لهم فيها؛ لأنَّ ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين شوكةٌ، ودولةٌ، أمَّا هم فليس لهم دولةٌ، ولا شوكةٌ، ثمَّ إنَّ ذلك كان إعزازاً للدِّين، وإرهاباً للكافرين، وكانت كلُّها مصالح لا مفسدة معها، أمَّا ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث، فإنَّها يعقبها من الشَّرِّ، والفساد، واستباحة دماء المسلمين، وأعراضهم، وأموالهم ما لا يخفى على بصيرٍ[٣].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقم بمحاولة تصفيةٍ لأيِّ أحدٍ من المشركين في مكَّة؛ مع القدرة على قتل زعماء الشِّرك كأبي جهلٍ، وأميَّة بن خلف، وعتبة، ولو أشار إلى حمزةَ، أو عمرَ بذلك، أو غيرهم من الصَّحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكنَّ الهدي النَّبويَّ الكريم، يعلِّمنا: أنَّ فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكةٍ، وقوَّةٍ، كما أنَّ هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحةٍ من أهلها، واستيعاب فقه المصالح، والمفاسد، وهذا يحتاج إلى علماءَ راسخين؛ حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرَّأي العام دوره الكبير في قرارات الدُّول، وحيث احتمالات توسُّع الأضرار[٤].

* ونلحظ قيمة الكلمة عند الصَّحابة رضي الله عنهم، في موقف محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه، بعد أن أعطى كلمة لرسول الله ﷺ، يتعهَّد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف، ثمَّ إبطاؤه في ذلك؛ أعيته الحيلة بقيام صعوباتٍ في سبيل تحقيق ما وعد، حيث امتنع عن الطَّعام،

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود، لأبي فارس (١/ ١١٥).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/ ٥٤).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٠٥.
(٤) انظر: الأساس في السُّنة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٢/ ٥٣٧).

والشَّراب ، وأصابه الغمُّ ، والحزن ، لأنَّه قال قولاً يخشى ألاَّ يستطيع الوفاء به . ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة : أنَّ كثيراً من النَّاس يعطون عهوداً ، ومواثيق ، ولا يقدِّرون قيمتها ، ويخفِرون ذمَّتهم ، ويتراجعون عن عهودهم ، ومواثيقهم ، وتبقى حِبْراً على ورقٍ ، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادئ ، ومواقف يُبْتَغَى بها وجه الله ؛ بل هم أصحاب مصالح ، ومنافع ، يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله .

إنَّ أصحاب الدَّعوات ، يؤثِرون أن تندقَّ أعناقهم ، وأن تَضْوَى[١] أجسامُهم ، وتَزْهَق أرواحهم ؛ على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم ؛ يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم[٢] .

* في قول رسول الله ﷺ : «إنَّما عليك الجَهْدُ» [سبق تخريجه][٣] توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ ، وهو أنَّ النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجَهْدِ ، والصَّبر عند الابتلاء ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] .

وعلى المسلم أن يُفَرِّغ كلَّ ما في وُسْعِهِ ؛ من جهدٍ فكريٍّ ، وطاقةٍ جسميَّةٍ في سبيل تحقيق ما وعد ، ثمَّ يتوكَّل على الله بعد ذلك في النتائج[٤] .

* وفي قوله ﷺ : «قولوا ما بدا لكم» [سبق تخريجه][٥] فقهٌ نبويٌّ كريمٌ ، فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العاديَّة كفرٌ ، ومِنْ هنا تعرفُ : أنَّه مِنْ أجل تحقيق المهامِّ العسكريَّة ، فلا حدود للكلام الَّذي يقال ؛ ولكن تأتي هنا مسألةٌ أخرى ، وهي ما إذا كان النَّجاح في المهامِّ العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز ، أو يقتضي ترك فرائض ؛ فما العمل؟ المعروف : أنَّه ليس هناك من الذُّنوب أعظم من الكفر ، والشرك ، فإذا جاز التَّظاهر بالكفر لذلك ، فمن باب أولى جواز غيره ، على أن يتأكَّد طريقاً للوصول إلى الهدف ، أو يغلب الظَّنُّ على ذلك ، على أن يقتصر فيه على الحدِّ الَّذي لابدَّ منه ، سواءٌ أكانت الوسيلة تأخير فريضةٍ ، أم ارتكاب محظورٍ ؛ على أنَّ هذا ، وهذا مقيَّدانِ بالفتوى ، فهناك محظوراتٌ لا يصحُّ فعلُها بحالٍ ، كالزِّنى ، واللِّواط[٦] .

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهَّلين لأن يفتوا فيها ، خصوصاً في الظُّروف

---

(١) ضَوِيَ ضَوى : ضَعُفَ ، وهُـزِلَ ، أو دَقَّ .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ١١٩) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٦١) .
(٤) انظر : الصراع مع اليهود (١/ ١٢٠) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٦١) .
(٦) انظر : الأساس في السُّنَّة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٢/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨) .

الاستثنائيَّة ، والحالات الاضطراريَّة ، وفي المحكات السِّياسيَّة ، والعسكريَّة ؛ لأنَّها تحتاج إلى الموازنات ، والفتاوى الاستثنائيَّة ؛ الَّتي لا يستطيعها كلُّ إنسانٍ ، فالأحكام الأصليَّة ليست مجهولةً ، وإنَّما الأحكام الاستثنائيَّة الَّتي تقتضيها الظُّروف الاستثنائيَّة تحتاج إلى علماءَ ربانيِّين ، وفقهاءَ راسخين ، لهم القدرة على فهم مقاصد الشَّريعة ، وواقعهم الَّذي يعيشون فيه(١) .

* وفي قوله ﷺ : «قولوا ما بدا لكم» فقهٌ عظيمٌ يوضِّحه قوله ﷺ : «الحرب خَدْعَةٌ» [البخاري (٣٠٢٩) ، ومسلم (١٧٤٠)](٢) .

* قوله ﷺ : «انطلقوا على اسم الله ، اللهم أَعِنْهم !» [سبق تخريجه] كان لهذا التَّذكير بالإخلاص في الجهاد : «انطلقوا على اسم الله» والدُّعاء لهم بالتَّوفيق ، والعون : «اللَّهم أعنهم !» كلُّ ذلك كان حافزاً على الثَّبات ورافعاً للمعنويَّات ، فلم يعبؤوا بقوَّة ابن الأشرف ، ومَنْ حوله من النَّاس ؛ لأنَّهم استشعروا معيَّة الله لهم ، ودعاء الرَّسول ﷺ ربَّه بإعانتهم ، وتحقيق مسعاهم .

ونلحظ في الهدي النَّبويِّ الأخذ بجميع الأسباب المادِّيَّة ، والتَّخطيط السَّديد ، ولا يُنسى جانب الدُّعاء النَّبويِّ الكريم ، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصلة بهم إلى نجاح مقصودهم ؛ لأنَّ المسلم مأمورٌ بالجمع بين التوكُّل على الله تعالى ، والأخذ بالأسباب الَّتي شرعها الله سبحانه(٣) ؛ ولذلك كانت خطَّة محمَّد بن مسلمة مع إخوانه محكمةً ، وأتقنوا فقه سنَّة الأخذ بالأسباب ، فقد كانت الأسباب الَّتي ساعدت على نجاح الخطَّة ، كالتالي :

ـ إنَّ أبا نائلةَ كان أخاه من الرَّضاعة ، وهو يطمئنُّ إليه ، ولا يتوجَّس منه خيفةً .

ـ وفي بعض الرِّوايات : طمأن أبو نائلة كعبَ بن الأشرف ، وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشِّعر قبل أن يحدِّثه عن حاجته .

ـ ولم يحدِّثه عن حاجته حتى أخرج كعباً من حصنه ، وظلُّوا يتحدَّثون ساعةً ، حتَّى اطمأنَّ إليهم ، وكان ذلك من سبل التَّوفيق ، ولو بقي أولئك هناك لربما كشف الأمر ؛ فحديثُهم معه على انفرادٍ كان في غاية التوفيق .

ـ تظاهرهم بالنَّيل ، والتَّبرُّم ، والتَّظلُّم من الرَّسول ﷺ طمأن كعب بن الأشرف .

ـ فكرة رهن السِّلاح كانت في غاية التَّوفيق ، حتَّى يكون اصطحابهم للسِّلاح غيرَ مريبٍ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) خَدعَةٌ : فيها ثلاث لغات مشهورات ، أفصحهن : فتح الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّانية : ضم الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّالثة : ضمُّ الخاء ، وفتح الدَّال .

(٣) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/ ٥٦) .

ولا يبعث على الرِّيبة؛ ذلك لأنَّهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السِّلاح في أي وقت التقوا به فيه.

ـ أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطَّة؛ بحيث يتسنَّى لهم في أيِّ وقتٍ من اللَّيل أن يأتوه، ويطرقوا عليه الباب؛ دون أن يشكَّ فيهم، وفي نيَّتهم.

ـ اطمئنانُ ابن الأشرف إلى أبي نائلة، ومحمَّد بن مسلمة جعله يخرج في وقتٍ لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً؛ تحسُّباً لقتال عدوٍّ على حين غِرَّة، وغفلةٍ[(١)].

ـ إن خطَّة إبعاد ابن الأشرف عن بيته، إلى مكانٍ يخلو به فيه دون رقيبٍ، أو نصيرٍ كانت موفَّقةً.

ـ استدراج أبي نائلة لابن الأشرف، وشمُّه طيب رأسه، وإمساكُه بشَعْرِهِ ليشمَّه، كان موفقاً، وتَقْدِمَةً ليمسك بهذا الرَّأس الخبيث، ويتمكَّن منه، لتكون الفرصةُ سانحةً لتنفيذ حكم الله في هذا اليهوديِّ اللَّعين[(٢)].

ـ وتظهر قدرة الصَّحابة الفائقة في الحفاظ على السِّرِّيَّة، وذلك في كتمان هذه الخطَّة مع كثرة مَنْ في المدينة من اليهود، والمنافقين، ومع تأخُّر تنفيذها، وكون النَّبيِّ ﷺ عرض هذا الأمر في مشهدٍ من الصحابة، وجرت فيه مشورةٌ، وهذا دليلٌ على قوة إيمان هؤلاء الصَّحابة، وإخلاصهم لدينهم[(٣)].

وقام هؤلاء المغاوير[(٤)] بتنفيذ أدوار الخطَّة المحكمة، الَّتي اتَّفقوا عليها، وأدركوا مقصودهم الأسمى، ورسول الله ﷺ معهم بإحساسه الكبير، ومشاعره الفيَّاضة، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العمليَّة بعقولهم، وأجسامهم، ورسولُ الله ﷺ يتولَّى قيادتها العليا بالاتِّصال بالله تعالى، ودعائه لهم بالنَّصر والإعانة[(٥)].

٣ ـ أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ يشتكون ويحتجُّون على ما فعله أصحابه، فلم يَحْفَلِ النَّبيُّ ﷺ بهم؛ بل أكَّد مقتله، الَّذي كان نتيجةً حتميَّةً لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرُّعب في نفوس اليهود جميعهم، فلم يعد

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٢٢).
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٢٢).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/ ٥٦).
(٤) المِغْوار من الرِّجال: المقاتلُ الكثيرُ الغارات على أعدائه.
(٥) المصدر السابق نفسه (٥/ ٥٧).

أحدٌ من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه ، كما لم يعد أحدٌ من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين(١) ، واضطرَّ اليهود لتجديد المعاهدة ، وكان لمقتل كعب بن الأشرف أثرٌ عميقٌ في نفوسهم ، فمضوا يكيدون للإسلام ـ كما سيتبيَّن من الأحداث ـ وَمِنَ الجدير بالـذِّكر أنَّ الرسول ﷺ لم يؤاخـذ بني النَّضيـر بجَرِيرَةِ(٢) كعب بـن الأشرف ، واكتفى بقتله جزاءَ غدره ، وجدَّد المعاهدة معهم(٣) . ومن الفقه النَّبويِّ في معاملة اليهود نستفيد أنَّ العلاج الأمثل لليهود هو زجرهم ، وإرهابهم ، وقتل أهل الفتن فيهم ، ومطاردتهم؛ لأنَّهم أهل شرورٍ ، لا يتخلَّصون منها ، ولا يتوقَّفون عنها(٤) .

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة:

أ ـ زواج النَّبيِّ ﷺ بحفصةَ بنت عمر:

قال عمر رضي الله عنه حين تأيَّمت(٥) حفصةُ بنتُ عُمرَ من خُنَيس بن حُذافة السَّهميِّ ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتوفي بالمدينة ـ: «أتيتُ عثمانَ بن عفَّان ، فعرضت عليه حفصةَ بنتَ عمر ، فقال: سأنظر في أمري ، فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ لقيني فقال: قد بدا لي ألاَّ أتزوجَ يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصِّدِّيقَ ، فقلتُ: إن شئتَ زوجتُك حفصةَ بنت عمرَ ، فصمت أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، فلم يرجع إليَّ شيئاً ، وكنت أوجدَ عليه منِّي على عثمان.

فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ خطبها رسولُ الله ﷺ ، فأنكحتُها إيَّاه ، فلقيني أبو بكرٍ ، فقال: لعلَّك وجدت عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمرُ: قلتُ: نعم ، قال أبو بكر: فإنَّه لم يمنعْني أن أَرْجِعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ ، إلا أنِّي كنتُ علمتُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشيَ سرَّ رسولِ الله ﷺ ، ولو تركها رسولُ الله ﷺ ؛ قبلتُها» [البخاري (٥١٢٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٥٨)].

ب ـ زواج عليٍّ رضي الله عنه بفاطمةَ رضي الله عنها:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: خُطِبَتْ فَاطِمَةُ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت مولاةٌ لي:

---

(١) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨ .
(٢) الجَريرةُ: الجناية ، والذَّنبُ.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٠٤).
(٤) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٢٦).
(٥) تأيَّمت: مات عنها زوجُها.

هل علمت: أنَّ فاطمة قد خُطِبَتْ إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا! قالت: فقد خُطِبَتْ فما يمنعك أن تأتيَ رسولَ الله ﷺ، فيزوجَك، فقلت: وعندي شيءٌ أتزوَّج به! فقالت: إنَّك إن جئت رسول الله ﷺ؛ زَوَّجَكَ.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتَّى دخلتُ على رسول الله ﷺ، فلمَّا أن قعدتُ بين يديه؛ أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلَّم جلالةً وهيبةً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكتُّ، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم! فقال: «وهل عندك من شيءٍ تستحلُّها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله! فقال: «ما فعلت دِرْعٌ سَلَّحْتُكَها؟ فوالذي نفس عليٍّ بيده! إنَّها لَحُطَمِيَّةٌ[1] ما قيمتُها أربعة دراهم»، فقلت: عندي، فقال: «قد زوجتُكها، فابعث إليها بها، فاستحلَّها بها» فإنَّها كانت لَصَداقُ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ [البيهقي في الدلائل (٣/ ١٦٠)][2] وقد جهَّز رسول الله ﷺ فاطمة في خَمِيلٍ[3]، وقِرْبَة، ووسادة أَدَمٍ[4]، حشوها إذخرٌ[5] رضي الله عنها[6].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدةً عن التعقيد، وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده[7]، والقصَّة التالية تصور لنا حال السَّيدة فاطمة، وتعبها، وموقف رسول الله ﷺ منها عندما طلبت إليه أن يعطيها خادماً من السَّبْي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال عليٌّ لفاطمةَ ذات يومٍ: والله! لقد سَنَوْتُ[8] حتى لقد اشتكيتُ صدري، قال: وجاء الله أباك بسبي، فاذهبي، فاستخدميه[9]، فقالت: أنا والله قد طَحَنْتُ حتَّى مجلت يدي[10]. فأتيت النَّبيَّ ﷺ فقال: «ما جاء بك أيْ بُـنَـيَّة؟!» قالت: جئت لأسلِّم عليك، واسْتَحْيَتْ أن تسأله، ورجعت، فقال: ما فعلتِ؟ قالت: اسْتَحْيَيْتُ أن أسأله، فأتينا جميعاً، فقال عليٌّ: يا رسول الله! والله! لقد سنوتُ حتَّى اشتكيتُ صدري، وقالت فاطمة: قد طحنتُ حتَّى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبيٍ، وسعةٍ، فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: «والله! لا أُعطيكما، وأدعُ أهلَ الصُّفة

---

(١) الحُطَمِيَّةُ من الدُّروع: الثقيلة العريضة، الَّتي تكسر السُّيوف.
(٢) إسناده حسن.
(٣) خميل: قطيفة.
(٤) الأدم: الجلد.
(٥) إذخر: نبات له رائحةٌ عطرية.
(٦) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٦٧.
(٧) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٥٥.
(٨) سنوت: استقيت.
(٩) أي: اسأليه خادماً.
(١٠) مجلت يدي: ثخن جلدُها، وتعجر.

تطوى[١] بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكنِّي أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا ، فأتاهما النَّبيُّ ﷺ ؛ وقد دخلا في قطيفتهما ، إذا غطت رؤوسهما ، تكشفت أقدامُهما ، وإذا غطَّيا أقدامهما؛ تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثمَّ قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى! فقال: «كلماتٌ علَّمنيهنَّ جبريلُ عليه السلام ، فقال: «تُسَبِّحَانِ في دبر كلِّ صلاةٍ عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين» [أحمد (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧)][٢].

وهكذا كان الهدي النَّبويُّ في تربية أهل بيته ، وأقربائه ، فلقد أخفقت مساعي السَّيدة فاطمة ، وعليٍّ رضي الله عنهما للحصول على خادم ؛ لأنَّ النَّبيَّ يريد ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ أن يبيعه ، وينفق ثمنه على أهل الصُّفَّة ؛ الَّذين يتلوَّون من الجوع ، فهم أيضاً من خاصَّة رسول الله ﷺ مثل عليٍّ ، وفاطمة ، والطَّعام مقدَّم على الخدمة[٣] ، ولقد تأثر عليٌّ رضي الله عنه بهذه التَّربية النَّبويَّة ، ويمرُّ الزَّمن بالفتى عليّ ، فيصبح خليفةَ المسلمين ، فإذا به من آثار هذه التربية يترفَّع عن الدُّنيا وزخارفها ، وبيده كنوز الأرض ، وخيراتها ؛ لأن ذكر الله يملأ قلبه ، ويغمر وجوده ، ولقد حافظ على وصيَّة رسول الله ﷺ له ، وقد حدَّثنا عن ذلك ، فقال: فوالله ما تركتهُنَّ منذ علَّمنيهنَّ ، فسأله أحد أصحابه : ولا ليلة صفين؟! فقال : ولا ليلة صفِّين[٤]!

وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: « . . . يستوحش من الدُّنيا، وزهرتها ، ويستأنس باللَّيل ، وظلمته ، كان والله! غزيرَ العَبْرَة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبُه من اللباس ما قصر ، ومن الطَّعام ما جَشِبَ[٥] . . . . »[٦].

* * *

(١) تطوى : طوى من الجوع فهو طاوٍ ، أي : خالي البطن ، جائع ، لم يأكل .
(٢) الفتح الرَّباني ، رقم (٩٠) ، وأصل هذا الحديث في البخاريِّ ، كتاب فرض الخمس ، رقم (٣١١٣) .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ١٠٠) .
(٤) انظر : الإصابة في تمييز الصَّحابة (٨/ ١٥٩) .
(٥) الجَشَبُ : ما غَلُظَ مأكله ، وخَشُنَ .
(٦) انظر : صفة الصفوة ، لابن الجوزي (١/ ٨٤) .

الفصل التَّاسع

غزوة أُحدٍ[1]

المبحث الأوَّل

أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحدٍ متعددةً؛ منها: الدِّينيُّ، والاجتماعيُّ، والاقتصاديُّ، والسِّياسيُّ.

١ ـ السَّبب الدِّينيُّ:

قد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ المشركين ينفقون أموالهم في الصدِّ عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدَّعوة الإسلاميَّة، ومَنْع النَّاس من الدُّخول في الإسلام، والسَّعي للقضاء على الإسلام، والمسلمين، ودولتهم النَّاشئة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطَّبريُّ: «يصرفون أموالهم، وينفقونها؛ ليمنعوا النَّاس عن الدُّخول في الإسلام»[2].

وقال ابن كثيرٍ: «أخبر تعالى: أنَّ الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ»[3].

وقال الشَّوكانيُّ: «والمعنى: أنَّ غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم، هو الصَّدُّ عن سبيل الحقِّ، بمحاربة رسول الله ﷺ، وجمع الجيوش لذلك»[4].

من هذا يظهر: أنَّ أهم أسباب غزوة أحدٍ، هو السَّبب الدِّينيُّ؛ الَّذي كان من أهداف قريشٍ للصَّدِّ عن سبيل الله واتِّباع طريق الحقِّ، ومنع النَّاس من الدُّخول في الإسلام، ومحاربة

---

(١) ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٤٧).

(٢) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة، ص ٧١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.

(٤) انظر: تفسير فتح القدير لهذه الآية.

الرَّسول ﷺ ، والقضاء على الدَّعوة الإسلاميَّة[١] .

٢ ـ السَّبب الاجتماعيُّ :

كان للهزيمة الكبيرة في بدرٍ ، وقتل السَّادة ، والأشراف من قريشٍ ، وَقْعٌ كبيرٌ من الخزي ، والعار الَّذي لحق بهم ، وجعلهم يشعرون بالمذلَّة ، والهزيمة؛ ولذلك بذلوا قُصارَى جهدهم في غسل هذه الذِّلَّة ، والمهانة ، الَّتي لصقت بهم؛ ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدرٍ .

قال ابن إسحاق : «لما أُصيب يوم بدرٍ من كفار قريش أصحابُ القَليب ، ورجع فَلُّهُم إلى مكَّةَ ، ورجع أبو سفيان بِعيرِهِ ، فأوقفها بدار النَّدوة ـ وكذلك كانوا يصنعون ـ ، فلم يحرِّكها ، ولا فرَّقها ، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهِّزوا منها جيشاً لقتال رسول الله ﷺ ، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعة ، وعكرمةُ بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وحويطب بن عبد العزَّى ، وصفوان بن أميَّة في رجالٍ من قريش ممَّن أصيب آباؤهم ، وأبناؤهم ، وإخوانهم يوم بدرٍ ، فكلَّموا أبا سفيان بن حربٍ ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ ، فقالوا : يا معشرَ قريش! إنَّ محمَّداً قد وتَرَكُمْ[٢] ، وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، فقال أبو سفيان : أنا أول من أجاب إلى ذلك»[٣] .

ودعا جُبَيْرُ بن مُطْعم غلاماً له حبشيّاً ، يقال له : وَحْشيٌّ ، يقذف بحربة له قَذْفَ الحبشة ، قلَّما يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع النَّاس ، فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمَّد بعمِّي طُعَيْمَةَ بن عديٍّ ، فأنت عتيقٌ[٤] .

٣ ـ السَّبب الاقتصاديُّ :

كانت حركة السَّرايا الَّتي تقوم بها الدَّولة الإسلاميَّة ، قد أثَّرت على اقتصاد قريشٍ ، وفرضت عليهم حصاراً اقتصاديّاً قويّاً ، وكان الاقتصاد المكِّيُّ قائماً على رحلتي الشِّتاء ، والصَّيف؛ رحلة الشِّتاء إلى اليمن ، وتُحمل إليها بضائعُ الشَّام ، ومحاصيلُها ، ورحلة الصَّيف إلى الشَّام ، تحمل إليها محاصيل اليمن ، وبضائعها ، وقَطْعُ أحدِ جناحي هاتين الرِّحلتين ضرٌّ للجناح الآخر؛ لأنَّ تجارتَهم إلى الشَّام قائمةٌ على سلع اليمن ، وتجارتهم إلى اليمن قائمةٌ على سلع الشَّام[٥] .

---

(١) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧١ .
(٢) وَتَرَ فلاناً : قَتلَ حَميمَهُ ، وأدركه بمكروهٍ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٦٨) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٧٩) .
(٥) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧٤ .

قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أميَّة: «إنَّ محمداً، وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون السَّاحل، قد وادعهم[١]، ودخل عامَّتُهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنَّما نزلناها على التِّجارة إلى الشَّام في الصيف، وفي الشِّتاء إلى الحبشة»[٢].

٤ ـ السَّبب السِّياسيُّ:

أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدرٍ، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمةً لها، فلا بدَّ من ردِّ الاعتبار، والحفاظ على زعامتها؛ مهما كلَّفها الأمر من جهودٍ، ومالٍ وضحايا.

هذه أهمُّ الأسباب الَّتي جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكريَّة ضدَّ الدَّولة الإسلاميَّة بالمدينة[٣].

ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السَّبت، لسبع خلون من شوال، من السَّنة الثَّالثة من الهجرة[٤]، وعَبَّأَتْ جيشها المكوَّن من ثلاثة آلاف مقاتل، مستصحبين معهم النِّساء، والعبيد، ومَنْ تبعها من القبائل العربيَّة المجاورة، فخرجت قريشٌ بحدِّها، وحديدها وأحابيشها[٥]، ومن تبعها من كنانةَ وأهل تهامة، وخرجوا بالظُّعُن[٦]، التماسَ الحفيظة؛ لئلا يفرُّوا.

فخرج أبو سفيان ـ وهو قائد النَّاس ـ بهندٍ بنت عُتبة بن ربيعةَ[٧]، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف بِبَرْزَةَ بنت مسعودٍ الثَّقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمِّ حكيمٍ بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمةَ بنت الوليد بن المغيرة[٨]،

---

(١) وادعهم: أي: صالحهم، وسالمهم.
(٢) انظر: المغازي، للواقديِّ (١/ ١٩٥ ـ ١٩٦).
(٣) انظر: غزوة أحد؛ دراسة دعويَّة، ص ٧٥.
(٤) البداية والنهاية (٤/ ١١)، والمغازي، للواقديِّ (١/ ١٩٩).
(٥) الأحابيش: مَنِ اجتمع إلى العرب، وانضمَّ إليهم.
(٦) الظُّعُن: النِّساء، واحدتها ظعينة، والظَّعينة: المرأة في الهودج.
(٧) انظر: الإصابة (٨/ ٣٤٦)، رقم (١١٨٦٠).
(٨) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٧٠).

فأقبلوا حتَّى نزلوا ببطن السَّبخة من قناة ، على شفير الوادي ممَّا يلي المدينة[١] .

كانت التَّعبئة القرشيَّة قد سبقتها حملةٌ إعلاميَّة ضخمةٌ ، تولَّى كِبْرَهَا أبو عزَّة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيُّ، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزوميُّ، وابن الزِّبعرى، وقد حقَّقت نتائج كبيرةً[٢] ، وبلغت النَّفقات الحربيَّة لجيش قريش خمسين ألف دينارٍ ذهباً[٣] .

ثالثاً: الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوِّ:

كان العبَّاس بن عبد المطلب ، يرقب حركات قريش، واستعداداتها العسكريَّة ، فلمَّا تحرك هذا الجيش؛ بعث العباسُ رسالةً عاجلةً إلى النَّبيِّ ﷺ ، ضمَّنها جميع تفصيلات الجيش ، وأسرع رسولُ العبَّاس بإبلاغ الرِّسالة ، وجَدَّ في السَّير؛ حتَّى إنَّه قطع الطريق بين مكَّة والمدينة ـ الَّتي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً ـ في ثلاثة أيام ، وسَلَّمَ الرِّسالة إلى النَّبيِّ ﷺ ، وهو في مسجد قُباء[٤] .

كان النَّبيُّ ﷺ يتابع أخبار قريش بدقَّةٍ بواسطة عمِّه العبَّاس. قال ابن عبد البرِّ: «وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ ، وكان المسلمون يتقوَّون به بمكَّة ، وكان يحبُّ أن يقدم على رسول الله ﷺ ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : أنَّ مقامك في مكَّة خيرٌ»[٥] .

كانت المعلومات الَّتي قدَّمها العبَّاس لرسول الله ﷺ دقيقةً؛ فقد جاء في رسالته: «إنَّ قريشاً قد أجمعت المسيرَ إليك ، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه ، وقد توجَّهوا إليك ، وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مئتي فرس ، وفيهم سبعمئة دارع ، وثلاثة آلاف بعيرٍ ، وأوعبوا[٦] من السِّلاح»[٧] .

وقد احتوت هذه الرِّسالة على أمورٍ مهمَّة؛ منها:

١ ـ معلومات مؤكَّدة عن تحرُّك قوَّات المشركين نحو المدينة .

٢ ـ حجم الجيش ، وقدراته القتاليَّة ، وهذا يعين على وضع خطَّةٍ تواجه هذه القوَّات الزَّاحفة .

---

(١) انظر: غزوة أحد ، دراسة دعويَّة ، ص ٧٨ .
(٢) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦ .
(٤) انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ٢٥٠ .
(٥) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢).
(٦) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السِّلاح .
(٧) انظر: مغازي الواقديِّ (١/ ٢٠٤).

لم يكتفِ النَّبيُّ ﷺ بمعلومات المخابرات المكيَّة؛ بل حَرَصَ على أن تكون معلوماتُه عن هذا العدوِّ متجددةً مع تلاحق الزَّمن ، وفي هذا إرشادٌ لقادة المسلمين ، بأهمِّيَّة متابعة الأخبار الَّتي يتولَّد عنها وضع خططٍ ، واستراتيجيَّات نافعةٍ؛ ولذلك أرسل ﷺ الحُبَابَ بن المنذر بن الجموح إلى قريشٍ يستطلع الخبر ، فدخل بين جيش مكَّة ، وحزَرَ[1] عَدَدَهُ ، وعُدَدَهُ ، ورجع ، فسأله رسول الله ﷺ : «ما رأيتَ؟» قال: رأيتُ يا رسول الله! عدداً ، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً ، أو ينقصون قليلاً ، والخيل مئتا فرسٍ ، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمئة درعٍ ، قال: «هل رأيتَ ظُعُناً؟» قال: رأيتُ النِّساء معهنَّ الدِّفاف ، والأكبار[2] ، فقال رسول الله ﷺ : «أَرَدْنَ أن يحرِّضْنَ القوم ، ويُذَكِّرْنَهُمْ قتلى بدرٍ ، هكذا جاءني خبرهم ، لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا اللهُ ونعم الوكيلُ ، اللَّهم! بك أجولُ ، وبك أصولُ»[3].

كما أرسل ﷺ أنساً ، ومؤنساً ابني فَضالة يَتَنَصَّتان[4] أخبار قريشٍ ، فَأَلْفَيَاهَا[5] قد قاربت المدينة ، وأرسلت خَيْلَها ، وإبلَها ترعى زروع يثرب المحيطة بها ، وعادا ، فأخبراه بخبر القوم[6].

وبعد أن تأكَّد من المعلومات حَرَصَ ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القياديِّ؛ خوفاً من أن يؤثِّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العُدَّة؛ ولذلك حين قرأ أُبيُّ بن كعب رسالة العبَّاس؛ أمره ﷺ بكتمان الأمر ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرَّأي مع قادة المهاجرين ، والأنصار في كيفية مواجهة الموقف ، وكان ﷺ قد أطلع سيِّد الأنصار سعدَ بن الرَّبيع على خبر رسالة العبَّاس فقال: والله! إنِّي لأرجو أن يكون خيراً ، فاستكتمه إيَّاه؛ فلمَّا خرج رسول الله ﷺ من عند سعدٍ؛ قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أمَّ لكِ! أنت وذاك. فقالت: قد سمعتُ ما قال لك! فأخْبَرَتْهُ بما أَسَرَّ به الرَّسول ﷺ ، فاسترجع سعدٌ ، وقال: يا رسول الله! إنِّي خفت أن يفشو الخبر ، فترى أنِّي أنا المفشي له؛ وقد اسْتَكْتَمْتَني إيَّاه ، فقال رسول الله ﷺ : «خلِّ عنها»[7].

وفي هذه الحادثة ، درسٌ بالغٌ للعسكريِّين ، وتحذيرٌ لهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم

---

(١) حَزَرَ الشَّيء: قدَّره بالتَّخمين.
(٢) الأكبار: جمع: كَبر ، والكَبر: هو الطَّبل؛ الَّذي له وجهٌ واحد.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).
(٤) تَنَصَّتَ: تَسَمَّعَ.
(٥) ألفاهُ: وجَدَهُ ، وصادفه.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ١٨٧).
(٧) انظر: السِّيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).

العسكريَّة ، وخططهم ، وأوامرهم ، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار؛ لأنَّ إفشاءها يهدِّد الأمَّة ، ومستقبلها بكارثةٍ كبرى .

إنَّ تاريخ الأمم والشُّعوب في القديم ، والحديث يحدِّثنا : أنَّ كثيراً من الهزائمِ ، والمآسي ، والآلام ، قد حَلَّت بكثيرٍ من الأمم نتيجة لتسرُّب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجةٍ خائنةٍ ، أو خائنٍ في ثوب صديقٍ ، أو قريبٍ في الظَّاهر عدوٌ في الحقيقة ، والواقع[(١)] .

رابعاً : مشاورته ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم :

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ ، جمع أصحابه رضي الله عنهم ، وشاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّن فيها ، أو الخروج لملاقاة المشركين ، وكان رأي النَّبيِّ ﷺ البقاء في المدينة ، وقال : «إنَّا في جُنَّة حصينةٍ ، فإن رأيتم أن تقيموا ، وتَدَعُوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا ؛ أقاموا بشرِّ مُقام ، وإن دخلوا علينا ؛ قاتلناهم فيها»[(٢)] وكان رأيُ عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ[(٣)] ، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدرٌ قالوا : يا رسول الله ! اخرج بنا إلى أعدائنا .

قال ابن كثير : «وأبى كثيرٌ من النَّاس إلا الخروج إلى العدوِّ ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ، ورأيه ، ولو رضُوا بالَّذي أمرهم كان ذلك ، ولكن غلب القضاء والقدر ، وعامَّة مَنْ أشار عليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدراً ، قد علموا الَّذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»[(٤)] .

وقال ابن إسحاق : فلم يزلِ النَّاسُ برسول الله ﷺ الَّذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم ، حتَّى دخل رسولُ الله ﷺ بيته ، فلبس لأمَتَهُ[(٥)] ، فتلاوم القوم فقالوا : عرض نبيُّ الله ﷺ بأمرٍ ، وعرضتم بغيره ، فاذهب يا حمزة ! فقل لنبيِّ الله ﷺ : «أمرنا لأمرك تَبَعٌ» ، فأتى حمزةُ ، فقال له : يا نبيَّ الله ! إنَّ القوم تلاوموا ، فقالوا : أمرُنا لأمرك تبع ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها ؛ حتَّى يقاتل» [أحمد (٣/ ٣٥١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) ، وابن سعد (٢/ ٣٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٠٨) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٠٧)][(٦)] .

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيّاً على أمورٍ ؛ منها :

١ ـ أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثَّانية ، على نصرة الرَّسول ﷺ ، فكان أغلبُهم

---

(١) انظر : غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٢٢ .
(٢) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٠) .
(٣) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٢ .
(٤) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ١٤) .
(٥) لأمة الحرب : عدَّتها .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/ ٧١) .

يرى : أنَّ المكوث داخل المدينة ، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد .

٢ ـ أنَّ الأقليَّة من المهاجرين ، كانت ترى : أنَّها أحقُّ من الأنصار بالدِّفاع عن المدينة ، ومهاجمة قريش ، وصدِّها عن زروع الأنصار .

٣ ـ أنَّ الَّذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرَّقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله .

٤ ـ أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ : أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة ، ظفراً يجب ألا تَحْلُم به ، كما توقَّعوا : أنَّ وقت الحصار سيطول أمده ، فيصبح المسلمون مهدَّدين بقطع المؤن عنهم[١] .

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنيٌّ على التَّخطيط الحربيِّ الآتي :

١ ـ إنَّ جيش مكَّةَ لم يكن موحَّدَ العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً؛ إذ لابدَّ من ظهور الخلاف بينهم . إن عاجلاً ، أو آجلاً .

٢ ـ إنَّ مهاجمة المدن المُصمَّمة على الدِّفاع عن حياضها ، وقلاعها ، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين ، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً .

٣ ـ إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أبنائهم ، وحماية نسائهم ، وبناتهم ، وأعراضهم .

٤ ـ مشاركة النِّساء ، والأبناء في القتال ، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين .

٥ ـ استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها ، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم[٢] .

من الواضح : أنَّ الرَّسول ﷺ ، عوَّد أصحابه على التَّصريح بآرائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه ، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة ، ومعالجة مشكلات الأمَّة ، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرَّأي ، ولم يحدث أن لام الرَّسولُ ﷺ أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ، ولم يوفَّق في رأيه ، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلْزِمٌ للإمام ، فلابدَّ أن يُطبِّق الرَّسول ﷺ التَّوجيه القرآني : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لتعتاد الأمَّة على ممارسة الشُّورى ، وهنا يظهر الوعي السِّياسيُّ عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، فرغم أنَّ لهم إبداءَ الرَّأي ، إلا أنَّه ليس لهم فرضه

(١) انظر : غزوة أحد ، لأحمد عز الدِّين ، ص ٥١ ـ ٥٢ .
(٢) انظر : القيادة العسكريَّة ، للرَّشيد ، ص ٣٧٤ .

على القائد ، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ، ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه من الآراء ، فلمَّا رأوا أنَّهم ألحوا في الخروج ، وأنَّ الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم ، عادوا فاعتذروا إليه ، لكن الرَّسول الكريم ﷺ علَّمهم درساً آخر هو من صفات القيادة النَّاجحة ، وهو عدم التردُّد بعد العزيمة والشُّروع في التنفيذ ، فإنَّ ذلك يزعزع الثِّقة بها ، ويغرس الفوضى بين الأتباع[١] .

كان النَّبيُّ ﷺ قد عزم على الخروج ، وقد أعلن حالة الطَّوارئ العامَّة ، وتجهَّز الجميع للقتال ، وأمْضَوْا ليلتهم في حذرٍ ؛ كلٌّ يصحب سلاحه ، ولا يفارقه حتَّى عند نومه ، وأمر ﷺ بحراسة المدينة ، واختار خمسين من أشدَّاء المسلمين ، ومحاربيهم بقيادة محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه ، واهتمَّ الصحابة بحراسة رسول الله ﷺ ، فبات سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، في عدَّةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم ليلة الجمعة ، مُدَجَّجِينَ بالسِّلاح على باب المسجد ، يحرسون رسول الله ﷺ[٢] .

خامساً : خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ :

أ ـ من الأسباب المهمَّة الَّتي اتَّخذها ﷺ لملاقاة أعدائه اختيارُه لوقت التحرُّك ، والطَّريق التي تناسب خطَّته ، فقد تحرَّك بعد منتصف اللَّيل ، حيث يكون الجوُّ هادئاً ، والحركة قليلةٌ ، وفي هذا الوقت بالذَّات يكون الأعداء ـ غالباً ـ في نومٍ عميق ؛ لأنَّ الإعياء ، ومشقَّة السَّفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً .

ومن المعروف : أنَّ مَنْ نام بعد تعبٍ يكون ثقيلَ النَّوم ، فلا يشعر بالأصوات العالية ، والحركة الثَّقيلة . قال الواقديُّ ـ رحمه الله ـ : ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج ، فلمَّا كان في السَّحَر ؛ قال : «أين الأدلاَّء؟[٣]»[٤] .

ثمَّ إنَّه ﷺ اختار الطَّريق المناسب الَّذي يسلكه حتَّى يصل إلى أرض المعركة ، وذكر صفةً ينبغي أن تتوافر في هذا الطَّريق ، وهي السِّرِّيَّة ، حتَّى لا يرى الأعداء جيش المسلمين ، فقال ﷺ لأصحابه : «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على القوم مِنْ كَثَبٍ[٥] من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟» ، فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً : أنا يا رسولَ الله! فنفذ به في حَرَّةِ بني حارثة وبين أموالهم ، حتَّى سلك به في مالٍ لربعي بن قَيْظيٍّ ـ وفي رواية ابن هشام : لمربع بن قَيظيٍّ ـ ،

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٨٠) .
(٢) انظر : غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) الدَّليل : المرشد . والجمع : أدلاَّء .
(٤) انظر : المغازي ، للواقدي (١/ ٢١٧) .
(٥) الكثب : يقال : رماه من كثبٍ : قُربٍ ، وتمكُّنٍ .

وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر ، فلمَّا أحس برسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، قام يحثي في وجوههم التُّراب ، وهو يقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا أُحلُّ لك أن تدخل حائطي.

وقد ذُكر: أنَّه أخذ حفنةً من ترابٍ بيده ، ثمَّ قال: والله! لو أعلم: أنِّي لا أصيب بها غيرك يا محمد! لضربتُ بها وجهك ، فابتدره القوم: ليقتلوه ، فقال ﷺ: لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زيدٍ أخو بني عبد الأشهل[1] قبل نهي رسول الله ﷺ عنه ، فضربه بالقوس في رأسه ، فشجَّه. [الواقدي في المغازي (١/٢١٨)، والطبري في تاريخه (٢/٥٠٦)، وابن هشام (٣/ ٦٩)].

ولا شك في أنَّ مروره ﷺ بين الأشجار ، والبساتين ، يدلُّنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنيَّة المناسبة في أثناء السَّير؛ لأنَّ الطُّرق العامَّة تكشف للأعداء عن مقدار قوَّات المسلمين ، وهذا أمرٌ محذورٌ ، فالرَّسول ﷺ علَّم الأمَّة الأخذ بالسِّرِّيَّة من حيث المكان ، ومن حيث الزَّمان؛ لئلا يستطيع الأعداء معرفة قوَّاتهم ، فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها ، وبذلك يذهب تنظيم القادة ، وإعدادهم لجيوشهم في مهبِّ الرِّياح.

وفي هذا الخبر تطبيقٌ عمليٌّ لتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة ، إذا تعارضت المصلحتان؛ فالرَّسول ﷺ حينما مرَّ بالجيش في أرض المنافق مربع بن قَيْظيٍّ ، وترتَّب على ذلك إفساد المزرعة؛ مرَّ ولم يعبأ بذلك؛ لأنَّ في ذلك مصلحة الجيش باختصار الطَّريق إلى أُحدٍ ، فبيَّن ﷺ أنَّ ما يكون به مصلحةٌ للدِّين مقدَّمٌ على ما سواه من المصالح الأخرى ، فهنا تعارضت مصلحتان: مصلحةٌ عامَّةٌ ، ومصلحةٌ خاصَّة ، ومصلحة الدِّين في هذا الموقف مصلحةٌ عامَّةٌ ، وهي مقدَّمة على المصلحة الخاصَّة ، وهي مصلحة المال[2].

وقد رتَّب الشَّارع الحكيم مقاصد الشَّرع في تحقيق المنافع لعباده؛ مِنْ حفظ دينهم ، ونفوسهم ، وعقولهم ، ونسلهم ، وأموالهم ، طبقَ ترتيبٍ معيَّنٍ فيما بينها[3] ، فإذا نظرنا إلى كلِّيات الدِّين الخمس ، وأهمِّيتها ، وجدنا: أنَّ هذه الكلِّيات متدرِّجةٌ حسب الأهمِّيَّة: الدِّين ، والنَّفس ، والعقل ، والنَّسل ، والمال ، فما يكون به حفظ الدِّين مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ النَّفس عند تعارضهما ، وما يكون به حفظ النَّفس مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ العقل ، وما يكون به حفظ النَّسل مقدَّم على ما يكون به حفظ المال ، والتَّرتيب بهذا الشَّكل من هذه الكلِّيات يحظى باتفاق العلماء[4].

---

(١) بنو عبد الأشهل: حيٌّ من الأنصار.
(٢) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ص ١٦٨.
(٣) انظر: ضوابط المصلحة ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٢٣.
(٤) انظر: المقاصد العامة للشَّريعة ، ليوسف حامد العالم ، ص ١٦٦.

إنَّ العلماء المتعمِّقين في دراسة السِّيرة النَّبويَّة ، والهدي النَّبويِّ الكريم قد استنبطوا قواعدَ مهمَّة في تقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة؛ ومنهم: الشَّاطبيُّ ، والعزُّ بن عبد السَّلام ، فقد قال الشَّاطبيُّ: «الضَّابط في ذلك: التَّوازن بين المصلحة والمفسدة ، فما رُجِّح منها؛ غُلِّب ، وإن استويا؛ كان محلَّ إشكال. وخلافٌ بين العلماء قائم من مسألة انخرام المناسبة تلزم راجحةً أو مساويةً»[١].

وقال العزُّ بن عبد السَّلام: «وتقديم المصالح الرَّاجحة على المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، ودرء المفاسد الرَّاجحة على المفاسد المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، اتَّفق الحكماء على ذلك ، وكذلك الشَّرائع ، فإن تساوت الرُّتب؛ تخيِّر ، وإن تفاوتت الرُّتب؛ استعمل التَّرجيح عند عرفانه»[٢].

وقال في موضع آخر: «والضَّابط: أنه مهما ظهرت المصلحة الخالية عن المفاسد؛ يسعى في تحصيلها ، ومهما ظهرت المفاسد الخالية عن المصالح؛ يسعى في درئها»[٣].

ب ـ انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشَّوْط[٤] ، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمئة من المنافقين ، بحجَّة: أنَّه لن يقع قتالٌ مع المشركين ، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة ، قائلاً: أطاع الولدان ، ومن لا رأي له ، أطاعهم ، وعصاني ، علام نقتلُ أنفسنا؟![٥] وكان هدفه الرَّئيس من هذا التَّمرُّد ، أن يحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ ، لتنهار معنوياتُه ، ويتشجَّع العدوُّ ، وتعلو همَّته ، وعمله هذا ينطوي على خيانةٍ عظمى ، وبُغْضٍ للإسلام والمسلمين ، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحِّص الله الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطَّيِّب؛ حتَّى لا يختلطَ المخلص بالمُغْرِض ، والمؤمن بالمنافق[٦].

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) انظر: الموافقات ، للشَّاطبي (٢/ ٦٥١).
(٢) انظر: قواعد الأحكام (١/ ٦ ـ ٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٧).
(٤) الشَّوط: اسم حائط ـ أي: بستان ـ بين المدينة ، وأحدٍ.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٤).
(٦) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٤.

فالجبن ، والنُّكوص هما اللَّذان كشفا عن طوية المنافقين ، فافتضحُوا أمام أنفسهم وأمام النَّاس قبل أن يفضَحهم القرآن(١) .

ج ـ موقف عبد الله بن عمرو بن حَرَام من انخذال المنافقين :

حاول عبد الله بن حرام رضي الله عنه إقناع المنافقين بالعودة ، فأبوا ، فقال: يا قوم! أذكِّركم الله ألا تخذلوا قومكم ، ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم؛ فقالوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون؛ لما أسلمناكم ، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتالٌ ، فلمَّا استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عنهم؛ قال: أبعدَكم اللهُ أعداءَ الله ، فسيغني الله عنكم نبيَّه(٢) .

وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧] .

د ـ بنو سلمة ، وبنو حارثة :

ولمَّا رجع ابن أُبي بن سلول ، وأصحابُه؛ همَّت بنو سلمةَ ، وبنو حارثة أن ترجعا ، ولكنَّ الله ثبَّتهما ، وعصمهما ، وفي ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] قال جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فينا ـ بني سلمة ، وبني حارثة ، وما أحبُّ أنَّها لم تنزل ، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. [البخاري (٤٠٥١)] .

لقد أثَّر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ، ففكروا في العودة إلى المدينة ، ولكنَّهم غالبوا الضَّعف الذي ألمَّ بهم ، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاَّهم الله تعالى ، فدفع عنهم الوهن ، فثبتوا مع المؤمنين .

وقد ظهر رأيان في أوساط الصَّحابة تجاه موقف ابن سلول :

الأوَّل: يرى قتل المنافقين الَّذين خذلوا المسلمين بعودتهم ، وانشقاقهم عن الجيش .

الثَّاني: لا يرى قتلهم .

وقد بين القرآن الكريم موقف الفريقين(٣) في هذه الآية: ﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ

---

(١) انظر: مرويات غزوة أحد ، لحسين أحمد ، ص ٧١ .

(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٧٧ .

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٣/ ٣٨٢) .

أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨].

هـ ـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان يُدعى الشَّيخين، رأى كتيبةً لها صوتٌ وجَلَبَةٌ، فقال: ما هذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي بن سلول من يهود، فقال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشِّرك على أهل الشِّرك»[١] وهذا أصلٌ وضعه النَّبيُّ ﷺ في عدم الرُّكون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[٢].

و ـ ردُّ النَّبيِّ ﷺ بعض الصَّحابة لصغر سنِّهم:

ردَّ النبيُّ ﷺ في معسكره بالشَّيخين جماعةً من الفتيان لصغر أعمارهم؛ إذ كانوا في سن الرَّابعة عشرة، أو دون ذلك؛ منهم: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري؛ بلغ عددهم أربعة عشر صبيّاً، وقد ثبت أنَّ ابن عمر كان منهم[٣]، وأجاز منهم رافع بن خديج لمَّا قيل له: إنَّه رامٍ، فبلغ ذلك سَمُرَةَ بن جُنْدب، فذهب إلى زوج أمِّه مرِّي بن سنان بن ثعلبة ـ عمِّ أبي سعيد الخدريِّ، وهو الذي ربَّى سَمُرَة في حِجْرِه ـ يبكي ويقول له: يا أبتِ! أجاز رسولُ الله ﷺ رافعاً، وردَّني، وأنا أصرع رافعاً، فذهب زوج أمِّه إلى النَّبيِّ ﷺ، وأخبره بذلك، فالتفت النَّبيُّ ﷺ إلى رافع، وسَمُرَةَ، فقال لهما: تصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه كما أجاز رافعاً، وجعلهما من جنده، وعسكر كتائبه، ولكلٍّ منهما مجالُه، واختصاصُه[٤].

ونلحظ: أنَّ رسول الله ﷺ أجاز رافعاً، وسَمرة لامتيازٍ عسكريٍّ امتازوا به على أقرانهما، وردَّ صغار السِّنِّ خشية ألاَّ يكون لهم صبرٌ على ضرب السُّيوف، ورمي السِّهام، وطعن الرِّماح، فيفرُّوا من المعركة إذا حمي الوطيس[٥]، فيُحْدِث فرارُهم خلخلةً في صفوف المسلمين[٦].

ونلحظ: أنَّ المجتمع الإسلاميَّ يضجُّ بالحركة، ويسعى للشَّهادة، شيوخاً، وشباباً؛ حتَّى الصبيانُ يُقبلون على الموت ببسالةٍ، ورغبةٍ في الشَّهادة، تبعث على الدَّهشة، دون أن يجبرهم قانون التَّجنيد، أو تدفع بهم قيادةٌ إلى ميدان القتال، وهذا يدلُّ على أثر المنهج النَّبويِّ الكريم،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٧٨.
(٢) انظر: محمَّد رسول الله، لمحمَّد عرجون (٣/ ٥٦١).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٣).
(٤) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).
(٥) حمي الوطيس: اشتدت الحرب.
(٦) انظر: محمَّد رسول الله (٣/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).

في تربية شرائح الأمَّة المتعدِّدة ، على حبِّ الآخرة ، والترفُّع عن أمور الدُّنيا .

سادساً : خطَّة الرَّسول ﷺ لمواجهة كفار مكَّة :

أ ـ وَضَعَ الرَّسول ﷺ خطَّةً محكمةً لمواجهة المشركين من قريشٍ؛ حيث اختار الموقع المناسب ، وانتخب مَنْ يصلح للقتال ، وردَّ من لم يكن صالحاً ، واختار خمسين منهم للرِّماية ، وشدَّد الوصيَّة عليهم ، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب ، وأعطى اللِّواء لأحد أفراد الكتيبة ، وهذه الكتائب هي :

١ ـ كتيبة المهاجرين : وأعطى لواءها مصعب بن عميرٍ رضي الله عنه .

٢ ـ كتيبة الأوس من الأنصار : وأعطى لواءها أُسيد بن حضيرٍ رضي الله عنه .

٣ ـ كتيبة الخزرج من الأنصار : وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه(١) .

ب ـ وكان من هديه ﷺ أن يُحرِّض أصحابه على قتال الأعداء ، ويحثَّهم على التَّحلِّي بالصَّبر في ميادين القتال ، لكي تتقوى رُوحهم المعنويَّة ، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم ، ومن ذلك ما فعله يوم أُحدٍ ، وفي ذلك يقول الواقديُّ : «ثمَّ قام رسولُ الله ﷺ ، فخطب النَّاس :

«يا أيها الناس! أُوصيكم بما أوصاني الله في كتابه؛ من العمل بطاعته ، والتَّناهي عن محارمه ، ثمَّ إنَّكم اليوم بمنزل أجرٍ ، وذُخرٍ؛ لمن ذكر الَّذي عليه ، ثمَّ وطَّن نفسه له على الصَّبر ، واليقين ، والجدِّ ، والنَّشاط ، فإنَّ جهاد العدو شديدٌ كربُه ، قليلٌ من يصبر عليه إلا من عزم الله رشدَه ، فإنَّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإنَّ الشَّيطان مع مَنْ عصاه ، فافتتحُوا أعمالكم بالصَّبر على الجهاد ، والتمِسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالَّذي آمركم؛ فإنِّي حريصٌ على رشدكم ، فإنَّ الاختلاف ، والتَّنازع ، والتَّثبيط ، من أمر العجز ، والضَّعف ، ممَّا لا يحبُّ الله ، ولا يعطي عليه النَّصر ، ولا الظَّفر»(٢) .

ويتَّضح من هذه الخُطبة عدَّةُ أهدافٍ؛ منها :

١ ـ الحثُّ على الجدِّ ، والنَّشاط في ميدان الجهاد .

٢ ـ الحثُّ على الصَّبر عند قتال الأعداء .

٣ ـ بيان مساوئ الاختلاف ، والتَّنازع(٣) .

---

(١) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٩ .

(٢) انظر : مغازي الواقديِّ (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) .

(٣) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤٦٩ .

إنَّ هذا الهدي المبارك الَّذي سَنَّهُ ﷺ يعلِّمنا حقائق ثابتةً ، وهي : أنَّ الجيوش مهما عظم تسليحها ، وتنظيمها ، فإنَّ ذلك لا يغني شيئاً إلا إذا حملته نفوسٌ قويَّةٌ ، تحرص على الموت أشدَّ مِنْ حرصها على الحياة ، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتَّوجيه ، وغرس حبِّ الجهاد ، والشَّهادة في نفوسهم .

ج ـ أدرك الرَّسول ﷺ أهمِّية جبل أحد لحماية جيش المسلمين ، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد؛ جعل الرَّسولُ ﷺ ظهورَهم إلى الجبل ، ووجوههم إلى المدينة ، وانتقى خمسين من الرُّماة تحت إمرة عبد الله بن جُبَيْرٍ[(١)] ، ووضعهم فوق جبل عَينين المقابل لجبل أحد ، وذلك حتَّى يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وأصدر أوامره إليهم قائلاً : «إن رأيْتُمونا تَخطَفُنا الطَّيرُ؛ فلا تَبرحُوا مكانكم هذا حتَّى أُرسلَ إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ ، وأوطَأْنَاهُم فلا تَبْرحُوا حتَّى أُرْسلَ إليكم» [البخاري (٣٠٣٩) ، وأحمد (٤/ ٢٩٣) ، وأبو داود (٢٦٦٢)] .

وقال رسول الله ﷺ للجيش : «لا تبرحوا حتَّى أوذنكم» ، وقال : «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى آمره بالقتال» .

وقال لأمير الرُّماة : «انضحِ الخيلَ عنا بالنَّبْل؛ لا يأتونا مِنْ خَلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا ، أو علينا» [الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠٧) ، والواقدي في المغازي (١/ ٢٢٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٢٧) ، وابن هشام (٣/ ٧٠)] . وقال للرُّماة : «الزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نهْزِمُهُمْ حتَّى ندخل عسكرهم؛ فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتل؛ فلا تغيثونا ، ولا تدفعوا عنَّا ، وارشقوهم بالنَّبْل؛ فإنَّ الخيل لا تقدم على النَّبل ، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللَّهمَّ إنِّي أُشهدك عليهم»[(٢)] .

سيطر المسلمون على المرتفعات ، وتركوا الوادي لجيش مكَّة ليواجه أُحداً ، وظهره إلى المدينة ، وأصبحت مهمَّة الرُّماة في النقاط التالية : احتلال الموقع ، حماية المسلمين من الخلف ، صدُّ الخيل عن المسلمين[(٣)] .

د ـ تسوية الصُّفوف ، وتنظيم الجيش؛ تقدَّم رسولُ الله ﷺ أصحابه ، وصفَّهم على هيئة صفوف الصَّلاة ، وجعل رسولُ الله ﷺ يمشي على رجليه ، يُسوِّي تلك الصُّفوف ، ويبوِّئ

---

(١) انظر : الإصابة (٢/ ٢٧٨) .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٦) ، وانظر : سيرة ابن هشام (نزول الرسول ﷺ بالشعب ، وتعبئته للقتال) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (٤٠٤٣) ، والرَّحيق المختوم (خطة الدفاع) ، وتاريخ الطَّبريِّ (٢/ ٥٠٧) .

(٣) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٩٠ .

أصحابه للقتال، يقول: تقدَّم يا فلان! وتأخر يا فلان! فهو يقوِّمهم... حتَّى استوت الصُّفوف[(١)]، فوضع ﷺ في مقدِّمة الصُّفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطَّريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرَّسول ﷺ بهذا الأسلوب؛ لأنَّه أبلغ في قتال الأعداء[(٢)].

هـ ـ عدم القتال إلا بأمرٍ من القائد: قال الطَّبريُّ: «فجعل ظهره، وعسكره إلى أحدٍ، وقال: لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى نأمره بالقتال»[(٣)].

وفي هذا التَّوجيه فائدةٌ مهمَّةٌ، وهي توحيد القيادة والمسؤوليَّة؛ لأنَّه ﷺ أدرى بالمصلحة.

* * *

(١) انظر: المغازي، للواقدي (١/٢١٩).
(٢) انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ، لمحمد فرج، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٣) انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٢/٥٠٧).

المبحث الثَّاني
في قلب المعركة[١]

أولاً: بدء القتال واشتداده، وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال، حاول أبو سفيان أن يُوجِدَ شرخاً، وتصدُّعاً في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: «خَلُّوا بيننا وبين ابن عمِّنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم» فردُّوا عليه بما يكره[٢].

ولمَّا فشلت المحاولة الأولى؛ لجأت قريش إلى محاولةٍ أخرى، عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الرَّاهب، حيث حاول أبو عامر الرَّاهب أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشرَ الأوس! أنا أبو عامر! قالوا: فلا أنعم اللهُ بك عيناً يا فاسق! فلمَّا سمع ردَّهم عليه؛ قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثمَّ قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة[٣].

وبدأ القتال بمبارزةٍ بين عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وطلحةَ بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحدٍ، يقول صاحب السِّيرة الحلبية: خرج طلحةُ بن عثمان، وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحدٌ، فقال: يا أصحابَ محمد! إنَّكم تزعمون أنَّ الله ـ تعالى ـ يُعجلنا بسيوفكم إلى النَّار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة، فهل أحدٌ منكم يعجلني بسيفه إلى النَّار، أو أعجله بسيفي إلى الجنَّة؟ فخرج إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: والَّذي نفسي بيده! لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النَّار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنَّة، فضربه عليٌّ فقطع رِجْلَهُ، فوقع على الأرض، فانكشفت عورتُه، فقال: يا بن عمِّي! أنشدك الله، والرَّحم! فرجع عنه، ولم يجهز عليه، فكبَّر رسولُ الله ﷺ. وقال بعض الصَّحابة لعليٍّ: أفلا أجهزت عليه؟! قال: إنَّ ابن عمِّي ناشدني الرَّحم حين انكشفت عورتُه، فاستحييتُ منه[٤].

---

(١) ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٨).

(٢) انظر: إمتاع الأسماع، للمقريزي (١/ ١٢٠).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ١٩٢)، وسيرة ابن هشام (أمر أبي عامر الفاسق).

(٤) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨)، وتفسير الطَّبريِّ (٧/ ٢١٨)، والقصَّة بنحوها في ابن هشام.

والتحم الجيشان ، واشتدَّ القتال ، وشرع رسولُ الله ﷺ يشحذ همم أصحابه ، ويعمل على رفع معنوياتهم ، وأخذ سيفاً ، وقال: «مَنْ يأخذُ منِّي هذا؟» فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا ، أنا. قال: «فمن يأخذه بحقِّه؟» قال: فأحْجَمَ القومُ ، فقال سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ أبو دُجَانة: وما حقُّه يا رسولَ الله؟! قال: «أن تضرب به العدوَّ حتَّى ينحني» ، قال: أنا آخذه بحقِّه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي يمشي مشية المتكبِّر ـ ، وحين رآه رسول الله ﷺ يتبختر بين الصَّفَّين قال: «إنَّها لمشيَةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن» ، وأخذه ، وفلق به هامَ المشركين [أحمد (٣/ ١٢٣) ، ومسلم (٢٤٧٠) ، والحاكم (٣/ ٥٥٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٢)] .

وهذا الزُّبير بن العوَّام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أُحدٍ ، قال: وجدت في نفسي حين سألتُ رسول الله ﷺ السَّيْفَ ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت: أنا ابن صفيَّة عمَّتِه ، ومِنْ قريشٍ ، وقد قمتُ إليه ، وسألته إيَّاه قَبْلَه ، فأعطاه أبا دُجانة ، وتركني ، والله! لأنظرنَّ ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابةً له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة عِصَابة الموت ـ وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها ـ ، فخرج؛ وهو يقول:

أَنَـــا الَّـــذِي عَـــاهَـــدَنـــي خَلِيْلـــي ... وَنَحْـــنُ بِـــالسَّفْـــحِ لَـــدَىٰ النَّخِيْـــلِ
ألا أقـــومَ الـــدَّهـــرَ فـــي الكَيُّـــولِ[١] ... أَضْـــرِبْ بِسَيْـــفِ اللهِ والـــرَّسُـــولِ[٢]

فجعل لا يَلْقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجلٌ لا يَدعُ لنا جريحاً إلا ذفَّف[٣] عليه ، فجعل كلُّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشركُ أبا دجانة ، فاتَّقاه بدَرَقَتِه ، فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دُجانة فقتله ، ثمَّ رأيتُه قد حمل السَّيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ، ثمَّ عدل السَّيف عنها ، فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال ابن إسحاق: قال أبو دُجانة: رأيت إنساناً يَخْمش[٤] النَّاس خَمْشاً شديداً ، فصمدتُ له[٥] ، فلمَّا حملتُ عليه السَّيفَ؛ وَلْوَلَ ، فإذا امرأةٌ ، فأكرمتُ سيفَ رسول الله أن أضرب به امرأةً [ابن هشام (٣/ ٧٣) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٣)][٦] .

---

(١) الكَيُّول: آخر الصُّفوف في الحرب.
(٢) البداية والنِّهاية (٤/ ١٧) ، وسيرة ابن هشام (تمام قصَّة أبي دجانة) .
(٣) ذفَّف: أجهز عليه.
(٤) يخمش: يشجع على القتال.
(٥) فصمدت له: قصدت نحوه.
(٦) البداية والنهاية (٤/ ١٧) .

ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول ﷺ:

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين، وكان شعارُهم: أمِتْ.... أمِتْ، واستماتوا في قتالٍ بطوليٍّ ملحميٍّ، سجَّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً من البطولة، والشَّجاعة[1]، وسجَّل التَّاريخ روائعَ بطولاتِ حمزةَ بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأبي دُجانةَ، وأبي طلحة الأنصاريِّ، وسعد بن أبي وقَّاص، وأمثالهم كثيرٌ[2]، وحقَّق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[3].

وفي ذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ولما رأى الرُّماةُ الهزيمةَ الَّتي حلَّت بقريشٍ، وأحلافها، ورأوا الغنائم في أرض المعركة؛ جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم؛ ظنّاً منهم: أنَّ المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جُبيرٍ: «الغنيمة أي قَوْم! الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبَيْرٍ: أنَسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله ﷺ؟ قالوا: واللهِ لنأتينَّ النَّاسَ فلنُصيبَنَّ من الغنيمة» [البخاري (٣٠٣٩)].

ثمَّ انطلقوا يجمعون الغنائم، ولم يعبؤوا بقول أميرهم، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرُّماة في ذلك الموقف، فقال: «فلمَّا غنم النَّبيُّ ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين، أكبَّ الرُّماة جميعاً، فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فهم هكذا ـ وشبك بين أصابع يديه ـ، والتبسوا، فلمَّا أخلَّ الرُّماة تلك الخَلَّة الَّتي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبيِّ ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير» [أحمد (١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨)].

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيَّالة المشركين ـ، الفرصة سانحةً ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولمَّا رأى المشركون ذلك، عادوا إلى القتال من جديدٍ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيطٍ، فأصبحوا يقاتلون متفرِّقين، فلا نظام يجمعهم، ولا وحْدَة تشملهم، بل لم يعودوا يميِّزون بعضهم، فقد قتَلُوا اليَمانَ ـ والد حُذيفة بن اليَمان ـ خطأً [البخاري (٤٠٦٥)، وابن هشام (٣/ ١٢٩)]. وأخذ المسلمون

---

(١) انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/ ٣٠٣).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

يتساقطون شهداء في الميدان ، وفقدوا اتِّصالهم بالرَّسول ﷺ ، وشاع : أنَّه قُتِل[١] ، واختلط الحابِلُ بالنَّابل[٢] واشتدَّت حرارة القتال ، وصار المشركون يقتلون كلَّ من يلقونه من المسلمين ، واستطاعوا الخلوص قريباً من النَّبيِّ ﷺ ، فرموه بحجر كسر أنفه الشَّريف ، ورباعيَتَـهُ[٣] ، وشجَّه[٤] في وجهه الكريم ، فأثقله وتفجَّر الدَّم[٥] منه ﷺ .

عن أنسٍ رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعيَّتُه يوم أُحدٍ ، وشُجَّ في رأسه ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه ، ويقول : كيف يُفْلح قومٌ شجُّوا نبيَّهم ، وكسروا رباعيَّته ، وهو يدعوهم إلى الله ؟ [البخاري تعليقاً (٨/ ١١٢) ، ومسلم (١٧٩١)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

وحمل ابن قَمِئَةَ على مُصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديدَ الشَّبه برسول الله ﷺ ، فقتله ، فقال لقريش : قد قتلت محمَّداً[٦] .

وشاع : أنَّ محمَّداً قد قُتِل ، فتفرَّق المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق الجبل ، واختلطت على الصَّحابة أحوالهم ، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[٧] ، ففرَّ جَمْعٌ من المسلمين من ميدان المعركة ، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتالٍ ، وآثر آخرون الشَّهادة بعد أن ظنُّوا : أنَّ رسول الله ﷺ قد مات ؛ ومن هؤلاء أنسُ بن النَّضر ، الَّذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً ، والَّذي قال في ذلك : «والله ! لئن أراني اللهُ مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرينَّ اللهُ كيف أصنع» وقد صدق في وعده ، فقد مرَّ يوم أُحدٍ على قومٍ ممَّن أذهلتهم الشَّائعـةُ ، وألقوا بسلاحهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قُتل رسولُ الله ﷺ ! فقال : يا قوم ! إن كان محمَّدٌ قد قُتل ، فإن ربَّ محمَّد لم يُقتل ، وموتوا على ما مات عليه . وقال : اللَّهمَّ إنِّي أعتذر إليك ممَّا قال هؤلاء ـ يعني : المسلمين ـ ، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء ـ يعني : المشركين ـ ، ثم لقي سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد! إنِّي لأجد ريح الجنَّـة دون أحـدٍ ، ثمَّ ألقى بنفسه في أَتُونِ المعركة ، وما زال يقاتل ؛ حتَّى اسْتُشْهِد ، فوُجد فيه بضعٌ

---

(١) انظر : غزوة أحد دراسةٌ دعويَّة ، ص ٩٨ .

(٢) اختلط الحابلُ بالنَّابل : اضطربت الأمورُ .

(٣) الرَّباعية : إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنيَّة ، والنَّاب .

(٤) شجَّهُ شَجاً : شقَّ جلد رأسه أو وجهه .

(٥) انظر : فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٢٩٤ .

(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٣/ ٨١) .

(٧) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١٠٠ .

وثمانون ما بين ضربةٍ بسيفٍ ، أو طعنةٍ برمح ، أو رميةٍ بسهم ، فلم تعرفه إلا أختُه ببنانه [البخاري (٤٠٤٨) ، وابن هشام (٣/ ٨٨)][(١)].

وفي هذا ، وأمثاله نزل قولُ الله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

أمَّا أولئك النَّفر الَّذين فرُّوا لا يلوون على شيءٍ رغم دعوة النَّبيِّ ﷺ لهم بالصُّمود، والثَّبات ، فقد نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

ولقد حكى القرآن الكريم خبرَ فرار هذه المجموعة من الصَّحابة ، الَّذين ترخَّصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النَّبيِّ ﷺ ، الَّذي شاع في ساحة المعركة ، وكان أوَّل مَنْ علم بنجاة الرَّسول ﷺ ، وأنَّه حيٌّ هو الصَّحابيُّ كعب بن مالك ، الَّذي رفع صوتَه بالبُشرى ، فأمره النَّبيُّ ﷺ بالسُّكوت حتَّى لا يفطنَ المشركون إلى ذلك [الطبراني في الأوسط (١١٠٨) ، وفي الكبير (١٩/ ١٠٠) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٢)][(٢)].

وقد نصَّ القرآن الكريم على أنَّ الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة الَّتي فرَّت .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

ثالثاً : خطَّة الرَّسول ﷺ في إعادة شتات الجيش :

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين ، والهدف الرَّئيس فيه شخص النَّبيِّ ﷺ ، لم يتزحزح ﷺ من موقفه ؛ والصَّحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه ، وحُوصرَ رسولُ الله ﷺ في قلب المشركين ، وليس معه إلا تسعةٌ من أصحابه ؛ سبعةٌ منهم من الأنصار . [مسلم (١٧٨٩)] .

وكان الهدف أن يفكَّ هذا الحصار ، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه ، واستبسل الأنصار في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ ، واستشهدوا واحداً بعد الآخر[(٣)] ، ثمَّ قاتل عنه طلحةُ بن عبيد الله حتَّى أُثْخِنَ ، وأصيب بسهم شَلَّت يمينَه ، وأراد النَّبيُّ ﷺ أن يصعد صخرةً فلم يستطع ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠١ .
(٢) سيرة ابن هشام ، (أوَّل من عرف الرَّسول ﷺ بعد الهزيمة) .
(٣) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٠٤) .

فقعد طلحةُ تحته حتَّى استوى على الصَّخرة، قال الزُّبير: فسمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «أوجب طلحة» [أحمد (١/ ١٦٥)، والترمذي (١٦٩٢)][1].

وقاتل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان يناوله النِّبال ويقول له: «ارمِ يا سعد! فداك أبي، وأمِّي!» [أحمد (١/ ١٣٧)، والبخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١٢)].

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري؛ الَّذي كان من أمهر الرُّماة، وهو الَّذي قال عنه النَّبيُّ ﷺ: «لصوت أبي طلحة في الجيش، أشدُّ على المشركين من فئةٍ» [أحمد (٣/ ٢٠٣)، وعبد بن حميد (١٣٨٤)]. وقد كان متترِّساً على رسول الله بحَجَفةٍ له، وكان رامياً شديدَ النَّزع، كَسَرَ يومئذٍ قوسين، أو ثلاثاً، وكان الرَّجل يمرُّ معه الجَعْبَةُ[2] من النَّبْل، فيقول رسولُ الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة»، ثمَّ يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: «يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمي! لا تُشْرِف[3] يصيبك سهمٌ من سِهام القوم، نَحْرِي دون نحرك[4]!» [البخاري (٤٠٦٤)].

ووقفت نُسَيْبة بنت كعب تذبُّ عن رسول الله ﷺ بالسَّيف، وترمي بالقوس، وأُصيبت بجراحٍ كبيرةٍ، وترَّس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه؛ يقع النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه حتَّى كثر فيه النَّبْلُ[5].

والتفَّ حول الرَّسول ﷺ في تلك اللَّحظات العصيبة أبو بكرٍ، وأبو عبيدة، وقام أبو عبيدة بنزع السَّهمين من وجه النَّبيِّ ﷺ بأسنانه، ثمَّ توارد مجموعةٌ من الأبطال المسلمين؛ حيث بلغوا قرابة الثَّلاثين، يذودون عن رسول الله ﷺ؛ منهم: قتادة، وثابت بن الدَّحداح، وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطَّاب، وعبد الرَّحمن بن عوف، والزُّبير بن العوَّام.

واستطاع عمر بن الخطَّاب أن يردَّ هجوماً مضادّاً، قاده خالد ضدَّ المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصَّحابة الَّذين كانوا مع عمر في ردِّ الهجوم العنيف، وعاد المسلمون، فسيطروا على الموقف من جديد[6]، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصرٍ حاسمٍ، وتعبوا

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٩٦، وهذه القصَّة رواها ابن هشام (ضعف الرَّسول ﷺ عن النُّهوض ومعاونة طلحة له)، والترمذي، وأحمد، والحاكم، وصححها ووافقه الذَّهبي. انظر: الرَّحيق المختوم (طلحة ينهض بالنَّبيِّ ﷺ) وتخريجه لهذا الحديث.

(٢) الجعبة: الكنانة الَّتي تجعل فيها السِّهام.

(٣) لا تشرف: لا تتطلع.

(٤) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السِّهام من نحرك لأصاب بها دونك.

(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥ ـ ٣٦)، وسيرة ابن هشام (حديث أم سعد عن نصيبها في الجهاد يوم أحدٍ، أبو دجانة وابن أبي وقَّاص يدافعان عن الرَّسول ﷺ).

(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لمنير الغضبان، ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

من طولها ، ومن جَلادة المسلمين ، وانسحب النَّبيُّ ﷺ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحَد شعاب جبل أُحدٍ ، وكان المسلمون في حالةٍ من الألم ، والخوف ، والغمِّ لما أصاب رسولَ الله ﷺ ، وما أصابهم رغم نجاحهم في ردِّ المشركين[١] ، فأنزل الله عليهم النُّعاس ، فناموا يسيراً ، ثمَّ أفاقوا آمنين مطمئنين .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الطَّائفة الَّتي قد أهمَّتهم أنفسُهم هم المنافقون[٢] .

أمَّا قريشٌ فإنَّها يئست من تحقيق نصرٍ حاسمٍ ، وأُجْهد رجالُها من طول المعركة ، ومن صمود المسلمين وجَلَدهم ، وخاصَّةً بعد أن اطمأنُّوا ، وأنزل الله عليهم الأمنة ، والصُّمود ، فالتفُّوا حول النَّبيِّ ﷺ ؛ ولذلك كَفُّوا عن مطاردة المسلمين ، وعن محاولة اختراق قوَّاتهم[٣] .

رابعاً : من شهداء أُحد :

أ ـ حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه سيِّد الشُّهداء عند الله تعالى يوم القيامة :

قاتل أسدُ الله حمزةُ قتالاً ضارياً ، وأثخن في المشركين قتلاً ، وأطاح برؤوس نفرٍ من حملة لواء المشركين من بني عبد الدَّار ، وبينما هو على هذه الحال من الشَّجاعة ، والإقدام ، كَمَنَ له وحشيٌّ ؛ حتَّى تمكَّن منه ، ثمَّ رماه بحربته ، فأصاب منه مقتلاً ، ولندع وحشيّاً يخبرُنا عن هذا المشهد المؤلم . قال وحشيٌّ : إنَّ حمزة قتل طُعَيْمةَ بن عديِّ بن الخيار ببدرٍ ، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم : إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي ؛ فأنت حرٌّ ، فلمَّا أنْ خرج النَّاسُ عام عَيْنَين ـ وعينين جبلٌ بحيال أحدٍ ، بينه وبينه وادٍ ـ ، خرجتُ مع النَّاس إلى القتال ، فلمَّا اصطفُّوا للقتال ؛ خرج سِبَاعٌ ، فقال : هل من مبارز؟ قال : فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب ، فقال : يا سِباعُ! يا بنَ أمِّ أنمارٍ مُقطِّعة البُظور[٤] ، أتحادُّ الله ورسولَه ﷺ ؟ ثمَّ شدَّ عليه ، فكان كأمس الذَّاهب ، قال :

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٠٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر نضرة النَّعيم (١/ ٣٠٦) .
(٤) مقطِّعة البظور : كانت أمه ختَّانة بمكَّة تختن النِّساء .

وكَمَنتُ لحمزة تحت صخرةٍ ، فلمَّا دنا منِّي رميتُه بحربتي ، فأضَعُها في ثُنَّتِه[١] حتَّى خَرَجَتْ من بين وَرِكيه ، قال: فكان ذاك العهدَ به[٢] ، فلمَّا رجع النَّاس؛ رجعت معهم ، فأقمت بمكَّة حتى فشا فيها الإسلامُ.

ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسلاً ، فقيل لي: إنَّه لا يَهيج الرُّسُلَ[٣] ، قال: فخرجتُ معهم حتَّى قدمتُ على رسول الله ﷺ ، فلمَّا رآني؛ قال: «أنت وحشيٌّ؟» قلت: نعم ، قال: «أنت قتلتَ حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك ، قال: «فهل تستطيعُ أن تُغَيِّبَ وجهك عنِّي؟» قال: فخرجتُ ، فلمَّا قُبض رسولُ الله ﷺ ، فخرج مسيلمةُ الكذَّاب ، قلت: لأخرجنَّ إلى مسيلمة لَعَلِّي أقتلُه فأكافئ به حمزة ، قال: فخرجت مع النَّاس فكان من أمره ما كان ، قال: فإذا رجل قائمٌ في ثَلَمةِ جدار[٤] كأنَّه جمل أَوْرَقُ[٥] ثائر الرأس ، قال: فرميتُه بحربتي ، فأضعها بين ثدييه حتَّى خرجت من بين كتفيه ، قال: ووثب إليه رجلٌ من الأنصار ، فضربه بالسَّيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار: أنَّه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهر بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين! قتله العبدُ الأسود» [البخاري (٤٠٧٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٣) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧)].

١ ـ سؤال النَّبيِّ ﷺ عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة ، سأل رسولُ الله ﷺ أصحابه: «مَنْ رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله ، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله ﷺ حتَّى وقف على حمزة ، فرآه وقد شُقَّ بطنُه ، وقد مُثِّل به ، فقال: يا رسول الله! مُثِّل به والله! [الطبراني في الكبير (١٩/ ٨٢) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٩)][٦]. وفي روايةٍ: لما بلغ النَّبيَّ ﷺ قتلُ حمزة؛ بكى ، فلمَّا نظر إليه شهِق ، ووقف بين ظهراني القتلى ، فقال: «أنا شهيد على هؤلاء ، كفِّنوهم في دمائهم ، فإنَّه ليس جرحٌ يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدمى؛ لونُه لون الدَّم ، وريحُه ريحُ المسك ، قدِّموا أكثرهم قرآناً ، فاجعلوه في اللَّحد» [البخاري (٢٠٧٩) ، وأبو داود (٣١٣٨)، والترمذي (١٠٣٦) ، والنسائي (١٩٥٤) ، وابن ماجه (١٥١٤)].

---

(١) فأضعها في ثُنَّته: أي في عانته ، وقيل: ما بين السُّرَّة والرُّكبة.
(٢) ذلك العهد به: كناية عن موته.
(٣) لا يهيج الرسل: أي: لا ينالهم منه مكروهٌ.
(٤) في ثلمة جدار: أي خلل جدار.
(٥) أورق: لونه كالرماد.
(٦) سيرة ابن هشام (دفن الشهداء) ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣.

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله ﷺ في أُحدٍ تحقَّقت رؤيا رسولِ الله ﷺ ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أُحدٍ، فقال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فَلاًّ[١]، فأوَّلْتُه فلاًّ يكون فيكم (أي: انهزاماً) ، ورأيت أنِّي مردفٌ كَبْشاً ، فأوَّلْتُه كبش الكتيبة، ورأيت أنِّي في درع حصينةٍ، فأوَّلتها المدينة ، ورأيت بقراً تُذبح ، فبقرٌ والله خيرٌ! فبقرٌ والله خيرٌ!» فكان الَّذي قال رسول الله ﷺ . [أحمد (١/ ٢٧١) ، والترمذي (١٥٦١)][٢] .

٢ ـ صبر صفيةَ بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: إنَّه لمَّا كان يوم أُحد؛ أقبلت امرأة تسعى ، حتَّى كادت أن تشرف على القتلى ، قال: فَكَرِهَ النَّبيُّ ﷺ أن تراهم ، فقال: المرأة . . . المرأة! قال الزُّبير: فتوسَّمتُ: أنَّها صفيَّة ، قال: فخرجت أسعى إليها ، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى ، قال: فَلَدَمَتْ[٣] صدري ، وكانت امرأة جَلْدةً ، قالت: إليك عنِّي ، لا أرضَ لك! فقلت: إنَّ رسول الله ﷺ عزم عليك.

قال: فوقفت ، وأخرجت ثوبين معها ، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله ، فكفِّنوه فيهما. قال: فجئنا بالثَّوبين لنكفِّن فيهما حمزة ، فإذا إلى جنبه رجلٌ من الأنصار قتيل فُعِلَ به كما فُعل بحمزة ، قال: فوجدنا غضاضةً وحياءً أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصاريُّ لا كفن له ، فقلنا: لحمزة ثوبٌ وللأنصاريِّ ثوبٌ ، فقدَّرناهما ، فكان أحدُهما أكبر من الآخر ، فأقرعنا بينهما ، فكفَّنا كلَّ واحدٍ منهما في الثَّوب الَّذي صار له. [أحمد (١/ ١٦٥) ، والبزار (١٧٩٧) ، وأبو يعلى (٦٨٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٠) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٨)][٤].

٣ ـ من شعر صفيَّة في بكاء حمزة:

أَسَائِلَةٌ أَصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً ... بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ[٥] وخَبِيرِ
فَقَالَ الخَبِيْرُ إنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى ... وَزِيْرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيْرِ
دَعَاهُ إلٰهُ الحقِّ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً ... إلَى جنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُوْرِ
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّي وَنَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصِيْرِ
فَوَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ مَا هبَّتِ الصَّبا ... بُكَاءً وَحُزْناً مَحْضَري وَمَسِيْرِي

---

(١) الفلُّ: الثَّلم في السَّيف.
(٢) انظر شرحه في فتح الباري ، وكذا كتاب المغازي ، باب غزوة أحد (في مقدِّمة الباب) ، وسيرة ابن هشام (رؤيا رآها رسول الله ﷺ) .
(٣) لدمت: ضربت ، ودفعت.
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٨٥ ، وانظر: سيرة ابن هشام (صفيَّة وحزنُها على حمزة).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ١٨٥).

عَلَىٰ أَسَدِ اللهِ الَّذِيْ كَانَ مِدْرَهاً[(١)] يَذُوْدُ عَنِ الإِسْلاَمِ كُلَّ كَفُوْرِ
فَيَا لَيْتَ شِلْوِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظُمِي لَدَىٰ أَضْبُعٍ تَعْتَادُنِي وَنُسُورِ[(٢)]
أَقُولُ وَقَدْ أَعْلَىٰ النَّعِيُّ عَشِيْرَتِي جَزَىٰ اللهُ خَيْراً مِنْ أَخٍ وَنَصِيْرِ[(٣)]

٤ ـ حمزة لا بواكي له:

لمَّا رجع رسولُ الله ﷺ من أُحدٍ؛ سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكيَ له»، فبلغ ذلك نساءَ الأنصار، فبكين حمزة[(٤)]، فنام رسول الله ﷺ، ثمَّ استيقظ، وهنَّ يبكين، فقال: «يا ويحهنَّ! ما زلن يبكين منذ اليوم، فليبكين، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم» [أحمد (٢/ ٤٠، ٨٤، ٩٢)، وابن ماجه (١٥٩١)، والطبراني في الكبير (٢٩٤٣)، وأبو يعلى (٣٥٧٦)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢٠)]. وبذلك حرِّمت النِّياحة على الميت، وبعد فترة من الزَّمن نزل الوحي يشدِّد على تحريم النِّياحة على الميت، ويجعلها من كبائر الذُّنوب، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين، والمؤمنات، يتتبَّع آثار الجاهلية؛ لكي يمحوها، ويغرس مكانها تعاليم الإسلام[(٥)]».

قال ﷺ: «النِّياحة على الميت من أمر الجاهليَّة، وإن النَّائحة إذا لم تتب قبل أن تموت، فإنَّها تُبْعَثُ يوم القيامة عليها سرابيلُ من قطران، ثمَّ يُعلى عليها بدروعٍ من لهب النَّار» [ابن ماجه (١٥٨٢)].

وقال ﷺ: «اثنتان في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسب، والنِّياحةُ على الميِّت» [أحمد (٢/ ٤٩٦)، ومسلم (٦٧)]. فتوقف النُّواح، ولم تتوقف الدُّموع.

٥ ـ رسول الله ﷺ يسمِّي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منَّا غلام، فقالوا: ما نسمِّيه؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «سَمُّوه بأحبِّ الأسماء إليَّ، حمزة بن عبد المطلب» [الحاكم (٣/ ١٩٦)]؛ فحمزة مُتَجَذِّرٌ في القلب النَّبويِّ، عالقٌ بالذَّاكرة الكريمة، ولكن الله سبحانه ينزل على نبيِّه ﷺ فيما بعد أحبَّ الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبدُ الله، وعبدُ الرَّحمن» [مسلم (٢١٣٢)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٣)، وابن ماجه (٣٧٢٨)].

---

(١) مِدْرهاً: الَّذي يدفع عن القوم.
(٢) الشِّلو: العضو. تعتادني: تتعاهدني.
(٣) انظر: السِّيرة النبويَّة، لابن هشام (٣/ ١٨٥).
(٤) سيرة ابن هشام (بكاء نساء الأنصار على حمزة).
(٥) انظر: السيرة النبوية، للصوياني (٣/ ٩٠).

٦ ـ **«فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهَك عنِّي»** [البخاري (٤٠٧٢)، وأحمد (٥٠٧٣)]:

في هذا التَّوجيه الكريم لا يوجد فيه شيءٌ من المؤاخذة والتَّأثيم لوحشيٍّ؛ وإنَّما هو تذكيرٌ له بأنَّ رؤيته إيَّاه تجلب له شيئاً من المتاعب النَّفسيَّة، وتُحرِّك في نفسه ذكريات حادث القتل، وما تبعه من تمثيلٍ شنيعٍ بَشعٍ بعمِّه، فتثير عنده حزازاتٍ بشريَّة ربما لا يكون من المستطاع منعها، ومقاومتها إلا بشيءٍ من العسر، والعنت الشَّديد؛ ممَّا قد يُشْغِلُ النَّبيَّ ﷺ ويُقْلِقُه[١]، فأشار عليه ﷺ بأن يغيِّب وجهه حتَّى يفقد مصدر التَّذكير بتلك المصيبة[٢]. في روايةٍ صحيحةٍ: قال وحشيٌّ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ، فقال لي: «وحشيٌّ» قلت: نعم، قال: «قتلت حمزة؟»، قلت: نعم، الحمد لله الَّذي أكرمه بيدي، ولم يهنِّي بيده، فقالت له قريش: أتحبُّه؛ وهو قاتل حمزة. فقلت: يا رسول الله! فاستغفر لي، فتفل رسول الله ﷺ في الأرض ثلاثةً، ودفع صدري ثلاثةً، وقال: «وحشيٌّ، اخرج فقاتلْ في سبيل الله، كما قاتلت لِتَصُدَّ عن سبيل الله» [الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٣٩)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢٧)].

فهذا من التَّوجيه الإرشاديِّ النَّبويِّ إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر، ومحادَّة الله تعالى ورسوله ﷺ، وذكرُ القتال في سبيل الله بيانٌ للأمر الأنسب في التَّكفير، وفيه حضٌّ من النَّبيِّ ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعلَّ مخرجَ وحشيٍّ إلى اليمامة، وقتله مسيلمةَ الكذَّاب كان أثراً من آثار توجيه النَّبيِّ ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ[٣] الذُّنوب، ويطهِّر الآثام.

وقد أدرك وحشيٌّ ذلك، فقال حين قتل مسيلمةَ الكذَّاب: قتلتُ خير النَّاس ـ يعني: سيِّد الشُّهداء حمزةَ بنَ عبد المطَّلب ـ، وقتلتُ شرَّ النَّاس مسيلمةَ الكذَّاب[٤].

ب ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خبَّاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرُنا على الله؛ فَمِنَّا مَنْ مضى في سبيله، ولم يأكل مِنْ أجره شيئاً، منهم مصعبُ بن عمير قُتل يوم أُحدٍ، ولم يترك إلا نَمِرَةً، فكنَّا إذا غطَّينا رأسه؛ بدت رجلاه، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسُه، فقال رسولُ الله ﷺ: «غطُّوا رأسَه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[٥]، ومنا من أينعت له ثمرتُه، فهو يَهْدِبُها[٦]. [البخاري (١٢٧٦) و(٣٨٩٧)].

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون، (٣/ ٦٠٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٥/ ١٤١).

(٣) يحتُّ: يسقط.

(٤) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (٣/ ٦٠٢)، والبخاري، رقم (٤٠٧٢) جملة: «لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة» وشرحها في الفتح.

(٥) الإذخر: نوع من العشب.

(٦) أينعت: أي نضجت. يهدبها: أي: يجتنيها.

ومن حديث عبد الرَّحمن بن عوف أنَّه أُتي بطعامٍ ، وكان صائماً ، فقال: قُتل مصعب بن عمير ، وكان خيراً منِّي ، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، وقتل حمزة ـ أو رجلٌ آخر ـ خيرٌ منِّي ، فلم يُوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، لقد خَشِيتُ أن يكون قد عُجِّلت لنا طيِّباتُنا في حياتنا الدُّنيا ، ثمَّ جعل يبكي حتَّى ترك الطَّعام [البخاري (١٢٧٤) ، و(١٢٧٥) ، و(٤٠٤٥)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحدٍ، مرَّ على مصعب بن عمير ؛ وهو مقتولٌ على طريقه ، فوقف عليه ، ودعا له ، ثمَّ قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «أشهد: أنَّ هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، فائتوهم ، وزوروهم ، والَّذي نفسي بيده ، لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة، إلا ردُّوا عليه» [الحاكم (٣/ ٢٠٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٤)].

ج ـ سعد بن الرَّبيع رضي الله عنه:

هذا هو الَّذي استَكْتَمَهُ رسولُ الله ﷺ خبرَ مسير قريشٍ ، وكان رسول الله ﷺ يحبُّه ، فلمَّا انتهت معركة أُحدٍ؛ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رجلٌ ينظرُ ما فعل سعدُ بنِ الرَّبيع ، أفي الأحياء هو ، أم في الأموات؟» لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد رأى الأسِنَّة أشرعَتْ إليه ، فقال أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره لك يا رسول الله! فقال له: «إن رأيتَ سعد بن الرَّبيع ، فأقرئه منِّي السَّلام ، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدُك؟» فنظر أُبيٌّ ، فوجده جريحاً به رَمَقٌ.

فقال له: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت ، أم في الأموات ، فقال: قد طُعِنْتُ اثنتي عَشرةَ طعنةً ، وقد أنفذت إلى مقاتلي[1]. وفي روايةٍ صحيحةٍ قال: على رسول الله ، وعليك السَّلام ، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنَّة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ ؛ وفيكم عينٌ تطرُف[2] ، قال: وفاضت نفسُه رحمه الله. [الحاكم (٣/ ٢٠١) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٥)][3]! وهذا نُصْحٌ لله ، ورسولِه ﷺ في سكرات الموت يدلُّ على قوَّة الإيمان ، والحرص على الوفاء بالبيعة ، لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح.

د ـ عبد الله بن جحشٍ رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: إنَّ عبد الله بن جحشٍ قال له يوم أُحدٍ: ألا تدعو الله ،

(١) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٥٣٢).
(٢) سيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في آثار المشركين).
(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٤.

فَخَلَوْا في ناحيةٍ ، فدعا سعدٌ ، فقال: يا ربِّ! إذا لقيتُ العدوَّ ، فَلَقِّني رجلاً شديداً بأسُه ، شديداً حردُه ، أقاتلُه ، ويقاتلني ، ثمَّ ارزقني الظَّفَرَ عليه حتَّى أقتلَه ، وآخذَ سَلَبَهُ ، فأمَّن عبد الله بن جحشٍ ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ ارزقني رجلاً شديداً حردُه ، شديداً بأسُه ، أقاتله فيك ويقاتلُني ، ثمَّ يأخذُني ، فَيَجْدَعُ أنفي ، وأذني ، فإذا لقيتُك غداً ، قلتَ: من جَدَعَ أنفَك ، وأذنَك؟ فأقول: فيك ، وفي رسولك ، فتقول: صدقتَ. قال سعد: يا بنيَّ ، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي ، لقد رأيتُه آخر النَّهار وإنَّ أنفه ، وأذنه لمعلَّقان في خيطٍ[1].

وفي هذا الخبر جواز دعاء الرَّجل أن يُقتل في سبيل الله ، وتمنِّيه ذلك ، وليس هذا من تمنِّي الموت المنهيِّ عنه[2].

هـ ـ حنظلةُ بن أبي عامرٍ رضي الله عنه (غَسِيل الملائكة):

لمَّا انكشف المشركون؛ ضرب حنظلةُ فرسَ أبي سفيان بن حربٍ ، فوقع على الأرض ، فصاح وحنظلةُ يريد ذبحه ، فأدركه شدَّاد بن الأسود ، ويقال له: ابن شَعوب ، فحمل على حنظلةَ بالرُّمح ، فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة بالرُّمح وقد أثبته ، ثمَّ ضرب الثَّانية فقتله ، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنِّي رأيت الملائكة تغسِّله بين السَّماء والأرض بماء المُزْن ، في صِحَافِ الفضَّة» فقال رسول الله ﷺ: «فاسألوا أهلَه ما شأنُه؟» فسألوا صاحبته عنه ، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[3] ، فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك غَسَّلَتْهُ الملائكة» [الحاكم (٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٥) ، والطبراني الكبير (١٢٠٩٤) ، ومجمع الزوائد (٣/ ٢٣)][4].

وفي رواية الواقديِّ: وكان حنظلة بن أبي عامرٍ تزوَّج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، فأُدخلت عليه في اللَّيلة الَّتي في صبحها قتال أُحدٍ ، وكان قد استأذن رسولَ الله ﷺ أن يبيتَ عندها ، فأذن له ، فلمَّا صلَّى بالصَّبح غدا يريد رسولَ الله ﷺ ، ولزمته جميلةُ فعاد ، فكان معها ، فأجنب منها ، ثمَّ أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعةٍ من قومها فأشهدتهم أنَّه قد دخل بها ، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيت كأنَّ السَّماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ، ثمَّ أُطبقت ، فقلت: هذه الشَّهادة ، فأشهدْتُ عليه: أنَّه قد دخل بي. وتَعْلَقُ بعبد الله بن حنظلة ، ثمَّ تزوَّجها ثابت بن قيس بعدُ ، فولدت له محمَّد بن ثابت بن قيس[5].

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٣.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٢).

(٣) أي: سمع منادي رسول الله ﷺ يدعو للخروج لملاقاة العدو.

(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٩ ، وسيرة ابن هشام (حنظلة غسيل الملائكة) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (١٣٤٦).

(٥) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ٢٧٣).

وفي هذا الخبر مواقفُ ، وعبرٌ ؛ منها :

١ ـ في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أُبي ، بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرُّؤيا الَّتي فسَّرتها بالشَّهادة ، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتَّى لا تحمل منه ، فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب ، لكنَّها تعلَّقت به رجاءَ أن تحمل منه ، فتلد ولداً ينسب لذلك الشَّهيد ، الَّذي بلغ درجاتٍ عليا في الصَّلاح أولاً ، ثمَّ بما ترجوه من نيله الشَّهادة . ولقد حصل لها ما أمَّلت به ، فحملت منه ، وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله ، وكان له ذِكْرٌ بعد ذلك ، وكان مِنْ أعلى ما يفتخر به أن يقول : أنا ابنُ غَسِيْلِ الملائكة .

٢ ـ حَرَصَ حنظلةُ القويُّ على مقارعة أعداء الله ، الَّذي يتمثَّل في سرعة خروجه إلى الميدان ، الأمر الذي لم يتمكَّن معه من غسل الجنابة .

٣ ـ شجاعتُه الفائقة الَّتي تظهر في تصدِّيه لقائد المشركين ، أبي سفيان بن حرب ، والقائد غالباً يكون حوله مَنْ يحميه ، وهو فارسٌ ، وحنظلة راجلٌ .

٤ ـ تشريفٌ ربانيٌّ كريمٌ ، في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه الْمُزْن في صحاف الفضَّة .

٥ ـ معجزةٌ نبويَّةٌ في إخبار الصَّحابة عمَّا قامت به الملائكة مِنْ تغسيلٍ ؛ حيث رأى ﷺ الملائكة وهي تغسل ، ولم يرَ الصَّحابةُ ذلك(١) .

٦ ـ إذا كان الشَّهيد جنباً غُسِّل ، كما غسلت الملائكةُ حنظلةَ بن أبي عامر(٢) .

و ـ عبد الله بن عمرو بن حَرَامٍ رضي الله عنه :

أصرَّ عبـدُ الله بن عمرو بن حرامٍ على الخروج في غزوة أُحدٍ ، فخاطب ابنه جابراً بقوله : يا جابرُ! لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتَّى تعلم إلى ما يصيرُ أمرُنا ، فإنِّي والله لولا أنِّي أترك بنات لي بعدي ؛ لأحببتُ أن تُقتلَ بين يديَّ . [أحمد (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ، ومجمع الزوائد (٤/ ١٣٥)] .

وقال لابنه أيضاً : ما أراني إلا مقتولاً في أوَّل من يُقْتَلُ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، وإنِّي لا أتركُ بعدي أعَزَّ عليَّ منك ؛ غيرَ نفسِ رسول الله ﷺ ، وإنَّ عليَّ ديناً فاقضِ ، واستوصِ بإخوتك خيراً [البخاري (١٣٥١)] .

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشَّهادة في سبيل الله ، فقد قُتل في معركة أُحدٍ ، وهذا جابرُ يحدِّثنا عن ذلك ، حيث يقول : لمَّا قُتل أبي يوم أحدٍ ، جعلتُ أكشفُ عن وجهه ، وأبكي ،

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠) .
(٢) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢١٤) .

وجعل أصحابُ رسول الله ﷺ ينهونني وهو لا ينهاني ، وجَعَلَتْ عمَّتي تبكيه ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «تبكين ، أو لا تبكين ، ما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتَّى رَفَعْتُموه» [البخاري (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧١/ ١٣٠)].

وقال رسول الله ﷺ : «يا جابر! مالي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله ، استشهد أبي ، وترك عيالاً ، ودَيناً. قال ﷺ : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله! قال ﷺ : «ما كَلَّمَ اللهُ أحداً قطُّ إلاَّ من وراء حجاب ، وكلَّم أباك كفاحاً[(١)]. يا جابر! أما علمت أنَّ الله أحيا أباك ، فقال: يا عبدي! تمنَّ عليَّ أُعطِك. قال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانيةً. فقال الرَّبُّ سبحانه: إنَّه سبق منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعون. قال: يا رب! فأبلغ مَنْ ورائي» [الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠) و(٢٨٠٠)][(٢)] ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤيا في منامه قبل أُحد؛ قال: رأيت في النَّوم قبل أُحدٍ، مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيامٍ ، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنَّة نَسْرَحُ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تُقْتَل يوم بدرٍ؟ قال: بلى! ثمَّ أُحييتُ. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال: «هذه الشَّهادة يا أبا جابر»! [الحاكم (٣/ ٢٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٩)][(٣)] وقد تحقَّقت تلك الرُّؤيا بفضل الله ومَنِّهِ.

ز ـ خيثمة أبو سعد رضي الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد ـ وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدرٍ ـ: لقد أخطأتني وقعة بدرٍ ، وكنت والله عليها حريصاً ، حتَّى ساهمتُ ابني في الخروج ، فخرج سَهْمُهُ ، فرُزِقَ الشَّهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النَّوم في أحسن صورةٍ ، يسرح في ثمار الجنَّة ، وأنهارها ، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنَّة ، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنَّة ، وقد كبِرَتْ سِنِّي ، ورَقَّ عظمي ، وأحببتُ لقاء ربِّي ، فادعُ الله يا رسول الله! أن يرزقني الشَّهادة ، ومرافقة سعدٍ في الجنَّة ، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك ، فقُتِل بأُحدٍ شهيداً. [البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٩)][(٤)].

---

(١) كفاحاً: أي: مواجهةً.
(٢) انظر: شرحه في الفتح ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).

ح ـ وهب المزنيُّ ، وابن أخيه رضي الله عنهما :

أقبل وهب بن قابوس المزنيُّ ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقبة بن قابوس بغنمٍ لهما من جبل مُزَينة ، فوجدا المدينة خلواً ، فسألا : أين النَّاس؟ فقالوا : بأُحدٍ؛ خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش. فقالا : لا نبتغي أثراً بعد عين ، فخرجا حتَّى أتيا النَّبي ﷺ بأُحدٍ ، فيجدان القوم يقتتلون ، والدَّولة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين في النَّهْب ، وجاءت الخيل مِنْ وراءهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، فاختلطوا ، فقاتلا أشدَّ القتال ، فانفرقت فرقةٌ من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله! فقام فرماهم بالنَّبْل حتَّى انصرفوا ، ثمَّ رجع .

فانفرقت فرقةٌ ثانيةٌ ، فقال رسول الله ﷺ : «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزنيُّ : أنا يا رسول الله! فقام فذبَّها بالسَّيف حتى ولَّوْا ، ثمَّ رجع المُزَنيُّ ، ثمَّ طلعت كتيبةٌ ثالثة ، فقال : «مَنْ يقوم لهؤلاء؟» فقال المزنيُّ : أنا يا رسول الله! فقال : «قم ، وأبشر بالجنَّة» ، فقام المزنيُّ مسروراً ، يقول : والله لا أقيل ، ولا أستقيل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيف ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين حتَّى خرج من أقصاهم ، ورسول الله ﷺ يقول : «اللّهم ارحمه!» ثمَّ يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم مُحدقون به ، حتَّى اشتملت عليه أسيافهم ، ورماحهم ، فقتلوه ، فوُجد به يومئذ عشرون طعنةً برمح ، كلُّها قد خلصت إلى مقتلٍ ، ومُثِّلَ به أقبح مُثلةٍ يومئذٍ ، ثمَّ قام ابن أخيه ، فقاتل قتاله حتَّى قتل ، فكان عمر بن الخطَّاب يقول : إنّ أحبَّ ميتةٍ أموت لمَا مات عليها المزنيُّ . [المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥)] .

وكان بلال بن الحارث المزنيُّ يُحدِّث ، يقول : شهدنا القادسيَّة مع سعد بن أبي وقَّاص ، فلمَّا فتح اللهُ علينا ، وقُسمت بيننا غنائمنا ، فأُسْقِطَ فتىً من آل قابوس من مُزينة[١] ، فجئت سعداً حين فرغ من نومه ، فقال : بلال؟ قلت : بلال! قال : مرحباً بك ، مَنْ هذا معك؟ قلت : رجلٌ من قومي مِنْ آل قابوس. قال سعد : ما أنت يا فتى من المُزني الَّذي قُتل يوم أُحد؟ قال : ابن أخيه. قال سعد : مرحباً ، وأهلاً ، وأنْعَمَ الله بك عَيْناً ، ذلك الرَّجل شهدتُ منه يوم أُحد مشهداً ما شهدتُه من أحدٍ ، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كلِّ ناحيةٍ ، ورسولُ الله ﷺ وسطنا ، والكتائب تطلع من كلِّ ناحيةٍ ، وإنَّ رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في النَّاس يتوسَّمُهم[٢] يقول : «من لهذه الكتيبة؟» كلُّ ذلك يقول المزنيُّ : أنا يا رسول الله! كلُّ ذلك يردُّه ، فما أنسى آخر مرَّةٍ قامها ، فقال رسول الله ﷺ : «قم وأبشر بالجنَّة!» قال سعد : وقمت على أثره ، يعلم الله أنِّي أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشَّهادة ، فخضنا حَوْمتهم حتَّى رجعنا فيهم الثَّانية ، وأصابوه

(١) انظر : المغازي ، للواقديِّ (١/ ٢٧٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه .

ـ رحمه الله! ـ ووَدِدْتُ والله أنّي كنت أُصبتُ يومئذٍ معه ، ولكنَّ أجَلِي استأخر ، ثمَّ دعا سعد من ساعته بسهمه ، فأعطاه ، وفضّله ، وقال: اختر في المقام عندنا ، أو الرُّجوع إلى أهلك ، فقال بلال: إنَّه يستحبُّ الرُّجوع ، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيتُ رسول الله ﷺ واقفاً عليه؛ وهو مقتولٌ ، وهو يقول: «رضي الله عنك فإنِّي عنك راضٍ» ، ثمَّ رأيتُ رسولَ الله ﷺ قام على قدميه وقد نال النَّبيَّ ﷺ من الجراح ما ناله ، وإنِّي لأعلم أنَّ القيام ليشقُّ عليه على قبره حتى وُضع في لحده ، وعليه بُرْدَةٌ لها أعلام خضر ، فمدَّ رسول الله ﷺ البُردة على رأسه ، فخمَّره ، وأدرجه فيها طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحَرْمَل ، فجعلناه على رجليه؛ وهو في لحده ، ثمَّ انصرف. فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزَنيِّ[1].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه ، فهذا وَهْبٌ المزنيُّ ، وابن أخيه ، تركوا الأغنام بالمدينة ، والتحقوا بصفوف المسلمين ، وحرصوا على نيل الشَّهادة ، فأكرمهم الله بها ، وقد كانت تلك الملحمة الَّتي سطَّرها المزنيُّ محفورةً في ذاكرة الصَّحابة ، فهذا سعد بن أبي وقَّاص يتذكَّرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أُحدٍ ، لمجرَّد سماع اسم رجل من عشيرة المزنيِّ ، ويتمنَّى أن يموت ، ويلقى الله على مثل حالة المزنيِّ.

ط ـ عمرو بن الجَمُوح رضي الله عنه:

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه أعرجَ شديدَ العرج ، وكان له بنونَ أربعةٌ مثل الأُسد[2] ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، وهم: خلَّاد ، ومُعوَّذ ، ومُعاذ ، وأبو أيمن ، فلمَّا كان يوم أُحد أرادوا حَبْسَهُ ، وقالوا: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عذرك ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال: إنَّ بَنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فو الله! إنِّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنَّة. فقال له رسول الله ﷺ: «أمَّا أنت فقد عذرك الله تعالى ، فلا جهاد عليك» ، وقال لبنيه: «ما عليكم ألاَّ تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشَّهادة» فخرج؛ وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم! لا تردَّني إلى أهلي خائباً. فقُتل شهيداً رضي الله عنه.

وفي رواية: أتى عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسولَ الله! أرأيتَ إنْ قاتلت في سبيل الله حتَّى أُقتل ، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنَّة ـ وكانت رجله عرجاء ـ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» ، فقتلوه يوم أُحد هو ، وابن أخيه ، ومولى لهما ، فمرَّ بهم رسولُ الله ﷺ ، فجُعلُوا في قبرٍ واحد [أحمد (٥/ ٢٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٦) ، والواقدي

---

(١) انظر: المغازي ، للواقدي (١/ ٢٧٧).
(٢) الأُسد: جمع أسد.

في المغازي (١/ ٢٦٤)، وابن هشام (٣/ ٩٦)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣١٥)].

وفي هذا الخبر، دليلٌ على أنَّ مَنْ عذره الله في التَّخلُّف عن الجهاد لمرضٍ، أو عَرَجٍ يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوح؛ وهو أعرج[١].

وفيه دليلٌ على شجاعة عمرو بن الجَمُوح، ورغبته في نيل الشَّهادة، وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

ي ـ أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش رضي الله عنهم:

لمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى أُحدٍ، رُفع حُسَيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة ابن اليمان، وثابت بن وَقش في الآطام[٢]، مع النِّساء، والصِّبيان، فقال أحدُهما لصاحبه ـ وهما شيخان كبيران ـ: لا أبا لك! ما تنتظر؟ فو الله ما بقي لواحدٍ منَّا من عمره إلا ظِمء[٣] حمارٍ، إنَّما نحن هامةُ اليوم، أو غد[٤]، أفلا نأخذ أسيافنا، ثمَّ نلحق برسول الله ﷺ، لعلَّ الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله ﷺ؟!

فأخذا أسيافهما، ثمَّ خرجا حتَّى دخلا في النَّاس ولم يُعلم بهما، فأمَّا ثابت بن وقش؛ فقتله المشركون، وأمَّا حُسَيل بن جابرٍ فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين، فقتلوه، ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي! فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم، وهو أرحم الرَّاحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يَديَهُ، فتصدَّق حذيفةُ بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً. [سبق تخريجه][٥].

وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشُّيوخ الكبار؛ الَّذين عذرهم الله في الجهاد، وكيف تركُوا الحصون، وخرجوا إلى ساحات الوَغى طلباً للشَّهادة، وحباً، وشوقاً للقاء الله تعالى، وفيه موقفٌ عظيم لحذيفة؛ حيث تصدَّق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة؛ لكونهم قتلوا والده خطأً، وفيه أيضاً: أنَّ المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنُّونه كافراً؛ فعلى الإمام دِيَتُه من بيت المال؛ لأنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يَدِيَ اليمان أبا حذيفة، فامتنع من أخذ الدِّية، وتصدَّق بها على المسلمين[٦].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٢) الآطام: الحصون.
(٣) ظمء حمار: أي: مقدار ما بين شربتي حمارٍ.
(٤) أي: نموت اليوم أو غداً.
(٥) سيرة ابن هشام (مقتل اليمان وابن وقش).
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).

ك ـ الأمور بخواتيمها:

إنَّ الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أُحدٍ ما يحقِّق هذه القاعدة المهمَّة في هذا الدِّين، فقد وقع حادثان يؤكِّدان هذا الأمر، وفيهما عظةٌ، وعبرةٌ لكلِّ مسلمٍ متَّعظٍ، ومعتبرٍ (١)، وهما:

١ ـ شأن الأُصَيْرِم رضي الله عنه:

واسمه عمرو بن ثابت بن وَقش، عُرض عليه الإسلام، فلم يُسلِم، وروى قصَّته أبو هريرة رضي الله عنه، قال: إنَّ الأُصَيْرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يومٍ ورسولُ الله ﷺ، وأصحابه بأُحدٍ، فقال: أينٍ سعدُ بن معاذ؟ فقيل: بأُحدٍ، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحدٍ. فسأل عن قومه، فقيل: بأُحدٍ، فبدا له الإسلام، فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمتَهُ، وركب فرسه، فعدا حتَّى دخل في عُرْض النَّاس، فلمَّا رآه المسلمون؛ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إنِّي قد آمنت. فقاتل حتَّى أثخنته الجراح، فبينما رجالٌ من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة؛ إذا هم به، فقالوا: والله إنَّ هذا للأُصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنَّـه مُنكرٌ لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحدَبٌ على قومك، أم رغبـةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبـةً في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأسلمت، ثمَّ أخذت سيفي فغدوتُ مع رسول الله ﷺ، ثمَّ قاتلتُ حتَّى أصابني ما أصابني، وإن متُّ فأموالي إلى محمَّد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: إنَّه من أهل الجنَّة. [ابن هشام (٣/ ٩٥)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٧)].

وقيل: مات، فدخل الجنة، وما صلَّى من صلاةٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «عَمِلَ يسيراً وأُجِرَ كثيراً» [البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠)].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة، ولم يُصلِّ قطُّ! فإذا لم يعرفه النَّاس؛ سألوه مَنْ هو؟ قال: هو أُصَيرِم بن عبد الأشهل (٢).

٢ ـ شأن مُخَيْرِيق:

لمَّا كانت غزوة أُحدٍ، وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين، جمع مُخَيْرِيقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشرَ يهود! والله! لقد علمتم أنَّ نصر محمدٍ عليكم لحقٌّ. قالوا: إنَّ اليوم يوم السَّبت، قال: لا سبت لكم!

---

(١) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس، ص ١١٧.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ١٠٠ ـ ١٠١)، وانظر: فتح الباري في شرح حديث رقم (٢٨٠٨).

فأخذ سيفه، وعُدَّتَهُ، وقال: إن أُصِبْتُ فمالي لمحمَّدٍ يَصْنَعُ فيه ما شاء. ثمَّ غدا إلى رسول الله ﷺ، فقاتل معه حتى قُتِل، فقال رسول الله ﷺ: «مُخَيْرِيق خيرُ يهود» [ابن سعد (١/ ٥٠١)، وأبو نعيم في الدلائل (ص ١٨)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٣١)، والواقدي في المغازي (١/ ٢٦٣)].

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذَّهبيُّ في التَّجريد، وابن حجر في الإصابة عن الواقديّ[١]: أنَّ مخيريق مات مسلماً. وذكر السُّهيليُّ في الرَّوض الأُنف: أنَّه مسلمٌ، وذلك حين قال معقِّباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «مُخَيْرِيق خير يهود» قال: ومُخَيْرِيق مسلمٌ، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النَّصارى، ولا خير اليهود؛ لأنَّ أفعل من كذا إذا أضيف، فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنَّه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنَّهم نُسبوا إلى يهوذا بن يعقوب، ثمَّ عربت الذَّال دالاً[٢]، وقد حقَّق هذه المسألة الدُّكتور عبد الله الشقاري في كتابه: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» وذهب إلى أنَّ مُخَيْرِيق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدُّق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حبِّ المال، والتَّكالب عليه[٣].

ل ـ إنما الأعمال بالنِّيَّات:

كان ممَّن قاتل مع المسلمين يوم أُحدٍ رجلٌ يدعى قُزْمَان، كان يُعرف بالشَّجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: «إنَّه لمن أهل النار»، فتأخَّر يوم أُحدٍ، فعيَّرته نساء بني ظَفَر، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يسوِّي الصفوف، حتَّى انتهى إلى الصفِّ الأوَّل، فكان أوَّل من رمى من المسلمين بسهمٍ، فجعل يرسل نبلاً كأنَّها الرِّماح، ويكتُّ كتيت الجمل، ثمَّ فعل بالسَّيف الأفاعيل، حتَّى قتل سبعةً، أو تسعةً، وأصابته جِرَاحَةٌ، فوقع، فناداه قتادة بن النُّعمان: يا أبا الغَيْداق! هنيئاً لك الشَّهادة! وجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله! لقد أبليتَ اليوم يا قُزْمَان، فأبشر! قال: بماذا؟ فوالله ما قَاتلتُ إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ. فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّه من أهل النَّار، إنَّ الله تعالى يؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر» [البخاري (٤٢٠٣)، ومسلم (١١١، ١١٢)][٤].

وفي هذا الخبر، بيانٌ لمكان النِّيَّة في الجهاد، وأنَّه مَنْ قاتل حميَّةً عن قومه، أو ليقال: شجاعٌ، ولم تكن أعماله لله تعالى؛ لا يقبل الله منه.

---

(١) انظر: تجريد أسماء الصَّحابة (٢/ ٧٠)، والإصابة (٣/ ٣٩٣).
(٢) انظر: الرَّوض الأُنف، للسُّهيليِّ (٤/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).
(٣) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٠٦).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٩٩)، وغزوة أحد دراسة دعويَّة، ص ١١٣.

خامساً: من دلائل النُّبوَّة:

١ ـ عين قتادة بن النُّعمان رضي الله عنه:

أُصيبت عينُ قتادة رضي الله عنه حتَّى سقطت على وَجْنَتِهِ، فردَّها رسولُ الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه، وأحَدَّهُمَا. [الحاكم (٣/ ٢٩٥)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢)، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٣)]. وأصبحت لا ترْمَد إذا رمدت الأخرى(١)، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ، فسأله: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنا ابْنُ الَّذي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَيْنُهُ ... فَرُدَّتْ بِكَفِّ المُصْطَفَى أَحْسَنَ الرَّدِّ
فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ أَمْرِهَا ... فَيَا حُسْنَهَا عَيْناً وَيَا حُسْنَ مَا رِدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ(٢) مِنْ لَبَنٍ ... شِيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

ثمَّ وصله، فأحسن جائزته(٣).

٢ ـ مقتل أُبيِّ بن خلف:

كان أُبَيُّ بن خلف يَلْقَى رسولَ الله ﷺ بمكَّة، فيقول: يا محمد! إنَّ عندي العَوْذ؛ فرساً أعْلِفُه كلَّ يوم فَرَقاً(٤) من ذُرَةٍ، أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلمَّا كان يوم أُحد، وأُسند رسولُ الله ﷺ في الشِّعْب؛ أدركه أُبَيُّ بن خلف، وهو يقول: أي محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله! أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوه»، فلمَّا دنا، تناول رسولُ الله ﷺ الحَرْبَةَ من الحارث بن الصِّمَّة، فلمَّا أخذها رسولُ الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايَرنا عنه تطايرَ الشَّعراء(٥) عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثمَّ استقبله، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ(٦) منها عن فرسه مراراً، فلمَّا رجع إلى قريش وقد خَدَشَهُ في عنقه خَدشاً غير كبيرٍ، فاحتقَنَ الدَّم، قال: قتلني والله محمدٌ! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك من بأسٍ، قال: إنَّه قد كان قال لي بمكَّة: أنا أقتلُك، فو الله! لو بَصَق عليَّ؛ لقتلني، فمات عدوُّ الله بسَرِفٍ(٧) وهم قافلون به إلى مكَّة. [الطبري في تاريخه (٢/ ٥١٨ ـ ٥١٩)، والواقدي في

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٨٨)، وسيرة ابن هشام (بلاء قتادة وحديث عينه).
(٢) القعب: قدحٌ ضخمٌ غليظٌ.
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥)، وأسد الغابة (٤/ ٣٨٩).
(٤) الفرق: مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مُدّاً.
(٥) الشَّعراء: ذباب له لدغ، واللَّدغ: عَضُّ الحيَّة، والعقرب، والذُّباب.
(٦) تدأدأ: تقلَّب عن فرسه، فجعل يتدحرج.
(٧) سرف: موضع على ستة أميال من مكَّة.

المغازي (١/ ٢٥١)، وابن سعد (٢/ ٤٦)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢١١ و٢٥٨)][١].

وفي هذا الخبر مَثَلٌ رفيعٌ على شجاعة رسول الله ﷺ، فقد كان أُبي بن خلف مُدَجَّجاً بالسِّلاح، ومتدرِّعاً بالحديد الواقي، ومع ذلك استطاع رسولُ الله ﷺ أن يطعنه بالرُّمح من فُرْجَةٍ صغيرة في عنقه بين الدِّرْع، والبيضة، وهذا يدلُّ على قدرة رسول الله ﷺ القتاليَّة، ودقَّته في إصابة الهدف. وفي هذا الخبر معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ، فقد أخبر أُبيّاً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله، وتمَّ ذلك، وفي الخبر عبرةٌ في إيمان المشركين بصدق النَّبيِّ ﷺ، وأنه إذا قال شيئاً؛ وقع، فقد كان أُبيُّ بن خلف على يقينٍ بأنَّه سيموت من تلك الطَّعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم، وعبادة أهوائهم[٢].

وقد خلَّد حسَّانُ بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلاَلَةَ عَنْ أَبِيْهِ أُبَيٌّ يَوْمَ بَارَزَهُ الرَّسُولُ
أتيتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رِمَّ عَظْمٍ وَتُوْعِدُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهُوْلُ[٣]

* * *

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٥/ ١٦٩). قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٩٤).

المبحث الثالث
أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسول ﷺ وأصحابه:

قال البَراءُ رضي الله عنه: وأشرفَ أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمَّدٌ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحَافَةَ؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابنُ الخطَّاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء القوم قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا فلم يملك عمرُ رضي الله عنه نفسَه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ الله! أبقى اللهُ عليك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ[1]! فقال النَّبيُّ ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلُّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى. ولا عُزَّى لكم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «اللهُ مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يومُ بيوم بدر، والحرب سِجَالٌ، وتجدون مُثلةً لم آمُرْ بها، ولم تَسُؤني. [البخاري (٤٠٤٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٦٨)][2] وفي روايةٍ: قال عمر: لا سواء! قتلانا في الجنَّة، وقتلاكم في النَّار». [أحمد (١/ ٤٦٣)[3]، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٠)].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله ﷺ، وأبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما دلالةٌ واضحةٌ على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنَّه في علمهم أنَّهم أهل الإسلام، وبهم قام صَرْحُهُ، وأركان دولته، وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون: أنَّه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السُّكوت عن إجابة أبي سفيان أوَّلاً؛ تصغيراً له، حتَّى إذا انتشى، وملأه الكِبْر؛ أخبروه بحقيقة الأمر، وردُّوا عليه بشجاعةٍ[4].

وفي هذا يقول ابن القيِّم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشركه؛ تعظيماً للتَّوحيد، وإعلاماً بعزَّة من عَبَدَهُ المسلمون، وقوَّة جانبه، وأنَّه لا يُغْلَبُ،

---

(١) أُعلُ هُبَلُ: ظهر دينُك.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٩٢).
(٣) انظر: السيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٣٩٢)، وسيرة ابن هشام (شماتة أبي سفيان بالمسلمين يوم أحد).
(٤) المصدران السابقان.

ونحن حزبُه ، وجندُه ، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمَّد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي: أنَّه نهاهم عن إجابته ، وقال: «لا تجيبوه»؛ لأنَّ كلْمَهم لم يكن برد في طلب القوم ، ونارُ غيظهم بعدُ متوقِّدةٌ ، فلمَّا قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُموهم؛ حمي عمر بن الخطَّاب ، واشتد غضبه ، وقال: كذبت يا عدوَّ الله! فكان في هذا الإعلام من الإذلال ، والشَّجاعة ، وعدم الجبن ، والتَّعرُّف إلى العدوِّ في تلك الحال ما يؤذنهم بقوَّة القوم ، وبسالتهم ، وأنَّهم لم يهِنوا ، ولم يَضْعُفُوا ، وأنَّه ، وقومَه جديرون بعدم الخوف منهم ، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم ، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثَّلاثة وهلةٌ بعد ظنِّه ، وظنِّ قومه: أنَّهم قد أُصيبوا من المصلحة ، وغيظ العدوِّ ، وحزبه ، والفتِّ في عَضُده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً ، واحداً ، فكان سؤاله عنهم ، ونعيُهم لقومه آخر سهام العدوِّ ، وكيده ، فصبر له النَّبيُّ ﷺ حتَّى استوفي كيده ، ثمَّ انتدب له عمر ، فردَّ بسهام كيده عليه ، وكان ترك الجواب عليه أحسن ، وذكره ثانياً أحسن ، وأيضاً: فإنَّ في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانةً له ، وتصغيراً لشأنه ، فلمَّا مَنَّتْهُ نفسهُ موتهم ، وظنَّ: أنهم قد قُتلوا ، وحصل له بذلك من الكبر ، والأشر[1] ما حصل ، كان في جوابه إهانةٌ له ، وتحقيرٌ ، وإذلالٌ ، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النَّبيِّ ﷺ: «لا تجيبوه» فإنَّه إنَّما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمَّد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينْهَ عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، وبكلِّ حالٍ ، فلا أحسنَ مِنْ ترك إجابته أولاً ، ولا أحسنَ مِنْ إجابته ثانياً[2].

ثانياً: تفقد الرَّسول ﷺ الشُّهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ، ذهب الرَّسول ﷺ ليتفقَّد أصحابه رضي الله عنهم ، فمرَّ على بعضهم ، ومنهم حمزةُ بن عبد المطَّلب ، ومُصْعَب بن عُمَيرٍ ، وحنظلةُ بن أبي عامرٍ ، وسعد بن الرَّبيع ، والأُصَيْرِمُ ، وبقيَّة الصحابة رضي الله عنهم ، فلمَّا أشرف عليهم رسول الله ﷺ قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنَّه ما من جَرِيح يُجْرَح في الله ، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ؛ اللَّونُ لونُ دمٍ ، والرِّيح ريح المسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن ، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» [سبق تخريجه].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاريِّ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يجمع بين الرَّجلين من قَتْلَى أُحدٍ في ثوبٍ واحد ، ثمَّ يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا أُشِيرَ له إلى أحدٍ؛ قدَّمه في اللَّحْدِ ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم

---

(١) أشرَ أشَراً: بطرَ واستكبر ، فهو أشِرٌ.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

يُغَسَّلُوا. [البخاري (٤٠٧٩)، وأبو داود (٣١٣٨)، والترمذي (١٠٣٦)، والنسائي (٤/ ٦٢)، وابن ماجه (١٥١٤)].

وأمر رسولُ الله ﷺ أن يدفنوا حيثُ صُرِعوا، وأُعيد مَنْ أُخذ؛ ليدفن داخل المدينة. [النسائي (٤/ ٧٩)].

ولمَّا رأى رسولُ الله ﷺ حمزةَ بن عبد المطلب وقد مُثِّل به؛ حزن حزناً شديداً، وبكى حتَّى نشغ[1] من البُكاء[2] وقال ﷺ: «لولا أن تحزن صفيَّة، ويكون سنةً من بعدي؛ لتركتُه حتَّى يكون في بطون السِّباع، وحواصل الطَّير، ولئن أظهرني الله على قريشٍ في موطن من المواطن؛ لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم» فلمَّا رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله ﷺ وغيظه على مَنْ فعل بعمِّه ما فعل، قالوا: والله! لئن أظفرنا الله عليهم يوماً من الدَّهر، لنمثلنَّ بهم مُثلةً لم يُمَثِّلْهَا أحدٌ من العرب. [أحمد (٣/ ١٢٨)، وأبو داود (٣١٣٦)، والترمذي (١٠١٦)، والحاكم (٣/ ١٩٦)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢)][3]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشيَّة، حيث قاموا بالتَّمثيل بقتلى المسلمين، فبقروا بطون كثيرٍ من القتلى، وجَدَعُوا أنوفَهم، وقطعوا الآذان، ومذاكير بعضهم[4]؛ ومع ذلك صَبَرَ رسولُ الله ﷺ وأصحابه، واستجابوا لتوجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ فعفا، وصبر، وكَفَّر عن يمينه، ونهى عن المُثْلَةِ. روى ابن إسحاق بسنده عن سَمُرة بن جُنْدب، قال: ما قام رسولُ الله ﷺ في مقامٍ قطُّ ففارقه، حتَّى يأمرنا بالصَّدقة، وينهانا عن المُثْلَة. [ابن هشام (٣/ ١٠٢)].

ثالثاً: دعاء الرَّسول ﷺ يوم أُحدٍ:

صلَّى رسولُ الله ﷺ بأصحابه الظُّهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه، وصلَّى وراءه المسلمون قعوداً، وتوجَّه النَّبيُّ ﷺ بعد الصَّلاة إلى الله بالدُّعاء، والثَّناء على ما نالهم من الجَهْد، والبلاء، فقال لأصحابه: «استووا حتَّى أُثني على ربِّي ـ عزَّ وجلَّ»، فصاروا خلفه صفوفاً، ثمَّ دعا بهذه الكلمات الدَّالة على عمق الإيمان[5]، فقال ﷺ: «اللَّهمَّ! لك الحمدُ كلُّه، اللَّهُمَّ لا قابضَ لِمَا بَسطتَ، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضلَلْتَ، ولا مُضِلَّ لمَنْ هديت، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيتَ، ولا مُقَرِّب لما باعدْتَ، ولا مُبْعِد لما قرَّبْتَ.

---

(١) النَّشغ: الشَّهيق حتَّى يكاد يبلغ به الغشي.
(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ، لمحمَّد بن عبد الوهاب، ص ٣٣١.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ١٠٦).
(٤) انظر: غزوة أحدٍ، لأبي فارس، ص ١٠٤.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢١٠).

اللَّهُمَّ! ابسطْ علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك. اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم المُقيم؛ الَّذي لا يَحُول، ولا يزول. اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم يوم الغلبة، والأمنَ يوم الخوف. اللَّهُمَّ! عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا، وشرِّ ما منعتنا. اللَّهُمَّ! حَبِّبْ إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق، والعصيان، واجعلنا من الرَّاشدين. اللَّهُمَّ توفَّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصَّالحين غيرَ خزايا، ولا نادمين، ولا مفتونين. اللَّهُمَّ! قاتل الكفرة الَّذين يكذِّبون رُسُلَكَ، ويصدُّون عن سبيلك، واجعلْ عليهم رجزكَ، وعذابك. اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الَّذين أوتوا الكتاب، إله الخَلْق» [أحمد (٣/ ٤٢٤)، والبزار (١٨٠٠)، والطبراني في المعجم (٤٥٤٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢١ ـ ١٢٢)] ثمَّ ركب فرسه، ورجع إلى المدينة[1].

وهذا أمرٌ عظيم، شرعه رسول الله ﷺ لأمَّته، لكي يطلبوا النَّصر، والتَّوفيق من ربِّ العالمين، وبيَّن لأمَّته: أنَّ الدُّعاء مطلوبٌ في ساعة النَّصر، والفتح، وفي ساعة الهزيمة؛ لأنَّ الدُّعاء مُخُّ العبادة، كما أنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلِّقة بخالقها، فينزل عليها السَّكينة، والثَّبات، والاطمئنان، ويمدُّها بقوَّةٍ رُوحيَّةٍ عظيمةٍ، فترتفع المعنويات نحو المعالي، وتتطلَّع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة، يتَّخذ النَّبيُّ ﷺ أُهْبَتَهُ، وينظِّم المسلمين صفوفاً، لكي يُثْنِيَ على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ إنَّه لموقفٌ عظيمٌ، يُجَلِّي إيماناً عميقاً، ويكشف عن العبودية المطلقة لربِّ العالمين الفعَّال لما يريد، فهو القابض، والباسط، والمعطي، والمانع، لا رادَّ، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه.

إنَّ هذا الموقف من أعظم مواقف العبوديَّة الَّتي تسمو بالعابدين، وتجلُّ المعبود كأعظم ما يكون الإجلال، والإكبار، وأبرز ما يكون الحَمْدُ والثَّناء[2].

رابعاً: معرفة وِجْهَةِ العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتِّجاه العدوِّ، فقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ[3]، وامتطوا الإبل[4] [الواقدي في المغازي (١/ ٢٩٨)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٢٧)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٢)]؛ فإنَّهم يريدون

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٩٤).
(٢) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، د. محمد فيض الله، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٣) جنَّبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.
(٤) امتطى الدَّابة: ركبها.

مكَّة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، والَّذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثمَّ لأناجزنَّهم». قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظرُ ماذا يصنعون ، فجَنَّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكَّة[١] ، فرجع عليٌّ رضي الله عنه ، وأخبر رسول الله ﷺ بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدَّة دروسٍ ، وعبرٍ؛ منها: يقظة الرَّسول ﷺ ، ومراقبتُه الدَّقيقة لتحرُّكات العدوِّ ، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور ، وظهور قوَّته المعنويَّة العالية؛ ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة ، وفيه ثقة النَّبيِّ ﷺ بعليٍّ رضي الله عنه ، ومعرفته بمعادن الرِّجال ، وفيه شجاعة عليٍّ رضي الله عنه؛ لأنَّ هذا الجيش لو أبصره ما تورَّع عن محاولة قتله[٢].

ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت؛ تفقَّد خلالها الجرحى، والشُّهداء ، وأمر بدفنهم ، ودعا ربَّه ، وأثنى عليه سبحانه ، وأرسل عليّاً ليتتبَّع خبر القوم؛ كلُّ ذلك من أجل أن يحافظ على النَّصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أُحُدٍ ، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك ، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنَّصر أسباباً ، وللهزيمة أسباباً ، فمن أخذ بأسباب النَّصر ، وصدق التَّوكُّل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة التوكُّل؛ نال النَّصر بإذن الله ـ عزَّ وجل ـ ، كما قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الفتح: ٢٣].

ويتجلَّى فقه النَّبيِّ ﷺ في ممارسة سنَّة الأخذ بالأسباب ، في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الرِّوايات: أنَّ النَّبيَّ ﷺ تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه، حتَّى بعد رجوعهم إلى مكَّة ، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمَّد ، وجنده ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لمَّا انصرف أبو سفيان والمشركون من أُحدٍ ، وبلغوا الرَّوْحاء[٣] ، قال أبو سفيان: لا محمَّداً قتلتُم ، ولا الكواعب أردفتُم ، شرٌّ ما صنعتم! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ [الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٣٢) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢١)]. وتفيد هذه الرِّواية خبر استطلاع الرَّسول ﷺ أعداءه حتَّى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئنَّ على عدم مباغتتهم له.

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤١) ، وسيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في آثار القوم).
(٢) انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) الرَّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلو متراً ، في طريق مكَّة.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة ، خرج بمن حضره يوم أُحُدٍ من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد .

قال ابن إسحاق : كان يوم أُحُد يوم السَّبت للنِّصف مِنْ شوَّال ، فلمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلةً مضت من شوَّال ؛ أذَّن مؤذنُ رسولِ الله ﷺ في النَّاس بطلب العدوِّ ، وأذَّن مؤذِّنه ألاَّ يخرجنَّ معنا أحَدٌ إلا مَنْ حضر يومنا بالأمس ، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه ، فأذن له ، وإنَّما خرج مُرْهِباً للعدوِّ ، وليظنُّوا أنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوِّهم . [ابن هشام (٣/ ١٠٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣١٤)][١] . وقد استجاب أصحاب النَّبيِّ ﷺ لنداء الجهاد ، حتَّى الَّذين أُصيبوا بالجروح ؛ فهذا رجلٌ من بني عبد الأشهل يقول : شهدت أُحُداً أنا ، وأخٌ لي ، فرجعنا جريحَين ، فلما أذَّن مؤذِّن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدوِّ ؛ قلت لأخي ـ أو قال لي ـ : أتفوتُنا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابةٍ نَرْكَبُها ، وما منا إلا جريحٌ ثقيلٌ ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسرَ جُرْحاً منه ، فكان إذا غُلب ؛ حملته عُقبةً ومشى عُقبةً (فترةً) ، حتَّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[٢] .

وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، واقترب بجنوده من جيش المشركين ، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدَّى المشركين ، فلم يتشجَّعوا على لقائه ، ونزاله ، وكان رسول الله ﷺ قد أمرَ بإشعال النِّيران ، فكانوا يشعلون في وقتٍ واحد خمسمئة نار[٣] .

وأقبل مَعبدُ بن أبي معبد الخزاعيُّ إلى رسول الله ﷺ فأسلم ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان ، فيخذِّله ، فلحقه بالرَّوحاء ـ ولم يعلم بإسلامه ـ فقال : ما وراءك يا معبد؟! فقال : محمَّدٌ وأصحابه ، فقد تحرَّقوا[٤] عليكم ، وخرجوا في جمعٍ لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم . فقال : ما تقول؟! فقال : ما أرى أن ترتحل حتَّى يطلع أوَّل الجيش من وراء هذه الأكمة[٥] ، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم . قال معبد : فإنِّي أنهاك عن ذلك ، ووالله ! لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيه أبياتاً من شعرٍ :

قال : وما قلتَ؟ قال : قلتُ :

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالجُرْدِ[٦] الأَبَابِيلِ

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٥٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٤٤ ، نقلاً عن الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/ ٤٣) .
(٤) يتحرَّقون : يلتهبون من الغيظ .
(٥) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٤٥) .
(٦) الجُرد : جمع أجرد ، وهو الضرسيُّ ، قصير الشَّعر ، والأبابيل : الفِرَق الكثيرة .

تَـرْدِي[١] بـأُسْـدٍ كِـرامٍ لاَ تَنَـابِلَـةٍ[٢] عِنْـدَ اللِّقَـاءِ وَلاَ مِيْـلٍ[٣] مَعَـازِيـلِ[٤]
فَظَلْـتُ أَعْـدُو أَظُـنُّ الأَرْضَ مَـائِلَـةً لمَّـا سَمَـوْا بِـرَئِيْـسٍ غَيْـرِ مَخْـذُوْلِ
فَقُلْـتُ: وَيْـلَ ابْـنِ حَـرْبٍ مِـنْ لِقَـائِكُـمُ إِذَا تَغَطْمَطَـتِ[٥] البَطْحَـاءُ بِـالجِيْـلِ
إِنِّـي نَـذِيْـرٌ لأَهْـلِ البَسْـلِ ضَـاحِيَـةً لِكُـلِّ ذِيْ إِرْبَـةٍ مِنْهُـمْ وَمَعْقُـوْلِ
مِـنْ جَيْـشِ أَحْمَـدَ لاَ وَخْـشٍ[٦] تَنَـابِلَـةٌ وَلَيْـسَ يُـوصَـفُ مَـا أَنْـذَرْتُ بِـالقِيْـلِ[٧]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، وحاول أبو سفيان أن يغطِّي انسحابه هذا بشنِّ حربٍ نفسيَّة على المسلمين ، لعلَّه يُرهبهم ، فأرسل مع رَكْبِ عبد القيس ـ وكانوا يريدون المدينة للْمِيْرَةِ[٨] ـ [البيهقي في الدلائل (٣/ ٣١٥ ـ ٣١٧) ، وابن هشام (٣/ ١٠٨ ـ ١١٠)] رسالةً إلى رسول الله ﷺ ، مفادها: أنَّ أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السَّير إليه ، وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود ، وواعد أبو سفيان الرَّكبَ أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عُكَاظ ، ومرَّ الرَّكبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالَّذي قاله أبو سفيان ، فقال هو والمسلمون: حسبنا اللهُ ، ونِعْمَ الوكيلُ[٩] .

واستمرَّ المسلمون في معسكرهم ، وآثرت قريش السَّلامة ، والأوبةَ[١٠] ، فرجعوا إلى مكَّة ، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروحٍ قويَّةٍ متوثِّبةٍ ، غسلت عَارَ الهزيمة ، ومسحت مغبَّةَ[١١] الفشل ، فدخلوها أعزةً رفيعي الجانب ، عبثوا بانتصار المشركين ، وهزُّوا أعصابهم ، وأحبطوا شماتة المنافقين ، واليهود في المدينة ، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة ، وسجَّل ظواهرها[١٢] بقوله تعالى[١٣] : ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ

---

(١) تردي: تُسرع .
(٢) تنابلة: جمع تنبال ، وهو القصير .
(٣) الميل: جمع أميل ، وهو الجبان .
(٤) معازيل: جمع معزال ، وهو من لا رُمح معه .
(٥) تغطمطت: اضطربت ، وثارت .
(٦) وخش: رديء .
(٧) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٥١) ، وسيرة ابن هشام (٣/ ٤٦) .
(٨) الميرةُ: الطَّعام يجمع للسَّفر ، ونحوه .
(٩) تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، ص ٢٢٦ .
(١٠) آب أوبةً: رجع .
(١١) المَغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه وآخره .
(١٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٤٢ .
(١٣) انظر تفسير هذه الآيات في ابن كثيرٍ .

أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥] ووقع في أسر النَّبيِّ ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة ، أبو عزَّة الجُمَحِيُّ الشَّاعر ، فقُتِل صبراً؛ لأنَّه أخلف وعده للرَّسول ﷺ بألاَّ يقاتل ضدَّه عندما منَّ عليه ببدرٍ ، وأطلقه ، فعاد فقاتل في أُحدٍ ، وقد حاول أبو عزَّة أن يتخلَّص من القتل ، وقال: يا رسول الله! أَقِلْني[(١)] ، فقال رسول الله ﷺ : «لا والله! لا تمسح عارضيك[(٢)] بمكَّة بعدها ، وتقول: خدعتُ محمَّداً مرَّتين ، اضرب عنقه يا زُبيرُ!» [ابن سعد (٢/ ٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى[(٣)] (٩/ ٦٥) ، وفي دلائل النبوة (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١)]. فضرب عُنقَه ، فقال النَّبيُّ ﷺ حينئذٍ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين» [البخاري (٦١٣٣) ، ومسلم (٢٩٩٨)][(٤)] ، فصار هذا الحديث مثلاً ، ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السِّياسة الشَّرعية؛ لأنَّ هذا الشَّاعر من المفسدين في الأرض ، الدَّاعين إلى الفتنة ، ولأنَّ في المنِّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤْسَرْ من المشركين سوى أبي عزَّةَ الجُمَحيِّ[(٥)].

وأمَّا عدد القتلى من المسلمين في أُحدٍ؛ فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين ، ويؤيِّد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] أنَّها نزلت تسليةً للمؤمنين عمَّن أُصيب منهم يوم أُحدٍ. قال ابن عطيَّة ـ رحمه الله ـ: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً ، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين ، وأسروا سبعين[(٦)].

أمَّا عدد الَّذين قُتلوا يوم أُحدٍ من المشركين ، فكان اثنين وعشرين قتيلاً[(٧)].

كان خروج رسول الله ﷺ لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد ، يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد المهمَّة؛ منها:

---

(١) أقال اللهُ عَثْرَتَه: صفَح عنه وتجاوز.
(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (٢/ ٧٤٢).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/ ١١٦).
(٤) انظر شرحه وسببه في الفتح.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٥٣).
(٦) المحرر الوجيز ، لابن عطية (٣/ ٤١١).
(٧) مرويات غزوة أحد ، للباكري ، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

١ ـ ألاَّ يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الَّذين خرجوا يوم أُحدٍ هو الشُّعور بالهزيمة.

٢ ـ إعلامهم: أنَّ لهم الكرَّة على أعدائهم متَى نفضوا عنهم الضَّعف، والفشل، واستجابوا لدعوة الله، ورسوله ﷺ.

٣ ـ تجرئة الصَّحابة على قتال أعدائهم.

٤ ـ إعلامُهم: أنَّ ما أصابهم في ذلك اليوم، إنَّما هو منحةٌ، وابتلاءٌ اقتضتها إرادة الله، وحكمتُه، وأنَّهم أقوياء، وأنَّ خصومهم الغالبين في الظَّاهر ضعفاء(١).

كما أنَّ في خروج النَّبيِّ ﷺ إلى حمراء الأسد إشارةً نبويَّةً إلى أهمِّيَّة استعمال الحرب النَّفسيَّة للتأثير على معنويات الخصوم؛ حيث خرج ﷺ بجنوده إلى حمراء الأسد، ومكث فيها ثلاثة أيَّامٍ، وأمر بإيقاد النِّيران، فكانت تُشاهدُ من مكانٍ بعيدٍ، وملأت الأرجاء بأنوارها، حتَّى خُيِّل لقريش: أنَّ جيش المسلمين ذو عددٍ كبير لا طاقة لهم به، فانصرفوا؛ وقد ملأ الرُّعب أفئدتهم(٢).

قال ابن سعد: «ومضى رسولُ الله ﷺ بأصحابه حتَّى عسكروا بحمراء الأسد، وكان المسلمون يوقِدون تلك اللَّيالي خمسمئة نارٍ حتَّى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم، نيرانهم في كلِّ وجهٍ؛ فكبَتَ اللهُ تعالى بذلك عدوَّهم»(٣).

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحدٍ:

كانت غزوة أحدٍ أوَّل معركة في الإسلام تشارك فيها نساءُ المسلمين، وقد ظهرت بطولاتُ النِّساء، وصدق إيمانهنَّ في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى، ويداوين الجرحى، ومنهنَّ مَنْ قامت بردِّ ضربات المشركين المُوَجَّهة للرَّسول ﷺ، وممَّن شاركن في غزوة أحدٍ: أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وأمُّ عمارة، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ الأسديَّة، وأمُّ سَلِيط، وأمُّ سُلَيم، ونسوةٌ من الأنصار. [مسلم (١٨٠٩ و١٨١٠ و١٨١١)].

قال ثعلبة بن أبي مالكٍ رضي الله عنه: إنَّ عمر بن الخطاب قَسَمَ مُرُوطاً بين نساءٍ من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرطٌ جيِّدٌ، فقال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا بنت رسول الله الَّتي عندك ـ يريدون أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ ـ فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحقُّ به. وأمُّ سليط من

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥١٩).
(٢) انظر: غزوة أُحدٍ، لأبي فارس، ص ٥١.
(٣) انظر: الطَّبقات، لابن سعدٍ (٢/ ٤٩).

نساء الأنصار مِمَّن بايع رسولَ الله ﷺ . قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ[١] لنا القِرَبَ يوم أُحدٍ. [البخاري (٢٨٨١ ، ٤٠٧١)].

أ ـ سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لمَّا كان يوم أُحدٍ ، انهزمَ النَّاسُ عن النَّبيِّ ﷺ ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكرٍ ، وأمَّ سُلَيم ، وإنَّهما لمشمِّرتان ، أرى خَدَمَ سُوقِهِنَّ تَنْقُزَانِ[٢] القِرَبَ ـ وقال غيره: تنقلان القربَ ـ على متونهما ، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أفواه القوم ، ثمَّ ترجعان ، فتملآنها ، ثمَّ تجيئان ، فتُفرغَانه في أفواه القوم» [البخاري (٢٨٨٠)].

وقال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه: «رأيتُ أمَّ سُلَيم بنت ملحان ، وعائشة ، على ظهورهما القِرَبُ ، يحملانها يوم أُحدٍ ، وكانت حَمْنَةُ بنت جحشٍ تسقي العطشى ، وتداوي الجرحى ، وكانت أمُّ أيمن تسقي الجرحى».

ب ـ مداواة الجرحى ، ومواساة المصابين:

عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يغزو بأمِّ سُلَيم ، ونسوةٍ من الأنصار معه؛ إذا غزا ، فيسقين الماءَ ، ويداوين الجرحى. [مسلم (١٨١٠)].

وأخرج عبد الرَّزاق عن الزُّهريِّ: كان النِّساء يشهدن مع النَّبيِّ ﷺ المشاهد ، ويسقين المقاتلة ، ويداوين الجرحى[٣]. وعن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذٍ ، قالت: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ نسقي القوم، ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٢)]. وفي روايةٍ: كنَّا نغزو مع النَّبيِّ ﷺ ، فنسقي القوم ، ونخدمُهم ، ونردُّ الجرحى ، والقتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٣)].

وعن أبي حازمٍ: أنَّه سمع سهل بن سعدٍ رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ ، فقال: أما والله! إنِّي لأعرفُ مَنْ كان يغسلُ جُرحَ رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دُوويَ. قال: كانت فاطمةُ رضي الله عنها بنتُ رسول الله ﷺ تغسلُه ، وعليٌّ يسكب الماء بالمجنِّ ، فلمَّا رأت فاطمة: أنَّ الماء لا يزيدُ الدَّم إلا كثرةً؛ أخذت قطعةً من حصيرٍ ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدَّم. [البخاري (٤٠٧٥) ، ومسلم (١٧٩٠)].

ج ـ الدِّفاع عن الإسلام ورسوله ﷺ بالسَّيف:

لم تقاتل المشركين يوم أُحدٍ إلا أمُّ عُمارة نُسَيبة المازنيَّة رضي الله عنها ، وهذا ضَمْرَةُ بن

---

(١) تزفِرُ: تحمل القرب مملوءةً بالماء.

(٢) تَنْقُزَان: أي: تحملان ، وتقفزان بها وثباً.

(٣) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٢٨٨٠).

سعيدٍ يحدث عن جدَّته ، وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء ، قالت: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: لَمُقَامُ نُسَيْبة بنتِ كعبٍ اليوم خيرٌ من مُقام فلانٍ ، وفلان ، وكان يراها تُقاتل يومئذٍ أشدَّ القتال ، وإنَّها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها ، حتَّى جُرِحَتْ ثلاثة عشرَ جرحاً ، فلمَّا حضرتها الوفاة كنت فيمن غسَّلها ، فعددت جراحها جُرْحاً جُرْحاً ، فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إنِّي لأنظرُ إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنةً ـ ثم نَادَى منادي النَّبيِّ ﷺ: إلى حمراء الأسد! فشدَّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدَّم ، ولقد مكثنا ليلنا نكمِّد الجراح حتَّى أصبحنا ، فلمَّا رجع رسول الله ﷺ من الحمراء ، ما وصل إلى بيته حتَّى أرسل إليها عبدَ الله بن كعبٍ المازني[١] ـ أخا أمِّ عُمارة ـ يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فسُرَّ النَّبيُّ ﷺ بذلك[٢].

وقد علَّق الأستاذ حسين الباكريُّ على مشاركة نُسَيبة بنت كعب في القتال ، فقال: «وخروج المرأة للقتال مع الرِّجال لم يثبت في ذلك منه شيءٌ غيرُ قصَّة نُسَيبة؛ وقتال نسيبة إنَّما كان اضطراريّـاً؛ حين رأت: أنَّ رسول الله ﷺ أصبح في خطرٍ حين انكشف عنه النَّاس ، فأمُّ عُمارة إذاً كانت في موقفٍ أصبح حَمْلُ السِّلاح فيه واجباً على مَنْ يقدر على حمله؛ رجلاً كان ، أو امرأةً»[٣].

وعلَّق الدُّكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدَّالة على مشاركة النِّساء في أحدٍ بقوله: «وهذه الآثار تدلُّ على جواز الانتفاع بالنِّساء عند الضَّرورة ، لمداوة الجرحى ، وخدمتهم؛ إذا أُمِنَتْ فتنتهُنَّ مع لزومهنَّ السِّتر ، والصِّيانة ، ولهنَّ أن يُدافعْنَ عن أنفسهن بالقتال؛ إذا تعرَّض لهنَّ الأعداء ، مع أنَّ الجهاد فرضٌ على الرِّجال وحدهم ، إلا إذا داهم العدوُّ ديار المسلمين ، فيجب قتاله من الجميع رجالاً ، ونساء»[٤].

وأمَّا الأستاذ محمَّد أحمد باشميل؛ فقد قال: «وقد كانت معركة أُحدٍ أوَّل معركةٍ في الإسلام قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين ، ومن الثَّابت: أنَّ امرأةً واحدةً فقط اشتركت في هذه المعركة ، وهي تدافع عن رسول الله ﷺ ، كما أنَّه من الثَّابت أيضاً: أنَّ المرأة الَّتي اشتركت في معركة أحدٍ لم تخرج بقصد القتال ، فهي لم تكن مجنَّدةً فيها كالرِّجال؛ وإنَّما خرجت لتنظر ما يصنع النَّاس لتقوم بأيَّة مساعدةٍ يمكنها القيام بها للمسلمين؛ كإغاثة الجرحى بالماء ، وما شابه ذلك ، يضاف إلى هذا أنَّ هذه المرأة الَّتي خاضت معركة أُحدٍ ، هي امرأةٌ قد تخطَّت سِنَّ الشَّباب ، كما أنَّها لم تخرج إلى المعركة إلاَّ مع زوجها ، وابنيها ، الَّذين كانوا من الجند

---

(١) انظر: سير أعلام النُّبلاء ، للذَّهبي (٢/ ٢٧٨).
(٢) المغازي ، للواقديِّ (١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).
(٣) انظر: مرويات غزوة أحدٍ ، ص ٢٥٤.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٩١).

الَّذين قاتلوا في المعركة ، يضاف إلى هذا الرَّصيد الهائل؛ الَّذي لديها من المناعة الخُلقيَّة والتَّربية الدِّينيَّة ، فلا يقاس على هذه الصَّحابية الجليلة ، مجنَّدات هذا الزَّمان ، اللَّائي يرتدين لباس الميدان ، وعنصر الإغراء ، والفتنة هو أهمُّ عنصرٍ يتميَّزن به ، ويحرصن على إظهاره للرِّجال؛ فأين الثَّرَىٰ مِنَ الثُّرَيَّا؟!

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحدٌ من رجال هذا الزَّمان ، من ناحية الشَّهامة ، والاستقامة ، والعفَّة والرُّجولة ، فكلُّ المحاربين الَّذين اشتركت معهم المرأة في معركة أُحدٍ ، كانوا صفوة الأمَّة الإسلاميَّة ، ورمز نبلها ، وشهامتها ، وعنوان رجولتها ، واستقامتها ، فلا يصحُّ مطلقاً جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أُحدٍ قاعدةً تقاس عليها (من النَّاحية الشَّرعيَّة) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر ، لتقاتل بجانب الرَّجل (كعنصر أساسٍ من عناصر الجيش) فالقياس في هذه الحالة قياسٌ مع الفارق ، وهو قياسٌ باطلٌ قطعاً»(١).

سابعاً: دروس في الصَّبر تقدِّمها صحابيَّاتٌ للأمَّة:

أ ـ صفية بنت عبد المطَّلب رضي الله عنها:

لمَّا استُشهد أخوها حمزةُ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه في أُحدٍ ، وجاءت لتنظر إليه؛ وقد مَثَّلَ به المشركون ، فجدعوا أنفه ، وبقروا بطنه ، وقطعوا أذنيه ، ومذاكيره ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزُّبير بن العوَّام: «الْقَها ، فأَرْجعها؛ لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أُمَّه! إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني: أنَّه قد مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ ، ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلمَّا جاء الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، قال: «خَلِّ سبيلها» فأتته ، فنظرت إليه ، فصلَّت عليه ، واسترجعت(٢) ، واستغفرت له. [سبق تخريجه](٣).

ب ـ حَمْنَةُ بنت جحش رضي الله عنها:

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ، ركب فرسه ، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة ، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحشٍ ، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنةُ! احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: أخاك عبدَ الله بن جحشٍ ، فاسترجعت ، واستغفرت له ، ثمَّ قال لها رسولُ الله ﷺ: احتسبي! فقالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: خالك حمزة بن عبد المطَّلب ، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة. ثمَّ قال لها: احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: زوجُك مصعب بن عُمَيرٍ ، قالت: واحزناه!

(١) انظر: غزوة أحدٍ ، لمحمَّد باشميل ، ص ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) استرْجَعَتْ: أي قالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٠٨).

وصاحت ، ووَلْوَلَتْ. فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ زوج المرأة منها لبمكانٍ»؛ لمَا رأى من تَثَبُّتِها عند أخيها ، وخالها ، وصياحها على زوجها. [ابن ماجه (١٥٩٠)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٣٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٠١)، وابن هشام (٣/ ١٠٤)]. ثمَّ قال لها: ولِمَ قلتِ هذا؟ قالت: يا رسول الله! ذكرت يُتْمَ بنيه ، فراعني ، فدعا لها رسول الله ﷺ ، ولوَلَدِها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخَلَفِ[١] ، فتزوَّجت طلحةَ بن عبيد الله ، فولدت منه محمَّداً ، وعمران[٢] ، وكان محمَّد بن طلحة أوصل النَّاس لولدها[٣].

ج ـ المرأة الدِّينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه: مرَّ رسول الله ﷺ بامرأةٍ من بني دينار ، وقد أُصيب زوجُها ، وأخوها ، وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحدٍ ، فلمَّا نُعُوا لها؛ قالت: فما فعل رسولُ الله ﷺ ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان! هو بحمد الله كما تحبِّين ، قالت: أَرُونيه حتَّى أنظرَ إليه ، فأُشير لها إليه ، حتَّى إذا رأته؛ قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدَك جَلَلٌ[٤]. [الواقدي في المغازي (١/ ٢٩٢)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٠٢)، وابن هشام (٣/ ١٠٥)]. ـ تريد: صغيرةٌ ـ. وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين!

د ـ أمُّ سعد بن مُعاذٍ ، وهي كبشةُ بنت عبيد الخزرجيَّة رضي الله عنها:

خرجت أمُّ سعد بن معاذ تعدو نحو رسولِ الله ﷺ ، ورسولُ الله ﷺ واقفٌ على فرسه ، وسعد بن معاذ آخذٌ بعنَانِ[٥] فرسه ، فقال سعد: يا رسول الله! أمِّي! فقال رسول الله ﷺ : مرحباً بها ، فدنت حتَّى تأمَّلت رسولَ الله ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً؛ فقد أشوت[٦] المصيبة ، فعزَّاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذٍ ابنها ، ثمَّ قال: يا أمَّ سعد! أبشري ، وبشِّري أهليهم: أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟! ثمَّ قالت: ادعُ يا رسولَ الله! لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله ﷺ : «اللَّهُمَّ أذهب حُزن قلوبهم ، واجْبُرْ مصيبتهم ، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا». [مغازي الواقدي (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦)].

* * *

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤٧) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٣٦.
(٢) انظر: الإصابة (٨/ ٨٨) ، رقم (١١٠٦٠).
(٣) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٠٩.
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤٨) ، وسيرة ابن هشام (شأن المرأة الدِّينارية).
(٥) العِنَانُ: سَيرُ اللجام الذي تُمْسَكُ به الدابةُ.
(٦) أشوَت: صارت صغيرةً خفيفة.

المبحث الرَّابع
بعض الدُّروس ، والعبر ، والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أُحدٍ وصفاً دقيقاً ، وكان التَّصويرُ القرآنيُّ للغزوة أقوى حيويَّة ، ووضوحاً من الرِّوايات الَّتي جاءت في الغزوة ، كما أنَّ أسلوب الآيات المطمئنة ، المبشِّرة ، واللاَّئمة ، والمسكِّنة ، والواعظة كان رائعاً ، وقويّاً ، فبيَّن القرآن الكريم نفوس جيش النَّبيِّ ﷺ ، وهذا تَمَيُّزٌ لحديث القرآن عن الغزوة ، ينفرد به عمَّا جاء في كتب السِّيرة ، فسلَّط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب؛ الَّتي ما كان المسلمون أنفسُهم يعرفون وجودها في قلوبهم ، والنَّاظر عموماً في منهج القرآن في التَّعقيب على غزوة أُحدٍ يجد الدِّقَّة ، والعمق ، والشُّمول. يقول سيِّد قطب: «الدِّقَّة في تناول كلِّ موقفٍ ، وكلِّ حركةٍ ، وكلِّ خالجةٍ ، والعمق في التَّدسُّس إلى أغوار النَّفس ، ومشاعرها الدَّفينة ، والشُّمول لجوانب النَّفس ، وجوانب الحادث.

كما نجد الحيويَّة في التَّصوير ، والإيقاع ، والإيحاء ، بحيث تتماوجُ المشاعر مع التَّعبير ، والتَّصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً ، ولا تملك أن تقف جامدةً أمام الوصف والتَّعقيب؛ فهو وصفٌ حيٌّ ، يستحضر المشاهِدَ كما لو كانت تتحرَّك ، ويشيع حولها النَّشاط المؤثِّر ، والإشعاع النَّافذ ، والإيحاء المُثِير»(١).

إنَّ حركة النَّبيِّ ﷺ في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة ، والتَّمكين لدين الله ، يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم، الَّتي سيطرت على مشاعره، وأفكاره، وأحاسيسه ﷺ ، ولذلك نجد أنَّ النَّبيَّ ﷺ في علاجه لأثر الهزيمة في أُحدٍ تابعٌ للمنهج القرآنيِّ الكريم ، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النُّقاط المهمَّة في هذا المنهج :

أولاً : تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني :

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٣٢).

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩].

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يجد: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك المسلمين لوساوس الشَّيطان في محنة غزوة أحدٍ، بل خاطبهم بهذه الآيات؛ الَّتي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقوِّيهم، ويثبِّتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم، ويخفِّف عنهم آلامهم(١).

قال القرطبيُّ: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين(٢).

ففي الآيات السَّابقة دعوةٌ للتأمُّل في مصير الأمم السَّابقة؛ الَّتي كذَّبت دعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنَّته على حسب عادته، وهي الإهلاك، والدَّمار؛ بسبب كفرهم، وظلمهم، وفسوقهم عن أمره.

وجاء التَّعبير بلفظ: «كيف» الدَّال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذِّبين؛ الَّتي تدعو إلى التعجُّب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتِّعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأنَّ هؤلاء المكذِّبين مكَّن الله لهم في الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنَّهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طُغيانهم(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ دعاهم إلى ترك الضَّعف، ومحاربة الجبن، والتَّخلُّص من الوهن، وعدم الحزن، لأنَّهم هم الأعْلَوْن بسبب إيمانهم.

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحدٍ:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣].

بيَّن لهم: أنَّ الجروح، والقتلى يجب ألاَّ تؤثِّر في جدِّهم، واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك؛ فقد أصاب عدوَّهم مِثْله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم،

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢١٦).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩١).

وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب ، فبِأنْ لا يلحقُكم الفتورُ مع حسن العاقبة ، والتمسُّك بالحقِّ أولى[١] .

وقال صاحب الكشَّاف : والمعنى : إن نالوا منكم يوم أُحدٍ ؛ فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدرٍ ، ثمَّ لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم ، ولم يثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى ألاَّ تضعفوا[٢] .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : إنَّه كان يوم أُحد بيوم بدرٍ ، قُتل المؤمنون يوم أُحدٍ ، واتَّخذ اللهُ منهم شهداءَ ، وغلب رسولُ الله ﷺ يوم بدرٍ المشركين ، فجعل الدَّولة عليهم[٣] .

وجواب الشَّرط في قوله تعالى : ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ . . .﴾ إلخ محذوفٌ ، والتَّقدير : إن يمسكم قرح ؛ فاصبروا عليه ، واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم ، فقد مسَّهم قرحٌ مثلُه قبل ذلك .

وعبَّر عمَّا أصاب المسلمين في أُحدٍ بصيغة المضارع «يمسسكم» لقربه من زمن الحال، وعمَّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبُعْدِهِ ؛ لأنَّ ما أصابهم كان في غزوة بدرٍ .

وقوله : ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ لسنَّة الله الجارية في كونه ، وتسليةٌ للمؤمنين عمَّا أصابهم في أُحدٍ[٤] .

وقوله : ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ : قال القرطبيُّ : معناه : وإنَّما كانت هذه المداولة ؛ ليَرى المؤمن مِنَ المنافق ، فيميزَ بعضَهم من بعضٍ[٥] .

وقوله : ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ : قال ابن كثير : يعني : يُقْتَلُون في سبيله ، ويَبْذلون مُهَجَهُمْ في مرضاته[٦] .

ثمَّ ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

ثمَّ ذكر ـ سبحانه ـ حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحدٍ ، فقال : ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ، وقوله : ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ من المحص ، بمعنى التَّنقية والتَّخليص ، أو من التَّمحيص ، بمعنى الابتلاء ، والاختبار .

وقوله : ﴿وَيَمۡحَقَ﴾ من المحق ، وهو محو الشَّيء ، والذَّهاب به . قال الطَّبريُّ : والمعنى :

---

(١) انظر : تفسير الرَّازي (٩/ ١٤) .
(٢) انظر : تفسير الكشَّاف (١/ ٤٦٥) .
(٣) انظر : تفسير الرَّازي (٤/ ١٠٥) .
(٤) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩٥) .
(٥) انظر : تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢١٨) .
(٦) انظر : تفسير ابن كثيرٍ (١/ ٤٠٨) .

وليختبر الله الَّذين صدقوا الله ، ورسوله ، فيبتليهم بإزالة المشركين منهم ، حتَّى يتبيَّن المؤمن منهم المخلص الصَّحيح الإيمان من المنافق(١) .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي : يكفِّر عنهم من ذنوبهم ـ إن كانت لهم ذنوب ـ ، وإلاَّ رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أُصيبوا به .

وقوله : ﴿ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾ أي : فإنَّهم إذا ظفروا ؛ بغَوا ، وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم ، وهلاكهم ، ومحقهم ، وفنائهم(٢) ، والمعنى : ولقد فعل ـ سبحانه ـ ما فعل في غزوة أحدٍ ، لكي يطهِّر المؤمنين ، ويصفِّيهم من الذُّنوب ، ويخلِّصهم من المنافقين المندسِّين بينهم ، ولكي يُهلك الكافرين ، ويمحقهم ؛ بسبب بغيهم ، وبطرهم .

وقد ذكر الله تعالى أربع حكمٍ لما حدث للمؤمنين في غزوة أُحدٍ ، وهي : تحقُّق علم الله تعالى ، وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشَّهادة الَّتي توصل صاحبها إلى أعلى الدَّرجات ، وتطهير المؤمنين ، وتخليصهم من ذنوبهم ، ومن المنافقين ، ومحق الكافرين ، واستئصالهم رويداً ، رويداً(٣) .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] والمعنى : أحسبتم يا من انهزم يوم أحد! أن تدخلوا الجنَّة كما دخل الَّذين قُتلوا ، وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم؟! لا ؛ حتَّى ﴿ يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمۡ ﴾ أي : علم شهادةٍ ؛ حتَّى يقع عليه الجزاء ﴿ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾(٤) .

وقال ابن كثيرٍ : أي : لا يحصل لكم دخول الجنَّة ؛ حتَّى تُبْتَلوا ، ويرى اللهُ منكم المجاهدين في سبيله ، والصَّابرين على مقاومة الأعداء(٥) .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣] .

قال ابن كثيرٍ : قد كنتم ـ أيَّها المؤمنون! ـ قبل هذا اليوم ، تتمنَّون لقاء العدوِّ ، وتحترقون

---

(١) انظر : تفسير الطَّبريِّ (٤/ ١٠٧) .
(٢) انظر : تفسير ابن كثيرٍ (١/ ٤٠٨) .
(٣) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩٩) .
(٤) انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٠) .
(٥) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٩) .

عليه ، وتودُّون مناجزتهم ، ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الَّذي تمنَّيتموه ، وطلبتُموه ، فدونكم ، فقاتلوا ، وصابروا[١] .

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء :

تَرَفَّقَ القرآن الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ) ، على عكس ما نزل في بدرٍ من آيات ، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه ، أشدَّ من حساب المنكسر ، فقال في غزوة بدر : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨] .

وقال في أُحدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ ، وتربية قرآنيَّةٌ ، يحسن أن يلتزمها أهل التَّربية ، والقائمون على التَّوجيه[٢] .

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السَّابقين :

قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨] .

قال ابن كثير : عاتب اللهُ بهذه الآيات والَّتي قبلها مَنِ انهزم يوم أُحدٍ ، وتركوا القتال لمَّا سمعوا الصَّائح يصيح بأن محمَّداً قد قُتل ، فَعَذَلَهم[٣] الله على فرارهم ، وتركهم القتال[٤] .

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السَّابقين ، وهم جماعاتٌ كثيرةٌ ، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضَعُفُوا عن الجهاد بعد الَّذي أصابهم منه ، وما استكانوا للعدوِّ؛ بل ظلُّوا صابرين ثابتين في جهادهم ، وفي هذا تعريضٌ بالمسلمين الَّذين أصابهم الوهن ، والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٣٧ .
(٣) عَذَلَه عَذْلاً : لامَهُ.
(٤) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠).

وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين ، واستكانتهم لهم ، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الرَّبَّانيِّين ، وبما قالوه: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وهذا القول ـ وهو إضافة الذُّنوب ، والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربَّانيِّين ـ هضمٌ لها ، واعترافٌ منهم بالتَّقصير ، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدوِّ ، ليكون طلبُهم إلى ربِّهم النَّصر عن زكاةٍ ، وطهارةٍ ، وخضوعٍ ، وفي هذا تعليمٌ للمسلمين إلى أهمِّيَّة التَّضرُّع ، والاستغفار ، وتحقيق التَّوبة ، وتظهر أهمِّية ذلك في إنزال النَّصر على الأعداء: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وبذلك نالوا ثواب الدَّارين: النَّصر ، والغنيمة في الدُّنيا ، والثَّواب الحسن في الآخرة ، جزاءَ إحسانهم في أدب الدُّعاء والتَّوجُّه إلى الله ، وإحسانهم في موقف الجهاد ، وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين ، وخصَّ اللهُ تعالى ثواب الآخرة بالحُسْنِ دلالةً على فضله ، وتقدُّمه على ثواب الدُّنيا ، وأنَّه هو المعتمدُ عنده(١).

خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرُّماة لأمر النَّبيِّ ﷺ ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع الَّذي قَلَبَ الموازين ، وأدَّى إلى الخسائر الفادحة الَّتي لحقت بالمسلمين ، ولكي نعرف أهمِّيَّة الطَّاعة لوليِّ الأمر؛ نلحظ أنَّ انخذال عبد الله بن أُبيٍّ، ومن معه من المنافقين ، لم يؤثِّر على المسلمين ، بينما الخطأ الَّذي ارتكبه الرُّماة؛ الَّذين أحسن الرَّسولُ ﷺ ترتيبَهُمْ ، وأسند لكلٍّ واحدٍ منهم عملاً ، ثمَّ خالفوا أمره ﷺ كان ضرره على المسلمين عامَّةً ، حيث سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وذلك بسبب عصيان الأوامر ، ثمَّ اختلطت أمورهم ، وتفرَّقت كلمتُهم ، وكاد يُقْضى على الدَّعوة الإسلاميَّة وهي في مهدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثل الرُّماة لأوامر الرَّسول ﷺ ، وانقادوا لتعليمات قائدهم ، وأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره ﷺ ، ونزل الرُّماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقيَّة الصَّحابة رضي الله عنهم(٢). قال تعالى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٤).
(٢) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

يقول الشَّيخ محمد بن عثيمين: «ومن آثار عدم الطَّاعة ما حصل من معصية بعض الصَّحابة رضي الله عنهم للنبيِّ ﷺ؛ وهم يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والَّذي حصل: أنَّه لمَّا كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرُّماة: أنَّ المشركين انهزموا؛ تركوا الموضع الَّذي أمرهم النَّبيُّ ﷺ ألاَّ يبرحوه، وذهبوا مع النَّاس، وبهذا كرَّ العدوُّ عليهم من الخلف، وحصل ما حصل من الابتلاء، والتَّمحيص للمؤمنين، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلَّة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه المعصية؛ الَّتي فات بها نصرٌ انعقدت أسبابُه، وبدأت أوائله، وهي معصيةٌ واحدةٌ، والرَّسول ﷺ بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟! ولهذا نقول: إنَّ المعاصي من آثارها: أنَّ الله يسلِّط بعض الظالمين على بعضٍ بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النَّصر، والعزَّة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم»(١).

إنَّ طاعة وليِّ الأمر أمرٌ ضروريٌّ، تأتي بعد طاعة الله ورسوله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال العلماء: «نزلت الآية في الرَّعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا وُلاةَ الأمر، الفاعلين لذلك، في قَسْمهم وحكمهم، ومغازيهم، وغير ذلك»(٢).

إنَّ طاعة وليِّ الأمر «أصلٌ عظيم من أصول الواجبات الدِّينية، حتَّى أدرجها الأئمَّة في جملة العقائد الإيمانيَّة»(٣).

ولها أهمِّيَّة في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة، ويمكن أن نلخِّص أهمِّيَّة الطَّاعة في النقاط الآتية:

١ ـ الامتثال لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وطاعته فيما أمر. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

٢ ـ إنَّ طاعة وليِّ الأمر وسيلةٌ وليست غايةً؛ وسيلةٌ لإقامة شرع الله في الأرض، وإحقاق

(١) انظر: الطَّاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، لمحمَّد بن العثيمين، نقلاً عن غزوة أحدٍ، ص ٢١١.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٦).
(٣) بدائع السَّالك في طبائع الممالك، لابن الأزرق (١/ ٧٧).

الحقِّ ، وإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لتحقيق خيرية هذه الأمَّة ، وإعلاء كلمة التَّوحيد ، وإفراد العبوديَّة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٣ ـ اجتماع كلمة المسلمين؛ لأنَّ في الخلاف فساد أحوالهم ، في دينهم ، ودنياهم[١].

٤ ـ أن يستعينوا بها على إظهار دينهم ، وطاعة ربِّهم.

٥ ـ إنَّ فيها سعادةَ الدُّنيا.

ولهذا كان من أصول مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أننا: «لا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا؛ وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يداً مِنْ طاعتهم ، ونرى طاعتهم مِنْ طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي فريضةٌ ، ما لم يأمروا بمعصيةٍ ، وندعوا لهم بالصَّلاح ، والمعافاة»[٢].

سادساً: خطورة إيثار الدُّنيا على الآخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من آياتٍ ، وأحاديث ، تبيِّن منزلة الدُّنيا عند الله ، وتصف زخارفها ، وأثرها على فتنة الإنسان ، وتحذِّر من الحرص عليها. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] ، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقد حذَّر الرَّسول الكريم ﷺ أمَّته من الاغترار بالدُّنيا ، والحرص الشَّديد عليها في أكثر من موضعٍ ، وذلك لما لهذا الحرص من أثر سيِّىءٍ على الأمَّة عامَّةً ، وعلى مَنْ يحملون لواء الدَّعوة خاصَّةً؛ ومن ذلك:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإنَّ الله مستخلفُكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدُّنيا ، واتَّقوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء» [مسلم (٢٧٤٢) ، وأحمد (٣/ ٢٢) ، وابن حبان (٣٢٢١)] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدُّنيا في غزوة أحدٍ.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لمَّا هزم الله المشركين يوم أُحدٍ ، قال الرُّماة: «أدركوا النَّاس؛ ونبيَّ الله؛ لا يسبقوكم إلى الغنائم؛ فتكون لهم دونكم». وقال بعضهم: «لا نريم[٣]

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٠.
(٢) انظر: شرح العقيدة الطَّحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق د. عبد الله التُّركي (٢/ ٥٤٠).
(٣) لا نريم: لا نبرح المكان. رام مكانه ريْماً: بَرِحَهُ.

حتَّى يأذن لنا النَّبيُّ ﷺ»[١] فنزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال الطَّبريُّ: قوله سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة. قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدُّنيا حتى نزل فينا يوم أحدٍ[٢]: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

إنَّ الَّذي حدث في أُحدٍ، عبرةٌ عظيمةٌ للدُّعاة، وتعليمٌ لهم بأنَّ حبَّ الدُّنيا قد يتسلَّل إلى قلوب أهل الإيمان، ويخفى عليهم، فيؤثرون الدُّنيا، ومتاعها على الآخرة، ومتطلَّبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشَّرع الصَّريحة؛ كما عصى الرُّماة أوامر الرَّسول ﷺ الصَّريحة بتأويلٍ ساقطٍ، يرفعه هوى النَّفس، وحبُّ الدُّنيا، فيخالفون الشَّرع، وينسون المحكم من أوامره، كلُّ هذا يحدث، ويقع من المؤمن؛ وهو غافلٌ عن دوافعه الخفيَّة، وعلى رأسها حبُّ الدُّنيا، وإيثارُها على الآخرة، ومتطلَّبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدُّعاة التَّفتيش الدَّائم الدَّقيق في خبايا نفوسهم، واقتلاع حبِّ الدُّنيا منها، حتَّى لا تحولَ بينهم وبين أوامر الشَّرع، ولا تُوقعهم في مخالفته بتأويلاتٍ ملفوفةٍ بهوى النَّفس، وتَلَفُّتها إلى الدُّنيا، ومتاعها[٣].

سابعاً: التَّعلُّق والارتباط بالدِّين:

قال ابن كثير: لمَّا انهزم مَنِ انهزم من المسلمين يوم أُحدٍ، وقُتل مَنْ قُتِل منهم، نادى الشَّيطانُ: ألا إن محمَّداً قد قُتل، ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين، فقال لهم: قتلتُ محمَّداً، وإنَّما كان قد ضرب رسولَ الله ﷺ فشجَّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من الناس، واعتقدوا: أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتِل، وجَوَّزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثيرٍ من الأنبياء - عليهم السَّلام - فحصل ضعفٌ، ووهنٌ، وتأخُّرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أي: له أُسوةٌ بهم في الرِّسالة، وفي جواز القتل عليه[٤].

وقد جاء في تفسير الآية السَّابقة: «إنَّ الرُّسل ليست باقيةً في أقوامها أبداً، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ومهمَّة الرَّسول تبليغ ما أُرسل به؛ وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلودَ لأحدٍ في هذه الدُّنيا، ثمَّ قال تعالى منكراً على مَنْ حصل له ضعفٌ لموت

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٩٧).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٤١).

النَّبيِّ ﷺ ، أو قتله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أي: رجعتم القَهْقَرى ، وقعدتم عن الجهاد ، والانقلاب على الأعقاب يعني: الإدبار عمَّا كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلَّباته ، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ الَّذين لم ينقلبوا ، أو ظلُّوا ثابتين على دينهم ، متَّبعين رسوله حيّاً ، أو ميتاً»[١].

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب الَّتي حدثت للمسلمين يوم أُحدٍ: أنَّهم ربطوا إيمانهم ، وعقيدتهم ، ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته ، بشخص رسول الله ﷺ ، فهذا الرَّبط بين عقيدة الإيمان بالله ربّاً معبوداً وحدَه ، وبين بقاء شخص النَّبيِّ ﷺ خالداً فيهم خالطه الحبُّ المغلوب بالعاطفة ، الرَّبط بين الرِّسالة الخالدة وبين الرَّسول ﷺ البشر؛ الَّذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصَّحابةَ رضي الله عنهم من الفوضى ، والدَّهشة ، والاستغراب ، ومتابعة الرَّسول ﷺ أساس وجوب التأسِّي به في الصَّبر على المكارِه ، والعمل الدَّائب على نشر الرِّسالة ، وتبليغ الدَّعوة ، ونصرة الحقِّ.

وهذا التَّأسِّي هو الجانب الأغرُّ من جوانب منهج رسالة الإسلام ، لأنَّه الدِّعَامَةُ الأولى في بناء مسيرة الدَّعوة لإعلاء كلمة الله ، ونشرها في آفاق الأرض ، وعدم ربط بقاء الدِّين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النَّبيِّ ﷺ في هذه الدُّنيا ، لا يلحقه فناءٌ بموتٍ ، أو قتلٍ ، وإيجاب متابعة الرَّسول ﷺ والتأسِّي به علماً ، وعملاً هما الوَشيجةُ العظمى لتماسك المجتمع المسلم ، ولا سيَّما الدُّعاة إلى الله من أتباعه[٢].

قال ابن القيِّم: «إنَّ غزوة أحدٍ كانت مقدِّمةً ، وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ ، فثبَّتهم ، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم؛ إن مات رسول الله ﷺ ، أو قُتل ، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه ، وتوحيده ، ويموتوا عليه ، أو يُقتلوا ، فإنهم إنَّما يعبدون ربَّ محمَّدٍ ، وهو لا يموت ، فلو مات محمَّد ، أو قُتل ، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، وما بُعِثَ محمَّد ﷺ ليخلَّد ، لا هو ، ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتَّوحيد ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، سواءٌ أمات رسول الله ﷺ ، أم بقي ، ولهذا وبَّخهم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لمَّا صرخ الشَّيطان: إنَّ محمَّداً قد قُتل ، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشَّاكرون هم الَّذين عرفوا قدر النِّعمة ، فثبتوا عليها؛ حتَّى ماتوا ، أو قُتِلُوا ، فظهر أثرُ هذا العتاب ، وحكمُ هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه ، وثبت

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٠).

(٢) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (٣/ ٦١٦).

الشَّاكرون على دينهم ، فنصرهم الله ، وأعزَّهم ، وظفَّرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم»[(١)] .

قال القرطبيُّ : « فهذه الآية من تَتِمَّةِ العتاب مع المنهزمين ، أي : لم يكن لهم الانهزام وإن قُتل محمَّد ، والنُّبوَّة لا تَدْرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»[(٢)] . وكلامه ـ رحمه الله ـ نفيسٌ جدّاً ، فالَّذين ظنُّوا مِنْ قبل : أنَّ الإسلام قد انتهى بموت النَّبيِّ ﷺ ، والَّذين يظنُّون : أنَّ ظهور الإسلام ، ودعوته متوقفٌ على شخصٍ بعينه ، فهؤلاء ، وأولئك قد أخطؤوا ، ولم يقدِّروا هذا الدِّين قدره ، ولم يوفوه حقَّه ؛ لأنَّ ظهور هذا الدِّين ، وهيمنته على كلِّ الأديان ، هو قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣٣] .

فسبب ظهور هذا الدِّين : أنَّه حقٌّ ، وأنَّه هدىً[(٣)] .

في غزوة أُحدٍ نزل التَّشريع الإلهيُّ بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أُحد ، وعند موت الرَّسول ﷺ جاء التَّطبيق ؛ حيث «لمَّا تُوفِّي رسولُ الله ﷺ أقبل أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على فرسٍ من مَسكنَه بالسُّنْح ، حتَّى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلِّم الناسَ ، حتَّى دخل على عائشة رضي الله عنها ، فتيَمَّمَ[(٤)] رسولَ الله ﷺ وهو مُغَشَّىً بثوب حَبِرَةٍ[(٥)] ، فكشف عن وجهه ﷺ ، ثمَّ أكبَّ عليه ، فقبَّله ، وبكى ، ثُمَّ قال : بأبي أنت وأمِّي ! والله ! لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك ، فقدْ مُتَّها» .

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال : «إنَّ أبا بكر خرج ، وعمرُ يكلِّم النَّاسَ ، فقال : اجلس يا عمرُ ! فأبى عمرُ أن يجلسَ ، فأقبل النَّاسُ إليه ، وتركوا عمرَ رضي الله عنه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أمَّا بعدُ : مَنْ كان منكم يعبد محمَّداً ﷺ فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت . قال الله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وقال : والله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا : أنَّ الله أنزل هذه الآية حتَّى تلاها أبو بكر ، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهم ، فما أسمعُ بشراً من النَّاس إلا يتلوها . فأخبرني سعيد بن المسيِّب : أنَّ عمر رضي

(١) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٢٤) .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢) .
(٣) انظر : مرض النبي ﷺ ووفاته ، وأثر ذلك على الأمَّة لخالد أبو صالح ، ص ٢٠ نقلاً عن غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص١٩١ .
(٤) فتيمَّم : قصد .
(٥) الحِبَرةُ : نوعٌ من برود اليمن مخطَّطة غالية الثمن .

الله عنه قال: والله! ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه تلاها ، فَعَقِرْتُ(١) ؛ حتَّى ما تُقلَّني رجلاي ، وحتَّى أهويتُ إلى الأرض ، حين سمعتُه تلاها؛ علمت: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد مات» [البخاري (٤٤٥٤)].

ثامناً: معاملة النَّبيِّ ﷺ للرُّماة الَّذين أخطؤوا ، والمنافقين الَّذين انخذلوا :

أ ـ الرُّماة :

إنَّ الرُّماة الَّذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أُحدٍ لم يُخْرِجْهم الرَّسول ﷺ خارج الصَّفِّ ، ولم يقل لهم: إنَّكم لا تصلحون لشيءٍ من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التَّجربة من النَّقص ، والضَّعف ، بل قبل ضعفهم هذا في رحمةٍ ، وعفوٍ ، وفي سماحةٍ ، ثمَّ شمل ـ سبحانه وتعالى ـ برعايته وعفوه جميع الَّذين اشتركوا في هذه الغزوة ، رغم ما وقع مِنْ بعضهم مِنْ أخطاءٍ جسيمةٍ ، وما ترتَّب عليه مِنْ خسائرَ فادحةٍ، فعفا ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم عفواً غسل به خطاياهم ، ومحا به آثار تلك الخطايا .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهناك أمرٌ مهمٌّ يتَّصل بهذا العفو، قد يترك أثراً في نفوسهم يعوِّقها بعض الشَّيء، ذلك هو موقف رسول الله ﷺ ممَّا حدث منهم؛ إنَّهم يشعرون: أنَّ الرَّسول ﷺ هو وحده الَّذي تحمَّل نتيجة تلك الأخطاء ، فلابدَّ أن ينالوا منه عفواً؛ تطيب به نفوسهم ، وتتمُّ به نعمة الله عليهم؛ لهذا أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيَّه ﷺ بأن يعفو عنهم ، وحثَّهُ على الاستغفار لهم ، كما أمره أن يأخذ رأيهم ، والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم، ومشورتهم(٢) .

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ب ـ انخذال ابن سلول المنافق :

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمئةٍ من المنافقين ، أن يُحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ؛ لتنهار معنويَّاته ، ويتشجَّع العدو ، وتعلو همَّته. وعملُه هذا ينطوي على

---

(١) عُقرت: أي هلكت ، وفي رواية: فعِقرت: أي دهشت ، وتحيَّرت ، أو سقطت.

(٢) انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢١٨.

استهانةٍ بمستقبل الإسلام ، وغدرٍ به في أحلك الظُّروف ، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال ، إلا أنَّهم رفضوا دعوته[١] ، وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فبالرَّغم من خطورة الموقف ، وحاجة المسلمين لهذا العدد لقلَّة جيش المسلمين ، وكثرة جيش قريش ، إلا أنَّ الرَّسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين ، وشأنهم ، ولم يُعِرْهم أيَّ اهتمامٍ ، واكتفى بفضح أمرهم أمام النَّاس[٢] ، وكان لهذا الأسلوب أثرُه في توبيخ وإهانة ابن سلولٍ ، فعندما رجع رسول الله ﷺ من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحثِّ الناس على طاعة رسول الله ﷺ .

قال الإمام الزُّهريُّ: كان عبد الله بن أُبيٍّ له مقامٌ يقومه كلَّ جمعة؛ لا ينكسر له شرفٌ في نفسه ، وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسولُ الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب النَّاسُ؛ قام ، فقال: أيُّها النَّاسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزَّكم به ، فانصروه ، وعزِّروه ، واسمعوا له ، وأطيعوا ، ثمَّ يجلس ، حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع ، ورجع النَّاس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه مِنْ نواحيه ، وقالوا: اجلس أي عدوَّ الله! واللهِ لستَ لذلك بأهلٍ؛ وقد صنعتَ ما صنعتَ! فخرج يتخطَّى رقابَ النَّاس؛ وهو يقول: والله لكأنَّما قلتُ بُجراً[٣]؛ أن قمت أشدِّد أمره ، فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا: ويلك! ما لك؟ قال: قمت أشدِّد أمره ، فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجبذونني ، ويعنفونني ، لكأنَّما قلت بُجراً أن قمت أشدِّد أمره ، قالوا: ويلك! ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله . قال: والله! ما أبغي أن يستغفر لي[٤] .

تاسعاً: «أُحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه»:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ طَلَعَ لَه أُحُدٌ ، فقال: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ، ونُحبُّه» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٥)].

وهذا يدلُّ على دقَّة شعور النَّبيِّ ﷺ ؛ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصُّن ، والاحتماء بذلك الجبل ، وما أودعه الله تعالى فيه من قابليَّةٍ لذلك ، فعبَّر عن ذلك بأرقى وشائج

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٩ .
(٢) انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢٢٠ .
(٣) بُجراً: شراً. ويُقال: ذكرَ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ؛ أي: عيوبه ، وأمرَه كلَّه .
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٥٣) ، وسيرة ابن هشام (شأن عبد الله بن أُبي بعد ذلك).

الصِّلة ، وهي المحبَّة ، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحيُّ ، والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟!

ألا وإنَّ الَّذي يعترف بفضل الحجارة الصمَّاء ، ويُضفي عليها من الأخلاق السَّامية ما لا يتَّصف به إلا أفاضل العقلاء لجديرٌ به أن يعترف بأدنى فضلٍ يكون من بني الإنسان ، وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سَمَا حتَّى حاز أرقى العبارات وأرقَّها؛ فأَخْلِقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم مِنْ ذلك ، فضلاً عمّن تجمعه بهم الأخوَّة في الله تعالى![(١)].

والحديث النَّبويُّ الشَّريف فيه كثيرٌ من المعاني ؛ منها ما ذكره الحميديُّ ، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشَّامي؛ حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها ، أو زمانها ، وحتَّى لا تنسحبَ هذه العادة ، وتستمر بعد أن جاء الإسلام ، كان هذا القول الكريم بياناً للحقِّ ، وابتعاداً عن الطِّيَرَة ، والتَّشاؤم ، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السَّيئة في نفس الإنسان ، ولا شكَّ: أن المسلمين سيقفون على أُحدٍ ، يتذكرون تلك المعركة ، فحتَّى لا يرتبطَ بفكرهم ذلك المعنى السَّيىء ، بيَّن لهم: أن المكان ، والزَّمان مخلوقاتٌ لله ، لا علاقة لهما ، ولا أثر بما يحدث فيهما ، وإنَّما الأمورُ بيد الله تعالى ، والاستشهادُ في سبيل الله كرامةٌ لصاحبه ، لا مصيبةٌ ، وهكذا تتساوى المفاهيم في إطارها الإيمانيِّ ، وإذا «أُحُدٌ» يُكرَمُ ، ويُحَبُّ انطلاقاً من هذا القول الكريم ، وكيف لا يُكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزةُ ، وأصحابه ، ممَّن اختارهم الله في ذلك اليوم ، فجادوا بأنفسهم ابتغاءَ مرضاته؟![(٢)].

عاشراً: الملائكة في أُحدٍ:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أُحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بياضٍ ، يقاتلان عنه كأشدِّ القتال ، ما رأيتُهما قبلُ ، ولابعدُ ـ يعني: جبريلَ ، وميكائيلَ عليهما السَّلام ـ[البخاري (٤٠٥٤) ، ومسلم (٢٣٠٦)].

وهذا خاصٌّ بالدِّفاع عن النَّبيِّ ﷺ ؛ لأنَّ الله تكفَّل بعصمته من النَّاس ، ولم يصحَّ: أنَّ الملائكة قاتلت في أُحدٍ سوى هذا القتال ـ وإنْ وعدهم الله تعالى أنْ يمدَّهم ـ؛ لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاثة أمورٍ: الصَّبر ، والتَّقوى ، وإتيان الأعداء من فورهم ، ولم تتحقَّق هذه الأمور ، فلم يحصل الإمداد[(٣)].

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/ ١٩٨).
(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٢٧.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ٢/ ٣٩١.

إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النَّصر والهزيمة من سورة الأنفال، وآل عمران:

تحدَّثت سورة الأنفال عن غزوة بدرٍ بشيءٍ من التَّفصيل، وتحدَّثت سورة آل عمران عن غزوة أُحدٍ، لكي تتعلَّم الأمَّة كثيراً من المفاهيم، تتعلَّق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النَّصر والهزيمة، ومفهوم الرِّبح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنِّفاق، ومفهوم المحنة والمحق... إلخ، ومن المفاهيم الَّتي تعلَّمها الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال أحداث بدرٍ، وأحدٍ، وسورتي الأنفال، وآل عمران قوانينُ النَّصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بيَّنتها الآيات الكريمة، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ النَّصر ابتداءً وانتهاءً بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وليس مُلْكاً لأحدٍ من الخلق، يهبه الله لمن يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء، مثله مثل الرِّزق، والأجل، والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

٢ ـ وحين يقدِّر الله تعالى النَّصر؛ فلن تستطيع قوى الأرض كلُّها الحيلولة دونه، وحين يقدِّر الهزيمة؛ فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمَّة. قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٣ ـ ولكنَّ هذا النَّصر له نواميسُ ثابتةٌ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نحن بحاجةٍ إلى فقهها، فلابدَّ أن تكون الرَّاية خالصةً لله سبحانه عند الَّذين يمثِّلون جنده. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ونصرُ الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه، والجهاد في سبيله.

٤ ـ ووحدة الصَّفِّ ووحدة الكلمة أساسٌ في النَّصر. وتفريقُ الكلمة، والاختلاف في الرأي دمارٌ وهزيمةٌ. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٥ ـ وطاعة أمرِ الله تعالى، ورسوله ﷺ وعدم الخروج عليها أساسٌ في النَّصر، أمَّا المعصية؛ فتقود إلى الهزيمة. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦ ـ وحب الدُّنيا، والتَّهافت عليها يُفْقدُ الأمَّة عون الله، ونصره. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٧ ـ ونقص العدد والعُدَّة ليس هو سبب الهزيمة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

٨ ـ ولكن لابدَّ من الإعداد الماديِّ، والمعنويِّ لمواجهة العدوِّ[١]. قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٩ ـ والثَّبات عند المواجهة، والصَّبر عند اللِّقاء، من العوامل الرَّئيسية في النَّصر. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

١٠ ـ ولا شيء يعين على الثبات والصَّبر عند اللِّقاء، مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزِّل النَّصر، وطلب العون منه، والتوكُّل عليه، وعدم الاعتماد على العدد، أو العدَّة، أو الذَّات، والتَّبرُّؤ من الحول، والقوَّة، هو عاملٌ أساسيٌّ من عوامل النَّصر[٢]. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشُّهداء وما أعدَّه الله لهم من نعيمٍ مقيمٍ:

قال رسول الله ﷺ: لما أُصيب إخوانُكم بأُحدٍ، جعل اللهُ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيبَ مشربهم، ومأكلهم، وحُسْنَ مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلُوا[٣] عن الحرب! فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ﷺ هذه الآيات. [أحمد (١/٢٦٦)، وأبو داود (٢٥٢٠)، وأبو يعلى (٢٣٣١)][٤].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ٤٦٣.
(٣) نكل عن الأمر نكولاً: نكص.
(٤) انظر: تفسير الطَّبري (٤/ ١٧٠)، وسيرة ابن هشام (مصير قتلى أُحد).

وقد جاء في تفسير الآيات السَّابقة ما رواه الواحديُّ عن سعيد بن جبير: أنَّه قال: لمَّا أُصيب حمزةُ بن عبد المطَّلب، ومصعب بن عمير يوم أُحدٍ، ورأوا ما رزقوا من الخير؛ قالوا: ليت إخوانَنا يعلمون ما أصابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبةً، فقال الله تعالى: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وروى مسلمٌ بسنده عن مسروقٍ، قال: سألنا عبدَ الله بن مسعودٍ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قال: أمَا إنَّا قد سألْنا عن ذلك، فقال: «أرواحُهم في جوف طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش، تسرح من الجنَّة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلَعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي؛ ونحن نَسْرَحُ من الجنَّة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأوا: أنهم لن يُتْرَكُوا من أن يُسْألوا، قالوا: يا ربِّ! نريد أن تَـرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا؛ حتَّى نُقْتَلَ في سبيلك مرَّةً أخرى، فلمَّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ؛ تُرِكُوا» [مسلم (١٨٨٧)].

ثالث عشر: الهجوم الإعلاميُّ على المشركين:

كان الإعلام في العهد النَّبويِّ يقوم على الشِّعر، وكان شعراء المشركين في بدرٍ في موقف الدِّفاع والرِّثاء، وفي أُحدٍ حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النَّصر، فجعلوا من الحبة قبَّةً، وأمام هذا الكبرياء المزيَّف انبرى حسَّان بن ثابتٍ، وكعب بن مالكٍ، وعبد الله بن رواحة للردِّ على حملات المشركين الإعلاميَّة؛ الَّتي قادها شعراؤهم؛ كهبيرة ابن أبي وهبٍ، وعبد الله بن الزِّبعرى، وضرار بن الخطَّاب، وعمرو بن العاص(٢).

وكانت قصائد حسَّان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملةَ لواءِ المشركين، ويُوبِّخ المشركين، ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم، حتَّى كان في النِّهاية بيد امرأةٍ منهم، وولَّى أشرافُهم، وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكيرٌ للمشركين بمواقف الذُّلِّ، والجبن؛ الَّتي تعرَّضوا لها في بداية المعركة، حتَّى لا يغترُّوا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسَّان من المشركين مقتلاً، حينما عَيَّرَهم بالتخلِّي عن اللِّواء، وإقدام امرأةٍ

---

(١) انظر: أسباب النزول، للواحديِّ، ص ١٢٥، وتفسير الطَّبريِّ (٤/ ٢٦٩).

(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

منهم على حمله ، وهذا يتضمَّن وصفهم بالجُبْنِ الشَّديد ، حيث أقدمتِ امرأةٌ على ما نَكَلُوا عنه[(١)].

وممَّا قاله في شأن عَمرة بنت علقمة الحارثيَّة ، ورفعها اللِّواء :

إِذَا عَضَلٌ سِيْقَتْ إِلَيْنَا كَأَنَّهَا ... جِدَايَةُ شِرْكٍ مُعْلِمَاتِ الحَوَاجِبِ[(٢)]
أَقَمْنَا لَهُمْ طَعْناً مُبِيراً مُنَكِّلاً ... وحُزْنَاهُمُ بِالضَّرْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[(٣)]
فَلَوْلاَ لِوَاءُ الحَارِثِيَّةِ أَصْبَحُوا ... يُبَاعُونَ فِي الأَسْوَاقِ بَيْعَ الجَلاَئِبِ[(٤)]

وعندما أخذ اللِّواءَ من الحارثيَّة غلامٌ حبشيٌّ لبني أبي طَلْحَةَ ـ وكان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثيَّة ـ وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره ، فرمى حسان بن ثابتٍ أبياته في هذا الموضوع ، فقال :

فَخَرْتُمْ بِاللِّوَاءِ وَشَرُّ فَخْرٍ ... لِوَاءٌ حِيْنَ رُدَّ إِلَى صُؤَابِ
جَعَلْتُمْ فَخْرَكُمْ فِيْهِ بِعَبْدٍ ... وَأَلأَمِ مَنْ يَطَا عَفَرَ التُّرَابِ
ظَنَنْتُمْ والسَّفِيْهُ لَهُ ظُنُونٌ ... وَمَا إِنْ ذَاكَ مِنْ أَمْرِ الصَّوَابِ[(٥)]

وممَّا قاله كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في الردِّ على بعض شعراء قريش :

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ ... والصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الأَلْبَابِ مَقْبُولُ[(٦)]
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا سَرَاتَكُمُ ... أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيْمَا يَكْثُرُ القِيْلُ
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ... فِيْهِ مَعَ النَّصْرِ مِيْكَالٌ وَجِبْرِيْلُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِيْنُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا ... وَالقَتْلُ فِي الحَقِّ عِنْدَ الله تَفْضِيْلُ
وَإِنْ تَرَوا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهاً ... فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإِسْلاَمَ تَضْلِيْلُ[(٧)]

وَمِنْ أعجب ما قرأت في المعركة الإعلاميَّة بين المسلمين ، والمشركين محاولةُ ضرار بن الخطَّاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدرٍ على اعتبار النَّصر كان لرسول الله ﷺ والمهاجرين ، وفي ذلك قوله :

فَإِنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ فَإِنَّمَا ... بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدُّكُمْ وَهُوَ ظَاهِرُ

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٥/ ٢١).
(٢) عضل : اسم قبيلة ابن خزيمة . الجداية : الصَّغير من أولاد الظِّباء .
(٣) مُبيراً : مهلكاً ومنكلاً : قامعاً لهم ولغيرهم .
(٤) الجلائب : ما يجلب إلى الأسواق ؛ ليباع فيها .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٨٧).
(٦) الألباب : العقول .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ١٦٤).

وَبِالنَّفَرِ الأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ ... يُحَامُوْنَ فِي اللَّأواءِ وَالْمَوْتُ حَاضِرُ
يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيْهِمُ ... وَيُدْ عَنْ عَلِيٍّ وَسْطَ مَنْ أَنْتَ ذاكرُ
وَيُدْعَىٰ أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمُ ... وَسَعْدٌ إِذَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حاضرُ
أُولَئِكَ لاَ مَنْ نَتَّجَت مِنْ دِيَارِها ... بَنُو الأَوْسِ والنَّجَّارِ حِيْنَ تُفَاخِرُ[1]

وهكذا حوَّلها إلى لغة قبليةٍ ، تقوم على مفاهيم جاهليَّةٍ ، ولقد أجابه كعبٌ رضي الله عنه :

وفينا رسولُ الله والأوْسُ حَوْلَهُ ... لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيْزٌ وَنَاصِرُ
وجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ ... يُمْسُونَ فِي المأذَىٰ والنَّقْعُ ثَائِرُ

إلى أن قال :

وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا ... فَولَّوا وقالُوا: إنَّما أَنْتَ سَاحِرُ
لأَمْرٍ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ ... ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّه النَّارُ زَاجِرُ

كما أجابه بقوله :

وَبِيَوْمِ بَدْرٍ إِذْ نَرُدُّ وُجُوْهَهُمْ ... جِبْرِيْلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وهو أفخرُ بيتٍ قالته العرب ـ كما قال صاحب العِقد الفريد ـ[2] .

* * *

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص٢٥٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

الفصل العاشر
أهمُّ الأحداث ما بين أحدٍ والخندق

المبحث الأوَّل
محاولات المشركين لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة

كانت غزوة أُحدٍ مشجِّعةً لأعداء الدَّولة الإسلاميَّة على مواجهتها ، وساد الشُّعورُ لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين ، والتَّغلُّب عليهم ، واتَّجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة ؛ لاستئصال شَأْفَتِهم[١] ، وكسر شوكتهم ، فطمعت بنو أسد في الدَّولة الإسلاميَّة ، وشرع خالد بن سفيان الهُذليُّ لجمع الحشود ؛ لكي يهاجم بها المدينة ، وتجرَّأت عَضَل وقارَة[٢] على خداع المسلمين ، وقام عامر بن الطُّفَيل بقتل القُرَّاء الدُّعاة الآمنين ، وحاولت يهود بني النَّضير أن تغتال رسولَ الله ﷺ ، فتصدَّى لهذه المحاولات الماكرة الحبيبُ المصطفى ﷺ بشجاعةٍ فائقةٍ ، وسياسةٍ ماهرةٍ ، وتخطيطٍ سليمٍ ، وتنفيذٍ دقيقٍ.

أولاً : طمع بني أسدٍ في الدَّولة الإسلاميَّة :

بلغت النَّبيَّ ﷺ بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربيَّة أخبارُ الاستعدادات الَّتي قام بها بنو أسدِ بن خزيمة بقيادة طُلَيْحة الأسديِّ من أجل غزو المدينة ؛ طمعاً في خيراتها ، وانتصاراً لشركهم ، ومظاهرةً لقريش في عدوانها على المسلمين ، فسارع النَّبيُّ ﷺ إلى تشكيل سريةٍ من مئةٍ وخمسين رجلاً من المهاجرين ، والأنصار ، وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد[٣] المخزوميَّ ، وعقد له لواءً ، وقال له : سِرْ حتَّى تنزلَ أرض بني أسد ، فأغرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعُهم[٤] ، فسار إليهم أبو سلمةَ في المحرَّم[٥] ، فأغار على أنعامهم ، ففرُّوا مِنْ

---

(١) استأصل الله شَأْفَتَهُ : أزاله من أصله .
(٢) عضل والقارة : بطنان من الهون ، (الهون) بن خزيمة بن مدركة .
(٣) انظر : نضرة النعيم (١/ ٣١٣) .
(٤) انظر : قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٥) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٤٣) .

وجهه؛ فأخذها، ولم يلقَ عناءً في تشتيت أعداء الإسلام، وعاد إلى المدينة مظفَّراً. وأبو سلمة يعدُّ من السَّابقين إلى الإيمان، ومن خيرة الرَّعيل الأوَّل، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً؛ إذ نَفَر جرحُه الَّذي أصابه في (أُحدٍ) فلم يلبث حتَّى مات[١].

ونلحظ في هذه السَّريَّة عدَّة أمورٍ؛ منها: الدِّقَّة في التَّخطيط الحربيِّ عند النَّبيِّ ﷺ؛ حيث فرَّق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سريَّة أبي سلمة؛ وهم يظنُّون: أنَّ المسلمين قد أضعفتهم وقعة أُحدٍ، وأذهلتْهم عن أنفسهم، فأُصيب المشركون بالرُّعب من المسلمين، ووَهَنتْ عزيمتُهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة. وتظهر دقَّة المسلمين في الرَّصد الحربيِّ، واختيارهم التَّوقيت الصَّحيح، والطَّريق المناسبة؛ حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أيَّ شيءٍ رغم بُعْدِ المسافة، وكان هذا هو أهمُّ عوامل نجاح المسلمين في هذه السَّريَّة، وتركت هذه السَّريَّة في نفوس الأعداء شعوراً مؤثِّراً على معنويَّاتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة، الَّتي تجعلهم يمتلئون رعباً منهم، ويتوقَّعون الإغارة في أيِّ وقتٍ، وهذا الشُّعور حملهم على الاعتراف بقوَّة المسلمين، ومسالمتهم[٢].

ثانياً: خالد بن سفيان الهُذليُّ وتصدِّي عبد الله بن أنيسٍ رضي الله عنه له:

قام خالد بن سفيان الهذليُّ يجمِّع المقاتلة من هُذَيْلٍ وغيرها في عرفات، وكان يتهيَّأ لغزو المسلمين في المدينة؛ مظاهرةً لقريشٍ، وتقرُّباً إليها، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة، وطمعاً في خيرات المدينة؛ فأرسل رسولُ الله ﷺ الصَّحابيَّ عبدَ الله بن أُنَيْس الجُهَنيَّ إليه بعد أن كلَّفه مهمَّة قتله[٣]، وهذا عبد الله بن أنيس يحدِّثنا بنفسه، قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله ﷺ، فقال: «إنَّه قد بلغني: أنَّ خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي النَّاس؛ ليغزوني، وهو بعرنة، فائته، فاقتله»، قال: قلت: يا رسولَ الله، انعته حتَّى أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قُشَعريرةً»[٤].

قال: فخرجتُ متوشحاً سيفي، حتَّى وقعتُ عليه بعرنة مع ظَعْنٍ يرتاد لهنَّ منزلاً، حين كان وقت العصر، فلمَّا رأيتُه وجدت ما وصف لي رسول الله من القُشَعريرة، فأقبلتُ نحوه، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولةٌ تشغلني عن الصَّلاة، فصلَّيتُ وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الرُّكوع، والسُّجود، فلمَّا انتهيت إليه قال: مَنِ الرَّجلُ؟ قلت: رجلٌ من العرب سمع بك،

---

(١) فقه السِّيرة، للغزالي، ص ٢٧٤.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٦/ ٢٣).
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣١٣).
(٤) القُشعريرةُ: الرِّعدةُ.

وبجمعك لهذا الرَّجل، فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً، حتَّى إذا أمكنني حملت عليه بالسَّيف حتَّى قتلتُه، ثمَّ خرجت، وتركت ظعائنه مكبَّاتٍ عليه، فلمَّا قدمت على رسول الله ﷺ فرآني، فقال: «أفلح الوجه»، قال: قلت: قتلتُه يا رسول الله! قال: «صدقت»، قال: ثمَّ قام معي رسول الله فدخل في بيته، فأعطاني عصاً، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أُنَيس!».

قال: فخرجت بها على النَّاس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكَها، قالوا: أوَ لا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إن أقلَّ النَّاس المختصرون[1] يومئذ يوم القيامة» فقرنها عبد الله بسيفه، فلم تزل معه، حتَّى إذا مات أمر بها، فضمَّت معه في كفنه، ثمَّ دُفنا جميعاً. [أحمد (٣/٤٩٦)، وأبو يعلى (٩٠٥)، ومجمع الزوائد (٦/٢٠٣)، وأبو داود مختصراً (١٢٤٩)].

وفي هذا الخبر فوائدُ، ودروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ دقَّـة الرَّصد الحربيِّ:

كان رسول الله ﷺ يعطي للجانب الأمنيِّ أهمِّيَّته، ولذلك كان يتابع تحرُّكات الأعداء، ويعدُّ بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات، والأزمات في وقتها الملائم، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتَّى يكثر جمعُه، ويشتدَّ ساعدُه؛ بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيَّامها الأولى بحزمٍ، وبذلك حقَّق للأمَّة مكاسب كبيرةً، وقلَّل الخسائر المتوقَّعة من مجيء خالد بن سفيان بجيشٍ لغزو المدينة، وهذا العمل يحتاج لقدرةٍ في الرَّصد الحربيِّ، وسرعةٍ في اتِّخاذ القرار.

٢ ـ فِراسَةُ[2] النَّبيِّ ﷺ في اختيار الرِّجال:

كان ﷺ يتمتَّع بِفراسَةٍ عظيمةٍ في اختيار الرِّجال، ومعرفةٍ كبيرةٍ لذوي الكفاءات من أصحابه، فكان يختار لكلِّ مهمَّةٍ مَنْ يناسبها، فيختار للقيادة مَنْ يجمع بين سداد الرَّأي، وحسن التَّصرُّف والشَّجاعة، ويختار للدَّعوة والتَّعليم مَنْ يجمع بين غزارة العلم، ودَمَاثَةِ[3] الخُلُق والمهارة في اجتذاب النَّاس، ويختار للوِفادة على الملوك والأمراء مَنْ يجمع بين حُسْنِ المظهر، وفصاحة اللِّسان، وسرعة البديهة، وفي الأعمال الفدائيَّة يختار مَن يجمع بين

---

(١) المختصرون، أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحةٌ يتَّكئون عليها.
(٢) فرسَ الأمرَ فِرَاسَةً: أدرك باطنَه بالظنِّ الصائب.
(٣) دَمُثَ دَمَاثَةً وَدُموثَةً: سَهُلَ خُلُقُهُ.

الشَّجاعة الفائقة ، وقوَّة القلب ، والمقدرة على التحكُّم في المشاعر[(١)] . وقد كان عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنيُّ قويَّ القلب ، ثبت الجنان ، راسخ اليقين ، عظيم الإيمان[(٢)] ، وبجانب هذه الصِّفات العظيمة التي أهَّلته لهذه المهمَّة ، فهناك سببٌ آخر ، فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه «جُهَينة»[(٣)] .

٣ ـ المكافأة على هذا العمل أخروية :

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء ، مادِّيةً دنيويَّةً ـ كما يتمنَّاه الكثير ممَّن يقوم بالمهمات الشَّاقَّة في جيوش العالم قديماً ، وحديثاً ـ بل كانت أسمى من ذلك ، وأعظم؛ فهي وسام شرفٍ أخرويٍّ قليلٌ مَنْ يناله[(٤)] ، فقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم وسائرُ المتَّقين لا ينتظرون جزاءً في الدُّنيا ـ ولو حصلوا على شيءٍ من متاع الدُّنيا فإنَّه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً؛ وإنَّما ينتظرون جزاءهم في الآخرة ، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيسٍ تلك العصا؛ الَّتي ستكون علامةً بينه وبين رسول الله ﷺ يوم القيامة ، وهذا يدلُّ على علوِّ مكانته في الآخرة[(٥)] .

٤ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة :

تضمَّن هذا الخبر بعض الأحكام ، والفوائد؛ منها : (صلاة الطَّالب) . قال الخطَّابيُّ : واختلفوا في صلاة الطَّالب ، فقال عوام أهل العلم : إذا كان مطلوباً كان له أن يُصَلِّيَ إيماءً ، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً ، وصلَّى بالأرض راكعاً ، وساجداً[(٦)] ، وكذلك قال ابن المنذر[(٤)] ، أمَّا الشَّافعيُّ فشرط شرطاً لم يشترطه غيره ، قال : إذا قلَّ الطَّالبون عن المطلوبين وانقطع الطَّالبون عن أصحابهم ، فيخافون عودة المطلوبين عليهم ، فإذا كان هكذا؛ كان لهم أن يصلُّوا يومئون إيماءً .

قال الخطَّابيُّ : وبعض هذه المعاني موجودةٌ في قصَّة عبد الله بن أُنيس[(٧)] .

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب ، فعند أبي حنيفة إذا كان الرَّجل مطلوباً؛ فلا بأس بصلاته سائراً ، وإن كان طالباً؛ فلا ، وقال مالكٌ ، وجماعةٌ من أصحابه : هما سواءٌ ، كلُّ واحدٍ منهما يصلِّي على دابَّته .

---

(١) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ٢٧) .
(٢) انظر : محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ٥٠ ـ ٥١) .
(٣) انظر : غزوة أحد ، لمحمد باشميل ، ص ٣١ .
(٤) انظر : السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
(٥) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ٢٩) .
(٦) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٦٠ .
(٧) انظر : معالم السُّنن ، للخطَّابي (٢/ ٤٢) على سنن أبي داود ، حاشية رقم (١) .

وقال الأوزاعيُّ، والشَّافعيُّ في آخرين كقول أبي حنيفة، وهو قول عطاء، والحسن والثَّوريِّ، وأحمد، وأبي ثور.

وعن الشَّافعيِّ: إن خاف الطَّالب فوت المطلوب؛ أومأ، وإلاَّ؛ فلا[١].

٥ ـ جواز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ ﷺ:

يجوز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ ﷺ؛ فعبد الله بن أنيس رضي الله عنه أدَّاه اجتهاده أن يصلِّي هذه الصَّلاة، ولم ينكر عليه ﷺ ممَّا يدلُّ على جواز الصَّلاة عند شدَّة الخوف بالإيماء[٢].

وهذا الاستدلال صحيحٌ، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ عبد الله بن أُنيس فعل ذلك في حياة النَّبيِّ ﷺ، وذلك زمن الوحي، ومحالٌ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يطَّلع عليه[٣].

٦ ـ مِنْ دلائل النُّبوَّة:

وَصَفَ ﷺ خالدَ بن سفيان الهذليَّ لعبد الله بن أُنَيس وصفاً دقيقاً دون أن يراه، حتَّى إنَّ ابن أُنيس عندما ردَّ على رسول الله ﷺ متعجباً ـ كما وقع في رواية الواقديِّ ـ: يا رسول الله! ما فَرِقْتُ[٤] من شيءٍ قطُّ، قال له رسول الله ﷺ: «بلى، آية ما بيني وبينه أن تجد له قُشَعريرةً إذا رأيته[٥]»، وقد وجد عبد الله بن أُنيس خالدَ الهُذليَّ على الصِّفة؛ الَّتي ذكر رسول الله ﷺ، يقول عبد الله: فلما رأيته؛ هبته، وفَرِقْتُ منه، فقلت: صدق الله، ورسولُه[٦].

٧ ـ ما قاله عبد الله بن أُنيس من الشِّعر في قتله لخالد الهُذليِّ:

تَـرَكْـتُ ابْـنَ ثَـوْرٍ كـالحُـوَارِ وَحَـوْلَـهُ ... نَـوَائِـحُ تَفْـرِي كُـلَّ جَيْـبٍ مُقَـدَّدِ
تَنَـاوَلْتُـهُ والظُّعْـنُ خَلْفِـي وَخَلْفَـهُ ... بِـأَبْيَـضَ مِـنْ مَـاءِ الحَـدِيْـدِ المُهَنَّـدِ
أَقُـولُ لَـهُ وَالسَّيْـفُ يَعْجُـمُ رَأْسَـهُ ... أَنَـا ابْـنُ أُنَيْـسٍ فَـارِسَـاً غَيْـرَ قُعْـدُدِ
وَقُلْـتُ لَـهُ خُـذْهَـا بِضَـرْبَـةِ مَـاجِـدٍ ... حَنِيْـفٍ عَلَـى دِيْـنِ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ
وَكُنْـتُ إِذَا هَـمَّ النَّبِـيُّ بِكَـافِـرٍ ... سَبَقْـتُ إِلَيـهِ بِـاللِّسَـانِ وَبـاليَـدِ[٧]

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٦٣).
(٢) انظر: السَّرايا والبعوث، ص ١٦١.
(٣) انظر: عون المعبود، للعظيم آبادي (٤/ ١٢٩).
(٤) فَرِقَ فرقاً: جزع واشتدَّ خوفُه، فهو فَرِقٌ.
(٥) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٢).
(٦) انظر: دلائل النُّبوَّة، للبيهقيِّ (٤/ ٤١) من رواية موسى بن عقبة.
(٧) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٤٣).

ثالثاً: غدر قبيلتي عَضلُ والقَارَّة، وفاجعة الرَّجيع[(١)]:

اختلفت مروياتُ سريَّة الرَّجيع فيما بينها كثيراً حول السَّبب الَّذي من أجله بعث النَّبيُّ ﷺ هذه السَّريَّة، وفي الوقت الَّذي يورد البخاريُّ بأنَّه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدوِّ [البخاري (٤٠٨٦)]، فإنَّ مروياتٍ أخرى بأسانيد صحيحةٍ ورد فيها: أنَّه قدِم على رسول الله ﷺ رهطٌ من قبيلتي عضل، والقَارَّة المُضَريَّـتَـيْنِ إلى المدينة وقالوا: «إنَّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقِّهوننا، ويقرئوننا القرآن ويعلِّمونا شرائع الإسلام»[(٢)] ويظهر: أنَّ قبيلة هُذيل قد سعت للثَّأر من المسلمين لخالدٍ ابن سفيان الهذليِّ، فلجأت إلى الخديعة والغدر. وقد جزم الواقديُّ[(٣)] بأنَّ السبب هو أن بني لحيان ـ وهم حيٌّ من هُذَيل ـ مَشَتْ إلى عَضَل، والقَارَّة، وجعلت لهم جُعْلاً ليخرجوا إلى رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يخرج معهم مَنْ يدعوهم إلى الإسلام، ويفقِّههم في الدِّين، فيكمُنوا لهم، ويأسروهم، ويُصيبوا بهم ثمناً في مكَّة[(٤)].

وهكذا بعث الرَّسول ﷺ هذه السَّريَّة الَّتي تتألَّف من عشرةٍ من الصَّحابة [البخاري (٣٩٨٩)]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً، حتَّى إذا كانوا بين عُسْفان ومكَّة أغار بنو لحيان ـ وهم قريبٌ من مئتي مقاتل ـ، فألجؤوهم إلى تلٍّ مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم الأمان من القتل، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمَّة كافرٍ[(٥)]، وقال عاصم بن ثابت: إنِّي نذرت ألا أقبل جوار مشركٍ أبداً، فجعل عاصم يقاتلهم، وهو يقول:

مَـا عِلَّتـي وَأَنَـا جَلْـدٌ نَـابِـلُ ... النَّبْـلُ وَالْقَـوْسُ لَهَـا بَـلابِـلُ[(٦)]
تَـزِلُّ عَـنْ صَفْحَتِهَـا المَعَـابِـلُ[(٧)] ... المَـوْتُ حَـقٌّ والحَيَـاةُ بَـاطِـلُ
وَكُـلُّ مَـا حَـمَّ[(٨)] الإلَـهُ نَـازِلُ ... بِـالمَـرْءِ والمَـرْءُ إِلَيْـهِ آئِـلُ
إِنْ لَـمْ أُقَـاتِلْكُـمْ فَـأُمِّـي هَـابِـلُ[(٩)]

فرماهم بالنَّبْل؛ حتَّى فنيت نبلُه، ثمَّ طاعنهم بالرُّمح حتَّى كُسِر رمحُه، وبقي السَّيف فقال: اللَّهمَّ حَمَيْتُ دينَك أوَّل نهاري، فاحْمِ لي لحمي آخره! وكانوا يجرِّدون كُلَّ مَنْ قُتِل مِنْ

---

(١) الرَّجيع: اسم موضع من بلاد هُذيل. وينظر الشكل (٥) في الصفحة (٧٤٩).
(٢) انظر: المغازي، للواقديِّ (١/ ٣٥٤ـ٣٥٥).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣١٤).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) بلابل: جمع بلبلة وبلبال، وهو شدَّة الهم.
(٧) المعابل: جمع معبلة، وهو نصل طويل عريض.
(٨) حَمَّ: قدَّر.
(٩) انظر: مغازي، الواقدي (١/ ٣٥٥).

أصحابه ، فكسر غِمْدَ سيفه ، ثُمَّ قاتلَ حتَّى قُتِل ، وقد جَرَحَ رجلين وقَتل واحداً ، وكان يقول؛ وهو يقاتل:

أَبُــو سُلَيْمَــانَ وَمِثْلِــي رَامِــي ... وَكَــانَ قَــوْمِــي مَعْشَــراً كِــرَامــا

ثمَّ شرعوا فيه الأسنَّة حتَّى قتلوه ، وكانت سُلافةُ بنت سعد بن الشُّهَيْد قد قُتِل زوجُها وبنوها أربعةٌ ، قد كان عاصم قتل منهم اثنين: الحارث ، ومُسافعاً ، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحفِ[1] رأسه الخمرَ ، وجعلَتْ لمن جاء برأس عاصم مئة ناقةٍ ، قد علمت بذلك العرب ، وعلمته بنو لحيان ، فأرادوا أن يحتزُّوا رأس عاصم؛ ليذهبوا به إلى سُلافةَ بنت سعد ليأخذوا منها مئة ناقةٍ ، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر[2] فحمتْهُ ، فلم يَدْنُ إليه أحدٌ إلا لدغت وجهه ، وجاء منها شيءٌ كثير لا طاقة لأحدٍ به ، فقالوا: دعوه إلى اللَّيل ، فإنَّه إذا جاء اللَّيل؛ ذهب عنه الدَّبْر ، فلما جاء اللَّيل بعث الله عليه سيلاً ـ ولم يكن في السَّماء سحابٌ في وجه من الوجوه ـ ، فاحتمله ، فذهب به؛ فلم يَصِلُوا إليه. [البيهقي في الدلائل (٣/٣٢٨) ، وابن هشام (٣/ ١٨٠)][3].

لقد قُتِلَ عاصمٌ في سبعةٍ من أفراد السَّريَّة بالنَّبْلِ ، ثُمَّ أعطى الأعرابُ الأمانَ من جديدٍ للثَّلاثة الباقين ، فقبلوا ؛ غير أنَّهم سرعان ما غـدروا بهم بعد ما تمكَّنوا منهم ، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه ، واقتادوا الاثنين إلى مكَّة ، وهما خبيب ، وزيد بن الدَّثنَّة؛ فباعوهما لقريشٍ[4] وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ[5].

فأما خُبَيْب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيبٌ قد قتله يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً ، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها ، فأعارته ، وغفلت عن صبيٍّ لها ، فدرج فجلس على فَخذه ، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه ، فقال خبيبٌ: أتخشينَ أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خبيب؛ لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقٌ رَزَقَهُ الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين ، ثمَّ انصرف إليهم ، فقال: لولا أن تقولوا إنَّ ما بي جَزَعٌ من الموت؛

---

(١) القحفُ: الجزء الأعلى من الجمجمة.
(٢) الدَّبر: الزَّنابير (جمع الزِّنبار ، وهي حشرةٌ أليمة اللَّسع) ، والنَّحل.
(٣) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ٣٥٦).
(٤) انظر تفصيل ذلك كلِّه في صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوانَ وبئر معونة، وحديث عضل والقَارَّة وعاصم بن ثابت، وخُبيب وأصحابه، رقم (٤٠٨٦) وما بعده.
(٥) جوامع السِّيرة ، لابن حزم ، ص ١٧٦.

لزدت ، فكان أوَّل مَنْ سنَّ الرَّكعتين عند القتل هو[١] ، ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدداً[٢] ، ولا تُبْقِ منهم أحداً» [البخاري (٣٩٨٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) ، وابن هشام (٣/ ١٨١ ـ ١٨٢)] ثُمَّ قال:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهُم مُبْدِي العَدَاوة جَاهِدٌ ... عَلَيَّ لأَنِّي فِي وَثَاقٍ بمَضْيَعِ
وَقَدْ قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيْلٍ مُمَنَّعِ
إِلى اللهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِيْ ... وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِيْ
فذَا العَرْشِ صَبِّرْني عَلىٰ مَا يُرَادُ بِيْ ... فقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ[٣] مَطْمَعي
وَقَدْ خَيَّرُوني الكفر والمَوْتُ دُوْنَه ... فقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِيْ حَذَارِ المَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ ... وَإِنَّ إِلىٰ رَبِّي إِيَابِي وَمَرْجِعي
وَلَسْتُ أُبَالي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلٰهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعاً ... وَلاَ جَزَعاً إِنِّي إِلىٰ الله مَرْجِعي[٤]

فقال له أبو سفيان: أيسُرُّك: أنَّ محمَّداً عندنا يُضربُ عنقُه؛ وأنَّك في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرُّني أنِّي في أهلي ، وأنَّ محمَّداً في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه[٥]. ثُمَّ قُتِل ، وصلبوه ، ووكَّلوا به مَنْ يحرُس جُثَّتَه ، فجاء عَمْرُو بنُ أميَّة الضَّمْرِيُّ ، فاحتمله بجذعه ليلاً ، فذهب به ، ودفنه[٦] وأمَّا زيد بن الدَّثِنَّة ، فاشتراه صفوان بن أميَّة وقتله بأبيه أميَّة بن خلف الَّذي قُتل ببدر ، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد! أتحبُّ أنَّ محمداً الآن عندنا مكانك تضربُ عنقُه؛ وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وإنِّي جالسٌ في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً؛ كحبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً[٧].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٩٩).
(٢) بدَّدَ الشَّيء: فرَّقه ، بدداً: متفرِّقين في القتل واحداً بعد واحدٍ.
(٣) ياس: لغة في يئس.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٨٦) ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع).
(٥) المصدر السابق نفسه (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).
(٦) المصدر السَّابق نفسه.
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٠٠) ، وسيرة ابن هشام (مقتل ابن الدَّثنَّة ومثلٌ من وفائه للرَّسول ﷺ).

وقد عُرِفت هذه الحادثة المفجعة بالرَّجيع ، نسبةً إلى ماء الرَّجِيع الَّذي حصلت عنده .

وفي هذه الحادثة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها :

١ ـ فوائد ذكرها ابن حجر :

«وفي الحديث : أنَّ للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ، ولا يمكِّنَ من نفسه؛ ولو قُتل؛ أَنَفَةً من أن يجري عليه حكم كافرٍ ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشِّدَّة ، فإن أراد الأخذ بالرُّخصة؛ فله أن يستأمن. قال الحسن البصريُّ: لا بأس بذلك ، وقال سفيان الثَّوريُّ: أكره ذلك. وفيه الوفاء للمشركين بالعهد ، والتورُّع عن قتل أولادهم ، والتلطُّف بمن أريد قتلُه ، وإثبات كرامة الأولياء ، والدُّعاء على المشركين بالتَّعميم ، والصَّلاة عند القتل ، وفيه إنشاء الشِّعر ، وإنشاده عند القتل ، ودلالة على قوَّة يقين خبيب ، وشدَّته في دينه .

وفيه : أنَّ الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ، ليثيبه ، ولو شاء ربُّك ما فعلوه ، وفيه استجابة دعاء المسلم ، وإكرامه حيّاً وميتاً ، وغير ذلك من الفوائد ممَّا يظهر بالتأمُّل. وإنَّما استجاب الله له مِنْ حماية لحمه من المشركين ، ولم يمنعهم من قتله؛ لما أراد من إكرامه بالشَّهادة ، ومن كرامته حمايته مِنْ هتك حرمته بقطع لحمه»(١) .

٢ ـ بين التَّسليم ، والقتال حتَّى الموت :

يستدلُّ ممَّا سبق أنَّ للأسير في يد العدوِّ أن يمتنع مِنْ قبول الأمان ، ولا يمكِّن من نفسه؛ ولو قُتل؛ ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافرٍ ، كما فعل عاصمٌ ، فإن أراد التَّرخُّص؛ فله أن يستأمن ، مترقباً الفرصة مؤمِّلاً الخلاص ، كما فعل خبيبٌ ، وزيدٌ؛ ولكن لو قدر الأسير على الهرب؛ لزمه ذلك في الأصح ، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأنَّ الأسير في يد الكفار مقهورٌ مهانٌ ، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه مِنْ هوان الأسر ، ورقِّه(٢) .

وهـذا الحـدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التَّعامل مع الأحداث؛ في اختيارهم الأسر إذا طُلبوا مظلومين ، أو اختيارهم القتال حتَّى الموت؛ ما دام الطَّالب لا يطلبهم بعدلٍ ، وما دامت السُّلطة غير إسلاميَّة(٣) .

٣ ـ تعظيم سنَّة النَّبيِّ ﷺ :

وفي الحديث يظهر تعظيم الصَّحابة لسنَّة النَّبيِّ ﷺ ، وكيف أن خُبَيْباً مع أنَّه في أسر

---

(١) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٠٨٦) ، فقرة : «فلم يقدروا منه على شيءٍ» .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .
(٣) انظر : الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٢/ ٦٢٢) .

المشركين ، ويعلم: أنَّه سيُقتل بين عشيَّةٍ ، أو ضحاها ، ومع ذلك كان حريصاً على سنَّة الاستحداد ، واستعار السِّكِّين لذلك ، وفي هذا تذكيرٌ لِمَنْ يستهين بكثيرٍ من السُّنن ، بل والواجبات؛ بحجَّة: أنَّه لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظُّروف الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السُّنَّة والدُّخول في شرائع الإسلام كافَّةً[١] .

٤ ـ الإسلام ينتزع الغدر ، والأحقاد:

عندما استعار خبيب مُوسى مِنْ بعض بنات الحارث؛ ليستحدَّ بها ، فأعارته؛ قالت المرأة: فغفلتُ عن صبيٍّ لي ، دَرَجَ إليه حتَّى أتاه ، فوضعه على فخذه فلما رأيتُه؛ فَزِعْتُ منه فَزعةً عرف ذلك منِّي ، وفي يده الموسى ، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله. [البخاري (٤٠٨٦)][٢] .

إنَّه موقفٌ رائعٌ يدلُّ على سموِّ الرُّوح ، وصفاء النَّفس ، والالتزام بالمنهج الإسلاميِّ ، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] .

إنَّه الوفاء يتعلَّمُه النَّاس ممَّن غدر بهم؛ فإنَّ الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرَّخاء ، والشِّدَّة[٣] .

وفي قول خبيبٍ رضي الله عنه: (ما كنت لأفعل؛ إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربيِّ إلى أنَّ هذا الفعل غير واردٍ ، ولا متصوَّرٍ ، ولا هو في الحسبان ، في هذا الظَّرف الحاسم ، الَّذي قد يتعلَّق فيه الاستثناء لموقع الضَّرورة ، وإنقاذ المُهَج ، لكنَّ المبدأ الأصليَّ الوفاءُ ، والكفُّ عن البُرآء لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة[٤] ، وهذا مثلٌ من عظمة الصَّحابة رضي الله عنهم حين يطبِّقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم ـ وإن كانوا قد ظلموهم ـ ، وهذا دليلٌ على وعيهم ، وكمال إيمانهم[٥] .

٥ ـ حبُّ النَّبيِّ ﷺ عند الصَّحابة:

إنَّ حظَّ الصَّحابة من حبِّه ﷺ كان أتمَّ ، وأوفرَ ، ذلك: أنَّ المحبَّة ثمرةُ المعرفة ، وهم بقدره ﷺ ، ومنزلته أعلمُ ، وأعرفُ مِنْ غيرهم ، فبالتَّالي كان حبُّهم له ﷺ أشدَّ ، وأكبر[٦] .

---

(١) انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، لأحمد فريد ، ص ٢٣٤ .
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٠ .
(٣) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٩ .
(٤) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٥٣ .
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميَّ ، للحميديِّ (٦/ ٣٨) .
(٦) انظر: حقوق النَّبي ﷺ على أمَّته ، د. محمَّد التَّميمي (١/ ٣١٤) .

في حادثة الرَّجيع يظهر هذا الحبُّ في الحوار الهادئ بين أبي سفيان ، وبين زيدٍ ابن الدثنَّة؛ إذ قال له أبو سفيان: أتحبُّ أنَّ محمَّداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقُه، وأنَّك في أهلك؟ فقال زيد: والله! ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ؛ وإنِّي جالسٌ في أهلي(١) .

وهذا الحبُّ من الإيمان ، فقد قال ﷺ : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، ومَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا لله ، ومَنْ يكرهُ أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النَّار» [البخاري (٢١) ، ومسلم (٤٣)].

٦ ـ ممَّا قاله حسَّان في ذمِّ بني لِحْيَان:

تأثَّر المسلمون بمقتل أصحاب الرَّجيع تأثُّراً بالغاً ، وكان حسَّان رضي الله عنه بشعره يعبِّر عن حال المسلمين ، فمن يستحقُّ الهجاء ، هجاه ، ومَنْ يستحقُّ المدح؛ مدحه ، فقال في هجاء بني لِحْيان:

إنْ سرَّكَ الغَدْرُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَهُ ... فَائتِ الرَّجيْعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ
قَوْمٌ تَواصَوا بِأَكْلِ الجَارِ بَيْنَهُمُ ... فَالكَلْبُ والقِرْدُ والإنْسَانُ مِثْلانِ
لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْماً قَامَ يَخطُبُهُمْ ... وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيْهِمْ وَذَا شَانِ(٢)

رابعاً: طمع عامر بن الطُّفَيْل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ):

عامر بن الطُّفيل زعيمٌ من زعماء بني عامرٍ ، كان متكبِّراً متغطرساً ، طامعاً في الملك ، وكان يرى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربيَّة؛ ولذلك جاء هذا المشرك إلى النَّبيِّ ﷺ ، وقال له: أُخيِّرك بين ثلاث خصالٍ: أن يكون لك أهلُ السَّهل ، ولي أهلُ المَدَرِ ، أو أكونَ خليفَتَك ، أو أغزوك بأهل غَطَفان بألف أشقر وألف شقراء [البخاري (٤٠٩١)] ، فرفض ﷺ تلك المطالب الجاهليَّة ، وجاء إلى المدينة مُلاعِبُ الأسنَّة سيِّد بني عامر عمُّ عامر بن الطُّفَيْل ، وقدَّم إلى النَّبيِّ ﷺ هَدِيَّةً ، فعرض عليه النَّبيُّ ﷺ الإسلام ، فلم يُسْلِم ، ولم يَبْعُدْ من الإسلام ، وقال: يا محمد! لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ ، رجوتُ أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : إنِّي أخشى عليهم أهل نجدٍ ، قال مُلاعِبُ الأسنَّة (أبو براء): أنا لهم جارٌ ، فابعث إلى أهل نجدٍ مَنْ شئت. فبعث إليهم بقومٍ فيهم المنذرُ بن عمرو ، وهو الَّذي يقال له: الْمُعْنِق لِيَمُوت(٣) ، أو أعنق الموت ، فاستجاش(٤) عليهم عامر بن الطُّفيل بني عامر ، فأبوا أن

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥٤ .
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٧٠).
(٣) المعنق ليموت: أي: المسرع ، وإنما لُقِّبَ بذلك؛ لأنَّه أسرعَ إلى الشَّهادة.
(٤) استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.

يطيعوه ، وأبوا أن يخفروا مُلاعِبَ الأسنَّة ، فاستجاش عليهم بني سُلَيم ، فأطاعوه ، فأتبعهم بقريب من مئة رجل رامٍ ، فأدركهم ببئر مَعُونة ، فقتلوهم إلا عمرو بن أميَّة(١) .

ومن حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلِّمونا القرآن ، والسُّنَّة . فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يقال لهم القُرَّاء ، فيهم خالي حَرَام ، يقرؤون القرآن ، ويتدارسون باللَّيل يتعلَّمون ، وكانوا بالنَّهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون ، فيبيعونه ، ويشترون به الطَّعام لأهل الصُّفَّة ، وللفقراء ، فبعثهم النَّبيُّ ﷺ إليهم ، فعَرَضُوا لهم ، فقَتَلُوهم ، قبل أن يَبْلُغُوا المكانَ ، فقالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا : أنَّا قد لَقِيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا .

قال: وأتى رجلٌ حراماً خال أنسٍ مِنْ خلفه ، فطعنه برُمْح حتَّى أَنْفَذَهُ ، فقال حرام: فُزْتُ وربِّ الكعبة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنَّ إخوانكم قد قُتلوا ، وإنَّهم قالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا» [أحمد (١/٤١٦) ، ومسلم (٦٧٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٤٤)] .

وفي هذه الحادثة المؤلمة ، والفاجعة المفجعة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ لابدَّ للدَّعوة من تضحيات:

رأينا كيف غَدَرَ حلفاء هُذَيْل بأصحاب الرَّجيع من القُرَّاء ، الَّذين أرسلهم النَّبيُّ ﷺ معلِّمين ، ومفقِّهين في غزوة الرَّجيع ، وها هنا عامر بن الطُّفيل يغدر بالسَّبعين القرَّاء ، الَّذين استنفروا للدَّعوة إلى الله ، والتَّفقيه في دين الله ، في مجزرة رهيبةٍ دنيئةٍ ، وذلك في يوم بئر معونة .

وقد تركتْ هذه المصائب في نفس رسول الله ﷺ آثاراً غائرةً ، بعيدة الأعماق ، حتَّى إنَّه لبث شهراً يَقْنُت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيْم؛ الَّتي عَصَتِ اللهَ ، ورسولَه ﷺ(٢) ؛ فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وصلاة الصُّبح ، في دبر كلِّ صلاة ، إذا قال: «سمع اللهُ لمن حمده» من الرَّكعة الأخيرة ، يدعو على أحياءٍ من بني سُلَيم؛ على رِعْلٍ وذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ ويؤمِّنُ مَنْ خلفه . [أحمد (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢) ، وأبو داود (١٤٤٣) ، وابن خزيمة (٦١٨)] .

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٢ ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع) ، والبخاري (الأحاديث من ٤٠٨٦ إلى ٤٠٩٦) ، وانظر شرحها في الفتح ، ففيها تفصيلاتٌ وفوائد كثيرةٌ ، وكذا مسلم (كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، رقم ٦٧٧) .

(٢) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥١ .

قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: وذلك بدء القنوت، وما كنَّا نَقنُتُ، وسأل رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعد الرُّكوع، أو عند فراغٍ من القراءة، قال: لا، بل عند فراغٍ من القراءة. [البخاري (٤٠٨٨)][١].

لكن ذلك لم يفتَّ في عَضُدِ المسلمين، ولا فتَّر من حميَّتهم في الدَّعوة إلى الله، ولا كسر من عزمهم في مواصلة الدَّعوة، وخدمة دين الله، لأنَّ مصلحة الدَّعوة فوق الأنفس والدِّماء؛ بل إنَّ الدعوة لا يكتب لها النَّصر؛ إذا لم تُبْذَلْ في سبيلها الأرواحُ، ولا شيء يمكِّن للدَّعوة في الأرض مثل الصَّلابة في مواجهة الأحداث، والأزمات، واسترخاص التَّضحيات من أجلها.

إنَّ الدَّعوات بدون قوى، أو تضحيات، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات، وأخيلةٍ، تلفُّها الكتب، وترويها الأساطير، ثمَّ تُطْوَى مع الزَّمن.

إن حادثتي الرَّجيع وبئر مَعُونة، تُبَصِّرانا بالمسؤولية الضَّخمة عن دين الله، والدَّعوة إليه، وضعت نُصْبَ أعيننا[٢] نماذج من التَّضحيات العظيمة الَّتي قدَّمها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، من أجل عقيدتهم، ودينهم، ومرضاة ربِّهم.

إنَّ للسَّعادة ثمناً، وإنَّ للرَّاحة ثمناً، وإنَّ للمجد والسُّلطان ثمناً، وثمن هذه الدَّعوة دمٌ زكيٌّ يُراق في سبيل الله، من أجل تحقيق شرع الله ونظامه، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة[٣].

٢ ـ فزت وربِّ الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن مِلْحانَ رضي الله عنه، فعندما اخترق الرُّمْحُ ظهرَه حتَّى خرج من صدره، وأصبح يتلقَّى الدَّم بيديه، ويمسح به وجهه، ورأسه، وقال: فزت وربِّ الكعبة. [البخاري (٤٠٩٢)].

إنَّ هذا المشهد يجعل أقسى القلوب، وأعظمها تحجُّراً يتأثَّر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الَّذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعاً من الموت، وإنما يعلوها البِشْرُ والسُّرور، وتغشاها السَّكينة والطُّمأنينة[٤].

وهذا المنظر البديع الرَّائع الَّذي لا يتصوَّره العقل البشريُّ المجرَّد عن الإيمان جعل جَبَّار بن سلمى، وهو الَّذي طعن حرام بن ملحان يتساءل عن قول حرام: «فزت وربِّ الكعبة» وهذا جبَّار

---

(١) وحاصل المسألة: أنَّ القنوت للحاجة بعد الرُّكوع، وأمَّا لغير الحاجة فالصَّحيح أنه قبل الركوع، وقد اختلف عمل الصَّحابة في ذلك، والظَّاهر: أنَّه من الاختلاف المباح.

(٢) نُصْبَ أعْيُننا: أي أمامنا.

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ١٥٢.

(٤) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ، للحميديِّ (٦/ ٥٠).

يحدِّثنا بنفسه ، فيقول: إنَّ ممَّا دعاني إلى الإسلام: أنِّي طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سِنَان الرُّمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول: «فزت وربِّ الكعبة!» فقلت في نفسي: ما فاز ، ألست قد قتلت الرَّجل؟! حتَّى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا: للشَّهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله! فكان سبباً لإسلامه. [البيهقي في الدلائل (٣/ ٣٥٣)][1].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونـا للتَّساؤل: هل يتعرض الشَّهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشَّافية من رسول الله ﷺ الَّذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشَّهيد من مسِّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصة» [الترمذي (١٦٦٨) ، والنسائي (٦/ ٣٦) ، وابن ماجه (٢٨٠٢)].

فللشهيد منزلةٌ خاصَّة عند الله ، فجزاء الثَّمن الباهظ الَّذي يدفعه ، وهو روحه رخيصةً في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لم يبخسه الحكم العدل حقَّه ، فكافأه مكافأةً بستِّ جوائز ، كلُّ واحدةٍ منها تعدل الدُّنيا وما فيها ، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشَّهيد عند الله سِتُّ خصالٍ: يُغفَر له في أوَّل دفعةٍ من دمه ، ويَرى مقعده من الجنَّة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويُحَلَّى حُلَّة الإيمان ، ويزوَّج من الحور العين ، ويُشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» [الترمذي (١٦٦٣) ، وابن ماجه (٢٧٩٩)][2].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميَّز المشرَّف؛ الَّذي يأتي به يوم القيامة: وجُرْحُهُ كهيئته يوم جُرِح: «اللَّون لون الدَّم ، والرِّيح ريح المسك» [الترمذي (١٦٥٦)].

كما أنَّ حياة الشُّهداء لا تنتهي بمجرَّد موتهم ، بل هم أحياء يرزقون ، ويتنعمون عند ربِّهم[3]. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٣ـ عدم معرفة النَّبيِّ ﷺ للغيب:

إنَّ حادثتي بئر مَعُونة والرَّجيع ، وغيرهما تدلاَّن على أنَّ الرَّسول ﷺ لا يعلم الغيب ، كما دلَّت على ذلك أدلَّةٌ أخرى منها قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٩١ ، ٤٠٩٢) ففيه فوائد كثيرة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير الآية ١٧١ من سورة آل عمران).

(٣) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص٢٤٥.

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده عالم الغيب ، والرُّسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علَّمهم ربُّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ[١] : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن : ٢٦ ـ ٢٧] .

٤ ـ الوفاء بالعهد :

وقع عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ رضي الله عنه أسيراً في بئر مَعُونة ، ولمَّا علم عامرُ بن الطُّفَيل : أنَّه من مُضر أطلقه ، وجزَّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنَّها كانت على أمِّه ، فلمَّا خرج عمرو قاصداً المدينة ، نزل في طريقه في ظلٍّ ، والتقى برجلين من بني عامر ـ وكان معهما عقدٌ من رسول الله ، وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أميَّة ـ وقد سألهما حين نزلا : ممَّن أنتما؟ فقالا : من بني عامر ، فأمهلهما ، حتَّى إذا ناما ، عدا عليهما ، فقتلهما ، وهو يرى أنَّه قد أصاب بهما ثُؤْرةً[٢] من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلمَّا قدم عمرو بن أميَّة على رسول الله ، فأخبره الخبر ، قال رسول الله ﷺ : لقد قتلت قتيلين ؛ لأدِيَنَّهما[٣] .

وهذا موقفٌ رفيعٌ ، فقد وَدَىٰ ﷺ ذينك الرَّجلين العامريين اللَّذينِ قتلهما عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ ؛ لكونهما يحملان عقداً منه ﷺ ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما ، وهذا يمثِّل منتهى القمَّة في الوفاء بالعهود .

قد كان بإمكان النَّبيِّ ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أميَّة جزءاً من الانتقام الَّذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون ، ولكنْ ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين مِنْ قومهم؟!

إنَّ التَّوجيهات الإسلاميَّة الرَّفيعة دفعت بالمسلمين ، ونبيِّهم ﷺ إلى الرُّقيِّ الأخلاقي ، الَّذي لا نظير له في دنيا النَّاس[٤] .

٥ ـ الصَّحابيُّ الجليل عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه :

«لما قُتل الَّذين ببئر مَعُونة وأُسِرَ عمرُو بن أُميَّة الضَّمري ، قال له عامر بن الطُّفَيْل : من هذا ـ وأشار إلى قتيل ـ؟ فقال له عمرُو بن أميَّة : هذا عامرُ بن فُهَيرة . فقال : لقد رأيتُه بعدما قُتل رُفع إلى السَّماء ، حتَّى إنِّي لأنظرُ إلى السَّماء بينه وبين الأرض ، ثمَّ وُضعِ» [البخاري (٤٠٩٦)][٥] .

---

(١) انظر وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٣٧ .
(٢) الثؤرة : الثأر ، وهو الطَّلب بالدم .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٠٦) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٦/ ٥٠) .
(٥) سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) .

٦ ـ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يحرِّض على قتل عامر بن الطُّفَيْل:

كان حسَّان رضي الله عنه من رجالات المؤسَّسة الإعلاميَّة، فكان يشنُّ الحرب النَّفسيَّة على الأعداء، وكان بجانبه كعبُ بن مالكٍ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، فلم يتركوا حدثاً من أحداث السِّيرة إلا قالوا فيه شعراً، وكلُّ قصيدةٍ للكافرين يردُّون عليها بقصائدَ، وقد عَلِمنا ما أحدثه شعر حسَّان في طرد كعب بن الأشرف اليهوديِّ، وكان ﷺ يتعهَّد شعراء الدَّولة الإسلاميَّة ويشجِّعهم على خوض هذا الباب من الجهاد، فعلى المسلمين المعاصرين قادةً، وزعماء، وعلماء، وفقهاء، وجماعات. أن يرعوا شعراءهم، ويشجِّعوهم لخوض هذا الجهاد العظيم(١).

ولمَّا بلغ حسَّاناً خبرُ أصحاب بئر مَعُونة، نَظَمَ أبياتاً تناقلتها الرُّكبان، يحثُّ فيها ربيعةَ بن عامر بن مالك مُلاعبِ الأسِنَّة، ويحرِّضه بعامر بن الطُّفيلِ بإخفاره ذمَّة أبيه أبي براء:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي رَبِيْعاً ... بِمَا أَحْدَثَتْ فِي الحِدْثَانِ بَعْدِي
أَبُوكَ أَبُو الفِعَالِ أَبُو بَرَاءٍ ... وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ
بَنِي أُمِّ البَنِيْنَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ
تَحَكُّمُ عَامِرٍ بِأَبِي بَرَاءٍ ... لِيَخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ(٢)

فلمَّا بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشِّعْرُ، وكان الشِّعر عندهم أوجع مِنْ رشق النَّبْل، وقطْع السُّيوف للرِّقاب، وطعن النُّحور بالرِّماح: قام ربيعةُ بأخذ ثأر أبيه، فضرب عامرَ بنَ الطُّفيل ضَرْبةً أشواه بها ـ أي: لَمْ تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومُه، وقالوا لعامرٍ: اقتصَّ! فقال: قد عفوت، وإن عِشْتُ فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ(٣).

وممَّا قاله حسَّان وهو يبكي قتلى بئر مَعُونة، ويخصُّ المنذرَ بن عمرو رضي الله عنه:

عَلَىٰ قَتْلَىٰ مَعُوْنَةَ فَاسْتَهِلِّي ... بِدَمْعِ العَيْنِ سَحّاً غَيْرَ نَزْرِ(٤)
عَلَىٰ خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةَ لاَقَوا ... مَنَايَاهُمْ وَلاَ قَتْهُم بقَدْرِ
أَصَابَهُمُ الفَنَاءُ بِعَقْدِ قَوْمٍ ... تُخُوِّن عَقْدُ حَبْلِهِمُ بغَدْرِ(٥)
فيا لهفي لِمُنْذرٍ إذْ تَوَلَّىٰ ... وَأَعْنَقَ فِي مَنِيَّتِه بِصَبْرِ(٦)

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها (٢/ ٦٥٦).
(٢) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (٤/ ٦٤).
(٣) انظر القصة في فتح الباري شرح حديث (٤٠٩٦).
(٤) استهلِّي: أسبلي دمعك. السّح: الصَّبُّ الكثير المتتابع. والنَّزر: القليل.
(٥) تُخُوِّن: انتُقص. (بالبناء للمجهول).
(٦) أعنق: أسرع. والعنقُ: ضَرْبٌ من السَّير فسيحٌ سريعٌ للإبل والخيل. ابن هشام (٣/ ٢٠٩).

٧ ـ مصير عامر بن الطُّفيل العامريُّ:

استجاب الله لدعاء نبيِّه ﷺ، فقد دعا ﷺ على عامر بن الطُّفَيْل، فقال: «اللَّهُمَّ اكفني عامراً!» [الطبراني في الكبير (٥٧٢٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦)] (١)، فأُصيب الطَّاغيةُ بمرضٍ عُضَال (٢)، ووصفه ﷺ بقوله: «غدةٌ كغدَّة البعير» (٣)، وسمَّاه ﷺ بـ (الطَّاعون)، وهو وصفٌ دقيقٌ للطَّاعون الدُّبلي، الَّذي يتميَّز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفاوية في منطقة الإرب، وتحت الإبط، وكذا تضخُّم الطِّحال) (٤)، وهو ما أُصيب به عامر بن الطُّفَيل حتَّى أصبح حبيساً في بيت امرأةٍ من قومه.

لقد أُصيب عامرُ بن الطُّفَيْل، وتلاشت أحلامُه بالتَّملُّك على أهل المدن في الجزيرة العربيَّة، أو خلافة النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا تلك الجيوشُ الَّتي هدَّد النَّبيَّ ﷺ بها، فقد تحوَّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأةٍ، قد ولَّى عنه النَّاس، ونفروا منه خشيةَ العدوى، ففقدَ صوابَه، وصرخ بمن بقي حوله، فقال: «غُدَّةٌ كغُدَّة البكر في بيت امرأةٍ من بني آل فلان، ائتوني بفرسي، فمات على ظَهر فَرَسِه» [البخاري (٤٠٩١)] (٥)؛ هلك ذلك الجبَّار العنيد كالمجنون، بعد أن تطاير النَّاسُ من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى (٦).

* * *

(١) البداية والنِّهاية (وفد بني عامر وقصَّة عامر بن الطفيل)، وفتح الباري (شرح حديث رقم (٤٠٩) فقرة: في بيت امرأة من بني فلان).

(٢) العُضَال: الشَّديد المعجز. ويقال: داء عضال: أي: لا طبَّ له.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية، لمحمَّد الصوياني، ص ١٣٠.

(٤) انظر: تعليق الدَّكتور قلعجي على الدَّلائل (٣/ ٣٤٦).

(٥) انظر السِّيرة النَّبويَّة، للصَّوياني، ص ١٣١.

(٦) المصدر السابق نفسه.

المبحث الثَّاني
زواج النَّبي ﷺ بأمِّ المساكين ، وأمِّ سلمة ، وأحداثٌ متفرِّقةٌ

أولًا: زينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خُزَيْمة بن الحارث الهلاليَّة ، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمَّى في الجاهليَّة أمَّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوَّجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة ، فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتُوُفِّيَتْ في حياته ﷺ في آخر ربيعٍ الأوَّل على رأس تسعة وثلاثين شهراً ، ودفنت في مدينة رسول الله ﷺ[(١)].

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب ، الَّذي قُتل في معركة أُحدٍ شهيداً في سبيل الله تعالى ، فتزوَّجها ﷺ إكراماً لها بعد أن فُجِعَتْ بقتل زوجها في معركة أُحدٍ ، ولم يتركها أرملةً وحيدةً ، فكأنَّه ﷺ كافأها على فضائلها بعد مصاب زوجها[(٢)].

ثانياً: زواج النَّبيِّ ﷺ بأمِّ سلمةَ رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أميَّة حُذافة بن المغيرة القرشيَّة المخزومية ، كانت زوجة ابن عمِّها أبي عبد الله بن عبد الأسد ، وزوجها هذا هو ابن عمَّة الرَّسول ﷺ برَّة بنت عبد المطلب ، وهو أيضاً أخو رسول الله ﷺ من الرَّضاعة ، وقد هاجرت أمُّ سلمة رضي الله عنها وزوجُها أبو سلمةَ إلى الحبشة فراراً بدينهما من المشركين ، ثمَّ رجعا إلى مكَّة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ والمسلمون[(٣)].

١ ـ حديث أمِّ سلمةَ لأبي سلمةَ رضي الله عنهما:

قالت أُمُّ سلمة لأبي سلمة: بلغني: أنه ليس امرأةٌ يموت زوجها؛ وهو من أهل الجنَّة ، ثمَّ لم

---

(١) انظر: تفسير القرطبيّ (١٤/ ١٦٦).
(٢) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (١١/ ٤٦٩).
(٣) انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٢٠٢).

تتزوَّج بعده ، إلا جمع الله بينهما في الجنَّة؛ فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي ، ولا أتزوَّج بعدك! قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا متُّ تزوَّجي ، اللّهم! ارزق أمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منِّي ، لا يحزنها ، ولا يُؤذيها. فلمَّا مات؛ قلتُ: مَنْ خيرٌ من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسولُ الله ﷺ ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها ، أو ابنها ، فقالت: أردُّ على رسول الله ﷺ ، أو أتقدَّم عليه بعيالي ، ثمَّ جاء الغد ، فخطب(1).

٢ ـ دعاءُ أمِّ سلمة لمَّا توفِّي زوجُها:

لمَّا تُوفي زوجُها أبو سلمة من أثر جراحاتٍ أصابته في قتاله للمشركين ، وكانت تحبُّه ، وتجلُّه ، جاءت للنَّبيِّ ﷺ ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أبا سلمةَ قد مات! قال ﷺ «قولي: اللَّهم! اغفر لي ، وله ، وأعقبني(2) منه عُقْبىٰ حَسَنَةً». قالت: فقلت ، فأعْقَبَني اللهُ مَنْ هو خَيْرٌ لي منه محمَّداً ﷺ . [أحمد (٦/ ٢٩١ و٣٠٦) ، ومسلم (٩١٩) ، وأبو داود (٣١١٥) ، والنسائي (٤/ ٤) ، وابن ماجه (١٤٤٧)].

٣ ـ حوار رسول الله ﷺ لأمِّ سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: إنَّ أمَّ سلمة لما انقضت عدَّتها ، خطبها أبو بكر ، فردَّته ، ثمَّ خطبها عمر ، فردَّتـه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ ، فقالت مرحباً: أخبِرْ رسولَ الله: أنِّي غَيْرَى(3) ، وأنِّي مُصْبِيةٌ(4) وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أمَّا قولك: إنِّي مصبيةٌ فإنَّ الله سيكفيك صبيانك. وأمَّا قولُك: إنِّي غيرى ، فسأدعو الله أن يُذْهِبَ غيرتك. وأمَّا الأولياء ، فليس أحدٌ منهم إلا سيرضى بي» [أحمد (٦/ ٣١٣ ـ ٣١٤) ، والنسائي (٦/ ٨١ ـ ٨٢)](5) وفي روايةٍ: إنِّي امرأة قد أدبر من سنِّي. فكانت إجابة رسول الله ﷺ لها: «وأمَّا السِّنُّ؛ فأنا أكبر منك» [طبقات ابن سعد (٨/ ٩٠)] وهكذا أحسن إليها ﷺ الجواب ، وما كان إلا محسناً(6).

قالت أمُّ سلمة: يا عمر «أي ابنها»! قم فزوِّجْ رسولَ الله ﷺ . [انظر الحديث قبل السابق]. قال ابن كثير في تعليقه على قول أمِّ سلمة: قم يا عمر فزوِّج النَّبيَّ ﷺ : تعني: قد رضيت ، وأذنت ، فتوهَّم بعضُ العلماء: أنَّها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثلُه العقد ،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣). وقال المحقِّق: أخرجه ابن سعد ، ورجاله ثقاتٌ.
(٢) وأعقبني: أي: بدِّلني وعوِّضني منه ، أي: في مقابلته. عقبى حسنة: أي: بدلاً صالحاً.
(٣) غيرى: كثيرة الغيرة.
(٤) مُصبية: أي: ذات صبيان ، وأولاد صغار.
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) وإسناده صحيحٌ.
(٦) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٠).

وقد جمعتُ في ذلك جزءاً مفرداً بيَّنت فيه الصَّواب في ذلك ، ولله الحمد والمنَّة ، وإنَّ الذي ولي عقدها عليه ابنُها سلمة بن أبي سلمة ، وهو أكبر ولدها[١] .

٤ ـ تأثيث رسول الله ﷺ لبيت أمِّ سَلمةَ ، ومعاملته لها :

فلمَّا وافقت على الزَّواج ؛ قال لها رسولُ الله ﷺ : «أما إنِّي لا أُنقصكِ ممَّا أَعْطَيْت فلانة ؛ رحيين ، وجرَّتين ، ووسادةً من أدَمٍ حشوها ليفٌ» [انظر الحديث قبل السابق] .

وكانت أمُّ سلمة قد ولدت طفلةً من زوجها أبي سلمة بعد موته ، فعندما تزوَّجها ﷺ ؛ جعل يأْتيها ، فإذا جاء ؛ أخذت زينبَ ، فوضعتها في حجرها لترضعها ، وكان ﷺ حييّاً كريماً يستحيي ؛ فيرجع ، ففعل ذلك مراراً[٢] ، ففطن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه وهو أخٌ لأم سلمة من أمِّها «سميَّة» الشَّهيدة التي قتلها أبو جهل ، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أمِّ سلمة ، فأخذ ابنةَ أختِه ليسترضعها في بيته ، أو عند أحد النِّساء ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : «أين زناب؟» ، فقالت قريبة ابن أبي أميَّة ـ ووافقها عندها[٣] ـ : أخذها عمَّار بن ياسر . فقال ﷺ : «إني آتيكم اللَّيلة» .

قالت أمُّ سلمة : فقمتُ ، فوضعتُ ثِفَالي[٤] ، وأخرجتُ حبَّاتٍ من شعيرٍ كانت في جَرَّتي ، وأخرجتُ شحماً ، فعصدته ، ثمَّ بات ، ثمَّ أصبح ، وقال حين أصبح : «إنَّ بك على أهلك[٥] كرامةً ، فإن شئت ؛ سبَّعت[٦] لك ، وإن أسبعْ لكِ أسبعْ لنسائي [مسلم (١٤٦٠/ ٤١ و٤٣) ، وأبو داود (٢١٢٢)] ، وإن شئت ثَلَّثْتُ ، ثمَّ دُرْتُ !» قالت : ثَلِّثْ[٧] ؛ فأقام النَّبيُّ ﷺ ثلاثة أيام عند أمِّ سلمة ، ثمَّ قال ﷺ : «للبكر سبعٌ ، وللثَّيب ثلاثٌ» [مسلم (١٤٦٠/ ٤٢)] ، وهذه المدَّة هي مدة إقامة المتزوِّج عند زوجته إذا كان عنده غيرها .

أقام ﷺ عند أمِّ سلمة رضي الله عنها ثلاثة أيام سعيدةً ، ثمَّ رتَّب لها يوماً كبقيَّة زوجاته .

٥ ـ تغيير اسم بَرَّة بنت أبي سلمة :

تقول تلك الطِّفلةُ اليتيمة رضي الله عنها : إن النبي ﷺ دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي بَرَّة ، فسمعها تدعوني بَرَّة ، فقال : «لا تزكُّوا أنفسكم ؛ فإنَّ الله هو أعلم بالبَرَّة منكنَّ ،

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٩٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٠٤) .
(٣) أي : توافق مجيءُ النَّبي ﷺ مع زيارة تلك المرأة لأمِّ سلمة .
(٤) الثِّفَالُ : هو ما يُبْسَطُ تحت الرَّحَىٰ عند الطَّحن من جِلْدٍ ، وغيره ؛ ليسقط عليه الدَّقيقُ .
(٥) على أهلك : يقصد نفسه ﷺ .
(٦) أي : أقمتُ عندك سبعة أيام .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة كما جاءت من الأحاديث الصَّحيحة ، للصوياني (٣/ ١٣٦) .

والفاجرة ، سمِّيها زينب» ، فقالت أمُّ سلمة : فهي زينب . [مسلم (٢١٤٢/١٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢١)] .

وهذا من هدي النَّبيِّ ﷺ ، فقد كان يحبُّ الأسماء الجميلة ، ولم يكن ﷺ يغيِّر أسماء الأطفال فقط ، بل كان للرِّجال ، والنِّساء ، والعجائز نصيبٌ من ذلك الذَّوق النَّبويِّ الرَّفيع ، فقد ذُكِرَ عند رسول الله ﷺ رجلٌ يقال له : شِهَاب ، فقال رسول الله ﷺ : «بل أنت هشام» [البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥) ، وأحمد (٦/ ٧٥) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٥١)] .

و(كان ﷺ إذا أتاه الرَّجل ، وله اسم لا يحبُّه ؛ حوَّله) [الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١١٩) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٥١)] ، إلى اسم أجمل ، وألطف ، وكان ﷺ يفعل ذلك مع العجائز ؛ فهذه عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا ؛ حيث تقول : جاءت عجوزٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وهو عندي ، فقال لها رسول الله ﷺ : «من أنت؟» قالت : جَثَّامة الْمُزَنِيَّة .

فقال : «بل أنت حَسَّانة المزنيَّة! كيف أنتم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت : بخير ، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله!

فقُرِّب إليه لحمٌ ، فجعل يناولها ، فقلتُ : يا رسولَ الله! لا تغمر يدك . فلمَّا خَرَجَتْ قلتْ : يا رسول الله! تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال : «إنَّها كانت تأتينا زَمَن خديجة ، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان» [البيهقي في شعب الإيمان (٩١٢٢) ، والحاكم (١/ ١٦) ، والألباني في الصحيحة (٢١٦)] .

٦ ـ الحكمة في زواج أمِّ سلمة :

والحكمة في هذا الزَّواج ـ كما يقول صاحب تفسير المنار ـ : ليس لأجل التَّمتُّع المباح له ؛ وإنَّما كان لفضلها ؛ الذي يعرفه المتأمِّل بجودة رأيها يوم الحديبية ، ولتعزيتها ـ أي : بوفاة زوجها(١) ـ ولا ننسى كذلك : أنَّ أم سلمة من بني مخزوم أعزِّ بطون قريشٍ ، وهي الَّتي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة ضدَّ رسول الله ﷺ ، ووراء هذا الزَّواج تفتيت حقد هذه القبيلة ، وتقريب قلوب أبنائها ، وتوطئةٌ ، وتحبُّبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهارَ رسول الله ﷺ(٢) .

وفي هذا الزَّواج فقه النَّبيِّ ﷺ في البناء الدَّاخليِّ للأمَّة ، وتأدية حقِّ الشُّهداء في زوجاتهنَّ ،

---

(١) انظر : تفسير المنار (٤/ ٣٧٢) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٣٥٦) .

وحقُّ هؤلاء الزَّوجات من أن يَنْهَلْنَ من نور النُّبوَّة ما يشاء الله أن ينهلْنَ لكي يُبَلِّغْنَ عن رسول الله[(١)].

وكانت أمُّ سلمة آخرَ مَنْ مات من أمَّهات المؤمنين ، وكانت وفاتُها سنةَ إحدى وستين ، وقد رَوَتْ عن رسول الله أحاديث ، يبلغ مسندها ثلاثمئة وثمانية وثمانين حديثاً ؛ واتَّفق البخاريُّ ، ومسلمٌ على ثلاثة عشرة ، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ ، ومسلمٌ بثلاثة عشر[(٢)]. لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله ﷺ ، وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أمَّهات المؤمنين طالما شَعَّ النُّورَ ، والهُدى ، والعلم ؛ فرضي الله عنها ، وأرضاها![(٣)].

ثالثاً: مولد الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما:

قال الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وُلد الحسنُ في شعبان من السَّنة الرَّابعة ، وعلى هذا ولد الحسين قبل تمام السَّنة من ولادة الحسن ، ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ: أنَّ فاطمة علقَتْ بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلةً ، وجزم النَّواويُّ في التَّهذيب أنَّ الحسن وُلِد لخمسٍ خلونَ من شعبان سنة أربعٍ من الهجرة[(٤)].

يقول عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لمَّا ولد الحسن سمَّيْتُه حرباً ، فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: أروني ابني! ما سمَّيتموه؟ قلت: حرباً! قال ﷺ: بل هو حسنٌ. [أحمد (١/ ٩٨ و١١٨) ، وابن حبان (٦٩٥٨) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣) ، والطبراني في الكبير (٢٧٧٣) ، والحاكم (٣/ ١٨٠) ، والبزار (١٩٩٧) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٥٢)].

وهكذا غيَّر ﷺ ذلك الاسمَ الحادَّ باسمٍ جميلٍ ، يُدخل السُّرور ، والفرحة على القلوب.

فحمل المولودُ الجديدُ اسمه الجميلَ ، وحمله ﷺ بين يديه ، وقَبَّلَه ، وهذا أبو رافع يخبرنا عن فعل رسول الله ﷺ ؛ يقول: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ أذَّن في أُذُنَي الحسن ـ حين ولدته فاطمةُ ـ بالصَّلاة. [أحمد (٦/ ٩ و٣٩٢) ، وأبو داود (٥١٠٥) ، والترمذي (١٥١٤)].

وحدَّثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن ، فقال: لما وَلَدَتْ فاطمةُ حسناً ؛ قالت: ألا أعقُّ[(٥)] عن ابني بدمٍ (بكبشين)؟ قال ﷺ: «لا ، ولكن احلقي رأسه ، وتصدَّقي بوزن شعره من فضَّةٍ على المساكين ، والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٥٧).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).
(٤) انظر: شذرات الذَّهب ، لابن العماد الحنبلي (١/ ١٠).
(٥) عقَّ عن ولده عقاً: ذبح ذبيحةً يوم سُبُوعه. العقيقة: الذَّبيحة التي تُذبح عن المولود يوم سبوعه عند حَلْقِ شعره ، والجمع عَقَائِقُ.

المسجد ، أو الصُّفة . ففعلتُ ذلك . [أحمد (٣٩٠ و٣٩١)] .

وأحبَّ ﷺ أن يقدِّم عقيقة الحسن ، فعقَّ عنه كبشين . [النسائي (٧/ ١٦٦)][(١)] .

وقد قال ﷺ في العقيقة : «كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقته ؛ يُذبح عنه يوم سابعه ، ويُحْلَقُ رأسُه ، ويُسَمَّى» . [أحمد (٥/ ٧ و٨ و١٢ و١٧ و٢٢) ، وأبو داود (٢٨٣٧ و٢٨٣٨) ، والترمذي (١٥٢٢) ، والنسائي (٧/ ١٦٦) ، وابن ماجه (٣١٦٥)] .

رابعاً : زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (٤هـ) :

وفي هذه السَّنة تعلَّم زيدُ بن ثابت كتابة اليهود ، فعن خارجةَ بن زيد بن ثابتٍ عن زيد بن ثابتٍ : أنَّ رسول الله ﷺ أمره أن يتعلَّم كتابَ اليهود ؛ ليقرأه للنَّبيِّ ﷺ إذا كتبوا إليه [البخاري (٧١٩٥)] ، فتعلَّمه في خمسة عشرَ يوماً ، وفي روايةٍ أخرى : أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا قدم المدينة ، ذُهب بزيد إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : يا رسولَ الله ، هذا غلامٌ من بني النَّجار ، معه ممَّا أنزل اللهُ عليك بضعَ عشرةَ سورةً ، فأعْجبَ ذلك رسولَ الله ﷺ ، وقال : «يا زيد! تعلَّمْ لي كتاب يهود ، فإنِّي والله ما آمن يهود على كتاب» قال زيد : فتعلَّمت له كتابَهم ، ما مرَّت خمس عشرة ليلةً حتى حذقْتُه ، وكنت أقرأ له كتبهم ؛ إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب . [أحمد (٥/ ١٨٦) ، وأبو داود (٣٦٤٥) ، والترمذي (٢٧١٥)][(٢)] .

وبهذا الخبر يتَّضح : أنَّ للتّرجمان مكانةٌ رفيعةُ في الدَّولة ؛ إذ هو الَّذي يطَّلع على أسرار الدَّولة وما يأتيها من مراسلاتٍ ، أو ما ترسله من مُخاطباتٍ ؛ إذ لا يصحُّ أن يطَّلع كلُّ إنسان على تلك الكتب الصَّادرة ، والواردة ؛ لئلا تختلَّ الدَّولة ، وتُكشَفَ أسرارُها ؛ ولذلك أمر النَّبيُّ ﷺ زيدَ بن ثابت أن يتعلَّم لغة اليهود[(٣)] .

وتَعَلُّمُ زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدلُّ على ذكاءٍ مُفْرِطٍ ، وقوَّةِ حافظةٍ ، وقد كان رضي الله عنه ممَّن حفظ القرآن كلَّه على عهد رسول الله ﷺ ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه ، وهو الَّذي تولَّى كتابة القرآن وحده في الصُّحف في عهد الصِّدِّيق ، وكان أحدَ كاتبي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه ، وأمْرُ رسولِ الله ﷺ زيداً بتعلُّم لغة اليهود ، وكتابتهم يدلُّ على أنَّ الإسلام يحبِّب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم ، ويتعرَّف على علومهم ، ومعارفهم ؛ ولا سيَّما إذا دعت لذلك ضرورةٌ[(٤)] .

* * *

(١) انظر : السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصّوياني (٣/ ١٠٦) .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٩) .
(٣) انظر : زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن ، لصفوان داودي ، ص ٨٠ ـ ٨١ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٤٩) .

المبحث الثَّالث
إجلاء يهود بني النَّضير[١]

أصابَ يهودَ المدينة الخوفُ ، والرُّعبُ طيلةَ الفترة الَّتي تفصلُ بين مقتل كعب بن الأشرف ، وبين معركة أُحدٍ ؛ الَّتي جرت في شوال عام (٣ هـ) ؛ ولكن الهزيمة الَّتي حَلَّتْ بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل مِنْ جديدٍ بتحقيق مطامعهم ، وأغراضهم ، وأزالت من قلوب اليهود الهَلَعَ[٢] على المصير ، وممَّا ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتلُ أصحاب الرَّجيع ، وبئر مَعُونة ، وبذلك لم يَدُمْ خوفُ اليهود طويلاً ، وعادوا إلى أساليب الدَّسِّ ، والمكر ، والخداع ، وشرعوا في حشد حصونهم بالسِّلاح ، والعتاد للانقضاض على المسلمين ، ودولتهم ، ثمَّ صمَّموا على قتل النَّبيِّ ﷺ ، والغدر به[٣] .

أولاً : تاريخ الغزوة وأسبابها :

أ ـ تاريخ الغزوة :

يرى المحقِّقون من المؤرِّخين : أنَّ غزوة بني النَّضير ، كانت بعد أُحدٍ في ربيع الأوَّل من السَّنة الرَّابعة من الهجرة ، وقد ردَّ ابنُ القيِّم على من زعم : أنَّ غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ [البخاري تعليقاً (٧/ ٤١٨)] بقوله : «وزعم محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ : أن غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ ، وهذا وَهْمٌ منه ، أو غلطٌ عليه ، بل الَّذي لا شكَّ فيه : أنَّها بعد أُحدٍ ، والَّذي كانت بعد بدر بستة أشهرٍ هي غزوة بني قينقاع ، وقريظة بعد الخندق ، وخيبر بعد الحديبية»[٤] .

وقال ابن العربيِّ : والصَّحيح أنَّها بعد أُحد[٥] ، وإلى هذا الرَّأي ذهب ابن كثيرٍ[٦] .

---

(١) ينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٧٥٠ و٧٥١) .

(٢) هَلَع هلعاً : جزع جزعاً شديداً .

(٣) انظر : التاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٤) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٤٩) .

(٥) انظر : أحكام القرآن ، لابن العربي (٤/ ١٧٦٥) .

(٦) انظر : حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٢٥٤) .

ب ـ أسباب الغزوة:

هناك مجموعةٌ من الأسباب حملت النَّبيَّ ﷺ على غزو بني النَّضير، وإجلائهم؛ من أهمها:

١ ـ نَقضُ بني النَّضير عهودَهم؛ الَّتي تحتِّم عليهم ألا يؤووا عدوّاً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النَّقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضَّعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السَّويق[1]؛ حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكَّة ـ بعد غزوة بدرٍ ـ نذراً؛ ألا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتَّى يغزوَ المدينة، فلمَّا خرج في مئتي راكبٍ قاصداً المدينة؛ قام سيد بني النَّضير سلاَّم بن مِشْكَم بالوقوف معه، وضيافته، وأبطن له خبر النَّاسِ، ولم تكن مخابرات المدينة غافلةً عن ذلك[2].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ: «كانت بنو النَّضير قد دسُّوا إلى قريشٍ، وحضُّوهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلُّوهم على العورة»[3].

٢ ـ محاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ:

خرج النَّبيُّ ﷺ في نفر من أصحابه عن طريق قُباء إلى ديار بني النَّضير، يستعينهم في دية القتيلين العامريَّين اللَّذين ذهبا ضحيةَ جهل عمرو بن أميَّة الضَّمري بجوار رسول الله ﷺ لهما، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النَّبيِّ ﷺ وبين بني النَّضير حول أداء الدِّيات، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النَّضير وبين بني عامر من عقودٍ، وأحلاف.

استقبل بنو النَّضير النَّبيَّ ﷺ بكثيرٍ من البشاشة، والكياسة، ثمَّ خلا بعضهم إلى بعضٍ يتشاورون في قتله، والغدر به، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على إلقاء صخرةٍ عليه ﷺ من فوق جدارٍ كان يجلس بالقرب منه، ولكنَّ الرسول ﷺ ـ الَّذي كان برعاية الله وحفظه ـ أدرك مقاصد بني النَّضير؛ إذ جاءه الخبر من السَّماء بما عزموا عليه مِنْ شَرٍّ، فنهض، وانطلق بسرعةٍ إلى المدينة، ثمَّ تبعه أصحابه بعد قليلٍ[4].

لم تكن مؤامرةُ بني النَّضير؛ الَّتي أفشلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ تستهدف شخص النَّبيِّ ﷺ فحسب؛ بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة، والدَّعوة الإسلاميَّة برُمَّتها، لذا صمَّم

---

(١) غزوة السَّويق كانت بعد بدر وقد تحدَّثت عنها في المبحث الثامن من الفصل الثامن من هذا الكتاب.
(٢) انظر: تاريخ الطَّبري (٢/ ٢٨٤).
(٣) انظر: فتح الباري، كتاب المغازي، باب حديث بني النَّضير (٧/ ٣٣٢).
(٤) انظر: الواقدي (١/ ٣٦٥)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري، ص ١٩٠.

محمَّد ﷺ على محاربة بني النَّضير؛ الَّذين نقضوا العهد، والمواثيق معه، وأمر أصحابه بالتَّهيُّؤ لقتالهم، والسَّير إليهم[(١)].

هذه الأسباب وغيرها أدَّت إلى غزوة بني النَّضير، وقد ذكَّر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النِّعمة الجليلة، وكيف نجى اللهُ نبيَّه ﷺ من مكر يهود بني النَّضير قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

وقد أورد المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة رواياتٍ؛ منها:

أخرج الطَّبريُّ عن أبي زيادٍ قال: جاء رسولُ الله ﷺ بني النَّضير ليستعينهم في عقل[(٢)] أصحابه، ومعه أبو بكر، وعمر، وعلي، فقال: أعينوني في عقل أصابني، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! قد آن لك أن تأتينا، وتسألنا حاجةً، اجلس حتَّى نطعمك، ونعطيك الَّذي تسألنا، فجلس رسول الله ﷺ، وأصحابه ينتظرون، وجاء رأسُ القوم، وهو الَّذي قال لرسول الله ﷺ ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارةً، فاقتلوه، ولا ترون شراً أبداً.

فجاؤوا إلى رحى لهم عظيمةٍ؛ ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه مِنْ ثَمَّ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر الله نبيَّه ﷺ ما أرادوا به. [ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥)].

وذكر محمَّد بن إسحاق ومجاهد، وعكرمة، وغير واحدٍ[(٣)]: أنَّها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرَّحَىٰ، لمَّا جاءهم يستعينهم في دية العامريَّين، ووكَّلوا عمرو بن جِحاش بذلك: إن جلس النَّبيُّ ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده؛ أن يلقي الرَّحى مِنْ فوقه، فأطلع الله النَّبيَّ ﷺ على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية[(٤)].

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النَّضير من كيدٍ، وسوءٍ للنَّبيِّ ﷺ، وأصحابه، فقال: «وأولى الأقوال بالصِّحَّة في تأويل ذلك قول مَنْ قال: عنى اللهُ

---

(١) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، ص ١٩٠.
(٢) عقل عن فلان: حمل عنه العاقلة، وهي الدِّيةُ.
(٣) هذه الآثار وإن كان فيها ضعفٌ يمكن أن تعضد؛ لتصبح بمجموعها صالحةً للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة، ص ١٤٥.
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

بالنِّعمة الَّتي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله الَّتي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيَّهم ﷺ ممَّا كانت يهود بني النَّضير همَّت به مِنْ قتله ، وقتل مَنْ معه يوم سار إليهم في الدِّيَة الَّتي تحمَّلها عن قتيلي عمرو بن أميَّة . وإنَّما قلنا : أولى بالصِّحَّة في تأويل ذلك ؛ لأنَّ الله عقَّب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها ، وقبيح فِعَالها ، وخيانتها ربَّها ، وأنبياءها»[(١)] .

وقد وافق الدُّكتور محمد آل عابد ترجيح الطَّبريِّ ، وقال : لا مانع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعةً ، فقد تعدَّدت الحوادث ، والمنزل واحدٌ كما قال العلماء[(٢)] .

ومعنى الآية الكريمة : أي : اذكروا نعمة الله عليكم ، الَّتي من أكبر مظاهرها كفُّه عنكم أيدي اليهود ؛ الَّذين همُّوا أن يمدُّوا أيديهم بالسُّوء إلى نبيِّكم ، وشارَفُوا أن ينفِّذوا مؤامرتهم الخبيثة ، ولكنَّ الله أحبط مكرَهم ، ونجَّىٰ نبيَّكم ﷺ من شرورهم .

ثمَّ أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكُّل عليه ، فقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ .

أي : اتقوا الله ـ أيُّها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته ، ولا تُخلُّوا بشكرها ، فقد أراكم قدرته ، وتوكَّلوا عليه وحدَه ، فقد أراكم عنايته بكم ، وعلى الله وحدَه فليتوكَّل المؤمنون[(٣)] .

ثانياً : إنذار بني النَّضير بالجلاء وحصارهم :

أ ـ إنذار بني النَّضير :

سجَّلت معظمُ كتب السِّيرة النَّبويَّة ، خبرَ إنذار النَّبيِّ ﷺ لبني النَّضير بالجلاء خلال عشرة أيام ، وقد أرسل ﷺ محمَّدَ بن مسلمة رضي الله عنه إليهم ، وقال له : اذهبْ إلى يهود بني النَّضير ، وقل لهم : إنَّ رسولَ الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي ؛ لقد نقضتُم العهد الَّذي جعلت لكم ممَّا هممتم به من الغدْر ، وقد أجَّلتُكم عشراً ، فمن رُئي بعدُ منكم ضربتُ عنقَه[(٤)] . ولم يجدوا جواباً يردُّون به سوى أن قالوا لمحمَّد بن مسلمة : يا محمد! ما كنَّا نظن أن يجيئنا بهذا رجلٌ من الأوس! فقال محمَّد : تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلامُ العهود . فقالوا : نتحمَّل ؛ فمكثوا أياماً يُعِدُّون العدَّة للرَّحيل[(٥)] .

وفي تلك المدَّة أرسل إليهم عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول مَنْ يقول لهم : اثبتُوا ، وتَمَنَّعُوا ؛ فإنَّا

---

(١) انظر : تفسير الطَّبري (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥) .

(٢) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥١) .

(٣) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧) ، والمغازي ، للواقديِّ (١/ ٣٦٣ ـ ٣٧٠) .

(٥) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٥٥٢) .

لن نُسْلِمَكم، وإن قُوتلتم؛ قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم[١]، ولا تخرجوا فإنَّ معي من العرب، وممَّن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يَصِلُوا إليكم[٢].

فعادت لليهود بعضُ ثقتهم، وتشجَّعَ كبيرُهم (حُيي بن أخطب) وأرسل إلى النَّبيِّ ﷺ جُدَي بن أخطب يقول له: إنَّا لن نرِيمَ - أي: لن نبرح - دارنا، فاصنعْ ما بدا لك! فكبر رسولُ الله ﷺ، وكبَّر المسلمون معه، وقال: حاربت يهود[٣].

ب - ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة، ولم يخرجوا من ديارهم، فتحرَّكت جيوشُ المسلمين صوبهم، وضربت عليهم الحصارَ لمدَّة خمس عشْرَة ليلةً.

وأمر ﷺ بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلُّقهم بأموالهم، وزروعهم، وضعفت حماستُهم للقتال، وجَزِعوا، وتصايحوا: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على مَنْ يفعله؛ فما بالُ قطع النَّخيل، وتخريبها؟!

وألقى اللهُ في قلوبهم الرُّعْبَ، وأدرك بنو النَّضير ألاَّ مفرَّ من جلائهم، ودبَّ اليأس في قلوبهم، وخاصَّةً بعد أن أخلف ابن أُبَيٍّ وعده بنصرهم، وعجِز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً، أو يدفعوا عنهم شراً؛ فأرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ يلتمسون منه أن يؤمِّنهم حتَّى يخرجوا من ديارهم، فوافقهم النَّبيِّ ﷺ على ذلك، وقال لهم: «اخرجوا منها، ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل إلا الحَلقة - وهي الدُّروع، والسِّلاح -»؛ فرضوا بذلك[٤].

ونقض اليهود سُقُفَ بيوتهم، وعَمُدَها، وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كمياتٍ كبيرةً من الذَّهب، والفضَّة، حتَّى إن سلاَّم بن أبي الحُقَيْق وحده حمل جلدَ ثورٍ مملوءً ذهباً، وفضَّةً، وكان يقول: هذا الَّذي أعددناه لرفع الأرض، وخفضها، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل[٥].

وحملوا أمتعتهم على ستمئة بعيرٍ، وخرجوا ومعهم الدُّفوف، والمزامير، والقيان يعزفن

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).
(٢) انظر: تاريخ الطَّبري (٢/ ٥٥٣).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٣/ ١٤٦).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥٧).
(٥) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٥٦٦).

من خلفهم حتَّى لا يشمت بهم المسلمون ، فقصد بعضهم خيبر ، وسار آخرون إلى أذرعات الشَّام(١) .

وقد تولَّى عمليَّة إخراجهم من المدينة محمَّد بن مسلمة بأمرٍ من رسول الله ﷺ(٢) .

وكان من أشرافهم الَّذين ساروا إلى خيبر : سَلاَّم بن أبي الحُقَيْق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحُقَيْق ، فلمَّا نزلوها دان لهم أهلُها(٣) .

ثالثاً : الدُّروس ، والعِبَرُ في هذه الغزوة :

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة بني النَّضير في سورةٍ كاملة ، هي سورة الحشر ، وقد سَمَّى حَبْرُ الأمَّة عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النَّضير ، ففي البخاريِّ عن سعيد بن جُبَيْر ، قال : قلتُ لابن عباسٍ رضي الله عنهما : سورة الحشر ، قال : قلْ سورة بني النَّضِير . [البخاري (٤٠٢٩)] .

وقد بينت هذه السُّورة ملابسات هذه الغزوة ، وفصَّلت القول فيها ، وبيَّنت أحكام الفيء ، ومن هم المستحقون له ، وأوضحت موقف المنافقين من اليهود ، كما كشفت عن حقائق نفسيَّات اليهود ، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود ، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وَجَّه سبحانه خطابه إلى المؤمنين ، وأمرهم بتقواه ، وحذَّرهم من معصيته ، ثمَّ تحدث سبحانه عن القرآن الكريم ، وعلوِّ منزلته ، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به سبحانه ، وهكذا كان المجتمع المسلم يتربَّى بالأحداث على التَّوحيد وتعظيم منهج الله ، والاستعداد ليوم القيامة ، وبالتأمُّل في السُّورة يمكننا استخراج بعض الدُّروس ، والعبر ؛ من أهمها :

١ ـ الثناء على الله وتمجيده :

ابتدأت السُّورة بالثَّناء على الله ، وأن الكون كلَّه بجميع ما فيه من مخلوقاتٍ ؛ من إنسانٍ ، وحيوانٍ ، ونباتٍ ، وجمادٍ ، ينزِّه الله ، ويمجِّده ، ويشهد بوحدانيته ، وقدرته ، وجلاله ، وناطقٌ بعظمته ، وسلطانه(٤) . قال تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر : ١] .

كان استفتاح هذه السُّورة بالإخبار أنَّ جميع ما في السَّموات ، والأرض ، يسبِّح بحمد ربه ،

---

(١) انظر : السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٥٦٥) ، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧) .
(٢) انظر : المغازي ، للواقديِّ (١/ ٣٧٤) ، واليهود في السُّنة المطهَّرة (١/ ٣٢١) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢١٢) .
(٤) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣٢٧) .

وينزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله ، ويعبده ، ويخضع لعظمته؛ لأنَّه العزيز ، الَّذي قهر كلَّ شيءٍ ، فلا يمتنع عليه شيءٌ ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ.

الحكيم في خلقه ، وأمره ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يُشرِّع ما لا مصلحة فيه ، ولا يفعل إلا ما هو مُقتضى حكمته؛ ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الَّذين كفروا من أهل الكتاب ، من بني النَّضير ، حين غدروا برسوله ﷺ ، فأخرجهم مِنْ ديارهم ، وأوطانهم الَّتي ألفوها ، وأحبُّوها[1].

٢ ـ الرُّعب جنديٌّ من جنود الله:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يتبيَّن له: أنَّ الله هو الَّذي أخرج يهود بني النَّضير من ديارهم إلى الشَّام حيث أول الحشر ، في حين أنَّ كلَّ الأسباب الماديَّة معهم؛ حتى إنَّهم اعتقدوا: أنَّه لا أحدَ يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها ، وقوَّتها.

لكنَّ الله خالق الأسباب ، والمسبَّبات ، جاءهم من حيث لم يحتسبوا ، جاءهم من قلوبهم الَّتي لم يتوقَّعوا: أنَّهم يهزمون بها ، فقذف فيها الرُّعب ، فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنين ، وهذا الأسلوب القرآنيُّ الفريد يربِّي الأمَّة بالأحداث ، والوقائع ، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السِّير ، ويمتاز بأنَّه يكشف الحقائق ، ويوضِّح الخفايا ، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقيِّ ، وهو ربُّ العالمين ، ومن ذلك أنَّها بيَّنت: أنَّ الذي أخرج بني النَّضير هو الله جلَّ جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبيِّن: أنَّ يهود بني النَّضير حسبوا كلَّ شيءٍ ، وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضيَّة؛ لكن جاءتهم الهزيمة من مكانٍ اطمأنوا إليه ، وهو أنفسهم ، فإذا الرُّعب يأتي من داخلهم ، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظةٍ ، لذلك يجب على كل إنسانٍ عاقلٍ أن يعتبر بهذه الغزوة ، وأن يعرف: أنَّ الله هو المتصرِّف في الأمور ، وأنَّه لا تقف أمام قدرته العظيمة الأسباب ، ولا المسبَّبات ، فهو القادر على كلِّ شيءٍ؛ فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ،

---

(١) انظر: تفسير السَّعدي ، تفسير الآيات من (١ ـ ٧) من سورة الحشر.

ويصلحوا أمرهم ، فإذا اتَّبعوا أمر الله ، أصلح الله لهم كلَّ شيءٍ ، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إنَّ هذه الغزوة درسٌ للأمَّة في جميع عصورها ، تذكِّرهم أنَّ طريق النَّصر قريبٌ ، وهو الرُّجوع إلى الله والاعتماد عليه ، والتَّسليم لشريعته ، وتقديره حقَّ قدره ، فإذا عرف ذلك المؤمنون ، نصرهم الله ، ولو كان عدوُّهم قويّاً ، وكثيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء ، وأقرب شاهدٍ واقعيٍّ لذلك هو إجلاء بني النَّضير ، وهي عبرةٌ ، فليُعتبر بها ، والسَّعيدُ مَنِ اعتبر بغيره!

ثمَّ أوضح سبحانه: أنَّه لو لم يعاقبهم بالجلاء؛ لعذَّبهم في الدُّنيا بالقتل ، أما في الآخرة ، فلهم عذابُ النَّار[١].

٣ ـ تخريب ممتلكات الأعداء:

لمَّا نزل رسول الله ﷺ بجيشه ، وحاصر بني النَّضير تحصَّنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النَّخل ، والتَّحريق فيها ، فنادوه يا محمد! قد كنتَ تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ صنعه، فما بال قطع النَّخل ، وتحريقها؟[٢] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥][٣][٤].

وقد توسَّع الشَّيخ محمَّد أبو زهرة في شرح هذه الآية ، فقال ما ملخَّصه بعد أن ساق آراءَ الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنِّسبة لما يكون في الحرب مِنْ هدمٍ ، وتحريقٍ ، وتخريبٍ: أنه يُستفاد من مصادر الشَّريعة ، وأعمال النَّبيِّ ﷺ في حروبه:

١ ـ أنَّ الأصل هو عدم قطع الشَّجر ، وعدم تخريب البناء؛ لأنَّ الهدف من الحرب ليس إيذاءَ الرَّعية ، ولكن دفع أذى الرَّاعي الظالم ، وبذلك وردت الآثار.

٢ ـ أنَّه إذا تبيَّن: أنَّ قطع الشَّجر ، وهدم البناء توجبه ضرورةٌ حربيَّة لا مناص منها؛ كأن يستتر العدوُّ به ، ويتَّخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين؛ فإنَّه لا مناصَ من قطع الأشجار ، وهدم البناء؛ على أنَّه ضرورةٌ من ضرورات القتال ، كما فعل النَّبيُّ ﷺ هنا ، وفي حصن ثَقِيف.

٣ ـ أنَّ كلام الفقهاء الَّذين أجازوا الهدم ، والقلع يجب أن يُخرَّج على أساس هذه

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٤).
(٣) انظر: تفسير الطَّبريِّ (٢٨/ ٣٤).
(٤) اللِّين: كلُّ أنواع النَّخْل ، والواحدة: لِينة.

الضَّرورات ، لا على أساس إيذاء العدوِّ ، والإفساد المجرَّد ، فالعدوُّ ليس الشَّعب ، إنَّما العدوُّ هم الَّذين يحملون السِّلاح ؛ ليقاتلوا(١) .

٤ ـ تطوير السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة :

بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حكم الأموال الَّتي أخذها المسلمون من بني النَّضير بعد أن تمَّ إجلاؤهم ، فقال تعالى : ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحشر : ٦] .

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أن الأموال الَّتي عادت إلى المسلمين من بني النَّضير ، قد تفضَّل بها عليهم بدون قتالٍ شديدٍ ، وذلك لأنَّ المسلمين مَشَوْا إلى أعدائهم ، ولم يركبوا خيلاً ، ولا إبلاً ، وافتتحها ﷺ صلحاً ، وأجلاهم ، وأخذ أموالهم ، ووضعها حيث أمره الله ؛ فقد «كانت أموال بني النَّضير ممَّا أفاء الله على رسوله ممَّا لم يُوجف عليه المسلمون بخيلٍ ، ولا ركابٍ ، فكانت للنَّبيِّ ﷺ خاصَّةً ، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ ، وما بقي يجعله في الكُرَاعِ والسِّلاح عُدَّةً في سبيلِ الله» [البخاري (٤٠٣٣) ، ومسلم (١٧٥٧)](٢) .

ثمَّ بيَّن المولى ـ عزَّ وجل ـ أحكام الفيء في قرى الكفار عامَّة ، فقال الله تعالى : ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر : ٧] .

وكان فيء بني النَّضير خالصاً لرسول الله ﷺ ، ولهذا تصرَّف فيه ـ أي : الفيء ـ كما يشاء ، فردَّه على المسلمين في وجوه البرِّ ، والمصالح الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآيات .

ولمَّا غنم ﷺ أموال بني النَّضير ؛ دعا ثابت بن قيس ، فقال : «ادعُ لي قومك» ، قال ثابت : الخزرج؟ فقال ﷺ : «الأنصارُ كلُّها» فدعا له الأوس ، والخزرج ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثمَّ ذكر الأنصار ، وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إيَّاهم في منازلهم ، وأموالهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثمَّ قال : «إن أحببتُم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضير ـ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في منازلكم ، وأموالكم ـ وإن أحببتم أعطيتُهم ، وخرجوا من دوركم» . [الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري (٧/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)] .

فقال سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ : يا رسولَ الله! بل تقسم بين المهاجرين ، ويكونون

---

(١) انظر : خاتم النبيِّين ، للشَّيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩) .

(٢) الكُراع : الخيل ، ينفق على أهله نفقة سنة : يعزل لهم نفقة سنة ، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السَّنة في وجوه الخير ، فلا تتمُّ عليه السنة ؛ ولهذا تُوفي ﷺ ودرعُهُ مرهونةٌ على شعير استدانه لأهله ، ولم يشبع ثلاثة أيام تِبَاعاً ، وقد تظاهرت الأحاديث النبوية بكثرة جوعه ، وجوع عياله .

في دورنا ، كما كانوا ، وقالت الأنصار : رضينا وسلَّمنا يا رسول الله!

وقسم ما أفاء الله ، وأعطى المهاجرين ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً ، غير أبي دُجَانة ، وسَهْل بن حُنَيفُ لحاجتهما [ابن هشام (٣/ ٢٠١/ ٢٠٢)][١] ، ومع أنَّه ﷺ يعلم : أنَّ الفيء كان خاصَّاً له ، إلا أنَّه جمع الأنصار ، وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم ، وهذا من الهدي النَّبويِّ الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغايةُ من هذا التَّوزيع ، تخفيفَ العبء عن الأنصار ، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دُورِ بني النَّضير ، وأُعيدت دُورُ الأنصار إلى أصحابها ، واستغنى بعض المهاجرين ممَّا يمكن أن يقال فيه : إنَّ الأزمة قد بدأت بالانفراج[٢].

إنَّ قسمة أموال بني النَّضير ، أوجد تطوُّراً كبيراً في السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة؛ فقد كانت الغنائم الحربيَّة قبل هذه الغزوة ، تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ خُمْسَها؛ لتصرف في مصارف معينةٍ حدَّدها القرآن الكريم[٣] ، وبعد غزوة بني النَّضير ، أصبحت هناك سياسةٌ ماليَّةٌ جديدةٌ فيما يتعلَّق بالغنائم ، وخلاصتها : أنَّ الغنائم الحربيَّة أصبحت ـ حسب السِّياسة الجديدة ـ على نوعين :

١ ـ غنائم استولى عليها المجاهدون بحدِّ سيوفهم ، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدَّولة خُمْسَها؛ لتصرفه في مصارفه الخاصَّة.

٢ ـ غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتالٍ؛ وهذا النَّوع يختصُّ رئيس الدَّولة الإسلاميَّة ، بالتَّصرُّف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك ، يعالج به الأوضاع الاقتصاديَّة في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم ، أو يشتري به سلاحاً ، أو يبني به مدينةً ، أو يصلح به طرقاً. . . إلخ ، وهذا يعني : أنَّه قد أصبح لرئيس الدَّولة الإسلاميَّة ميزانيَّة خاصَّةً يتصرَّف فيها تصرُّفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة[٤].

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ في الآيتين اللَّتين أوضحتا سياسته ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ في تقسيم فيء بني النَّضير إذا اختصَّ به أناساً دون آخرين؛ العلَّةَ في ذلك في قوله تعالى : ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر : ٧] أي : لكي لا يكونَ تداولُ المالِ محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء

---

(١) انظر : شرح الزرقاني على المواهب (٢/ ٨٦).

(٢) تفسير القرطبيِّ للآية (٩) من سورة الحشر ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٣٠) ، وسيرة ابن هشام (أمر إجلاء بني النَّضير) ، والرَّحيق المختوم (غزوة بني النَّضير).

(٣) الآية (٤١) من سورة الأنفال ، والآية (٧) من سورة الحشر ، وانظر تفسيرهما في: ابن كثيرٍ ، والقرطبيِّ ، والسَّعديِّ.

(٤) انظر : قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٦٩.

منكم فقط ، والتَّعليلُ لهذه الغاية يؤذِن بأنَّ سياسة الشَّريعة الإسلاميَّة في شؤون المال قائمةٌ في جملتها على تحقيق هذا المبدأ ، وأنَّ كلَّ ما تفيض به كتب الشَّريعة الإسلاميَّة من الأحكام المتعلِّقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبغى من ورائه إقامة مجتمعٍ عادلٍ تتقارب فيه طبقاتُ النَّاس ، وفئاتهم ، ويُقضى فيه على أسباب الثَّغرات الَّتي قد تظهر فيما بينها ، والَّتي قد تؤثِّر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وأنظمتها الخاصَّة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزَّكاة ، ومنع للرِّبا ، وقضاءٍ على مختلف مظاهر الاحتكارات؛ لعاش النَّاسُ كلُّهم في بُحْبُوحَةٍ(١) من العيش ، قد يتفاوتون في الرِّزق ، ولكنَّهم جميعاً مكتفون ، وليس فيهم كَلٌّ(٢) على آخر ـ وإن كانوا جميعاً يتعاونون ـ(٣) وبعد بيان العلَّة في توزيع أموال الفيء ، عَقَّبَ سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرَّسول ﷺ ، وأن ينتهوا عمَّا نهاهم عنه ، وأنَّ هذا من لوازم الإيمان ، وأمرهم بالتَّقوى ، فإنَّ عقابه شديدٌ ، وأليمٌ للعُصاة ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أي: ما أمركم به الرَّسول ﷺ فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه؛ فإنَّه إنَّما يأمركم بكلِّ خيرٍ ، وصلاحٍ ، وينهى عن كلِّ شرٍّ وفسادٍ.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا ربَّكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي: فإنَّ عقابه أليم ، وعذابه شديدٌ لمن عصاه ، وخالف ما أمره به ، قال المفسِّرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنَّها عامَّةٌ في كلِّ ما أمر به النَّبيُّ ﷺ ، أو نهى عنه من واجبٍ أو مندوبٍ ، أو مستحبٍّ ، أو محرَّمٍ ، فيدخل فيها الفيءُ ، وغيره(٤) ، وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تربِّي الأمَّةَ على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى ، ولحكم رسوله ﷺ وذلك من كلِّ الأمور ، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال ﷺ: «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتُكم به فافعلوا منهم ما استطعتُم؛ فإنَّما أهْلَكَ الَّذين من قبلكم كثرةُ مسائلِهم ، واختلافُهم على أنبيائهم» [أحمد (٢/ ٢٤٧) ، ومسلم (١٣٣٧/ ١٣٠ و١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٩) ، والنسائي (٥/ ١١٠ ـ ١١١) ، وابن ماجه (١ و٢)].

---

(١) بَحْبَحَ في الشَّيءِ: توسَّع. البُحْبُوحَة من كلِّ شيء: وسطه ، وخياره.
(٢) الكَلُّ: مَنْ يكونُ عبْئاً على غيره.
(٣) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٩٤.
(٤) انظر: تفسير الرَّازي (٢٩/ ٢٨) ، وصفوة التَّفاسير (٣/ ٣٥١).

٥ ـ فَضْلُ المهاجرين والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان :

فَضْلُ المهاجرين :

بيَّنت الآياتُ الكريمةُ في سورة الحشر ، فضلَ المهاجرين على غيرهم ، فهم لهم الدَّرجة الأولى ، فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة ، وشهد الله لهم بالصِّدق ، قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] .

فَضْلُ الأنصار :

وَضَّحت الآياتُ فضلَ الأنصار ، وقد وصفهم الله بهذه الصفات ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

فَضْلُ التَّابعين لهم بإحسان :

وهم المتتبِّعون لآثارهم الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الدَّاعون في السِّرِّ ، والعلانية لإخوانهم الَّذين سبقوهم بالإيمان(١) .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وهكذا تحدَّثت السُّورة الكريمة عن صورٍ مشرقةٍ للمهاجرين ، والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان .

٦ ـ موقف المنافقين في المدينة :

بيَّنتِ الآياتُ الكريمة حالَ المنافقين، ووضَّحتْ موقفَهم، وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود ، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين ، وموقف اليهود ونفسيَّاتهم(٢) .

قال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

---

(١) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٢٩١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٦٤) .

يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٧].

يخبرنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن المنافقين؛ كعبد الله بن أُبيٍّ وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النَّضير يَعِدُونَهم بمناصرتهم، وقوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ أي: الَّذين بينهم وبينهم أُخوَّة الكفر، وهم يهود بني النَّضير، وجعلَهم إخواناً لهم؛ لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوانٌ في الكفر. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي: والله! لئن أخرجتم من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من ديارنا في صحبتكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في شأنكم، ومن أجلكم، ﴿أَحَدًا﴾ ممَّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم، وإن طال الزَّمان، ثمَّ لمَّا وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنُّصرة لهم، فقالوا: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ أي: وإن قاتلكم المسلمون ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: على المسلمين؛ الَّذين يقاتلونكم، ثمَّ كذَّبهم الله تعالى، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنَّصر لهم.

ولما أجمل ـ سبحانه وتعالى ـ كَذِبَ المنافقين فيما وعدوا به بني النضير؛ فصَّل ما كذبوا فيه[١]، وزاد في تأكيد الرَّدِّ عليهم، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أَخْرَجَ المسلمون اليهودَ؛ فإنَّ المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: ولئن قاتل المسلمون اليهود؛ فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. أي: ولئن نصر المنافقون اليهود ـ على سبيل الفرض ـ، فإنَّ نصرهم لن يضرَّ المسلمين شيئاً؛ بل إنَّ الفريقين سيولُّون الأدبار أمام المسلمين، ثمَّ لا ينصر الله بني النَّضير.

ثمَّ قرر القرآنُ الكريم حقيقةً قائمةً في نفوس اليهود، والمنافقين، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لأنتم يا معشر المسلمين! أشدُّ خوفاً، وخشيةً في صدور اليهود، والمنافقين من الله تعالى، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى، وهذه الحال منهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون الله، وعظمته؛ حتَّى يخشوه حقَّ خشيته[٢].

ثمَّ أكَّد ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحقيقة بصفاتٍ أخرى فيهم، فقال تعالى: ﴿لَا

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٢).
(٢) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٢٨٣).

﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ﴾ فقد كشف ـ سبحانه وتعالى ـ عن حقائق نفسيَّة اليهود، فهم جبناء، لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطنَ مكشوفةٍ؛ بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصَّنة بالخنادق، وجدرانهم، وحوائطهم الَّتي يتستَّرون مِنْ خلفها.

ثمَّ كشف القرآن عن بعض أسباب ضعفهم، وخورهم، فقال تعالى: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

فهؤلاء اليهود في الظَّاهر تراهم مجتمعين صفّاً واحداً ضدَّ المسلمين، لكنَّ الآية تبين: أنَّهم عكس ذلك في الحقيقة، فهم ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾ أي: عداوتهم بعضهم لبعضٍ شديدةٌ ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: تظنُّهم مجتمعين على أمرٍ، ورأيٍ ولكنَّهم في الحقيقة ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ أي: متفرِّقة.

وقوله سبحانه ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: بسبب أنَّهم قومٌ لا يعقلون الحقَّ، ولا يدورون معه، وإنَّما يدورون في ركاب الباطل(١).

وفي الآية تجسيرٌ للمؤمنين، وتشجيعٌ لقلوبهم على قتال اليهود؛ لأنَّهم عرفوا من ربِّ العالمين، بأنَّ اليهود جبناء، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ ما نزل ببني النَّضير من بلاءٍ بسبب غدرهم، قد نزل ما يشبهه بإخوانهم من بني قينقاع، فذاقوا جزاءَ خيانتهم، وغرورهم. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

ثمَّ ضرب الله مثلاً آخر للمنافقين، الَّذين أَغْرَوْا بني النَّضير بالمقاومة ثمَّ خذلوهم عند المحنة، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالَّذين وعدوهم النَّصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾.

ثمَّ لمَّا حقَّت الحقائق، ووقع عليهم الحصار، والقتال، تخلَّوا عنهم، وأسلموهم للتَّهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سَوَّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرَّأ منه، وتنصَّل، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر، وهو الشَّيطان، والفاعل له، وهو المستجيب للشَّيطان: أنَّهما في النار خالدين

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).

فيها أبد الآبدين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: جزاء كلِّ ظالمٍ[1].

٧ ـ وعظُ المؤمنين، وتذكيرهم باليوم الآخر، وبيانُ الفرق الشَّاسع بين أصحاب الجنَّة، وأصحاب النار:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨ ـ ٢٠].

وهذه الآياتُ الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسه، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها.

ومع الانتصارات العظيمة الَّتي حقَّقها المسلمون بالقضاء على يهود بني النَّضير، والتَّوسُّع الاقتصاديُّ الَّذي حدث للصَّحابة، مع توسُّع موارد الدَّولة بدخول مصدر الفيء يأتي القرآن الكريم في هذه الحادثة؛ ليؤكِّد على معاني العقيدة، وأصولها، والتَّذكير باليوم الآخر، والاستعداد له، فيأمر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أفراد المجتمع المسلم بما يوجبه الإيمان، ويقتضيه من لزوم التَّقوى سرّاً وعلانيةً، ومراعاة ما أمرهم الله به من أوامره، وحدوده، وينظروا ما لهم، وما عليهم، وماذا قدموا من الأعمال، وهل تنفعهم، أو تضرُّهم يوم القيامة؟

وطلب منهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعلوا الآخرة نُصْبَ أعينهم، وقبلةَ قلوبهم، وأن يهتمُّوا بشأنها، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الَّتي توصلهم إلى رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يتغلَّبوا على القواطع، ويزيلوا العوائق الَّتي توقفهم عن السَّير نحو مرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ[2].

وجاء التعبير القرآنيُّ بقوله ﴿لِغَدٖۖ﴾ يريد يوم القيامة، فقرَّب الله تعالى القيامة حتَّى جعلها غداً، وذلك لأنَّها آتيةٌ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريبٌ[3].

وأعلمهم ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه خبير بما يعملون، ولا تخفى عليه أعمالُهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ لكي يَجِدُّوا، ويجتهدوا[4].

وحذَّرهم من أن يكونوا كالَّذين غفلوا عن ذكر الله، فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم، فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

ثمَّ نفى ـ سبحانه وتعالى ـ المساواة بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار، وبيَّن: أنَّ أصحاب

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٤).
(٢) انظر: تفسير السَّعدي (٧/ ٣٤٠).
(٣) انظر: المحرر الوجيز (١٤/ ٣٩٠).
(٤) تفسير السَّعدي (٤/ ٣٤٢).

الجنَّة هم الفائزون بالنَّعيم الخالد، النَّاجون من عذاب الله، أمَّا أصحاب النَّار؛ فهم الخاسرون(١).

وهذا التَّفصيل، والتَّذكير، والوعظ، وتقريب الآخرة من الأذهان، والقلوب موجبٌ لأهل الإيمان إلى المبادرة والمشاركة في الخيرات.

٨ ـ عظمة القرآن الكريم، وعلوُّ منزلته، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به ـ سبحانه وتعالى ـ:

١ ـ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ومعنى الآية: لو جعلنا في الجبل عقلاً، كما جعلنا فيكم أيُّها الناس! ثمَّ أنزلنا عليه القرآن، لخشع هذا الجبل، وخضع، وتشقَّق من خشية الله، وهذا تمثيل لعلوِّ شأن القرآن، وقوَّة تأثير ما فيه من المواعظ، والزَّواجر، وفيه توبيخٌ للإنسان على قسوة قلبه، وقلَّة تخشُّعه حين قراءة القرآن، وتدبُّر ما فيه من القوارع الَّتي تذلُّ لها الجبال الرَّاسيات(٢)، ثمَّ بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه يضرب للنَّاس الأمثال، ويوضِّح لعباده الحلال، والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في آياته، ويتدبَّروها؛ لأن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيِّن له طريق الخير، والشَّرِّ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن، والتدبُّر لمعانيه(٣).

٢ ـ وفي نهاية سورة الحشر تحدَّثت الآيات الكريمة عن بعض أسماء الله الحسنى، وأوصافه العلا. قال تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وهكذا خُتِمتِ السُّورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفاتٍ جليلةٍ، لكي يتربَّى المجتمع المسلم على تحقيق العبودية لله، ويتعرَّف إليه من خلال أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشَّامل، وتدبيره العامِّ، وكلُّ إله غيره فإنَّه باطلٌ، لا يستحق

---

(١) تفسير السَّعدي (٣/ ٣٤٢)، وانظر: حديث القرآن الكريم.

(٢) انظر: تفسير المراغي (٢٨/ ٥٧) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٣) انظر: تفسير السَّعدي (٧/ ٣٤٤).

من العبادة مثقال ذرَّةٍ ، لأنَّه فقيرٌ ، عاجزٌ ، ناقصٌ ، لا يملك لنفسه ، ولا لغيره شيئاً .

ثمَّ وصف نفسه بعموم العلم الشَّامل ، لما غاب عن الخلق ، وما يشاهدونه ، وبعموم رحمته؛ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ ، ووصلت إلى كلِّ حيٍّ ، ثمَّ كرَّر ذكر عموم ألوهيته ، وانفراده بها ، وأنَّه المالك لجميع الممالك ، فالعالم العلويُّ ، والسُّفليُّ ، وأهله؛ الجميع مماليك لله ِ ، فقراء مُدَبَّرُون .

﴿ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ﴾ أي : المقدَّس السَّالم من كلِّ عيبٍ ، ونقص ، المعظَّم ، المُمَجَّد؛ لأنَّ القدُّوس يدلُّ على التَّنزيه من كلِّ نقصٍ ، والتَّعظيم لله في أوصافه ، وجلاله .

﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ أي : المصدِّق لرسله ، وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البينات ، والبراهين القاطعات ، والحجج الواضحات .

﴿ ٱلْعَـزِيزُ﴾ الَّذي لا يغالَب ، ولا يمانَع ، بل قد قهر كلَّ شيءٍ ، وخضع له كلُّ شيءٍ .

﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ الَّذي قهر جميع العباد ، وأذعن له سائر الخلق؛ الَّذي يجبر الكسير ، ويغني الفقير .

﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ الَّذي له الكبرياء والعظمة ، المتنزِّه عن جميع العيوب ، والظُّلم ، والجور .

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيهٌ عامٌّ عن كل ما وصفه به مَنْ أشرك به ، وعانده .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات .

﴿ ٱلْبَارِئُ﴾ للمبروءات .

﴿ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ للمصوَّرات .

وهذه الأسماء متعلقةٌ بالخلق ، والتَّدبير ، والتَّقدير ، وأنَّ ذلك كلَّه قد انفرد الله به ، لم يشاركه فيه مشاركٌ .

﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي : له الأسماء الكثيرة جدّاً ، الَّتي لا يحصيها ، ولا يعلمها أحدٌ إلا هو ، ومع ذلك فكلُّها حُسنى ؛ أي : صفات كمالٍ ، بل تدلُّ على أكمل الصِّفات ، وأعظمها ، لا نقص في شيءٍ منها بوجهٍ من الوجوه .

ومن حسنها : أنَّ الله يحبُّها ، ويحب مَنْ يحبُّها ، ويحبُّ من عباده أن يدعوه ، ويسألوه بها .

ومن كماله ، وأنَّ له الأسماء الحسنى ، والصِّفات العليا : أنَّ جميع من في السَّموات؛ والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام ، يسبِّحون بحمده ، ويسألونه حوائجهم ، فيعطيهم من فضله ، وكرمه ، ما تقتضيه رحمتُه ، وحكمته .

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الَّذي لا يريد شيئاً إلا ويكون ، ولا يكوِّن شيئاً إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ(١) .

إنَّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا ، تتضمَّن أنواع التَّوحيد الثلاثة : توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الإلٰهيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، ولذلك تربَّى الصَّحابة على معرفتها ، والعمل بها ، فأنواع التَّوحيد هي رُوح الإيمان ، ورَوْحُه ، وأصله ، وغايته ، فكلَّما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله ، وصفاته؛ ازداد إيمانه ، وقوي يقينه ، فهذا العلم رسخ في قلوب الصَّحابة ، فأوجب لهم خشية الله ، ومعرفته حقَّ المعرفة ، فعملوا بموجبها(٢) .

٩ ـ تحريم الخمر :

حرِّمت الخمر ليالي حصار بني النَّضير(٣) في ربيع الأوَّل ، من السَّنة الرَّابعة من الهجرة(٤) ، وقد خضع تحريم الخمر لِسُنَّة التَّدرُّج ، وكان ذلك التَّحريم على مراحل معروفةٍ في تاريخ التَّشريع الإسلاميِّ ، حتَّى نزلت الآيات الحاسمة في النَّهي عنها من سورة المائدة ، وفي ختامها : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩١] قال المؤمنون في قوَّةٍ ، وتصميمٍ : قد انتهينا يا رب!(٥) .

وفي قوله تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ : «وهذا النَّصُّ الَّذي بين أيدينا كان أوَّلَ خُطوةٍ من خطوات التَّحريم ، فالأشياء ، والأعمال قد لا تكون شرّاً خالصاً ، فالخير يلتبس بالشَّرِّ ، والشَّرُّ يلتبس بالخير في هذه الأرض ، ولكنَّ مدار الحلِّ والحُرْمة هو غلبة الخير أو غلبة الشَّرِّ ، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النَّفع ، فتلك علَّة تحريمٍ ، ومنعٍ وإن لم يصرَّح هنا بالتَّحريم ، والمنع .

هنا يبدو لنا طرفٌ من منهج التَّربية الإسلاميَّة القرآنيَّة الرَّبانيَّة الحكيمة ، وهو المنهج الَّذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه ، وفرائضه ، وتوجيهاته؛ ونحن نشير إلى قاعدةٍ من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر ، والميسر ، عندما يتعلَّق الأمر ، أو النَّهي بقاعدةٍ من

---

(١) انظر : تفسير السَّعدي (٧/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) .
(٢) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، للصَّلابي ، ص ٢٢٨ .
(٣) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥٣) .
(٤) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ١٠) .
(٥) انظر : الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ١٨١ .

قواعد التَّصوُّر الإيمانيِّ ـ أي: بمسألةٍ اعتقاديَّةٍ ـ فإنَّ الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللَّحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلَّق الأمر، أو النَّهي بعبادةٍ، وتقليدٍ، أو بوضعٍ اجتماعيٍّ مُعَقَّد، فإنَّ الإسلام يتريَّث به، ويأخذ المسألة باليسر، والتدرُّج، ويهيِّئ الظُّروف الواقعة الَّتي تُيَسِّرُ التَّنفيذ والطَّاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التَّوحيد، أو الشِّرك؛ أمضى أمره منذ اللَّحظة الأولى في ضربةٍ حازمةٍ جازمةٍ، لا تردُّد فيها، ولا تَلَفُّت، ولا مجاملة فيها، ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطَّريق؛ لأنَّ المسألة هنا مسألةٌ أساسيَّةٌ للتَّصوُّر، لا يصلح بدونها إيمانٌ، ولا يقام إسلامٌ.

فأمَّا الخمر، والميسر؛ فقد كان الأمر أمر عادةٍ، وألفة، والعادة تحتاج إلى علاجٍ، فبدأ بتحريك الوجدان الدِّيني المنطقيِّ التَّشريعيِّ في نفوس المسلمين بأنَّ الإثم في الخمر، والميسر أكبرُ من النَّفع، وفي هذا إيحاءٌ بأنَّ تركهما هو الأولى، ثمَّ جاءت الخطوة الثَّانية بآية سورة النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

والصَّلاة في خمسة أوقات، معظمها متقاربٌ، لا يكفي ما بينها للسُّكر، والإفاقة! وفي هذا تضييقٌ لفرص المزاولة العمليَّة لعادة الشُّرب، وكسرٌ لعادة الإدمان الَّتي تتعلَّق بمواعيد التَّعاطي؛ إذ المعروف: أنَّ المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه[1] من مسكرٍ، أو مُخَدِّرٍ في الموعد؛ الَّذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرَّر هذا التَّجاوز فترةَ حدِّ العادة؛ أمكن التغلُّب عليها، حتَّى إذا تمَّت هاتان الخطوتان؛ جاء النَّهي الجازم الأخير لتحريم الخمر، والميسر ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩١ ـ ٩٢][2].

١٠ ـ لا يحيق المكر السَّيئ إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرَّسول ﷺ والدَّولة الإسلاميَّة، في غاية الخسَّة، والوَضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم، وغدرهم عِزَّةً، ورفعةً، ومجداً، وغلبةً، لكنَّ الله سَخِرَ منهم، ونَجَّى رسولَه ﷺ والمسلمين مِنْ مكرهم، وأذلَّهم، وأخزاهم، فزال مجدُهم، وكسر غلبتهم، وخرَّب بيوتهم، ورحَّلهم عن ديارهم، ولم يكلِّف ذلك المسلمين اصطداماً مسلَّحاً، ولا قتالاً ضارياً، ولكنَّ الله قذف في قلوبهم الرُّعب، والفزع، فطلبوا النَّجاة

---

(١) أَدْمَنَ الشراب: أدامه، ولم يقلع عنه، ويقال: أدمن الأمرَ، وعليه: واظب.
(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٢٩).

بأرواحهم في ذلَّةٍ ، وخزيٍ ، مُخَلِّفين وراءهم ثروةً، وملكاً حازه المسلمون غنيمةً باردةً، وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

هذه عاقبة المكر السَّيئ ، والغدر المَشِين ، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى مواطنِ العبرة في هذه الموقعة ، وإلى هذا التَّهديد الَّذي أعلنه لكلِّ مَنْ يسلك سبل المكر المزري ، والحقد المستبدِّ(١) ، وقال: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوهٍ:

١ ـ أنَّ الَّذي يقفُ في وجه الحقِّ ، ويصدُّ النَّاسَ عنه ، ويطارد دعاة الحقِّ منهزمٌ لا محالة ، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

٢ ـ الصِّراع بين الحقِّ ، والباطل لا يتوقَّف ، وباق حتَّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها ، وستكون للباطل جولاتٌ ، وللحقِّ جولاتٌ؛ ولكنَّ العاقبة لأهل الحقِّ في نهاية المطاف.

٣ ـ الاعتبار يكون بتجنُّب ما ارتكبه اليهود من خيانةٍ وغدرٍ ، حتَّى لا يحدُثَ نفسُ المصير الَّذي حدث لهم من الهزيمة ، والذُّلِّ والهوان(٢).

١١ ـ لا إكراه في الدِّين:

كان في بني النَّضير أناسٌ من أبناء الأنصار قد تهوَّدُوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود ، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرَّحيل معهم فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما ، قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتَ(٣) ، فتجعل على نفسها: إن عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَهُ ، فلمَّا أُجليت بنو النَّضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا: لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. [أبو داود (٢٦٨٢) ، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٨٢ و١٠٩٨٣)].

* * *

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨.

(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس ، ص ١٧٩.

(٣) المِقْلاتُ: المرأة التي لا يعيش لها ولدٌ.

المبحث الرَّابع
غزوة ذات الرِّقاع

أولاً: تاريخها، وأسبابها، ولماذا سُمِّيت بذات الرِّقاع[١]:

اختلفَ أهلُ المغازي والسِّيَر في تاريخ هذه الغزوة، وقد ذهب البُخاريُّ [البخاري تعليقاً (٧/ ٥٣٠)] إلى أنَّها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق[٢] إلى أنَّها بعد غزوة بني النَّضير، وقيل: بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقديِّ[٣]، وابن سعدٍ[٤] أنَّها كانت في المحرم سنة خمسٍ، ورجَّح ابن عمر ما ذهب إليه البخاريُّ[٥]؛ لأنَّ أبا موسى الأشعريَّ شهدها وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرةً، وشهدها أبو هريرة، وقد أسلم حين فتح خيبر، وصلَّى فيها رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الخوف، ولم تكن شُرِعت في الخندق؛ بل شرعت في عسفان أيَّام الحديبية، والحديبية سنةَ ستٍّ.

أمَّا الدُّكتور البوطي[٦]؛ فقد جزم؛ أنَّها قبل الخندق، واحتجَّ في ذلك بما ثبت في الصَّحيح من أنَّ جابراً رضي الله عنه استأذن الرَّسولَ ﷺ في غزوة الخندق، وأخبر امرأتَهُ بما رأى من جوعِ رسول الله ﷺ، وفيه قصَّة الطَّعام الَّذي دعا إليه النَّبيَّ ﷺ، ومجيء كلِّ الجيش، ومعجزةَ الرَّسول ﷺ في تكثير طعام جابرٍ، وفيه قول الرَّسول ﷺ لزوجة جابر: «كلي هذا، وأهدي؛ فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعةٌ» [البخاري (٤١٠١)].

وما ثبت في الصَّحيحين [البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥/ ٧٣)، وأحمد (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)] أيضاً من أنَّ الرَّسول ﷺ سأل جابراً في غزوة ذات الرِّقاع إن كان قد تزوَّج بعدُ، فأجاب بنعم، ممَّا يدلُّ

---

(١) انظر: شرح ذلك كلِّه في فتح الباري. وينظر الشكل (٨) في الصفحة (٧٥٢).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٢٥).
(٣) انظر: المغازي، للواقدي (١/ ٣٩٥).
(٤) انظر: الطَّبقات، لابن سعد (٢/ ٦١).
(٥) فتح الباري: شرح الأحاديث المتقدِّمة.
(٦) انظر: فقه السِّيرة للبوطي، ص ٢١٠.

على أنَّ الرَّسول ﷺ لم يكن علم شيئاً عن زواجه ، وأخذ البوطي في ردِّ أدلَّة ابن حجر في كونها بعد خيبر ، فقال: أمَّا ما استدل به الحافظُ ابن حجر من أنَّه ﷺ لم يصلِّ صلاةَ الخوف في الأحزاب ، وصلاَّها قضاءً ، فيجاب عنه بأنَّه ربَّما كان سبب تأخير الرَّسول ﷺ لها إذ ذاك استمرارَ الرَّمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالاً للانصراف إلى الصَّلاة ، وربَّما كان العدوُّ في جهة القبلة ، أو ربَّما أخرها لبيان مشروعيَّة قضاء الفائتة كيفما كانت .

كما يجاب عن استدلاله بحديث أبي موسى الأشعريِّ بما ذكره كثيرٌ من علماء السِّيَر ، والمغازي من أنَّ أبا موسى إنَّما قصد بها غزوةً أخرى سُمِّيت هي أيضاً بذات الرِّقَاع ، بدليل أنَّه قال عنها: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاةٍ ونحن في ستة نفرٍ بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)][١] . . . إلخ ، وغزوة ذات الرِّقاع الَّتي نتحدَّث عنها كان العدد أكثر من ذلك[٢] .

ومال الدُّكتور الحكمي[٣] ، والدُّكتور العمري[٤] ، إلى ما ذهب إليه البخاريُّ وابن حجر ، ومال الدُّكتور مهدي رزق الله أحمد إلى ما ذهب إليه البوطيُّ[٥] ، وقال بأنَّ حجةَ الدُّكتور البوطي بزواج جابر قبل الخندق لا تُدْفَع ، وهي في الصَّحيحين؛ إضافةً إلى أنَّ البخاريَّ قد ذكر رأيه مُعَلَّقَاً ، وحجَّته فقط مجيء أبي موسى بعد خيبر ، وهي حجَّةٌ دفعها البوطيُّ بترجيح تعدُّد الغزوة[٦] ، وقد ذكر البوطيُّ: أنَّ تاريخ الغزوة كان في السَّنة الرَّابعة للهجرة بعد مرور شهرٍ ونصفٍ تقريباً على إجلاء بني النَّضير ، وقال بأن هذا الرَّأي ذهب إليه أكثر علماء السِّيَر ، والمغازي[٧] وإليه ذهبتُ .

وأمَّا سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثيرٍ من قبائل نجدٍ بالمسلمين ، ذلك الغدر الَّذي تجلَّى في مقتل أولئك الدُّعاة السبعين الَّذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى ، فخرج ﷺ قاصداً قبائل مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة[٨] ، وقد ذكر الدُّكتور محمَّد أبو فارس: أنَّ قادماً قدم المدينةَ ، فأخبر المسلمين: أن بني مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة من غَطَفَان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم في عُقْر دارهم ، على رأس أربعمئة مقاتلٍ ، وقيل: سبعمئة

---

(١) بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُه: أي: نركبه عقبةً ، وهو أن يركبَ هذا قليلاً ، ثم ينزل ، فيركب الآخر بالنَّوبة؛ حتَّى يأتي على سائرهم .

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

(٣) انظر: مرويات الحديبية ، ص ٧٣ ـ ٨٦ .

(٤) انظر: المجتمع المدني ، ص ١٣٠ .

(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

(٦) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

(٧) انظر: فقه السيرة النبوية ، ص ١٩٤ .

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

مقاتلٍ ، ولمَّا وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم؛ خافوا ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، تاركين نساءهم ، وأطفالَهم ، وأموالَهم ، وحضرت الصَّلاةُ ، فخاف المسلمون أن يُغيروا عليهم ، فصلَّى رسولُ الله ﷺ صلاة الخوف ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة(١) .

وقد حقَّقت هذه الحملةُ العسكريَّةُ أغراضَها ، وتمكَّنت من تشتيت الحشد الَّذي قامت به غَطَفَان لغزو المدينة ، فأرهب ﷺ تلك القبائل ، وألقى عليها درساً بأنَّ المسلمين ليسوا قادرين فقط على سَحْق مَنْ تحدِّثه نفسُه بالاقتراب من المدينة؛ بل قادرون على نقل المعركة إلى أرض العدوِّ نفسه ، وضربه في عُقْر داره(٢) .

وسُمِّيت بذات الرِّقاع؛ لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَقَ ، والرِّقاع اتِّقاءَ الحرِّ ، وقيل: لأنَّهم رقَّعوا راياتهم ، وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرِّقاع(٣) ، وقيل: لأنَّ المسلمين نزلوا في أرضٍ كان فيها بقعٌ بيض ، وسودٌ مختلفةٌ ، فسمِّيت لذلك(٤) ، والصَّحيح: لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم مِنَ الخرق؛ فقد روى الشَّيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعريِّ ، قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ في غزاةٍ ونحن في ستَّة نفرٍ ، بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ ، فَنَقِبَت(٥) أقدامُنا ، ونَقِبَت قدماي ، وسَقَطَتْ أظفاري ، وكنَّا نلفُّ على أرجلنا الخِرَق ، فسُمِّيت غزوةَ ذات الرِّقاع لما كنا نُعَصِّبُ بالخِرَق على أرجلنا . [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)] .

ثانياً: صلاة الخوف ، وحراسة الثُّغور:

١ ـ صلاة الخوف:

أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه ﷺ صلاةَ الخوف في هذه الغزوة ، وبيَّن القرآنُ الكريمُ صفةَ الصَّلاة ساعةَ مواجهة العدو ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢] .

فقد صلَّى المسلمون صلاة الخوف ، وصفةُ هذه الصَّلاة: أنَّ طائفةً صَفَّتْ معه ، وطائفة وِجَاهَ العدوِّ ، فصلَّى بالَّذين معه ركعةً ، ثمَّ ثَبَتَ قائماً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ انصرفوا فَصَفُّوا

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ١٤ .
(٢) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٣٠٩) .
(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ١٧٠ .
(٥) نَقِبتْ أقدامُنا: قرحت من الحفاء .

وِجَاهَ العدوِّ ، وجاءت الطائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعة؛ الَّتي بَقِيَتْ في صلاته ، ثمَّ ثَبَتَ جالساً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ سَلَّمَ بهم . [البخاري (٤١٢٩) ، ومسلم (٨٤٢)][١] .

وفي روايةٍ: «فصلَّى بطائفةٍ ركعتين ، ثمَّ تأخَّروا ، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين ، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعاتٍ ، وللقوم ركعتانِ» [البخاري (٤١٣٦) تعليقاً، ومسلم (٨٤٣/ ٣١١) ، وأحمد (٣/ ٣٦٤)] قال الدُّكتور البوطيُّ: ووجه التَّوفيق بين الحديثين: أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صلَّى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرَّة ، فصلاَّها مرَّةً على النَّحو الأوَّل ، وصلاَّها مرَّةً أخرى على النَّحو التالي .

وكانت هذه الصَّلاة بمنطقة نخلٍ الَّتي تبعد عن المدينة بيومين[٢] ، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمِّية الصَّلاة ، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التَّساهل فيها ، ولا يمكن التَّنازل عنها ، مهما كانت الظروف ، وبذلك تندمج الصَّلاة والعبادة بالجهاد وَفْقَ المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة؛ الَّذي استُمِدَّ من كتاب الله تعالى ، فلا يوجد أيُّ انفصالٍ ، أو انفصامٍ بين العبادة ، والجهاد[٣] .

٢ ـ حراسة الثُّغُور:

عندما رجع الجيشُ الإسلاميُّ من غزوة ذات الرِّقَاع؛ سَبَوْا امرأةً من المشركين ، فنذر زوجُها ألاَّ يرجع حتَّى يُهْرِيق دماً في أصحاب محمَّد ﷺ ، فجاء ليلاً وقد جعل الرَّسولُ ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم ، وهما عبَّاد بن بِشْر ، وعَمَّار بن ياسر ، فضرب عَبَّاداً بسهم وهو قائمٌ يُصلِّي ، فنزعه ، ولم يقطعْ صلاتَه ، حتَّى رشقه بثلاث سهام ، فلم ينصرفْ منها حتَّى سلَّم ، فأيقظ صاحبَه ، فقال: سبحان الله! هلاَّ نبَّهتني ، فقال: كنتُ في سورة أقرؤها ، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتَّى أُنْفِذَها ، فلمَّا تابع عليَّ الرَّميَ ركعتُ ، فآذنتك ، وايم الله! لولا أن أضيِّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه ، لَقَطَعَ نفسي قبل أن أقطعها ، أو أنفذَها . [أحمد (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ و٣٥٩) ، وأبو داود (١٩٨) ، وابن خزيمة (٣٦)][٤] ، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً ، وعبراً؛ منها:

أ ـ اهتمام النَّبيِّ ﷺ بأمن الجنود: ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خِيَار الصَّحابة لحراسة الجيش ليلاً .

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٠٧ .
(٣) انظر: التربية القياديَّة (٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٢٧ .

ب ـ تقسيم الحراسة: ونلاحظ أنَّ الرَّجلين الَّذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليلَ نصفين ، نصفاً للرَّاحة ونصفاً للحراسة ؛ إذ لابدَّ من راحة جسم الجنديِّ بعض الوقت .

ج ـ التَّعلُّق بالقرآن الكريم ، وحبُّ تلاوته: فقد كان حبُّه للتِّلاوة قد أنساه آلامَ السِّهام ؛ الَّتي كانت تنغرس في جسمه ، وتثجُّ[١] الدَّم منه بغزارةٍ[٢] .

د ـ الشعور بمسؤوليَّة الحراسة: فلم يقطع عبَّاد صلاته لألمٍ يشعر به ، وإنَّما قطعها استشعاراً بمسؤوليَّة الحراسة الَّتي كُلِّفَ بها ، وهذا درسٌ بليغ في مفهوم العبادة ، والجهاد[٣] .

هـ ـ مكان الحراسة استراتيجيٌّ: اختـار النَّبيُّ ﷺ فَمَ الشِّعْبِ مكان إقامة الحرس ، وكان هذا الاختيار في غاية التَّوفيق ؛ لأنَّه المكان الذي يُتَـوَقَّع العدوُّ منه لمهاجمة المعسكر .

و ـ قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم ، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكَّن من إيقاظ أخيه ، وبالتَّالي يحدث ما لا تُحْمَدُ عقباه[٤] .

ثالثاً: شجاعة الرَّسول ﷺ ، ومعاملته لجابر بن عبد الله رضي الله عنه :

١ ـ شجاعة الرَّسول ﷺ :

عندما قَفَل[٥] رسولُ الله ﷺ من غزوة ذات الرِّقاع أدركته القائلةُ في وادٍ كثير العِضَـاهِ[٦] ، فنزل رسولُ الله ﷺ ، وتفرَّق الـنَّاسُ يستظلُّون الشَّجرَ ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ علَّق بها سيفه ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : «فنمنا نومةً ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ ، فقال رسولُ الله ﷺ : إنَّ هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فاستيقظت ، وهو في يده صَلْتاً[٧] ، فقال لي : من يمنعك منِّي؟ فقلت له : الله! فها هو ذا جالسٌ ، لم يعاقبْه رسولُ الله ، واسم الأعرابي : غَوْرَثُ بن الحارث» [رواه البخاري (٢٩١٠ و٢٩١٣ و٤١٣٥ و٤١٣٦) ، ومسلم (٨٤٣) ، وأحمد (٣/ ٣١١)] .

وقد عاهد غَوْرثُ رسول الله ﷺ ألاَّ يقاتلَه ، ولا يكون مع قومٍ يقاتلونه ، فخلَّى ﷺ سبيله ،

---

(١) ثَجَّ الماء ثُجوجاً : سالَ وانصبَّ . الثَّجَّاجُ : الشديدُ الانصباب .
(٢) انظر : غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ٣٠ ، ٣١ .
(٣) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٨ .
(٤) انظر : غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ٣٢ .
(٥) قَفَل فُلانٌ من السَّفَر قَفْلاً وقُفولاً : رجع .
(٦) العِضَاهُ : كلُّ شجرٍ له شوكٌ ، صغُر أو كَبُر ، الواحدة : عِضَاهَةٌ .
(٧) صَلْتاً : مجرداً عن غمده .

فجاء إلى أصحابه ، فقال: «جئتكم من عند خير النَّاس»[١].

وفي هذه القصَّة دليل على نبوَّة محمَّد ﷺ ، وفَرْط شجاعته ، وقوَّة يقينه ، وصبره على الأذى ، وحِلْمه على الجُهَّال ، وفيها جواز تفرُّق العسكر في النُّزول ، ونومهم؛ إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[٢].

إنَّ هذه القصَّة ثابتةٌ ، وصحيحةٌ ، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري ـ جلَّ جلاله ـ وحفظه لنبيِّه ﷺ ، ثمَّ هي تزيدك يقيناً بالخوارق الَّتي أخضعها الله ـ جلَّ جلاله ـ له ﷺ ، ممَّا يزيدك تبصراً ، ويقيناً بشخصيته النَّبويَّة ، فقد كان من السَّهل الطَّبيعيِّ بالنِّسبة لذلك المشرك ، وقد أخذ السَّيف ورفعه فوق النَّبيِّ ﷺ ، وهو أعزلُ غارقٌ في النَّوم أن يهويَ به عليه ، فيقتله ، وإنَّك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتزاز بنفسه ، والزُّهو بالفرصة الذَّهبيَّة الَّتي أمكنته من رسول الله ﷺ في قوله: مَنْ يمنعك منِّي؟ فما الَّذي طرأ بعد ذلك حتَّى عاقه عن القتل[٣]؟!

ليس لهذا تفسيرٌ إلا العناية الإلٰهية ، والإعجاز الإلٰهي الَّذي يتخطَّى العادات والسُّنن ، ويتجاوز قوى النَّاس لنصرة نبيِّه ، والذَّود عن دعوته[٤] ، فقد كانت العناية الإلٰهيَّة كافيةً لأن تملأ قلب هذا المشرك بالرُّعب ، وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرَّجفة ، فيسقط من يده السَّيف ، ثم يجلس متأدِّباً مُطْرِقاً بين يدي رسول الله ﷺ ، وما حدث مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، فليست العصمة المقصودة في الآية؛ ألا يتعرَّض الرَّسولُ ﷺ لأذىً، أو محنةٍ من قومه؛ إذ تلك هي سنَّة الله في عباده كما قد علمت، وإنَّما المراد من العصمة ألاَّ تصل إليه أيُّ يدٍ تحاول اغتياله ، وقتله، لتُغتال فيه الدَّعوة الإسلاميَّة التي بُعِثَ لتبليغها[٥].

٢ ـ معاملته ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: خرجتُ مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرِّقاع من نخلٍ ، على جملٍ لي ضعيفٍ فلمَّا قَفَلَ رسول الله ﷺ ؛ قال: جعلت الرِّفاق تمضي ، وجعلتُ أتخلَّف ، حتَّى أدركني رسولُ الله ﷺ ، فقال: «ما لك يا جابر؟!» قال: قلت: يا رسولَ الله! أبطأ بي جملي هذا ، قال: «أَنِخْهُ» فأنختُه ، وأناخ رسولُ الله ﷺ ، ثمَّ قال: «أعطني هذه العصا مِنْ يدك ، أو: اقطع لي عصاً من شجرةٍ» قال: ففعلت ، قال: فأخذها رسولُ الله فنَخَسَه بها

---

(١) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤١٣٦).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٢٠٠.
(٤) انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٧٨.
(٥) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٠.

نخساتٍ ، ثمَّ قال : «اركبْ» ، فركبتُ ، فخرج ـ والَّذي بعثه بالحقِّ ـ يُوَاهق ناقتَه مُوَاهقةً ؛ (أي : يسابقها ، ويعارضها في المشي لسرعته) .

قال : وتحدَّثت مع رسول الله ﷺ ، فقال لي : «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟!» .

قال : قلت : يا رسولَ الله! بل أهبه لك ، قال : «لا ، ولكن بِعْنِيه» ، قال : قلت : فَسُمْنِيه يا رسول الله! قال : «قد أخذته بدرهم» ، قال : قلت : لا ، إذاً تغبنني يا رسولُ الله! قال : «فبدرهمين» ، قال : قلت : لا ، قال : فلم يزلْ يرفعُ لي رسولُ الله ﷺ في ثمنه ، حتَّى بلغَ الأُوقيَّة ، قال : فقلت : أفقد رضيتَ يا رسولَ الله! قال : «نعم» ، قلت : فهو لك ، قال : «قد أخذته» .

قال : ثمَّ قال : «يا جابر! هل تزوَّجت بعد؟» قال : قلت : نعم يا رسول الله! قال : «أثيِّباً ، أم بكراً؟» قال : قلت : لا ، بل ثيِّباً ، قال : «أفلا جارية تُلاعبُها وتلاعبُك؟!» .

قال : قلت : يا رسولَ الله ! إنَّ أبي أُصِيب يوم أُحدٍ ، وترك بناتٍ له سَبْعاً ، فنكحت امرأةً جامعةً ، تجمع رؤوسهنَّ ، وتقوم عليهنَّ ، قال : «أصبت ـ إن شاء الله ـ ، أما إنَّا لو قد جئنا صِرَاراً[(١)] أَمَرْنا بجَزُور فنُحِرَت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا ، فَنَفَضَتْ نمارقها[(٢)]» قال : قلت : والله يا رسولَ الله! ما لنا من نَمَارق ، قال : «إنَّها ستكون ، فإذا قدمت ؛ فاعملْ عملاً كيِّساً»[(٣)] .

قال : فلما جئنا صِرَاراً ، أمر رسولُ الله ﷺ بجَزُور ، فنُحِرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلمَّا أمسى رسولُ الله ﷺ ، دخل ، ودخلنا ، قال : فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ ، وما قال لي رسول الله ﷺ ، قالت : فدونك ، فسمعاً ، وطاعةً ، قال : فلمَّا أصبحتُ ؛ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به ، حتَّى أنختُه على باب رسول الله ﷺ ، قال : ثمَّ جلستُ في المسجد قريباً منه ، قال : وخرج رسولُ الله ﷺ ، فرأى الجملَ ، فقال : «ما هذا؟» قالوا : يا رسولَ الله! هذا جملٌ جاء به جابرٌ ، قال : «فأين جابر؟» .

---

(١) موضع على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ من المدينة .

(٢) نمارقها : وسائدها .

(٣) فاعملْ عملاً كَيْساً أو الكَيْسَ . الكَيْسَ : في تفسيرها قولان :
ـ الكَيْس : أي : العقل ، كأنَّه طلب الولد عقلاً .
ـ الكَيْسَ : الجماع ، أي فعليك بالجماع ، ويؤيده رواية محمد بن إسحاق ، «قال جابر : فدخلنا حين أمسينا ، فقلت للمرأة : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أعمل عملاً كَيْساً! قالت : سمعاً وطاعة ، فدونك ، قال : فبتُّ معها حتى أصبحتُ» وهذا الكلام موجودٌ بمعناه في هذه الرِّواية التي بين أيدينا .
انظر : فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٢٤٦) ، وشرح النَّووي حديث رقم (١٤٦٦) .

قال: فدُعيتُ له، قال: فقال: «يا بن أخي، خذ برأس جملك؛ فهو لك» ودعا بلالاً، فقال له: «اذهب بجابرٍ، فأعطه أُوقيَّةً» قال: فذهبتُ معه، فأعطاني أوقيَّةً، وزادني شيئاً يسيراً، قال: فوالله ما زال يَنْمِي عندي، ويُرى مكانُه مِنْ بيتنا. [البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (١٥٩٩ م/ ١١٠)، وأحمد (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)].

في هذه القصَّة صورةٌ جميلةٌ، ورفيعةٌ لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه؛ من حيث لطف الحديث، والتَّواضع الرَّفيع، ورقَّة الحديث، وفكاهة المحاورة، ومحبَّةٍ شديدةٍ لأصحابه، والوقوف على أحوالهم، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعيَّة مادِّيَّاً، ومعنويّاً، فقد شعر الرَّسول ﷺ: أنَّ سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله؛ الَّذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إنَّ والده مات شهيداً في أُحدٍ، وترك له مجموعةً من البنات، والأولاد ليرعاهم، وهو مُقِلٌّ في الرِّزق، فأراد الرَّسول ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة ليواسِيَه، ويقدِّم له ما يستطيع من مالٍ مباركٍ[1].

أيُّ لطف هذا! وأيّة مواساةٍ هذه! وأيّة طمأنةٍ، وإحسان صحبةٍ! في أوبة من غزوة، بلا تكلُّف، ولاتهيُّؤ، ولا استعدادٍ سابقٍ: أبرأ جمله، وقوَّاه له، بلمسةٍ خارقةٍ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ، ثمَّ وهبه إيَّاه بعد أن نقده ثمنه، ثمَّ احتفى به، فأمر فنحر القوم الجزور لتستعدَّ عروسه لاستقباله، ثمَّ طمأنه عن نعيمٍ منظور، وغنىً مذخورٍ في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النَّبويَّة؛ الَّتي تحلَّى بها رسولُ الله ﷺ، والَّتي حلاَّه بها ربُّه؛ الَّذي بعثه، ليتمَّ به مكارم الأخلاق، وبهذا الأسلوب الهادئ الرَّائع، الرَّفيق الرَّقيق، يتعلَّم الرَّبَّانيُّون حسن الصُّحبة، وصدق الأخوة، وبرَّ الخلَّة، والمصاحبة[2].

* * *

(١) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي ص ٢١٢ ـ ٢١٣، وانظر: السِّيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٢٩.

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص ١٨١.

المبحث الخامس
غزوة بدر الموعد ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الَّذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحدٍ، والتزام الرَّسول ﷺ بذلك، فقد خرج النَّبيُّ ﷺ من المدينة على رأس جيشٍ من أصحابه قوامه ألف وخمسمئة مقاتلٍ، بينهم عشرةٌ من الخيَّالة، وذلك في ذي القعدة سنة (٤ هـ) وحمل لواء الجيش عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فوصلوا بدراً، فأقاموا فيها ثمانية أيَّامٍ في انتظار وصول قوَّات المشركين من قريشٍ بقيادة أبي سفيان حسب الموعد بين الطَّرفين، غير أنَّ أحداً من المشركين لم يصل إلى بدرٍ، وكان أبو سفيان قد جمَّع قوات قريش، وحلفاءها؛ الَّتي تألَّفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً، فلمَّا وصلوا إلى مرِّ الظَّهران؛ نزلوا على مياه مَجَنَّة على بُعْد أربعين ميلاً من مكَّة، ثمَّ عاد بهم أبو سفيان إلى مكَّة[١] بعد أن خطب فيهم، وقال: يا معشر قريش! إنَّه لا يصلحكم إلا عامٌ خصيبٌ ترعون فيه الشَّجر، وتشربون فيه اللَّبن، وإنَّ عامكم هذا عامٌ جدبٌ، وإنِّي راجعٌ، فارجعوا[٢].

وأقبل مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمريُّ، وهو الذي وادع رسول الله ﷺ على بني ضمرة في غزوة ودَّان، فالتقى برسول الله ﷺ في بدرٍ، وقال: يا محمد! أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة! وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثمَّ جالدناك حتَّى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد! ما لنا بذلك منك مِنْ حاجةٍ. [ابن هشام (٣/ ٢٢٠)].

ففي هذا اللِّقاء أكَّد رسول الله ﷺ على معنىً كبيرٍ في إظهار قوَّة المسلمين، وأنَّ العقد الَّذي كان بين الفريقين يستمرُّ بعامل قوَّة المسلمين، لا بعامل ضعفهم؛ وبناءً على طلب الطَّرف الثَّاني، وفي هذا ما فيه من القوَّة للمسلمين، وإلقاء الرُّعب في قلوب أعدائهم[٣]، لقد كانت

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٣١٨، ٣١٩).

(٢) انظر: غزوة الأحزاب، لمحمَّد أحمد باشميل، ص ٨٨.

(٣) انظر: من معين السِّيرة، للشَّامي، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

تحرُّكاتُ الجيش الإسلاميِّ من المدينة حتَّى بدرٍ مناورةً رائعةً ناجحةً ، أثبت بها وجوده ، وأعطى الدَّليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة ، وخارجها: أنَّه أصبح أقوى قوَّةٍ مرهوبةٍ في الجزيرة العربيَّة كلِّها ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ جيش مكَّة ـ وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد ، وقوَّة التَّنظيم وجودة التَّسلُّح ـ قد هاب الجيش الإسلاميَّ ، ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعادٍ سابقٍ حدَّده في (أُحُد) قائد عام جيش مكَّة[١] .

إنَّ الحملة الإعلاميَّة الَّتي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحدٍ ، وتفوُّقهم الحربيِّ قد انتكست على رؤوسهم ، وأصبحوا مثار السُّخرية عند العرب ، وثبت للنَّاس: أنَّ ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحدٍ وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ، ولا ضعفهم العسكريَّ[٢] ، فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السُّمعة العسكريَّة للمسلمين[٣] ، وكسبوا انتصاراً معنويّاً عظيماً على أعدائهم بدون قتال ، وشاركوا في الموسم التِّجاري ببدرٍ ، وربحوا في تجارتهم ربحاً طيباً[٤] .

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثرٌ في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[٥] .

ثانياً: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدَّولة الإسلاميَّة ، فبعد غزوة بدر الموعد ، تحرَّكت القوات الإسلاميَّة بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة ؛ الَّتي كانت تنزل شمال قبائل أسد ، وغطفان ، وفي حدود الغساسنة الموالين للدَّولة الرُّوميَّة (بيزنطة) ، ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشَّهير (على بعد (٤٥٠) كيلو متراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أوَّل مَنْ احتكَّ بها المسلمون ، فغزاها رسول الله ﷺ تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ/ أغسطس ٦٢٦ م)[٦] ، فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمُّع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل الَّتي تمرُّ بهم ، والتَّعرُّض لمن في القافلة بالأذى ، والظُّلم ، كما وردت الأنباء بأنَّهم يفكِّرون في القرب من المدينة ، لعَجْمِ عودها[٧] .

إنَّ دومة الجندل تُعَدُّ بلداً نائياً بالنِّسبة للمدينة المنوَّرة ، لأنَّها تقع على الحدود بين الحجاز ،

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ٦٦) .
(٣) انظر: التربية القياديَّة (٣/ ٤٦٣) .
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ٦٧) .
(٥) انظر: المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوة ، للعمري ، ص ٩١ .
(٦) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص ١٤٤ .
(٧) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩ .

والشَّام ، وفي منتصف الطَّريق بين البحر الأحمر ، والخليج العربيِّ ، وهي على مسيرة ست عشرة ليلةً من المدينة ، ولو أنَّ المسلمين أغفلوا أمرها ، وسكتوا عن وجود هذا التَّجمُّع فيها ما لامهم أحدٌ ، ولا ضرَّهم هذا التجمُّع في شيءٍ على المدى القريب ، ولكنَّ النَّظرة السِّياسيَّة البعيدة ، والعقليَّة العسكريَّة الفذَّة أوجبت على المسلمين أن يتحرَّكوا لفضِّ هذا التَّجمُّع[1] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنُه للأسباب الآتية وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف :

١ ـ لأنَّ السُّكوت عن هذا التجمُّع ، وما شاكله يؤدِّي بلا شكٍّ إلى تطوُّره واستفحاله ، ثمَّ يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوَّة المسلمين ، وإسقاط هيبتهم ، وهو الأمر الَّذي يجاهدون من أجل استرداده .

٢ ـ وجود مثل هذا التَّجمُّع في الطَّريق إلى الشَّام قد يؤثِّر على الوضع الاقتصاديِّ للمسلمين ، فلو أنَّ المسلمين سكتوا عن هذا التَّجمُّع ؛ لتعرَّضت قوافلُهم ، أو قوافل القبائل الَّتي تحتمي بهم للسَّلب ، والنَّهب ، ممَّا يُضعف الاقتصاد ، ويؤدِّي إلى حالةٍ من التذمُّر ، والاضطراب .

٣ ـ وهناك أمرٌ أهمُّ من الأمرين السَّابقين ، وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلِّها ، وإشعارُ سكَّانها بأنَّهم في حمايتهم ، وتحت مسؤوليَّتهم ، لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطُّرق ، ويحمون لهم تجارتهم ، ويحاربون كلَّ إرهابٍ من شأنه أن يزعجهم ، أو يُعرِّضهم للخطر[2] .

٤ ـ حرمان قريش من أيِّ حليفٍ تجاريٍّ قد يمدُّها بما تحتاج إليه من التِّجارة ، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التِّجاريـة المهمَّة ؛ لأنَّ ظهور الدَّولة الإسلاميَّة بهذه القوة يؤثِّر على نفسية قريشٍ (العدوِّ الأوَّل للدَّولة الإسلاميَّة) ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها[3] .

٥ ـ الحرص على إزالة الرَّهبة النَّفسيَّة الموجودة عند العرب؛ الَّذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الرُّوم ، والتَّأكيد عمليّاً للمسلمين بأنَّ رسالتهم عالميَّةٌ[4] وليست مقصورةً على العرب . ورأى بعض المؤرِّخين كالذَّهبيِّ ، والواقديِّ ، ومحمَّد أحمد باشميل ، وغيرهم : أنَّ من أهداف تلك الغزوة إرهابُ الرُّوم؛ الَّذين تقع المنطقة الَّتي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة مُلكهم الثَّانية دمشق[5] .

لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج، وخرج في ألفٍ من أصحابه، وكان يسير الليل ،

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩ .
(٣) انظر : دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٤ .
(٥) انظر : غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٩٣ ، وتاريخ المغازي ، للذَّهبيِّ ، ص ٢٥٨ .

ويكمن النهار حتَّى يُخفي مسيره[١]، ولا تشيع أخبارُه، وتُنقل أسراره، وتتعقَّبه عيون الأعداء[٢].

واتَّخذ له دليلاً من بني عذرة يسمَّى مذكوراً، وسار حتَّى دنا من القوم، عندئذٍ تفرَّقوا، ولم يلقَ رسولُ الله ﷺ منهم أحداً، فقد ولَّوا مدبرين، وتركوا أنعامهم، وماشيتهم، غنيمةً باردةً للمسلمين، وأسر المسلمون رجلاً منهم، وأحضروه إلى الرَّسول ﷺ، فسأله عنهم، فقال: هربوا لمَّا سمعوا بأنَّك أخذت أنعامهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلم، وأقام بساحتهم أياماً، وبعث البعوث، وبثَّ السرايا، وفرَّق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرَّسول عيينة بن حصنٍ الفَزاريَّ، واستأذن عيينةُ رسول الله ﷺ في أن ترعى إبلُه، وغنمُه في أرضٍ قريبة من المدينة على ستةٍ وثلاثين ميلاً منها.

إنَّ وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة، وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين، واستئذانه في أن يرعى بإبله، وغنمه في أرضٍ بينها وبين المدينة ستَّةٌ وثلاثون ميلاً ـ أي: ما يقرب من خمسة وستين كيلو متراً ـ لدليل قاطعٌ على ما وصلت إليه قوَّة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للنَّاس في هذه المنطقة، وأنَّ هذه المناطق النَّائية كانت ضمن الدَّولة الإسلاميَّة، وأنَّ الدَّولة أصبحت منيعةً، ليس في مقدور أحدٍ أن يعتدي عليها، ولو كان ذلك في استطاعة أحدٍ؛ لكان هو عيينة بن حصن الَّذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتىً[٣].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدةً عن المدينة من جهة الشَّام؛ إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليالٍ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكَّان البوادي الشَّمالية، وأطراف الشَّام الجنوبيَّة، وأحسُّوا بقوَّة الإسلام، وسطوته، كما كانت لقيصر، وجنده كما أنَّ سير الجيش الإسلاميِّ هذه المسافات الطَّويلة قد كان فيه تدريبٌ له على السَّير إلى الجهات النائية، وفي أرضٍ لم يعهدوها من قبلُ، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلاميَّة للفتوحات العظيمة في بلاد آسية، وإفريقية فيما بعد[٤].

كانت خطَّة الرَّسول ﷺ في هذه الغزوة ترمي إلى أهدافٍ عديدةٍ، فهي غزوةٌ، وحربٌ استطلاعيَّةٌ تمسح الجزيرة العربيَّة، وتتعرَّف مراكز القوى فيها، وهي حربٌ إعلاميَّةٌ تأتي على أعقاب بدرٍ الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حربٌ عسكريَّةٌ تريد أن تصدَّ هجوماً محتملاً على المسلمين؛ حيث انضوى إليها قومٌ من العرب كثيرٌ يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي

---

(١) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، ص ١٧٠.

(٢) انظر: غزوة الأحزاب، لأبي فارسٍ، ص ٤٠.

(٣) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، ص ١٧٠.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة، (٢/٢٥١، ٢٥٢).

حربٌ سياسيَّة تريد أن تُجْهِض من تحرُّكات القبائل المحتمل أن تتحرَّك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة، وتستبيحها[١].

كانت هذه الغزوة دورةً تربويَّةً رائعةً، وقاسيةً، وشاملةً يقودها رسول الله ﷺ وبين يديه ألفٌ من أصحابه، فيتلقَّون فيها كلَّ لحظةٍ دروساً في الطَّاعة، والانضباط، ودروساً في التَّدريب الجسميِّ، والعسكريِّ، والتَّحمُّل لمشاقِّ الحياة، وصعوباتها، وأحكاماً، وفقهاً في الحلال والحرام، وعمليات صهرٍ وتذويبٍ لقواعد الجيش الإسلاميِّ في بوتقةٍ واحدةٍ خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة، حيث أخذت تَفِدُ إلى المدينة عناصر كثيرةٌ من أبناء القبائل المجاورة، والتَّخلِّي عن الأطر القبليَّة، وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمَّة الواحدة الَّتي تجعل الولاء لله ورسوله.

وفوق هذا كلِّه تتيح الفرصة لجيل بدرٍ الرَّائد أن يقوم بمهمة التَّربية للوافدين الجدُد، وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النُّفوس، ومن له صلةٌ بمعسكر النِّفاق من خلال مراقبة تصرُّفاته، وسلوكه. إنَّها ليست ساعاتٍ محدودةً أو أياماً معدودةً؛ بل هي دورةٌ قرابة شهرٍ، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كلُّ الطَّبائع، وكلُّ النَّوازع، فيتلقَّاها عليه الصَّلاة والسَّلام ليصوغها على ضوء الإسلام، ويعلِّم الجيل الرَّائد فنَّ القيادة، وعظمة السِّياسة.

كانت معركةً صامتةً، وتربيةً هادئةً، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصَّحراء يتربَّى، ويتثقَّف، ويتدرَّب، ويُمتحن، ويقوَّم ليكون هذا استعداداً لمعارك قادمةٍ[٢]، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيَّن ﷺ سباع بن عرفطةَ الغفاريَّ والياً على المدينة في تجربةٍ جديدةٍ، فهو ليس أوسيّاً، ولا خزرجيّاً، ولا قرشيّاً، بل من غفار الَّتي كانت تعتبر من سرَّاق الحجيج عند العرب، فلابدَّ لهذا الجيل أن يتربَّى على الطَّاعة، والانضباط للأمير أيّاً كان شأن هذا الأمير.

وهذا يدلُّ على عظمة المنهج النَّبويِّ في تربية الأمَّة، والارتقاء بها، وعلى عظمة قيادة النَّبيِّ ﷺ، وفراسته في أتباعه، وثقته فيهم، ومعرفته لمواهبهم، فهو ﷺ على معرفةٍ بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاريِّ، وعبقريته، وقدرته على الإدارة الحازمة، فكان ﷺ يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج ربِّ العالمين على المسلمين، ويصنع منها أمةً واحدةً، تسمع، وتطيع لكتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها ﷺ[٣].

* * *

---

(١) انظر: التَّربية القيادية (٣/ ٣٧٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٧٣).
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٣٧٤).

المبحث السَّادس
غزوة بني المُصْطَلِق[١]

أوَّلًا: مَنْ هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟

١ ـ بنو المصطلق:

هم بطنٌ[٢] من خزاعة، والمصطلق[٣] جدُّهم، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السَّماء[٤].

واختلفوا في خُزاعة[٥]، فمنهم من قال: إنَّها قبيلةٌ عدنانيَّةٌ، ومنهم من ذهب إلى أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّة يمنيَّةٌ، والرَّاجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّةٌ يمنيَّةٌ[٦].

٢ ـ تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوالٍ، فَمِنْ قائلٍ: إنَّها سنة ستٍّ، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازي، وتبعه على ذلك خليفةُ بن خيَّاط، وابن جرير الطَّبريُّ، وابن حزمٍ، وابن عبد البَرِّ، وابن العربيِّ، وابن الأثير، وابن خلدون، فقد صرَّح كلٌّ منهم بأنَّ غزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السَّنة السَّادسة للهجرة[٧].

وهناكَ مَنْ قال بأنَّها في شعبان من العام الرَّابع للهجرة، وذهب إلى هذا القول المسعوديُّ، وابن العربيِّ المالكيُّ، وغيرهم.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء كلٌّ من:

---

(١) ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٥٣).

(٢) فرع.

(٣) المُصْطلِق: بضمِّ الميم، وسكون الصَّاد، وفتح الطَّاء، وكسر اللَّام.

(٤) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣١١).

(٥) خزاعة من التَّخزُّع، وهو التَّأخر، والمفارقة، وذلك أنَّ خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشَّام، فنزلت بمرِّ الظهران، وأقامت بها؟!

(٦) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق، من ص ٤٥ إلى ٥١.

(٧) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٣٢٩، وحديث القرآن الكريم (١/ ٣١٢، ٣١٣).

موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذَّهبيُّ، وابن القيِّم ، وابن حجر العسقلانيُّ ، وابن كثيرٍ رحمهم الله! ومن المُحْدَثِينَ: الخضري بك ، والغزاليُّ ، والبوطيُّ ، وأبو شهبة ، والشَّيخ السَّاعاتيُّ ، ومحمَّد أبو زهرة ، وسيِّد قطب ، وحسن مشَّاط ، ومحمَّد علي الصَّابوني ، ومحمَّد بكر آل عابد ، ومهدي رزق الله أحمد[١] ، ويبدو لي أنَّ هذا الرأي أقربُ للصَّواب ، لأسبابٍ؛ منها:

أ ـ أنَّ هذا القول هو ما ذهب إليه جمهور أصحاب السِّير والمغازي ، كما أنَّ عدداً كبيراً ممَّن كتب في السِّيرة من المعاصرين سار عليه.

ب ـ أنَّ في شعبان سنة أربعٍ من الهجرة كانت غزوة بدرٍ الموعد فيتعيَّن أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

ج ـ أنَّ هذا القول يؤيِّده وجود سعد بن معاذ رضي الله عنه في الغزوة ، فقد جاء ذكره في حديث الإفك الَّذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق ، والَّذي أخرجه الإمام البخاريُّ: «فقام سعد بن معاذ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه؛ إن كان من الأوس؛ ضربْتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ، ففعلنا أمرك.... الحديث» [البخاري (٤٧٥٠) ، ومسلم (٢٧٧٠)].

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة ، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السَّنة الخامسة على القول الرَّاجح ، فيتعيَّن أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[٢].

٣ ـ أسباب هذه الغزوة:

من أهمِّ الأسباب لهذه الغزوة:

أ ـ تأييد هذه القبيلة لقريشٍ ، واشتراكها معها في معركة أُحُدٍ ضدَّ المسلمين ، ضمن كتلة الأحابيش الَّتي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب ـ سيطرة هذه القبيلة على الخطِّ الرَّئيسيِّ المؤدِّي إلى مكَّة ، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكَّة[٣].

ج ـ أنَّ الرَّسول ﷺ بلغه أنَّ بني المصطلق يجمعون له ، وكان قائدُهم الحارث بن أبي ضرار ينظِّم جموعهم ، فلمَّا سمع بهم خرج إليهم ، حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٢).
(٢) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٩٧.
(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، للعلي ، ص ٣٣٢.

من ناحية قُدَيْد إلى السَّاحل فهزمهم شرَّ هزيمة[١] .

٤ ـ أحداث غزوة بني المصطلق :

عندما شعر رسول الله ﷺ بحركة بني المصطلق المريبة؛ أرسل بريدة بن الحصيب الأسلميَّ ، للتأكُّد من نيَّتهم ، وأظهر لهم بريدة : أنَّه جاء لعونهم ، فتأكَّد من قصدهم ، فأخبر الرَّسول ﷺ بذلك .

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السَّنة الخامسة للهجرة خرج الرَّسول ﷺ من المدينة في سبعمئة مقاتلٍ[٢] ، وثلاثين فارساً[٣] متوجِّهاً إلى بني المصطلق ، ولمَّا كان بنو المصطلق ممَّن بلغتهم دعوة الإسلام ، واشتركوا مع الكفَّار في غزوة أُحُدٍ ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، فقد روى البخاريُّ [(٢٥٤١)] ، ومسلمٌ [(١٧٣٠)] : أنَّ رسول الله ﷺ أغار عليهم ، وهم غارُّون ـ أي : غافلون ـ وأنعامهم تُسْقَى على الماء ، فقتل مقاتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[٤] .

ثانياً : زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها :

قسَّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق ، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث ، وكانت بركةً على قومها ، ولنعرف قصَّتها من السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، حيث قالت : لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق ؛ وقعت جويرية بنت الحارث في سهمٍ لثابت بن قيس بن شمَّاس ، أو لابن عمٍّ له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حُلوةً مُلاَّحة[٥] ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها ، قالت : فوالله! ما هو أن رأيتها على باب حجرتي ، فكرهتها ، وعرفت أنَّه سيرى منها ما رأيت ، فدخَلَتْ عليه ، فقالت : يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعت في السَّهم لثابت بن قيس بن شمَّاس ، أو لابن عمٍّ له ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي .

قال : «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟» قالت : وما هو يا رسول الله؟!

قال : «أقضي عنك كتابك ، وأتزوَّجُك» . قالت : نعم يا رسول الله! قد فعلت .

---

(١) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣١٥) .
(٢) انظر : تاريخ الإسلام ، والمغازي ، للذَّهبي ، ص ٢٥٩ .
(٣) انظر : الواقدي (١/ ٤٠٥) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٣٣ .
(٥) الملاَّحة : الشَّديدة الملاحة ، أي : الفائقة الجمال .

قالت: وخرج الخبر إلى النَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ قد تزوَّج جويرية بنت الحارث.

فقال النَّاس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أُعْتِقَ بزواجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها منها. [أحمد (٦/ ٢٧٧)، وأبو داود (٣٩٣١)، وابن حبان (٤٠٥٤ و٤٠٥٥)، وابن هشام (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)][(١)].

وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة، فدعاه النَّبيُّ ﷺ إلى الإسلام فأسلم[(٢)].

تُعَدُّ غزوة بني المصطلق من الغزوات الفريدة المباركة؛ الَّتي أسلمت عقبها قبيلةٌ بأسرها، وكان الحدث الَّذي أسلمت القبيلة من أجله هو أنَّ الصحابة حرَّروا، وردُّوا الأسرى الَّذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملَّكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملَّكوا أصهار نبيِّهم ﷺ، وحيال هذا العتق الجماعيِّ، وإزاء هذه الأريحيَّة الفذَّة؛ دخلت القبيلة كلُّها في دين الله.

إنَّ مردَّ هذا الحدث التَّاريخيِّ، وسببه البعيد هو حبُّ الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ، وتكريمُهم إيَّاه، وإكبارُهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحبُّ النَّبويُّ هذه الثِّمار الطَّيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التَّاريخ.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث له أبعاده، وتحقَّقت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزَّواج منها من أهدافه الطَّمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعزُّ الإسلام، وهذه مصلحةٌ إسلاميَّةٌ بعيدة، يسَّر الله هذا الزَّواج، وباركه، وحقَّق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلُّها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزَّواج على المسلمين بالبركة والقوَّة، والدَّعم المادِّيِّ والأدبيِّ معاً للإسلام، والمسلمين[(٣)].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجةً لسيِّد المرسلين، وأمّاً للمؤمنين، فكانت رضي الله عنها عالمةً بما تسمع، وعاملةً بما تعلم، فقيهةً، عابدةً، تقيَّةً، ورعةً، نقيَّة الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الرُّوح، تحبُّ الله ورسولَه، وتحبُّ الخير للمسلمين.

وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدِّين من خزائنها عند

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٦٠، ١٦١)، الإصابة، لابن حجر (كتاب النساء).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣١٧).

(٣) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ١٩٩، ٢٠٠.

من تنزَّلت عليه ﷺ ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصَّحابة رضي الله عنهم؛ لينشروه في المجتمع المسلم علماً ، وعملاً ، وفي المجتمع الإسلاميِّ عامَّةً دعوةً وهدايةً[١] ، فقد حدَّث عنها: ابنُ عبَّاس ، وعبيدُ بن السبَّاق ، وكريبُ مولى ابن عباسٍ ، ومجاهدٌ ، وأبو أيوب يحيى بن مالكٍ الأزديُّ ، وبلغ مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث[٢] ، منها أربعةٌ في الكتب السِّتَّة ، عند البخاريِّ حديثٌ ، وعند مسلمٍ حديثان ، وقد تضمَّنت مرويَّاتها أحاديث في الصَّوم؛ في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصَّوم ، وحديث في الدَّعوات في ثواب التَّسبيح ، وفي الزَّكاة في إباحة الهديَّة للنَّبيِّ ﷺ وإن كان المُهدي ملكها بطريق الصَّدقة ، كما روت في العتق ، وبسبعة أحاديث شريفةٍ خلَّدت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها اسمها في عالم الرِّواية؛ لتضيف إلى شرف صحبتها للنَّبيِّ ﷺ ، وأمومتها للمسلمين؛ تبليغَها الأمَّة سننَ المصطفى ﷺ ما تيسَّر لها ذلك[٣] .

وكانت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها من الذَّاكرين الله كثيراً ، والذَّاكرات ، القانتات ، الصَّابرات في مجال مناجاة الله تعالى ، وتحميده ، وتقديسه ، وتسبيحه[٤] ، فهذه أمُّ المؤمنين جويرية تحدِّثنا عن ذلك ، فتقول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصُّبح ، وهي في مسجدها[٥] ثمَّ رجع بعد أن أضحى؛ وهي جالسةٌ. فقال: ما زلت على الحال الَّتي فارقتُك عليها؟ قالت: نعم. قال النَّبيُّ ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ ، ثلاث مراتٍ لو وُزِنت بما قلت منذ اليوم؛ لوزنتهنَّ ، سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وَزِنَةَ عرشه ، ومداد كلماته» [أحمد (١/ ٢٥٨) ، ومسلم (٢٧٢٦) ، وأبو داود (١٥٠٣) ، والنسائي في السنن الكبرى (٩٩١٢ و١٢٧٧)].

وقد تُوفِّيت رضي الله عنها سنة خمسين ، وقيل: ستٍّ وخمسين[٦] .

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المسلمين ، وكان يغلب عليهم التَّخلُّف في الغزوات السَّابقة ، لكنَّهم لمَّا رأوا اطراد النَّصر للمسلمين؛ خرجوا طمعاً في الغنيمة[٧] .

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد صادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٢) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، لآمال قرداش ، ص ٨٨.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٨٨ ، ٨٩.
(٤) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ٢٥٠).
(٥) مسجدها: المكان الَّذي تصلِّي فيه في بيتها.
(٦) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٨/ ١٢١) ، وخليفة بن خياط ، تاريخه ، ص ٢٣٤.
(٧) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٨).

وعند ماء الْمُرَيْسِيع كشف المنافقون عن الحِقْدِ الَّذي يضمرونه للإسلام والمسلمين ، فكلَّما كسب الإسلام نصراً جديداً؛ ازدادوا غيظاً على غيظهم ، وقلوبُهم تتطلَّع إلى اليوم الَّذي يُهزم فيه المسلمون ، لتشفى من الغلِّ ، فلمَّا انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبيَّة بين المهاجرين ، والأنصار ، فلمَّا أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرَّسول ﷺ في نفسه ، وأهل بيته ، فشنوا حرباً نفسيَّة مريرةً من خلال حادثة الإفك الَّتي اختلقوها ، ولنترك الصَّحابيَّ زيد بنَ أرقم ، وهو شاهد عيان ، ومشاركٌ في الحادث الأوَّل يحكي خبر ذلك(١) ، قال: كنت في غزاةٍ(٢) فسمعتُ عبد الله بن أُبَيٍّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فذكرت ذلك لعمِّي(٣) ، فذكره للنَّبيِّ ﷺ فدعاني فحدثته ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيٍّ ، وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبني رسول الله ﷺ ، وصدَّقه ، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله قطُّ ، فجلست في البيت ، فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك رسولُ الله ﷺ ومقَتَك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقين: ١].

فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إنَّ الله قد صدَّقك يا زيد!» [البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢)](٤).

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاريُّ ما حدث عند ماء المريسيع ، وأدَّى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية ، وتمزيق وحدة المسلمين ، قال: «كنَّا في غزاةٍ فكسع(٥) رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله! كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال: «دعوها فإنها منتنة» ، فسمع بذلك عبد الله بن أبيٍّ ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فبلغ النَّبيَّ ﷺ ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق ، فقال النَّبيُّ: «دعه ، لا يتحدَّث الناسُ: أنَّ محمداً يقتل أصحابه» . [البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٥٨٤/٦٣)](٦) .

---

(١) انظر: السِّيرة الصَّحيحة ، للعمري (٢/٤٠٨).

(٢) غزاة: صرحت الرِّوايات الأخرى بأنَّها غزوة بني المصطلق.

(٣) يريد بعمِّه سعد بن عبادة ، وهو رأس الخزرج ، وليس عمّه حقيقة.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٠٨).

(٥) كسع: ضربه برجله.

(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٤٠٩).

وفي روايةٍ قال عمر بن الخطَّاب: مُرْ به عبَّاد بن بشر؛ فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر! إذا تحدَّث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟! لا. ولكن أذِّن بالرَّحيل»، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل النَّاس. [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٥ ـ ١١٦)، وابن هشام (٣/ ٣٠٣)].

وقد مشى عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه: أنَّ زيد بن أرقم قد بَلَّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال: ولا تكلَّمت به! فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلمَّا سار رسول الله ﷺ، لقيه أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، فحيَّاه بتحيَّة النُّبوَّة، وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبي الله! لقد رحتَ في ساعةٍ منكرةٍ، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أوبلغك ما قال صاحبُكم؟».

قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبيٍّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة؛ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسول الله! تخرجه منها؛ إن شئت، هو الذَّليل، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله! ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوِّجوه، فإنَّه يرى: أنك استلبت مُلْكَهُ.

ثمَّ مشى رسولُ الله ﷺ بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى، وليلتهم حتَّى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتَّى آذتهم الشَّمس، ثمَّ نزل بالنَّاس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً.

وإنَّما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل النَّاس عن الحديث الَّذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبيٍّ، ونزلت السُّورة الَّتي ذُكِرَ فيها المنافقون في ابن أبيٍّ، ومن كان على مثل أمره، فلمَّا نزلت؛ أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثمَّ قال: «هذا الَّذي أوفى لله بأذُنه». [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، وابن هشام (٣/ ٣٠٥)][1].

إنَّ هذه الحادثة من السِّيرة النَّبويَّة العطرة مليئةٌ بالدُّروس، والعبر.

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية، لابن كثير، (٤) غزوة بني المصطلق.

فَمِنْ أهمِّ تلك الدُّروس:

١ ـ الحفاظ على السُّمعة السِّياسيَّة ووحدة الصَّفِّ الدَّاخلية:

وهذا الدَّرس يظهر في قوله ﷺ: «فكيف يا عمر! إذا تحدث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟!» [سبق تخريجه][١].

إنَّها المحافظة التَّامَّة على السُّمعة السِّياسيَّة، والفرق كبير جدّاً بين أن يتحدَّث النَّاس عن حبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً، ويؤكِّدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمَّد محمَّداً[٢]، وبين أن يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه، ولاشكَّ: أنَّ وراء ذلك محاولاتٍ ضخمةً ستتمُّ في محاولة الدُّخول إلى الصَّفِّ الدَّاخليِّ في المدينة من العدوِّ، بينما هم يائسون الآن مِنْ قدرتهم على شيءٍ أمام ذلك الحبِّ، وتلك التَّضحيات[٣].

ولم يقف النَّبيُّ ﷺ موقفاً سلبيّاً حيال تلك المؤامرة، الَّتي تزعَّمها ابنُ سلولٍ لتصديع الصَّفِّ المسلم، وإحياء نعرات الجاهليَّة في وسطه؛ بل اتَّخذ إزاءها الخطواتِ الإيجابيَّة التَّالية:

أ ـ سار رسول الله ﷺ بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى، وليلتهم حتَّى أصبح، وصدْرَ يومهم الثَّاني حتَّى آذتهم الشَّمس، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً[٤].

وبهذا التَّصرُّف البالغ الغاية في السِّياسة الرَّشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابنُ أُبيٍّ.

ب ـ لم يواجه النَّبيُّ ﷺ ابن سلولٍ، ومؤامراته المدبَّرة بالقوَّة، واستعمال السِّلاح، حرصاً على وحدة الصَّفِّ المسلم؛ وذلك لأنَّ لابن أُبَيٍّ أتباعاً، وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به؛ لأرعدت له أنوفٌ، وغضب له رجالٌ متحمِّسون له، وقد يدفعهم تحمُّسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أيُّ مصلحةٍ للمسلمين، ولا للإسلام، وإنَّها لسياسةٌ شرعيَّةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ في معالجة المواقف العصيبة في حزمٍ، وقوَّة أعصابٍ، وبُعْد نظرٍ[٥]، وهذه البراعة في الحكمة، والسِّياسة، وتدبير الأمور متفرعةٌ عن كونه ﷺ نبيّاً ورسولاً إلى

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٤٠٩).

(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٤٦٣).

(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٤٦٣).

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٥).

(٥) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢٠٢.

النَّاس[١] ؛ لكي تقتدي به الأمَّة في تصرُّفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرَّسول ﷺ مع رأس المنافقين أبعدُ الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أُبيٍّ بن سلول كلَّما أحدث حدثاً كان قومه هم الَّذين يُعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه، ويعرضون قتله على النَّبيِّ ﷺ، والرَّسول ﷺ يأبى، ويصفح، فأراد رسول الله ﷺ أن يكشف لسيف الحقِّ عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟! أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي؛ لأرعدت له أنوفٌ، لو أمرتها اليوم؛ لقتلته!!» فقال عمر: قد ـ والله ـ علمتُ لأَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أعظمُ بركةً مِنْ أمري. [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦ ـ ١١٧)[٢]، وابن هشام (٣/ ٣٠٥)].

٢ ـ (بل نترفَّق به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبيٍّ بن سلول ولدٌ مؤمنٌ مخلصٌ، يسمَّى عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ بن سلول، فلمَّا علم بالأحداث، ونزول السُّورة، أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله! بلغني: أنَّك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً؛ فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج، ما كان بها من رجلٍ أبرُّ بوالده منِّي، وإنِّي لأخشى أن تأمر به غيري، فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين النَّاس، فأقتلُه، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخلُ النَّار، فقال رسولُ الله ﷺ: «بل نترفَّق به، ونحسن صحبتَه ما بقي معنا». [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، وابن هشام (٣/ ٣٠٥)، والبزار (٢٧٠٨)، والطبراني في الأوسط (٢٣١)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣١٨)].

ولمَّا وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدَّى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبيٍّ، وقال له: قف، فوالله لا تدخلها حتَّى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلمَّا جاء رسولُ الله ﷺ؛ استأذنه في ذلك، فأذن له[٣].

٣ ـ مثلٌ أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله، ولرسوله، وتقديم محبَّتهما، ومراضيهما على محبَّة، ومراضي الأبوَّة[٤]، لقد ضرب الابن أروع مثلٍ في الإيمان، والتَّضحية بعاطفة الأبوَّة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير، والخلق العظيم بمثلٍ رفيعٍ في العفو والرَّحمة، وحسن الصُّحبة «بل نترفَّق بـه، ونحسن صحبتـه ما بقي

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٤٠٩.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٣) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، للقحطانيِّ، ص ٢٠٩، والبداية والنِّهاية (غزوة بني المصطلق من خزاعة، تفسير ابن كثير، المنافقون).
(٤) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/ ١٦٣).

معنا» يا لروعة العفو! ويا لجلال العظمة النَّبويَّة[١]! فقد تلطَّف النَّبيُّ ﷺ بهذا الصَّحابيِّ الجليل وهدَّأ من رَوْعِه، وأذهب هواجِسَه[٢].

٤ ـ محاربة العصبيَّة الجاهليَّة:

إنَّ العصبيَّة الممقوتة والَّتي نَصِفُها بالجاهليَّة غير مقصورةٍ على العصبيَّة القبليَّة؛ أي: الاشتراك في النَّسب الواحد، نسب القبيلة الَّتي ينتمون إليها، وإنَّما الاشتراك في معنىً، أو وصفٍ معيَّنٍ يجعل المشركين فيه يتعاونون، ويتناصرون فيما بينهم بالحقِّ، وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى، أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك النَّبيُّ ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجلٌ من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النَّبيُّ ﷺ: «دعوها؛ فإنَّها منتنة» [سبق تخريجه][٣].

ووجه الدَّلالة بهذا الخبر: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أنكر هذه المناداة؛ لما تشعره من معنى العصبية، مع أنَّ المنادي استعمل اسماً استعمله القرآن، وهو (المهاجرين) و(الأنصار)؛ فالمهاجريُّ استنصر بالمهاجرين مع أنَّه هو الَّذي كسع، فكأنَّه بندائه هذا يريد عونهم، لاشتراكه وإيَّاهم في معنىً واحدٍ، وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاريُّ استنصر بالأنصار؛ لأنَّه منهم، ويشترك وإيَّاهم في وصفٍ واحدٍ ومعنىً واحدٍ وهو مدلول كلمة (الأنصار)؛ وكان حقَّ الاثنين ـ إذا كان لابدَّ من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً، وعلى هذا فالمطلوب من الدُّعاة التَّأكيد على نبذ العصبيَّة بجميع أنواعها، سواءٌ كانت عصبيةً تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أيِّ أساسٍ آخر، من بلدٍ، أو مذهبٍ، أو حزبٍ، أو عِرْقٍ، أو لونٍ، أو دمٍ، أو جنسٍ، وأن يكون الولاء، والتَّناصر على أساس الاشتراك بالأخوَّة الإسلاميَّة الَّتي أقامها، وأثبتها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وأن يكون التَّناصر فيما بينهم تناصراً على الحقِّ لا على الباطل، بمعنى أن ينصروا المحقَّ، وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[٤].

لقد أوضح الرَّسول ﷺ: أنَّ العصبيات هي من دعاوى الجاهليَّة وقال: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً» فقال رجلٌ لرسول الله ﷺ: أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: «تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظُّلم، فإنَّ ذلك نصره»، [البخاري (٦٩٥٢)، والترمذي

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٢) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/ ١٦٢).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٢٢٥٥)، وأحمد (٣/٢٠١)]، فجعل التناصر في طلب الحقِّ، والإنصاف، وأبطل المفهوم الجاهليَّ: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً»[(١)].

إنَّ مهمَّة الدُّعاة، وطلابِ العلم، والعلماء، والفقهاء هي التَّخلُّص من العصبيَّة، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ، ولكنَّها ليست مستحيلةً، ولأهمِّيتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا؛ لقلعها من النُّفوس[(٢)].

رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلاميِّ في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام التِّرمذيِّ: «فلمَّا أصبحنا؛ قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون» [الترمذي (٣٣١٣)].

فقد تحدَّثت السُّورة بإسهابٍ عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث، والأقوال، الَّتي وقعت منهم، ورُويت عنهم، وفضحت أكاذيبهم، إلا أنَّها في الختام حذَّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا، ومتاعها، وحثَّت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السُّورة أن يلاحظ عدَّة محاور مهمَّةٍ، منها:

١ ـ تحدثت السُّورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم، ووصفت حالهم[(٣)]، فابتدأت هذه السُّورة بإيراد صفات المنافقين الَّتي من أهمِّها الكذبُ في ادِّعاء الإيمان، وحلفُ الأيمان الكاذبة، وجبنُهم، وضعفُهم، وتآمرُهم، على النَّبيِّ ﷺ وعلى المؤمنين، وصدُّهم النَّاس عن دين الله[(٤)].

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٤].

٢ ـ ثمَّ بينت الآيات عنادهم، وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحقِّ، وبيَّنت مقالاتِهم الشَّنيعة بالتَّفصيل، خاصَّةً ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنَّهم

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٣٠٢).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣٢٧).
(٤) انظر: التَّفسير المنير، د. وهبة الزُّحيلي (٢٨/ ٢١٣).

سيطردون الرَّسول ﷺ والمؤمنين من المدينة، وأنَّ العزَّة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٥ ـ ٨].

٣ ـ ثمَّ خُتمت السُّورة بتحذير الَّذين آمنوا من الانشغال بزينة الدُّنيا، وعدم التَّشبُّه بالمنافقين، وحثَّتهم على الصَّدقة ـ الَّتي هي برهانٌ على الإيمان باليوم الآخر ـ قبل فوات الأوان(٢)، فقد كانت الآيات تحثُّ المجتمع المسلم على الاشتغال بطاعة الله تعالى، وقراءة القرآن، وإدامة الذِّكر، وأداء الصَّلوات، والقيام بجميع الفرائض، وحذَّرتهم من أن ينشغلوا بالأموال، والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله، كما فعل المنافقون؛ إذ قالوا بسبب الشُّحِّ بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ، ومن يشتغل بالمال، والولد عن طاعة ربِّه فأولئك هم الخاسرون(٣).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

كانت خاتمة السُّورة الكريمة تحذيراً للمؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا التي هي من أخلاق المنافقين(٤).

وهكذا كان المجتمع المدنيُّ يتربَّى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه، وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالإشراف على ذلك.

خامساً: محاولة المنافقين الطَّعن في عِرْض النَّبيِّ ﷺ بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدُهم في المحاولة الأولى لإثارة

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).
(٣) انظر: التَّفسير المنير (٢٨/ ٢٣٠، ٢٣١).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٤٣).

النَّعرة الجاهليَّة ، فقد ألمَّتْ بالبيت النَّبويِّ هذه النازلة الشَّديدة ، والمحنة العظيمة الَّتي كان القصد منها النَّيل من النَّبيِّ ﷺ ومن أهل بيته الأطهار .

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسِّير(١) على أنَّ حادثة الإفك كانَت في أعقاب غزوة بني المصطلق ، وتابعهم في ذلك المفسِّرون(٢) ، والمحدِّثون(٣) .

وقد أخرج البخاريُّ ، ومسلمٌ حديث الإفك في صحيحيهما . [البخاري (٤١٤١) ، ومسلم (٢٧٧٠)] ، وهذا سياق القصَّة من صحيح البخاريِّ :

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ؛ فأيتهنَّ خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها(٤) فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي(٥) وأنزل فيه .

فسرنا حتَّى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلةً بالرَّحيل ، فقمت حين آذنوا بالرَّحيل ، فمشيت حتَّى جاوزتُ الجيشَ ، فلمَّا قضيت شأني ، أقبلت إلى رحلي ، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ(٦) قد انقطع ، فالتمست عِقْدي ، وحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرَّهط(٧) الَّذين كانوا يُرحِّلونَي ، فاحتملوا هَوْدَجي ، فَرَحَّلُوه على بعيري الَّذي كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنِّي فيه ، وكان النِّساء ، إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللَّحم إنَّما نأكل العُلقة(٨) من الطَّعام ، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه ، وكنت جاريةً حديثة السِّنِّ ، فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عِقْدي بعدما استمرَّ الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داعٍ ، ولا مجيب فتيمَّمت منزلي الَّذي كنت فيه ، وظننت : أنَّهم سيفقدوني ، فيرجعون إليَّ ، فبينما أَنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي(٩) ثم الذَّكوانيّ من وراء الجيش ، فادَّلج(١٠) ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائمٍ ، فأتاني ، فعرفني

---

(١) كالواقديِّ ، والذَّهبيِّ ، والطَّبري ، وابن سعدٍ ، وابن حزم .
(٢) كابن كثيرٍ ، والرَّازي ، والطَّبري ، وغيرهم .
(٣) كابن حجر ، والنَّووي .
(٤) هي غزوة بني المصطلق .
(٥) الهودج : محمل له قبَّة تُستر بالثياب يوضع على ظهر البعير ، تركب فيه النساء .
(٦) جزع ظفار : هو خرزٌ معروفٌ ، في سواده بياضٌ كالعروق ، وهي مدينة باليمن .
(٧) الرَّهط : الجماعة .
(٨) العلقة : البُلغة من الطَّعام .
(٩) صحابيٌّ جليلٌ كان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته .
(١٠) فادَّلج (بالتَّشديد) : سار آخر الليل .

حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[١] حين عرفني فخمَّرتُ[٢] وجهي بجلبابي، ووالله ما كلَّمني كلمةً، ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه، وهوى حتَّى أناخ راحلته، فوطئ على يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الرَّاحلة حتَّى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[٣]، في نحر الظَّهيرة[٤] وهم نزول قالت: فهلك مَنْ هلك، وكان الَّذي تولى كِبْرَ الإفك عبد الله بن أبيٍّ بن سلول.

١ ـ انتشار الدِّعاية بالمدينة:

وقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً والنَّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يريبني[٥] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطف الَّذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم، ثمَّ يقول: «كيف تِيكُمْ»[٦] ثمَّ ينصرف، فذلك الَّذي يريبني، ولا أشعر بالشَّرِّ، حتَّى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، فَخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَح قِبَلَ المناصِع[٧] وهو متبرَّزنا، وكنَّا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتَّخذ الكُنُف[٨] قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأوَل في التَّبَرُّز قِبَل الغائط، فكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا، وأمُّ مِسْطَح، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد منافٍ، وأمُّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّدِّيق، وابنُها مسْطَحُ بن أُثاثة[٩]، فأقبلت أنا، وأم مِسْطَحٍ قِبَل بيتي حين فرغنا مِنْ شأننا، فعثرت أم مِسْطَح في مِرْطها[١٠] فقالت: تَعِسَ مِسْطَح، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنْتَاه[١١]! أولم تسمعي ما قال؟! قلت: وما قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك، فازدَدْت مرضاً على مرضي، قالت: فلمَّا رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسولُ الله ﷺ ـ تعني: فسلَّم ـ ثمَّ قال: «كيف تِيكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر مِنْ قِبَلِهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ،

(١) أي: بقوله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
(٢) فخمَّرت: أي: غطيت.
(٣) موغرين: الوغرة: شدة الحرِّ.
(٤) نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدَّة الحر.
(٥) يريبني: يشككني.
(٦) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل: ذاكم للمذكر.
(٧) المناصع: المواضع الَّتي يُتخلَّى فيها لقضاء الحاجة.
(٨) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.
(٩) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، توفي في خلافة عثمان.
(١٠) فعثرت في مرطها: أي: وطئته برجلها، فسقطت.
(١١) هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلَّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

فجئت أبويَّ ، فقلت لأمِّي : يا أمتاه! ما يتحدَّث النَّاس؟ قالت : يا بنيَّة! هوِّني عليك ، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئةٌ(١) عند رجلٍ يحبُّها ، ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها(٢) .

قالت : فقلت : سبحان الله! لقد تحدث النَّاس بهذا؟!

فبكيت تلك اللَّيلة حتَّى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ(٣) ، ولا أكتحل بنومٍ حتَّى أصبحت أبكي .

٢ ـ استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخُّر نزول الوحي :

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ ، وأسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما حين استلبث(٤) الوحي ، يستأمرهما في فراق أهله ، قالت : فأمَّا أسامة ؛ فأشار على رسول الله بالَّذي يعلم من براءة أهله ، وبالَّذي يعلم لهم من الودِّ ، فقال : يا رسول الله! أهلُك ، وما نعلم إلا خيراً ، وأمَّا عليُّ بن أبي طالب ، فقال : يا رسول الله! لم يضيِّق الله عليك ، والنِّساء سواها كثيرٌ ، وإن تسأل الجارية ؛ تصدقك .

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال : «أي بريرة! هل رأيت من شيءٍ يريبك؟» قالت بريرة : لا والَّذي بعثك بالحقِّ إنْ رأيت عليها أمراً أغمصُه(٥) عليها أكثر من أنَّها جاريةٌ حديثة السِّنِّ ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الدَّاجن(٦) فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر(٧) يومئذٍ من عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : «يا معشر المسلمين! من يَعْذِرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً(٨) ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» . فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ ، فقال : يا رسول الله! أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ؛ ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ؛ أمرتنا ففعلنا أمرك .

٣ ـ آثار فتنة الإفك :

قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيِّد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته

---

(١) وضيئة : الوضاءة : الحسن والجمال .
(٢) إلا أكثرن عليها : أي : أكثرن القول في عيبها .
(٣) لا يرقأ لي دمع : لا ينقطع ، ولا ينكف .
(٤) استلبث : وهو الإبطاء ، والتأخُّر .
(٥) أغمصه عليها : أي : أعيبها به ، وأطعن عليها به .
(٦) الدَّاجن : هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم .
(٧) فاستعذر : أي : قال : من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه؟
(٨) هو صفوان بن المعطَّل السلمي .

الحميَّة[١] ـ فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله! لا تقتُله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عمِّ سعدٍ، فقال لسعد بن عبادة: لنقتلنَّه فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان[٢]: الأوسُ، والخزرج؛ حتَّى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا، وسكت.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين، ويوماً، لا أكتحل بنومٍ، ولا يرقأ لي دمعٌ يظنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم، ثمَّ جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

٤ ـ مفاتحة الرَّسول ﷺ لعائشة، وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهراً[٣] لا يوحى إليه في شأني بشيءٍ، قالت: فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: يا عائشة! فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا[٤]، فإن كنت بريئةً فسيبرِّئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ؛ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه، ثمَّ تاب إلى الله، تاب الله عليه» فلمَّا قضى رسول الله ﷺ مقالته؛ قلص دمعي[٥]؛ حتَّى ما أحسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عنِّي فيما قال، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنِّي والله! لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتَّى استقرَّ في أنفسكم، وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أنِّي بريئةٌ؛ لا تصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أنِّي منه بريئةٌ لتصدقُنِّي، والله! ما أجد لي، ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[٦]، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: ثمَّ تحولت، فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أنِّي بريئةٌ، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني

---

(١) احتملته الحمية: أي: حملته الأنفة، والغضب على الجهل.
(٢) فثار الحيَّان: أي: تناهضوا للنزاع والعصبية.
(٣) التقيُّد بالشَّهر، فهو المدَّة الَّتي أوَّلها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.
(٤) كناية عمَّا رميت به من الإفك.
(٥) قلص دمعي: أي: ارتفع وذهب.
(٦) هو يعقوب عليه السَّلام.

وحياً يُتلى ، وَلَشَأْنِي في نفسي كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النَّوم رؤيا يبرِّئني الله بها .

٥ ـ نزول الوحي ببراءة عائشة :

قالت : فوالله ! ما رام[١] رسول الله ﷺ ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتَّى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[٢] حتَّى إنَّه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان[٣] ، وهو يومٌ شاتٍ من ثقل القول الَّذي ينزل عليه .

قالت : فلمَّا سُرِّي[٤] عن رسول الله ﷺ ، وهو يضحك ، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها : يا عائشة ! أمَّا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد برَّأك ، فقالت أمِّي : قومي إليه ، قالت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

وأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ١١ ـ ٢٠] .

٦ ـ موقف أبي بكر الصِّديق ممَّن تكلَّم في عائشة رضي الله عنها :

فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه ، وفقره ـ : والله ! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢ ـ ٢٣] .

---

(١) ما رام : ما برح ، وما فارق مجلسه .
(٢) البرحاء : شدَّة الكرب من ثقل الوحي .
(٣) الجمان : حبات اللؤلؤ الصَّغيرة ، وقيل : حبٌّ يتَّخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ .
(٤) سُرِّي : انكشف عنه ما يجده من الهم ، والثقل .

قال أبو بكر: بلى والله! إنِّي أحبُّ أن يغفر الله لي، فأَرْجَعَ إلى مسطح النَّفقة الَّتي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش(١) عن أمري، فقال: «يا زينب! ماذا علمت، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي(٢) سمعي، وبصري، وما علمت إلا خيراً، قالت: وهي الَّتي كانت تساميني(٣) من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله(٤) بالورع(٥)، وطفقت(٦) أختها حمنة(٧) تحارب لها، فهلكت ممَّن هلك من أصحاب الإفك. [سبق تخريجه].

كانت قصَّة الإفك حلقةً من سلسلة فنون الإيذاء، والمحن الَّتي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدِّين، وكان من لطف الله تعالى بنبيِّه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها، وبطلانها، وقد سجَّل التَّاريخ بروايات صحيحةٍ مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لاسيما موقف أبي أيوبٍ، وأم أيوب، وهي مواقف يتأسَّى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفِرْية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدُّروس، لتكون عبرةً، وعظةً للأجيال إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها(٨).

سادساً: أهمُّ الآداب والأحكام الَّتي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات الَّتي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً، وآداباً، من أهمِّها ما يأتي:

١ ـ تبرئة السَّيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآنٍ يُتْلَى إلى آخر الزَّمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٢ ـ أنَّ حكمة الله ـ تعالى ـ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشَّرِّ، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم، حيث كُتِب لهم الأجر العظيم على صبرهم، وقوَّة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾.

٣ ـ الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظَّنِّ فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ

---

(١) هي زينب بنت جحش أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، وهي بنتُ عمَّته ﷺ.
(٢) أحمي سمعي، وبصري: أي: أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
(٣) تساميني: أي: تعاليني، وتفاخرني: أي: تطاولني عنده ﷺ.
(٤) عصمها: حفظها، ومنعها.
(٥) الورع: الكفُّ عن المحارم والتَّحرُّج منها.
(٦) طفقت: شرعت.
(٧) حمنة بنت جحش بنت عمَّته ﷺ، وهي أخت زينب رضي الله عنها.
(٨) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٠.

سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ .

٤ ـ تكذيب القائلين بالإفك ، قال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ .

٥ ـ بيان فضل الله على المؤمنين ، ورأفته بهم: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ. . .﴾ .

٦ ـ وجوب التَّثبُّت من الأقوال قبل نشرها ، والتَّأكُّد من صحَّتها ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ .

٧ ـ النَّهي عن اقتراف مثل هذا الذَّنب العظيم ، أو العودة إليه ، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

٩ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين ، ورأفته بهم ، وكرَّر ذلك تأكيداً له ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ .

١٠ ـ النَّهي عن تتبُّع خطوات الشَّيطان الَّتي تؤدِّي للهلاك قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ .

١١ ـ الحثُّ على النَّفقة على الأقارب وإن أساؤوا[١] قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ .

١٢ ـ غيرة الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين الصَّادقين ، ودفاعه عنهم ، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللَّعن في الدُّنيا ، والآخرة ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ .

قال صاحب الكشَّاف عند تفسيره لهذه الآيات :

ولو فلَّيت القرآن كلَّه ، وفتَّشت عمَّا أوعد به العُصاة؛ لم ترَ الله تعالى قد غلَّظ في شيءٍ تغليظَه في إفك عائشة رضوانُ الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشَّديد ،

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣٨٥ ، ٣٨٦).

والعتاب البليغ ، والزَّجر العنيف ، واستعظام ما ارتُكِبَ من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرقٍ مختلفةٍ ، وأساليب مفتنةٍ ، كلٌّ واحد منها كافٍ في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثَّلاث لكفى بها؛ حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدَّارين جميعاً ، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأنَّ ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا ، وبهتوا ، وأنَّه يوفِّيهم جزاءهم الحقَّ الواجب الَّذي هم أهلُه[1] .

١٣ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الجارية في الكون ، وهي أنَّ الطَّيبين يجعلهم الله من نصيب الطَّيبات ، والطَّيبات يجعلهنَّ من نصيب الطَّيبين . قال تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

١٤ ـ والنَّاس عندما رُمِيَت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[2] :

قال فضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديثٍ يتعلَّق بقصَّة الإفك ـ : إنَّ النَّاس عندما رُمِيَتِ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا أربعة أقسام :

قسمٌ ـ وهو أكثر النَّاس ـ حموا أسماعهم ، وألسنتهم ، فسكتوا ، ولم ينطقوا إلا بخيرٍ ولم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا . وقسمٌ سارع إلى التَّكذيب ، وهم : أبو أيوبٍ الأنصاريُّ ، وأم أيوبٍ رضي الله عنهما ، فقد وصفوه عند سماعه بأنَّه إفك ، وبرَّؤوا عائشة ممَّا نسب إليها في الحال .

أمَّا القسم الثالث؛ فكانوا جملةً من المسلمين ، لم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا ، ولم ينفوا ، ولكنَّهم يتحدَّثون بما يقول أهل الإفك ، وهم يحسبون : أنَّ الكلام بذلك أمرٌ هيِّنٌ لا يُعرِّضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافرٍ ، وحاكي الإفك ليس بقاذفٍ ، ومن هؤلاء : حمنة بنت جحش ، وحسَّان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة .

أمَّا القسم الرَّابع فهم الذين جاؤوا بالإفك ، وعلى رأس هؤلاء عدوُّ الله عبد الله ابن أُبَيٍّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، لعنه الله ، وهو الَّذي تولَّى كبره .

وقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام ، وأنَّه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف ، فقال : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أمَّا القسم الثَّالث؛ فقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يتحدَّثوا بمثل هذا الحديث ، حيث يقول : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٣٨٦) نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣) .

(٢) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧) .

وقد أثبت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهل هذا القسم فضائلهم الَّتي عملوها ، حيث أثبت لمسطح هجرته ، وإيمانه عندما حلف أبو بكر : أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدَّق عليه ، وهو من ذوي قرابته ، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أمَّا القسم الرَّابع وهو جماعة عبد الله بن أُبَيٍّ الَّذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب ؛ فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر ، وأنَّه لن يقبل منهم توبةً ، وأنَّه أنزل عليهم لعنته في الدُّنيا ، والآخرة[(١)] ؛ حيث قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

سابعاً : فوائد ، وأحكامٌ ، ودروسٌ من حادثة الإفك ، وغزوة بني المصطلق :

١ ـ بشريَّة الرَّسول ﷺ :

جاءت محنة الإفك منطويةً على حكمةٍ إلٰهيَّةٍ استهدفت إبراز شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ ، وإظهارها صافيةً مميَّزةً عن كلِّ ما قد يلتبس بها ، فلو كان الوحي أمراً ذاتيّاً غير منفصلٍ عن شخصيَّة الرَّسول ﷺ ؛ لما عاش الرَّسول ﷺ تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهراً كاملاً ، ولكن الحقيقة الَّتي تجلَّت للنَّاس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرَّسول ﷺ ونبوَّته ، فعندما حسم الوحي اللَّغط الَّذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ؛ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرَّسول ﷺ ، وفرح الجميع بهذه النَّتيجة بعد تلك المعاناة القاسية ، فدلَّ ذلك على حقيقة الوحي ، وأنَّ الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى ؛ لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله ﷺ بصفةٍ خاصَّةٍ ، ولانعكس ذلك على تصرُّفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها ، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ[(٢)] .

٢ ـ حدُّ القذف ، وأهمِّيته في المحافظة على أعراض المسلمين :

كان المجتمع الإسلاميُّ يتربَّى من خلال الأحداث ، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولىٰ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يشرِّع بعض الأحكام الَّتي تسهم في المحافظة على أعراض المؤمنين ، ولذلك نزلت سورة النُّور ، الَّتي تحدَّثت عن حكم الزَّاني والزَّانية ، وعن قبح فاحشة الزِّنى ، وعمَّا يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزَّوجين صاحبه ، وعن العقوبة الَّتي أوجبها الله على الَّذين يرمون المحصنات ، ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء ، إلى غير ذلك من الأحكام[(٣)] .

---

(١) انظر : فقه الإسلام شرح بلوغ المرام ، لفضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥) .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤١ .

(٣) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧) .

إنَّ الإسلام حرم الزِّنى ، وأوجب العقوبة على فاعله ، وقد حرَّم أيضاً كل الأسباب المسبِّبة له ، وكلَّ الطُّرق الموصلة إليه؛ ومنها إشاعة الفاحشة ، والقذف بها؛ لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة ، والحديث عنها؛ لأنَّ كثرة الحديث عن فاحشة الزِّنى وسهولة قولها في كلِّ وقتٍ يهون أمرها لدى سامعيها ، ويجرِّئ ضعفاء النُّفوس على ارتكابها ، لهذا حرَّمت الشَّريعة الإسلاميَّة القذف بالزِّنى ، وأوجبت على من قذف عفيفاً ، أو عفيفةً ، طاهراً ، أو طاهرةً ، بريئاً ، أو بريئةً من الزِّنى ، حدَّ القذف ، وهو الجلد ثمانون جلدةً ، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبةً صادقةً نصوحاً[1] .

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حدَّ القذف على مِسْطحٍ ، وحسَّانَ ، وحمنةَ ، وروى محمَّد بن إسحاق ، وغيره : أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلد في الإفك رجلين ، وامرأة : مسطحاً ، وحسَّاناً ، وحمنة . وذكره التِّرمذيُّ . [الترمذي (٣١٨١) ، ولم يُصرِّح بذكر الأسماء ، وقد صرَّح بها أبو داود (٤٤٧٥)] .

قال القرطبيُّ[2] : والمشهور من الأخبار ، والمعروف عند العلماء : أن الَّذي حُدَّ حسانُ ، ومسطحٌ ، وحمنةُ ، ولم يُسْمَع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيٍّ[3] ، وقد وردت آثارٌ ضعيفةٌ تدل على أنَّ عبد الله بن أُبَيٍّ أقيم عليه الحدُّ ، ولكنَّها كلَّها ضعيفةٌ لا تقوم بها حجَّة[4] .

وقد ذكر ابن القيِّم وجه الحكمة في عدم حدِّ عبد الله بن أُبيٍّ ، فقال :

أ ـ قيل : لأنَّ الحدود تخفيفٌ عن أهلها ، وكفارةٌ ، والخبيث ليس أهلاً لذلك ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، ويكفيه عن الحدِّ .

ب ـ وقيل : كان يستوشي الحديث ، ويجمعه ، ويحكيه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه .

جـ ـ وقيل : الحدُّ لا يثبت إلا ببيِّنةٍ ، أو إقرارٍ ، وهو لم يقرَّ بالقذف ، ولا شهد به عليه أحدٌ ، فإنَّه كان يذكره بين أصحابه ، ولم يشهدوا عليه ، ولم يكن يذكره بين المؤمنين .

د ـ وقيل : بل ترك حدَّه لمصلحةٍ هي أعظم من إقامته عليه ، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه ، وتكلُّمه بما يوجب قتله مراراً ، وهي تأليف قومه ، وعدم تنفيرهم من الإسلام .

ثمَّ قال ـ في ختام كلامه ـ : ولعلَّه ترك لهذه الوجوه كلِّها[5] .

---

(١) انظر : آثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد الزَّاحم ، ص ١١٧ .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (١٢/ ١٩٧) .
(٣) انظر : تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠١) .
(٤) انظر : مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٢٤٢ .
(٥) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

٣ ـ اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها :

قد بيَّنت الرِّوايات : أنَّ من خاض في الإفك قد تاب ـ ما عدا ابن أبيٍّ ـ وقد اعتذر حسَّان رضي الله عنه عمَّا كان منه ، وقال يمدح عائشة رضي الله عنها بما هي أهلٌ له(١) :

رَأيتُكِ وَلْيَغْفِرْ لَكِ اللهُ حُرَّةً ... مِنَ المُحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحَ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ
وَإنَّ الَّذي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلاَئِقٍ ... بِكِ الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ مُتَناحِلِ
فَإنْ كُنْتُ أَهْجُوكُمْ كَمَا بلَّغُوكُمُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إلَيَّ أَنَامِلِي
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لآلِ رَسُوْلِ اللهِ زَيْنُ المَحَافِلِ
وَإِنَّ لَهُمْ عِزّاً يَرَىٰ النَّاسُ دُوْنَهُ ... قِصَاراً ، وَطَالَ العِزُّ كلَّ التَّطاوُلِ(٢)

٤ ـ من الأحكام المستنبطة في غزوة بني المصطلق :

جواز الإغارة على مَنْ بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذارٍ . ومنها : صحَّة جعل العتق صداقاً، كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة . ومنها : مشروعية القرعة بين النِّساء عند إرادة السَّفر ببعضهن . ومنها : جواز استرقاق العرب، كما حدث في الغزوة، وهو قول جمهور العلماء(٣) .

وقد أجمع العلماء قاطبةً على أنَّ من سبَّ عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءةً قطعيَّة بنصِّ القرآن ، ورماها بما اتُّهمت به؛ فإنه كافرٌ ؛ لأنه معاندٌ للقرآن(٤) ، ومن الأحكام الَّتي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النِّساء ، حيث سأل الصَّحابة الرَّسول ﷺ عنه ، فأذن به ، وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا ، ما من نسمةٍ كائنةٍ إلى يوم القيامة إلا وهي كائنةٌ» [البخاري (٥٢١٠)، ومسلم (١٤٣٨/١٢٥)، وأحمد (٣/٦٨ و٧٢)](٥). فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزَّوجة الحرَّة بإذنها(٦) ، ونزلت آية التَّيمُّم في هذه الغزوة؛ تنويهاً بشأن الصَّلاة ، وتنبيهاً على عظيم شأنها ، وأنَّه لا يحول دون أدائها فقدُ الماء ، وهو وسيلةُ الطَّهارة الَّتي هي أعظم شروطها ، كما لا يحول الخوف ، وفقدُ الأمن من إقامتها(٧) .

* * *

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٦٣).
(٢) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص ٢٨١ .
(٣) انظر : كتاب الأم ، للشَّافعي (٤/ ١٨٦).
(٤) شرح صحيح مسلم ، للنووي (٥/ ٦٤٣).
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (٢/ ٤١٥).
(٦) انظر : نيل الأوطار ، للشَّوكاني (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤).
(٧) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب (٥ هـ)

المبحث الأوَّل
تاريخ الغزوة ، وأسبابها ، وأحداثها

أولًا : تاريخ الغزوة ، وأسبابها :

١ ـ تاريخ الغزوة :

ذهب جمهور أهل السِّير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوَّال من السَّنة الخامسة[١] ، وقال الواقديُّ[٢] : إنَّها وقعت في يوم الثلاثاء الثَّامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجريِّ ، وقال ابن سعدٍ[٣] : إنَّ الله استجاب لدعاء الرَّسول ﷺ ، فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمسٍ من مهاجره ﷺ . ونقل عن الزُّهريِّ ، ومالك بن أنس ، وموسىٰ بن عقبة : أنَّها وقعت سنة أربعٍ هجريَّة[٤] .

ويرى العلماء : أنَّ القائلين بأنَّها وقعت سنة أربع كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الَّذي وقع بعد الهجرة ، ويلغون الأشهر الَّتي قبل ذلك إلى ربيع الأوَّل وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التَّاريخ من المحرَّم سنة الهجرة[٥] ، وجزم ابن حزم[٦] : أنَّها وقعت سنة أربعٍ لقول ابن عمر : أنَّ الرسول ﷺ ردَّه يوم أحدٍ ـ وهي في السَّنة الثَّالثة باتِّفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٤٣ . وينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٥٤) .

(٢) انظر : المغازي (٢/ ٤٤٠) بدون إسناد .

(٣) انظر : الطَّبقات (٢/ ٦٥ ، ٧٣) بإسنادٍ متصل .

(٤) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ١٠٥) .

(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٣ .

(٦) انظر : جوامع السِّير ، ص ١٨٥ .

[البخاري (٤٠٩٧)، ومسلم (١٨٦٨)][1] ولكنَّ البيهقيَّ [دلائل النبوة (٢/ ٢٩٦)] وابن حجر[2]، وغيرهما فسَّروا ذلك بأنَّ ابن عمر كان يوم أحدٍ في بداية الرَّابعة عشرة، ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[3].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور ـ وهو الرَّاجح لديَّ ـ مال ابن القيِّم، حيث قال: وكانت سنة خمسٍ من الهجرة في شوال على أصحِّ القولين؛ إذ لا خلاف: أنَّ أُحداً كانت في شوَّال سنة ثلاثٍ، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربعٍ، ثمَّ أخلفوه من أجل جدب تلك السَّنة، فرجعوا، فلمَّا كانت سنة خمس جاؤوا لحربه[4].

٢ ـ أسبابها:

إنَّ يهود بني النَّضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما إن استقرُّوا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتَّفقت كلمتُهم على التَّوجُّه إلى القبائل العربيَّة المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكوَّن من سلام ابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبي عمَّار[5].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمَّته، حيث وافقت قريش الَّتي شعرت بمرارة الحصار الاقتصاديِّ المضروب عليها من قِبَل المسلمين، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة، وفي السَّلب، والنَّهب، وتابعتهم قبائل أخرىٰ.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكَّة: إنَّ دينكم خيرٌ من دين محمَّدٍ، وأنتم أولى بالحقِّ منه[6]. وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الَّذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريشٍ الوثنيَّ على دين الإسلام الَّذي يدعو إلى عبادة الإلٰه الواحد، فقال: «والَّذي يؤلم كلَّ مؤمن بإلٰهٍ واحدٍ من اليهود، والمسلمين على السَّواء، إنَّما هو تلك المحادثة الَّتي

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٤٤.
(٢) انظر: الفتح (٣/ ٣٩٦).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٤.
(٤) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٨٨).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٣٧).
(٦) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، د. علي معطي، ص ٣١٠.

جرت بين نفرٍ من اليهود ، وبين قريش الوثنيِّين ، حيث فضَّل هؤلاء النَّفر من اليهود أديان قريشٍ على دين صاحب الرِّسالة الإسلاميَّة»(١) .

ولا ريب أن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدحٍ لدينها ، فازدادت حماساً ، وأصبحت أكثر تصميماً على حرب المسلمين ، ثمَّ أعلنت موافقتها على هذه الدَّعوة ، والاشتراك في الحملة الَّتي ستهاجم المدينة ، وضربت لها موعداً(٢) .

وقد أبرم الوفد اليهوديُّ مع زعماء أعراب غطفان اتفاقيَّة الاتحاد العربيِّ الوثنيِّ اليهوديِّ العسكريِّ ضدَّ المسلمين ، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو :

أ ـ أن تكون قوَّة غطفان في جيش الاتِّحاد هذا ستَّةَ آلاف مقاتلٍ .

ب ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان «مقابل ذلك» كلَّ تمر خيبر لسنةٍ واحدةٍ(٣) .

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرةُ آلاف مقاتلٍ ؛ أربعة آلاف من قريشٍ ، وأحلافها ، وستَّةُ آلافٍ من غطفان ، وأحلافها ، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة .

ثانياً : متابعة المسلمين للأحزاب :

كان جهاز أمن الدَّولة الإسلاميَّة على حذرٍ تام من أعدائه ؛ لذا فقد كان يتتبَّع أخبار الأحزاب ، ويرصد تحرُّكاتهم ، ويتابع حركة الوفد اليهوديِّ منذ خرج من خيبر في اتِّجاه مكَّة ، وكان على علمٍ تامٍّ بكلِّ ما يجري بين الوفد اليهوديِّ ، وبين قريش أوَّلاً ، ثمَّ غطفان ثانياً ، وبمجرَّد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدوِّ شرع الرَّسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدِّفاعية اللاَّزمة ، ودعا إلى اجتماعٍ عاجلٍ ، حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين ، والأنصار ، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير النَّاجم عن مساعي اليهود الخبيثة(٤) ، فأدلى سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه برأيه الَّذي يتضمَّن حفر خندقٍ كبيرٍ لصدِّ عدوان الأحزاب ، فأُعْجِبَ النَّبيُّ ﷺ بذلك ، قال الواقديُّ رحمه الله : فقال سلمان : يا رسول الله ! إنَّا إذا كنا بأرض فارس ، وتخوَّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين(٥) .

---

(١) انظر : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ولفنسون ، ص ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣١٠ .
(٣) انظر : غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤١ .
(٤) انظر : غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٥) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٤) ، والطَّبقات الكبرى (٢/ ٦) ، ومحمَّد ﷺ : لمحمَّد رضا (حفر الخندق) .

وعندما استقرَّ الرَّأي ـ بعد المشاورة ـ على حفر الخندق ، ذهب النَّبيُّ ﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه ، واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش ، فقد ذكر الواقديُّ : أنَّ رسول الله ﷺ ركب فرساً له ، ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعاً خلف ظهره ، ويخندق من المذاد إلى ذباب[(١)] إلى راتج[(٢)] ، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سَلْع[(٣)] في حماية ظهور الصَّحابة .

كان اختيار تلك المواقع موفَّقاً؛ لأنَّ شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدوِّ ، والَّذي يستطيع منه دخول المدينة ، وتهديدها ، أمَّا الجوانب الأخرى فهي حصينةٌ منيعةٌ ، تقف عقبةً أمام أيِّ هجوم يقوم به الأعداء ، فكانت الدُّور من ناحية الجنوب متلاصقةً عاليةً كالسُّور المنيع ، وكانت حرَّة واقم[(٤)] من جهة الشَّرق ، وحرة الوبرة من جهة الغرب ، تقومان كحصنٍ طبيعيٍّ ، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشَّرقي كفيلةً بتأمين ظهر المسلمين ، وكان بين الرَّسول ﷺ وبني قريظة عهدٌ ألاَّ يمالئوا عليه أحداً ، ولا يناصروا عدوّاً ضدَّه[(٥)] .

ويستفاد من بحث الرَّسول ﷺ عن مكانٍ ملائمٍ لنزول الجند أهمِّيةُ الموقع الذي ينزل فيه الجند ، وأنَّه ينبغي أن يتوافر فيه شرطٌ أساسيٌّ ، وهو الحماية التامَّة للجند؛ لأنَّ ذلك له أثرٌ واضحٌ على سير المعركة ، ونتائجها[(٦)] .

لقد كانت خطَّة الرَّسول ﷺ في الخندق متطورةً ، ومتقدِّمةً ، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال ، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم؛ بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم ، وبهذا يكون الرَّسول ﷺ هو أوَّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين ، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مُذهلةً لأعداء الإسلام ، وأبطل خطَّتهم الَّتي رسموها ، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيعٍ لسرّية الخطَّة ، وسرعة إنجازها ، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثرٌ في إضعاف معنويات الأحزاب ، وتشتيت قواتهم .

ثالثاً : اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الدَّاخلية :

١ ـ لمَّا علم النَّبيُّ ﷺ بقدوم جيش الأحزاب ، وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري

---

(١) ذباب : أكمةٌ صغيرة في المدينة ، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع .
(٢) راتج : حصنٌ من حصون المدينة لأناسٍ من اليهود .
(٣) جبل سلع : هو أشهر جبال المدينة . انظر : معجم البلدان (٣/ ٢٣٦) .
(٤) هي حرَّة المدينة الشَّرقية . انظر : معجم معالم الحجاز (٢/ ٢٨٣ ، ٢٨٥) .
(٥) انظر : العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ ، ص ٤٤٢ .
(٦) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤٢٦ .

المسلمين ، ونسائهم ، وصبيانهم في حصن بني حارثة؛ حتَّى يكونوا في مأمنٍ من خطر الأعداء ، وقد فعل ذلك ﷺ ؛ لأنَّ حماية الذَّراري ، والنِّساء ، والصِّبيان لها أثرٌ فعَّالٌ على معنويات المقاتلين؛ لأنَّ الجندي إذا اطمأنَّ على زوجه ، وأبنائه يكون مرتاح الضَّمير ، هادئ الأعصاب ، فلا يشغل تفكيره أمرٌ من أمور الحياة ، يُسخِّر كل إمكاناته ، وقدراته العقليَّة ، والجسديَّة للإبداع في القتال ، أمَّا إذا كان الأمر بعكس ذلك؛ فإنَّ أمر الجندي يضطرب، ومعنوياتُه تضعُف ويستولي عليه القلق ، ممَّا يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع(١) .

٢ ـ ومن الأمور الَّتي أسهمت في قوية، وتماسك الجبهة الدَّاخلية مشاركةُ النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرَّسول ﷺ الصَّحابة في العمل المضني ، فأخذ يعمل بيده الشَّريفة في حفر الخندق ، فعن ابن إسحاق ، قال: سمعت البراء يحدِّث قال: لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ؛ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتَّى وارى عني التُّرابُ جِلدَة بطنِه ، وكان كثير الشَّعر . [البخاري (٤١٠٦) ، ومسلم (١٨٠٣)] .

فعمل رسول الله ﷺ مع الصَّحابة بهمَّةٍ عاليةٍ لا تعرف الكلل ، فأعطى القدرة الحسنة لأصحابه حتَّى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق .

٣ ـ وكان ﷺ يشارك الصَّحابة رضي الله عنهم في آلامهم ، وآمالهم ، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمَّة دونهم ، ففي غزوة الأحزاب نجد: أنَّه ﷺ كان يعاني ألم الجوع كغيره ، بل أشدَّ ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشَّريف من شدَّة الجوع(٢) ، ثمَّ إنَّه ﷺ شاركهم في آمالهم ، فحين وجد ما يسدُّ رمقه بعد هذا الجوع الَّذي استمر ثلاثاً ، لم يستأثر بذلك دونهم ، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السُّرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوباتٍ جمَّة ، فقد كان الجو بارداً ، والرِّيح شديدةً ، والحالة المعيشية صعبةً ، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الَّذي يتوقَّعونه في كلِّ لحظةٍ ، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصَّحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم ، ولاشكَّ في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم ، والجدِّ ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ لم ينسَ في هذا الظَّرف: أنَّ هؤلاء الجند إنَّما هم بشرٌ كغيرهم ، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الرَّاحة من عناء العمل ، كما أنَّها بحاجةٍ إلى مَنْ يدخل السُّرور عليها؛ حتَّى تَنسى تلك الآلام الَّتي تعانيها فوق معاناة العمل الرَّئيسي ، ولهذا نجد: أنَّ النَّبيِّ ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل التُّراب:

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور محمد عبد القادر أبو فارس ، ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٦ ، ١١٧ .

اللَّهُـمَّ لَـوْلاَ أَنْـتَ مَـا اهْتَـدَيْنَـا ... ولا تَصَـدَّقْنَـا ولا صَلَّيْنَـا
فَـأَنْـزِلَـنْ سَكِيْنَـةً عَلَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَيْنَـا
إِنَّ الأُلَـىٰ قَـدْ بَغَـوْا عَلَيْنَـا ... وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

ثُمَّ يَمدُّ صوته بآخرِها. [البخاري (٤١٠٦)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ أصحاب محمَّدٍ ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نَحْـنُ الَّـذِيْـنَ بَـايَعُـوا مُحَمَّـداً ... عَلَـى الإِسْـلامِ مَـا بَقِيْنَـا أَبَـداً

أو قال على الجهاد، والنَّبيُّ ﷺ يقول:

اللَّهُـمَّ إِنَّ الْخَيْـرَ خَيْـرُ الآخِـرَه ... فَـاغْفِـرْ لِـلأَنْصَـارِ والمُهَـاجِـرَه

[البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم (١٨٠٥/ ١٣٠)].

لقد كان لهذا التَّبسُّط، والمرح في ذلك الوقت أثرُه في التَّخفيف عن الصَّحابة ممَّا يعانونه نتيجةً للظُّروف الصَّعبة، الَّتي يعيشونها، وكما كان له أثرهُ في بعث الهِمَّة، والنَّشاط، بإنجاز العمل الَّذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوِّهم[1].

٥ ـ تقدير ظروف الجند، والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصَّحابة رضي الله عنهم على قدرٍ كبير من الأدب مع النَّبيِّ ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورةٌ، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثمَّ يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبةً في الخير، واحتساباً له، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمَّد! الَّذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم؛ الَّتي تعرض لهم فائذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم[2]، فكان النَّبيُّ ﷺ بالخيار، إن شاء؛ أذن له؛ إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن، ولم ير فيه مضرَّة على الجماعة، فكان يأذن، أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة، ويقتضيه مقام الحال[3].

٦ ـ تقسيم الصَّحابة إلى دورياتٍ للحراسة: قسم النَّبيُّ ﷺ أصحابه إلى مجموعاتٍ للحراسة، ومقاومة كلِّ مَنْ يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة

---

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول ﷺ، ص ٤٨٢.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، للصَّابوني (٢/ ٣٥١).
(٣) أحكام القرآن، لابن العربيِّ (٣/ ١٤١٠).

الخندق ، وحراسة نبيِّهم ﷺ ، واستطاعوا أن يصدُّوا كلَّ هجومٍ حاول المشركون شنَّه ، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً ، وقيادةً ، حتَّى إنَّهم استمرُّوا ذات يوم من السَّحَر إلى جوف اللَّيل في اليوم الثَّاني ، ويفوت المسلمين الصَّلواتُ الأربع ، ويقضونها لعجزهم عن التوقُّف لحظةً واحدةً في أثناء الاشتباك المباشر للقتال ، واستطاع عليُّ بن أبي طالب مع مجموعة من الصَّحابة أن يصدُّوا محاولة عكرمة بن أبي جهلٍ ، بل تصدَّى عليٌّ لبطل قريش عمرو بن عبد ودٍّ ، وقتله[1] ، وكانت هناك مجموعةٌ من الأنصار تقوم بحراسة النَّبيِّ ﷺ في كلِّ ليلةٍ على رأسهم عبَّاد بن بشرٍ رضي الله عنه ، فالنَّبيُّ ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة ، فهو الَّذي يرسم الخطط ، ويراقب تنفيذها ، فهو الَّذي :

أ ـ أمر بحفر الخندق ، بعد أن تمَّت المشاورة في ذلك ، فاختار مكاناً مناسباً لذلك ، وهي السُّهول الواقعة شمال المدينة ؛ إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء .

ب ـ قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصَّحابة ، كلَّ أربعين ذراعاً لعشرة من الصَّحابة ، ووكَّل بكلِّ جانبٍ جماعةً يحفرون فيه .

ج ـ سيطر على العمل ، فلا يستطيع أحدٌ ترك عمله إلا بإذنٍ منه ﷺ .

د ـ قسم ﷺ واجبات احتلال المواضع بنفسه بحيث تستمرُّ الحراسة على كلِّ شبرٍ من الخندق ليلاً ، ونهاراً ، ثمَّ إنَّه ﷺ كان يقوم بمهمَّة الإشراف العامِّ على الجند بتشجيعهم ، ورفع معنوياتهم .

هـ ـ استطاع ﷺ ـ لما يتمتَّع به من حنكةٍ ، وبراعةٍ سياسيَّةٍ مستمدَّةٍ من شخصيته النَّبويَّة ـ أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الَّذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة ، وأصبح الخطر يهدِّد المدينة ، وما حولها[2] ، فقد توحَّدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة ، والفوز بها .

* * *

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٠٤ .
وانظر : البداية والنِّهاية (فصل : نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق) ، وانظر : السِّيرة النبوية لابن هشام (غزوة الخندق) من حاول عبور الخندق من المشركين ، وراجع : الإصابة في معرفة الصَّحابة لابن حجر .

(٢) انظر : القيادة العسكريَّة في عصر الرَّسول ﷺ ، ص ١١ .

المبحث الثاني
اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أنَّ المسلمين أخذوا بالاحتياطات كافَّةً في تأمين جبهتهم الدَّاخليَّة ، ومحاولة الدِّفاع عن الإسلام ، والمدينة من جيش الأحزاب الزَّاحف ، إلا أنَّ سنَّة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدَّة ، ولا منحة إلا بعد محنة ، وكلَّما اقترب النَّصر زاد البلاء ، والامتحان ، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما :

أولاً : نَقْضُ اليهود من بني قريظة العهدَ ، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف :

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الَّذين يسكنون في جنوب المدينة ، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين ، اليهود خلف خطوطهم ، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم ، ونجح اليهوديُّ زعيم بني النَّضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضمَّ مع الأحزاب لمحاربة المسلمين .

وسرت الشَّائعات بين المسلمين بأنَّ قريظة قد نقضت عهدها معهم ، وكان الرَّسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأنَّ اليهود قوم لا عهد لهم ، ولا ذمَّة ، ولذلك انتدب النَّبيُّ ﷺ الزبير بن العوَّام «رجل المهمَّات الصَّعبة» ليأتيه من أخبارهم ، فذهب الزُّبير ، فنظر ثمَّ رجع ، فقال: يا رسول الله! رأيتهم يصلحون حصونهم ، ويُدرِّبون[(١)] طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم[(٢)] .

وبعد أن كثرت القرائن الدَّالة على نقض بني قريظة للعهد؛ أرسل رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخَوَّات بن جبير رضي الله عنهم ، وقال لهم: انطلقوا حتَّى تنظروا: أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا؟ فإن كان حقّاً؛ فالحنوا لي لحناً[(٣)] أعرفه ، ولا تَـفُتُّوا في أَعْضَاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم؛ فاجهروا به

---

(١) يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السَّير إلى المسلمين .
(٢) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٤٥٧) .
(٣) لحناً: أي: كلاماً لا يفهمه أحدٌ سواي .

للنَّاس . [ابن هشام (٣/ ٢٣٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٩)][(١)].

فخرجوا حتَّى أتوهم ، فوجدوهم قد نقضوا العهد ، فرجعوا ، فسلَّموا على النَّبيِّ ﷺ ، وقالوا: عضَلٌ والقارَّة[(٢)] ، فعرف النَّبيُّ ﷺ مرادهم[(٣)] .

واستقبل النَّبيُّ ﷺ غدر بني قريظة بالثَّبات ، والحزم ، واستخدم كلَّ الوسائل الَّتي مِنْ شأنها أن تقوِّي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين ، فأرسل النَّبيُّ ﷺ في الوقت نفسه «سلمة بن أسلم» في مئتي رجلٍ ، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل ، يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة ، وفي هذه الأثناء استعدَّت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب ، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محمَّلةً تمراً ، وشعيراً ، وتيناً؛ لتمدَّهم بها ، وتقوِّيهم على البقاء ، إلا أنَّها أصبحت غنيمةً للمسلمين الَّذين استطاعوا مصادرتها، وأتوا بها إلى النَّبيِّ ﷺ[(٤)] .

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين ، وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف :

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها ، واشتدَّ الكرب على المسلمين ، وتأزَّم الموقف ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن حالة الحرج ، والتَّدهور ، الَّتي أصابت المسلمين ، ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع ، وخوفٍ ، وفزع في تلك المحنة الرَّهيبة أصدقَ وصفٍ ، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ، ١١].

وكان ظنُّ المسلمين بالله قويّاً ، وقد سجَّله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأمَّا المنافقون؛ فقد انسحبوا من الجيش ، وزاد خوفهم حتَّى قال مُعَتِّب بن قُشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى ، وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرُّجوع إلى بيوتهم بحجَّة أنَّها عورة ، فقد كان موقفهم يتَّسم بالجبن ، والإرجاف وتخذيل المؤمنين ، وقد وردت رواياتٌ ضعيفةٌ تحكي

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٣/ ١٩٩) ، والقرطبي ، تفسير آية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (فصل: في نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق).

(٢) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النَّبيِّ ﷺ في ذات الرَّجيع .

(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٩٥) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (غزوة الخندق).

(٤) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٣٢٣).

أقوالهم في السُّخرية ، والإرجاف ، والتَّخذيل(١).

ولكن القرآن الكريم يتكفَّل بتصوير ذلك أدقَّ تصوير(٢) ، والآيات هي : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إنَّ الآيات السَّابقة أشارت إلى النِّفاق ، وما تولَّد عنه من القلق في النُّفوس ، والجبن في القلوب ، وانعدام الثِّقة بالله عند تعاظم الخطوب ، والجرأة على الله تعالى بدل اللُّجوء إليه عند الامتحان ، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد؛ بل يتبعه العمل المُخذِّل المُرْجِف ، فهم يستأذنون الرَّسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل ، والقتال بحججٍ واهيةٍ زاعمين: أن بيوتهم مكشوفةٌ للأعداء ، وإنَّما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم ، وللخوف المسيطر عليهم ، بل ويحثُّون الآخرين على ترك موقعهم ، والرُّجوع إلى بيوتهم ، ولم يراعوا عقد الإيمان ، وعهود الإسلام(٣).

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق ، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعدادٍ كبيرةٍ كلَّ ليلةٍ حول الخندق حتَّى الصَّباح ، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعةٍ من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحيةٍ ضيِّقةٍ منه ، ويأخذهم على حين غِرَّةٍ ، لكنَّ أُسَيْدَ بن حضير في مئتين من الصَّحابة يراقبون تحرُّكاتهم ، وقد حصلت مناوشاتٌ استشهد فيها الطُّفَيْل بن النُّعمان ، والَّذي قتله وحشيٌّ ـ قاتل حمزة يوم أحدٍ ـ رماه بحربةٍ عبر الخندق ، فأصابت منه مقتلاً(٤) ، واستطاع حبَّان بن العَرِقَة ، من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن

---

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٦) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٣١).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٢٤).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٢٥).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٤٢٤).

معاذ رضي الله عنه في أكحله[(١)] ، وقال: خذها وأنا ابن العرقة.

وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللَّهُمَّ! إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً؛ فأبقني لها ، فإنَّه لا قومَ أحبُّ إليَّ من أن أجاهد من قومٍ آذوا رسولك ، وكذَّبوه ، وأخرجوه.

اللَّهُمَّ! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها شهادةً ، ولا تميتني حتَّى تقرَّ عيني من بني قريظة. [أحمد (٦/ ١٤١ ـ ١٤٢) ، وابن حبان (٧٠٢٨)].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصَّالح وهو الَّذي سيحكم فيهم ، ثمَّ وجَّه المشركون كتيبة غليظةً نحو مقرِّ رسول الله ﷺ فقاتلهم المسلمون يوماً إلى اللَّيل ، فلمَّا حانت صلاة العصر؛ دنت الكتيبة ، فلم يقدر النَّبيُّ ﷺ ، ولا أحدٌ من أصحابه الَّذين كانوا معه أن يصلُّوا ، وشُغِلَ بهمُ النَّبيُّ ﷺ ، فلم يصلِّ العصر ، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع اللَّيل ، فقال رسول الله ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى؛ حتَّى غابت الشمس» [البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)].

ثالثاً: محاولة النَّبيِّ ﷺ تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان ، وبثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النَّبيِّ ﷺ في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذَّات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته ، وترجع إلى بلادها ، فهو يعلم ﷺ: أنَّ غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أيَّ هدفٍ سياسيٍّ يريدون تحقيقه أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته ، وإنَّما كان هدفهم الأوَّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ، ولهذا لم يحاول الرَّسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأنَّ هدف أولئك الرَّئيسي لم يكن المال ، وإنَّما كان هدفهم هدفاً سياسيّاً ، وعقائديّاً يتوقَّف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلاميِّ من الأساس ، لذا فقد كان اتصاله «فقط» بقادة غطفان ، الَّذين «فعلاً» لم يتردَّدوا في قبول العرض الَّذي عرضه عليهم النَّبيُّ ﷺ[(٢)] ، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف) لطلب النَّبيِّ ﷺ ، وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقرِّ قيادة النَّبيِّ ﷺ ، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحدٌ ، وشرع رسول الله ﷺ في مفاوضتهم ، وكانت تدور حول عرضٍ تقدَّم به رسول الله ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلحٍ

---

(١) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة ، إذا قطع لم يرقأ الدم.

(٢) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ٢٠١.

منفردٍ بينه ، وبين غطفان ، وأهمُّ البنود الَّتي جاءت في هذه الاتفاقيَّة المقترحة :

أ ـ عقد صلحٍ منفردٍ بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب .

ب ـ توادع غطفان المسلمين ، وتتوقف عن القيام بأيِّ عملٍ حربيٍّ ضدَّهم (وخاصَّة في هذه الفترة) .

ج ـ تفكُّ غطفان الحصار عن المدينة ، وتنسحب بجيوشها عائدةً إلى بلادها .

د ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلِّها من مختلف الأنواع ، ويظهر : أنَّ ذلك لسنةٍ واحدةٍ[1] ، فقد ذكر الواقديُّ : أنَّ رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان : أرأيت إن جعلت لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم ، وتخذِّلان بين الأعراب؟ قالا : تعطينا نصف ثمر المدينة ، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثُّلث ، فرضيا بذلك ، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[2] .

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكريَّة وضوح الهدف الَّذي خرجت غطفان من أجله ، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ، ويحرِّكها في جبهة القتال ، ولاشكَّ في أنَّ اختفاء هذا الدَّافع يعني : أنَّ المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال ، وبذلك تضعف عنده الرُّوح المعنوية الَّتي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه ، وبذلك استطاع ﷺ أن يُفتِّت ، ويضعف من قوَّة جبهة الأحزاب[3] .

وقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النُّبوة في التَّحرك لفكِّ الأزمات عند استحكامها ، وتأزُّمها ؛ لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربويّاً من دروس التَّربية المنهجيَّة عند اشتداد البلاء[4] ، وقبل عقد الصُّلح مع غطفان شاور رسولُ الله ﷺ الصحابة في هذا الأمر ، فكان رأيُهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة ، وقال السَّعدان : سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة : يا رسول الله! أمراً تحبُّه ، فنصنعُه ، أم شيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعُه لنا؟ فقال : «بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله! ما أصنع ذلك إلا لأنِّي رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ ، وكالبوكم ـ أي : اشتدوا عليكم ـ من كلِّ جانبٍ ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله! قد كنَّا وهؤلاء على الشِّرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرىً ـ

(١) انظر : غزوة الأحزاب ، لمحمَّد باشميل ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٢) انظر : المغازي ، للواقدي (٢/ ٤٧٧) ، والجامع لأحكام القرآن ، للقرطبيّ (آية : ٦١) .
(٣) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤١٣ .
(٤) انظر : محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ١٧٦) .

أي: الطَّعام الَّذي يُصنع للضَّيف ـ أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزَّنا بك ، وبه ، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نعطيهم إلا السَّيف، حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النَّبيُّ ﷺ : «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثمَّ قال: ليَجْهدوا علينا. [ابن هشام (٣/ ٢٣٤)][(١)].

كان رد زعيمي الأنصار: سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى ، والأدب مع النَّبي ﷺ وطاعته ، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى ، فلا مجال لإبداء الرَّأي بل لابدَّ من التَّسليم ، والرِّضا.

والثَّاني: أن يكون شيئاً يحبُّه رسول الله ﷺ ، باعتباره رأيه الخاصّ، فرأيه مقدَّمٌ، وله الطَّاعة في ذلك.

الثَّالث: أن يكون شيئاً عمله الرَّسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم ، فهذا هو الَّذي يكون مجالاً للرَّأي.

ولمَّا تبيَّن للسَّعدين من جواب الرَّسول ﷺ : أنَّه أراد القسم الثَّالث: أجاب سعدُ بن معاذ بجوابٍ قويٍّ ، كبت به زعيمي غطفان ، حيث بيَّن أنَّ الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهليَّة؛ فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام؟! وقد أُعجب النَّبيُّ ﷺ بجواب سعدٍ ، وتبيَّن له منه ارتفاع معنويَّة الأنصار ، واحتفاظهم بالرُّوح المعنويَّة العالية ، فألغى بذلك ما بدأ من الصُّلح مع غطفان[(٢)].

وفي قوله ﷺ : «إنِّي قد علمت: أنَّ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ» [الطبراني في الكبير (٥٤٠٩) ، وابن هشام (٣/ ٢٣٤) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٣١)][(٣)].

دليلٌ على أنَّ رسول الله ﷺ كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفّاً واحداً ، وهذا يرشد المسلمين إلى عدَّة أمورٍ ، منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الاستراتيجيُّ للقيادة المسلمة تحييد مَنْ تستطيع تحييده ، ولا تنسى القيادة الفتوى ، والشُّورى ، والمصلحة الآنيَّة ، والمستقبليَّة للإسلام[(٤)].

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٠٦).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ١٢٥).
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٠٦).
(٤) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ٦٨٧).

وفي استشارة رسول الله ﷺ للصَّحابة يتبيَّن لنا أسلوبه في القيادة ، وحرصه على فرض الشُّورى في كلِّ أمرٍ عسكريٍّ يتَّصل بالجماعة ، فالأمر شورى ، ولا ينفرد به فردٌ حتَّى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ، ولم ينزل به وحيٌ(١) .

إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة؛ حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه ، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة(٢) .

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ :

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي ، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله ﷺ وبالإسلام .

ج ـ أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو ، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه(٣) .

٢ ـ اهتمام الرسول ﷺ ببث الإشاعات في صفوف الأعداء :

استخدم النَّبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن ، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب ، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه ، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها ، والآن ساق المولى ـ عز وجل ـ نُعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه ويقول له : يا رسول الله ، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت . فقال له رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة . [ابن هشام (٣/ ٢٤٠) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)](٤) .

فقام نُعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار ، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم ، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها

---

(١) انظر : العبقريَّة العسكرية في غزوات الرَّسول ﷺ ، ص ٤١٤ .
(٢) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، ص ٤١٤ .
(٣) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ص ٤١٥ ، ٤١٦ .
(٤) انظر : البداية والنهاية (٤/ ١١٣) .

لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية؛ فالحرب خدعة[١].

وقد نجحت دعاية نُعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتثبيط عزمهم، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نُصح.

بـ أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصَّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

جـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[٢].

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠).

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، ص ٤٧٧.

المبحث الثَّالث
مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول ﷺ ونزول النَّصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التَّضرُّع والدُّعاء، والاستعانة بالله، وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتدَّ الكرب على المسلمين أكثر ممَّا سبق حتَّى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً، فما كان من المسلمين إلا أن توجَّهوا إلى الرَّسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله! هل من شيءٍ نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: «نعم، اللَّهمَّ! استر عوراتنا وآمن روعاتنا» [أحمد (٣/٣)، والبزار (٣١١٩)، ومجمع الزوائد (١٠/١٣٦)].

وجاء في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى، قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللَّهمَّ! منزلَ الكتاب، سريعَ الحساب، هازم الأحزاب، اللَّهمَّ! اهزمهم وزلزلهم». [البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢/ ٢٠ و٢١)].

فاستجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيِّه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوَّته، وزلزل أبدانهم، وقلوبهم، وشتَّت جمعهم بالخلاف، ثمَّ أرسل عليهم الرِّيح الباردة الشَّديدة، وألقى الرُّعب في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وكانت هذه الرِّيح معجزةً للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ، والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبر عندهم بها...، بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط[١]، وأطفأت النِّيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضُها في بعضٍ، وأرسل الله عليهم الرُّعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر؛ حتَّى كان سيِّد كلِّ خباءٍ يقول:

---

(١) الفساطيط: جمع فسطاط نوعٌ من الأبنية في السَّفر، وهو دون السرادق.

يا بني فلان! هلمَّ إليَّ ، فإذا اجتمعوا ؛ قال لهم : النَّجاءَ ، النَّجاءَ! لما بعث الله عليهم الرُّعب(١) .

وحرَص الرَّسول ﷺ أن يؤكِّد لصحبه ، ثمَّ للمسلمين في الأرض : أنَّ هذه الأحزاب الَّتي تجاوزت عشرة آلاف مقاتلٍ لم تُهزم بالقتال من المسلمين ـ رغم تضحياتهم ـ ولم تهزم بعبقرية المواجهة ، إنَّما هُزمت بالله وحده ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب : ٩] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول : «لا إلٰه إلا الله وحدَه ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيءَ بعدَه» . [البخاري (٤١١٤) ، ومسلم (٢٧٢٤)] .

ودعاء رسول الله ﷺ ربَّه ، واعتماده عليه وحدَه ، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشريَّة للنَّصر ، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، فبذل جهده لتفريق الأحزاب ، وفك الحصَار ، وغير ذلك من الأمور الَّتي ذكرناها(٢) .

إنَّ رسول الله ﷺ يعلِّمنا سنَّة الأخذ بالأسباب ، وضرورة الالتجاء إلى الله ، وإخلاص العبوديَّة له ؛ لأنَّه لا تجدي وسائل القوَّة كلُّها إذا لم تتوفر وسيلةُ التَّضرع إلى الله ، والإكثار من الإقبال عليه بالدُّعاء ، والاستغاثة ، فقد كان الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله من الأعمال المتكرِّرة الدَّائمة الَّتي فزع إليها رسولُ الله ﷺ في حياته كلِّها(٣) .

ثانياً : تحرِّي انصراف الأحزاب :

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب ، ويحبُّ أن يتحرَّى عمَّا حدث عن قربٍ فقال : «ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة؟» [مسلم (١٧٨٨)] ، فاستعمل ﷺ أسلوب التَّرغيب ، وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم ، والحزم في الأمر ، فعيَّن واحداً بنفسه ، فقال : «قم يا حذيفة! فائتنا بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهُم عليَّ» [مسلم (١٧٨٨)] .

وفي هذا معنىً تربويٌّ وهو أنَّ القيادة النَّاجحة هي الَّتي توجِّه جنودها إلى أهدافها عن طريق التَّرغيب ، والتَّشجيع ، ولا تلجأ إلى الأمر ، والحزم إلا عند الضَّرورة .

قال حذيفة رضي الله عنه : فمضيت كأنَّما أمشي في حَمَّامٍ ، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنَّار ـ أي : يدفئه ، ويدنيه منها ـ فوضعت سهماً في كبد القوس ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول

---

(١) انظر : تفسير القرطبيِّ (١٤/ ١٤٤) ، وجامع البيان للطَّبريِّ (تفسير سورة الأحزاب) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٠٣ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٢ .

رسول الله ﷺ: «لا تَذْعَرْهُمْ عليَّ»، ولو رميتُه لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام، فأتيت رسول الله ﷺ، وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها، فلم أَزَلْ نائماً حتَّى أصبحت، فلمَّا أصبحت، قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان!». [مسلم (١٧٨٨)].

ويؤخذ من قصَّة حذيفة دروسٌ، وعبرٌ منها:

١ ـ معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرِّجال؛ حيث اختار حذيفة؛ ليقوم بمهمَّة التَّجسس على الأحزاب، وأنَّ معدن حذيفة معدنٌ ثمينٌ، فهو شجاعٌ، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعةٍ نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبقٌ ذكيٌّ خفيف الحركة، سريع التخلُّص من المآزق الحرجة.

٢ ـ الانضباط العسكريُّ الَّذي كان يتحلَّى به حذيفة؛ فلقد مرَّت به فُرصةٌ سانحةٌ يستطيع أن يقتل فيها قائد الأحزاب، وهَمَّ بذلك، ولكنَّه ذكر أمر الرَّسول ﷺ ألا يَذْعَـرَهُمْ، وأنَّ مهمَّته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه[1].

٣ ـ كرامات الأولياء: إنَّ ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جوٍّ باردٍ ماطرٍ شديد الرِّيح وإذا به لا يشعر بهذا الجوِّ البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمَّامٍ، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتَّى عودته إلى معسكر المسلمين، لاشك هذه كرامةٌ يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين[2].

٤ ـ لطف النَّبيِّ ﷺ مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان ﷺ يترفَّق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة اللَّيل، وحلاوة المناجاة من التلطُّف بحذيفة الَّذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمِّها، فشمله بكسائه الَّذي يصلِّي فيه؛ ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتَّى أتمَّ صلاته، بل حتَّى بعد أن أفضى إليه بالمهمَّة، فلمَّا وجبت المكتوبة؛ أيقظه بلطفٍ، وخفَّةٍ، ودُعابةٍ، قائلاً: «قم يا نومان!» دُعابة تقطر حلاوةً، وتفيض بالحنان، وتسيل رقَّةً، إنَّها صورةٌ نموذجيَّةٌ للرَّأفة والرَّحمة، اللَّتين تحلَّى بهما فؤاد الرَّسول ﷺ، وتطبيقٌ فريدٌ رفيعٌ لهما في أصحابه الكرام[3] وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥ ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصَّحابيِّ الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزُّرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبوية، للغضبان، ص ٥٠٥، السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٣٦٧.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٣٦٧.
(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢٤٦.

يد الَّذي على يميني ، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان ، ثمَّ ضربت بيدي على يد الَّذي عن شمالي ، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص. . . .[(١)].

وهكذا بَدَرَهُم بالمسألة حتَّى لا يتيح لهم فرصةً ليسألوه ، وبهذا تخلَّص من هذا المأزِق الحرج الَّذي ربما أودى بحياته[(٢)].

ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ، ونتائجها:

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ، وردَّ الأمر كلَّه لله سبحانه ، وقد سجَّل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب ، وبني قريظة ، والقرآن كعهدنا به يُسَجِّل الخالدات الَّتي تسع الزَّمان ، والمكان ، فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم ، في عواصم بلدانهم ، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً ، فإذا كان القرآن قد سجل حادثتي الأحزاب ، وبني قريظة ، فذلك من سمة التَّكرار على مدى العصور[(٣)]؛ لكي يستفيد المسلمون من الدُّروس والعبر من الحوادث السَّابقة الَّتي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص ، والَّذي يتدبَّر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمورٍ ، من أهمِّها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٢ ـ التَّصوير البديع لما أصاب المسلمين من همٍّ بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

٣ ـ الكشف عن نوايا المنافقين السَّيئة ، وأخلاقهم الذَّميمة ، وجبنهم الخالع ، ومعاذيرهم الباطلة ، ونقضهم للعهود ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

٤ ـ حضُّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ على التأسِّي برسول الله ﷺ ، في أقواله ، وأفعاله ، وجهاده ، وكلِّ أحواله ، استجابةً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥ ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النَّبيلة ، وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمانٍ صادقٍ ، ووفاء بعهد الله تعالى ، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) انظر: شرح الزُّرقاني (٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٣.
(٣) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ٦٦٢).

٦ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الَّتي لا تتخلَّف ، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم ، قال تعالى : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

٧ ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين ؛ حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتالٍ يُذْكَر ، حيث ألقى ـ سبحانه ـ الرُّعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ، ورسوله ﷺ[1] ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦ ـ ٢٧] .

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات المهمَّة الَّتي خاضها المسلمون ضدَّ أعدائهم وحقَّقوا فيها نتائج مهمَّةً منها :

* انتصار المسلمين ، وانهزام أعدائهم ، وتفرُّقهم ، ورجوعهم مدحورين بغيظهم ، قد خابت أمانيهم ، وآمالهم .

* تغيُّر الموقف لصالح المسلمين ؛ فانقلبوا من موقف الدِّفاع إلى الهجوم ، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ ﷺ حيث قال : «الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم» . [البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/ ٢٦٢ ، و٦/ ٣٩٤)] .

* كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة ، وحقدهم على المسلمين ، وتربُّص الدَّوائر بهم ، فقد نقضوا عهدهم مع النَّبيِّ ﷺ في أحلك الظُّروف ، وأصعبها .

* كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين ، وحقيقة المنافقين ، وحقيقة يهود بني قريظة ، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين ، وإظهاراً لحقيقة المنافقين ، واليهود .

* كانت غزوة بني قريظة نتيجةً من نتائج غزوة الأحزاب ؛ حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الَّذين نقضوا العهد مع النَّبيِّ ﷺ في أحلك الظُّروف ، وأقساها[2] .

رابعاً : التَّخلُّص من بني قريظة :

بعد عودة النَّبيِّ ﷺ من الخندق ، ووضعِه السِّلاح أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقتال بني قريظة ، فأمر الحبيب ﷺ أصحابه بالتوجُّه إليهم ، وقد أعلمهم بأنَّ الله تعالى قد أرسل جبريل ؛ ليزلزل

---

(١) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٤٩٠ ، ٤٩١) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٤٢) .

حصونهم ، ويقذف في قلوبهم الرُّعب ، وأوصاهم بأن «لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [البخاري (٤١١٩) ، ومسلم (١٧٧٠)] .

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلةً[(١)] ، ولمَّا اشتدَّ الحصار ، وعظم البلاء على بني قريظة ، أرادوا الاستسلام ، والنُّزول على أن يحكِّم الرَّسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، ونزلوا على حكمه ، ورأوا : أنَّه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس ، فجيء بسعدٍ محمولاً ؛ لأنَّه كان قد أصابه سهمٌ في ذراعه يوم الخندق ، فقضى أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبى النِّساء والذُّرِّيَّة ، وأن تُقسم أموالهم ، فأقرَّه رسول الله ﷺ وقال : «قضيت بحكم الله» [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢) ، ومسلم (١٧٦٨/ ٦٤)] .

ونفَّذ حكم الإعدام في أربعمئةٍ في سوق المدينة ، حيث حفرت أخاديد ، وقتلوا فيها بشكل مجموعاتٍ ، وقد نجت مجموعةٌ قليلةٌ جدّاً بسبب وفائها للعهد ، ودخولها في الإسلام ، وقسمت أموالُهم ، وذراريهم على المسلمين .

وهذا جزاءٌ عادلٌ نزل بمن أراد الغدر ، وتبرَّأ من حلفه للمسلمين ، وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل ، وأموالهم للنَّهب ، ونساءهم ، وذراريهم للسَّبي ، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً[(٢)] .

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدةٌ ، ونترك السَّيدة عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا عنها قالت السَّيدة عائشة : لم يُقتل مِنْ نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت : والله! إنَّها لعندي ، تتحدث معي ، تضحك ظهراً ، وبطناً[(٣)] ؛ ورسولُ الله ﷺ يقتل رجالها بالسُّوق ؛ إذ هتف هاتفٌ باسمها : أين فلانة؟ قالت : أنا والله! قالت : قلت لها : ويلك! ما لك؟ قالت : أقتل . قلت : ولم؟ قالت : لحدثٍ أحدثتُه[(٤)] . قالت : فانطلق بها ، فضُربت عنقها ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : والله! ما أنسى عجبي من طيب نفسها ، وكثرة ضحكها ، وقد عَرَفَتْ : أنَّها تُقتل . [أحمد (٦/ ٢٧٧) ، وأبو داود (٢٦٧١)][(٥)] .

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهوديِّ ، وصارت خالصةً للمسلمين ، وخلت الجبهة الدَّاخلية من عنصرٍ خطرٍ ، لديه القدرة على المؤامرة ، والكيد ،

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٣ .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧) .

(٣) ظهراً وبطناً : لا يبدو على ملامحها أثر الحزن .

(٤) طرحت الرَّحا على خلَّاد بن سويد رضي الله عنه ، فقتلها رسول الله ﷺ به .

(٥) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٧ ، ومختصر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير (فصل : في غزوة بني قريظة) .

والمكر ، واضمحل حلم قريش ؛ لأنَّها كانت تعوِّل ، وتؤمِّل في يهود بأن يكون لهم موقف ضدَّ المسلمين ، وابتعد خطر اليهود الَّذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التَّحريض والقوَّة[1] .

إنَّ حماية الجبهة الدَّاخليَّة للدَّولة الإسلاميَّة من العابثين منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، رسمه الحبيب المصطفى ﷺ للأمَّة المسلمة .

* * *

(١) انظر : سيرة الرَّسول ﷺ ، دروزة (٢/ ٧٦) نقلاً عن دراسات في عهد النَّبوة ، للشجاع ، ص ١٥٣ .

المبحث الرَّابع
فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ

أولاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزاتٌ حسِّيَّة للنَّبيِّ ﷺ، منها تكثير الطَّعام؛ الَّذي أعدَّه جابر بن عبد الله، فعن جابرٍ رضي الله عنه قال: إنَّا يوم الخندق مُحفر[1]، فعرضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ، فجاؤوا النَّبيَّ ﷺ، فقالوا: هذه كديةٌ عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازلٌ» ثمَّ قام، وبطنه معصوبٌ بحجرٍ، ولبثنا ثلاثة أيَّام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النَّبيُّ ﷺ المِعْوَل، فضرب في الكُدْيَةِ، فعادت كثيباً أهيل[2] أو أهيم[3].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنَّبيِّ ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ؛ فعندك شيءٌ؟ فقالت: عندي شعير، وعَناقٌ[4] فذبحتُ العَناق، وطحنتُ الشَّعير، حتى جعلنا اللَّحم بالبُرمة[5]، ثمَّ جئت النَّبيَّ ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافيِّ[6]، قد كادت أن تنضجَ، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله! ورجل، أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثيرٌ طيِّب» قال: «قل لها: لا تنزع البُرمة، ولا الخبز من التنُّور حتَّى آتي».

فقال: قوموا، فقام المهاجرون، والأنصار، فلمَّا دخل على امرأته، قال: ويحك! جاء النَّبيُّ ﷺ بالمهاجرين، والأنصار، ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، قال: «ادخلوا، ولا تضاغطوا»[7]، فجعل يَكْسِر الخبز، ويجعل عليه اللَّحم، ويخمِّر البُرمة

---

(١) محفر: اسم فاعل من حفَّر.
(٢) أهيل: رملاً سائلاً، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٩).
(٣) أهيم: الرَّمل الَّذي لا يتمالك، وانظر: لسان العرب (٣/ ٨٥٨).
(٤) العناق: الأنثى من أولاد الماعز، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١٠).
(٥) البرمة: هي القدر مطلقاً، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (١/ ١٢١).
(٦) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها، وانظر: القاموس المحيط (٣/ ١٢٠).
(٧) ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا، وانظر: لسان العرب (٢/ ٥٣٧).

والتَّنُّور إذا أخذ منه ، ويقرِّب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يَكْسِر الخبز ، ويغرف حتَّى شبعوا ، وبقي بقيَّةٌ ، قال: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ الناس أصابتهم مجاعةٌ». [البخاري (٤١٠١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٣)].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمِّي عمرة بنت رواحة ، فأعطتني حفنةً من تمرٍ في ثوبي ، ثمَّ قالت: أيْ بُـنَـيَّة! اذهبي إلى أبيك ، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، قالت: فأخذتُها ، فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي ، وخالي ، فقال: «تعالَيْ يا بنية! ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله! هذا تمرٌ بعثتني به أمِّي إلى أبي بشير بن سعدٍ ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذَّيانه. قال: «هاتيه!» قالت: فصببته في كفَّيْ رسول الله ﷺ فما ملأتهما ، ثمَّ أمر بثوبٍ ، فبُسط له ، ثمَّ دعا بالتَّمر عليه ، فتبدَّد فوق الثوب ، ثمَّ قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق: أن هلمَّ إلى الغذاء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنَّه ليسقط من أطراف الثَّوب. [ابن هشام (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٧)].

ففي هذين الخبرين معجزاتٌ حسِّيَّة ظاهرة للرسول ﷺ ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم ، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم ، وبعدت عنهم أرزاقهم ، وقلَّ عنهم القوت ، وأصاب النَّاس جوعٌ ، وحرمانٌ ، حتَّى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدُّون على بطونهم الحجارة من شدَّة الجوع ، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطَّعام(١).

ومن دلائل النُّبوة في أثناء حفر الخندق ، إخباره ﷺ عمَّار بن ياسر ، وهو يحفر معهم الخندق ، بأنَّه ستقتله الفئة الباغية [البخاري (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٥)]؛ فقتل في صفِّين وكان في جيش عليٍّ(٢).

وعندما اعترضت صخرةٌ الصَّحابة وهم يحفرون ، ضربها الرَّسول ﷺ ثلاث ضربات ، فتفتَّتت ، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشَّام ، والله! إنِّي لأبصر قصورها الحمراء السَّاعة». ثمَّ ضربها الثانية ، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس ، والله! إنِّي لأبصر قصر المدائن أبيض» ثمَّ ضرب الثَّالثة ، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله! إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه السَّاعة». [أحمد (٤/ ٣٠٣) ، وأبو يعلى (١٦٨٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٣٠)](٣).

---

(١) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٧٥.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٨.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٤٩.

وقد تحقَّقت هذه البشارة الَّتي أخبرت عن اتِّساع الفتوحات الإسلاميَّة ، والإخبار عنها في وقتٍ كان المسلمون فيه محصورين في المدينة ، يواجهون المشاقَّ ، والخوف ، والجوع ، والبرد القارس(١) .

ثانياً : بين التَّصوُّر ، والواقع :

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله! أرأيتم رسول الله ، وصحبتموه؟ قال : نعم يا بن أخي! قال : فكيف كنتم تصنعون؟ قال : والله لقد كنَّا نجهد ، قال : فقال : والله! لو أدركناه ، ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يابن أخي! والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ، بالخندق(٢) . . . ثمَّ ذكر حديث تكليفه بمهمَّة الذَّهاب إلى معسكر المشركين . [سبق تخريجه] .

هذا تابعيٌ يلتقي بالصَّحابيِّ حذيفة ، ويتخيَّل : أنَّه لو وجد مع رسول الله ﷺ ؛ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصَّحابة الكرام ، والخيال شيءٌ ، والواقع شيءٌ آخر ، والصَّحابة رضي الله عنهم بشرٌ ، لهم طاقات البشر ، وقدراتهم ، وقد قدَّموا كلَّ ما يستطيعون ، فلم يبخلوا بالأنفس ، فضلاً عن المال والجهد ، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله : «خير القرون قرني» [البخاري (٦٤٢٩) ، ومسلم (٢٥٣٣)] فبيَّن : أن عملهم لا يعدله عملٌ .

إنَّ الذين جاؤوا من بعدُ ، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدّاً ، وعاشوا في ظلِّ الأمن ، والرَّخاء ، والعدل ، بعيدين عن الفتنة والابتلاء ، هم بحاجةٍ إلى نقلةٍ بعيدةٍ يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكلِّ ما فيه من جهالاتٍ ، وضلالاتٍ ، وكفرٍ . . . وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصَّحابة حتَّى قام الإسلام في الأرض(٣) .

ثالثاً : سلمان منا أهل البيت(٤) :

قال المهاجرون يوم الخندق : سلمان منَّا ، وقالت الأنصار : سلمان منَّا ، فقال رسول الله ﷺ : «سلمان منَّا أهل البيت» [الحاكم (٣/٥٩٨) ، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٦١) ، وابن هشام (٣/ ٢٣٥) ومجمع الزوائد (٦/ ١٣٠)] ، وهذا الوسام النَّبويُّ الخالد لسلمان يشعر بأنَّ سلمان من المهاجرين ؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين(٥) .

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٢٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٥٥) .
(٣) انظر : من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٢٩١ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٤٧) .
(٥) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ١٠٨) .

رابعاً: الصَّلاة الوسطى:

قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم، وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى حتَّى غابت الشَّمس» [سبق تخريجه].

وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الحديث على كون الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوصٌ عليه، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشَّافعي بهذا لصحَّة الحديث، وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الصَّنيع على جواز تأخير الصَّلاة لعذر القتال، كما هو مذهب مكحولٍ، والأوزاعيِّ[1].

قال الدُّكتور البوطي: لقد فاتت النَّبيَّ ﷺ صلاةُ العصر، كما رأيت في هذه الموقعة؛ لشدَّة انشغاله، حتَّى صلاَّها قضاءً بعدما غربت الشَّمس، وفي رواياتٍ أخرى غير الصَّحيحين: أنَّ الذي فاته أكثرُ من صلاةٍ واحدةٍ، صلاَّها تباعاً بعدما خرج وقتُها، وفرغ لأدائها، وهذا يدلُّ على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدَّلالة ما ذهب إليه البعض من أنَّ تأخير الصَّلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك، ثمَّ نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً، وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين؛ إذ النَّسخ على فرض صحَّته ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنَّما هو وارد على صحَّة تأخير الصَّلاة بسبب الانشغال، أي: أنَّ نسخ صحَّة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً، بل هي مسكوتٌ عنها، فتبقى على مشروعيَّتها السَّابقة[2].

خامساً: الحلال والحرام:

عَرَضَتْ قريشٌ فداءً مقابل جثَّة عمرو بن عبد ودٍّ، فقال ﷺ: «ادفعوا إليهم جيفته فإنَّه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية، فلم يقبل منهم شيئاً». [أحمد (١/ ٢٤٨)، وابن هشام (٣/ ٢٦٥)].

حدث هذا والمسلمون في ضنكٍ من العيش، ومع ذلك فالحلال حلالٌ والحرام حرامٌ، إنَّها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من النَّاس المحسوبين على المسلمين الَّذين يحاولون إيجاد المبرِّرات لأكل الرِّبا، وما شابهه؟![3].

سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّة الرَّسول ﷺ:

كان ﷺ قد وضع النِّساء، والأطفال في حصن فارع، وهو حصنٌ قويٌّ؛ حمايةً لهم، لأنَّ المسلمين في شغلٍ عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ٦٨٢).
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٢٣.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٩٤.

عهدهم مع رسول الله ﷺ أرسلت يهوديّاً ليستطلع وضع الحصن الَّذي فيه نساء المسلمين ، وأطفالهم ، فأبصرته صفيَّة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله ﷺ ، فأخذت عموداً ، ونزلت من الحصن ، فضربته بالعمود ، فقتلته ، فكان هذا الفعل من صفيَّة رادعاً لليهود من التَّحرُّش بهذا الحصن الَّذي ليس فيه إلا النِّساء ، والأطفال ، حيث ظنَّت يهود بني قريظة : أنَّه محميٌّ من قبل الجيش الإسلاميِّ ، أو أنَّ فيه على الأقلِّ مَنْ يدافع عنه من الرِّجال[١] ، ففي هذا الخبر دليلٌ للمرأة في الدِّفاع عن نفسها ؛ إن لم تجد مَنْ يدافع عنها[٢] .

سابعاً : عدم صحَّة ما يروى عن جبن حسَّان رضي الله عنه :

وفي قصَّة صفيَّة عمَّة رسول الله ﷺ وقتْلِها لليهوديِّ جاءت روايةٌ سندها ضعيفٌ[٣] ؛ أنَّ صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابتٍ : إنَّ هذا اليهودي يُطِيف بالحصن ، كما ترى ، ولا آمنه أن يدلَّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغِل عنَّا رسولُ الله ﷺ وأصحابه ، فانزِلْ إليه ، فاقتُلْه . فقال : يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب! والله! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا؟ قالت صفيَّة رضي الله عنها : فلمَّا قال ذلك ، احتجزت عموداً ثمَّ نزلت من الحصن إليه ، فضربتُه بالعمود حتَّى قتلتُه ، ثم رجعت الحصن ، فقالت : يا حسان! انزل فاستلِبْه ، فإنَّه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنَّه رجلٌ ، فقال : ما لي بسلبه من حاجةٍ يا بنت عبد المطلب! [ابن هشام (٣/ ٢٣٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)][٤] .

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها :

١ ـ من حيث الإسناد ، فالخبر ليس مسنداً ، وهو ساقطٌ لا يصحُّ ، ولا يجوز أن يروى ، فيساء إلى صحابيٍّ من صحابة رسول الله ﷺ ، كان ينافح عن الدَّعوة ، وعن رسول الله ﷺ عُمُرَهُ كلَّه .

٢ ـ لو كان حسّان بن ثابت رضي الله عنه معروفاً بالجبن ؛ الَّذي ذكر عنه ؛ لهجاه أعداؤه ، ومبغضوه بهذه الخصلة الذَّميمة ، لاسيَّما الَّذين كان يهاجيهم ، فلم يسلم من هجائه أحدٌ من زعماء الجاهليَّة ، والرَّسول ﷺ كان يؤيِّده ، ويدعو له ، ويشجِّعه على هجاء زعماء المشركين[٥] .

---

(١) انظر : الرَّحيق المختوم ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٢٤٦) .
(٣) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٦٥ .
(٤) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٦٥ .
(٥) انظر : غزوة الأحزاب ، للدُّكتور أبو فارس .

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرَّسول صلوات الله وسلامُه عليه خيمةً في مسجده الشَّريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رُفَيْدة الأسلميَّة الأنصاريَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبويِّ الحربيِّ، وبذلك أصبحت أوَّل ممرِّضةٍ عسكريَّةٍ في الإسلام(١)، وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ به ضيعةٌ من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السَّهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتَّى أعوده من قريب...» [ابن هشام (٣/ ٢٥٠)، والطبري في تفسيره (٢١/ ١٥٢)].

ويفهم من النَّص السَّابق أنَّ مَنْ أصيب من المسلمين، إن كان له أهلٌ؛ اعتنى به أهلُه، وإن لم يكن له أهلٌ؛ جيء به إلى المسجد؛ حيث ضُربت خيمةٌ فيه لمن كانت به ضيعةٌ من المسلمين، وسعدُ بن معاذ الأوسيُّ ليس به ضيعةٌ، ولكن لمَّا أراد الرَّسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرارٍ، جعله في تلك الخيمة الَّتي أعدَّت لمن به ضيعةٌ، وليس له أهل؛ ذلك: أنَّ هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلِمَ ضُربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أيِّ مكانٍ آخر!

إنَّ سعد بن معاذُ يكرَّم لمآثره، وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التَّكريم أن يجعل في خيمةٍ أعدَّت لمن به ضيعةٌ، وهكذا حينما يرتفع السَّادة يجعلون مع المغمورين الَّذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى، فاستحقُّوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ(٢)، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزَّمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاءه ـ فاستشاروه في النُّزول على حكم رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقه ـ يعني الذَّبح ـ ثمَّ ندم فتوجَّه إلى مسجد النَّبيِّ ﷺ، فارتبط به حتَّى تاب الله عليه، وقد ظلَّ مرتبطاً بالجذع في المسجد ستَّ ليالٍ تأتيه امرأتُه في وقت كلِّ صلاةٍ فتحلُّه للصَّلاة، ثمَّ يعود، فيرتبط في الجِذْع(٣).

وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتَّى يتوب الله عليَّ ممَّا صنعتُ. قالت أمُّ سلمة:

---

(١) انظر: المستشفيات الإسلاميَّة، للدُّكتور عبد الله السَّعيد، ص ٤٣.
(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٩٤.
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).

فسمعت رسول الله ﷺ من السَّحر وهو يضحك ، فقلت : ممَّ تضحك يا رسول الله؟! أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك ، قال: «تِيبَ على أبي لبابة» قالت: قلت: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟! قال: بلى؛ إن شئتِ ، فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهنَّ الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة؟ أبشر فقد تاب الله عليك!

قالت: فثار النَّاس؛ ليطلقوه ، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله ﷺ هو الَّذي يُطلقني بيده. فلمَّا مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصُّبح؛ أطلقه[1] عنه [ابن هشام (٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٦ ـ ١٧)] ، وذلك في الاعتراف بالذَّنب ، والتَّوبة النَّصوح ، وإنَّ موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرُّف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزَّلَّة الَّتي أفشى بها سرّاً حربيّاً خطيراً ، فأبو لبابة لم يحاول التَّكتُّم على ما بدر منه ، والظُّهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرَّجل الذي أدى مهمَّته بنجاحٍ ، وأنَّه لم يحصل منه شيءٌ من المخالفات ، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر ، حيث لم يطَّلعْ عليه أحد من المسلمين ، وأن يستكتم اليهود أمره ، ولكنَّه تذكَّر رقابة الله عليه ، وعلمه بما يُسِرُّ ، ويُعلن ، وتذكَّر حقَّ رسول الله ﷺ العظيم عليه ، وهو الَّذي ائتمنه على ذلك السِّرِّ ، ففزع لهذه الزَّلَّة فزعاً عظيماً[1] ، وأقرَّ بذنبه ، واعترف به ، وبادر إلى العقوبة الذَّاتيَّة التلقائيَّة ، دون انتظار التَّحقيق ، وتوقيع العقوبة الواجبة: إنَّها صورةٌ تطبيقيَّةٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

إنَّها صورةٌ فريدةٌ لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسِه على نفسِه. . . ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان ، وما ذلك إلا مِنْ آثار الإيمان العميق الرَّاسخ ، الَّذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثمٌ ، أو فسوقٌ.

وقد فرح الصَّحابة ، وفرح النَّبيُّ ﷺ نفسه بتوبة الله على أبي لبابة ، وتسابقوا إلى تهنئته ، حتَّى كانت أمُّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ هي الَّتي بادرت بالتهنئة بعد الإذن ، فبشَّرته بقبول الله توبته[2].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢][3].

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ١٦٥).
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٦١.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرةٌ، تدلُّ على فضله، ومنزلته عند الله ورسوله ﷺ؛ منها:

ـ استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللَّهمَّ إنَّك تعلم: أنَّه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قومٍ كذَّبوا رسولك ﷺ، وأخرجوه، اللَّهم! فإن بقي من حرب قريش شيءٌ؛ فأبقني له حتَّى أجاهدهم فيك) وقد استُجيب دعاؤه فتحجَّر جرحُه، وتماثل للشِّفاء[1] حتَّى كانت غزوة بني قريظة، وجعل رسولُ الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحقِّ، ولم تأخذه في الله لومةُ لائم، وهذا دليلٌ على تجرُّد قلبه لله تعالى[2].

ومن إكرام رسول الله ﷺ له قوله للأنصار عندما جاء سعدٌ للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم». [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٨/ ٦٤)][3].

وهذا تكريمٌ لسعدٍ، وتقديرٌ لشجاعته، حيث سمَّاه سيِّداً، وأمر بالقيام له[4].

وعندما نفَّذ حكم الله في يهود بني قريظة؛ رفع سعدٌ يده يدعو الله ثانيةً، يقول: اللَّهمَّ! فإنِّي أظنُّ أنَّك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ـ يعني قريشاً والمشركين ـ فإنْ كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجر جرحي، واجعل موتتي فيها [سبق تخريجه][5]، وقد استُجيب دعاؤه، فانفجر جرحُه تلك اللَّيلة، ومات رحمه الله[6]!

ومن خلال دعائه الأوَّل، والثَّاني نلحظ هذا الدُّعاء العجيب، دعاء العظماء، الَّذين يعرفون: أنَّ رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط؛ بل متابعة الجهاد إلى اللَّحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه، وأمَّته[7].

ونرى من سيرته: أنَّه لو أقسم على الله؛ لأبرَّه، فهو وجيهٌ في السَّموات، والأرض، فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر في بني قريظة كلَّه إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحُكْمُ فيهم لسعدِ بن معاذٍ رضي الله عنه.

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٢٢٨.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٦/ ١٧٠).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢٦٥.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(٦) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٢٢٨.
(٧) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٧٠).

إنَّه لا يحرص كثيراً على الحياة ، بعد انتهاء الجهاد ، وانتهاء المسؤوليَّة ، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من النَّاس ، فإذا انتهت الحرب ، ووُضِعت بين المسلمين ، وقريش ، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة ، وبدأ قطف الثِّمار للإسلام ، فلا ثمرة أشهى عنده من الشَّهادة (فافجر جرحي ، واجعل موتتي فيه)(١) .

وقد تحقَّقت آماله ، فقد أصدر حكمه في بني قريظة ، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم ، وهاهو جرحُه ينفجر(٢) .

وعندما انفجر جرحه نقله قومُه ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله ﷺ فقال : «انطلقوا» ، فخرج وخرج معه الصَّحابة ، وأسرع حتى تقطَّعت شسوع نعالهم ، وسقطت أرديتهم ، فشكا إليه أصحابه ذلك ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «إنِّي أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» ، فانتهى إلى البيت ، وهو يُغسل ، وأمُّه تبكيه ، وتقول :

وَيْلُ أمِّ سَعْدٍ سَعْدا حَزَامَةً وَجَدّا

فقال : كلُّ نائحةٍ تكذب إلا أمَّ سعدٍ» ، ثمَّ خرج به قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله! ميتاً أخف علينا منه! قال : «وما يمنعه أن يخفَّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا ، ولم يهبطوا قطُّ قبل يومهم قد حملوه معكم» . [ابن هشام (٣/ ٢٦٤)، والألباني في الصحيحة (١١٥٨)](٣) .

وقد جاء في النَّسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عددُ الملائكة الَّذين شاركوا في تشييع جنازة سعد ، فقد قال ﷺ : «هذا العبد الصَّالح الَّذي تحرَّك له العرش ، وفُتحت له أبواب السَّماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ، لقد ضُمَّ ضمَّة ، ثمَّ أفرج عنه» [النسائي (٤/ ١٠١)](٤) يعني : سعداً .

وها هو رسول الله ﷺ يودِّع سعداً كما رَوَى عبد الله بن شدَّاد : دخل رسول الله ﷺ وهو يكيد نفسه ، فقال : «جزاك الله خيراً من سيِّد قومٍ ، فقد أنجزت ما وعدته ، ولينجزك الله ما وعدك . [ابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٢) و(١٢/ ١٤٥)](٥) .

لقد أثنى النَّبيُّ ﷺ على هذا العبد الصَّالح بعد موته كثيراً أمام الصَّحابة ؛ ليتعرَّف النَّاس على

---

(١) انظر : التَّربية القياديَّة (٤/ ٧١) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٨٧) .
(٤) انظر : سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٩٥) وإسناده صحيحٌ .
(٥) انظر : سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) ورجاله ثقات .

أعماله الصَّالحة ، فيتأسَّوا به[1] ، فقد قال ﷺ : «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموت سعد بن معاذ» [البخاري (٣٨٠٣) ، ومسلم (٢٤٦٦/ ١٢٣ و١٢٤)] .

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ حلَّةُ حريرٍ ، فجعل أصحابه يلمسونه ، ويعجبون من لينها ، فقال: «أتعجبون من لين هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خيرٌ منها ، وألين» . [البخاري (٣٨٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٨/ ١٢٦)] .

ومع كلِّ هذه المآثر ، والمحاسن ، والأعمال الجليلة الَّتي قدَّمها لخدمة دين الله ، فقد تعرَّض لضمَّة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعدٍ رضي الله عنه نزل فيه أربعةٌ: الحارث بن أوس ، وأُسَيْد بن الحضير ، وأبو نائلة سلكان ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ورسول الله ﷺ واقفٌ ، فلمَّا وضع في قبره تغيَّر وجه رسول الله ﷺ ، وسبَّح ثلاثاً ، فسبَّح المسلمون؛ حتَّى ارتجَّ البقيع ، ثمَّ كبَّر ثلاثاً ، وكبَّر المسلمون ، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر ، وضمَّ ضمَّةً لو نجا منها أحدٌ؛ لنجا هو ، ثمَّ فرَّج الله عنه» . [سبق تخريجه][2] .

إنَّ هذا الصَّحابيَّ الجليل قد استُشْهِدَ وهو في ريعان شبابه ، فقد كان في السَّابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته ، وهذا يعني أنَّه قاد قومه إلى الإسلام ، وهو في الثلاثين من عمره . . . فقد كانت هذه السِّيادة في العشرينات من عمره ، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين ، وإنَّما تتفجَّر الطَّاقات الكامنة ، والمواهب بعد سنِّ الأربعين ، الَّتي هي غاية الأَشُدِّ .

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] .

فأيُّ طرازٍ هذا الَّذي حفل تاريخه بهذه المآثر ، واستبشر أهل السَّمواتِ بقدومه ، واهتزَّ عرش الرَّحمن فرحاً لوفاته من دون خلق الله أجمعين![3] كان سعد بن معاذ رجلاً أبيض ، طوالاً ، جميلاً ، حسن الوجه ، أعين ، حسن اللِّحية[4] رحمة الله عليه ، ورضي عنه ، وأعلى ذكره في المصلحين .

حادي عشر: مقتل حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد:

١ ـ مقتل حيي بن أخطب النَّضْرِيِّ:

روى عبد الرزَّاق في مصنَّفه بالسَّند إلى سعيد بن المسيِّب . . . . فذكر بعض خبر الأحزاب ،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ١٧١) .
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٤/ ٧٧) نقلاً عن مسند الإمام أحمد (٦/ ١٤١) .
(٣) انظر: القيادة الرَّبانيَّة (٤/ ٨٧) .
(٤) انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٩٠) .

وقريظة. . . إلى أن قال: فلمَّا فضَّ الله جموع الأحزاب؛ انطلق ـ يعني: حيي ـ حتَّى إذا كان بالرَّوحاء ذكر العهد، والميثاق الَّذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلمَّا أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً بعدُ، فقال حُيَيٌّ للنَّبيِّ ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنَّه من يَخْذلِ اللهُ يُخْذَل، فأمر به النَّبيُّ ﷺ، فَضُرِبَتْ عنقُه. [عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٧)، وابن هشام (٣/ ٢٥٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٣)][(١)].

ثمَّ إنَّه أقبل على النَّاس قبل تنفيذ حكم الإعدام، وقال لهم: أيُّها النَّاس! إنَّه لابأس بأمر الله، كتابٌ وقَدَرٌ، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل، ثمَّ جلس، فضربت عنقُه[(٢)].

وفي مقتل حييِّ بن أخطب دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

أ ـ لا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله:

فقد ألَّب القبائل العربيَّة، واليهوديَّة على محاربة الإسلام، ونبيِّه ﷺ، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرَّسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل اللهُ كيدَه في نحره، وكبته، وفي النِّهاية قادته محاولاتُه إلى حتفه.

إنَّ الله لا يُهمِل الظَّالمين، ولكن يُمهلُهم ويَستدرِجُهم، حتَّى إذا أخذهم؛ أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر، فكان أخذه أليماً شديداً، قال ﷺ: «إنَّ الله ليملي للظَّالم حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» [البخاري (٤٦٨٦)][(٣)] ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ب ـ التَّجلُّد في مواطن الشِّدَّة:

لقد تجلَّد حييٌّ وتقدَّم لتضرب عنقه؛ حتَّى لا يشمت فيه شامتٌ، وهو يعرف: أنَّه على باطلٍ، ظالمٌ لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزَّة بالإثم تأخذه إلى جهنَّم وبئس المصير؛ لأنَّه يعبد هواه، ولم يعبد ربَّه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ج ـ مَنْ يَخْذُلِ اللهُ يُخذَل:

إنَّ الله تعالى إذا خذل أحداً؛ فليس له نصيرٌ يمنعه، أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ

---

(١) القرطبي آية (٩) من سورة الأحزاب، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٦٥)، والقرطبي آية (٩) من سورة الأحزاب، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا.

(٣) انظر: الصِّراع مع اليهود لأبي فارس (٢/ ١١٢).

ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أنَّ عداوة حُيَيٍّ للرَّسول ﷺ باعثها الحسد والحقد، ولذلك عبر حُيَيٌّ صراحةً: أنَّ الله لم يكن معه يوماً من الأيام، بل كان حُيَيٌّ في شقِّ الشَّيطان عدوّاً لأولياء الرَّحمن، يشاقق الله، فالله خاذلُه، ومُسْلِمُه لكلِّ ما يؤذيه، ويُتعبه، ولا توجد قوَّةٌ في الأرض، ولا في السَّماء تنصره، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأنَّ إرادة الله هي النَّافذة، وقدَره هو الكائن، لا رادَّ لقضائه، لا يعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السَّماء[1]؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

٢ ـ مقتل كعب بن أسد القرظيِّ:

وجيء برئيس بني قريظة، كعب بن أسد، وقبل أن يَضْرِب رسول الله ﷺ عنقه جرى بينه وبين كعبٍ الحوار التَّالي:

قال رسول الله ﷺ: «كعبُ بن أسدٍ؟».

قال كعبُ بن أسدٍ: نعم يا أبا القاسم!

قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراشٍ لكم، وكان مصدِّقاً بي، أما أمركُم باتِّباعي، وإنْ رأيتمُوني تقرئوني منه السَّلام؟».

قال كعب: بلى، والتَّوراةِ يا أبا القاسم! ولولا أن تعيِّرني يهود بالجزع من السَّيف لاتَّبعتُك، ولكنِّي على دين يهود.

فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه، فضربت[2].

وممَّا ترويه كتب السِّيرة النَّبويَّة عن يهود بني قريظة: أنَّهم كانوا يرسلون طائفةً تلو طائفةٍ؛ لتضرب أعناقهم، وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد، فقالوا: يا كعب! ما تراه يُصنع بنا؟ قال: أفي كلِّ موطنٍ لا تعقلون؟ ألا ترون الدَّاعي لا يَنْزِع، وأنَّه مَنْ ذهب به منكم لا يَرْجِع؟ هو والله! القتل. [ابن هشام (٣/ ٢٥٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٣)][3].

ونلحظ في خبر مقتل كعب بن أسدٍ: أنَّه كان متعصِّباً ليهوديته، وهو يعلم بُطلانها، وأنَّه على علمٍ بصدق رسالة رسولنا ﷺ، ولكنَّه لم يؤمن، ولم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيِّره يهود

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ١١٣، ١١٤).
(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/ ٣٦٨).
(٣) المصدر السابق نفسه.

بأنَّه جزع من السَّيف ، فعدم إيمانه ، وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه ، وحبِّه للثناء ، وخوفه من ذمِّه ، وتعييره ، وهذا دليلٌ على السَّفه ، والحُمْقِ ، وخذلان الله لهذا اليهوديِّ المخادِع[1] .

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبِير بن باطا ، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءل :

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا :

أقبل ثابت بن قيس بن شمَّاس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هب لي الزَّبِير اليهوديَّ أَجْزِهِ فقد كانت له عندي يدٌ يوم بعاثٍ ، فأعطاه إيَّاه ، فأقبل ثابتٌ حتَّى أتاه فقال : يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ فقال : نعم ، وهل يُنْكِرُ الرَّجل أخاه؟! قال ثابت : أردت أن أَجْزِيكَ اليوم بيدٍ لك عندي يوم بُعاث ، قال : فافعل ؛ فإنَّ الكريم يجزي الكريم ، قال : قد فعلت ، قد سألت رسول الله ﷺ ، فوهبك لي ، فأطلق عنك إساره ، فقال الزَّبِير : ليس لي قائدٌ ، وقد أخذتم امرأتي ، وابني ، فرجع ثابتٌ إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأتَه ، وبنيه ، فوهبهم له ، فرجع ثابتٌ إلى الزَّبِير ، فقال : ردَّ إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك ، فقال الزَّبِير : حائط لي فيه أعذق ، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به ، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ ، فوهبه لـه ، فرجع ثابت إلى الزَّبِير ، فقال : قد ردَّ إليك رسول الله ﷺ أهلك ، ومالك ، فأسلِم ؛ تسلَمْ ، قال : ما فعل الجليسان[2]؟ وذكر رجال قومه ، قال ثابتٌ : قد قُتِلوا ، وفُرِغَ منهم ، ولعلَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون أبقاك لخير ، قال الزَّبِير : أسألك بالله يا ثابت! وبيدي التي عندك يوم بُعاثٍ إلا ألحقتني بهم ، فليس في العيش خيرٌ بعدهم ، فذكر ثابت ذلك لرسول الله ﷺ فأمر بالزَّبِير ، فقُتِل.
[ابن هشام (٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٣ ـ ٢٤)][3] .

٢ ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءَلٍ القرظيِّ :

كانت سلمى بنت قيس ، وكنيتها أمُّ المنذر أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ ، قد صلَّت معه القبلتين ، وبايعتْه بيعة النِّساء ، سألته رفاعة بن سَمَوْءَل القرظيَّ ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت : يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمِّي! هب لي رفاعة ، فإنَّه قد زعم أنَّه سيصلِّي ، ويأكل لحم الجمل ، فوهبه لها ، فاسْتَحْيَتْهُ.
[ابن هشام (٣/ ٢٥٥)][4] .

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ١١٥) .
(٢) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٢) .
(٣) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهرَّة (١/ ٣٧٣) ، والسِّيرة لابن هشام ، غزوة بني قريظة في سنة خمس قصَّة الزَّبِير بن باطا .
(٤) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٣) .

وفي هذا الخبر دليلٌ على أنَّ الإسلام يكرم المرأة ، ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدِّين ، إنَّه يكرمها ، ويساعدُها ، ويشجِّعها على فعل الخير[١] .

ثالث عشر : من أدب الخلاف :

في اختلاف الصَّحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ : «أَلاَ لاَ يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [سبق تخريجه][١] فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال ، فصَّلى العصر لمَّا دخل وقتُه ، وبعضهم أخذ بالظَّاهر ، فلم يصلِّ إلا في بني قريظة؛ ولم يعنِّف النَّبيُّ ﷺ أحداً منهم ، أو عاتبه ، ففي ذلك دلالةٌ مهمَّةٌ على أصلٍ من الأصول الشَّرعية الكبرى ، وهو تقدير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع ، واعتبار كلٍّ من المتخالفين ، معذوراً ، ومثاباً ، كما أنَّ فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة ، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائل الفروع الَّتي تنبع من دلالاتٍ ظنِّيَّةٍ أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر أو يتم[٢] .

إنَّ السَّعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندةٌ للحكمة الرَّبَّانيَّة ، والتدبير الإلٰهي في تشريعه ، عدا أنَّه ضربٌ من العبث الباطل؛ إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنِّيّاً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتمَّ في عصرنا ، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ ، ولكان أولى النَّاس بألا يختلفوا هم أصحابُه ، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت[٣] في الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله ، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصصه ، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين ، لا إثم على المخطئ؛ فقد قال ﷺ : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦)] .

وحاصل ما وقع : أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّهي على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ـ وقت الصَّلاة ـ توجيهاً لهذا النَّهي الخاصِّ على النَّهي العامِّ عن تأخير الصَّلاة عن وقتها[٤] .

وقد علَّق الحافظ ابن حجر على هذه القصَّة ، فقال : ثمَّ الاستدلال بهذه القصَّة على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ على الإطلاق ليس بواضحٍ ، وإنَّما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه ، واجتهد ، فيستفاد منه عدم تأثيمه ، وحاصل ما وقع في القصَّة : أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّصَّ على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنَّهي الثَّاني على النَّهي الأوَّل ، وهو ترك تأخير

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ١١٦) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٢٦ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٦ .
(٤) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦) .

الصَّلاة عن وقتها ، واستدلُّوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق ، والبعض الآخر حملوا النَّهي على غير الحقيقة ، وأنَّه كنايةٌ على الحثِّ ، والاستعجال ، والإسراع إلى بني قريظة ، وقد استدلَّ به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد ، لأنَّه ﷺ لم يعنِّف أحداً من الطَّائفتين ، فلو كان هناك إثمٌ؛ لعنَّف مَنْ أَثِمَ[١] .

رابع عشر : توزيع غنائم بني قريظة ، وإسلام ريحانة بنت عمرو :

١ ـ توزيع غنائم بني قريظة : جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم الَّتي خلَّفها بنو قريظة ، فكانت كما يلي : من السُّيوف ألفاً وخمسمئة سيفٍ ، ومن الرِّماح ألفي رمح ، ومن الدُّروع ثلاثمئة درع ، ومن التُّروس ألفاً وخمسمئة ترساً ، وجحفةً ، كما تركوا عدداً كبيراً من الشِّياه ، والإبل ، وأثاثاً كثيراً ، وآنيةً كثيرةً ، ووجد المسلمون دناناً من الخمر ، فوزعت الغنائم ، وهي الأموال المنقولة ، كالسِّلاح ، والأثاث ، وغيرها بين المحاربين من أنصارٍ ، ومهاجرين ممَّن شهدوا الغزوة ، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم؛ إذ جعل للفَرَسِ سهمين ، وللرَّاجل سهماً ، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه ، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له ، والخمس المتبقِّي هو سهم الله ورسولِه ﷺ المقرَّر في كتابه تعالى[٢] .

وأما ما وجده رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة؛ فقد أراقوه ، ولم يأخذوا منه شيئاً ، ولم ينتفعوا به كذلك ، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاَّد الَّذي قتلته المرأة اليهودية بالرَّحى ، وأعطى سهمه لورثته[٣] ، ولصحابيٍّ آخر مات في أثناء حصار بني قريظة[٤] ، كما استجاب رسول الله ﷺ للنِّساء اللَّواتي حضرن، ولم يسهم لهنَّ، منهنَّ: صفية بنت عبد المطلب، وأمُّ عمارة ، وأمُّ سليط، وأمُّ العلاء ، والسُّميراء بنت قيس ، وأمُّ سعد بن معاذ[٣] . وأمَّا الأموال غير المنقولة كالأراضي ، والدِّيار؛ فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار ، وأمر المهاجرين أن يردُّوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيلٍ وأرض ، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[٥] ، قال تعالى عن تلك الأراضي والدِّيار : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٧] .

قال الأستاذ محمَّد دَرْوَزَة : أمَّا عبارة ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ ﴾ فقد قال المفسرون : إنَّها أرض خيبر ، وإنَّ الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أنَّ الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر

---

(١) اختصاراً من فتح الباري (٧/ ٤٧٣) في شرح الحديث رقم (٤١١٩) .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ٩٦ ، ٩٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩٧) .
(٤) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٥) .
(٥) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ٩٨) .

لنا: أنَّها أرض لبني قريظة بعيدةٌ عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حربٍ، أو حصارٍ، ونتيجةً للمصير الذي صار إليه أصحابُها(١).

هذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذُّرِّيَّة، والنِّساء إلى الشَّام فباعها، واشترى بالثَّمن سلاحاً، وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجدٍ سعد بن زيد، فباع سبياً، واشترى سلاحاً(٢).

٢ ـ إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السَّبي ريحانةُ بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة، قد أراد الرَّسول ﷺ أن يتزوَّجها بعد أن تسلم، فتردَّدت، وبقيت وقتاً على دينها، ثمَّ شرح الله صدرها للإسلام، فأسلمت، فبعثها إلى بيت أمِّ منذر بنت قيس حتَّى حاضت ثمَّ طهرت، فجاءها، وخيَّرها: أيعتقها، ويتزوجها، أو تكون في ملكه ﷺ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها(٣).

خامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصَّحابة بدورهم الجهاديِّ، فقالوا قصائد رائعةً، وضَّحُوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب، نقتطف أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد، فَمِنْ ذلك قول كعب بن مالكٍ أخي بني سلمة:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِيْنَا ... وَلَوْ شَهِدَتْ رأَتْنَا صَابِرِيْنَا
صَبَرْنَا لاَ نَرىٰ للهِ عِدْلاً ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا
وكان لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِيْنَا
نُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بِالعَدَاوَةِ مُرْصِدِيْنَا(٤)
نُعَالِجُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِيْنَا
تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ ... كغُدْرَانِ المَلا مُتَسَرْبِلِيْنَا(٥)

إلى أن قال:

لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللهَ حتَّى ... نكُوْنَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِيْنَا

---

(١) انظر: سيرة الرَّسول ﷺ، لعزَّة دروزة (٢/ ٢٠٢).
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ٩٨).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩٩)، والبداية والنِّهاية (فصل: في غزوة بني قريظة)، والسِّيرة النَّبوية لابن هشام غزوة بني قريظة (إسلام ريحانة).
(٤) المرصد: المعدُّ للأمر عدَّته.
(٥) متسربلينا: لابسين الدُّروع.

ويَعْلَـــم أَهْـــلُ مَكَّـــةَ حِيْـــنَ سَـــارُوا ... وأَحْـــزَابٌ أَتَـــوا مُتَحَـــزِّبِيْنَـــا
بـــأَنَّ الله لَيْـــسَ لَـــهُ شَـــرِيْـــكٌ ... وأَنَّ اللهَ مَـــوْلَـــىٰ المُـــؤْمِنِيْنَـــا
فـــإِمَّـــا تَقْتُلُـــوا سَعْـــداً سَفَـــاهـــاً ... فـــإِنَّ الله خَيْـــرُ القَـــادِرِيْنَـــا
سَيُـــدْخِلُـــه جِنـــانـــاً طَيِّبَـــاتٍ ... تَكُـــوْنُ مُقَـــامَـــةً للصَّـــالِحِيْنَـــا
كَمَـــا قَـــدْ رَدَّكـــم فَـــلاًّ شَـــرِيْـــداً ... بِغَيْظِكُـــمُ خَـــزَايَـــا خَـــائِبِيْنَـــا
خَـــزَايَـــا لَـــمْ تنَـــالُـــوا ثَـــمَّ خَيْـــراً ... وَكِـــدْتُـــمْ أَنْ تَكُـــونُـــوا دَامِـــرِيْنَـــا
بِـــرِيْـــحٍ عَـــاصِـــفٍ هَبَّـــت عَلَيْكُـــمْ ... فَكُنْتُـــمْ تَحْتَهَـــا مُتكمِّهِيْنَـــا[1]

وقال كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في قصيدةٍ طويلةٍ يردُّ فيها على عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ:

ومَـــوَاعِـــظَ مِـــنْ رَبِّنَـــا نُهْـــدَىٰ بهـــا ... بِلِسَـــانِ أَزْهَـــرَ طَيِّـــبِ الأَثْـــوَابِ
عُـــرِضَـــتْ عَلَيْنَـــا فـــاشْتَهَيْنَـــا ذِكْـــرَهـــا ... مِـــنْ بَعْـــدِ مـــا عُـــرِضَـــتْ عَلَـــى الأَحْـــزَابِ
حِكَمـــاً يَـــرَاهَـــا المُجْـــرِمُـــون بِـــزَعْمِهِـــمْ ... حَـــرَجـــاً[2] وَيَفْهَمُهَـــا ذَوُو الأَلبـــابِ
جـــاءَتْ سَخِيْنَـــةُ كَـــيْ تُغَـــالِـــبَ رَبَّهَـــا ... فَلَيُغْلَبَـــنَّ مُغَـــالِـــبُ الغَـــلاَّبِ

قال ابن هشام: حدَّثني مَنْ أثق به، قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، قال: لمَّا قال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه:

جَـــاءَتْ سَخِيْنَـــةُ كَـــيْ تُغَـــالِـــبَ رَبَّهَـــا ... فَلَيُغْلَبَـــنَّ مُغَـــالِـــبُ الغَـــلاَّبِ

قال له رسول الله ﷺ: «لقد شكرك الله يا كعب! على قولك هذا». [ابن هشام (٣/ ٢٧٣)].

* * *

(١) متكمِّهينا: عُمياً لا تبصرون.
(٢) حرجاً: حراماً.

الفصل الثَّاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب ، والحديبية
مِنْ أحداثٍ مهمَّة

المبحث الأوَّل
زواج النَّبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السَّرايا ، وبناء الدَّولة ، وبسط هيبتها في الجزيرة العربيَّة ، كانت حركة البناء التَّشريعيِّ ، والاجتماعيِّ للأمَّة الإسلاميَّة تتكامل ، فنظام التَّبنِّي يُهدَم، والحجاب يُفرض ، وأدب الولائم يقرَّر ، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكَّد على وجوبها ، وتُحارَب الأعراف الَّتي تعارض شرع الله تعالى ، ففي زواج رسول الله ﷺ بالسَّيدة زينب بنت جحش حكمٌ ، ودروسٌ ، وعبرٌ بقيت خالدةً على مرِّ العصور ، وكرِّ الدُّهور ، وتوالي الأزمان ، وهذه قصَّة أمِّ المؤمنين زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها :

أولاً : اسمها ، ونسبها :

هي زينت بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسديَّة ، أخت عبد الله بن جحش ، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم .

أمُّها : أميمةُ بنت عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيٍّ عمَّة رسول الله ﷺ ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه(١) .

يقال : كان اسمها : برَّة ، فسمَّاها النَّبيُّ ﷺ زينب ، وكانت تكنى أمَّ الحكم(٢) .

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأول ، ورعةً صوَّامة قوَّامة ، كثيرة الخير والصَّدقة ، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً» . قالت : فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً ، قالت : فكانت أطولنا يداً زينب لأنَّها

---

(١) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (١/ ٣٧٢) .
(٢) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (٤/ ١٨٤٩) .

كانت تعمل بيدها، وتصدَّق». [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)].

وقد مدحتها السَّيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً، وقالت في حقِّها: لم أر امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرَّحم، وأعظم صدقةً، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الَّذي تَصَدَّقُ به، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرةً من حِدَّةٍ كانت فيها تُسْرِعُ منها الفيئةَ[(١)]. [مسلم (٢٤٤٢)، والنسائي (٧/ ٦٤ ـ ٦٦)].

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرَّسول ﷺ أن يحطِّم تلك الفوارق الطَّبقيَّة الموروثة في الأمَّة المسلمة من عادات الجاهليَّة؛ ليكون النَّاس سواسيةً كأسنان المشط، لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتَّقوى، وكان الموالي ـ وهم الذين جرى عليهم الرِّقُّ، ثمَّ تحرَّروا ـ طبقةً أدنى من طبقة السَّادة، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الَّذي أعتقه، ثمَّ تبناه، فرأى رسول الله ﷺ أن يزوِّج زيداً من شريفةٍ من بني أسد، وهي ابنة عمَّته زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ ليبطل تلك الفوارق الطبقيَّة بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق، والعنف بحيث لا يحطِّمها إلا فعلٌ واقعيٌّ من رسول الله ﷺ؛ لتتَّخذ منه الأمَّةُ المسلمة أسوةً، وقدوةً، وتسير البشرية على هداه في هذا الطَّريق، وأيضاً لعلَّ من الحكمة في هذا الزَّواج: أنَّه كان مقدمةً لتشريعٍ آخر، لا يقلُّ أهمِّيَّةً في حفظ توازن المجتمع، وحماية الأسرة عن الأوَّل، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر[(١)].

انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسديَّة رضي الله عنها، فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى! فانكحيه»، قالت: يا رسول الله! أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله! قد رضيتَه لي زوجاً؟ قال: «نعم» قالت: لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد زوَّجتُه نفسي. [الطبري في تفسيره (٢٢/ ١١)، والدر المنثور (٥/ ٦٠٩)].

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يُدعى زيد بن محمَّد، فتزوَّجها زيد، وأصدقها في هذا الزَّواج عشرة دنانير، وستين درهماً، وخماراً، وملحفةً، ودرعاً، وخمسين مدّاً من طعامٍ، وعشرة أمدادٍ من تمرٍ[(٢)].

---

(١) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، لحفصة بنت عثمان الخليفي، ص ٢٠٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩).

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى ألا يتوافق زيدٌ، وزينب في زواجهما، وأصبحت حياة الزَّوجين لا تطاق، وصمَّم زيدٌ على فراق زوجه زينب، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله ﷺ من عدم استطاعته البقاء مع زينب، ورسول الله ﷺ يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها، حتَّى أذن الله بالطَّلاق، فطلَّقها زيدٌ، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنةٍ، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنةٍ، أو فوقها، ثمَّ وقع بينهما (يعني: الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتَّق الله». [أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي (٣٢١٢)].

لم يبقَ لزيد رغبةٌ في إبقاء العلاقة الزَّوجيَّة معها؛ لأنَّه كان كريم النَّفس، لا يريد أن يبني سعادته، وراحته على شقاء الآخرين، وتعاستهم، والإضرار بهم، ولهذا صمَّم على الفراق، وعدم الإضرار بها؛ لأنَّها كانت تعيش في قلقٍ، واضطرابٍ، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أيِّ تدخُّلٍ خارجيٍّ بينهما، ووقع ذلك الطَّلاق بمحض اختياره، وإرادته، وقد كان رسول الله ﷺ ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله، وإمساك زوجته[1]، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: «ذكر ابن أبي حاتم، وابن جرير آثاراً عن بعض السَّلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحَّتها، فلا نوردها»[2].

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من زينب رضي الله عنها:

كانت عادة التَّبنِّي متغلغلةً في نفوس النَّاس، ومشاعرهم، وليس من السَّهل التغلُّب عليها، وإلغاء الآثار المترتِّبة عليها، كانت هذه العادة في صدر الإسلام في مكَّة، وفي أوَّل الهجرة إلى المدينة، ثمَّ شاء الله تعالى، فنزلت الآيات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادَّعاهم في الحقيقة، وإنَّما ذلك حسب دعوى المدَّعي فقط، وذلك لا يغيِّر من الواقع شيئاً، فقال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ثمَّ أمر ـ تبارك وتعالى ـ بردِّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، فهذا من العدل، والقسط، والبرِّ، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ٢٠٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١).

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إنَّ زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد، حتَّى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. [البخاري (٤٧٨٢)].

ولم يجعل الله تعالى عدم معرفتهم لآبائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنِّيهم لهم، بل حرم التَّبني في هذه الحالة، وأخبر أنَّهم حينئذٍ إخوانهم، ومواليهم، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

أي: فإن لم تعرفوا آباءهم، فليس بينكم وبينهم إلا الأخوَّة في الدِّين، والموالاة، وذلك عوضاً عمَّا فاتهم من النَّسب، فيقال: فلانٌ مولى فلان، أو مولى بني فلان(١).

وهذه الأخوَّة في الدِّين، والموالاة لها أهمِّيَّة كبرى، فهي ثابتةٌ حتَّى للذين عُرِف آباؤهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» [أحمد (١/٩٨ و١١٥) عن علي، والبخاري (٢٦٩٩) عن البراء]، أي: أخونا في الإسلام، والولاية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وجاءت نصوصٌ أخرى تعالج هذا الأمر من جهةٍ أخرى، وهي جهة الابن، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقيِّ ـ والمنتسب يعلم ذلك ـ تحريماً قاطعاً، لا شبهة فيه(٢) قال ﷺ: «مَنِ ادَّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله، والملائكة، والنَّاس أجمعين، لا يقبل الله تعالى منه صَرْفاً ولا عَدْلاً(٣)». [البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠)].

وقد جعل الشَّارع لنشوء النَّسب سبباً واضحاً هو الاتِّصال بالمرأة عن طريق الزَّواج، أو ملك اليمين، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهليَّة من إلحاق الأولاد عن طريق العُهْرِ والزِّنى، قال ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» [البخاري (٦٨١٨)، ومسلم (١٤٥٨)]، ومعناه: أنَّ من يجيء من الأولاد ثمرة لفراشٍ صحيح قائمٍ على عقد الزَّواج، أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه، وأنَّ العُهْرَ والزِّنى لا يصلح أن يكون سبباً للنَّسب، وإنَّما يكون سبباً لشيءٍ آخر هو الرَّجم، والحجارة(٤).

ثمَّ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أن منع، وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبنَّاه، وأمر

---

(١) انظر: تفسير السَّعدي (٤/ ١٣٦).
(٢) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ١٨٩.
(٣) صرفاً: توبةً، وقيل: نافلة، عدلاً: أي: فدية، وقيل: فريضة.
(٤) انظر: علاقة الآباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلاميَّة، د. سعاد الصَّانع، ص ٥٢، ٥٣.

بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقيِّ إن عرف، أو إلى الأخوة في الدِّين والموالاة، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ، أو تعمَّد مخالفة هذا التَّشريع الإلٰهي، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

فقد نفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الجُناح (الإثم) عمَّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة، وذلك بعد الاجتهاد، واستفراغ الوسع، أو نسي، فنسب الابن إلى غير أبيه يجريان لسانه بذلك، وأثبت الحرج، والإثم لمن تعمَّد الباطل، وهو دعوة الرَّجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك(١).

كانت عادة التَّبنِّي مستحكمةً في نفوس النَّاس، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزَّمن، فكان زواج النَّبيِّ ﷺ بالسَّيدة زينب إلغاءً عمليّاً، وليس إلغاء ذهنيّاً فحسب(٢).

إنَّ الحكمة في زواج رسول الله ﷺ من السَّيدة زينب حكمةٌ واضحةٌ وظاهرةٌ، وقد بيَّنها الله تعالى بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد ذكر المبطلون من الكفار، وفروخُهم، ومقلِّدوهم بما يَنعِقون به، ويردِّده الجهَّال متعلِّقين برواياتٍ مكذوبةٍ، خلاصتُها كما يفترون: أنَّ النبي ﷺ قد هوي زينب بنت جحش، بعد أن تزوَّجت بزيد بن حارثة، فلمَّا علم زيدٌ بذلك؛ أراد طلاقها ليتزوَّجها النَّبيُّ ﷺ(٣)، فهذا قولٌ باطلٌ.

وقد نسف الإمام ابن العربيِّ هذا القول من جذوره، فقال: فأمَّا قولكم: إنَّ النَّبيَّ ﷺ رآها ـ أي: رأى زينب بنت جحشٍ ـ فوقعت في قلبه؛ فباطلٌ، فإنَّه ﷺ كان معها في كلِّ وقتٍ، وموضعٍ، ولم يكن حينئذٍ حجابٌ، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كلِّ ساعةٍ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوجٌ؟! حاشا لذلك القلب المطهَّر من هذه العلاقة الفاسدة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] والنِّساء أفتن الزَّهرات، فيخالف هذا في المطلَّقات، فكيف في المنكوحات؟

ثمَّ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعني: من نكاحك لها، وهو الذي أبداه لا سواه، أقول: فلو كان الَّذي أخفاه رسول الله ﷺ هو حبُّه لها؛ لأبداه الله تعالى،

---

(١) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ١٩١، ١٩٢.

(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣١١.

(٣) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة، لعبد الكريم زيدان (١١/ ٤٧٤، ٤٧٥).

وأظهره، فتيقَّنَّا: أنَّ الَّذي أخفاه رسول الله ﷺ من أمر زينب هو نكاحُه إيَّاها، وليس ما تخيَّله المبطلون من حبِّه لها(١).

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التَّبنِّي، وإبطال كلِّ نتائجه، وتعميق هذا الإبطال في النُّفوس، وتأكيده بالتَّطبيق العمليِّ، والقدوة، والتأسِّي بمن يُقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة النَّاسخة، وهذا ما فعله رسولُ الله ﷺ بزواجه بزينب بأمرٍ من الله تعالى العزيز الحكيم(٢).

خامساً: قصَّة زواج رسول الله ﷺ من زينب، وما فيها من دروسٍ، وعبر:

لمَّا انقضت عدَّة زينب؛ قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها عليَّ، فانطلق زيد؛ حتَّى أتاها، وهي تخمِّر عجينها، قال: فلما رأيتُها عَظُمَتْ في صَدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها: أنَّ رسول الله ﷺ ذكرها، فولَّيْتُها ظهري، ونكصْتُ على عَقِبي، فقلت: يا زينب أبشري!! أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامِر ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسولُ الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذنٍ. [أحمد (٣/ ١٩٥)، ومسلم (١٤٢٨/ ٨٧م)، والنسائي (٦/ ٧٩)]، وأصدقها أربعمئة درهم، وكان زواجه ﷺ بزينب في السَّنة الخامسة على المشهور، وقال الحافظ البيهقيُّ: تزوَّجها بعد بني قريظة(٣).

وأولم الرَّسول ﷺ في عرس زينب وليمةً كبيرةً، فأولم بشاةٍ، وقد دُعِي إلى الوليمة كلُّ من لقيه أنس رضي الله عنه بناءً على أمر الرَّسول ﷺ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أولم على امرأةٍ من نسائه ما أولم على زينب، أَوْلَمَ بشاةٍ. [البخاري (٥١٦٨)، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٠)].

وهكذا تزوَّج رسولُ الله ﷺ ـ بأمر رَبِّه ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها، بعد طلاق زيدٍ لها، وانقضاء عدَّتها، وفي زواجه ﷺ بزينب، وما نزل فيه من القرآن وما واكبه من أحداث ـ عظاتٌ، وعبرٌ(٤)، وقفنا عند بعضها، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدُّروس، والعبر الَّتي لم نقف عليها، منها:

١ ـ كان خاطب زينب للنَّبيِّ ﷺ هو زوجها الأوَّل زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولعلَّ اختيار رسول الله ﷺ لزيدٍ مقصودٌ لذاته؛ ليقطع بذلك ألسنة المتقوِّلين، وما قد يزعمونه من أنَّ طلاقها

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربيِّ (٣/ ١٥٣١، ١٥٣٢).
(٢) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٦).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٧).
(٤) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ٣١٢.

وقع بغير اختيارٍ منه، وأنَّه قد بقي في نفسه من الرَّغبة فيها شيءٌ، وفي هذا يقول ابن حجر: «هذا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الَّذي كان زوجَها هو الخاطبُ؛ لئلا يظنَّ أحدٌ: أنَّ ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها: هل بقي منه شيءٌ، أم لا؟»(١).

وفي هذا من الحكمة أيضاً: أن ما يقع بين الزَّوجين من نفرةٍ، وخلافٍ، ثمَّ طلاقٍ لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحد الزَّوجين للآخر، وأن يراعي فيه حقوق الأخوَّة الإيمانيَّة، فهذا زيد برغم ما وقع بينه وبين زينب، ورغم: أنَّ هذا كان بسببها، فإنَّه ذهب يخطبُها لرسول الله ﷺ، بل ويقول لها: يا زينب! أبشري!.

٢ ـ في الآية الَّتي نزلت بشأن هذا الزَّواج عتابٌ للنَّبيِّ ﷺ من ربِّه؛ إذ كان حين يأتيه زيدٌ يشكو زينب، ومعاملتها له، ورغبته في طلاقها يقول ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتَّق الله» [سبق تخريجه]، أي: اتَّق الله، وَدَعْ طلاقها، أو: اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها؛ ورسول الله ﷺ يخفي في نفسه ما أبلغه الله به: أن زيداً سيطلِّقها، وأنَّها ستكون زوجةً له، ويخشى متى وقع هذا من كلام النَّاس في قولهم: تزوَّج مطلقة مَنْ تبنَّاه، وهو زيد بن حارثة!

روى أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «اتَّق الله، وأمسك عليك زوجك»: قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الآية. [البخاري (٧٤٢٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمَّدٌ ﷺ كاتماً شيئاً ممَّا أُنزل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. [أحمد (٦/ ٢٤١)، ومسلم (١٧٧/ ٢٨٨)، والترمذي (٣٢٠٨)].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعديُّ في تفسيره للآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: «أي: أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق، والإرشاد، والتَّعليم، حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له ـ ناصحاً له، ومخبراً بمصلحته، مقدماً لها على رغبتك ـ: أمسك عليك زوجك، ولا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، واتَّق الله في أمورك عامَّة، وفي أمر زوجك خاصَّة؛ فإن التَّقوى تحثُّ على الصَّبر، وتأمر به. ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الَّذي أخفاه: أنه لو طلقها زيد؛ لتزوَّجها ﷺ»(٢).

قال سيِّد قطب: الَّذي أخفاه النَّبيُّ ﷺ في نفسه وهو يعلم أنَّ الله مبديه، وهو ما أعلمه الله:

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/ ٥٢٤).
(٢) تفسير السَّعدي (٣/ ١٥٤).

أنَّه سيفعله، ولم يكن أمراً صريحاً من الله، وإلا ما تردَّد فيه، ولا أخَّره، ولا حاول تأجيله، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب؛ الَّتي يتوقَّعها من إعلانه، ولكنَّه ﷺ كان أمام ما أعلمه الله، يتوجَّس في الوقت ذاته من مواجهته، ومواجهة النَّاس به، حتَّى أذن الله بكونه، فطلَّق زيدٌ زوجه في النِّهاية، وهو لا يفكر، لا هو، ولا زينب فيما سيكون بعد؛ لأنَّ العرف السَّائد كان يعدُّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمَّد، لا تحلُّ له(١).

٣ - في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، منقبةٌ عظيمةٌ لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فقد انفرد بهذا؛ إذ لم يُسَمِّ القرآن أحداً من الصَّحابة غيره، قال السُّهيلي: «كان يقال: زيد بن محمَّد حتَّى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾، فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمَّد، فلما نُزع عنه هذا الشَّرف، وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرَّفه بخصيصةٍ لم يكن يَخُصُّ بها أحداً من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وهي: أنَّه سمَّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني: من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم؛ حتَّى صار اسمه قرآناً يُتلى في المحاريب، نوَّه به غاية التَّنويه، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعوضٌ من الفخر بأبوَّة محمَّد ﷺ له، ألا ترى إلى قول أبيِّ بن كعب حين قال له النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا» [البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩)] فبكى، وقال: أوذكرتُ هنالك؟.

وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر: أنَّ الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مخلَّداً لا يبيد، يتلوه أهل الدُّنيا؛ إذا قرؤوا القرآن، وأهل الجنَّة أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القرآن كلام الله القويم، وهو باقٍ لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصُّحف المكرَّمة، المرفوعة المطهَّرة، تذكره في التِّلاوة السَّفرةُ الكرامُ البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيٍّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له بسبب ما نُزع منه(٢).

٤ - زواج النَّبيِّ ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربِّه، وهو الَّذي زوَّجه إيَّاها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٦٩).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٤).

وفي هذا شرفٌ عظيمٌ ، ومنقبةٌ جليلةٌ لزينب رضي الله عنها ، كانت تفاخر بها ـ وحقَّ لها ذلك ـ فعن أنسٍ رضي الله عنه ، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النَّبيِّ ﷺ تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات ، وفي روايةٍ أخرى: كانت تفخر على نساء النَّبيِّ ﷺ ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السَّماء. [البخاري (٧٤٢٠ و٧٤٢١)].

ولعلَّ هذه المنقبة ، وهذا الشَّرف لزينب رضي الله عنها كان جزاءً لها حين أذعنت ، وخضعت لأمر رسول الله ﷺ حين أمرها بالزَّواج من مولاه زيد بن حارثة ، وكانت لذلك كارهةً ، ثمَّ لمَّا علمت: أنَّ رسول الله ﷺ يأمرها بذلك قبلت الزَّواج منه[١].

٥ ـ في وليمته ﷺ على زينب علامةٌ من علامات نبوَّته ، ودلالةٌ من دلائلها ، وهي تكثير الطَّعام بدعوته ، وفي هذه الوليمة أيضاً كان نزول آية حجاب نساء النَّبيِّ ﷺ ، وما شرع من آداب الضِّيافة[٢].

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: تزوَّج رسول الله ﷺ ، فدخل بأهله ، قال: فصنعت أمِّي أمُّ سليم حيساً ، فجعلته في تَوْرٍ[٣] ، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ ، فقل: بعثت بهذا إليك أمِّي ، وهي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: إنَّ أمِّي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! فقال: ضعه ، ثمَّ قال: اذهب ، فادْعُ لي فلاناً ، وفلاناً ، ومن لقيت ، وسمَّى رجالاً ، قال: فدعوت من سمَّى ، ومن لقيت ، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمئة.

وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس! هات التَّوْر ، قال: فدخلوا حتَّى امتلأت الصُّفَّة ، والحُجرة ، فقال رسول الله ﷺ: ليتحلَّق عشرةٌ عشرةٌ ، وليأكل كلُّ إنسان ممَّا يليه ، قال: فأكلوا حتَّى شبعوا ، قال: فخرجتْ طائفةٌ ، ودخلت طائفةٌ ، حتَّى أكلوا كلُّهم ، فقال لي: يا أنس! ارفع ، قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ، قال: وجلس طوائف منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالسٌ ، وزوجته مولِّيةٌ وجهها إلى الحائط ، فَثَقُلوا على رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ على نسائه ، ثمَّ رجع ، فلمَّا رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ؛ ظنُّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه. [البخاري (٥١٦٣) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٤ و٩٥) ، والنسائي (٦/ ١٣٦)] قال: فابتدروا الباب ، فخرجوا كلُّهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتَّى أرخى السِّتر ، ودخل ، وأنا جالس في الحُجرة ، فلم يلبث إلا يسيراً حتَّى خرج عليَّ ، وأنزلت هذه

---

(١) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢١٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) تور: الإناء.

الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأها على النَّاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال الجعد(١): قال أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عهداً بهذه الآيات، وحُجِبْنَ نساءُ النَّبيِّ ﷺ. [مسلم (١٤٢٨/ ٩٤)، والترمذي (٣٢١٨)].

وقد حَجَبَ رسول الله ﷺ نساءه لنزول آية الحجاب التي قال المولى ـ عز وجل ـ فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣ ـ ٥٤].

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه، روى البخاريُّ في صحيحه عن أنسٍ، قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! يدخل عليك البرُّ، والفاجر، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب! فأنزل الله آية الحجاب. [البخاري (٤٧٩٠)].

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنِّسبة لأزواج النَّبيِّ ﷺ، والمراد عدم إبداء شيءٍ من أجسامهنَّ للأجانب عنهنَّ، وعدم محادثتهنَّ، أو طلب شيءٍ منهن إلا من وراء حجاب، أي: سِتْرٍ يكون بينهنَّ، وبين غيرهنَّ، ولمَّا نزلت قال الآباء، والأبناء، والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلمهنَّ من وراء حجاب؟

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥].

ونزل أيضاً في شأن نساء النَّبيِّ في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣].

---

(١) الجعد بن دينار، أبو عثمان اليشكريُّ، البصريُّ، من أصحاب أنس.

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية وإن كانت خطاباً لأزواج النَّبيِّ ﷺ فحكمها لجميع نساء الأمَّة ، وإنَّما خصَّ نساء النَّبيِّ لمنزلتهنَّ ، وعظم فضلهنَّ ، ومكانتهنَّ من النَّبي ﷺ(١) ، وقد قال الإمام القرطبيُّ في تفسيره : «معنى هذه الآية : الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النَّبيِّ ﷺ فقد دخل غيرهنَّ فيه بالمعنى ، هذا لو لم يرد دليلٌ يخصُّ جميع النِّساء ، كيف والشَّريعة طافحةٌ بلزوم النِّساء بيوتهنَّ ، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورةٍ على ما تقدَّم من غير موضعٍ ؟!»(٢) .

وقد فصَّل ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم ما يتعلَّق بالنِّساء المسلمات : من غضِّ البصر ، وحفظ الفروج ، وعدم إبداء مواضع الزِّينة من عنقٍ ، وساقٍ ، وعضُدٍ ، وساعدٍ ، وشعرٍ ، ونحوها من العورة الظَّاهرة إلا للمحارم(٣) ، وقد جاء ذلك في سورة النُّور ، وقد بينت السُّنَّة النَّبويَّة كل ما يتعلَّق بالنِّساء من احتجاب ، وتصوُّنٍ ، وتعفُّفٍ ، وعدم السُّفور ، والخلاعة ، والابتذال بما لا مزيد عليه(٢) .

هذه بعض الدُّروس ، والعبر استُخرجت من قصَّة زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ، وما واكب ذلك الزَّواج من نزول آياتٍ بيِّناتٍ في أحكام الحجاب ، وما شرع من آداب الضِّيافة .

هذا وقد توفِّيت زينت بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة ، وعمرها ثلاث وخمسون سنة ، وكانت كما أخبر النَّبيُّ ﷺ أوَّل نسائه لحاقاً به . [البخاري (١٤٢٠) ، ومسلم (٢٤٥٢)](٤) ، وقد بلغت مرويَّاتها عن النَّبيِّ ﷺ ـ وفق كتاب بقي بن مخلد ـ أحد عشر حديثاً(٥) ، ولها في الكتب السِّتَّة خمسةُ أحاديث(٦) ، اتُّفق لها في البخاريِّ ، ومسلمٍ على حديثين(٧) ، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة(٨) .

* * *

(١) انظر : السنّة النبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٣١٢) .
(٢) انظر : تفسير القرطبيِّ (١٤/ ١٧٩) .
(٣) انظر : السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣١٢) .
(٤) انظر : الطبقات الكبرى (٨/ ١١٥) .
(٥) انظر : تلقيح الفهوم ، لابن الجوزي ، ص ٣٧٠ .
(٦) انظر : تحفة الأشراف ، للمزِّي (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣) .
(٧) انظر : سير أعلام النُّبلاء (٢/ ١٢١) .
(٨) انظر : دور المرأة في خدمة الحديث ، ص ٨٥ .

المبحث الثاني
«الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا»

[البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/ ٢٦٢)].

كان ﷺ يعمل حساب كلِّ القوى المجاورة ، ولا يغفل عن أيِّ قوَّة منها ، وقد صرَّح بعد غزوة الخندق بأنَّ الخطَّة القادمة هي غزو قريش ؛ فقد تغيرت موازين القوى ، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر مِنْ قبل ، فسعى ﷺ لبسط سيادة الدَّولة على ما تبقَّى من قوى حول المدينة ؛ لأنَّ ذلك له صِلةٌ بالإعداد لغزو قريش في مرحلةٍ لا حقةٍ ، فقد قام ﷺ خلال عامٍ واحدٍ ـ العام السَّادس ـ بغزوتين ، وأرسل أربع عشرة سريَّةً ، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري ، وهذه الأعمال والتَّحرُّكات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار ، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كلِّ ما يمدُّها بالقوَّة من حلفائها[١] فقد استثمر رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما حقَّقوه من نجاح في صدِّ الأحزاب ، وإفشال خططهم ، وردِّهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم ، فباشروا نشاطاً واسع النِّطاق ضدَّ خصومهم على الجبهات كافة ، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصاديَّ على قريشٍ من جديدٍ ، كما نفَّذوا العديد من السَّرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهةٍ ، أو للثأر من القبائل الَّتي كانت قد غدرت بالدُّعاة ، أو ناصبت الإسلام العداء ، وقد تمثَّل النشاط العسكريُّ الإسلاميُّ خلال هذه الفترة فيما يلي :

أولاً : سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء :

كانت العشائر النَّجديَّة من أجرأ العناصر البدويَّة الوثنيَّة على المسلمين ؛ لأن النَّجديين أهل قوَّةٍ ، وبأسٍ ، وعددٍ غامرٍ ، وقد رأينا كيف أنَّ العمود الفقريَّ لقوَّات الأحزاب الضَّاربة كان من هذه القبائل النَّجديَّة ؛ حيث كان رجال هذه القبائل الشَّرسة يشكِّلون الأغلبيَّة السَّاحقة من تلك القوَّة الضَّاربة ، ستة آلاف مقاتل من غطفان ، وأشجع ، وأسلم ، وفزارة ، وأسد ، كانت ضمن الجيوش الَّتي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين ، فحاصرهم أهل المدينة .

ولهذا فإنَّ أوَّل حملةٍ عسكريَّةٍ وجَّهها النَّبيُّ ﷺ لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك

---

(١) انظر : دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ١٣٩ .

الحملة الَّتي جرَّدها على القبائل النَّجديَّة من بني بكر بن كلاب؛ الَّذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية[١] على مسافة سبع ليالٍ من المدينة ، ففي أوائل شهر المحرَّم عام خمس للهجرة ، وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجَّه ﷺ[٢] سريَّةً من ثلاثين من أصحابه عليهم محمَّد بن مسلمة لشنِّ الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب ، وذلك في العاشر من محرَّم سنة (٦ هـ)[٣] ، وقد داهموهم على حين غِرَّةٍ ، فقتلوا منهم عشرةً ، وفرَّ الباقون ، وغنم المسلمون إبلَهم ، وماشيتهم ، وفي طريق عودتهم أسروا ثُمامةَ بن أَثال الحنفيَّ سيِّد بني حنيفة ، وهم لا يعرفونه ، فقدموا به المدينة ، وربطوه بساريةٍ من سواري المسجد ، فخرَج إليه النَّبيُّ ﷺ ، فقال: «ماذا عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي خيرٌ يا محمد! إن تقتلني ، تقتل ذا دمٍ ، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكرٍ ، وإن كنت تريد المال؛ فسل منه ما شئت . فتركه حتَّى كان الغد ، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك: إنْ تُنعم؛ تنعم على شاكرٍ .

فتركه حتَّى كان بعد الغد ، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك . فقال: «أطلقوا ثُمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد ، فاغتسل ، ثمَّ دخل المسجد ، فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً رسولُ الله ، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ ، والله! ما كان دينٌ أبغضَ إليَّ من دينك ، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ ، والله! ما كان بلدٌ أبغضَ إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة ، فماذا ترى؟ فبشَّره رسولُ الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر .

فلمَّا قدم مكَّة؛ قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا والله! ولكنِّي أسلمت مع محمَّدٍ رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطةٍ حتَّى يأذن فيها النَّبيُّ ﷺ [البخاري (٤٦٢) ، ومسلم (١٧٦٤/٥٩)][٤] .

وقد برَّ بقسمه ممَّا دفع وجوه مكَّة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمامة ليخلِّيَ لهم حمل الطَّعام[٥] ، فاستجاب النَّبيُّ ﷺ لرجاء قومه بالرَّغم من أنه في حالة حربٍ معهم ، وكتب إلى سيِّد بني حنيفة ثُمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم» . فامتثل ثُمامة

---

(١) قريةٌ عامرةٌ قديمةٌ على وجه الدَّهر في طريق مكَّة من البصرة من نجدٍ .
(٢) انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٤ .
(٣) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص ٣٥١ .
(٤) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٠) .
(٥) المصدر السابق نفسه .

أمر نبيِّه ، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكَّة ، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة(١) .

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ؛ منها :

١ ـ جواز ربط الكافر في المسجد .

٢ ـ جواز المنِّ على الأسير الكافر ، وتعظيم أمر العفو عن المسيء ، لأنَّ ثُمامة أقسم : أنَّ بغضه انقلب حبّاً في ساعةٍ واحدةٍ ، لما أسداه النَّبيُّ ﷺ إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل .

٣ ـ الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثُمامة حين أسلم .

٤ ـ الإحسان يُزيل البُغض ، ويُنبت الحُبَّ .

٥ ـ يشرع للكافر إذا أراد عمل خيرٍ ثمَّ أسلم أن يستمرَّ في عمل ذلك الخير .

٦ ـ الملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى ، إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام ، ولاسيَّما مَنْ يتبعُه على إسلامه العددُ الكثيرُ مِنْ قومه(٢) .

٧ ـ الإسلام يُغيِّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين ، كما فعل ثُمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكَّة إلا بإذنٍ من الرَّسول ﷺ .

٨ ـ ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كلَّ علاقاته السَّابقة ، ثمَّ يلتزم بأوامر ربِّ العالمين بعد إيمانه(٣) .

ثانياً : سَرِيَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سيف البحر :

تعتبر سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر استمراراً لسياسة النَّبيِّ ﷺ العسكريَّة لإضعاف قريش ، ومحاصرتها اقتصادياً على المدى الطَّويل ، فقد بعث ﷺ أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمئة راكبٍ قِبَل السَّاحل ؛ ليرصدوا عيراً لقريش ، وعندما كانوا ببعض الطَّريق فني الزَّاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش ، فجُمع ، فكان قَدْرَ مِزْوَدِ تمرٍ ، يقوتهم منه كلَّ يوم قليلاً قليلاً ، حتَّى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرةً واحدةً ، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف ، فتقبَّلوا هذا الإجراء بصدورٍ رَحْبَةٍ دون تذمُّرٍ ، أو ضجرٍ ، بل إنَّهم ساهموا في خطَّة قائدهم التَّقشُّفيَّة ، فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقتٍ ممكنٍ(٤) ، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه

(١) انظر : السِّيرة الحلبيَّة (٢/٢٩٨) ، والاستيعاب ، لابن عبد البرِّ : ترجمة ثُمَامَة بن أثَال الحنفيِّ .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٧ .
(٤) انظر : السرايا والبعوث النبوية ، ص ١١٨ .

السَّرِيَّة : (كنَّا نمصُّها كما يمصُّ الصَّبيُّ ، ثمَّ نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى الَّليل)[١] ، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه : ما تغني عنكم تمرةٌ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ . [البخاري (٤٣٦٠) ، ومسلم (١٩٣٥/ ١٨)] .

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشَّجر ، قال جابر رضي الله عنه : وكنَّا نضرب بعصيِّنا الخَبَط[٢] ، ثمَّ نبلُّه بالماء ، فنأكله[٣] ، «فسمِّي ذلك الجيش جيش الخَبَط»[٤] ، وقد أثَّر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السَّريَّة الشُّجاعة ، وهو رجلٌ من أهل بيت اشتُهر بالكرم ، فنحر للجيش ثلاث جزائر[٥] ، ثمَّ نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثمَّ إنَّ أبا عبيدة نهاه . [البخاري (٤٣٦١) ، ومسلم (١٩٣٥/ ١٩)] .

فبينما هم كذلك من الجوع ، والجهد الشَّديدين ، إذ زفر البحر زفرةً أخرج الله فيها حوتاً ضخماً ، فألقاه على الشَّاطئ ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب ، فيقول : وانطلقنا على ساحل البحر ، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضَّخم[٦] ، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر[٧] ، قال : قال أبو عبيدة : ميتةٌ ، ثمَّ قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم ، فكلُوا ، قال : فأقمنا عليه شهراً ، ونحن ثلاثمئة حتَّى سَمِنَّا ، قال : ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب[٨] عينيه بالقِلال[٩] الدُّهنَ ، ونقتطع منه الفِدرَ[١٠] كالثَّور ، أو قدر الثَّور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثمَّ رحَّل أعظمَ بعيرٍ منا ، فمرَّ من تحتها[١١] وتزوَّدنا من لحمه وشائق ، فلمَّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ[١٢] ، فقال :

---

(١) مسلم شرح النووي (١٣/ ٨٤) ، باب : إباحة ميتات البحر ، وأبو داود (كتاب الأطعمة) ، باب : (في دواب البحر) .
(٢) الخبط : ضرب الشجر بالعصا ليناثر ورقها ، واسم الورق الساقط : خَبَط .
(٣) شرح النووي (٣١/ ٨٤) .
(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، رقم (٤٣٦١) .
(٥) جمع جزور ، والجزور : البعير ، أو خاص بالناقة .
(٦) الكثيب : التل من الرمل .
(٧) العنبر : سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس .
(٨) الوقب : النُّقرة التي تكون فيها العين .
(٩) القلال : جمع قُلَّة ، وهي الجرَّة العظيمة .
(١٠) الفدر : جمع فدرة وهي القطعة من اللَّحم .
(١١) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢١ .
(١٢) انظر : شرح النَّووي (١٣/ ٨٥ ـ ٨٧) .

«ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدَّابة[١]، فقال: «هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ، فتطعمونا» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله. [البخاري (٤٣٦٢)، ومسلم (١٤٣٥/١٧)][٢].

كانت هذه السَّريَّة على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمانٍ كما ذكر ابنُ سعدٍ[٣]، وذلك لسببين: السَّبب الأول: أنَّ الرَّسول ﷺ لم يغزُ، ولم يبعث سَرِيَّةً في الشَّهر الحرام، والثَّاني: أنَّ رجب سنة ثمانٍ هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية[٤].

وذكر ابن سعدٍ، والواقديُّ[٥]: أنَّ النبي ﷺ بعثهم إلى حيٍّ من جهينة، وقال ابن حجر[٦]: إنَّ هذا لا يغاير ظاهره مافي الصَّحيح؛ لأنَّه يمكن الجمع بين كونهم يتلقَّون عيراً لقريشٍ، ويقصدون حيّاً من جُهينة، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم، بل لحفظهم من جهينة، ويقوِّي هذا الجمع ما عند مسلمٍ، أنَّ البعث كان إلى أرض جُهينة [مسلم (١٩٣٥/٢١)][٧].

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد، وسوَّى بين المجاهدين في التوزيع؛ ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درسٌ تعلَّمه من رسول الله ﷺ عمليّاً أكثر من مرَّةٍ.

٢ ـ كرمُ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفِّف عن الناس، ففي رواية الواقديِّ: أنَّ قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النُّوق من رجلٍ جُهَنِيٍّ، وأنَّ أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمَّتك، ولا مال لك[٨]، فأراد أبو عبيدة الرِّفق به[٩].

وقد بدأ قيس بن سعد ينحر، وينحر حتَّى نهاه أبو عبيدة، فقال له قيس بن سعد: يا أبا عبيدة! أترى أنَّ أبا ثابتٍ يقضي ديون النَّاس، ويحمل الكلَّ، ويطعم في المجاعة،

---

(١) صحيح سنن النسائي، للألباني رحمه الله (٣/ ٩١٠).
(٢) شرح النَّووي (١٣/ ٨٧).
(٣) انظر: الطبقات، لابن سعدٍ (٢/ ١٣٢)، والمغازي، للذَّهبي، ص ٥١٩.
(٤) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص ١٢٥.
(٥) انظر: المغازي (٢/ ٧٧٤)، والسِّيرة النَّبويَّة على ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٨٠.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٨٠.
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٢٣، والسرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١١٩.
(٩) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١١٩.

لا يقضي عنِّي تمر القوم مجاهدين في سبيل الله[١] ، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة لأنَّه قد اتَّفق مع رجلٍ من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة ، وقد وافق الجهنيُّ على تلك الصَّفقة.

عندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجَّة: أنَّه لا مال له ، وإنَّما المال لأبيه؛ وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجَدُّ منه خمسون وَسْقاً[٢] .

٣ ـ الحلال والحرام:

إنَّ المسلمين في هذه السَّرِيَّة بلغ بهم الجوع غايته ، فكانت التَّمرة الواحدةُ طعامَ الرَّجل طوال يوم كامل في سفرٍ، ومشقَّةٍ، ويمرُّون وهم على تلك الحال من فقد التَّمر ، وأكل الخبط على الجهنيِّ ـ الَّذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه ، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم ، كما كانت الحال في الجاهليَّة؛ لأنَّهم اليوم ينطلقون بدين الله الَّذي جاء ليحفظ على النَّاس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرِّقون بين الحلال ، والحرام الَّذي تعلَّموه من منهج ربِّ العالمين[٣] .

٤ ـ جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصَّة على جواز أكل ميتة البحر ، وأنَّها لم تدخل في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

وقد صحَّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعبد الله بن عباسٍ ، وجماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم: (أنَّ صيد البحر ما صيد منه ، وطعامهُ ما مات فيه).

وفي السُّنن عن ابن عمر مرفوعاً ، وموقوفاً: (أُحلَّت لنا ميتتان ، ودمان: فأمَّا الميتتان؛ فالسَّمك ، والجراد ، وأمَّا الدَّمان؛ فالكبِد ، والطِّحال) [أحمد (٢/٩٧)، وابن ماجه (٣٢١٨)، والدارقطني (٤/٢٧١ و٢٧٢)] حديثٌ حسنٌ ، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنَّ قول

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٣ نقلاً عن الزُّرقاني في شرحه (٢/ ٢٨٢).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٢٤.

الصَّحابي : (أُحِلَّ لنا كذا ، وحُرِّم علينا) ينصرف إلى إحلال النَّبيِّ ﷺ وتحريمه[١] ، كما أنَّ في أكل الرَّسول ﷺ من لحم الحوت الَّذي تغذَّى منه المسلمون مدَّةً دليلاً على مشروعية أكل ميتة البحر[٢] ، كما يستحبُّ للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات الَّتي يشكُّ فيها المستفتي ؛ إذا لم يكن فيه مشقَّةٌ على المفتي ، وكان فيه طمأنينةٌ للمستفتي ، قاله النَّوويُّ[٣] .

٥ ـ بعض الأحكام الَّتي ذكرها الإمام النَّوويُّ :

قال النَّوويُّ : في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب ، واغتيالهم ، والخروج لأخذ مالهم ، واغتنامه ، وأنَّ الجيوش لابدَّ لها من أميرٍ يضبطها ، وينقادون لأمره ، ونهيه ، وأنَّه ينبغي أن يكون الأمير أفضلَهم ، أو مِنْ أفضلِهم ، قالوا : ويستحبُّ للرُّفقة من النَّاس ، وإن قلُّوا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم ، وينقادوا له ، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : يستحب للرُّفقة من المسافرين خلط أزوادهم ، ليكون أبركَ ، وأحسنَ في العشرة وألاَّ يختص بعضهم بأكلٍ دون بعضٍ ، والله أعلم[٤] .

ثالثاً : سرية عبد الرَّحمن بن عوفٍ إلى دومة الجندل :

كانت هذه السَّريَّة قد وجهت إلى أبعد مدىً وصلت إليه الجيوش النَّبويَّة في الجزيرة العربيَّة ، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشَّام ، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق ، وهي تقوم في قلب الصَّحراء العربيَّة واسطة الصِّلة بين الرُّوم في أرض الشَّام ، والعرب في الجزيرة ، وسكَّانها من قبيلة كلبٍ الكبرى ، وقد دخلوا في النَّصرانية نتيجة جوارهم ، وتأثُّرهم بجوار الرُّوم النَّصارى ، وهذه السَّرِيَّة تدخل ضمن مخطَّط النَّبيِّ ﷺ في احتكاكه مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة .

وأمَّا أمير السَّرِيَّة فهو عبد الرَّحمن بن عوف أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، ومن رجال الرَّعيل الأوَّل ، فقد كان أحد الدَّعائم الكبرى للدَّعوة الإسلاميَّة منذ دخوله فيها على يد الصِّدِّيق رضي الله عنه .

ومهمَّة هذه السَّرية ذات جانبين : مهمَّةٌ دعويَّةٌ ، ومهمَّةٌ حربيَّةٌ ؛ لذلك انتدب لها عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي تربَّى على محض الإسلام منذ أيَّامه الأولى[٥] .

---

(١) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢٣ .
(٢) انظر : السِّيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠ .
(٣) شرح النَّوويِّ على مسلم (١٣/ ٨٦) .
(٤) المصدر السابق نفسه (١٣/ ٨٦) .
(٥) التَّربية القياديَّة (٤/ ١٦٧ ، ١٦٨) .

وعن هذه السَّريَّة حدَّثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف ، فقال: «تجهَّز فإنِّي باعثك في سريَّةٍ في يومك هذا ، أو من غدٍ إن شاء الله» ، قال ابن عمر: فسمعت ذلك ، فقلت: لأدخلنَّ ، فلأُصلِّينَّ مع النَّبيِّ الغداة ، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرَّحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ ، فصلَّيت ، فإذا أبو بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما ، وناسٌ من المهاجرين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف ، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمَره أن يسير من اللَّيل إلى دومة الجندل ، فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرَّحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السَّحر ، فهم معسكرون بالجُرْف ، وكانوا سبعمئة رجلٍ ، فقال: أحببت يا رسول الله! أن يكون آخر عهدي بك ، وعليَّ ثياب سفري.

قال: وعلى عبد الرَّحمن بن عوفٍ عمامةٌ قد لفَّها على رأسه ، قال ابن عمر: فدعاه النَّبيُّ ﷺ فأقعده بين يديه ، فنقض عمامته بيده ، ثمَّ عمَّمه بعمامةٍ سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها ، ثمَّ قال: «هكذا فاعتم يا بن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السَّيف مُتوشِّحه ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «اغزُ باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تَغُلَّ ، ولا تغدر ، ولا تقتُل وليداً». قال ابن عمر رضي الله عنهما: ثمَّ بسط يده ، فقال: «يا أيها النَّاس! اتقوا خمساً قبل أن يُحلّ بكم: ما نقص مكيالُ قومٍ إلا أخذهم الله بالسِّنين ، ونقصٍ من الثَّمرات لعلَّهم يرجعون ، وما نكث قومٌ عهدهم إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وما منع قوم الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السَّماء ، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا ، وما ظهرت الفاحشة في قومٍ إلا سلط الله عليهم الطَّاعون ، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض»(١).

قال: فخرج عبد الرَّحمن حتى لحق أصحابه ، فسار حتى قدم دُومة الجندل ، فلمَّا حلَّ بها ، دعاهم إلى الإسلام ، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أوَّل ما قدم لا يعطونه إلا السَّيف ، فلمَّا كان اليوم الثَّالث أسلم الأصبغ بن عمروٍ الكلبيُّ ، وكان نصرانيّاً ، وكان رأسهم ، فكتب عبد الرحمن إلى النَّبيِّ ﷺ يخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جُهينة يقال له: رافع بن مكيث ، وكتب يخبر النَّبي ﷺ: أنَّه أراد أن يتزوَّج فيهم ، فكتب إليه النَّبيُّ ﷺ أن يتزوَّج بنت الأصبغ تماضر ، فتزوَّجها عبد الرحمن ، وبنى بها ، ثمَّ أقبل بها ، وهي أمُّ أبي سلمة بن عبد الرَّحمن بن عوف ، وذكر الواقديُّ: أنَّ هذه السَّريَّة في شعبان سنة ستٍّ. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٨٥)](٢).

---

(١) نصب الرَّاية للزيلعي (كتاب الصُّلح) ، وكنز العمال للمتَّقي الهندي (بعث عبد الرحمن).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٠ _ ٥٦١).

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ، منها:

١ ـ تواضع النَّبيِّ ﷺ لأصحابه، وشفقته عليهم، حيث ألبس عبد الرَّحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التَّواضع منه ﷺ يرفع من معنويات الصَّحابة رضي الله عنهم، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطَّاقة في سبيل خدمة هذا الدِّين؛ لأنَّ التَّلاحم والمودَّة بين القائد وجنوده من أهمِّ عوامل نجاح العمل، وتحقيق الأهداف(١).

٢ ـ كان جيش عبد الرَّحمن جيش مبادئ، وعقيدةٍ، فتحرَّك ضارباً في هذه الصَّحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدي رسوله إلى أمَّته، مستوعباً لمقاصد الجهاد، وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمَّد ﷺ، فهو عبد الله، ورسوله، ولا مكان لزعيمٍ، أو أمَّه، أو قبيلةٍ، أو رايةٍ، أو وطنٍ، أو جيشٍ، أو قوميَّةٍ بجوار هذه الرَّاية الخفَّاقة في هذا الوجود؛ راية الله تعالى. «اغزُ باسم الله» فحزب الله تعالى هو الَّذي يحيي هذه الصَّحراء الظَّمأى بغيث العقيدة الخالصة؛ عقيدة التَّوحيد(٢)، وهدفهم من هذا التحرُّك في سبيل الله وحدَه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهليِّ:

وأحياناً عَلَىٰ بَكْرٍ أَخِيْنَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلاَّ أَخَانَا

أمَّا هذا الجيش القويُّ الفتي، فهو يمضي في الأرض قُدُماً؛ ليقاتل من كفر بالله(٣).

٣ ـ ثمَّ نهى رسول الله ﷺ عبد الرَّحمن بن عوفٍ عن الغُلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغَدْر في العهود، وعن قتل الوِلْدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلاميِّ في الجهاد، فالقتال نوعٌ من العنف، والقسوة، ولكنَّه بالنسبة للمسلمين؛ الَّذين طهَّر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ، والحسد أمرٌ عارضٌ لإحقاق الحقِّ، وإزهاق الباطل، وحماية المحقِّين من المبطلين، وليس متأصِّلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفاً بالآداب السَّامية الَّتي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوَّة، والبطش، ومنتهى الرَّحمة، والعطف(٤).

٤ ـ كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيِّداً من سادات هذه الأمَّة، وواحداً من أكبر دُعاتها، فهو يملك من الحلم، والحكمة، والثَّقافة، والتَّجربة، والعبقريَّة، والقِدَم في

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٦/ ١٨٤).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٤/ ١٧١).
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٧٢).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (٦/ ١٨٤).

الإسلام ، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره ، ولهذا بذل كلَّ طاقاته لتحقيق الهدف الرَّئيسيِّ الأوَّل ، وهو الدُّخول في الإسلام ، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنُّفوس والقلوب ، فشحن كلَّ الإمكانات الفكريَّة ، والحركيَّة لإنجاح هذه المهمَّة العظمى ، وتكلَّل عمله بفضل الله تعالى بالنَّجاح الكبير ، وخاصَّة : أنَّ الجهد انصبَّ على إقناع الرَّئيس ، حسب توجيهات المصطفى ﷺ .

٥ ـ إنَّ إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرَّحمن بن عوف ، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الَّذي أسلم على يديه النَّجاشي ملك الحبشة ، ومصعب بن عمير بالمدينة حيث استجاب له سادات الأوس ، والخزرج وزعامتُهم للإسلام ، وهذه الشَّخصيَّات العُظمى الثلاثة هم من الرُّوَّاد الأوائل ، ومن المؤسِّسين في المدرسة الإسلاميَّة الأولى بمكَّة المكرَّمة .

هذا عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي أصيب بواحدٍ وعشرين جرحاً (أي : في غزوة أحدٍ) أدَّت بعضها إلى أن يكون عنده عرجٌ من شدَّتها ؛ يصنع ركائز العقيدة الإسلاميَّة بجيشه المظفَّر شمال الجزيرة العربيَّة وينضمُّ الكثيرون إلى الإسلام ؛ لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلاميَّة ، في هذه الأطراف النائية ، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة ، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب ، والرُّوم المناوئين للإسلام(١) .

وهذه أوَّل مرَّةٍ يحكم الإسلام خارج حدوده ، ويتعايش المسلمون ، والنَّصارى في دولةٍ واحدةٍ ، فالَّذين أسلموا تُطَبَّق عليهم أحكام الإسلام ، والَّذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية ، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصَّحابة على المجتمعات الجديدة الَّتي سينتقلون إليها فيما بعد ، وينساحون في العراق ، والشَّام ، وفي قلب فارس ، والرُّوم ؛ ليعلِّموا النَّاس : أنَّ العقيدة تنبني من خلال الحوار ، لا من خلال السَّيف ، وأنَّ مبادئ الإسلام لها قوَّتها الذَّاتية الَّتي تشعُّ أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظَّلام البهيم(٢) .

٦ ـ إنَّ زواج عبد الرَّحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل يقوِّي الرّوابط بين الزَّعيم المسلم الجديد بدومة الجندل ، وبين دولة الإسلام في المدينة ، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام ، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر : أنَّ فلذة كبده مقيمةٌ في العرين الإسلاميِّ الَّذي أصبح يحنُّ له حنينه لأرضه ، وبلده(١) .

وقد كان ﷺ يحرص على أن يتزوَّج هو وقادتُه ببنات سادة القبائل ؛ لأنَّ ذلك كسبٌ كبيرٌ

---

(١) انظر : التربية القيادية (٤/ ١٧٤) .

(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٤/ ١٧٤) .

لدعوة الإسلام، حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب، وامتصاص أسباب العداء، ثمَّ الدُّخول في الإسلام[١].

رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وغيرهما:

١ - بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدِّفاع إلى دور الهجوم، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وحان الوقت لتأديب بني لحيان - الَّذين غدروا بِخُبيب، وأصحابه يوم الرَّجيع - وأَخْذِ ثأر الشُّهداء، فخرج إليهم في مئتي صحابيٍّ، في ربيعٍ الأوَّل، أو جمادى الأولى سنة ستٍّ من الهجرة[٢].

أ - تضليل العدوِّ:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال، وهي مسافةٌ بعيدة، يلاقي مشاقاً كبيرة كلُّ مَنْ يريد قطعها، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الَّذين استُشْهدوا (غَدْراً) على يد هذه القبائل الهمجيَّة الَّتي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النَّبيِّ ﷺ في تضليل العدوِّ الَّذي يريد مهاجمته، اتَّجه بجيشه نحو الشَّمال، بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النَّبيُّ ﷺ قبل تحرُّكه نحو الشَّمال: أنَّه يريد الإغارة على الشَّام، وحتَّى أصحابه لم يعلموا: أنَّه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتَّجه بهم متوغِّلاً نحو الشَّمال حوالي عشرين ميلاً... في حركةٍ تمويهيَّةٍ - على العدوِّ - بارعةٍ.

وكان تغيير خطِّ سيره من الشَّمال إلى الجنوب عند مكانٍ يقال له: (البتراء)، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتَّى استقام على الجادة مُنصبّاً نحو الجنوب[٣].

ب - فرار اللِّحيانيِّين قبل وصول النَّبيِّ ﷺ:

كانت بنو لحيان على غاية التَّيقُّظ، والانتباه، فقد بثَّت الأرصاد، والجواسيس في الطُّرق ليتحسَّسُوا لها، ويتجسَّسُوا لذلك، فما كاد النَّبيُّ ﷺ يقترب بجيشه من منازلهم حتَّى انسحبوا منها فارِّين، وهربوا إلى رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونُهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولمَّا وصل النَّبيُّ ﷺ بجيشه عسكر في ديارهم، ثمَّ بثَّ السَّرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ، للحميديِّ (٦/ ١٨٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٦٨.
(٣) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص ٣٤، ٣٥.

الغادرين، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه، واستمرَّت السَّرايا النَّبويَّة في البحث والمطاردة يومين كاملين، إلا أنَّها لم تجد أيَّ أثرٍ لهذه القبائل الَّتي تمنَّعت في رؤوس تلك الجبال الشَّاهقة، وأقام ﷺ في ديارهم يومين لإرهابهم، وتحدِّيهم، وليظهر للأعداء مدى قوَّة المسلمين، وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة، حتَّى إلى قلب ديار العدوِّ متى شاؤوا[١].

ج ـ إرهاب المشركين بمكَّة:

رأى النَّبيُّ ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكَّة، فقرَّر أن يقوم بمناورةٍ عسكريَّةٍ يرهبُ بها المشركين في مكَّة، فتحرَّك بجيشه حتَّى نزل به وادي عُسفَان[٢]، وهناك استدعى أبا بكر الصِّدِّيق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه، وأمره بأن يتحرَّك بهم نحو مكَّة ليبثَّ الذُّعر، والفزع في نفوسهم، فاتَّجه الصِّدِّيق بالفرسان العشرة نحو مكَّة حتَّى وصل بهم كُراع الغميم[٣]، وهو مكانٌ قريب جداً من مكَّة، فسمعت قريش بذلك، فظنَّت: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ينوي غزوها، فانتابها الخوف، والفزع، والرُّعب، وساد صفوفها الذُّعر، هذا هو الَّذي هدف إليه النَّبيُّ ﷺ بهذه الحركة الَّتي كلَّف الصِّديق أن يقوم بها.

أمَّا الصِّدِّيق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم، وعلموا أنَّهم قد أحدثوا الذُّعر، والفزع في نفوس أهل مكَّة عادوا سالمين إلى النَّبيِّ ﷺ، فتحرَّك بجيشه عائداً إلى المدينة. [الواقدي (٢/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦)، وابن سعد (٢/ ٧٨ ـ ٨٠)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٩٥)][٤].

د ـ التَّرحُّم على الشُّهداء:

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ إلى بطن (غُرَان)[٥]، حيث لقي الشُّهداءُ من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة مِنْ هُذَيل؛ تَرَحَّم على هؤلاء الشُّهداء، ودعا لهم[٦].

٢ ـ غزوة الغابة[٧]:

لم تكد تمضي ليالٍ قلائلُ على عودة رسول الله ﷺ من غزوته لبني لحيان، حتَّى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيلٍ لغطفان، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله ﷺ بالغابة، وقتلوا ذرَّ بن أبي ذرٍّ الغفاري، وأسروا زوجته ليلى، واستاقوا

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.
(٢) عسفان: قرية بين مكَّة والمدينة على نحو يومين من مكَّة.
(٣) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكَّة والمدينة، وهو وادٍ.
(٤) انظر: صلح الحديبية، ص ٣٧.
(٥) غُران: بضمِّ أوله: واد بين ساية، ومكَّة.
(٦) انظر: صلح الحديبية، ص ٣٨.
(٧) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشَّام فيه أموالٌ لأهل المدينة.

الإبل الَّتي كان عددها عشرين، ولمَّا علم الرَّسول ﷺ بخبر عُيَيْنَة؛ خرج في خمسمئةٍ من أصحابه في إثره، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمئة من قومه، يحرسون المدينة(١).

وعند جبلٍ من ذي قَرَد(٢)، أدرك رسولُ الله ﷺ العدوَّ، فقتل بعضَ أفراده، واستنقذ الإبل(٣).

وقد أبدى سلمةُ بن الأكوع في هذه المعركة بطولةً نادرةً، وخاصَّة قبل وصول كتيبة الفرسان النَّبويَّة؛ حيث كان من ضمن الرُّعاة في منطقة الغابة، وظلَّ بمفرده يشاغل المغيرين، ويراميهم بالنَّبل، وكان من أعظم الرُّماة في عصره، وقد استخلص مجموعةً من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان(٤).

أمَّا المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذرٍّ الَّذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة، فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكَّنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقةٍ تابعةٍ لرسول الله ﷺ، وقد نذرت إن نجَّاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لتنحرنَّ تلك النَّاقة، فلمَّا أخبرت النَّبيَّ ﷺ عن نذرها؛ تبسَّم، وقال: «بئسما جزيتيها» أي: أنَّها حملتك، ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النَّحر؟! ثمَّ قال لها ﷺ: لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين. [أحمد (٤/ ٤٣٠)، ومسلم (١٦٤١)، وأبو داود (٣٣١٦)](٥).

وقد عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها(٦).

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبيَّة الَّتي قادها رسول الله ﷺ بنفسه ضدَّ أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب، وبني قريظة، وقبل غزوة خيبر(٧). وتتابعت سرايا رسول الله ﷺ بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين، فنجت بعض هذه السَّرايا، وتعثر بعضُها الآخر، وكان أبرزها سرية عكَّاشة بن محصن الأسديِّ؛ التي عُرفت بسريَّة الغَمْر(٨)، وقد بعثها رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة، إلى بني أسد، فوصلت إلى موضعٍ يقال له: الغَمْر، فوجدت القوم قد هربوا، وتفرَّقوا في الجبال القريبة، فأغار عكَّاشة، وأصحابه على نعمٍ

(١) انظر: عيون الأثر، لابن سيِّد الناس (٢/ ٧٢، ٧٣).
(٢) ذو قرد: ماء على نحو بريدٍ من المدينة ممَّا يلي غطفان.
(٣) انظر: التاريخ السِّياسي العسكريّ، ص ٣٢٧.
(٤) انظر: صلح الحديبية، ص٤٣.
(٥) انظر: المصدر السابق نفسه، ص٤٥.
(٦) انظر: التَّاريخ السِّياسي، والعسكري، ص ٣٢٧.
(٧) انظر: صلح الحديبية، ص ٤٥.
(٨) الغمر: ماء لبني أسدٍ على ليلتين من فيد الَّذي هو قلعةٌ بطريق مكَّة.

لهم ، فغنموا مئتي بعير ، وعادوا إلى المدينة(١) .

ومن أبرزها أيضاً سريّة محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ إلى ذي القَصَّة(٢) لإرهاب بني ثعلبة ، وعُوال ، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة ، وفي شهر ربيع الثَّاني سنة ستٍّ من الهجرة خرج محمَّد بن مسلمة في عشرةٍ من المسلمين حتَّى وردوا عليهم ليلاً ، فأحدق بهم القوم وهم مئة رجل ، فتراموا ساعةً من الليل ، ثمَّ حملت عليهم الأعراب بالرِّماح فقتلوهم ، ووقع محمَّد بن مسلمة جريحاً ، ولم يتمكَّن من العودة إلا بعد أن مرَّ به رجلٌ من المسلمين ، فحمله حتَّى ورد به المدينة(٣) .

وعلى الأثر بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم ، فلم يجدوا أحداً ، ولكنَّهم غنموا بعض نعمهم ، فساقوها ، وعادوا بها إلى المدينة(٤) .

وفي شهر جُمادى الأولى من السَّنة نفسها كانت سريّة زيد بن حارثة الثَّانية إلى العيص(٥) في سبعين ومئة راكب؛ لاعتراض قافلةٍ لقريش كانت مقبلةً من الشَّام ، فأدركها ، وأخذها ، وما فيها ، وأسر بعض أفرادها ، كان منهم أبو العاص بن الرَّبيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله ﷺ ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص(٦) . وفي شعبان سنة ستٍّ من الهجرة خرجت سريَّةٌ بقيادة عليِّ بن أبي طالبٍ لتأديب بني سعد بن بكر الَّذين جمعوا النَّاس لإمداد يهود خيبر ، وقد بعثه رسول الله ﷺ في مئةٍ من المسلمين ، فأغار عليهم ، وغنم بعض نَعَمِهم ، وعاد بها إلى المدينة(٧) .

كانت هذه السَّريَّة تأديباً لكلِّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع ، حيث علمت تلك القبائل : أنَّ عين المدينة يقظة لكلِّ ما يدور حولها ، وأنَّ جميع التَّحرُّكات كانت تحت المراقبة(٨) ، فقد تميزت الدَّولة الإسلاميَّة بدقَّة رصدها لأعدائها ، وهكذا يكون التَّخطيط الحربيُّ السَّليم ، وذلك بقطع الطَّريق على تجمُّع الأعداد الكبيرة حتَّى بالإمدادات الصَّغيرة(٩) .

---

(١) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٤٠) .
(٢) ذو القصَّة ، موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرَّبذة .
(٣) انظر : التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٢٨ .
(٤) انظر : الواقديُّ (١/ ٥٥١) .
(٥) العيص : بينها وبين المدينة أربع ليالٍ .
(٦) انظر : محمَّد رسول الله ، لمحمَّد رضا ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٧) انظر : التاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٠ .
(٨) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٢٥ .
(٩) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ١٨٩) .

إنَّ حركة السَّرايا ، والبعوث الَّتي كان يقودها رسول الله ﷺ ترشد المسلمين إلى أهمِّية متابعة أخبار الأعداء ، وجمع المعلومات عنهم ، فقد كانت المعلومات تتجمَّع عند رسول الله ﷺ من مصادر متعدِّدة : سراياه الاستطلاعيَّة ، المسلمين المتخفِّين المتعاطفين مع المسلمين ، المعاهدين ، الفراسة واستكشاف ما وراء السُّطور ، المهم : أنَّ رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمرٍ داخليٍّ ، أو تهديدٍ خارجيٍّ ، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضيَّةٍ يجب أن يعطوها كامل الاعتبار ، مع ملاحظة الضَّوابط الشَّرعية[١] .

خامساً : سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرنيِّين :

قدِم على رسول الله ﷺ جماعةٌ من عُكَل[٢] وعُرينة[٣] ، في شوال من العام السَّادس الهجري[٤] ، وتكلَّموا بالإسلام ، فقالوا : يا نبي الله! إنَّا كنَّا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف ، واستوخموا المدينة ، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ[٥] ، وراعٍ ، وأمرهم أن يخرجوا فيه ، فيشربوا من ألبانها ، ويتمسَّحوا بأبوالها ، فانطلقوا حتَّى إذا كانوا ناحية الحَرَّة ؛ كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعيَ النَّبيِّ ﷺ ، واستاقوا الذَّود ، فبلغ النَّبيَّ ﷺ خبرُهم ، فبعث الطَّلب في آثارهم[٦] ، فقبضوا عليهم ، فأمر بهم ، فسملوا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ، وأرجلهم ، وتُركوا في ناحية الحرَّة حتَّى ماتوا على حالهم . قال قتادة راوي الحديث : بلغنا : أنَّ النبي ﷺ بعد ذلك كان يحثُّ على الصَّدقة ، وينهى عن المُثْلَة . [البخاري (٤١٩٢)][٧] .

وقال أبو قلابة في حديثه : «هؤلاء قومٌ سرقوا ، وقتلوا ، وكفروا بعد إيمانهم ، وحاربوا الله ورسولَه ﷺ »[٨] .

قال الجمهور : إنَّ الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] ، قد نزلت في هؤلاء العُرنيِّين[٩] ،

---

(١) انظر : الأساس في السنّة (٢/ ٧١٢) .
(٢) عكل : قبيلة من تيم الرباب .
(٣) عرينة : حيٌّ من بُجيلة .
(٤) من رواية الواقدي (٢/ ٥٦٨) معلقة ، وابن سعد (٢/ ٩٣) معلقة .
(٥) الذَّود : الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : ما بين الثنتين إلى التِّسعة .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٧٨ .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) انظر : السِّيرة النَّبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٧٨ .
(٩) انظر : سبل الهدى والرَّشاد ، للشَّامي (٦/ ١٨١ ـ ١٩٠) فيها تفصيل .

وقيلت أسباب أخرى في نزولها[١].

وعلى كلِّ حالٍ فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باقٍ حتَّى يومنا هذا، وأدلُّ دليلٍ على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام، سواء كانت الآية نزلت في الكفَّار، أم في المسلمين، وهذه الآية نازلةٌ في المشركين، كما في البخاريِّ، فدلَّ ذلك على أنَّ العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المُثْلَة منسوخةً، أو منهياً عنها، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ سمل أعين العُرنيِّين لا يستدلُّ به في هذه القضيَّة؛ لكون العُرنيِّين سملوا أعين الرُّعاة، فصار سمل النَّبيِّ ﷺ لهم قصاصاً لا مُثْلَةً[٢].

إنَّ حادثة العُرَنيِّين ترتَّب عليها تنفيذ حكم الحرابة، ونزول آياتٍ بيناتٍ في هذا الحكم، فقد حصر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ جزاء المحاربين في أربعة أمورٍ، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر، ثمَّ إنَّه وصف هؤلاء المحاربين بأوصافٍ يشمئزُّ منها كلُّ عاقل، ذلك أنَّه وصفهم بأنهم حاربوا الله تعالى، ورسوله ﷺ، وأنَّهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكَّانها، وتقتيلهم، وسلبهم، ونهب ممتلكاتهم ظلماً، وجوراً لا مستند لهم، ولا باعث إلا الإفساد، والطُّغيان، فكانت رحمةُ الله تعالى الرَّحيم بهم وبغيرهم مِنْ خلقه مقتضيةً الحكم عليهم بواحدٍ من أمورٍ أربعةٍ، وهي: القتل، أو الصَّلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو الإبعاد عن مخالطة العامَّة وعزلهم عنها بالنَّفي والتَّغريب؛ حتَّى لا تتكرَّر منهم تلك الجرائم الشَّنيعة، وحتى يرتدع غيرُهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشَّنيع، ولكي يطهِّرَهم ما يوقع بهم من عقابٍ من الذُّنوب، والآثام؛ إن هم تابوا، ورجعوا إلى رشدهم، وصوابهم.

ثمَّ إنَّ هؤلاء لهم ذِلَّةٌ، ومهانةٌ في الحياة الدُّنيا لأذيَّتهم المسلمين، وقد علَّل تعالى لحوق تلك الرَّذيلة بهم مدَّة الحياة الدُّنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقيةٌ معهم إلى يوم القيامة؛ لكون الرَّب جلَّ وعلا أعدَّ لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً.

ثمَّ استثنى جلَّ وعلا من هؤلاء مَنْ أناب إليه، ورجع في أسلوبٍ حكيم مؤثِّرٍ داعٍ إلى رجوعهم، وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاؤوا تائبين قبل القدرة عليهم؛ لكون تلك التَّوبة مظنَّةً لصدقهم في توبتهم، ورجوعهم عن غيِّهم؛ لأنَّهم رجعوا قبل القدرة عليهم.

وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم: أنَّهم إن قدر عليهم قبل التَّوبة؛ لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم، وهذا نوعٌ من العلاج في غاية الدقَّة،

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤).

(٢) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة، د. عبد الله الشنقيطي، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

والإنصاف ، وفيه من الحفز على التَّقليل من هذه الجريمة ، وتركها ما لا يخفى على ذي عقلٍ لبيب .

وكذلك الشَّأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجيَّة ، كلُّها توافق الذَّوق السَّليم ، والعقل الرَّاجح المتَّزن المتمتِّع بصفاء الفطرة السَّليمة .

ثمَّ ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنَّه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب منهم ، وأصلح ، فلا يقنط أحدٌ من رحمته الواسعة ، ولا يحول بين العبد ورحمة ربِّه ، ومغفرته عظيمُ ذنبه ، وجسيم خطئه ، ما لم يقارف شِرْكاً . وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنيَّة الحرابة في المجتمع الإسلاميِّ علاجاً لا مزيد عليه ، وذلك واضحٌ ممَّا يلي :

١ ـ وصف المحارِب بأنَّه محاربٌ لله تعالى ، ولرسوله ﷺ .

٢ ـ عظم الجزاء المترتِّب على الحَرابة أيّـاً كان هو .

٣ ـ مكانتُه الدَّنيئة في الدُّنيا ، والآخرة ؛ إن لم يتب .

٤ ـ يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشَّنعاء بفتحه باب التَّوبة لمتعاطيها على مصراعيه ؛ حتَّى لا يكون سدُّه في وجهه حافزاً له على التَّمادي في جرمه ، والاستمرار في عتُوِّه[1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة : ٣٣ ـ ٣٤] .

وهكـذا كانت حركـة بنـاء المجتمـع ، وإقامـة الدَّولـة متشابكـةً فـي قضاياهـا العسكريَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّـة ، والأخلاقيَّـة ، والاقتصاديَّـة .

* * *

---

(١) انظر : علاج القرآن الكريم للجريمة ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ .

المبحث الثَّالث
تصفية المحرِّضين على الدَّولة

أولاً : سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلَّام بن أبي الحُقيْق :

كان أبو رافع سلَّام بن أبي الحُقَيْق من يهود بني النَّضير كثير التَّحريض على الدَّولة الإسلاميَّة ، حتَّى إنَّه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ ، وشاع أمر أبي رافعٍ ، وانتشر ، وكان ممَّن ألَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار الَّتي يجب أن يوضع لها الحدُّ(١) .

١ ـ توجُّه السَّرية إلى خيبر ، ودخولها :

فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافعٍ اليهوديِّ رجالاً من الأنصار ، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع في حصنٍ له ، فلمَّا دنوا منه ، وقد غربت الشَّمس وراح النَّاس بسرحهم ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإنِّي منطلقٌ ، ومتلطِّفٌ للبوَّاب لعلِّي أن أدخل ، فأقبل حتَّى دنا من الباب ، ثمَّ تقنَّع بثوبه كأنه يقضي حاجةً ، وقد دخل النَّاس ، فهتف به البواب : يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل ؛ فادخل فإنِّي أريد أن أغلق الباب ، فدخلتُ ، فكمنتُ ، فلمَّا دخل الناس أغلق الباب ، ثمَّ عَلَّقَ الأغاليق (أي : المفاتيح) على ودٍّ (أي : وتد) ، قال ابن عتيك : فقمت إلى الأقاليد (المفاتيح) فأخذتُها ، ففتحت الباب(٢) .

٢ ـ تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع :

ولمَّا دخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريَّته إلى داخل الحصن ؛ أخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهوديِّ الخبيث أبي رافعٍ .

وقد جاء في البخاريِّ : أنَّ عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصحاب أبي رافعٍ يسمرون عنده ،

---

(١) انظر : قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد قلعجي ، ص ٢١٢ .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٦٥ ، والبخاري كتاب المغازي ، باب : قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق .

وكان في علالي له (أي: غرفة)، فكمنت (أي: اختبأت) حتَّى ذهب عنه أهلُ سَمَرِه، ولمَّا ذهبوا صعِد إليه. وكلَّما دخلَ باباً أغلقَه عليه من الدَّاخل حتى لا يحول أحدٌ بينه وبين تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع، فانتهى إلى أبي رافع فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وسط عياله لا يدري أين هو من البيت، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويتُ نحو الصَّوت فأضربه ضربةً بالسَّيف؛ وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً (أي: لم أقتله).

وصاح، فخرجت من البيت، فأمكثُ غير بعيدٍ ثمَّ دخلتُ إليه.

فقلت: ما هذا الصَّوت يا أبا رافع؟!

قال: لأمِّك الويلُ! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قَبْلُ بالسَّيف.

قلت: فأضربه ضربةً أثخنته، ولم أقتله، ثمَّ وضعت ضبيب السَّيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنِّي قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتَّى انتهيت إلى درجةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أنِّي قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعتُ في ليلةٍ مقمرةٍ، فانكسرتْ ساقي، فعصبتُها بعمامةٍ، ثمَّ انطلقت حتَّى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج اللَّيلة حتَّى أعلم أقتلته؟ فلمَّا صاح الدِّيك قام النَّاعي على السُّور، فقال: أنعىٰ أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النَّجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النَّبيِّ ﷺ، فحدَّثته، فقال لي: «ابسط رجلك». فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنَّها لم أشتكها قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

وفي روايةٍ أخرى للبخاريِّ قال عبد الله بن عتيك: قلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟ قال: فعمدت نحو الصَّوت، فأضربه، وصاح فلم تُغْنِ شيئاً، ثمَّ جئت كأنِّي أغيثه.

فقلت: مالك يا أبا رافع؟! وغيَّرت صوتي، فقال: ألا أعجبك، لأمِّك الويلُ! دخل عليَّ رجلٌ فضربني بالسَّيف. قال: فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى، فلم تُغْنِ شيئاً، فصاح، وقام أهله، ثمَّ جئتُ وغيَّرتُ صوتي كهيئة المُغيث، فإذا هو مستلقٍ على ظهره، فأضع السَّيف في بطنه ثمَّ أنكفئُ عليه، حتَّى سمعتُ صوت العَظْمِ. [البخاري (٤٠٤٠)].

وقد ذكرت كتب السِّيرة: أنَّ امرأة أبي رافع حينما ضُرِب بالسَّيف صاحت؛ فأراد قتلها، ثمَّ كف عن ذلك؛ لأنَّ رسول الله ﷺ قد نهاهم عن قتل النِّساء، والصِّبيان[1]، وأنَّ ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود، وأنَّه استخدمها مع زوجة أبي رافعٍ اليهوديِّ، وأهل بيته.

---

(١) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ١٦٨).

ويذكر كُتَّاب السِّيرة: أنَّ سرية ابن عتيك كلَّها شاركت في ضرب أبي رافع، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم ادَّعى: أنَّ ضربته كانت هي القاضية على أبي رافعٍ، فقال رسول الله ﷺ: «عجِّلوا بأسيافكم»، فأتوا بأسيافهم، فنظر إليها، ثمَّ قال: «هذا قتلَه»، وهو سيف عبد الله بن أُنيس، هذا أثر الطَّعام في سيف عبد الله بن أُنيس. [البخاري (٤٠٣٩ و٤٠٤٠)، وابن سعد (٢/ ٩١ ـ ٩٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٠ ـ ٨١)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٠٧ ـ ٤١٠)، وابن هشام (٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨)].

وقد يتوهَّم القارئ الكريم أنَّ هناك تناقضاً بين رواية البخاريِّ، ورواية كتب السِّيرة الأخرى؛ الَّتي تقول: إنَّ الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أُنيس، والحقُّ: أنَّه ليس كذلك؛ ذلك لأنَّ عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنَّه غلب على ظنِّه: أنَّه هو القاتل، وأنَّه قد حكى عن دوره في ضرب اليهوديِّ أبي رافعٍ، ولا يعني هذا أنَّ غيره لم يشارك في قتله؛ إذ لم ينفِ هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع، والرِّوايات يفسِّر بعضها بعضاً، ويشرح بعضُها بعضاً، والرِّوايات تذكر: أنَّ كلَّ واحد من أفراد السَّريَّة كان يدَّعي أنَّ ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافعٍ.

وقد نظر رسول الله ﷺ في دعواهم، وفحص سيوفهم، وحكم بعد ذلك بأنَّ الضَّربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه؛ لظهور أثر الطَّعام عليه، أي: أنَّ هذا السَّيف قد دخل جوف أبي رافع ومزَّق أحشاءه، وقطَّع أمعاءه، وخلط غذاءه في جوفه[(١)].

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سريَّة عبد الله بن عتيك، وهم: مسعودُ بن سنان، وعبدُ الله بن أُنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخُزاعي بن أسود[(٢)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أنَّ كلَّ أعضاء هذه السَّريَّة كانوا من الخزرج، فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الَّذين قتلوا كعب بن الأشرف، فقد كانوا كفرسي رهانٍ في المسابقة في الخيرات، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدُّنيا من المال، والمناصب، وإنَّما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النَّبيِّ ﷺ الَّتي مآلها رضوانُ الله تعالى، والسَّعادة الأخرويَّة[(٣)].

قال كعب بن مالك: وكان ممَّا صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ: أنَّ هذين الحيين من الأنصار: الأوس، والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ـ يعني: يتسابقان في خدمته ـ لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناءً إلا قالت الخزرج: والله! لا تذهبون

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٨٩).
(٢) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص ٩١.
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٦/ ١٧٧).

بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ، وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتَّى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً؛ قالت الأوس مثل ذلك. [ابن هشام (٣/ ٢٨٦)].

٢ ـ فائدةُ تعلُّم لغةِ العدوِّ: فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع، وأن يخاطب امرأته، وأن يدخل بيته مطمئناً؛ لأنَّه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلُّم لغة غير المسلمين لا سيَّما الأعداء منهم، وخاصَّة لأولئك العسكريين الَّذين يذهبون لمهمَّات استطلاعيَّة تجمع أخبار العدو، وتزوِّد القيادة بها، والقيادة ترسم[(١)].

٣ ـ عناصر نجاح خطَّة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهوديِّ: ذهابُه وحدَه، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن، ويحاول أن يدخله، ومن ثَمَّ يفتِّش عن طريقة يُدخل بها أفراد سريَّته، وتصرُّفه العادي الَّذي لم يلفت انتباه أحدٍ من الحرَّاس، وقدرته على التَّمويه على الحارس، وإيهامه: أنَّه يقضي حاجته، وهذا منع الحارس من النَّظر إليه، وتفحُّصه، وتفرُّسه في وجهه، ومراقبة حركة الحارس الدَّقيقة بعد دخول الحصن، وإغلاقه، فقد كمن في مكانٍ لم يشعر به الحارس، وراقب الحارس حتَّى وضع مفتاح الحصن في مكانٍ معيَّن، وتابعه حتَّى انصرف، وأخذ المفتاح، وأصبح يستخدمه كيفما يشاء، وفي أيِّ وقتٍ شاء[(٢)].

٤ ـ عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأوليائه المؤمنين، فهذا الصَّحابيُّ الجليل استمرَّ بعونٍ من الله تعالى يمشي، ويبذل طاقته حتَّى بعد أن أصيبت رجله، وكأنَّه لا يشكو من علَّةٍ، حتَّى إذا انتهت مهمَّته تماماً، وأصبح غير محتاج لبذل الجهد؛ عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلمَّا حدَّث النَّبيَّ ﷺ خبره؛ قال له: «ابسُطْ رِجلك» قال: فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنَّهـا لم أشـتَـكِهَا قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

٥ ـ فوائد من القصَّة استخرجها ابن حجر، حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الَّذي بلغته الدَّعوة، وأصرَّ، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده، أو ماله، أو لسانه. وجواز التَّجسُّس على أهل الحرب، وتطلُّب غرَّتهم، والأخذ بالشدَّة في محاربة المشركين، وجواز إبهام القول للمصلحة، وتعرُّض القليل من المسلمين للكثير من المشركين، والحكم بالدَّليل، والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته، واعتماده على صوت النَّاعي بموته، والله أعلم[(٣)].

٦ ـ وجود عبد الله بن أُنيس جندياً في هذه السَّريَّة، وليس أميراً فيها له دلالتُه الكبرى في

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٩١).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٩٢، ١٩٣).
(٣) فتح الباري (٧/ ٤٠٠) في شرح حديث (٤٠٣٩، ٤٠٤٠).

عملية التَّربية والتَّعليم، فهو العقبيُّ، البدريُّ، المصلِّي للقبلتين؛ فهو من السَّابقين الأوَّلين من الأنصار، وليس عبد الله بن أُنيس نكرةً في مجال الجهاد والبطولات، فلا بدَّ أن نذكر: أنَّه السَّريَّة وحده الَّذي ابتعثه رسول الله ﷺ لاغتيال سفيان بن خالد الهُذلي في أطراف مكَّة، وهو الَّذي كان يعدُّ العدَّة لغزو المدينة، وهو الَّذي نجح نجاحاً باهراً في مهمَّته تلك، وقتله في فراشه، وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصراً مظفَّراً، فهو مليءٌ بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنَّما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التَّاريخ المشرق في سجلاته عند ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ قبل أن يكون عند النَّاس.

وهو درسٌ تربويٌّ خالدٌ قد استوعبه أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وهذا النَّوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالَّذي يحكم في الجيوش تسلسل الرُّتب، حتى إنَّ الرتبة الواحدة يحكم بها المتقدِّمُ المستجدَّ، وعلى المستجدِّ السَّمع، والطَّاعة للمتقدِّم؛ ولو بأشهرٍ، وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدَّم على عبد الله بن أُنيسٍ أحدٌ، ولكنَّها التَّربية النَّبويَّة العظيمة الَّتي خطَّها النَّبيُّ ﷺ في أكثر من موقعٍ؛ لتجعل هذا الجيل يتعلَّم من سابقه، ويتدرَّب على يديه، فطالما أرسل ﷺ سرايا فيها أبو بكرٍ، وعمر جنديين عاديين في غمار الجنود[١].

ثانياً: سريَّة عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهوديِّ:

بلغ رسول الله ﷺ أنَّ اليسير بن رِزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحُقَيق أخذ في جمع يهود الشَّمال، وتحريضهم على رسول الله ﷺ، ولم يكتفِ بذلك، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان، وجمعها لقتال رسول الله ﷺ، وحين علم رسول الله ﷺ ما يبيِّته اليهود له من الخديعة، والمكر، رأى ﷺ أن يتأكَّد من ذلك قبل أن يقدم على أمرٍ ما، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفرٍ من المسلمين، رواداً يكتشفون ما تخبئه يهود، ومن لَفَّ لفَّها من مشركي العرب[٢].

وقد تأكَّدت المخابرات النَّبويَّة من أمر اليُسَيْر بن رِزَام، وكان هذا كافياً لقيام النَّبيِّ ﷺ ببعث سريَّةٍ في ثلاثين راكباً، عليهم عبد الله بن رواحة، وفيهم عبد الله بن أُنيس، فأتوه، فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتَّى تبعهم في ثلاثين رجلاً، مع كلِّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسلمين، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره، حتَّى إذا كانوا بَقرقَرة ثيار على ستَّة أميالٍ من خيبر، ندم اليُسَيْر على مسيره إلى رسول الله ﷺ، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أُنيس، ففطن له، فاقتحم به، ثمَّ ضربه بالسَّيف، فقطع رجله،

---

(١) انظر: التربية القياديَّة (٤/ ١٤٨).

(٢) انظر: اليهود في السنّة المطهَّرة (١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

وضربه اليُسَير بِمِخْرَشٍ[١] في يده مِنْ شواحط[٢]، فضرب به وجه عبد الله فأمَّه[٣]، ومال كلُّ رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه، فلمَّا قدِم ابن أُنيس على رسول الله ﷺ؛ تفل على شجَّته، فلم تَقِحْ، ولم تؤذه. [ابن هشام (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)][٤].

وكانت هذه السَّريَّة في شوال سنة ستٍّ من الهجرة[٥].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ كانت الخطَّة النَّبويَّة هي محاولة إيقاف نهر الدَّم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أنَّ الحقد اليهوديَّ الَّذي أشرب قلوبهم، والسُّمَّ الَّذي ينفثونه على المسلمين، هو الَّذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطَّة كلَّها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين، فوقعت الدَّائرة عليهم.

٢ ـ إنَّ البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً، وشديداً؛ فلن يحسم المواجهة مع العدوِّ، وسيجعل الحرب تفني كلَّ شيء، وتأكل كلَّ شيءٍ، فلا بدَّ من بثِّ الرَّهبة، والرُّعب في قلب العدوِّ، ولا بدَّ من الشِّدَّة معه حين لا يجدي الحوار، أو المناقشة، ولا بدَّ من الغلظة الَّتي تشعر العدوَّ: أنَّ مَنْ يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣ ـ شهد العامُ السَّادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليَّات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمرُّ شهرٌ دون سريَّةٍ، أو سريَّتين تضرب في الصَّحراء، وتفضُّ جمعاً، أو تحطِّم عدوّاً، أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» [سبق تخريجه]، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافَّةً، ويزيح كلَّ طاغوتٍ يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً، والَّذين تلقوا أعلى مستويات التَّربية الخلقية، والفكريَّة، والعسكريَّة، والسياسيَّة كيف ينفِّذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعُهم ترجمةً عمليَّةً وحيَّةً لمبادئهم، وكيف يتقدَّمون ليتصدَّروا مرحلةً جديدةً تبدأ معالمها، وملامحها مع صلح الحديبية[٦].

* * *

---

(١) المخرش: شبه المقرعة يضرب به، وهي معوجَّة الرأس.
(٢) الشَّواحط: شجر ابن النبع، من أشجار الجبال الَّتي يُتَّخذ منها القسي.
(٣) فأمَّه: أي: جرحه في رأسه، والشَّجة المأمومة هي التي تبلغ أمَّ الرأس.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص٤٧٧، والبداية والنِّهاية (سنة ١١ هـ).
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤٧٧.
(٦) انظر: التَّربية القياديَّة (٤/ ١٨٩ إلى ١٩٢).

الفصل الثَّالث عشر
الفتح المبين (صلح الحديبية)

[البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٦) برقم (١٤)، وابن هشام (٣/ ٣٢١ ـ ٣٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٩٩ ـ ١٠٨)].

المبحث الأوَّل
تاريخه، وأسبابه، ومخرج رسول الله ﷺ إلى مكَّة

أولاً: تاريخه، وأسبابه:

في يوم الإثنين الأوَّل من ذي القعدة سنة (٦ هـ)[١]، خرج الرَّسول ﷺ من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكَّة؛ لأداء العمرة[٢]. وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله ﷺ رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ، وتتلخَّص هذه الرُّؤيا في أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى: أنَّه قد دخل مكَّة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدِّياً للعمرة، وقد ساق الهدي معظِّماً للبيت مقدِّساً له، فبشر النَّبي ﷺ أصحابه، ففرحوا بها[٣] فرحاً عظيماً، فقد طال عهدُهم بمكَّة، والكعبة؛ الَّتي رضعوا حبَّها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها، وشوقاً إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطَّواف حولها، وتطلَّعت إليه تطلُّعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدَّهم حنيناً إلى مكَّة، فقد ولدوا، ونشؤوا فيها، وأحبُّوها حبّاً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلمَّا أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك تهيَّؤوا لتلك الزيارة العظيمة[٤]، واستنفر ﷺ أهل البوادي والأعراب؛ ليخرجوا معه؛ لأنَّه كان يخشى أن تصدَّه قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد

---

(١) أجمع أهل العلم على تاريخها دون خلاف، وانظر: المجموع، للنووي (٧/ ٧٨).

(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٤).

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (٢/ ٤٩٥).

(٤) انظر: السيرة النبوية، للندوي، ص ٢٧٣.

علمت بأمر التَّحالف العسكريِّ الَّذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنوَّرة وخيبر في شمالها ، وكان هدف هذا التَّحالف جعل الدولة الإسلاميَّة بين طرفي الكماشة ، ثمَّ إطباق فكَّيها عليها ، وإنهاء الوجود الإسلامي فيها ، فقد حان الوقت لكسر ذلك التَّحالف سياسيّاً ، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبةً ليست ملكاً لقريش ، بل هي تراث أبيهم إسماعيل ، ولهذا فليس من حقِّ قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء ، وتجيز مَنْ تشاء ، فإذاً من حقِّ محمَّد ﷺ وأصحابه زيارةُ الكعبة[(١)] .

وانتشر خبر خروج رسول الله ﷺ بين قبائل العرب ، وكان انتشار الخبر له أثرٌ في الرأي العامِّ ، وخصوصاً بعدما أكَّد رسول الله ﷺ : أنَّه لا يريد حرباً ، وإنَّما يريد أن يعتمر ، ويعظِّم شعائر الله ، وحقَّق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلاميَّةً رفيعة المستوى ، وقد كان هدف النَّبيِّ ﷺ معلناً : ألا وهو زيارة بيت الله الحرام ؛ لأداء العمرة ، فتجرَّد هو وأصحابه من المخيط ، ولبسوا ثياب الإحرام ، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلَّد الهدي ، وأشعره[(٢)] .

وقد كان ﷺ على جانبٍ كبير من الحيطة ، والحذر ، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعيَّ عيناً له[(٣)] ، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافيَّةً مكوَّنةً من عشرين رجلاً ، وفي ذلك يقول الواقديُّ : «دعا رسول الله ﷺ عبَّاد بن بِشر فقدَّمه أمامه طليعةً في خيل المسلمين عشرين فارساً ، وكان فيها رجالٌ من المهاجرين ، والأنصار»[(٤)] ، وكان هدفه ﷺ من ذلك الاستعداد للطوارئ الَّتي يمكن أن يفاجأ بها ، ـ وأيضاً ـ فقد كانت مهمَّة هذه الطليعة استكشاف خبر العدوِّ[(٥)] .

وأخذ ﷺ بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له : يا رسول الله! تدخل على قومٍ هم لك أهل حربٍ بغير سلاحٍ ، ولا كراعٍ؟ فبعث النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة من يحمل له الكراع ، والسِّلاح[(٦)] وكان قصده ﷺ من ذلك الاستعداد لهؤلاء الأعداء ؛ الَّذين يملكون من السِّلاح ، والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين ، والنَّيل منهم[(٧)] ، وهذا التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الَّذي جعله لأمَّته لتقتدي به من بعده ﷺ ؛ لما في ذلك من المصالح الكثيرة ، ولما فيه من درء مكايد الأعداء ؛ الَّذين يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر[(٣)] .

---

(١) قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) أشعره : إشعار البدن أن يشقَّ أحد جنبي سنام البدنة حتَّى يسيل دمها ، انظر : مرويات الحديبية ، ص ٥٥ .
(٣) انظر : مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
(٤) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٥٧٤) .
(٥) انظر : صلح الحديبية ، لمحمد باشميل ، ص ٣٠٩ .
(٦) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٢) .
(٧) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص٤٨٩ .

ثانياً: وصول النَّبي ﷺ إلى عُسْفَان:

لمَّا وصل رسول الله ﷺ إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبيُّ الخزاعيُّ، فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بمسيرك؛ ومعها العُوذُ المطَافِيلُ[(١)]، قد لبسوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح[(٢)] قريش! لقد أكلتهُم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر النَّاس؟ فإن أصابوني؛ كان الَّذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام؛ وهم وافرون[(٣)]، وإن لم يفعلوا؛ قاتلوا وبهم قوَّة، فماذا تظن قريش؟ والله! إني لا أزال أجاهدهم على الَّذي بعثني الله له، أو تنفرد هذه السَّالفة[(٤)]».

وقد استشار ﷺ أصحابه لمَّا بلغه خبر استعداد قريش لصدِّه عن دخول البيت الحرام، وعرض ﷺ على الصَّحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم، والتَّصميم:

١ ـ الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الَّذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدِّهم عن البيت.

٢ ـ قصد البيت الحرام فمن صدَّه عنه قاتله حتَّى يتمكن من تحقيق هدفه[(٥)]. ولمَّا عرض ﷺ المشورة في هذا الأمر على الصَّحابة؛ تقدَّم أبو بكر الصِّدِّيق برأيه الَّذي تدعمه الحجَّة الواضحة، حيث أشار على رسول الله ﷺ بترك قتالهم، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة؛ حتَّى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النَّبيُّ ﷺ هذا الرَّأي، وأخذ به، وأمر النَّاس أن يمضوا في هذا السَّبيل[(٦)]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النَّبيُّ ﷺ بأصحابه صلاة الخوف بِعُسْفَان.

ثالثاً: الرَّسول ﷺ يغيِّر الطَّريق، وينزل بالحديبية:

ولمَّا بلغ رسول الله ﷺ: أنَّ قريشاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرِّر المصادمة، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصِّدام مع المشركين، فقال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم؛ الَّتي هم بها؟ فقال رجلٌ مِنْ أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شَقَّ على المسلمين السَّير

---

(١) المراد: خرجوا ومعهم النِّساء، والأولاد لئلا يفرُّوا عنهم وهو على الاستعارة.
(٢) يا ويح: كلمة ترحُّم، وتوجُّع، انظر: لسان العرب (٣/ ٩٩٦).
(٣) وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء، انظر: لسان العرب (٣/ ٩٥٨).
(٤) السيرة النبوية، لابن هشام، ومحمَّد ﷺ، لمحمد رضا.
(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول ﷺ، ص ٤٨٩.
(٦) انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة، للشَّيخ عدنان النَّحوي، ص ١٦٠.

فيه ، حتَّى خرجوا إلى أرضٍ سهلة عند منقطع الوادي ، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «قولوا: نستغفر الله ، ونتوب إليه». فقالوا ذلك.

فقال: «والله إنَّها الحطَّة الَّتي عُرِضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها[(١)]».

فأمر رسول الله ﷺ النَّاس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحَمْشِ في طريق تخرجه إلى ثنية المرار ، فهبط الحديبية من أسفل مكَّة ، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفَّة ودون أن يشعر به أحد ، فما نظر خالدٌ إلا وقَـتَرَةُ (غبرة) جيش المسلمين قد ثارت ، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكَّة يُحذِّر أهلها ، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[(٢)] وقد أصاب الذُّعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية ، حيث تعرَّضت مكَّة للخطر ، وأصبحت مهدَّدة من المسلمين تهديداً مباشراً[(٣)].

يقول اللواء محمود شيت خطَّاب في هذا الدَّرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوَّات الجيش ، فالَّذي يخاف من عدوِّه لا يقترب من قاعدته[(٢)] الأصليَّة ، وهي مركز قوَّاته ، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصليَّة؛ حتَّى يُطيل خط مواصلات العدوِّ ، وبذلك يزيد من صعوباته ، ومشاكله ، ويجعل فرصة النَّصر أمامه أقلَّ من حالة الاقتراب من قاعدته الأصليَّة[(٤)].

وقد جاء في كتاب (اقتباس النِّظام العسكريِّ في عهد الرَّسول ﷺ) ما يُبيِّن الحكمة من تغيير الطُّرق ما نصُّه: ويؤخذ من اتِّخاذ الأدلَّة والتَّحوُّل إلى الطُّرق الآمنة: أنَّ القيادة الواعية البصيرة تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدةً عن المخاطر ، والمهالك ، وتتجنَّب الدُّروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرُّفات العدوِّ ، وهجماته[(٥)].

رابعاً: «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُقٍ ، ولكنْ حبسها حابسُ الفيل»:

وعندما اقترب الرَّسول ﷺ من الحديبية بركت ناقتُه القصواء ، فقال الصَّحابة رضي الله عنهم: خلأتِ القصواء[(٦)] ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بِخُلُقٍ ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثمَّ قال: «والَّذي نفسي بيده! لا يسألونني خطَّةً يعظِّمون فيها حرمات الله

---

(١) انظر: السِّيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ٣٣٨) ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمَّد رضا.
(٢) غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٣٩.
(٣) انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤.
(٤) انظر: الرَّسول القائد ﷺ ، لمحمود شيت خطاب ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤ نقلاً عن اقتباس النُّظم العسكريَّة ، ص ٢٥٨.
(٦) بركت من غير علةٍ ظاهرة ، فلم تبرح مكانها.

إلا أعطيتهم إيَّاها[(١)]». ثمَّ زجرها، فوثبت، ثمَّ عدل عن دخول مكَّة، وسار حتَّى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ ـ بئر ـ قليل الماء، وما لبثوا أن نزحوه، ثمَّ اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالرِّيِّ، فارتووا جميعاً[(٢)]، وفي روايةٍ: أنه جلس على شفة البئر، فدعا بماءٍ، فمضمض، ومجَّ في البئر[(٣)]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا، كما ذكر ابن حجر[(٤)] ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ[(٥)]، وعروة[(٦)] من أنَّ الرَّسول ﷺ تمضمض في دلوٍ، وصبَّه في البئر، ونزع سهماً من كنانته، فألقاه فيها، ودعا، ففارت[(٧)].

وفي بروك ناقة رسول الله ﷺ، وقَسَمِه بعد ذلك دروسٌ، وعبرٌ، منها:

١ ـ كلُّ شيءٍ في هذا الكون يسير بأمر الله، ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته، وإرادته، فتأمَّل في ناقة رسول الله ﷺ أين بركت، وكيف كره الصَّحابة بروكها، وحاولوا إنهاضها لتستمرَّ في سيرها، فيستمرُّوا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النَّتائج، ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد غير ذلك[(٨)].

٢ ـ وقد استنبط ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ فائدةً جليلةً من قوله ﷺ: «حبسها حابس الفيل»[(٩)]؛ فقال: وفي هذه القصَّة جواز التشبيه من الجهة العامَّة، وإن اختلفت الجهة الخاصَّة؛ لأنَّ أصحاب الفيل كانوا على باطلٍ محضٍ، وأصحاب هذه النَّاقة كانوا على حقٍّ محضٍ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً، أمَّا مِنْ أهل الباطل؛ فواضحٌ، وأمَّا مِنْ أهل الحقِّ فللمعنى الَّذي تقدَّم ذكره[(١٠)].

٣ ـ ومن الفوائد: أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبُغاة، والظَّلمة إذا طلبوا أمراً يعظِّمون فيه حرمةً من حرمات الله تعالى؛ أُجيبوا إليه، وأُعْطُوه، وأُعِينوا عليه؛ وإن مُنعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون ممَّا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٨٤.
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٨٤.
(٣) الفتح (٤/ ٧٥٨) رقم (٣٥٧٧).
(٤) الفتح (١١/ ١٦٤) رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٥) المغازي (٢/ ٥٨٨).
(٦) من رواية أبي الأسود عنه، كمَّا ذكر ابن حجر في الفتح (١١/ ١٦٤).
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٨٤.
(٨) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٤٣.
(٩) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/ ٢٦٠).
(١٠) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/ ٦١).

سوى ذلك ، فكلٌّ من التمس المعاونة على محبوبٍ مُرْضٍ له أجيب إلى ذلك كائناً مَنْ كان ، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ لله أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضيع، وأصعبها، وأشقِّها على النُّفوس[(١)].

٤ ـ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، جلَّت قدرتُه ، وعزَّت عظمتُه قضى ألا يكون قتالٌ بين المسلمين ، والمشركين من أهل مكَّة في هذه الغزوة بالذَّات لِحكَمٍ ظهرت فيما بعدُ؛ منها:

أ ـ إنَّ دخول المسلمين بالقوَّة يعني: أن تحدث مذابح ، وتَزْهَقَ أرواحٌ كثيرةٌ ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ من الطَّرفين ، وهذا أمرٌ لم يُرِدْه البارئ سبحانه ، وكان لمصلحة الفريقين: المؤمنين ، والمشركين.

ب ـ إنَّ من المحتمل أن ينال الأذى ، والقتل ، والتَّشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكَّة؛ الَّذين يُخفون إسلامهم خوفاً من قومهم ، وهذا فيه ما فيه من المعرَّة الَّتي لا يليق بمسلمٍ أن يقع فيها.

قال سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

ج ـ لقد سبق في علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ هؤلاء الَّذين يقفون اليوم صادِّين رسول الله ﷺ ، وأصحابه رضي الله عنهم عن المسجد الحرام هم الَّذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام ، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرةً ، حين يحملون هذه الرِّسالة للنَّاس ، وينيرون ظلمة الطَّريق للمُدْلجين[(٢)].

خامساً: السَّفارة بين الرَّسول ﷺ ، وقريش:

بذل رسول الله ﷺ ما في وُسْعِه؛ لإفهام قريش: أنَّه لا يريد حرباً معهم ، وإنَّما يريد زيارة البيت الحرام ، وتعظيمه ، وهو حقٌّ للمسلمين ، كما هو حقٌّ لغيرهم ، وعندما تأكَّدت قريش من ذلك أرسلت إليه مَنْ يفاوضه ، ويتعرَّف على قوَّة المسلمين ، ومدى عزمهم على القتال؛ إذا أُلجئوا إليه ، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطُّرق السِّلميَّة من جهةٍ ثالثةٍ[(٣)].

---

(١) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٧.
(٢) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٥.
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٥.

١ ـ رَكْبٌ من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:

جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَةَ[(١)] نُصْح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، وبيَّنوا: أنَّ قريشاً تعتزم صدَّ المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرَّسول ﷺ سبب مجيئه، وذكر لهم الضَّرر الَّذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنةٌ إلى وقتٍ معلومٍ حتَّى يتَّضح لهم الأمر، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب، ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريشٍ، وقالوا لهم: يا معشر قريش! إنَّكم تعجَلون على محمَّدٍ، إنَّ محمداً لم يأتِ لقتال، وإنَّما جاء زائراً هذا البيت. فاتَّهموهم، وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنَّما جاء لذلك؛ فلا والله! لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً، ولا تتحدَّث بذلك العرب[(٢)]. وقد ظهرت براعة النَّبيِّ ﷺ السِّياسيَّة في عرضه على مشركي مكَّة الهدنة، والصُّلح؛ لأنَّ في ذلك فوائدَ كثيرةً، منها:

أ ـ بالهدنة يضمن حياد قريش، ويعزلها عن أيِّ صراعٍ يحدث في الجزيرة العربيَّة، سواءٌ كان هذا الصِّراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللَّئيم الغادر؛ الَّذي يتربَّص بالمسلمين الدَّوائر.

ب ـ حرص الرَّسول ﷺ على أن يبقى باب الاتِّصال مفتوحاً بينه، وبين قريشٍ، ليسمع منهم، ويسمعوا منه بواسطة الرُّسل، والسُّفراء، وفي هذا تقريبٌ للنُّفوس وتبريدٌ لجوِّ الحرب، وإضعافٌ لحماسهم نحو القتال.

ج ـ حرصُه ﷺ على أن تُدْرِك خزاعةُ بقيادة بُديلٍ، والرَّكبُ الَّذي معه: أن حليفهم قويٌّ، فتزداد ثقتُهم به، وحلفهم له، ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي، ولم يُلْغَ، وتأكَّد في صلح الحديبية.

د ـ إنَّ العقلاء الَّذين يفكِّرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرَّسول ﷺ، وأنَّه جاء معظماً للبيت؛ والمشركون يردُّونه، وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه، ويتعاطفون معه، فيقوى مركزُه، ويضعُف مركز قريشٍ الإعلاميُّ، والدِّينيُّ في نفوس النَّاس.

هـ ـ إنَّ مشركي مكَّة لم يطمئنُّوا إلى كلام بُديلٍ الَّذي نقله إليهم؛ ذلك لأنَّهم يعلمون: أنَّ خُزاعة كانت عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله ﷺ، ويشعرون بودِّ خُزاعة للرَّسول ﷺ، والمسلمين[(٣)].

و ـ ويؤخذ من جواب رسول الله ﷺ لبُديل بن ورقاء حسنُ التلطُّف للوصول إلى الطَّاعات،

---

(١) أي: خاصَّته، وأصحاب سرِّه.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٣/ ٣٤٠)، والبداية والنِّهاية (غزوة الحديبية).

(٣) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٦٧.

وإن كانت غير واجبةٍ ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أجاب المشركين لمَّا طلبوا منه، ولم يُظهر لهم ما في النُّفوس من البغض، والكراهية لهم لطفاً منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فيما يؤمِّل مِنَ البلوغ إلى الطَّاعة؛ الَّتي خرج من أجلها[١].

٢ ـ سفارة عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ:

لم تقبل قريش ما نقله بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخُزاعيُّ عن رسول الله ﷺ؛ من أنَّه جاء زائراً للبيت، ولم يأتِ مقاتلاً، واتَّهمته، بل وأسمعتهم ما يكرهون، فاقترح عليهم عروةُ بن مسعودٍ الثَّقفي أن يقابل الرَّسول ﷺ، ويسمع منه، ثمَّ يأتيهم بالخبر اليقين[٢]، وقد ذكر ذلك البخاريُّ في صحيحه، فقال: ... فقام عروةُ بن مسعودٍ فقال: أيْ قومِ، ألستم بالوالدِ؟ قالوا: بلى! قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى! قال: فهل تتَّهموني؟ قالوا: لا! قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ[٣]، فلما بَلَّحُوا[٤] عليَّ جئتكم بأهلي، وولدي، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها، ودعوني آتِهِ، قالوا: ائته. فأتاه، فجعل يكلِّم النَّبي ﷺ، فقال النَّبيُّ ﷺ نَحْواً من قوله لبُدَيْلٍ، فقال عُرْوَةُ عند ذلك: أيْ محمَّدُ! أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنِّي والله لا أرى وجوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً[٥] من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ[٦] اللَّاتِ، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده! لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها؛ لأجبتُك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً نفسيَّة حتَّى يهزمهم معنويَّاً، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوَّة قريشٍ العسكريَّة، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريشٍ لا محالة، وذلك جدير بحدوث الفتنة، والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثِّقة بين القائد، وجنوده، عندما قال للنَّبي ﷺ: فإنِّي والله! لا أرى وجوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويدعوك.

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين، ولخدمة أهداف قريشٍ العسكريَّة،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨.
(٢) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٦٨.
(٣) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطَّائف يعقد كلَّ عام.
(٤) بلَّحوا عليَّ: أبوا، كأنَّهم أعيوا عن الخروج معه، وإعانته (أي: امتنعوا).
(٥) أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتَّى.
(٦) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

والإعلاميَّة ، وحاول ـ أيضاً ـ أن يفتعل أزمةً عسكريَّة كبيرةً بين النَّبيِّ ﷺ وجنوده من أجل التَّأثير على معنوياتهم ، وتحطيم عزائمهم ، وهذا من أقوى أساليب الحرب النَّفسية الَّتي استخدمت ضدَّ المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرُّعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوَّة قريش الَّتي لا تقهر ، وتصوير المعركة بأنَّها في غير صالحهم. لقد مارس عروةُ بن مسعودٍ في مفاوضاته عناصر الحرب النفسيَّة من إشاعةٍ، وافتعال الأزمات، وإثارة الرُّعب[١]، إلا أنَّ تلك العناصر تحطَّمت أمام الإيمان العميق ، والتَّكوين الدَّقيق ، والصَّفِّ الإسلاميِّ المرصوص.

ومن المفارقات الرَّائعة الَّتي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود، وهي من عجائب الأحداث الَّتي يستشفُّ منها الدَّليل القاطع على قوة الإيمان الَّتي كان يتمتَّع بها أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، وعلى قدرة هذا الدِّين من تحويل الإنسان من شيطانٍ مريدٍ إلى إنسان فاضلٍ نبيلٍ ، حيث كان أحد الذين يتولَّون حراسة النَّبيِّ ﷺ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثَّقفي في الحديبية هو المغيرة بن شُعبة[٢] ، ابن أخي عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابّاً فاتكاً سكِّيراً ، قاطعاً للطَّريق، غير أنَّ دخوله للإسلام حوَّله إلى إنسانٍ آخر ، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصَّفوة المؤمنة ، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النَّبيِّ ﷺ في ذلك الجو الملبَّد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهليَّـة في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الَّذي يراه ندّاً له أثناء الحديث ، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة ، الأمر الَّذي أغضب المغيرة بن شعبة؛ الَّذي كان قائماً على رأس رسول الله ﷺ بالسَّيف يحرسه ، وعلى وجهه المغفر ، فانتهر عمَّه ، وقرع يده بقائم السَّيف قائلاً له: اكفف يدك عن مسِّ لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصلَ إليك ، وكان النَّبيُّ ﷺ يبتسم لِلَّذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن.

ولمَّا كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربيِّ متوشحاً سيفه ، ودرعه ، وعلى وجهه المغفر؛ فإنَّ عمَّه عروة لم يكن باستطاعته معرفته ، فقال للنَّبيِّ ﷺ وهو في أشدِّ الغضب: ليت شعري من أنت يا محمَّد مِنْ هذا الَّذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله ﷺ : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، فقال له عمُّه: وأنت بذلك يا غُدَر؟! لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدَّهر ، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس ، كان المغيرة صحب قوماً في الجاهليَّة ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثمَّ جاء ، فأسلم ، فقال النَّبيُّ ﷺ : أمَّا الإسلام فأقبل ، وأمَّا المال فلست منه في شيءٍ.

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، ص ١٣١ ، ١٣٢.
(٢) أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان ، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم ، انظر: الإصابة (٣/ ٤٥٢).

لقد فشل عروة في مفاوضاته ، ورجع محذِّراً قريشاً من أن تدخل في صراعٍ مسلَّحٍ مع النَّبيِّ ﷺ ، وأصحابه ، وقال لهم: . . . يا قوم! إنِّي قد وفدت على الملوك: على كسرى ، وهرقل ، والنَّجاشي ، وإنِّي والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمَّد ، وأصحابه ، والله! ما يشدُّون إليه النَّظر ، وما يرفعون عنده الصَّوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمرٍ ، فيفعل ، وما يتنخَّمُ ، وما يبصق إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم يمسح بها جلده ، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُّهُم يظفر منه بشيءٍ .

وقد حزرت القوم ، واعلموا أنَّكم إن أردتم السَّيف؛ بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم؛ إذا منعوا صاحبهم. والله! لقد رأيت نسيات معه ، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حالٍ ، فَرَوا رأيكم ، وإيَّاكم وإضجاع[١] الرَّأي ، فمادُّوه يا قوم ، اقبلوا ما عرض ، فإنِّي لكم ناصحٌ مع أنِّي أخاف ألا تُنْصَروا عليه؛ رجلٌ أتى هذا البيت معظِّماً له ، معه الهدي ، ينحره ، وينصرف! فقالت قريش: لا تكلَّم بهذا يا أبا يعفور[٢]! لو غيرك تكلَّم بهذا؛ لَلُمْنَاهُ ، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا ، ويرجع قابل[٣] .

لقد انتقلت الحرب النَّفسيَّـة وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريشٍ ، وفي نفوسهم ، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقاً ، حيث بيَّن لقريشٍ وضع المسلمين في الحديبية ، من طاعتهم لنبيِّهم الكريم ، وحبِّهم له ، وتفانيهم بالدِّفاع عنه ، وبما يتمتَّعون به من معنوياتٍ عاليةٍ جدّاً ، واستعدادٍ عسكريٍّ ، ونفسيٍّ يفوق الوصف ، فكان ذلك بمثابة التَّحذير الفعليِّ لقريش بعدم التَّعجُّل ، والدُّخول في حربٍ مع النَّبيِّ ﷺ ، وأصحابه ، ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين ، الأمر الَّذي أُسقِطَ في أيدي زعمائها ، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور .

لقد كان وَقْعُ كلِّ كلمةٍ قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش ، لقد كان ﷺ موفقاً من قبل الله تعالى ، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في معسكر قريش ، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوَّة الحقِّ الصَّامدة ، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضدَّ النَّبيِّ ﷺ .

لقد نجح النَّبيُّ ﷺ بحكمته ، وذكائه نجاحاً عظيماً باستخدام الأساليب الإعلاميَّة ، والدبلوماسيَّة المتعدِّدة للحصول على الغاية المنشودة ، وهي تفتيت جبهة قريش الدَّاخلية ، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم ، وإبعاد حلفائهم عنهم ، وإنَّ هذه النتيجة لتعدُّ بحقٍّ نصراً ساحقاً

---

(١) إضجاع الرأي: أي: الوهن في الرأي.
(٢) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثَّقفي.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/٥٩٨).

حقَّقه رسول الله ﷺ على الجبهات السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والعسكريَّة[١] .

٣ ـ سفارة الحُلَيْسِ بن علقمة :

ثمَّ بعثوا الحُلَيْسَ بن علقمة الكِنانيَّ سيِّد الأحابيش ، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال : «إنَّ هذا من قوم يتألَّهون ، فابعثوا الهدي في وجهه حتَّى يراه» ، وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية ، فلمَّا رأى الحُلَيْسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريشٍ قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ ، وذلك إعظاماً لما رأى[٢] ، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه ، ولا مرعى ، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس عن مَحِلِّه ، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية ، وهم في زيِّ الإحرام ، وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم . . . ولذلك استنكر تصرُّف قريشٍ بشدَّةٍ ، وانصرف سيِّد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النَّبيَّ ﷺ بشيءٍ ، أو أن يفاوضه ، كما كان مقرَّراً من قبل ، واعتبر عمل قريش عدوانيّاً ضدَّ زوَّار بيت الله الحرام ، ولا يجوز لأحدٍ أن يؤيِّدها ، أو أن يناصرها على ذلك[٣] ، فرجع محتجّاً على قريشٍ الَّتي أعلنت غضبها لصراحة الحُلَيْس ، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الَّذي يهدِّد بانقسامٍ خطير في جبهة قريشٍ العسكريَّة ، ونسف الحلف المعقود بين قريش ، والأحابيش ، وقالوا لزعيم الأحابيش : إنَّما كلُّ ما رأيت هو مكيدةٌ من محمَّدٍ ، وأصحابه ، فاكفف عنَّا حتَّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[٤] .

لقد كان النَّبيُّ ﷺ عالماً ، ومستوعباً لشخصية الحُلَيْس ، ونفسيَّته ، ويظهر ذلك في قوله ﷺ : «هذا من قوم يتألَّهون» ، فالواضح من هذه المعلومة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان على معرفةٍ تامَّةٍ بهذا الرَّجل ، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسةً موضوعيَّةً ، وذلك بما كان عنده من حبٍّ شديدٍ من التعظيم للحرمات ، والمقدَّسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة ، وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطَّةٍ مُحْكَمةٍ مناسبةٍ تقضي بوضع الحقائق كاملةً أمام هذا الرَّجل ، وإظهار موقف المسلمين ، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع .

والجدير بالذِّكر : أنَّ الحُلَيْسَ كان يتمتَّع بسمعةٍ طيِّبةٍ بين العرب جميعاً؛ وذلك لما يتميَّز به من رجاحة العقل ، ولما يتمتَّع به من مركزٍ ممتازٍ بوصفه زعيماً ، وقائداً لقوات الأحابيش ، كما كان يتمتَّع باحترامٍ وتقديرٍ من جانب النَّبيِّ ﷺ وقريشٍ على حدٍّ سواء ، لهذا فإنَّه إذا ما تبيَّن له أنَّ

---

(١) انظر : منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١٤٥ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٨ .
(٣) انظر : منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ١٠٨ .
(٤) الواقدي ، المغازي (٢/ ٦٠٠) .

الحقَّ، والعدل في جانب المسلمين؛ فإنَّه يستطيع أن يقوم بدورٍ مهمٍّ في إحلال السَّلام بين الطَّرفين المتنازعين، والعمل على كبح جماح قريش، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائيِّ ضدَّ المسلمين، وصدِّهم عن المسجد الحرام. ومن هنا فقد كانت الدِّراسة النَّفسيَّة التي قام بها رسول الله ﷺ لشخصيَّة الحُلَيْس تتناسب كلِّيّاً مع المبادئ الَّتي يؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العمليَّة إيجابيةً تماماً[١]، ومرضيةً.

وهكذا استطاع ﷺ أن يؤثِّر على عروة بن مسعود، والحُلَيْس بن علقمة ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في صفوف مشركي مكَّة. يقول الأستاذ العقَّاد عن قدرة الرَّسول ﷺ في توظيف الطَّاقات، وإدارة الصِّراع: كان رسول الله ﷺ الخبير بتجنيد بعوث الحرب، وبعوث الاستطلاع، خبيراً كذلك بتجنيد كلِّ قوَّةٍ في يده متى وجب القتال، إن كانت قوَّة رأيٍ، أو قوَّة لسانٍ، أو قوَّة نفوذٍ، فما نعرف أنَّ أحداً وجَّه قوَّة الدَّعوة توجيهاً أشدَّ، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه ﷺ. ثمَّ يضيف الكاتب قائلاً: والدَّعوة في الحرب ـ كما لا يخفى ـ لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة:

أحدهما: إقناع خصمك والنَّاس بحقِّك.

وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه، وإيقاع الشَّتات بين صفوفه. ثمَّ يقول: وربما بلغ النَّبيُّ ﷺ برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدُّول بالفِرَق المنظَّمة[٢].

٤ ـ سفارة مِكْرَز بن حَفْصٍ:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مِكْرَزُ بن حفصٍ، وقد روى البخاريُّ ذلك فقال: . . . فقام رجلٌ منهم، يقال له: مِكْرَز بن حفصٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: هذا مكرز، وهو رجلٌ فاجر، فجعل يُكلِّمُ النَّبيَّ ﷺ، فبينما هو يكلِّمه إذ جاء سُهَيْلُ بن عمرو، قال مَعْمَر: فأخبرني أيُّوب عن عكرمة: أنَّه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النَّبيُّ ﷺ: «قد سَهُلَ لكم من أمركم» ولنا حديثٌ مع سهيلٍ بإذن الله تعالى.

سادساً: الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ من الضَّرورة إرسال مبعوثٍ خاصٍّ من جانبه إلى قريشٍ يبلِّغهم فيها نواياه السِّلميَّة بعدم الرَّغبة في القتال، واحترام المقدَّسات، ومن ثَمَّ أداء مناسك العمرة، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرَّسول ﷺ إلى قريش (خِراشَ بن أُميَّة الخُزاعيَّ)، وحمله على جملٍ يقال له: (الثَّعلب)، فلمَّا دخل مكَّة عقرت به قريش، وأرادوا

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية، ص ١١١.
(٢) انظر: عبقرية محمَّد ﷺ، ص ٤٩.

قتل خِرَاش ، فمنعهم الأحابيش ، فعاد خِراش بن أميَّة إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره بما صنعت قريش ، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر لتبليغ قريشٍ رسالة رسول الله ﷺ ، ووقع اختيار الرَّسول ﷺ في بداية الأمر على عمر بن الخطَّاب[١] ، فاعتذر لرسول الله ﷺ عن الذَّهاب إليهم ، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه[٢] ، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معزَّزاً بالحجَّة الواضحة ، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء؛ وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحقِّقاً بالنِّسبة لعمر رضي الله عنه؛ فقد أشار على النَّبيِّ ﷺ بعثمان رضي الله عنه؛ لأنَّ له قبيلةً تحميه من أذى المشركين حتَّى يبلِّغ رسالة رسول الله ﷺ[٢] ، وقال لرسول الله ﷺ : إنِّي أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفَتْ عداوتي لها ، وليس بها من بني عديٍّ مَنْ يمنعني ، وإن أحببت يا رسول الله! دخلت عليهم[٢] ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً. قال عمر: ولكن أدلُّك يا رسول الله! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة منِّي ، وأكثر عشيرةً ، وأمنع: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه ، فقال: اذهب إلى قريشٍ فخبرهم ، أنَّا لم نأتِ لقتال أحدٍ ، وإنما جئنا زوَّاراً لهذا البيت ، معظِّمين لحرمته ، معنا الهديُ ، ننحرُه ، وننصرف ، فخرج عثمان بن عفَّان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح[٣] ، فوجد قريشاً هنالك ، فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله ﷺ إليكم ، يدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، تدخلون في الدِّين كافَّةً ، فإنَّ الله مظهرٌ دينه ، ومعزٌّ نبيه ، وأخرى: تكفُّون ، ويلي هذا منه غيرُكم ، فإن ظفروا بمحمَّدٍ؛ فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمَّدٌ؛ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النَّاس ، أو تقاتلوا؛ وأنتم وافرون جامُّون ، إنَّ الحرب قد نهكتكم ، وأذهبت بالأماثل منكم . . . . . فجعل عثمان يكلِّمهم ، فيأتيهم بما لا يريدون ، ويقولون: قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عَنْوَةً ، فارجع إلى صاحبك ، فأخبره أنَّه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحَّب به ، وأجاره ، وقال: لا تقصر عن حاجتك ، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه ، فحمل عثمان على السَّرج ، وردفه وراءه ، فدخل عثمان مكَّة ، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً: أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وغيرهما ، منهم من لقي ببلدح ، ومنهم من لقي بمكَّة ، فجعلوا يردُّون عليه: إن محمَّداً لا يدخلها علينا أبداً[٤].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٣.
(٢) انظر: المغازي ، للواقديِّ (٢/ ٦٠٠).
(٣) مكانٌ قريبٌ من مكَّة.
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٤).

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى[(١)] ، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكَّة وبشَّرهم بقرب الفرج ، والمخرج[(٢)] ، وأخذ منهم رسالةً شفهيَّة إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السَّلام ، إنَّ الَّذي أنزله بالحديبية لقادرٌ على أن يدخله بطن مكَّة[(٣)] .

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصُّلح ، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر ، وكانت معركةٌ ، وترامَوا بالنَّبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كلُّ واحدٍ من الفريقين بمن فيهم[(٤)] ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن ذلك ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وقد روى مسلم سبب نزول الآية السابقة: أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكَّة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين ، يريدون غِرَّة[(٥)] النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ، فأخذهم سِلْماً[(٦)] ، فاستحياهم[(٧)] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الآية المذكورة. [مسلم (١٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٢) ، وأبو داود (٢٦٨٨) ، والترمذي (٣٢٦٤)].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدِّثنا عمَّا حدث قال: ثمَّ إنَّ المشركين راسلونا الصُّلح ، حتَّى مشى بعضنا في بعضٍ ، واصطلحنا ، قال: وكنت تبيعاً[(٨)] لطلحة بن عبيد الله ، أسقي فرسه ، وأحسُّه[(٩)] ، وأخدمه ، وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلمَّا اصطلحنا نحن وأهل مكَّة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرةً فكسحت شوكها[(١٠)] ، فاضطجعت في أصلها ، قال: فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكَّة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضتُهم ، فتحوَّلت إلى شجرةٍ أخرى ، وعلَّقوا سلاحهم ، واضطجعوا ، فبينما هم كذلك؛ إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زُنَيْمٍ! قال: فاخترطت

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٣) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٥.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٥) (غِرَّة) الغرَّة: هي الغفلة: أي: يريدون غفلته. (شرح النَّووي ١٢/ ١٨٧).
(٦) سلماً: المراد به الاستسلام والإذعان. (شرح النَّووي ١٢/ ١٨٧).
(٧) فاستحياهم: فاستبقاهم. (المفردات للراغب ، ص ١٤٠).
(٨) تبيعاً: خادماً أتبعه. (شرح النووي ١٢/ ١٧٦).
(٩) وأحسه: أي احك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار، وانظر: (شرح مسلم، النووي ١٢/ ١٧٦).
(١٠) فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك، وانظر: (شرح مسلم ، النووي ١٢/ ١٧٦).

سيفي[١] ثمَّ شددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضِغْثاً[٢] في يدي . قال: ثمَّ قلت: والَّذي كرَّم وجه محمَّد! ما يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربت الَّذي فيه عيناه[٣] ، قال: ثمَّ جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ . قال: وجاء عمِّي عامرٌ برجلٍ من العَبْلاتِ[٤] يقال له: مِكْرَزٌ ، يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرسٍ مُجَفَّفٍ[٥] في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: «دعوهم ، يكن لهم بدء الفُجُور وثِنَاه»[٦] فعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٧)].

قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفَّ أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوءٌ ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرٌ للمؤمنين ، وعافيةٌ في الدُّنيا ، والآخرة[٧] .

والكفُّ: منع الفاعل من فعلٍ أراده ، أو شرع فيه ، وهو مشتقٌّ من اسم الكفِّ الَّتي هي اليد؛ لأنَّ أصل المنع أن يكون دفعاً باليد ، ويقال: كفَّ يده عن كذا: إذا منعه من تناوله بيده[٨] .

وقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ قال الرَّاغب: البطن خلاف الظَّهر في كلِّ شيءٍ ، ويقال للجهة السُّفلى: بطنٌ ، وللجهة العُليا: ظهرٌ[٩] .

وجمهور المفسِّرين حملوا بطن مكَّة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان ، والحديبية قريبةٌ من مكَّة وهي إلى مكَّة أقرب ، وهي من الحلِّ ، وبعض أرضها من الحرم ، وهي على الطَّريق بين مكَّة وجُدَّة ، وهي إلى مكَّة أقرب[١٠] .

وختم الآية سبحانه بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] هذه

---

(١) فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم ، النووي ١٢/ ١٧٦).
(٢) ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم ، النووي ١٢/ ١٧٦).
(٣) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
(٤) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد. (شرح مسلم النووي ، ١٢/ ١٧٧).
(٥) مجفَّف: أي: عليه تجفاف ، وهو ثوب كالجلِّ يلبسه الفرس ليقيه من السِّلاح.
(٦) (وثناه): أي: عودة ثانية (شرح مسلم ، للنَّوويِّ ١٢/ ١٧٦).
(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).
(٨) انظر: التَّحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٨).
(٩) انظر: المفردات ، للرَّاغب ، ص ٥١.
(١٠) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٦/ ١٨٤).

إشارةٌ إلى أنَّ كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين؛ إذ منُّوا على العدوِّ بعد التمكُّن منه[(١)].

سابعاً: بيعة الرِّضوان:

لمَّا بلغ النَّبيَّ ﷺ: أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قُتِل دعا رسولُ الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين، ومناجزتهم، فاستجاب الصَّحابة، وبايعوه على الموت [البخاري (٤١٦٩)، ومسلم (١٨٦٠)]، سوى الجَدِّ بن قَيس، وذلك لنفاقه[(٢)]. وفي روايةٍ: أنَّ البيعة كانت على الصَّبر[(٣)]. وفي روايةٍ على عدم الفرار [مسلم (١٨٥٦)، وأحمد (٣/٣٩٦)، والترمذي (١٥٩٤)، والنسائي (٧/ ١٤٠ و١٤١)] ولا تعارض في ذلك؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني: الصَّبر، وعدم الفرار[(٤)].

وكان أوَّل مَنْ بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسديُّ[(٥)]، فخرج النَّاس بعده يبايعون على بيعته[(٦)]، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرَّاتٍ، في أوَّل النَّاس، وأوسطهم، وآخرهم[(٧)]، وقال النَّبيُّ ﷺ بيده اليمنى: «هذه عن عثمان» فضرب بها على يده. [البخاري (٣٦٩٨)، والترمذي (٣٧٠٦)، وأحمد (١/ ١٠١ و١٢٠)].

وكان عددُ الصَّحابة الَّذين أخذ منهم الرَّسول ﷺ المبايعة تحت الشجرة ألفاً وأربعمئة صحابيٍّ[(٨)]، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرِّضوان، وورد فضلُهم في نصوصٍ كثيرةٍ من الآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة؛ منها:

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وهذه الآية فيها ثناءٌ، ومدحٌ عظيمٌ لأهل بيعة الرِّضوان؛ فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله ﷺ مبايعةً له، وفي هذا غاية التَّشريف، والتَّكريم لهم رضي الله عنهم[(٩)].

قال ابن القيِّم: وتأمَّل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٢٣٠).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٨٦.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٧) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٤٠٤.
(٨) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٨٢.
(٩) انظر: عقيدة أهل السنَّة في الصَّحابة، د. ناصر حسن الشَّيخ (١/ ٢٠٥).

فلمَّا كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله ﷺ هو السَّفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وفوق الخلائق كلِّهم كانت يده فوق أيديهم ، كما أنَّه سبحانه فوقهم(١).

ومعنى قوله في الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً وهو الجنَّة ، وما يكون فيها ممَّا لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ(٢).

٢ ـ وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

فقد أخبر الله تعالى أنَّه رضي عن أولئك الصَّفوة الأخيار من أهل بيعة الرِّضوان ، ومَنْ رضي الله عنه لا يسخط عليه أبداً ، فَلِلَّهِ ما أعظم هذا التكريم الذي ناله أهل بيعة الرضوان ، وما أعلاه من مَنْقَبَةٍ! ومعنى الآية: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لقد رضي الله يا محمد! عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله ﷺ بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريشٍ الحرب ، وعلى ألاَّ يفرُّوا ، ولا يولُّوهم الأدبار تحت الشَّجرة ، وكانت بيعتهم إيَّاه هنالك تحت شجرة السَّمُرة ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فعلم ربك يا محمد! ما في قلوب المؤمنين من أصحابك؛ إذ يبايعونك تحت الشَّجرة من صدق النِّيَّة ، والوفاء بما يبايعونك عليه ، والصبر ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فأنزل الطمأنينة والثَّبات على ما هم عليه من دينهم ، وحسن بصيرتهم بالحقِّ الَّذي هداهم الله له ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر ، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي: وأثاب الله هؤلاء الَّذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشَّجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم ، وإنزاله السَّكينة عليهم ، وإثابته إيَّاهم فتحاً قريباً ، وهو ما أجرى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أيديهم من الصُّلح بينهم ، وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتَّصل بفتح خيبر ، وفتح مكَّة ، ثمَّ فتح سائر البلاد ، والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العزِّ ، والنَّصر ، والرِّفعة في الدُّنيا ، والآخرة(٣) ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٣ ـ أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرِّضوان: أنَّه ألزمهم كلمة التَّقوى ، الَّتي هي كلمة التَّوحيد ، وأنَّهم كانوا أحقَّ بها وأهلها. قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ

---

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧٢).
(٢) انظر: روح المعاني ، للآلوسي (٢٦/ ٩٧).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٨٥ ـ ٨٦) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ١٧٨).

حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

فلقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية: أنَّه ألزم الصَّحابة رضي الله عنهم كلمة التَّقوى، وأكثر المفسرين على أنَّ المراد بكلمة التَّقوى هي: (لا إله إلا الله)، وبيَّن أنَّهم أحقُّ بها من كفَّار قريش، وأنَّهم كانوا أهلها في علم الله؛ لأنَّ الله تعالى اختار لدينه، وصحبة نبيِّه ﷺ أهل الخير(١). ذلك هو الثَّناء في القرآن على الصَّحابة الَّذين بايعوا النَّبيَّ ﷺ بيعة الرِّضوان بالحديبية، وقد ورد الثَّناء عليهم في السُّنَّة المطهَّرة في أحاديث كثيرةٍ، ومن ذلك ما يلي:

أ ـ مِنْ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسولُ الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهل الأرض»، وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنت أبصر؛ لأريتكم موضع الشَّجرة. [البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦/ ٧١)].

هذا الحديث صريحٌ في فضل أصحاب الشَّجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعةٌ بمكَّة، وبالمدينة، وبغيرهما، وتمسَّك به بعض الشِّيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان؛ لأنَّ عليّاً كان من جملة من خوطب بذلك، وممَّن بايع تحت الشَّجرة، وكان عثمان حينئذٍ غائباً، وهذا التمسُّك باطلٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ بايع عنه، فاستوى معهم عثمان في الخيريَّة المذكورة، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعضٍ(٢).

ب ـ وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أخبرتني أمُّ مبشِّر: أنَّها سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النَّبيُّ ﷺ: «قد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢]». [أحمد (٦/ ٢٨٥)، ومسلم (٢٤٩٦)، وابن ماجه (٤٢٨١)].

قال النَّوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قوله ﷺ: «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها». قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحدٌ منهم قطعاً. . . . وإنَّما قال: إن شاء الله للتبرُّك، لا للشكِّ. وأمَّا قول حفصة: بلى! وانتهار النَّبيِّ ﷺ لها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النَّبيُّ ﷺ: «وقد قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾» فيه دليلٌ للمناظرة، والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصودُ حفصة لا أنَّها أرادت ردَّ مقالته ﷺ. والصَّحيح:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٠٣ ـ ١٠٦).
(٢) فتح الباري (٧/ ٤٤٣).

أنَّ المراد بالورود في الآية: المرور على الصِّراط، وهو جسرٌ منصوبٌ على جهنَّم، فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون[(١)].

ج ـ وروى الإمامُ مسلم بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من يصعد الثَّنيَّة ثنيةَ المُرَارِ[(٢)]، فإنَّه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل». قال: فكان أوَّل مَنْ صعدها خيلنا؛ خيلُ بني الخزرج، ثمَّ تتامَّ النَّاس، فقال رسول الله ﷺ: «كلُّكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر». فأتيناه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله! لأن أجد ضالَّتي أحبُّ إليَّ من أن يستغفر لي صاحبُكم، قال: وكان رجلاً ينشد ضالةً له. [مسلم (٢٧٨٠/ ١٢)].

وهذا الحديث تضمَّن فضيلةً عظيمةً لأصحاب الحديبية رضي الله عنهم، وتلك الفضيلة مغفرةُ الله لهم، وأكرمْ بها مِنْ فضيلة منحهم إيَّاها الرَّبُّ ـ جل وعلا ـ لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله، والرَّسول ﷺ بالسَّمع، والطَّاعة![(٣)].

إنَّ جيل الحديبية له سماتٌ كما في النُّصوص الصَّحيحة، فهم خير أهل الأرض، وغفر الله لهم، ولا يدخل منهم أحدٌ النَّار، وهذا الجيل مكوَّنٌ من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار من أهل بدرٍ، ومن صلَّى القبلتين، ومن التحق بهم من الَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ.

وحين نُمعن النَّظر في هذا الجيل الفريد مقارنةً مع أهل بدرٍ؛ نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النِّصف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين في بدرٍ إلى ثمانمئة، كان معظمه من القبائل العربيَّة المجاورة، وهي قبائل صغيرةٌ؛ إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكنَّ شبابها كانوا يغدون إلى المدينة، ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقَّون التَّربية اليوميَّة في المسجد، والتَّربيَّة العملية في المعارك، والغزوات، فيتدرَّبون على الجنديَّة الخالصة، ويفقهون دينهم مباشرةً من رسول ربِّ العالمين ﷺ، وينشؤون في ظلال القدوة العُليا لهم من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار، ويتنافسون في الطَّاعة، والامتثال لأمر الله، ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكُبرى؛ الَّتي تخاذلت في الانضمام للإسلام، فقبيلة أسلم، وغفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضل ـ بعد الله ـ في ذلك إلى الرَّعيل الأوَّل منهم، واللبنات الأولى الَّتي انضمَّت إلى الدَّعوة، إلى أبي ذرٍّ الغفاريِّ، الَّذي كان من السَّابقين في إسلامه بمكَّـة، ومضى داعياً في قومه حتَّى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤمُّ بهم المدينة بعد أحدٍ، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلميِّ، الَّذي تلقَّى

---

(١) شرح النَّووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٥).
(٢) ثنية المُرَار: مهبط الحديبية والمُرار.
(٣) انظر: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ٢١٢).

رسولَ الله ﷺ قبل دخوله المدينة ، فأسلم ، ومعه سبعون من قومه كذلك[١] .

أمَّا القبائل الأخرى من مُزينة ، وجُهينةَ ، وأَشْجَع ، وخُزاعةَ ؛ فقد بدأ شبابُها يفدون إلى المدينة ، لكن بأعدادٍ ضئيلةٍ ، وبقي كيان القبيلة على الشِّرك ، وبقي أعرابيّاً بعيداً عن محضن التَّربية العظيم داخل المدينة ، فلم يُتَح له هذا الفضل ، والاغتراف من رحيق النُّبوَّة ، ولهذا كانت الآيات الَّتي نزلت في المخلَّفين من الأعراب كالصَّواعق على رؤوسهم ؛ لتخلُّفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلاميِّ الماضي إلى الحديبية[٢] .

* * *

(١) انظر : التربية القياديَّة (٤/ ٢١٤) .

(٢) التربية القيادية (٤/ ٢١٦) .

المبحث الثَّاني
صلح الحديبية[١] وما ترتَّب عليه مِنْ أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله ﷺ:

لمَّا بلغ قريشاً أمر بيعة الرِّضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرَّسول ﷺ على القتال؛ أوفدوا سهيل بن عمرو في نفرٍ من رجالهم لمفاوضة النَّبيِّ ﷺ[٢]، ولمَّا رأى رسول الله ﷺ سهيلاً؛ قال: لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرَّجل[٣].

كان سهيل بن عمرٍو أحدَ زعماء قريشٍ البارزين الَّذين كانوا يُعْرَفون بالحنكة السِّياسيَّة، والدَّهاء، فهو خطيبٌ ماهرٌ، ذو عقلٍ راجحٍ، ورزانةٍ، وأصالةٍ في الرَّأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وقد استعرض الفريقان النُّقاط الَّتي يجب أن تتضمَّنها معاهدة الصُّلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا الَّتي كانت تشكِّل مثار الخلاف بينهما، هذا وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النُّقاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طال البحث، والجدل، والأخذ والرَّدُّ حول هذه البنود، وبعد المراجعات، والمفاوضات تقاربت وجهات النَّظر بين الفريقين.

وعند الشُّروع في وضع الصِّيغة النِّهائية للمعاهدة، وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميّاً حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقيَّة، فعندما شرع النَّبيُّ ﷺ في إملاء صيغة المعاهدة المتَّفق عليها؛ أمر الكاتب، وهو الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم»، وهنا اعترض رئيس الوفدِ القرشيِّ سهيلُ بن عمرٍو قائلاً: لا أعرف الرَّحمٰن! اكتب: «باسمك اللَّهُمَّ»، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرَّحمٰن، ولا نكتب إلا الرَّحمٰن، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ تمشياً مع سياسة

---

(١) ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٧٥٥).
(٢) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، ص ٣٣٩، ٣٤٠.
(٣) انظر: مغازي الواقديِّ (٢/ ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٥).

الحكمة ، والمرونة ، والحلم ، قال للكاتب : «اكتب : باسمك اللَّهُمَّ»[١] ، واستمرَّ في إملاء صيغة المعاهدة هذه ، فأمر الكاتب أن يكتب : «هذا ما اصطلح عليه رسول الله» ، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشيِّ على كلمة (رسول الله) قائلاً : لو أعلم أنَّك رسولُ الله ما خالفتُك ، واتَّبعتُك ، أفترغب عن اسمك ، واسم أبيك محمَّد بن عبد الله؟! اكتب اسمك ، واسم أبيك[١] .

واعترض المسلمون على ذلك ، ولكن رسول الله ﷺ بحكمته ، وتسامحه ، وبُعْدِ نظره حسم الخلاف ، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة ، فالتزم الصَّحابة الصَّمت ، والهدوء .

إنَّ النَّبيَّ ﷺ وافق المشركين على ترك كتابة «بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم» وكتابة « باسمك اللَّهم» بدلاً عنها ، وكذا وافقهم على كتابة «محمَّد بن عبد الله» وترك كتابة «رسول الله ﷺ » ، وكذا وافقهم على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم ، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمَّة الحاصلة بالصُّلح ، مع أنَّه لا مفسدة في هذه الأمور ، أمَّا البسملة ، وباسمك اللَّهمَّ فمعناهما واحدٌ ، وكذا قوله «محمَّد بن عبد الله» هو أيضاً رسولُ الله ﷺ ، وليس في ترك وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا الموضع بالرَّحمن الرَّحيم ما ينفي ذلك ، ولا في ترك وصف النَّبي ﷺ بالرِّسالة ما ينفيها ، فلا ضرر ، ولا مفسدة فيما طلبوه ، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلُّ من تعظيم آلهتهم ، ونحو ذلك .

وأمَّا شرط ردِّ مَنْ جاء منهم ، وعدم ردِّ من ذهب إليهم ، فقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ تعليل ذلك ، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله : «مَنْ ذهب منَّا إليهم فأبعده الله! ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ، ومخرجاً» ، ثمَّ كان كما قال ﷺ . [سبق تخريجه][٢].

وتمَّ عقد هذه المعاهدة، وكانت صياغتُها من عشرة بنود جاءت على الشَّكل التَّالي :

١ ـ باسمك اللَّهم .

٢ ـ هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

٣ ـ واصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ .

٤ ـ على أنَّه مَنْ قدم مكَّة من أصحاب محمَّد حاجاً ، أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله ؛ فهو

---

(١) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٦١٠) .

(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٣٤٢) .

آمنٌ على دمه ، وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر ، أو إلى الشَّام ، يبتغي من فضل الله ؛ فهو آمنٌ على دمه ، وماله .

٥ ـ على أنَّه مَنْ أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ؛ ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمَّد ، لم يردُّوه عليه .

٦ ـ وأنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً ، وأنَّه لا إسلال ، ولا إغلال[1] .

٧ ـ وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عَقْدِ محمَّدٍ ، وعهده دخله ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريشٍ ، وعهدهم دخل فيه . (فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن في عقد محمَّد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريشٍ ، وعهدهم) .

٨ ـ وأنت ترجع عنَّا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكَّة ، وأنَّه إذا كان عام قابلٍ خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاحُ الرَّاكب ، السُّيوف في القُرُب ، ولا تدخلها بغيرها .

٩ ـ وعلى أنَّ هذا الهَدْيَ وما جئتنا به ؛ فلا تقدمه علينا .

١٠ ـ وشهد على الصُّلح رجالٌ من المسلمين ، ورجالٌ من المشركين :

فمن المسلمين: أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقَّاص ، ومحمَّد بن مسلمة ، وعليُّ بن أبي طالبٍ كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين .

ومن المشركين : مِكْرَزَ بن حفص ، وسهيل بن عمرو[2] .

تُعَدُّ هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلاميَّة ، وأنموذجاً فريداً للمعاهدات الدَّوليَّة بما سبقها من مفاوضاتٍ ، وما حوته مِنْ شروطٍ ، وما تمثَّل بها من خلق النَّبيِّ ﷺ في النُّزول عند رضا الطَّرف الآخر ، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام . هذه المعاهدة سبقها مفاوضاتٌ من قبل المشركين ، والمسلمين ، وفشل بعض الممثِّلين في الوصول إلى اتفاق ، ودارت مشاوراتٌ شتَّى من الجانبين قبل الوصول إليه ، حتَّى توصل الفريقان إلى اتفاقٍ عن طريق ممثِّل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله ﷺ على ملأ المسلمين .

---

(١) العيبة هنا مثلٌ : والمعنى : أنَّ بيننا صدوراً سليمةً في المحافظة على العهد ؛ الَّذي عقدناه بيننا ، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره بالعيبة التي هي وعاءٌ من جلدٍ تُصان فيه الثياب . وقوله : لا إسلال ، ولا إغلال : تعني : الإسلال من السَّلَّة ، وهي السَّرقة ، والإغلال أي : الخيانة والمعنى العام : أن بعضنا يأمن بعضاً على نفسه ، وماله ، فلا يتعرَّض لدمه ، ولا لماله .

(٢) انظر : المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي ، د. محمد الدِّيك ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الَّذي كان فيه المسلمون بمركز القوَّة ، لا الضَّعف ، وكان باستطاعتهم ألاَّ يقبلوا شروطها الَّتي اغتاظ منها كثيرٌ من الصَّحابة ، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ الَّذي لا ينطق عن الهوى ، وقد تمادى رسول قريشٍ على رسول الله ﷺ في مفاوضته ، وكان فرداً بين جيش المسلمين ، فلم ينله أذىً ، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل ؛ «لأنَّ السُّفراء لا تُقتل» ، ولكنَّ رسول الله ﷺ يرضيه ، ويسعه بالحلم ، واللِّين ، حتَّى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام ، وهي حقن الدِّماء ، وإحلال السَّلام ، ورجاء أن يعقل القوم الحقَّ ، وأن يراجعوا المواقف ، ويسمعوا كلام الله[1] ، وتدخل الدَّعوة الإسلاميَّة طوراً جديداً بصورٍ أخرى في الانتشار والاتِّصال بالنَّاس ، وعندما نتأمَّل نصوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي :

١ ـ أنَّ ديباجة المعاهدات الإسلاميَّة كانت تبدأ باسم الله ، أو باسمك اللّهمَّ ، والقانون الدَّولي في صياغة المعاهدات يقول : «تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتَّفق عليها طرفا التَّعاقد» .

والَّذي يجب أن نلاحظه : أنَّ المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله تعالى ؛ الَّذي تبدأ باسمه سبحانه ، حيث هو الرَّقيب ، والحسيب على ما في النَّوايا والقلوب ، واسم الله مقدَّسٌ في كلِّ قلبٍ يؤمن به ، حتَّى أولئك الذين فسدت عقائدُهم ، فإنَّهم لا ينكرون الله ، ولكنَّهم أفسدوا تصوُّرهم لذات الله ، وقد جرت أعراف بعض الَّذين يستهوون قلوب العامَّة بالشِّعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله : باسم الشَّعب ، أو باسم الأمَّة ، باعتبار قدسيَّة ما يبدؤون به كما يزعمون ، ولكنَّ الَّذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده ، ولذلك كانت البداية «باسمك اللّهمَّ» .

٢ ـ ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الدِّيباجة) كما يسمِّيها القانون الدَّوليُّ ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام من أنَّه يذكر بعد الدِّيباجة أسماء الممثِّلين ، أو الدُّول الَّتي هي أطراف في عقد المعاهدة .

٣ ـ بواعث المعاهدة : فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّلح لأجل وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعضٍ ، وهذا ما عليه القانون الدَّولي العام كذلك .

٤ ـ الدُّخول في صلب المعاهدة ، وشروطها ، حيث ذكر رسول الله ﷺ في هذه المعاهدة الشُّروط المتَّفق عليها بين الطَّرفين ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام .

٥ ـ في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدَّولة الإسلاميَّة) بطلب صلح العدو

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقَّف ذلك على أن يكون ابتداء الطَّلب منهم[(١)] .

٦ ـ أنَّ مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزٌ للمصلحة الرَّاجحة ، ودفع ما هو شرٌّ منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[(٢)] .

٧ ـ أنَّ صلح الحديبية سمَّاه الله فتحاً؛ لأنَّ الفتح في اللُّغة هو فتح المغلق ، والصُّلح الَّذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله ، والصُّلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطَّرف الآخر .

لقد كانت الصُّورة الظَّاهرة في شروط الحديبية فيها ضيمٌ للمسلمين ، وهي في باطنها عزٌّ ، وفتحٌ ، ونصرٌ ، حيث كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء سترٍ رقيقٍ ، وكان يعطي المشركين كلَّ ما سألوه من الشُّروط الَّتي لم يحتملها أكثر أصحابه ، ورؤوسهم ، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوبٍ[(٣)] .

٨ ـ إنَّ المعاهدة قد تكون مفتوحةً لمن يحبُّ أن يدخل فيها من الأطراف ، أو الدُّول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ؛ حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحةً لمن يحبُّ الدُّخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة ، وكنانة في الصُّلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والَّتي امتدَّت سنواتٍ عديدةً[(٤)] .

٩ ـ إنَّ المعاهدة لابدَّ لها من توقيع الأطراف ، والإشهاد عليها ، وتوقيع رسول الله ﷺ وإشهاد أصحابه إنَّما هو بمثابة التَّوقيع على المعاهدة ، والتَّصديق عليها ، كما هو في القانون الدَّوليِّ العامِّ .

١٠ ـ إنَّ المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً ، أو طرفاً يقرِّب بين وجهات النَّظر ، كوساطة سيد الأحابيش (الحُلَيْس بن عَلْقَمَةَ) حليف قريش الأكبر ، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين ، وكان الحُلَيْسُ ذا عقلٍ راجحٍ ، وبصيرةٍ نافذةٍ ، وكان سيِّداً مطاعاً ، وكان رسول الله ﷺ يعرفه ، ويعرف فيه التألُّه الشَّديد ، والتَّعظيم للحرم .

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ، ولما يتمتَّع به من تقديرٍ لدى النَّبيِّ ﷺ تأثيرٌ على الرَّسول ﷺ وأصحابه[(٥)] .

---

(١) انظر : زاد المعاد ، لابن القيِّم (٣/ ٣٠٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٠٦) .

(٣) انظر المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٢ .

(٤) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٨٠ .

(٥) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

وهذا ما يقرُّه القانون الدَّوليُّ؛ حيث إنَّ المعاهدة قد تعقد بوساطة دولةٍ أخرى ليست طرفاً في النِّزاع ، أو أحد المبعوثين الَّذين لا علاقة لهم ، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١ ـ إن المعاهدة تُعَدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة ، وشروطها ، حتَّى لو لم تكتب ، ولو لم يوقِّع عليها الطَّرفان ، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الَّذي ردَّه الرَّسول ﷺ بموجب قبوله عليه السَّلام بالبند الخامس من المعاهدة ، والَّذي يقول: «على أنَّه من أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم...» ، فمنذ أعلن رسول الله ﷺ التزامه بهذا الشَّرط أجراه ، ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ، ولم يوقِّع عليها الطرفان.

١٢ ـ إنَّ المعاهدة تُكتب من نسختين ، ويأخذ كلُّ طرفٍ نسخةً طِبْقَ الأصل من المعاهدة؛ حيث إنَّه بعد أن تمَّت إجراءات الصُّلح النِّهائية في الحديبية؛ أخذ كلٌّ من الفريقين نسخةً من وثيقة الصُّلح التَّاريخيَّة ، وانصرف الوفد القرشيُّ راجعاً إلى مكَّة[١].

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إنَّ من أبلغ دروس صلح الحديبية درسَ الوفاء بالعهد ، والتَّقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات؛ الَّتي يقطعها المسلم على نفسه ، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثلٍ في التَّاريخ القديم ، والحديث لاحترام كلمةٍ لم تكتب ، واحترام كلمةٍ تكتب كذلك ، وفي الجدِّ في عهوده ، وحبِّه للصَّراحة ، والواقعيَّة ، وبغضه التَّحايل ، والالتواء ، والكيد ، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية ، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال ، وقد فرَّ من مشركي مكَّة ، وكان أبوه يتفاوض مع الرَّسول ﷺ ، وكان هذا الابن ممَّن آمنوا بالإسلام وجاء مستصرخاً بالمسلمين ، وقد انفلت من أيدي المشركين.

فلمَّا رأى سهيلٌ ابنه؛ قام إليه وأخذه بتلابيبه ، وقال: يا محمد! لقد لجَّت القضيَّةُ بيني وبينك ـ أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا ـ فقال رسول الله ﷺ: صدقت ، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فلم يغنِ عنه ذلك شيئاً ، وردَّه رسول الله ﷺ ، وقال لأبي جندل: إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهداً ، وإنَّا لا نغدر بهم. غير أنَّ النَّبيَّ ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له ، ولمن على شاكلته من المسلمين ، وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «يا أبا جندل! اصبر ،

---

(١) انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣.

واحتسب ، فإنَّ الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً» [سبق تخريجه][١] .

وفي هذه الكلمات النَّبويَّة المشرقة العظيمة دلالةٌ ليس فوقها دلالةٌ على مقدار حرص رسول الله ﷺ ، وتمسُّكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه ، وعواقبه فيما يبدو للنَّاس[٢] .

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ، ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد ، أثبت فيه الرَّسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم ، وحبس مشاعرهم ، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل ، وتأثَّروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه ، والدِّماء تنزف منه؛ ممَّا زاد في إيلامهم ، حتَّى إنَّ الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة ، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبُه بفظاظة الوثنيِّ الجلف ، ليعود به مرَّة أخرى إلى سجنه الرَّهيب في مكَّة .

وقد صبر أبو جندل ، واحتسب لمصابه في سبيل دينه ، وعقيدته ، وتحقَّق فيه قول الله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] .

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتَّى تمكَّن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكَّة من الإفلات من سجون مكَّة ، وأصبحوا قوَّةً صار كفار مكَّة يخشونها بعد أن انضمُّوا إلى أبي بصير ، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشَّام[٣] . وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى .

ثالثاً : احترام المعارضة النَّزيهة :

بعد الاتفاق على معاهدة الصُّلح ، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضةٌ شديدةٌ ، وقويَّةٌ لهذه الاتفاقيَّة ، وخاصَّةً في البندين اللَّذين يلتزم النَّبيُّ ﷺ بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا تلتزم قريشٌ بردِّ مَنْ جاءها من المسلمين مرتدّاً ، والبند الَّذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكَّة ذلك العام ، وقد كان أشدَّ النَّاس معارضة لهذه الاتفاقيَّة ، وانتقاداً لها عمر بن الخطَّاب ، وأُسيد بن حضير سيِّد الأوس ، وسعد بن عُبادة سيِّد الخزرج .

وقد ذكر المؤرِّخون : أنَّ عمر بن الخطَّاب أتى رسول الله ﷺ مُعلناً معارضته لهذه الاتفاقيَّة ، وقال لرسول الله ﷺ : ألست برسول الله؟ قال : «بلى!» قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : «بلى!»

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٧) .

(٢) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (٤/ ٢٧٥) .

(٣) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٥ .

قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى!» قال: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟! قال: «إنِّي رسولُ الله ، ولستُ أعصيه[١]».

وفي روايةٍ: «أنا عبد الله ، ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يُضيِّعني[٢]» قلت: أوليس كنت تحدِّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا . قال: «فإنَّك آتيه ، ومطوِّفٌ به». قال عمر: فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت له: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قلت: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ: الزم غرزه ـ أي: أمره ـ ، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله ، وأنَّ الحقَّ ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيِّعه الله . [سبق تخريجه][٣].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثِّرة عاد الصَّحابة إلى تجديد المعارضة للصُّلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته ، وإعلان معارضتهم ، إلا أنَّ النَّبيَّ ﷺ بما أعطاه الله من صبرٍ ، وحكمةٍ ، وحلمٍ ، وقوَّة حجَّةٍ استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصُّلح ، وأنَّه في صالح المسلمين ، وأنَّه نصرٌ لهم[٤] ، وأنَّ الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ، ومخرجاً ، وقد تحقَّق ما أخبر به ﷺ .

وبهذا يتبيَّن: أنَّ الرَّسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النَّزيهة ، حيث قرَّر ذلك بقوله ، وفعله ، وهو ـ والله أعلم ـ إنَّما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النَّزيهة؛ الَّتي تصدر من أتباعهم ، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السَّليمة؛ الَّتي تخدم المصلحة العامَّة[٥].

وهذا الهدي النَّبويُّ الكريم بيَّن: أنَّ حرِّيَّة الرأي مكفولةٌ في المجتمع الإسلاميِّ ، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحرِّيَّة في التَّعبير عن رأيه ، ولو كان هذا الرَّأي نقداً لموقف حاكم من الحكَّام ، أو خليفةٍ من الخلفاء ، فمن حقِّ الفرد المسلم أن يبيِّن وجهة نظره في جوٍّ من الأمن ، والأمان دون إرهابٍ ، أو تسلُّط يخنق حرِّية الكلمة ، والفكر .

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ : أنَّ المعارضة لرئيس الدَّولة في رأيٍ من الآراء ،

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ص ٣٣٣ .
(٢) انظر: تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٣٤) .
(٣) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٦) .
(٤) انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٧٠ .
(٥) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد رسول الله ﷺ ، ص ٤٩٥ .

وموقف من المواقف ليست جريمةً تستوجب العقاب ، ويُغَيَّب صاحبها في غياهب السُّجون[١] .

رابعاً: التَّحلُّل من العمرة ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها :

لما فرغ رسول الله ﷺ من قضية كتابة الصُّلح قال لأصحابه: «قوموا ، فانحروا ، ثمَّ احلقوا . . .» حتَّى قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ ، فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ؛ دخل على أمِّ سلمة ، فذكر لها ما لقي مِنَ النَّاس ، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج ، ثمَّ لا تُكلِّم أحداً منهم كلمةً؛ حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج ، فلم يكلِّم أحداً منهم حتَّى فعل ذلك: نحر بُدْنه ، ودعا حالقه ، فلمَّا رأوا ذلك؛ قاموا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتَّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً . [سبق تخريجه] .

وقد حلق رجالٌ يوم الحديبية ، وقصَّر آخرون ، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: «والمقصرين» . [البخاري (١٧٢٧) ، ومسلم (١٢٠١) ، عن ابن عمر ، وأحمد (١/ ٢١٦) عن ابن عباس][٢] .

وكان في هدي النَّبيِّ ﷺ في الحديبية جملٌ لأبي جهلٍ في رأسه بُرَةٌ[٣] من فضَّةٍ ، يغيظ بذلك المشركين. [أحمد (١/ ٢٣٤) ، وأبو داود (١٧٤٩) ، وابن ماجه (٣٠٧٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (١١١٤٧ و١١١٤٨)][٤] .

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمورٌ فيها دروسٌ ، وعبرٌ منها :

١ ـ كان رأي أمِّ سلمة سديداً ، ومباركاً؛ حيث فهمت رضي الله عنها عن الصَّحابة: أنَّه وقع في أنفسهم أن يكون النَّبيُّ ﷺ أمرهم بالتَّحلُّل أخذاً بالرُّخصة في حقِّهم، وأنَّه يستمرُّ على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حقِّ نفسه، فأشارت على النَّبيِّ ﷺ أن يتحلَّل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النَّبيُّ ﷺ صواب ما أشارت به ، ففعله ، فلمَّا رأى الصَّحابة ذلك؛ بادروا إلى فعل ما أمرهم به ، فلم يبق بعد ذلك غايةٌ تُنتظر ، فكان ذلك رأياً سديداً ، ومشورةً مباركةً ، وفي ذلك دليلٌ على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرةٍ صائبةٍ ، ورأيٍ سديدٍ[٥] ، كما أنَّه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجلٍ ، أو امرأةٍ ما دامت مشورةً صائبةً ، وهذا عين التَّكريم للمرأة الَّتي يزعم أعداء الإسلام: أنَّه غمطها حقَّها ، وتجاهل وجودها ، وهل

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٨) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة .
(٣) البَرَّة: حلقةٌ تُجعل في أنف البعير ليذلَّ ، ويرتاض .
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٩) ، وتحفة الأحوذي ، للمباركفوري (كتاب الحج) .
(٥) انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، ص ١٦١ .

هناك اعترافٌ واحترامٌ لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبيٍّ مرسلٍ ، ويعمل النَّبيُّ ﷺ بمشورتها لحلِّ مشكلة اصطدم بها ، وأغضبته؟! [١] .

٢ ـ أهمِّيَّة القدوة العملية : فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وفيهم كبار الصَّحابة ، وشيوخهم ، ومع ذلك لم يستجب أحدٌ لدعوته ، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ على الخطوة العمليَّة ؛ الَّتي أشارت بها أمُّ سلمة تحقَّق المراد ، فالقدوة العمليَّة في مثل هذه المواقف أجدى ، وأنفع [٢] .

٣ ـ حكم الإحصار في العمرة والحجِّ : دلَّ عمل الرَّسول ﷺ بعد الفراغ من أمر الصُّلح من التحلُّل ، والنَّحر ، والحلق على أنَّ المحصر يجوز له أن يتحلَّل ، وذلك بأن يذبح شاةً حيث أحصر ، أو ما يقوم مقامها ، ويحلق ، ثمَّ ينوي التَّحلُّل ممَّا كان قد أهلَّ به ، سواءٌ كان حجّاً ، أو عمرةً ، كما دلَّ على أنَّ المتحلِّل لا يُلزم بقضاء الحجِّ ، أو العمرة إذا كان متطوِّعاً ، وخالف الحنفيَّة ، فرأوا : أنَّ القضاء بعد المباشرة واجبٌ ؛ بدليل أنَّ جميع الَّذين خرجوا معه ﷺ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء ، إلا مَنْ توفي ، أو استشهد منهم في غزوة خيبر [٣] .

خامساً : العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح :

ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية قاصداً المدينة ، حتَّى إذا كان بين مكَّة والمدينة نزلت سورة الفتح ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [الفتح : ١١] .

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها ، وقال : أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس [البخاري (٤١٧٧) ، عن أسلم ، ومسلم (١٧٨٦) عن أنس] ، ثمَّ قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله :

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٥] [البخاري (٤١٧٢) عن أنس] .

وقد أسرع النَّاس إلى رسول الله ﷺ وهو واقفٌ على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فقال رجل : يا رسول الله! أفتحٌ هو؟ قال : «نعم ، والذي نفسي بيده! إنَّه لفتح» [أبو داود (٢٧٣٦) ، والحاكم (٢/ ١٣١)] فانقلبت كآبة المسلمين ، وحزنُهم إلى فرحٍ غامرٍ ،

---

(١) انظر : المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣ .
(٢) انظر : تأمُّلات في السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد السَّيِّد الوكيل ، ص ٢١١ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص٢٤٣ .

وأدركوا: أنَّهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنَّتائج، وأنَّ التَّسليم لأمر الله، ورسوله فيه كلُّ الخير لهم، ولدعوة الإسلام(١).

كان حديث القرآن الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح، وكان القرآن الكريم له منهجُه الخاصُّ في عرضه لغزوة الحديبية، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة: أنَّه سمى الصُّلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً.

إنَّنا بالتَّأمُّل في أسباب النُّزول نجد: أنَّ سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النَّبيِّ ﷺ من الصُّلح، وهو عائدٌ إلى المدينة النَّبويَّة، وبعد أن خاض النَّبيُّ ﷺ، والمؤمنون تلك التَّجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين، إلى بيعة الرِّضوان، إلى الصُّلح الَّذي لم يكن بعض الصَّحابة راضين عنه، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرةٌ حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القرآن الكريم ويبيِّن للمسلمين: أنَّ هذا الصُّلح هو فتحٌ مبين، ويؤكِّد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان على صوابٍ في قبول الصُّلح؛ لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشِّره الله على الملأ من الدُّنيا بأنَّ الله تعالى فتح بالصُّلح ليغفر له ما تقدَّم من ذنبه، وما تأخَّر كرامةً منه سبحانه لرسوله، ليزداد المسلمون ثقةً، واطمئناناً بأنَّهم على الصَّواب، وأن ما فعلوه هو الحقُّ، ومآله السَّعادة، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ توفيق الله كان مع المؤمنين؛ فهو الَّذي وفَّقهم للصَّبر مع رسوله، وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصُّلح، وأنَّ ذلك كان بسبب إنزال السَّكينة في قلوبهم، حتَّى على قلوب من أنكر بعض شروط الصُّلح، واستسلم للأمر على مضضٍ، فلم يحصل رفضٌ لهذا الصُّلح، بل كلُّهم نزلوا على أمر رسوله ﷺ بفضل السَّكينة؛ الَّتي أنزلها عليهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

فالقرآن الكريم يبيِّن: أنَّ الله هو الَّذي أنزل السَّكينة عليهم ليتذكَّروا فضله، ويداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السَّكينة ممَّا يتميَّز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة؛ إذ السَّكينة أمرٌ معنويٌّ لا يعلم نزوله إلا الله، وأشار القرآن الكريم إلى بيعة الرِّضوان، وهي مبايعة الصَّحابة للنَّبيِّ على الموت، فأثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن، وقرَّر أنَّها مبايعةٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبهذا نرى ما يتميَّز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات، فهو يبيِّن الحقائق ويصحِّح

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٤٩).

العقائد، ويربِّي النُّفوس، ويفضح المنافقين، ويبشر المسلمين بغنائم قريبةٍ تحقَّقت في خيبر، وبين أصحاب الأعذار، فليس كلُّ مَنْ تخلَّف عن الجهاد يُعاتب، وإنَّما هناك استثناء، وهذا من كمال رحمته الإلٰهيَّة، ثمَّ لما تمَّ صلح الحديبية، وعاد المسلمون إلى المدينة، ولم يتحقَّق ما قصدوه من دخول مكَّة؛ أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الرُّؤيا الَّتي سبق أن رآها النَّبيُّ ﷺ وبشَّر بها أصحابه، وبيَّن أنَّها رؤيا صِدْقٍ، وأنَّها ستتحقَّق. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

ثمَّ خُتمتِ السُّورة الجليلةُ بصفات مدحٍ للنَّبيِّ ﷺ ولأصحابه الكرام(١).

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٨، ٢٩].

هذه الآيات الكريمة وصفت أصحاب محمَّدٍ في أحلى، وأجمل صورةٍ، إنَّها صورةٌ عجيبةٌ يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورةٌ مؤلَّفةٌ من عدَّة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظَّاهرة، والمضمرة.

فلقطةٌ: تُصوِّر حالتهم مع الكفَّار، ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، أشدَّاء على الكفار، وفيهم آباؤهم، وإخوتهم، وذوو قرابتهم، وصحابتهم، ولكنَّهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهم فقط إخوة الدِّين، فهي الشدَّة لله، والرَّحمة لله.

اللَّقطة الثَّانية: ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ والتَّعبير يوحي كأنَّما هذه هي هيئتهم الدَّائمة؛ الَّتي يراها الرَّائي حين يراهم، ذلك: أنَّ هيئة الرُّكوع والسُّجود تمثِّل حالة العبادة، وهي الحالة الأصليَّة في حقيقة نفوسهم، فعبَّر عنها تعبيراً يثبِّتها كذلك في زمانهم، حتَّى لكأنهم يقضون زمانهم كلَّه ركَّعاً سجداً.

واللَّقطة الثَّالثة: مثلها، ولكنَّها لقطةٌ لبواطن نفوسهم، وأعماق سرائرهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ فهذه هي صورة مشاعرهم الدَّائمة الثَّابتة، كلُّ ما يشغَل بالَهُم، كلُّ ما تتطلَّع إليه أشواقهم، هو فضلُ الله، ورضوانُه، ولا شيء وراء الفضل والرِّضوان يتطلَّعون إليه، ويشتغلون به.

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٥٤٨ إلى ٥٥٥).

واللَّقطة الرَّابعة: تثبت أثر العبادة الظَّاهرة، والتَّطلُّع المضمر في ملامحهم، ونضجها على سماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ سيماهم في وجوههم من الإشراق، والوضاءة، والصَّفاء، والشَّفافية، وليست هذه السِّيما هي النُّكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذِّهن عند سماع قوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ فالمقصود بأثر السُّجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السُّجود؛ لأنَّه يمثِّل حالة الخشوع، والخضوع والعبوديَّة لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء، والكبرياء، والفراهة، ويحلُّ مكانها التَّواضع النَّبيل، والشَّفافية الصَّافية، والوضاءة الهادئة، والذُّبول الخفيف؛ الَّذي يزيد وجه المؤمن وضاءةً، وصباحةً، ونُبلاً.

وهذه الصُّورة الوضيئة الَّتي تمثِّلها هذه اللَّقطات ليست مستحدثةً، إنَّما هي ثابتةٌ لهم في لوحة القدر، ومِنْ ثمَّ فهي قديمةٌ جاء ذكرها في التَّوراة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وصفتهم الَّتي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشَّر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ وصفهم في بشارته بمحمَّد ومن معه أنَّهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فهو زرعٌ تامٌّ قويٌّ يخرج فرخه من قوَّته، وخصوبته، ولكنَّ هذا الفرخ لا يُضعف العود بل يشدُّه: ﴿فَآزَرَهُ﴾ وأنَّ العود آزر فرخه، فشدَّه ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ الزَّرع، وضخمت ساقه، وامتلأت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ لا معوجّاً، ولا منحنياً، ولكن مستقيماً قويّاً سويّاً.

هذه صورته في ذاته، فأمَّا وقعه في نفوس أهل الخبرة، والزَّرع، والعارفين، منه النَّامي المثمر، ومنه البائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ وهم رسول الله وأصحابُه، وأمَّا وقعه في نفوس الكفَّار؛ فعلى العكس، فهو وقع الغيظ والكَمَد ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأنَّ هذه الزِّراعة زرعةُ الله أو زرعة رسولِه، وأنَّهم ستارٌ لِقَدره، وأداةٌ لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابتٌ في الإنجيل في بشارته بمحمَّدٍ ﷺ ومَنْ معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ـ صحابة رسول الله ـ فتثبُت في صلب الوجود كلِّه، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى أنموذجاً للأجيال تحاول أن تحقِّقها ليتحقَّق معنى الإيمان في أعلى الدَّرجات.

وفوق هذا التكريم كلِّه وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو وعدٌ يجيء في هذه الصِّيغة العامَّة بعدما تقدَّم من صفتهم الَّتي تجعلهم أوَّل الدَّاخلين في هذه الصِّيغة العامَّة ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وذلك التكريم وحده

حسبُهم ، وذلك الرِّضا وحدَه أجرٌ عظيمٌ ، ولكنَّه الفيض الإلٰهيُّ بلا حدودٍ ولا قيود ، والعطاء الإلهيُّ عطاءٌ غير مجذوذ[(١)].

يقول سيِّد قطب رحمه الله : « . . . ومرةً أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرِّجال السُّعداء ، وقلوبهم؛ وهم يتلقَّون هذا الفيض الإلٰهيَّ من الرِّضا ، والتَّكريم ، والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان الله ، وانظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السُّورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم ، وقلوبهم ، ومشاعرهم ، وسماتهم ، وينظر بعضهم في وجوه بعضٍ ، فيرى أثر النِّعمة الَّتي يُحِسُّها وهو في كيانه»[(٢)]. لقد أيقن الصَّحابة الكرام أنّ الدَّعوة قد دخلت في طورٍ جديد ، وفتح أكيد ، وآفاق أوسع ، وامتدادٍ أرحب ، وأنَّ من طبيعة هذا الدِّين أن ينمو ، وينتعش في أجواء السِّلم ، والأمن أكثر منه وقت الحرب ، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية الَّتي كان من أهمِّها :

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدَّولة المسلمة ، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين ، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثِّرة بموقف قريشٍ الجحوديِّ؛ حيث كانوا يرون : أنَّها الإمام والقدوة .

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين ، والمنافقين ، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام ، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثيرٍ من صناديد قريش إلى الإسلام؛ مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، كما تجلَّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلُّفهم .

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام ، وتعريف النَّاس به ، ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه ، يقول الإمام الزُّهري : «فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلمَّا كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث ، والمنازعة ، فلم يكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السَّنتين مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك»[(٣)].

وعقَّب عليه ابن هشامٍ بقوله: والدَّليل على قول الزُّهريِّ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى

---

(١) انظر : التربية القيادية (٤/ ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢).
(٢) انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٢٦/ ٣٣٣٣).
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٥١).

الحديبية في ألف وأربعمئةٍ في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[(١)] .

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش ، فحوَّلوا ثقلهم على اليهود ، ومَنْ كان يناوئهم من القبائل الأخرى ، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية .

٥ ـ مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ، ويميلون إليه ، فهذا الحُلَيْسُ بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون ؛ رجع إلى أصحابه ، قال : لقد رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ ، وأُشْعِرت ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت .

٦ ـ مكَّن صلح الحديبية النَّبيَّ ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة ، فكانت خطوةً جديدةً لنقل الدَّعوة الإسلاميَّة بأسلوبٍ آخر خارج الجزيرة العربيَّة .

٧ ـ ساعد صلح الحديبية النَّبيَّ ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس ، والرُّوم ، والقبط يدعوهم إلى الإسلام .

٨ ـ كان صلح الحديبية سبباً ومقدِّمةً لفتح مكَّة ، يقول ابن القيِّم : «كانت الهدنةُ مُقَدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم ، الَّذي أعزَّ الله به رسوله ، وجنده ، ودخل النَّاسُ به في دين الله أفواجاً ، فكانت هذه الهدنة باباً لـه ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه سنَّـةُ الله ـ سبحانه ـ في الأمور العظام الَّتي يقضيها قدراً ، وشرعاً أن يوطِّئَ لها بين يديها مقدِّماتٍ ، وتوطئاتٍ تُؤذِنُ بها ، وتدُلُّ عليها»[(٢)] .

سادساً : أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات :

في أعقاب صلح الحديبية مباشرةً استطاع أبو بصير عُتْبَـةُ بن أُسَيْدٍ أن يفرَّ بدينه من سجون الشِّرك في مكَّة المكرَّمة ، وأن يلتحق برسول الله ﷺ في المدينة ، فبعثت قريش في إثره اثنين مِنْ رجالها إلى رسول الله ﷺ ليرجعا به ، تنفيذاً لشرط المعاهدة ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بصير : «يا أبا بصير ! إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإنَّ الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك» فقال أبو بصير : يا رسول الله ! أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال : «يا أبا بصير ، انطلق ؛ فإنَّ الله سيجعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً» [أحمد (٤/ ٣٢٥) ، وابن هشام (٣/ ٣٣٧)] .

فانطلق معهما ، وقد شقَّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزنٍ إلى أخيهم في العقيدة ،

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٥١ ، ٣٥٢) .
(٢) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٠٩) .

وهو يعود إلى سجنه بمكَّة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريشٍ ، ولكنَّ رسول الله ﷺ كان يهتمُّ بالوفاء بالعهود ، والمواثيق ، ولم يكن عنده مجرَّد نظريةٍ مكتوبةٍ على الورق ، ولكنَّه كان سلوكاً عملياً في حياته ، وفي علاقته الدَّولية ، فقد أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوفاء بالعهود ، وحذَّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنيَّة ، قال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل : ٩١] .

وقال جلَّ وعلا : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدةً أصوليَّة من قواعد الدِّين الإسلاميِّ ، الَّتي يجب على كلِّ مسلمٍ أن يلتزم بها[١] .

لقد التزم رسول الله ﷺ بعهده مع قريش ، وسلَّم أبا بصير إليهما ، وانطلق معهما ، فلمَّا كان بذي الحُليفة ؛ قال لأحد صاحبيه : أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال : نعم . قال : أنظر إليه؟ قال : انظر ؛ إن شئت ، فاستلَّه أبو بصير ، ثم علاه به حتَّى قتله ، ففرَّ الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال : قتل صاحبُكم صاحبي ، فما لبث أبو بصير أن حضر ، متوشحاً السَّيف ، وقال : يا رسول الله! وفَت ذمَّتك ، وأدَّى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ، أو يُعْبَث بي[٢] . فقال النَّبيُّ ﷺ : «ويل أمِّه! مسْعَرُ[٣] حربٍ . لو كان له أحدٌ!» . [أحمد (٤/ ٣٣١)، والبخاري (٢٧٣٢) ، وأبو داود (٢٧٦٥)] .

فلمَّا سمع ذلك عرف : أنَّه سيردُّه إليهم ، فخرج حتَّى أتى سيف البحر ، وقد فهم المستضعفون بمكَّة من عبارة الرَّسول ﷺ أنَّ أبا بصير بحاجةٍ إلى الرِّجال ، فأخذوا يفرُّون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر ، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرٍو ، وغيره ، حتَّى اجتمع عند أبي بصير عصبةٌ قويَّةٌ ، فما يسمعون بعيرٍ لقريشٍ خرجت إلى الشَّام إلا اعترضوا طريقها ، وقتلوا مَنْ فيها ، وأخذوا الأموال التي كانوا يتَّجرون بها ، فأرسل المشركون إلى النَّبيِّ ﷺ يناشدونه الله ، والرَّحم لمَا أرسل إلى أبي بصيرٍ ، ومن معه ، ومن أتاه منهم ، فهو آمنٌ ، وتخلَّوا في ذلك عن أقسى شروطهم الَّتي صبُّوا فيها كؤوس كبريائهم ، فذلَّت قريشٌ من حيث طلبت العزَّ[٤] .

فأرسل إليهم النَّبيُّ ﷺ وهم بناحية العيص ، فقدموا عليه ، وكانوا قريباً من السِّتِّين ، أو

---

(١) انظر : منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣٢٩ .

(٢) انظر : السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ٣٥٣) .

(٣) مِسْعَر : موقد حربٍ ومهيجها .

(٤) انظر : محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ٢٨١) .

السَّبعين[١] فآوى النَّبيُّ ﷺ تلك العصبة المؤمنة الَّتي أقضَّت مضاجع قريشٍ ، وأرغمتها على إسقاط شرطها التَّعسُّفيِّ ، فزادت بهم قوَّة المسلمين ، وقويت بهم شوكتُهم ، واشتدَّ بأسهم ، غير أنَّ أبا بصيرٍ ، رأس تلك العصابة ، ومؤسِّسها لم يقدَّر له أن يكون معها ، فقد وافاه كتاب النَّبيِّ ﷺ بالعودة إلى المدينة وهو على فراش الموت ، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثَّغر ، وهواه في قلب المجتمع النَّبويِّ في المدينة[٢] .

إنَّ قصَّة أبي جندلٍ ، وأبي بصيرٍ ، وما احتملاه في سبيل العقيدة ، وما أبدياه من الثَّبات ، والإخلاص ، والعزيمة ، والجهاد؛ حتَّى مرَّغوا رؤوس المشركين بالتُّراب ، وجعلوهم يتوسَّلون للمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية ، هذه القصَّة نموذجٌ يُقتدى به في الثَّبات على العقيدة ، وبذل الجهد في نصرتها ، وفيها ما يشير إلى مبدأ: «قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة» ، فقد ألحق أبو بصير ، وجماعتُه الضَّرر بالمشركين في وقتٍ كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصُّلح ، لكنَّ أبا بصير ، وأصحابَه خارجُ سلطة الدَّولة ـ ولو في ظاهر الحال ـ ولم يكن ما قام به أبو بصير ، والمستضعفون بمكَّة مجرَّد اجتهادٍ فرديٍّ لم يحظَ بإقرار الرَّسول ﷺ حيث لم يأمر أبا بصير بالكفِّ عن قوافل المشركين ابتداءً ، أو بالعودة إلى مكَّة ، إنَّ ذلك لم يحدث ، فكان إقراراً له؛ إذ كان موقف أبي بصير ، وأصحابه في غاية الحكمة ، حيث لم يستكينوا لطغاة مكَّة يفتنونهم عن دينهم ، ويمنعونهم من اللَّحاق بالمدينة ، فاختاروا موقفاً فيه خلاصُهم ، وإسناد دولتهم بأعمالٍ تُضعِف اقتصاد مكَّة ، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصُّلح ، بل يمكن القول بأن اتِّخاذ هذا الموقف كان بإشارةٍ ، وتشجيعٍ من النَّبيِّ ﷺ حين وصف أبا بصير[٣] بأنَّه: «مِسْعَرُ حربٍ . لو كان معه أحدٌ!» [سبق تخريجه] .

إنَّ المتأمِّل في هذه الأحداث يرى رعاية الله الَّتي أولاها لهؤلاء الصَّحابة الكرام ، ولا شكَّ: أنَّ هناك أسباباً بذلوها ، فأهَّلتهم لتلك الرِّعاية من الله سبحانه ، فقد بيَّن سبحانه في كتابه المؤهِّلات لرعايته وعنايته .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٥١) .
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٢٩٦ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٥٢) .

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه الصِّفات قد توافرت في الصَّحابة رضي الله عنهم ، فنالوا تلك الرِّعاية والعناية من الله ، ومتى توافرت في شخصٍ ، أو أمَّـةٍ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ فإنَّ رعاية الله سوف تنزل عليهم ؛ لأنَّ الله قد وعد بذلك ، ووعده الحقُّ(١).

سابعاً: امتناع النَّبيِّ ﷺ عن ردِّ المهاجرات:

صمَّمت مجموعةٌ من النِّساء المستضعفات في مكَّة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدِّمة هؤلاء النِّساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ، فقد هاجرت إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية ، فأراد كفار مكَّة أن يردُّوهن؛ فأنزل الله تعالى في حقِّهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]. [خبر رفض رسول الله ﷺ إرجاع أم كلثوم؛ رواه ابن سعد (٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٢٩)، ومجمع الزوائد (٧/ ١٢٣)].

ومعنى الآيات الكريمة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ ، قال ابن عباس: كان امتحانهنَّ أن يشهدن أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً عبد الله ورسولُه ، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي الَّتي حرَّمت المسلمات على المشركين ، قال القرطبيُّ: هذا أوَّل دليلٍ على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتُها(٢).

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الَّذي غرموه عليهنَّ من الأصدقة.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال ابن كثيرٍ: يعني: إذا أعطيتموهنَّ أصدقتهنَّ؛ فانكحوهنَّ؛ أي: تزوَّجوهنَّ بشرط: انقضاء العدَّة ، والوليِّ ، وغير ذلك(٣).

وفي قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ العصم: جمع العصمة؛ وأصل العصمة: الحبل ، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا: النِّكاح ، الكوافر: جمع كافرة ، والمعنى: أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر ، وأمرهم بفراقهنَّ ، وقد

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٢٠.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥١).

طلَّق عمر بن الخطَّاب امرأتين كانتا له في الشِّرك لمَّا نزلت هذه الآية . [البخاري (٢٧٣٢)] .

وقوله : ﴿ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال المفسِّرون : كان مَنْ ذهب من المسلمات مرتدَّاتٍ إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار : هاتوا مهرها . ويقال للمسلمين إذا جاء أحدٌ من الكافرات مسلمةً مهاجرةً : ردُّوا إلى الكفار مهرها . وكان ذلك نصفاً ، وعدلاً في الحالتين ، وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزَّمان في تلك النَّازلة خاصَّةً بإجماع الأمَّة قاله ابن العربيِّ(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

يعني : إن لحقت امرأةٌ مؤمنةٌ بكفَّار أهل مكَّة ، وليس بينكم ، وبينهم عهدٌ ، ولها زوجٌ مسلمٌ قِبلكُم ، فغنمتم ، فأعطوا هذا الزَّوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمَّس(٢) . وقال الزُّهريُّ : يُعطىٰ من مال الفيء ، وعنه : يعطى من صداق مَنْ لحق بنا(٣) .

وقال مجاهد : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أصبتم غنيمةً من قريشٍ ، أو غيرهم(٤) .

قال أبو السُّعود : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي : فجاءت عقبتكم ؛ أي : نوبتكم من أداء المهر ، شبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارةً ، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه ، كما يتعاقب في الرُّكوب ، وغيره(٥) .

وقوله : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : فلو أنَّها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين ؛ ردَّ المؤمنون إلى زوجها النَّفقة ، الَّتي أنفق عليها من العَقِب الَّذي بأيديهم ؛ الذي أمروا أن يردُّوه على المشركين من نفقاتهم الَّتي أنفقوا على أزواجهم اللَّاتي آمَنَّ ، وهاجرن ، ثمَّ رَدُّوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم(٦) .

وختم الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي احذروا أن تعتدوا ما أمرتم به .

قال الزُّهريُّ : وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدَّت بعد إيمانها [البخاري (٢٧٣٣)] ، وقال ابن

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ٦٨) ، وحديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٥) .
(٢) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٥) .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٢) .
(٤) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٢) .
(٥) انظر : تفسير أبي السعود (٨/ ٢٤٠) .
(٦) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٢) .

حجر: أراد الزُّهريُّ بذلك الإشارة إلى أنَّ المعاقبة المذكورة بالنِّسبة إلى الجانبين إنَّما وقعت في الجانب الواحد؛ لأنَّه لم يُعرف أحدٌ من المؤمنات فرَّت من المسلمين إلى المشركين بخلاف عكسه[١].

لقد حدث خلافٌ في فهم البند القائل: من أتى محمَّداً ﷺ من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، فالمشركون يرون: أنَّ النَّص يشمل الرِّجال، والنِّساء، والرَّسول ﷺ يرى: أنَّ النَّص للرِّجال دون النِّساء؛ إذ النَّصُّ جاء بصيغة المذكَّر، ولقد أيَّد الله رسوله ﷺ فيما ذهب إليه، فلم يُرجع مسلمةً هاجرت إلى المدينة فراراً بدينها، بل امتحنها، وقبلها بناءً على أمر ربِّه ـ سبحانه وتعالى ـ[٢].

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة تعقيباً على آية الامتحان: والآية تفهم مع الاستئناس بالرِّوايات المنسقة إجمالاً معها: أنَّ بعض المؤمنات اللَّاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصُّلح اغتنمن فرصةً فهاجرن خِلْسةً، وأنَّ ذويهنَّ جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصُّلح، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهنَّ، وتأمر بالتَّعويض على أزواجهنَّ، وقد تعدَّدت الأقوال في حقيقة نصِّ وثيقة الصُّلح، ومنها أنَّه كان مطلقاً، وبصيغة التَّذكير، فرأى المكِّيُّون: أنَّه شاملٌ للرِّجال، والنساء معاً، فجاؤوا يطالبون بالإعادة، ورأى النَّبيُّ ﷺ: أنَّه لا يشمل النِّساء، فنزلت الآية حاسمةً للأمر، وهذا هو المعقول[٣].

وقال الأستاذ الغزاليُّ: «وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردُّوا النِّسوة المهاجرات بدينهنَّ إلى أوليائهنَّ، إمَّا لأنَّهم فهموا: أنَّ المعاهدة خاصَّةٌ بالرِّجال فحسب، أو لأنَّهم خشوا على النِّساء اللَّاتي أسلمن أن يضعفن أمام التَّعذيب والإهانة، وهنَّ لا يستطعن ضرباً في الأرض، وردّاً للكيد، كما فعل أبو جندل، وأبو بصير، وأضرابهما، وأيّاً كان الأمر؛ فإنَّ احتجاز مَنْ أسلم من النِّساء تمَّ بتعليم القرآن»[٤].

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه، شرح الحديث السابق (٥/ ٤١٥).

(٢) انظر: غزوة الحديبية، ص ١٧٨.

(٣) انظر: سيرة الرَّسول ﷺ، لدروزة (٢/ ٣٥٤).

(٤) انظر: فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص ٣٦٧.

المبحث الثَّالث
دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنيَّةً بالدُّروس العقائديَّة ، والفقهيَّة ، والأصوليَّة ، والتَّربويَّة. . . إلخ ، وسوف أذكر منها بعض الدُّروس على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : أحكام تتعلَّق بالعقيدة :

١ ـ حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس :

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النَّبيِّ ﷺ بالسَّيف ـ ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد ـ سنةٌ يقتدى بها عند قدوم رسل العدوِّ من إظهار العزِّ ، والفخر ، وتعظيم الإمام ، وطاعته ، ووقايته بالنُّفوس ، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين ، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين ، وليس هذا من النَّوع الَّذي ذمَّه النَّبيُّ ﷺ بقوله : «مَنْ أحبَّ أن يتمثَّل له الرِّجال قياماً ؛ فليتبوأ مقعده من النَّار» . [أبو داود (٥٢٢٩) ، والترمذي (٢٧٥٥)] .

كما أنَّ الفخر ، والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النَّوع المذموم في غيره[١] ، ويشبه هذا ما فعله أبو دُجانة في غزوة أحدٍ ، فكلُّ ما يدلُّ على التكبُّر ، أو التجبُّر في المشي ممنوع شرعاً ، ولكنَّه جائزٌ في حالة الحرب بخصوصها ، بدليل قوله ﷺ عن مشية أبي دُجانة : «إنَّها مشيةٌ يكرهُها الله إلا في هذا الموضع» . [الطبراني في المعجم الكبير (٦٥٠٨) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٠٩)][٢] .

٢ ـ استحباب الفأل ، وأنَّه مغاير للطِّيرة :

لمَّا جاء سُهيل بن عمروٍ لمفاوضة رسول الله ﷺ ؛ قال رسول الله : «سهَّل أمركم» . [سبق تخريجه][٣] . ففي الحديث استحباب التفاؤل ، وأنَّه ليس من الطِّيرة المكروهة[٤] .

---

(١) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٠٤) ، باب ما جاء في القيام .
(٢) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٤١ .
(٣) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٠٥) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٠٥) .

وقد جاءت أحاديث عن النَّبيِّ ﷺ تبيِّن معنى الفأل، قال رسول الله ﷺ: «لا طيرة، وخيرُها[١] الفأل». قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟! قال: «الكلمة الصَّالحة يسمعُها أحدُكم» [البخاري (٥٧٥٤ و٥٧٥٥)، ومسلم (٢٢٢٣/ ١١٠)].

والفرق بين الفأل، والطِّيرة: أنَّ الفأل من طريق حسن الظَّنِّ بالله، والطِّيرة لا تكون إلا في السُّوء، فلذلك كُرِهَتْ[٢].

وقد ذُكِرَتِ الطِّيرة عند النَّبيِّ ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السَّيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوَّة إلا بك». [أبو داود (٣٩١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩)].

٣ ـ بيان كفر من اعتقد: أنَّ للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالدٌ الجهنيُّ رضي الله عنه: صلَّى لنا ـ أي: من أجلنا، أو بنا ـ رسولُ الله ﷺ صلاة الصُّبح بالحديبية ـ على أثر سماءٍ[٣] كانت من اللَّيلة ـ فلمَّا انصرف؛ أقبل على النَّاس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله، ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرنا بفضل الله، ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَنْ قال: بِنَوْءِ[٤] كذا، وكذا؛ فذلك كافرٌ بي، ومؤمنٌ بالكوكب». [البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)].

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقاديِّ، أو كفر النِّعمة بحسب حال القائل.

فمن قال: مُطرنا بنوء كذا معتقداً: أنَّ للكوكب فاعلية، وتأثيراً في إيجاد المطر فهو كافرٌ كفراً مخرجاً من الملَّة، قال الشَّافعيُّ: مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا، وكذا على ما كان أهل الجاهليَّة يعنون من إضافة المطر إلى أنَّه بنوء كذا، فذلك كفرٌ، كما قال رسول الله ﷺ؛ لأنَّ النَّوء وقتٌ، والوقت مخلوقٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا على معنى مُطرنا في وقت كذا؛ فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه[٥].

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقاديَّ[٦].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية للحكمي، ص ٣٠٣.
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).
(٣) أثر سماء: المقصود: المطر.
(٤) الأنواء: ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.
(٥) الأم (١/ ٢٥٢).
(٦) انظر: غزوة الحديبية، للحكمي، ص ٣٠٤.

٤ ـ هل يجوز التبرُّك بفضلات الصَّالحين ، وآثارهم؟

ففي حديث عروة بن مسعودٍ وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله؛ قال: فو الله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم ، فدلك بها وجهه وجلدَه. . . وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه . [سبق تخريجه].

وقد علق الشَّاطبيُّ على هذا الحديث ، وأحاديث أخرى تماثله ، فقال: فالظَّاهر في مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعاً في حقِّ مَنْ ثبتت ولايتُه ، واتِّباعه لسنَّة رسول الله ﷺ وأن يُتبرَّك بفضل وضوئه ، ويُتدلَّك بنخامته ، ويُستشفى بآثاره كلِّها ، إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصلٌ مقطوعٌ به في متنه مشكلٌ في تنزيله ، وهو أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحدٍ منهم في شيءٍ من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفَه؛ إذ لم يترك النَّبيُّ ﷺ بعد موته ، أفضل من أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه ، فهو كان خليفتُه ، ولم يُفعل به شيءٌ من ذلك ، ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمَّة بعده ، ثمَّ كذلك عثمان ، ثمَّ عليٌّ ، ثمَّ سائر الصحابة الَّذين لا أحد أفضل منهم في الأمَّة ، ثمَّ لم يثبت لواحدٍ منهم من طريقٍ صحيحٍ معروفٍ أنَّ متبرِّكاً تبرك به على أحد تلك الوجوه ، أو نحوها؛ بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال ، والأقوال ، والسِّير الَّتي اتَّبعوا فيها النَّبيَّ ﷺ ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[1] .

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهابٍ؛ قال: حدَّثني رجلٌ[2] من الأنصار: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا توضَّأ ، أو تنخَّم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ، ونخامته ، فشربوه ، ومسحوا به جلودهم ، فلمَّا رآهم يصنعون ذلك؛ سألهم: «لم تفعلون هذا؟» قالوا: نلتمس الطَّهور ، والبركة بذلك. فقال رسول الله ﷺ : «من كان منكم يحبُّ أن يحبَّه الله ، ورسولُه؛ فَلْيَصْدُقِ الحديث ، ولْيُؤَدِّ الأمانة ، ولا يؤذِ جاره». [عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٤٨) ، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٩٩٨)].

وهذا الحديث أفاد أنَّ الأَوْلى ترك التبرُّك مع رسول الله ﷺ ، ولعلَّ سكوت النَّبيِّ ﷺ عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروةُ بن مسعود رسولُ قريشٍ مدى تعلُّق الصَّحابة رضي الله عنهم بالنَّبي ﷺ وحبِّهم له ، لا سيَّما وقد قال للنَّبيِّ ﷺ : إنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويدعوك [سبق تخريجه]. هذه بعض المسائل العقائديَّة .

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه ، الترغيب والتَّرهيب (٣/ ٥٨٩) .

ثانياً: أحكام فقهيّة وأصوليّة:

١ ـ قصّة كعب بن عجرة، ونزول آية الفدية:

قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: وقف عليَّ رسول الله ﷺ بالحديبية، ورأسي يتهافت[(١)] قملاً، فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟»[(٢)] قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النَّبيُّ ﷺ: «صم ثلاثة أيامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستَّةٍ، أو انسُكْ[(٣)] بما تيسَّر» [البخاري (١٨١٥)، ومسلم (١٢٠١/ ٨٢)].

وفي رواية مسلمٍ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ به؛ وهو بالحديبية، قبل أن يدخل مكَّة، وهو مُحْرِمٌ، وهو يُوقِدُ تحت قِدْرٍ، والقملُ يتهافتُ على وجهه، فقال: «أيؤذيك هوامُّك هذه؟» قال: نعم. قال: «فاحْلِقْ رأسَك، وأطْعِمْ فَرَقاً بين سِتَّةِ مساكينَ ـ والفَرق: ثلاثةُ آصُعٍ ـ أو صُمْ ثلاثة أيامٍ، أو انسُكْ نسيكة» [مسلم (١٢٠١/ ٨٣)، والترمذي (٢٩٧٤)]. وآية البقرة المذكورة تبيِّن حكم مَنْ كان محرماً وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عُجرة خاصَّة، وأصبح لكلِّ مسلمٍ يمرُّ بالحالة نفسِها.

٢ ـ مشروعية الصَّلاة في الرِّحال:

روى ابن ماجه عن أبي المليح بن أسامة؛ قال: خرجت إلى المسجد في ليلةٍ مطيرةٍ تماماً، فلمَّا رجعت استفتحتُ، فقال أبي[(٤)]: مَنْ هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية وأصابتنا سماءٌ لم تبلَّ أسافل نعالنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: «صلُّوا في رحالكم» [أبو داود (١٠٥٩)، والنسائي (٢/ ١١١)، وابن ماجه (٩٣٦)]. وهذا الحديث صحيحٌ، فسنده متَّصلٌ برواية الثِّقات، وقد صحَّحه ابن حجر[(٥)].

٣ ـ انصراف المسلمين من الحديبية، ونومهم عن صلاة الصُّبح:

كانت مدَّة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال: عشرين ليلةً على قول الواقديِّ[(٦)]، وابن سعدٍ[(٧)].

---

(١) يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/ ٢٦٦).
(٢) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش، والمراد القمل.
(٣) انسك: اذبح. النهاية (٥/ ٤٨).
(٤) أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابيٌّ تفرَّد ولده عنه.
(٥) فتح الباري (٢/ ١٨٤)، غزوة الحديبية، للحكمي، ص ٢٢١.
(٦) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦١٦).
(٧) انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/ ٩٨).

وعن ابن عائذٍ: أنَّ رسول الله ﷺ أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً[(١)].

والَّذي يبدو: أنَّ الواقديَّ، وابن سعدٍ أرادا تحديد مدَّة إقامته ﷺ في الحديبية، أما ابن عائذٍ فقصد الزَّمن الَّذي استغرقته غيبة النَّبيِّ ﷺ منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلَّل المسلمون من عمرتهم تلك؛ قفلوا راجعين إلى المدينة، فلمَّا كان من اللَّيل عدلوا عن الطَّريق للنَّوم، ووكَّلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلالٌ، ولم يوقظهم إلا حرُّ الشَّمس[(٢)]، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه؛ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ زمن الحديبية، فقال رسول الله ﷺ: «من يكلؤنا؟»[(٣)]. فقال بلالٌ: أنا. فناموا حتَّى طلعت الشَّمس، واستيقظ النَّبيُّ ﷺ، فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون». قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» [أبو داود (٤٤٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٠٢)، وأحمد (١/ ٣٨٦ و٣٩١)].

وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أنَّ قصَّة نومهم عن صلاة الصُّبح وقعت في غير الحديبية، وحاول بعض العلماء التَّوفيق بين هـذه النُّصوص، وذهب الدُّكتور حافظ الحكمي إلى أنَّ ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصَّة الحديبية وغيره محمولٌ على تعدُّد القصَّة، كما رجَّح ذلك النَّوويُّ[(٤)]، وجنح إليه ابنُ كثيرٍ[(٥)]، وابن حجرٍ[(٦)]، والزُّرقانيُّ، بل قال السُّيوطيُّ: لا يجمع إلا بتعدُّد القصَّة[(٧)].

٤ ـ مشروعية الهدنة بين المسلمين، وأعدائهم، ومقدار المدَّة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلَّ العلماء، والأئمَّة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنةٍ بين المسلمين، وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدَّةٍ معلومةٍ، سواءٌ أكان ذلك بعوضٍ يأخذونه منهم، أم بغير عوضٍ، أمَّا بدون عوض فلأنَّ هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوضٍ فبقياس الأولى؛ لأنَّها إذا جازت بدون عوضٍ، فلأن تجوز بعوض أقرب، وأوجه.

وأمَّا إذا كانت المصالحة على مالٍ يبذله المسلمون، فهو غير جائزٍ عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصَّغَار لهم؛ ولأنَّه لم يثبت دليلٌ من الكتاب، أو السُّنَّة على جواز ذلك، قالوا: إلا

(١) انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (٢/ ٢١٠).
(٢) انظر: غزوة الحديبية، ص ٢٥١.
(٣) يكلؤنا: يحرسنا.
(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١ ـ ١٨٢) وغزوة الحديبية، ص ٢٥٨.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣).
(٦) فتح الباري (١/ ٤٤٩)، وشرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧).
(٧) انظر: تنوير الحوالك (١/ ٣٣).

إنْ دعت إليه ضرورةٌ لا محيص عنها ، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك ، أو الأسر ؛ فيجوز ، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال .

وقد ذهب الشَّافعيُّ وأحمد رحمهم الله وكثير من الأئمَّة إلى أنَّ الصُّلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدَّةٍ معلومةٍ ، وأنَّه لا يجوز أن تزيد المدَّة على عشر سنواتٍ مهما طالت ؛ لأنَّها هي المدَّة الَّتي صالح النَّبيُّ ﷺ قريشاً عليها عام الحديبية(١) .

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة ، وهو قول أبي حنيفة(٢) .

والتَّحقيق : أنَّ القول الأول هو الرَّاجح لظاهر الحديث ، وإنْ وُجِدت مصلحةٌ في الزيادة على العشر جدَّد العقد ، كما قال الشَّافعي(٣) .

وقال بعض المتأخِّرين(٤) : يجوز عقد صلح مؤبَّد غير مؤقَّتٍ بمدَّةٍ معيَّنةٍ ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ [النساء : ٩٠] .

وهذا قولٌ مبنيٌّ على أنَّ الأصل في علاقة المسلمين بالكفَّار هي السَّلم ، لا الحرب(٥) ، وأنَّ الجهاد إنَّما شرع لمجرد الدِّفاع عن المسلمين ، فحسب(٥) .

وهذا القول مردودٌ لما يلي :

أ ـ أنَّ صاحب هذا القول قد خرق الاتِّفاق بعد أن حكاه بنفسه ؛ حيث قال : اتَّفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدوِّ لابدَّ من أن يكون مقدوراً بمدَّة معيَّنةٍ ، فلا تصح المهادنة مطلقةً إلى الأبد من غير تقديرٍ بمدَّة(٦) .

ب ـ الآية الَّتي استدل بها منسوخةٌ بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة : ٥] .

---

(١) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٤٢ .
(٢) انظر : فتح القدير (٥/٥٤٦) ، وغزوة الحديبية ، ص ٢٩٤ .
(٣) انظر : غزوة الحديبية ، ص ٢٩٥ .
(٤) آثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للدكتور وهبة الزُّحيلي ، ص ٦٨٠ .
(٥) انظر : آثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للزُّحيلي ، ص ٦٧٥ .
(٦) انظر آثار الحرب في الفقه الإسلامي ، للزحيلي ، ص ٦٧٥ .

فقد نقل ذلك ابن جرير[١] عن عكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وحكاه القرطبيُّ[٢] عن مجاهدٍ . ثمَّ قال : وهو أصحُّ شيءٍ في معنى الآية .

ج ـ الأصل الَّذي انبنى عليه هذا القول مردودٌ بآية براءة السَّابقة ، وبواقع سيرة الرَّسول ﷺ ، وخلفائه مع أعدائهم .

د ـ أمَّا فكرة : أنَّ الجهاد إنَّما شرع للدِّفاع عن المسلمين ، فهي فكرةٌ دخيلةٌ ، وقد تصدَّى لها سيِّد قطب[٣] رحمه الله ، ففنَّدها ، وبيَّن : أنَّ سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين ، وعدم الفهم لمرحليَّة الدَّعوة[٤] .

٥ ـ المُطْلَق يجري على إطلاقه :

هذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ يؤيِّدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد : أنَّه قال : إنَّ بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لمَّا قدم المدينة : ألم تقل يا رسول الله ! إنَّك تدخل مكَّة آمناً؟ قال : «بلى! أفقلتُ لكم من عامي هذا؟» قالوا : لا ، قال : «فهو كما قال لي جبريلُ عليه السلام» . [ابن هشام (٣/ ٣٤١)][٥] .

وفي هذا الأثر تبشير المؤمنين بفتح مكَّة في المستقبل ، وإيماءٌ بالوحي الصَّادق إلى ذلك النَّصر ، ولفتٌ لهم إلى وجوب التَّسليم لأمره بإطلاقٍ كلَّما ورد مطلقاً دون تحميله زياداتٍ وقيوداً تصرفه عن إطلاقه[٦] .

٦ ـ وجوب طاعته ﷺ ، والانقياد لأمره ؛ وإن خالف ظاهر ذلك القياس ، أو كرهته النُّفوس :

جاء في قصَّة الحديبية : أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وبعضَ الصَّحابة رضي الله عنهم كرهوا الصُّلح مع قريش[١] ؛ لما رأوا في شروطها من الظُّلم ، والإجحاف في حقِّهم ، لكنَّهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ، ورأوا : أنَّهم وقعوا في حرجٍ ؛ إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله ﷺ ! وظلَّت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم ، وكانوا يحذِّرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرَّأي[٧] ، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول : (أيها النَّاس! اتهموا الرَّأي على الدِّين ، فلقد رأيتُني أردُّ أمر رسول الله ﷺ برأيي

---

(١) انظر : تفسير الطَّبري (٩/ ٢٤ ـ ٢٦) .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٨) .
(٣) انظر : في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) وما بعدها .
(٤) انظر : غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٢٩٦ .
(٥) انظر : صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٩٧ .
(٦) انظر : غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٣ .
(٧) المصدر السابق نفسه .

اجتهاداً ، فو الله! ما آلو عن الحقِّ ، وذلك يوم أبي جندل) [البزار (١٨١٣) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦)].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتَّهموا رأيكم ؛ رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله ﷺ ؛ لرَدَدْتُه[(١)].

ولقد بقي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه برهةً من الزَّمن متخوفاً أن يُنزل الله به عقاباً لِلَّذي صنع يوم الحديبية ، فكان رضي الله عنه يتحدَّث عن قصَّته تلك ، ويقول: فما زلت أصوم ، وأتصدَّق ، وأعتق مِنَ الَّذي صنعت مخافة كلامي الَّذي تكلَّمت به يومئذٍ ؛ حتَّى رجوت أن يكون خيراً. [ابن هشام (٣/ ٣٣١)][(٢)].

قال ابن الديبع الشَّيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصَّة من وجوب طاعته ﷺ والانقياد لأمره ؛ وإن خالف ظاهرُ ذلك مقتضى القياس ، أو كَرِهَتْهُ النُّفوس ، فيجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعتقد: أنَّ الخير فيما أمر به ، وأنَّه عين الصَّلاح المتضمِّن لسعادة الدُّنيا والآخرة ، وأنَّه جاء على أتمِّ الوجوه وأكملها ، غير أنَّ أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته ، وعاقبة أمره[(٣)].

ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة:

في قول رسول الله ﷺ: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنيَّة ثَنيَّة المُرَارِ ؛ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل؟» [سبق تخريجه].

يظهر في هذا الحديث جانبٌ عظيمٌ من جوانب التَّربية النَّبويَّة يستحقُّ التأمُّل والتَّدبُّر، فرسول الله ﷺ يشجِّع أصحابه على صعود الثَّنيَّة ، ثمَّ يخبرهم: أنَّ الذي يجتازها سينال مغفرةً من الله تعالى ، وحين نتأمَّل هذا الحديث تبرز لنا معانٍ عظيمةٌ منها:

١ ـ أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتهم.

٢ ـ أنَّه يريد لفت أنظارهم إلى أنَّ كلَّ حركةٍ يتحرَّكونها ، وكلَّ عملٍ يقومون به ـ حتَّى ما يرون: أنه من العادات أو من دواعي الغريزة ـ يجب استغلاله للتَّزوُّد لذلك اليوم ، وكان ﷺ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصَّحابة ، فنراه يقول في موطنٍ آخر: «وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته ؛ ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (٢/ ٦٢٢).

(٣) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، ص ٣١٥.

وضعها في حرامٍ؛ أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال؛ كان له أجرٌ». [أحمد (٥/ ١٦٧ و١٦٨) ، ومسلم (١٠٠٦) ، وأبو داود (٥٢٤٣) و(٥٢٤٤)].

ويقول في موطنٍ ثالث: «وإنَّك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنَّها صدقةٌ ، حتَّى اللُّقمة الَّتي ترفعُها إلى في امْرَأتك». [البخاري (٢٧٤٢) ، ومسلم (١٦٢٨)].

إنَّ تلك المعاني ـ إذا تمكَّنت في قلب المسلم ـ لكَفِيْلةٌ بأن تصبُغَ حياته كلَّها بصبغة العبودية لله وحده ، وإذا شملت العبادة كلَّ نواحي حياة المسلم؛ فإنَّ لهذا الشُّمول آثاراً مباركةً سوف يشعر بها الفرد في نفسه ، ثم يلمسها فيمن حوله(١).

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

أ ـ أن يصبُغ حياة المسلم وأعماله بالصِّبغة الرَّبَّانيَّة ، ويجعله مشدوداً إلى الله في كلِّ ما يؤدِّيه ، فهو يقوم به بنيَّة العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كلِّ عملٍ نافعٍ ، وكلِّ إنتاجٍ صالحٍ ، وكلِّ ما ييسِّر له ، ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل وجوهها ، فإنَّ ذلك يزيد رصيده من الحسنات ، والقربات عند الله تعالى ، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدُّنيويِّ ، وتجويده ، وإتقانه ، ما دام يقدِّمه إلى ربِّه سبحانه ابتغاء رضوانه ، وحسنِ مثوبته.

ب ـ أنَّه يمنح المسلم وحدة الوُجهة ، ووحدة الغاية في حياته كلِّها ، فهو يرضى رباً واحداً في كلِّ ما يأتي ، ويدع ، ويتَّجه إلى هذا الرَّبِّ بسعيه كلِّه الدِّينيِّ والدُّنيويِّ ، لا انقسام ، ولا صراع ، ولا ازدواج في شخصيته ، ولا في حياته(٢).

ولقد عاش الصَّحابة الكرام تلك المعاني ، وحوَّلوها إلى حقائق ملموسةٍ في حياتهم كلِّها ، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتديَ بهم في حياتنا ، وتكونَ حجَّةً على كلِّ مَنْ جاء بعدهم(٣).

* * *

---

(١) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٥.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ٦٦.

(٣) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٦ ، لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، وصلح الحديبية ، لباشميل ، وغزوة الحديبية ، لأبي فارس ، وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل ، كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

الفصل الرَّابع عشر
أهم الأحداث ما بين الحديبية ، وفتح مكة

المبحث الأوَّل
غزوة خيبر

أولًا : تاريخها ، وأسبابها :

ذكر ابن إسحاق[(١)] : أنَّها كانت في المحرَّم من السَّنة السَّابعة للهجرة ، وذكر الواقديُّ[(٢)] أنَّها كانت في صفر ، أو ربيع الأول من السَّنة السَّابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية ، وذهب ابن سعدٍ[(٣)] إلى أنَّها في جمادى الأولى سنة سبعٍ ، وقال الإمامان : الزُّهريُّ ، ومالكٌ : إنَّها في محرَّم من السَّنة السَّادسة[(٤)] ، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق ، والواقديِّ يسيرٌ ، وهو نحو الشَّهرين ، وكذلك فإنَّ الخلاف بينهما ، وبين الإمامين الزُّهري ، ومالكٍ مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السَّنة الهجريَّة الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وقد رجَّح ابن حجر[(٥)] قول ابن إسحاق على قول الواقديِّ[(٦)] .

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتَّى نزل فيهم زعماء بني النَّضير ؛ الَّذين حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم

---

(١) انظر : السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٤٥٥) ـ معلقاً . وينظر الشكل (١٢) في الصفحة (٧٥٦) .
(٢) انظر : المغازي (٢/ ٦٣٤) .
(٣) انظر : الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ١٠٦) .
(٤) انظر : تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١/ ٣٣) .
(٥) انظر : الفتح (١٦/ ٤١) ، والسِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠ .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠ .

النِّساء ، والأبناء ، والأموال ، وخلفهم القيان يضربن الدُّفوف ، والمزامير بزهاءٍ ، وفخرٍ ما رئي مثله في حيٍّ من النَّاس في زمانهم(١) .

وكان من أبرز زعماء بني النَّضير الذين نزلوا في خيبر سلاَّم بن أبي الحُقَيق ، وكِنانة بن أبي الحُقيق ، وحُيَيُّ بن أخطب ، فلمَّا نزلوا دان لهم أهلُها(٢) .

وكان تَـزَعُّمُ هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرِّها إلى الصِّراع ، والتَّصدِّي ، والانتقام من المسلمين ، فقد كان يدفعهم حقدٌ دفينٌ ، ورغبةٌ قويَّةٌ في العودة إلى ديارهم داخل المدينة ، وكان أوَّل تحرُّكٍ قويٍّ ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النَّضير دورٌ كبيرٌ في حشد قريش ، والأعراب ضدَّ المسلمين ، وتسخير أموالهم في ذلك ، ثمَّ سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر ، والتَّعاون مع الأحزاب(٢) ، بل إنَّهم أنفقوا أموالهم ، واستغلُّوا علاقاتهم مع يهود بني قُريظة من أجل نُصرة الأحزاب وطَعْنِ المسلمين في ظهورهم(٣) ، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطرٍ كبيرٍ على المسلمين ، ودولتهم النَّامية .

تفرَّغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الَّذي أصبح يهدِّد أمن المسلمين ، ولقد تضمَّنت سورة الفتح الَّتي نزلت بعد الحديبية وعداً إلٰهياً بفتح خيبر ، وحيازة أموالها غنيمةً(٣) .

قال تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح : ١٨ ـ ٢١] .

ثانياً : مسير الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر :

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ ، على الرَّغم من علمهم بمنعة حصون خيبر ، وشدَّة بأس رجالها ، وعتادها الحربيِّ ، وكانوا يكبِّرون ، ويهلِّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ ، فطلب منهم النَّبيُّ ﷺ أن يرفُقوا بأنفسهم قائلاً : «أيُّها النَّاس ! ارْبَعُوا على أنفسكم ، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ، ولا غائباً ، ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [البخاري (٦٣٨٤) ، ومسلم (٢٧٠٤)] .

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً ، فقد قال سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه : خرجنا مع النَّبي ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ، ويقول :

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣١٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٩) .

اللَّهُـمَّ لَـوْلاَ أَنْـتَ مَـا اهْتَـدَيْنَـا ولاَ تَصَـدَّقْنَـا وَلاَ صَلَّيْنَـا
فَـاغْفِـرْ فِـدَاءً لَـكَ مَـا اتَّقَيْنَـا وَثَبِّـتِ الأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَيْنَـا
وَأَلْقِيَـنْ سَكِيْنَـةً عَلَيْنَـا إِنَّـا إِذَا صِيْـحَ بِنَـا أتينـا
وَبِـالصِّيَـاحِ عَـوَّلُـوا عَلَيْنَـا

فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ هذا السَّائق؟» قالوا : عامر بن الأكوع .

قال : «يرحمه الله!» .

قال رجلٌ ـ هو عمر بن الخطَّاب ـ[1] مِنَ القومِ : وَجَبَت يا نبيَّ الله! لولا أمتعتنا به . [البخاري (٤١٩٦) ، ومسلم (١٨٠٢)] .

وعندما وصل الجيش الإسلاميُّ بالصَّهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلَّى العصر ، ثمَّ دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا السَّويق ، فأمر به فثري ، فأكل ، وأكل معه الصَّحابة ، ثمَّ قام إلى المغرب ، فمضمض ثمَّ صلَّى بالصَّحابة ، ولم يتوضَّأ . [البخاري (٤١٩٥) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٠٠)][2] .

وكان ﷺ قد بعث عبَّاد بن بِشْرٍ رضي الله عنه في سريَّةٍ استطلاعيَّة يتلقَّط أخبار العدوِّ ، ويستطلع إن كان هناك كمائن ، فلقي في الطَّريق عيناً لليهود من أشجع ، فقال : من أنت؟ قال : باغٍ أبتغي أبعرة ضلَّت لي ، أنا على إثرها . قال عبَّاد : ألك علمٌ بخيبر؟ قال : عهدي بها حديثٌ ، فيمَ تسألني عنه؟ قال : عن اليهود؟ قال : نعم ، كان كنانة بن أبي الحُقيق ، وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غَطَفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنةً ، فجاؤوا مُعَدِّين ، مؤيَّدين بالكُراع والسِّلاح ، يقودهم عتبة بن بدرٍ ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيهم عشرة آلاف مقاتلٍ ، وهم أهل الحصون الَّتي لا ترام ، وسلاحٌ ، وطعامٌ كثيرٌ ، لو حُصِرُوا لسنين ؛ لكفاهم ، وماءٌ يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة ، فرفع عبَّاد بن بشرٍ السَّوط ، فضربه ضرباتٍ ، وقال : ما أنت إلا عينٌ لهم ، اصدقني ، وإلا ضربتُ عنقك! فقال الأعرابيُّ : القوم مرعوبون منكم ، خائفون ، وَجِلون ؛ لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وقال لي كنانة : اذهب معترضاً للطَّريق ، فإنهم لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا ، وادنُ منهم كالسَّائل لهم ما تقوى به ، ثمَّ ألقِ إليهم كثرة عددنا ، ومددنا ، فإنَّهم لن يدعوا سؤلك ، وعجِّل الرَّجعة إلينا بخبرهم[3] .

---

(١) انظر : فتح الباري (٧/ ٥٣٠) .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ٣٠) .
(٣) انظر : المغازي ، للواقدي (٢/ ٦١٠ ـ ٦٤١) .

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قفوا». ثمَّ قال: «اللّهُمَّ ربَّ السَّموات ، وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين ، وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشَّياطين ، وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرِّياح ، وما ذَرَيْن ، فإنَّا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرِّها ، وشرِّ أهلها ، وشرِّ ما فيها ، اقدموا باسم الله» [ابن حبان (٢٧٠٩) ، والحاكم (٢/ ١٠٠ ـ ١٠١) ، والنسائي في اليوم والليلة (٥٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٥٢) ، وابن خزيمة (٥٦٥) ، والطبراني في الكبير (٧٢٩٩)]. وكان يقولها لكلِّ قرية دخلها.

ولما أدرك رسول الله ﷺ اللَّيل أمر الجيش بالنَّوم على مشارف خيبر ، ثم استيقظوا مبكرين ، وضربوا خيامهم ، ومعسكرهم بوادي الرَّجيع ، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان؛ حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان(١).

ولمَّا أصبح الصُّبح خرجت اليهود بمساحيهم(٢) ، ومكاتلهم(٣) ، فلمَّا رأوا جيش المسلمين قالوا: محمدٌ والله! محمدٌ والخَميس ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «الله أكبر! الله أكبر! خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ، فساء صباحُ المنذرين» [البخاري (٦١٠) ، ومسلم (١٣٦٥/ ١٢٠)].

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم ، وحاصرهم المسلمون ، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر ، وكان أوَّل ما سقط من حصونهم ناعمٌ ، والصَّعب بمنطقة النَّطاة ، وأبو النِّزار بمنطقة الشِّقِّ ، وكانت هاتان المنطقتان في الشَّمال الشَّرقي من خيبر ، ثمَّ حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة ، وهو حصن ابن أبي الحُقَيْق ، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطيح ، والسَّلالم(٤).

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون ، منها حصن ناعمٍ؛ الَّذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاريُّ ، حيث ألقى عليه مرحبُ رحىً مِنْ أعلى الحصن(٥) ، والَّذي استغرق فتحه عشرة أيام(٦) ، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصِّدِّيق ، ولم يفتح الله عليه ، وعندما جهَد النَّاس ، قال رسول الله ﷺ: إنَّه سيدفع اللِّواء غداً إلى رجلٍ يحبُّه الله ورسولُه ، ويحبُّ الله ورسولَه ، لا يرجع حتَّى يُفْتَح له ، فطابت نفوس المسلمين ، فلمَّا صلَّى فجر اليوم الثَّالث دعا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ودفع إليه اللِّواء ، فحمله ، فتمَّ فتح الحصن على يديه. [الحاكم (٣/ ٣٧)].

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ٤٥).
(٢) المساحي: جمع ، ومفردها: مسحاة ، والمسحاة: المجرفة من الحديد.
(٣) المكاتل: جمع مكتل ، وهو المقطف الكبير.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠١.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٧).

وكان عليٌّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيه عندما دعاه الرَّسول ﷺ ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له ، فبَرَأ . [البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦)] .

ولقد أوصى الرَّسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم ، وقال له : «فو الله ! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَمِ» . [البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦)] .

وعندما سأله عليٌّ رضي الله عنه : يا رسول الله ! على ماذا أقاتل الناس؟ قال : «قاتلهم حتَّى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك ؛ منعوا منك دماءهم ، وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابهم على الله» . [مسلم (٢٤٠٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٦٠)] .

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيِّده ، وبطلُهم مِرْحَبٌ ، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع ، ثمَّ بارزه عليٌّ فقتله[1] ، وقيل : قتله محمَّد بن مسلمة ، ممَّا أثر سلبياً في معنويات اليهود ، ومِنْ ثَمَّ هزيمتهم[2] .

ووردت مجموعةٌ من روايات تخبر بأن علياً رضي الله عنه تترَّس بباب عظيمٍ ، كان عند حصنِ ناعمٍ ، بعد أن أسقط يهوديٌّ ترسه مِنْ يده . وكلُّها رواياتٌ ضعيفةٌ [أحمد (٦/ ٨)، والطبري في تاريخه (٣/ ٩٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢١٢) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٢)][3] ، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوَّة عليٍّ ، وشجاعته ، فيكفيه ما ثبت في ذلك ، وهو كثيرٌ[4] .

توجَّه المسلمون إلى حصن الصَّعب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعمٍ ، وأبلى حامل رايتهم الحُباب بن المنذر بلاءً حسناً ، حتَّى افتتحوه بعد ثلاثة أيام ، ووجدوا فيه الكثير من الطَّعام والمتاع يوم كانوا في ضائقةٍ من قلَّة الطَّعام ، ثمَّ توجَّهوا بعده إلى حصن قلعة الزُّبير ـ الَّذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعمٍ ، والصَّعبِ ، وبقيَّةِ ما فتح من حصون يهود ـ فحاصروه ، وقطعوا عنه مجرى الماء الَّذي يغذِّيه ، فاضطروهم إلى النزول للقتال ، فهزموهم بعد ثلاثة أيَّامٍ ، وبذلك تمَّت السَّيطرة على آخر حصون منطقة النَّطاة ؛ الَّتي كان فيها أشدُّ اليهود ، ثمَّ توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق وبدؤوا بحصن أُبَيٍّ ، فاقتحموه ، وأفلت بعضُ مقاتلته إلى حصن نزار ، وتوجَّه إليهم المسلمون فحاصروهم ، ثمَّ افتتحوا الحصن ، وفرَّ بقيَّة أهل الشِّقِّ من حصونهم ، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع ، وحصن الوَطِيح ، وحصن السَّلالم ، فحاصرهم

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ٥٠٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٢٤) .
(٤) المصدر السابق نفسه .

المسلمون لمدَّة أربعة عشر يوماً حتَّى طلبوا الصُّلح[١] .

وهكذا فُتحت خيبر عَنْوةً[٢]؛ استناداً إلى النَّظر في مجريات الأحداث التي سقناها ، وما روى البخاريُّ[٣] ، ومسلمٌ[(١٣٦٥/ ١٢٠)] ، وأبو داود[(٣٠٠٩)][٤] من أنَّ رسول الله ﷺ غزا خيبر ، وافتتحها عَنْوةً[٥] .

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين ، وسارع أهل فَدَك في شمال خيبر إلى طلب الصُّلح ، وطلبوا منه أن يحقن دماءهم ، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [مسلم (١٥٥١) ، وأحمد (٢/ ٤٥١) ، وأبو داود (٣٠٠٦) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٣٧ ـ ١٣٨)][٦] فكانت فدك خالصةً لرسول الله ﷺ ؛ لأنَّه لم يوجف عليها بخيلٍ ، ولا ركاب ، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعةُ قرى بين خيبر، وتيماء ليالي[٧]، ثمَّ استسلمت ، فغنم المسلمون أموالاً كثيرةً ، وتركوا الأرض والنَّخل بيد اليهود ، وعاملهم عليها مثل خيبر ، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ، ووادي القرى[٨] .

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهوديَّة أمام قوَّات المسلمين ، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثةً وتسعين رجلاً[٩] ، وسبيت النِّساء والذَّراري ، منهنَّ صفيَّـةُ بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، فأعتقها رسولُ الله ﷺ ، وتزوَّجها . [البخاري (٣٧١) ، ومسلم (١٣٦٥)] .

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[١٠] ، وخمسة عشرَ فيما ذكر الواقديُّ[١١] .

رابعاً: الأعرابيُّ الشَّهيد ، والرَّاعي الأسود ، وبطلٌ إلى النَّار :

١ ـ الأعرابيُّ الشَّهيد :

جاء رجلٌ من الأعراب إلى النَّبيِّ ﷺ ، فآمن به ، واتَّبعه ، فقال: أهاجر معك. فأوصى به

---

(١) انظر: الواقدي (٢/ ٦٥٨ ـ ٦٧١) .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) انظر: مغازي الواقديِّ (٢/ ٦٩٩) .
(٧) انظر: تاريخ خليفة ، ص ٨٥ نقلاً عن ابن إسحاق .
(٨) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤ـ ٣٥٥) .
(٩) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠٤ .
(١٠) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٢٧) .
(١١) انظر: المغازي (٢/ ٧٠٠) .

بعض أصحابه ، فلمَّا كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ﷺ شيئاً ، فقسمه ، وقسم للأعرابيِّ ، فأعطى أصحابه ما قسَم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلمَّا جاء؛ دفعوه إليه ، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسولُ الله ﷺ ، فأخذه فجاء به للنَّبيِّ ﷺ ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «قَسْمٌ قسمتُه لك» . قال: ما على هذا اتبعتُك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهمٍ فأموتَ ، فأدخلَ الجنَّة ، فقال: «إن تَصْدُقِ الله؛ يَصْدُقْكَ» ثم نهض إلى قتال العدوِّ ، فأُتي به إلى النَّبيِّ ﷺ ؛ وهو مقتولٌ ، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم.

قال: «صَدَقَ اللهَ ، فَصَدَقَهُ» .

فكفَّنه النَّبيُّ ﷺ في جُبَّته ، ثمَّ قدَّمه ، فصلَّى عليه ، وكان من دعائه له: «اللَّهُمَّ هذا عبدُك خرج مهاجراً في سبيلك ، قُتِل شهيداً ، وأنا عليه شهيدٌ» . [النسائي (٤/ ٦٠ ـ ٦١) ، والحاكم (٣/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٢٢) ، وفي السنن الكبرى (٤/ ١٥ ـ ١٦)] .

٢ ـ الرَّاعي الأسود:

وجاء عبدٌ أسودُ حبشيٌّ من أهل خيبر ، كان في غنمٍ لسيده ، فلمَّا رأى أهل خيبر قد أخذوا السِّلاح ، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الَّذي يزعم: أنَّه نبيٌّ. فوقع في نفسه ذكر النَّبيِّ ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسول الله ، وألا تعبد إلا الله» . قال العبد: فما لي إن شهدت ، وآمنت بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال: «لك الجنَّة إنْ مِتَّ على ذلك . فأسلم ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هذه الغنم عندي أمانةٌ ، فقال رسول الله ﷺ : «أخرجها من عندك وارمها بـ(الحصباء)؛ فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمانتك» . ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيِّدها ، فعلم اليهوديُّ: أنَّ غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ﷺ في النَّاس ، فوعظهم ، وحضَّهم على الجهاد ، فلمَّا التقى المسلمون واليهود؛ قُتِلَ ـ فيمن قُتِلَ ـ العبدُ الأسود ، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم ، فأُدخل في الفسطاط ، فزعموا: أنَّ رسول الله ﷺ اطَّلع في الفُسطاط ، ثمَّ أقبل على أصحابه ، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خيبر ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يُصَلِّ لله سجدةً قطُّ» . [الحاكم (٢/ ١٣٦) ، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٣) ، وفي الدلائل (٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)][١] .

٣ ـ بطل لكنَّه إلى النَّار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجلٌ لا يدع للمشركين شاذَّةً ، ولا فاذَّةً[٢] إلا اتَّبعها يضربها

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣ ، ٣٢٤) والسِّيرة الحلبيَّة (٣/ ٣٩) ، وابن كثير في البداية والنِّهاية.
(٢) الشَّاذ: الَّذي يفارق الجماعة ، الفاذُّ: الَّذي لم يختلط بالجماعة.

بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ : «أما إنَّه من أهل النَّار» . فقالوا : أيُّنا من أهل الجنَّة إن كان من أهل النَّار؟! فقال رجلٌ : والله لا يموت على هذه الحال أبداً ، فاتَّبعه حتَّى جرح ، فاشتدَّت جراحتُه ، واستعجل الموت ، فوضع سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثمَّ تحامل عليه ، فقتل نفسه ، فجاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد إنَّك رسول الله! قال : «وما ذاك؟» فأخبره ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «إنَّ الرَّجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس ، وإنَّه من أهل النَّار ، وإنَّه ليعمل بعمل أهل النَّار فيما يبدو للنَّاس ، وإنَّه لمن أهل الجنَّة» . [البخاري (٤٢٠٢ و٤٢٠٧) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٥٢)] .

خامساً : قدوم جعفر بن أبي طالبٍ ، ومَنْ معه من الحبشة :

قدم جعفر بن أبي طالبٍ ، وصحبُه من مهاجري الحبشة على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر ، فقبَّلهُ رسول الله ﷺ بين عينيه ، والتزمه ، وقال : «ما أدري بأيِّهما أنا أسَرُّ بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر؟!» [الطبراني في الصغير (٣٠) ، وفي الأوسط (٢٠٢٤) ، وفي الكبير (١٤٧٠) ، وابن سعد (٤/ ٣٥) ، والحاكم (٣/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩) ، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٠١) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)] . وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النَّجاشيِّ عمرو بن أميَّة الضَّمريَّ ، فحملهم في سفينتين ، ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر ، وقد رافق جعفراً في قدومه أبو موسى الأشعريُّ ، ومن كان بصحبته من الأشعريِّين(١) .

فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال : بلغنا مَخْرَجُ النَّبيِّ ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا ، وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدُهم أبو بُرْدَةَ ، والآخر أبو رُهْمٍ ، إمَّا قال : في بضعٍ ، وإمَّا قال : في ثلاثةٍ وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النَّجاشيِّ بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ فأقمنا جميعاً ، فوافقنا النَّبيَّ ﷺ حين افتتح خيبر . [البخاري (٤٢٣٠) ، ومسلم (٢٥٠٢)] .

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآنٌ كثيرٌ ، ودارت معارك شتَّى مع الكفَّار ، وتقلَّب المسلمون قبل الهجرة العامَّة وبعدها في أطوارٍ متباينةٍ ، حتَّى ظنَّ البعض أنَّ مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كلُّه ـ أقلُّ قدراً من غيرهم(٢) .

فعن أبي موسى : « . . كان أناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة ، ودخلت أسماء بنت عُمَيْسٍ على حفصة زوج النَّبيِّ زائرةً ـ وكانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة ؛ وأسماء عندها ، فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عُميس . قال

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٥٣ .

(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٣٥٠ .

عمر: الحبشيَّة هذه؟ البحريَّة هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله منكم! فغضبت ، وقالت: كلاَّ والله! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعظُ جاهلكم ، وكنَّا في أرض البُعَدَاء البُغضَاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله ، وايمُ الله! لا أطعَم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ ، وأسأله ، والله! لا أكذب ، ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاءت النَّبيَّ ﷺ ؛ قالت: كذا وكذا ، قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ، ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم ـ أهل السَّفينة ـ هجرتان». [سبق تخريجه].

فأخذت أسماء هذا الوسام ، ووزَّعته على جميع أعضاء الوفد؛ حيث كانوا[1] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ ، ولا أعظم في نفوسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ . [سبق تخريجه].

وقد أشركهم النَّبيُّ ﷺ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصَّحابة رضي الله عنهم الَّذين شاركوا في فتحها[2] .

سادساً: تقسيم الغنائم:

١ ـ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرَّسول ﷺ غنيمةً من حيث الأراضي ، والنَّخيل ، والثِّياب ، والأطعمة ، وغير ذلك ، ومن خلال وصف كتب السِّيرة نلاحظ: أنَّ الغنائم كانت تتكوَّن من:

أ ـ الطَّعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر ، فقد وجدوا فيها الشَّحم ، والزَّيت ، والعسل ، والسَّمن وغير ذلك ، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة ، ولم يخمِّسها[3] .

ب ـ الثِّياب ، والأثاث ، والإبلُ ، والبقر ، والغنم: لقد أخذ رسول الله ﷺ خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه ، ووزَّع أربعة أخماسها على المجاهدين.

ج ـ السَّبي: لقد سبى رسولُ الله ﷺ كثيراً من نساء اليهود ، ووزَّع السَّبي على المسلمين ، فهو غنيمةٌ ، ويأخذ حكم الغنيمة.

د ـ أمَّا الأراضي ، والنَّخيل: فقد قسمها النَّبيُّ ﷺ إلى ستَّةٍ وثلاثين سهماً ، جمع كلُّ سهم مئة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمئة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ لنوائبه ، وما ينزل به من أمور

---

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٥٣٥ .
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٣/ ٩٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٤٠).

المسلمين وللمسلمين النِّصف من ذلك ، وهو ألفٌ وثمانمئة سهم ، ووزَّع النِّصف الآخر ، وهو ألف وثمانمئة سهم[(١)].

هـ ـ وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدَّة صحفٍ من التَّوراة، فطلب اليهود ردَّها ، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرُّومان حينما فتحوا أورشليم ، وأحرقوا الكتب المقدَّسة ، وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النَّصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التَّوراة[(٢)].

وقد أبقى رسولُ الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها ، وينفقوا عليها من أموالهم ، ولهم نصف ثمارها ، على أنَّ للمسلمين حقَّ إخراجهم منها متى أرادوا ، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النَّبيِّ ﷺ ، وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم ، فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها . [أبو داود (٣٤١٠) ، وابن ماجه (١٨٢٠)][(٣)].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء ، وهنا تظهر براعةٌ سياسيَّةٌ جديدةٌ في عقد الشُّروط ؛ فإنَّ بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفِّر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ اليهود هم أصحاب الأرض ، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم ، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرةً أكثر ، وأجود ، وبخاصَّةٍ: أنَّهم لن يأخذوا أجراً ، ولكنَّهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض، قلَّ ، أو كثر.

وقد ضمن الرَّسول ﷺ ـ بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون ـ إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنَّهم يعلمون: أنَّهم إذا فعلوا شيئاً يضرُّ بالمسلمين سيطردونهم منها ، ولا يعودون إليها أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا[(٤)] يديه من المرفقين ، وكانوا قبل ذلك في عهد الرَّسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهل ، فقتلوه ، فلمَّا تحقَّق عمر من غدرهم، وخيانتهم؛ أمر بإجلائهم[(٥)]. وحاول يهود خيبر أن يُخفوا الفضَّة، والذَّهب، وغيبوا مَسْكاً[(٦)] لحُيَيِّ بن أخطب ، وكان قد قتل مع بني قريظة ، وكان احتمله معه يوم بني النَّضير حين أجليت بنو النَّضير ، فسأل رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٣/ ١٤١ ـ ١٤٢).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٤١٩).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٢٨).
(٤) الفَدَعُ: عوجٌ في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها.
(٥) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩.
(٦) المَسْك: الجلد عامَّة ، أو جلد السَّخلة خاصَّة (السَّخلة: ولد الشاة).

سَعْيَةَ عمَّ حُيَيٍّ بن أخطب: «أين مَسْكُ حُيَيِّ بن أخطب؟» قال: أذهبته الحروب، والنَّفقات[١]. فقال رسولُ الله ﷺ: العهد قريبٌ، والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسولُ الله ﷺ إلى الزُّبير بن العوَّام، فمسَّه بعذابٍ، وقد كان حُيي قبل ذلك دخل خربة، فقال عمُّه: قد رأيت حُيياً يطوف في خربةٍ ها هنا، فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة[٢].

وبعد الاتِّفاق الَّذي تمَّ بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسولُ الله ﷺ عبد الله بن رواحة يأتيهم كلَّ عام، فيخرصُها عليهم، ثم يضمِّنهم الشَّطر. فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدَّة خَرْصِه[٣]، وأرادوا أن يَرْشُوه فقال: يا أعداء الله! تطعموني السُّحت؟ والله! لقد جئتكم من عند أحبِّ النَّاس إليَّ، ولأنتم أبغضُ النَّاس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إيَّاكم وحبِّي إيَّاه على ألاَّ أعدل عليكم! فقالوا: بهذا قامت السَّموات، والأرض[٤].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين، وصارت مورداً مهمّاً لهم، قال ابن عمر رضي الله عنه: «ما شبعنا حتَّى فُتِحَتْ خيبر» [البخاري (٤٢٤٣)]، وقد تحسَّن الوضع الاقتصاديُّ بعد خيبر، وردَّ المهاجرون المنائح الَّتي أعطاهم إيَّاها الأنصار من النَّخل[٥].

سابعاً: زواج رسول الله ﷺ من صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب:

لمَّا فتح المسلمون القَمُوص ـ حصن بني أبي الحُقيق ـ كانت صفيَّة في السَّبي، فأعطاها لدحية الكلبي، فجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! أعطيت دحية صفيَّة بنت حُيَيٍّ سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النَّبيُّ ﷺ ما أشار به الرَّجل، وقال لدحية: خذ جاريةً من السَّبي غيرها، ثمَّ أخذها رسولُ الله ﷺ وأعتقها، وجعل عتقها صداقها. [سبق تخريجه]، ثمَّ تزوجها بعد أن طَهُرت من حَيْضَتها[٦] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النَّبيُّ ﷺ من خيبر حتَّى طهرت صفيَّة من حيضها، فحملها وراءه، فلمَّا صار إلى منزلٍ على ستة أميالٍ من خيبر؛ مال يريد أن يعرِّس بها، فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلمَّا كان

---

(١) انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/ ٣٢٦)، ونصب الرَّاية للزَّيلعي (كتاب السِّيَر) فصل: باب الغنائم وقسمتها.
(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية، وتاريخ الإسلام، للذهبي، والمغازي، للواقدي، ص٤٢٤.
(٣) الخرص: الحَزْرُ، والحدْس، والتَّخمين. وخرَّص العدد: أي قدَّره تقديراً بظنٍّ لا إحاطةٍ.
(٤) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، والمغازي، للواقدي، ص ٤٢٤.
(٥) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٥٢.
(٦) انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٠١).

بالصَّهباء نزل بها هناك ، فمشطتها أمُّ سليم ، وعطَّرتها ، وزفَّتها إلى النَّبيِّ ﷺ ، وبنى بها ، فسألها : «ما حملك على الامتناع من النُّزول أوَّلاً؟» فقالت : خشيت عليك من قرب اليهود ، فعظمت في نفسه ، ومكث رسولُ الله ﷺ بالصَّهباء ثلاثة أيام ، وأوْلَمَ عليها ، ودعا المسلمين ، وما كان فيها من لحمٍ ، وإنَّما التَّمر ، والأقِطُ ، والسَّمن ، فقال المسلمون : إحدى أمهات المؤمنين ، أو ما ملكت يمينُه لها ، فلمَّا ارتحل وطَّأ لها خلفه ومدَّ عليها الحجاب ، فأيقنوا أنَّها إحدى أمَّهات المؤمنين . [سبق تخريجه][1] .

وقد كانت أم المؤمنين صفيَّة بنت حُيَيٍّ قد رأت رؤيا ، فقد روى البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديثٍ طويلٍ قال : ورأى رسول الله ﷺ بعين صفيَّة خضرةً ، فقال : يا صفيَّة! ما هذه الخضرة؟ فقالت : كان رأسي في حجر ابن حُقَيْقٍ ، وأنا نائمةٌ ، فرأيت كأنَّ قمراً وقع في حجري ، فأخبرتُه بذلك فلطمني ، وقال : تَمَنَّيْنَ ملك يثرب . [البيهقي في الكبرى (٩/ ١٣٨)] .

وهكذا صدَّق الله رؤيا صفيَّة رضي الله عنها ، وأكرمها بالزَّواج من رسوله ﷺ ، وأعتقها من النَّار ، وجعلها أماً للمؤمنين ، وزوجاً في الجنَّة لخاتم الأنبياء والمرسلين[2] ، وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام ، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفيةُ رجلها على ركبته حتَّى تركب ، وقد بلغ من أدبها : أنَّها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته ، فكانت تضع ركبتها على ركبته ، وتركب . [البخاري (٢٢٣٥)] .

وهذه صفيَّة رضي الله عنها تحدِّثنا عن خلق رسول الله ﷺ ، فتقول : ما رأيت أحداً قطُّ أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ؛ لقد رأيته ركب بي في خيبر ، وأنا على عجز ناقته ليلاً ، فجعلت أنعس ، فتضرب رأسي مؤخرة الرَّحل ، فيَمسُّني بيده ، ويقول : «يا هذه! مهلاً» [أبو يعلى (٧١٢٠) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٥٢)][3] . وعن صفيَّة رضي الله عنها : أنَّها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا : نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفيَّة ، نحن أزواجه وبنات عمِّه ، فدخل عليها ﷺ فأخبرته ، فقال : «ألا قلت : وكيف تكونان خيراً منِّي ؛ وزوجي محمَّد ، وأبي هارون ، وعمِّي موسى؟!» . [الترمذي (٣٨٩٢) ، والحاكم (٤/ ٢٩)] .

لقد تأثَّرت صفيَّة بأخلاق رسول الله ﷺ ، وأصبح ﷺ أحبَّ إليها من أبيها ، وزوجها السَّابق ، والنَّاس أجمعين ، بل أصبح أحبَّ إليها من نفسها ، تفديه بكلِّ ما تملك حتَّى نفسها ، وإذا ألمَّ به مرضٌ ؛ تمنَّت أن يكون فيها ، وأن يكون رسول الله ﷺ سليماً معافىً ، فقد أخرج ابن

---

(١) انظر : السَّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤) .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٢٢) .
(٣) انظر : السِّيرة الحلبيَّة (٣/ ٤٥) .

سعد رحمه الله بإسنادٍ حسنٍ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ، قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الَّذي تُوفِّي فيه ، فقالت صفيَّة رضي الله عنها: إنِّي والله يا نبيَّ الله لوددت أنَّ الَّذي بك بي! فغمز بها أزواجُه ، فأبصرهنَّ رسول الله ﷺ فقال: «مَضْمِضْنَ» فقلن: من أيِّ شيء؟ فقال: «من تغامزكنَّ بها ، والله إنَّها لصادقة[١]!».

وممَّا له صلةٌ بزواج رسول الله ﷺ بصفيَّة بنت حُيَيٍّ حراسة أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يوم أن دخل بصفيَّة ، فعن ابن إسحاق: أنَّه قال: ولمَّا أعرس رسول الله ﷺ بصفيَّة بخيبر ، أو ببعض الطَّريق ، فبات بها رسول الله ﷺ في قبَّةٍ له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النَّجار متوشِّحاً سيفه ، يحرس رسول الله ﷺ ، ويَطيف بالقُبَّة؛ حتَّى أصبح رسولُ الله ﷺ ، فلمَّا رأى مكانه؛ قال: «ما لك يا أبا أيوب؟!» قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأةً قد قتَلْتَ أباها ، وزوجها ، وقومها ، وكانت حديثة عهدٍ بكفرٍ ، فخفتُها عليك[٢] ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بعمله الَّذي ينبئ عن غاية الحبِّ ، والإيمان ، وقال: «اللّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحرُسني!». [ابن هشام (٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥)][٣].

وكان زواجُ رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمةٌ عظيمةٌ ، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوةٍ ، أو إشباعاً للغريزة كما يزعم الأفَّاكون ، وإنما أراد إعزازها ، وتكريمها ، وصيانتها من أن تفترش لرجلٍ لا يعرف لها شرفها ، ونسبها في قومها ، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها؛ فقد قُتل أبوها من قبلُ ، وزوجُها ، وكثيرٌ من قومها ، ولم يكن هناك أجمل ممَّا صنعه الرَّسول ﷺ معها ، كما أنَّ فيه رباط المصاهرة بين النَّبيِّ ﷺ واليهود؛ عسى أن يكون في هذا ما يخفِّف من عدائهم للإسلام ، والانضواء تحت لوائه ، والحدِّ من مكرهم ، وسعيهم بالفساد[٤].

وكانت أمُّ المؤمنين صفيَّة رضي الله عنها عاقلةً ، وحليمةً ، وصادقةً ، يروى: أنَّ جاريةً لها أتت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقالت: إنَّ صفية تحبُّ السَّبت ، وتصل اليهود ، فبعث إليها فسألها عن ذلك ، فقالت: أمَّا السَّبت فإنِّي لم أحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً فأنا أصلُها ، فقبل منها ، ثمَّ قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشَّيطان ، فقالت لها: اذهبي فأنت حرَّة.

---

(١) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢/ ٢٣٣) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة (كتاب النساء).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٨) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة لابن هشام (بناء النَّبيِّ ﷺ بصفيَّة ، وحراسة أبي أيوب للقُبَّة) ، وكنز العمال (للمتَّقي الهندي).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية ، وقيل: سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها ، وأرضاها(١) .

ثامناً: محاولةٌ أثيمةٌ لليهود: الشَّاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لمَّا فُتحت خيبر؛ أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ ، فقال رسول الله ﷺ : «اجمعوا لي مَنْ كان ها هنا من اليهود» . فَجُمِعُوا له ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «إنِّي سائلُكُم عن شيءٍ؛ فهل أنتم صَادِقيَّ عنه؟» .

فقالوا: نعم يا أبا القاسم!

فقال لهم رسول الله ﷺ : «مَنْ أبوكم؟» .

قالوا: فلان .

فقال رسول الله ﷺ : «كذبتم ، بل أبوكم فلان» .

فقالوا: صدقت .

فقال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟» .

فقالوا: نعم يا أبا القاسم! وإن كذبنا؛ عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا .

قال لهم رسول الله ﷺ : «مَنْ أهل النَّار؟» .

فقالوا: نكون فيها يسيراً ، ثمَّ تخلفونا فيها .

فقال لهم رسول الله ﷺ : «اخسؤوا فيها ، والله! لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً» .

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟» .

قالوا: نعم .

فقال: «هل جعلتم في هذه الشَّاة سُماً؟» .

فقالوا: نعم .

فقال: «ما حملكم على ذلك؟» .

فقالوا: إن كنت كاذباً؛ نَسْتَرِحْ منك ، وإن كنت نبيّاً لم يضرَّك . [البخاري (٣١٦٩) ، وأحمد (٢/ ٤٥١)] .

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشَّاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهوديَّة

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥) .

امرأة سلاَّم بن مشكم ، وكانت سألت : أيُّ عضوٍ من الشَّاة أحبُّ إليه؟ فقيل : الذِّراع ، فأكثرت فيها من السُّمِّ ، فلمَّا تناول الذِّراع ؛ لاك منها مضغةً ، ولم يَسُغْها ، وأكل منها معه بِشْرُ بن البراء ، فأساغ لقمةً ، ومات منها[(١)].

وفي مغازي عروة : فتناول الذِّراع ، فانتهش منها ، وتناول بِشرُ عظماً آخر ، فانتهش منه ، فلمَّا أرغم رسولُ الله ﷺ ، أرغم بشرٌ ما في فيه ، فقال رسول الله ﷺ : «ارفعوا أيديكم ، فإنَّ كتف الشَّاة تخبرني أنِّي قد بغيت فيها» فقال بِشْرُ بن البراء : والَّذي أكرمك! لقد وجدت ذلك في أكلتي ؛ الَّتي أكلت ، ولم يمنعني أن ألفظَها إلا أنِّي كرهت أن أنغِّص طعامك ، فلمَّا أكَلْتَ ما في فيك ؛ لم أرغبْ بنفسي عن نفسك ، ورجوتُ ألاَّ تكون رغمتها ، وفيها بغي . [الطبراني في الكبير (١٢٠٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٣)][(٢)].

وقال ابن القيِّم : وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : أردت قتلك ، فقال : «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ عليَّ». قالوا : ألا تقتلها؟ قال : «لا» [مسلم (٢١٩٠)] . ولم يتعرَّض لها ، ولم يعاقبها ، واحتجم على الكاهل ، وأمر مَنْ أكل منها فاحتجم ، فمات بعضُهم[(٣)].

وقد اختُلف في قتل المرأة ، والصَّحيح : أنَّه لما مات بشر ؛ قتلها[(٤)]. ولقد كان السُّمُّ الذي وضعته اليهودية قويّاً جدّاً ؛ إذ مات بشر بن البراء فوراً ، وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السُّمِّ حتَّى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمَّة ، وتركها على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها[(٥)]. وقد روى الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النَّبيُّ ﷺ يقول في مرض موته الَّذي مات فيه : «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الَّذي أكلت بخيبر ، فهذا أوانُ وجَدْتُ انقطاعَ أَبْهَرِي[(٦)] من ذلك السُّمِّ». [البخاري (٤٤٢٨)][(٧)].

تاسعاً : الحجَّاج بن عِلاط السُّلَمِيُّ ، وإرجاعُ أمواله من مكَّة :

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجَّاج بن عِلَاط :

---

(١) البخاري ، كتاب الجزية والموادعة ، حديث رقم (٣١٦٩).
(٢) انظر : بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣).
(٣) انظر : مغازي رسول الله ﷺ ، لعروة بن الزبير ، ص١٩٨ ، والبداية والنهاية ، وكتاب المغازي والسير (باب غزوة خيبر).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).
(٥) انظر : الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٢١).
(٦) أبهري : عرق مستبطن بالظَّهر متَّصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٧) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٧٧٧) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، وزيادة الجامع الصَّغير للسُّيوطي.

يا رسول الله! إنَّ لي بمكَّة مالاً ، وإنَّ لي بها أهلاً ، وإنِّي أريد أن أكتبهم ، فأنا في حلٍّ إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء ، فأتى امرأته حين قدم ، فقال: اجمعي لي ما كان عندك ، فإنِّي أريد أن أشتري من غنائم محمَّد وأصحابه ، فإنَّهم قد استبيحوا ، أو أصبت أموالهم ، قال: ففشا ذلك في مكَّة فانقمع المسلمون ، وأظهر المشركون فرحاً ، وسروراً ، قال: وبلغ الخبر العبَّاس رضي الله عنه فعَقِر ، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزريُّ عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له: قُثَم ، فاستلقى ، فوضعه على صدره ، وهو يقول:

حُبِّي قُثَم حُبِّي قُثَم ... شَبِيْهُ ذِي الأَنْفِ الأَشَم
نَبِيُّ رَبِّ ذِي النِّعَمْ ... بِرَغْمِ أَنْفِ مَن رَغم

قال ثابت بن أنسٍ: ثمَّ أرسل غلاماً له إلى الحجَّاج ، فقال له: ويلك! ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيرٌ ممَّا جئت به ، قال: فقال الحجَّاج بن عِلَاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السَّلام ، وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوته لآتيه ، فإنَّ الخبر على ما يسرُّه ، فجاءه غلامُه ، فلمَّا بلغ باب الدَّار قال: أبشر يا أبا الفضل! قال: فوثب العبَّاس فَرِحاً ، حتَّى قبَّل بين عينيه ، فأخبره بما قال الحجَّاج ، فأعتقه ، قال: ثمَّ جاء الحجَّاج فأخبره: أنَّ رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت سهام الله في أموالهم ، واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّة بنت حُيَيٍّ ، فأخذها لنفسه، وخيَّرها أن يعتقها ، وتكون زوجته[1] ، ولكنِّي جئت لمالي ، وإنِّي استأذنت النَّبيَّ ﷺ ، فأذن لي ، فأخفِ عليَّ يا أبا الفضل ثلاثاً ، ثمَّ اذكُر ما شئت[2] ، فجمعت امرأته ما كان عندها من حليٍّ ، ومتاع ، فجمعه ، فَدَفَعَتْهُ إليه ، ثمَّ انشمر به ، فلما كان بعد ثلاثٍ أتى العباس امرأة الحجَّاج ، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته: أنَّه ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل! لقد شقَّ علينا الَّذي بلغك ، قال: أجل ، لا يخزيني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا ، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّة بنت حُيَيٍّ لنفسه ، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به ، قالت: أظنُّك والله صادقاً ، قال: فإنِّي صادقٌ ، الأمر على ما أخبرتك ، فقال: ثمَّ ذهب حتَّى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبك إلا خيرٌ يا أبا الفضل! قال لهم: لم يصبني إلا خيرٌ بحمد الله ، قد أخبرني الحجَّاج بن عِلَاط أنَّ خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى صفيَّة لنفسه ، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً ، وإنَّما جاء ليأخذ ماله ، وما كان له من شيءٍ ها هنا ، ثمَّ يذهب. قال: فرد الله الكآبة الَّتي كانت بالمسلمين

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٥٩.
(٢) انظر: تاريخ الذَّهبي ، والمغازي ، ص ٤٣٩.

على المشركين ، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتَّى أتوا العباس ، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون ، وردَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كآبةٍ ، أو غيظٍ ، أو حزنٍ على المشركين. [أحمد (٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩) ، والبزار (١٨١٦) ، وأبو يعلى (٣٤٧٩) ، والطبراني في الكبير (٣١٩٦) ، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٥١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٦٦ ـ ٤٦٩)].

وفي هذا الخبر فقهٌ غزيرٌ؛ منه: جواز كذب الإنسان على نفسه ، وعلى غيره؛ إذا لم يتضمَّن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقِّه ، كما كذب الحجَّاج بن عِلَاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكَّة من غير مضرَّة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأمَّا ما نال مَنْ بمكَّة من المسلمين من الأذى ، والحزن بمفسدة؛ فيسيرٌ في جنب المصلحة الَّتي حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسُّرور ، وزيادة الإيمان الَّذي حصل بالخبر الصَّادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الرَّاجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكامٌ شرعيَّةٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحُمُرِ الأهليَّة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليَّة. [البخاري (٤٢١٨) ، ومسلم (٥٦١)][1].

٢ ـ حرمة وطء السَّبايا الحوامل:

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَسْقِ ماءه زَرْعَ غيره». [أبو داود (٢١٥٨) ، والترمذي (١١٣١)][2].

٣ ـ حرمة وطء السَّبايا غير الحوامل قبل استبراء الرَّحم:

قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأةٍ من السَّبي حتَّى يستبرئها». [أحمد (٤/ ١٠٨) ، وأبو داود (٢١٥٨) و(٢١٥٩) ، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٢٤)][3].

والاستبراء إنَّما يكون بأن تطهر من حيضةٍ واحدةٍ فقط ، ولا تجب عليها العدَّة؛ وإن كانت

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣).
(٣) انظر: الرَّوض الأنف (٤/ ٤١).

متزوِّجة من كافرٍ ، سواءٌ مات ، أو بقي حيّاً ؛ لأنَّ العدَّة وفاءٌ للزَّوج الميِّت ، وحداد عليه ، ولا يُحَدُّ على الكافر كما علمت[١] .

٤ ـ حرمة ربا الفضل :

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ، وأبي هريرة رضي الله عنهما : أنَّ رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر ، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ ، فقال رسول الله ﷺ : «كلُّ تمرِ خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله! إنَّا لنأخذ الصَّاع من هذا بالصَّاعين ، والثلاثة . فقال : «لا تفعل! بعِ الجمع بالدَّراهم ، ثمَّ ابتع بالدَّراهم جنيباً» . [البخاري (٤٢٤٤) ، ومسلم (١٥٩٣)] .

فالتَّفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل ؛ إذا اشترى صاعاً بأكثر من صاعٍ ، فالزِّيادة هنا هي الرِّبا ، وهذا محرَّمٌ كما رأيت ؛ إذ نهى النَّبيُّ ﷺ عن ذلك ، وأرشد إلى الحلِّ السَّليم بأن يبيع ما لديه من تمرٍ ثمَّ يشتري بما لديه من نقودٍ ما يشتهي من تمرٍ ؛ لأنَّ الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الرِّبا[٢] .

٥ ـ حرمة بيع الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتبر الفضَّة بالوَرِق العَيْن :

روي عن عبادة بن الصَّامت : أنَّه قال : نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع ، أو نبتاع تِبْرَ الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتِبْرَ الفِضَّة بالوَرِق العَيْن ، وقال : «ابتاعوا تبر الذَّهب بالوَرِق العَيْن ، وتبر الفضَّة بالذَّهب العَيْن» . [ابن هشام (٣/٣٤٦)] .

والمراد من الحديث : أن يباع الذَّهب بالذَّهب مثلاً بمثلٍ ، والفضَّة بالفضَّة مثلاً بمثلٍ ، بلا زيادةٍ ، ولا نقصٍ ؛ وعندما يُقابل الذَّهب بالفضة لا تشترك المماثلة ، كما هو معلومٌ ، وثابتٌ في الصِّحاح[٣] .

٦ ـ مشروعية المساقاة والمزارعة :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : أعطى النَّبيُّ ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ، ويزرعوها ، ولهم شطرُ ما يخرج منها . [سبق تخريجه] .

وقد تساءل بعض الباحثين : لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر؟ وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشَّيخ محمَّد أبو زهرة على هذا ، فقال : إنَّ فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنِّسبة

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٣٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٣٢١ .

للعلاقات الماليَّة الَّتي يجري في ظلِّها التَّبادل الماليُّ ، فكانت فيها شرعيَّة المزارعة ، والمساقاة ، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب(١) .

٧ ـ حلُّ أكل لحوم الخيل :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر ، ورخَّص في الخيل. [البخاري (٥٥٢٠) ، ومسلم (١٩٤١/ ٣٦ و٣٧)] .

٨ ـ تحريم المتعة :

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ نهى عن متعة النِّساء يوم خيبر ، وعن أكل لحوم الحمر الإنسيَّة . [البخاري (٥٥٢٣) ، ومسلم (١٤٠٧)] .

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر :

روت أميَّة بنت أبي الصَّلت عن امرأةٍ من بني غفار ؛ قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوةٍ من بني غفار ، فقلن: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرجَ معك إلى وجهك هذا ـ وهو السَّير إلى خيبر ـ فنداويَ الجرحى ، ونعينَ المسلمين بما استطعنا . فقال: «على بركة الله» . قالت: فخرجنا معه ، قالت: فو الله لنزَلَ رسولُ الله ﷺ إلى الصُّبح ، ونزلتُ عن حقيبة رَحْلِهِ ، قالت: وإذا بها دم منِّي ـ وكانت أوَّل حيضةٍ حضتها ـ قالت: فتقبَّضْتُ إلى النَّاقة ، واستحييت. فلمَّا رأى رسول الله ﷺ ما بي ، ورأى الدَّم قال: «ما لك؟ لعلَّك نُفِسْتِ؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نَفْسِك ، ثمَّ خذي إناءً من ماءٍ ، فاطْرَحي فيه ملحاً ، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدَّم ، ثم عودي لِمَرْكَبِكِ» قالت: فلمَّا فتح الله خيبر ؛ رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة الَّتي تَرَيْنَ في عنقي ، فأعطانيها ، وعلَّقها بيده في عنقي ، فو الله لا تفارقني أبداً(٢) ، وكانت في عنقها حتَّى ماتت ، ثمَّ أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها ، إلا جعلت في طهرها ملحاً ، وأوصت به أن يجعل في غُسْلها حين ماتت. [أحمد (٦/ ٣٨٠) ، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٠٧) ، وابن سعد (٨/ ٢١٤) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٠٤) ، وابن هشام (٣/ ٣٥٧)] .

وهي صورةٌ حيَّةٌ أمام كلِّ فتاةٍ مسلمةٍ ، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين(٣) .

وهكذا كانت حياة الرَّسول ﷺ تعليماً ، وتربيةً للأمَّة في السِّلم ، والحرب على معاني العقيدة ، وحقيقة العبادة ، وهذا غيضٌ من فيضٍ ، وجزءٌ من كلٍّ .

---

(١) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤) ، والصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦) .
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٠٥) .
(٣) انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣٤ .

هذا وقد أحدث فتحُ خيبر ، وَفَدَك ، ووادي القرى ، وتيماء دويّاً هائلاً في الجزيرة العربيَّة بين مختلف القبائل ، وقد أصيبت قريش بالغيظ ، والكآبة ؛ إذ لم تكن تتوقَّع ذلك ، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر ، وكثرة مقاتليهم ، ووفرة سلاحهم ، ومؤونتهم ، ومتاعهم[١] .

أمَّا القبائل العربيَّة الأخرى المناصرة لقريش ؛ فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر ، وخذلها انتصار المسلمين السَّاحق ، ولذلك فإنَّها جنحت إلى مسالمة المسلمين ، وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم ، ممَّا فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربيَّة ، بعد أن تعزَّزت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقَّق لهم مِنْ خيرٍ ، وتعزيزٍ لوضعهم الاقتصاديِّ[٢] .

واستمرَّت حركة السَّرايا بعد خيبر ، وكانت كثيرةً ، وأمَّرَ عليها ﷺ كبار الصَّحابة ، وكان في بعضها قتالٌ ، ولم يكن في بعضها قتال[٣] .

* * *

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٥٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٢٢١ .

المبحث الثَّاني
دعوة الملوك والأمراء[(١)]

أولاً : كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميِّ :

فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربيَّة ، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيَّة ، فمنذ أن عقد الرَّسول ﷺ صلح الحديبية مع قريشٍ ، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ، ووادي القرى ، وتيماء ، وفَدَك إلى سيادة الإسلام ؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز ، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّـة ، وقد عبَّر ﷺ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرُّسل ، والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربيَّة ، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربيَّة .

وتُعَدُّ هذه الخُطوة نقطة تحوُّلٍ مهمَّةٍ في تاريخ العرب ، والإسلام ، ليس لأنَّ الرَّسول ﷺ سوف يوحِّد عرب الجزيرة العربيَّة تحت راية الإسلام ، فحسب ، ولكن لأنَّ هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام ، وتمثَّلوا رسالة السَّماء أنيط بهم حمل الدَّعوة الإسلاميَّة إلى البشريَّة كافَّةً[(٢)] .

ويشير المنهج النَّبويُّ في دعوة الزُّعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدَّعوة ، فإلى جانب دعوة الأمراء ، والشُّعوب اختار الرَّسول ﷺ أسلوباً جديداً من أساليب الدَّعوة ، وهو مراسلة الملوك ، ورؤساء القبائل ، وكان لأسلوب إرسال الرَّسائل إلى الملوك ، والأمراء أثرٌ بارزٌ في دخول بعضهم الإسلام ، وإظهار الودِّ من البعض الآخر ، كما كشفت هذه الرَّسائل مواقف بعض الملوك ، والأمراء من الدَّعوة الإسلامية ، ودولتها في المدينة ، وبذلك حقَّقت هذه الرَّسائل نتائج كثيرةً ، واستطاعت الدَّولة الإسلاميَّة من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرَّسائل أن تنـتهج نهجـاً سياسيّـاً ، وعسكريّـاً واضحـاً ، ومتميِّزاً[(٣)] ، وإليك أهم هذه الرَّسائل :

---

(١) ينظر الشكلان (١٣ و١٤) في الصفحتين (٧٥٧ و٧٥٨) .
(٢) انظر : السَّفارات النَّبويَّة ، د. محمَّد العقيلي ، ص ١٥ .
(٣) انظر : العلاقات الخارجيَّة للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد المهجر ، ص ١١٢ .

١ ـ فقد وردت روايةٌ صحيحةٌ ، تضمَّنت نصَّ كتاب النَّبيِّ ﷺ الَّذي بعثه مع دحيةَ الكلبيِّ إلى هرقل عظيم الرُّوم[(١)] وذلك في مدة هدنة الحديبية ، وهو كما يلي :

«بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ، من محمَّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى : أمَّا بعد : فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ؛ تسلم ، يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإنْ تولَّيت؛ فعليك إثم الأريسيِّين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. [البخاري (٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣)].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النَّبيِّ ﷺ ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطَّويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المرويِّ في الصَّحيحين حين سأله عن أحوال النَّبي ﷺ ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان : (إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم : أنَّه خارج ، ولم أكن أظنُّه منكم ، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه؛ لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده؛ لغسلت عن قدميه) . [انظر تخريج الحديث السابق].

٢ ـ أرسل النَّبيُّ ﷺ بكتابٍ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسيَّة ، مع عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ ، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[(٢)] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلمَّا قرأه؛ مزَّقه ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقوا كُلَّ ممزَّق» [أحمد (١/٢٤٣) ، والبخاري (٤٤٢٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٨٧)][(٣)] ، ونصُّ الرِّسالة كما أوردها الطَّبريُّ كالتَّالي : «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على مَنِ اتَّبع الهُدى ، وآمن بالله ، ورسوله ، وشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً؛ لينذر من كان حيّاً ، أسلم؛ تسلم ، فإن أبيت؛ فعليك إثمُ المجوس» . [تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥)].

٣ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، فقد أرسله مع عمرو بن أميَّة الضَّمْريِّ ، وقد جاء في الكتاب :

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّدٍ رسول الله ، إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إلٰه إلا هو الملكُ ، القدُّوس ، السَّلامُ ، المؤمنُ ، المهيمنُ ، وأشهد أنَّ عيسى ابنَ مريم روحُ الله ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطَّيبة الحصينة ، فحملت به ، فخلقه من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٤) ، وقد اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرَّسائل .
(٢) شرح المواهب اللَّدنية (٣/ ٣٤١) .
(٣) كانت الرسالة في محرم سنة ٧ هـ كما في زاد المعاد .

له ، والموالاة في طاعته ، وأن تتَّبعني ، وتؤمن بالَّذي جاءني ، فإنِّي رسول الله ، وإنِّي أدعوك ، وجنودَك إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقد بلَّغتُ ، ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي ، والسَّلام على من اتَّبع الهُدى» . [نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢١)] .

٤ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى المقوقس حاكمِ مصر[١] ، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[٢] ؛ فلم يثبت من طرقٍ صحيحةٍ ، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه ، كما أنَّ ذلك لا يعني الطَّعن بصحة النُّصوص من النَّاحية التاريخيَّة ، فربما تكون صحيحةً من حيث الشَّكل ، والمضمون ، غير أنَّها لا يمكن أن يحتجَّ بها في السِّياسة الشَّرعيَّة[٣] ، فلقد أورد محمَّد بن سعد في طبقاته[٤] : أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث إلى المقوقس ، جُريج بن مينا ملك الإسكندريّة وعظيم القبط ، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللَّخميِّ ، وأنَّه قال خيراً ، وقارب الأمر ، غير أنَّه لم يسلم ، وأهدى إلى النَّبيِّ ﷺ عدَّة هدايا كان بينها مارية القبطيَّة ، وأنَّه لما ورد جواب المقوقس إلى النَّبيِّ ﷺ قال : «ضَنَّ الخبيث بمُلْكِه ، ولا بقاء لِمُلْكِه» . [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٢)][٥] .

٥ ـ وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب ، أخا بني أسد بن خُزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني صاحب دمشق[٦] ، حين عودته والمسلمين من الحديبية ، وقد تضمَّن نصُّ الرِّسالة قوله : «سلامٌ على من اتَّبع الهُدىٰ ، وآمن به ، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له ، يُبْقي لك ملكك» . [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٤) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٦٥٢)] .

٦ ـ وأرسل رسول الله ﷺ سُلَيطَ بن عمرٍو العامريَّ بكتابٍ إلى هَوْذَةَ بن عليٍّ الحنفي[٧] عند مقدمه من الحديبية ، وقد اشترط هَوْذَةُ الحنفيُّ على الرسول ﷺ بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه ، فرفض النَّبيُّ ﷺ أن يقبل ذلك . [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٥) ، وابن طولون في إعلام السائلين (١٠٥ ، ١٠٧)] .

٧ ـ وأرسل ﷺ أبا العلاء الحضرميَّ[٨] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ ، أمير البحرين

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٥٩) .
(٤) انظر : الطَّبقات الكبرى (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) .
(٥) البداية والنِّهاية (٥/ ٣٤٠) .
(٦) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٥٢) .
(٧) كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل .
(٨) انظر : صبح الأعشى ، للقلقشندي (٦/ ٣٦٨) .

بعد انصرافه من الحديبية ، ونقلت المصادر التَّاريخيَّة: أنَّ المنذر قد استجاب لكتاب النَّبيِّ ﷺ ، فأسلم ، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين ، فأمَّا أهل البلاد من اليهود ، والمجوس فإنَّهم صالحوا العلاء ، والمنذر على الجزية من كلِّ حالمٍ دينار [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٠)] (أي: على كلِّ بالغٍ دينار) ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزُّبير ، وجاء فيه:

«سلام أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد فإنَّ مَنْ صلَّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الَّذي له ذمَّة الله ، وذمَّة الرَّسول ، فمن أحبَّ ذلك من المجوس؛ فإنَّه آمنٌ ، ومن أبى؛ فإن الجزية عليه». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ برقم ٥٠)].

وفي ذي القعدة سنة (٨ هـ) بعث النَّبيُّ ﷺ عمرو بن العاص بكتابه إلى جَيفر وعبدٍ ابني الجُلُنْدَىٰ الأزديَّين بِعُمَان[1] ، وقد جاء فيه: «من محمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله لعباد الله الأزديِّين ملوك عُمان ، وأسد عمان ، ومن كان منهم بالبحرين؛ إنَّهم إن آمنوا ، وأقاموا الصَّلاة ، وآتوا الزَّكاة ، وأطاعوا الله ، ورسوله ، وأعطَوا حقَّ النَّبيِّ ﷺ ، ونسكوا نسك المؤمنين ، فإنَّهم آمنون وأنَّ لهم ما أسلموا عليه ، غير أنَّ مال بيت النَّار ثُنْياً لله ورسولِه ، وأنَّ عشور التَّمْرِ صدقةٌ ، ونصفُ عشور الحبِّ ، وأنَّ للمسلمين نصرهم ، ونصحَهم ، وأنَّ لهم على المسلمين مثل ذلك ، وأنَّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ ـ ٣١ برقم ٥٢)].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من النَّاحية الحديثيَّة[2].

ثانياً: مواصفاتُ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة:

قام اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرَّسائل ، وتحدَّث عن الرُّسل في كتابه الفريد «سفراء النَّبيِّ ﷺ» استنبط من خلالها شروط ومواصفاتِ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة ، ومن أهم تلك الشُّروط ، والمواصفات:

١ ـ الإسلام ، والدَّعوة إليه:

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

---

(١) انظر: صبح الأعشى (٦/ ٣٧٦).
(٢) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٨).

وإذا كان المسلمون كلُّهم دعاةً إلى الله تعالى؛ فرسل النَّبيِّ ﷺ إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[١].

٢ ـ الفصاحة والوضوح:

الفصاحة ، وجزالة اللَّفظ ، والدقَّة في توصيل المعاني إلى السَّامعين شرطٌ أساسيٌّ في الرَّجل الَّذي يتصدَّى للمهمَّة الدِّبلوماسيَّة ، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣١] وقد اختار الرَّسول ﷺ كلَّ سفرائه ، ومبعوثيه من العرب الَّذين تربَّوا في الجزيرة العربيَّة ومع البدو أحياناً ، فقد كانوا أصحاب نقاوةٍ ، لم تتكدَّر باختلاط الأعاجم بعد ، فقد كانوا على قدرٍ كبيرٍ من الفصاحة ، والوضوح.

٣ ـ حسن الخلق:

أخلاق السَّفير النَّبويِّ هي أخلاق الإسلام الَّتي بيَّنها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم ، وفصَّلها رسول الله ﷺ في سنَّته ، وأهمُّها في السَّفير: الصِّدقُ ، والتَّواضع[٢].

٤ ـ العلم:

لا نريد هنا أن نبيِّن منزلة العلم؛ لأنَّ الكلام على هذه المسألة طويلٌ ، ولكنَّنا نؤكِّد هنا: أنَّ العلم بالشَّيء هو وسيلة نقل الفكرة ، والمبدأ ، لذا عندما تنظر إلى جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو يحاور النَّجاشيَّ ، ثم يقرأ عليه سورة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تتيقَّن من دقَّة الاختيار النَّبويِّ ، ونصاعة خطاب العالِم ، ودقَّة اختياره للألفاظ ، والعبارات[٣].

٥ ـ الصَّبر:

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] والحقيقة: أن الصبر هو عدَّة الدَّاعية ، وزاده المستمر ، ولو تصفَّحت سيرة الرَّسول ﷺ وسيرة صحابته الأجلَّاء؛ لوجدتها حافلة بالصَّبر على الدَّعوة ، وموقفُ الطَّائف شاهدٌ على ذلك.

---

(١) انظر: سفراء الرَّسول ﷺ لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٨).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٧٨).
(٣) الفقه السِّياسيُّ للوثائق النَّبويَّة ، لخالد الفهداوي ، ص ١١٤.

٦ ـ الشَّجاعة :

وقد تحدَّث التَّاريخ الإسلاميُّ عن شجاعة السُّفراء ، والَّذين أرسلهم الرَّسول ﷺ إلى الملوك ، وأنَّهم كانوا لا يخافون لومة لائم .

٧ ـ الحكمة :

وقد كان سفراء الرَّسول ﷺ يتَّصفون بالحكمة ، فهذا عمرو بن العاص كان مُسدَّداً في أقواله ، وأفعاله ، قيل لعمرو : ما العاقل؟ قال : (الإصابة بالظَّنِّ ، ومعرفة ما يكون بما قد كان) ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرِّ ، إنَّما العاقل الذي يعرف خير الشَّرَّيْنِ(١) .

٨ ـ سعة الحيلة :

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السِّياسيَّة ، متأنِّياً كتوماً . وسعةُ الحيلة الَّتي ترتكز أوّلاً ، وقبل كلِّ شيءٍ على الذَّكاء من أهم سمات السَّفير ، وقد كان سفراء الرَّسول ﷺ يتَّصفون بالذَّكاء ، والدَّهاء ، وتوقُّع الأحداث ، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث ، وهذه مقوِّمات سعة الحيلة .

٩ ـ المظهر :

تميَّز سفراء النَّبيِّ ﷺ بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر ، وقد حرص النَّبيُّ ﷺ على اختيار سفرائه من بين أصحابه الَّذين تتوافر فيهم صفاتٌ شكليَّة جميلةٌ إلى جانب سماتهم العقليَّة ، والنفسيَّة سالفة الذِّكر(٢) .

هذه أهم الصِّفات الَّتي استخلصها اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيِّمة لسفراء النَّبيِّ ﷺ والَّتي ينبغي للسَّفير المسلم أن يتحلَّى بها ، وتكون للدَّولة الإسلاميَّة مقياساً في اختيار مَنْ ترشِّحه لهذا المنصب الخطير .

ثالثاً : دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد :

١ ـ الأَرِيْسِيُّون :

وردت كلمة (الأَرِيْسِيِّين) أو (اليَرِيْسِيِّين) ـ على اختلاف الرِّوايات ـ في الكتاب الَّذي وُجِّه إلى (هرقل) وحدَه ، ولم ترد في كتابٍ من الكتب الَّتي أرسلت إلى غيره ، واختلف علماء

---

(١) انظر : الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، وقد نقل عن سفراء الرَّسول ﷺ (٢/ ٣٠١) .

(٢) انظر : مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، ص ٦٠ .

الحديث واللُّغة في مدلول هذه الكلمة ، فالقول المشهور: أن (الأريسيِّين) جمع (أريسي) وهم الخول ، والخدم ، والأكَّارون[(١)].

وذهب العلامة أبو الحسن النَّدويُّ إلى أنَّ المراد بالأريسيِّين هم أتباع (أريوس) المصري ، وهو مؤسِّس فرقةٍ مسيحيَّةٍ كان لها دورٌ كبير في تاريخ العقائد المسيحيَّة والإصلاح الدِّيني ، وقد شغلت الدَّولة البيزنطيَّة، والكنيسة المسيحيَّة زمناً طويلاً ، و(أريوس) هو الَّذي نادى بالتَّوحيد ، والتَّمييز بين الخالق، والمخلوق، والأب، والابن ـ على حدِّ تعبير المسيحيين ـ لعدَّة قرون[(٢)].

ودامت عقيدة (أريوس) ودعوته تصارعان الدَّعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح ، وتسويته بالإلٰه الواحد الصَّمد ، وكانت الحرب سجالاً ، وقد دان بهذه العقيدة عددٌ كبيرٌ من النَّصارى في الولايات الشَّرقية من المملكة البيزنطيَّة إلى أن عقد تيوسورس الكبير مَجْمعاً مسيحيّاً في القسطنطينية ، قضى بألوهيَّة المسيح ، وإبنيَّته ، وقضى هذا الإعلان على العقيدة الَّتي دعا إليها (أريوس) واختفت ، ولكنَّها عاشت بعد ذلك ، ودانت بها طائفةٌ من النَّصارى ، اشتهرت بالفرقة الأريسيَّة ، أو الأريسيِّين ، فَمِنَ المرجَّح المعقول: أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما عنى هذه الفرقة بقوله: «فإن تولَّيت ، فإنَّما عليك إثم الأَرِيْسيِّين» فإنَّها هي القائمة بالتَّوحيد النِّسبي في العالم المسيحي الَّذي تتزعمُه الدولة البيزنطيَّة العظمى ، الَّتي كان على رأسها (هرقل)[(٣)].

وقد تحدَّث الإمام أبو جعفر الطَّحاويُّ عن هذه الفرقة ، فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني: أنَّ في رهط هرقل فرقةً تعرف بالأروسية ، توحِّد الله ، وتعترف بعبودية المسيح لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولا تقول شيئاً ممَّا يقول النَّصارى في ربوبيته ، وتؤمن بنبوَّته ، فإنَّها تُمسِك بدين المسيح مؤمنةً ، بما في إنجيله ، جاحدةً لما يقوله النَّصارى سوى ذلك ، وإذا كان ذلك كذلك؛ جاز أن يقال لهذه الفرقة (الأريسيُّون) في الرَّفع و(الأريسيين) في النَّصب والجر ، كما ذهب إليه أصحاب الحديث[(٤)].

٢ ـ اعتبارات حكيمة خاصَّة بالملوك:

في رسائل رسول الله ﷺ للملوك فوارقُ دقيقةٌ مؤسَّسةٌ على حكمة الدَّعوة ، روعي فيها

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٠٥.

(٣) وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة النَّدويُّ الدُّكتور معروف الدَّواليبي في الأريسيين يؤيِّد ما قاله النَّدوي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما عنى بقوله: «فإن توليت فإنَّ عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرقة المسيحيَّة الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النَّافية لألوهيته ، وقد جاء هذا البحث القيِّم في رسالة: نظرات إسلاميَّة ، ص ٦٨ ـ ٨٣ ، وانظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٧.

(٤) انظر: مشكل الآثار (٣/ ٣٩٩).

ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد الَّتي يدينون بها ، و(الخلفيَّات) الَّتي يمتازون بها ، فلمّا كان هرقل ، والمقوقس يدينان بألوهيَّة المسيح كلِّيّاً ، أو جزئيّاً ، وكونه ابنُ الله ، جاءت في الكتابَيْن اللَّذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النَّبيِّ ﷺ صاحب هاتين الرِّسالتين ، فيبتدئ الكتابان بعد التَّسمية بقوله: «من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم» وبقوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القِبْط» بخلاف ما جاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز ، فاكتفى بقوله: «من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس» وجاءت كذلك آية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] في هذين الكتابين ، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز؛ لأنَّ الآية تخاطب أهل الكتاب؛ الَّذين دانوا بألوهيَّة المسيح ، واتَّخذوا أحبارهم ، ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وقد كان هرقل إمبراطور الدَّولة البيزنطيَّة ، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيَّين ، وزعيمين دينيَّين كبيرين للعالم المسيحي ، مع اختلافٍ يسيرٍ في الاعتقاد في المسيح: «هل له طبيعةٌ أم طبيعتان؟»[١].

ولما كان كسرى أبرويز وقومُه يعبدون الشَّمس والنَّار ، ويدينون بوجود إلٰهين: أحدهما يمثِّل الخير ، وهو: يزدان ، والثَّاني يمثِّل الشَّرَّ وهو: إهرمن ، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوَّة ، والتَّصوُّر الصَّحيح للرِّسالة السَّماوية ، جاءت في الكتاب الَّذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً لينذر من كان حيّاً»[٢].

وقد كان تلقِّي الملوك لهذه الرَّسائل يختلف: فأمَّا هرقل ، والنَّجاشيُّ ، والمقوقس؛ فتأدَّبوا ، وتلطَّفوا في جوابهم ، وأكرم النّجاشيُّ ، والمقوقس رُسُلَ رسولِ الله ﷺ ، وأرسل المقوقس هدايا؛ منها جاريتان كانت أحدَهما ماريةُ أمُّ إبراهيم (ابن رسول الله) ، وأمَّا كسرى أبرويز؛ فلما قُرِئ عليه الكتاب مزَّقه ، وقال: «يكتب إليَّ هذا؛ وهو عبدي؟!» فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مزَّق الله ملكه!» [سبق تخريجه].

وأمر كسرى باذان ـ وهو حاكمه على اليمن ـ بإحضاره ، فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله ﷺ بأنَّ الله سلَّط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله[٣].

وقد تحقَّق ما أنبا به رسول الله ﷺ بكلِّ دقَّة ، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ(شرويه) وقُتِل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعازٍ منه سنة (٦٢٨ م) ، وقد تمزَّق ملكُه بعد وفاته ،

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للنَّدوي ، ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٩٠.
(٣) انظر: تاريخ الطبَّري (٣/ ٩٠ ـ ٩١) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة.

وأصبح لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش (شرويه) إلا ستَّة أشهرٍ ، وتوالى على عرشه في مدَّة أربع سنوات عشرة ملوكٍ ، واضطرب حبل الدَّولة إلى أن اجتمع النَّاس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان ، وهو الَّذي واجه الزَّحف الإسلاميَّ ؛ الَّذي أدَّى إلى انقراض الدَّولة السَّاسانيَّة ؛ الَّتي دامت ، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلِّيّاً ، وكان ذلك في سنة (٦٣٧ م) ، وهكذا تحقَّقت هذه النُّبوءة في ظرف ثماني سنين[١] .

٣ ـ الوصف العام لرسائل الرَّسول ﷺ :

ويلاحظ الباحث : أنَّ الوصف العام لكتب الرَّسول ﷺ إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً ، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التَّالية :

أ ـ نلاحظ أنَّ جميع كتب الرَّسول ﷺ الَّتي أرسلها إلى الملوك ، والرُّؤساء يفتتحها ﷺ بالبسملة ، والبسملة آية من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي تصدير الكتاب بها أمورٌ مهمَّةٌ ؛ كاستحباب بدء الكتب بـ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» اقتداءً برسولنا محمَّد ﷺ ، فقد واظب عليها في كتبه ﷺ ، كما أنَّ فيها جواز كتابة آيةٍ من القرآن الكريم في كتاب ، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين ، وفيها جواز قراءة الكافر لآيةٍ ، أو أكثر من القرآن الكريم ؛ لأنَّ كتب رسول الله ﷺ تضمَّنت البسملة ، وغيرها ، وفيها جواز قراءة الجنب لآيةٍ ، أو أكثر من القرآن الكريم ؛ لأنَّ هذا الكافر الَّذي أرسلت إليه الرِّسالة ، وتضمَّنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة ، والنَّجاسة ، فيقرأ الرِّسالة ؛ التي اشتملت على آياتٍ من القرآن الكريم ؛ وهو جنبٌ .

ب ـ ونستنبط من رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء الآتي :

* مشروعيَّة إرسال السُّفراء المسلمين إلى زعماء الكفر ؛ لأنَّ كلَّ كتابٍ كان يكتبه الرَّسول ﷺ يكلِّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل إليه .

* مشروعية الكتابة إلى الكفَّار في أمر الدِّين ، والدُّنيا .

* ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المُرْسِل ، والمُرْسَل إليه ، وموضوع الكتاب ، وهو واحدٌ في جميع الكتب ، ويتلخَّص في دعوتهم إلى الإسلام .

* عدم بدء الكافر بتحيَّة الإسلام ، وهي السَّلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ ذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يطرح السَّلام في كتبه على ملكٍ من ملوك الكفر ، بل كان يصدِّر كتبه بقوله : السَّلام على من اتَّبع الهدى ، أي : آمن بالإسلام . ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحيَّة الإسلام .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٠ .

* اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله ﷺ يختم رسائله بعد كتابتها بخاتمه ، وقد كُتب عليه ثلاث كلمات:

محمَّد رسولُ الله

[البخاري (٦٥) ، ومسلم (٢٠٩٢)][١].

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لمَّا أراد النَّبيُّ ﷺ أن يكتب إلى الرُّوم؛ قيل له: إنَّهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتَّخذَ خاتماً مِنْ فضَّة ، فكأنِّي أنظر إلى بَيَاضِه في يده ، ونقش فيه محمَّدٌ رسول الله. [البخاري (٢٩٣٨)].

٤ ـ تقدير الرِّجال:

لمَّا أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله ﷺ ، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه ، حين رأى فيه الإداريَّ النَّاجح ، والحاكم المناسب ، ممَّا يُدلِّل على أنَّ الرَّسول ﷺ يقدِّر الكفاءات في الرِّجال ، ويضع الرَّجل المناسب في المكان المناسب ، ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ الرَّسول ﷺ قد ولَّى ولده ـ أي: ولد باذان ـ شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[٢].

٥ ـ جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النَّبي ﷺ الَّذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدِّد فيه الموقف من اليهود ، والمجوس؛ إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديَّته ، أو مجوسيَّته؛ فعليه الجزية»[٣].

وقد ذهب ابن القيِّم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كلِّ إنسان يبذلُها ، سواءٌ أكان كتابيّاً أم غير كتابيٍّ؛ كعبدة الأوثان من العرب ، وغيرهم ، فقد جاء في زاد المعاد: «وقد قالت طائفةٌ في الأمم كلِّها إذا بذلوا الجزية؛ قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقرآن ، والمجوس بالسُّنَّة ، ومن عداهم ملحقٌ بهم؛ لأنَّ المجوس أهل شركٍ لا كتاب لهم ، فأخذُها منهم دليلٌ على أخذها من جميع المشركين ، وإنَّما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب؛ لأنَّهم أسلموا قبل نزول آية الجزية ، فإنَّها نزلت بعد تبوك»[٤].

٦ ـ جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر ـ وهو كافرٌ ـ مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هديةً تشتمل على جاريتين ، وكسوةٍ للرَّسول ﷺ ، وبغلةٍ يركبها ، فقبلها رسولُ الله

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠.

(٢) غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٢ ، ونصب الراية ، للزيلعي.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

(٤) انظر: زاد المعاد (٥/ ٩١).

ﷺ ، وإحدى هاتين الجاريتين ماريةُ القبطيَّة[١] .

٧ ـ من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء :

أظهر الرَّسول ﷺ في سياسته الخارجيَّة درايةً سياسيَّةً فاقت التَّصوُّر ، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء ، كما أظهر ﷺ قوَّةً ، وشجاعةً فائقتين ، فلو كان غير رسول الله ﷺ ؛ لخشي عاقبة ذلك الأمر ، لا سيَّما وأنَّ بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوكٍ أقوياء على تخوم بلاده؛ كهرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، ولكنَّ حرص رسول الله ﷺ ، وعزيمته على إبلاغ دعوة الله ، وإيمانه المطلق بتأييد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، كلُّ ذلك دفعه لأن يُقْدِم على ما أقدم عليه ، وقد حقَّقت هذه السِّياسة النتائج الآتية :

أ ـ وطَّد الرَّسول ﷺ بهذه السِّياسة أسلوباً جديداً في التَّعامل الدَّوليِّ لم تكن تعرفه البشريَّة من قبلُ .

ب ـ أصبحت الدَّولة الإسلاميَّة لها مكانتُها ، وقوَّتُها ، وفرضت وجودها على الخريطة الدَّوليَّة لذلك الزَّمان .

ج ـ كشفت للرَّسول ﷺ نوايا الملوك ، والأمراء ، وسياستهم نحوه ، وحكمهم على دعوته .

د ـ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدَّعوة الإسلاميَّة ، تلك العالميَّة الَّتي أوضحتْها آياتٌ نزلت في العهد المكِّي ، مثل قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وهكذا ، فإنَّ رسائل النَّبيِّ ﷺ إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تُعَدُّ نقطة تحوُّلٍ في سياسة دولة الرَّسول الخارجيَّة ، فعظم شأنُها ، وأصبحت لها مكانةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ بين الدُّول ، وذلك قبل فتح مكة ، كما أنَّ هذه السياسة مهَّدت لتوحيد الرَّسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[٢] .

* * *

---

(١) انظر : غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٣ .

(٢) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ٣٥١ .

المبحث الثَّالث
عمرة القضاء(١)

وفي ذي القعدة في السَّنة السَّابعة من الهجرة خرج الرَّسول ﷺ إلى مكَّة قاصداً العمرة ، كما اتَّفق مع قريشٍ في صلح الحديبية ، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النِّساء ، والصِّبيان ، ولم يتخلَّف من أهل الحديبية إلا مَنِ استُشْهِدَ في خيبر ، أو مات قبل عمرة القضاء(٢) .

وقد اتَّجه رسولُ الله ﷺ وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكَّة المكرَّمة في موكبٍ مهيبٍ يشقُّ طريقه عبر القرى ، والبوادي ، وكان كلَّما مرَّ الموكب النَّبويُّ بمنازل قومٍ من الذين يسكنون على جانبي الطَّريق بين مكَّة والمدينة ؛ خرجوا ، وشاهدوا منظراً لم يألفوه مِنْ قبلُ ، حيث كان المسلمون بزيٍّ واحدٍ من الإحرام ، وهم يرفعون أصواتهم بالتَّلبية ، ويسوقون هديهم في علاماته ، وقلائده ، في مظهرٍ بهيٍّ لم تشهد المنطقة له مثيلاً(٣) .

أولاً : الحيطة والحذر من غدر قريش :

اصطحب النَّبيُّ ﷺ معه السِّلاح الكامل ، ولم يقتصر على السُّيوف ، تحسُّباً لكلِّ طارئٍ قد يقع ، خاصَّةً وأنَّ المشركين في الغالب لا يحافظون على عهدٍ قطعوه ، ولا عَقْدٍ عقدوه(٤) .

وما إن وصل خبر مسير النَّبيِّ ﷺ ، ومعه هذا العدد الضَّخم ، وهذه الأسلحة المتنوِّعة ، وفي مقدِّمة القافلة مئتا فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة ، حتَّى أرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ مكرز بن حفص في نفرٍ من قريش ؛ ليستوضحوا حقيقة الأمر ، فقابلوه في بطن يأجُج(٥) بمرِّ الظَّهران فقالوا له : يا محمد! والله ما عرفناك صغيراً ، ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسِّلاح الحرم

---

(١) ينظر الشكل (١٥) في الصفحة (٧٥٩) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، ص ٤٦٤ .
(٣) انظر : منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٠ .
(٤) صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٧ .
(٥) موضع قرب مكَّة على ثمانية أميالٍ منها .

على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد ، وأنَّه لن يدخل الحرم غير السُّيوف في أغمادها ، فقال رسول الله ﷺ : «لا ندخلها إلا كذلك» ثمَّ رجع مكْرَزُ مسرعاً بأصحابه إلى مكَّة ، فقال : إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشَّرط ؛ الَّذي شرط لكم . [البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٢١) ، والواقدي في المغازي (٣/ ٧٣٤) ، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٢١)] .

ووضع رسول الله ﷺ السِّلاح خارج الحرم قريباً منه تحسُّباً لكلِّ طارئ ، وأبقى عنده مئتي فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة يحرسونه ، وينتظرون أمر الرَّسول ﷺ ليتحرَّكوا في أيِّ جهةٍ ، وينفِّذوا أيَّ أمرٍ ، ويقاتلوا متى دعتِ الضَّرورة لذلك(١) .

إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يأمن غدر مشركي قريش ، وخيانتهم ، فقد تُسوِّل لهم أنفسُهم أن ينصبوا كميناً ، أو أكثر للمسلمين ، ويشنُّوا عليهم هجوماً مباغتاً ، ولذلك احتاط ، وأخذ الحذر ، ووفَّى بعهده ، ووعده لقريش ، وعلَّم الأمَّة لكي تحذر من أعدائها(٢) ، وفي بقاء كوكبةٍ من الصَّحابة في حراسة الأسلحة ، والعتاد؛ لكي يراقبوا الموقف بدقَّةٍ ، وتحفُّزٍ معنىً من معاني العبادة في هذا الدِّين(٣) .

ثانياً: دخول مكَّة ، والطَّواف ، والسَّعي :

ومن بطن يأجج تابع رسولُ الله ﷺ سيره نحو مكَّة على راحلته القصواء ، فدخلها من الثَّنيَّة الَّتي تطلعه على الحجون ، والمسلمون حوله متوشِّحون سيوفهم ، محدقون به من كلِّ جانب ، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيءٍ ، وأصواتهم تعجُّ بالتَّلبية لله العليِّ الكبير(٤) .

هذه التَّلبية الجماعيَّة الَّتي تعجُّ أصوات المسلمين بها ، والَّتي لم تنقطع منذ أن أحرموا ، واستمرَّت حتَّى دخلوا مكَّة ، فقد كان للتَّلبية مغزىً ومعنىً ، فهي تعلن التَّوحيد ، وترفع شعاره ، وتعني إبطال الشِّرك ، وإسقاط رايته ، وتعلن الحمد ، والثَّناء على الله الَّذي مكَّنهم من أداء هذا النُّسك(٥) . فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله : لبيك اللَّهُمَّ لبَّيك ، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لكَ والمُلك ، لا شريك لك .

وكان عبد الله بن رواحة آخذاً بزمام راحلته ، وهو يرتجز بشعره :

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ ... خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ في رَسُوْلِهِ

يَا رَبِّ إنِّي مؤمنٌ بِقِيْلِهِ ... أَعْرِفُ حقَّ اللهِ في قَبُوْلِهِ

---

(١) انظر : صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٥ .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢٧٧ .
(٤) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٥٣ .
(٥) انظر : صلح الحديبية ، ص ٢٧٧ .

ضَـرْبـاً يُـزِيْـلُ الهَـامَ عَـنْ مَقِيْلِـهِ وَيُـذْهِـلُ الخَلِيْـلَ عَـنْ خَلِيْلِـهِ

[البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٢٣) ، والترمذي (٢٨٤٧) ، والنسائي (٥/ ٢٠٢)](١).

وكان مظهراً دعويّاً مؤثّراً عندما بدأ الموكب النَّبويُّ الكريم يقترب من بيوت مكَّة المكرَّمة ، وأبنيتها ، شاقّاً طريقه باتِّجاه الكعبة المشرَّفة ، وهم في مظهرهم المَهِيْب ، وأصواتُهم تشقُّ عَنان السَّماء بالتَّلبية ، فقد ذكرت معظم كتب السِّير ، والمغازي : أنَّ قسماً من أهالي مكَّة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية ، والقسم الأكبر وقف عند دار النَّدوة المجاورة للكعبة الشَّريفة آنذاك ؛ ليشاهدوا رسول الله ﷺ ، وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكَّة المكرَّمة ، وبيت الله الحرام(٢) .

وكان المشركون قد أطلقوا شائعةً ضدَّ المسلمين مفادها : أنَّهم وهنتهم(٣) حُمَّى يثرب ، فأمر النَّبيُّ ﷺ أصحابه أن يرمُلوا في الأشواط الثَّلاثة ، وأن يمشوا ما بين الرُّكنين [البخاري (٤٢٥٦) ، ومسلم (١٢٦٦)] ؛ لكي يرى المشركون قوَّتهم ، ودخل رسول الله ﷺ البيت الحرام ، واضطبع(٤) بردائه فأخرج عضده اليُمنى وشرع في الطَّواف ، وأصحابه يتابعونه ، ويقتدون به ، ولما رأى المشركون ذلك ؛ قالوا : هؤلاء الَّذين زعمتم أنَّ الحمَّى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد مِنْ كذا ، وكذا! [مسلم (١٢٦٦)](٥) .

وقد قصد رسول الله ﷺ بهذه الطَّريقة الَّتي فعلها عند دخوله المسجد الحرام ، وهي الاضطباع ، والهرولة ، ورفع الأصوات بالتَّلبية أن يُرهِب قريشاً ، وأن يُظهر لها قوَّة المسلمين ، وعزيمتهم ، وتمسُّكهم بدينهم ، ومناعة جبهتهم .

وقد أثَّر هذا الأسلوب في نفوس المشركين(٦) وبهذا الأسلوب النَّبويِّ الكريم أغاظ الرَّسول ﷺ المشركين ، وكايدهم ، فقد كان ﷺ يتقرَّب إلى الله بمكايدتهم ، وإغاظتهم ، ففي غزوة أحد أذن ﷺ لأبي دُجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزَّة المؤمن ؛ ولأنَّ ذلك يَغِيْظُ المشركين ، وزيادةً في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرَّسول ﷺ ذلك . وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله ﷺ في الهدي جمل أبي جهل الَّذي غنمه في بدرٍ ؛ ليراه المشركون ، فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم ، وذلَّ أسراهم ، وها هو ذا ﷺ يأمر

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٨١ .
(٢) انظر : منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٤ .
(٣) أضعفتهم .
(٤) الاضطباع : هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمين ، ويجعل طرفه على منكبه .
(٥) صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٤٨١ .
(٦) انظر : منهج الإعلام الإسلاميِّ ، ص ٣١٥ .

المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التَّجلُّد ، والهرولة؛ لإغاظتهم ، ومكايدتهم ، وردِّ كيدهم في نحورهم[١] ، وقد ذكر ابن القيِّم: «أنَّ رسول الله ﷺ كان يكيد المشركين بكلِّ ما يستطيع»[٢] .

فهذه حربٌ نفسيَّةٌ شنَّها رسول الله ﷺ على المشركين ، وقد آتت أُكُلَها ، ولقد أقام الرَّسول ﷺ في مكَّة ثلاثة أيام ، ومعه المسلمون يرفعون راية التَّوحيد ، ويطوفون بالبيت العتيق ، ويرفعون الأذان ، ويقيمون الصَّلاة ، ويصلِّي بهم رسول الله ﷺ الصَّلوات الخمس في جماعة ، وكان بلالُ بن رباح رضي الله عنه بصوته النَّديِّ يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة ، فكان وقعه على المشركين كالصَّاعقة[٣] .

ولم ينسَ ﷺ مجموعة الحراسة الَّتي كانت تحرس الأسلحة ، والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمَّتهم ممَّن طاف ، وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدُّوا النُّسك ، فقد كان ﷺ يتعامل مع نفوسٍ يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام ، وما جاءت للمرَّة الثانية ، وقطعت هذه المسافة الشَّاسعة إلا لتنال هذا الشَّرف ، وتَبُلَّ هذا الظَّمأ ، فتطوف مع الطَّائفين ، وتسعى مع السَّاعين ، فعمل ﷺ على مراعاة النُّفوس ، وساعدها ولبَّى مطالبها من أجل إصلاحها والرُّقيِّ بها؛ إنَّه من منهج النُّبوَّة في التَّربية[٤] .

ثالثاً: زواجه من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة أختُ أمِّ الفضل زوجةِ العبَّاس بن عبد المطلب فتاةً في السَّادسة والعشرين ، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبي رُهْم بن عبد العزَّى إلى أختِها أمِّ الفضل ، فجعلته أمُّ الفضل إلى زوجها العبَّاس ، فزوَّجها العباس من ابن أخيه النَّبيِّ ﷺ ، وأصدقها عنه أربعمئة درهم[٥] ، وهي خالة عبد الله بن عبَّاس ، وخالد بن الوليد ، ولمَّا انقضت الثَّلاثة أيَّام؛ الَّتي نصَّ عليها عهد الحديبية؛ أراد النَّبيُّ ﷺ أن يتَّخذ من زواجه من ميمونة وسيلةً لزيادة التَّفاهم بينه وبين قريش ، فجاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزَّى مُوْفَدَين من نفرٍ من قريشٍ ، فقالوا: إنَّه قد انقضى أجلُك ، فاخرج عنَّا ، فقال النَّبيُّ ﷺ كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني ، فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً ، فحضرتموه؟!» . قالوا: لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا . فخرج ، وخلَّف أبا رافعٍ مولاه على ميمونة حتَّى أتاه بها بِسَرِفٍ

---

(١) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٨٢ .
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٧١) .
(٣) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٧٠ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص٢٧٧ .
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٣٢٦ .

(موضع قرب التَّنعيم) فبنى بها هناك [ابن هشام (٤/ ١٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٣٠)] ، وهي آخر مَنْ تزوَّج الرَّسول ﷺ من نسائه ، وآخر من مات من نسائه بعده ، وأنَّها ماتت ، ودفنت بِسَرِفٍ ، فمكان عرسها هو مكان دفنها رضي الله عنها ، وأرضاها[١] .

وفي زواج رسول الله ﷺ بميمونة مسألةٌ فقهيَّةٌ اختلف الفقهاء فيها ، وهي : هل تزوَّج ﷺ بميمونة وهو محرمٌ «عقد نكاحه عليها فقط» أو عقد عليها بعد التَّحلُّل ؟[٢] وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها .

رابعاً : التحاق بنتِ حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين :

لقد تغيَّرت النُّفوس ، والعقول بتأثير الإسلام تغيُّراً عظيماً ، فعادت البنت ـ التي كان يتعيَّر بها أشراف العرب ، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار ، وزهداً في البنات ـ حبيبةً يتنافس في تربيتها المسلمون ، وكانوا سواسيةً ، لا يرجع بعضُهم على بعضٍ إلا بفضلٍ ، أو حقٍّ[٣] ، فلمَّا أراد النَّبيُّ ﷺ الخروج من مكَّة ، تبعته ابنة حمزة تنادي يا عمّ ! يا عمّ ! فتناولها عليٌّ رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السَّلام : دونك ابنةَ عمِّك ، فاختصم فيها عليٌّ ، وزيدٌ ، وجعفرٌ .

قال علي : أنا أخذتُها ، وهي بنت عمِّي . وقال جعفر : هي ابنة عمِّي ، وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي ، فقضى بها النَّبيِّ ﷺ لخالتها ، وقال : «الخالة بمنزلة الأم» . وقال لعليٍّ : «أنت منِّي ، وأنا منك» . وقال لجعفر : «أشبهت خَلْقي ، وخُلُقي» . وقال لزيد : «أنت أخونا ، ومولانا» [البخاري (٢٧٠٠) و(٤٢٥١) ، والترمذي (١٩٠٤)] .

وقال عليٌّ رضي الله عنه للنَّبيِّ ﷺ : ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال ﷺ : «إنَّها ابنة أخي من الرَّضاعة» . [البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء ، ومسلم (١٤٤٦) عن علي] .

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وأحكامٌ ، وفوائد؛ منها :

١ ـ الخالة بمنزلة الأمِّ .

٢ ـ الخالة تُقدَّم على غيرها في الحضانة ؛ إذا لم يوجد الأبوان .

٣ ـ تزكية رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، ووصفه له بقوله : «أشبهت خلقي ، وخُلقي» .

---

(١) انظر : هذا الحبيب محمَّد ﷺ يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٣٧٥ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٥٨ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢١ .

٤ ـ منقبة عليٍّ رضي الله عنه: تأمَّل قوله ﷺ: «أنت منِّي وأنا منك» والمعنى: أنت منِّي وأنا منك في النَّسب والصِّهر، والسَّابقة، والمحبَّة.

٥ ـ منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرَّسول ﷺ: «أنت أخونا، ومولانا» لأنَّه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب، فقد آخى الرَّسول ﷺ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشَّقيق من واجباتٍ، والواجب هنا أن يكون وليّاً على بنت حمزة رضي الله عنه.

٦ ـ الخالة تُقدَّم على العمَّة في الحضانة: لقد حكم النَّبيُّ ﷺ لزوجة جعفر بالحضانة؛ وعمَّتها صفيَّة بنت عبد المطلب حيَّةٌ موجودةٌ.

٧ ـ زواج المرأة لا يُسقط حقَّها في الحضانة: فقد حكم الرَّسول ﷺ بالحضانة لخالة بنت حمزة؛ وهي متزوِّجة من جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

٨ ـ لابدَّ من موافقة الزَّوج على حضانة زوجته لابنة أختها؛ لأنَّ الزَّوجة محتبَسةٌ لمصلحته، ومنفعته، والحضانة قد تفوِّت هذه المصلحة جزئيّاً، فلابدَّ من استئذانه، ونلاحظ هنا أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ قد طالب بحضانة بنت عمِّه حمزة لخالتها وهي زوجةٌ له، فدلَّ على رضاه بذلك.

٩ ـ إنَّ الطِّفل إذا رضع مع عمِّه يصبح أخاً له في الرَّضاعة، وتصبح بناتُه كلُّهن بنات أخيه من الرَّضاعة، فيحرم عليه نكاحهنَّ(١).

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة، وإسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريشٍ، وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً، فقد حملت في مضمونها، مهمَّةً دعويَّةً عظيمةً، ولقد تأثر أهل مكَّة من هذه العمرة السِّلميَّة.

يقول اللِّواء محمود شيت خطَّاب: أثَّرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريشٍ تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار النَّدوة بمكَّة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرَّسول ﷺ وأصحابه، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ المسجد؛ اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليُمنى، ثمَّ قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّةً» [سبق تخريجه]. ثمَّ استلم الرُّكن، وأخذ يهرول، وأصحابه معه، فلم يكد يترك الرَّسول ﷺ مكَّة حتَّى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكلِّ ذي عقلٍ: أنَّ محمَّداً ليس بساحرٍ،

(١) انظر: زاد المعاد، وفيه تفصيل كثير (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)، وصلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

ولا شاعرٍ ، وأنَّ كلامه من كلام ربِّ العالمين ، فحقَّ لكلِّ ذي لُبٍّ أن يتَّبعه . وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد ، فبعث في طلبه ، وسأله عن صحَّة ما سمع ، فأكَّد له خالدٌ صحَّته ، فاندفع أبو سفيان إلى خالدٍ في غضبه ، فحجزه عنه عكرمة ، وكان حاضراً ، وقال: مهلاً يا أبا سفيان! فو الله! خِفْتُ لِلَّذي خِفْتُ أن أقول مثل ما قال خالد ، وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ رآه ، وهذه قريش كلُّها تبايعت عليه ، والله! لقد خفت ألا يحول الحول حتَّى يتَّبعه أهل مكَّة كلُّهم . وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كلِّ بيت من قريش سراً وعلانيةً ، وبهذه النتيجة الطَّيبة يمكننا القول بأنَّ عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكَّة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكَّة نفسها(١) .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «وحسبُك: أنَّ عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدَّعوة المحمَّدية ما أقنع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وهما في رجاحة العقل ، والخُلُق مثلان متكافئان ، يُحتذى بهما»(٢) .

١ ـ إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه:

ونترك عمرو بن العاص يحدِّثنا عن إسلامه؛ حيث قال: لمَّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش؛ كانوا يرون رأيي ، ويسمعون منِّي ، فقلت لهم: تعلمون والله! أنِّي أرى أمر محمَّدٍ يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنِّي قد رأيت أمراً ، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنَّجاشي ، فنكون عنده ، فإن ظهر محمَّدٌ على قومنا؛ كنَّا عند النَّجاشيِّ ، فإنَّا أن نكون تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يَدَيْ محمَّدٍ ، وإن ظهر قومنا ، فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا: إنَّ هذا الرَّأي! قلت: فأجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحبَّ ما يهدى إليه من أرضنا الأدم(٣) ، فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثمَّ خرجنا حتَّى قدمنا عليه ، فو الله إنَّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أميَّة الضَّمْرِيُّ ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، قال: فدخل عليه ، ثمَّ خرج من عنده ، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ ، لو دخلت على النَّجاشيِّ ، وسألته إيَّاه ، فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنِّي أجزأت عنها(٤)؛ حيث قتلت رسول محمَّدٍ . قال: فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال: مرحباً صديقي ، أهديت إلي من بلادك

(١) انظر: الرَّسول القائد ﷺ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٢) انظر: عبقرية محمَّد ﷺ ، ص ٦٩ .
(٣) الأدم: الجلد .
(٤) أجزأت عنها: كفيتها .

شيئاً؟ قال: قلت: نعم ، أيها الملك! قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، قال: ثمَّ قربته إليه فأعجبه ، واشتهاه ، ثمَّ قلت له: أيُّها الملك! إنِّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجلٍ عدوٍّ لنا ، فأعطنيه لأقتله؛ فإنَّه قد أصاب من أشرافنا ، وخيارنا ، قال: فغضب ، ثمَّ مدَّ يده ، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنَّه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض؛ لدخلت فيها فَرَقاً منه ، ثمَّ قلت له: أيها الملك! والله! لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتُكَهُ ، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النَّاموس الأكبر الَّذي كان يأتي موسى لِقَتْلِهِ؟! قال: قلت: أيُّها الملك! أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتَّبعه ، فإنَّه والله لعلى الحقِّ ، وليَظْهَـرَنَّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم ، فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثمَّ خرجت إلى أصحابي ، وقد حال رأيي عمَّا كان عليه ، وكتمت على أصحابي إسلامي ، ثمَّ خرجت عامداً إلى رسول الله؛ لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبلٌ من مكَّة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟! قال: والله لقد استقام المَنْسِمُ[(١)] ، وإن الرَّجل لنبيٌّ ، أذهب والله! فأسلم ، فحتَّى متى؟! قال: قلت: والله! ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدَّم خالد بن الوليد ، فأسلم ، وبايع ، ثمَّ دنوت ، فقلت: يا رسول الله ! إنِّي أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدَّم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخَّر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو! بايع؛ فإنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها» قال: فبايعته ، ثمَّ انصرفت. [أحمد (٤/ ١٩٨ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٨) ، وابن هشام (٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩١)][(٢)].

وفي روايةٍ قال: (. . . فلمَّا جعل الله الإسلام في قلبي؛ أتيت النَّبيَّ ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه ، قال: فقبضت يدي ، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفرَ لي. قال: «أما علمت: أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله؟»). [مسلم (١٢١) ، وأحمد (٤/ ٢٠٥) ، وابن خزيمة (٢٥١٥)].

٢ ـ إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدِّثنا عن قصَّة إسلامه ، فيقول: . . . لمَّا أراد الله بي من الخير ما أراد؛ قذف في قلبي حُبَّ الإسلام وحضرني رشدي ، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّدٍ ، فليس موطنٌ أشهده إلاَّ أنصرف ، وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ،

---

(١) استقام المنسم: تبين الطَّريق ، ووضح.

(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٩٤.

وأنَّ محمَّداً سيظهر ، فلمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية؛ خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان ، فقمت بإزائه ، وتعرَّضت له ، فصلَّى بأصحابه الظُّهر آمناً منا ، فهمَمْنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم ، فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منِّي موقعاً ، وقلت: الرَّجل ممنوعٌ! وافترقنا ، وعدل عن سَنن خيلنا وأخذ ذات اليمين ، فلمَّا صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالرَّواح؛ قلت في نفسي: أيُّ شيءٍ بقي؟ أين المذهب؟ إلى النَّجاشيِّ! فقد اتَّبع محمداً ، وأصحابُه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانيَّةٍ ، أو يهوديَّةٍ ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك؛ إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القضيَّة ، فتغيَّبتُ ، فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النَّبيِّ ﷺ في عُمرة القضية ، فطلبني ، فلم يجدني ، فكتب إليَّ كتاباً ، فإذا فيه: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، أمَّا بعد: فإنِّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعَقْلُك عَقْلُك! ومثلُ الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك ، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به! فقال: «ما مِثْلَهُ جَهِلَ الإسلامَ! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره» فاستدرك يا أخي! ما فاتك ، فقد فاتتك مواطنُ صالحةٌ.

قال: فلمَّا جاءني كتابه؛ نَشِطْتُ للخروج ، وزادني رغبةً في الإسلام ، وسرَّتني مقالةُ رسول الله ﷺ . قال خالد: وأرى في النَّوم كأني في بلادٍ ضيِّقةٍ جديبةٍ ، فخرجت إلى بلدٍ أخضرَ واسعٍ ، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا ، فلمَّا قدمت المدينة؛ قلت: لأذكرنَّها لأبي بكرٍ ، قال: فذكرتها ، فقال: هو مخرجُك الَّذي هداك الله للإسلام ، والضِّيق الَّذي كنت فيه من الشِّرك ، فلمَّا أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أميَّة ، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنَّما نحن أكلَةُ رأس(١) ، وقد ظهر محمَّدٌ على العرب ، والعجم ، فلو قدمنا على محمَّدٍ فاتَّبعناه؛ فإنَّ شرف محمَّدٍ على العرب.

فأبى أشدَّ الإباء ، وقال: لو لم يبقَ غيري من قريشٍ ما اتَّبعته أبداً! فافترقنا ، وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وِتْراً ، قد قُتل أبوه ، وأخوه ببدرٍ. فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل الَّذي قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان ، قلت: فاطوِ ما ذكرت مَنْ قُتل من آبائه ، فكرهتُ أذكِّره ، ثمَّ قلت: وما عليَّ وأنِّي راحلٌ من ساعتي ، فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت: إنَّما نحن بمنزلة ثعلب في جُحرٍ ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ(٢) من ماءٍ؛ لخرج.

---

(١) أي: هم قليل ، يشبعهم رأسٌ واحدٌ ، وهو جمع آكل.
(٢) الذَّنوب: الدلو العظيمة.

قال: وقلت له نحواً ممَّا قلت لصاحبيه ، فأسرع في الإجابة ، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بضحٍّ مُنَاخةٌ. قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجج ، إن سبقني؛ أقام ، وإن سبقته؛ أقمت عليه.

قال: فادَّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتَّى التقينا بيأجج ، فغدونا حتَّى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها ، فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدُّخول في الإسلام ، واتِّباع محمَّد ﷺ. قال: وذلك الَّذي أقدمني.

قال: فاصطحبنا جميعاً حتَّى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركابنا ، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فَسُرَّ بنا ، فَلَبِسْتُ من صالح ثيابي ، ثمَّ عمدت إلى رسول الله ﷺ ، فلقيني أخي ، فقال: أسرع فإنَّ رسول الله ﷺ قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي ، فطلعت عليه ، فما زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفتُ عليه ، فسلمت عليه بالنُّبوَّة ، فرد عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ ، فقلت: إنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله. فقال: «الحمد لله الَّذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير». قلت: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقِّ ، فادع الله أن يغفرها لي! فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله». قلت: يا رسول الله! على ذلك؟ فقال: «اللَّهم! اغفر لخالدٍ كلَّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك». قال خالد: وتقدَّم عمرو ، وعثمانُ ، فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ ، فو الله! ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٢)](١).

وفي إسلام عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروسٌ ، ولطائف ، وعبرٌ ، منها:

أ ـ غضبة النَّجاشيِّ تدلُّ على صدق إيمانه ، وحبِّه لرسول الله ﷺ ، وحبُّه للمسلمين ، وصِدْق النَّجاشيِّ كان له أثرٌ في إيمان عمرو بن العاص ، ودخوله في الإسلام ، وبذلك نال النَّجاشيُّ أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش(٢).

ب ـ كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام ، والمسلمين ، فلقد سخَّر عقله الكبير ، ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ، وخسر الكفار بإسلامه خسارةً كبيرةً؛ لأنَّهم كانوا

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) ، والتَّاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).

يُعِدُّونه لعظائم الأمور ؛ الَّتي تحتاج إلى دهاءٍ ، ومقدرةٍ على التأثير ، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بعدائهم مع المسلمين(١) .

ج ـ أدرك خالد بن الوليد: أنَّ العاقبة لرسول الله ﷺ ، وتأمَّل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّد ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف ؛ وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ، وأن محمَّداً سيظهر(٢) . وفي هذا عبرةٌ لكلِّ الَّذين يحاربون الإسلام(٣) .

د ـ الاهتمام بالبشر طريقٌ من طرق التأثير عليهم ، وكسبهم إلى الصَّفِّ المؤمن ، ولذلك قال رسول الله ﷺ للوليد بن الوليد: «ما مِثْل خالدٍ يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين ؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره»(٤) . فكان لهذه الكلمات البليغة أعظمُ الأثر في تحوُّل قلب خالدٍ ، وتوجُّهه نحو الإسلام ، وقد كان رسول الله ﷺ عليماً في مخاطبة النُّفوس ، والتَّأثير عليها ، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة ، والزَّعامة ، فوعد بتمكينه من ذلك ، وتقديمه على غيره في هذا المضمار ، ومدح ﷺ سداد رأيه ، ورجاحة عقله ، ونُضْجَ فكره ، فانتزع ﷺ بهذه الكلمات كلَّ الجوانب الَّتي تجعل خالداً يظلُّ على الشِّرك الَّذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادةٍ وتصدُّرٍ ، فلمَّا كان ما هيَّأه له المشركون سيحصل له ؛ إذا دخل في الإسلام ، واطمأنَّ بأنَّه لو أسلم ؛ لن يكون في آخر القائمة ، ولن يكون مهملاً ، شجَّعه ذلك على التغلُّب على وساوس إبليس ، ورجَّح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام ، فعزم على الدُّخول فيه .

لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوَّةً للإسلام ، وضعفاً للشِّرك ، وكتب الله على أيديهما صفحاتٍ مشرقةً من تاريخ المسلمين الجهاديِّ أصبحت باقيةً في ذاكرة الأمَّة ، وتاريخها المجيد على مرِّ الدُّهور ، وكرِّ العصور ، وتوالي الأزمان(٥) .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٣ .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/ ٩٥) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/ ٩٥) .
(٥) المصدر السابق نفسه ، (٧/ ٩٦) .

المبحث الرابع
سريَّة مؤتة (٨ هـ)[(١)]

أولاً: أسبابها ، وتاريخها:

أشعل عرب الشَّام فتيل الصِّراع بين المسلمين والبيزنطيِّين ، فقد دأبت قبيلة كلب من قُضاعة؛ الَّتي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين ، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصاديِّ عن طريق إيذائها للتُّجار الَّذين كانوا يحملون السِّلع الضَّرورية من الشَّام إلى المدينة ، ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ) ، لكنَّه وجدهم قد تفرَّقوا ، كما أنَّ رجالاً من جُذام ، ولَخْم قطعوا الطَّريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بِحِسْمَىٰ بعد إنجازه لمهمَّةٍ أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كلَّ ما معه ، فكانت سَرِيَّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في سنة (٦ هـ)، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتا مذحج ، وقُضاعة من اعتداءٍ على زيد بن حارثة ، وصحبه في العام المذكور (٦ هـ) ، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثةٍ بغرض الدَّعوة إلى الله .

وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدوانيُّ يأخذ منحنىً أكثر خطورةً[(٢)] ، بعد مقتل الحارث بن عُميرٍ الأزدي رسول رسول الله ﷺ إلى حاكم (بُصرى) التَّابع لحاكم الرُّوم ، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغسَّاني بضرب عنق رسولِ رسولِ الله ، ولم تجر العادة بقتل الرُّسل والسُّفراء ، كما أنَّ الحارث بن أبي شمر الغسَّاني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله ، وهدَّد بإعلان الحرب على المدينة .

ثمَّ حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري؛ ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات أطلاح) ، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام ، وأحاطوا بالدُّعاة من كلِّ مكانٍ ، وقاتلوهم حتَّى قتلوهم جميعاً ، إلا أميرهم كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة ، فأخبر رسول الله ﷺ[(٣)] .

---

(١) ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٧٦٠).

(٢) انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرحمن أحمد سالم ، ص ٨٧.

(٣) انظر: تاريخ الطَّبري (٣/١٠٣) ، والإصابة ، لابن حجر ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمد رضا (ما قبل سرية مؤتة من الحوادث).

وقد قام نصارى الشَّام بزعامة الإمبراطورية الرومانيَّة بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام ، أو يفكِّر في ذلك ، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أسلم ، وقتل والي الشَّام من أسلم من عرب الشَّام[١] .

كانت هذه الأحداث المؤلمة ـ وبخاصَّةٍ مقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عُمير الأزدي ـ محركةً لنفوس المسلمين ، وباعثاً لهم ليضعوا حدّاً لهذه التصرُّفات النَّصرانيَّة العدوانيَّة ، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة ، الذين سُفِكَت دماؤهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ونبيُّنا محمَّد رسول الله[٢] ، كما أنَّ تأديب عرب الشام التابعين للدَّولة الرُّومانيَّة ، والَّذين دأبوا على استفزاز المسلمين ، وتحدِّيهم ، وارتكاب الجرائم ضدَّ دعاتهم أصبح هدفاً مهمّاً ؛ لأنَّ تحقيق هذا الهدف معناه : فرض هيبة الدَّولة الإسلاميَّة في تلك المناطق ، بحيث لا تتكرَّر مثل هذه الجرائم في المستقبل ، وبحيث يأمن الدُّعاة المسلمون على أنفسهم ، ويأمن التُّجار المتردِّدون بين الشَّام والمدينة من كلِّ أذىً يحول دون وصول السِّلع الضَّرورية إلى المدينة[٣] .

وفي سنة (٨ هـ) أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتَّجهُّز للقتال ، فاستجابوا للأمر النَّبويِّ ، وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل ؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السَّريَّة ثلاثة آلاف مقاتل ، واختار النَّبيُّ ﷺ للقيادة ثلاثة أمراء على التَّوالي : زيد بن حارثة ، ثمَّ جعفر بن أبي طالب ، ثمَّ عبد الله بن رواحة[٤] ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيدٌ ؛ فجعفرٌ ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة . [البخاري (٤٢٦١)] .

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإسلاميَّ أن يأتوا المكان الَّذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزديُّ رضي الله عنه ، وأن يَدْعوا من كان هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا ؛ فبها ، ونعمت ، وإن أبوا ؛ استعينوا بالله عليهم ، وقاتلوهم[٥] . وقد زوَّد الرَّسول ﷺ الجيش في هذه السَّريَّة ، وغيرها من السَّرايا بوصايا تتضمَّن آداب القتال في الإسلام[٦] ، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله : «أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزو باسم الله في سبيل

---

(١) انظر : خاتم النَّبيِّين ﷺ (٢/ ١١٣٩) نقلاً عن الصِّراع مع الصَّليبيين ، لأبي فارس ، ص ٢٠ .
(٢) انظر : الصراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٢٠ .
(٣) انظر : المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، ص ٨٩ .
(٤) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠ .
(٥) انظر : السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٧٨٧) .
(٦) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١ .

الله مَنْ كفر بالله ، لا تغدِروا ، ولا تقتُلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعةٍ ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءً ، وإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث : فإمَّا الإسلام ، وإمَّا الجزية ، وإمَّا الحرب»(١) .

ثانياً : وداع الجيش الإسلامي :

لمَّا تجهز الجيش الإسلاميُّ ، وأتمَّ استعداده؛ توجَّه رسول الله ﷺ والمسلمون يودِّعون الجيش ، ويرفعون أكفَّ الضَّراعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلَّموا عليهم ، وودَّعوهم بهذا الدُّعاء : دفع الله عنكم ، وردَّكم صالحين غانمين(٢)!

ولما ودَّع النَّاس عبد الله بن رواحة ، وسلَّموا عليه ، بكى ، وانهمرت الدُّموع من عينيه ساخنةً غزيرةً ، فتعجَّب النَّاس من ذلك ، وقالوا : ما يبكيك يا بن رواحة؟! فقال : والله ما بي حبُّ الدُّنيا ، ولا صَبَابَةٌ بكم ، ولكنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيـة من كتاب الله يذكر فيها النَّـار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٧١] ، فلست أدري كيف بي بالصَّدرِ بعد الوُرود؟! فقال لهم المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين! فقال عبد الله بن رواحة :

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمٰنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي ... أَرْشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

[ابن هشام (٤/ ١٥ ـ ١٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٥٩)] .

وودَّع رسولُ الله ﷺ عبد الله بن رواحة ، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله ﷺ :

يُثَبِّتُ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَىٰ وَنَصْراً كَالَّذِي نُصِرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً ... فِرَاسَةً خَالَفْتُهُم فِي الَّذِي نَظَرُوا
أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ ... وَالْوَجْهُ مِنْهُ فَقَدْ أَزْرَىٰ بِهِ الْقَدَرُ

[البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) ، وابن هشام (٤/ ١٦)](٣) .

ثالثاً : الجيش يصل إلى مَعَان واستشهاد الأمراء الثلاثة :

لما وصل الجيش الإسلاميُّ إلى مَعَان من أرض الشَّام ـ وهي الآن محافظةٌ من محافظات الأردن ـ بلغه : أنَّ النَّصارى الصَّليبيِّين مِنْ عربٍ ، وعجمٍ قد حشدوا حشوداً ضخمةً لقتالهم ؛ إذ

---

(١) انظر : المغازي (٢/ ٧٥٧ ـ ٧٥٨) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٢١) .
(٣) انظر : مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

حشدت القبائل العربيَّة مئة ألف صليبي من لَـخْمٍ ، وجُذَام وبَهرَاء وبَلِيٍّ ، وعيَّنت لهم قائداً ، هو مالك بن رافلة ، وحشد هرقل مئة ألف نصرانيٍّ صليبيٍّ من الرُّوم ، فبلغ جيشهم مئتي ألف مقاتلٍ ، مزوَّدين بالسِّلاح الكافي ، يرفلون في الدِّيباج لينبهر المسلمون بهم ، وبقوَّتهم(١) ، ولقد قام المسلمون في مَعَان يومين يتشاورون في التَّصدِّي لهذا الحشد الضَّخم ، فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله ﷺ في المدينة نخبره بحشود العدوِّ ، فإن شاء أمدَّنا بالمدد ، وإن شاء أمرنا بالقتال(٢) ، وقال بعضُهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد ، وأخفت أهلها ، فانصرف ، فإنَّه لا يعدل العافية شيءٌ(٣) ، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: يا قوم! والله إنَّ الذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون الشَّهادة! وما نقاتل النَّاس بعددٍ ، ولا قوَّةٍ ، ولا كثرةٍ ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ؛ فإنَّما هي إحدى الحسنيين: إمَّا ظهورٌ ، وإمَّا شهادةٌ! فألهبت كلماتُه مشاعر المجاهدين ، واندفع زيد بن حارثة بالنَّاس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث آثر الاصطدام بالرُّوم هناك ، فكانت ملحمةٌ سجَّل فيها القادة الثلاثة بطولةً عظيمةً انتهت باستشهادهم(٤) ، فقد استبسل زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وتوغَّل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله ﷺ حتَّى شاط (أي: سال دمه) في رماح القوم.
[الطبراني في الكبير (٤٦٥٥) ، وابن هشام (٤/ ١٩) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٩)].

ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر ، وانبرى يتصدَّى لجموع المشركين الصَّليبيِّين ، فكثَّفوا حملاتهم عليه ، وأحاطوا به إحاطة السِّوار بالمعصم ، فلم تلن له قناةٌ ، ولم تهن له عزيمةٌ ؛ بل استمرَّ في القتال وزيادةً في الإقدام نزل عن فرسه ، وعقرها ، وأخذ ينشد:

يَا حَبَّذا الجَنَّةُ واقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا
والرُّومُ رُوْمٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيْدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إذ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

[انظر تخريج الحديث السابق].

لقد أخذ رضي الله عنه اللِّواء بيده اليمنى ، فقطعت ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، وانحنى عليه حتَّى استُشْهِد وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، ولقد أُثْخِنَ رضي الله عنه بالجراح ؛ إذ بلغ عدد جراحه تسعين ، بين طعنةٍ برمحٍ ، أو ضربةٍ بسيفٍ ، أو رميةٍ بسهمٍ ، وليس

---

(١) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢/ ٢٧١).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٨٢).
(٣) انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١/ ٣٩٦).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٦٨).

من بينهما جرح في ظهره ، بل كلُّها في صدره[١] .

روى الإمام البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ، أو رميةٍ. [البخاري (٤٢٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٦١)] .

ولقد عوَّض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأكرمه على شجاعته ، وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنَّة حيث يشاء ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عامرٍ؛ قال: كان ابن عمر إذا حَيّا ابن جعفر؛ قال: السَّلام عليك يا بن ذي الجناحين . [البخاري (٤٢٦٤) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٢)] .

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تسلَّم الرَّاية عبد الله بن رواحة الأنصاريُّ رضي الله عنه وامتطى جواده ، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إِنْ أَجْلَبَ[٢] النَّاسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ[٣] ... مَالِيْ أَرَاكِ تَكْرَهِيْنَ الْجَنَّهْ
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ
يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِيْ تَمُوْتِي ... هَذا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ
ومَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيْتِ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

[البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) ، وابن هشام (٤/ ٢١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٥٩)] .

ويُذكر: أنَّ ابن عمٍّ لعبد الله بن رواحة قد قدَّم له قطعةً من لحمٍ ، وقال له: شدَّ بهذا صُلبك ، فإنَّك لقيت في أيَّامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثمَّ انتهش منه نهشةً ، ثمَّ سمع جلبةً ، وزخاماً في جبهة القتال ، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدُّنيا! ثمَّ ألقى قطعة اللَّحم من يده ، وتقدَّم يقاتل العدو حتَّى استُشْهِد رضي الله عنه وكان ذلك في آخر النَّهار[٤] .

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولمَّا استُشْهِد عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه ، وسقطت الرَّاية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عديِّ بن العجلان البلويُّ الأنصاريُّ وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على

---

(١) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٥٨ .
(٢) إن أجْلبَ القوم: صاحوا ، واجتمعوا .
(٣) الرَّنة: صوت ترجيع شبه البكاء .
(٤) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦١ .

رجلٍ منكم ، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل! فاصطلح النَّاس على خالد بن الوليد[١] ، وجاء في (إمتاع الأسماع): أنَّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال: خذ اللِّواء يا أبا سليمان! فقال: لا آخذه ، أنت أحقُّ به ، أنت رجلٌ لك سنٌّ ، فقد شهدت بدراً ، فقال ثابت: خذه أيُّها الرَّجل ، فو الله ما أخذته إلا لك!

فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه[٢] ، وأصبحت الخطَّة الأساسيَّة المنوطة بخالدٍ في تلك السَّاعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعيِّ ، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة تقديراً دقيقاً ، ودرس ظروف المعركة دراسةً وافيةً ، وتوقَّع نتائجها اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقلِّ خسارةٍ ممكنةٍ هو الحلُّ الأفضل ، فقوَّة العدوِّ تبلغ (٦٦) ضعفاً لقوة المسلمين ، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظَّم ، وعلى هذا الأساس وضع خالدٌ الخطَّة التالية:

أ ـ الحؤول بين جيش الرُّوم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب ـ لبلوغ هذا الهدف لابدَّ من تضليل العدوِّ بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين ، فيخفِّف من ضغطه ، وهجماته ، ويتمكَّن المسلمون من الانسحاب ، وصمد خالدٌ حتَّى المساء عملاً بهذه الخطَّة ، وغيَّر في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه ، فاستبدل الميمنة بالميسرة ، ومقدِّمة القلب بالمؤخِّرة ، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجَّة صاخبةً ، وجلبةً قويَّةً ، ثمَّ حمل على العدوِّ ، عند الفجر ، بهجماتٍ سريعةٍ متتالية ، وقويَّة؛ ليُدخل في رُوعِه: أنَّ إمدادات كثيرةً وصلت إلى المسلمين[٣].

ونجحت الخطَّة؛ إذ بدا للعدوِّ صباحاً: أنَّ الوجوه والرَّايات الَّتي تواجهه جديدةٌ لم يرها من قبل، وأنَّ المسلمين يقومون بهجماتٍ عنيفةٍ، فأيقن: أنَّهم تلقَّوا إمدادات، وأنَّ جيشاً جديداً نزل إلى الميدان ، وكان البلاء الحسن الَّذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الرُّوم ، وحلفائهم ، فأدركوا أنَّ إحراز نصرٍ حاسمٍ ونهائيٍّ على المسلمين أمرٌ مستحيلٌ ، فتخاذلوا ، وتقاعسوا عن متابعة الهجوم ، وضعف نشاطهم واندفاعهم ، فخفَّ الضَّغط عن جيش المسلمين ، وانتهز خالدٌ الفرصة ، فباشر الانسحاب ، وكانت عملية التَّراجع الَّتي قام بها خالدٌ في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليَّات في التاريخ العسكريِّ مهارةً ونجاحاً ، بل إنَّها تتَّفق وتتلاءم مع التَّكتيك الحديث للانسحاب ، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب ، ولمَّا أصبح الجناحان بمنأىً عن العدوِّ وفي مأمنٍ عنه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين ، إلى أن

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٢٧).
(٢) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).
(٣) البداية والنِّهاية (٤/ ٢٤٧) ، والواقدي (٢/ ٧٦٤).

تمكَّن ، وضمن سلامة الانسحاب كُلِّيّاً[١] ، ويقول المؤرِّخون: إنَّ خسارة المسلمين لم تتعدَّ الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة ، وإنَّ خالداً قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيَّة» . [البخاري (٤٢٦٥) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٣)] .

ويمكن القول بأنَّ خالداً بخطَّته تلك ، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ ، وقتلٍ محقَّقٍ ، وأنَّ انسحابه كان قمَّة النَّصر بالنِّسبة لظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في ظروفٍ مماثلةٍ أصعب حركات القتال ، بل أجداها ، وأنفعها[٢] .

خامساً: معجزةُ الرَّسول ﷺ ، وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزةٌ للرَّسول ﷺ في أمر هذه السَّرِيَّة ، فقد نعى إلى المسلمين في المدينة زيداً ، وجعفراً ، وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم ، وحزن رسول الله ﷺ لما وقع للسَّرِيَّة ، وذرفت عيناه الدُّموع ، ثمَّ أخبرهم بتسلُّم خالدٍ للرَّاية ، وبشَّرهم بالفتح على يديه ، وأسماه: سيفَ الله[٣] ، وبعد ذلك قدِم من أخبرهم بأخبار السَّرِيَّة ، ولم يزد عمَّا أخبرهم به النَّبيُّ ﷺ[٤] .

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقَّاهم رسول الله ﷺ ، والمسلمون ، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون ، ورسولُ الله ﷺ مقبلٌ مع القوم على دابةٍ ، فقال: خذوا الصِّبيان ، واحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأُتي بعبد الله ، فأخذه ، فحمله على يديه ، وجعل النَّاس يحثون على الجيش التُّراب ، ويقولون: يا فُرَّار! أفررتم من سبيل الله! ويقول رسول الله ﷺ : «ليسوا بالفُرَّار ، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى» . [البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٤) ، وابن هشام (٤/ ٢٤)][٥] .

وإنَّ الإنسان ليعجب من هذه التَّربية النَّبويَّة الَّتي صنعت من الأطفال الصِّغار ، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركـة دون شهادةٍ في سبيل الله فراراً من سبيل الله ، لا يكافؤون عليه إلا بحثو التُّراب في وجوههم ، فأين شبابنا المتسكِّعون في الشَّوارع ، من هذه النماذج الرَّفيعة من الرجولة الفذَّة المبكِّرة؟! ولن تستطيع الأمَّة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النَّبيلة ، والقِمم الشَّوامخ إلا بالتَّربية الإسلاميَّة الجادَّة القائمة على المنهاج النَّبويِّ الكريم[٦] .

---

(١) انظر: معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، ص ١٧٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٥ .
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٦٠) .
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٥) .
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢٨ ، وتاريخ الذهبي ، ص ٤٩١ ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة .
(٦) انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٣٥٨ .

سادساً: دروس ، وعبر ، وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أهمِّيَّة هذه المعركة:

تُعَدُّ هذه المعركة من أهمِّ المعارك الَّتي وقعت بين المسلمين والنَّصارى الصَّليبيِّين من عربٍ ، وعجمٍ؛ لأنَّها أوَّل صدام مسلَّحٍ ذي بالٍ بين الفريقين ، وأثَّرت تلك المعركة على مستقبل الدَّولة الرُّومانيَّة ، فقد كانت مقدمةً لفَتح بلاد الشَّام ، وتحريرها من الرُّومان ، ونستطيع أن نقول: إنَّ تلك الغزوة هي خطوةٌ عمليَّةٌ قام بها النَّبيُّ ﷺ للقضاء على دولة الرُّوم المتجبِّرة في بلاد الشَّام ، فقد هزَّ هيبتها في قلوب العرب ، وأعطت فكرة عن الرُّوح المعنويَّة العالية عند المسلمين ، كما أظهرت ضعف الرُّوح المعنوية في القتال عند الجنديِّ الصَّليبيِّ النَّصرانيِّ[١] ، وأعطت فرصةً للمسلمين للتَّعرُّف على حقيقة قوات الرُّوم ، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢ ـ حبُّ الشَّهادة باعثٌ للتَّضحية:

إنَّ الصَّبر ، والثَّبات ، والتَّضحية الَّتي تجلَّت من كلِّ واحدٍ من الأمراء الثَّلاثة ، وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين ، والرَّغبة في نيل الشَّهادة؛ لكي يكرمهم الله برفقة النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء ، والصَّالحين ، ويدخلوا جنَّات الله الواسعة ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

٣ ـ تميُّز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة الَّتي جاء خبرها من السَّماء؛ إذ نعى النَّبيُّ ﷺ استشهاد الأبطال الثَّلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة ، بل وأخبر النَّبيُّ ﷺ عن أحداثها ، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنَّها الوقعة الوحيدة الَّتي اختار النَّبيُّ ﷺ لها ثلاثة أمراء على التَّرتيب هم: زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالبٍ ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم[٢].

٤ ـ إكرام النَّبيِّ ﷺ لآل جعفر:

لمَّا أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عُمَيْسٍ فقال: «ائتني ببني جعفرٍ» ، فأتت بهم ، فشمَّهم ، وقبَّلهم ، وذرفت عيناه ، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر ، وأصحابه شيءٌ؟ قال: «نعم ، أصيبوا هذا اليوم!» فجعلت تصيح ، وتولول ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تغفُلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنَّهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم». [أحمد (٦/ ٣٨٠) ، وابن ماجه

---

(١) انظر: الصِّراع مع الصليبيِّين ، ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٦.

(١٦١١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٠) ، وابن هشام (٤/ ٢٢)] ، ونلحظ في هذا الخبر عدَّة أمورٍ ؛ منها :

أ ـ جواز بكاء المرأة على زوجها المُتَوَفَّى :

أُخِذ هذا مِنْ فعل أسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنها حينما نعى النَّبيُّ ﷺ زوجها ، ومن معه ، فبكت ، وصاحت ، فلم ينكر عليها النَّبيُّ ﷺ ، ولم ينهها عن ذلك ، ولو كان ممنوعاً ؛ لنهاها عن ذلك ، والبكاء الَّذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهليَّة من النُّواح ، واللَّطم ، وشقِّ الجيوب ، والتَّبرُّم بقضاء الله ، وقدَرِه ، وما إلى ذلك ممَّا يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه .

ب ـ استحباب صنع الطَّعام لأهل الميت :

وقد ندب الرَّسول ﷺ النَّاس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر ، وهذا فيه مواساةٌ لأهل المُتَوَفَّىٰ ، وتخفيفُ مُصابهم ، وفي الوقت نفسه تكافلٌ بينهم ، وهذه السُّنَّة خالفتها بعض الشُّعوب الإسلاميَّة ، وأصبح أهل الميت يصنعون الطَّعام للقادمين ، وهذا أمر قبيحٌ ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون(١) .

هذا وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاثٍ ، فقد دخل على أسماء ، وقال لها : «لا تبكوا على أخي بعد اليوم ، ادعو لي بني أخي» ، فجيء بهم كأنَّهم أَفْرُخ فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم [أحمد (١/ ٢٠٤) ، وأبو داود (٤١٩٢) ، والنسائي (٨/ ١٨٢)] ، ثمَّ قال : أمَّا محمَّد فشبيه عمِّنا أبي طالب ، وأما عبد الله فشبيه خَلْقِي ، وخُلُقِي ، ثمَّ أخذ بيمين عبد الله ، وقال : «اللَّهُمَّ! اخلُف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثاً(٢) . ولمَّا ذَكَرَتْ له أمُّهم يُتْمَهم ، وضعفهم ؛ قال لها : «العَيْلَةَ تخافين عليهم ؛ وأنا وليُّهم في الدُّنيا والآخرة؟!» [أحمد (١/ ٢٠٤)](٣) .

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ خطَّه رسولُ الله ﷺ لرعاية ، وتكريم أبناء الشُّهداء ؛ لكي تسير الأمَّة على نهجه الميمون(٤) .

ج ـ زواج أبي بكرٍ الصِّدِّيق من أسماء بنت عميس :

وبعد أن انقضت عدَّة أسماء بنتِ عُمَيْسٍ ، خطبها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ،

---

(١) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦٨ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٤٣٠) .

فتزوَّجها ، وولدت له محمَّد بن أبي بكرٍ ، وبعدما توفي الصِّدِّيق تزوَّجها بعده عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وولدت له أولاداً رضي الله عنه ، وعنهم أجمعين(١) .

وقد ذكر ابن كثيرٍ : أنَّ أسماء بنتَ عُمَيْسٍ رَثَتْ زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدةٍ تقول فيها :

فَـآلَيْـتُ لاَ تَـنْـفَـكُّ نَفْسِـي حَـزِيْنَـةً ... عَلَيْـكَ وَلاَ يَـنْـفَـكُّ جِلْـدِي أَغْبَـرا
فَلِلَّـهِ عَيْنـا مَـنْ رأَىٰ مِثْلَـهُ فَتَـىً ... أَكَـرَّ وأَحْمَـرَ فـي الهِيَـاجِ وأَصْبَـرَا(٢)

٥ ـ مِنْ فقه القيادة :

إنَّه درسٌ عظيمٌ يقدِّمه لنا الصَّحابيُّ الجليل ثابت بنُ أقرم العجلانيُّ عندما أخذ اللِّواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه آخرِ الأمراء ، وذلك أداءً منه للواجب ؛ لأنَّ وقوع الرَّاية معناه : هزيمةُ الجيش ، ثمَّ نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً ، وفي زحمة الأحداث قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعلٍ ، فاصطلح النَّاس على خالدٍ .

وفي روايةٍ : أنَّ ثابتاً مشى باللِّواء إلى خالدٍ ، فقال خالدٌ : لا آخذه منك ، أنت أحقُّ به ، فقال : والله ! ما أخذته إلا لك .

إنَّ مضمون كلتا الرِّوايتين واحدٌ ، وهو أنَّ ثابتاً جمع المسلمين أوَّلاً ، وأعطى القوس باريها ، فأعطى الرَّاية أبا سليمان خالد بن الوليد(٣) ، ولم يقبل قول المسلمين : أنت أميرنا ؛ ذلك : أنَّه يرى فيهم مَنْ هو أكفأ منه لهذا العمل ، وحينما يتولَّى العمل مَنْ ليس له بأهلٍ ، فإنَّ الفساد متوقَّعٌ ، والعمل حينما يكون للهِ تعالى ، لا يكون فيه أثرٌ لحبِّ الشُّهرة ، أو حظِّ النَّفس .

إنَّ ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين ـ وهو ممَّن حضر بدراً ـ ولكنَّه رأى من الظُّلم أن يتولَّى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه ، حتَّى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر ؛ لأنَّ الغاية هي السَّعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن ، والطريقة المُثْلَى(٤) .

إنَّ كثيراً ممَّن يتزعَّمون قيادة الدَّعوة الإسلاميَّة اليوم يضعون العراقيل أمام الطَّاقات الجديدة ، والقُدرات الفذَّة ، خوفاً على مكانتهم القياديَّة ، وامتيازاتهم الشَّخصية ، وأطماعهم الدُّنيوية ، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدَّرس البليغ لمن كان له قلب ، أو ألقى السَّمع وهو شهيد .

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٢٤) .
(٤) انظر : من معين السيرة ، للشَّامي ، ص ٣٧٦ .

٦ ـ درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالكٍ الأشجعيُّ رضي الله عنه: خرجت مع مَنْ خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، ورافقني مَدَدِيٌّ من اليمن[1]. . . . ومضينا، فلقينا جموع الرُّوم، فيهم رجلٌ على فرسٍ له أشقر، عليه سرجٌ مذهَّب، وله سلاحٌ مذهَّب، فجعل الرُّومي يضرب المسلمين، فقعد له المَدَدِيُّ خلف صخرةٍ، فمرَّ به الرُّومي فعرقب فرسه بسيفه، وفر الرُّومي، فعلاه بسيفه، فقتله، وحاز فرسه، وسلاحه، فلمَّا فتح الله للمسلمين؛ بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السَّلب، قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت: أنَّ رسول الله ﷺ قضى بالسَّلب للقاتل؟ قال: بلى! ولكني استكثرتُه، قلت: لتردَّنها إليه، أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يردَّ عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله، فقصصت عليه قصَّة المدديِّ وما فعل خالدٌ، فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد! ما حملك على ما صنعت؟» قال: استكثرته، فقال: «ردَّ عليه الَّذي أخذتَ منه».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد! ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذلك؟» فأخبرتُه، قال: فغضب رسول الله ﷺ، وقال: «يا خالد لا تردَّ عليه، هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟ لكم صَفْوَةُ أمرهم، وعليهم كَدَرُه». [أحمد (٦/٢٧)، ومسلم (١٧٥٣)، وأبو داود (٢٧١٩ و٢٧٢٠)].

هذا موقفٌ عظيمٌ من النَّبيِّ ﷺ في حماية القادة، والأمراء من أن يتعرَّضوا للإهانة بسبب الأخطاء الَّتي قد تقع منهم، فهم بشر معرَّضون للخطأ، فينبغي السَّعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّصٍ، ولا إهانةٍ، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه، وإنَّما اجتهد، فغلَّب جانب المصلحة العامَّة؛ حيث استكثر ذلك السَّلَب على فردٍ واحد، ورأى: أنَّه إذا دخل في الغنيمة العامَّة؛ نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالكٍ أدَّى مهمَّته في الإنكار على خالدٍ، ثمَّ رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمَّته قد انتهت بذلك؛ لأنَّه ـ والحال هذه ـ قد دخل في أمرٍ من أوامر الإصلاح، وقد تمَّ الإصلاح على يده، ولكنَّه تجاوز هذه المهمَّة حيث حوَّل القضيَّة من قضيةٍ إصلاحيَّةٍ إلى قضيَّةٍ شخصيَّةٍ، فأظهر شيئاً من التَّشفِّي من خالدٍ، ولم يقرَّه النَّبيُّ ﷺ على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً، وبيَّن حقَّ الولاة على جنودهم، وكون النَّبيِّ ﷺ أمر خالداً بعدم ردِّ السَّلب على صاحبه لا يعني أنَّ حقَّ ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنَّه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنساناً بجريرة

---

(١) مدَديٌّ أي: جاء مدداً، وفي رواية: رجل من حمير.

غيره ، فلابدَّ: أنَّ ذلك المجاهد قد حصل منه الرِّضا ، إمَّا بتعويضٍ عن ذلك السَّلَب ، أو بتنازلٍ منه ، أو غير ذلك فيما لم يُذكر تفصيلُه في الخبر(١).

إنَّ الأمَّة الَّتي لا تقدِّر رجالها ، ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظامٌ ، إنَّ التَّربية النَّبويَّة استطاعت بناء هذه الأمَّة بناءً سليماً ، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسانٍ في مكانه ، وأن يُحترم ، ويُقدَّر بمقدار ما يقدِّم لهذا الدِّين! ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العامِّ الَّذي وصف الله به المؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قوله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي أُمَرَائي؟!» وسامٌ آخرُ يُضاف إلى خالدٍ رضي الله عنه ، حيث عُدَّ من أمراء الرَّسول ﷺ ، وهذا من المنهاج النَّبويِّ الكريم في تقدير الرِّجال(٢).

٧ ـ مقاييس الإيمان ، وأثرها في المعارك:

توقَّف الجيشُ الإسلاميُّ في مَعَان يناقش كثرة جيش العدوِّ ، وكانت المقاييس المادِّيَّة لا تشجعهم على خوض المعركة ، ومع ذلك تابعوا طريقهم ، ودخلوا بمقاييس إيمانيَّة ، فهم قد خرجوا يطلبون الشَّهادة ، فلماذا إذاً يفرُّون ممَّا خرجوا لطلبه؟!

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رَحْلِهِ ، فوالله: إنَّه ليسير ليلةً؛ إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وَجَاءَ المُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي ... بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى الثَّوَاءِ

فلمَّا سمعتُها منه بَكَيْتُ ، قال: فخفقني بالدِّرَّةِ ، وقال: وما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشَّهادة ، وترجعَ بين شُعْبَتَي الرَّحل!(٣).

إنَّ التأمُّل بعمقٍ في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النَّفسيَّة والرُّوحيَّة؛ الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وإقامة الحجَّة على القائلين بأنَّ سبب هزيمتنا التفوُّق التِّكنولوجي لدى الأعداء ، لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة ، وقال: «.... هذا عظيمٌ جدّاً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّين؛ أحدُهما ، وهو الفئة الَّتي تقاتل في سبيل الله ، عدَّتها ثلاثةُ آلافٍ ، وأخرى كافرةٌ وعدَّتها مئتا ألف مقاتلٍ ، من الرُّوم مئة ألف ، ومن نصارى العرب مئة ألفٍ ، يتبارزون ، ويتصاولون ، ثمَّ مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلاَّ اثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٣٠).
(٢) انظر: من معين السيرة ، ص ٣٧٨.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٢٤ ، ٢٥).

خلقٌ كثيرٌ ، هذا خالدٌ وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيةٌ ، فيا ترى كم قتل بهذه الأسياف كلِّها؟! دع غيره من الأبطال والشُّجعان من حملة القرآن، وقد تحكَّموا في عبدة الصُّلبان عليهم لعائن الله في ذلك الزَّمان، وفي كلِّ أوان»(١) .

٨ ـ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

فِـي لَيْلَـةٍ ورَدَتْ عَلَـيَّ هُمُـومُهَـا ... طَـوْراً أحِـنُّ(٢) وتَـارَةً أَتَمَلْمَـلُ(٣)
واعْتَـادَنِـي حُـزنٌ فَبِـتُّ كـأَنَّنِـي ... بِبَنَـاتِ نَعْـشٍ والسِّمَـاكِ مُـوَكَّـلُ(٤)
وكـأنَّمَـا بَيْـنَ الجَـوَانِـحِ والحَشَـىٰ ... مِمَّـا تـأوَّبَنِـي شِهَـابٌ مُـدْخَـلُ(٥)
وَجْـداً عَلـى النَّفَـرِ الَّـذِيـنَ تَتَـابَعُـوا ... يَـوْمَـاً بِمُـؤْتَـةَ أُسْنِـدُوا لَـمْ يُنْقَلُـوا
صَلَّـى الإلٰـه عَلَيْهِـمُ مِـنْ فِتْيَـةٍ ... وَسَقَـى عِظَـامَهُـمُ الغَمَـامُ المُسْبِـلُ(٦)
صَبَـرُوا بِمُـؤْتَـةَ لـلإلٰـهِ نُفُـوسَهُـمْ ... حَـذَرَ الـرَّدى ومَخـافَـةً أن يَنْكُلُـوا(٧)
فَمَضَـوْا أمَـامَ المُسْلِمِيْـنَ كـأَنَّهُـمْ ... فُنُـقٌ(٨) عَلَيْهِـنَّ الحَـدِيْـدُ المُـرْفَـلُ(٩)
إِذْ يَهْتَـدُوْنَ بِجَعْفَـرٍ وَلِـوَائِـهِ ... قُـدَّامَ أَوَّلِهِـمْ فَنِعْـمَ الأَوَّلُ
حَتَّـى تَفَـرَّجَـتِ الصُّفُـوفُ وَجَعْفَـرٌ ... حَيْـث الْتَقَـى وَعْـثُ الصُّفُـوفِ مُجَـدَّلُ
فَتَغَيَّـرَ القَمَـرُ المُنِيْـرُ لِفَقْـدِهِ ... والشَّمْـسُ قَـدْ كَسَفَـتْ وكَـادَتْ تـأْفِلُ(١٠)

هذه بعض الأبيات التي بكى بها مالك بن كعب شهداء مؤتة ، ولم يتغيَّب حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة ، وبكاء جعفر بن أبي طالبٍ ، وزيدِ بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، فقد كانت المؤسَّسة الإعلاميَّة تقوم بدورها بتفوُّقٍ وجدارةٍ ، وتتعبَّد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بما خصَّها به من مَلَكَاتٍ ومواهبَ شعريَّةٍ فذَّةٍ .

* * *

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٩).
(٢) أحنُّ: من الحنين ، وفي رواية: أخنُّ: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
(٣) أتململ: أتقلب متبرماً بمضجعي.
(٤) يريد: أنَّه بات يرعى النُّجوم طول ليله من طول السُّهاد.
(٥) المدخل: النافذ إلى الدَّاخل.
(٦) المسبل: الممطر.
(٧) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون ، ينكلوا: يرجعوا خائبين.
(٨) فُنُق: الفحول من الإبل.
(٩) المُرْفَل: الَّذي تنجرُّ أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابغة.
(١٠) تأفِلُ: تغيب ، انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٣٣ ، ٣٤).

المبحث الخامس
سريَّة ذات السَّلاسل

لَمْ تَمضِ سوى أيَّامٍ على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتَّى جهَّز النَّبيُّ ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السَّلاسل ؛ وذلك لتأديب قُضاعة التي غرَّها ما حدث في مؤتة ، والَّتي اشتركت فيها إلى جانب الرُّوم ، فتجمَّعت تريد الدُّنوَّ من المدينة ، فتقدَّم عمرو بن العاص في ديارها ، ومعه ثلاثمئةٍ من المهاجرين والأنصار ، ولما وصل إلى مكان تجمُّع الأعداء بلغه : أنَّ لهم جموعاً كثيرة ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد ، فجاءه مددٌ بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح[(١)] ، وقاتل المسلمون الكفَّار ، وتوغَّل عمرو في ديار قُضاعة الَّتي هربت ، وتفرقت ، وانهزمت ، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشَّام ، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى ، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين وإسلام الكثيرين من بني عبس ، وبني مُرَّة ، وبني ذبيان ، وكذلك فزارة وسيِّدها عيينة بن حصن في حلفٍ مع المسلمين ، وتبعها بنو سُلَيم ، وعلى رأسهم العبَّاس بن مرداس ، وبنو أشجع ، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب ؛ وإن لم يكن في بلاد العرب جميعِها[(٢)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وحكَمٌ :

وفي هذه السرية دروس وعبر وحكم منها :

١ ـ إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه :

قال عمرو بن العاص : بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال : «خُذْ عليك ثيابك ، وسلاحَك ، ثمَّ ائتني» فأتيتُه ، وهو يتوضَّأ ، فصعَّد فيَّ النَّظر ، ثمَّ طأطأ ، فقال : «إنِّي أريد أن أبعثك على جيشٍ[(٣)] ، فيسلِّمك اللهُ ، ويغنمك ، وأرغب لك في المال رغبةً صالحة» ، قال : قلت : يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال ، ولكنِّي أسلمتُ رغبةً في الإسلام ، وأن أكون مع

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٤٧١) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٤٣٣) .
(٣) جيش سريَّة ذات السَّلاسل .

رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «يا عمرو! نعم المال الصَّالح للمرء الصَّالح». [أحمد (٤/ ١٩٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) ، وابن حبان (٣٢١١) ، والحاكم (٢/ ٢) و(٢/ ٢٣٦)].

فهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمان ، وصدق ، وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله ﷺ ، وقد بيَّن له رسولُ الله ﷺ : أنَّ المال الحلال نعمةٌ إذا وقع بيد الرَّجل الصَّالح ؛ لأنه يبتغي به وجه الله ، ويصرفه في وجوه الخير ، ويَعِفُّ به نفسه ، وأسرته[1] .

٢ ـ الاتِّحاد قوَّةٌ ، والتَّنازع ضعفٌ :

عندما وصل المدد الَّذي بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السَّلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناس ، ويتقدَّم عَمْراً ، فقال له عمرو : إنَّما قَدِمْتَ عليَّ مدداً لي ، وليس لك أن تؤمَّني ، وأنا الأمير ، وإنَّما أرسلك النَّبيُّ ﷺ إليَّ مدداً ، فقال المهاجرون : كلاَّ ، بل أنت أمير أصحابك ، وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو : لا ، بل أنتم مددٌ لنا ، فلمَّا رأى أبو عبيدة الاختلاف ـ وكان حَسَنَ الخلق ، ليِّن الطَّبع ـ قال : لتطمئنَّ يا عمرو! ولتعلمنَّ : أنَّ آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن قال : «إذا قدمت على صاحبك ، فتطاوعا ، ولا تختلفا» ، وإنَّك والله إن عصيتني ؛ لأطيعنَّك ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلِّي بالنَّاس[2] .

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أنَّ أيَّ اختلافٍ بين المسلمين في سريَّة ذات السَّلاسل يؤدِّي إلى الفشل ، ومِنْ ثَمَّ تغلُّب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النِّزاع ، وانضمَّ جنديّاً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرَّسول ﷺ : «لا تختلفا»[3] .

٣ ـ حرص عمرو بن العاص على سلامة قوَّاته :

ظهرت عبقرية عمرو العسكريَّة في ذات السَّلاسل في حرصه على وحدة الصَّفِّ ، وفي حرصه على سلامة قوَّته ، ويتجلَّى ذلك في عدَّة صورٍ ؛ منها :

أ ـ أنَّه كان يسير ليلاً ، ويختفي نهاراً :

كان عمرو يدرك بثاقب بصره ، وبُعْد نظره : أنَّ العدوَّ يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما ، فيستعدَّ للقاء جيش المسلمين ، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السَّير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قوَّاته ، وحقَّق بذلك أمرين مُهمَّين :

* إخفاء تحرُّكاته عن عدوِّه ، وبذلك يضمن سلامة قوَّاته .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٧/ ١٣٣).

(٢) انظر : مغازي رسول الله ﷺ لعروة ، ص ٢٠٧ ، وأسانيدها ضعيفةٌ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير غزوة ذات السَّلاسل .

(٣) انظر : غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٠٩ .

* حماية الجند من شدَّة الحرِّ ، وحتَّى يبقى لهم نشاطُهم ، فيَصِلُون إلى مكان المواجهة ؛ وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم .

ب ـ عدم السَّماح للجند بإيقاد النَّار :

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النَّار لحاجتهم الماسَّة إلى التَّدفئة ؛ منعهم من ذلك ؛ معتمداً في ذلك على خبرته الحربيَّة ، وعمق فكره العسكريِّ ، وخوفاً من وقوع مفسدةٍ أعظم من تلك المصلحة ، وهي أن يمتدَّ الضَّوء ، فيكشف المسلمين ـ وهم قلَّة ـ لأعدائهم ، فيهجموا عليهم ، ويتجلَّى هذا الفقه في حزمه الشديد مع أصحابه عندما كلَّمه أبو بكر في ذلك ، فقال : لا يوقد أحدٌ منهم ناراً إلا قذفته فيها ، فلمَّا رجعوا إلى المدينة ، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فسأله رسول الله ﷺ ، فقال : كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوُّهم قلَّتهم(١) .

فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ على فعله .

ج ـ منع الجند من مطاردة أعدائهم :

عندما هزم المسلمون أعداءهم ؛ طمعوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، وتتبُّع فلولهم، ولكنَّ قائد السَّريَّة منع جنده من ذلك ؛ لئلا يترتَّب على هذه المطاردة مفسدةٌ أعظم منها ، وهي أن يقع المسلمون في كمين ، ويتجلَّى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرَّسول ﷺ : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد(٢) ، فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ على هذا التَّصرُّف الحكيم ؛ الَّذي حقَّق للجيش الأمن والحماية(٣) .

٤ ـ من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه :

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : احتلمت في ليلةٍ باردةٍ في غزوة ذات السَّلاسل ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيمَّمت ، ثمَّ صلَّيت بأصحابي الصُّبح ، فذكروا ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال : يا عمرو ! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ ! فأخبرته بالَّذي منعني من الاغتسال ، وقلت : إنِّي سمعت الله يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً . [أحمد (٤/٢٠٣ ـ ٢٠٤) وأبو داود (٣٣٤)](٤) .

وقد استنبط بعض الأحكام من هذه القصَّة :

أ ـ التَّيمُّم يقوم مقام الغُسل بالنِّسبة للجُنُبِ مع وجود الماء ؛ إذا خشي أن يؤدِّي استخدامُ الماء

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٠٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٥٤٠ .

(٤) انظر : صحيح السيرة النَّبوية ، ص ٥٠٩ ، وقال إبراهيم العلي : الحديث إسناده صحيح .

إلى الضَّرر ، فلقد تيمَّم عمرو بن العاص لمَّا أصبح جنباً مع وجود الماء عنده ، وصلَّى وأقرَّه الرَّسول ﷺ ، ولم ينكر عليه.

ب ـ يجوز الاجتهاد في عهده ﷺ : فقد اجتهد عمرو بن العاص ، فتوضَّأ ، واغتسل ، وصلَّى ، وقد احتلم في تلك اللَّيلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فلم ينكر عليه الرَّسول ﷺ اجتهاده؛ بل أقرَّه على أمرين: الأوَّل: جواز الاجتهاد. والثَّاني: تصحيح اجتهاده.

ج ـ من الأسباب المبيحة للتَّيمُّم تعذُّر استخدام الماء ـ وإنْ وجد ـ للبرد الشَّديد.

د ـ تجوز إمامة المتيمِّم بالمتوضِّئ : فقد صلى عمرو بن العاص؛ وهو مُتيَمِّمٌ إماماً بخمسمئة صحابي قد توضَّؤوا ، وأقرَّه الرَّسول ﷺ على ذلك ولم ينكر عليه.

هـ ـ اجتهاد عمرو بن العاص يدلُّ على فقهه ، ووفور عقله ، ودقَّة استنباطه الحكم من دليله[1]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرِّعون عليها الأحكام ، فإنَّ الَّذي يستوقفنا[2] في السِّيرة منها تلك السُّرعة في أخذ عمرو للقرآن ، وصلته به؛ حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات ، وهو لم يمضِ على إسلامه أربعة أشهر ، إنَّه الحرص على الفقه في دين الله ، وقد يكون عمرو ـ وهذا احتمال واردٌ ـ على صلةٍ بالقرآن قبل إسلامه يتتبَّع ما يستطيع الوصول إليه ، وحينئذٍ نكون أمام مثالٍ آخر من عظمة هذا القرآن الَّذي لوى أعناق الكافرين ، وجعلهم وهم في أشدِّ حالات العداوة لهذا الدِّين يحاولون استماع هذا القرآن ، كما رأينا ذلك في العهد المكِّيِّ ، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النَّجاشيِّ أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام[3].

٥ ـ من نتائج سرايا رسول الله ﷺ في الشَّمال:

اتَّجهت حملات المسلمين العسكريَّة بعد صلح الحديبية نحو الشَّمال ، وأصبح غرب الجزيرة وجنوبُها الغربيُّ حيث تقبع مكَّة آمنةً في ظلال الصُّلح[4] ، وحقَّقت سرايا رسول الله ﷺ ، أهدافها ، ومقاصدها في شمال الجزيرة ، فوصلت إلى حدود الرُّوم ، فأمَّنت حدود الدَّولة الإسلاميَّة ، وبسطت هيبتها ، وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة ، وبذلك حقَّقت سياسة النَّبيِّ ﷺ في حركة السَّرايا هدفين عظيمين هما:

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢١٠.
(٢) القائل هو: صالح أحمد الشَّامي ، صاحب (من معين السِّيرة) ، ص ٣٨١.
(٣) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٨١.
(٤) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٠.

١ ـ تأمين حماية الدِّين الإسلاميِّ في الدَّاخل .

٢ ـ حمايته في الخارج[١] .

وما مِنْ شكٍّ في أنَّ المتتبِّع لأحداث السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة ، والمطَّلع على تفاصيلها ، ودقائقها بإمعانٍ يجد بحقٍّ أنَّ صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السِّياسيَّة ، والعسكرية ، والإعلاميَّة ، بل هو حصيلة كسبٍ لأعظم معركةٍ دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي ، من حيث النتائج الإيجابيَّة التي رسَّخت دعائم الإسلام من جهةٍ ؛ وصدَّعت بفعلها قواعد الشِّرك ، والوثنيَّة من جهةٍ أخرى ، وما حدث في خيبر من فتوحٍ ، وفي مؤتة من نصرٍ ، وفي ذات السَّلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلاميَّة إلا نتائج تابعةٌ لصلح الحديبية[٢] ، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النَّبيِّ ﷺ مع سنن الله في المجتمعات ، والشُّعوب ، وبناء الدُّول .

* * *

---

(١) الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، ص ١٧٣ .

(٢) انظر : منهج الإعلام الإسلامي ، ص ٣٣٧ .

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكَّة (٨ هـ)[١]

المبحث الأوَّل
أسبابها، والاستعداد للخروج والشُّروع فيه

أوَّلاً: أسبابها:

١ ـ ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكرٍ على خُزاعة حليفة المسلمين بالخيل، والسِّلاح، والرِّجال، وهجم بنو بكرٍ، وحلفاؤهم على قبيلة خُزاعة عند ماءٍ يقال له: الوَتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[٢]، ولمَّا لجأت خُزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهِّزةً للقتال، لتمنع بني بكرٍ منه؛ قالت لقائدهم: يا نوفل! إنَّا قد دخلنا الحرم، إلٰهك، إلٰهك! فقال نوفل: لا إلٰه اليوم، يا بني بكر! أصيبوا ثأركم[٣]، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ في أربعين من خُزاعة، حتَّى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكرٍ، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني النَّاس، فقال:

يَـا رَبِّ إنِّـي نَـاشِـدٌ مُحَمَّـدا ... حِلْـفَ أَبِيْنَـا وأَبِيْـهِ الأَتْلَـدَا
قَـدْ كُنْتُـم وُلْـداً، وَكُنَّـا وَالِـدا ... ثُمَّـتَ أَسْلَمْنَـا فَلَـمْ نَنْـزِعْ يـدا[٤]
فـانْصُـرْ هَـدَاكَ الله نَصْـراً أَعْتَـدَا ... وادْعُ عِبَـادَ الله يَـأْتُـوا مَـدَدَا
فِيْهِـمْ رَسُـولُ اللهِ قَـدْ تَجَـرَّدا ... إنْ سِيْـم خَسْفـاً وَجْهُـهُ تَـرَبَّـدَا
فِـيْ فَيْلَـقٍ كـالبَحْـرِ يَجْـرِي مُـزبِـدَا ... إنَّ قُـرَيْشـاً أَخْلَفُـوكَ المَـوْعِـدَا
ونقَضُـوا مِيْثَـاقَـك المُـؤَكَّـدا ... وجَعَلُـوا لـي فـي (كَـدَاءٍ) رُصَّـدا
وَزَعَمُـوا أَنْ لَسْـتُ أدْعُـو أحـدَا ... وَهُـمْ أَذَلُّ وأَقَـلُّ عَـدَدَا

---

(١) ينظر الشكل (١٧) في الصفحة (٧٦١).

(٢) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٤).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ٣٩)، والبداية والنِّهاية، لابن كثير.

(٤) يريد: أنَّ أم عبد مناف، وأمَّ قصير خزاعيتان.

هُـــمْ بَيَّتُـــونَـــا بـــالـــوَتِيْـــرِ هُجَّـــدَا وقَتَلُـــــونَـــــا رُكَّعـــــاً وسُجَّـــــدَا

فقال النبي ﷺ: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب!» ولمَّا عرَض السَّحاب مِنَ السَّماء؛ قال: «إنَّ هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعبٍ». [البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤)، وفي الدلائل (٥/ ٦ ـ ٧)، وابن هشام (٤/ ٣٦ ـ ٣٧)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨)].

وجاء في روايةٍ: أنَّ رسول الله ﷺ بعد أن سمع، وتأكَّد من الخبر؛ أرسل إلى قريش، فقال لهم: «أما بعد: فإنَّكم إنْ تبرؤوا من حلف بني بكرٍ، أتُدوا خُزاعة[١]، وإلا أوذنكم بحربٍ، فقال قرظة بن عبد عمروٍ بن نوفل بن عبد منافٍ صهر معاوية: إنَّ بني بكرٍ قومٌ مشائيم، فلا ندري ما قتلوا لنا سبَدَ، ولا لَبَد[٢]، ولا نبرأ من حلفهم، فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم، ولكن نؤذنه بحربٍ[٣].

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشاً بالحرب، وإنَّما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[٤].

٢ ـ أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصُّلح، وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته؛ أعرض عنه النَّبيُّ ﷺ، ولم يجبه، فاستعان بكبار الصَّحابة أمثال أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ؛ حتَّى يتوسطوا بينه وبين رسول الله ﷺ، فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلى مكَّة من غير أن يحظى بأيِّ اتفاقٍ، أو عهدٍ[٥]، وممَّا يذكر عند نزوله في المدينة أنَّه لمَّا دخل على ابنته أمِّ حبيبة ـ أمِّ المؤمنين ـ وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ؛ طوته عنه، فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنِّي؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشركٌ نجس! قال: والله! لقد أصابك بعدي شرٌّ[٦].

وهذا الموقف لا يستغرب من أمِّ حبيبة، فهي ممَّن هاجر الهجرتين، وقد قطعت صِلاتِها

---

(١) أي: تدفعوا دية قتلاهم.
(٢) السَّبد: الشَّعر، واللَّبد: الصُّوف، يعني: إن فعلنا ذلك؛ لم يبق لنا شيء.
(٣) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم ٤٣٦١، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤).
(٥) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، د. علي معطي، ص ٣٦٥.
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤٧٩)، والإصابة، لابن حجر، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا (غزوة فتح مكة).

بالجاهليَّة منذ أمدٍ بعيد ، إنَّها لم ترَ أباها منذ ستَّ عشرة سنة ، فلمَّا رأته لم تر فيه الوالد الَّذي ينبغي أن يُقدَّر ، ويُحترم ، وإنَّما رأت فيه رأس الكفر الَّذي وقف في وجه الإسلام ، وحارب رسوله ﷺ تلك السَّنوات الطَّويلة[1] ، وهذا ما كان يتَّصف به الصَّحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء ، والبراء ، وإعزاز الإسلام ، والمسلمين .

وفي مخاطبة أمِّ حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب ـ مع كونه أباها ، ومع مكانته العالية في قومه ، وعند العرب ـ دليلٌ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها ، لقد كان في سلوك أمِّ حبيبة مظهرٌ من اجتهاد الصَّحابة البالغ في إظهار أمرٍ له أهمِّيَّته البالغة في المحافظة على شخصيَّة المسلم ، ودفع معنويَّته إلى النَّماء ، والحيويَّة[2] .

وأمام نقض قريشٍ للعهود والمواثيق مع المسلمين ، فقد عزم رسولُ الله ﷺ على فتح مكَّة ، وتأديب كفَّارها ، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدَّة أسبابٍ ؛ منها :

أ ـ قوَّة جبهة المسلمين الدَّاخليَّة في المدينة ، وتماسكها ، فقد تخلَّصت الدَّولة الإسلامية من غدر اليهود ، وتمَّ القضاء على يهود بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وبني قريظة ، ويهود خيبر .

ب ـ ضعف جبهة الأعداء في الدَّاخل ؛ وفي مقدَّمة هؤلاء : المنافقون ؛ الَّذين فقدوا الركن الرَّكين لهم ، وهو يهود المدينة ، فهم أساتذتهم الَّذين يوجِّهونهم ، ويشيرون عليهم .

ج ـ اهتمَّ رسول الله ﷺ بتطوير القوَّة العسكريَّة ، وإرسال السَّرايا في فترة الصُّلح ، وبذلك أصبحت متفوِّقةً على قوَّة مشركي قريش ، حيث العدد والعُدَّة ، والرُّوح المعنويَّة .

د ـ كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً ، وبعد أن قويت الدَّولة الإسلاميَّة اقتصادياً ، فقد فتح المسلمون خيبر ، وغنموا منها أموالاً كثيرةً .

هـ ـ انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة ، وهذا يطمئن القيادة حين تتَّخذ قرارها العسكري بنقل قوَّاتها ، ومهاجمة أعدائها .

و ـ قيام السبب الجوهريِّ ، والقانونيِّ لغزو مكَّة ، وهو نقض قريش للعهد ، والعقد[3] ، ونلحظ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يضيِّع قانون الفرصة ، وتعامَلَ معه بحكمةٍ بالغةٍ ، فكان فتح خيبر ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والآن تُتاح فرصةٌ أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها ، وتغيَّرت موازين القوى في المنطقة ، فكان لابدَّ من الاستفادة من المُعْطيات الجديدة ، فأعدَّ ﷺ جيشاً لم

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٩٥ .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميَّ (٧/ ١٧٠ ، ١٧١) .
(٣) انظر : السِّيرة ، لأبي فارس ، ص ٤٠١ .

تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل ، فقد وصلتْ عدَّته إلى عشرة آلاف رجلٍ[١] .

ثانياً: الاستعداد للخروج :

إنَّ حركة النَّبيِّ ﷺ في بناء الدَّولة، وتربية المجتمع، وإرسال السَّرايا ، وخروجه في الغزوات تعلِّمنا كيفيَّة التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، سواءً كانت تلك الأسباب مادِّيَّة أو معنويَّةً ، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السُّنَّة واضحةً في هديه ﷺ ، فعندما قرَّر ﷺ السَّير لفتح مكة؛ حرص على كتمان هذا الأمر حتَّى لا يصل الخبر إلى قريش ، فتعد العدَّة لمجابهته ، وتصدُّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه ، وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة :

١ ـ أنَّه كتم أمره حتَّى على أقرب النَّاس إليه :

فقد أخذ النَّبيُّ ﷺ بمبدأ السِّرِّيَّة المطلقة ، والكتمان الشَّديد حتَّى عن أقرب النَّاس إليه ، وهو أبو بكر رضي الله عنه أقربُ أصحابه إلى نفسه ، وزوجتُه عائشة رضي الله عنها أحبُّ نسائه إليه ، فلم يعرف أحدٌ شيئاً عن أهدافه الحقيقية ، ولا اتِّجاه حركته ، ولا العدوّ الَّذي ينوي قتاله ، بدليل أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مَقْصَدِ الرسول ﷺ قالت له: ما سمَّى لنا شيئاً ، وكانت أحياناً تصمت ، وكلا الأمرين يدلاَّن على أنَّها لم تعلم شيئاً عن مقاصده ﷺ[٢] .

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنَّه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهنَّ ربما يُذِعْنَ شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نيَّةٍ ، فتتناقلها الألسن حتَّى تصير سبباً في حدوث كارثةٍ عظيمةٍ[٣] .

٢ ـ أنه بعث سريَّةً بقيادة أبي قتادة إلى بطن إِضَم :

بعث النَّبيُّ ﷺ قبل مسيره إلى مكَّة سَرِيَّةً مكوَّنةً من ثمانية رجال ، وذلك لإسدال السِّتار على نياته الحقيقيَّة ، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لمَّا همَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكَّة بعث أبا قتادة بن ربْعِي في ثمانية نفرٍ سَرِيَّةً إلى بطن إِضَم[٤] ، لِيَظُنَّ الظَّانُّ: أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى تلك النَّاحية ، فمضوا ، ولم يلقوا جمعاً ، فانصرفوا حتَّى انتهوا إلى ذي خُشُب[٥] ، فبلغهم: أنَّ

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٤) ، والتَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٦٦.
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٨٢) ، والرَّسول القائد ﷺ ، لمحمود شيت خطاب ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤.
(٣) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦.
(٤) بطن إضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان ، وقناة ، والعقيق.
(٥) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشَّام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً.

رسول الله ﷺ قد توجَّه إلى مكَّة ، فأخذوا على (بيبن) حتَّى لقُوا النَّبيَّ ﷺ بالسُّقيا[(١)]»[(٢)] .

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر ، وسلوك ما يمكن من أساليب التَّضليل على الأعداء والإيهام ، الَّتي من شأنها صرف أنظار النَّاس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلاميَّة الَّتي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله ، حتى تُحقِّق أهدافها ، وتَسْلَم من كيد أعدائها[(٣)] .

٣ ـ أنَّه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء :

بثَّ ﷺ رجال استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة داخل المدينة ، وخارجها ؛ حتَّى لا تنتقلَ أخبارُه إلى قريشٍ ، وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب[(٤)] ، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيِّماً بهم ، فيقول : لا تَدَعُوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتموه ، إلا مَنْ سلك إلى مكَّة فإنَّه يُتَحفَّظ به ، ويُسأل عنه ، أو ناحية مكَّة[(٥)] .

إنَّ جَمْعَ المعلومات سلاحٌ ذو حدَّين ، وقد استفاد الرَّسول ﷺ من حدِّه النافع لصالح المسلمين ، وأبطل مفعول الحدِّ الآخر باتباعه السِّرِّيَّة ، واتخاذها أساساً لتحرُّكاته ، واستعداداته ؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوَّة المناسبة[(٦)] .

٤ ـ دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش :

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشريَّة الَّتي في استطاعته ؛ توجَّه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالدُّعاء والتَّضرُّع قائلاً : «اللَّهُمَّ! خذ على أسماعهم ، وأبصارهم فلا يَرَوننا إلا بغتةً ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة» . [البيهقي في الدلائل (٥/ ١١)][(٧)] .

وهذا شأن النَّبيِّ ﷺ في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشريَّة ، ولا ينسى التَّضرُّع ، والدُّعاء لربِّ البريَّة ؛ ليستمدَّ منه التَّوفيق والسَّداد .

---

(١) السُّقيا : موضع يقع في وادي القرى ، معجم البلدان (٣/ ٢٨٨) .
(٢) انظر : الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/ ١٣٢) .
(٣) انظر : القيادة العسكرية ، ص ٤٩٨ .
(٤) الأنقاب : جمع نقب ، وهو كالعريف على القوم .
(٥) التحفظ : هو الاحتراز والتَّيقُّظ ، مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٦) ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمَّد رضا .
(٦) انظر : القيادة العسكرية ، ص ٣٦٥ .
(٧) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٨٢) ، ومحمَّد ﷺ (غزوة فتح مكة) ، لمحمَّد رضا .

٥ ـ إحباط محاولة تجسُّس حاطبٍ لصالح قريش:

عندما أكمل النَّبيُّ ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكَّة يخبرهم فيه نبأ تحرك النَّبيِّ ﷺ إليهم، ولكنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أطلع نبيَّه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرِّسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النَّبيُّ ﷺ عليّاً، والزُّبير، والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهدَّدوها أن يفتِّشوها إن لم تُخرِج الكتاب؛ فسلَّمته لهم، ثمَّ استدعى حاطباً رضي الله عنه للتَّحقيق، فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ، إنِّي كنت امرأً مُلصَقاً في قريشٍ ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفُسِها، وكان مَنْ معك من المهاجرين مَنْ لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّه قد صدقكم».

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق! فقال ﷺ: «إنَّه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على مَنْ شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»[1]. [أحمد (١/ ٧٩ ـ ٨٠)، والبخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤)].

فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

إنَّ الآية السَّابقة رسمت منهجاً للمسلمين في تعاملهم مع الكافرين، فمعنى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

قال القرطبيُّ: السُّورة أصلٌ في النَّهي عن موالاة الكفار[1]، والمراد بهم: المشركون، والكفَّار الذين هم محاربون لله، ولرسوله، وللمؤمنين الَّذين شرع الله عداوتهم، ومصارمتهم، ونهى أن يُـتَّخذوا أولياء، وأصدقاء[2].

وقوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تخبرونهم بسرائر المسلمين، وتنصحون لهم، وهم كافرون بنبيِّكم، وبقرآنكم الَّذي أنزله الله عليكم بالحقِّ الواضح.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن كثير: هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم؛ لأنَّهم أخرجوا الرَّسول ﷺ وأصحابه من بين أظهركم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٦).

كراهةً لما هم عليه من التَّوحيد، وإخلاص العبادة لله وحدَه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنبٌ إلا إيمانكم بالله ربِّ العالمين[١].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتَّخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم؛ فلا توالوا أعدائي، وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم، وأموالكم حَنَقاً عليكم، وسُخطاً لدينكم[٢].

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ أي: تُسِرُّون إليهم بالنَّصيحة.

قال ابن كثير: أي: تفعلون ذلك؛ وأنا العالم بالسَّرائر، والضَّمائر، والظواهر[٣].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: مَنْ يُسِرُّ لهم ويكاتِبُهم منكم فقد أخطأ قَصْدَ الطريق[٤].

يقول أستاذي، وشيخي الدكتور محمَّد بن بكر آل عابد: هذه الآية الكريمة نجدها تمهيداً بين يدي فتح مكَّة حيث حثَّ الله المسلمين على عدم موالاة الكفار، حتى لا يتأثَّر المهاجرون بروابط الرَّحم، والقربى، والمصلحة المادِّيَّة التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكَّة[٥].

ويقول الأستاذ سيِّد قطب: على الرَّغم من كلِّ ما ذاق المهاجرون من العنت، والأذى من قريش؛ فقد ظلَّت بعض النُّفوس تودُّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكَّة المحاسنة، والمودَّة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية الَّتي تكلِّفهم قتال أهليهم، وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم، وبينهم من صلاتٍ، وكأنَّ الله يريد استقصاء هذه النُّفوس، واستخلاصها من كلِّ هذه الوشائج، وتجريدها لدينه، وعقيدته، ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه النَّاجع البالغ؛ بالأحداث، وبالتَّعقيب على الأحداث؛ ليكون العلاج على مسرح الأحداث، وليكون الطَّرْقُ؛ والحديدُ ساخنٌ[٦].

إنَّ ما قام به حاطبٌ أمرٌ عظيمٌ، ولذلك نزل القرآن الكريم يوجِّه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعلُه نحو أعداء دينهم، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ عامل حاطباً معاملةً رحيمةً تدلُّ على

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٤٧).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٥٤).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٦٨، ٥٦٩).
(٦) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).

حرصه الشَّديد على الوفاء لأصحابه ، وإقالة عثرات ذوي السَّوابق الحسنة منهم ، لقد جعل ﷺ من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه .

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ ، فلم ينظر النَّبيُّ ﷺ إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب ، وإن كانت كبيرةً ، وإنَّما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإعزاز دينه ، فوجد : أنَّه قد شهد بدراً ، وفي هذا توجيهٌ للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرةً متكاملةً ، وذلك بأن ينظروا فيما قدَّموه لأمَّتهم من أعمالٍ صالحةٍ في مجال الدَّعوة ، والجهاد ، والعلم ، والتَّربية ، فإنَّ الَّذي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمَّة يستحقُّ التَّقدير ، والاحترام ، وإن بدرت منه بعض الأخطاء ، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأً محضاً ، وزلَّة قدمٍ ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأياً علميّاً ناتجاً عن الاجتهاد؛ وهم أهلٌ لذلك؟!

إنَّ بعض طلاَّب العلم في عصرنا هذا يتسرَّعون في نقد العلماء ، والدُّعاة بسبب آراء اجتهاديَّةٍ يرى بعض العلماء أنَّهم أخطؤوا فيها ، وقد يصل النَّقد إلى حدِّ السُّخريَّة ، والاستهزاء بهم ، وترى هؤلاء الطُّلاب يُجسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ، ويبرزونها بشكلٍ يوحي للسَّامعين ، والقرَّاء : أنَّ أولئك الَّذين تعرَّض إنتاجهم للنَّقد ليس لهم أيُّ رصيدٍ في خدمة الإسلام والمسلمين ، والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أوَّلاً ، ويعرَّف المسلمون بجهادهم ، وبلائهم في الإسلام ، وجهودهم في مجال العلم، والدَّعوة ، ثمَّ تُذكر الأمور ، الَّتي يراها المنتقدون أخطاء، وما يرونه من الصَّواب في ذلك من لزوم الأدب في النَّقد العلميِّ، والبعد عن أسلوب السُّخرية ، والتَّنقيص ، هذا شيءٌ مما يرشدنا له أسلوب النَّبيِّ ﷺ في مواجهة هذا الخطأ الكبير الَّذي ارتكبه حاطبُ بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، إنَّ تاريخ حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله شفع له عند رسول الله ﷺ ، ولذلك لم يتعرَّض للإدانة، أو للعقوبة ، بل كان مانعاً له ممَّا هو أقلُّ من ذلك ، حيث لم يُسمَع من مسلمٍ كلمةٌ واحدةٌ في نقده ، والإساءة إليه بعد قول النَّبيِّ ﷺ : «ولا تقولوا له إلا خيراً» . [سبق تخريجه][1] .

ومن الحوار الَّذي تمَّ بين الرَّسول ﷺ ، وعُمر بن الخطَّاب في شأن حاطبٍ يمكن أن نستخرج بعض الدُّروس ، والعبر :

١ ـ حكم الجاسوس القتل : فقد أخبر عمر بذلك ، ولم ينكر عليه الرَّسول ﷺ ولكن منع مِنْ إيقاع العقوبة كونُه بدريّاً .

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٧٦) .

٢ ـ شدَّة عمر في الحقِّ: لقد ظهرت هذه الشدة في الحقِّ، وغيرتُه على الدِّين حينما طالب بضرب عنق حاطبٍ.

٣ ـ الكبيرة لا تسلُبُ الإيمان: إنَّ ما ارتكبه حاطبٌ كبيرةٌ، وهي التجسُّس؛ ومع هذا ظلَّ مؤمناً.

٤ ـ لقد أطلق عمر على حاطبٍ صفة النِّفاق بالمعنى اللُّغويِّ لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده رضي الله عنه؛ إذ النِّفاق: إبطانُ الكفر، والتَّظاهر بالإسلام، وإنَّما الَّذي أراده عمر: أنَّه أبطن خلاف ما أظهر؛ إذ أرسل كتابه الَّذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله، ويبذل دمه في سبيله[١].

٥ ـ تأثَّر عمر من ردِّ الرَّسول ﷺ، فتحوَّل في لحظاتٍ من رجلٍ غاضبٍ ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطبٍ إلى رجلٍ يبكي من الخشية، والتأثير، ويقول: الله، ورسولُه أعلم؛ ذلك لأنَّ غضبه كان لله، ولرسوله، فلمَّا تبيَّن له أنَّ الَّذي يُرْضي الله تعالى، ورسوله ﷺ هو غضُّ النَّظر عن ذلك الخطأ، ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد؛ استجاب لذلك[٢].

٦ ـ لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطبٍ؛ ذهب لهذا الرأي الدُّكتور عبد الكريم زيدان؛ حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطبٍ في العفو عمَّن يعمل عمله؛ لأن العفو عنه كان لِعِلَّةٍ لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصَّحابة وهو كونه شهد بدراً، فعلى الجَمَاعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك؛ إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطبٌ، أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقُّه[٣]. وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيِّم، وذكر أقوال الأئمَّة الأربعة، ثم قال: والصَّحيح: أنَّ قتله راجعٌ إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحةً للمسلمين؛ قتله، وإن كان استبقاؤه أصلحَ؛ استبقاه[٤].

ثالثاً: الشُّروع في الخروج، وأحداثٌ في الطَّريق:

١ ـ خرج رسول الله ﷺ قاصداً مكَّة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة[٥]،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٤٠٤.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٧/ ١٧٦، ١٧٧).
(٣) المُستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٢).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٤٣).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٥٦٠، ٥٦١.

واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ ، كلثوم بن حُصَيْن بن عُتبة بن خلف الغفاريَّ[١] ، وكان عدد الجيش عشرة آلاف ، فيهم المهاجرون ، والأنصار الَّذين لم يتخلَّف منهم أحدٌ ، فلمَّا وصل الجيش الكُدَيْدَ ـ الماء الذي بين قديد وعُسفان ـ أفطر رسول الله ﷺ وأفطر النَّاس معه . [البخاري (٤٢٧٥) ، ومسلم (١١١٣)] .

وفي الجحفة لقيه العبَّاس بن عبد المطلب عمُّه وقد خرج مهاجراً بعياله ، فسُرَّ ﷺ[٢] ، وفي خروج العبَّاس بأهله ، وأولاده من مكَّة وكان بها بمثابة المراسل العسكريِّ ، أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أنَّ مهمَّته فيها قد انتهت ، وخاصَّةً إذا لاحظنا أنَّ بقاءه في مكَّة كان بأمر الرَّسول ﷺ[٣] .

٢ ـ إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية :

خرج أبو سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أميَّة بن المغيرة من مكَّة ، فلقيا رسول الله ﷺ بثنية العقاب فيما بين مكَّة والمدينة ، فالتمسا الدُّخول عليه ، فكلَّمته أمُّ سلمة ، فقالت: يا رسول الله! ابن عمِّك ، وابن عمَّتك ، وصهرُك ، فقال: «لا حاجة لي فيهما، أمَّا ابن عمِّي؛ فهتك عرضي ، وأما ابن عمَّتي ، وصهري ، فهو الذي قال لي بمكة ما قال» . فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بن الحارث ابنٌ له ، فقال: واللهِ! ليأذننَّ رسولُ الله ﷺ ، أو لآخذنَّ بيد ابني هذا ، ثمَّ لنذهبنَّ في الأرض حتَّى نموت عطشاً ، أو جوعاً ، فلمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما ، فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه ، واعتذاره ممَّا كان مضى فيه ، فقال:

لَعَمْـرُكَ إنِّـي يَـوْمَ أَحْمِـلُ رَايَـةً ... لِتَغلِـبَ خَيْـلُ الَّـلاتِ خَيْـلَ مُحَمَّـدِ
لكَـالمُـدْلِـجِ الْحَيْـرَانِ أَظْلَـمَ لَيْلُـهُ ... فَهَـذا أَوَانُ الحَـقِّ أُهْـدَىٰ وأَهْتَـدِي
فَقُـلْ لِثَقِيْـفٍ لاَ أُرِيْـدُ قِتَـالَكُـمْ ... وَقُـلْ لِثَقِيْـفٍ تِلْـكَ عِنْـدِي فـأَوْعِـدِي
هَـدَانـي هَـادٍ غَيْـرُ نَفْسِـي وَدَلَّنـي ... عَلَـى اللهِ مَـنْ طَـرَّدْتُ كُـلَّ مُطَـرَّدِ
أَفِـرُّ سَـرِيْعـاً جَـاهِـداً عَـنْ مُحَمَّـدٍ ... وأُدْعَـىٰ وَإِنْ لَـمْ أَنْتَسِـبْ لِمُحَمَّـدِ
هُـمُ عُصْبَـةٌ مَـنْ لَـمْ يقُـلْ بِهَـوَاهُـمُ ... وإن كَـانَ ذا رأْيٍ يُلَـمْ ويُفَنَّـدِ
أُرِيْـدُ لأَرْضِيَهُـمْ وَلَسْـتُ بِـلاَئِـطٍ ... مَـعَ الـقَـوْمِ مَـا لَـمْ أُهْـدَ فـي كُـلِّ مَقْعَـدِ
فَمَـا كُنْـتُ فـي الجَيْـشِ الَّـذي نَـالَ عَـامِـراً ... ومَـا كـانَ عَـنْ غَيْـرِ لِسَـانِـي ولاَ يَـدِي

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٦١ .
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٨٦) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٠٦ .
(٣) انظر: تأملات في السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد السيد الوكيل ، ص ٢٥٤ .

قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلاَدٍ بَعِيْدَةٍ تَوَابِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ
وإنَّ الَّذي أَخْرَجْتُمُ وَشَتَمْتُمُ سَيَسْعَى لَكُمْ سَعْيَ امْرِئٍ غَيْرَ مُقْعَدِ[١]

قال: فلمَّا أنشد رسولَ الله ﷺ: على الله مَنْ طَرَّدْتَ كُلَّ مُطَرَّدٍ، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «أنت طَرَّدْتَنِي كلَّ مُطَرَّد». [ابن سعد (٤/٤٩ ـ ٥٠)، والطبراني في الكبير (٧٢٦٤)، والطبري في تاريخه (٣/١١٤ ـ ١١٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٧ ـ ٢٨)، وابن هشام (٤/٤٣ ـ ٤٤)، ومجمع الزوائد (٦/١٦٥)].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيراً، وأمَّا عبد الله بن أميَّة؛ فقد قال لرسول الله ﷺ: فوالله! لا أؤمِنُ بك حتَّى تتَّخذَ إلى السَّماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتَّى تأتيها، ثمَّ تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك، كما تقول، ثمَّ وايم الله! لو فعلتَ ذلك ما ظننت أنِّي أصدِّقك[٢].

ومع فداحة جرمهما فإنَّ النَّبيَّ ﷺ عفا عنهما، وقبل عذرهما، وهذا مثالٌ عالٍ في الرَّحمة، والعفو، والتَّسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السَّابقة بهذه القصيدة البليغة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسُن إسلامه، وكان له موقفٌ مشرِّفٌ في الجهاد مع رسول الله ﷺ في معركة حُنَين[٣].

٣ ـ النُّزول بمرِّ الظَّهران وإسلام أبي سفيان بن حربٍ سيِّد قريش:

وتابع رسول الله ﷺ سيره حتى أتى مَرَّ الظَّهْران[٤]، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النِّيران، فأُوقِدَت عشرةُ آلاف نارٍ، وجعل رسولُ الله ﷺ على الحرس عمرَ بن الخطَّاب[٥].

قال العبَّاس: فقلت: واصباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله ﷺ مكَّة عَنْوَةً قبل أن يأتوه، فيستأمنوه: إنَّه لهلاك قريش إلى آخر الدَّهر! وركب بغلة رسول الله ﷺ، وخرج يلتمس مَنْ يوصل الخبر إلى مكَّة؛ ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عَنْوَةً، وكان أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبُدَيْل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلمَّا رأوا النِّيران؛ قال أبو سفيان: ما رأيت كاللَّيلة نيراناً قطُّ، ولا عسكراً، فقال بُدَيْل: هذه والله خُزاعة حمَشَتْها[٦] الحربُ، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلُّ، وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٥١٧.
(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠٠).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).
(٤) مرَّ الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ ك. م.
(٥) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٨٧، والطَّبقات، لابن سعد (٢/ ١٣٥).
(٦) حمشتها الحرب: أحرقتها.

وعسكرها! وسمع العباس أصواتهم ، فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم ، قال: مَالَك؟ فداك أبي وأمي! قال العبَّاس: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسولُ الله ﷺ في النَّاس واصباح قريشٍ واللهِ! قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتَّى آتي بك رسول الله ، فأستأمنه لك ، قال: فركب خلفي ، ورجع صاحباه ، فجئت به ، كلَّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها؛ قالوا: عمُّ رسولِ الله على بغلته ، حتَّى مررت بنار عمر بن الخطَّاب فقال: مَنْ هذا؟ وقام إليَّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدَّابة قال: أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ ، ثمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال: يا رسول الله! هذا أبـو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي قد أجرته.

فلما أكثر عمر في شأنه؛ قلت: مهلاً يا عمر! فوالله! أن لو كان من بني عديٍّ ما قلت هذا ، ولكنَّك قـد عرفت أنَّـه من رجال بني عبد مناف ، فقال: مهـلاً يا عباس ! فوالله لإسلامُك يـوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسـلام الخطَّاب لو أسلم ، وما بي إلا أنِّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطَّاب لو أسلم ، فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس! إلى رحلك ، فإذا أصبحت؛ فائتني به».

فلمَّا أصبح؛ غدوت به ، فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ ، قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنَّه لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمَك ، وأوصلَك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنِّي بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسولُ الله ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك ، وأكرمَك ، وأوصلَك ! أمَّا هذه والله! فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الآن شيئاً. فقال له العبَّاس: ويحك! أسلم قبل أن تُضْرَب عنقُك ، قال: فشهد شهادة الحقِّ ، فأسلم.

قال العبَّاس: قلت: يا رسول الله! إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ ، ومن دخل المسجد فهو آمنٌ» فلمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس! احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل ، حتَّى تمرَّ به جنود الله ، فيراها».

قال: فخرجت حتَّى حبستُـه حيث أمرنـي رسول الله ﷺ ومرَّت القبائل على راياتها ، كلَّما مرَّت قبيلـةٌ؛ قال: يا عباس! مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي ، ولسُليم! ثمَّ تمرُّ به القبيلة ، فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة ، فيقول: مالي ولمزينة!... حتَّى مرَّ به

رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون، والأنصار، لا يُرى منهم إلا الْحَدَقُ من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين، والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ، ولا طاقةٌ! ثمَّ قال: والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً، قال: قلت: النَّجاءَ إلى قومك. [البخاري (٤٢٨٠) وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٧٤ ـ ٣٧٨)، وابن سعد (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٢ ـ ٣٥)، والمطالب العالية (٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧)، وابن هشام (٤/ ٤٤ ـ ٤٧)][(١)].

إنَّ في هذه القصَّة دروساً، وعبراً، وحِكَماً في كيفيَّة معاملة رسول الله ﷺ للنُّفوس البشريَّة، ومن أهم هذه الدُّروس:

١ ـ عندما أصبح أبو سفيان رهينةً بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النَّبيِّ ﷺ، وَهَمَّ به عمر، وأجاره العبَّاس، ثمَّ جاء في صبيحة اليوم الثاني لِيَمْثُلَ بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت المفاجأة الصَّاعقة له بدل التَّوبيخ، والتَّهديد، والإذلال أن يُدْعى إلى الإسلام، فتأثَّر بهذا الموقف، واهتزَّ كيانُه، فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمِّي يا محمد! ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصلَك! إنَّه يفدي رسول الله ﷺ بأبيه وأمِّه، ويُثْني عليه الخير كلَّه: ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصلَك[(٢)]! وعندما قال العبَّاس للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً، فقال النَّبيُّ ﷺ: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ..» ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيءٌ يُشْبع ما تتطلَّع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيتٌ له على الإسلام، وتقويةٌ لإيمانه[(٣)]، وكان هذا الأسلوب النَّبويُّ الكريم عاملاً على امتصاص الحِقْدِ من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأنَّ المكانة الَّتي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام؛ إنْ هو أخلص له، وبذل في سبيله[(٤)]، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ على العلماء، والدُّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع النَّاس.

٢ ـ وفي قول رسول الله ﷺ لعمِّه العبَّاس عن أبي سفيان: «احبِسْه بمضيق الوادي، حتَّى تمرَّ به جنود الله، فيراها[(٥)]» ففعل العبَّاس، وكان ﷺ يريد أن يشنَّ حرباً نفسيَّةً للتَّأثير على

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠.
(٢) انظر: السَّابق، وانظر: فقه السيرة النَّبوية، للغضبان، ص ٥٦٤.
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣).
(٤) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة، لمحمَّد رواس، ص ٢٤٥.
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).

معنويَّات قريش ، حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكَّة ، وحتَّى يرى أبو سفيان بِعَيْنَيْ رأسه مدى قوَّة ما وصل إليه الجيش الإسـلاميُّ من تسليح ، وتنظيمٍ ، وحسن طاعةٍ ، وانضباطٍ ، وبذلك تتحطَّم أيُّ فكرةٍ في نفوس المكِّيِّين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكَّة لتحريرها من براثن الشِّرك ، والوثنيَّة[١] ، وبالفعل تمَّ ما رسمه رسولُ الله ﷺ ، وأدرك أبو سفيان قوَّة المسلمين ، وأنَّه لا قِبَل لقريشٍ بهم ، حتَّى إذا مرَّت به كتيبة المهاجرين ، والأنصار ؛ قال أبو سفيان : سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين ، والأنصار . قال : ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ، ولا طاقةٌ! والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة . قال : فنعم إذاً . . . »[٢] .

إنَّها النُّبوَّة ، تلك هي الكلمة الَّتي أدارتها الحكمة الإلٰهيَّة على لسان العبَّاس ، حتَّى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كلِّ مَنْ يتوهَّم ، أو يوهم أنَّ دعوة النَّبيِّ ﷺ إنَّما كانت ابتغاء ملكٍ ، أو زعامةٍ ، أو إحياء قوميَّةٍ ، أو عصبيَّةٍ ، وهي كلمةٌ جاءت عنواناً لحياة رسول الله ﷺ من أوَّلها إلى آخرها ، فقد كانت ساعاتُ عمره ، ومراحلُها كلُّها دليلاً ناطقاً على أنَّه بُعِث لتبليغ رسالة الله إلى النَّاس ، لا لإشادة ملكٍ لنفسه في الأرض[٣] .

لقد تعمَّد النَّبيُّ ﷺ شنَّ الحرب النَّفسيَّة على أعدائه أثناء سيره لفتح مكَّة ، حيث أمر رسولُ الله ﷺ بإيقاد النِّيران ، فأوقدوا عشرة آلاف نارٍ في ليلةٍ واحدةٍ حتَّى ملأت الأفق ، فكان لمعسكرهم منظرٌ مهيبٌ ، كادت تنخلع قلوب القرشيِّين من شدَّة هوله[٤] ، وقد قصد النَّبيُّ ﷺ من ذلك تحطيم نفسيَّات أعدائه ، والقضاء على معنويَّاتهم حتَّى لا يفكروا في أيَّة مقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام ؛ لكي يتمَّ له تحقيق هدفه دون إراقة دماءٍ ، وبتطبيق هذا الأسلوب تمَّ له ﷺ ما أراد ، ولقد كان اهتمامُ النَّبيِّ ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيَّته سبقاً عسكريّاً ، بدليل أنَّ المدارس العسكريَّة الَّتي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية ، والاهتمام من النَّاحية العسكريَّة[٥] .

* * *

(١) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤٤٧ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ٥٢) ، وسبق تخريجه .
(٣) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٧٥ .
(٤) انظر : الطبقات ، لابن سعد (٢/ ١٣٥) .
(٥) انظر : العبقرية العسكريَّة ، وغزوات الرَّسول ﷺ ، تأليف اللِّواء محمَّد فرج ، ص ٥٦٥ .

المبحث الثَّاني
خُطَّة النَّبيِّ ﷺ لدخول مكَّة وفتحها

أولًا: توزيع المهام بين قادة الصَّحابة:

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ إلى ذي طُوى[١]؛ وزَّع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المُجَنَّبة اليُمنى، وجعل الزُّبير على المُجَنَّبة اليُسرى، وجعل أبا عبيدة على البَيَاذِقَةِ[٢]، وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة! ادعُ لي الأنصار» فدعاهم، فجاؤوا يهرولون، فقال: يا معشر الأنصار! هل ترون أوباش قريش؟! قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً، وأخفى بيده، ووضع يمينه على شماله، وقال: «موعدكم الصَّفا». [مسلم (١٧٨٠)].

وبعث رسول الله ﷺ الزُّبير بن العوَّام على المهاجرين، وخيلهم، وأمره أن يدخل من كَداء مِنْ أعلى مكَّة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتَّى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة، وسليم، وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكَّة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدِّمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفُّوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم[٣]، وبهذا كانت المسؤوليَّات واضحةً، وكلٌّ قد عرف ما أُسندِ إليه من مهام، والطَّريق الذي ينبغي أن يسير فيه[٤].

ودخلت قوَّات المسلمين مكَّة من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ، ولم تلقَ تلك القوات مقاومةً، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربةٌ قاضيةٌ لفلول المشركين؛ حيث عجزت عن التَّجمُّع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربيَّة الحكيمة الَّتي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوَّة في العدد والعتاد، ونجحت خطَّة الرَّسول ﷺ فلم يستطع المشركون المقاومة، ولا الصُّمود أمام الجيش الزَّاحف، إلى أمِّ

---

(١) انظر: من معين السيرة، ص ٣٨٩.
(٢) البياذقة: الرَّجالة.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٩٠.
(٤) االمصدر السابق نفسه.

القُرى ، فاحتلَّ كلُّ فيلقٍ منطقته الَّتي وُجِّه إليها ، في سلمٍ ، واستسلامٍ؛ إلا ما كان من المنطقة الَّتي توجَّه إليها خالد(١) ، فقد تجمَّع متطرفو قريشٍ؛ ومنهم: صفوان بن أميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم ، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخَنْدَمَة) ، وتصدَّوا للقوَّات المتقدِّمة بالسِّهام ، وصمَّموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم ، وما هي إلا لحظات حتَّى قضى على تلك القوَّة الضَّعيفة ، وشتَّت شمل أفرادها ، وبذلك أكمل الجيش السَّيطرة على مكَّة المكرَّمة(٢) ، وقد حدَّثتنا كتب السِّيرة ، والتَّاريخ عن قصَّة حِمَاس بن قيس بن خالدٍ من قبيلة بني بكرٍ ، فقد أعدَّ سلاحاً لمقاتلة المسلمين ، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ، ويتعهَّدُه ، تسأله: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمَّد ، وأصحابه ، وقالت امرأته له يوماً: والله! ما أرى أنَّه يقوم لمحمَّدٍ وصحبه شيءٌ! فقال: إنِّي والله لأرجو أن أُخْدمَكِ بعضهم ، ثمُ قال:

إن يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِيْ عِلَّةْ ... هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وألَّةْ(٣)
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّةْ

فلمَّا جاء يوم الفتح ناوش حِمَاسٌ هذا شيئاً من قتالٍ مع رجال عكرمة ، ثمَّ أحس بالمشركين يتطايرون مِنْ حوله أمام جيش خالدٍ ، فخرج منهزماً حتَّى بلغ بيته ، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب.

فقالت المرأة لفارسها: فأين ما كنت تقول؟!

فقال يعتذر لها:

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ ... إذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
أبُو يَزِيْدَ قَائِمٌ كالمُؤتمَهْ(٤) ... واسْتَقْبَلَتْهُمْ بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبَاً فَلاَ يُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَهْ
لَهُمْ نَهِيتٌ(٥) خلفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لا تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ(٦)

لقد أُعْلِنَ في مكَّة قُبيل دخول جيش المسلمين أسلوبَ منع التجوُّل؛ لكي يتمكَّنوا من دخول مكَّة بأقلِّ قدرٍ من الاشتباكات ، والاستفزازات ، وإراقة الدِّماء ، وكان الشعار المرفوع: «من

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ٣٩٧.
(٢) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.
(٣) الألَّة: الحربة لها سنان طويل ، وذو غرارين: سيف ذو حدين.
(٤) المؤتمة: المرأة التي مات زوجها ، وترك لها أيتاماً ، وأبو زيد: سهيل بن عمرو.
(٥) النَّهيت: صوت الصَّدر.
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٩٥).

دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» ، وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانةً خاصَّةً كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيِّين بالسِّلم ، والهدوء ، ويستخدمه كمفتاح أمانٍ يفتتح أمامه الطَّريق إلى مكَّة دون إراقة دماء ، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر ؛ الَّتي يحبُّها أبو سفيان ، حتَّى يتمكَّن الإيمان في قلبه[١] .

لقد دخل أبو سفيان إلى مكَّة مسرعاً ، ونادى بأعلى صوته :

يا معشر قريش! هذا محمَّدٌ جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت : اقتلوا الحَمِيْتَ الدَّسِمَ الأحْمَس ـ تشبِّهه بالزِّقِّ لسمنه ـ قُبِّحَ مِنْ طليعة قوم! قال : ويلكم! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه مِنْ أنفسكم ، فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، فَمَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن قالوا : قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وتفرَّق النَّاس إلى دورهم ، وإلى المسجد[٢] .

وحرص النَّبيُّ ﷺ أن يدخل الكَدَاء الَّتي بأعلى مكَّة[٣] تحقيقاً لقول صاحبه الشَّاعر المبدع حسَّان بن ثابت حين هجا قريشاً ، وأخبرهم بأنَّ خيل الله تعالى ستدخل من كَدَاء ، وتُعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسَّان ؛ حيث قال :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيْرُ النَّقْعَ[٤] مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وكَانَ الفَتْحُ وانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وإلا فَاصْبِرُوا لِجَلَادِ يَومٍ ... يُعِزُّ[٥] اللهُ فِيْهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيْلُ رسُولُ اللهِ فِيْنَا ... وَرُوْحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدَاً ... يَقُولُ الحَقَّ فِي ذَاكَ البَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ ... فَقُلْتُم لا نَقُومُ وَلاَ نَشَاءُ
وقَالَ اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَومٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

---

(١) انظر : دراسة في السِّيرة ، د. عماد الدين خليل ، ص ٢٤٥ .
(٢) انظر : البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠) .
(٣) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٢٤ .
(٤) النَّقع : موضع قرب مكَّة ، أو الغبار .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣٠٩) .

فَنُحْكِمُ بالقَوافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
أَلاَ بَلِّغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... مُغْلَغَلَةً[1] فقد بَرِحَ الخَفَاءُ
بأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً ... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحمَّداً فأجبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ في ذاكَ الجَزَاءُ
أتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيْفاً ... أَمِيْنَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُهُ وينْصُرُه سَوَاءُ
فإنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لسَانِيْ صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيْهِ ... وبَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[2]

وممَّا يؤيِّد حرص النَّبيِّ ﷺ على دخوله من كَدَاء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لمَّا دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النِّساء يَلْطِمْنَ وجوه الخَيْلِ بالخُمُر[3]، فتبسَّم إلى أبي بكرٍ، فقال: يا أبا بكر! كيف قال حسَّان؟ فأنشده قوله:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمطِّراتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ[4]

ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ:

دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءُ بغير إحرامٍ، [أحمد (١/٣٦٣) ومسلم (١٣٥٨)، وأبو داود (٤٠٧٦)، والترمذي (١٧٣٥)، والنسائي (٥/٢٠١)، وابن ماجه (٢٨٢٢)]، وهو واضعٌ رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتَّى إنَّ ذقنه ليكاد يَمَسُّ واسطة الرَّحل. [البيهقي في الدلائل (٥/٦٨)، والحاكم (٣/٤٧)، وأبو يعلى (٣٣٩٣)، ومجمع الزوائد (٦/١٦٩)]. ودخل وهو يقرأ سورة الفتح. [البخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤/٢٣٨)] مستشعراً نعمة الفتح، وغفران الذُّنوب، وإفاضة النَّصر العزيز[5]، وعندما دخل مكَّة فاتحاً ـ وهي قلبُ جزيرة العرب، ومركزُها الرُّوحيُّ، والسِّياسيُّ ـ رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائر العدل والمساواة، والتَّواضع، والخضوع، فأردف أسامة بن زيدٍ، [البخاري (٤٢٨٩)]؛ وهو ابن مولى رسول الله ﷺ، ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم، وأبناء أشراف قريشٍ، وهم كثير، وكان ذلك صبح

---

(١) مغلغلة: رسالة محمولة من بلدٍ إلى بلد.
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٩).
(٣) الخُمُر: جمع خمار، مأخوذ من الخمر، وهو السِّتر؛ وهو ما تستر به النِّساء رؤوسهنَّ.
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٣١).
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص ٣٩٦.

يوم الجمعة لعشرين ليلةٍ خلت من رمضان ، سنة ثمانٍ من الهجرة(١) .

يقول محمَّد الغزالي في وصف دخول النَّبيِّ ﷺ لمكَّة :

على حين كان الجيش الزَّاحف يتقدَّم ، ورسول الله ﷺ على ناقته تُتَوِّج هامته عمامةٌ سوداء ، ورأسُه خفيض من شدَّة التَّخشُّع لله ، لقد انحنى على رحله ، وبدا عليه التَّواضع الجمُّ ، إنَّ الموكب الفخم المهيب الَّذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدَّارع الَّذي يحفُّ به ينتظر إشارةً منه فلا يبقى بمكَّة شيءٌ آمنٌ ، إنَّ هذا الفتح المبين ليذكِّره بماضٍ طويل الفصول كيف خرج مطارَداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيَّداً ، وأيّ كرامةٍ عظمى حفَّه الله بها هذا الصَّباح الميمون ، وكلَّما استشعر هذه النَّعماء ، ازداد لله على راحلته خشوعاً وانحناءً(٢) .

هذا وقد حرص النَّبيُّ ﷺ على تأمين الجبهة الدَّاخلية في مكَّة عند دخوله يوم الفتح ، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الكعبة ، قال ﷺ : «هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة ، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة» [البخاري (٤٢٨٠) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٣٨) ، والطبري في تاريخه (٣/١١٨)] . وأخذ الراية من سعد بن عبادة ، وسلَّمها لابنه قيس بن سعدٍ ، وبهذا التَّصرُّف الحكيم حال دون أيِّ احتمالٍ لمعركةٍ جانبيَّةٍ هُمْ في غنىً عنها ، وفي الوقت نفسه لم يُثِرْه ، ولا آثار الأنصارَ ، فهو لم يأخذ الرَّاية من أنصاري ويسلِّمها لمهاجرٍ ؛ بل أخذها من أنصاريٍّ وسلمها لابنه ، ومن طبيعة البشر ألاَّ يرضى الإنسان بأن يكون أحدٌ أفضَل منه إلا ابنه(٣) .

ولمَّا نزل رسولُ الله ﷺ بمكَّة ، واطمأن النَّاس ، خرج حتَّى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوسٌ ، وحول البيت وعليه ثلاثمئةٍ وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١] ، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ : ٤٩] ، والأصنام تتساقط على وجوهها(٤) ، وإنَّه لمظهر رائعٌ لنصر الله ، وعظيم تأييده لرسوله ﷺ ؛ إذ كان يطعن تلك الآلهة الزَّائفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه ، حتَّى ينكفئ على وجهه ، أو ينقلب على ظهره جُذاذاً(٥) ، ورأى في الكعبة الصُّور ، والتَّماثيل؛ فأمر بالصُّور ، وبالتَّماثيل فكسرت(٦) ، وأبى أن يدخل جوف

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدوي ، ص ٣٣٧ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .
(٣) انظر : قيادة الرسول ﷺ السِّياسيَّة والعسكريَّة ، ص ١٩٦ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩ .
(٥) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٨٢ .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩ .

الكعبة حتَّى أخرجت الصُّور ، وكان فيها صورةٌ يزعمون: أنَّها صورة إبراهيم ، وإسماعيل ، وفي أيديهما من الأزلام ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قطُّ» . [أحمد (١/ ٣٦٥) ، والبخاري (٤٢٨٨)] .

ثم دخل البيت ، وكبَّر في نواحيه ، ثمَّ صلَّى ، فقد روى ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو ، وأسامة ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فأغلقها عليه ، ثم مكث فيها ، قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه ـ وكان البيت يومئذٍ على ستَّة أعمدة ـ ثمَّ صلَّى. [مسلم (١٣٢٩) ، وأبو داود (٢٠٢٣) ، والنسائي (٢/ ٦٣) ، وبنحوه البخاري (٥٠٥)][1] .

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة ، قبل أن يسلم ، فأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السِّقاية ، لكن النَّبي ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ، وردَّه إليه قائلاً: «اليوم يوم برٍّ ووفاء» [الطبراني في الكبير (٨٣٩٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٨٣ ـ ٨٤) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٧)][2] ، وكان ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال: «يا عثمان! لعلَّك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت» . فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ ، وذلَّت ، فقال: «بل عَمَرَتْ ، وعزَّتْ يومئذٍ» ووقعت كلمتُه من عثمان بن طلحة موقعاً ، وظنَّ: أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال[3] ، ولقد أعطى له رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء» [سبق تجريجه][4] ، «خذوها خالدةً ، تالدةً ، لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ[5]» . وهكذا لم يشأ النَّبيُّ ﷺ أن يستبدَّ بمفتاح الكعبة ، بل لم يشأ أن يضعه في أحدٍ من بني هاشم ، وقد تطاول لأخذه رجالٌ منهم ، لما في ذلك من الإثارة أوَّلاً ، ولما به من مظاهر السَّيطرة ، وبسط النُّفوذ ، وليست هذه من مهام النُّبوَّة بإطلاق ، . . . هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ ؛ البرُّ ، والوفاء حتَّى للذين غدروا ، ومكروا ، وتطاولوا[6] .

هذا وقد أمر النَّبي ﷺ بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق ظهر الكعبة ، فيؤذِّن بالصَّلاة ، فصعد بلال ، وأذَّن بالصَّلاة ، وأنصت أهل مكَّة للنِّداء الجديد على آذانهم كأنَّهم في حُلْمٍ ، إنَّ

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٦١ ، ٦٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١) والبداية والنِّهاية ، لابن كثير .
(٣) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨) .
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٦٢) .
(٥) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨) .
(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٠١ .

هذه الكلمات تقصف في الجوِّ ، فتقذف بالرُّعب في أفئدة الشَّياطين ، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولُّوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر(١) .

ذلك الصَّوت الَّذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب : أَحَد! أحَد! أحَد! هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً : لا إله إلا الله ، محمَّدٌ رسولُ الله! ؛ والكلُّ خاشعٌ مُنْصِتٌ خاضع(٢) .

ثالثاً : إعلان العفو العام :

١ ـ نال أهل مكَّة عفواً عامّاً برغم أنواع الأذى الَّتي ألحقوها بالرَّسول ﷺ ودعوته ، ورغم قدرة الجيش الإسلاميِّ على إبادتهم ، وقد جاء إعلان العفو عنهم ؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة ، ينتظرون حكم الرَّسول ﷺ فيهم ، فقال : «ما تظنون أني فاعل بكم؟!» فقالوا : خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخٍ كريم ، فقال : «لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم!» . [البيهقي في الكبرى (٩/١١٨) ، وفي الدلائل (٥/٥٨) ، وابن سعد (٢/١٤١ ـ ١٤٢)](٣) .

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل ، أو السَّبي ، وإبقاء الأموال المنقولة ، والأراضي بيد أصحابها ، وعدم فرض الخراج عليها ، فلم تُعامل مكَّة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً لقدسيَّتها ، وحرمتها ؛ فإنَّها دار النُّسك ، ومتعبَّد الخلق ، وحرم الرَّبِّ تعالى ، لذلك ذهب جمهور الأئمَّة من السَّلف ، والخلف إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضي مكَّة ، ولا إجارة بيوتها ، فهي مناخٌ لمن سبق ، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها ، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجَّاج ، والمعتمرين ، والعبَّاد القاصدين . وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكَّة ، وإجارة بيوتها ، وأدلَّتهم قويَّةٌ في حين أنَّ أدلة المانعين مرسلةٌ ، وموقوفةٌ(٤) .

٢ ـ إهدار النَّبيِّ ﷺ لبعض الدِّماء :

إلى جانب ذلك الصَّفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الَّذي لابدَّ أن تتَّصف به القيادة الحكيمة الرَّشيدة ، ولذلك استثنى قرار العفو الشَّامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم ـ وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة ـ؛ لأنَّه عظمت جرائمُهم في حقِّ الله ورسوله ، وحقِّ الإسلام ، ولما كان

---

(١) انظر : فقه السِّيرة للغزاليِّ ، ص ٣٨٣ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٢٦٩ .
(٣) انظر : المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٩ .
(٤) انظر : المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٠ .

يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين النَّاس بعد الفتح(١).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جَمَعْت أسماءهم مِنْ متفرِّقات الأخبار، وهم: عبد العُزَّى بن خَطَل، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وعِكْرِمَة بن أبي جهل، والحويرث بن نُقَيْدٍ ـ مصغراً ـ، ومِقْيَس بن صُبَابة، وهَبَّار بن الأسود، وقينتان لابن خطل «فَرْتَنَىٰ، وقُرَيْبَة» كانتا تغنيان بهجو النَّبي ﷺ، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارثَ بن طُلَاطِل الخزاعيَّ، وذكر الحاكم: أنَّ فيمن أُهْدِرَ دمه كعبَ بن زُهَيْرٍ، ووحشيَّ بْنَ حَرْبٍ، وَهِنْدَ بنتَ عُتْبَة(٢).

وَمِنْ هؤلاء مَنْ قُتِل، ومنهم مَنْ جاء مسلماً تائباً، فعفا عنه الرَّسول ﷺ، وحسن إسلامُه(٣).

٣ ـ خطبةُ النَّبيِّ ﷺ غداة الفتح، وإسلامُ أهل مكَّة:

وفي غداة الفتح بلغ النَّبيَّ ﷺ: أنَّ خزاعة حلفاءه عدت على رجلٍ من هذيلٍ، فقتلوه، وهو مشركٌ برجلٍ قتل في الجاهليَّة، فغضب، وقام بين النَّاس خطيباً، فقال: «يا أيُّها النَّاس! إنَّ الله قد حرم مكَّة يوم خلق السَّموات، والأرض، فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يَعْضِدَ ـ يقطع ـ فيها شجراً، لم تَحلَّ لأحدٍ كان قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلا هذه السَّاعة غضباً على أهلها، ثمَّ قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إنَّ الله قد أحلَّها لرسوله، ولم يُحِلَّها لكم».

«يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر القَتْلُ إنْ نفع، لقد قتلتُم قتيلاً لأدِينَّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النَّظرين، إن شاؤوا فَدَمُ قاتله، وإن شاؤوا فَعَقْلُه».
[أبو داود (٤٥٠٤)، والترمذي (١٤٠٦)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٨٣ ـ ٨٤)](٤).

كان من أثر عفو النَّبيِّ ﷺ الشَّامل عن أهل مكَّة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهلُ مكَّة رجالاً، ونساءً، وأحراراً، وموالي في دين الله طواعيةً، واختياراً، وبدخول مكَّة تحت راية الإسلام دخل النَّاس في دين الله أفواجاً، وتمَّت النِّعمة ووجب الشُّكر(٥)، وبايع رسول الله ﷺ النَّاس جميعاً، الرِّجالَ، والنِّسَاءَ، والكبارَ، والصِّغار، وبدأ بمبايعة الرِّجال،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)، وتأمُّلات في السيرة، ص ٢٦٢.
(٢) فتح الباري: في شرح حديث رقم (٤٢٨٠).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).
(٤) المصدر السابق نفسه، وعقله: أي ديته. والبداية والنِّهاية، لابن كثير، صفة دخوله ﷺ مكَّة.
(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٥٦).

فقد جلس لهم على الصَّفا ، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام ، والسَّمع ، والطَّاعة لله ، ولرسوله فيما استطاعوا ، وجاء مُجَاشِعٌ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح ، فقال لرسول الله ﷺ : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة ، فقال ﷺ : «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال : على أيِّ شيءٍ تبايعه؟ قال : «أبايعه على الإسلام ، والإيمان ، والجهاد» . [أحمد (٣/ ٤٦٩) ، والبخاري (٤٣٠٥ و٤٣٠٦) ، ومسلم (١٨٦٣)] .

وقد روى البخاريُّ : أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : «لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ ، وإذا استُنْفِرْتم ، فانفروا» [البخاري (١٨٣٤) ، ومسلم (١٣٥٣)] ، والمراد : أنَّ الهجرة الَّتي كانت واجبةً من مكَّة قد انتهت بفتح مكة ، فقد عزَّ الإسلامُ ، وثبتت أركانُه ودعائمهُ ، ودخل النَّاس فيه أفواجاً ، أمَّا الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من بلدٍ لا يَقْدِرُ أن يقيم فيه دينَه ، ويظهر شعائرَه إلى بلدٍ يتمكَّن فيه من ذلك ، فهي باقيةٌ إلى يوم القيامة ، ولكن هذه دون تلك ، فقد تكون واجبةً ، وقد تكون غير واجبةٍ ، كما أنَّ الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروعٌ وباقٍ إلى يوم القيامة ، ولكنَّه ليس كالإنفاق ، ولا الجهاد قبل فتح مكَّة .

قال عزَّ شأنه(١) : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد : ١٠] .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال ؛ بايع النِّساء ـ وفيهنَّ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ متنكِّرةً ، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ؛ لما صنعت بحمزة ـ على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يَسْرِقْنَ ، ولا يَزْنِيْنَ ، ولا يقتلن أولادهنَّ ، ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ ، وأرجلهنَّ ، ولا يعصين في معروفٍ ، ولما قال النَّبيُّ ﷺ : «ولا يَسْرِقْنَ» قالت هند : يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني ، ويكفي بنيَّ ، فهل عليَّ مِنْ حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ : «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف» ، ولما قال : «ولا يزنين» قالت هند : وهل تزني الحرَّة؟! ولمَّا عرفها رسولُ الله ﷺ قال لها : «وإنك لهند بنت عُتْبَةَ؟» قالت : نعم ، فاعف عمَّا سلف عفا الله عنك .

وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحةٍ ، فقد كان لا يصافح النِّساء ، ولا يَمَسُّ يد امرأةٍ إلا امرأةً أحلَّها الله له ، أو ذات محرمٍ منه ، وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها : أنَّها قالت : لا والله! ما مسَّت يد رسول الله يد امرأةٍ قطُّ . [البخاري (٥٢٨٨) ، ومسلم (١٨٦٦)] وفي

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧) .

روايةٍ: ما كان يبايعهنَّ إلا كلاماً، ويقول: «إنَّما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمئة امرأةٍ»[١].

رابعاً: بَعْثُ خالدِ بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ داعياً إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوَّال من السَّنة الثَّامنة للهجرة[٢] قَبْلَ حنين، ومعه جنودٌ من بني سُلَيْم، ومُدْلَج، والأنصار، والمهاجرين، كان تعدادُهم حوالي ثلاثمئةٍ وخمسين رجلاً، فلمَّا رأى بنو جَذِيْمَةَ الجيش بقيادة خالدٍ، أخذوا السِّلاح، فقال لهم خالدٌ: ضعوا السِّلاح فإنَّ النَّاس قد أسلموا، فقام رجلٌ منهم يسمَّى جحدراً، فقال: ويلكم يا بني جَذِيْمَةَ! إنَّه خالد؛ والله! ما بعد وضع السِّلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله! لا أضع سلاحي أبداً، فلم يزالوا به حتَّى وضع سلاحه، فلمَّا وضع السِّلاح أمر بهم خالد فكُتِّفُوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً، وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالدٌ أن يقتل كلُّ واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر، وامتنع معه آخرون من قَتْلِ أسراهم، فلمَّا قَدِموا على رسول الله ﷺ، أخبروه، فغضب، ورفع يديه إلى السَّماء قائلاً: اللَّهُمْ إنِّي أَبْرَأُ إليك ممَّا صنع خالدٌ. [أحمد (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، والبخاري (٤٣٣٩)، والنسائي (٨/ ٢٣٧)، وابن سعد (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨)][٣].

ودار كلام بين خالدٍ، وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتَّى كان بينهم شرٌّ، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالدٍ ثأراً لعمِّه الفاكه بن المغيرة الَّذي قتله جَذِيْمَةُ في الجاهليَّة، ولعلَّ هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المرويُّ عند مسلمٍ، وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيءٌ، فسبَّه خالدٌ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً؛ ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه» [البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)][٤].

وبعث رسولُ الله ﷺ عليّاً، فودى لهم قتلاهم، وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم، وبراءةً من دمائهم[٥]، وبهذا التَّصرُّف النَّبويِّ الحكيم واسى النَّبيُّ ﷺ بني جَذِيْمَة، وأزال ما في

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣١٩)، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا (البيعة).
(٢) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ٢٤٨.
(٣) انظر: السِّيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ٤٦٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٥٧٩.
(٥) المصدر السابق نفسه.

نفوسهم مِنْ أسى ، وحزن[١] ، وكان قتل خالد لبني جَذِيْمَةَ تأوُّلاً منه ، واجتهاداً خاطئاً ، وذلك بدليل أنَّ الرَّسول ﷺ لم يعاقبه على فعله[٢] .

خامساً : هدم بيوت الأوثان :

بعد أن طُهِّرَ البيتُ الحرامُ من الأوثان الَّتي كانت فيه ، كان لابدَّ من هدم البيوت الَّتي أقيمت للأوثان ، فكانت معالم للجاهليَّة ردحاً طويلاً من الزَّمن[٣] ، فكانت سرايا رسول الله تترى ؛ لتطهير الجزيرة ؛ منها :

١ ـ سرية خالد بن الوليد إلى العزَّى :

توجَّهت سريةٌ قوَّتها ثلاثون فارساً ، بقيادة خالد بن الوليد إلى الطَّاغوت الأعظم منزلةً ، ومكانةً عند قريش وسائر العرب (العُزَّىٰ) لإزالته من الوجود نهائيّاً ، وعندما وصلت السَّرِيَّة إلى العزَّى بمنطقة نخلة قام إليها خالدٌ: فقطع السَّمُرَاتِ ، وهدم البيت الَّذي كان عليه[٤] ، وهو يردِّد :

كفرانك لا سبحانك إنِّي رأيتُ الله قد أهانك

[الطبراني في الكبير (٣٨١١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٦)][٥] .

ثمَّ رجع خالدٌ وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وقدَّم تقريره بإنجاز المهمَّة ، ولكنَّ النبي ﷺ استدرك على قائد السَّرِيَّة ، وقال له : «هل رأيت شيئاً؟» قال : لا[٦] ، فقال : «ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً»[٧] ، فرجع خالد متغيظاً حَنِقاً على عدم إنهاء مهمَّته على الوجه المطلوب ، فلمَّا وصل إليها ، ونظرت السَّدنة إليه ، عرفوا : أنَّه جاء هذه المرَّة ليكمل ما فاته في المرَّة السَّابقة ، فهربوا إلى الجبل ، وهم يصيحون : يا عزَّىٰ خَبِّليه ، يا عزَّىٰ عوِّريه ، فأتاه خالد ، فإذا امرأةٌ عُرْيانةٌ ناشرةٌ شعرها تحثو التُّراب على رأسها ، فتقدَّم إليها خالدٌ رضي الله عنه بشجاعته المعروفة ، وضربها بالسَّيف حتَّى قتلها ، ثمَّ رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، فقال : «تلك هي العزَّى» . [أبو يعلى (٩٠٢) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٧٧) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٦)][٨] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٤٦٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٩ .
(٣) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٩٤ .
(٤) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) انظر : المغازي (٢/ ٨٧٤) .
(٧) انظر : السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٢ .
(٨) المصدر السابق نفسه .

٢ ـ سرية سعد بن زيدٍ الأشهليِّ إلى مَناة:

مناة اسم صَنَمٍ كانت على ساحل البحر الأحمر ممَّا يلي قديداً[(١)] ، في منطقة تُعْرَف بالمُشَلَّل[(٢)] ، وكانت للأوس ، والخزرج ، وغسَّان ومن دان بدينهم ، يعبدونها ويعظِّمونها في الجاهليَّة ، ويهلُّون منها للحجِّ ، وقد بلغ من تعظيمهم إيَّاها: أنَّهم كانوا لا يطوفون بين الصَّفا والمروة تحرُّجاً ، وتعظيماً لها ، حيث كان ذلك سُنَّةً في آبائهم ، مَنْ أحرم لمناة لَمْ يطُفْ بين الصَّفا والمروة[(٣)] ، ولم تزل هذه عادتُهم حتَّى أسلموا ، فلمَّا قدموا مع النَّبيِّ ﷺ للحجِّ ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٤)] ، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، ومبتدع الأوثان ، محرِّف الحنيفيَّة دين إبراهيم عليه السلام عمرُو بن لحي الخُزاعيُّ[(٥)] ، فلمَّا فتح الله على المسلمين مكَّة بعث رسول الله ﷺ إلى مناة رجلاً من أهلها سابقاً الَّذين كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة ، وهو سعد بن زيد الأشهليُّ رضي الله عنه على رأس سِريَّةٍ قوَّتها عشرون فارساً ، وكان واجب السَّرِيَّة هو إزالة مناة من الوجود نهائيّاً[(٣)] .

انطلق زيدٌ ومن معه في مسيرٍ اقترابيٍّ سريعٍ لإنجاز المهمَّة المحدَّدة ، حتَّى وصل إليها ، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مَناة ، قال: أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشي إليها ، وتخرج إليه امرأةٌ عُرْيَانةٌ سوداء ثائرة الرَّأس تدعو بالوَيْل ، وتضرب صَدْرها[(٦)] ، فصاح بها السَّادن صيحة الواثق: مَناةُ دُونَك بعضَ عُصَاتك[(٤)] ، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرِّياح ، فلم يأبه سعدٌ رضي الله عنه بكلِّ ذلك ، وضربها ضربةً قاتلةً قضت عليها ، ثمَّ أقبل مع أصحابه على الصَّنم (فهدموه ، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً ، وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ)[(٧)] .

---

(١) ما بين مكَّة والمدينة.
(٢) المُشَلَّل مِنْ قديد ، وبالمشلَّل كانت مناةُ.
(٣) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٦ .
(٤) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢٢).
(٥) انظر: السرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٧ .
(٦) انظر: الطَّبقات (٢/ ١٤٦).
(٧) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٨ ، قال مؤلف الكتاب الدُّكتور بريكك العمري: الخبر ضعيف من النَّاحية الحديثية ، ويمكن الاستئناس به تاريخيّاً ، حيث ذكر أهل المغازي أنَّ رسول الله ﷺ أرسل بعض السَّرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربيَّة ، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك؛ لكونها أحد أكبر الطَّواغيت في الجزيرة ، ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرِّسالة العلميَّة الَّتي أشرف عليها الدُّكتور أكرم العمري.

٣ـ سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنمٍ كان لقوم نوحٍ عليه السَّلام، ثمَّ صار بعد ذلك لقبيلة هُذَيْلٍ المضريَّة(١)، وظلَّ هذا الوثن منصوباً تعبده هُذيل وتعظِّمه حتَّى إنَّهم كانوا يحجُّون إليه(٢)، حتَّى فتحت مكَّة، ودخل هذيلٌ فيمن دخل في دين الله أفواجاً، فبعث رسول الله ﷺ سريةً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع، ويحدِّثنا قائد السَّريَّة عن مهمَّته، فيقول: «فانتهيت إليه، وعنده السَّادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمَه، قال: لا تقدر على ذلك، قلتُ: لِمَ؟ قالت: تُمْنَعُ، قلت: حتَّى الآن أنت في الباطل، ويحك! هل يسمع، أو يبصر؟! قال: فدنوت منه فكسرتُه، وأمرت أصحابي، فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا شيئاً، ثمَّ قلت للسَّادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله(٣).

ونستفيد من حركة السَّرايا الَّتي أرسلها رسولُ الله ﷺ للقضاء على الأصنام، والأوثان: أنَّه لا يجوز إبقاء مواضع الشِّرك، والطَّواغيت بعد القدرة على هدمها، وإبطالها يوماً واحداً، فإنَّها شعائر الكفر، والشِّرك، وهي أعظمُ المنكرات، فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القدرة ألبتَّة.

وهذا حكمُ المشَاهدِ الَّتي بُنيت على القبُور الَّتي اتخذت أوثاناً، وطواغيت تُعْبَد من دون الله، والأحجار الَّتي تُقصد للتَّعظيم، والتَّبرُّك، والنَّذر، والتَّقبيل، لا يجوز إبقاء شيءٍ منها على وجه الأرض عند القدرة على إزالتها، وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت، والعزَّى، ومناة الثَّالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها، وبها(٤).

* * *

---

(١) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ٢٩٢.

(٢) انظر: سبل الرَّشاد، للشَّامي (٦/٣٠٣).

(٣) انظر: المغازي، للواقدي (٢/٨٧٠)، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا (سرية عمرو بن العاص إلى سُواع).

(٤) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ٣٠٢.

المبحث الثَّالث
دروس وعبر وفوائد

أولًا: تفسير سورة النَّصر ، وكونُها علامةً على أجَل رسولِ الله ﷺ:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر مِنْ قول: «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه!» فقال: خبَّرني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي فإذا رأيتُها أكثرت من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]». [مسلم (٤٨٤/ ٢٢٠)].

قال القرطبيُّ: وذلك لمَّا فُتِحتْ مكَّةُ؛ قالت العرب: أما إذا ظَفِر محمَّد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان (أي: طاقة) فكانوا يُسْلمون أفواجاً: أمَّةً أمَّةً[(١)] ، وكان عمرو بن سلمة يقول: كنَّا بماءٍ ممرِّ النَّاس وكان يمرُّ بنا الرُّكبان ، فنسألهم: ما للنَّاس؟ ما للنَّاس؟ ما هذا الرَّجل؟ فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله ، أُوحي إليه ، أو: أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، وكأنَّما يَقِرُّ في صدري ، وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون: اتركوه وقومه ، فإنَّه إن ظهر عليهم؛ فهو نبيٌّ صادق؛ فلمَّا كانت وقعة أهل مكَّة؛ بادر كلُّ قوم بإسلامهم.

وهذه السُّورة تسمَّى سورة التَّوديع: حيث جاءت مخبرةً بقرب أجل المصطفى ﷺ[(٢)] ، فعن ابن عباسٍ ، قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه ، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟! ، فقال عمر: إنَّه ممَّن قد علمتم. فدعاني ذات يومٍ ، فأدخلني معهم ، فما رأيت أنَّه دعاني يومئذ إلا ليريهم منِّي! قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ حتَّى ختم السُّورة؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَد الله ، ونستغفره إذا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٥٧٢).

نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضُهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذاك تقول يا بْنَ عباسٍ؟! فقلت : لا ، قال : فما تقول؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له ، قال : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ـ وذلك علامة أجلك ـ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . [البخاري (٤٣٩٤)] .

ويقول سيِّد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السُّورة : في مطلع السُّورة إيحاءٌ معيَّنٌ لإنشاء تصوُّرٍ خاصٍّ عن حقيقة ما يجرى في هذه الكون من أحداثٍ ، وما يقع في هذه الحياة من حوادثَ ، وعن دور الرَّسول ﷺ ، ودور المؤمنين في هذه الدَّعوة ، وحدِّهم الَّذي ينتهون إليه في هذا الأمر . . . . هذا الإيحاء يتمثَّل في قوله : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فهو نصرٌ يجيء به الله في الوقت المناسب الَّذي يقدِّره في الصُّورة الَّتي يريدها ، للغاية الَّتي يرسمُها ، وليس للنَّبيِّ ، ولا لأصحابه من أمره شيءٌ ، وليس لهم في هذا النَّصر يدٌ ، وليس لأصحابه فيه كسبٌ ، وليس لذواتهم منه نصيبٌ ، وليس لنفوسهم منه حظٌّ ، إنَّما هو أمر الله يحقِّقه بهم ، أو بدونهم ، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حُرَّاساً ، ويجعلهم عليه أمناء ، هذا هو كلُّ حظِّهم من النَّصر ، والفتح ، ومن دخول النَّاس في دين الله أفواجاً[(١)] .

وهذا معنىً إيمانيٌّ عميقٌ ، حرص القرآن على تثبيته في نفوس المؤمنين ، ألا وهو : أنَّ التَّمكين بيد الله تعالى ، فهو الَّذي يختار الزَّمان ، والمكان ، والأشخاص الَّذين يريد أن يُجريَ على أيديهم نصره ، وفتحه ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهو كرمٌ وفضلٌ من الله محضٌ خصَّ به الصَّادقين مِنْ عباده .

ثانياً : مواقفُ دعويَّةٌ وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس :

١ ـ إسلام سهيل بن عمرو :

قال سهيل بن عمرو : لمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وظهر ، انقحمت[(٢)] بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل : أن اطْلُبْ لي جواراً من محمَّدٍ ، وإنِّي لا آمن مِنْ أن أقتل ، وجعلت أتذكَّر أثري عند محمَّدٍ ، وأصحابه ، فليس أحدٌ أسوأ أثراً منِّي ، وأنِّي لقيتُ رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حضوري بدراً ، وأحداً ، وكلَّما تحرَّكتْ قريشٌ ؛ كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ، فقال : يا رسول الله! تؤمِّنه؟ فقال : «نعم ، هو آمنٌ بأمان الله ، فليظهر!» ثمَّ قال رسول الله ﷺ لمن حوله : «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدَّ النَّظر إليه ، فليخرج فلعمري! إنَّ سهيلاً له عقلٌ ،

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦) .

(٢) أي : رميت بنفسي .

وشرفٌ ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه: أنَّه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه ، فقال سُهيل: كان والله بَرّاً ، صغيراً ، وكبيراً! فكان سهيل يقبل ، ويدبر ، وخرج إلى حنين مع النَّبيِّ ﷺ وهو على شركه حتَّى أسلم بالجِعِرَّانة. [الحاكم (٣/ ٢٨١)][(١)].

لقد كانت لهذه الكلمات التَّربويَّة الأثر الكبير على سهيل بن عمرو؛ حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبرِّ طوال عمره ، ثمَّ دخل في الإسلام بعد ذلك ، وقد حسُن إسلامه ، وكان مكثراً من الأعمال الصَّالحة(٢) ، يقول الزُّبير بن بكَّار: كان سهيل بعدُ كثير الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، خرج بجماعته إلى الشَّام مجاهداً ، ويقال: إنَّه صام ، وتهجَّد حتى شحب لونُه ، وتغيَّر ، وكان كثير البُكاء إذا سمع القرآن ، وكان أميراً على كُرْدُوسَةٍ(٣) يوم اليرموك(٤).

٢ ـ إسلام صفوان بن أميَّة:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: . . . وأمَّا صفوان بن أميَّة فهرب حتَّى أتى الشُّعَيبة(٥) ، وجعل يقول لغلامه يسار ـ وليس معه غيره ـ: ويحك! انظر مَنْ ترى ، قال: هذا عُمَيرُ بن وهبٍ ، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي! قد ظاهر محمداً عليَّ. فلحقه فقال: يا عُمَيْرَ! ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني دَيْنَك وعيالك ، ثمَّ جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبرِّ النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! سيِّد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر ، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي ، وأمي! قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته» فخرج في أثره ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أمَّنك. فقال صفوان: لا والله! لا أرجع معك حتَّى تأتيني بعلامةٍ أعرفها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله! جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه ، فأخبرته بما أمَّنْتَه فقال: لا أرجع حتَّى تأتي بعلامةٍ أعرفها ، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها ، وهو البُرْدُ الَّذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذٍ مُعتجراً(٦) به ، بُرد

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦ ـ ٨٤٧).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/ ٢١٦ ، ٢١٧).
(٣) الكُرْدُوسَةُ: طائفة عظيمةٌ من الخيل أو الجيش ، (ج) كراديس.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).
(٥) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكَّة ، ومرسى سفنها قبل جدَّة ، انظر: معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).
(٦) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفَّها على رأسه ، ويردَّ طرفها على وجهه ، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).

حَبِرة[١] ، فخرج عمير في طلبه ثانيةً حتَّى جاء بالبُرْد ، فقال: أبا وهب! جئتك من عند خير النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وأبرِّ الناس ، وأحلم النَّاس ، مَجْده مَجْدُك ، وعزُّه عزُّك ، ومُلكُه مُلكُك ، ابن أمِّك وأبيك ، اذكرِ الله في نفسك.

قال له: أخاف أن أُقتل ، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين ، فهو أوفى النَّاس ، وأبرُّهم ، وقد بعث إليك ببرده الَّذي دخل فيه معتجراً ، تعرفه؟ قال: نعم ، فأخرجه ، فقال: نعم ، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يُصلِّي بالمسلمين العصر بالمسجد ، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصَلُّون في اليوم واللَّيلة؟ قال: خمس صلوات ، قال: يُصلِّي بهم محمَّد؟ قال: نعم. فلمَّا سلَّم؛ صاح صفوان: يا محمد! إنَّ عمير بن وهب جاءني ببردك ، وزعم: أنَّك دعوتني إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً ، وإلاَّ سيرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله! حتى تبيِّن لي ، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر ، فنزل صفوان. [البيهقي في الدلائل (٥/٤٦) ، وابن هشام (٤/٦٠)].

وخرج رسول الله ﷺ قِبَلَ هوازن ، وخرج معه صفوان ، وهو كافرٌ ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مئة درع بأداتها ، فقال: طوعاً ، أو كرهاً؟ قال رسول الله ﷺ : «عاريةٌ مُـؤَدَّاةٌ» [أحمد (٣/٤٠١ و٦/٤٦٥) ، وأبو داود (٣٥٦٢) ، والحاكم (٣/٤٩) ، والبيهقي في الكبرى (٦/٨٩)] ، فأعاره ، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين ، فشهد حنُيناً ، والطَّائف ، ثمَّ رجع رسول الله ﷺ إلى الجِعِرَّانة ، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه صفوان بن أميَّة؛ جعل صفوان ينظر إلى شعْبٍ مُلِئَ نَعَماً ، وشاءً ، ورِعَاءً ، فأدام إليه النَّظر ورسول الله ﷺ يرمقُه فقال: «أبا وهب ، يعجبُك هذا الشِّعب؟» قال: نعم ، قال: «هو لك وما فيه». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفسُ نبيٍّ ، أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، وأسلم مكانه. [الواقدي في المغازي (٢/٨٥٣ ـ ٨٥٥) ، وكنز العمال (٣٠١٧٠)].

ونلاحظ في هذا الخبر أنَّ النَّبيَّ ﷺ حاول أن يتألَّف صفوان بن أميَّة إلى الإسلام حتَّى أسلم ، وذلك بإعطائه الأمان ، ثمَّ بتخييره في الأمر أربعة أشهر ، ثمَّ بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسانٍ عاديٍّ ، فأعطاه أولاً مئةً من الإبل مع عددٍ من زعماء مكَّة ، ثمَّ أعطاه ما في أحد الشِّعاب من الإبل ، والغنم ، فقال: ما طابت نفس أحدٍ بهذا إلا نفس نبيٍّ ، ثمَّ أسلم مكانه[٢] ، وقد وصف لنا صفوان بن أميَّة عطاء النَّبيِّ ﷺ فقال: والله! لقد أعطاني رسول الله ﷺ

(١) الحَبِرَةُ: ضربٌ من ثياب اليمن.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/٢٢٠).

ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ . [مسلم (٢٣١٣)].

٣ـ إسلام عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ :

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه : قالت أمُّ حكيمٍ امرأة عكرمة بنِ أبي جهل رضي الله عنها : يا رسول الله! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن تقتله؛ فأمِّنْهُ! فقال رسول الله ﷺ : «هو آمن» فخرجت أمُّ حكيمٍ في طلبه ، ومعها غلامٌ لها روميٌّ ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تُمَنِّيه حتَّى قدمت على حَيٍّ مِنْ عَكٍّ[1] ، فاستغاثتهم عليه ، فأوثقوه رباطاً ، وأدركت عكرمةَ وقد انتهى إلى ساحلٍ من سواحلِ تهامة ، فركب البحر ، فجعل نُوتيُّ السَّفينة يقول له : أخلص! فقال : أيُّ شيءٍ أقول : قال : قل : لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هربت إلا مِنْ هذا ، فجاءت أمُّ حكيم على هذا الكلام ، فجعلت تلحُّ عليه ، وتقول : يا بن عم! جئتك من عند أوصل النَّاس ، وأبرِّ النَّاس ، وخير النَّاس ، لا تُهلِكْ نَفْسَكَ! فوقف لها حتَّى أدركته ، فقالت : إنِّي قد استأمنت لك محمَّداً رسول الله ﷺ ، قال : أنت فعلت؟ قالت : نعم ، أنا كلَّمتُه ، فأمَّنك ، فرجع معها وقال : ما لقيت من غلامك الرُّوميِّ؟ فخبَّرته خبره ، فقتله عكرمةُ ، وهو يومئذٍ لم يُسلم ، فلمَّا دنا من مكَّة؛ قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تَسُبُّوا أباه ، فإنَّ سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ ، ولا يبلغ الميِّت» .

قال : وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها ، فتأبى عليه ، وتقول : إنَّك كافرٌ ، وأنا مسلمةٌ ، فيقول : إنَّ أمراً منعك منِّي لأمرٌ كبير ، فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ عكرمة؛ وثب إليه ـ وما على النَّبيِّ ﷺ رداءٌ ـ فرحاً بعكرمة ، ثمَّ جلس رسولُ الله ﷺ فوقف بين يديه ، وزوجتُه مُتنقبةٌ ، فقال : يا محمد! إن هذه أخبرتني أنَّك أمَّنتني .

فقال رسول الله ﷺ : «صَدَقَتْ ، فأنت آمن!» فقال عكرمة : فإلامَ تدعو يا محمد؟! قال : «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله ، وأن تقيم الصَّلاة وتؤتي الزَّكاة ، وتفعل ، وتفعل» ، حتَّى عدَّ خصال الإسلام . فقال عكرمة : والله! ما دعوتَ إلا إلى الحقِّ ، وأمرٍ حسنٍ جميلٍ ، قد كنت والله! فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً ، وأبرُّنا برّاً! ثمَّ قال عكرمة : فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ ، ثمَّ قال : يا رسول الله! علِّمني خيرَ شيءٍ أقوله . قال : «تقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمَّداً عبده ورسوله» قال عكرمة : ثَّم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ : «تقول : أُشْهِدُ الله وأُشْهد مَنْ حضر أنِّي مسلمٌ مهاجرٌ ، ومجاهدٌ» . فقال عكرمة ذلك .

---

(١) عك : مخلاف من مخاليف مكَّة التهاميَّة ، معجم ما استعجم ، ص ٢٢٣ .

فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتُكه» فقال عكرمة: فإنِّي أسألك أن تستغفر لي كلَّ عداوةٍ عاديتُكها، أو مسيرٍ وُضعتُ فيه، أو مقام لقيتُك فيه، أو كلام قلتُه في وجهك، أو وأنت غائبٌ عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ! اغفر له كلَّ عداوةٍ عادانيها، وكلَّ مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منِّي مِنْ عرضٍ في وجهي، أو أنا غائبٌ عنه!» فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله! لا أدع نفقةً كنت أنفقُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنتُ أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليتُ ضعفه في سبيل الله، ثمَّ اجتهد في القتال حتَّى قتل شهيداً[(١)].

وبعد أن أسلم رد رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول. [ابن هشام (٤/ ٦١)][(٢)].

كان سلوك النَّبيِّ ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً، يكفي وحدَه لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له، ورحَّب به، وفي روايةٍ: قال له: «مرحباً بالراكب المهاجر!» [الترمذي (٢٧٣٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥)].

فتأثَّر عكرمة من ذلك الموقف، فاهتزَّت مشاعره، وتحرَّكت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام أثرٌ في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها، امتنعت عنه، وعلَّلت ذلك بأنَّه كافرٌ وهي مسلمةٌ، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنَّه أمام دين عظيمٍ، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التَّفكير في الإسلام، ثمَّ تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقاً في إسلامه، فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا؛ وإنَّما سأله أن يغفر الله تعالى له كلَّ ما وقع فيه من ذنوبٍ ماضية، ثمَّ أقسم أمام النَّبيِّ ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد بَرَّ بوعده، فكان من أشجع المجاهدين، والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردَّة، ثمَّ في فتوح الشام، حتَّى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه، وماله في سبيل الله[(٣)].

٤ ـ مثلٌ من تواضع النَّبيِّ ﷺ: إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنها: لمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة، ودخل المسجد؛ أتى أبو بكر بأبيه يقودُه، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال: «هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتَّى

---

(١) يعني: يوم اليرموك.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٣).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥).

أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، قالت: فأجلسه بين يديه ، ثمَّ مسح صدره ، ثمَّ قال له: «أسلم» ، فأسلم ، قالت: فدخل به أبو بكر ، وكأنَّ رأسه ثغامةٌ ، فقال رسول الله ﷺ: «غيِّروا هذا من شعره» [أحمد (٦/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٨٨ ـ ٨٩) برقم (٢٣٦) ، وابن حبان (٧٢٠٨) ، والحاكم (٣/ ٤٦ ـ ٤٧) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٣ ـ ١٧٤)](١) ، ويروى: أنَّ رسول الله ﷺ هنَّأ أبا بكرٍ بإسلام أبيه(٢) .

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه النَّبيُّ ﷺ في توقير كبار السِّنِّ واحترامهم، ويؤكِّد ذلك قوله ﷺ: «ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا» [أحمد (١/ ٢٥٧) ، والترمذي (١٩٢١) ، وابن حبان (٤٥٩)] .

وقوله ﷺ: «إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم» [أبو داود (٤٨٤٣)] ، كما أنَّه ﷺ سَنَّ إكرام أقارب ذوي البلاء ، والبذل ، والعطاء ، والسَّبق في الإسلام؛ تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمةٍ للإسلام والمسلمين ، ونصر دعوة الله تعالى(٣) .

٥ ـ مثلٌ من عفو النَّبيِّ ﷺ وحلمه: إسلام فضالة بن عُمَيْرٍ:

أراد فُضالة بن عُمَيْر بن الملوح اللَّيثي قتل النَّبيِّ ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلمَّا دنا منه ، قال رسولُ الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله! قال: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال: فَضَحِكَ النبي ﷺ ، ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبُه ، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتَّى ما مِنْ خلق الله شيءٌ أحبَّ إلي منه ، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأةٍ كنت أتحدَّث إليها ، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث ، فقلت: لا! وانبعث فضالة يقول:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيْثِ فَقُلْتُ لاَ ... يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ والإِسْلاَمُ
لَوْ مَا رأيت محمَّداً وَقَبِيْلَهُ ... بالفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ
لَرَأَيْتِ دِيْنَ اللهِ أَضْحَى بَيِّنَاً ... والشِّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلاَمُ

[ابن هشام (٤/ ٥٩ ـ ٦٠)](٤) .

ثالثاً: أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله؟!

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونه ، قال عروة: فلمَّا كلَّمه أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله ﷺ ، فلمَّا

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ٥٤ ، ٥٥) .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٧ .
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٩٥) .
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣) .

كان العشيُّ؛ قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهلُه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد ، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف؛ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضَّعيف ، أقاموا عليه الحدَّ ، والَّذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت؛ لقطعت يدها» ، ثمَّ أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقُطِعَتْ يـدُها ، فحسنت توبتُها بعد ذلـك وتزوَّجت. قالت عائشة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله ﷺ. [البخاري (٤٣٠٤) ، ومسلم (١٦٨٨/ ٩)].

وهكذا يستمرُّ البناء التربويُّ للأمَّة ، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ سواء ، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع ربَّانيٍّ لا يفرق بين النَّاس ، فهم كلُّهم أمام ربِّ العالمين سواءٌ ، وأصبحت معايير الشَّرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى ، وفي هذا الموقف الَّذي أثار غضب رسول الله الشديد ، واهتمامه الكبير لعبرةٌ للمسلمين ، حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلاميَّة[(١)].

رابعاً: «أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانئ !»:

قالت أمُّ هانئ بنت أبي طالب: لمَّا نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكَّة؛ فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي ، من بني مخزوم ـ وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزوميِّ ـ قالت: فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي ، فقال: والله! لأقتلنَّهما ، فأغلقتُ عليهما باب بيتي ، ثمَّ جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكَّة ، فوجدته يغتسل من جَفنةٍ إنَّ فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلمَّا اغتسل ، أخذ ثوبه ، فتوشَّح به ، ثمَّ صلى ثماني ركعاتٍ من الضُّحى ، ثمَّ انصرف إليَّ ، فقال: «مرحباً ، وأهلاً يا أم هانئ ! ما جاء بك ؟» فأخبرته خبر الرَّجلين ، وخبر عليٍّ؛ فقال: «قد أجرنا مَنْ أجرتِ ، وأمَّنَّا مَنْ أمَّنْتِ ، فلا يقتلهما». [البخاري (٣١٧١) ، ومسلم (٣٣٦/ ٨٢)][(٢)].

خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين»:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح قد أسلم وكتب الوحيَ ثمَّ ارتد ، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وقد أهدر دمه؛ فرَّ إلى عثمان ، وكان أخاه من الرَّضاعة ، فلمَّا جاء به ليستأمنَ له؛ صمت عنه رسولُ الله ﷺ طويلاً ، ثم قال: «نعم» فلمَّا انصرف مع عثمان؛ قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حين رآني قد صَمَتُّ ، فيقتله؟!» فقالوا:

---

(١) انظر: من معين السيرة ، ص ٤٠٢ ، والتَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٥٩ ، ٦٠) ، وصحيح السِّيرة ، ص ٥٢٧.

يا رسول الله! هلاَّ أومأت إلينا؟ فقال: «إنَّ النَّبيَّ لا يقتُل بإشارة» [الطبراني في الأوسط (٦٥٧٣)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٧)][1].

وفي روايةٍ: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنةُ أعين» [أبو داود (٢٦٨٣) و(٤٣٥٩)، والنسائي (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦)][2].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامُه بعد ذلك، وولاَّه عمر بعض أعماله، ثمَّ ولاه عثمان[3].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجدٌ في صلاة الصُّبح، أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[4].

سادساً: «المحيا محياكم، والمماتُ مماتُكم»:

قال أبو هريرة: .... أتى رسولُ الله ﷺ الصَّفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعضٍ: أمَّا الرَّجل؛ فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يَخْفَ علينا، فليس أحدٌ من النَّاس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتَّى يقضي، قال: فلمَّا قُضِيَ الوحي؛ رفع رأسه، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار! قلتم: أمَّا الرَّجل، فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله! قال: «فما اسمي إذاً؟! كلا، إنِّي عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله، وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال: فأقبلُوا إليه يبكون، ويقولون: والله! ما قلنا الَّذي قلنا إلا الظنَّ بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنَّ الله ورسولَه ليصدِّقانكم، ويعذرانكم». [أحمد (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، ومسلم (١٧٨٠)][5].

سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبَعْرى شاعر قريش:

لمَّا فُتِحَتْ مكَّةُ فرَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ السَّهميُّ إلى نجران، فلحقته قوافي حسَّان، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيِّره بالجُبْن، والفِرار، فقال له:

لاَ تَعْدِمَنْ رَجُلاً أَحَلَّكَ بُغْضُهُ ... نَجْرَانَ فِي عَيْشٍ أَحَذَّ لَئِيمِ[6]

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٥٢٨.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٥٨).
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٩٦).
(٥) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٥٢٩، ٥٣٠، والبداية والنهاية، لابن كثير، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام، وكنز العمال، للمتقي الهندي (الأنصار رضي الله عنهم).
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٠٧).

أي: فَلْيُبْقِ الله لنا محمَّداً ﷺ هذا الرَّجل العظيم الَّذي أحلَّك بغضُه ديارَ نجران، وليُدِمِ الله عليك ابن الزِّبعرى عيشاً مهيناً أشأم.

ثمَّ راح حسَّان يستنزل غضب الله ومَقْتَه على ابن الزِّبعرى وعلى نجله، ويسأل الله تعالى أن يخلِّده في سوء العذاب، وأليمه[١]:

غَضِبَ الإلَـهُ عَلَـى الـزِّبَعْـرَى، وَابْنَـهُ وعَـذَابُ سُـوءٍ فـي الحَيَـاةِ مُقِيْـمُ

فتطايرت تلك الأبيات، ووصلت إلى ابن الزِّبَعْرَىٰ، فقام، وقعد، وقلب أموره، ثمَّ أراد الله به الخير، فعزم على الدُّخول في الإسلام، ثمَّ توَّجه إلى مكَّة، وقصد رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه، وطلب مِنْ رسول الله ﷺ أن يستغفر له كلَّ عداوةٍ له، وللإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله[٢]»، ثمَّ أدناه رسول الله ﷺ منه، وآنسه، ثمَّ خلع عليه حلَّةً[٣]، وقد أجمع الرُّواة أنَّ ابن الزِّبَعْرَىٰ رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ[٤]، قال ابن عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ: وله ـ أي: لابن الزِّبَعْرَىٰ ـ في مدح النَّبي ﷺ أشعارٌ كثيرةٌ، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كُفْرِه[٥].

وكذا نصَّ ابنُ حجرٍ في الإصابة: ثمَّ أسلم، ومدح النَّبيَّ ﷺ، فأمر له بِحُلَّةٍ[٦].

وقال القرطبي: «وكان شاعراً مُجيداً، وله في مدح النَّبيِّ ﷺ أشعارٌ كثيرةٌ، ينسخ بها ما قد مضى في كفره»[٧]، وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام، وَمِنَ الشُّعراء الَّذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثمَّ منَّ اللهُ عليه بالتَّوبة والإنابة، والرُّجوع إلى الإسلام، والقيام بنصره والذَّبِّ عنه[٨].

ومن القصائد الرَّائعة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ ﷺ، وندمه على محاربة الإسلام، وتأخُّره في الدُّخول فيه:

---

(١) الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى، محمَّد كاتبي، ص ٩٢.
(٢) المغازي (٢/ ٨٤٨).
(٣) الأعلام، للزركلي (٤/ ٨٧)، والإصابة، لابن حجر (٢/ ٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده.
(٤) انظر: الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى، ص ٩٧.
(٥) انظر: الاستيعاب، لابن عبد البرِّ (٢/ ٣١٠).
(٦) انظر: الإصابة (٢/ ٣٠٨).
(٧) انظر: تفسير القرطبيّ (٦/ ٤٠٧).
(٨) البداية والنِّهاية (٤/ ٣٠٨).

مَنَـعَ الـرُّقـادَ بَـلابِـلٌ وهُمُـومُ ... واللَّيْـلُ مُعْتَلِـجُ[١] الـرِّوَاقِ[٢] بَهِيْـمُ[٣]
مِمَّـا أَتَـانِـي أَنَّ أَحْمَـدَ لامَنِـيْ ... فِيْـهِ فَبِـتُّ كـأَنَّنِـي مَحْمُـوْمُ
يـا خَيْـرَ مَـنْ حَمَلَـتْ عَلَـىٰ أَوْصَـالِهَـا ... عَيْـرَانَـةٌ[٤] سُـرُحُ الْيَـدَيْـنِ غَشُـوْمُ[٥]
إِنِّـي لَمُعْتَـذِرٌ إِلَيْـكَ مِـنَ الَّـذيْ ... أَسْـدَيْـتُ إذ أَنَـا فـي الضَّـلالِ أَهِيْـمُ
أَيَّـامَ تَـأْمُـرُنِـي بِـأَغْـوَىٰ خُطَّـةٍ ... سَهْـمٌ وتَـأْمُـرُنِـي بِهَـا مَخْـزُوْمُ
وأَمُـدُّ أَسْبَـابَ الـرَّدَىٰ ويَقُـودُنِـي ... أَمْـرُ الغُـوَاةِ وأَمْـرُهُـمْ مَشْـؤومُ
فـالْيَـوْمَ آمَـنَ بِـالنَّبِـيِّ مُحَمَّـدٍ ... قَلْبِـي وَمُخْطِـئُ هَـذِهِ مَحْـرُوْمُ
مَضَـتِ العَـداوَةُ وانْقَضَـتْ أَسْبَـابُهَـا ... ودَعَـتْ أَوَاصِـرُ بَيْنَنَـا وَحُلُـوْمُ
فـاغْفِـرْ فِـدىً لـكَ والِـدَيَّ كِـلاَهُمَـا ... زَلَلِـيْ فـإِنَّـكَ رَاحِـمٌ مَـرْحُـوْمُ
وعَلَيْـكَ مِـنْ عِلْـمِ المَلِيْـكِ عَـلاَمَـةٌ ... نُـوْرٌ أَغَـرُّ وخَـاتَـمٌ مَخْتُـومُ
أَعْطَـاكَ بَعْـدَ مَحَبَّـةٍ بُـرْهَـانَـهُ ... شَـرَفـاً وبُـرْهَـانُ الإِلٰـهِ عَظِيْـمُ
وَلَقَـدْ شَهِـدْتُ بِـأَنَّ دِيْنَـكَ صَـادِقٌ ... حَـقٌّ وأَنَّـكَ فـي الْعِبَـادِ جَسِيْـمُ
واللهُ يَشْهَـدُ أَنَّ أَحْمَـدَ مُصْطَفَـىٰ ... مُسْتَقْبَـلٌ فـي الصَّـالِحِيْـنَ كَـرِيْـمُ
قَـرْمٌ عَـلاَ بُنْيَـانُـهُ مِـنْ هَـاشِـمٍ ... فَـرْعٌ تَمَكَّـنَ فـي الـذُّرا وأُرُوْمُ[٦]

ثامناً: من الأحكام الشَّرعيَّة الَّتي تؤخذ من الغزوة، ومكانُ نزول الرَّسول ﷺ بمكَّة:

١ ـ اتَّضحت كثير من الأحكام الشَّرعيَّة خلال فتح مكَّة؛ منها:

أ ـ جواز الصَّوم، والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصيةٍ؛ حيث صام الرَّسول ﷺ في مسيرة الجيش من المدينة حتَّى بلغ كُدَيْداً، فأفطر[٧].

ب ـ صلَّى النَّبيُّ ﷺ صلاة الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ خفيفةً، واستدلَّ قوم بهذا على أنَّها سنَّةٌ مؤكَّدةٌ[١].

---

(١) معتلج: ملتطم.
(٢) الرِّواق: مقدم اللَّيل.
(٣) بهيم: لا ضوء فيه إلى الصَّباح.
(٤) عيرانة: راحلة.
(٥) غشومُ: شجاعٌ، لا يثنيه أمرٌ عن عزمه.
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٧، ٣٠٨)، أروم: أصل.
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٥٧٤.

ج ـ قصر الصَّلاة الرُّباعية للمسافر ، فقد أقام النَّبيُّ ﷺ بمكَّة تسعةَ عَشَرَ يوماً يقصر الصَّلاة[١] .

د ـ تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدَّة ثلاثة أيام[٢] ، ويرى الإمام النَّوويُّ[٣] : أنَّه وقع تحريمه ، وإباحته مرَّتين ؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر ، فحُرِّم يومها ، ثمَّ أبيح يوم الفتح ، ثمَّ حُرِّم للمرة الثَّانية إلى الأبد . ويرى ابن القيِّم[٤] : أن المتعة لم تُحرَّم يوم خيبر ، وإنَّما كان تحريمها فقط يوم الفتح ، وله في هذا مناقشةٌ طويلةٌ عند كلامه عن الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث غزوة خيبر ، وغزوة الفتح . والمتَّفق عليه : أنَّها حرِّمت إلى الأبد بعد الفتح[٥] .

هـ ـ قرَّر الرَّسول ﷺ : أنَّ الولد للفراش ، وللعاهر الحجر . [سبق تخريجه] . كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة ، فقد تنازع فيه سعدُ بن أبي وقَّاص وعبد بن زمعة ، فقضى فيه رسول الله ﷺ لعبد بن زمعة ؛ لأنَّه ولد على فراش أبيه . [سبق تخريجه] .

و ـ عدم جواز الوصيَّة بأكثر من ثلث المال ، كما في قصَّة سعد بن أبي وقَّاص حين مرض بمكَّة ، واستشار الرَّسول ﷺ في أن يوصيَ بأكثر من الثُّلث[٦] .

هذه بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث الغزوة ، والفتح العظيم .

٢ ـ مكان نزول الرَّسول ﷺ بمكَّة :

نزل رسولُ الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين ، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته : «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع ، أو دور؟!» [البخاري (١٥٨٨) ، ومسلم (١٣٥١)] مبيناً : أنَّه لا يرث المسلم الكافر [البخاري (٦٧٦٤) ، ومسلم (١٦١٤)][٧] ، وكان عقيل قد ورث أبا طالب ، هو وطالب أخوه ، وباع الدُّورَ كلَّها ، وأمَّا عليٌّ ، وجعفرٌ فلم يرثاه لأنَّهما مسلمان ، وأبو طالب مات كافراً[٨] .

---

(١) انظر : المجتمع المدني ، ص ١٨٥ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٥ .
(٣) النَّوويُّ على شرح مسلم (٩/ ١٨١) ، وقد اعتمدت في فقه الأحكام على ما استخرجه الدُّكتور العمري في المجتمع المدني ، والدُّكتور مهدي رزق الله في السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة .
(٤) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥ـ ٤٥٩ ـ ٤٦٤) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٥ .
(٦) المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٦ .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (٢/ ٤٨٢) .
(٨) المصدر السابق نفسه .

تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة:

كان لفتح مكَّة نتائجُ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ دخلت مكَّة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشِّرك في حنين، والطائف، ومن ثَمَّ في العالم أجمع.

٢ ـ أصبح المسلمون قوةً عظمى في جزيرة العرب، وبعد فتح مكَّة تحقَّقت أمنية الرَّسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوَّةٌ كبرى في الجزيرة العربيَّة لا يستطيع أيُّ تجمُّع قبليٍّ الوقوف في وجهها، وهي مؤهَّلةٌ لتوحيد العرب تحت راية الإسلام، ثمَّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم، والطُّغيان، وتأمين الحرِّيَّة لخلق الله؛ لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده دون سواه[(١)].

٣ ـ كان لهذا الفتح آثارٌ عظيمةٌ دينيَّةٌ، وسياسيَّةٌ، واجتماعيَّة، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمَسُها كلُّ مَنْ يُمعن النَّظر في هذا الفتح المبارك.

فأمَّا الآثار الاجتماعيَّة؛ فتمثَّلت في رفقه ﷺ بالنَّاس، وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يُعلِّمهم، ويفقِّههم في دينهم فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكَّة بعد انصرافه عنها ليصلِّيَ بالنَّاس، ويفقِّههم في دينهم.

وأمَّا الآثار السِّياسيَّة، فقد عيَّن عتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ أميراً على مكَّة، يحكم بين النَّاس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظَّالم[(٢)].

وأمَّا الآثار الدِّينيَّة؛ فإنَّ فتح مكة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الِّدين الَّذي ارتضاه الله لعباده، فدخلوا فيه أفواجاً[(٣)].

٤ ـ تحقَّق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصَّادقين، بعدما ضحَّوا بالغالي، والنَّفيس، وحقَّقوا شروط التَّمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه، كسنَّة الابتلاء، والتَّدافع، والتَّدرُّج، وتغيير النُّفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصُّورة الرَّائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذِّناً بالصَّلاة بعد أن عُذِّبَ في بطحاء مكَّة، وهو يردد: أحد! أَحد! في أغلاله وحديده، هاهو اليوم قد صعد فوق الكعبة ليرفع صوته الجميل بالأذان؛ وهو في نشوة الإيمان.

* * *

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السِّياسية والعسكريَّة، لأحمد عرموش، ص ١٢٩.
(٢) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، ص ٢٦٦.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٧.

الفصل السَّادس عشر
غزوة حنين ، والطَّائف (٨ هـ)[١]

المبحث الأوَّل
أسبابها ، وأحداث المعركة

لمَّا فتح الله مكَّة على رسوله، والمؤمنين ، وخضعت له قريشٌ ، خافت هوازن ، وثقيفٌ ، وقالوا : قد فرغ محمَّد لقتالنا ، فلنغزُه قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على هذا ، وولَّوْا عليهم مالكَ بن عوف النَّصْريَّ ، فاجتمع إليه هوازن ، وثقيف وبنو هلال ، ولم يحضرها من هوازن كعبٌ ، وكلابٌ ، وكان معهم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة ، وكان معروفاً بشدَّة البأس في الحرب ، وأصالة الرَّأي ، إلا أنَّه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي ، والمشورة .

وكان رأي مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النِّساء والذَّراري ، والأموال حتى لا يفرُّوا ، فلمَّا علم بذلك دُرَيْدُ؛ سأله : لِمَ ذلك؟ فقال : أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ أهلَه ، ومالَه؛ ليقاتل عنهم ، فقال دُرَيْدُ : راعي ضأنٍ والله ، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟! إنَّها إن كانت لك؛ لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ، ورمحه ، وإن كانت عليك؛ فُضِحْتَ في أهلك ومالك!! ولكنَّه لم يستمع لمشورته[٢] .

أوَّلاً : أهمُّ أحداث غزوة حنين :

تحرَّك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوَّال[٣] ، وقد استخلف الرَّسول ﷺ عَتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ على مكَّة عند خروجه ، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين ، أمَّا عدد هوازن ، وثقيف : فكانوا ضعف عدد

---

(١) ينظر الشكلان (١٨ و١٩) في الصفحتين (٧٦٢ و٧٦٣) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٤٦٧) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٨٨) .
(٣) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠) .

المسلمين، أو أكثر، ولما رأى بعض الطُّلقاء جيش المسلمين؛ قالوا: لن نُغْلَبَ اليوم من قلَّة، ودخل الإعجابُ في النُّفوس(١).

أ ـ التعبئة الَّتي اتَّخذها مالكُ بن عوف زعيمُ هوازن، وثقيف:

اتَّخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئةً عاليةً، مرَّت بمراحل:

١ ـ رفع الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشه، وحثَّهم على الثَّبات، والاستبسال، وممَّا قال في هذا الجمع الحاشد: إنَّ محمداً لم يقاتل قطُّ قبل هذه المرَّة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً(٢)، لا علم لهم بالحرب فيُنصَرُ عليهم(٣).

٢ ـ حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين، وأطفالهم، وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التَّصرُّف دفع المقاتلين إلى الاستبسال، والثبات أمام أعدائهم؛ لأنَّ المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا شعر أنَّ أعزَّ ما يملك وراءهُ في المعركة؛ صعُب عليه أن يلوذ بالفرار مخلِّفاً ما وراءه في ميدان المعركة؛ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: افتتحنا مكَّة، ثمَّ غزونا حنيناً، فجاء المشركون بأحسن صفوفٍ رأيتُ، قال: فصُفَّتِ الخَيْلُ، ثُمَّ صُفَّت المقاتلة، ثمَّ صُفَّتِ النِّساءُ من وراء ذلك، ثُمَّ صُفَّتِ الغنم، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ. [مسلم (١٠٥٩/١٣٦)].

٣ ـ تجريد السُّيوف، وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التَّصرُّف يؤذن بإصرار المقاتل على الثَّبات أمام الخصم حتَّى النَّصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقاً لهذا، بدليل قولـه: إذا أنتم رأيتم القوم؛ فاكسروا جفون سيوفكم، وشدُّوا شدَّة رجلٍ واحدٍ عليهم. [الحاكم (٣/ ٤٨ ـ ٤٩)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠)].

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كان عند مالك بن عوف النَّصْرِيِّ معلوماتٌ وافيةٌ عن الأرض الَّتي ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغلَّ هذه الظُّروف الطَّبيعيَّة لصالح جيشه، فعمل بمشورة الفارس المحنَّك دُرَيْدُ بن الصِّمَّة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٩٧).
(٢) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين، وإسكان الميم، وهو الذي لم يجرِّب الأمور.
(٣) انظر: مغازي (٣/ ٨٩٣).

قوات المسلمين لولا لطفُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعنايتُه.

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمنَ الخطَّة الَّتي رسمها القائد الهوازنيُّ الأخذُ بزمام المبادرة، ومهاجمة المسلمين؛ لأنَّ النَّصر في الغالب يكون للمهاجم، أمَّا المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضَّعف، ولهذا آتت هذه الخطَّة ثمارها بعض الوقت، ثمَّ انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثمَّ بثبات رسول الله ﷺ حيث كسب المسلمون الجولة، وانتصروا على أعدائهم[(١)].

٦ ـ شن الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطَّة الحربيَّة الَّتي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازنيُّ، استعمال سلاحٍ معنويٍّ، له تأثيرٌ كبيرٌ في النُّفوس، فقد شنَّ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال الَّتي صحبها معه في الميدان، فجعلها وراء جيشه ثمَّ أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظرٌ مهيب يحسب من يراه: أنَّ هذا الجيش مئة ألف مقاتلٍ، وهو ليس كذلك[(٢)].

ب ـ خطوات الرَّسول ﷺ لصدِّ هذه الحشود:

لمَّا بلغ النبي ﷺ عزم هوازن على حربه بعد أن تمَّ له فتح مكَّة ـ شرَّفها الله ـ قام بالآتي:

١ ـ أرسل عبدَ الله بن أبي حَدْرَد الأسْلميَّ حتَّى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب رضي الله عنه، ومكث بينهم يوماً أو يومين، ثم عاد، وأخبر النَّبي ﷺ بما رأى[(٣)].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرَّسول ﷺ وعاد على وجه السُّرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنَّه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب؛ حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع، ويرى ما يُدبَّر ضدَّ المسلمين هناك، وكان من أهمِّ ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين الَّتي احتلُّوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن الَّتي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي، حتَّى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحدَ الأسباب الرَّئيسة وراء هزيمة المسلمين في أوَّل المعركة، وما حدث نتيجةً لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثَّابتة لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ هذا الأمر ليس وحياً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنَّما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكريَّة، وقد

---

(١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله ﷺ، ص ٢٥٢.

(٢) انظر: غزوة حنين، للشَّيخ محمَّد أحمد باشميل، ص ١٢٨ ـ ١٣١.

(٣) انظر: تاريخ الطَّبري (٣/ ٧٣).

بذل النَّبيُّ ﷺ جهده في سبيل الحصول على أدقِّ المعلومات، وأوفاها؛ لكي يضع على ضوئها الخطَّة العسكريَّة المناسبة لمجابهة العدوِّ(١).

٢ـ عُدَّة الجيش، واستعارة الدُّروع، والرِّماح:

أعدَّ رسول الله ﷺ جيشاً قوامه عشرة آلاف، وهم مَنْ خرجوا معه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفاً، عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن، وغطفان بذراريهم، ونَعَمِهم؛ ومع النَّبيِّ ﷺ يومئذٍ عشرة آلاف، ومعه الطُّلقاء(٢)، وهم ألفان [مسلم (١٠٥٩/ ١٣٥)]، وسعى ﷺ لتأمين عُدَّة الجيش فطلب من ابن عمِّه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارةً، وطلب من صفوان بن أميَّة دروعاً، وتكفَّل ﷺ بالضَّمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم. عن صفوان بن يعلى بن أميَّة عن أبيه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم ـ أو قال: فادفع إليهم ـ ثلاثين درعاً، وثلاثين بعيراً، أو أقلَّ من ذلك» فقال له: العارية مؤدَّاة يا رسول الله؟! قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: «نعم» [أحمد (٤/ ٢٢٢)، وأبو داود (٣٥٦٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٧٤٤)].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين دروعاً، فقال: أغصباً يا محمد؟! قال: «لا، بل عاريةٌ مضمونةٌ». قال: فضاع بعضها، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم، ثمَّ أسلم. [أحمد (٦/ ٤٦٥)، وأبو داود (٣٥٦٢)، والحاكم (٣/ ٤٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٨٩)].

٣ـ ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثُّوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته، وأشجاره، وكانت خطَّتهم تتمثَّل في مباغتة المسلمين بالسِّهام في أثناء تقدُّمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين، وأمطروهم من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعضٍ، ونتيجةً لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش، ولاذوا بالفرار، كلٌّ يطلب النَّجاة لنفسه، وبقي الرَّسول ﷺ، ونفرٌ قليل في الميدان يتصدَّوْن لهجمات المشركين، ونترك العباس عمَّ الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب، حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمتُ أنا، وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ، فلم نفارقه،

(١) انظر: القيادة العسكريَّة على عهد رسول الله ﷺ، ص ٣٦٩.
(٢) الطُّلقاء: هم الذين أطلقهم النَّبيُّ ﷺ بعد فتح مكة، وخلَّى سبيلهم.

ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاء، فلمَّا التقى المسلمون والكفار؛ وَلَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بغلته قِبَلَ الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أَكُفُّها إرادة ألاَّ تسرع، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس! نادِ أصحاب السَّمُرَة».

فقال العباس ـ وكان رجلاً صَيِّتاً ـ فقلت: بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله! لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفَّارَ، والدَّعوةُ في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثمَّ قُصِرتِ الدَّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حينَ حميَ الوطيسُ». [مسلم (١٧٧٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، وابن هشام (٤/ ٨٧)].

لقد أيّد الله نبيّه ﷺ يوم حنينٍ بأمورٍ، منها:

* نزول الملائكة من السَّماء.

* سلاح الرُّعب[1].

* تأثير قبضتي الحصى والتُّراب في أعين الأعداء.

من الأسلحة المادِّية الَّتي أيَّد الله بها رسولَه ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتُّراب اللَّتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلِّهم من ذلك الحصى والتُّراب، فصار كلُّ واحد يجد لها في عينيه أثراً، فكان من أسباب هزيمتهم[2]، قال العبَّاس رضي الله عنه: ثمَّ أخذ رسول الله ﷺ حصياتٍ، فرمى بهنَّ وجوه الكفَّار. ثمَّ قال: «انهزَموا وربِّ محمَّد!» قال: فذهبت أنظر فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى، قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً، وأمرهم مُدْبراً. [سبق تخريجه].

ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس، والطَّائف:

أ ـ قال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه:

لمَّا فرغ النَّبيُّ ﷺ من حنين؛ بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصِّمَّة، فَقُتِلَ دُرَيْدُ، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في رُكبته، رماه جُشميٌّ بسهمٍ فأثبته في رُكبته، فانتهيت إليه، فقلت: يا عمِّ! مَنْ رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الَّذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني وَلَّى، فاتَّبَعْتُهُ،

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٥٥٩.
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله ﷺ، ص ٢٥٩.

وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت، فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسَّيف فقتلتُه، ثمَّ قلت لأبي عامرٍ، قتل الله صاحبك. قال: فانْزِع هذا السَّهم، فنزعتُه، فنزل منه الماء.

قال: يابن أخي! أقرئ النَّبيَّ ﷺ السَّلام، وقل له: استغفر لي، واسْتَخْلَفَني أبو عامرٍ على النَّاس، فمكث يسيراً ثمَّ مات. فرجعتُ، فدخلت على النَّبيِّ ﷺ في بيته على سريرٍ مُرْمَلٍ[1]، وعليه فراش قد أثَّر رمالُ السَّرير بظهره، وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر، وقوله: قل له: استغفر لي، فدعا بماء، فتوضَّأ، ثمَّ رفع يديه فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعُبيد أبي عامر». ورأيت بياضَ إبطيه. ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ! اجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك من النَّاس» فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعبد الله بن قيس ذنبَه، وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً».

قال أبو بردة[2]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى. [البخاري (٢٨٨٤)، ومسلم (٢٤٩٨)].

ب ـ محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطَّائف واستخدم أساليب متنوعةً في القتال، والحصار، ومارس الشُّورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النَّفسيَّة، والدِّعاية في صفوف الأعداء، ومن هذه الأساليب:

١ ـ استخدم ﷺ أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النَّبيُّ ﷺ في حصاره للطَّائف أسلحةً جديدةً لم يسبق له أن استعملها من قبلُ، وهذه الأسلحة هي:

ـ المنجنيق:

فقد ثبت: أنَّ الرَّسول ﷺ استعمل هذا السِّلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطَّائف، فعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطَّائف. [أبو داود في المراسيل (٣٣٥)، والترمذي في نهاية الحديث (٢٧٦٢)].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثَّقيلة ذات التأثير الفعَّال على من وُجِّهَت إليه، فبحجارته تُهدَّم الحصون والأبراج، وبقنابله تُحَرَّق الدُّور والمعسكرات، وهذا النَّوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته، واستخدامه عند القتال[3].

---

(١) أي: معمول بالرِّمال، وهي حبال الحصر الَّتي تضفر بها الأسرَّة.
(٢) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.
(٣) انظر: المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة، للواء محمد فرج، ص ٤٠٧.

ـ الدَّبابة:

ومن أسلحة الحصار الثَّقيلة الَّتي استعملها الرَّسول ﷺ لأوَّل مرَّةٍ في حصار الطائف: الدَّبابة، والدَّبابة على شكل بيت صغير تُعمل من الخشب، وتُتَّخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرَّمي[1].

ـ الحسَك الشَّائِك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرَّسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف الحسَّك الشَّائك، وهو من وسائل الدِّفاع الثابتة، ويُعمل من خشبتين تُسمَّران على هيئة الصليب، حتَّى تتألَّف منها أربعةُ شعبٍ مدبَّبة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل، والمشاة، فتتعطَّل حركة السَّير السَّريعة المطلوبة في ميدان القتال[2].

وقد ذكر أصحاب المغازي، والسِّير: أنَّ الرَّسول ﷺ استعمل هذا السِّلاح في حصاره لأهل الطَّائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشَّائك حول حصن ثقيف[3] وفي هذا إشارة لقادة الأمَّة خصوصاً، والمسلمين عموماً ألاَّ يعطِّلوا عقولهم، وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النَّافع، والجديد الَّذي يُحقِّق للأمَّة مصلحة الدَّارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢ ـ اختيار رسول الله ﷺ مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكانٍ مكشوف قريبٍ من الحصن، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السِّهام؛ فأصيب من جرَّاء ذلك ناسٌ كثيرون، وحينئذٍ عرض الحُبَابُ بنُ المنذر على الرَّسول ﷺ فكرة التَّحوُّل من هذا الموقع إلى مكانٍ آمنٍ من سهام أهل الطَّائف، فقبل ﷺ هذه المشورة، وكلَّف الحُبَاب؛ لكونه من ذوي الخبرات الحربيَّة الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقعٍ ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه ثمَّ حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النَّبيَّ ﷺ بذلك، فأمر النَّبيُّ ﷺ جيشه بالتَّحوُّل إلى المكان الجديد.

وهذا شاهد عيان يحدِّثنا عَمَّا رأى، قال عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ رضي الله عنه: لقد اطلع علينا مِنْ نبلهم ساعة نَزَلْنا شيءٌ الله به عليم، كأنَّه رَجْلُ جرادٍ، وترَّسنا لهم حتَّى أصيب ناسٌ من المسلمين بجراحةٍ، ودعا رسول الله ﷺ الحُبَاب، فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن

(١) انظر: القيادة في عهد الرَّسول ﷺ، ص ٤٠٥.
(٢) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، للواء عبد الرؤوف عون، ص ١٩٥.
(٣) انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).

القوم» فخرج الحُبَاب حتَّى انتهى إلى موضع مسجد الطَّائف[١] خارج القرية، فجاء إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبره، فأمر النَّبيُّ ﷺ أن يتحوَّلوا[٢].

٣ ـ استخدام الحرب النَّفسيَّة والدِّعاية:

لما اشتدَّت مقاومة أهل الطائف، وقتلوا مجموعةً من المسلمين؛ أمر النَّبيُّ ﷺ بتحريق بساتين العنب، والنَّخل في ضواحي الطَّائف للضغط على ثقيفٍ، ثمَّ أوقف هذا العمل بعد أثَرِهِ في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرَّحم أن يترك هذا العمل، ووجَّه النَّبيُّ ﷺ نداءً لِعَبِيدِ الطَّائف أنَّ من ينزل من الحصن، ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثَّقفي، فأسلموا، فأعتقهم، ولم يعدهم إلى ثقيفٍ بعد إسلامهم[٣].

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله ﷺ في رفع الحصار واضحةً، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعةً لها، بل صارت ضمن سيادة الدَّولة الإسلاميَّة، ولم تعد تستمدُّ قوَّتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنَّك، وقد استشار رسول الله ﷺ مَنْ حوله في عمليَّة الحصار[٤]، فقال نوفل بن معاوية الدَّيليُّ: ثعلب في حجرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرَّك! فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطَّاب فأذَّن في النَّاس بالرَّحيل، فضج النَّاس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يُفتح علينا الطَّائف؟! فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال»، فغدوا فأُصيب المسلمون بجراحاتٍ، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فسُرُّوا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسولُ الله ﷺ يضحك. [البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨)]. فلمَّا ارتحلوا، واستقلُّوا، قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون» [أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤)][٥]، وقيل: يا رسول الله! ادعُ الله على ثقيفٍ، فقال: «اللَّهمَّ اهدِ ثقيفاً، وائتِ بهم». [أحمد (٣/ ٣٤٣)، والترمذي (٣٩٤٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٢٠١)، وانظره في مشكاة المصابيح (٥٩٨٦)][٦].

* * *

---

(١) مسجد الطَّائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عبَّاسٍ.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٤١٦).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥١٠).

(٤) انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة، للشجاع، ص ٢٠٦.

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧).

(٦) المصدر السابق نفسه، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥٦٦.

المبحث الثاني
فقه الرَّسول ﷺ في التَّعامل مع النُّفوس

ويظهر هذا الفقه في عدَّة مواقف من هذه الغزوة، منها:

أ ـ لا رجعة لِلوَثَنِيَّة:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهليَّة، وكانت لبعض القبائل شجرةٌ عظيمةٌ خضراء يقال لها: ذاتُ أنواطٍ، يأتونها كلَّ سنةٍ، فيعلِّقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشَّجرة، فتحلَّبَتْ أفواههم على أعياد الجاهليَّة الَّتي هجروها، ومشاهدها الَّتي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا «ذاتَ أنواطٍ» كما لهم «ذاتُ أنواطٍ»، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتُم والذي نفس محمد بيده! كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم. [أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٢٥)][(١)].

وهذا يعبِّر عن عدم وضوح تصوُّرهم للتَّوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النَّبيَّ ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشِّرك، وحذَّرهم من ذلك، ولم يعاقبهم، أو يعنِّفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[(٢)]، وقد سمح لهم الرَّسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد، لأنَّه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحَّح اعتقاده تماماً من غبش الجاهليَّة، وإنَّما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله، وإن قصر في بعض أمور الدِّين الأخرى، بل الجهاد مدرسةٌ تربويَّةٌ تعليميَّةٌ يتعلَّم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد، والأحكام، والأخلاق، وذلك لما يتضمَّنه من السَّفر، وكثرة اللِّقاءات الَّتي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار[(٣)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص ٣٤٩.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٩٧).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٨/ ٦٢).

ب ـ الإعجابُ بالكثرة يحجبُ نصر الله:

الإعجابُ بالكثرة حجب عن المسلمين النَّصر في بداية المعركة، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقد نبَّه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح: أنَّه «لا حول، ولا قوَّة إلا بالله» فيقول: «اللَّهُمَّ بك أَجُول، وبك أَصُولُ، وبك أُقَاتِل» [أحمد (٣/ ٣٣٢ و٣٣٣)، وابن حبان (١٩٧٥)، والنسائي في اليوم والليلة (٦١٤)، والدارمي (٢٤٨٥)].

وهكذا أخذ الرَّسول ﷺ يراقب المسلمين، ويقوِّم ما يظهر من انحرافاتٍ في التَّصوُّر والسُّلوك حتَّى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العُتاة[١].

وعلى الرَّغم من الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين، وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنَّهم فوجئوا بما لم يتوقَّعوه، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يعنِّف أحداً ممَّن فرَّ عنه؛ حتَّى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطُّلَقَاء لأنَّهم فرُّوا، ولم يوافق على هذا[٢].

ج ـ الغنائم وسيلةٌ لتأليف القلوب:

رأى ﷺ أن يتألَّف الطُّلقاء، والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم؛ لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش، وغطفان، وتميم عطاءً عظيماً، إذ كانت عطيَّة الواحد منهم مئةً من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أميَّة، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية، ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس بن عديٍّ[٣]، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدُّنيا إلى حبِّ الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريد إلا الدُّنيا، فما يسلمُ حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عليها [سبق تخريجه].

وعبَّر عن هذا صفوان بن أميَّة فقال: لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [سبق تخريجه].

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة، للعمري، ص ١٩٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٤، ٢٠٥.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٤٢١.

وقد تأثَّر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشريَّة، وتردَّدت بينهم قالةٌ، فراعى ﷺ هذا الاعتراض، وعمل على إزالة التوتُّر، وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانيّاً، عقليّاً، عاطفيّاً، وجدانيّاً، ما يملك القارئ المسلم على مر الدُّهور، وكر العصور، وتوالي الزَّمان إلا البكاء عندما يمرُّ بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء؛ الذي أصبت، قسمت في قومك؛ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا مِنْ قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم.

فلمَّا اجتمعوا؛ أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمِد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وعالةً، فأغناكم الله بي، وأعداءً، فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسولُه أمنُّ، وأفضل، ثمَّ قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ، والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم؛ لقلتم، فلصدقتم، ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً، فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدُّنيا تألَّفت بها قوماً؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب النَّاس بالشَّاء[١]، والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمدٍ بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك النَّاس شِعباً، ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً، ووادياً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار، وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاس دثار[٢]، اللَّهُمَّ! ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحظّاً، ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ وتفرَّقوا. [أحمد (٣/ ٧٦ ـ ٧٧)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٣٢)][٣]، وفي رواية: «إنَّكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض» [البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)].

وممَّا يجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنَّ هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلِّهم، وإنَّما

(١) بالشَّاء: أي: الشِّياه، وهي الأغنام.
(٢) دثار: هو الثَّوب الذي يكون فوق الشِّعار.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

قالها حديثو السِّنِّ منهم، بدليل ما ورد في الصَّحيحين عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المئة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركُنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ مِنْ قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبَّةٍ من أَدَمٍ، فلمَّا اجتمعوا؛ جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً، وأمَّا أُناسٌ منَّا حديثةٌ أسنانُهم؛ قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألَّفهم». [البخاري (٤٣٣١)، ومسلم (١٠٥٩)].

ويرى الإمام ابن القيِّم ـ استدلالاً بهذه الحادثة ـ: أنَّه قد يتعيَّن على الإمام أن يتألَّف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرِّهم عن المسلمين، فيقول: الإمام نائبٌ عن المسلمين، يتصرَّف لمصالحهم وقيام الدِّين، فإن تعيَّن ذلك ـ أي: التَّأليف ـ للدَّفع عن الإسلام، والذَّبِّ عن حوزته، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه، ليأمن المسلمون شرَّهم، ساغ له ذلك، بل تعيَّن عليه، فإنَّه وإن كان في الحرمان مفسدةٌ، فالمفسدة المتوقَّعة من فوات تأليف هذا العدوِّ أعظم، ومبنى الشَّريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدُّنيا، والدِّين على هذين الأصلين[1].

والتَّأليف لهذه الطَّائفة إنَّما هو من قبيل الإغراء، والتَّشجيع في أوَّل الأمر، حتَّى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوَّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ حقيقة هذا الأمر في مثالٍ محسوسٍ، فيقول: «إنَّ في الدُّنيا أقواماً كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تُهدى الدَّواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظلُّ تَمُدُّ إليها فمها، حتَّى تدخل حظيرتها آمنةً، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتَّى تستأنس بالإيمان، وتهشَّ له»[2].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ ضرب للأنصار صورةً مؤثِّرةً: قومٌ يبشَّرون بالإيمان يقابلهم قومٌ يبشَّرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشَّاء، والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصُّور، وأدركوا أنَّهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء، ومآقيهم بالدُّموع، وألسنتهم بالرِّضا، وبذلك طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).
(٢) انظر: فقه السِّيرة، ص ٤٢٧.

بفضل سياسية النَّبيِّ ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار[١].

د ـ الصَّبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصَّبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربِّي الَّذي يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتُهم، وطبيعةُ حياتهم من القساوة، والفظاظة، والرُّوح الفرديَّة، فكان يبيِّن لهم خُلُقَه، ويطمئنهم على مصالحهم، ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربّياً، ومصلحاً، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم؛ الَّذين كانوا ينحنون أمامهم، أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم؛ التزموا بعبارات التَّعظيم، والإجلال كما يفعل العبد مع ربِّه، أمَّا الرَّسول ﷺ فكان كأحدِهم يخاطبونه، ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قطُّ، وكان الصَّحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدُّب بحضرته، ويخاطبونه بصوتٍ خفيضٍ، ويكِنُّون له في أنفسهم المحبَّة العظيمة، وأمَّا جفاة الأعراب؛ فقد عنفهم القرآن على سوء أدبهم، وجفائهم، وارتفاع أصواتهم، وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ[٢]، وهذه مواقف تدلُّ على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

١ ـ الأعرابيُّ الذي رفض البُشْرَىٰ:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النَّبيِّ ﷺ ـ وهو نازلٌ بالجِعْرَانَةِ بين مكَّة والمدينة ـ ومعه بلالٌ، فأتى النَّبيَّ ﷺ أعرابيٌّ فقال: ألا تنجزُ لي ما وعدتني؟ فقال له: «أَبْشِر!» فقال: قد أكثرتَ عليَّ مِنْ (أبشر). فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رَدَّ البُشْرَىٰ، فاقبلا أنتما» قالا: قَبِلْنا. ثمَّ دعا بقدح فيه ماءٌ، فغسل يديه، ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: «اشْرَبَا منه، وأفرغا على وجوهكما، ونحوركما، وأبشرا» فأخذا القدح، ففعلا، فنادت أمُّ سلمة من وراء السِّتر: أن أفضلا لأمِّكما. فأفضلا لها منه طائفةً. [البخاري (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧)].

٢ ـ مقولة الأعرابيِّ: (ما أريد بهذه القسمة وجه الله!):

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَّما كان يومُ حنينٍ آثر رسولُ الله ﷺ ناساً في القِسْمَة، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ مِئَـةً من الإبل، وأعطى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القِسْمَة، فقال رجلٌ: والله! إنَّ هذه القِسْمَة ما عُدِلَ فيها، وما أُرِيدَ فيها وجهُ الله! قال: فقلتُ: والله لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: فأتيتُه، فأخبرتُه بما قال، قال: فتغيَّر وجْهُهُ حتَّى كان كالصِّرْفِ. ثمَّ قال: «فمَنْ يعدلُ إن لم يعدلِ اللهُ ورسولُه؟!» قال: ثمَّ قال:

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة، ص ٢١٩.
(٢) المصدر السابق نفسه.

«يرحم الله موسى! قد أُوذي بأكثرَ من هذا، فَصَبَرَ». قال: قلت: لا جرمَ لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً. [البخاري (٤٣٣٦)، ومسلم (١٠٦٢)].

٣ ـ تعامله مع هوازن لمَّا أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله ﷺ بالجِعْرَانَةِ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله! إنَّا أصلٌ وعشيرةٌ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد، فقال: يا رسول الله! إنَّما في الحظائر من السَّبايا خالاتُك، وحواضنُك اللاَّتي كن يكفلنك، ولو أنَّا مَلَحْنَا لابن أبي شمر أو النُّعمان بن المنذر[١] ثُمَّ أصابنا منها مثل الَّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما، وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثمَّ أنشأ يقول:

أُمنُنْ عَلَيْنَا رسُولَ اللهِ فِي كَرمٍ ... فَإِنَّكَ المَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ[٢]

إلى أن قال:

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا ... إِذْ فُوكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دَرَرُ
امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا ... وإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السَّلام عليهم قديماً وحديثاً، وخصوصاً، وعموماً[٣].

فلما سمع رسول الله ﷺ من الوفد قال لهم: «نساؤكم، وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله! خيَّرتنا بين أحسابنا، وأموالنا؟ بل أبناؤنا، ونساؤنا أحبُّ إلينا، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا ما كان لي، ولبني عبد المطلب، فهو لكم، وإذا أنا صليت بالنَّاس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم» فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ بالنَّاس الظُّهر؛ قاموا؛ فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ، فقال: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقال الأقرع بن حابس: أمَّا أنا وبنو تميم؛ فلا، وقال عُيَيْنَةُ: أمَّا أنا وبنو فزارة؛ فلا، وقال العبَّاس بن مرداس السُّلَمِيُّ: أما أنا، وبنو سليم، فلا، فقالت بنو سُليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال عبَّاس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أمسك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسان سِتُّ فرائض من أوَّل فيءٍ نصيبه» فردّوا إلى النَّاس نساءهم،

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣٥٢).
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

وأبناءهم. [أحمد (٢/ ١٨٤)، والطبراني في الكبير (٥٣٠٤)، والطبري في تاريخه (٣/ ١٣٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨)][1].

وفي روايةٍ: . . . فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين، فقال: «إنَّ إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإنِّي أردت أن أردَّ إليهم سبيهم، فَمن أحبَّ منكم أن يطيِّبَ ذلك؛ فليفعلْ، ومن أحبَّ أن يكون على حظِّه حتَّى نعطيه إيَّاه من أوَّل ما يفيء الله علينا، فليفعلْ» فقال الناس: طيّبْنا يا رسول الله! لهم، فقال لهم: «إنَّا لا ندري من أذِنَ منكم فيه ممَّن لم يأذن، فارجعوا حتَّى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم». فرجع النَّاس فكلمهم عرفاؤهم، ثمَّ رجعوا إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبروه: أنَّهم طيَّبوا، وأذنوا. [البخاري (٤٣١٨ و٤٣١٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٢)][2].

وقد سُرَّ الرَّسول ﷺ بإسلام هوازن، وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النَّصريِّ، فأخبروه: أنَّه في الطَّائف مع ثقيفٍ، فوعدهم بردِّ أهله، وأمواله عليه، وإكرامه بمئةٍ من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالكٌ مسلماً، فأكرمه وأمَّره على قومه، وبعض القبائل المجاورة، ولقد تأثَّر مالك بن عوف، وجادت قريحته لمدح النَّبيِّ ﷺ فقال:

مَا إِنْ رأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمِ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَىٰ وأَعْطَىٰ للْجَزِيْلِ إِذَا اجْتُدِي ... وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وإذا الكَتِيْبَةُ عَرَّدَتْ[3] أَنْيَابُهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فكأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ... وَسْطَ الهَبَاءَةِ[4] خَادِرٌ[5] فِي مَرْصَدِ[6]

لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنةً إلى أبعد الحدود، وبهذه السِّياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن، وحلفاءها إلى صفِّ الإسلام، واتَّخذ من هذه القبيلة القويَّة رأس حربةٍ يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الَّذي قاتل ثقيفاً في الطَّائف حتَّى ضيَّق عليهم، وقد فكَّر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطَّائف من كلِّ مكان، فلا تستطيع تحرُّكاً، ولا تجارةً، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام؛ مثل عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ، الَّذي سارع إلى اللَّحاق برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين، واعتمر من الجِعْرَانَةِ، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣١٩.
(٣) عرَّدت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(٤) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص ٦٨٩.
(٥) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر سترٌ يُمَدُّ للجارية من ناحية البيت.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٤٤).

إسلامه، وعاد إلى الطَّائف، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام، وأذَّن في أعلى منزله، فرماه بعضُهم بسهامٍ، فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطَّائف[1].

إنَّ الإنسان ليعجب من فقه النَّبيِّ ﷺ في معاملة النُّفوس، وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنيَّة، وبيوتات العبادة الكفريَّة من مكَّة، وما حولها، ورتَّب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضي الَّتي أضيفت للدَّولة الإسلاميَّة، فعيَّن عَتَّاب بن أَسِيد أميراً على مكَّة، وجعل معاذ بن جبل مرشداً، وموجِّهاً ومعلِّماً، ومربِّياً[2]، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً، ومجاهداً، ثمَّ اعتمر، ورجع إلى المدينة ﷺ.

* * *

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٩٢).

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٥٣).

المبحث الثَّالث

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

أولًا: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

في الآيات السَّابقة تصويرٌ بيانيٌّ بديعٌ لحال المسلمين، فيه تنقُّلٌ بالسَّامع من صورةٍ إلى صورة: من صورة المسلمين؛ وهم معجبون بكثرتهم، مسرورون بها، إلى صورة فشلهم، وهزيمتهم مع هذه الكثرة، فلم تنفعهم، إلى صورة الخوف الَّذي أصابهم حتَّى لم تعد الأرض تسعهم، وأقفلت منافذها في وجوههم إلى الصُّورة الحسِّيَّة لهذا الفشل في الفرار، والنُّكوص، وتولية الأدبار حتَّى لم يبقَ حول النَّبي ﷺ إلا القليل، وبعد الخوف الشَّديد الَّذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله؛ الَّذي عبَّر عنه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

السَّكينة: الطُّمأنينة، والرَّحمة، والأمنة، وهي من السُّكون، وهو ثبوت الشَّيء بعد التَّحرُّك، أو من السَّكن، وهو كل ما سكنَت إليه، واطمأنت به من أهلٍ، وغيرهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ قال القاسميُّ: أي: ما تسكنون، وتثبتون به من رحمته، ونصره، وانهزام الكفار، واطمئنان قلوبهم للكرِّ بعد الفرِّ ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الَّذين انهزموا، وإعادة الجارِّ للتنبيه على اختلاف حاليهما، أو الَّذين ثبتوا

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٩٨).

مع رسول الله ﷺ ولم يفرّوا، أو على الكلّ؛ وهو الأنسب[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: قال الطَّبريُّ: هي الملائكة[٢].

وقوله: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: وعذَّب الذين كفروا بالقتل، والسَّبي، والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدُّنيا ما داموا يستحبُّون الكفر على الإيمان، ويعادون أهله، ويقاتلونهم عليه[٣].

ثمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ويتوب الله من بعد هذا التَّعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدُّخول في الإسلام، والله غفورٌ رحيمٌ لمن تاب، وآمن، فرحمتُه وسعت كلَّ شيءٍ[٤].

قال سيِّد قطب: «فبابُ المغفرة دائماً مفتوحٌ لمن يخطئ، ثمَّ يتوب، إنَّ معركة حُنين الَّتي يذكرها السِّياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوَّةٍ غير قوَّته لـتَكْشِفُ لنا حقيقةً أخرى ضمنيَّةً، حقيقة القوى الَّتي تعتمد عليها كلُّ عقيدة. إنَّ الكثرة العدديَّة ليست بشيءٍ، إنَّما هي القلَّة العارفة، المتَّصلة، الثَّابتة، المتجرِّدة للعقيدة، . . . . . لقد قامت كلُّ عقيدةٍ بالصَّفوة المختارة، لا بالزَّبد الَّذي يذهب جُفاءً، ولا بالهشيم الَّذي تذروه الرِّياح»[٥].

إنَّ غزوة حنين سُجِّلت في القرآن الكريم؛ لكي تبقى درساً للأمَّة في كلِّ زمانٍ، ومكان، ولقد عُرِضَتْ في القرآن الكريم على منهجيَّة ربانيَّة كان من أهم معالمها الآتي[٦]:

أ ـ بيَّن القرآن الكريم، أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ثم بيَّن القرآن أنَّ هذه الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

ب ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ المسلمين انهزموا، وهربوا ما عدا النَّبيِّ ﷺ، ونفرٌ يسيرٌ من أصحابه. قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

ج ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة، وأكرمه بإنزال السَّكينة عليه، وعلى المؤمنين. فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (٨/ ١٥١).
(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ١٠٣، ١٠٤).
(٣) انظر: تفسير المراغي (٤/ ٨٧).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٩٩).
(٥) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٨).
(٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).

د ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ الله أمدَّ نبيَّه محمَّداً ﷺ بالملائكة في حنين. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وأكَّد ـ سبحانه ـ على أنَّه يقبل التَّوبة من عباده، ويوفِّق مَنْ شاء إليها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثانياً: أسباب الهزيمة، وعوامل النَّصر في حُنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى عدَّة أسباب، منها:

١ ـ أنَّ شيئاً من العُجْبِ تسرب إلى قلوب المسلمين، لمَّا رأوا عددهم، فقد قال رجلٌ منهم: لن نُغلب اليوم من قلَّة، فشقَّ ذلك على النَّبيِّ ﷺ، فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبَّانٍ ليس لديهم سلاحٌ، أو سلاحٌ كافٍ، وإنَّما عندهم حماسٌ وتسرُّعٌ.

٣ ـ أنَّ عدد المشركين كان كثيراً، بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أنَّ مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حُنَيْن، فتهيَّأ هنالك، ووضع الكمائن والرُّماة في مضايق الوادي، وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنِّبال، وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيَّأ، ومنظَّماً، ومستعدّاً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوفٍ رُئيت: صفُّ الخيل، ثمَّ المقاتلة، ثمَّ النِّساء من وراء ذلك، ثمَّ الغنم، ثمَّ النَّعَم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الَّذين أسلموا حديثاً في مكَّة، ففرُّوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل، وهزيمة غيرهم[١].

ب ـ عوامل النَّصر:

كانت عوامل النَّصر في حنين عدَّة أسباب منها:

١ ـ ثبات الرَّسول ﷺ في القتال، وعدم تراجعه، ممَّا جعل الجنود يثبتون، ويستجيبون لنداء القائد الثَّابت.

٢ ـ شجاعة القائد: فالرَّسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب؛ بل تقدَّم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يَرْكُضُ ببغلته قِبَل الكفار، والعبَّاس آخذٌ بلجام البغلة يكفُّها ألاَّ تسرع.

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٩).

٣ ـ ثبات قلَّةٍ من المسلمين معه، وحوله حتَّى جاء الَّذين تولَّوا، وأكملوا المسيرة، مسيرة الثَّبات، والبرِّ، والقتال حتَّى النَّصر.

٤ ـ سرعة استجابة الفارِّين، والتحاقهم بالقتال.

٥ ـ وقوع الجيش المعادي في خطأٍ عسكريٍّ قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلاميِّ بعد فراره، ممَّا أعطى فرصةً ثمينةً للجيش الإسلاميِّ ليلتقط أنفاسه، ويعود إلى ساحة القتال، ويستأنف القتال من جديدٍ بقيادة القائد الثابت الشُّجاع رسول الله ﷺ.

٦ ـ رَمْيَةُ الحصى: فقد أخذ النَّبي ﷺ حصياتٍ فرمى بهنَّ وجوه الكفار ثمَّ قال: «انهزموا وربِّ محمد!» [سبق تخريجه].

٧ ـ الاستعانة، والاستغاثة بالله ـ عز وجلَّ ـ: فقد كان الرسول ﷺ يلحُّ على الله في الدُّعاء بالنَّصر على الأعداء.

٨ ـ إنزال الملائكة في الغزوة، ومشاركتها فيها، وقد سجَّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التَّوبة[1]: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين، والطَّائف:

١ ـ نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوِّجات، وقد فرَّق السَّبي بَيْنَهُنَّ وبين أزواجهنَّ، فأوضحت الآية جواز وطئهنَّ؛ إذا انقضت عدَّتهنَّ؛ لأنَّ الفرقة تقع بينهنَّ وبين أزواجهن الكفار بالسَّبي، وتنقضي العدَّة بالوضع للحامل، وبالحيض لغير الحامل[2].

٢ ـ منع المخنثين خلقة من الدُّخول على النِّساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنَّث بالنِّساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاريُّ عن زينب بنت أبي سلمة عن أمِّها أمِّ سلمة: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وعندي مخنَّثٌ، فسمعتُه يقول لعبد الله بن أبي أميَّة: يا عبد الله! أرأيت إن فتح الله عليكم الطَّائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنَّها تُقبل بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا يدخلَنَّ هؤلاء عليكم». [البخاري (٤٣٢٤)].

وفي هذا المنع حرص النَّبيِّ ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلاميِّ.

٣ ـ النَّهي عن قصد قتل النِّساء، والأطفال، والشُّيوخ، وكذلك الأجراء ممَّن لا يشتركون

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٤٢٣.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٢٠).

في القتال ضدَّ المسلمين: وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ يوم حنين بامرأةٍ قتلها خالدُ بن الوليد؛ والنَّاس متقصِّفون[١] عليها، فقال رسول الله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً، فقل له: لا يقتلن ذرية، ولا عسيفاً» وفي روايةٍ: فقال له: إنَّ رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً، او امرأة، أو عسيفاً. [أحمد (٣/٤٨٨)، وأبو داود (٢٦٦٩)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، والنسائي في الكبرى (٨٥٧١ و٨٥٧٢ و٨٥٧٣)، وابن حبان (٤٧٩١)].

٤ ـ تشريع العمرة من الجِعْرَانَةِ:

أحرم النَّبيُّ ﷺ بعمرة من الجِعْرَانَةِ وكان داخلاً إلى مكَّة، وهذه هي السُّنة لمن دخلها من طريق الطَّائف، وما يليه، وأمَّا ما يفعله كثيرٌ مما لا علم عندهم من الخروج من مكَّة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرةٍ ثمَّ يرجع إليها؛ فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبَّه أحدٌ من أهل العلم، وإنَّما يفعله عوامُّ النَّاس، زعموا أنَّه اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ، وغلطوا، فإنَّه إنَّما أحرم منها داخلاً إلى مكَّة، ولم يخرج منها إلى الجِعْرَانةِ؛ ليحرم منها[٢].

٥ ـ إرشاده ﷺ للأعرابيِّ بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحجِّ:

قال يعلى بن منبِّه: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، وهو بالجِعْرَانَةِ وعليه جبَّةٌ، وعليها خلوقٌ[٣]، أو قال: أثر صفرةٍ، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزِل على النَّبيِّ ﷺ الوحيُ، فَسُتِرَ بثوبٍ، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النَّبيَّ ﷺ، وقد أُنْزِل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثَّوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيطٌ. قال: فلمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصُّفرة ـ أو قال ـ: أثر الخلوق، واخلَعْ عنك جبَّتك، واصنعْ في عمرتك ما أنت صانع في حجَّتك». [البخاري (١٥٣٦)، ومسلم (١١٨٠)].

٦ ـ مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه:

قال أبو قتادة: لمَّا كان يوم حنين نظرتُ إلى رجلٍ من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الَّذي يَخْتِله، فرفع ليضربني، فضربت يده فقطعتُها، ثمَّ أخذني، فضمَّني ضمّاً شديداً حتَّى تخوَّفْتُ، ثمَّ برك فتحلَّل، ودفعته، ثمَّ قتلته، وانهزم المسلمون، وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطَّاب في النَّاس، فقلت له: ما شأنُ النَّاس؟ قال: أمرُ الله، ثمَّ تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من أقام بينة على قتيلٍ قتله؛ فله سلبه» فقمت لألتمس بينةً على قتيلي، فلم أرَ أحداً يشهد لي، فجلست،

---

(١) متقصِّفون: متجمعون.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).
(٣) خلوقٌ: طِيْبٌ.

ثمَّ بدا لي فذكرتُ أمره لرسول الله ﷺ فقال رجلٌ من جلسائه: سلاح هذا القتيل الَّذي يذكر عندي، فأرضِهِ منه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا لا يعطه أصيبغ[(١)] من قريشٍ، ويدع[(٢)] أسداً من أُسْدِ الله يقاتل عن الله، ورسوله ﷺ، قال: فقام رسول الله ﷺ فأدَّاه إلي فاشتريت منه خرافاً[(٣)]، فكان أوَّل مالٍ تأثَّلْتُهُ في الإسلام. [البخاري (٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١)].

ونلحظ في هذا الخبر: أنَّ أبا قتادة الأنصاريَّ رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهدٍ عظيم، كما أنَّ موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه فيه دلالةٌ على حرصه على إحقاق الحقِّ، والدِّفاع عنه، ودليلٌ على رسوخ إيمانه، وعمق يقينه، وتقديره لرابطة الأخوَّة الإسلاميَّة، وأنَّها بمنزلةٍ رفيعةٍ بالنسبة له[(٤)].

٧ـ النهي عن الغلول:

أخذ النَّبيُّ ﷺ يوم حنين وَبَرةً من سنام بعيرٍ من الغنائم، فجعلها بين أصبعيه، ثمَّ قال: «أيُّها النَّاس! إنَّه لا يحلُّ لي ممَّا أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردودٌ عليكم، فأدُّوا الخياط، والمخيط، وإيَّاكم، والغلول، فإنَّ الغلول عارٌ، ونارٌ، وشنارٌ على أهله في الدُّنيا، والآخرة»[(٥)].

ولمَّا سمع النَّاس هذا الزَّجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ، أشفقوا على أنفسهم، وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاريٌّ بكبَّة خيطٍ من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله! أخذت هذه الوبرة لأخيط بها بَرذَعَةَ بعيرٍ لي دَبِر، فقال له ﷺ: «أمَّا حقِّي منها، وما كان لبني عبد المطَّلب فهو لك». فقال الأنصاريُّ: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها مِنْ يده. [أحمد (٢/ ١٨٤)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)].

وأمَّا عقيل بن أبي طالب؛ فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطَّخٌ دماً، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليردَّه، حتَّى الخياط، والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم[(٦)].

وهذا التَّشديد في النَّهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصُّورة الشَّائهة المرعبة، ولو كان في

---

(١) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله ﷺ. وقوله أصيبغ: نوع من الطُّيور شبه به؛ لعجزه، وضعفه.
(٢) يدع: يترك.
(٣) خرافاً: أي: بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٨/ ٢٦).
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥٣)، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام (تقسيم الفيء).
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٤٥).

شيءٍ تافهٍ لا يُلتفت إليه ، يمثِّل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبويِّ في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العمليَّة ؛ إيماناً ، وأمانة ، وفي التزام الأفراد بهذا التَّوجيه يتطهَّر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة ؛ لأنَّ التَّساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها ، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانيَّة التي لا تليق بالمجتمع المسلم[1] .

٨ ـ وفاء نذر كان في الجاهلية :

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لمَّا قفلنا من حنين سأل عمرُ النَّبيَّ ﷺ عن نَذْرٍ كان نذره في الجاهليَّة اعتكافاً ، فأمره النَّبيُّ ﷺ بوفائه . [البخاري (٤٣٢٠) ، ومسلم (١٦٥٦)] .

رابعاً : مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيات :

١ ـ أنس بن أبي مرثدٍ الغنويُّ ، وحراسة المسلمين :

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين : «من يحرسنا اللَّيلة؟» فقال أنسُ بن أبي مرثدٍ : أنا يا رسول الله! قال ﷺ : «فاركب» ، فركب ابن أبي مرثد فرساً له ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ : «استقبل هذا الشِّعْب حتَّى تكون في أعلاه ، ولا نُغْزَنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيلة» .

قال سهيل بن الحنظليَّة : فلمَّا أصبحنا ؛ خرج رسول الله ﷺ إلى مُصَلاَّه ، فركع ركعتين ، ثمَّ قال : «هل أحسنتم فارسكم؟» قالوا : ما أحسنَّاه ، فثوَّب بالصَّلاة ، فجعل ﷺ يصلِّي ، وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتَّى إذا قضى صلاته ، قال : «أبشروا! فقد جاءكم فارسكُم» ، فجعل ينظر إلى خلال الشَّجر في الشِّعب ، فإذا هو قد جاء حتَّى وقف عليه ، فقال : إنِّي انطلقت حتَّى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني ﷺ ، فلمَّا أصبحت طلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت ، فلم أرَ أحداً ، فقال ﷺ : «هل نزلت اللَّيلة؟» ، فقال : لا ، إلا مصلِّياً ، أو قاضي حاجةٍ ، فقال له ﷺ : «قد أوجبت ، فلا عليك أن تعمل بعدها» [أبو داود (٢٥٠١) ، والنسائي في الكبرى (٨٨١٩)][2] .

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النَّبويُّ الكريم في الاهتمام بالأفراد ، فقد ظهر اهتمام النَّبيِّ ﷺ بطليعة القوم حتَّى جعل يلتفت في صلاته ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمرٍ مهمٍّ ، ثمَّ إنَّه ﷺ قال : «أبشروا ! فقد جاء فارسكم» إنَّها الكلمة الَّتي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرُّهم من الأمور العظيمة ، تلك هي أهمِّية الفرد في المجتمع الإسلاميِّ ، إنَّه ليس كمَّاً مهملاً ، ولا رقماً في سجلٍ ، ولا بزالاً في آلةٍ ، يستغنى عنه عند الضَّرورة ليؤتى بغيره ، إنَّها بعض التَّفسير للمنهج

---

(١) انظر : محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/ ٣٨٧ ، ٣٨٨) .

(٢) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٥٠ ، وابن حجر ، وابن كثير ، في البداية والنِّهاية ، وابن هشام ، في السِّيرة النبويَّة .

الإلٰهيِّ[١] في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

كما أنَّ في هذه القصَّة مَعْلَماً من معالم المنهج النَّبويِّ الكريم في وجوب اليقظة، وتعرُّف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوَّة عدداً وعدَّةً، وما رسمه من خططٍ حربيَّةٍ، وهي سياسةٌ مهمَّةٌ بالنسبة للقادة الَّذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض[٢].

وأمَّا قول الرَّسول ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها»، فهذا محمول على النَّوافل الَّتي يكفِّر الله بها السيئات، ويرفع بها الدَّرجات، والمقصود: أنَّه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه مِنْ سيئاتٍ في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنَّة، وليس المقصود: أنَّ هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[٣].

٢ ـ شجاعة أمِّ سُلَيْمٍ يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إنَّ أمَّ سُلَيْمٍ اتخذت يوم حنين خِنْجَراً[٤]، فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتَّخذته إن دنا مني أحد من المشركين؛ بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله! اقتلْ مَنْ بعدنا[٥] من الطُّلقاء[٦]، انهزموا بك[٧]، فقال رسول الله: «يا أمَّ سُلَيْمٍ! إنَّ الله قد كفى، وأحسن». [مسلم (١٨٠٩)].

٣ ـ الشَّيماء بنت الحارث أخت النَّبيِّ ﷺ من الرَّضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله ﷺ الشَّيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السَّعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرَّضاعة، وعنَّفوا عليها في السَّوق، وهم لا يدرون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله! أنِّي لأختُ صاحبكم من الرَّضاعة، فلم يصدِّقوها حتَّى أتوا بها رسولَ الله ﷺ، ولما انتهت الشَّيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله! إنِّي أختك من الرَّضاعة، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عَضَّةٌ عَضَضْتَنِيهَا في ظهري، وأنَّا مُتَورِّكَتُك[٨]،

---

(١) انظر: معين السِّيرة، ص ٤٢٩.
(٢) انظر: محمد رسول الله، لصادق عرجون (٤/ ٣٦٦).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤).
(٤) خنجراً: سكيناً كبيرة ذات حدين.
(٥) من بعدنا: من سوانا.
(٦) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.
(٧) انهزموا بك: انهزموا عنك.
(٨) متوركتُك: يعني: حاملتك على وركي.

وعرف رسولُ الله ﷺ العلامة، وبسط لها رِداءه، وأجلسها عليه، وخيَّرها، وقال: «إن أحببت؛ فعندي مُحَبَّةً مُكْرمَةً، وإن أحببت أن أُمَتِّعَكِ، وترجعي إلى قومك؛ فعلتُ» فقالت: بل تمتِّعني، وتردُّني إلى قومي[1]، ومتَّعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أَعْبُدٍ، وجاريةً، ونعماً، وشاء. [الطبري في تاريخه (٣/ ١٣١ ـ١٣٢)، وابن هشام (٤/ ١٠٠ ـ ١٠١)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٠)، وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٤٧٩) برقم (١٣٩٥٨)][2].

خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشَّاعر ـ والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة:

لمَّا قدم رسول الله ﷺ من الطَّائف؛ جاءه كعب بن زهير ـ الشَّاعر ابن الشَّاعر ـ وكان قد هجا رسول الله ﷺ، ثمَّ ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثَّه أخوه (بُجَيْر) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً مسلماً، وحذَّره من سوء العاقبة؛ إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته الَّتي يمدح فيها رسول الله ﷺ، والتي اشتهرت بقصيدة (بانت سعاد) فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلَّى الصُّبح، ثمَّ جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ: «إنَّ كعب بن زهير جاء يستأمنُك تائباً مسلماً، فهل أنت قابلٌ منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله! دعني وعدوَّ الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فقد جاء تائباً نازعاً» وأنشد كعب قصيدته اللاَّمية الَّتي قال فيها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[3]
ومَا سُعَادُ غَدَاةَ الطَّرْفِ إِذْ رَحَلُوا ... إلاَّ أغنُّ قَرِيْرُ العَيْنِ مَكْحُولُ[4]

ومنها:

إنَّ الرَّسُوْلَ لَنُوْرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
فِيْ عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُوْلُوا
شُمُّ العَرَانِيْنِ أبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

[الحاكم (٣/ ٥٧٩ ـ ٥٨٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٧٦ ـ ١٧٩)، برقم (٤٠٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٠٧ ـ ٢١١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)][5].

ويقال: إنَّه لما أنشد رسول الله قصيدته؛ أعطاه بردته، وهي الَّتي صارت إلى الخلفاء[6]،

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٦٣)، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٠٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص ٣٥٨.
(٣) متبول: مغرم، مكبول: مقيد.
(٤) أغنُّ: صفة للغزال الَّذي في صوته غنّة.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١).
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).

قال ابن كثيرٍ: هذا من الأمور المشهورة جدّاً، ولكن لم أرَ ذلك في شيءٍ من هذه الكتب المشهورة بإسنادٍ أرتضيه، فالله أعلم[١].

ويقال: إنَّ الرَّسول ﷺ قال له بعد ذلك: لولا ذكرت الأنصار بخيرٍ، فإن الأنصار لذلك أهلٌ[٢]، فقال:

مَـنْ سَـرَّهُ كَـرَمُ الحَيَـاةِ فَـلا يَـزَلْ ... فِـيْ مِقْنَـبٍ مِـنْ صَـالِحِـي الأَنْصَـارِ[٣]
وَرِثُـوا المكَـارِمَ كَـابِـراً عَـنْ كَـابِـرٍ ... إنَّ الخِيَـارَ هُـمُ بَنُـو الأَخْيَـارِ
المُكْـرِهِيْـنَ السَّمْهَـرِيَّ بِـأَذْرُعٍ ... كَسَـوَالِـفِ الهِنْـدِيِّ غَيْـرِ قِصَـارِ[٤]
والنَّـاظِـرِيْـنَ بِـأَعْيُـنٍ مُحْمَـرَةٍ ... كَـالْجَمْـرِ غَيْـرَ كَلِيْلَـةِ الأَبْصَـارِ
والبَـائِعِيْـنَ نُفُـوْسَهُـمْ لِنَبِيِّهِـمْ ... لِلْمَـوْتِ يَـوْمَ تَعَـانُـقٍ وكِـرَارِ
والقَـائِـدِيْـنَ[٥] النَّـاسَ عَـنْ أَدْيَـانِهِـمْ ... بِـالمَشْـرِفـيِّ وبِـالقَنَـا الخَطَّـارِ[٦]
يَتَطَهَّـرُوْنَ يَـرَوْنَـهُ نُسُكَـاً لَهُـمْ ... بِـدِمَـاءِ مَـنْ عَلِقُـوا مِـنَ الكُفَّـارِ

إلى أن قال:

لَـوْ يَعْلَـمُ الأَقْـوَامُ عِلْمِـيَ كُلَّـهُ ... فِيْهِـمْ لَصَـدَّقَنِـي الَّـذِيْـنَ أُمَـارِي[٧]
قَـوْمٌ إِذَا خَـوتِ النُّجُـومُ فَـإِنَّهُـمْ ... لِلطَّـارِقِيْـنَ[٨] النَّـازِلِيْـنَ مَقَـارِي[٩]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأنَّ الشُّعراء المعارضين للدَّعوة الإسلاميَّة قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطَّاب، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعبَّاس بن مرداس، وتحوَّلوا إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ، واستظلوا بلوائه عن قناعةٍ، وإيمانٍ، ولم يكتفِ بعضهم بأن تكون كلمتُه في الدِّفاع عن الإسلام؛ بل كان سيفُه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكَّة[١٠].

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٧٣).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) مِقْنَب: جماعة.
(٤) السَّمْهَرِيُّ: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السَّيف.
(٥) القائدين: المانعين النَّاس.
(٦) المشرفيُّ: السَّيف، والقنا: الرِّماح جمع: قناة، والخطَّار: المهتز.
(٧) أماري: أجادل.
(٨) خوت النُّجوم: أي: سقطت، الطَّارقون: الذين يأتون بالليل.
(٩) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).
(١٠) انظر: من معين السِّيرة، ص ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣.

سادساً: من نتائج غزوة حنينٍ ، والطائف:

١ ـ انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن ، وثقيف في هذه الغزوة.

٢ ـ كانت غزوة حنين والطَّائف آخر غزوات النَّبيِّ ﷺ لمشركي العرب.

٣ ـ رجوع كثيرٍ من أهل مكَّة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام ، وحصول الأنصار على وسامٍ عظيم ، وهو شهادةُ رسولِ الله ﷺ لهم بالإيمان ، والدُّعاء لهم ولأبنائهم ، وأحفادهم ، ورجوعهم برسول الله ﷺ إلى المدينة.

٤ ـ انضمام كوكبةٍ مباركةٍ من قيادة أهل مكَّة وهوازن إلى الإسلام ، وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان ، والأصنام ، والمعابد الجاهليَّة في الجزيرة العربيَّة ، كما كان لقبيلة هوازن دورٌ كبيرٌ في مجاهدة أهل الطَّائف ، والتَّضييق عليهم حتَّى أسلموا.

٥ ـ توسَّعت الدَّولة الإسلاميَّة وامتدَّ نفوذها ، وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكَّة ، وعلى قبيلة هوازن ، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية ؛ التي عاصمتها المدينة النَّبويَّة ، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسولُ الله ﷺ بعوثاً دعويَّةً بدون خوفٍ ، أو وجلٍ مِنْ أحدٍ ، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين ، وأخذت حركة السَّرايا تستهدف الأوثان ، والأصنام لتهديمها ، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً ، ونظَّم رسولُ الله ﷺ فريضة الزَّكاة ، فكلَّف مَنْ يقوم على جمعها من القبائل التَّابعة للدَّولة[(١)].

* * *

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها في السِّيرة النَّبويَّة (٢/ ٩٦١).

المبحث الرَّابع
أهمُّ الأحداث ما بين حُنَيْنٍ وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات:

شرع رسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة ـ في أواخر ذي القعدة ـ في تنظيم الإدارة، والجباية، وكان ﷺ قد استخلف عَتَّابَ بن أَسِيْدٍ على مكَّة حين انتهى من أداء العمرة، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه النَّاس، ويعلِّمهم القرآن، وكان هدي النَّبيِّ ﷺ عندما تدخل القبائل في الإسلام الحرصَ على تعليمها، وتربيتها، ويُعَيِّن مَنْ يُشرف على ذلك؛ لأنَّ النُّفوس تحتاج إلى العناية، والاهتمام، وغرس العقائد الصَّحيحة، والتَّصوُّرات السَّليمة فيها.

وفي مطلع المحرم من العام التَّاسع وجَّه الرَّسول ﷺ عُمَّالَه إلى المناطق المختلفة، فبعث بُريدة بن الحصيب إلى أسلم، وغِفار، وعبَّاد بن بشر الأشهلي إلى سُليم، ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضَّحاكَ بن شعبان الكلابيَّ إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعبٍ، وابن اللُّتبيَّة الأزديَّ إلى بني ذبيان، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم[(١)]، والمهاجر بن أبي أميَّة إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، والزبرقان بن بدرٍ، وقيس بن عاصم إلى بني سعدٍ، والعلاءَ بن الحضرميِّ إلى البحرين، وعليَّ بن أبي طالبٍ إلى نجران؛ ليجمع صدقاتهم، ويَقْدَم عليه بجزيتهم[(١)].

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العُمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللُّتْبِيَّة من الأزد، حيث حاسبه عندما قال الرَّجل[(٢)]: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثُه، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه، أو بيت أمِّه حتَّى ينظر أيُهدى إليه أم لا؟!، والَّذي نفس محمد بيده! لا ينال أحدٌ منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٤).

(٢) انظر: الدولة العربية الإسلامية، لمنصور الحرابي، ص ٤٣.

رُغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تَيْعَرُ» ثمَّ رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَتَيْ إبطيه ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ هل بلغتُ؟ مرَّتين» [البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢)]. وكان يقول أيضاً: «أيما عاملٍ استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه؛ فهو غلول». [أبو داود (٢٩٤٣)][(١)].

ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة:

أ ـ سريَّة الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النَّبيُّ ﷺ قد بعث الطُّفيل بن عمروٍ من مقرِّه في حُنَيْنٍ، وقبل أن يسير إلى الطَّائف، أمره بأن يهدم (ذا الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسيِّ، ثمَّ يستمدُّ قومه، ويوافيه مع المدد إلى الطَّائف، وقد نَفَّذ الطُّفيل بن عمروٍ أوامر النَّبيِّ ﷺ، فهدم (ذا الكفلين) وحرَّقه، وقاد أربعمئةٍ من قومه، ومعهم دبابةٌ، ومنجنيق مدداً لرسول الله ﷺ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطَّائف بأربعة أيام[(٢)].

ب ـ سريَّة عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ، ويُقال: إنَّها سريَّة الأنصار:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ: بعث النَّبيُّ ﷺ سريَّـةً فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النَّبيُّ ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى! قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النَّبيِّ ﷺ من النَّار، فما زالوا حتَّى خمدت النَّـار، فسكن غضبُـه، فبلغ النَّبيَّ ﷺ فقال: «لـو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطَّاعة في المعروف». [البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠)].

ج ـ سريَّة عليِّ بن أبي طالب لهدم صنم الفُلْس في بلاد طَيِّئ:

وفي ربيع الآخر خرجت سريَّة عليِّ بن أبي طالب إلى الفُلْس ـ صنم لِطيِّئ ـ ليهدمه، وكان تعدادها خمسين ومئة رجلٍ من الأنصار، على مئة بعير، وخمسين فرساً، ومعه رايةٌ سوداء، ولواءٌ أبيض، فشنُّوا الغارة على محلَّة آل حاتم ـ حاتم الطَّائيِّ الَّذي ضُرب المثل بجوده ـ مع الفجر، فهدموا الفُلْس، وخرَّبوه، وملؤوا أيديهم من السَّبي، والنَّعَم، والشَّاء، وفي السَّبي أخت عديِّ بن حاتم، وهرب عديٌّ إلى الشَّام[(٣)].

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني (١/ ٢٦٥).
(٢) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٨٥).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، المغازي، ص ٦٢٤.

د ـ سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَة؟»، فقلت: بلى! فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمَس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فضرب يده على صدري، حتَّى رأيت أثر يده في صدري، وقال: «اللَّهم! ثَبِّتْهُ واجعله هادياً مهديّاً» قال: فما وقعت عن فرسٍ بعدُ، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخَثْعَمَ، وبجيلة، فيه نُصُبٌ يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرَّقها بالنَّار، وكسرها، قال: ولمَّا قدم جرير اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنَّ رَسُولَ رَسُولِ الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك! قال: فبينما هو يضرب بها؛ إذ وقف عليه جرير، فقال: لَتَكْسِرَنَّها ولتَشْهَدنَّ أن لا إله إلا الله، أو لأضربن عنقك! قال: فكسرها، وشهد، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمَس يُكنى أبا أرطأة إلى النَّبيِّ ﷺ يبشِّره بذلك، فلمَّا أتى النَّبيَّ ﷺ قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحقِّ ما جئت حتَّى تركتُها كأنَّها جملٌ أجرب، قال: فبرَّك النَّبيُّ ﷺ على خيل أحمَس، ورجالها خمس مرَّاتٍ. [البخاري (٤٣٥٧)، ومسلم (٢٤٧٦)، وأحمد (٤/ ٣٦٢)، وأبو داود (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٥)].

ثالثاً: إسلام عديِّ بن حاتم:

عندما وقعت أخت عديِّ بن حاتم في أسر المسلمين؛ عاملها رسول الله ﷺ معاملةً كريمة، وبقيت معزَّزة مكرَّمةً، ثمَّ كساها النَّبيُّ ﷺ، وأعطاها ما تتبلَّغ به في سفرها، وعندما وصلت إلى أخيها في الشَّام شجَّعته على الذَّهاب لرسول الله ﷺ، فتأثَّر بنصيحتها، وقدم على المدينة[(١)]، ونترك أبا عبيدة بن حذيفة يحدِّثنا عن قصَّة إسلام عديٍّ، قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أُحَدَّثُ عن عديِّ بن حاتمٍ، فقلت: هذا عديٌّ في ناحية الكوفة، فلو أتيتُه، فكنت أنا الذي أسمع منه، فأتيتُه فقلت: إنِّي كنت أُحدَّث عنك حديثاً، فأردت أن أكون أنا الَّذي أسمعه منك. قال: لمَّا بعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ النَّبيَّ ﷺ فررت منه حتَّى كنت في أقصى أرض المسلمين ممَّا يلي الرُّوم.

قال: فكرهت مكاني الَّذي أنا فيه حتَّى كنت له أشدَّ كراهيةً له منِّي من حيث جئت، قال: قلت: لآتينَّ هذا الرَّجل، فوالله! إن كان صادقاً، فلأسمعنَّ منه، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيتُه، واستشرفني النَّاس، وقالوا: عديُّ بن حاتمٍ، عديُّ بن حاتمٍ، قال: أظنُّه قال ثلاث مرارٍ، قال: فقال لي: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم». قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ، قال: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم» قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ، قالها ثلاثاً، قال:

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ٨١).

«أنا أعلم بدينك منك» قال: قلت: أنت أعلم بديني منِّي؟! قال: «نعم» قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى! قال: فذكر محمَّدٌ الرَّكوسِيَّة[1] قال: كلمة التمسها يقيمها، فتركها، قال: «فإنَّه لا يحلُّ في دينك المرباع[2]».

قال: فلمَّا قالها؛ تواضعتُ لها، قال: «وإنِّي قد أرى أنَّ ممَّا يمنعك خصاصةً تراها ممَّن حولي، وأن النَّاس علينا إلباً واحداً، هل تعرف مكان الحِيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها، ولم آتها. قال: «لتوشكنَّ الظَّعينة أن تخرج منها بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز تُفتح» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز ـ ثلاث مرات ـ، وليوشكنَّ أن يبتغي مَنْ يقبل ماله منه صدقةً فلا يجد» قال: فلقد رأيت اثنتين: قد رأيت الظَّعينة تخرج من الحيرة بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل الَّتي أغارت على المدائن، وايم الله! لتكونن الثَّالثة إنَّه لحديث رسول الله ﷺ حدَّثنيه. [البخاري (٣٥٩٥)، وأحمد (٤/ ٢٥٧)][3].

وفي روايةٍ جاء فيه: «... فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلَّمت عليه، فقال: «من الرَّجل؟» فقلت: عديُّ بن حاتمٍ، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله! إنَّه لعامدٌ بي إليه؛ إذ لقيته امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بِمَلِكٍ، قال: ثمَّ مضى بي رسول الله ﷺ حتَّى إذا دخل بي بيته تناول وسادةً من أَدَمٍ[4]، محشوةً ليفاً، فقذفها إليَّ، فقال: «اجلس على هذه» قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت» فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بأمر مَلِكٍ»[5].

وفي هذه القصَّة دروس، وعبرٌ كثيرةٌ منها:

١ ـ كان عديٌّ وهو مقبلٌ على رسول الله ﷺ يحمل في تصوُّره أنَّه أحد رجلين: إمَّا نبيٌّ أو مَلِكٌ، فلمَّا رأى وقوف رسول الله ﷺ مع المرأة الضَّعيفة الكبيرة مدَّةً طويلةً شعر بِخُلق التَّواضع، وانسلخ مِنْ ذهنه عامل المَلِكِ، واستقرَّ في تصوُّره عامل النُّبوَّة.

٢ ـ كان النَّبيُّ ﷺ موفقاً حينما انتقد عَدِيّاً في مخالفته للدِّين الَّذي يعتنقُه، حين حصل لعدي

---

(١) قومٌ لهم دين بين النَّصارى والصَّابئة، النهاية (٢/ ٢٥٩).
(٢) المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيِّد القوم قبل القسمة.
(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥٨٠.
(٤) أدم: هو بفتحتين: الجلد.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٢٣٦)، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (قصة عدي بن حاتم الطائي).

اليقين بنبوَّة رسول الله ﷺ ، الَّذي يعلم من دينه ما لا يعلمه النَّاس مِنْ حوله .

٣ ـ لمَّا ظهر للنَّبيِّ ﷺ أنَّ عدياً قد أيقن بنبوَّته ؛ تحدَّث عن العوائق الَّتي تحول بين بعض الناس واتِّباع الحقِّ حتَّى مع معرفتهم بأنَّه حقٌّ ، ومنها : ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم ، وما هم فيه من الفقر ، فأبان له النَّبيُّ ﷺ بأنَّ الأمن سيشمل البلاد حتَّى تخرج المرأة من العراق إلى مكَّة من غير أن تحتاج إلى حماية أحدٍ ، وأنَّ دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين ، وأنَّ المال سيفيض حتَّى لا يقبله أحدٌ ، فلمَّا زالت عن عديٍّ هذه المعوِّقات ؛ أسلم .

٤ ـ كان النَّبيُّ ﷺ موفقاً في دعوته ، حيث كان خبيراً بأدواء النُّفوس ، ودوائها ، ومواطن الضَّعف فيها وأزمَّة قيادها ، فكان يلائم كلَّ إنسانٍ بما يلائم علمه وفكره ، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ، ولذلك أثَّر في زعماء القبائل ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً(١) .

٥ ـ وجد عديٌّ سماتِ النُّبوَّة الصَّادقة في مظهر معيشته ﷺ وحياته ، ووجد هذه السِّمات أيضاً في لون حديثه ، وكلامه ، ووجد مصداق ذلك فيما بعد ، في وقائع الزَّمن ، والتَّاريخ ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه ، وانخلاعه عن زخارف الحياة الدُّنيا ومظاهر الأبَّهة ، والتَّرف الَّتي كان قد أسبغها عليه قومُه(٢) .

رابعاً : أحداث متفرِّقة في سنة ثمانٍ :

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي : « . . . وفي هذه السَّنة بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر ، وعمرو ابني الجلندى من الأزد ، وأُخِذَتِ الجزية من مجوس بلدها ، ومَنْ حولها من الأعراب ، وفيها تزوَّج رسول الله ﷺ فاطمة بنت الضَّحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة ، فاستعاذت منه عليه السَّلام ، ففارقها ، وفي ذي الحجَّة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطيَّة ، فاشتدَّت غيرة أمَّهات المؤمنين منها حين رُزِقت ولداً ذكراً(٣) .

وفي عام (٨ هـ) توفِّيت السَّيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الرَّبيع ، وقد ولدت قبل المبعث بعشر سنين ، وكانت أكبر بناته ﷺ ، تليها رقيَّة ، ثمَّ أمُّ كلثوم ، ثمَّ فاطمة رضي الله عنهنَّ ، كان رسول الله محبّاً لها ، أسلمت قديماً ، ثمَّ هاجرت قبل إسلام زوجها بستِّ سنين ، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثمَّ نزفت ، وصار المرض يعاودها حتَّى توفيت ، ولمَّا

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨/ ٥٨ ، ٨٦) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢١ .
(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣٧٤) .

ماتت؛ قال رسول الله ﷺ: «اغْسِلْنها وِتْراً؛ ثلاثاً، أو خمساً، واجعلْن في الآخرة كافوراً».
[البخاري (١٣٥٢)، ومسلم (٩٣٩)][١].

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ٤٩٠) والكافور: نبت طيب الرَّائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه، ويجعله صلباً متماسكاً، ويمنع إسراع الفساد إليه.

الفصل السَّابع عشر
غزوة تبوك (٩ هـ) وهي غزوة العُسْرَة[١]

المبحث الأوَّل
تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها

أوَّلاً: تاريخها، وأسماؤها:

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التَّاسع الهجريِّ[٢]، بعد العودة من حصار الطَّائف بنحو ستَّة أشهرٍ[٣].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكانٍ، هو عين تبوك؛ الَّتي انتهى إليها الجيش الإسلاميُّ، وأصل هذه التَّسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتَّى يضحى النَّهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى آتي». [أحمد (٥/٢٣٧ ـ ٢٣٨)، ومسلم (٧٠٦/١٠)، وأبو داود (١٢٠٦)، والترمذي (٥٥٣)، والنسائي (١/٢٨٥)، وابن ماجه (١٠٧٠)].

وللغزوة اسمٌ آخر، وهو غزوة العُسْرَة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدَّث عن هذه الغزوة في سورة التَّوبة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقد روى البخاريُّ بسنده إلى أبي موسى الأشعريِّ: قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُملانَ لهم؛ إذ هم معه في جيش العُسْرَة، وهي غزوة تبوك...، وعَنْوَنَ البخاريُّ لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك، وهي غزوة العُسْرة». [البخاري تعليقاً (٨/١٣٨)].

---

(١) ينظر الشكل (٢٠) في الصفحة (٧٦٤).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٤/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢)، والسِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٤.

(٣) انظر: فتح الباري (١٦/ ٢٣٧).

لقد سمِّيت بهذا الاسم لشدَّة ما لاقى المسلمون فيها من الضَّنْكِ ، فقد كان الجوُّ شديدَ الحرارة ، والمسافة بعيدةً ، والسَّفر شاقّاً لقلَّة المؤونة وقلَّة الدَّوابِّ الَّتي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، وقلَّة الماء في هذا السَّفر الطَّويل ، والحرِّ الشَّديد ، وكذلك قلَّة المال الذي يُجَهَّز به الجيش ، وينفق عليه[1] ، ففي تفسير عبد الرَّزَّاق عن معمر ، عن ابن عقيل ؛ قال : (خرجوا في قلَّةٍ من الظَّهْر ، وفي حرٍّ شديدٍ حتَّى كانوا ينحرون البعير ، فيشربون ما في كِرْشِهِ من الماء ، فكان ذلك عُسْرَةً من الماء)[2] ، وهذا الفاروق عمر بن الخطَّاب يحدِّثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين ، فيقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ ، حتَّى ظننَّا أنَّ رقابنا ستنقطع حتَّى إن كان أحدُنا يذهب يلتمس الخلاء ، فلا يرجع حتَّى يظنَّ أنَّ رقبته تنقطع ، وحتى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه ؛ فيشربه ، ويضع ما بقي على بَطْنِه . [البزار (١٨٤١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤)] .

وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة ؛ ذكره الزُّرقانيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه (شرح المواهب اللَّدنية)[3] ، وسمِّيت بهذا الاسم ؛ لأنَّ هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائيَّة الماكرة ، وأحقادهم الدَّفينة ، ونفوسهم الخبيثة ، وجرائمهم البشعة بحقِّ رسول الله ﷺ ، والمسلمين[4] .

وأمَّا موقع تبوك فيقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطَّريق المعبدة في الوقت الحاضر ، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الرُّوم آنذاك[5] .

ثانياً : أسبابها :

ذكر المؤرِّخون أسباب هذه الغزوة ، فقالوا : وصلت الأنباء للنَّبيِّ ﷺ من الأنباط الَّذين يأتون بالزَّيت مِنَ الشَّام إلى المدينة : أنَّ الروم جمعت جموعاً ، وأجلبت معهم لخمُ ، وجُذَامُ ، وغيرُهم من متنصِّرة العرب ، وجاءت في مقدِّمتهم إلى البلقاء[6] ، فأراد النَّبيُّ ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[7] .

ويرى ابن كثير : أنَّ سبب الغزوة هو استجابةٌ طبيعيَّةٌ لفريضة الجهاد ، ولذلك عزم رسول الله

---

(١) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّن ، لأبي فارس ، ص ٨٣ .
(٢) فتح الباري في شرح حديث رقم (٤٤١٥) ، ومحمَّد ﷺ (غزوة تبوك أو العسرة) ، لمحمَّد رضا .
(٣) انظر : شرح المواهب اللَّدنية (٣/ ٦٢) .
(٤) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّن ، ص ٨٤ .
(٥) انظر : المجتمع الإسلامي ، للعمري ، ص ٢٢٩ .
(٦) البلقاء : هي كورةٌ من أعمال دمشق بين الشَّام ، ووادي القرى ، عاصمتها عمَّان .
(٧) انظر : الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٢/ ١٦٥) .

ﷺ على قتال الرُّوم؛ لأنَّهم أقرب النَّاس إليه، وأولى النَّاس بالدَّعوة إلى الحقِّ لقربهم إلى الإسلام، وأهله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

والَّذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصَّواب؛ إضافةً إلى أنَّ الأمر الَّذي استقرَّ عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافَّةً بِمَنْ فيهم أهل الكتاب الَّذين وقفوا في طريق الدَّعوة، وظهر تحرُّشهم بالمسلمين، كما روى أهل السِّير(١).

ولا يمنع ما ذكره المؤرِّخون بأنَّ سبب الخروج هو عزم الرُّوم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم؛ لأنَّ أصل الخروج كان وارداً.

لقد كان المسلمون على حذرٍ من مجيء غسَّان إليهم من الشَّام، ويظهر ذلك جليّاً ممَّا وقع لعمر بن الخطَّاب، فقد كان النَّبيُّ ﷺ آلى من نسائه شهراً، فهجرهنَّ، ففي صحيح البخاريِّ: وكنَّا قد تحدَّثنا: أنَّ آل غسَّان تُنْعِلُ النِّعال لغزونا، فنزل صاحبي الأنصاريُّ يوم نوبته، فرجع إلينا عِشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً، وقال: أنائمٌ هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمرٌ عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسَّان؟ قال: لا! بل أعظم منه، وأهول، طلَّق رسول الله ﷺ نساءه... [البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٧٤٩)].

ثالثاً: الإنفاقُ في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله ﷺ الصَّحابة على الإنفاق في هذه الغزوة؛ لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة(٢)، فهذا عبد الرَّحمن بن خُباب يحدِّثنا عن نفقة عثمان، حيث قال: شهدت النَّبيَّ ﷺ وهو يحثُّ على جيش العُسْرَة، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، ثمَّ حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، ثمَّ حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفَّان، فقال: يا رسول الله! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ بأحلاسها، وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه». [أحمد (٤/ ٧٥)، والترمذي (٣٧٠٠)].

وعن عبد الرَّحمن بن سَمُرَة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفَّان إلى النَّبيِّ ﷺ بألف دينارٍ في ثوبه حين جهَّز النَّبيُّ ﷺ جيش العُسْرَة، قال: فجعل النَّبيُّ ﷺ يقلِّبها بيده، ويقول:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٣).

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٥.

«ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم! يردِّدها مراراً». [أحمد (٥/ ٦٣)، والترمذي (٣٧٠١)].

وأمَّا عمر؛ فقد تصدَّق بنصف ماله، وظنَّ أنَّه سيسبق أبا بكرٍ بذلك، وهذا الفاروق يحدِّثنا بنفسه عن ذلك، حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر؛ إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثلَه. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسولَه، قلت: لا أسابقك إلى شيءٍ أبداً. [أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)].

وروي: أنَّ عبد الرَّحمن بن عوفٍ أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العُسْرَة[١].

وكانت لبعض الصَّحابة نفقاتٌ عظيمةٌ، كالعبَّاس بن عبد المطَّلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمَّد بن مَسْلَمة، وعاصم بن عديٍّ رضي الله عنهم[٢].

وهكذا يفهم المسلمون: أنَّ المال وسيلةٌ، واستطاع أغنياء الصَّحابة أن يبرهنوا: أنَّ مالهم في خدمة هذا الدِّين، يدفعونه عن طواعيةٍ، ورغبةٍ، وأنَّ تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخٌ مشرِّفٌ؛ لأنَّه تاريخ المال في يد الرِّجال، لا تاريخ الرِّجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنَّفس فكذلك هو بالمال، وإنَّ الَّذين رُبُّوا على أن يقدِّموا أنفسهم، تهون عليهم أموالُهم في سبيل الله تعالى[٣].

إنَّ في مسارعة الموسرين من الصَّحابة إلى البذل، والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين؛ من مسارعةٍ إلى فعل الخير، ومقاومةٍ لأهواء النَّفس وغرائزها، ممَّا تحتاج إليه كلُّ أمَّة لضمان النَّصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون، وزعماء النَّهضات هو غرس الدِّين في نفوس النَّاس غرساً كريماً[٤].

وقدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النَّفقة على استحياءٍ، ولذلك تعرَّضوا لسُخْرِيَةِ وغمز، ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عُقَيْلٍ بنصف صاع تمرٍ، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٦.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٣٩١).
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٤٤٩.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ، وعبرٌ، للسِّباعي، ص ١٦١.

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩][1].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتَّهمون الأغنياء بالرِّياء، ويسخرون من صدقة الفقراء[2].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنَّهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ فهذا عُلبَةُ بن زيدٍ أحد البكَّائين صلَّى من اللَّيل، وبكى، وقال: اللَّهمَّ! إنَّك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، وإنِّي أتصدَّق على كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابتني في جسدٍ، أو عِرْضٍ، فأخبره النَّبيُّ ﷺ: أنَّه قد غُفِر له[3].

وفي هذه القصَّة وما جرى فيها آياتٌ من الإخلاص، وحبِّ الجهاد لنصرة دين الله، وبثِّ دعوته في الآفاق، وفيها مِنْ لُطف الله بضعفاء المؤمنين الَّذين يعيشون في حياتهم عيشةً عمليَّة[4].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدِّثنا عن قصَّته: (.... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت ـ وقد خرج أوَّل صحابة رسول الله ـ فطفقت في المدينة أنادي: ألا مَنْ يحمل رجلاً له سهمه! فإذا شيخٌ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحملَه عقبة[5]، وطعامه معنا. فقلت: نعم، قال: فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحبٍ حتَّى أفاء الله علينا[6]، فأصابني قلائصَ[7]، فَسُقْتُهُنَّ حتَّى أتيتُه، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثمَّ قال: سقهن مدبراتٍ، ثمَّ قال: سقهن مقبلاتٍ، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً إنَّما هي غنيمتُك الَّتي شرطتُ لك، قال: خذ قلائصك يابن أخي! فغير سهمِك أردنا. [أبو داود (٢٦٧٦)][8].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخرويَّة، أجراً، وثواباً

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦١٧.
(٣) وردت من طرقٍ ضعيفةٍ، ولها شاهدٌ صحيحٌ، وهي بالجملة تصلح للشَّاهد التَّاريخيِّ، انظر: المجتمع المدنيّ للعمري، ص ٢٣٥، والإصابة لابن حجر.
(٤) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (٤/ ٤٤٣).
(٥) عقبة: أي: بالتعاقب.
(٦) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سريَّة خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٧) قلائص: إبل.
(٨) انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨)، ومن معين السيرة، ص ٤٥٣، يكري دابته على النِّصف، أو السهم.

يجده عند الله يوم لقائه ، وتنازل الأنصاريُّ عن قسم كبيرٍ من راحته ، ليتعاقب وواثلة على راحلته ، ويقدِّم له الطَّعام مقابل سهمٍ آخر ، وهو الأجر ، والثَّواب .

إنَّها مفاهيم تنبع من المجتمع الَّذي تربَّى على كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، لها نفس الخاصِّيَّة في الإضاءة ، وتحمل نَفْسَ البريق ، متمِّمٌ بعضها لبعضها الآخر(١) .

وجاء الأشعريُّون يتقدَّمهم أبو موسى الأشعريُّ يطلبون من النَّبيِّ ﷺ أن يحملهم على إبلٍ ليتمكَّنوا من الخروج للجهاد ، فلم يجد ما يحملهم عليه حتَّى مضى بعضُ الوقت ، فحصل لهم على ثلاثةٍ من الإبل(٢) .

وبلغ الأمر بالضُّعفاء ، والعجزة ممَّن أقعدهم المرض ، أو النَّفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد ، وتحرُّجاً من القعود حتَّى نزل فيهم قرآن : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ ـ ٩٢] .

إنَّها صورةٌ مؤثِّرة للرَّغبة الصَّحيحة في الجهاد على عهد رسول الله ﷺ ، وما كان يحسُّه صادقو الإيمان من ألمٍ إذا ما حالت ظروفهم المادِّية بينهم وبين القيام بواجباته ، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممَّن عذر الله لمرضٍ ، أو كبر سنٍّ ، أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين(٣) ، وهم الَّذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر» . [البخاري (٤٤٢٣) ، وأحمد (٣/١٠٣) ، وأبو داود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) ، وابن حبان (٤٧٣١)] .

رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك :

عندما أعلن الرَّسول ﷺ النَّفير ، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة؛ أخذ المنافقون في تثبيط همم النَّاس ، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرِّ ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨١ ـ ٨٢] .

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٤٥٣ .
(٢) انظر : المجتمع المدني ، ص ٢٣٦ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٨ .

وقال رسول الله ﷺ ـ وهو في جهازه لتبوك ـ للجدِّ بن قيس: يا جدُّ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي، ولا تفتني؟ فوالله! لقد عرف قومي: أنَّه ما من رجل أشدُّ عجباً بالنِّساء منِّي، وإنِّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» [الطبري في تفسيره (١٠/١٤٨ ـ ١٤٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/٢١٣ ـ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (٢١٥٤ و١٢٦٥٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٠)]، ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، وذهب بعضهم إلى النَّبيِّ ﷺ مبدين أعذاراً كاذبةً، ليأذن لهم بالتخلُّف، فأذن لهم، فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله ﷺ: أنَّ ناساً منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهوديِّ يثبِّطون النَّاس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم مَنْ أحرق عليهم بيت سُوَيْلِم. [ابن هشام (٤/ ١٦٠)][١].

وهذا يدلُّ على مراقبة المسلمين الدَّقيقة، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظةً تراقب تحرُّكات اليهود، والمنافقين، واجتماعاتهم، وأوكارهم، بل كانوا يطَّلعون فيها على أدقِّ أسرارهم، واجتماعاتهم، وما يدور فيها مِنْ حبك المؤامرات، وابتكار أساليب التَّثبيط، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة، وأوكارها حازماً حاسماً؛ إذ أمر بحرق البيت على مَنْ فيه من المنافقين، وأرسل مِنْ أصحابه مَنْ يُنَفِّذُه، وَنُفِّذَ بحزمٍ، وهذا منهج نبويٌّ كريمٌ يتعلَّم منه كل مسؤول في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كيف يقف من دعاة الفتنة، ومراكز الإشاعات المضلِّلة الَّتي تُلحق الضَّرر بالأفراد، والمجتمعات، والدُّول؛ لأنَّ التَّردُّد في مثل هذه الأمور يُعَرِّض الأمن، والأمان إلى الخطر، وينذر بزوالها[٢].

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة، وفي أثنائها وبعدها، وممَّا جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمَّن استئذانهم، وتخلُّفهم عن الخروج، وكان ممَّن تخلف عبد الله بن أبيٍّ بن سلول وقد تحدَّث القرآن عنهم، فقال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ موقف المنافقين، وأنَّهم تخلَّفوا بسبب بُعْد المسافة، وشدَّتها،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٦١٨.

(٢) انظر: الصِّراع مع الصليبيين، ص ١٢١.

وأنَّه لو كان الَّذي دعوتَهم إليه ـ يا محمد! ـ عرضاً من أعراض الدُّنيا ، ونعيمها ، وكان السَّفر سهلاً ، لاتَّبعوك في الخروج ، ولكنَّهم تخلَّفوا ، ولم يخرجوا ، فالآية تشرح ، وتوضِّح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة ، وأسباب هذا الموقف ، ثمَّ حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ، وكان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك .

والمعنى : وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله ـ كذباً ، وزوراً ـ قائلين : لو استطعنا أيُّها المؤمنون! أن نخرج معكم للجهاد في تبوك ؛ لخرجنا ، فإنَّنا لم نتخلَّف عن الخروج معكم إلا مضطرِّين ، فقد كانت لنا أعذارُنا القاهرة الَّتي حملتنا على التخلُّف[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

قال ابن عاشور : أي : يحلفون مهلكين أنفسهم ؛ أي : موقعينها في الهُلْكِ ـ والهُلْكُ : الفناء ، والموت ، ويطلق على الأضرار الجسميَّة ، وهو المناسب هنا ـ أي : يتسبَّبون في ضرِّ أنفسهم بالأيمان الكاذبة ، وهو ضرُّ الدُّنيا ، وعذاب الآخرة ، وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ تعمُّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[2] .

ثمَّ عاتب الله تعالى نبيَّنا محمَّداً ﷺ بقوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

قال مجاهد[3] : نزلت هذه الآية في أُناسٍ قالوا : استأذِنوا رسولَ الله ﷺ ، فإن أذن لكم ؛ فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم ، فاقعدوا . وهؤلاء هم فريقٌ من المنافقين ، منهم عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، والجدُّ بن قيسٍ ، ورفاعةُ بن التَّابوت ، وكانوا تسعةً وثلاثين ، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ[4] .

والآية الكريمة عتابٌ لطيفٌ من اللَّطيف الخبير سبحانه لحبيبه ﷺ على ترك الأَوْلى ، وهو التوقُّف عن الإذن إلى انجلاء الأمر ، وانكشاف الحال[5] ، ثمَّ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا

(١) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧) .
(٢) انظر : تفسير التَّنوير والتَّحرير (١٠/ ٢٠٩) .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠) .
(٤) انظر : التَّحرير والتَّنوير (١٠/ ٢١٠) .
(٥) انظر : حديث القرآن الكريم .

يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

هـذه الآيات أوَّل ما نـزل في التَّفرقـة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[1]، فبيَّن سبحانه: أنَّه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان، وترك الجهاد في سبيل الله، وإنَّما هذا من صفات المنافقين الَّذين يستأذنون من غير عذرٍ، ووصفهم ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: شكَّت في صحَّة ما جئتَهم به، وقوله: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي: يتحيَّرون، يقدمون رِجْلاً، ويؤخِّرون أخرى، وليست لهم قدمٌ ثابتةٌ في شيءٍ[2].

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبةً للتَّمييز بين المؤمنين، والمنافقين، وَضَحَتْ فيها الحواجز بين الطَّرفين، ولم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للتَّستُّر على المنافقين، أو مجاملتهم؛ بل أصبحت مجابهتُهم أمراً ملحّاً بعد أن عملوا كلَّ مافي وسعهم لمجابهة الرَّسول ﷺ، والدَّعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنَّفير، الَّذي أعلنه الله تعالى، ورسوله ﷺ، والَّذي نزل به القرآن الكريم؛ بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافُهم عند حدِّهم واجباً شرعيّاً[3].

خامساً: إعلان النَّفير، وتعبئة الجيش:

أُعلِن النَّفير العام للخروج لغزوة تبوك؛ حتَّى بلغ عدد من خرج مع النَّبيِّ ﷺ إلى تبوك ثلاثين ألفاً، وقد عاتب القرآن الكريم الَّذين تباطؤوا بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً، وشيوخاً، وأغنياء، وفقراء، بقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتلٍ[4] من المهاجرين، والأنصار، وأهل مكَّة، والقبائل العربيَّة الأخرى، ولقد أعلن رسول الله ﷺ ـ على غير عادته في غزواته ـ هدفه، ووجهتَه في القتال؛ إذ أعلن صراحةً: أنَّه يريد قتال بني الأصفر (الرُّوم)، علماً بأنَّ هديه

---

(١) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٨٩).
(٤) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين، ص ٩٧.

في معظم غزواته أن يورِّي فيها[١] ، ولا يصرِّح بهدفِه ، ووجهتِه ، وقصدِه حفاظاً على سرية الحركة ، ومباغتة العدوِّ[١] .

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التَّصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره ، وقد صرَّح ﷺ في هذه الغزوة ـ على غير العادة ـ بالجهة التي يريد غزوها ، وجلَّى هذا الأمر للمسلمين ، لأسبابٍ منها :

١ ـ بُعْد المسافـة ، فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أنَّ السير إلى بـلاد الرُّوم يُعدُّ أمراً صعباً ؛ لأنَّ التَّحرُّك سيتمُّ في منطقةٍ صحراويَّةٍ ممتَّدة ، قليلة الماء ، والنَّبات ، ولابدَّ حينئذٍ من إكمال المؤونة ، ووسائل النَّقل للمجاهدين قبل بدء الحركة حتَّى لا يؤدِّي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود .

٢ ـ كثرة عدد الرُّوم ، بالإضافة إلى أنَّ مواجهتهم تتطلَّب إعداداً خاصّاً ، فهم عدوٌّ يختلف في طبيعته عن الأعداء الَّذين واجههم النَّبيُّ ﷺ مِنْ قبلُ ، فأسلحتهم كثيرةٌ ، ودرايتهم بالحرب كبيرةٌ ، وقدرتهُم القتاليَّة فائقةٌ[١] .

٣ ـ شدَّة الزَّمان ، وذلك لكي يقفَ كلُّ امرئٍ على ظروفه ، ويُعِدَّ النَّفقة اللازمة له في هذا السَّفر الطَّويل لمن يعول وراءه[٢] .

٤ ـ أنَّه لم يعد مجالٌ للكتمان في هذا الوقت ؛ حيث لم يبقَ في جزيرة العرب قوَّةٌ معاديةٌ لها خطرها ، تستدعي هذا الحشد الضَّخم ، سوى الرُّومان ، ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ، ودومة الجندل والعقبة[٣] .

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربيَّة ، ومراعاة المصلحة العامَّة في حالتي الكتمان ، والتصريح ، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[٤] .

ولمَّا علم المسلمون بجهة الغزوة ؛ سارعوا إلى الخروج إليها ، وحثَّ الرسول ﷺ على النَّفقة قائلاً : «من جهَّز جيش العسرة فله الجنَّة» . [البخاري تعليقاً (٧/ ٦٥) ، والدارقطني (٤٤٠١) ، والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٦٧)] .

واستخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري ، وخلَّف عليَّ بن أبي طالبٍ على أهله ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلَّفه إلا استثقالاً ، وتخفُّفاً منه ، فأخذ

---

(١) انظر : الرَّسول القائد ﷺ ، ص ٣٩٨ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٤) .
(٣) انظر : غزوة تبوك ، ص ٥٧ ، لمحمد أحمد باشميل .
(٤) انظر : القيادة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٥١٠ .

عليٌّ رضي الله عنه سلاحه ، ثمَّ خرج حتَّى أتى رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بالجُرْفِ[١] ، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون: أنَّك إنَّما خلَّفتني؛ لأنَّك استثقلتني ، وتخفَّفت منِّي ، فقال: «كذبوا ، ولكنِّي خلَّفتك لِمَا تركتُ ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي ، وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي» [البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤/ ٣١ ـ ٣٢)][٢]. فرجع عليٌّ إلى المدينة[٣].

وكان استخلاف عليٍّ رضي الله عنه في أهله باعتبار قرابته ، ومصاهرته ، فكان استخلافه في أمرٍ خاصٍّ ، وهو القيام بشأن أهله ، وكان استخلاف محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ في الغزوة نفسها استخلافاً عاماً ، فتعلَّق بعض الناس بأن استخلاف عليٍّ يشير إلى خلافته من بعده ، ولا صحَّة لهذا القول؛ لأنَّ خلافته كانت في أهله خاصَّةً[٤].

وعندما تجمَّع المسلمون عند ثِنيَّة الوداع بقيادة رسول الله ﷺ ، اختار الأمراء ، والقادة ، وعقد الألوية ، والرَّايات لهم ، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، ودفع راية الأوس إلى أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كلَّ بطنٍ من الأنصار أن يتَّخذ لواءً[٥] ، واستعمل رسول الله ﷺ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عَبَّادَ بن بِشْرٍ ، فكان رضي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر[٦] ، وكان دليلَ رسول الله ﷺ في هذه الغزوة علقمةُ بن الفَغْوَاء الخزاعيُّ ، فقد كان من أصحاب الخبرة ، والكفاءة في معرفة طريق تبوك[٧].

وقد انفرد الواقديُّ بالمعلومات عن طريق الجيش ، وتوزيع الرَّايات ، وهو متروكٌ ، ولكنَّه غزير المعلومات في السِّيرة ، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضرُّ[٨].

ويلاحظ الباحث التَّطوُّر السَّريع لعدد المقاتلين بشكلٍ عامٍّ ، ولسلاح الفرسان بشكل خاصٍّ.

إنَّ الَّذي يدرس تاريخَ الدَّعوة الإسلاميَّة ، ونشوءَ الدَّولة الإسلاميَّة ومؤسَّساتها العامَّة ـ وفي

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٢٩).
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٨٩.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٣٠).
(٤) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧.
(٥) انظر: المغازي (٣/ ٩٩٦) ، والطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/ ١٦٦).
(٦) انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٥/ ٦٥٢) ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٩٩.
(٧) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٤٥١) ، وشرح المواهب اللَّدنيَّة (٣/ ٧٢).
(٨) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٣٢).

مقدَّمة هذه المؤسسات الجيشُ الإسلاميُّ القوَّة الضَّاربة للدَّولة ـ يلاحظ أنَّ هناك تطوُّراً سريعاً جدّاً في مجال القوَّة العسكريَّة؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدرٍ الكبرى ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً، وفي غزوة أحد بلغ سبعمئة مقاتل، تقريباً، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتلٍ، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلافٍ، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتلٍ، وأخيراً بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتلٍ أو يزيد.

وإنَّ الدَّارس يلاحظ هذا التطوُّر السَّريع اللاَّفت للنَّظر في مجال سلاح الفرسان، ففي غزوة بدرٍ كان عدد الفرسان فارسين ـ في بعض الرِّوايات ـ وفي غزوة أحدٍ لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدرٍ، ويقفز العدد بعد ستِّ سنوات فقط إلى عشرة آلاف فارس، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربيَّة وبخاصَّةٍ في البادية؛ ذلك لأن أهلها يهتمُّون باقتناء الخيول، وتربيتها أكثر من أبناء المدن[1].

* * *

(١) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين، ص ١٠٠.

المبحث الثَّاني
أحداث في الطَّريق، والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش، وتوزيع المهامِّ، والألوية، والرَّايات، توجَّه الجيش الإسلاميُّ بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك، ولم ينتظر أحداً قد تأخَّر، وقد تأخَّر نفرٌ من المسلمين يظنُّ فيهم خيراً، وكلَّما ذُكِرَ لرسول الله ﷺ اسم رجل تأخَّر قال ﷺ: «دعوه، إن يك فيه خير؛ فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» [الحاكم ٣/ ٥٠)][(١)].

أولاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ:

قال ابن إسحاق: ثمَّ مضى رسول الله ﷺ سائراً، فجعل يتخلَّف عنه الرَّجل، فيقولون: يا رسول الله! تخلَّف فلانٌ، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلَّف أبو ذرٍّ، وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقُه الله بكم، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[(٢)] أبو ذرٍّ على بعيره، فلمَّا أبطأ عليه، أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثمَّ خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الرَّجل يمشي على الطَّريق وحدَه، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذرٍّ»[(٣)]، فلمَّا تأمَّله القوم؛ قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذرٍّ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه»[(٤)].

ومضى الزَّمان، وجاء عصر عثمان، ثمَّ حدثت بعض الأمور وسُيِّرَ أبو ذرٍّ إلى الرَّبذَة فلمَّا

---

(١) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، للكلاعي (٢/ ٢٧٦)، والبداية والنِّهاية لابن كثير، فصل: تخلف عبد الله بن أُبَيٍّ وأهل الريب عام تبوك.

(٢) تلوَّم على بعيره: تمهل.

(٣) كن أبا ذرٍّ: لفظه لفظ الأمر ومعناه الدُّعاء، أي: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ١٧٨)، وكنز العمال، للمتقي الهندي، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

حضره الموت ، أوصى امرأته ، وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني ، وكفِّناني ، ثمَّ احملاني ، فضعاني على قارعة الطَّريق ، فأوَّل ركبٍ يمرُّون بكم؛ فقولوا: هذا أبو ذرٍّ! فلمَّا مات؛ فعلوا به كذلك ، فطلع ركبٌ ، فما علموا به؛ حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعودٍ في رهطٍ من أهل الكوفة ، فقال: ما هذا؟ فقيل: جِنازة أبي ذرٍّ ، فاستهل ابن مسعودٍ يبكي ، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذرٍّ! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه» فنزل ، فوليه بنفسه حتَّى دفنه. [الحاكم (٣/ ٥٠ ـ ٥١)، والطبري في تاريخه (٣/ ١٤٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)][(١)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ ما تعرَّض له أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضي الله عنه من الصُّعوبات ، والمخاطر ، الَّتي نجَّاه الله منها ، وقوَّاه بالصَّبر عليها ، لقد بذل أبو ذرٍّ جهداً كبيراً في المشي على قدميه ، وهو يحمل متاعه على ظهره ، حتَّى لحق بالنَّبيِّ ﷺ والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[(٢)].

٢ ـ وفي قوله ﷺ: «رحم الله أبا ذر! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويبعث وحدَه» دلالةٌ واضحةٌ وضوح الشَّمس في رائعة النَّهار على صدق نبوَّة الرَّسول ﷺ؛ إذ الإخبار بأمورٍ لم تقع ، ثمَّ تقع بعد الإخبار يدلُّ على معجزةٍ ، وتكريمٍ من الله لهذا الرَّسول ﷺ وهذه الوسيلة من إثبات النُّبوَّة كثيرةٌ في السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفةِ[(٣)].

٣ ـ كما أنَّ في القصَّة دلالةٌ على علم ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، وقوَّة ذاكرته ، وسرعة استحضاره لما حفِظ؛ حيث تذكَّر بعد سنواتٍ عديدةٍ حديث رسول الله ﷺ عمَّا سيؤول إليه أمر أبي ذرٍّ في آخر حياته رضي الله عنه[(٤)].

ثانياً: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: . . . ثمَّ إنَّ أبا خَيْثَمَة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياماً إلى أهلـه في يوم حارٍّ ، فوجد امرأتين لـه في عريشين لهما في حائطـه[(٥)] ، قـد رشَّت كلُّ واحدةٍ منها عريشها ، وبرَّدت له فيه ماءً ، وهيَّأت له فيه طعاماً ، فلمَّا دخل؛ قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه ، وما صنعتا له ، فقال: رسول الله ﷺ في الضِّحِّ[(٦)] ، والرِّيح ، والحرِّ ، وأبو خيثمة في ظلٍّ

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٧٨).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩ ، والتَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (٨/ ١١٤).
(٣) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩.
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١١٤).
(٥) حائطه: أي: بستانه.
(٦) الضِّحُّ: أي: في الشمس.

باردٍ ، وطعامٍ مُهيَّأ ، وامرأةٍ حسناء ، في ماله مقيمٌ ، ما هذا بالنَّصَف! ثمَّ قال: والله! لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيِّئا لي زاداً ، ففعلتا ، ثمَّ قدَّم ناضحه[1] ، فارتحله ، ثمَّ خرج في طلب رسول الله ﷺ حتَّى أدركه حين نزل تبوك .

وقد كان أدرك أبا خيثمة عميرُ بن وهبٍ الجُمحيُّ في الطَّريق ، يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتَّى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهبٍ: إنَّ لي ذنباً ، فلا عليك أن تَخلَّف عنِّي ، حتَّى آتيَ رسول الله ﷺ! ففعل حتَّى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بتبوك ، قال النَّاس: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ ، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» ، فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! فلمَّا أناخ ، أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة[2]!» ثمَّ أخبر رسولَ الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخيرٍ. [الطبراني في الكبير (٥٤١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، والمجمع (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣)][3] .

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه: مالكُ بن قيسٍ:

لمَّا رأيتُ النَّاسَ في الدِّيْنِ نافَقُوا أَتَيْتُ الَّتِي كانَتْ أَعَفَّ وأَكْرَمَا
وبَايَعْتُ باليُمْنَى يَدِي لِمُحمَّدٍ فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْمَاً وَلَمْ أَغْشَ مَحْرَمَا
تَرَكْتُ خَضِيْباً[4] في العَرِيْشِ وَصِرْمَةً[5] صَفَايَا[6] كِراماً يُسْرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا[7]
وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ المُنَافِقُ أَسْمَحَتْ[8] إِلَى الدِّيْنِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثَ يَمَّمَا[9]

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ ـ المسلم صاحب ضميرٍ حيٍّ:

فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد ، والطَّعام مع الظِّلِّ المبرَّد ، والإقامة ، فتذكر رسولَ الله ﷺ وما هو فيه من التَّعرُّض للشَّمس ، والرِّيح ، والحرِّ؛

---

(١) ناضِحُه: أي: جمله.
(٢) أولى لك: أجدرُ بك.
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٨).
(٤) خضيباً: مخضوبةً وهي المرأة.
(٥) صرمة: جماعة النَّخل.
(٦) صفايا: كثيرة الثَّمر.
(٧) تحمماً: أخذ في الإرطاب ، فاسودَّ.
(٨) أسمحت: انقادت.
(٩) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٨).

فأبصر ، وتذكَّر ، وتيقَّظ ضميره ، وحاسب نفسه ، ثمَّ عزم على الخروج ، وخرج وحدَه يقطع الفيافي ، والقفار حتَّى التقى بعمير بن وهب الجمحيِّ ، ولعلَّه كان قادماً من مكة ، فهذه الصُّورة تبيِّن لنا مثلاً من سلوك المتَّقين الَّذين تمرُّ عليهم لحظات ضعفٍ ، يعودون بعدها أقوى إيماناً ممَّا كانوا عليه ، إذا تذكَّروا وراجعوا أنفسهم ، وفي بيان ذلك يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقد تذكَّر سريعاً ، وخرج لعلَّه يدرك ما فاته ، وظلَّ يشعر بالذَّنب ، حتَّى وصل إلى النَّبيِّ ﷺ في تبوك ، وحصل على رضاه ، وسروره[١].

٢ ـ معرفة الرَّسول ﷺ بأصحابه ، وبمعادنهم:

إنَّ قول الرَّسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ: «كن أبا خيثمة» فلمَّا اقترب ، وعرفوه ، قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! يدلُّ على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه ، وأنَّه أعرفُهم بمعادن رجاله ، يعرف المستجيب من غيره ، ويعرف التَّائب النَّائب إلى ربِّه إذا زل قدمُه بسرعة رجوعه ، ومعرفةُ خصال الرِّجال ومعادِنهم تدلُّ على معرفةٍ واسعةٍ ، وخبرةٍ مستوعبةٍ فاحصةٍ ، نتيجة التَّعامل ، والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة ، فقد كان يخالط الجميع يسمع منهم ، ويُسمعهم ، ويسيرون معه ، ويُجاهدون تحت رايته[٢].

٣ ـ حزم أبي خيثمة ، وصبره ، ونفاذ عزيمته:

تأمَّل هذا القرار الَّذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله ﷺ وحدَه ، في هذه الرِّحلة المُضْنِيَة ، في هذه الصَّحراء قليلة الماء ذات الحرِّ اللافح ، لقد اتَّخذ هذا القرار الحازم ، ونفَّذه بدقَّةٍ ، فدلَّ على قوَّة عزيمته ، وعنفوان إرادته ، وعلى جلده ، وصبره[٣].

٤ ـ عِتَابُ القائد للجنديِّ له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه ، يطرح السَّلام على رسول الله ﷺ ، فعاتبه ﷺ معاتبةً تحمل في طيَّاتها اللَّوم ، والتَّأنيب ، والتَّهديد؛ إذ قال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة!» فهي كلمـةٌ فيها معنى التَّهديد ، ومعناها: دنوتَ من الهلكة.

إنَّه ممَّا لاشكَّ فيه: أنَّ هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجنديِّ؛ إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذَّنب.

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في تعليم القادة عدم السُّكوت على أخطاء الجنود؛ لأنَّ ذلك

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١١١ ، ١١٢).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٣٣.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٣ ، ١٣٤.

يضرُّهم ، ويُلحِق الضَّرر بغيرهم ، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ، ومحاسبة مرتكبه ، وتقويمه ، وبذلك يكونون معلِّمين ، ومرشدين ، ومربِّين(١) .

ثالثاً : الوصول إلى تبوك :

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ لم يجد أثراً للحشود الرُّومانية ، ولا القبائل العربيَّة ، وبالرَّغم من أنَّ الجيش مكث عشرين ليلةً في تبوك ، لم تفكِّر القيادة الرُّومانيَّة مطلقاً في الدُّخول مع المسلمين في قتالٍ ، حتَّى القبائل العربيَّة المتنصِّرة آثرت السُّكون ، أمَّا حكام المدن في أطراف الشَّام ، فقد آثروا الصُّلح، ودفع الجزية ، فقد أرسل ملك أيلة للنَّبيِّ ﷺ هديةً ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبُرد ، فصالحه على الجزية ، وأرسل خالدَ بن الوليد رضي الله عنه على رأس سريَّةٍ من الفرسان ، بلغ عددها أربعمئةٍ وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أُكَيْدِرَ بن عبد الملك الكنديَّ ـ ملكَها ـ وهو في الصَّيْدِ خارجها(٢) ، فصالحه النَّبيُّ ﷺ على الجزية(٣) ، وقد تعجَّب المسلمون من قَباء كان أُكَيْدِرُ يلبَسُه ، فقال الرَّسول ﷺ : «أتعجبون من هذا؟ فوالَّذي نفسي بيده! لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مِنْ هذا». [البخاري (٣٨٠٢)، ومسلم (٢٤٦٨/١٢٦)](٤) .

وقد ورد أنَّ غنائم خالد من أُكَيْدِرَ كانت ثمانمئةٍ من السَّبي ، وألفَ بعيرٍ ، وأربعمئة درعٍ ، وأربعمئة رمح(٥) ، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبيِّ ﷺ ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبردٌ ، فصالحه على الجزية(٦) .

وكتب رسول الله ﷺ معاهداتٍ لكلٍّ من أهل جرباء، وأذرح(٧)، ولأهل مقنا(٨) ، يؤدِّي بموجبها هؤلاء النَّاس من نصارى العرب الجزية كلَّ عامٍ ، وتخضع لسلطان المسلمين ، لقد انفرد رسول الله ﷺ بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة ، وعقد معها معاهداتٍ ، وبذلك أمن حدود الدَّولة الإسلاميَّة الشَّمالية(٩) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٣٤ .
(٢) انظر : الإصابة (١/ ٤١٢ ـ ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسنادٍ حسن .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٨٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٨٠) بإسنادٍ حسنٍ .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٥/١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود ، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة .
(٦) انظر : المجتمع المدنيّ للعمريِّ ، ص ٢٤١ .
(٧) المغازي (٣/ ١٠٣٢) .
(٨) انظر : الوثائق السياسية في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص ١١٩ ـ ١٢٤ .
(٩) انظر : الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١٧ .

وبهذه المعاهدات قصَّ ﷺ أجنحة الرُّوم ، فقد كانت هذه القبائل تابعةً للرُّوم ، ودخلوا في النَّصرانية ، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله ، والتزامها بالجزية يعتبر قصَّاً لهذه الأجنحة ، وبتراً لحبال تبعيَّتهم للرُّوم ، وتحريراً لها من هذه التَّبعيَّة؛ الَّتي كانت تذلُّهم ، وتخضعهم لسلطان الرُّوم لينالوا مِنْ تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به ، وخوفاً من ظلمهم لقوَّتهم الباطشة ، وقد وَفَوا بعهد الصُّلح ، والتزموا أداء الجزية ، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[١] .

وهذه سياسةٌ نبويَّةٌ حكيمةٌ اختطَّها رسولُ الله ﷺ في بناء الدَّولة ، ودعوة النَّاس لدين الله ، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الرُّوم بإماراتٍ تدين للرَّسول ﷺ بالطَّاعة ، وتخضع لحكم المسلمين ، وأصبحت في زمن الخلفاء الرَّاشدين نقاط ارتكـازٍ ، سهَّلت مهمة الفتح الإسلاميِّ في عهدهم ، فمنها انطلقت قوَّات المسلمين إلى الشَّمال ، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[٢] .

رابعاً: وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحِجْر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاريُّ رضي الله عنه: لمَّا كان في غزوة تبوك تسارع النَّاس إلى أهل الحِجْرِ يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنادى في النَّاس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسكٌ بعيره ، وهو يقول: «ما تدخلون على قومٍ غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «أفلا أنذركم بأعجب منْ ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسدِّدوا ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» [أحمد (٤/ ٢٣١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤)][٣].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنَّ النَّاس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمودٍ الحجر ، واستقوا من بئرها ، واعتجنوا به ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها ، وأن يعلفوا الإبلَ العجينَ ، وأمرهم أن يستقوا من البئر الَّتي كانت تردها النَّاقة ، وقال رسول الله ﷺ : «لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» ثمَّ زجر[٤] ، فأسرع حتَّى خلَّفها. [البخاري (٣٣٨٠) ، ومسلم (٢٩٨٠/ ٣٩)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في توجيه رسول الله ﷺ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود ، وأن

---

(١) محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/ ٤٧٩).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٢١.
(٣) انظر: الفتح الرَّباني (٢١/ ١٩٥).
(٤) زجر: أي: زجر ناقته ، ومعناه: ساقها سوقاً شديداً ، حتَّى خلَّفها ، أي: جاوز المساكن.

يتذكَّروا بها غضبَ الله على الَّذين كذَّبوا رسوله ، وألا يغفُلوا عن مواطن العظة برسومها الدَّارسة ، وأطلالها القديمة ، ونهاهم عن الانتفاع بشيءٍ ممَّا في ربوعها ، حتَّى الماء؛ لكيلا تفوت بذلك العبرة ، وتخف الموعظة ، بل أمرهم بالبكاء ، والتَّباكي ، تحقيقاً للتأثُّر بعذاب الله ، ولو أنَّهم مرُّو بها كما نمرُّ نحن بآثار السَّابقين؛ لتعرَّضوا لسخط الله ، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ، ودلائل النُّبوَّات ، وعاينوا العجائب ، لكن قست قلوبُهم ، فاستهانوا بها ، وحقَّ عليهم العذاب ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما قصَّ علينا من أنباء الأمم الخالية إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار ، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم ، الَّتي نزل فيها سخط المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ وعذابه الأليم؛ وجب أن تكون الموعظة أشدَّ ، والاعتبار أعمقَ ، والخوف من سخط المولى ـ سبحانه ـ أبلغَ؛ ولهذا تسجَّى النَّبيُّ ـ صلوات الله وسلامُـه عليه ـ بثوبه لمَّا مر بالدِّيار الملعونة المسخوطة ، واستحث خطا راحلته[١] ، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيـوت الَّذين ظلمـوا أنفسهم إلا وأنتم باكون؛ خوفـاً أن يصيبكم ما أصابهم». [سبق تخريجه].

خامساً: وفاة الصحابي عبد الله (ذو البجادين)[٢] رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قمت من جوف اللَّيل ، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال: فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر ، قال: فاتَّبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المُزنيُّ قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ في حضرته ، وأبو بكر ، وعمر يُدَلِّيانه إليه ، وهو يقول: «أدْنِيَا إليَّ أخاكما» ، فدلَّياه إليه ، فلمَّا هيَّأه لِشِقِّه ، قال: «اللَّهمَّ! إنِّي أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه» قال: (الرَّاوي عن ابن مسعود) قال عبدُ الله بن مسعودٍ: يا ليتني كنت صاحب الحفرة. [البزار (٢٧٣٦) ، وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٦) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٦٩)][٣].

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي ذا البجَادين؛ لأنَّه كان ينازع إلى الإسلام ، فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيِّقون عليه ، حتَّى تركوه في بِجَادٍ ، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ ، فلمَّا كان قريباً منه ، شقَّ بجاده باثنين ، فاتَّزر بواحدٍ ، واشتمل بالآخر ، ثمَّ أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البِجادَين لذلك[٤].

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٨٠.

(٢) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

(٣) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٩٨ ، والإصابة لابن حجر ، وقال: رواه البغويُّ بطوله من هذا الوجه ، ورجاله ثقات إلا أنَّ فيه انقطاعاً.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٨٢).

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وحكمٌ ، وفوائد؛ منها :

١ ـ تكريم النَّبيِّ ﷺ لجنوده أحياء وأمواتاً :

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النَّبي ﷺ على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنَّهم قدَّموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، تاركين وراءهم أعزَّ ما يملكون ، فكانت تلك الرِّعاية مظهراً من مظاهر تكريمهم في الدُّنيا ، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذِّئاب وغيرها من دوابِّ الأرض ، لكي يكون هذا التَّكريم من الأسباب الَّتي تدفع غيرهم إلى الاستبسال ، والإقدام في ميادين الجهاد .

ومن الجدير بالذِّكر : أنَّ هذا المبدأ لم يجد مَنْ يدعو إلى تطبيقه إلاَّ في العصر الحديث ، وبهذا يمكن أن يقال : إنَّ رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعدُّ سبقاً عسكرياً لم تعرفه النُّظم والدَّساتير الوضعيَّة إلا بعد قرونٍ طويلةٍ مِنْ بزوغ الإسلام[١] .

فهذه صورة من البرِّ ، والتَّكريم فريدةٌ يتيمةٌ ، لن تجد في تاريخ الملوك والحكَّام من يبرُّ ، ويتواضع إلى هذا المستوى ، إلى حيث يوسِّد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير ، ثمَّ يلتمس له المرضاة من ربِّ العالمين ، أمَّا هو فقد أعلن : أنَّه أمسى راضياً عنه[٢] .

٢ ـ جواز الدفن في اللَّيل ، والغبطة مشروعةٌ في الخير :

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلاً ، والسُّنَّةُ أن يُعَجَّل في دفن الميت ، كما أنَّ الغبطة مشروعةٌ في الخير ، وهي أن تتمنَّى حصول الخير لك ، كما حصل لغيرك من إخوانك ، وهذا عكس الحسد؛ إذ الحسد؛ تمنِّي زوال النِّعمة عن غيرك ، والحسد كلُّه شرٌّ كما ترى ، أمَّا الغبطة؛ فلا تكون إلا في الخير[٣] ، تأمَّل قول عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حينما سمع رسول الله ﷺ يقول في حق ذي البجادين : «اللَّهُمَّ إنِّي أمسيت عنه راضياً ، فارضَ عنه» فقال ابن مسعود رضي الله عنه : يا ليتني كنت صاحب اللَّحد . [سبق تخريجه][٤]! إنَّها كلمةُ كلِّ مؤمنٍ آمن بالله ، واليوم الآخر ، ووقف موقفه ذاك؛ فقد عرفوا أين تكون ميادين التَّنافس[٥] .

سادساً : بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة :

ظهرت في غزوة تبوك معجزاتٌ؛ منها :

---

(١) انظر : المدخل إلى العقيدة ، والاستراتيجية العسكرية الإسلاميَّة ، ص ٢٩٩ .

(٢) انظر : صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٧٢ .

(٣) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٤) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٩٨ .

(٥) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٤٥٢ .

١ ـ اللهُ تعالى يرسل السَّحاب لدعاء نبيِّه بالسُّقيا:

لمَّا جاز النَّبيُّ ﷺ حِجْرَ ثمود، أصبح النَّاس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ سحابةً، فأمطرت حتَّى ارتوى النَّاس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدَّث ابن إسحاق عمَّن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النِّفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرَّجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمِّه، وفي عشيرته، ثم يَلْبَسُ بعضُهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجالٌ من قومي، عن رجلٍ من المنافقين معروف نفاقُه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلمَّا كان من أمر النَّاس بالحِجْرِ ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السَّحابة، فأمطرت حتى ارتوى النَّاس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء! قال: سحابةٌ مارَّةٌ[١].

٢ ـ خبر ناقة رسول الله ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائراً في طريقه إلى تبوك ضلَّت ناقتُه، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم، وكان عقبيّاً بدريّاً، وهم عمُّ بني عمرو بن حزمٍ، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُّصَيْت؛ وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم: أنَّه نبيٌّ، ويخبركم عن السَّماء، وهو لا يدري أين ناقتُه؟

فقال رسول الله ﷺ وعُمارة عنده: «إنَّ رجلاً قال: هذا محمَّد يخبركم أنَّه نبيٌّ، ويزعم أنَّه يخبركم بأمر السَّماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإنِّي والله! ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا، وكذا، قد حبستها شجرةٌ بزمامها، فانطلقوا حتَّى تأتوني بها»، فذهبوا، فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله! لعجبٌ من شيء حَدَّثناه رسولُ الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا، وكذا، للَّذي قال زيد بن اللُّصَيْت. فقال رجلٌ ممَّن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيدٌ والله! قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيدٍ، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إنَّ في رحلي لداهيةً؛ وما أشعر، اخرج، أيْ عدوَّ الله مِنْ رحلي، فلا تصحبني. [الطبري في تاريخه (٣/ ١٤٥)، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٢٨٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٣٢)][٢].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٧٦)، وصور وعبر من الجهاد النَّبويِّ، ص ٤٧٣، والبداية والنِّهاية لابن كثير، فصل: تخلُّف عبد الله بن أبي، وأهل الريب عام تبوك.

(٢) انظر: إعلام النُّبوة، للماوردي، ص ١٠٠، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ١٧٧).

قال ابن إسحاق: فزعم بعض النَّاس أنَّ زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض النَّاس: لم يزل مُتَّهماً بشرٍّ حتَّى هلك[١].

٣ ـ الإخبار بهبوب ريحٍ شديدةٍ، والتَّحذير منها:

أخبر رسولُ الله ﷺ أصحابه في تبوك بأنَّ ريحاً شديدةً ستهبُّ، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم، ودوابِّهم، فلا يخرجوا حتَّى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابَّهم حتَّى لا تؤذى. وتحقَّق ما أخبر به رسول الله ﷺ فهبتِ الرِّيح الشَّديدة، وحملت من قام فيها إلى مكانٍ بعيدٍ[٢]، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حُمَيْدٍ، قال: وانطلقنا حتَّى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهبُّ عليكم اللَّيلة ريحٌ شديدةٌ، فلا يقم أحدٌ منكم، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عِقَالَه»، فهبَّت ريحٌ شديدةٌ، فقام رجلٌ، فحملته الرِّيح حتَّى ألقته بجبل طيِّئ. [البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢/ ١١ و١٢)].

قال النَّوويُّ في شرحه على صحيح مسلمٍ معقِّباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظَّاهرة من إخباره ﷺ بالمغيب، وخوف الضَّرر من القيام وقت الرِّيح[٣].

٤ ـ تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه مِنْ خصبٍ:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكم ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنَّكم لن تأتوها حتَّى يَضْحَى النَّهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى آتي»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشِّراك[٤]، تَبِضُّ[٥] بشيءٍ من ماءٍ، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبَّهما النَّبيُّ ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثمَّ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتَّى اجتمع في شيءٍ، وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثمَّ أعاده فيها، فجرت العين بماءٍ منهمرٍ أو غزيرٍ حتَّى استقى النَّاس.

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلِئ جناناً». [أحمد (٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، ومسلم (٧٠٦/ ١٠)، وأبو داود (١٢٦٠)، والترمذي (٥٥٣)، والنسائي (١/ ٢٨٥)، وابن ماجه (١٠٧٠)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ١٧٧).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين، ص ١٤١.
(٣) شرح النَّووي على صحيح مسلم (١٥/ ٤٢).
(٤) الشراك: هو سير النَّعل، ومعناه: ماءٌ قليلٌ جداً.
(٥) تَبِضُّ: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد، ومعناه: تسيل.

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الَّذي كانت فيه العين منطقةً جرداء لقلَّة الماء ، ولكن الله ـ عزَّ وجل ـ أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء ، حتَّى أصبح يسيل بغزارةٍ ، ولم يكن هذا آتياً لسدِّ حاجة الجيش ، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمرُّ ، وستكون هناك جنانٌ ، وبساتين مملوءةٌ بالأشجار المثمرة ، ولقد تحقَّق ما أخبر به الرَّسول ﷺ بعد فترة قليلةٍ من الزَّمن ، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها ، وبساتينها ، ونخيلها ، وتمورها ، تنطق بصدق نبوَّة الرَّسول ﷺ ، وتشهد بأنَّ الرَّسول ﷺ لا يتكلَّم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقّاً، ولا ينبئ بشيءٍ إلا ويتحقَّق[1] .

٥ ـ تكثير الطَّعام :

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعةٌ، فقالوا : يا رسول الله! لو أذنت لنا ، فنحرنا نواضِحنا[2] ، فأكلنا ، وادَّهَنَّا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «افعلوا» فجاء عمر ، فقال: يا رسول الله! إنَّهم إن فعلوا؛ قلَّ الظَّهر[3] ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثمَّ ادع لهم بالبركة، لعلَّ الله أن يجعل في ذلك! فدعا رسول الله ﷺ : بنطْع[4] ، فبسطه ، ثمَّ دعاهم بفضل أزوادهم ، فجعل الرَّجل يجيء بكفِّ الذُّرة ، والآخر بكف التَّمْر ، والآخر بالكِسْرَة ، حتَّى اجتمع على النِّطع في ذلك شيءٌ يسيرٌ ، ثمَّ دعا عليه بالبركة ، ثمَّ قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» ، فأخذوا في أوعيتهم حتَّى ما تركوا من المعسكر وعاءً إلا ملؤوه ، وأكلوا حتَّى شبعوا ، وفضَلَتْ منه فَضْلَةٌ ، فقال رسول الله ﷺ : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسولُ الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فتحجب عنه الجنَّة». [أحمد (٣/١١)، ومسلم (٢٧/٤٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) ، وابن حبان (٦٥٣٠) ، وأبو يعلى (١١٩٩)].

هذه بعض المعجزات ، والكرامات الَّتي أظهرها الله على يد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، تدلُّ على صدق نبوَّته ، ورسالته ، وتدلُّ على رفعة منزلته ، وتكريمه عند ربِّه[5] .

سابعاً : حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين في أثناء الغزوة :

أ ـ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ يوماً: ما أرى قرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا

---

(١) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤٢ .
(٢) نواضحنا : جمع : ناضح ، وهي الإبل الَّتي يُسقى عليها .
(٣) الظَّهر : ما يحمل عليه من الإبل .
(٤) النِّطع : بساطٌ من الجلد .
(٥) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤١ .

ألسنةً ، وأجبننا عند اللِّقاء.. فقال رجلٌ في المجلس: كذبت ، ولكنَّك منافقٌ ، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ! فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلِّقاً بِحَقْبِ[1] ناقة رسول الله، والحجارة تنكبُه[2]، وهو يقول: يا رسول الله! إنَّما كنَّا نخوض ، ونلعب ، والرَّسول ﷺ يقول: «أبالله ، وآياته ، ورسوله كنتم تستهزئون؟». [ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٧٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)].

وفي رواية قتادة ، قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناسٌ من المنافقين ، فقالوا: يرجو هذا الرَّجل أن تفتح له قصور الشَّام وحصونُها؟ هيهات! هيهات!! فأطلع الله نبيَّه على ذلك ، فقال نبيُّ الله ﷺ: «احبسوا عليَّ هؤلاء الرَّكب». فأتاهم ، فقال: قلتُم كذا ، وكذا ، فحلفوا ما كنَّا إلا نخوض ، ونلعب [ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٧٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)]. فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٥].

والاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ ، والمعنى: قل يا محمد! لهؤلاء موبِّخاً ، ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم ـ كما تزعمون ـ سوى فرائض الله ، وأحكامه ، وآياته ، ورسوله الَّذي جاء لهدايتكم ، وإخراجكم من الظُّلمات إلى النُّور؟! ثمَّ بيَّن سبحانه: أنَّ استهزاءهم هذا أدَّى بهم إلى الكفر ، فقال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومعنى الآية: أي: لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم؛ لأنَّ الإقدام على الكفر لأجل اللَّعب لا ينبغي أن يكون ، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم ، فهو كما يقال: عذرٌ أقبحُ من ذنبٍ[3].

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم؛ لتوبتهم ، وإنابتهم إلى ربِّهم ـ كمُخَشِّن بن حُمَيِّر؛ نعذب بعضاً آخر؛ لإجرامهم ، وإصرارهم عليه[4].

---

(١) الحَقْبُ: حبلٌ يشدُّ به الرَّحل في بطن البعير.
(٢) الحجارة تنكبُه: تصيبه ، وتؤذيه.
(٣) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٥٣).
(٤) المصدر السابق نفسه ، (٤/ ١٥٣).

ب ـ إيذاء الرَّسول ﷺ ، والمؤمنين ، ومحاولة اغتيال رسول الله ﷺ :

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤] .

وقد قال ابن كثيرٍ : إنَّ الضَّحاك قال : إنَّ نفراً من المنافقين همُّوا بالفتك بالنَّبيِّ ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض اللَّيالي في حال السَّير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية(١) وفي رواية الواحديِّ عن الضَّحَّاك : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ، فكانوا إذا خلا بعضُهم إلى بعضٍ ؛ سبُّوا رسول الله ﷺ ، وأصحابَه ، وطعنوا في الدين ، فنقل ما قالوا حذيفةُ إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم رسول الله : «يا أهل النِّفاق! ما هذا الذي بلغني عنكم؟!» ، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله هذه الآية إكذاباً لهم(٢) .

والمعنى الإجماليُّ للآية : «يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة الَّتي نسبت إليهم ، والله يكذِّبهم ، ويُثبت : أنَّهم قد قالوا كلمة الكفر الَّتي رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة ؛ لأنَّه لا ينبغي ذكرها»(٣) .

أمَّا همُّهم بما لم ينالوا ؛ فهو اغتيال رسول الله ﷺ حين كان بالعقبة وهو منصرفٌ مِنْ تبوك . قال ابن كثير : عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمَّار يقود النَّاقة ، وأنا أسوقُه ، وعمَّار يقوده ، حتَّى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولَّوا مدبرين ، فقال لنا رسولُ الله ﷺ : « هل عرفتم القوم؟ » قلنا : لا يا رسول الله؟! قد كانوا ملثَّمين ، ولكنَّا قد عرفنا الرِّكابَ . قال : «هؤلاء المنافقون إلي يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا؟» ، قلنا : لا . قال : «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة ، فيلقوه منها» . [البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٤)] .

وقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ ﴾ . أي : وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام ، وبعثة الرَّسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة ، والهمَّ بالانتقام ، إلا أن أغناهم الله تعالى ، ورسولُه من فضله بالغنائم الَّتي هي عندهم أحبُّ الأشياء لديهم في هذه الحياة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢) .
(٢) انظر : أسباب النُّزول للواحديِّ ، ص ٢٥١ .
(٣) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٥) .

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي: فإنْ يتوبوا من النِّفاق، وما يصدر عنه من مساوئ الأقوال، والأفعال؛ يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدُّنيا، والآخرة.

وقوله: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: وإن يُعرضوا عمَّا دُعوا إليه من التَّوبة، وأصروا على النِّفاق وما ينشأ منه من المساوئ الخلقيَّة، والنَّفسيَّة، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدُّنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهَلَع[1].

* * *

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٦).

المبحث الثَّالث
العودة من تبوك إلى المدينة ، وحديث القرآن الكريم في المخلَّفين عن الغزوة ، وعن مسجد الضِّرار

عاد النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلةً[١] ، وقد أمر النَّبيُّ ﷺ بهدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون وهو راجعٌ إلى المدينة ، ولمَّا اقترب من المدينة ؛ خرج الصِّبيان إلى ثَنِيَّة الوداع يتلقَّونه ، ودخل المدينة ، فصلَّى في مسجده ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، وجاء المخلَّفون لرسول الله ﷺ يقدِّمون له الاعتذار ، وكانوا أربعة أصنافٍ : فمنهم من له أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ومنهم مَنْ ليس له أعذارٌ شرعيَّة ، وتاب الله عليهم ، ومنهم من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة ، ومنهم من منافقي المدينة .

أولاً : المخلَّفون الَّذين لهم أعذار شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ ـ ٩٢] .

بيَّنت هذه الآيات الكريمة الَّذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذرٌ شرعيٌّ ، بأنَّه ليس عليهم حرجٌ ، وليس عليهم إثمٌ في هذا التَّخلُّف ؛ ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج ، وفي المراد بالضُّعفاء : أنَّهم الزَّمنى ، والمشايخ الكبار ، وقيل : الصِّغار ، وقيل : المجانين ، سمُّوا ضعافاً لضعف عقولهم ، ذكر القولين الماورديُّ ، والصَّحيح : أنَّهم الَّذين يضعفون

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٦٠٣ .

لزمانةٍ ، أو عمىً ، أو سنٍّ ، أو ضعفٍ في الجسم. والمرضى: الَّذين بهم أعلالٌ مانعةٌ من الخروج للقتال[١].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ أي: ليس على الذين لا يجدون نفقةً تبلغهم إلى الغزو حرجٌ؛ أي: إثم ، ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إذا عرفوا الحقَّ ، وأحبُّوا أولياءه ، وأبغضوا أعداءه[٢].

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ قال الطَّبري: يقول تعالى: ليس على مَنْ أحسن ، فنصح لله ، ورسوله في تخلُّفه عن رسول الله وعن الجهاد معه ، لعذرٍ يُعذر به طريقٌ يتطرَّق عليه ، فيعاقب مِنْ قبله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى: والله ساترٌ على ذنوب المحسنين ، يتغمَّدها بعفوه لهم عنها ، رحيمٌ بهم أن يعاقبَهم عليها[٣].

وقال القرطبيُّ: الآية أصلٌ في سقوط التَّكليف عن العاجز ، ولا فرق بين العجز من جهة القوَّة ، أو العجز من جهة المال[٤].

وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ معطوف على ما قبله ، من عطف الخاصِّ على العامِّ ، اعتناءً بشأنهم ، وجعلهم كأنَّهم لتميزهم جنسٌ آخر ، مع أنَّهم مندرجون مع الَّذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: لا حرج ، ولا إثم على الضُّعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا ما تخلَّفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ، ولا إثم ـ أيضاً ـ على فقراء المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السَّفر الطَّويل ﴿قُلْتَ﴾ لهم يا محمد[٥]: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ، وقوله: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي: انصرفوا؛ وأعينهم تسيل بالدُّموع من شدَّة الحزن؛ لأنَّهم لا يجدون المال؛ الَّذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[٦].

ثانياً: المخلَّفون الذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدَّث عن هؤلاء المخلَّفين ، وهي:

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٨٥).
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/ ٢٢٦).
(٣) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ٢١١).
(٤) انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/ ٢٢٦).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٢).
(٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٣).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

ومعنى الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء الجماعة تخلَّفوا عن الغزو لغير عذرٍ مسوِّغ للتخلُّف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، كما اعتذر المنافقون، بل تابوا، واعترفوا بالذَّنب، ورجوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل الصَّالح: ما تقدَّم من إسلامهم، وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السَّيِّئ: هو تخلُّفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السَّيِّئ عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتَّوبة عنه.

وأصل الاعتراف: الإقرار بالشَّيء، ومجرَّد الإقرار لا يكون توبةً إلا إذا اقترن به النَّدم على الماضي، والعزم على تركه في الحال، والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط: أنَّهم خلطوا كلَّ واحد منهما بالآخر؛ كقولك: خلطت الماء باللَّبن، واللبنَ بالماء.

وفي قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التَّوبة، أو مقدِّمة التَّوبة وهي الاعتراف، ويقوم مقام التَّوبة، وحرف التَّرجِّي وهو (عسى) هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ؛ لكونه أكرم الأكرمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذُّنوب، ويتفضَّل على عباده[(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصَّحيحين: هلال بن أميَّة، وكعب بن مالك، ومُرارة بن الرَّبيع، وكانوا قد تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ لأمرٍ ما، مع الهمِّ باللَّحاق به ﷺ فلم يتيسَّر لهم، ولم يكن تخلُّفهم عن نفاقٍ، وحاشاهم، فقد كانوا من المخلصين، فلمَّا قدم النَّبيُّ ﷺ وكان ما كان من المتخلِّفين؛ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا له ﷺ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السَّواري[(٢)]، وأمر رسول الله باجتنابهم، وشدَّد الأمر عليهم، كما ستَعْلَمُه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلةً لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[(٣)].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

---

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٣٩٩).
(٢) أي: الَّذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة، وأصحابه.
(٣) انظر: تفسير الآلوسي (١١/ ١٧).

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثَّلاثة هم: هلالُ بنُ أميَّة، وكعب بن مالك، ومُرَارة بن الرَّبيع، وفيهم نزلت هذه الآية[١]، وسوف نتحدَّث عن هذه القصَّة بإذن الله بنوعٍ من التَّفصيل، لما فيها من الدُّروس، والعبر، والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلَّفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

ومعنى الآية: أنَّه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحقٍّ أو باطلٍ على كلا التَّفسيرين؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتَّخلُّف عن الغزوة، وطائفةٌ أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذرٍ، وهم منافقو الأعراب الذين كذَبوا الله ورسوله، ولم يؤمنوا، ولا صدَّقوا، ثمَّ توعَّدهم الله ـ سبحانه ـ فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذَّبوا بالله، ورسوله، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: كثيرُ الألم، فيصدُق على عذاب الدُّنيا، والآخرة[٢].

ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون! أنَّه يسكن مِنْ حول مدينتكم قومٌ من الأعراب منافقون، فاحترسوا منهم[٣].

رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٣].

وتفسير الآيات السَّابقة كالآتي: المخلَّفون: اسم مفعول مأخوذ من قولهم: خلَّف فلانٌ فلاناً وراءه: إذا تركه خلفه، والمخلَّف: المتروك خلف مَنْ مضى[٤]، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بقعودهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن الجوزيِّ: فيها قولان:

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٧).
(٢) انظر: تفسير الشَّوكاني (٢/ ٣٩١).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٨١).
(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٧٨).

أحدهما: أنَّ معناه: بعد رسول الله ﷺ.

والثاني: أنَّ معناه: مخالفة رسولِ الله ﷺ، فالمعنى بأنَّهم قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ[٣].

والمعنى: قال ابن كثير: يقول تعالى ذامّاً للمنافقين المُتَخلِّفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ ممَّا فررتم منه مِنَ الحرِّ[١]، ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ تذييل قصد به الزِّيادة في توبيخهم، وتحقيرهم[٢].

وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

والمعنى: أنَّهم فرحوا، وضحكوا طوال أعمارهم في الدُّنيا، فهو قليلٌ بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ، والآخرة باقيةٌ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بالنسبة إلى الدَّائم الباقي. وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ والمراد بقوله: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الَّذين تخلَّفوا عن الخروج معك إلى تبوك، والمراد بقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين لم يخرجوا إلى تبوك والمراد بقوله: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾. قال الإمام الرَّازي ما ملخَّصه: ذُكِرَ في تفسير «الخالف» وجوهٌ:

الأول: الخالفون جمعٌ، واحدهم: خالف، وهو مَنْ يخلُف الرَّجل في قومٍ. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرِّجال الَّذين يخلُفون في البيت، فلا يبرحونه.

الثاني: أنَّ الخالفين فسِّر بالمخالفين، يقال: فلانٌ خالفه أهلُ بيته: إذا كان مخالفاً لهم، وقومٌ خالفون، أي: كثيرو الخلاف لغيرهم.

الثالث: أنَّ الخالف هو الفاسد. قال الأصمعيُّ: يقال: خلف عن كلِّ خيرٍ، يخلف، خلوفاً: إذا فسد، وخلف اللَّبنُ: إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثَّلاثة؛ فلا شك: أنَّ اللَّفظ يصلح حمله على كلِّ واحدٍ منها؛ لأنَّ أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصِّفات السَّيئة[٣].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرَّسول ﷺ في معاملته للمنافقين ـ عندما اعتذروا له ـ عن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٨٦).
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ١٥١) بتصرف يسير.

المسلمين الصَّادقين؛ حيث إنَّه ﷺ عامل المنافقين باللِّين، والصَّفح، واختار للمسلمين الصَّادقين الشِّدَّة، والعقوبة! ولا شكَّ: أنَّ الشدَّة، والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهرٌ للإكرام، والتَّشريف، وهو ما لا يستحقُّه المنافقون، وكيف يستحقُّ المنافقون أن تنزل آياتٌ في توبتهم - على أيِّ حال - إنَّهم كفرةٌ، ولن يَنْشُلَهم شيءٌ ممَّا يتظاهرون به في الدُّنيا من الدَّرك الأسفل في النَّار يوم القيامة، وقد أمر الشَّارع جلَّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به، ونُجري الأحكام الدُّنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التَّحقيق عن بواطن أعذارهم، وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتُهم في الدُّنيا على ما قد يصدر عنهم مِنْ كذبٍ؟! ونحن إنَّما نعطيهم الظَّاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يُبدون لنا هم أيضاً الظَّاهر فقط من أحوالهم، وعقائدهم.

قال ابن القيِّم: وهكذا يفعل الربُّ سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدِّب عبده المؤمن الَّذي يحبُّه - وهو كريمٌ عنده - بأدنى زلَّة وهفوةٍ، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأمَّا مَنْ سقط من عين الله، وهان عليه؛ فإنَّه يُخَلِّي بينه وبين معاصيه، وكلَّما أحدث ذنباً؛ أحدث له نعمةً[1].

خامساً: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النَّبي ﷺ إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنَّه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج، يقال له: أبو عامر الرَّاهب، وكان قد تنصَّر في الجاهليَّة، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادةٌ في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبيرٌ، فلمَّا قدِم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللَّعين أبو عامرٍ بريقِه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفَّار مكَّة من مشركي قريشٍ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحدٍ، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله - عزَّ وجل -، وكانت العاقبة للمتَّقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين فوقع في إحداهنَّ رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح، وكسرت رباعيَّته اليُمنى، والسُّفلى، وشُجَّ رأسه ﷺ.

وتقدَّم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلمَّا عرفوا كلامه؛ قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! يا عدوَّ الله! ونالوا منه،

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

وسبُّوه ، فرجع وهو يقول : والله! لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم ، وتمرَّد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدَّعوة ، وذلك : أنَّه لما فرغ النَّاس من أحدٍ ، ورأى أمر الرَّسول ﷺ في ارتفاع ، وظهورٍ ؛ ذهب إلى هرقل ملك الرُّوم يستنصره على النَّبيِّ ﷺ ، فوعده ، ومنَّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهل النِّفاق ، والرَّيب يعدهم ، ويمنِّيهم بجيشٍ يقاتل به رسول الله ﷺ ، ويغلبه ، ويردُّه عمَّا هو فيه ، وأمرهم أن يتَّخذوا له معقلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قُباء ، فبنوه ، وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك وجاؤوا ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم ، فيصلِّي في مسجدهم ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره ، وإثباته ، وذكروا : أنَّهم بنوه للضُّعفاء منهم ، وأهل العلَّة في الليلة الشَّاتية ، فعصمه الله من الصَّلاة فيه ، فقال : «إنَّا على سفرٍ ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» ، فلمَّا قفل عليه السَّلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبقَ بينه وبينها إلا يومٌ أو بعض يومٍ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضِّرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتَّفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ، ومسجد قُباء ؛ الَّذي أسس من أوَّل يومٍ على التَّقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مَقْدَمِهِ المدينة [ابن جرير في تفسيره (١١/ ٢٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٦٢ ، ٢٦٣) ، وابن هشام (٤/ ١٧٣ ، ١٧٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٨٨)] ، هذا ما ذكره ابن كثيرٍ في سبب النُّزول .

أمَّا معنى الآيات الكريمات :

أخبر الله سبحانه أنَّ الباعث لهم على بناء هذا المسجد أربعةُ أمور :

١ ـ الضِّرار لغيرهم ، وهو المضارَّة .

٢ ـ الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الإسلام ؛ لأنَّهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النِّفاق .

٣ ـ التَّفريق بين المؤمنين ؛ لأنَّهم أرادوا ألاَّ يحضروا مسجد قُباء ، فتقلَّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة ، وبطلان الأُلفة ما لا يخفى .

٤ ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي : الإعداد لأجل مَنْ حارب الله ورسوله[1] .

وقد خيَّب الله تعالى مسعاهم ، وأبطل كيدهم ، بأنْ أمر نبيَّه ﷺ بهدمه ، وإزالته .

وقوله : ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ذمٌّ لهم على أيمانهم الفاجرة ، وأقوالهم الكاذبة ، لذلك قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ .

---

(١) انظر : تفسير الشَّوكاني (٢/ ٤٠٣) .

ثمَّ نهى الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين عن الصَّلاة في هذا المسجد نهياً مؤكَّداً ، فقال سبحانه: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

قال ابن عاشور: وقوله (سبحانه): ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ المراد بالقيام الصَّلاة؛ لأنَّ أوَّلها قيامٌ ، ووجه النَّهي عن الصَّلاة فيه: أنَّ صلاة النَّبي ﷺ فيه تُكْسِبه يُمناً ، وبركةً فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزيَّةً عليه ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ عمَّار بن ياسر ، ومالك بن الدُّخشم مع بعض أصحابه ، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظَّالم أهلُه؛ فاهدموه ، وحرِّقوه» ففعلوا[(١)] .

وقوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ احتراسٌ ممَّا يستلزمه النَّهي عن الصَّلاة فيه؛ من إضاعة عبادة في الوقت الَّذي رغبوه للصَّلاة فيه ، فأمر الله بأن يصلِّي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصَّلاة في مسجد الضِّرار أن يصلِّي في مسجده ، أو في مسجد قُباء ، لئلا يكون لامتناعه من الصَّلاة من حظوظ الشَّيطان أن يكون صرفُه عن صلاةٍ في وقت دعي للصَّلاة فيه ، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ[(٢)] .

وفيه أيضاً: دفعُ مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرَّسول ﷺ ، بأنَّه دعي إلى الصَّلاة في مسجدهم ، فامتنع ، فقوله: ﴿ أَحَقُّ ﴾ وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة؛ لأنَّ النَّهي عن صلاته في مسجد الضِّرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه أصلاً .

ولعلَّ نكتة الإتيان باسم التَّفضيل: أنَّه تهكُّمٌ على المنافقين؛ لمجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النَّبيَّ ﷺ للصَّلاة فيه ، بأنَّه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجدٍ أُسِّس على التَّقوى أحقّ منه ، فيعرف من وصفه بأنَّه ﴿ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ : أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها[(٣)] .

وقد رأى ابن عاشور: أنَّ المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى: أنَّه مسجد هذا صفته ، لا مسجداً واحداً معيَّناً ، فيكون هذا الوصف كلِّيّاً انحصر في فردين: المسجد النَّبويُّ ، ومسجد قُباء[(٤)] .

قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ روى ابن ماجه: أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار! إنَّ الله تعالى قد أثنى عليكم في الطُّهور، فما طُهوركم؟»

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ١٨٤).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦١).
(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١١/ ٣١).
(٤) المصدر السابق نفسه.

قالوا: نتوضأ للصَّلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء. قال: «فهو ذاك، فعليكُمُوه». [ابن ماجه (٣٥٥)].

وفي قصة مسجد الضِّرار دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد؛ منها:

١ ـ الكفر ملةٌ واحدةٌ:

وقد تبيَّن هذا في موقف أبي عامرٍ الرَّاهب من الإسلام، ومن المسلمين؛ إذ غضب غضباً شديداً، وتألَّم لهزيمة المشركين في بدرٍ، فأعلن عداءه للرَّسول ﷺ، وتوجَّه إلى عاصمة الشِّرك آنذاك مكَّة يحثُّ أهلها على قتال المسلمين، وخرج مقاتلاً معهم في أحدٍ، وحاول تفتيت الصَّفِّ الإسلاميِّ[(١)]، وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ـ محاولة التَّدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشَّرعية على هذا البناء، وأنَّه مسجدٌ بنوه لأسبابٍ مقنِعةٍ في الظَّاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاؤوا يطلبون من الرَّسول ﷺ الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله ﷺ بالصَّلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقرَّ قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوبٌ ماكرٌ خبيثٌ قد ينطلي على كثيرٍ من النَّاس[(٢)].

٣ ـ فالله خيرٌ حافظاً، وهو أرحم الراحمين:

إنَّ الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلٰهيَّة بالنَّبيِّ ﷺ، فقد أطلعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أسرار هؤلاء المنافقين، وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله ﷺ؛ لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلَّى في البناء، فأضفى عليه الشَّرعيَّة، وأقبل النَّاس يصلُّون فيه؛ لأنَّ رسول الله ﷺ صلَّى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين، وضعاف المسلمين، فينفردون بهم، وقد يؤثِّرون عليهم بالإشاعات[(٣)].

٤ ـ العلاج النَّبويُّ الحاسم:

إنَّ ما قام به الرَّسول ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضِّرار هو التَّصرُّف الأمثل، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه لقادة الأمَّة في القضاء على أيِّ عملٍ يراد منه الإضرار بالمسلمين، وتفريق كلمتهم، فالدَّاء العُضَالُ لا يُعالَج بتسكينه، والتخفيف منه، وإنَّما يعالج بحسمه، وإزالة آثاره؛ حتَّى لا يتجدَّد ظهوره بصورةٍ أخرى، وإنَّ الثِّمار العمليَّة الَّتي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر

---

(١) انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين، ص ١٧٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.
(٣) انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين، ص ١٧٩.

النَّبويِّ الحازم لتدلُّنا على أنَّ هذه المنهجيَّة؛ التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث هي الطَّريقة المثلى لقمع حركة النِّفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرُهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً، فشيئاً، حتَّى لم يبقَ منهم بعد لحاق الرَّسول ﷺ بالرَّفيق الأعلى إلا عددٌ قليل، ولم يُعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضِّرار أن قاموا بأعمالٍ تخدم الهدف نفسه؛ لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[(١)].

٥ ـ ما يلحق بحكم مسجد الضِّرار:

ذكر المفسِّرون ما يُلحق بمسجد الضِّرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

أ ـ قال الزَّمخشري: «... وقيل: كلُّ مسجد بُني مباهاةً، أو رياءً، وسمعةً، أو لغرضٍ سوى ابتغاء وجه الله، أو بمالٍ غير طيِّبٍ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضِّرار»[(٢)].

علق الدَّكتور عبد الكريم زيدان على قول الزَّمخشري، فقال: ولكن: هل يلحق بمسجد الضِّرار، فيهدم، كما هدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النَّبيُّ ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنَّما يمكن أن يقال: إنَّ المسجد الذي بني لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التَّقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى[(٣)].

ب ـ قال القرطبيُّ في تفسيره: قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ، أو رياءٍ وسُمعةٍ، فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصَّلاة فيه[(٤)].

ج ـ وقال سيِّد قطب في تفسيره: هذا المسجد ـ مسجد الضِّرار ـ الَّذي اتُّخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدةً للإسلام، والمسلمين، هذا المسجد ما يزال يُتَّخذ في صورٍ شتَّى، يُتَّخذ في صورة نشاطٍ ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه، وتُتَّخذ في صورة أوضاعٍ ترفع لافتة الدِّين عليها لِتَتَتَرَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدِّين، وتُتَّخذ في صورة تشكيلاتٍ، وتنظيماتٍ، وكتبٍ، وبحوثٍ تتحدَّث عن الإسلام؛ لتُخَدِّر القلقين الَّذين يرون الإسلام يُذبح، ويُمحق، فتخدِّرهم هذه التَّشكيلات، وتلك الكتب بما توحيه لهم من أنَّ الإسلام بخيرٍ، وأنَّه لا داعي للخوف، أو القلق عليه[(٥)].

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٠).
(٢) انظر: تفسير الزَّمخشري (٢/ ٣١٠).
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٥٠٤).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥٤).
(٥) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٧١٠ ـ ١٧١١).

٦ ـ قاعدة لمعرفة ما يلحق بمسجد الضِّرار :

قال الدَّكتور عبد الكريم زيدان: كلُّ ما يُتَّخذ ممَّا هو في ظاهره مشروعٌ ، ويريد متَّخذوه تحقيق غرضٍ غير مشروعٍ ، فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار ؛ لأنَّه يحمل روحَه ، وعناصِرَه[(١)] ، وإذا أردنا الإيجاز ؛ قلنا في هذه القاعدة: كلُّ ما كان ظاهره مشروعاً ويريد مُتَّخذوه الإضرار بالمؤمنين ؛ فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار[(٢)] .

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضِّرار ، وما يلحق به ما ذكره الإمام ابن القيِّم من مشاهد الشِّرك ، ومن أماكن المعاصي ، والفسوق ، كالحانات ، وبيوت الخمر ، والمنكرات ، ونحو ذلك ؛ لأنَّ هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به ؛ وإن استحقت الإزالة كمسجد الضِّرار ، باعتبارها منكراتٍ ظاهراً ، وباطناً[(٣)] .

٧ ـ مساجد الضِّرار في بلاد المسلمين :

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين ، والملحدين ، والمبشرين ، والمستعمرين ، يقيمون أماكن باسم العبادة ، وما هي لها ، وإنَّما المراد بها الطَّعن في الإسلام ، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم ، وآدابهم ، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدَّرس ، والتَّعليم ؛ ليتوصَّلوا بها إلى بثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثَّقافة ، والغرض منها خلخلة العقيدة السَّليمة في القلوب ، والقيم الخلقيَّة في النُّفوس ، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحَّة ، والخدمة الإنسانيَّة ، والغرض منها التأثير على المرضى ، والضعفاء ، وصرفهم عن دينهم ، وقد اتَّخذوا من البيئات الجاهلة ، والفقيرة ، لاسيَّما في بلاد إفريقية ذريعةً للتَّوصُّل إلى أغراضهم الدَّنيئة ، الَّتي لا يقرُّها عقلٌ ، ولا شرعٌ ، ولا قانونٌ[(٤)] .

إنَّ مسجد الضِّرار ليس حادثةً في المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل ، وانقضت ؛ بل هي فكرةٌ باقيةٌ ، يُخَطَّط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتُختار الوسائل الدَّقيقة لتنفيذها ، وخططها تصبُّ في التآمر على الإسلام وأهله بالتَّشويه وقلب الحقائق ، والتَّشكيك ، وزرع بذور الفتن لإبعاد النَّاس عن دينهم ، وإشغالهم بما يضرُّهم ويدمِّر مصيرهم الأخروي[(٥)] .

* * *

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٠٧) .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٦) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٠٨) .
(٥) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٢ .

المبحث الرَّابع
قصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا

وردت قصَّة الثَّلاثة الَّذين خلِّفوا على لسان كعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، في كتب السِّيرة ، والحديث ، والتفسير ، بروايات متقاربةٍ في ألفاظها ، ولقيت عناية فائقةً في الشَّرح ، والتَّدريس وكان صحيح البُخاريِّ من أكثر الكتب دقَّةً ، وتفصيلاً لهذه القصَّة[١] .

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدِّثنا بنفسه ، حيث قال : «لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تَبُوك ، غير أنِّي كنت تخلَّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها ، إنَّما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ؛ حتَّى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة[٢] حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدرُ أذكرَ في النَّاس منها ، كان من خَبَري أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ، ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزاة ، والله! ما اجتمعت عندي قَبلَه راحلتان قطُّ حتَّى جمعتُهما في تلك الغزوة .

ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها ، حتَّى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، وعدوّاً كثيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهَّبوا أُهبةَ غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الَّذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ ، ولا يجمعهم كتاب حافظٍ ـ يريد الدِّيوان ـ قال كعب : فما رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحيُ الله .

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ ، والظِّلالُ ، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو ؛ لكي أتجهَّزَ معهم ، فأرجعُ ، ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي : أنا قادرٌ عليه . فلم يزل يتمادى بي ؛ حتَّى اشتد بالنَّاس الجِدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جَهازي شيئاً ، فقلتُ : أتجهَّز بعده بيومٍ ، أو يومين ، ثمَّ

---

(١) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٧ .
(٢) ليلة العقبة : الليلة الَّتي بايع رسول الله ﷺ فيها الأنصار على الإسلام .

ألحقُهم ، فغدوت بعد أن فَصَلوا؛ لأتجهَّزَ ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً ، ثمَّ غدوت ، ثُمَّ رجعتُ ولم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتَّى أسرعوا وتفارط الغزو[١] ، وهممت أن أرتحل فأُدرِكَهُم ـ وليتني فعلتُ ! ـ فلم يقدَّر لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس ـ بعد خروج رسول الله ﷺ ـ فطفتُ فيهم أحزنني أنِّي لاأرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء ، ولم يَذكرْني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك : «ما فعل كعبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سلمة : يا رسول الله! حبسه بُرداه ، والنَّظر في عطفيه[٢] ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً[٣] يزول به السَّراب[٤] ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ ، وهو الَّذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه[٥] المنافقون.

قال كعب بن مالكٍ : فلمَّا بلغني : أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً[٦] من تبوك ؛ حضرني بثِّي[٧] ، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ ، وأقول : بم أخرج مِنْ سخطه غداً؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي. فلمَّا قيل لي : إنَّ رسولُ الله ﷺ قد أظلَّ قادماً[٨] ، زاح[٩] عنِّي الباطل ، حتَّى عرفت أنِّي لن أنجو منه بشيءٍ أبداً ، فأجمعت صِدْقَه[١٠].

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلمَّا سلمت؛ تبسَّم تبسُّم المُغْضَب ، ثمَّ قال : «تعالَ» ، فجئت أمشي حتَّى جلست بين يديه ، فقال لي : «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرَك؟» قال : قلت : يا رسول الله! إنِّي والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سَخَطِه

---

(١) تفارط الغزو : تقدَّم الغزاةُ ، وسبقوا ، وفاتوا.
(٢) والنَّظر في عطفيه : أي : جانبيه ، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، ولباسه.
(٣) مبيِّضاً : لابس البياض.
(٤) يزول به السَّراب : يتحرَّك ، وينهض ، والسَّراب ما يظهر للإنسان.
(٥) لمزه المنافقون : عابوه ، واحتقروه.
(٦) قافلاً : راجعاً.
(٧) بثِّي : حزني.
(٨) أظلَّ قادماً : أقبل ودنا قدومه ، كأنَّه أبقى على ظلِّه.
(٩) زاح : أزال.
(١٠) أجمعت صدقه : عزمت على صدقه.

بعذرٍ ، ولقد أُعطيت جدلاً[١] ، ولكنِّي ، والله! لقد علمت ، لئن حدَّثُتك اليوم حديث كذب ترضى به عنِّي ؛ ليوشكنَّ[٢] اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه[٣] إنِّي لأرجو فيه عُقبى الله[٤] . والله! ما كان لي عذر ، والله! ما كنت قطُّ أقوى ، ولا أَيْسَرَ منِّي حين تخلَّفت عنك ، قال رسول الله ﷺ : «أمَّا هذا ؛ فقد صدق ، فقم حتَّى يقضي الله فيك» .

فقمت ، وثار رجالٌ من بني سلمة ، فاتَّبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك ، قال : فوالله! ما زالوا يُؤنِّبونني[٥] حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأُكذِّبَ نفسي .

قال : ثمَّ قلت لهم : هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا : نعم . لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال : قلت : مَنْ هما؟ قالوا : مُرَارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلالُ بن أميَّة الواقفيُّ ، قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً ، فيهما أسوةٌ ، قال : فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثَّلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه .

قال : فاجتَـنَـبَـنا النَّاس ، وقال : تغيَّروا لنا حتَّى تنكَّرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض الَّتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلـةً ، فأمَّا صاحبـاي ؛ فاستكانا[٦] ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ، فكنت أشبَّ القوم ، وأجلَدَهم[٧] ، فكنت أخرج ، فأشهد الصَّلاة ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ .

وآتي رسول الله ﷺ ، فأسلِّم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام ، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه ، وأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت على صلاتي ؛ نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه ؛ أعرض عنِّي ، حتَّى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائطِ أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ،

---

(١) أعطيت جدلاً : فصاحةً ، وقوَّةً في الكلام ، وبراعةً .
(٢) ليوشكن : ليسرعنَّ .
(٣) تجد عليَّ فيه : تغضب .
(٤) إني لأرجو عقبى الله : يعقبني خيراً ، ويثيبني عليه .
(٥) يؤنبونني : يلومونني أشدَّ اللَّوم .
(٦) استكانا : خضعا .
(٧) أشبَّ القوم ، وأجلدهم : أي : أصغرهم سنّاً ، وأقواهم .

فوالله! ما ردَّ عليَّ السَّلام ، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدُك بالله[١]! هل تعلم أنِّي أحبُّ الله ، ورسوله؟ قال: فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فقال: اللهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة؛ إذا نبطي من نبط أهل الشَّام[٢] ، ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه: أمَّا بعد؛ فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللهُ بدار هوانٍ ، ولا مَضْيَعة[٣] ، فالحقْ بنا؛ نواسِك ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فتايممت[٤] بها التَّنُّور ، فسجرتُها[٥] بها؛ حتَّى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين واستلبث الوحي[٦]؛ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك! قال: فقلتُ: أطلِّقها ، أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعْتَزِلْهَا ، فلا تقربنَّها ، قال: فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك ، فكوني عندهم؛ حتَّى يقضي الله في هذا الأمر ، قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ، ليس له خادمٌ ، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا ، ولكن لا يقربنَّك» فقالت: إنَّه والله! ما به حركةٌ إلى شيءٍ ، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسولَ الله ﷺ ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها ، وأنا رجلٌ شابٌّ ، قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ ، فكمُل لنا خمسون ليلةً على ظهر بيت من بيوتنا.

فبينما أنا جالس على الحال الَّتي ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ منَّا ، قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ سمعتُ صوت صارخ أوفى على سَلَع[٧] ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! قال: فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: فآذن[٨]

---

(١) أنشدك بالله: أسألك بالله.

(٢) نبط أهل الشام: فلاحو العجم.

(٣) مضيعة: يعني أنَّك لست بأرضٍ يضيع فيها حقُّك.

(٤) فتايممت: تيمَّمت: قصدت.

(٥) فسجرتُها: أحرقتُها.

(٦) استلبث الوحيِ: أبطأ.

(٧) أوفى على سَلَع: صعده ، وارتفع عليه ، وسَلَع: جبلٌ بالمدينة معروفٌ.

(٨) فآذن النَّاس: أي: أعلمهم.

رسول الله ﷺ توبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب النَّاس يبشِّروننا، فذهب قِبَل صاحبيَّ مبشِّرون، ورَكَض رجلٌ إليَّ فرساً، وسعى ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلِي، وأوفى الجبل، فكان الصَّوت أسرع من الفرس، فلمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشِّرني، نزعت له ثوبيَّ، فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، والله! ما أملك غيرهَما يومئذٍ.

واستعرتُ ثوبين، فلبستهما، فانطلقت أتأمَّم[1] رسول الله ﷺ فيتلقَّاني النَّاس فوجاً، فوجاً[2]، يهنِّئوني بالتَّوبة، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتَّى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد، وحوله النَّاس، فقام طلحة بن عُبَيْد الله يُهَرْوِلُ حتَّى صافحني، وهنَّأني، والله! ما قام رجلٌ من المهاجرين غيرهُ.

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يَبْرُق وجهُه من السُّرور، ويقول: «أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» قال: قلتُ: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتىٰ كأنَّه قطعةُ قمرٍ قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلمَّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع[3] من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعضَ مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنِّي أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدق، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله! ما علمت أنَّ أحداً من المسلمين أبلاه[4] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن ممَّا أبلاني الله به، وَوَالله! ما تعمَّدت كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعب رضي الله عنه: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ، بعد أنْ هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألاَّ أكونَ كذبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إنَّ الله قال

---

(١) أتأمَّم: أي: أقصد.
(٢) فوجاً، فوجاً: الفوج: الجماعة.
(٣) أنخلع من مالي: أتصدَّق به.
(٤) أبلاه الله: أنعم عليه.

للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ ، وقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال كعبٌ رضي الله عنه: كنَّا تخلفنا نحن الثَّلاثة عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرنا حتَّى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨] ، وليس الَّذي ذكر اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا ، تخلُّفنا عن الغَزْوَةِ ، وإنَّما هو تَخْلِيفه إيَّانا ، وإرجاؤُه أمرَنا[١] عمَّن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه. [البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائدُ كثيرةٌ ، نذكر منها:

١ ـ الأسلوب الجميل ، والبيان الرَّائع ، والأدب الرَّفيع:

لقد تمَّت صياغة هـذا الحديث بأسلوبٍ جميلٍ ، وبيانٍ رائـعٍ ، وأدبٍ رفيعٍ ، وإنَّه ليُعتبر مع أمثالـه كحديث صلح الحديبيـة ، وحديث الإفـك نماذجَ عاليـةً للأدب العربيِّ الرَّفيع ، وليت القائمين على وضع المناهج الدِّراسيَّة يختارون هذه الأحاديث ، وأمثالها لتنمية مدارك الطُّلَّاب ، وتكوين الملكة الأدبيَّة ، والثروة اللُّغوية العالية ، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلمَّا قيل: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً؛ زاح عنِّي الباطل ، وعرفت أنِّي لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ ، فأجمعت صِدْقَه[٢].

٢ ـ الصِّدق سفينة النَّجاة:

لقد أدرك كعبٌ ، وهلالُ ، ومُرَارةُ رضي الله عنهم خطورة الكذب ، فعزموا على سلوك طريق الصَّراحة ، والصِّدق ، وإنْ عرَّضهم ذلك للتَّعب ، والمضايقات ، ولكنْ كان أملُهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتَهُم ، ثمَّ يعودون إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ أقوى ممَّا كانوا عليه[٣] ، وما أجملَ ختمَ ربِّ العالمين توبته على كعبٍ وَمَنْ معه رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٧).
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

٣ ـ الهَجْر التَّربويُّ ، وأثره في المجتمع :

إنَّ الهجر التَّربويَّ له منافعُه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ، ومنع أفراده من التَّورُّط في المخالفات الَّتي تكون إمَّا بترك شيءٍ من الواجبات ، أو فعل شيءٍ من المحرَّمات ؛ لأنَّ مَنْ توقَّع أنَّه إذا وقع في شيءٍ من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع ، فإنَّه لا يفكِّر في الإقدام على ذلك .

ولا يغيب عن البال أنَّ تطبيق هذا الحكم يجب أن يتمَّ في الظُّروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النَّبويِّ المدنيِّ ، حيث توجد الدَّولة المهيمنة ، والمجتمع القويُّ ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم .

وهذا الهجر التَّربويُّ يختلف عن الهجر الَّذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا ، فهذا دنيويٌّ ، وذاك دينيٌّ ، فالهجر الدِّينيُّ مطلبٌ شرعيٌّ يثاب عليه فاعله ، أمَّا الهجر الدُّنيويُّ ؛ فإنَّه مكروهٌ ، إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام ؛ فإنَّه يكون محرماً[(١)] ، لقول رسول الله ﷺ : «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام» [البخاري (٦٢٣٧) ، ومسلم (٢٥٦٠)] ، ولقوله ﷺ : «مَنْ هجر أخاه سنةً فهو كَسَفْكِ دَمِهِ» . [أحمد (٤/ ٢٢٠) ، وأبو داود (٤٩١٥) ، والبيهقي في الآداب (٢٨٠) ، والحاكم (٤/ ١٦٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٠٤)] .

٤ ـ تنفيذ المجتمع المسلم كلِّه لأوامر القيادة :

استجاب المجتمع المسلم كلُّه لتنفيذ أمر المقاطعة ، والهجر الَّذي صدر من القائد الأعلى ﷺ ، وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة ، ووصف كعبٌ لنا ذلك ، فقال : « . . . فاجتَنَبَنا النَّاس ، وتغيَّروا لنا ، حتَّى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فأمَّا صاحباي ، فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ؛ فكنت أشَبَّ القوم ، وأجلدَهم ، فكنت أخرج ، فأشهدُ الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ . . . »[(٢)] .

وقد أطلق كعب السَّلام على ابن عمِّه أبي قتادة ، فلم يردَّ عليه السَّلام ، وناشده بالله مراراً : هل تعلمني أحبُّ الله ، ورسولَه؟ فسكت ، مع أنَّه من أحبِّ النَّاس إليه ، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّعَ الفكر بين إجابة رجلٍ حبيب إليه ، عزيزٍ عليه ، وبين تنفيذ أمر النَّبيِّ ﷺ بتطبيق

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٩) .

(٢) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٥ ، وسبق تخريجه .

الهجر التَّربويِّ ، ولكن ليس هناك تردُّد بين الأمرين ، فالَّذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبيِّ ﷺ فظهر ذلك على سلوكه[١].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النَّبويِّ في الهجر التَّربويِّ ذروته حين أمر رسولُ الله ﷺ الثلاثة الَّذين خُلِّفوا باعتزال زوجاتهم حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فالتزم الجميع بذلك ، واستأذنت زوج هلال بن أميَّة ـ وكان شيخاً طاعناً في السِّنِّ لا يجد من يخدمه ـ فطلبت من الرَّسول ﷺ أن يأذن لها أن تخدمه ، فأذن لها النَّبيُّ ﷺ بذلك شريطة ألا يقربها ، فالتزمتْ رضي الله عنها[٢].

٥ ـ الولاء التَّامُّ لله ورسوله ﷺ:

كان العدوُّ الصَّليبيُّ يراقب ، ويرصد ، ويستغلُّ الفرصة السَّانحة لكي يمزِّق الجبهة الدَّاخلية، ويشعل نار الفتنة بين المسلمين، ليوهن البنيان ، ويقوِّض الأركان، ولذلك استغلَّ ملكُ غسَّان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، وعقوبة رسول الله ﷺ له بأن يرسل سفيره لكعب برسالةٍ خاصَّةٍ منه إليه يُغريه فيها . تأمَّل قوله : قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ، ولا مَضْيَعَة ، فالْحَقْ بنا ، نواسِك . [سبق تخريجه] ، فكان تعليق كعب على هذه الرِّسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ منِّي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجالٌ من أهل الشِّرك! ثمَّ أحرق الرِّسالة[٣].

وهذا الموقف يدلُّ على شدَّة ولاء كعبٍ لله ، ورسوله ﷺ وقوَّة إيمانه ، وعظمة نفسه ، فقد أدرك أنَّها محنةٌ جديدةٌ أقسى من الأولى ، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسَّلب ، أو يرمي بالكتاب ، ويمزِّقه ، ولكنَّه رمى به في التَّنور ، ليصير رماداً ، ويصير كلُّ ما به دخاناً يتبدَّد في الهواء ، وخرج الرَّجل من محنته ، وهو أقوى ما يكون إيماناً ، وأصفى ما يكون روحاً ، وأكرم ما يكون أخلاقاً ، فيا لعظمة هذه النُّفوس المؤمنة الكبيرة![٤] لقد مرَّ كعبٌ من فوق هذا الاختبار ، والابتلاء عزيزاً ، قويّاً بإسلامه ، لم يتأثَّر به ، ولا انزلق فيه[٥].

٦ ـ توبة الله على العبد قِيمَةٌ دينيَّةٌ يتطلَّع إليها الصَّادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة الَّتي بيَّنت توبة الله على هؤلاء الثَّلاثة؛ كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله ﷺ ؛ حتَّى استنار كأنَّه قطعة قمرٍ ، وظهرت الفرحة على وجوه الصَّحابة رضي الله عنهم؛ حتَّى صاروا يتلقَّون كعباً ،

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ (٨/ ١٤٠).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٦ .
(٣) المغازي (٣/ ١٠٥١ ـ ١٠٥٢).
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥١٧).
(٥) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٠٧ .

وصاحبيه أفواجاً ، يهنِّئونهم بما تفضل الله به عليهم من التَّوبة ، وجاء كعبٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ووجهه يَبْرُق من السُّرور ، فقال ﷺ له : «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك!» . وهذا يعني مقام التَّوبة ، وأنَّها أعظم من الدُّخول في الإسلام .

إنَّ التَّوبة تعني عودة العبد إلى الدُّخول تحت رضوان الله تعالى الّذي هو أعلى هدفٍ ينشده المسلم ، وبالتَّالي فإنَّه يحظى بحفظه جلَّ وعلا في الدُّنيا ، وتكريمه في الآخرة ، لقد كانت توبة كعبٍ عظيمةً ، عبَّر عنها بنزع ثوبيه ـ اللَّذين لا يملك يومئذٍ غيرهما ـ وإهدائهما لِمَنْ بشَّره(١) ، وعدم نسيان كعبٍ لطلحة بن عبيد الله مصافحته ، وتهنئته له(٢) ، وكذلك كانت فرحةُ صاحبيه عظيمةً؛ غير أنَّ كعباً رضي الله عنه لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له(٣) ، وقد جاء في رواية الواقديِّ : وكان الَّذي بشَّر هلال بن أميَّة بتوبته سعيدُ بن زيدٍ ، قال : وخرجت إلى بني واقفٍ ، فبشرته ، فسجد ، قال سعيد : فما ظننته يرفع رأسه حتَّى تخرج نَفْسُه(٤) .

٧ ـ تشرع أنواعٌ من العبادات شكراً لله عند النِّعمة :

كانت فرحة كعب بن مالكٍ بتوبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لا تحدُّها حدودٌ ، ولا تصوِّرها مثل ، وقد تفنَّن هو رضي الله عنه في التَّعبير عنها بجملةٍ من العبادات ، منها :

أ ـ سجود الشُّكر :

حينما سمع كعبٌ البشارة بتوبة الله عليه؛ خرَّ ساجداً من فوره شكراً لله ـ تبارك وتعالى ـ فقد كان من عادة الصَّحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلَّما تجدَّدت لهم نعمةٌ ، أو انصرفت عنهم نِقْمَةٌ ، وقد تعلَّموا ذلك من رسول الله ﷺ(٥) .

ب ـ مكافأة الَّذي يحمل البُشرى :

فقد نزع كعب ثوبيه اللَّذين كان يلبَسُهما ، فكساهما الَّذي سمع صوته بالبشرى ، وما كان يملك وقتئذٍ غيرهما ، ثمَّ استعار ثوبين ، فلبسهما ، ولاشكَّ أنَّ هذا ضربٌ من الهبة المشروعة ، فإن كان المبشِّر غنيّاً ، كان له هديةً ، وإن كان فقيراً؛ كان له صدقةً ، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى على إنزاله الفرج(٦) .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٤١) .
(٢) انظر : السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٥١٨) .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٢) .
(٤) المغازي للواقدي (٣/ ١٠٥٤) .
(٥) انظر : صور وعبر من الجهاد النَّبوي ، ص ٤٩٣ .
(٦) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠٢ .

ج ـ التَّصدُّق بالمال:

فقد جعل كعبٌ رضي الله عنه من توبته أن ينخلع من ماله صدقةً لله تعالى ، لكنَّه ﷺ وجَّهه إلى عدم التَّصدُّق بجميع ماله ، وقال له: «أمسك عليك بعض مالك ، فهو خيرٌ لك» ، وكأنَّه يستشيره بذلك ، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[(١)] ، وقد ثار الخلاف الفقهيُّ فيمن نذر التَّصدُّق بجميع ماله ، والصَّدقة مستحبَّة ، والنَّذر واجبُ الوفاء ، ولم يذهب كعب إلى النَّذر ، وإنَّما استشار في الصَّدقة بكلِّ المال ، فأشار رسول الله ﷺ عليه بإمساك بعض ماله .

* * *

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ .

المبحث الخامس
دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

أولاً: معالمُ من المنهج القرآنيِّ في الحديث عن غزوة تبوك:

إنَّ الآيات الَّتي أنزلها الله في كتابه المتعلِّقة بغزوة العُسْرَة هي أطول ما نزل في قتالٍ بين المسلمين، وخصومهم، وقد بدأت باستنهاض الهمم لردِّ هجوم المسيحيَّة، وإشعارهم بأنَّ الله لا يقبل ذرَّة تفريطٍ في حماية دينه، ونصرة نبيِّه ﷺ، وإنَّ التراجع أمام الصُّعوبات الحائلة دون قتال الرُّوم ـ يعتبر مزلقةً إلى الردَّة والنِّفاق[1]، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩].

وعند التَّأمُّل في سورة التَّوبة يلاحظ القارئ: أنَّ لها معالمَ في عرضها لغزوة تبوك، منها:

١ ـ عاتب القرآن الكريم مَنْ تخلَّف عتاباً شديداً، وتميَّزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأنَّ الله حثَّ على الخروج فيها، وعاتب مَنْ تخلَّف عنها، والآيات الكريمة جاءت بذلك كقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقد خُتِمَتِ الغزوات النَّبويَّةُ بهذه الغزوة، وقد كان تطبيقاً عمليّاً لوضع النَّصِّ القرآني في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ...﴾ موضع التَّنفيذ[2].

٢ ـ ميَّز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها، فسمَّاها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾، فقد كانت غزوة عسرةٍ بكلِّ معنى الكلمة.

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص ٤٠٤.
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٧٠٢).

٣ ـ من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة: أنَّ الله ردَّ على المنافقين لَمْزَهُمْ فقراء الصَّحابة عندما جاء أحدُهم بنصف صاعٍ، وتصدَّق به، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

٤ ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ المؤمنين الَّذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ـ وعددُهم يزيد عن الثَّلاثين ألفاً ـ قد كتب الله لهم الأجر العظيم[١]. قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشُّورى، وَقَبِلَ مشورة الصِّدِّيق، والفاروق في بعض النَّوازل الَّتي حدثت في الغزوة، ومن هذه النَّوازل:

أ ـ قبول مشورة أبي بكر الصِّدِّيق في الدُّعاء حين تعرَّض الجيش لعطشٍ شديدٍ:

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطشٌ، حتَّى ظننَّا: أنَّ رقابنا ستنقطع؛ حتَّى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره، فيعتصر فَرْثَه، فيشربه، ثمَّ يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصِّديق: يا رسول الله! إنَّ الله عوَّدك في الدعاء خيراً، فادعُ الله، قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه، فلم يردَّهما حتَّى حالت السَّماء، فأظلَّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. [البزار (١٨٤١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٣١)، والحاكم (١/١٥٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥)].

ب ـ قبول مشورة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعةٌ:

أصابت جيشَ العُسرة مجاعةٌ أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النَّبيَّ ﷺ في نحر إبلهم حتَّى يسدُّوا جَوْعَتَهُم، فلمَّا أذن لهم النَّبيُّ ﷺ في ذلك؛ جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٧٠٣).

هذه المسألة، وهي: أنَّ الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلُهم، وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطَّريق الطَّويل، ثمَّ ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المعضلة، وهو: جمع أزواد القوم، ثمَّ الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتَّى صدر القوم عن بقيَّةٍ من هذا الطعام، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه، وأكلوا حتَّى شبعوا. [سبق تخريجه](١).

٣ ـ قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشَّام، والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ إلى منطقة تبوك، وجد أنَّ الرُّوم فرُّوا خوفاً من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشَّام، فأشار عليه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة، وعلَّل رأيه بقوله: إنَّ للروم جموعاً كثيرةً، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام. ولقد كانت مشورة مباركةً، فإنَّ القتال داخل بلاد الرُّومان يعدُّ أمراً صعباً؛ إذ إنَّه يتطلَّب تكتيكاً خاصّاً؛ لأنَّ الحرب في الصَّحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أنَّ عدد الرُّومان في الشَّام يقرب من مئتين وخمسين ألفاً، ولاشكَّ في أنَّ تجمُّع هذا العدد الكبير في تحصُّنه داخل المدن يعرِّض جيش المسلمين للخطر(١).

إنَّ ممارسة الشُّورى في حياة الأمَّة في جميع شؤونها؛ السِّياسيَّة والعسكريَّة والاجتماعيَّة، منهجٌ تربويٌّ كريمٌ، سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف:

كان خروج الرَّسول ﷺ إلى تبوك بأصحابه فيه فوائدُ كثيرةٌ، منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً، فقطع بهم ﷺ مسافةً طويلةً في ظروفٍ جويَّةٍ صعبةٍ، حيث كانت حرارة الصَّيف اللاهب، بالإضافة إلى الظُّروف المعيشيَّة الَّتي كانوا يعانون منها، فقد كان هناك قلَّةٌ في الماء، حتَّى كادوا يهلكون من شدَّة العطش، وأيضاً كان هناك قلَّةٌ في الزَّاد، والظَّهْر، ولاشكَّ في أنَّ هذه الأمور تعدُّ تدريباً عنيفاً؛ لا يتحمَّله إلا الأقوياء من الرِّجال.

وفي هذا الدَّرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز مواقع، وعراقيل صعبةٍ جدّاً، وقطع مسافاتٍ طويلةٍ في ظروفٍ جوِّيَّةٍ مختلفةٍ، وحرمانٍ من الطَّعام، والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمُّل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، ولقد تحمَّل جيش العُسرَة مشقاتٍ لا تقلُّ صعوبةً عن مشقات هذا التَّدريب العنيف، إن لم تكن أصعب منها بكثيرٍ، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها، وقطعوا مسافاتٍ طويلةً شاقَّةً في صحراء الجزيرة العربيَّة صيفاً، وتحمَّلوا الجوع، والعطش مدَّةً طويلةً.

---

(١) انظر: غزوة تبوك، لباشميل، ص ١٧٦، ١٧٧.

إن غزوة تبوك تدريبٌ عنيفٌ للمسلمين ، كان غرض الرَّسول ﷺ منه إعدادهم لتحمُّل رسالة حماية حرِّية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيَّة ، فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرَّسول ﷺ ، فلابدَّ من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلى»(١) .

وقد ساعد هذا التَّدريب العمليُّ الصَّحابةَ في عصر الخلفاء ، فقاموا بفتح بلاد الشَّام ، وبلاد الفرس بقوَّة إيمانهم ، وثقتهم بخالقهم ، وساعدهم على ذلك لياقتُهم البدنيَّة العالية ، ومعرفتُهم العمليَّة لاستخدام السُّيوف والرِّماح ، وأنواع الأسلحة في زمانهم .

رابعاً : أهم نتائج الغزوة :

يمكن للباحث أن يلاحظ أهمَّ نتائج هذه الغزوة ، وهي :

١ ـ إسقاط هيبة الرُّوم من نفوس العرب جميعاً : مسلمِهم ، وكافرِهم على السَّواء ؛ لأن قوَّة الرُّوم كانت في حسِّ العرب لا تُقاوَم ، ولا تُغْلَب ، ومن ثمَّ فقد فزعوا من ذكر الرُّوم ، وغزوهم ، ولعلَّ الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكِّدةً على ما ترسَّخ في ذهن العربيِّ في جاهليته من أنَّ الرُّوم قوَّةٌ لا تُقهر ، فكان لابدَّ من هذا النَّفير العامِّ لإزاحة هذه الهزيمة النَّفسيَّة من نفوس العرب .

٢ ـ إظهار قوَّة الدَّولة الإسلامية كقوَّةٍ وحيدةٍ في المنطقة ، قادرةٍ على تحدِّي القِوى العظمى عالميّاً ـ حينذاك ـ ليس بدافعٍ عصبيٍّ ، أو عرقيٍّ ، أو تحقيق أطماع زعاماتٍ معاصرةٍ ، وإنَّما بدافعٍ تحريريٍّ ، حيث تدعو الإنسانيَّة إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبوديَّة ربِّ العبادِ ، ولقد حقَّقت هذه الغزوة الغرض المرجوَّ منها بالرَّغم من عدم الاشتباك الحربيِّ مع الرُّوم ، الَّذين آثروا الفرار شمالاً ، فحقَّقوا انتصاراً للمسلمين دون قتالٍ ، حيث أخلوا مواقعهم للدَّولة الإسلاميَّة ، وترتَّب على ذلك خضوعُ النَّصرانيَّة الَّتي كانت تمتُّ بصلة الولاء لدولة الرُّوم مثل إمارة دومة الجندل ، وإمارة أيْلة «مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة» وكتب رسول الله ﷺ بينه وبينهم كتاباً يحدِّد ما لهم ، وما عليهم(٢) ، وأصبحت القبائل العربيَّة الشَّاميَّة الأخرى الَّتي لم تخضع للسَّيطرة الإسلاميَّة في تبوك تتعرَّض بشدَّة للتأثير الإسلاميِّ ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ، ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدَّولة البيزنطيَّة ، أو تحويل هذا الولاء إلى الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، ويعدُّ ما حدث في تبوك نقطةَ البداية العمليَّة للفتح الإسلاميِّ لبلاد الشَّام(٣) ، وإن كانت هناك محاولاتٌ قبلها ، ولكنَّها لم تكن في قوَّة التأثير

(١) انظر : الرَّسول القائد ﷺ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٢) انظر : دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشُّجاع ، ص ٢٠٩ .
(٣) انظر : المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرَّحمن أحمد ، ص ١٢٠ .

كغزوة تبوك ، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عملياتٍ متواصلةٍ لفتح البلدان ، والَّتي واصلها خلفاء رسول الله ﷺ من بعده ، وممَّا يؤكِّد هذا : أنَّ الرَّسول ﷺ قبل موته جهَّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربةٍ موجَّهةٍ صوب الرُّوم ، وطليعةً لجيش الفتح ، وضمَّ هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله ﷺ ، ولكنَّه لم يقم بمهمَّته إلا بعد وفاته ﷺ ، ومع هذا فقد حقَّق الهدف المطلوب منه ، كما سيأتي[١] بإذن الله عند الحديث عن سيرة الصِّدِّيق رضي الله عنه .

لقد وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى ، والخطوات المثلى لفتح بلاد الشَّام ، والفتوحات الإسلاميَّة .

٣ ـ توحيد الجزيرة العربيَّة تحت حكم الرَّسول ﷺ : تأثَّر موقف القبائل العربيَّة من الرَّسول ﷺ والدَّعوة الإسلاميَّة بمؤثِّراتٍ متداخلةٍ ، كفتح مكةَ ، وخيبر ، وغزوة تبوك ، فبادر كلُّ قومٍ بإسلامهم بعدما امتدَّ سلطان المسلمين إلى خطوط التَّماسِّ مع الرُّوم ، ثُمَّ مصالحة نجران في الأطراف الجنوبيَّة على أن يدفعوا الجزية ، فلم يَعُدْ أمام القبائل العربيَّة إلا المبادرة الشَّاملة إلى اعتناق الإسلام ، والالتحاق بركب النُّبوَّة بالسَّمع ، والطَّاعة ، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربيَّة الَّتي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربيَّة بعد عودة النَّبيِّ ﷺ من غزوة تبوك ؛ لتعلن إسلامها هي ، ومن وراءها ، فقد سُمِّيَ العامُ التَّاسع للهجرة في المصادر الإسلاميَّة بـ (عام الوفود)[٢] .

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النَّبيِّ ﷺ الَّتي قادها بنفسه ، فقد كانت حياته المباركة ﷺ غنيَّةً بالدُّروس ، والعبر ، الَّتي تتربَّى عليها أمَّتُه في أجيالها المقبلة، ومليئةً بالدُّروس، والعبر في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة الَّتي تحكم بشرع الله .

* * *

(١) انظر : دراسات في عهد النُّبوة ، للشجاع ، ص ٢٠٩ .
(٢) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٥ ، ٣٩٦) .

المبحث السَّادس
أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجَّة الوداع[١]

أولاً : وفد ثقيفٍ وإسلامُهم :

لمَّا انصرف الرَّسول ﷺ عن الطَّائف اتَّبع أثره عروة بن مسعود الثَّقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم ، ورجع إلى قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فرموه بالنَّبل ، فأصابه سهم فقتله ، ثمَّ إنَّهم رأوا : أنَّه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب الَّذين أسلموا ، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله ﷺ ، فقدم عليه ستَّةٌ منهم ، في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تِسْعٍ[٢] .

وكان الوفد يتكوَّن من ستَّةٍ من كبار بني مالك ، والأحلاف ، ثلاثةٌ لكلٍّ منهما ، وعلى رأسهم جميعاً عبدُ يَالَيْلَ بـن عمرو[٣] ، وتكوين هذا الوفـد على هذا النَّحو يدلُّ على فكرٍ سياسيٍّ عميق؛ ذلك لأنَّ ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أميَّة للتوسُّط في إقرار الصُّلح مع الرَّسول ﷺ بسبب علاقة بني أميَّة التَّاريخيَّة بالأحلاف[٤] .

كان الصَّحابة يعرفون اهتمام الرَّسول ﷺ بإسلام ثقيفٍ ، ولذلك ما إن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة؛ حتَّى تنافس كلٌّ من أبي بكرٍ ، والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرَّسول ﷺ ، وتنازل المغيرةُ لأبي بكرٍ[٥] .

واستقبل الرَّسول ﷺ الوفد راضيـاً ، وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن ، ويروا النَّاس إذا صلَّوا ، وكانت ضيافتهم على رسول الله ﷺ ، وكانوا يفدون على رسول الله ﷺ كلَّ يومٍ ، ويخلِّفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم ، فكان عثمان كلما رجعوا ، وقالُوا بالهاجرة ، عمد إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الدِّين ، واستقرأه القرآن، حتى فقه في الدِّين، وعلم ، وكان

---

(١) ينظر الشكل (٢١) في الصفحة (٧٦٥) .
(٢) انظر : رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر ، ص ١٩٩ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٩٣) .
(٤) انظر : رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د. حسين محمد ، ص ٧٦ .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٩٣) .

إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ، وعجب منه، وأحبَّه[١].

ومكث الوفد أياماً يختلفون إلى النَّبيِّ ﷺ، والنَّبيُّ ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد يَالَيْلَ: هل أنت مقاضينا حتَّى نرجع إلى أهلنا، وقومنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام؛ قاضيتكم، وإلا فلا قضيَّة، ولا صلح بيني وبينكم».

قال عبدُ يَالَيْلَ: أرأيت الزِّنى؟ فإنَّا قوم عُزَّاب بغَرْبٍ[٢] لابدَّ لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة، قال: «هو ممَّا حرَّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]».

قال: أرأيت الرِّبا؟ قال: «الرِّبا حرام!» قال: فإنَّ أموالنا كلَّها رباً، قال: «لكم رؤوس أموالكم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]».

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا، لابدَّ لنا منها.

قال: «فإنَّ الله قد حرَّمها!» ثمَّ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبدُ يَالَيْلَ: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثَّلاث! والله لا تصبر ثقيفٌ عن الخمر أبداً، ولا عن الزنى أبداً.

قال سفيان بن عبد الله: أيُّها الرَّجل! إنْ يرد الله بها خيراً تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا، وتركوا ما كانوا عليه، مع أنَّا نخاف هذا الرجل، قد أوطَأ الأرض غلبةً، ونحن في حصنٍ في ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاشٍ، والله! لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكَّة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتَّى كتبوا الكتاب، وكان خالد هو الَّذي كتبه، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم الطَّعام، فلا يأكلون منه شيئاً حتَّى يأكل منه رسول الله ﷺ؛ حتَّى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة، ما ترى فيها؟ قال: «هَدْمَها».

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، والمغازي، للواقديِّ، ص ٦٧٠.

(٢) أي: نذهب إلى بلادٍ بعيدةٍ.

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا هدمها[١] قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إنَّ الرَّبَّة حجرٌ لا يدري مَنْ عَبَدَهُ ممَّن لا يعبدُه.

قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر! فأسلموا، وكمل الصُّلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلمَّا كمُل الصُّلح، وكتبوه؛ كلَّموا النَّبيَّ ﷺ يدع الرَّبَّة ثلاث سنين، لا يهدُمها، فأبى، قالوا: سنتين! فأبى، قالوا: سنة! فأبى، قالوا: شهراً واحداً! فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً، وإنَّما يريدون بترك الرَّبة لما يخافون من سفهائهم، والنِّساء، والصِّبيان، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها، فسألوا النَّبيَّ ﷺ أن يعفيهم من هدمها[٢]، فوافق رسول الله ﷺ على طلبهم ذلك، وسألوا النَّبيَّ ﷺ أن يعفيهم من الصَّلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين لا صلاة فيه» [أحمد (٤/ ٢١٨)، وأبو داود (٣٠٢٦)، والطيالسي (٩٣٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠١)][٣].

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله ﷺ من بعض الفرائض، وأن يحلِّل لهم بعض المحرَّمات، إلا أنَّهم فشلوا في طلباتهم، وخضعوا للأمر الواقع[٤].

وقد أكرم رسول الله ﷺ وِفَادَتَهُم، وأحسن ضيافتهم في قدومهم، وإقامتهم وعند سفرهم، وأمَّرَ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطَّائف، فقد كان أحرصَهم على تعلُّم القرآن، والتَّفقُّه في الدِّين، وكان أصغرهم سنّاً[٥]. ولقد تأثَّر الوفد من معاملة النَّبيِّ ﷺ، ومن اختلاطهم بالمسلمين، حتَّى إنَّهم صاموا ما بقي عليهم من شهر، ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً، ثمَّ رجعوا إلى الطَّائف[٦]، وبعد رجوعهم جهَّز رسول الله ﷺ سريَّةً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومشاركة المغيرة بن شعبة[٧] رضي الله عنه، وأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه[٤] وبعثهم في أثر الوفد[٨].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدُّخول في الإسلام، وأخبروهم بمصير اللَّات، وإذا بالسَّريَّة قد وصلت إلى الطَّائف، ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً

---

(١) أي: أسرعنا السَّير في السَّفر.
(٢) انظر: المغازي، للواقدي (٣/ ٩٦٨)، والبداية والنهاية، لابن كثير.
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ، للحميديِّ (٨/ ٥٠)، والمغازي، للواقديِّ (٣/ ٩٦٨)، والسِّيرة، لابن هشام، والمبسوط، للسَّرخسي.
(٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة، ص ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣.
(٥) انظر: السِّيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٩).
(٦) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥١٩، ٥٢٠).
(٧) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ١٩٥).
(٨) انظر: دلائل النُّبوَّة، للبيهقيِّ (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

يهدمون الرَّبَّة[(١)] ، وكان ذلك تحت حراسةٍ مشدَّدةٍ من قومه بني مَعَتِّب الَّذين قاموا دونه؛ خشية أن يُرمى، أو يُصاب كما أصيب عروة بن مسعود[(٢)] ، وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها؛ رجالها ، ونساؤها ، وصبيانها حتَّى الأبكار من خدورهنَّ ، وكانوا لقرب عهدهم بالشِّرك لا ترى عامَّة ثقيف أنَّها مهدومة ، ويظنُّون أنَّها ممتنعة[(٣)] .

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابةٌ ، وظرفٌ ، فقال لأصحابه: والله لأضحكنَّكُم من ثقيف ، فضرب بالفأس ، ثمَّ سقط يركض ، فارتج أهل الطَّائف بصيحةٍ واحدةٍ ، وقالوا: أبعد الله المغيرة ، فقد قتلته الرَّبَّة ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً[(٤)]، وقالوا مخاطبين أفراد السَّريَّة: مَنْ شاء منكم فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله! لا تستطاع أبداً ، فوثب المغيرة بن شعبة ، وقال: قبَّحكم الله يا معشر ثقيف! إنَّما هي لُكاع[(٥)]؛ حجارةٌ ومَدَرٌ ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه[(٦)] .

أكمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ومن معه هدم الطَّاغية حتَّى سوَّوها بالأرض ، وكان سادنها واقفاً على أحرِّ من الجمر؛ ينتظر نقمة الرَّبَّة ، وغضبها على هؤلاء العُصاة[(٧)] ، فما إن وصلوا إلى أساسها حتَّى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها ، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم[(٨)] ، فلمَّا سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السُّخف قال لقائد السَّريَّة: دعني أحفر أساسها ، فحفره حتَّى أخرجوا ترابها ، وانتزعوا حُلِيَّها ، وأخذوا ثيابها ، فَبهِتَتْ ثقيفٌ[(٩)] ، وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوةٌ على أعينهم[(١٠)] .

وأقبل الوفد حتَّى دخلوا على رسول الله ﷺ بحليِّها ، وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من

---

(١) المغازي (٣/ ٦٧١).
(٢) انظر: دلائل النُّبوَّة (٥/ ٣٠٤).
(٣) انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠ ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان من سنة تسع من الهجرة).
(٤) انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان من سنة تسع من الهجرة).
(٥) لكاع عند العرب: العبد ، ثم استعمل في الحمق ، والذَّم.
(٦) البداية والنِّهاية لابن كثير (قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان من سنة تسع من الهجرة) ، ودلائل النُّبوة (٥/ ٣٠٣).
(٧) انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠.
(٨) انظر: المغازي (٣/ ٩٧٢) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير.
(٩) انظر: دلائل النُّبوة (٥/ ٣٠٣) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير.
(١٠) انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ ، والبداية والنهاية لابن كثير.

يومه ، وحمدوا الله على نصرة نبيِّه ، وإعزاز دينه[١] .

وتمَّ القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، وحلَّ محلَّها بيتٌ من بيوت الله ـ عزَّ وجل ـ يوحَّد فيه الرَّبُّ الَّذي لا إله إلا هو ، وذلك بتوجيهٍ كريمٍ من رسول الله ﷺ إلى عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه[٢] عامله على الطَّائف حيث أمره «بأن يجعل مسجد الطَّائف حيث كان طاغيتهم» [أبو داود (٤٥٠) ، وابن ماجه (٧٤٣)] .

ثانياً : وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول) :

مرض عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، في ليالٍ بَقِين من شوَّال ، ومات في ذي القعدة من السَّنة التاسعة[٣] .

قال أسامة بن زيد : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبيٍّ في مرضه نعوده ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : قد كنت أنهاك عن حبِّ يهود ، فقال عبد الله : فقد أبغضهُم سعد بن زرارة ، فمات .

ولمَّا توفي عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثمَّ سأله أن يصلِّيَ عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلِّي عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! تصلِّي عليه ، وقد نهاك ربُّك أن تُصلي عليه ، فقال رسول الله ﷺ : إنَّما خيَّرني الله فقال : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة : ٨٠] ، وسأزيده على السَّبعين ، قال : إنَّه منافق ، قال : فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ آية : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة : ٨٤]. [البخاري (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٤٠٠)] .

وإنَّما صلَّى عليه رسولُ الله ﷺ إجراءً له على حكم الظَّاهر ، وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله ـ وكان من خيار الصَّحابة ، وفضلائهم ـ وهو الذي عرض على النَّبيِّ ﷺ أن يقتل أباه لمَّا قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق ، كما بيَّنَّا ، ولما فيه من مصلحةٍ شرعيَّة ، وهو تأليف قلوب قومه ، وتابعيه ، فقد كان يدين له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ من المنافقين ، فعسى أن يتأثَّروا ، ويرجعوا عن نفاقهم ، ويعتبروا ، ويخلصوا لله ، ولرسوله ، ولو لم يُجِبْ ابنه ، وترك الصَّلاة عليه قبل ورود النَّهي الصَّريح ، لكان سُبَّةً ، وعاراً على ابنه ، وقومه ، فالرَّسول

(١) انظر : تاريخ ابن شيبة (٢/ ٥٠٧) نقلاً عن السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ .
(٢) انظر : السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ .
(٣) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٦٥٩ .

الكريم ﷺ اتَّبع أحسن الأمرين في السِّياسة ، إلى أن نُهيَ فانتهى[١] .

وأمَّا إعطاؤه ﷺ القميص؛ فلأنَّ الضَّنَّ به يُخِلُّ بالكرم ، وقد كان مِنْ خُلُق رسول الله ﷺ ألاَّ يرد طالبَ حاجةٍ قطُّ ، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول ﷺ قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر ، وكان من خلق رسول الله ﷺ وآل بيته ردُّ الجميل بخير منه[٢] .

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النِّفاق في المدينة ، حتَّى إنَّنا لم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة ، ولم يبقَ إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله ﷺ حُذيفة بن اليمان[٣] ، وكان عمر فيما بعد لا يصلِّي على جنازة مَنْ جَهِل حالَه حتَّى يصلِّي عليه حذيفة بن اليمان؛ لأنَّه كان يعلم أعيان المنافقين ، وقد أخبره رسول الله ﷺ بهم[٤] .

كان العام التَّاسع حاسماً لحركة النفاق في المجتمع الإسلاميِّ ، فقد وصل النِّظام الإسلاميُّ إلى قوَّته ، ومن ثمَّ لابدَّ من تحديد إطار التَّعامل مع كلِّ القِوى بوضوح[٥] ، ولهذا عبَّر الإمام ابن القيِّم عن خطَّة الإسلام أمام المنافقين: «فإنَّه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم ، والحجَّة ، وأُمِر أن يُعرض عنهم ، ويُغلِظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونُهيَ أن يصلِّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأُخبر: أنَّه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[٦] .

وجاءت هذه الخطَّة وفق النُّصوص القرآنيَّة الَّتي احتوتها سورة التَّوبة «براءة» «الفاضحة» حيث يستغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصف السُّورة ، فيفضح نواياهم ، وأعمالهم ، ووصف أحوالهم النَّفسيَّة والقلبيَّة ، وموقفهم في غزوة تبوك ، وقبلها ، وفي أثنائها ، وما تلاها ، وكشْف حقيقة حيلهم ، ومعاذيرهم في التَّخلُّف عن الجهاد ، وبثِّ الضعف ، والفتنة ، والفرقة في الصُّفوف ، وإيذاء رسول الله ﷺ بالقول ، والعمل[٧] .

ومن أهم الأحكام الَّتي برزت في هذه المرحلة ضدَّ المنافقين:

١ ـ عدم الصَّلاة على مَنْ مات منهم ، ودمغُهم بالكفر:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٣٣ ، ٥٣٤) .
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢١ ، ٦٢٢ ، والسِّيرة لأبي شهبة (٢/ ٥٣٤) .
(٣) انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١ .
(٤) انظر: من معين السِّيرة النبوية ، ص ٤٦٤ .
(٥) انظر: دراسات في عهد النَّبوَّة ، ص ٢١٩ .
(٦) زاد المعاد (٢/ ٩١) .
(٧) انظر: المنافقون ، لمحمد جميل غازي ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٤ ـ ٨٥].

٢ ـ تهديم مسجدهم الَّذي بنوه للإضرار بين المسلمين:

وهو مسجد الضِّرار، وقد تحدَّثت عنه فيما مضى بنوعٍ من التفصيل.

٣ ـ إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، وسواءٌ أكان الجهاد بالقتال، أم في المعاملة، والمواجهة، والكشف، والفضح، فإنَّ طريقة التَّعامل مع المنافقين بعد سورة براءة غير المعاملة قبلها.

٤ ـ الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح:

كما جاء في سورة التَّوبة أيضاً، فهم الَّذين قالوا تثبيطاً للمسلمين: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّۗ﴾ [التوبة: ٨١]، وهم الَّذين يلمزون المطَّوِّعين في الصَّدقات، ويؤذون رسول الله ﷺ في القول، والفعل..... إلخ[١].

هذه معالم المنهج النَّبويِّ في التعامل مع حركة النِّفاق في المجتمع الإسلاميِّ في العام التَّاسع الهجريِّ.

ثالثاً: تخيير النَّبيِّ ﷺ لزوجاته (دروسٌ من بيوتات الرَّسول ﷺ):

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وقد دلَّت الأحاديث الصَّحيحة على أن نزول هاتين الآيتين كان بعد اعتزال النَّبيِّ ﷺ لنسائه، بعد أن أقسم ألاَّ يدخل عليهنَّ شهراً، فاعتزلهن في مَشْرُبَةٍ له، وهي القصَّة المعروفة بقصَّة إيلائه[٢] من نسائه، وكان تاريخ نزول هذه الآيات في العام التاسع للهجرة[٣].

وأمَّا سبب نزولها، فهو طلب زوجاته ﷺ التَّوسعة عليهنَّ في النَّفقة، فقد أخرج مسلمٌ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأُذِن لأبي بكرٍ فدخل، ثمَّ أقبل عمر، فاستأذن، فأُذِن له، فوجد

(١) انظر: دراسات في عهد النُّبوة، للشُّجاع، ص ٢٢٠.
(٢) الإيلاء: الحلف، قضايا نساء النَّبي ﷺ والمؤمنات، ص ٥١.
(٣) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ ﷺ والمؤمنات، ص ٦٨.

النَّبيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً(١) ساكتاً ، قال: فقال: لأقولنَّ شيئاً أُضحك النَّبيَّ ﷺ ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنتَ خارجةَ(٢) سألتني النَّفقة فقمتُ إليها ، فوجأت عنقَها(٣) ، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هنَّ حولي كما ترى يسألنني النَّفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يَجَأ عنقها ، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده ، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده ، ثمَّ اعتزلهن شهراً ، أو تسعاً وعشرين ، ثمَّ نزلت عليه هذه الآية» [مسلم (١٤٧٨) ، وأحمد (٣/٣٢٨)].

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله ﷺ تجري على وتيرةٍ واحدةٍ ، بالرَّغم من إمكانية التَّوسُّع في بعض الأحيان، ونساء الرَّسول ﷺ من البشر، يرغبن ما يرغب فيه النَّاس ، ويشتهين ما يشتهيه النَّاس(٤) ، فقد كانت مساكنهنَّ متواضعةً بسيطةً غاية البساطة، فقد وصفها الدُّكتور أبو شهبة فقال: إنَّ الرَّسول ﷺ بنى حُجَراً حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له ، ولأهله ، ولم تكن الحُجَرُ كبيوت الملوك ، والأكاسرة، والقياصرة، بل كانت بيوت مَنْ ترفَّع عن الدُّنيا، وزخرفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبِن ، والطِّين ، وبعض الحجارة ، وسقوفها من جذوع النَّخل والجريد ، قريبة الفناء ، قصيرة البناء ، ينالها الغلام الفارع بيده.

قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ: قد كنت أنالُ أطولَ سقف في حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ بيدي ، وكان لكلِّ حُجْرَةٍ بابان: خارجيٌّ ، وداخليٌّ من المسجد؛ ليسهلَ دخولُ النَّبيِّ ﷺ إليه(٥).

وأمَّا الإضاءة: فلم يكن هناك مصباحٌ يستضاء به ، يدل على ذلك ما رواه البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها ، قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد؛ غمزني ، فقبضت رجليَّ ، فإذا قام؛ بسطتُهما ، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح. [البخاري (٣٨٢) ، ومسلم (٥١٢/ ٢٧٢)].

أمَّا الفراش ـ الَّذي يأوي إليه هذا النَّبيُّ عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم ـ فهو عبارة عن رُمالِ حصيرٍ ، ليس بينه وبينه فراشٌ ، قد أثر الرُّمال بجنبه ، متكئ على وسادةٍ مِنْ أَدَمٍ ، حشوها

---

(١) واجماً: هو الَّذي اشتدَّ حزنَّه حتى أمسك عن الكلام.

(٢) بنت زيد ، امرأة عمر ، جميلة بنت ثابت ، نسبها عمر إلى أحد أجدادها.

(٣) فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.

(٤) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٦٥.

(٥) البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، فصل: (بناء الحجرات لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف) ، وانظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء القرآن والسُّنَّة (٢/ ٣٥ ـ ٣٦).

ليفٌ. [البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢)]. فقد كانت معيشته ﷺ تدلُّ على الشدَّة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أعلم النَّبيَّ ﷺ رأى رغيفاً مرقَّقاً(١) حتَّى لحق بالله، ولا رأى شاةً سميطاً(٢) بعينه قطُّ. [البخاري (٦٤٥٧)].

وعن عائشة؛ قالت: إنْ كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ، فقال لها عروة بن الزُّبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التَّمر، والماء. [البخاري (٦٤٥٩)].

هذا؛ وقد فتح الله على المسلمين بعد خيبر، وفتح مكَّة، وغزوة تبوك، وقد قرأت زوجات النَّبي ﷺ آياتٍ في كتاب الله تبيح التَّمتُّع بنعم الله دون إسراف، فرغبن أن ينالهنّ حظٌّ من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وحضَّ على أكل الطَّيبات من الرِّزق، قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ودعا إلى التوسُّط في الإنفاق، والاعتدال فيه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، إلا أنَّ هناك جانباً آخر يتعلَّق به ﷺ، ونمطاً من المعيشة اختاره بتوجيهٍ من ربِّه عزَّ وجلَّ، فلم يلتفت لشيءٍ من هذا، كما أدَّبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ولذلك جاءت آيات التَّخيير، فوقفت زوجاتُه ﷺ من قضيَّة التَّخيير موقفاً حاسماً لا تردَّد فيه، فإنَّهنَّ اخترن الله ورسولَه، والدَّار الآخرة، فقد كنَّ يطلبن منه ﷺ التَّوسعة في النَّفقة، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن، فلمَّا وصل الأمر إلى وضعهنَّ أمام خيارين: الحياة الدُّنيا، وزينتها، أو الله، ورسوله، والدَّار الآخرة؛ لم يتردَّدن لحظةً واحدةً في سلوك الخيار الثَّاني بل قلن جميعهنَّ بصوتٍ واحد: نريد الله، ورسولَه والدَّار الآخرة(٣).

---

(١) مرققاً: رقيقاً، ضدَّ الغليظ.

(٢) سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخَّن، وشوي.

(٣) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ ﷺ والمؤمنات في سورة الأحزاب، ص ٧٧.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمَّا أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه؛ بدأ بي، فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، فلا عليك ألاَّ تعجلي حتَّى تستأمري أبويك»، قالت: وقد علم أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثمَّ قال: «إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] قالت: فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبويَّ؟ فإنِّي أريد الله ورسولَه والدَّار الآخرة، قالت: ثمَّ فعل أزواجُ رسول الله ﷺ مثلَ ما فعلتُ. [البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٥٧)].

وهكذا تتجلَّى في موقفهنَّ رضي الله عنهنَّ صورةٌ ناصعةٌ لقوَّة الإيمان، واختبارٌ حقيقيٌّ للإخلاص، والصِّدق مع الله تعالى، فإنَّ قوله تعالى في الآية الأولى من آيتي التَّخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ﴾، كالوعد بحصولهن على مبتغاهنَّ في الحياة الدُّنيا وزينتها ـ إن اخترن ذلك ـ ولكنَّهنَّ رفضن هذا، واخترن الله، ورسولَه، والدَّار الآخرة. وفي قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يَنَلْنَه من الأجر سببه كونهنَّ محسناتٍ، ومن ذلك اختيارهنَّ الله، ورسوله، والدَّار الآخرة؛ إذ لا يكفي لحصولهنَّ على هذا الأجر كونهنَّ زوجاتٍ للرَّسول ﷺ[1].

وتنكير الأجر، ثمَّ وَصْفُه بأنه عظيم فيه ترغيبٌ لهنَّ بالكفِّ عن التطلُّع إلى الحياة الدُّنيا وزينتها، فهذا الأجر لا يقدِّر قدره إلا الله، وهو شاملٌ لخيري الدُّنيا والآخرة[2].

ولقد اعتبر الخلفاء الرَّاشدون قصَّة التَّخيير تلك مَعْلَماً من معالم الإسلام، ومنهجاً نبويّاً كريماً ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمَّة.

وإنَّ النَّظرة الفاحصة في التاريخ لَتُبَيِّنُ: أنَّ هذا الجانب يعدُّ معياراً دقيقاً به يُعرف القرب من الاستقامة، أو البعدُ عنها، وقد فهم قادة الأمَّة المؤمنون ـ حينما وُجدوا ـ على امتداد تاريخ الإسلام، أهمِّية هذا الجانب، فرعَوْه حقَّ رعايته، وإنَّ الأمثلة العمليَّة من تاريخ الخلافة الرَّاشدة هي من الوفرة، والكثرة بمكانٍ، بحيث لا تُتْعِبُ الباحث في التَّفتيش عنها[3].

إنَّ قيادة الأمَّة تكليفٌ، ومَغْرمٌ، وليست مغنماً، ولابدَّ لِلَّذين يتولَّونها أن يحسبوا أهمية

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٩.
(٢) انظر: تفسير السَّعدي (٤/١٤٨).
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٧/١٣٦).

التَّعالي على حطام الدُّنيا ، والشَّوق إلى الله ، والدَّار الآخرة[١] .

رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس :

كانت تربية المجتمع، وبناء الدَّولة في عصر النَّبيِّ ﷺ مستمرَّةً في جميع الأصعدة، والمجالات العقائديَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والعسكريَّة ، والتَّعبديَّة ، وكانت فريضة الحجِّ لم تُمارس في السَّنوات الماضية ، فحجَّةٌ عام (٨ هـ) بعد الفتح كُلِّف بها عَتَّابُ بن أَسِيْدٍ ، ولم تكن قد تميَّزت حجَّة المسلمين عن حجَّة المشركين[٢] ، فلمَّا حل موسم الحج أراد ﷺ الحجَّ ، ولكنَّه قال: «إنَّه يحضر البيت عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت ، فلا أحبُّ أن أحجَّ حتَّى لا يكون ذلك» ، فأرسل ﷺ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسعٍ ، فخرج أبو بكر ، ومعه عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة[٣] ، وساقوا معهم الهدي[٤] .

فلمَّا خرج الصِّدِّيق بركب الحجيج ؛ نزلت سورة براءة ، فدعا النَّبيُّ ﷺ عليّاً رضي الله عنه ، وأمره أن يلحق بأبي بكرٍ الصِّدِّيق ، فخرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء ؛ حتَّى أدرك الصِّدِّيق أبا بكرٍ بذي الحليفة ، فلمَّا رآه الصِّدِّيق ، قال له: أميرٌ أم مأمور؟ فقال: بل مأمور ، ثمَّ سارا ، فأقام أبو بكرٍ للنَّاس الحجَّ على منازلهم ؛ الَّتي كانوا عليها في الجاهليَّة ، وكان الحجُّ في هذا العام في ذي الحجَّة ـ كما دلَّت على ذلك الرِّوايات الصَّحيحة ـ لا في شهر ذي القعدة كما قيل .

وقد خطب الصِّدِّيق قبل التَّروية ، ويوم عرفة ، ويوم النَّحر ، ويوم النفر الأوَّل ، فكان يعرِّف النَّاس مناسكهم: في وقوفهم ، وإفاضتهم ونحرهم ، ونفرهم ، ورميهم للجمرات. . . . إلخ ، وعليٌّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف ، فيقرأ على النَّاس صدر سورة براءة ، ثم ينادي في النَّاس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدَّته ، ولا يحجُّ بعد العام مشرك . [أحمد (١/ ٧٩) ، والترمذي (٨٧١ و٣٠٩٢) ، وأبو يعلى (٤٥٢)][٥] .

وقد أمر الصِّدِّيق أبا هريرة في رهطٍ آخر من الصَّحابة لمساعدة عليِّ بن أبي طالب في إنجاز مهمَّته[٦] .

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٧٥ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٣٦) ، ودراساتٌ في عهد النُّبوة ، ص ٢٢٢ .

(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٨) ، والطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨) .

(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٨٢) .

(٥) البداية والنِّهاية، لابن كثير ، ذكر بعث رسول الله ﷺ أبا بكرٍ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسع، ونزول سورة براءة ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢٥ .

(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٣٧) .

إنَّ نزول صدر سورة براءة يمثِّل مفاصلةً نهائيَّة مع الوثنيَّة ، وأتباعها ، حيث منعت حجَّهم ، وأعلنت الحرب عليهم[١] .

قال الله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ١ ـ ٣] .

وقد أُمْهِلَ المعاهدون لأجلٍ معلوم منهم إلى انتهاء مدَّتهم فقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] .

كما أمهل مَنْ لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، حيث يصبحون بعدها في حالة حربٍ مع المسلمين ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] .

وقد كلَّف النَّبيُّ ﷺ عليّاً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحجِّ ، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ، ونقضها ألاَّ يتولَّى ذلك سيِّد القبيلة ، أو رجل مِنْ رهطه ، وهذا العرف ليس فيه منافاةٌ للإسلام ، فلذلك تدارك النَّبيُّ ﷺ الأمر ، وأرسل عليّاً بذلك ، فهذا هو السَّبب في تكليف عليٍّ بتبليغ صدر سورة براءة ، لا ما زعمه بعضُهم من أن ذلك للإشارة إلى أنَّ عليّاً أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ ، وقد علَّق على ذلك الدُّكتور محمد أبو شهبة ، فقال : ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصِّدِّيق له : أميرٌ أم مأمور؟[٢] وكيف يكون المأمورُ أحقَّ بالخلافة من الأمير[٣]؟!

وقد كانت هذه الحجَّة بمثابة التَّوطئة للحجَّة الكبرى ، وهي حجَّة الوداع[٤] ؛ لقد أُعْلِن في حجَّة أبي بكر : أنَّ عهد الأصنام قد انقضى ، وأنَّ مرحلةً جديدةً قد بدأت ، وما على النَّاس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى ، فبعد هذا الإعلان الَّذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة ، أيقنت

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٩) .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٢٤ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٤٠) .

تلك القبائل أنَّ الأمر جَدٌّ ، وأنَّ عهد الوثنيَّة قد انقضى فعلاً ، فأخذت ترسل وفودها معلنةً إسلامها ، ودخولها في التَّوحيد(١) .

خامساً : عام الوفود (٩ هـ)(٢) :

لمَّا افتتح رسول الله ﷺ مكَّة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، وضرب رسول الله ﷺ أمد أربعة أشهرٍ لقبائل العرب المشركين ، لكي يقرِّروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتَّخذ الدَّولة الإسلاميَّة منهم موقفاً معيَّناً ، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كلِّ وجهٍ معلنةً إيمانها ، وولاءها(٣) ، وقد اختلف العلماء في تاريخ مَقْدَمِ الوفود على رسول الله ﷺ وفي عددها ، حيث أشارت المصادر الحديثيَّة ، والتَّاريخيَّة إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخٍ مبكرٍ عن السَّنة التَّاسعة ، ولعلَّ ذلك ممَّا أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفداً عند البعض ، ويرتفع فيبلغ أكثر من مئة وفدٍ عند آخرين ، ولعلَّ البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم(٤) ، فقد أورد محمَّد بن إسحاق : أنَّه : لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة المكرَّمة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ؛ ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه(٥) .

وقد استقصى ابن سعدٍ في جمع المعلومات عن الوفود ، كما فصَّل كثيراً ، وقدَّم ترجماتٍ وافيةً عن رجال الوفود ، ومن كانت له صحبةٌ منهم ، وما ورد عن طريقهم من آثار ، ولا تخلو أسانيد ابن سعدٍ ـ أحياناً ـ من المطاعن ، كما أنَّ فيها أسانيد من الثِّقات أيضاً(٦) ، ولاشكَّ في أنَّ الأخبار الَّتي أوردها المؤرِّخون ليست ثابتةً بالنَّقل الصَّحيح المعتمد وفق أساليب المحدِّثين ، برغم أنَّ عدداً كبيراً من المرويَّات عن تلك الوفود ثابتةٌ ، وصحيحةٌ(٧) ؛ فقد أورد البخاريُّ معلوماتٍ عن وفد قبيلة تميم ، وقدومه إلى النَّبي ﷺ ، ووفود أخرى مثل : عبد القيس ، وبني حنيفة ، ووفد نجران ، ووفد الأشعريين ، وأهل اليمن ، ووفد دَوْسٍ [البخاري (٤٣٦٥ و٤٣٦٨ ، و٤٣٧٢ و٤٣٩٢)] ، وتعزَّزت أخبار هذه الوفود بمعلوماتٍ إضافيَّةٍ ، وردت في مصادر تاريخيَّةٍ إلى جانب ما ورد عنها في كتب السِّيَر والمغازي(٨) ، وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود

---

(١) انظر : قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣ .
(٢) ينظر الشكل (٢٢) في الصفحة (٧٦٦) .
(٣) انظر : قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٤ .
(٤) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٦) .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٤٦ ـ ٤٧) .
(٦) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٧) .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٤٢) .
(٨) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٤٠ ـ ٩٨) .

المذكورة آنفاً[١] ، كما أوردت بقيَّة الكتب السِّتَّة معلوماتٍ أوسع ، شملت عدداً كبيراً من الوفود[٢] .

إنَّ قصص الوفود ، وأخبارها ، وكيفيَّة تعامل رسول الله ﷺ معها من الأهميَّة بالمكان الكبير[٣] ، وتبقى مسألة الحاجة الماسَّة إلى نقدٍ تاريخيٍّ لمتون الأخبار المفصَّلة الَّتي وصلتنا عن الوفود[٤] ، فلقد تركت لنا تلك الأخبار ، والقصص منهجاً نبويّاً كريماً في تعامله ﷺ مع الوفود ، يمكننا الاستفادة من هديه ﷺ في تعامله مع النَّفسيَّة البشريَّة ، وتربيته ، ودقَّته ، وتنظيمه ، ففيها ثروةٌ هائلةٌ من الفقه الَّذي يدخل في دوائر التَّعليم والتَّربية ، والتَّثقيف وبُعْد النَّظر وجمع القلوب على الغاية ، وربط أفرادٍ بأعيانهم بالمركز بحيث تبقى في كلِّ الظُّروف ، والأحوال مرتكزاتٌ قويَّةٌ إلى الإسلام ، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كلِّ الحقول نفسيّاً ، واجتماعيّاً ، واقتصاديّاً ، وإداريّاً وسياسيّاً ، وعسكريّاً ، تعطي لكلِّ عاملٍ في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه ، وتغنيه[٥] .

هذا وقد تميَّز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة ، وقد استعدَّت الدَّولة الإسلاميَّة لاستقبالهم، وتهيئة المناخ التَّربويِّ لهم، وقد تمثَّل هذا الاستقبال بتهيئة مكان إقامة لهم، وكانت هناك دارٌ للضِّيافة[٦] ، ينزل فيها الوافدون ، وهناك مسجدُ رسول الله ﷺ الَّذي كان ساحةً للاستقبال ، ثمَّ كان هناك تطوُّعٌ ، أو تكليف رسول الله ﷺ لأحد الصَّحابة باستضافة بعض القادمين[٧] .

واهتمَّ ﷺ بتلك الوفود ، وحرَص على تعليمها ، وتربيتها ، وقد كانت تلك الوفود حريصةً على فهم الإسلام ، وتعلُّم شرائعه ، وأحكامه ، وآدابه ، ونظمه في الحياة ، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عمليّاً ، جعلهم نماذج حيّة لفضائله ، وقد كان لكثيرٍ منهم سؤالاتٌ عن أشياء كانت شائعةً بينهم؛ ابتغاء معرفة حلالها ، وحرامها ، وكان النَّبيُّ ﷺ حريصاً أشدَّ الحرص على تفقيههم في الدِّين ، وبيان ما سألوه عنه ، وكان ﷺ يُدني منهم مَنْ يعلم منه زيادة حِرْصٍ على القرآن العظيم ، وحفظ آياته تفقُّهاً فيه ، ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم»[٨] .

---

(١) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: الأساس في السُّنَّة ، السِّيرة النَّبويَّة (٢/ ١٠١٤).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٤٤).
(٥) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ١٠١٤).
(٦) انظر: المدينة النَّبويَّة ، فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي ، لمحمد شُرّاب (٢/ ٤٠٠).
(٧) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١.
(٨) انظر: محمَّد رسول الله ، صادق عرجون (٤/ ٥٢٠).

وكان ﷺ يسأل عمَّن يُعْرَف مِنْ شرفائهم ، فإذا رغبوا في الرَّحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحقِّ ، وحثَّهم على الاعتصام بالصَّبر ، ثمَّ يجزيهم بالجوائز الحسان ، ويسوِّي بينهم ، فإذا رجعوا إلى أقوامهم ؛ رجعوا هُداةً دعاةً ، مشرقةً قلوبهم بنور الإيمان ، يعلِّمونهم ممَّا عُلِّموا ، ويحدِّثونهم بما سمعوا ، ويذكرون لهم مكارم النَّبيِّ ، وبرَّه ، وبِشْرَه ، واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه ، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم ، وتحاببهم ، ومواساة بعضهم بعضاً ؛ ليثيروا في أنفسهم الشَّوق إلى لقاء رسول الله ﷺ ، ولقاء أصحابه ، ويحبِّبوا إليهم التأسِّي بهم في سلوكهم ، ومكارم أخلاقهم[١] ، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيَّتها ؛ كوفد نصارى نجران ، ووافقت على دفع الجزية ، ونحاول أن نتحدَّث عن بعض الوفود ؛ لما في ذلك من الفقه ، والدُّروس ، والعبر ؛ كوفد عبد قيس ، وبني سعد بن بكر ، ووفد نصارى نجران :

أ ـ وفد عبد القيس :

وقد تحدَّث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن قدومهم ، فقال : إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «مَن الوفد؟ ـ أو : مَنِ القوم؟» قالوا : ربيعة قال : «مرحباً بالقوم[٢] ـ أو : بالوفد ـ غير خزايا ، ولا نَدَامَى[٣]» . قال : فقالوا : يا رسول الله! إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدةٍ[٤] ، وإنَّ بيننا وبينك هذا الحيُّ من كفَّار مضر ، وإنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهرٍ حرام ، فمرنا بأمرٍ فصلٍ[٥] نخبر به مَنْ وراءنا ، ندخل به الجنَّة ، وسألوه عن الأشربة . قال : فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربعٍ ، قال : أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا : الله ورسولُه أعلم .

قال : «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدُّوا خمساً من المغنم» ، ونهاهم عن الدُّباء[٦] ، والحنتم[٧] ، والمُزَفَّتِ[٨] ، وربما قال : النَّقير[٩] ، أو المُقَيَّر وقال : «احفظوهنَّ ، وأخبروا بهنَّ مَنْ

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٢١) .
(٢) مرحباً بالقوم : صادفت رحباً وسعةً .
(٣) غير خزايا ، ولا ندامى : معناه لم يكن منكم تأخُّرٌ عن الإسلام ، ولا عنادٌ .
(٤) شقة بعيدة : السَّفر البعيد ، أو المسافة البعيدة .
(٥) الأمر الفصل : البيِّن الواضح الَّذي ينفصل به المراد .
(٦) الدَّباء : القرع اليابس .
(٧) الحنتم : أصحُّ الأقوال فيها : الجرار الخضر ؛ وهي جرار كان يحمل فيها الخمر .
(٨) المزفَّت : الأوعية الَّتي فيها الزِّفت .
(٩) النَّقير : جذع ينقر وسطها ثمَّ ينبذ فيها الرُّطب ، والبُسْرُ .

وراءكم» [البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧)].

وفي رواية: أنَّ الأشجَّ بن عبد قيسٍ تخلَّف في الرِّكاب حتَّى أناخها، وجمع متاع القوم، ثمَّ جاء يمشي حتَّى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبَّلها، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله الحلم والأناة» فقال: جَبْلٌ جُبِلْتُ عليه، أم تَخلُّقاً منِّي؟ قال: «بل جَبْلٌ» [ابن ماجه (٤١٨٧)] قال: الحمد لله الَّذي جَبَلَنِي على ما يحبُّ اللهُ ورسولُه. [أحمد (٤/٢٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٨٤)][(١)].

وقد انشغل رسول الله ﷺ بمقدَمِهم وأخَّر صلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة بعد الظهر وصلَّاها بعد العصر[(٢)].

ب ـ وفد ضِمَام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكرٍ:

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: بينما نحن جلوسٌ مع النَّبيِّ ﷺ في المسجد دخل رجلٌ على جملٍ، فأناخه في المسجد ثمَّ عقله، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ ﷺ متكىءٌ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرَّجل الأبيض المتَّكىء، فقال له الرَّجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النَّبي ﷺ: «قد أجبتك»، فقال الرَّجل للنَّبيِّ ﷺ: إنِّي سَائِلُكَ فمشدِّدٌ عليك في المسألة؛ فلا تَجِدْ[(٣)] عليَّ في نفسك، فقال: سل عمَّا بدا لك، فقال: أسألك بربِّك وربِّ مَنْ قبلك! آلله أرسلك إلى النَّاس كلِّهم؟ فقال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أَنْشُدُكَ بالله! آلله أمرك أن تصلِّيَ الصَّلوات الخمس في اليوم واللَّيلة؟ قال: «اللَّهمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن نصوم هذا الشَّهر من السَّنة؟ قال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن تأخذ هذه الصَّدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النَّبي ﷺ: «اللَّهم نعم!».

فقال الرَّجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَنْ ورائي مِنْ قومي، وأنا ضِمَامُ بن ثَعْلَبَةَ أخو بني سعد بن بكر. [البخاري (٦٣)، وأبو داود (٤٨٦)، وابن ماجه (١٤٠٢)، وأحمد (٣/١٦٨)، والنسائي (٤/١٢٢)].

وفي رواية ابن عبَّاسٍ: ... حتَّى إذا فرغ؛ قال: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٦٣١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٣٥.
(٣) تجد: تحقد، وتحمل البغضاء.

محمَّداً رسول الله ﷺ ، وسأؤدِّي هذه الفرائض ، وأجتنبُ ما نهيتني عنه ، ثمَّ لا أزيد ، ولا أنقص.

قال: ثمَّ انصرف راجعاً إلى بعيره ، فقال رسول الله ﷺ حين ولَّى: «إنْ يصدق ذو الْعَقِيصَتَيْنِ[١]؛ يدخل الجنَّة». قال: فأتى إلى بعيره ، فأطلق عِقَاله ثمَّ خرج حتَّى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال: بئست اللاَّتُ ، والعزَّى! قالوا: صه يا ضِمَام! اتَّق البَرَص ، والجُذام! اتَّق الجنون! قال: ويلكم! إنَّهما والله! لا يضرَّان ، ولا ينفعان ، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممَّا كنتم فيه ، وإنِّي أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وإنِّي قد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ونهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ، ولا امرأةٌ إلا مسلماً ، قال: يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل مِنْ ضِمَامِ بن ثعلبة. [أحمد (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) ، وأبو داود (٤٨٧) ، والدارمي (٦٥٦)][٢].

وتدل قصَّة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربيَّة ، حتَّى جاء ضِمَام لا ليسأل عنها ، ولكن جاء ليستوثق منها ، معدِّداً لها الواحدة تلو الأخرى ، ممَّا يدلُّ على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرَّسول ﷺ[٣].

ج ـ وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله ﷺ إلى نجران[٤] كتاباً قال فيه: «أمَّا بعد ، فإنِّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم؛ فالجزية ، فإن أبيتم؛ آذنتكم بحربٍ ، والسَّلام[٥]».

فلمَّا أتى الأسقفَ الكتابُ؛ جمع النَّاس ، وقرأه عليهم ، وسألهم عن الرَّأي فيه ، فقرَّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشرَ من أشرافهم ، وقيل: ستِّين راكباً منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب ـ وهو أميرهم ، وصاحب مشورتهم ، والَّذي يصدُرون عن رأيه ـ والسَّيد ـ وهو صاحب رحلتهم ـ وأبو الحارث ـ أسقفُهم ، وحبرُهم وصاحب مدراسهم ـ فقدموا على النَّبيِّ ﷺ ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحَبِرة ، وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير ، وفي أيديهم خواتيم الذَّهب ، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم ، ثمَّ أتوا

---

(١) الضَّفيرتين من الشَّعر.
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٣٠.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٥٠.
(٤) نجران: بلد كبيرٌ على سبع مراحل من مكَّة إلى جهة اليمن.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٤٨) ، وهداية الحيارى في الردِّ على اليهود ، والنَّصارى.

النَّبيَّ ﷺ ، فأعرض عنهم ، ولم يكلِّمهم ، فقال لهم عثمان: من أجل زِيِّكُمْ هذا ، فانصرفوا يومهم هذا ، ثمَّ غدَوا عليه بِـزِيِّ الرُّهبان فسلَّموا عليه ، فردَّ عليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، وقالوا: كنَّا مسلمين قبلكم ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصَّليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أنَّ لله ولداً»[١] ، وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم ، والنَّبيُّ ﷺ يتلو عليهم القرآن ، ويقرع باطلهم بالحجَّة ، وكان ممَّا قالوه لرسول الله ﷺ : ما لك تشتم صاحبنا ، وتقول: إنَّه عبد الله ؟! فقال: «أجل ، إنَّه عبد الله ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا ، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ ، فإن كنت صادقاً ، فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الردِّ عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

فكانت حجَّةً دامغةً ، شُبِّه فيها الغريب بما هو أغرب منه[٢]. فلمَّا لم تُجْدِ معهم المجادلة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، دعاهم إلى المباهلة[٣] ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وخرج النَّبيُّ ﷺ ومعه عليٌّ ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة ، وقال: «وإذا أنا دعوت فأمِّنوا»[٤]. فائتمرُوا فيما بينهم ، فخافوا الهلاك؛ لعلمهم: أنَّه نبيٌّ حقاً ، وأنَّه ما بَاهَلَ قومٌ نبيّاً إلا هلكوا ، فأبوا أن يلاعنوه ، وقالوا: احكم علينا بما أحببت ، فصالحهم على ألفي حُلَّةٍ ، ألف في رجب ، وألف في صفر[٥] ، ولمَّا عزموا على الرُّجوع إلى بلادهم ، قالوا للنَّبيِّ ﷺ : ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصُّلح ، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» ، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح!» فلمَّا قام؛ قال: «هذا أمين هذه الأمة». [البخاري (٤٣٨٢) ، وأحمد (٣/ ١٨٤) ، والترمذي (٣٧٩١) ، وابن ماجه (١٥٤ و١٥٥)].

سادساً: بعوث رسول الله ﷺ لتعليم مبادئ الإسلام ، وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها ، وتنضوي تحت سيادة الدَّولة الإسلاميَّة ،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧) ، والدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، للسُّيوطي ، وأبا نعيم في الدَّلائل.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٣٣) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل (المباهلة).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٤٧) ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ، قوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح.
(٥) المصدر السابق نفسه.

ويتعلَّموا ما شاء الله أن يتعلَّموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم ، وكان ﷺ يرسل معهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، وشرع ﷺ يبعث دعاته في شتَّى الجهات ، واهتمَّ بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن ؛ لتعليمها مبادئ الإسلام ، وأحكامه ، فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ، ومختلف أطرافها ، وأصبحت الحاجة داعيةً إلى معلِّمين ، ودعاة ، ومرشدين ، يشرحون للنَّاس حقائق الإسلام(١) ؛ لكي تتطهَّر قلوبهم ، وتشفى صدورهم من أمراض الجاهليَّة ، وأدرانها الخبيثة ، وامتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدُّخول في الإسلام ، فأرسل إليهم رسولُ الله ﷺ خالداً في سريَّةٍ دعويَّةٍ جهاديَّةٍ .

أ ـ بَعْثُ خالد إلى بني الحارث بن كعب (١٠ هـ) :

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون بنجران ، ولم يقبَل منهم أحدٌ الإسلام ، فبعث رسول الله ﷺ إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر ، أو جُمادَى سنَة عشْرٍ ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا ؛ قَبِلَ منهم ، وإن لم يفعلوا ؛ قاتلهم ، فخرج خالد حتَّى قدم عليهم ، فبعث الرُّكبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ، فأسلم النَّاس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلِّمهم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنَّة نبيِّه ﷺ كما أمره رسول الله ﷺ ، ثمَّ كتب خالدٌ إلى رسول الله ﷺ يُعْلِمه بإسلامهم ، وأنَّه مقيمٌ فيهم ، حتَّى يكتب إليه رسول الله ﷺ ، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ يأمره بأن يُقْبِل إلى المدينة ؛ ومعه وفدٌ منهم ، ففعل ، فلما قدموا أمَّر عليهم قيس بن الحُصَيْن ، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ، ليفقههم في الدِّين ، ويعلِّمهم السُّنَّة ، ومعالم الإسلام(٢) .

وفي روايةٍ : أنَّه ﷺ أرسل عليّاً بدلاً من خالدٍ ، وعندما وصل إلى قبائل همدان ؛ قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلمَّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب ؛ خرَّ ساجداً ، ثمَّ رفع رأسه فقال : «السَّلام على همدان ، السَّلام على همدان» [البيهقي في الدلائل : (٥/ ٣٩٦)] .

كان رسول الله ﷺ حريصاً على الجبهة الجنوبيَّة للدَّولة ، وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام ، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة الَّتي حقَّقتها الدَّعوة ، في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كلِّ أطراف اليمن متَّجهةً إلى المدينة ، ممَّا يدل على أنَّ نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متَّصلاً ، وبعيد المدى ، وكانت سرايا رسول الله ﷺ تساند هذا النَّشاط الدَّعويَّ

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢٢ .
(٢) انظر : السِّيرة لابن هشام (٤/ ٢٥٠) .

السِّلميَّ، حيث بعث خالد بن الوليد، ثمَّ علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهما في هذا السِّياق[(١)].

إنَّ الوثائق الَّتي عقدها النَّبيُّ ﷺ مع قبائل اليمن، وحضرموت قد بلغت عدداً كبيراً، ضمَّنها محمَّد حميد الله ـ رحمه الله ـ في كتابه: «مجموعة الوثائق السِّياسيَّة»[(٢)].

إنَّ التَّركيز على مفاصل القوى، ومراكز التَّأثير في المجتمعات، وبناء الدُّول، منهج نبويٌّ كريمٌ، حرص النَّبيُّ ﷺ على ممارسته في حياته.

ب ـ بَعْثُ معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن:

١ ـ بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاريَّ ـ أعلمَ الصَّحابة في علم الحلال والحرام ـ إلى اليمن؛ قاضياً، ومفقِّهاً، وأميراً، ومصدِّقاً[(٣)]، وجعله على أحد مِخْلافَيْها[(٤)]، وهو الأعلى. ولمَّا خرج معاذٌ قاصداً اليمن؛ خرج معه رسول الله ﷺ يودِّعه، ويوصيه، ومعاذ راكبٌ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فأوصاه بوصايا كثيرةٍ، ورسم له منهجاً دعويّاً عظيماً، حيث قال له: «إنك ستأتي قوماً من أهل كتاب، فإذا جئتهم؛ فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم صدقةً، تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإيَّاك وكرائمَ أموالهم، واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب». [البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩)].

وفي هذا الحديث إرشادٌ من النَّبيِّ ﷺ للدُّعاة إلى الله بالتَّدرُّج، والبدء بالأهمِّ، فالأهمِّ، فالدَّعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى، ورسوله إيماناً يثبت في القلوب، ويهيمن على الأفكار، والسُّلوك، ثمَّ تكون الدَّعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العمليَّة الَّتي ترسِّخ هذا الإيمان، وتنمِّيه، ثمَّ يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات، والنَّهي عن المحرَّمات، فيتقبَّل النَّاسُ تكاليف الإسلام الَّتي قد تكون مخالفةً لهوى النفس؛ لأنَّ قلوبهم قد عمرت بالإيمان، واليقين قبل ذلك[(٥)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ رسمه ﷺ لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدي الصَّحابة الكرام،

---

(١) انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة، ص ٢٣١.
(٢) انظر: الوثائق السِّياسيَّة، لحميد الله، رقم ١١١، ص ٢٣٠.
(٣) المصدِّق: آخذ الزَّكاة.
(٤) المخلاف: الإقليم، والكورة، والرستاق.
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٨٧).

وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدَّعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النَّبويِّ يترسَّمون خطاه ، ويستوعبونه فهماً ، ووعياً ، وتطبيقاً! وحينئذٍ تكون خطاهم في الطَّريق الصَّحيح[(١)] .
ولمَّا فرغ رسول الله ﷺ من وصاياه لمعاذ قال له : «يا معاذُ! إنَّك عسى ألاَّ تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلَّك أن تمرَّ بمسجدي هذا ، وقبري[(٢)]» ، فبكى معاذ خَشَعاً لفراق الرَّسول ﷺ ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرَّسول ﷺ ، فقد أقام معاذ باليمن ، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرَّسول ﷺ[(٣)] .

٢ ـ وبعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعريَّ اليمنيَّ إلى مخلاف اليمن الآخر ، وهو الأسفل ، قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً ، وأوصاه ، ومعاذاً ، فقال: «يسِّرا ، ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ، ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ، ولا تختلفا» . [البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٧٣٣)] .

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أرشد إليه رسولُ الله ﷺ معاذاً ، وأبا موسى بأن يأخذوا بالتَّيسير على النَّاس ، ونهاهما عن التَّعسير عليهم ، وأمرهما بالتَّبشير ، ونهاهما عن التَّنفير[(٤)] .

ج ـ ترتيب أمور الإدارة والمال :

إن النِّظام جزءٌ من هذا الدِّين ، وداخلٌ في كل أموره ؛ لأنَّ النِّظام يجمع الأشتات ، وتُحقَّق به الأهداف ، والغايات ، فالنِّظام سمةٌ يتميَّز بها الإسلام منذ اللَّحظة الأولى ؛ حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام التَّصوريَّة ، والشَّعائريَّة ، والتُعبُّديَّة ، وفي الشَّرائع الحياتيَّة كلِّها ، فكان ﷺ يضع من يدير المدينة في حالة غيبته عنها ، وكلَّما فتح منطقةً ، وضع عليها أميراً ، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله ﷺ فيُعيِّن عليها أميراً مِنْ قِبَلِه ، ثمَّ يترك لهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، ويرسل إليهم مَنْ يجمع صدقاتهم[(٥)] .

وكان يختار عمَّاله من الصَّالحين ، وأولي العلم ، والدِّين ، ومن المنظور إليهم من العرب ، وذوي الشَّخصيَّات المؤثِّرة في قبائلهم ، فقد كان عامله على مكَّة عتَّاب بن أَسِيْدٍ ، وعلى الطَّائف عثمان بن العاص ، وبعث عليّاً ، وأبا موسى إلى اليمن ، وأقرَّ الرَّسول ﷺ في بعض الحالات الأمراء ، والملوك الَّذين أسلموا ، أو قُبِلت الجزية منهم ، ومنهم: باذان بن سامان ولد بهرام الَّذي أقرَّه الرَّسول ﷺ على اليمن بعد إسلامه ، ولما بلغه موته قسم عمله على جماعةٍ من الصَّحابة ، فولَّى على صنعاء شمر بن باذان ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعريَّ ، وعلى الجند يعلى بن أميَّة ، وعلى همذان عامر بن شمر الهمداني ، وعلى ما بين نجران ،

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٤٨٦ .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة ، ص ٦٥٤ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٥٩) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٨/ ١٨٦) .
(٥) انظر : دراسات في عهد النُّبوة للشُّجاع ، ص ٢٢١ .

وزمع ، وزبيد خالد بن سعيد بن العاص ، وعلى نجران عمرو بن حزام ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي ، وعلى السَّكاسك والسُّكون عكَّاشة بن ثور[١] .

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، وحدَّد ﷺ لبعض عمَّاله رواتب ، منهم عَتَّاب بن أَسِيْدٍ والي مكَّة ، درهماً كلَّ يوم[٢] ، ولمَّا استعمل ﷺ قيس بن مالكٍ على قومه همدان خصَّص له قطعةً من الأرض يأخذ خراجها ، وكانت رواتب عمَّاله تتغيَّر بتغير أحوال المعيشة ، فهي ليست ثابتةً[٣] ، قال رسول الله ﷺ : «مَنْ ولي لنا ولايةً ، ولم يكن له بيتٌ ؛ فليتَّخذ بيتاً ، أو لم تكن له زوجةٌ ؛ فليتَّخذ زوجةً ، أو لم تكن له دابَّةٌ ، فليتَّخذ دابةً» [أحمد (٤/ ٢٢٩) ، وأبو داود (٢٩٤٥) ، وابن خزيمة (٢٣٧٠)][٤] .

وهذه هي الحاجات الرَّئيسية لوليِّ الأمر في ذلك الوقت ؛ منعاً لأخذ الرَّشوة ، وهذه قاعدةٌ قانونيَّة جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة في بنودها ، وهي أنَّ الهدية للحاكم رشوةٌ صريحةٌ[٥] .

* * *

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لابن خلدون (٢/ ٥٩).

(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ١٥٣).

(٣) انظر : الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، ص ٤٤ .

(٤) انظر : الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤ ، والتراتيب الإدارية ، للكتّاني (١/ ٢٢٧).

(٥) انظر : الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤ .

المبحث السَّابع
حجَّة الوداع (١٠ هـ)[١]

الحجُّ أحد الأركان الخمسة ، وقد فُرض في العام العاشر ، وهذا ما ذهب إليه ابن القيِّم[٢] ، واستدلَّ بأدلةٍ قويَّةٍ ، وهو اللاَّئق بهديه ﷺ في عدم تأخير ما هو فرض ، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وقد نزلت عام الوفود ، أواخر سنة تِسْعٍ[٣] .

لم يحجَّ النَّبيُّ ﷺ من المدينة غير حجَّته الَّتي كانت في العام العاشر ، وعرفت هذه الحجَّة بحجَّة البلاغ ، وحجَّة الإسلام ، وحجَّة الوداع؛ لأنَّه ﷺ ودَّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها ، وحجَّة البلاغ؛ لأنَّه ﷺ بلَّغ النَّاس شرع الله في الحجِّ قولاً ، وعملاً ، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام ، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيَّنه ، فلمَّا بيَّن لهم شريعة الحجِّ ، ووضَّحه ، وشرحه ، أنزل الله عليه ، وهو واقفٌ بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. [البخاري (٤٤٠٧) ، ومسلم (٣٠١٧)].

ولمَّا نزلت هذه الآية؛ بكى بعض الصَّحابة ـ ومنهم عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه ـ وكأنَّهم فهموا منها الإشـارة إلى قرب أجل الرَّسول ﷺ ، ولمَّا قيل لسيِّدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان[٤] ، وكان عدد الَّذين مع رسول الله ﷺ أكثر من مئة ألفٍ[٥] .

أولاً: كيف حجَّ النَّبيُّ ﷺ؟:

[البخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨)]:

عـزم رسول الله ﷺ على الحجِّ ، وأعلم النَّاس: أنَّـه حاجٌّ ، فتجهَّزوا ـ وذلـك في شهر ذي القعدة سنة عشر ـ للخروج معه ، وسمع بذلك مَنْ حول المدينة ، فقدموا يريدون الحجَّ مع الرَّسول ﷺ ، ووافاه في الطَّريق خلائق لا يحصون ، فكانوا مِنْ بين يديه ومن خلفه ، وعن

---

(١) ينظر الشكل (٢٣) في الصفحتين (٧٦٧).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّـة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٨٠ ، وزاد المعاد (٣/ ٥٩٥).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّـة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٥).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّـة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦.

يمينه ، وعن شماله مدَّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظُّهر لخمسٍ بَقِينَ من ذي القعدة يوم السَّبت ، بعد أن صلَّى الظُّهر بها أربعاً[١] .

وخطبهم قبل ذلك خطبةً علَّمهم فيها الإحرامَ ، وواجباتِه ، وسننه ، ثمَّ سار وهو يلبِّي ، ويقول : «لبيك اللَّهُمَّ لبيك ، لبَّيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لك ، والملك ، لا شريك لك» والنَّاس معه يزيدون ، وينقصون ، وهو يقرُّهم ، ولا ينكر عليهم ، ولزم تلبيته ، ثمَّ مضى حتَّى نزل بـ(العرج) ثمَّ سار حتَّى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سَرِف) ثمَّ نهض إلى أن نزل بـ(ذي طوى) ، فبات بها ليلة الأحد ، لأربع خلون من ذي الحجَّة ، وصلَّى بها الصُّبح ، ثمَّ اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكَّة فدخلها نهاراً من أعلاها ، ثمَّ سار ، حتَّى دخل المسجد ، وذلك ضحىً[٢] ، فاستلم الرُّكن ﷺ ، فرمل ثلاثاً[٣] ، ومشى أربعاً ، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم[٤] عليه السَّلام . فقرأ : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

فجعل المقام بينه وبين البيت ، وكان يقرأ في الرَّكعتين : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثمَّ رجع إلى الرُّكن فاستلمه ، ثمَّ خرج من الباب إلى الصَّفا ، فلمَّا دنا من الصَّفا ؛ قرأ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] .

وبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقي عليه ، حتَّى إذا رأى البيت ؛ استقبل القبلة ، فوحَّد الله ، وكبَّره ، وقال : «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، لا إلٰه إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» ، ثمَّ دعا بين ذلك ، قال مثل هذه ثلاث مرَّاتٍ ، ثمَّ نزل إلى المروة ، حتَّى إذا انصبَّتْ[٥] قدماه في بطن الوادي ؛ سعى ، حتَّى إذا صَعِدَتَا[٦] ؛ مشى ، أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصَّفا ، حتَّى إذا كان آخر طوافه على المروة ؛ قال : «لو أنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ، وجعلتها عُمْرَةً ، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ ؛ فليحلَّ ، وليجعلها عُمْرةً» .

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ ، فقال : يا رسول الله! أَلِعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشبَّك

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٤ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٧ .
(٣) الرمل : إسراع المشي مع تقارب الخطا .
(٤) نفذ إلى مقام إبراهيم : أي : بلغه ماضياً في زحام .
(٥) انصبت قدماه : انحدرت .
(٦) صعدتا : ارتفعت قدماه عن بطن الوادي .

رسول الله ﷺ أصابعه واحدةً في الأخرى ، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ» مرَّتين ، «لا بل لأبدٍ أبَدٍ»[١] .

وأقام بمكَّة أربعة أيام: يوم الأحد ، والإثنين ، والثَّلاثاء ، والأربعاء ، فلمَّا كان يوم الخميس ضُحىً؛ توجَّه بمن معه من المسلمين إلى منىً ، ونزل بها ، وصلَّى بها الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، ومكث قليلاً حتَّى طلعت الشَّمس ، وأمر بِقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضْرَبُ له بِنَمِرَةَ[٢] ، فسار رسول الله ﷺ ولا تَشُكُّ قريشٌ إلا أنَّه واقفٌ عند المشعر الحرام[٣] ، كما كانت قريش تصنع في الجاهليَّة ، فأجاز[٤] رسول الله ﷺ حتَّى أتى عرفةَ ، فوجد القُبَّةَ قد ضُربت له بنَمِرَة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشَّمسُ؛ أمَرَ بالقصواء ، فرُحِلَتْ له ، فأتى بطن الوادي[٥] ، فخطب النَّاس ، وقال:

«إنَّ دماءكم ، وأموالكم حرامٌ عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ ، وإنَّ أوَّل دَمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ ، كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعدٍ ، فقتلتْه هذيلٌ ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ ، وأوَّل رباً أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطَّلب ، فإنَّه موضوع كلُّه .

فاتَّقوا الله في النِّساء ، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشَكم أحداً تكرهونه[٦] ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ[٧] ، ولهنَّ عليكم رزقُهن ، وكسوتُهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تُسْأَلُونَ عنِّي ، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنَّك بلغت ، وأدَّيت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السَّبَّابة ، يرفعها إلى السَّماء ، وينكتها[٨] إلى النَّاس: «اللَّهمَّ اشهد! اللَّهُمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات[٩] .

---

(١) صحيح السيرة النبوية ، ص ٦٥٩ .
(٢) نمرة: موضع بجنب عرفات ، وليست من عرفات .
(٣) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ، ولكن رسول الله ﷺ وقف في عرفات .
(٤) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنَّما توجه إلى عرفات .
(٥) بطن الوادي: وادي عُرَنَةَ ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء ، إلا مالكاً قال: من عرفات .
(٦) أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ ، أو بعيدٍ ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها .
(٧) الضَّرب المبرح: الشَّديد الشاق .
(٨) ينكتها: يقلبها ، ويرددها إلى النَّاس مشيراً إليهم .
(٩) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦١ .

ثمَّ أذَّن ، ثم أقام ، فصلَّى الظُّهر ، ثمَّ أقام ، فصلَّى العصر ، ولم يصلِّ بينهما شيئاً ، ثمَّ ركب رسولُ الله ﷺ ، حتَّى أتى الموقف ، فجعل بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخَرَاتِ[١] وجعل حبل المشاة بين يديه[٢] ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتَّى غربت الشمس ، وذهبت الصُّفْرَةُ قليلاً حتى غاب القُرْصُ[٣] .

وذكر أبو الحسن النَّدويُّ: لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من صلاته ، والتَّضرُّع ، والابتهال إلى غروب الشَّمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيه: «اللَّهُمَّ! إنَّك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي ، وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوَجِل المِشفِق ، المقر المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير ، مَنْ خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ جسده ، وَرَغِم أنفهُ لك ، اللَّهُمَّ! لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيّاً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين»[٤]!

وهناك أنزلت عليه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] ، فلمَّا غربت الشَّمس؛ أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواءِ الزِّمَامَ ، حتَّى إنَّ رأسها ليُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ ، وهو يقول: «أيُّها النَّاس! عليكم السَّكينة[٥]» .

وكان يلبِّي في مسيره ذلك ، لا يقطع التَّلبية حتَّى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذِّن بالأذان فأذَّن ، ثمَّ أقام ، فصلَّى المغرب قبل حطِّ الرِّحال ، وتبريك الجمال ، فلمَّا حطُّوا رحالهم؛ أمر ، فأقيمت الصَّلاة ، ثمَّ صلَّى العشاء ، ثمَّ نام ، حتَّى أصبح ، فلمَّا طلع الفجر صلاَّها في أول الوقت ، ثمَّ ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدُّعاء والتَّضرُّع ، والتَّكبير ، والتَّهليل ، والذكر ، حتى أَسْفَرَ جِدّاً[٦] ، وذلك قبل طلوع الشَّمس .

ثمَّ سار من مزدلفة ، مردِفاً للفضل بن عباس ، وهو يلبِّي في مسيره ، وأمر ابن عبَّاسٍ أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصياتٍ ، فلمَّا أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ[٧]؛ حرَّك ناقته ، وأسرع

---

(١) الصَّخرات: صخرات في أسفل جبل الرَّحمة ، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات .
(٢) حبل المشاة: مجتمعهم ، وقيل: جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرَّجالة .
(٣) حتَّى غاب قرص الشَّمس: حتَّى غابت الشَّمس ، وذهبت الصفرة .
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩ .
(٥) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٦٢ .
(٦) الضمير في (أسفر) يعود على الفجر المذكور ، وقوله: (جدّاً) بكسر الجيم؛ أي: إسفاراً بليغاً .
(٧) سُمِّيَ بذلك لأن قيل: أصحاب الفيل حُسِرَ فيه .

السَّير(١) ، فإنَّ هنالك أصاب أصحابَ الفيل العذابُ ، حتَّى أتى منىً ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكباً بعد طلوع الشَّمس ، وقطع التلبية(٢) .

ثمَّ رجع إلى مِنىً ، فخطب الناس خطبةً بليغةً ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النَّحر ، وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكَّة على جميع البلاد ، وأمر بالسَّمع ، والطَّاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر النَّاس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتَّبليغ عنه(٣) .

وقد جاء في هذه الخطبة : «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا : اللهُ ورسولُه أعلم ، فَسكَتَ ؛ حتَّى ظننَّا أن سيسمِّيه بغير اسمه ، فقال : «أليس ذا الحجة؟» قلنا : بلى! قال : «أي بلدٍ هذا؟» قلنا : الله ورسولُه أعلم ، فَسَكَتَ ؛ حتَّى ظننَّا : أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه ، قال : «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا : بلى! قال : «فإنَّ دماءكم ، وأموالكم ـ وفي رواية : وأعراضكم ـ عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت؟» قالوا : نعم ، قال : «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»(٤) .

ثمَّ انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثمَّ أمسك وأمر عليّاً أن ينحر ما بقي من المئة ، فلمَّا أكمل ﷺ نحره استدعى الحلاق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين مَنْ يليه ، ثمَّ أفاض إلى مكَّة راكباً ، وطاف طواف الإفاضة(٥) ، فصلَّى بمكَّة الظهر ، فأتى بني عبدِ المطلب يَسْقُون على زمزم ، فقال : «انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم النَّاس على سِقَايتكم ؛ لنزِعتُ معكم» ، فناولوه دلواً ، فشرب منه(٦) .

ثمَّ رجع إلى منىً من يومه ذلك ، فبات بها ، فلمَّا أصبح ؛ انتظر زوال الشَّمس ، فلمَّا زالت مشى من رحله إلى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثمَّ الوسطى ، ثمَّ الجمرة الثَّالثة ـ وهي جمرة العقبة ـ وخطب الناس بمنى خطبتين : خطبة يوم النَّحر ، وخطبة ثانية في ثاني يوم النَّحر(٧) ،

---

(١) انظر صحيح السِّيرة النَّبويّة ، ص ٦٦٢ ، والسِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩ .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩٠ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٥٥٠) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٨) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠ .
(٦) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٣ .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٩٠ .

وهو يوم النفر الأول ، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة ، ويوم النَّحر بمنى .

والواقع أن تكرار الخطب في حَجَّة الوداع كان أمراً لابدَّ منه لحاجة المسلمين ، فهي الحجَّة الوحيدة الَّتي حجَّها الرَّسول ﷺ ، وقد عزَّ فيها الإسلام والمسلمون ، وأصبحت كلمتهم هي النَّافذة في الجزيرة كلِّها ، كما كانت الوداع الأخير ، فما أشدَّ حاجةَ المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التَّذكير ، والنُّصح ، والتَّوصية ، وإلى تكرار القول ، والتَّأكيد عليه حتَّى يعوه ، ويحفظوه ، ولا ينسوه ، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرِّسالة ، وأداء الأمانة ![١] .

هذا ، وقد تأخَّر رسول الله ﷺ حتَّى أكمل رمي أيام التَّشريق الثَّلاثة ، ثمَّ نهض إلى مكَّة ، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، وأمر النَّاس بالرَّحيل ، وتوجَّه إلى المدينة[٢] . وفي طريق العودة من حجَّة الوداع خطب الرَّسول ﷺ النَّاس في غدير خُمٍّ قريباً من الجحفة في اليوم الثَّامن عشر من ذي الحجَّة ، وقد جاء في هذه الخطبة : «أمَّا بعد : ألا أيُّها النَّاس ! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيب ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ ، أوَّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنُّور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به» ، فحثَّ على كتاب الله ، ورغَّب فيه ، ثمَّ قال : «وأهلُ بيتي ، أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي ، أذكِّركُم الله في أهل بيتي ، أذكِّركم الله في أهل بيتي» [أحمد (٣/ ١٤ و١٧) ، ومسلم (٢٤٠٨/ ٣٦ و٣٧)] .

وفي روايةٍ : . . . أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه وقال : «من كنتُ وليُّه ، فهذا وليُّه ، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه» . [أحمد (١/ ١١٨)][٣] ، وفي روايةٍ : «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» [أحمد (٤/ ٣٦٨) ، والترمذي (٣٧١٣)][٤] .

وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن ، وشهد حجَّة الوداع[٥] ، وقد اشتكى بعض الجند عليّاً ، وأنَّه اشتدَّ في معاملتهم ، وكان قد استرجع منهم حللاً وزَّعها عليهم نائبه ، فأوضح لهم النَّبيُّ ﷺ في غدير خُمٍّ مكانةَ عليٍّ ، ونبَّه على فضله لينتهوا عن الشَّكوى[٦] ، فقد كان الحقُّ مع عليٍّ في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته ؛ لأنَّها أموال صدقاتٍ ، وخمس[٧] .

ولما أتى رسولُ الله ﷺ ذا الحليفة ، بات بها ، فلمَّا رأى المدينة ؛ كبَّر ثلاث مرَّاتٍ ، وقال :

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩) ، والمستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠ .
(٣) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٨٨ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٥٠) .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٢٠٩) .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٥١) .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٨١) .

«لا إله إلا الله وحدَه ، لا شريك له ، له المُلك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربِّنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحدَه» ، ثمَّ دخلها نهاراً. [البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤)](١) .

ثانياً : الدُّروس ، والعبر ، والفوائد :

١ ـ مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة :

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً ، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً ، فوسَّع ﷺ في العام التَّاسع ، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر ، من خلال استقباله الوفود ، ومن خلال رحلة الحجِّ ، فأوجد قاعدةً عريضةً تحمل دعوته ، وقد تلقَّت عنه مباشرة ، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإسلام دائرةً ، وإلى الأبد(٢) ، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ .

٢ ـ تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة ، والابتعاد عن الذُّنوب :

أ ـ فقد أشار ﷺ إلى أهمِّيَّة قطع المسلم علاقته بالجاهليَّة : أوثانها ، وثاراتها ، ورِباها ، وغير ذلك ، ولم يكن حديثُه ﷺ مجرَّد توصيةٍ ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله ، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده ، وهذه هي صيغة القرار : «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضوعٌ ، دماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ . . . وربا الجاهليَّة موضوعٌ(٣)» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المسلم بعد إسلامه حياةٌ لا صلة لها بِرِجْسِ الماضي ، وأدرانه(٤) .

ب ـ وقد حذَّر ﷺ من الذُّنوب ، والخطايا ، والآثام ، ما ظهر منها ، وما بطن؛ لأنَّ الذُّنوب ، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه ، فهي سبب مصائبه في الدُّنيا : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٠] فتُرْدِيه في نار جهنَّم في الآخرة ، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف .

وأعلن رسولُ الله ﷺ : أنَّه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّرك الظاهر ، ولكنَّ الشَّيطان لا ييئس من أن يجد

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٩١ نقلاً عن زاد المعاد (١/ ٢٤٩) .
(٢) انظر : الأساس في السُّنة (٢/ ١٠٥٤) .
(٣) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص٣٣١ .
(٤) قراءةٌ سياسيَّةٌ للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ٣٠٣ .

طريقه إليها من ثغرات الخطايا ، والذُّنوب ، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[١] .

٣ ـ تربية المجتمع على مبادئ أساسيَّة :

أ ـ الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسلمين : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، فقد قال ﷺ : «أيُّها النَّاس ! اسمعوا قولي ، واعقلوه ، تَعَلَّمُنَّ : أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلم ، وأنَّ المسلمين إخوةٌ ؛ فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه ، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم» . وقال : «إنَّ دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرامٌ ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، حتَّى تلقَوا ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضُكم رقاب بعض» . [سبق تخريجه] .

ب ـ الوقوف بجانب الضَّعيف ، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيِّ ، فأوصى ﷺ في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[٢] ، فقد شدَّد ﷺ في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[٣] ، وأوصى خيراً بالنِّساء ، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة ، وتثبيت ضمانات حقوقها ، وكرامتها الإنسانيَّة ، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[٤] .

ج ـ التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله ، ولو كان الحاكم عبداً حبشيّاً ؛ فإنَّ في ذلك الصَّلاحَ ، والفلاحَ ، والنَّجاةَ في الدُّنيا ، والآخرة[٥] ، فقد بيَّن ﷺ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع ، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، فإذا مال عنهما ؛ فلا سمع ، ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[٦] .

د ـ المساواة بين البشر : فقد قال ﷺ : «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى. النَّاس من آدم ، وآدم من تراب» [رواه أحمد (٥/ ٤١١) عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ ، والبزار (٢٠٤٤) عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٢ ـ ١٣) ، وانظره في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧٢)] ؛ حيث حدَّد : أن أساس التَّفاضل لا عبرة فيه لجنسٍ ، ولا لون ، ولا وطن ، ولا قوميَّة ، . . . إلخ ، وإنَّما أساس التَّفاضل قيمةٌ خلقيَّةٌ

---

(١) انظر : قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٣ .
(٢) انظر : قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٤ .
(٣) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٥ .
(٤) انظر : فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٣٣٢ .
(٥) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٦ .
(٦) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣ .

راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ جدّاً[(١)] .

هـ ـ تحديد مصدر التَّلقِّي : وقد حدَّد ﷺ مصدر التَّلقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشاكل المسلمين ، الَّتي قد تعترض طريقهم ، في الرُّجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما ، ضمن لهم بعدَ الاعتصام بهما الأمان من كلِّ شقاءٍ ، وضلالٍ ، وهما : كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، وإنَّك لتجده يتقدَّم بهذا التعهُّد ، والضَّمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده ؛ ليبيِّن للنَّاس أنَّ صلاحية التَّمسُّك بهذين الدَّليلين ليس وقفاً على عصرٍ دون آخر ، وأنَّه لا ينبغي أن يكون لأيِّ تطوُّرٍ حضاريٍّ ، أو عُرْف زمنيٍّ أيُّ سلطانٍ ، أو تغَلُّبٍ عليهما[(٢)] .

لقد وصف ﷺ الدَّاء ، والدَّواء ، ووضع العلاج لكلِّ المشكلات بالالتزام التَّامِّ بما جاء من أحكامٍ في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ : «تركت فيكم ما إن تمسَّكتُم به ؛ لن تضلُّوا بعدي أبداً كتابَ الله ، وسنَّتي» . [مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩) ، ومشكاة المصابيح (١٨٦) ، والسلسلة الصحيحة (١٧٦١)] .

هذا هو العلاج الدَّائم ، وقد كرَّر ﷺ نداءه للبشريَّة عامَّةً عبر الأزمنة ، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب ، والسُّنَّة في حلِّ جميع المشكلات الَّتي تواجه البشريَّة ؛ فإنَّ الاعتصام بهما يجنِّب النَّاس الضَّلال ، ويهديهم إلى الَّتي هي أقوم في الحاضر ، والمستقبل ، لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ ، وهديه حدود الجزيرة ، واخترقت حواجز الزَّمن ، وأسوار القرون ، وظلَّ يتردَّد صداها حتَّى يوم النَّاس هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلم يكن يخاطب سامعيه ، فيقول لهم : (أيُّها المؤمنون! أيُّها المسلمون! أيُّها الحجَّاج) ؛ بل كان يقول لهم : (أيُّها النَّاس!) ، وقد كرَّر نداءه إلى النَّاس كافَّةً مرَّاتٍ متعدِّدةً دون أن يخصِّصه بجنسٍ ، أو بزمانٍ ، أو مكانٍ ، أو لونٍ ، فقد بعثه الله للنَّاس كافَّةً ، وأرسله رحمةً للعالمين[(٣)] .

٤ ـ الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع :

أ ـ التَّعليم بمباشرة ما يراد تعليمه :

علَّم رسولُ الله ﷺ صحابته الكرام مناسك الحجِّ بصورةٍ عمليَّةٍ ، بأن قام بها ، وباشرها فعلاً ، ولم يكتفِ بأن يعلِّمها لهم قولاً ، ولذلك قال لهم : «خذوا عنِّي مناسككم» [رواه مسلم (١٢٩٧) ، وأبو داود (١٩٧٠) ، والنسائي (٥/ ٢٧٠)][(٤)] ، وعلى هذا فيُستحسن من الدُّعاة ؛ وهم يعلِّمون الناس معاني الإسلام أن يعلِّموهم هذه المعاني ، والمطلوبات الشَّرعية ، أو بعضَها في

---

(١) انظر : الموسوعة في سماحة الإسلام ، لعرجون (٢/ ٨٧٦) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣ .
(٣) انظر : الجانب السِّياسي في حياة الرَّسول ﷺ لأحمد محمد باشميل ، ص ١٣١ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٤٩) .

الأقلِّ بصورةٍ عمليَّةٍ كالوضوء ، والصَّلاة ، وتعليم قراءة القرآن بصورةٍ سليمةٍ[١] .

ب ـ تكرار الخُطَب :

لاحظنا : أنَّ النَّبي ﷺ كرر خطبه ، فقد خطب في عرفة ، وفي منىً مرَّتين ، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ ، فيكرِّروا خطبهم ، ويكرِّروا بعض معانيها الَّتي يرون حاجةً لتكرارها ؛ حتَّى يستوعبها السَّامعون ، ويحفظوها ؛ لأنَّ القصد من خُطب الخطيب إفادة السَّامعين بما يقول ، فإذا كانت الفائدة لا تحصل ، أو لا تتمُّ إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها ، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها ، فليكرِّرها الدَّاعية ، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديدٍ في خطبه ، ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معانٍ معيَّنةٍ في أذهان السَّامعين .

إنَّ الدَّاعية همُّه أن يفيد السَّامعين ، وليس همُّه أن يُظهر براعته في الخُطَب ، وفي تنوُّع معانيها دون نظرٍ ، ولا اعتبارٍ إلى ما يحتاج إليه السَّامعون ، ودون اعتبارٍ لفهمهم هذه المعاني ، واستيعابهم لها[٢] .

ج ـ فَلْيُبَلِّغ الشَّاهدُ الغائبَ :

وفي هذا توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ لكي تعمَّ الفائدة أكبر عددٍ ممكنٍ من النَّاس ، فهذا من باب التعاون على الخير ؛ ولأنَّ الغائب قد يكون أوعى للعلم ، وأكثر فهماً له من الحاضر الَّذي سمع ، وعلى الدُّعاة ، والعلماء عندما يُلْقُون درساً أو محاضرةً لإخوانهم أو لعامَّة النَّاس أن يقولوا للحاضرين : «فليبلِّغ الحاضرُ منكم الغائبَ بما سمعه» . [البخاري (٦٧)] .

د ـ جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب :

ويستفاد من سؤال النَّبيِّ ﷺ الحاضرين عن اسم اليوم الَّذي هم فيه ، وكذا عن الشَّهر ، والبلد ـ وهم يعرفونها ـ ما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة ، فيصغون إليه إصغاءً تامَّاً ، قال القرطبيُّ : سؤال النَّبيِّ ﷺ عن الثلاثة : أي : عن اليوم ، والشَّهر ، والبلد ، وسكوته بعد كلِّ سؤالٍ منها ؛ كان لاستحضار فهومهم ، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه . . . فعلى العلماء ، والدُّعاة أن يقدِّموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السَّامعين ، ويشدُّهم إلى كلامهم[٣] .

---

(١) انظر : المستفاد من قَصص القرآن (٢/ ٥١٨) .
(٢) انظر : المستفاد من قَصص القرآن (٢/ ٥١٧ ، ٥١٨) .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدعاة (٢/ ٥١٨) .

٥ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من حجَّة الوداع :

جاءت حجَّة الوداع حافلةً بالأحكام الشَّرعية ، وخاصَّةً ما يتعلَّق بالحجِّ ، وبالوصايا ، والأحكام الَّتي وردت في خطبة عرفات ، لذلك اهتمَّ العلماء بحجَّة الوداع اهتماماً كبيراً ، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك ، وغيرها ممَّا تحفِل به كتبُ الفقه ، وكتبُ شروح الحديث ، وخصَّص بعضُهم مؤلفاتٍ مستقلَّةً في حجَّة الوداع[1] .

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصارٍ شديدٍ ، فمن هذه الأحكام :

أ ـ إفطار الحاجِّ يوم عرفة :

قالت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ : إنَّ النَّاس شكُّوا في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة ، فأرسلْتُ إليه بحلابٍ[2] ، وهو واقفٌ في الموقف ، فشرب منه ، والنَّاس ينظرون إليه . [البخاري (١٩٨٩) ، ومسلم (١١٢٣/ ١١٠)] .

ب ـ كيف يفعل بمن تُوفي مُحْرِماً؟

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : بينما رجلٌ واقفٌ مع رسول الله ﷺ بعرفة ؛ إذْ وقع عن راحلته ، فَوَقَصَتْهُ ، أو فأَوْقَصَتْهُ[3] ، فذُكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال : «اغسلوه بماءٍ وسدْرٍ ، وكفِّنوه في ثوبين ، ولا تحنِّطوه[4] ، ولا تخمِّروا[5] رأسه ؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبِّياً»[6] . [أحمد (١/ ٢١٥) ، ومسلم (١٢٠٦) ، والنسائي (٥/ ١٩٥) ، وابن ماجه (٣٠٨٤)] .

ج ـ هل يجوز الحجُّ عن الغير؟

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : كان الفضل بنُ العبَّاس رديفَ رسول الله ﷺ ، فجاءت امرأةٌ من خثعم ، فجعل الفضلُ ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وجعل النَّبيُّ ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشِّقِّ الآخر ، فقالت : يا رسول الله ! إنَّ فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً ، لا يَثْبُتُ على الرَّاحلة ، أفأحجُّ عنه؟ قال : «نعم» . وذلك في حَجَّة الوداع . [البخاري (١٥١٣) ، ومسلم (١٣٣٤)] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٤٩) ، وما ألفه الألباني «حجَّة النَّبي ﷺ » .
(٢) الإناء الذي يحلب فيه .
(٣) فوقصته : قتلته في الحال .
(٤) لا تحنِّطوه : لا تضعوا عليه من الطِّيب شيئاً .
(٥) لا تخمِّروا رأسه : لا تغطوا رأسه .
(٦) ملبِّياً : يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها .

د ـ منهج التَّيسير (لا حرج! لا حرج!):

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ على راحلته، فطفق ناس يسألونه، فيقول القائل: يا رسول الله! إنِّي لم أكن أشعر: أنَّ الرمي قبل النَّحر، فنحرت قبل الرَّمي؟ فقال رسول الله ﷺ: «ارم، ولا حرج!» قال: وطفق آخر يقول: إنِّي لم أشعر أنَّ النَّحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر، فيقول: «انحر، ولا حرج!» قال: فما سمعته يُسأل يومئذٍ عن أمرٍ ممَّا ينسى المرء ويجهل، من تقديم بعض الأمور قبل بعض، وأشباهها، إلا قال رسول الله ﷺ: «افعل، ولا حرج!». [البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦)].

هذه بعض الأحكام المختصرة، ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألبانيُّ عن حجَّة الوداع فقد لخص الحَجَّةَ في اثنتين وسبعين مسألة(١)، وكتاب «الوصيَّة النَّبويَّة للأمَّة الإسلاميَّة» للدكتور فاروق حمادة، فقد جمع من المصادر الأدبيَّة، والحديثيَّة، وكتب أهل السِّير ثمانية وثلاثين بنداً، ثمَّ قام بتحليلها، وتخريجها، وتوثيق نصوصها بميزان الجرح والتَّعديل؛ الَّذي اعتمده أئمَّة المسلمين منذ الصَّدر الأول؛ لأنَّ الأمر دينٌ وشرعٌ كما قال، وقد أجاد، وأفاد(٢).

٦ ـ فوائد في تسمية أيام الحجِّ:

كان يقال لليوم السَّابع من ذي الحجة يومُ الزِّينة؛ لأنَّه تُزيَّن فيه البُدن الَّتي تُهدى بالجلال، وغيرها، واليوم الثَّامن يقال له: يوم التَّروية؛ لأنَّهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء، ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف، وما بعده؛ لأنَّ هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذٍ آبارٌ، ولا عيونٌ، أمَّا الآن ففيها الماء الكثير والحمد لله! واليوم التَّاسع: يوم عرفة؛ للوقوف فيه بها، واليوم العاشر: يوم النَّحر، ويوم الأضحى، ويوم الحجِّ الأكبر. واليوم الحادي عشر: يوم القرِّ؛ لأنَّهم يقرُّون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنَّهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي، وهو أوَّل أيام التَّشريق، وثاني أيَّام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الأوَّل؛ لجواز الخروج فيه إلى مكَّة لمن يريد التَّعجيل، وثالث أيام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الثَّاني(٣).

قال عزَّ شأنه: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

* * *

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨١.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩).

المبحث الثَّامن
مرض رسول الله ﷺ ووفاتُه

إنَّ الأرواح الشَّفافة الصَّافية القويَّة لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حُجُب الغيب بقدرة الله تعالى ، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان ، والعقول الذَّكيَّة المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات ، وتلميحات ، ولنبيِّنا محمَّد ﷺ من هذه الصِّفات الحظ الأوفر ، وهو منها بالمحلِّ الأرفع ؛ الذي لا يُسامَى ، ولا يُطاوَل[١] .

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنيَّة مؤكِّدةً على حقيقة بشرية النَّبيِّ ﷺ ، وأنَّه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ، ويعاني سكراته ، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء ، ولقد فهم ﷺ من بعض الآيات اقترابَ أجله ، وقد أشار ﷺ في طائفة من الأحاديث الصَّحيحة إلى اقتراب وفاته ، منها ما هو صريح الدَّلالة على الوفاة ، ومنها ما ليس كذلك ، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الآحاد من كبار الصَّحابة الأجلاَّء ؛ كأبي بكرٍ ، والعباس ، ومعاذٍ رضي الله عنهم[٢] .

أولاً : الآيات والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته ﷺ :

١ ـ الآيات :

أ ـ قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

قال القرطبيُّ : فأعْلَمَ اللهُ تعالى في هذه الآية : أنَّ الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً ، وأنه يجب التَّمسُّك بما أتت به الرُّسل ؛ وإن فُقِدَ الرَّسولُ بموتٍ ، أو قَتْلٍ[٣] .

ب ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٨٧) .
(٢) انظر : مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته ، لخالد أبو صالح ، ص ٣٣ .
(٣) انظر : تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢٢٢) .

قال ابن كثير: هذه الآية من الآيات الَّتي استشهد بها الصِّدِّيق رضي الله عنه عند موت الرَّسول ﷺ حتَّى تحقَّق النَّاس موته(١).

ج ـ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ثـمَّ أعقب ذلـك ببيان: أنَّ الموت حتـمٌ لازمٌ، وقـدرٌ سـابق، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فهذه الآيات صريحةٌ، ونصَّت على وفاته ﷺ.

وهناك بعض الآيات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرِّح؛ منها:

ـ قال تعالى: ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥].

ـ قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ـ قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

فهذه الآيات تبيِّن: أنَّ جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنَّة الله في موت خلقه، لن يتخلَّف منهم أحدٌ أبداً.

ـ قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقد بكى عمر بن الخطَّاب حين نزلت الآية، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان!! وكأنه استشعر وفاة النَّبيِّ ﷺ(٢).

ـ قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾، فقال: أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعلَمَهُ إيَّاه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم [البخاري (٤٤٣٠)].

في روايـة الطَّبراني: قال ابن عبَّاس: نُعِيَتْ إلى رسول الله ﷺ نفسُه حين نزلت، فأخـذ بأشـدِّ ما كان قـطُّ اجتهـاداً في أمر الآخرة. [الطبراني في الكبير (٢٦٧٦)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٦ ـ ٢٧)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠١)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣).
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ١٨٩).

٣ ـ أمَّا الأحاديث الَّتي أشارت إلى ذلك:

أ ـ قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا كنَّا أزواجَ النَّبيِّ ﷺ عنده جميعاً لم تُغادِر منَّا واحدةٌ، فأقبلت فاطمة عليها السَّلام، ولا والله ما تخفَى مشيتُها من مشية رسول الله ﷺ، فلمَّا رآها؛ رحَّبَ؛ قال: «مرحباً بابنتي». فأقعدها يمينه ـ أو شماله ـ ثمَّ سارَّها فبكت، ثمَّ سارَّها، فضحكت، فقلت لها: خصَّك رسول الله بالسِّرار، وأنت تبكين؟! فلمَّا أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارَّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، فلمَّا توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحقِّ لما أخبرتيني، قالت: أمَّا الآن؛ فنعم، قالت: سارَّني في الأوَّل، قال لي: «إنَّ جبريل كان يعارضني في القرآن كلَّ سنةٍ مرَّةً، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله، واصبري، فنعم السَّلف أنا لك!» فبكيت، ثمَّ سارَّني، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء المؤمنين، أو سيِّدة نساء هذه الأمَّة؟» فضحكتُ. [البخاري (٦٢٨٥ و٦٢٨٦)، ومسلم (٢٤٥٠/ ٩٨ ـ ٩٩)].

وفي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ، وأنَّ ساعة الفراق قد باتت قريبةً إلا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد اختصَّ ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ(١).

ب ـ قال جابر رضي الله عنه: رأيت النَّبيَّ ﷺ يرمي على راحلته يوم النَّحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حجَّتي هذه!». [سبق تخريجه].

قال النَّوويُّ: فيه إشارةٌ إلى توديعهم، وإعلامهم بقرب وفاته ﷺ، وحثِّهم على الاعتناء بالأخذ عنه، وانتهاز الفرصة من ملازمته، وتعلُّم أمور الدِّين، وبهذا سمِّيت حجَّة الوداع(٢).

وقال ابن رجب: وما زال ﷺ يُعرِّض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنَّه لما خطب في حجَّة الوداع قال للنَّاس: «خذوا عنِّي مناسككم، فلعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا! فطفق يودِّع النَّاس، فقالوا: هذه حجَّة الوداع(٣).

ج ـ قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ للنَّاس، وقال: «إنَّ الله خيَّر عبداً بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله». قال: فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّر! فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ أعلمَنا. [البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)].

---

(١) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ، ووفاته، ص ٣٥.
(٢) انظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (٩/ ٤٥).
(٣) انظر: لطائف المعارف، ص ١٠٥.

قال الحافظ ابن حجر: وكأنَّ أبا بكر رضي الله عنه فهم الرَّمز الَّذي أشار به النَّبيُّ ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه: أنَّه أراد نفسه، فلذلك بكى[١].

د ـ قال العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه: رأيت في المنام كأنَّ الأرض تنزع إلى السَّماء[٢] بأشطانٍ[٣] شدادٍ، فقصصت ذلك على النَّبيِّ ﷺ فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك» [البزار (٨٤٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٣ ـ ٢٤)].

وفي هذا الحديث إخبار النَّبي ﷺ بقرب وفاته، وفيه صدق رؤيا المؤمن، واستشعار بعض الصَّحابة وفاته ﷺ[٤].

هـ ـ وعن معاذٍ: أنَّ النَّبي ﷺ لمَّا بعثه إلى اليمن؛ خرج راكباً؛ والنَّبيُّ ﷺ يمشي تحت راحلته، فقال: «يا معاذ! إنَّك عَسَى ألا تلقاني بعد عامي هذا، فتمرَّ بقبري، ومسجدي» فبكى معاذٌ لفراقه ﷺ، فقال: «لا تبك يا معاذ! فإنَّ البكاء من الشَّيطان» [أحمد (٥/ ٢٣٥)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢١)، وابن حبان (٦٤٧)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٢)]. وفي الحديث إخبار النَّبيِّ ﷺ معاذ بن جبل باقتراب أجله، وأنَّه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، وفيه شدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ وبكائهم؛ إذا ذكروا فراقه[٥].

ثانياً: مرض الرَّسول ﷺ

بـدء الشَّكوى:

رجع رسول الله ﷺ من حجَّة الوداع في ذي الحجَّة، فأقام بالمدينة بقيَّته، والمحرَّم، وصفراً، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء، وفلسطين، فتجهَّز النَّاس، وفيهم المهاجرون، والأنصار، وكان منهم أبو بكر، وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلَّم البعض في تأميره[٦]، وهو مولىً، وصغيرُ السِّنِّ على كبار المهاجرين، والأنصار، فلم يقبل الرَّسول ﷺ طعنهم في إمارة أسامة[٧]، فقال ﷺ: «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه، وايمُ

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٦).
(٢) تنزع إلى السَّماء: أي: تجذب، وأصل النزع: الجذب، والقلع.
(٣) بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن، وهو الحبل.
(٤) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته، ص ٣٧.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨.
(٦) ينظر الشكل (٢٤) في الصفحة (٧٦٨).
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٥٥٢).

الله! إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ ، وإنَّ ابنه هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بعده» . [البخاري (٣٧٣٠) ، ومسلم (٢٤٢٦)] .

وبينما النَّاس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة ؛ ابتدئ رسول الله ﷺ بوجعه الَّذي قبضه الله فيه ، وقد حدثت حوادثُ ما بين مرضه ، ووفاته ؛ منها :

أ ـ النَّبيُّ ﷺ في البقيع وزيارته قتلى أحدٍ ، وصلاتُه عليهم :

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله ﷺ ؛ قال : بعثني رسول الله ﷺ في جَوف اللَّيل ، فقال : «يا أبا مُوَيْهِبَة! إنِّي قد أُمِرْت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معي» . فانطلقت معه ، فلمَّا وقف بين أظهرهم ؛ قال : «السَّلام عليكم يا أهل المقابر! ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح النَّاس فيه ، أقبلت الفتن كقطع اللَّيل المظلم ، يتبع آخرُها أوَّلها ، والآخرة شرٌّ من الأولى»(١) . ثمَّ أقبل عليَّ ، فقال : «يا أبا مُوَيْهِبَة! إنِّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، فخيِّرت بين ذلك ، وبين لقاء ربِّي ، والجنَّة» . قال : فقلت : بأبي أنت وأمِّي! خذ مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخُلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، قال : «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنَّة» . ثمَّ استغفر لأهل البقيع ، ثمَّ انصرف ، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه ؛ الَّذي قبضه الله فيه . [أحمد (٣/ ٤٨٩) ، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) ، والدارمي (٧٩) ، والحاكم (٣/ ٥٦) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤)] .

ومن حديث عقبة بن عامر الجهنيِّ رضي الله عنه ، قال : إنَّ رسول الله ﷺ صلَّى على قتلى أحدٍ بعد ثماني سنين كالمودِّع للأحياء ، والأموات ، ثمَّ طلع المنبر ، فقال : «إني بين أيديكم فَرَطٌ ، وأنا عليكم شهيدٌ ، وإنَّ موعدكم الحوض ، وإنِّي لأنظر إليه ؛ وأنا في مقامي هذا ، وإنِّي لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدُّنيا أن تنافسوها» . فقال عقبة : فكانت آخر نظرةٍ نظرتها إلى رسول الله ﷺ . [البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦)] .

ب ـ استئذانه ﷺ أن يُمرَّض في بيت عائشة ، وشدَّة المرض الَّذي نزل به :

قالت عائشة رضي الله عنها : لمَّا ثَـقُلَ رسول الله ﷺ واشتدَّ به وجعُه ؛ استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي ، فأذنَّ له ، فخرج وهو بين رجلين ، تخطُّ رجلاه في الأرض ، بين عبَّاسٍ ورجلٍ آخر(٢) ، ولمَّا دخل بيتي ؛ اشتدَّ وجعه . قال : «أهريقوا عليَّ من سبع قربٍ لم تُحْلَلْ

---

(١) أي : الفتن الآخرة .
(٢) قال ابن عبَّاس : الرجل الآخر هو عليُّ بن أبي طالب .

أوكيتُهنَّ[(١)] ، لعلِّي أعهد إلى النَّاس» فأجلسناه في مِخْضَبٍ[(٢)] لحفصة ، ثمَّ طفقنا نصبُّ عليه من تلك القرب ، حتَّى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتُنَّ ، ثمَّ خرج إلى النَّاس فصلَّى بهم ، وخطبهم [البخاري (١١٩٨)] ، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوَجَعُ من رسول الله ﷺ . [البخاري (٥٦٤٦) ، ومسلم (٢٥٧١)] .

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَكُ فمسسته بيدي ، فقلت: يا رسول الله! إنك لـتُوعَكُ وعْكاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ : «أَجَلْ؛ إنِّي أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم». قال: فقلت: ذلك أنَّ لك أجرين ، فقال رسول الله ﷺ : «أجلْ!» ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلا حَطَّ الله به سيئاتِه ، كما تَحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها». [البخاري (٥٦٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٠)] .

ثالثاً: من وصايا رسول الله ﷺ في أيَّامه الأخيرة:

١ ـ وصيته ﷺ بالأنصار:

مرَّ العبَّاس رضي الله عنه بقومٍ من الأنصار يبكون حين اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه ، فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله ﷺ ، فدخل العبَّاس عليه ﷺ ، فأخبره ، فعُصِّب بعصابةٍ دسماء[(٣)] ، أو قال: بحاشية بُرد ، وخرج ، وصعِد المنبر ـ ولم يصعد بعد ذلك اليوم ـ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أوصيكم بالأنصار فإنَّهم كَرشي[(٤)] ، وعَيْبَتي[(٥)] ، وقد قَضوا الَّذي عليهم ، وبقي الَّذي لهم ، فاقبلوا من مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم». [البخاري (٣٧٩٩) ، ومسلم (٢٥١٠)] .

وفي الحديث شدَّة محبَّة الأنصار لرسول الله ﷺ ، وبكاؤهم لمرضه ، وحرمانهم من مجلسه[(٦)] .

٢ ـ إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

لقد ازدادت شدَّة المرض على رسول الله ﷺ ، بحيث كان يُغْمَىٰ عليه في اليوم الواحد مرَّاتٍ عديدةً ، ومع ذلك كلِّه أحَبَّ ﷺ أن يفارق الدُّنيا وهو مطمئنٌّ على أمَّته أن تضلَّ من بعده ، فأراد

---

(١) جمع الوكاء ، وهو ما يشدُّ به رأس القربة .

(٢) مخضب: بكسر الميم ، وهي الإجَّانة الَّتي تغسل فيها الثياب .

(٣) بعصابة دسماء: أي: سوداء .

(٤) كرشي ، وعيبتي: أراد أنَّهم بطانته ، وموضع سرِّه ، وأمانته ، والَّذين يعتمد عليهم في أموره ، واستعار الكرش ، والعيبة لذلك .

(٥) العيبة: ما يحرز فيه الرَّجل نفيس ما عنده .

(٦) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته ، ص ٦٥ .

أن يكتب لهم كتاباً مفصَّلاً؛ ليجتمعوا عليه، ولا يتنازعوا، فلمَّا اختلفوا عنده ﷺ عدل عن كتابة ذلك الكتاب، وأوصاهم بأمورٍ ثلاثةٍ، ذكر الرَّاوي منها اثنين:

ـ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

ـ وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به. [البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧)].

٣ ـ النَّهي عن اتِّخاذ قبره مسجداً:

كان من آخر ما تكلَّم به رسول الله ﷺ قوله: «قاتل الله اليهود والنَّصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)][1].

٤ ـ إحسان الظَّنِّ بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظَّنَّ بالله، عزَّ وجلَّ». [أحمد (٣/ ٢٩٣)، ومسلم (٢٨٧٧/ ٨١)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧)].

٥ ـ الوصية بالصَّلاة، وما ملكت أيمانكم:

قال أنس رضي الله عنه: كانت وصيَّة رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصَّلاة وما ملكت أيمانكم!» حتَّى جعل يغرغر بها في صدره، ولا يفيض بها لسانُه. [أحمد (٣/ ١١٧)، وابن ماجه (٢٦٩٧)، وابن حبان (٥/ ٦٦)].

٦ ـ لم يبقَ مِنْ مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا:

قال عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَشَفَ رسول الله ﷺ السِّتْرَ، وهو مَعْصُوبٌ في مرضه؛ الَّذي مات فيه، فقال: «اللَّهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟ ـ ثلاث مرَّات ـ إنَّه لم يبقَ من مُبَشِّرات النُّبوة إلا الرُّؤيا، يراها العبد الصَّالح، أو ترى له. ألا وإنِّي قد نهيت عن القراءة في الرُّكوع، والسُّجود، فإذا ركعتم؛ فعظِّموا الله، وإذا سجدتم؛ فاجتهدوا في الدُّعاء، فإنَّه قَمِنٌ[2] أن يستجاب لكم». [أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (٤٧٩)، وأبو داود (٨٧٦)، والنسائي (٢/ ١٨٩)، وابن ماجه (٣٨٩٩)].

رابعاً: أبو بكر يصلِّي بالمسلمين:

ولمَّا اشتدَّ المرض بالنَّبيِّ ﷺ، وحضرت الصَّلاة، فأذَّن بلالٌ، قال النَّبيُّ ﷺ: «مُروا

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٧١٢.
(٢) قمنٌ: أي: جديرٌ، وحقيقٌ.

أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ» فقيل: إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ[١] ، إذا قام مقامك؛ لم يستطع أن يُصلِّي بالنَّاس. وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثَّالثة، فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسف[٢]، مُروا أبا بكر فليصلِّ بالنَّاس!» فخرج أبو بكرٍ، فوجد النَّبيَّ ﷺ في نفسه خفَّةً، فخرج يهادى بين رجلين، كأنِّي أنظر إلى رجليه تَخُطَّانِ من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر فأومأ إليه النَّبيُّ ﷺ: أنْ مكانك، ثمَّ أُتي به حتَّى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي، وأبو بكر يصلِّي بصلاته، والنَّاس يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ؟ فقال برأسه: نعم. [البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨/ ٩٥)].

خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ:

١ ـ كان أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين؛ حتَّى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر، كشف النَّبيُّ ﷺ سِتْرَ الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته، وجهاده، وكيف نشأت أمَّةٌ تحافظ على الصَّلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبته، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النَّجاح الَّذي لم يُقَدَّر لنبيٍّ، أو داعٍ قبله، واطمأنَّ أنَّ صلة هذه الأمَّة بهذا الدِّين، وعبادة الله تعالى صلةٌ دائمةٌ، لا تقطعها وفاة نبيِّها، فملئ من السُّرور ما الله به عليم، واستنار وجهه؛ وهو منيرٌ[٣].

يقول الصَّحابة رضي الله عنهم: كشف النَّبيُّ ﷺ سِتْرَ حجرة عائشة ينظر إلينا؛ وهو قائمٌ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحفٍ، ثمَّ تبسَّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظنَّنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ خارجٌ إلى الصَّلاة، فأشار إلينا أن أتمُّوا صلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى السِّتْر. [البخاري (٤٤٤٨)]. وانصرف بعض الصَّحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكرٍ على ابنته عائشة، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة ـ إحدى زوجتيه، وكانت تسكن بالسُّنح[٤] ـ فركب على فرسه، وذهب إلى منزله[٥].

٢ ـ في الرَّفيق الأعلى:

واشتدَّت سكرات الموت بالنَّبيِّ ﷺ، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السَّماء، ثم يضعها على أسامة، فعرف أنَّه يدعو له، وأخذت السَّيدة عائشة رسول الله، وأوسدته إلى صدرها بين سَحْرِها، ونحرها[٦]، فدخل

---

(١) أسيف: من الأسف، وهو شدَّة الحزن، والمراد: أنَّـه رقيق القلب.
(٢) والمراد أنَّهنَّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص ٤٠١.
(٤) السُّنح: موضع خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه، وبيت.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٥٩٣).
(٦) السَّحْر: الرِّئة، والنَّحْر: الثغرة التي في أسفل العنق.

عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، وبيده سواكٌ ، فجعل رسولُ الله ﷺ ينظر إليه ، فقالت عائشة : آخذه لك؟ فأشار برأسه : أنْ نعم ، فأخذته من أخيها ، ثمَّ مضغته ، وليَّنته ، وناولته إيَّاه ، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك ، وكلُّ ذلك وهو لا ينفكُّ عن قوله : «في الرَّفيق الأعلى» [البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٢٤٤٤/ ٨٧)] .

وكان ﷺ يُدخل يده في رَكوة ماءٍ ، أو علبةٍ فيها ماءٌ ، فيمسح بها وجهه ، ويقول : «لا إلٰه إلا الله ، إنَّ للموت سكراتٍ!» ثمَّ نصب يده ، فجعل يقول : «في الرَّفيق الأعلى» حتَّى قُبِضَ ، ومالت يده . [البخاري (٤٤٤٩)] .

وفي لفظ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول : «اللّهُمَّ! أعنِّي على سكرات الموت» . [أحمد (٦/ ٦٤) ، والترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩٣)] .

وفي روايةٍ : أنَّ عائشة رضي الله عنها سمعت النَّبيَّ ﷺ ، وأصغت إليه قبل أن يموت ؛ وهو مُسْنِدٌ إلى ظَهْره يقول : «اللّهُمَّ! اغفر لي ، وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى!» . [البخاري (٤٤٤٠) ، ومسلم (٢٤٤٤/ ٨٥)] .

وقد ورد : أنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت : واكرب أباه! فقال لها : «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلمَّا مات ؛ قالت : يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه . يا أبتاه! من جنَّة الفردوس مأواه . يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه . فلمَّا دُفِن ﷺ قالت لأنسٍ : كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التُّراب؟! [البخاري (٤٤٦٢)] .

٣ ـ كيف فارق رسول الله ﷺ الدُّنيا؟

فارق رسول الله ﷺ الدُّنيا وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبُه ملوك الدُّنيا ، ويَفْديه أصحابُه بنفوسهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وما ترك عند موته ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمةً ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقةً . [البخاري (٤٤٦١)] . وتُوفِّي ﷺ ؛ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير(١) .

وكان ذلك يوم الإثنين ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١١ للهجرة بعد الزَّوال(٢) ، وله ﷺ ثلاثٌ وستون سنَّة [البخاري (٣٩٠٢ و٣٩٠٣) ، ومسلم (٢٣٥١)] ، وكان أشدَّ الأيام سواداً ، ووحشةً ، ومصاباً على المسلمين ، ومحنةً كبرى للبشريَّة ، كما كان يومُ ولادَته أسعدَ يومٍ طلعت فيه الشَّمْس(٣) .

يقول أنسٌ رضي الله عنه : كان اليوم الَّذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيءٍ ،

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٣ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٢٣) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٤ .

فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ. [أحمد (٣/ ٢٢١)، والترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١)]، وبكت أمُّ أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النَّبيِّ ﷺ؟ قالت: إنِّي قد علمت: أنَّ رسول الله ﷺ سيموت، ولكنْ إنَّما أبكي على الوحي الَّذي رُفِع عنَّا. [مسلم (٢٤٥٤)، وابن ماجه (١٦٣٥)].

٤ ـ هول الفاجعة، وموقف أبي بكرٍ منها:

قال ابن رجب: ولمَّا تُوفي رسولُ الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِشَ، فخولط، ومنهم مَنْ أُقْعِد فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانُه، فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موتـه بالكلِّيَّة(١).

قال القرطبيُّ مبيِّناً عظم هذه المصيبة، وما ترتَّب عليها من أمور:

من أعظم المصائب: المصيبةُ في الدِّين. قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ؛ فليذكر مصابه بي، فإنَّها أعظم المصائب» [الطبراني في الكبير (٦٧١٨)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (١٠١٥٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢)].

وصدق رسولُ الله ﷺ؛ لأنَّ المصيبة به أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النُّبوَّة، وكان أوَّل ظهور الشَّرِّ بارتداد العرب، وغير ذلك، وكان أوَّل انقطاع الخير، وأول نقصانه(٢).

لقد أذهل نبـأُ الوفاة عمرَ رضي الله عنه، فصار يتوعَّـد، وينـذر مَنْ يزعُم: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مات، ويقول: ما مات، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً، ثمَّ رجع إليهم. والله! ليرجعنَّ رسولُ الله كما رجع موسى، فليقطِّعنَّ أيدي رجالٍ، وأرجلهم زعموا: أنه مات(٣).

ولمَّا سمع أبو بكرٍ الخبر؛ أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنْح؛ حتَّى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم النَّاس، حتَّى دخل على عائشة فتيمَّم رسولَ الله ﷺ وهو مُغشَّى بثوبِ حَبرةٍ، فكشف عن وجهـه، ثمَّ أكبَّ عليه، فقبَّله، وبكى، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين، أمَّا الموتة الَّتي عليك فقد متَّها. [البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣)]. وخرج أبو بكرٍ؛ وعمر يتكلَّم، فقال: اجلسْ يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في النَّاس خطيباً بعد أن حمِد الله، وأثنى عليه، قال:

---

(١) انظر: لطائف المعارف، ص ١١٤.
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٢/ ١٧٦).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٥٩٤).

أمَّا بعد: فإنَّ مَنْ كان يعبد محمَّداً؛ فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: فو الله! ما إن سمعت أبا بكر تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمتُ: أنَّ رسول الله ﷺ قد مات. [البخاري (٤٤٥٤)].

قال القرطبيُّ: هذه الآية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصِّدِّيق، وجراءته؛ فإنَّ الشَّجاعة، والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النَّبيِّ ﷺ، فظهرت عنده شجاعتُه، وعلمه، قال النَّاس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرِسَ عثمان، واستخفى عليٌّ، واضطرب الأمر، فكشفه الصِّدِّيق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح(١).

فرحم الله الصِّدِّيق الأكبر! كم من مصيبةٍ درأها عن الأمَّة! وكم من فتنةٍ كان المخرج على يديه! وكم من مشكلةٍ، ومعضلةٍ كشفها بشهب الأدلَّة من القرآن، والسُّنَّة، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه! فاعرفوا للصِّدِّيق حقه، واقدروا له قدره، وأحبُّوا حبيب رسول الله ﷺ، فحبُّه إيمانٌ، وبغضه نفاقٌ(٢).

٥ ـ بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتَّى لا يجد الشَّيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسولُ الله ﷺ هذه الدُّنيا؛ وكلمة المسلمين واحدةٌ، وشملُهم منتظمٌ، وعليهم أميرٌ يتولَّى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ، ودفنه(٣).

والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدُّخول في عصر الخلفاء الرَّاشدين إن شاء الله تعالى.

٦ ـ غَسْلُ رسول الله ﷺ، وكَفنُه، والصَّلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لمَّا أرادوا غَسْلَ النَّبيِّ ﷺ قالوا: ما ندري: أنجرِّده من ثيابه كما نجرِّد موتانا، أو نغسله؛ وعليه ثيابه؟! فلمَّا اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النَّوم حتَّى ما منهم رجلٌ إلا

---

(١) انظر تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢٢٢).

(٢) انظر: مرض النَّبي ﷺ ووفاته، ص ٢٤.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص ٤٠٦.

وذقنه في صدره فكلَّمهم مكلِّمٌ من ناحية البيت ، لا يدرون من هو: أن اغسِلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابُه ، فغسَّلوه؛ وعليه قميصُه ، يصبُّون الماء فوق القميص ، ويدلكون بالقميص دون أيديهم . قالت عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسَّله إلا نساؤُه . [أبو داود (٣١٤١) ، وابن ماجه (١٤٦٤) ، والحاكم (٣/ ٥٩ ـ ٦٠)] .

وكُفِّنَ ﷺ في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ ، من ثياب سَحُول ـ بلدة باليمن ـ ليس فيها قميصٌ ، ولا عمامةٌ . [البخاري (١٢٧١) ومسلم (٩٤١)][(١)] . وقد صلَّى عليه المسلمون . قال ابن عباس: لمَّا مات رسولُ الله ﷺ أُدخل الرِّجال ، فصلُّوا عليه بغير إمامٍ أرسالاً ، حتَّى فرَغوا ، ثمَّ أُدخل النِّساء فصلَّين عليه ، ثمَّ أُدخل الصِّبيان فصلُّوا عليه ، ثمَّ أدخل العبيد ، فصلُّوا عليه أرسالاً ، لم يؤمَّهم على رسول الله ﷺ أحدٌ . [ابن ماجه (١٦٢٨)] .

قال ابن كثير: وهذا الصَّنيع ، وهو صلاتُهم عليه فرادى لم يؤمَّهم أحدٌ عليه أمرٌ مجمعٌ عليه ، لا خلاف فيه[(٢)] .

٧ ـ موقع دفنِه ، وصفة قبرِه ، ومَنْ باشر دفنَه؟ ومتى دُفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه ، فقال بعضهم: يدفن عند المنبر ، وقال آخرون: بالبقيع ، وقال قائل: في مصلَّاه . [الموطأ (٥٤٥) ، وابن سعد (٢/ ٢٩٣)] . فجاء أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فحسم مادَّة هذا الخلاف أيضاً بما سمعه من رسول الله ﷺ ، قالت عائشة ، وابن عباسٍ: لمَّا قُبض رسول الله ﷺ ، وغُسِّل؛ اختلفوا في دفنه ، فقال أبو بكر: ما نسيتُ ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض الله نبيّاً إلا في الموضع الَّذي يحب أن يدفن فيه» ، ادفنوه في موضع فراشه[(٣)] .

وهذا الحديث وإن كان هناك خلافٌ في صحَّته إلا أنَّ دفن النَّبيِّ ﷺ في موضعه الَّذي توفِّي فيه أمرٌ مجمعٌ عليه[(٤)] .

وقال ابن كثيرٍ: قد عُلِمَ بالتَّواتر: أنَّه ﷺ دفن في حجرة عائشة الَّتي كانت تختصُّ بها ، شرقيَّ مسجده في الزَّاوية الغربيَّة القبلية من الحجرة ، ثمَّ دُفن فيها أبو بكرٍ ، ثمَّ عمر رضي الله عنهما[(٥)] .

---

(١) انظر: مختصر سيرة الرَّسول ﷺ ، ص ٣٧ ، وتهذيب الأسماء للنَّوويِّ ، ص ٢٣ .
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٢٣٢) .
(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧٢٧ .
(٤) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ ، ووفاته ، ص ١٦٠ .
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٢٣٨) .

وقد لُحِدَ[١] قبر رسول الله ﷺ ، وقد أجمع العلماء على أن اللَّحد ، والشَّق[٢] جائزان ، لكن إذا كانت الأرض صلبةً لا ينهار ترابُها؛ فاللَّحد أفضل ، وإن كانت رِخْوَةً تنهار؛ فالشَّقُّ أفضل[٣].

وقد قال الألبانيُّ ـ رحمه الله! ـ: ويجوز في القبر اللَّحد ، والشَّقُّ لجريان العمل عليهما في عهد النَّبيِّ ﷺ ، ولكنَّ الأوَّل أفضل[٤]؛ لأنَّ الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل[٥]. وأمَّا صفة قبره ، فقد كان مُسَنَّماً. [البخاري (١٣٩٠)] ، أي: مرتفعاً.

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ المستحب في بناء القبور هو التَّسنيم ، وأنَّه أفضل من التَّسطيح[٦] وفي المسألة خلافٌ طويلٌ ليس هذا محلُّه ، وقد قرَّب ابن القيِّم رحمه الله بين المذهبين ، فقال: وكانت قبور أصحابه لا مشرفةً ، ولا لاطئةً ، وهكذا كان قبرُه الكريم ، وقبر صاحبيه ، فقبرُه ﷺ مُسَنَّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء ، لا مبنيٌّ ولا مطيَّنٌ ، وهكذا قبر صاحبيه[٧] ، وقد كان قبره ﷺ مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض[٨].

وأمَّا الذين باشروا دفنه ﷺ ؛ فقد قال ابن إسحاق: وكان الَّذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ : عليُّ بن أبي طالبٍ ، والفضل بن عباس ، وقُثَم بن عبَّاس ، وشُقْران مولى رسول الله ﷺ[٩] ، وزاد النَّوويُّ[١٠] ، والمقدسيُّ[١١]: العباس. قال النَّوويُّ: ويقال: كان أسامة بن زيد ، وأوس بن خَوْلِيٍّ[١٢] معهم. ودفن في اللَّحد ، وبُني عليه ﷺ في لحده اللَّبِن ، يقال: إنَّها تسع لَبِنَاتٍ ، ثمَّ أهالوا التُّراب[١٣]. وأمَّا وقت دفنه؛ فقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّه دفن ليلة

---

(١) اللَّحد: الشَّقُّ الَّذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.
(٢) والشق: أي: يحفر في وسط الأرض.
(٣) انظر: المجموع ، للنَّوويِّ (٥/ ٢٨٧).
(٤) انظر: أحكام الجنائز ، ص ١٤٤.
(٥) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته ، (ص ١٦٠) وقد استفدتُ من هذا الكتاب فائدةً كبرى في مبحث مرض ووفاة الرَّسول ﷺ .
(٦) انظر: مرض النبي ﷺ ووفاته ، ص ١٦٤.
(٧) انظر: زاد المعاد (١/ ٥٢٤).
(٨) انظر: تهذيب السُّنن ، لابن القيِّم (٤/ ٣٣٨).
(٩) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٣٢١).
(١٠) انظر: تهذيب الأسماء ، ص ٢٣.
(١١) انظر: مختصر السِّيرة ، ص ٣٥.
(١٢) انظر: مرض النَّبي ﷺ ووفاته ، ص ١٧٣.
(١٣) انظر: تهذيب الأسماء للنَّووي ، ص ٢٣.

الأربعاء. قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنَّه ﷺ توفي يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء[(١)].

لقد كان لوفاة رسول الله ﷺ أثرٌ على الصَّحابة الكرام، فقد قال أنسٌ رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النَّبيِّ ﷺ الأيدي ـ وإنَّا لفي دفنه ـ حتَّى أنْكَرْنَا قلوبنا». [الترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١)][(٢)].

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول ﷺ:

١ ـ ما قاله حسَّانُ رضي الله عنه في موت رسول الله ﷺ:

لقد نافح حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حياته، ودافع عن الإسلام والمسلمين بقصائده الرَّائعة؛ الَّتي هزَّت عرب الجزيرة، وفعلت فيهم الأفاعيل، ولقد تأثَّر بموت حبيبنا ﷺ، فرثاه بقصائدَ مبكيةٍ حزينةٍ، حفظها لنا التَّاريخ، ولم تهمِلْها اللَّيالي، ولم تفصِلْها عنَّا حواجزُ الزَّمن، ولا أسوارُ القرون، فَمِمَّا قاله يبكي رسولَ الله ﷺ:

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّهَا ... كُحِلَتْ مَآقيها[(٣)] بكُحْلِ الأَرْمَدِ[(٤)]
جَزَعاً عَلَىٰ المَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَىٰ لا تَبْعُدِ
وَجْهِي يَقِيْكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِيْ ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الغَرْقَدِ[(٥)]
بَأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ ... فِي يَوْم الاثْنَيْنِ النَّبِيُّ المُهْتَدِى
فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً ... مُتَلَدِّداً[(٦)] يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْلَدِ
أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِيْنَةِ بَيْنَهُمْ ... يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ[(٧)] سُمَّ الأَسْوَدِ[(٨)]
أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللهِ فِيْنَا عَاجِلاً ... فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ
فَتَقُوْمُ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طيِّباً ... مَحْضَاً ضَرَائِبُهُ[(٩)] كَرِيْمُ المَحْتِدِ[(١٠)]
يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكُ بِكْرُهَا ... ولَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٢٣٧)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٧٢٨.
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النبوية، ص ٧٢٩.
(٣) المآقي: جمع مأق، ومؤق، وهي مجاري الدَّمع من العين.
(٤) الأرمد: الَّذي يشتكي وجع العين.
(٥) بقيع الغرقد: المكان الذي يَدْفِن فيه أهل المدينة موتاهم.
(٦) متلدِّد: متحيِّر.
(٧) صُبِّحْتُ: سُقيت صبحاً.
(٨) الأسود: ضرب من الحيَّات.
(٩) الضَّرائب: الطَّبائع.
(١٠) المحتد: الأصل.

نُـــوْراً أَضَـــاءَ عَلَـــىٰ البَـــرِيَّـــةِ كُلِّهَـــا مَـــنْ يُهْـــدَ للنُّـــورِ المُبَـــارَكِ يَهْتَـــدِي
يَـــا رَبُّ فَـــاجْمَعْنَـــا مَعَـــاً ونَبِيَّنَـــا فَـــي جَنَّـــةٍ تَثْنـــي[1] عُيُـــونَ الحُسَّـــدِ
فِـــي جَنَّـــةِ الفِـــرْدَوْسِ فَـــاكْتُبْهَـــا لَنَـــا يَـــا ذَا الجَـــلاَلِ وَذَا العُـــلاَ والسُّـــؤْدَدِ
وَاللهِ أَسْمَـــعُ مَـــا بَقِيْـــتُ بِهَـــالِـــكٍ إلاَّ بَكَيْـــتُ عَلَـــىٰ النَّبِـــيِّ مُحَمَّـــدِ
يَـــا وَيْـــحَ أَنْصَـــارِ النَّبِـــيِّ وَرَهْطِـــه بَعْـــدَ المُغَيَّـــبِ فـــي سَـــوَاءِ المَلْحَـــدِ[2]
ضَـــاقَـــتْ بِـــالانْصَـــارِ البِـــلاَدُ فَـــأَصْبَحُـــوا سُـــوداً وجـــوهُهُـــمُ كَلَـــوْنِ الإثْمِـــدِ[3]
وَلَقَـــدْ وَلَـــدْنَـــاهُ[4] وَفِينَـــا قَبْـــرُهُ وَفَضُـــولُ نِعْمَتِـــه بنـــا لَـــمْ تُجْحَـــدِ
واللهُ أَكْـــرمَنَـــا بِـــهِ وهَـــدَى بِـــهِ أنصَـــارَهُ فـــي كُـــلِّ سَـــاعَـــةِ مَشْهَـــدِ
صلَّـــى الإلٰـــهُ وَمَـــنْ يَحُـــفُّ بِعَـــرْشِـــهِ وَالطَّيِّبُـــوْنَ عَلَـــى المُبَـــارَكِ أَحْمَـــدِ[5]

وقال أيضاً:

تَـــاللهِ مَـــا حَمَلَـــتْ أُنْثَـــىٰ وَلاَ وَضَعَـــتْ مِثْـــلَ الـــرَّسُـــوْلِ نَبِـــيِّ الأُمَّـــةِ الهَـــادِي
وَلاَ بَـــرَىٰ اللهُ خَلْقـــاً مِـــنْ بَـــرِيَّتِـــه أَوْفَـــى بِـــذِمَّـــةِ جَـــارٍ أَوْ بِمِيْعَـــادِ
مِـــنَ الَّـــذِي كَـــانَ فِيْنَـــا يُسْتَضَـــاءُ بِـــهِ مُبَـــارَكُ الأَمْـــرِ ذَا عَـــدْلٍ وَإِرْشَـــادِ

إلى أَنْ قَال:

يَـــا أَفْضَـــلَ النَّـــاسِ إِنِّـــي كُنْـــتُ فِـــي نَهَـــرٍ أَصْبَحْـــتُ مِنْـــه كمثْـــلِ المُفْـــرَدِ الصَّـــادِي[6]

٢ ـ وممَّا قاله أبو بكرٍ الصِّدِّيق يبكي النَّبيَّ ﷺ:

لَمَّـــا رَأَيْـــتُ نَبِيَّنَـــا مُتَجَنْـــدِلاً ضَـــاقَـــتْ عَلَـــيَّ بِعَـــرْضِهِـــنَّ الـــدُّورُ
فَـــارْتَـــاعَ قَلْبِـــي عِنْـــدَ ذَاكَ لِمَـــوْتِـــهِ وَالعَظْـــمُ مِنِّـــي مَـــا حَيِيْـــتُ كَسِيْـــرُ
أَعتِيْـــقُ! وَيْحَـــكَ! إِنَّ خِلَّـــكَ قَـــدْ ثَـــوَىٰ وَالصَّبْـــرُ عِنْـــدَكَ مَـــا بَقِيْـــتَ يَسِيْـــرُ
يَـــا لَيْتَنِـــي مِـــنْ قَبْـــلِ مَهْلِـــكَ صَـــاحِبِـــيْ غُيِّبْـــتُ فِـــي لَحْـــدٍ عَلَيْـــهِ صُخُـــورُ
فلَتَحْـــدُثَـــنَّ بَـــدَائِـــعٌ مِـــنْ بَعْـــدِهِ تَعْيَـــا لَهُـــنَّ جَـــوَانِـــحٌ وَصُـــدُوْرُ[7]

---

(١) تثني عيونَ الحسَّد: تصرفها، وتدفعها.
(٢) سواءُ الملحَدِ: وسطُه.
(٣) الإثمد: كحلٌ أسود.
(٤) أي: بني النَّجار أخوال النَّبيِّ ﷺ من قبل آبائه.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٤/ ٣٢٨).
(٦) الصَّادي: العَطش، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٣٢٩).
(٧) انظر: المستطرف للأبشيهي، ص ٣٦٦، وديوان أبي بكرٍ الصِّديق، طبع حديثاً حقَّقه، وشرحه راجي الأسمر، ص ٣٢، ٣٣.

٣ ـ وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب بن هاشم ـ رضي الله عنه ـ يبكي رسولَ الله ﷺ:

أرِقْـــتُ فَبَـــاتَ لَيْلِـــي لاَ يَـــزُوْلُ ... وَلَيْـــلُ أَخِـــي المُصِيْبَـــةِ فِيْـــهِ طُـــوْلُ
وَأَسْعَـــدَنِـــي البُكَـــاءُ وَذَاكَ فِيْمَـــا ... أُصِيْـــبَ المُسْلِمُـــوْنَ بِـــهِ قَلِيْـــلُ
لَقَـــدْ عَظُمَـــتْ مُصِيْبَتُنَـــا وَجَلَّـــتْ ... عَشِيَّـــةَ قِيْـــلَ: قَـــدْ قُبِـــضَ الـــرَّسُـــولُ
وَأَضْحَـــتْ أَرْضُنَـــا مِمَّـــا عَـــرَاهَـــا ... تَكَـــادُ بِنَـــا جَـــوَانِبُهَـــا تَمِيْـــلُ
فَقَـــدْنَـــا الْـــوَحْـــيَ والتَّنْـــزِيْـــلَ فِيْنَـــا ... يَـــرُوْحُ بِـــهِ وَيَغْـــدُو جِبْـــرَئِيْـــلُ
وَذَاكَ أَحَـــقُّ مَـــا سَـــالَـــتْ عَلَيْـــهِ ... نُفُـــوْسُ النَّـــاسِ أَوْ كَـــادَتْ تَسِيْـــلُ
نَبِـــيٌّ كَـــانَ يَجْلُـــو الشَّـــكَّ عَنَّـــا ... بِمَـــا يُـــوحَـــىٰ إِلَيْـــهِ وَمَـــا يَقُـــوْلُ
وَيَهْـــدِيْنَـــا فَـــلاَ نَخْشَـــىٰ مَـــلاَمـــاً ... عَلَيْنَـــا والـــرَّسُـــولُ لَنَـــا دَلِيْـــلُ
أَفَـــاطِـــمُ! إنْ جَـــزِعْـــتِ فَـــذَاكَ عُـــذْرٌ ... وَإِنْ لَـــمْ تَجْـــزَعِـــي فَهُـــوَ السَّبِيْـــلُ
فَقَبْـــرُ أَبِيْـــكِ سَيِّـــدُ كُـــلِّ قَبْـــرٍ ... وَفِيْـــهِ سَيِّـــدُ النَّـــاسِ الـــرَّسُـــولُ[١]

٤ ـ وقالت صفيّة بنتُ عبد المطَّلب تبكي رسولَ الله ﷺ:

أَلاَ يَـــا رَسُـــولَ اللهِ كُنْـــتَ رَجَـــاءَنَـــا ... وَكُنْـــتَ بِنَـــا بَـــرّاً وَلَـــمْ تَـــكُ جَـــافِيَـــا
وَكُنْـــتَ رَحِيْمَـــاً هَـــادِيَـــاً وَمُعَلِّمَـــاً ... لِيَبْـــكِ عَلَيْـــكَ الْيَـــوْمَ مَـــنْ كَـــانَ بَـــاكِيَـــا
لَعَمْـــرُكَ مَـــا أَبْكِـــي النَّبِـــيَّ لِفَقْـــدِهِ ... وَلَكِـــنْ لِمَـــا أَخْشَـــىٰ مِـــنَ الْهَـــرْجِ[٢] آتِيَـــا
كَـــأَنَّ عَلَـــىٰ قَلْبِـــي لِـــذِكْـــرِ مُحَمَّـــدٍ ... وَمَـــا خَفَـــتْ مِـــنْ بَعْـــدِ النَّبِـــيِّ المَكَـــاوِيَـــا
أَفَـــاطِـــمُ! صَلَّـــىٰ اللهُ ربُّ مُحَمَّـــدٍ ... عَلَـــىٰ جَـــدَثٍ أَمْسَـــىٰ بِيَثْـــرِبَ ثَـــاوِيَـــا
فِـــدَىً لِـــرَسُـــولِ اللهِ أُمِّـــي وَخَـــالَتِـــي ... وَعَمِّـــي وَآبَـــائِـــي وَنَفْسِـــي وَمَـــالِيَـــا
صَـــدَقْـــتَ وَبَلَّغْـــتَ الـــرِّسَـــالَـــةَ صَـــادِقَـــاً ... وَمُـــتَّ صَلِيْـــبَ العُـــوْدِ أَبْلَـــجَ صَـــافِيَـــا
فَلَـــوْ أَنَّ رَبَّ النَّـــاسِ أَبْقَـــىٰ نَبِيَّنَـــا ... سَعِـــدْنَـــا وَلَٰكِـــنْ أَمْـــرُهُ كَـــانَ مَـــاضِيَـــا
عَلَيْـــكَ مِـــنَ اللهِ السَّـــلاَمُ تَحِيَّـــةً ... وَأُدْخِلْـــتَ جَنَّـــاتٍ مِـــنَ العَـــدْنِ رَاضِيَـــا[٣]

* * *

(١) انظر: الاكتفاء، للكلاعي (٢/ ٤٥٦).
(٢) الهرج: الفتنة والاختلاط.
(٣) انظر: تفسير القرطبيّ (٤/ ٢١٩، ٢٢٠).

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسَّره الله لي مِنْ جمعٍ، وترتيبٍ، وتحليلٍ تضمَّنتها فصول هذا الكتاب، فيما يتعلَّق (بالسِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ في تربية الأمَّة وبناء الدَّولة) فما كان فيه من صوابٍ فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد، والمنَّة، وما كان فيه من خطأ؛ فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، واللهُ ورسولُه بريءٌ منه، وحسبي أنِّي كنت حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ، وعسى ألا أُحرَم مِنَ الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه في دعائه؛ فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى، وأختمُ هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وبقول الشَّاعر:

إلٰهي أَنْتَ للإحسَانِ أَهْلٌ ... وَمِنْكَ الجُوْدُ وَالفَضْلُ الجَزِيْلُ

إلٰهي بَاتَ قَلْبِي فِيْ هُمُومٍ ... وَحَالِي لا يُسَرُّ بِهِ خَلِيْلُ

إلٰهي تُبْ وجُدْ وَارْحَمْ عُبَيْداً ... مِنَ الأوزار مَدْمَعُهُ يَسِيْلُ

إلٰهي ثَوْبُ جِسْمِي دنَّسَتْهُ ... ذُنُوبٌ حَمْلُها أبَداً ثَقِيْلُ

إلٰهي جُدْ بِعَفْوِكَ لِي فَإنِّي ... عَلَىٰ الأَبْوَابِ مَنْكَسِرٌ ذَلِيْلُ

إلٰهي خَانَنِي جَلَدِي وَصَبْرِي ... وجَاءَ الشَّيْبُ وَاقْتَرَبَ الرَّحِيْلُ

إلٰهي دَاونِي بِدَوَاءِ عَفْوٍ ... بِهِ يُشْفَىٰ فُؤَادِي والغَلِيْلُ

إلٰهي ذَابَ قَلْبِي مِنْ ذُنُوبِي ... وَمِنْ فِعْلِ القَبِيْحِ أَنَا القَتِيْلُ

إلٰهي قُلْتَ أُدْعُونِي أجبْكُمْ ... فَهَاكَ العَبْدُ يَدْعُو يَا وَكِيْلُ

إلٰهي هَذِهِ الأوْقَاتُ تَمْضِي ... بِأعْمَارٍ لَنَا وَبِهَا تَزُوْلُ

وبقول الشَّاعر:

اطْلُبِ العِلْمَ وَلاَ تَكْسَلْ فَمَا ... أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَىٰ أَهْلِ الكَسَلْ

احْتَفِـــلْ لِلْفِقْـــهِ فـــي الـــدِّيـــنِ وَلاَ تَشْتَغِـــلْ عَنْـــهُ بِمَـــالٍ وَخَـــوَلْ
واهْجُـــرِ النَّـــوْمَ وحَصِّلْـــهُ فَمَـــنْ يَعْـــرِف المَطْلُـــوبَ يَحْقِـــرْ مَـــا بَـــذَلْ
لاَ تَقُـــلْ قَـــدْ ذَهَبَـــتْ أَرْبَـــابُـــهُ كُـــلُّ مَـــنْ سَـــارَ عَلَـــىٰ الـــدَّرْبِ وَصَـــلْ

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك .

* * *

المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ **آثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ** ، د. وهبة الزُّحيلي ، دراسةٌ مقارنةٌ ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٢ ـ **آثار تطبيق الشَّريعة** ، د. محمد عبد الله الزَّاحم ، دار المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

٣ ـ **آفاتٌ على الطَّريق** لمحمد سيد نوح ، دار الوفاء ، المنصورة ـ مصر ، ط : الخامسة ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٤ ـ **أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة** لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير) .

٥ ـ **الأمُّ** لمحمَّد بن إدريس الشَّافعي سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م ، طبعة دار الفكر ، بيروت ـ لبنان .

٦ ـ **الإتقان في علوم القرآن** لعبد الرَّحمن السُّيوطيِّ ، المكتبة الثَّقافية ، بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ .

٧ ـ **الإدارة الإسلاميّة** في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. فاروق مجدلاوي ، دار مجدلاوي ـ عمَّان ، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .

٨ ـ **الإصابة في تمييز الصَّحابة** لأحمد بن عليٍّ بن حجر العسقلانيِّ ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ ، دار النَّهضة ـ مصر .

٩ ـ **الاعتصام للإمام الشَّاطبي** ، دار الفكر ، الناشر مكتبة الرِّياض الحديثة بالرِّياض .

١٠ ـ **الإعلام في صدر الإسلام** ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، دار الفكر .

١١ ـ **إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء** ، **والأموال** ، **والحفدة** ، **والمتاع** للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي ، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر ، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة ، ١٩٤١ م .

١٢ ـ **الأحاديث الواردة في فضائل المدينة** لصالح الرِّفاعي ، دار الخضيري ـ المدينة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤١٨ هـ .

١٣ ـ **أحكام الجنائز وبدعها** للألباني ، المكتب الإسلاميُّ ـ بيروت .

١٤ ـ **أحكام السُّوق في الإسلام** لأحمد الدَّرويش ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

١٥ ـ **أحكام القرآن** لأبي بكرٍ محمَّد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافريِّ الأندلسيِّ ، تحقيق : محمَّد عبد القادر عطا ، ط١/ ١٤٠٨ هـ . دار الكتب العلميَّة ـ بيروت .

١٦ ـ **الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها** لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني ، دار القلم ـ دمشق .

١٧ ـ **الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنيَّة** ، لمحمود محمَّد الجوهريِّ .

١٨ ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل** ، محمد ناصر الدين الألباني ، إشراف زهير الشاويش .

١٩ ـ **الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة** لسعيد حوَّى ، دار السَّلام بمصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

٢٠ ـ **الأساس في السُّنَّة** ، لسعيد حوَّىٰ ، دار السلام ـ مصر .

٢١ ـ **أساليب التَّشويق والتَّعزيز في القرآن الكريم** ، د. الحسين جرنو محمود جلو ، مؤسَّسة الرِّسالة ، دار العلوم الإنسانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٢ ـ **أسباب النُّزول** ، لأبي الحسن عليِّ بن أحمد الواحديِّ النيسابوريِّ ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

٢٣ ـ **أسباب هلاك الأمم السَّالفة** لسعيد محمَّد بابا سيلا ، سلسلة الحكمة البريطانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

٢٤ ـ **الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام** لعبد الله عليٍّ السَّلامة مناصرة ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

٢٥ ـ **الإسلام في خندق** ، لمصطفى محمود ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٦ ـ **أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّي** للتجاني عبد القادر حامد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م ، عمَّان ـ الأردن ، دار البشير .

٢٧ ـ **أضواء على الهجرة** لتوفيق محمَّد سبع ، مطبعة الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

٢٨ ـ **أعلام النُّبوة** ، للماورديِّ ، الكلِّيات الأزهريَّة .

٢٩ ـ **إغاثة اللَّهفان عن مصائد الشَّيطان** لابن قيِّم الجوزيَّة ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .

٣٠ ـ **الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي الرَّسول والثَّلاثة الخلفاء** ، تأليف أبي الرَّبيع سليمان بن موسى الكلاعيِّ الأندلسيِّ ، عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٣١ـ **الأموال** ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، مؤسَّسة ناصر الثَّقافية ـ بيروت .
٣٢ ـ **الانحرافات العقديَّة والعلميَّة** ، عليُّ بن نجيب الزَّهرانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .
٣٣ـ **أنساب الأشراف** ، للبلاذُريِّ ، تحقيق : محمَّد حميد الله ، دار المعارف .
٣٤ ـ **الأنساب للسَّمعاني** ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة ، حيدر آباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م .
٣٥ ـ **الأنساب** لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد السَّمعاني ، تحقيق عبد الرَّحمن المعلمي اليمانيِّ ، نشر مجلس دائرة المعارف ـ الهند .
٣٦ ـ **أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة** ، د. عليُّ العليانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

(ب)

٣٧ـ **البحر الرَّائق في الزُّهد والرَّقائق** ، لأحمد فريد ، دار البخاريِّ ـ القصيم بالسُّعودية ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .
٣٨ ـ **بدائع السَّالك في طبائع الممالك** ، لأبي عبد الله بن الأزرق ، تحقيق ، وتعليق علي سامي النَّشار ، منشورات وزارة الإعلام ـ الجمهوريَّة العراقيَّة .
٣٩ـ **البداية والنِّهاية** لأبي الفداء ابن كثيرٍ الدِّمشقيِّ ، الطَّبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، دار الرَّيان للتُّراث .
٤٠ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** ، لمحمود شكري الآلوسي ، تحقيق محمَّد بهجة الأثري ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطَّبعة الثَّانية .
٤١ ـ **بناء المجتمع الإسلاميِّ في عصر النَّبوَّة** ، لمحمَّد توفيق رمضان ، دار ابن كثيرٍ ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .
٤٢ ـ **بهجة المحافل** ، **وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات** ، **والسِّير** ، **والشَّمائل** ، شرح جمال الدِّين محمَّد الأشخر اليمنيِّ ، دار صادر ـ بيروت .

(ت)

٤٣ ـ **تأمُّلات في سورة الكهف** للشَّيخ أبي الحسن النَّدويِّ ، دار القلم .
٤٤ ـ **تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ** ، د. محمد السَّيد الوكيل ، دار المجتمع ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م .
٤٥ ـ **تاريخ الإسلام للذَّهبي** ، المغازي ، تحقيق عمر عبد السَّلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٤٦ ـ **التَّاريخ الإسلاميُّ ـ مواقف وعبرٌ** ، د. عبد العزيز الحميديُّ ، دار الدَّعوة ـ الإسكندريَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م.

٤٧ ـ **التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ** ، د. السَّيد عبد العزيز سالم.

٤٨ ـ **التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسول ﷺ** ، **استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة** ، د. علي معطي ، مؤسَّسة المعارف ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٤٩ ـ **تاريخ الطَّبري** ، لأبي جعفر محمَّد بن جرير ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ـ بيروت.

٥٠ ـ **تاريخ اليهود في بلاد العرب** لولفنسون ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ م.

٥١ ـ **تاريخ خليفة بن خيَّاط** ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الآداب ، النَّجف ـ ١٩٦٧ م.

٥٢ ـ **تاريخ دولة الإسلام الأولى** ، فايد حمَّاد عاشور ، سليمان أبو عزب ، دار قطريِّ بن الفجاءة ـ الدَّوحة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م.

٥٣ ـ **تاريخ صدر الإسلام** ، لعبد الرَّحمن عبد الولي شجاع ، دار الفكر المعاصر ، صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م.

٥٤ ـ **التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام** لمنير محمَّد الغضبان ، دار السَّلام ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

٥٥ ـ **التَّحرير والتَّنوير** للشَّيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور ، دار الكتب الشَّرقيَّة ، تونس.

٥٦ ـ **تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي** لمحمَّد بن عبد الرَّحمن المباركفوري ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمَّد عبد المحسن الكتبي ، تصحيح عبد الرَّحمن محمَّد عثمان.

٥٧ ـ **تحفة الأشراف** لجمال الدِّين أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي عبد الرَّحمن المِزِّي ، الدَّار القيِّمة ، سنة الطَّبع : ١٣٨٤ هـ.

٥٨ ـ **التَّربية القياديَّة** لمنير الغضبان ، دار الوفاء ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٥٩ ـ **تفسير أبي السُّعود** ، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديِّ الحنفيِّ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، النَّاشر : مكتبة الرِّياض الحديثة ـ الرِّياض ، مطبعة السَّعادة ، القاهرة.

٦٠ ـ **تفسير القرآن العظيم** ، لابن كثيرٍ القرشيِّ ، دار الفكر ، ودار القلم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثانية.

٦١ ـ **تفسير الآلوسي** ، المسمَّى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني ، للآلوسي (محمود الآلوسي البغدادي) ، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند ، بدون ذكر سنة الطَّبع.

٦٢ ـ **تفسير البغويِّ المسمَّى معالم التَّنزيل** ، للإمام أبي محمَّد الحسين الفرَّاء البغويِّ الشَّافعي ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٦٣ ـ **تفسير البيضاويِّ المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التَّأويل** ، تأليف الإمام ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي ، سنة الطَّبع : ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ـ دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع .
٦٤ ـ **تفسير الرَّازي** ، دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة .
٦٥ ـ **تفسير الزمخشري المسمَّى بالكشَّاف** ، سنة الطبع : ١٩٦٧ م ، دار المعرفة .
٦٦ ـ **تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان** لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي ، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض ، ١٩٧٧ م .
٦٧ ـ **تفسير القرطبيِّ** لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريِّ القرطبيِّ ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٥ م .
٦٨ ـ **تفسير المراغي** لأحمد مصطفى المراغي ، طبع دار الفكر ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ، ١٣٩٤ هـ .
٦٩ ـ **تفسير المنار** لمحمَّد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٧٠ ـ **التَّفسير المنير** ، د. وهبة الزُّحيلي ، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ، دار الفكر ـ دمشق ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ، الطَّبعة الأولى .
٧١ ـ **تفسير النَّسفي المسمَّى بمدارك التنزيل وحقائق التَّأويل** ، تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمَّد النَّسفي ، المتوفى سنة ٧١٠هـ ، النَّاشر : دار الكتاب العربيِّ ـ بيروت .
٧٢ ـ **تفسير ابن عطيَّة المسمَّى المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، لأبي محمَّد عبد الحقِّ بن عطيَّة الأندلسيِّ ، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشَّرعية والشؤون الدِّينيَّة بدولة قطر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
٧٣ ـ **تفسير سورة فصِّلت** ، د. محمد صالح علي مصطفى ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .
٧٤ ـ **تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي** ، مكتبة الآداب ـ القاهرة ، دون ذكر الطَّبعة .
٧٥ ـ **التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة في ضوء القرآن الكريم** ، لمحمَّد السيد حمد يوسف ، دار السَّلام ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٧٦ ـ **تنظيمات الرَّسول الإدارية في المدينة** ، لصالح أحمد العلي ، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي ، المجلَّد السَّابع عشر ، بغداد ، ١٩٦٩م .
٧٧ ـ **تنوير الحوالك شرح موطأ مالك** ، لجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ السُّيوطي ، دار إحياء الكتب .

٧٨ ـ **تهذيب مدارج السَّالكين** ، لابن القيِّم ، هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزِّي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

(ج)

٧٩ ـ **جامع الأصول لابن الأثير** (أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الجزري) المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، طبع مكتبة الحلواني/ سورية ، عام ١٣٩٢هـ .

٨٠ ـ **جامع العلوم والحكم** للإمام ابن رجب الحنبليِّ ، دار الفكر ، بيروت .

٨١ ـ **الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع** للخطيب البغدادي ، مكتبة المعارف بالرِّياض ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٨٢ ـ **الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية** لمحمد خير هيكل ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ، دار البيارق ـ عمَّان ـ بيروت .

٨٣ ـ **الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح** لأبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم ، مطابع المجد .

٨٤ ـ **جوامع السِّير لابن حزم عليِّ بن أحمد بن سعيد** ، المتوفَّى ٤٥٦هـ ، تحقيق الدُّكتور إحسان عبَّاس ، والدُّكتور ناصر الدِّين الأسد ، طبع دار إحياء السُّنَّة ـ باكستان ، ١٣٦٨هـ .

٨٥ ـ **جيل النَّصر المنشود** ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة. القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

(ح)

٨٦ ـ **حاشية ابن عابدين** ، مطابع مصطفى البابي ، وأولاده .

٨٧ ـ **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار** لعبد الرَّحمن بن عليِّ بن محمَّد الشَّيبانيِّ بن الرَّبيع ، تحقيق : عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ .

٨٨ ـ **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار** لابن الدَّيبع الشَّيبانيِّ ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ .

٨٩ ـ **حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ** ، د. محمَّد بكر آل عابد ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى .

٩٠ ـ **الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام في عهد الرَّسول ﷺ في مكَّة** ، د. عبد الوهاب كحيل ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٩١ ـ **الحركة السَّنوسيَّة في ليبية** ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، طبعة أولى ، ١٩٩٩م .

٩٢ ـ **حقوق النَّبيِّ ﷺ على أمَّته** ، د. محمَّد بن خليفة التَّميميُّ ، دار أضواء السَّلف ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

٩٣ ـ **الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي** ، لعبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .
٩٤ ـ **الحكومة الإسلاميّة لأبي الأعلى المودودي** ، ترجمة أحمد إدريس ، المختار الإسلامي للطِّباعة والنَّشر ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .
٩٥ ـ **حلية الأولياء لأبي نعيم**: أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، ١٣٥١ ـ ١٣٧٥م .
٩٦ ـ **حوار الرَّسول ﷺ مع اليهود** ، د. محسن النَّاظر ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء .

(خ)

٩٧ ـ **خاتم النَّبيِّين ﷺ** للشَّيخ محمَّد أبي زهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، دار الفكر ـ بيروت .
٩٨ ـ **الخصائص العامَّة للإسلام** ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، مصر ، ط: الرَّابعة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .
٩٩ ـ **الخصائص الكُبرى** ، لعبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت .

(د)

١٠٠ ـ **دائرة المعارف الكاثوليكيّة** ، مقال التثليث .
١٠١ ـ **الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور** للإمام السُّيوطي ، النَّاشر محمَّد أمين دمج ، بيروت ـ لبنان .
١٠٢ ـ **دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة** ، د. عماد الدِّين خليل ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ، دار النفائس ـ بيروت .
١٠٣ ـ **دراساتٌ في عهد النُّبوَّة** ، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع ، دار الفكر المعاصر ـ صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
١٠٤ ـ **دراساتٌ قرآنيّة** لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٠٥ ـ **دراسةٌ تحليليّةٌ لشخصية الرَّسول ﷺ** ، د. محمد قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، دار النَّفائس .
١٠٦ ـ **الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير** ليوسف بن عبد البرِّ ، وزارة الأوقاف بمصر ، لجنة إحياء التراث ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ، القاهرة .
١٠٧ ـ **دروسٌ في الكتمان** لمحمود شيت خطَّاب ، مكتبة النَّهضة ـ بغداد ، الطَّبعة العاشرة ، ١٩٨٨م .

١٠٨ ـ **دستورٌ للأمَّة من القرآن والسُّنَّة** ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، مؤسَّسة علوم القرآن ، الشَّارقة ـ عجمان ، دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

١٠٩ ـ **الدَّعوة الإسلاميَّة** ، لعبد الغفار عزيز .

١١٠ ـ **دعوة الله بين التكوين والتَّمكين** ، د. علي جريشة ، مكتبة وهبة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

١١١ ـ **دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة** للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ ، تحقيق : عبد المعطي قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت .

١١٢ ـ **دور المرأة في خدمة الحديث** لآمال قرداش ، كتاب الأمَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، الدَّوحة ـ قطر .

١١٣ ـ **دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين** ، لكامل سلامة الدقس ، دار عمَّار ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .

١١٤ ـ **الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة** لمنصور الحرابي ، الطَّبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، منشورات جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة بليبيا .

١١٥ ـ **ديوان أبي بكرٍ الصِّدِّيق** ، حقَّقه وشرحه راجي الأسمر ، دار صادر ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

١١٦ ـ **ديوان شوقي** ، **الأعمال الشِّعرية الكاملة** ، دار العودة ـ بيروت ، طبعة ١٩٨٦م .

١١٧ ـ **ديوان عنترة** لفاروق الطَّباع ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان .

(ر)

١١٨ ـ **الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعيَّة** ، لأسامة عبد القادر .

١١٩ ـ **الرُّؤيا ضوابطها وتفسيرها** ، لهشام الحمصي ، دار الكلم الطَّيب ، دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

١٢٠ ـ **رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة** ، د. حسين محمَّد سليمان ، دار الإصلاح ـ الدَّمام بالسعودية .

١٢١ ـ **الرَّحيق المختوم** ، لصفيِّ الرَّحمن المباركفوري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ لبنان .

١٢٢ ـ **رسالة الأنبياء** لعمر أحمد عمر ، دار الحكمة ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

١٢٣ ـ **الرَّسول القائد ﷺ** ، محمود شيت خطَّاب ، الطَّبعة الثَّانية ، سنة الطَّبع ١٩٦٠م ، دار مكتبة الحياة ، ومكتبة النَّهضة ـ بغداد .

١٢٤ ـ **الرَّسول ﷺ المبلِّغ** ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٢٥ ـ **الرَّسول المعلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم** للشيخ عبد الفتاح أبي غدَّة ، دار مكتب المطبوعات الإسلاميَّة ـ حلب ، الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٦ ـ **روح المعاني (تفسير الآلوسي)** ، لمحمود الآلوسي البغدادي ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠٢هـ.

١٢٧ ـ **الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة** لابن هشام لأبي القاسم السُّهيلي ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، طبعة ١٣٨٧هـ.

(ز)

١٢٨ ـ **زاد المسير في علم التَّفسير** ، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشيِّ البغداديِّ ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

١٢٩ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية ، حقَّقه: شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ، دار الرِّسالة.

١٣٠ ـ **زاد اليقين** للاشين أبو شنب ، دار البشير ، طنطا ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.

١٣١ ـ **الزُّهد** ، لأحمد بن حنبل ، دار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣٢ ـ **زيد بن ثابت ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن** لصفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

(س)

١٣٣ ـ **سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد** لمحمد بن يوسف الصَّالحي ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٣٤ ـ **السَّرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة** ، د. بريكك محمَّد بريكك ، دار ابن الجوزي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣٥ ـ **السَّفارات النَّبويَّة** ، د. محمد العقيلي ، دار إحياء العلوم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣٦ ـ **سفراء الرَّسول ﷺ** ، لمحمود شيت خطاب ، مؤسسة الرَّيان ، دار الأندلس الخضراء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣٧ ـ **سنن أبي داود** للإمام أبي داود سليمان السِّجستانيِّ ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس ، ١٣٩١هـ ، سورية .

١٣٨ ـ **سنن ابن ماجه** للحافظ أبي عبد الله محمَّد بن زيد القزوينيِّ ، دار الفكر .

١٣٩ ـ **سنن التِّرمذي** للإمام أبي عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيِّ ، دار الفكر ، ١٣٩٨هـ .

١٤٠ ـ **سنن الدارقطني** ، علي بن عمر الدار قطني ، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، عالم الكتب ، لبنان .

١٤١ ـ **سنن النَّسائي** ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائيِّ ، مطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٤٢ ـ **سير أعلام النُّبلاء** ، لشمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ .

١٤٣ ـ **السِّير والمغازي** لابن إسحاق ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ، طبعة أولى ١٩٧٨م .

١٤٤ ـ **السِّيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون** ، علي بن برهان الدِّين الحلبي ، دار المعرفة .

١٤٥ ـ **سيرة الرَّسول ﷺ ، صورٌ مقتبسةٌ من القرآن الكريم** ، تأليف الأستاذ محمد عزَّة دروزة ، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري ، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد آل ثاني ـ حاكم قطر ، المؤتمر العالمي للسِّيرة النَّبويَّة ، ١٤٠٠هـ ـ الدَّوحة .

١٤٦ ـ **السِّيرة النَّبويَّة** لأبي الحسن النَّدويِّ ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة ـ القاهرة .

١٤٧ ـ **السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل** لمحمَّد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م ، عمَّان .

١٤٨ ـ **السِّيرة النَّبويَّة** ، للذَّهبي ، تحقيق حسام الدِّين القدسي ، مكتبة هلال ـ بيروت .

١٤٩ ـ **السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة** ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة .

١٥٠ ـ **السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ ، وبناء دولةٍ** ، لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م

١٥١ ـ **السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ** ، د. مصطفى السِّباعي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، لبنان ، الطبعة التَّاسعة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

١٥٢ ـ **السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة** لمحمد أبو شهبة ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

١٥٣ ـ **السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة** ، د. مهدي رزق الله أحمد ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة ـ الرِّياض .

١٥٤ ـ **السِّيرة النَّبويَّة** لأبي حاتم البستي ، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
١٥٥ ـ **السِّيرة النَّبويَّة** ، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام ، دار الفكر ، بدون تاريخ .
١٥٦ ـ **السِّيرة النَّبويَّة** ، لابن كثير ، للإمام أبي الفداء إسماعيل ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ ، دار الفكر بيروت ـ لبنان .
١٥٧ ـ **السِّيرة النَّبويَّة** ، لمحمد الصَّوياني ، مؤسَّسة الرَّيان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

(ش)

١٥٨ ـ **شذرات الذَّهب** لعبد الحيِّ بن العماد الحنبليِّ ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ـ بيروت .
١٥٩ ـ **شرح السُّنَّة** لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغويِّ ، تحقيق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلميَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٦٥م ـ القاهرة .
١٦٠ ـ **شرح العقيدة الطَّحاويَّة** لابن أبي العزِّ الحنفي ، تحقيق ، وتعليق ، وتخريج أحاديث ، وتقديم د. عبد الله بن عبد المحسن التُّركي ، وشعيب الأرناؤوط ، ط٤ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت .
١٦١ ـ **شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني** ، تحقيق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م .
١٦٢ ـ **شرح المواهب اللَّدنية** ، للقسطلانيِّ ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني ، دار المعرفة ، بيروت .
١٦٣ ـ **شرح النَّووي على صحيح مسلم** للإمام النَّوويِّ ـ أبو زكريا محيي الدِّين يحيى ابن شرف ، المتوفى ٦٧٦هـ ـ طبع المطبعة المصريَّة ومكتبتها ـ القاهرة ، عام ١٣٤٩هـ .
١٦٤ ـ **شرح رسالة التَّعاليم** لمحمَّد عبد الله الخطيب ، دار الوفاء .
١٦٥ ـ **الشِّفا في التَّعريف بحقوق المصطفى** ، للإمام القاضي عياض ، إستانبول ، عثمانيَّة .

(ص)

١٦٦ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** لأحمد بن علي القلقشنديِّ ، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
١٦٧ ـ **الصَّحابيُّ الشَّاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى** ، تأليف محمَّد علي كاتبي ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
١٦٨ ـ **صحيح البخاريِّ** لمحمَّد بن إسماعيل البُخاريِّ ، دار الفكر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

١٦٩ ـ **صحيح الجامع الصَّغير وزياداته** ، لمحمَّد ناصر الدِّين الألباني ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان .
١٧٠ ـ **صحيح السِّيرة النَّبويَّة** للطَّرهوي ، لمحمَّد رزق ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ .
١٧١ ـ **صحيح السِّيرة النَّبويَّة** ، لإبراهيم العلي ، دار النفائس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م .
١٧٢ ـ **صحيح سنن ابن ماجه** لناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٧٣ ـ **صحيح مسلمٍ بشرح النَّوويّ** ، المطبعة المصريَّة بالأزهر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م .
١٧٤ ـ **صحيح مسلمٍ** ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٧٢م .
١٧٥ ـ **الصِّراع مع الصَّليبيِّين** لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار البشير ـ طنطا ، طبعة عام ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
١٧٦ ـ **الصِّراع مع اليهود** لمحمد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .
١٧٧ ـ **صفة الصفَّوة لابن الجوزيِّ** ، تحقيق : محمود خوري ، ومحمَّد روَّاس قلعجي ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ .
١٧٨ ـ **صفة الغرباء** ، سلمان العودة ، دار ابن الجوزيِّ ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
١٧٩ ـ **صفوة التَّفاسير** للصَّابوني ، دار القرآن الكريم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ـ عام ١٤٠١هـ .
١٨٠ ـ **صلاح الدِّين الأيوبي** لعبد الله علوان .
١٨١ ـ **صلح الحديبية** لمحمد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٧٣م ـ ١٣٩٣هـ .
١٨٢ ـ **صورٌ من حياة الرَّسول** ﷺ لأمين دويدار ، الطَّبعة الرَّابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
١٨٣ ـ **صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة** ، تأليف : د. محمَّد فوزي فيض الله ، دار القلم ـ دمشق ، الدَّار الشَّاميَّة ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .

(ض)

١٨٤ ـ **ضوابط المصلحة** ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، ط٤ ، سنة ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرِّسالة .

(ط)

١٨٥ ـ **الطَّاعة ، والمعصية ، وأثرهما في المجتمع ، غزوة أحد** ، لمحمَّد بن صالح العثيمين .

١٨٦ ـ **طبقات الشُّعراء الجاهليِّين ، والإسلاميِّين** ، بدون معلومات نشر ، لأبي عبد الله محمَّد بن سلام بن عبد الله الجمحي .

١٨٧ ـ **طبقات ابن سعدٍ الكبرى** ، لمحمَّد بن سعد الزُّهري ، دار صادر ، ودار بيروت للطِّباعة والنشر ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .

١٨٨ ـ **طريق النُّبوَّة والرِّسالة** ، د. حسين مؤنس ، دار الرَّشاد ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

١٨٩ ـ **الطَّريق إلى المدائن** ، لعادل كمال ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، بيروت ـ لبنان .

١٩٠ ـ **الطَّريق إلى المدينة** لمحمد العبده ، دار الجوهرة ـ عمَّان ، الطَّبعة الثانية ، طبعة ١٩٩٩م .

١٩١ ـ **الطَّريق إلى جماعة المسلمين** لحسين بن محسن بن علي جابر ، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء بالمنصورة ـ مصر .

(ظ)

١٩٢ ـ **ظاهرة الإرجاء** لسفر الحوالي ، مكتبة الطَّيب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، القاهرة ـ مصر .

(ع)

١٩٣ ـ **العبادة في الإسلام** ليوسف القرضاوي ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية عشرة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١٩٤ ـ **عبد الله بن مسعودٍ** ، لعبد الستَّار الشَّيخ ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

١٩٥ ـ **العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ** ، لمحمَّد فرج ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٩٧٧م ، دار الفكر العربيِّ ـ القاهرة .

١٩٦ ـ **عقيدة أهل السُّنة في الصَّحابة** ، د. ناصر حسن الشِّيخ ، مكتبة الرُّشد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

١٩٧ ـ **علاج القرآن الكريم للجريمة** ، د. عبد الله الشَّنقيطي ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ.

١٩٨ ـ **العلاقات الخارجية للدَّولة الإسلاميَّة** ، د. سعيد عبد الله حارب المهيري ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
١٩٩ ـ **علاقة الآباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلامية** ، د. سعاد الصَّالح ، الناشر تهامة ـ جدَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠١هـ.
٢٠٠ ـ **عمدة القاري** ، شرح صحيح البخاريِّ لبدر الدين العيني.
٢٠١ ـ **العهد** ، **والميثاق في القرآن الكريم** ، د. ناصر العمري ، دار العاصمة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ.
٢٠٢ ـ **عون المعبود** ، شرح سنن أبي داود ، تحقيق عبد الرَّحمن محمد عثمان ، دار الفكر ـ بيروت.
٢٠٣ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي** ، **والشَّمائل** ، **والسير** ، لابن سيِّد النَّاس ، دار المعرفة ـ بيروت.

(غ)

٢٠٤ ـ **الغرباء الأوَّلون** ، سلمان العودة ، الطَّبعة الثَّالثة ، عام ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ، دار ابن الجوزي ، الدَّمام السُّعودية.
٢٠٥ ـ **غزوة أحدٍ** لأحمد عزِّ الدين.
٢٠٦ ـ **غزوة أحد دراسةٌ دعويَّةٌ** لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج ، دار إشبيليا ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٢٠٧ ـ **غزوة أحدٍ** ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، دار الفرقان ، عمَّان ـ الأردن.
٢٠٨ ـ **غزوة الأحزاب** لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٢٠٩ ـ **غزوة الأحزاب** لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الخامسة ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
٢١٠ ـ **غزوة بدر الكبرى الحاسمة** لمحمود شيت خطَّاب.
٢١١ ـ **غزوة بدر الكبرى** ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٢١٢ ـ **غزوة بدر الكبرى** لمحمد أحمد باشميل ، طبع دار الفكر ، الطَّبعة السادسة ، سنة ١٣٩٤هـ.
٢١٣ ـ **غزوة تبوك** لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ـ بيروت.

(ف)

٢١٤ ـ **فتح الباري لابن حجر العسقلاَّني** ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٢١٥ ـ **الفتح الرَّبَّاني** لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار الشِّهاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٢١٦ ـ **الفتح الرَّبَّاني** لأحمد عبد الرحمن السَّاعاتي ، في ترتيب مسند الإمام أحمد : أحمد عبد الرحمن الساعاتي ، مطبعة الفتح الرَّبَّاني بالقاهرة ، الطَّبعة الأولى .
٢١٧ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير** : محمد بن علي الشَّوكاني ، دار الفكر .
٢١٨ ـ **الفصل في الملل** ، **والنِّحل** ، **والأهواء** ، لابن حزم ، مكتبة السَّلام العالميَّة .
٢١٩ ـ **فصول في السِّيرة النَّبويَّة** ، لعبد المنعم السَّيِّد .
٢٢٠ ـ **فقه الإسلام** ، **شرح بلوغ المرام** لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ، مطابع الرَّشيد ـ المدينة المنوَّرة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٣ هـ .
٢٢١ ـ **فقه الابتلاء** لمحمَّد أبو صعيليك ، دار البيارق ، عمَّان ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .
٢٢٢ ـ **فقه التَّمكين في القرآن الكريم** لعليٍّ محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٩م .
٢٢٣ ـ **فقه الدَّعوة إلى الله** لعبد الحليم محمود ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .
٢٢٤ ـ **فقه الدَّعوة الفرديَّة** ، د. سيد محمَّد نوح ، دار اقرأ ، صنعاء .
٢٢٥ ـ **فقه الزَّكاة** للقرضاوي ، مكتبة وهبة ، الطَّبعة الحادية والعشرون ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .
٢٢٦ ـ **الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة** ، خالد الفهداوي ، دار عمَّار ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .
٢٢٧ ـ **فقه السِّيرة النَّبويَّة** ، لمنير الغضبان ، معهد البحوث العلميَّة ، وإحياء التراث ـ مكَّة المكرَّمة .
٢٢٨ ـ **فقه السيرة** ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٩٩١ م ، دار الفكر ، دمشق ـ سورية .
٢٢٩ ـ **فقه السِّيرة** للغزالي ، الطَّبعة الرابعة ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م ، دار القلم ، دمشق ـ سورية .
٢٣٠ ـ **فلسفة التَّربية الإسلاميَّة** لماجد عرسان الكيلاني ، مكتبة هادي ، مكَّة المكرَّمة ، طبعة عام ١٤٠٩ هـ .

٢٣١ ـ **الفوائد لابن القيِّم** لمحمَّد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية ، ودار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٢٣٢ ـ **في السِّيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية** ، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد ، الطَّبعة الأولى رجب ١٤١٧ هـ ، وزارة الأوقاف ـ بدولة قطر .

٢٣٣ ـ **في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ، الهجرة النَّبويَّة** ، الدُّكتور محمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمَّان ـ الأردن، الطَّبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٢٣٤ ـ **في ظلال القرآن** لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة التَّاسعة ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

(ق)

٢٣٥ ـ **القاموس المحيط** لمجد الدِّين محمد الفيروز آبادي ، مطبعة مصطفى البابي وأولاده ـ بمصر ، الطَّبعة الثانية ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

٢٣٦ ـ **قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية** ، لمحمد قلعجي ، دار النفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م ، بيروت ـ لبنان .

٢٣٧ ـ **قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير ، وأثرها في التُّراث العربيِّ**، تأليف د . السيد إبراهيم محمَّد، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٢٣٨ ـ **قضايا في المنهج** ، سلمان العودة ، دار مكتبة القدس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٢٣٩ ـ **قضايا نساء النَّبي ﷺ والمؤمنات** ، حفصة بنت عثمان الخليفي ، دار المسلم الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٢٤٠ ـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** : لأبي محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السلمي (ت٦٦٠ هـ) ، المكتبة الحسينية المصريَّة ، بجوار الأزهر ، الطبّعة الأولى ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م .

٢٤١ ـ **القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين** ، د . محمَّد الطيب النَّجار ، دار اللِّواء ، الرِّياض ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٢٤٢ ـ **قيادة الرسول السِّياسيَّة ، والعسكريَّة** لأحمد راتب عرموش ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

٢٤٣ ـ **القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ** ، دار القلم ، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

(ك)

٢٤٤ ـ **الكامل في التَّاريخ لابن الأثير** ، لأبي الحسن علي بن محمَّد ، دار صادر ـ بيروت .

(ل)

٢٤٥ ـ **لسان العرب** ، محمَّد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ـ بيروت .

٢٤٦ ـ **لقاء المؤمنين** ، عدنان النَّحوي ، مطابع الفرزدق التِّجارية ، الرِّياض ـ السُّعودية ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

(م)

٢٤٧ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** لأبي الحسن علي الحسني النَّدويِّ ، الطَّبعة السابعة ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، دار المعارف .

٢٤٨ ـ **المال في القرآن الكريم** ، سليمان الحصين ، دار المعراج الدَّوليَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٢٤٩ ـ **مباحث في إعجاز القرآن** ، مصطفى مسلم ، دار المسلم ، الرِّياض ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢٥٠ ـ **مباحث في التَّفسير الموضوعي** ، مصطفى مسلم ، دار القلم ، دمشق ـ سورية .

٢٥١ ـ **مباحث في علوم القرآن** ، منَّاع القطان ، مكتبة المعارف ـ الرِّياض ، الطَّبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٢٥٢ ـ **مبادئ علم الإدارة** لمحمَّد نور الدِّين عبد الرزَّاق ، مكتبة الخدمات الحديثة ، جدَّة ـ السُّعودية ، الطَّبعة الأولى بدون تاريخ .

٢٥٣ ـ **مبادئ نظام الحكم في الإسلام** لعبد الحميد متولِّي ، الطَّبعة الأولى ، دار المعارف .

٢٥٤ ـ **المبسوط للسَّرخسيِّ** ، شمس الدِّين السَّرخسي ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى .

٢٥٥ ـ **المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة** ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

٢٥٦ ـ **مجلَّة المجتمع الكويتيَّة** ، عدد رقم ٢٤٨ ، ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ .

٢٥٧ ـ **مجمع الزَّوائد** ، **ومنبع الفوائد** ، نور الدِّين عليُّ بن أبي بكرٍ الهيثميُّ ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٢٥٨ ـ **مجموع فتاوى** : شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، جمع عبد الرحمن بن محمَّد قاسم العاصمي النَّجدي ، المكتب التعليميُّ السُّعوديُّ بالمغرب .

٢٥٩ ـ **مجموعة الوثائق السِّياسية** لمحمد حميد الله ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٢٦٠ ـ **محاسن التَّأويل للقاسمي** لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي ، دار الفكر ، بيروت .

٢٦١ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** لابن عطيَّة ، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، طبعة ١٣٩٥ هـ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب .
٢٦٢ ـ **محمَّد رسول الله** ، لمحمَّد الصَّادق عرجون ، دار القلم ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .
٢٦٣ ـ **محمد رسول الله** ، لمحمَّد رشيد رضا ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ١٩٧٥ م .
٢٦٤ ـ **محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ** ، د. سليمان السّويكت ، مكتبة التَّوبة ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .
٢٦٥ ـ **المختار من كنوز السُّنَّة** ، لمحمَّد عبد الله دراز ، دار الأنصار ـ القاهرة ، الطَّبعة الثَّانية ١٩٧٨ م .
٢٦٦ ـ **مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهمية المعطِّلة لابن قيِّم الجوزيَّة** ، اختصره محمد الموصلي ، مكتبة الرِّياض الحديثة .
٢٦٧ ـ **مختصر سيرة الرَّسول** ﷺ لمحمَّد بن عبد الوهاب ، جامعة الإمام محمَّد بن سعود .
٢٦٨ ـ **مختصر صحيح مسلم** ، للحافظ زكي عبد العظيم عبد القويِّ بن سلامة المنذري ، تحقيق محمد ناصر الألباني ـ الطَّبعة الثالثة سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م . المكتب الإسلامي ـ دمشق .
٢٦٩ ـ **المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيّة العسكريَّة** ، لمحمَّد جمال الدِّين علي محفوظ ، مطابع الهيئة المصريَّة للكتاب بالقاهرة .
٢٧٠ ـ **مدخل لفهم السِّيرة** ، د. يحيى اليحيى ، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها .
٢٧١ ـ **المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة** ، لأبي فارس ، دار الفرقان ، عمَّان .
٢٧٢ ـ **المدينة النَّبوية** ، **فجر الإسلام** ، **والعصر الرَّاشدي** ، لمحمد حسن شراب ، دار القلم ـ دمشق ، الدّار الشَّامية ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .
٢٧٣ ـ **المرأة في العهد النَّبويِّ** ، د. عصمة الدِّين كركر ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٣ م بيروت .
٢٧٤ ـ **مرض النَّبيِّ** ﷺ **ووفاتُه وأثره على الأمَّة** لخالد أبو صالح ، دار الوطن ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ .
٢٧٥ ـ **مرويات غزوة أحدٍ** ، حسين أحمد الباكري ، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلاميَّة ، إشراف د. أكرم العمري ، عام ١٤٠٠ هـ ـ ١٣٩٩ م .
٢٧٦ ـ **مرويات غزوة الحديبية** ، د. حافظ الحكمي ، دار ابن القيِّم ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

٢٧٧ ـ **مرويات غزوة بدرٍ** لأحمد باوزير ، مكتبة طيبة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .
٢٧٨ ـ **مرويات غزوة بني المصطلق** ، لإبراهيم القريبي ، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلاميَّة ـ المدينة المنورة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٢ هـ .
٢٧٩ ـ **مساجد القاهرة ومدارسها** ، لأحمد فكري ، طبعة الإسكندريَّة ، ١٩٦١ م .
٢٨٠ ـ **المستدرك على الصَّحيحين** للإمام أبي عبد الله الحاكم النَّيسابوري ، وبذيله التَّلخيص للذَّهبي ، ط ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ، دار النَّشر مكتب المطبوعات الإسلاميَّة .
٢٨١ ـ **المستشفيات الإسلاميَّة** ، د. عبد الله عبد الرزَّاق مسعود العيد ، دار الضِّياء للنَّشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م ، عمَّان ـ الأردن .
٢٨٢ ـ **المُسْتَطْرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَظْرَف** لشهاب الدِّين الأبشيهي ، مكتبة الحياة ـ بيروت .
٢٨٣ ـ **المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة** لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٢٨٤ ـ **المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة** لعبد الرَّحمن أحمد سالم ، دار الفكر العربي ، طبعة ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٢٨٥ ـ **المسند** لأحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
٢٨٦ ـ **المشروع الإسلامي لنهضة الأمَّة قراءةٌ في فكر حسن البنَّا** ، لمجموعة من الباحثين ، لم تطبع حتَّى كتابة هذا البحث .
٢٨٧ ـ **مشكاة المصابيح** ، للخطيب التبريزي ، تحقيق : محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ، ط١ ، ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .
٢٨٨ ـ **مصعب بن عمير ، الدَّاعية المجاهد** ، لمحمَّد حسن بريغش ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م
٢٨٩ ـ **مصنَّف عبد الرزاق** لأبي بكر عبد الرزَّاق بن همَّام الصنعاني ، تحقيق : حبيب الرَّحمن الأعظمي ، الطَّبعة الأولى .
٢٩٠ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثَّمانية** لأحمد بن علي بن حجر العسقلاَّني ، تحقيق : حبيب الرَّحمن الأعظمي .
٢٩١ ـ **معارك خالد بن الوليد** ، د. ياسين سويد ، الطَّبعة الرابعة ١٩٨٩ م ، المؤسَّسة العربيَّة للدراسة والنَّشر .
٢٩٢ ـ **معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود** ، د. مصطفى مسلم محمَّد ، دار المسلم ـ الرِّياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .
٢٩٣ ـ **المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي** ، د. محمد الدِّيك ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م ، دار الفرقان للنَّشر والتَّوزيع .

٢٩٤ ـ **معجم البلدان** لياقوت الحموي، دار صادر ، ودار بيروت ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

٢٩٥ ـ **معجم الطَّبراني** ، لسليمان بن أحمد الطَّبراني ، دار العربيَّة ـ بغداد ، ١٣٩٨ هـ.

٢٩٦ ـ **المعجم الكبير** ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبراني، ٢٦٠ هـ ـ ٣٦٠ هـ، دار مكتبة العلوم والحكم ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م.

٢٩٧ ـ **معركة الوجود بين القرآن والتُّلمود** ، لعبد السَّتَّار فتح الله السَّعيد ، مكتبة المنار.

٢٩٨ ـ **المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميّة في عهد النُّبوَّة** ، **وموقف الإسلام منهم** ، للدَّكتور سميرة محمَّد جمجوم، دار المجتمع ـ جدَّة، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.

٢٩٩ ـ **المغازي النبويَّة** ، **للزُّهري** ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ـ دمشق ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٣٠٠ ـ **مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير** ، تحقيق: د. محمد الأعظمي ، نشر مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٣٠١ ـ **المغازي للواقديِّ** ، المتوفى ٢٠٧ هـ ، تحقيق د. مارسدن جونس ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

٣٠٢ ـ **مفاهيم ينبغي أن تصحَّح** ، لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ـ القاهرة ، الطَّبعة الثَّامنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.

٣٠٣ ـ **المفصَّل في أحكام النِّساء** ، لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.

٣٠٤ ـ **مقاصد الشَّريعة الإسلاميّة** ، د. محمَّد سعد اليوبي ، دار الهجرة ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٣٠٥ ـ **المقاصد العامَّة للشَّريعة الإسلاميّة** ، يوسف حامد العالم ، الدَّار العلميَّة للكتاب الإسلاميِّ ، ط٢ ، سنة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٣ م ـ الرِّياض.

٣٠٦ ـ **مقدِّمة ابن الصَّلاح** وشرحها للحافظ العراقي أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصَّلاح ، طبع دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان.

٣٠٧ ـ **مقدِّمة ابن خلدون** ، للعلاَّمة عبد الرَّحمن بن محمَّد بن خلدون ، ط المكتبة التِّجارية الكبرى ـ القاهرة ، بدون تاريخ.

٣٠٨ ـ **مقومات الدَّاعية النَّاجح** ، د. علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء ـ جدَّة الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

٣٠٩ ـ **مقوِّمات السُّفراء في الإسلام** ، لحسن فتح الباب ، المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة ـ القاهرة ، ١٩٧٠ م.

٣١٠ ـ **مقوِّمات النَّصر** ، د. أحمد أبو الشَّباب ، المكتبة العصريَّة ـ لبنان ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .
٣١١ ـ **مكَّة والمدينة في الجاهليّة وعصر الرَّسول** ﷺ ، للأستاذ أحمد الشَّريف .
٣١٢ ـ **ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميّة** ، لعدنان النَّحوي ، الطَّبعة الثانية .
٣١٣ ـ **مِنْ معين السِّيرة** لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .
٣١٤ ـ **من هدي سورة الأنفال** ، لمحمَّد أمين المصري ، طبع مكتبة دار الأرقم ـ الكويت .
٣١٥ ـ **المنافقون** ، لمحمَّد جميل غازي ، مكتبة المدني ومطبعتها ، ١٩٧٢ م ، جدَّة ـ السُّعودية .
٣١٦ ـ **منامات الرَّسول** ﷺ ، لعبد القادر الشَّيخ إبراهيم ، دار القلم العربي بحلب ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .
٣١٧ ـ **مناهج وآداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم** ، د. عبد الرحمن البر ، دار اليقين ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .
٣١٨ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان .
٣١٩ ـ **منهاج السُّنَّة النَّبويَّة** ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة ، مؤسَّسة قرطبة للطِّباعة ، والنَّشر ، والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .
٣٢٠ ـ **المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع** لعبد السَّتار فتح الله سعيد ، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .
٣٢١ ـ **منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية** ، لسليم حجازي ، دار المنارة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .
٣٢٢ ـ **منهج الإسلام في تزكية النَّفس** ، د. أنس أحمد كرزون ، دار نور المكتبات ، دار ابن حزم ، الطَّبعة الثانية ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٣٢٣ ـ **المنهج التربويُّ للسِّيرة النَّبويَّة ـ التَّربية الجهاديَّة** لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .
٣٢٤ ـ **منهج التَّربية الإسلاميَّة** لمحمد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .
٣٢٥ ـ **المنهج الحركيُّ للسِّيرة النَّبويَّة** لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ـ الأردن ، الطَّبعة الثالثة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٣٢٦ ـ **منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه** ، للسَّيِّد محمَّد نوح ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م ، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة .

٣٢٧ ـ **الموازنة بين ذوق السَّماع ، وذوق الصَّلاة ، والقرآن** للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة ، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد .

٣٢٨ ـ **الموافقات في أصول الأحكام** لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشَّاطبي ، دار الفكر ، ١٣٤١ هـ .

٣٢٩ ـ **الموسوعة في سماحة الإسلام** لمحمَّد صادق عرجون ، ط الثَّانية ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ، الدَّار السُّعودية للنَّشر ، والتَّوزيع ـ جدَّة .

(ن)

٣٣٠ ـ **نشأة الدَّولة الإسلاميَّة** ، د . عون الشَّريف قاسم ، دار الكتاب اللُّبناني ـ بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

٣٣١ ـ **نصب الرَّاية في أحاديث الهداية** ـ بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزَّيلعي ، لعبد الله بن يوسف بن محمد الزَّيلعي ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٩٣ هـ .

٣٣٢ ـ **نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي** ، لظافر القاسمي ، دار النفائس ، الطَّبعة السادسة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٣٣٣ ـ **نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى : التَّراتيب الإداريَّة** ، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني ، دار الأرقم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية .

٣٣٤ ـ **النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام** ، لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٣٣٥ ـ **نظراتٌ في السِّيرة** ، للإمام حسن البنَّا ، مكتبة الاعتصام ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، سجَّلها ، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور .

٣٣٦ ـ **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم** ، إعداد مجموعة من المختصِّين بإشراف صالح بن حميد ، دار الوسيلة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ

٣٣٧ ـ **نفوسٌ ودروسٌ في إطار التَّصوير القرآنيِّ** لتوفيق محمَّد سبع ، مجمع البحوث الإسلاميَّة ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، بدون تاريخ .

٣٣٨ ـ **النُّكت والعيون (تفسير الماوردي)** لأبي الحسن علي بن حبيب الماورديِّ ، تحقيق خضر محمَّد خضر ـ نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة ، والتُّراث الإسلاميِّ ـ بالكويت .

٣٣٩ ـ **النِّهاية في غريب الحديث** ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزَّاوي ، ومحمود محمَّد الطناحي .

٣٤٠ ـ **نور اليقين** ، لمحمَّد الخضري ، دار القلم ، دمشق ـ سورية .

٣٤١ ـ **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيِّد الأخيار** ، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني ، دار الحديث ـ القاهرة .

(هـ)

٣٤٢ ـ **الهجرة الأولى في الإسلام** ، د. سليمان العودة ، دار طيبة للنَّشر ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ.

٣٤٣ ـ **هجرة الرَّسول ﷺ وصحابتُه في القرآن والسُّنَّة** لأحمد عبد الغني النجولي الجمل ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م.

٣٤٤ ـ **الهجرة النَّبويَّة المباركة** ، د. عبد الرحمن البر ، دار الكلمة ، المنصورة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م.

٣٤٥ ـ **الهجرة في القرآن الكريم** لأحزمي سامعون جزولي ، مكتبة الرُّشد ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

٣٤٦ ـ **هذا الحبيب محمَّد ﷺ يا محبُّ** لأبي بكر الجزائري ، مكتبة لينة .

٣٤٧ ـ **هذا الدِّين** ، لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م.

(و)

٣٤٨ ـ **واقعنا المعاصر** لمحمَّد قطب ، مؤسَّسة المدينة للصَّحافة ، والطِّباعة ، والنَّشر ـ جدَّة ، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م.

٣٤٩ ـ **الوحي والرِّسالة** ، د. يحيى اليحيى ، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع .

٣٥٠ ـ **الوسطية في القرآن الكريم** ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار النَّفائس ، دار البيارق ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م.

٣٥١ ـ **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى** لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي ، دار المصطفى ، طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ.

٣٥٢ ـ **الوفود في العهد المكِّيِّ ، وأثره الإعلاميِّ** ، لعلي رضوان أحمد الأسطل ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ، دار المنار ـ الأردن ، عمَّان .

٣٥٣ ـ **وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة** لأحمد فريد ، دار طيبة ، الرِّياض ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

٣٥٤ ـ **وقفاتٌ تربويَّةٌ من السِّيرة النَّبويَّة** ، لعبد الحميد البلالي ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م ، المنار ، الكويت .

٣٥٥ ـ **الولاء ، والبراء في الإسلام** ، لمحمَّد سعيد القحطان ، دار طيبة ـ الرِّياض ، الطَّبعة السَّادسة ١٤١٣ هـ.

٣٥٦ ـ **ولاية الشُّرطة في الإسلام** ، لنمر محمَّد الحميداني ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

(ي)

٣٥٧ ـ **يقظةُ أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار** ، لصدِّيق حسن .

٣٥٨ ـ **اليهود في السُّنَّة المطهَّرة** ، د. عبد الله الشقاري ، دار طيبة ـ الرِّياض ، طبعة أولى ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٣٥٩ ـ **اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار** ، د. عمر الأشقر ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

* * *

فهرس الموضوعات

المبحث الخامس: الخلاف في الأنفال، والأسرى ٥
أوَّلاً: الخلاف في الأنفال ٥
ثانياً: الأسرى ١٠
المبحث السَّادس: نتائج غزوة بدرٍ، ومحاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ ٢٠
أوَّلاً: نتائج غزوة بدرٍ ٢٠
ثانياً: محاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ، وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش) ٢٣
المبحث السَّابع: بعض الدُّروس، والعبر، والفوائد من غزوة بدرٍ ٢٧
أوَّلاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى ٢٧
ثانياً: يوم الفرقان ٢٨
ثالثاً: الولاء، والبراء من فقه الإيمان ٣٠
رابعاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها ٣٢
خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك ٣٥
سادساً: حُذيفة بن اليمان، وأُسَيْدُ بن الحُضَيْرِ رضي الله عنهما ٣٥
سابعاً: الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ ٣٦
المبحث الثَّامن: أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ، وأحد ٣٨
أوَّلاً: الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بعد بدرٍ، وقبل أحد ٣٨
ثانياً: غزوة بني قينقاع ٤١
ثالثاً: تصفية المحرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة: مقتل كعب بن الأشرف ٤٦
رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة ٥٥

الفصل التَّاسع
غزوة أحد

المبحث الأوَّل: أحداث ما قبل المعركة ٥٨

أوَّلاً : أسباب الغزوة ٥٨
ثانياً : خروج قريش من مكَّة إلى المدينة ٦٠
ثالثاً : الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوِّ ٦١
رابعاً : مشاورته ﷺ لأصحابه ٦٣
خامساً : خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ ٦٥
سادساً : خطَّة الرَّسول ﷺ لمواجهة كفار مكَّة ٧٠
المبحث الثَّاني : في قلب المعركة ٧٣
أوَّلاً : بدء القتال ، واشتداده ، وبوادر الانتصار للمسلمين ٧٣
ثانياً : مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول ﷺ ٧٥
ثالثاً : خطَّة الرَّسول ﷺ في إعادة شتات الجيش ٧٧
رابعاً : مِنْ شهداء أحد ٧٩
خامساً : مِنْ دلائل النُّبوَّة ٩٣
المبحث الثَّالث : أحداث ما بعد المعركة ٩٥
أوَّلاً : حوار أبي سفيان مع الرَّسول ﷺ وأصحابه ٩٥
ثانياً : تفقُّد الرَّسول ﷺ الشُّهداء ٩٦
ثالثاً : دعاء الرَّسول ﷺ يوم أحد ٩٧
رابعاً : معرفة وُجهة العدوِّ ٩٨
خامساً : غزوة حمراء الأسد ٩٩
سادساً : مشاركة نساء المسلمين في معركة أحد ١٠٣
سابعاً : دروس في الصبر تقدمها صحابيات للأمة ١٠٦
المبحث الرابع : بعض الدروس والعبر والفوائد ١٠٨
أولاً : تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني ١٠٨
ثانياً : تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد ١٠٩
ثالثاً : كيفية معالجة الأخطاء ١١٢
رابعاً : ضرب المثل بالمجاهدين السابقين ١١٢
خامساً : مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده ١١٣
سادساً : خطورة إيثار الدنيا على الآخرة ١١٥
سابعاً : التعلق والارتباط بالدين ١١٦
ثامناً : معاملة النبي ﷺ للرماة الذين أخطؤوا والمنافقين الذين انخذلوا ١١٩

تاسعاً: أحد جبل يحبنا ونحبه ١٢٠
عاشراً: الملائكة في أحد ١٢١
الحادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال وآل عمران ١٢٢
الثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم ١٢٣
الثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين ١٢٤

الفصل العاشر
أهم الأحداث ما بين أحد والخندق

المبحث الأول: محاولات المشركين لزعزعة الدولة الإسلامية ١٢٧
أولا: طمع بني أسد في الدولة الإسلامية ١٢٧
ثانياً: خالد بن سفيان الهذلي وتصدي عبد الله بن أنيس له ١٢٨
ثالثاً: غدر قبيلتي عضل والقارة، وفاجعة الرجيع ١٣٢
رابعاً: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ) ١٣٧
المبحث الثاني: زواج النبي ﷺ بأم المساكين، وأم سلمة وأحداث متفرقة ١٤٤
أولاً: زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها ١٤٤
ثانياً: زواج النبي ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها ١٤٤
ثالثاً: مولد الحسن بن علي رضي الله عنه ١٤٨
رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة ٤ هـ ١٤٩
المبحث الثالث: إجلاء يهود بني النضير ١٥٠
أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها ١٥٠
ثانياً: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم ١٥٣
ثالثاً: الدروس والعبر في هذه الغزوة ١٥٥
المبحث الرابع: غزوة ذات الرقاع ١٧٠
أولاً: تاريخها وأسبابها ولماذا سميت بذات الرقاع؟ ١٧٠
ثانياً: صلاة الخوف، وحراسة الثغور ١٧٢
ثالثاً: شجاعة الرسول ﷺ، ومعاملته لجابر بن عبد الله ١٧٤
المبحث الخامس: غزوة بدر الموعد ودومة الجندل ١٧٨
أولاً: غزوة بدر الموعد ١٧٨
ثانياً: دومة الجندل ١٧٩

المبحث السادس: غزوة بني المصطلق ١٨٣
أولاً: من هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟ ١٨٣
ثانياً: زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ١٨٥
ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار ١٨٧
رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق ١٩٣
خامساً: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي ﷺ بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك ١٩٤
سادساً: أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من آيات الإفك ٢٠٠
سابعاً: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق ٢٠٣

الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب (٥هـ)

المبحث الأول: تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها ٢٠٦
أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها ٢٠٦
ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب ٢٠٨
ثالثاً: اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الداخلية ٢٠٩
المبحث الثَّاني: اشتداد المحنة بالمسلمين ٢١٣
أوّلاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف ٢١٣
ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين، وانسحاب المنافقين، ونشرهم الأراجيف ٢١٤
ثالثاً: محاولة النَّبيِّ ﷺ تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان، وبثُّ الإشاعات في صفوف الأعداء ٢١٦
المبحث الثَّالث: مجيء نصر الله، والوصف القرآنيُّ لغزوة الأحزاب ٢٢١
أوّلاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول ﷺ، ونزول النَّصر ٢٢١
ثانياً: تحرِّي انصراف الأحزاب ٢٢٢
ثالثاً: الوصف القرآنيُّ لغزوة الأحزاب، ونتائجها ٢٢٤
رابعاً: التَّخلُّص من بني قريظة ٢٢٥
المبحث الرَّابع: فوائدُ، ودروسٌ، وعبر ٢٢٨

أوَّلاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله ﷺ ٢٢٨
ثانياً: بين التَّصوُّر، والواقع ٢٣٠
ثالثاً: سلمان منَّا أهل البيت ٢٣٠
رابعاً: الصَّلاة الوسطى ٢٣١
خامساً: الحلال، والحرام ٢٣١
سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّةِ الرَّسول ﷺ ٢٣١
سابعاً: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان رضي الله عنه ٢٣٢
ثامناً: أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ ٢٣٣
تاسعاً: المسلم يقع في الإثم، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة ٢٣٣
عاشراً: مِنْ فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه ٢٣٥
الحادي عشر: مقتل حُيَيِّ بن أخطب، وكعب بن أسد ٢٣٧
الثَّاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزُّبير بن باطا اليهوديِّ ٢٤٠
الثَّالث عشر: من أدب الخلاف ٢٤١
الرَّابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة، وإسلام ريحانة بنت عمرو ٢٤٢
الخامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب ٢٤٣

الفصل الثَّاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب، والحديبية مِنْ أحداثٍ مهمَّة

المبحث الأوَّل: زواج النَّبيِّ ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها ٢٤٥
أوَّلاً: اسمها، ونسبها ٢٤٥
ثانياً: زواجها رضي الله عنها من زيد بن حارثة رضي الله عنه ٢٤٦
ثالثاً: طلاق زيدٍ لزينب رضي الله عنها ٢٤٧
رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله ﷺ مِنْ زينب ٢٤٧
خامساً: قصَّة زواج رسول الله ﷺ من زينب، وما فيها من دروسٍ، وعبر ٢٥٠
المبحث الثَّاني: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا» ٢٥٦
أوَّلاً: سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء ٢٥٦
ثانياً: سريَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سِيْف البحر ٢٥٨
ثالثاً: سريَّة عبد الرَّحمن بن عوف إلى دومة الجندل ٢٦٢
رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وغيرها ٢٦٦
خامساً: سرية كرز بن جابر الفهريِّ إلى العُرَنيِّين ٢٧٠

المبحث الثَّالث: تصفية المحرِّضين على الدَّولة ٢٧٣
أوَّلاً: سريَّة عبد الله بن عتيك لقتل سلاَّم بن أبي الحُقَيْق ٢٧٣
ثانياً: سرية عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رزام اليهوديِّ ٢٧٧

الفصل الثَّالث عشر
الفتح المبين (صلح الحُديبية)

المبحث الأوَّل: تاريخه، وأسبابه، ومخرج رسول الله ﷺ إلى مكَّة ٢٧٩
أوَّلاً: تاريخه، وأسبابه ٢٧٩
ثانياً: وصول النَّبيِّ ﷺ إلى عُسْفان ٢٨١
ثالثاً: الرَّسول ﷺ يغيِّر الطَّريق، وينزل الحديبية ٢٨١
رابعاً: ما خلأت القَصْوَاء، وما ذاك لها بِخُلُقٍ، ولكنْ حبسها حابس الفيل ٢٨٢
خامساً: السَّفارة بين الرَّسول ﷺ، وقريش ٢٨٤
سادساً: الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين ٢٩٠
سابعاً: بيعة الرِّضوان ٢٩٤
المبحث الثَّاني: صلح الحديبية، وما ترتَّب عليه من أحداث ٢٩٩
أوَّلاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله ﷺ ٢٩٩
ثانياً: موقف أبي جندل، والوفاء بالعهد ٣٠٤
ثالثاً: احترام المعارضة النَّزيهة ٣٠٥
رابعاً: التَّحلُّل من العمرة، ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها ٣٠٧
خامساً: العودة إلى المدينة، ونزول سورة الفتح ٣٠٨
سادساً: أبو بصير في المدينة، وقيادته لحرب العصابات ٣١٣
سابعاً: امتناع النَّبيِّ ﷺ عن ردِّ المهاجرات ٣١٦
المبحث الثَّالث: دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد ٣١٩
أوَّلاً: أحكام تتعلَّق بالعقيدة ٣١٩
ثانياً: أحكام فقهيَّة، وأصوليَّة ٣٢٢
ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة ٣٢٦

الفصل الرَّابع عشر
أهمُّ الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكَّة

المبحث الأوَّل: غزوة خيبر ٣٢٨

أوَّلاً : تاريخها ، وأسبابها ٣٢٨
ثانياً : مسيرة الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر ٣٢٩
ثالثاً : وصف تساقط حصون خيبر ٣٣١
رابعاً : الأعرابيُّ الشَّهيد ، والرَّاعي الأسود ، وبطلٌ إلى النَّار ٣٣٣
خامساً : قدوم جعفر بن أبي طالبٍ ومَنْ معه من الحبشة ٣٣٥
سادساً : تقسيم الغنائم ٣٣٦
سابعاً : زواج رسول الله ﷺ من صفيَّة بنت حُيَيِّ بن أخطب ٣٣٨
ثامناً : محاولةٌ أثيمةٌ لليهود : الشَّاة المسمومة ٣٤١
تاسعاً : الحجَّاج بن عِلاَطٍ السُّلميُّ ، وإرجاع أمواله من مكَّة ٣٤٢
عاشراً : بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة ٣٤٤
المبحث الثاني : دعوة الملوك ، والأمراء ٣٤٨
أوَّلاً : كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميِّ ٣٤٨
ثانياً : مواصفات رجل الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة ٣٥١
ثالثاً : دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٣٥٣
المبحث الثَّالث : عمرة القضاء ٣٥٩
أوَّلاً : الحيطة ، والحذر من غدر قريشٍ ٣٥٩
ثانياً : دخول مكَّة ، والطَّواف ، والسَّعي ٣٦٠
ثالثاً : زواجه ﷺ من أمِّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث ٣٦٢
رابعاً : التحاق بنت حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين ٣٦٣
خامساً : أثر عمرة القضاء على الجزيرة ، وإسلام خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ٣٦٤
المبحث الرَّابع : سرية مؤتة (٨هـ) ٣٧٠
أوَّلاً : أسبابها ، وتاريخها ٣٧٠
ثانياً : وداع الجيش الإسلاميِّ ٣٧٢
ثالثاً : الجيش يصل إلى مَعان ، واستشهاد الأمراء الثَّلاثة ٣٧٢
رابعاً : المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً ٣٧٤
خامساً : معجزة الرَّسول ﷺ ، وموقف أهل المدينة من الجيش ٣٧٦
سادساً : دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٣٧٧
المبحث الخامس : سريَّة ذات السَّلاسل ٣٨٣

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكة (٨هـ)

المبحث الأوَّل: أسبابها، والاستعداد للخروج، والشُّروع فيه ٣٨٨
أوَّلاً: أسبابها ٣٨٨
ثانياً: الاستعداد للخروج ٣٩١
ثالثاً: الشُّروع في الخروج، وأحداثٌ في الطريق ٣٩٦
المبحث الثَّاني: خطَّة النَّبيِّ ﷺ لدخول مكَّة، وفتحها ٤٠٢
أوَّلاً: توزيع المهامِّ بين قادة الصَّحابة ٤٠٢
ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ ٤٠٥
ثالثاً: إعلان العفو العامِّ ٤٠٨
رابعاً: بعث خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ ٤١١
خامساً: هدم بيوت الأوثان ٤١٢
المبحث الثَّالث: دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد ٤١٥
أوَّلاً: تفسير سورة النَّصر، وكونها علامةً على أجل رسول الله ﷺ ٤١٥
ثانياً: مواقف دعويَّة، وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس ٤١٦
ثالثاً: «أتكلمني في حدٍّ من حدود الله؟!» ٤٢١
رابعاً: «أجرنا من أجرت يا أمَّ هانئ!» ٤٢٢
خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين» ٤٢٢
سادساً: «المحيا محياكم، والممات مماتكم» ٤٢٣
سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبعرى شاعر قريش ٤٢٣
ثامناً: من الأحكام الشَّرعية الَّتي تؤخذ من الغزوة، ومكان نزول الرَّسول ﷺ بمكَّة ٤٢٥
تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة ٤٢٧

الفصل السَّادس عشر
غزوة حنين، والطَّائف (٨هـ)

المبحث الأوَّل: أسبابها، وأحداث المعركة ٤٢٨
أوَّلاً: أهمُّ أحداث غزوة حنين ٤٢٨
ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس، والطَّائف ٤٣٢
المبحث الثاني: فقه الرَّسول ﷺ في التَّعامل مع النُّفوس ٤٣٦

المبحث الثَّالث: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٤٤٤
أوَّلاً: تفسير الآيات الَّتي نزلت في غزوة حنين ٤٤٤
ثانياً: أسباب الهزيمة ، وعوامل النَّصر في حنين ٤٤٦
ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين ، والطَّائف ٤٤٧
رابعاً: مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيَّات ٤٥٠
خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشَّاعر ـ والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة ٤٥٢
سادساً: من نتائج غزوة حُنين ، والطَّائف ٤٥٤
المبحث الرَّابع: أهمُّ الأحداث ما بين حُنين ، وتبوك ٤٥٥
أوَّلاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات ٤٥٥
ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة ٤٥٦
ثالثاً: إسلام عديِّ بن حاتم ٤٥٧
رابعاً: أحداثٌ متفرقةٌ في سنة ثمانٍ ٤٥٩

الفصل السَّابع عشر
غزوة تبوك (٩هـ) وهي غزوة العُسْرة

المبحث الأوَّل: تاريخ الغزوة ، وأسماؤها ، وأسبابها ٤٦١
أوَّلاً: تاريخها ، وأسماؤها ٤٦١
ثانياً: أسبابها ٤٦٢
ثالثاً: الإنفاق في هذه الغزوة ، وحرص المؤمنين على الجهاد ٤٦٣
رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك ٤٦٦
خامساً: إعلان النَّفير ، وتعبئة الجيش ٤٦٩
المبحث الثَّاني: أحداثٌ في الطَّريق ، والوصول إلى تبوك ٤٧٣
أوَّلاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ ٤٧٣
ثانياً: قصَّة أبي خيثمة ٤٧٤
ثالثاً: الوصول إلى تبوك ٤٧٧
رابعاً: وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحِجر ثمود ٤٧٨
خامساً: وفاة الصَّحابيِّ عبد الله (ذو البجادين) رضي الله عنه ٤٧٩
سادساً: بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة ٤٨٠
سابعاً: حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين أثناء الغزوة ٤٨٣

المبحث الثَّالث: العودة من تبوك إلى المدينة، وحديث القرآن الكريم في المخلَّفين
عن الغزوة، وعن مسجد الضِّرار ٤٨٧
أوَّلاً: المخلَّفون الَّذين لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ، وعَذرهُمُ الله سبحانه وتعالى ٤٨٧
ثانياً: المخلَّفون الَّذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّة، وتاب الله عليهم ٤٨٨
ثالثاً: المخلَّفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة ٤٩٠
رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة ٤٩٠
خامساً: مسجد الضِّرار ٤٩٢
المبحث الرَّابع: قصَّة الثلاثة الَّذين خُلِّفُوا ٤٩٨
المبحث الخامس: دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد ٥٠٨
أوَّلاً: معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة تبوك ٥٠٨
ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة ٥٠٩
ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف ٥١٠
رابعاً: أهمُّ نتائج الغزوة ٥١١
المبحث السَّادس: أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحَجَّة الوداع ٥١٣
أوَّلاً: وفد ثقيف وإسلامُهم ٥١٣
ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبي بن سلول) ٥١٧
ثالثاً: تخيير النَّبيِّ ﷺ لزوجاته ٥١٩
رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس ٥٢٣
خامساً: عام الوفود (٩هـ) ٥٢٥
سادساً: بعوث رسول الله ﷺ لتعليم مبادئ الإسلام، وترتيب أمور الإدارة، والمال ٥٣٠
المبحث السَّابع: حجَّة الوداع (١٠هـ) ٥٣٥
أوَّلاً: كيف حجَّ النَّبيُّ ﷺ؟ ٥٣٥
ثانياً: الدُّروس، والعِبَر، والفوائد ٥٤١
المبحث الثامن: مرض رسول الله ﷺ ووفاتُه ٥٤٧
أوَّلاً: الآيات، والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته ﷺ ٥٤٧
ثانياً: مرض الرَّسول ﷺ، بدء الشكوى ٥٥٠
ثالثاً: مِنْ وصايا رسول الله ﷺ في أيَّامه الأخيرة ٥٥٢
رابعاً: أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين ٥٥٣
خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ ٥٥٤

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول ﷺ ٥٦٠
الخاتمة **٥٦٣**
المصادر والمراجع **٥٦٥**
فهرس الموضوعات **٥٨٩**

* * *

كتب صدرت للمؤلف

كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القران الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.
٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القران في العقائد.
٢٨. فتنة مقتل عثمان.
٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.
٣٠. دولة المرابطين.
٣١. دولة الموحدين.
٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
٣٣. الدولة الفاطمية.
٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.
٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
٤١. الشورى في الإسلام.
٤٢. الإيمان بالله جل جلاله.
٤٣. الإيمان باليوم الآخر.

٤٤. الإيمان بالقدر.
٤٥. الإيمان بالرسل والرسالات.
٤٦. الإيمان بالملائكة.
٤٧. الإيمان بالقران والكتب السماوية.
٤٨. السلطان محمد الفاتح.
٤٩. المعجزة الخالدة.
٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.
٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.
٥٣. الشورى فريضة إسلامية.
٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
٥٧. العدل في التصور الإسلامي.
٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.
٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.
٦١. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.
٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
٦٣. أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».
٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة
٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر
٦٦. الإباضية؛ مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
٦٧. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ -الحقيقة الكاملة-.
٦٨. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.
٦٩. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
٧٠. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».
٧١. العالم الكبير وناصر الحديث الإمام محمد بن إدريس الشافعي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ).
٧٢. مدرسة الأشاعرة وسيرة الإمام أبو الحسن الأشعري
٧٣. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر.
٧٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.
٧٥. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.
٧٦. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.
٧٧. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
٧٨. لا إله إلا الله؛ أدلة وجود الله وأول المخلوقات.

د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

• السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

• سير الخلفاء الراشدين.

• الدولة الحديثة المسلمة.

• الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

• فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

• وسطية القرآن الكريم في العقائد.

• صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

• تاريخ كفاح الشعب الجزائري.

• العدالة والمصالحة الوطنية.

• الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

• المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحقيقة الكاملة.

• قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

• نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

• إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

• موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الشكل (١)

خريطة السرايا والغزوات بين بدر وأحد

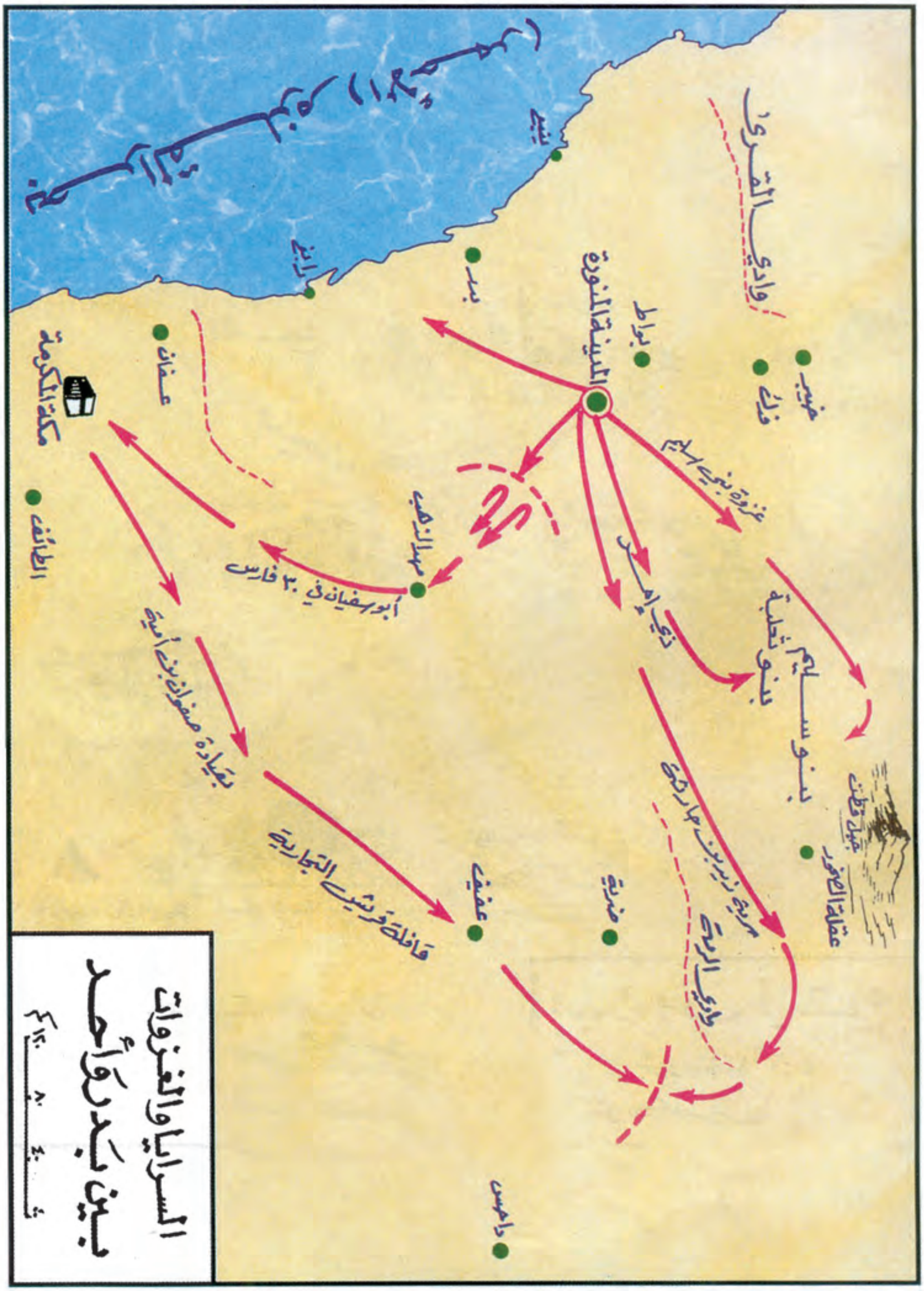

الشكل (٢)

خريطة إجلاء بني قينقاع شوال سنة ٢ للهجرة

الشكل (٣)

خريطة غزوة أحد ١٥ شوال ٣ هجرية

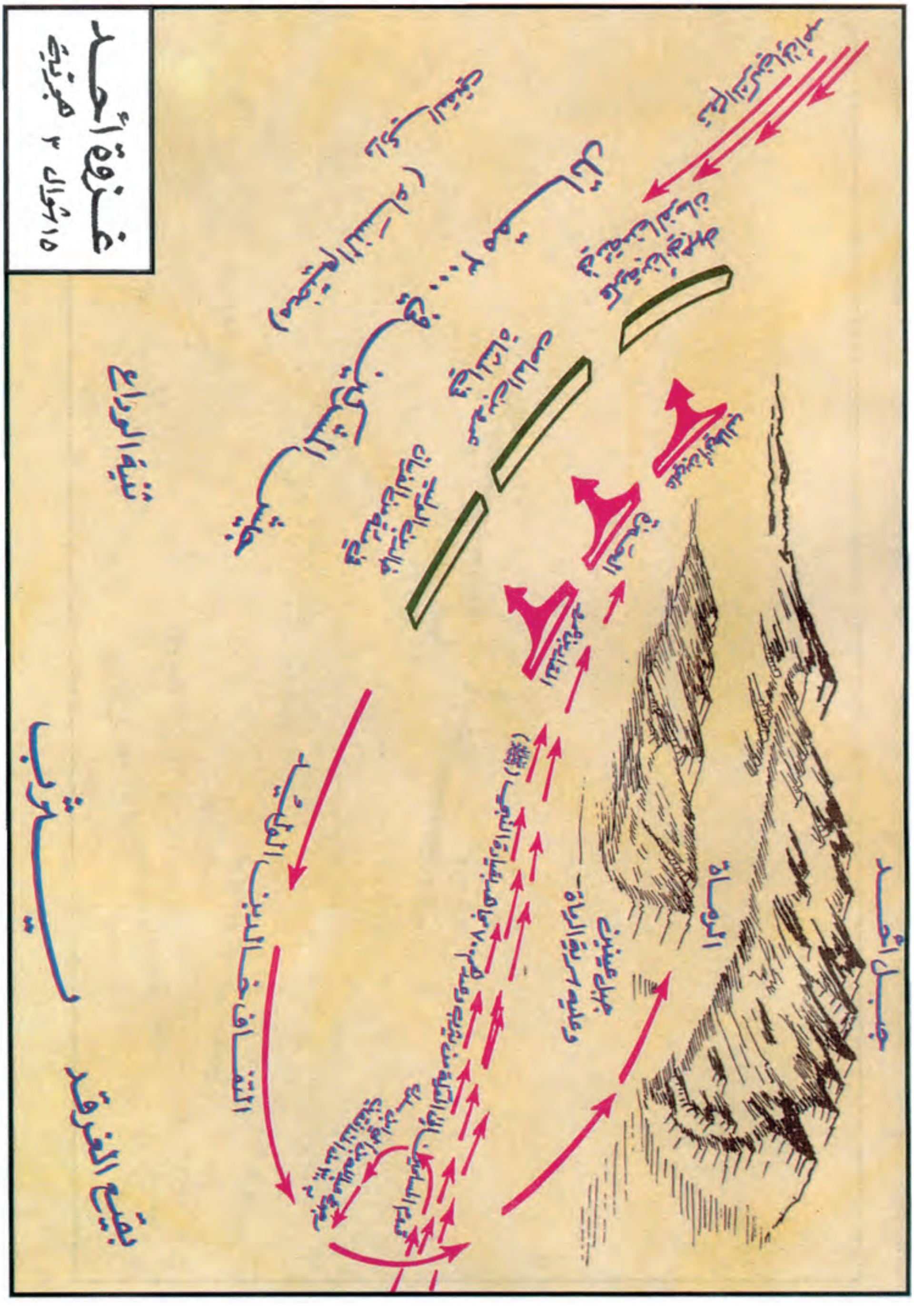

الشكل (٤)

رسم ساحة القتال في غزوة أحد

الشكل (٥)

خريطة يوم الرجيع

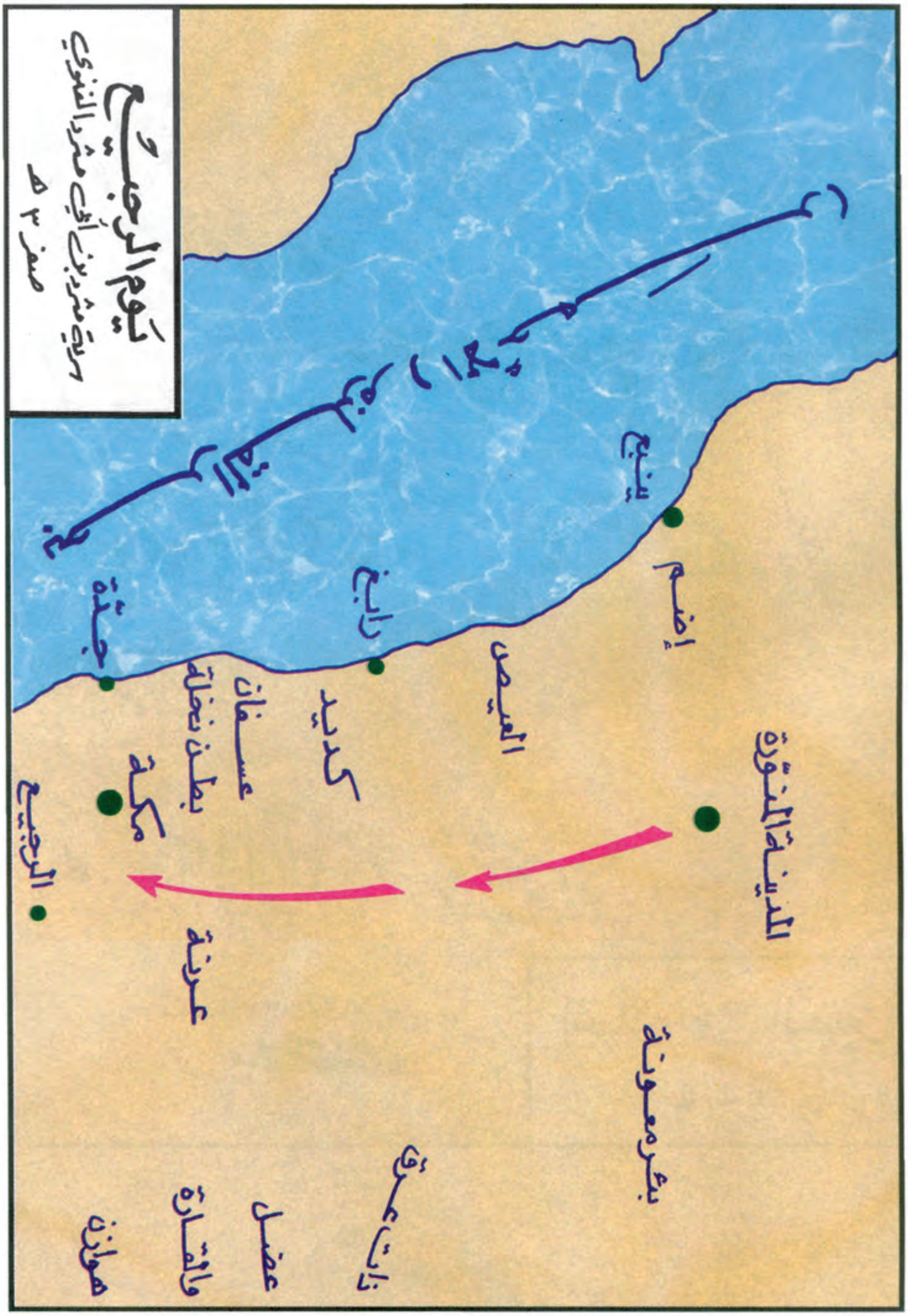

الشكل (٦)

خريطة إجلاء بني النضير ربيع الأول سنة ٤ هجرية

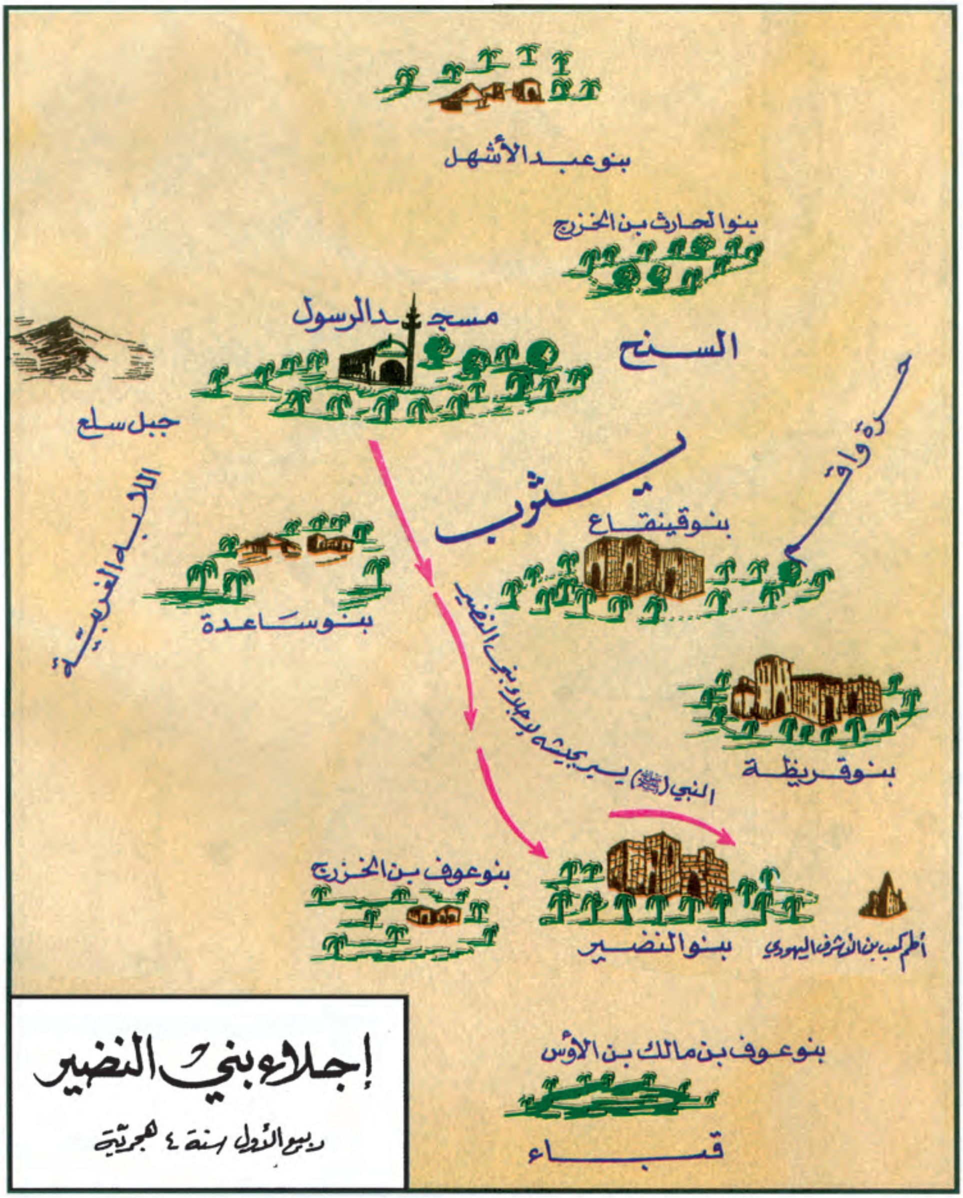

الشكل (٧)

خريطة إجلاء بني قريظة سنة ٥ هجرية

الشكل (٨)

خريطة السرايا والغزوات بين أحد والخندق

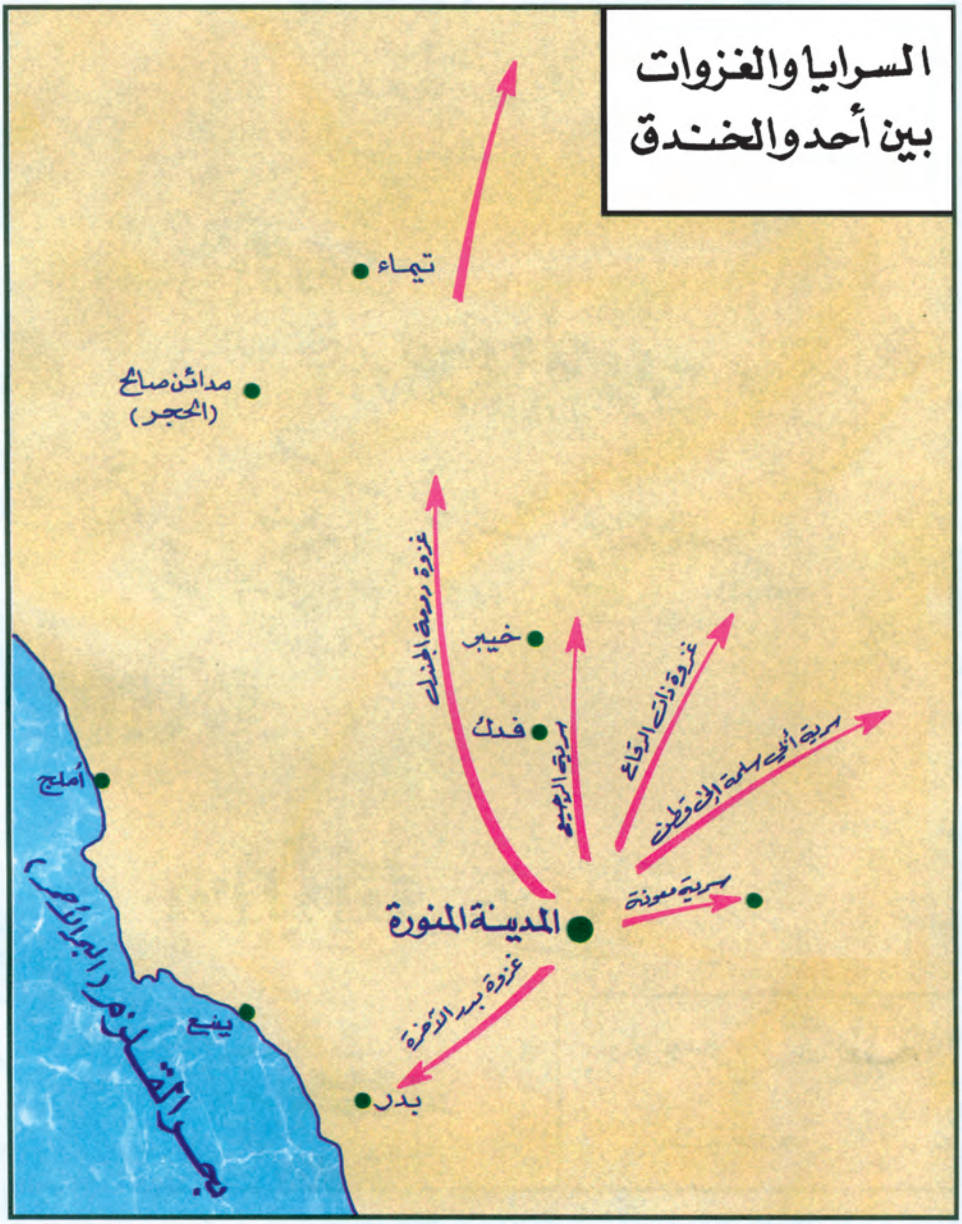

الشكل (٩)

غزوة بني المصطلق شعبان ٥ هجرية

الشكل (١٠)

خريطة غزوة الخندق شوال ٥ هـ

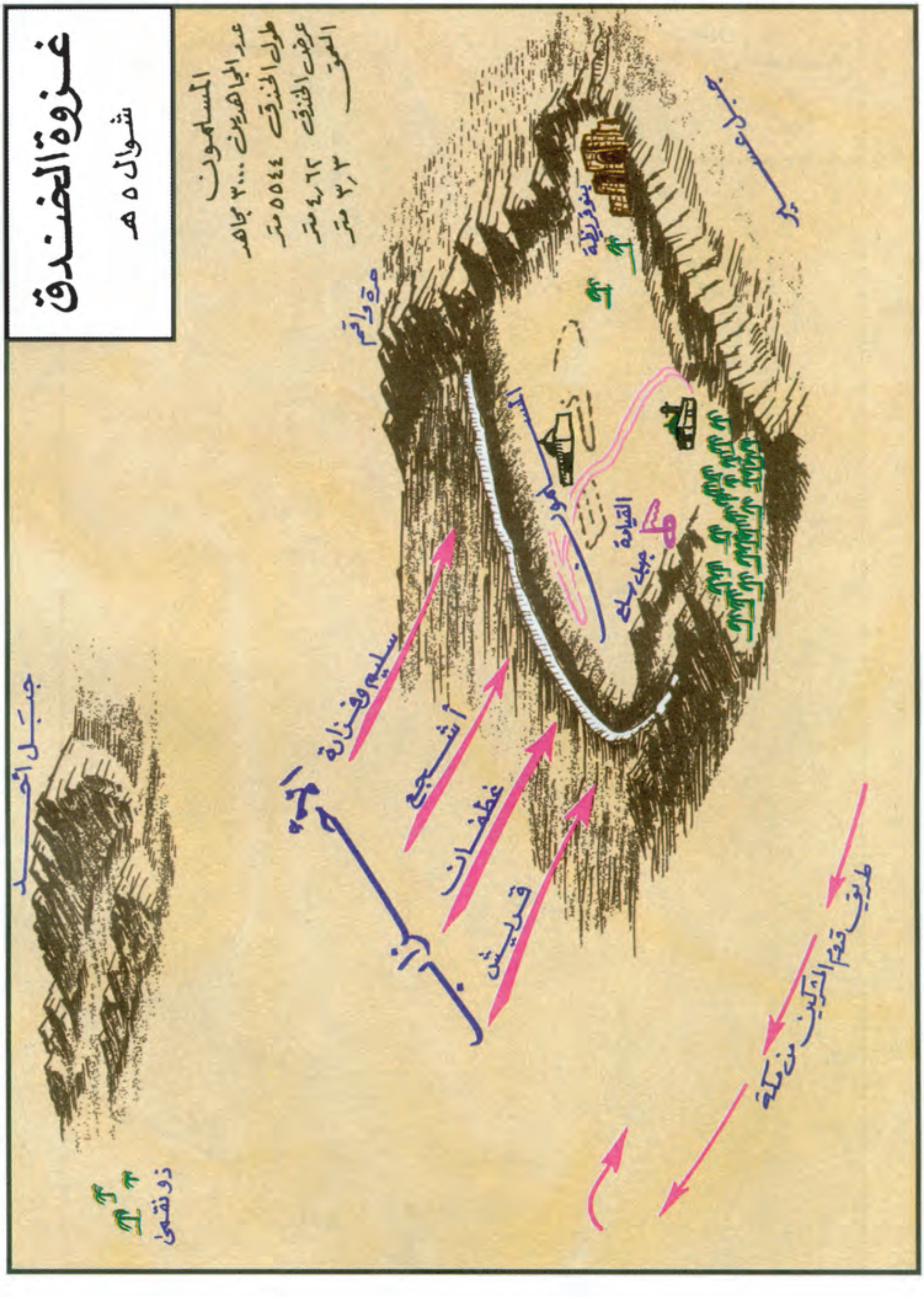

الشكل (١١)

خريطة غزوة الحديبية ذي القعدة ٦ هجرية

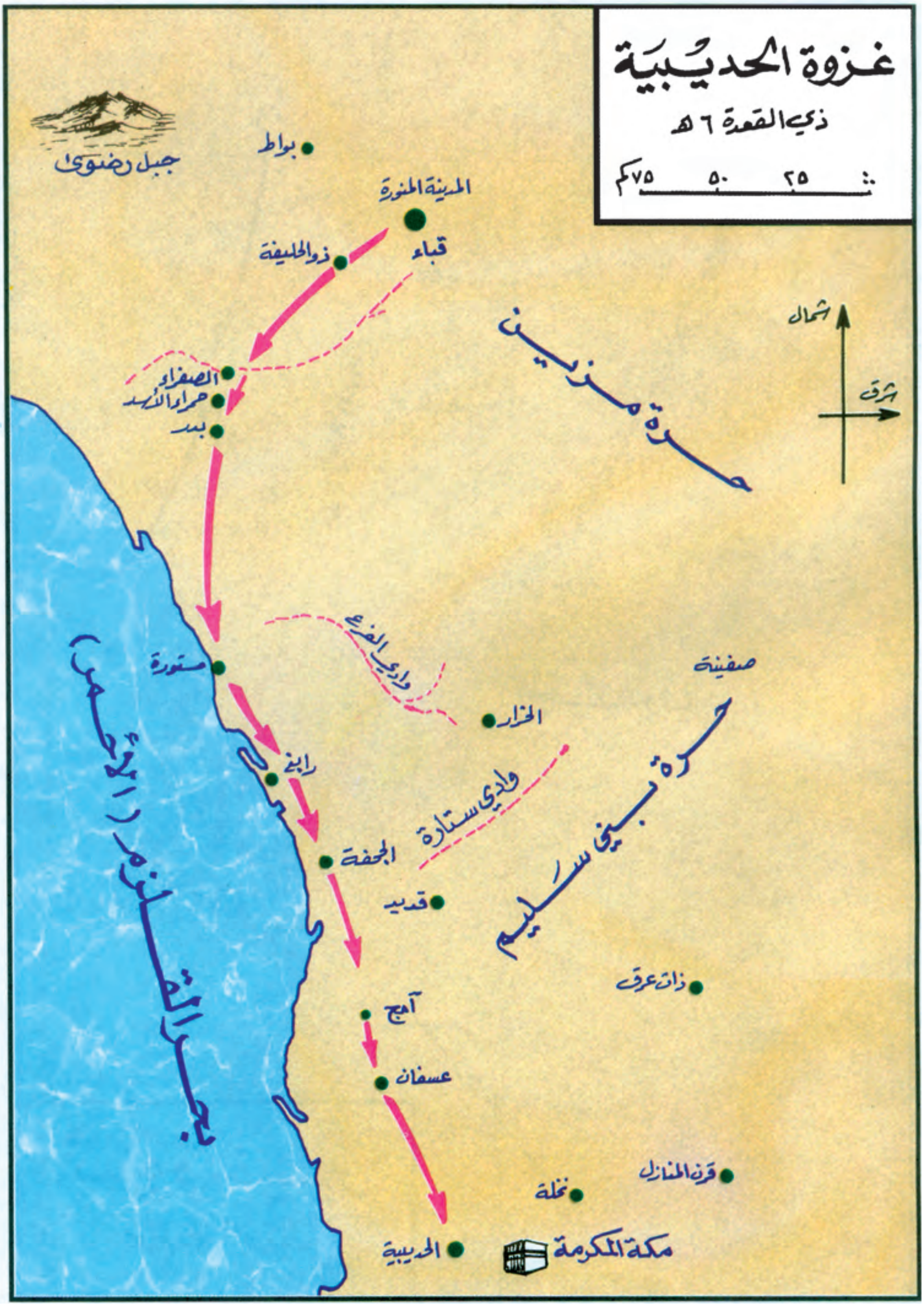

الشكل (١٢)

خريطة غزوة خيبر محرم ٧ هجرية

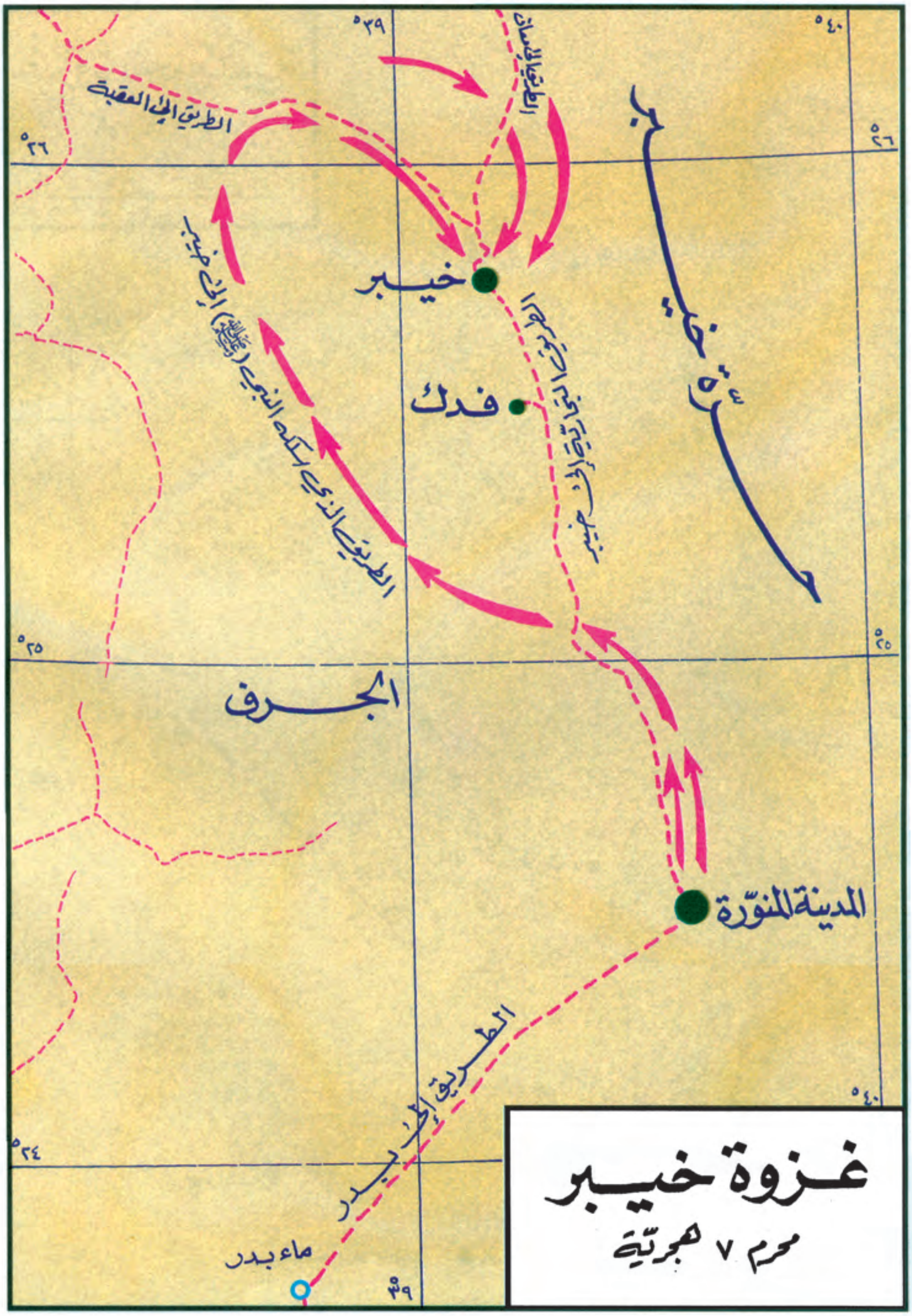

الشكل (١٣)

خريطة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك

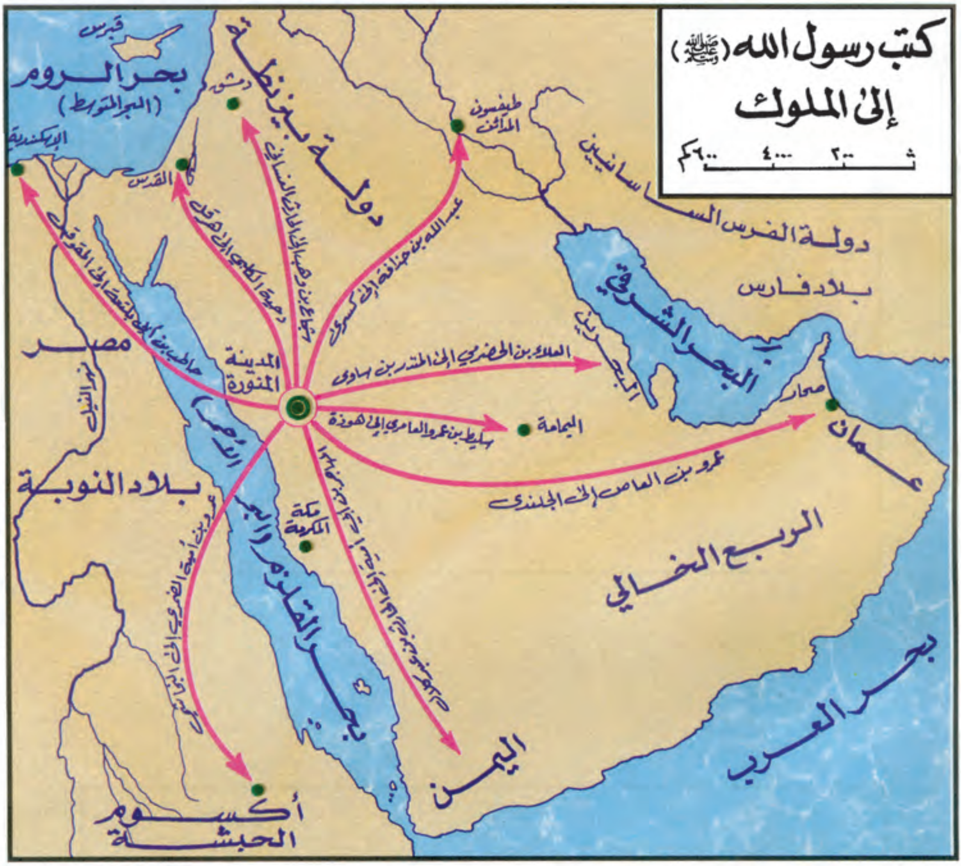

الشكل (١٤)

كتاب النبي ﷺ إلى هرقل

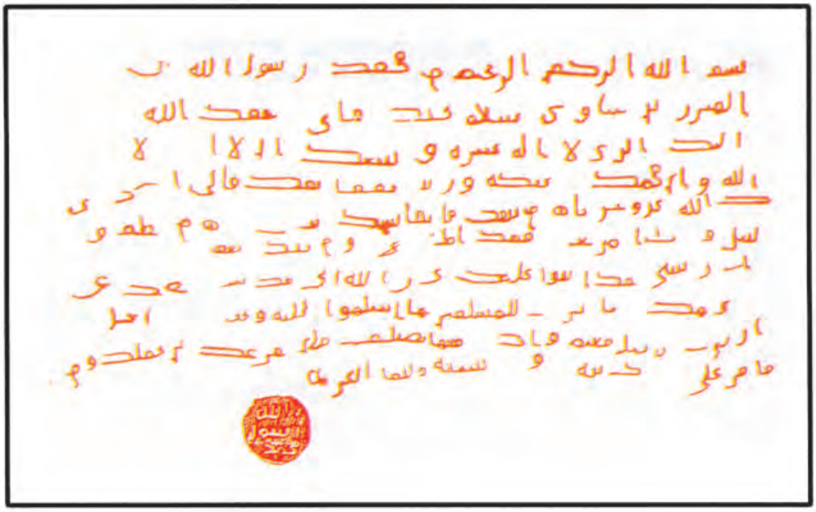

كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى

الشكل (١٥)

خريطة عمرة القضاء ٧ هجرية

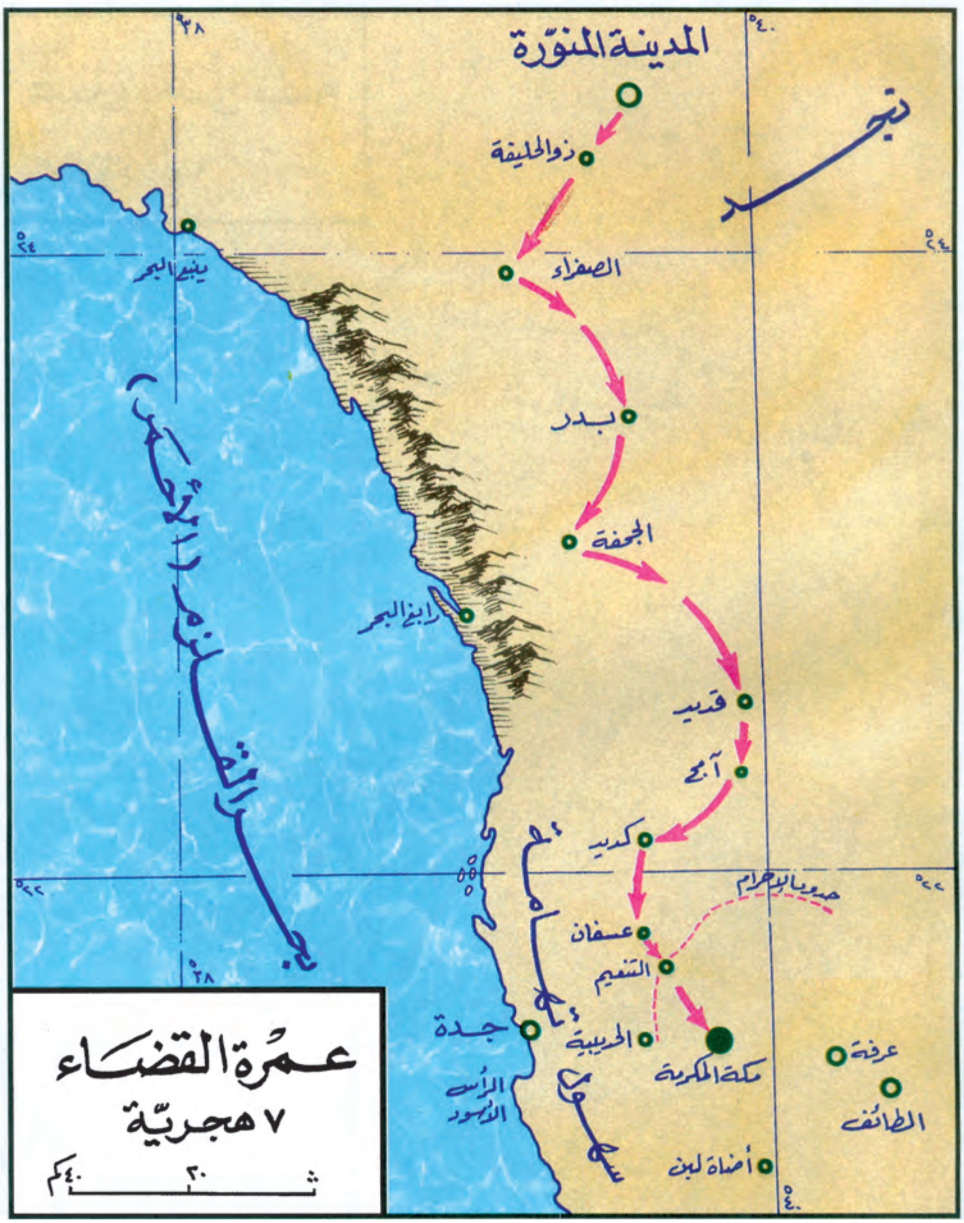

الشكل (١٦)

خريطة غزوة مؤتة جمادى الأولى ٨ هجرية

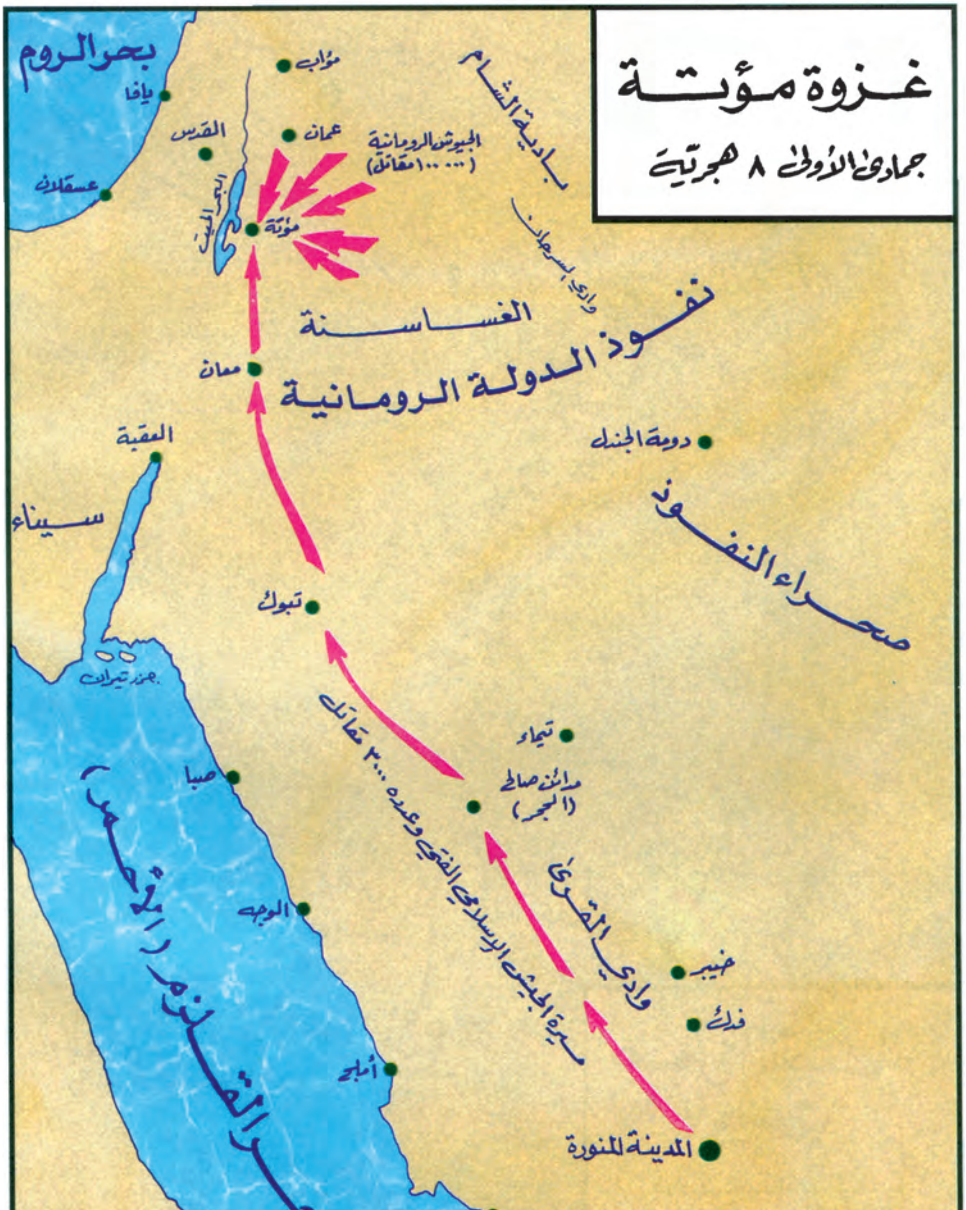

الشكل (١٧)

خريطة فتح مكة المكرمة رمضان ٨ هجرية

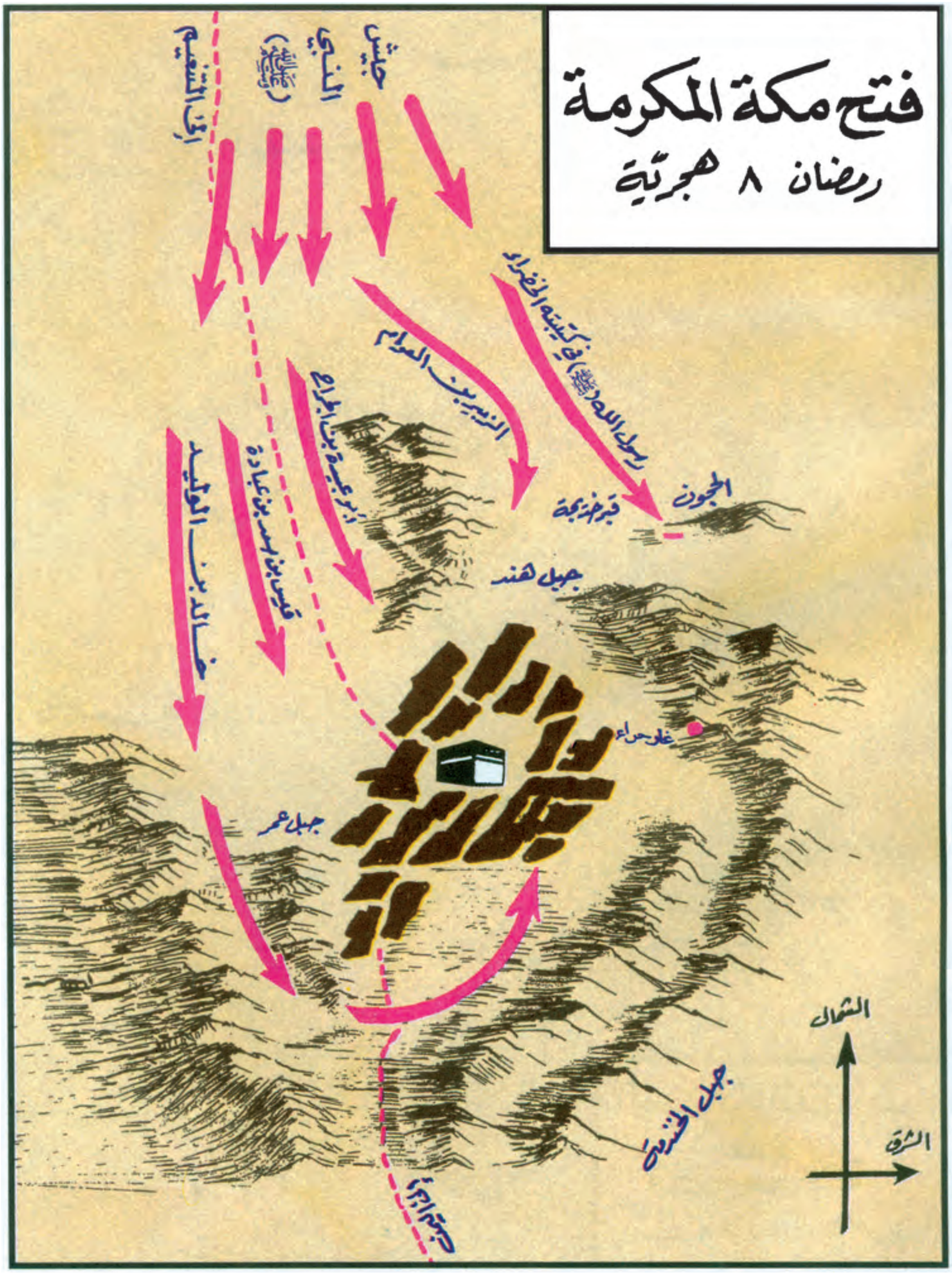

الشكل (١٨)

خريطة السرايا والغزوات بعد فتح مكة رمضان ٨هـ ربيع الآخر ٩هجرية

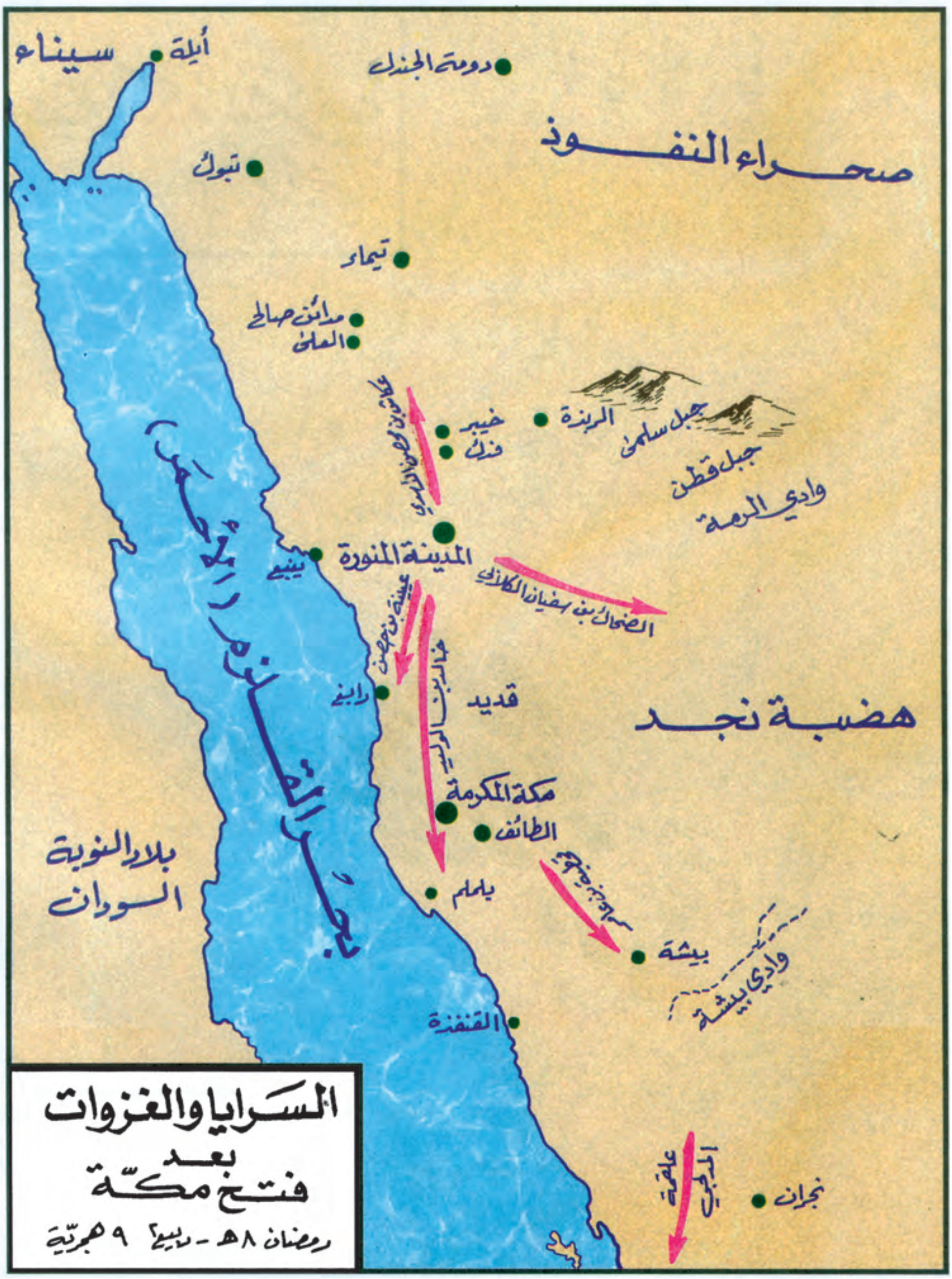

الشكل (١٩)

خريطة غزوة حنين شوال ٨ هجرية

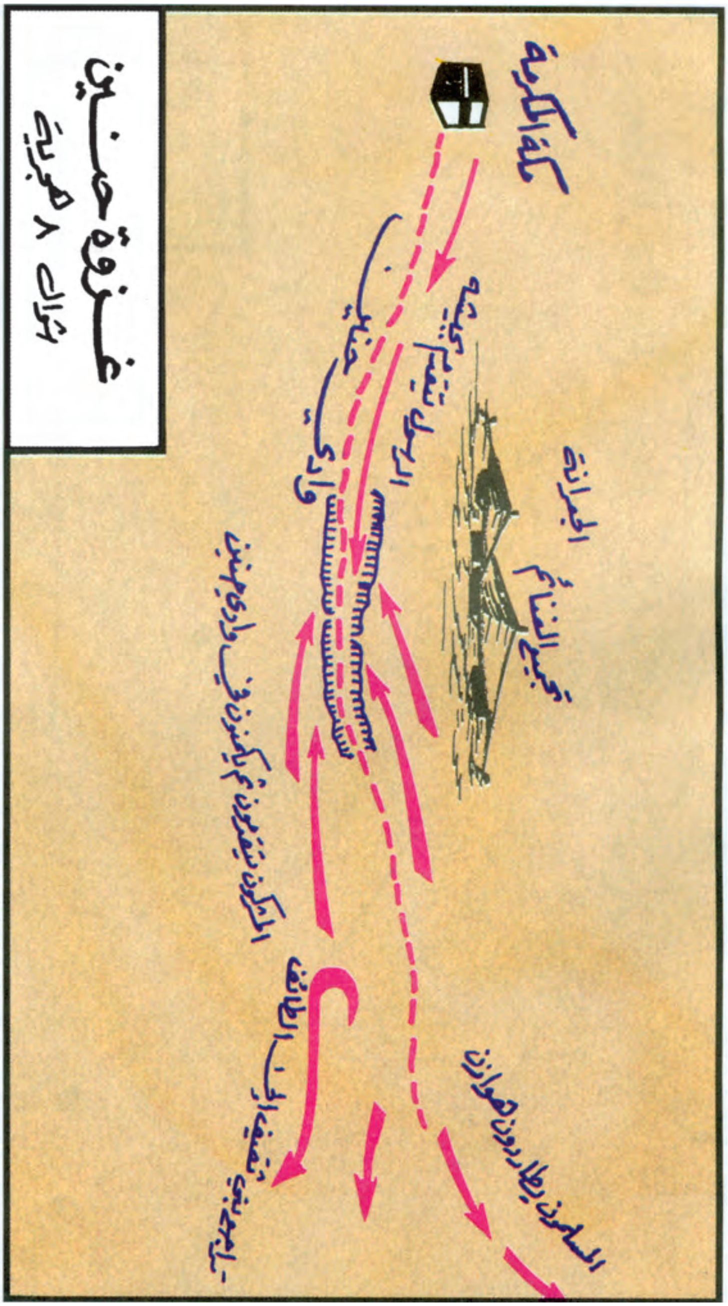

الشكل (٢٠)

خريطة غزوة العسرة رجب ٩ هجرية

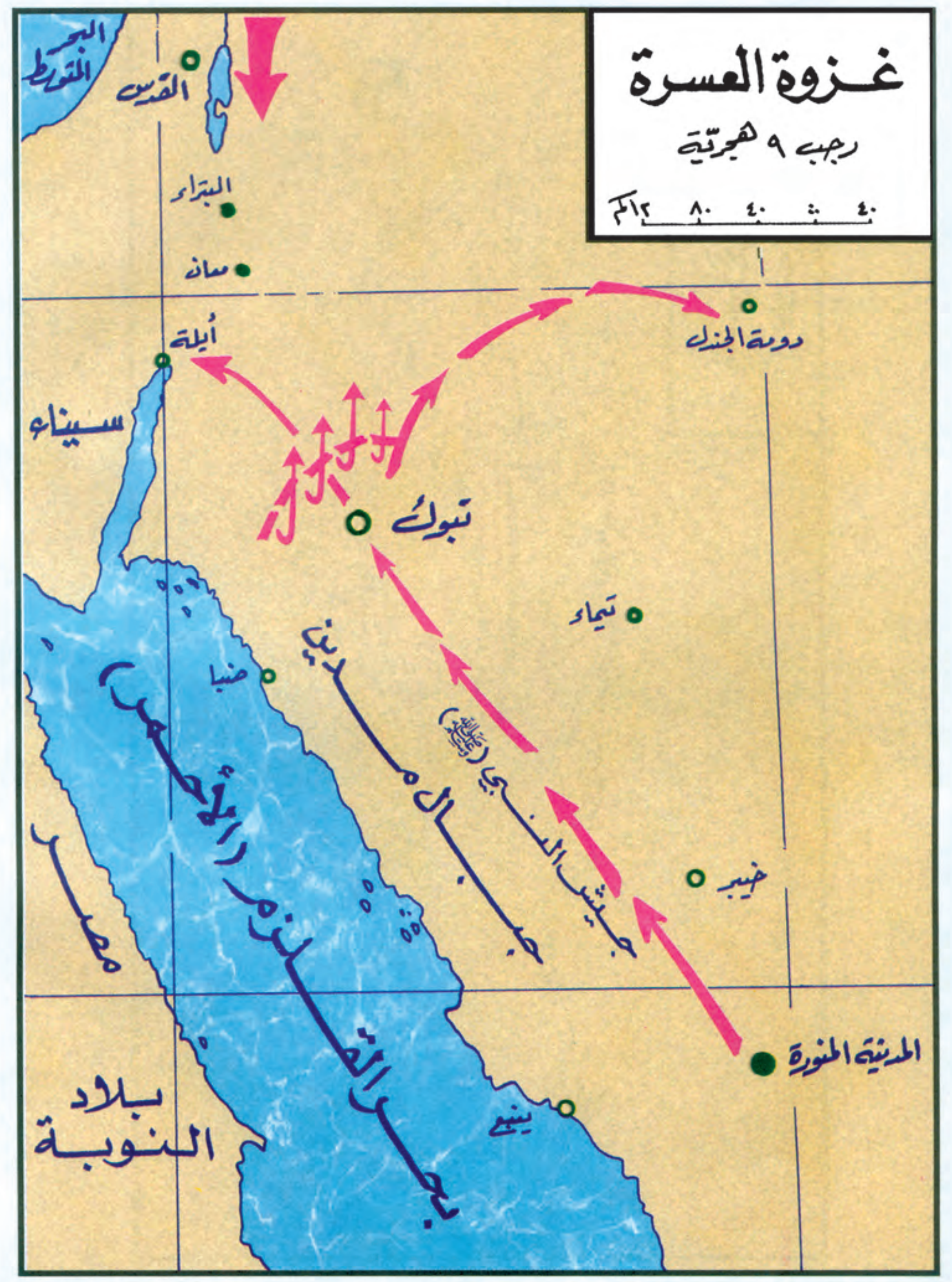

الشكل (٢١)

خريطة السرايا والغزوات بعد فتح مكة رجب ٩هـ ـ صفر ١١هـ

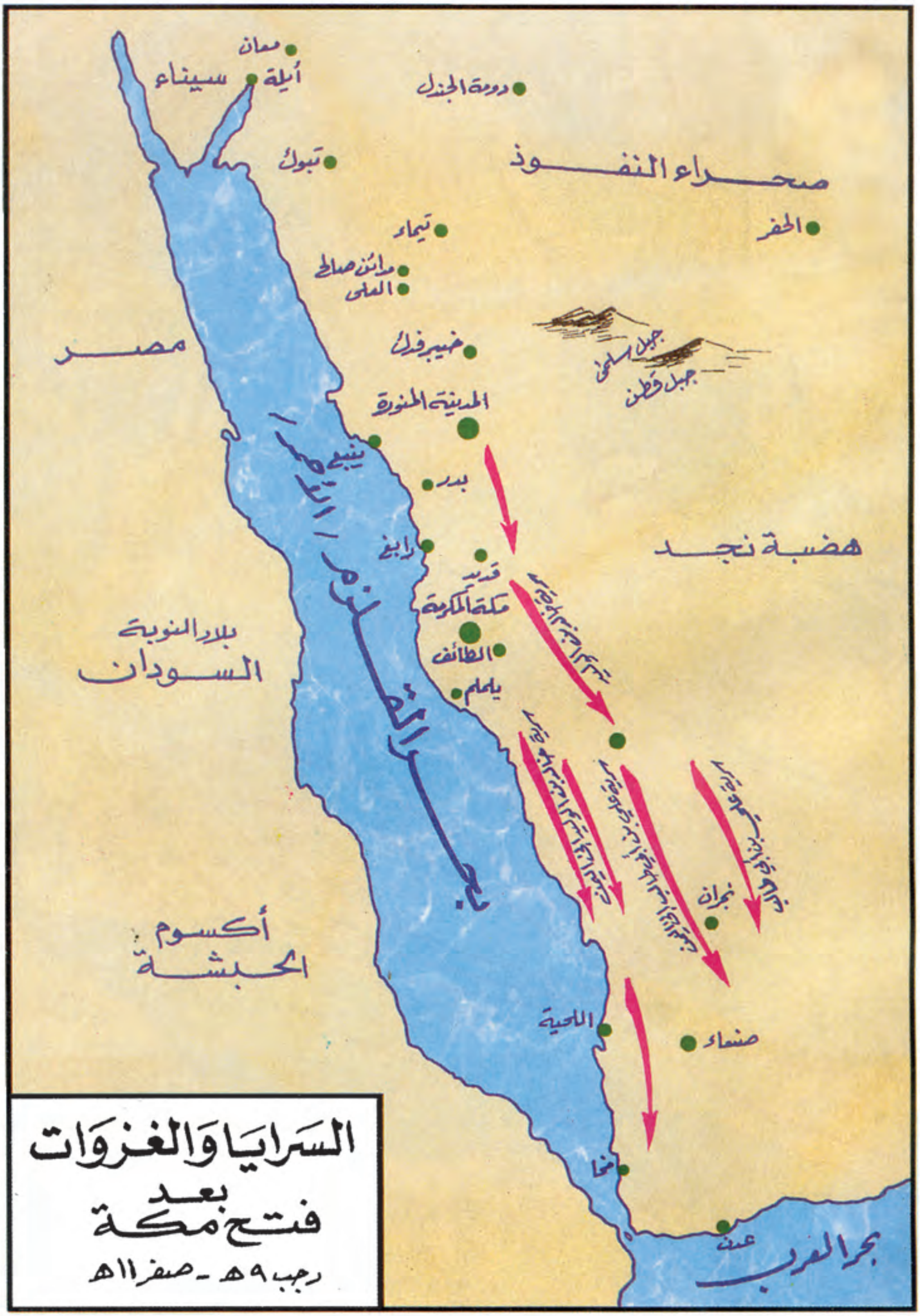

الشكل (٢٢)

خريطة عام الوفود

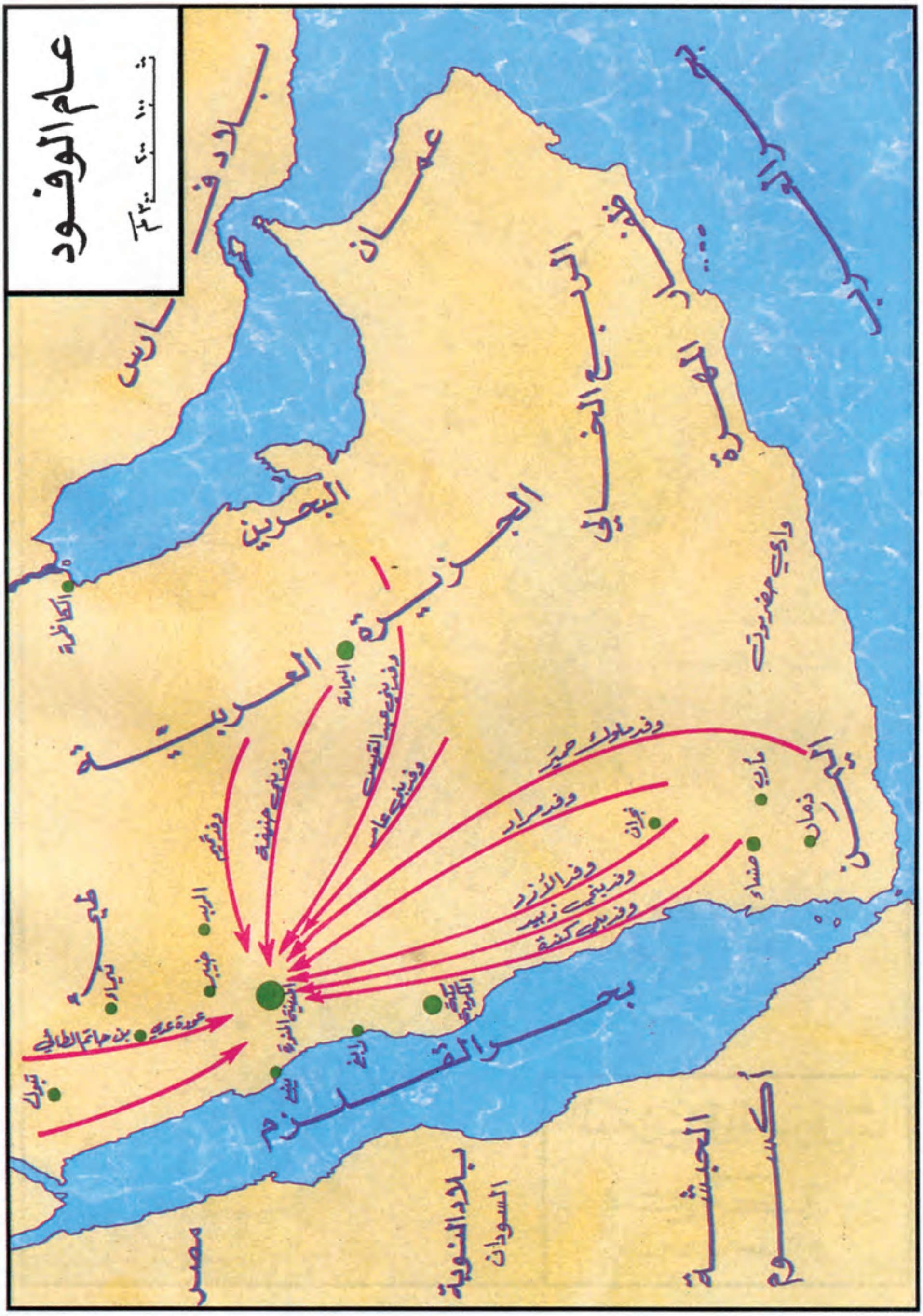

الشكل (٢٣)

خريطة حجة الوداع والطريق الذي سلكه النبيُّ ﷺ

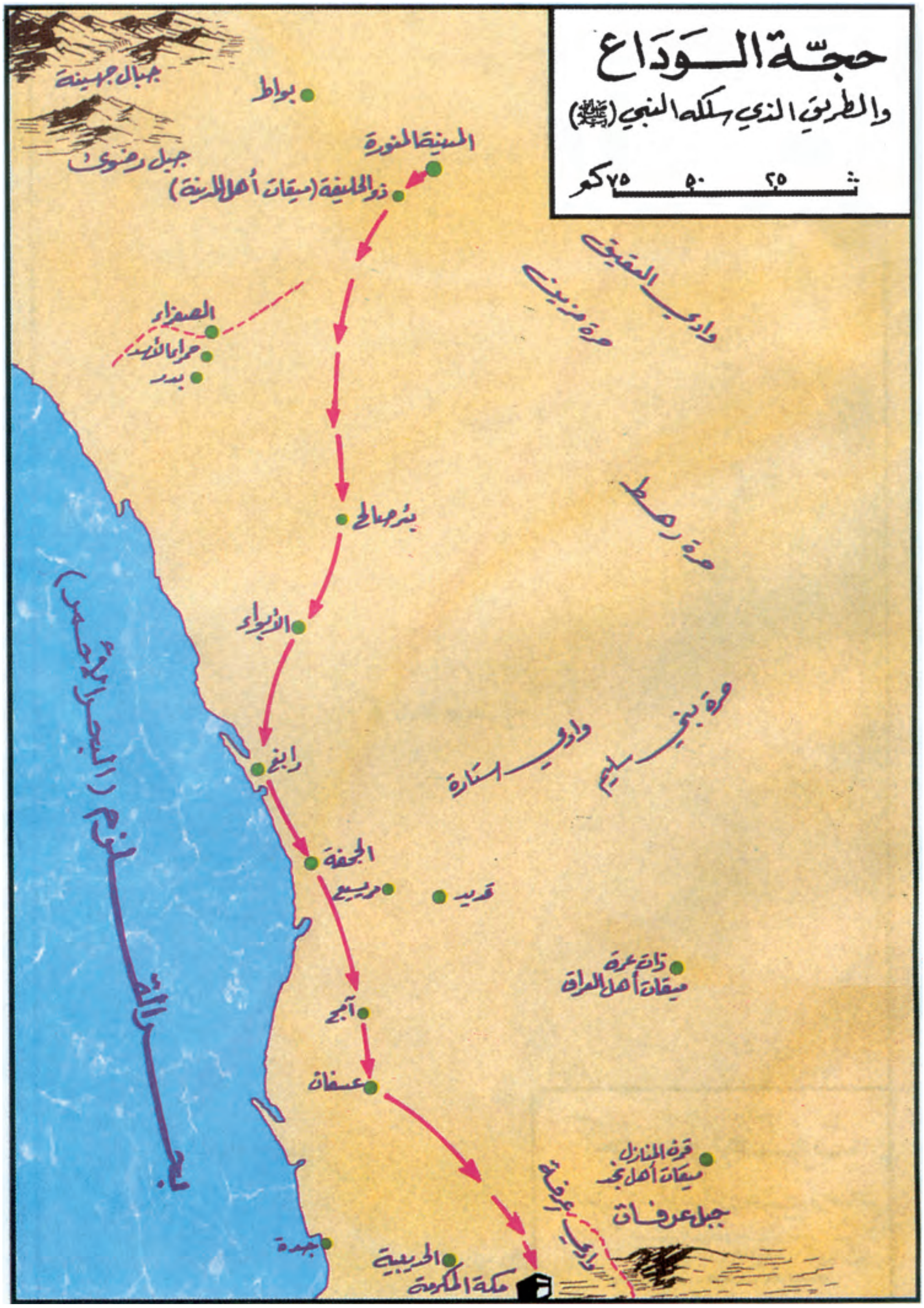

الشكل (٢٤)

خريطة آخر بعوث النبي ﷺ جيش أسامة بن زيد

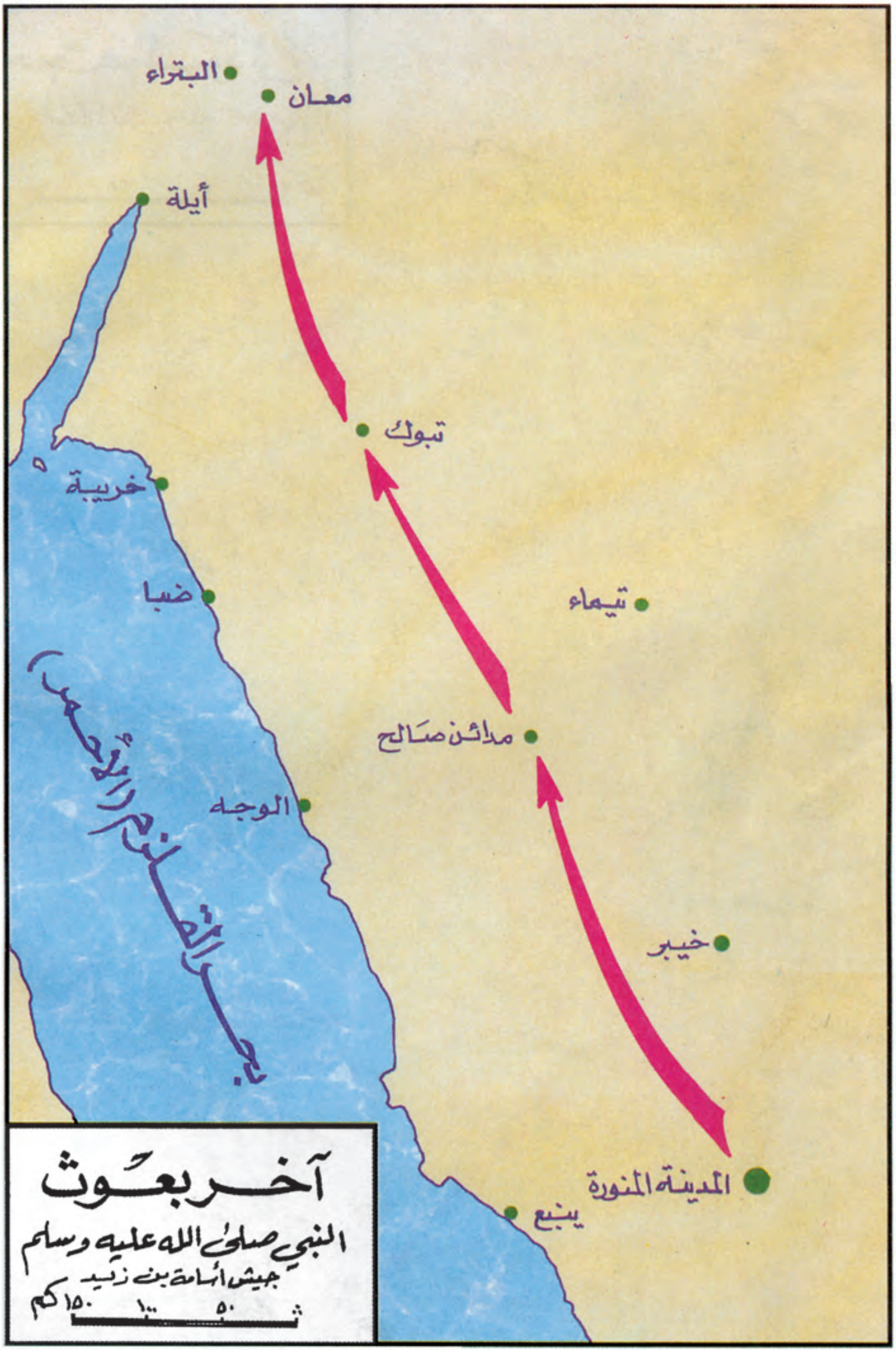

السِّيرة النبويّة

عَرْضُ وَقَائِعٍ وَتَحْلِيلُ أَحْدَاثٍ - دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

عَرْضٌ مُفَصَّل لحياة رسول الله ﷺ، وتَقَصّ لأحداث السِّيرة النبوية، في المرحلة المكيّة والمدنيّة، مع استخراج الدروس والعِبَر والفوائد من كلّ حادثة وواقعة، ليفيد منها المسلم في عالمنا المعاصر.

كما يقف القارئ على فقه النبي ﷺ في سياسة المجتمع، ومعاهدته مع أهل الكتاب، وحركته الجهادية، ومعالجته الاقتصادية، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدين الحنيف.

كما يجد القارئ تسليط الأضواء على البعد القرآني، الذي له علاقة بالسِّيرة النبوية، والغزوات، وسُنَّة الله في النصر والهزيمة؛ وأمراض النفوس من خلال الأحداث والوقائع.

وزُوِّد الكتاب بخرائط لأهم الأماكن والغزوات والمواقع عبر السِّيرة النبوية، بما يفيد ويُغني عن كثير من الموسوعات.

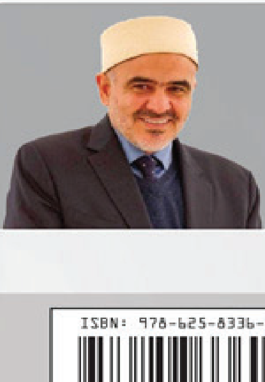

dr.sallabi
dr.ali_alsallabi
alsallabi
alsallabicom
alsallabi1
www.alsallabi.com

ISBN: 978-625-8336-03-0
9 786258 336030

asaletyayinlari.com.tr
asaletyayinlari

دار الأصالة